
آفاق المعرفة "٣"
• الشيئية في الشعر العربي
• الأدب التركي
• حرية الإنسان في الميزان
• الإبستمولوجيا الوضعية
المجلد الثالث عشر • العدد الأول • ابريل - مايو - يونيو ١٩٨٢
١



عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت ❋ ابريل - مايو - يونيو ١٩٨٢
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت: ص . ب ١٩٣

المحتويات

آفاق المعرفة (٣)

●●●

دراسات أدبية

●●●

فلسفة واجتماع

●●●

علــــوم

●●●

صدر حديثا

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

تمهيد

جانب كبير من جهود علماء الانثربولوجيا الفيزيقية وأبحاثهم وكتاباتهم يدور حول أصل الانسان وتطوره ، والمراحل المختلفة التي مر بها ، والعلاقة بينه وبين الرئيسات الأخرى ، وبخاصة القردة العليا ، والخصائص التي تميزه عنها . ولهؤلاء العلماء ولع شديد باطلاق (تسميات) جديدة يصفون بها « إنسان » كل مرحلة من تلك المراحل ، بحيث تلخص التسمية أهم ملامح ذلك « الانسان » ومقوماته . ومعظم هذه التسميات مستمد من الخصائص الفيزيقية والملامح الجسمية كما هو الشأن مثلا بالنسبة للانسان المنتصب القامة Homo erectus الذي يمثل - في رأي العلماء التطوريين - مرحلة الانتقال من القرديات Pognoids الى الأدميات Homonoids ولكن بعضها يشير الى الموقع الذي وجدت فيه أولى الحفريات التي تدل على وجود ذلك (الانسان) كما هو الحال بالنسبة لانسان جنوب افريقيا القرد Australapithecus الذي يذكر خطأ في كثير من الكتابات العربية تحت اسم (انسان استراليا) بينما يشير البعض الآخر الى إحدى المهارات او الملكات او القدرات التي يتمتع بها ذلك (الانسان) كما هو الأمر بالنسبة للانسان الصانع Homo Faber أو الانسان الماهر Homo habilis أو الانسان الحكيم العاقل Homo sapiens الذي ننتمي نحن اليه . وتتفاوت هذه الصفات والخصائص من حيث اهميتها في الدلالة على تميز الجنس البشري

آفاق المعرفة (٣)

بوجه عام على بقية الرئيسات . ولكن الذي لا شك فيه هو أن الخصائص والقدرات والمهارات العقلية تعتبر المحل الرئيسي الذي يفصل الانسان عن بقية الكائنات . فالقردة العليا تستخدم فروع الأشجار في إسقاط ثمار جوز الهند من فوق الشجر ، كما تستخدم قطع الصخور والأحجار في كسر غلاف تلك الثمار ، ولكن الانسان وحده هو الذي يستطيع (صنع) العصي من تلك الفروع او (صنع) المكاشط والسكاكين وغيرها من تلك الصخور عن طريق الشحذ او الشطف او التشظية ، وهكذا . ومع ذلك فان أهم مايميز (الانسان) في كل العصور وفي مختلف مراحل تطوره هو « النطق » الذي يتمثل في التفكير المجرد ، واللغة التي تعبر عن ذلك التفكير في شكل كلمات والفاظ وجمل لها معان دقيقة ، وهي بذلك تختلف كل الاختلاف عن الأصوات التي تصدر عن الكائنات الأخرى .

والنطق وامتلاك اللغة والقدرة على التفكيرالمجرد وعلى نقل هذه الأفكار للآخرين دفعت الكثير من الانثربولوجيين الى تعريف الانسان ـ في كل زمان ومكان ـ بأنه الحيوان « الباحث عن المعرفة » والى الحديث عن « الانسان طالب العلم » بالمعنى الواسع لكلمة العلم . والظاهر ان رغبة الانسان في التعرف على كل ما يتصل بذاته وبالعالم الخارجي الذي يعيش فيه والاحاطة الشاملة بكل ما يدور حوله كان دائما مطلبا من أهم المطالب التي يحاول تحقيقها بشتى الوسائل والطرق . ولقد كان للانسان البدائي وسائله البدائية في ذلك ، وتطورت هذه الوسائل والأساليب ، وتقدمت وتشعبت بتطور المجتمع الانساني وتقدمه ، كما اتسعت مجالات المعرفة وتعقدت نتيجة لتراكم الخبرات الانسانية وارتياد الفكر لمجالات جديدة وتقدم اساليب البحث والدراسة وتنوعها ، وازدياد الامكانات المتاحة للاتصال والتواصل وتبادل المعلومات والمعارف . ولكن التقدم العلمي الذي فاق في العصر الحديث كل الحدود التي كان يتصورها الانسان منذ عهد غير بعيد أدى بالضرورة الى التخصص الدقيق وانحصار الفرد في مجال ضيق لا يكاد يفلت منه . وأصبحت المشكلة الصعبة التي يتعين حلها في مجال المعرفة الآن هو كيف يوفق المرء بين متطلبات التخصص الضيق العميق ومتطلبات العقل الذي يتطلع الى ارتياد آفاق المعرفة المختلفة المتعددة والمتباينة .

ويمكن اعتبار الموسوعات أو دوائر المعارف الكبرى احدى الحلول لمواجهة هذه المشكلة . والكلمة الأجنبية « انسيكلوبيديا » التي نترجمها بدائرة معارف مشتقة من أصل يوناني يعني الشمول والكلية ، وإن كان من الصعب أن تحيط أي موسوعة أو أي دائرة من دوائر المعارف ـ مهما بلغ حجمها ـ بكل فروع وتفاصيل المعارف المتاحة للناس وقت تأليف تلك الموسوعة . ولكن المهم هو الفكرة وراء إصدار هذه الموسوعات العامة أو دوائر المعارف .

وليست الموسوعات الجامعة الشاملة لمختلف فروع المعرفة اختراعا حديثا تماما . فقد عرفت المصنفات العامة منذ ما يزيد على ألف سنة في كثير من أنحاء العالم ، ولم يخل عالمنا العربي من وجود

مثل هذه المصنفات منذ زمن بعيد . وتسجل هذه المصنفات في الأغلب الأحداث الكبرى التي كان لها تأثير واضح في حياة الناس والمجتمع . أو تترجم لمشاهير الأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين ، كما قد تضم قدرا كبيرا من المعلومات عن كثير من أمور الحياة ونظم المجتمع والحياة العقلية والفكرية والعلمية ، وتقدم هذا كله في اسلوب لا يخلو من رشاقة وتشويق ، وتنتقل بالقارىء من موضوع لآخر في سهولة ويسر في كثير من الأحيان . وكتب « المعاجم » و « الطبقات » في التراث العربي مثال طيب لهذا النوع من المصنفات .

ولقد ذاع استعمال كلمة « انسيكلوبيديا » منذ قام دينيس ديدرو Denis Diderot بتأليف موسوعته الفرنسية المشهورة L'Encyclopedie عام ١٧٥٠ . والذي يفهمه معظم الناس الآن من الكلمة هو أن الانسكلوبيديا مصنف ضخم يتكون من عدة مجلدات تضم كل ألوان المعرفة التي وصل اليها علم الانسان ، وتعرضها في غير قليل من الاسهاب والتفصيل مما يميزها عن « القاموس » الذي لا يذكر سوى المعلومات الأساسية التي تكفي للتعريف بالكلمة . ومع ذلك فلازلنا نجد بعض الموسوعات يطلق عليها اسم « قاموس Dictionary وإن لم تكن هناك قواميس تحمل اسم انسكلوبيديا » او دائرة معارف مهما كان حظ هذه القواميس من الدقة والاحاطة ، والى جانب المعلومات الدقيقة التفصيلية التي تذكرها الانسيكلوبيديا عن الموضوعات او « المواد » التي تعالجها فانها تحرص على ان تورد كل ما قد يحتاج اليه الأمر من ملاحق وجداول وصور وأشكال ورسوم وخرائط ، وترتب كل هذه المواد ترتيبا أبجديا دون اعتبار للتسلسل التاريخي للمواد او العلاقة المنطقية بينها . ولكن الأمر لم يكن على هذه الصورة دائما . فالترتيب الأبجدي لمواد الموسوعة لا يرجع في أغلب الظن الى أبعد من بضع مئات من السنين ، بينما كانت معظم الموسوعات القديمة ترتب ترتيبا منهجيا موضوعيا حسب نظام تصنيفي للمعارف والعلوم المختلفة . ولم يكن ثمة على أية حال في أي وقت من الأوقات اتفاق عام على الطريقة التي ينبغي أن ترتب بمقتضاها محتويات الموسوعة وموادها . وكما تذكر « دائرة المعارف البريطانية » Encyclopaedia Britannica في صفحة ٧٨٠ من المجلد السادس فان الاتجاه الذي كان سائدا في ترتيب مواد الموسوعات في العصور الرومانية مثلا كان اتجاها عمليا يعطي الأولوية والأسبقية للموضوعات المتعلقة بالحياة اليومية كالفلك والجغرافيا وما اليها ، بينما تأتي الفنون الجميلة في نهاية الترتيب ، وذلك بعكس الحال في المصنفات الموسوعية التي تركها العرب والمسلمون والتي كانت تبدأ في الاغلب بالموضوعات ذات الطابع العام ، أو الموضوعات الاكثر تجريدا ، مثل السلطة والحكم وشئون الحرب ، وتنتهي بذكر الموضوعات المتعلقة بالحياة الحسية كالطعام وشئون الجنس والنساء وما الى ذلك ، مثلما فعل ابن قتيبة ، أو قد تبدأ بالفقه والفلسفة وما اليها ، ثم تنتقل الى الموضوعات العلمية كالطب والهندسة والميكانيكا ، مثلما فعل الخوارزمي .

وربما كان أول من حسم الأمر فيما يتعلق بترتيب المواد في الموسوعات في الغرب هو فرنسيس بيكون

الذي حاول في عام ١٦٢٠ في عمله الضخم الذي لم يكتمل على اية حل ، وهو كتابه الموسوعي Instauratio Magna أن يضع خطة عامة لتنظيم العلوم ، وهي خطة لا تزال تراعى بشكل أو بآخر حتى الآن في معظم الموسوعات ودوائر المعارف الكبرى . وقد ميز بيكون في ذلك العمل بين ثلاثة أقسام كبرى ، يدخل في القسم الاول منها ما يسميه بالطبيعة الخارجية التي تضم موضوعات وعلوما ، مثل الفلك والجغرافيا وعلم الأجواء أو المعادن والنباتات والحيوانات وما اليها من الموضوعات التي يدخلها الانثربولوجيين المعاصرون تحت اسم « الايكولوجيا » بينما خصص القسم الثاني للانسان ويعرض فيه الموضوعات مثل التشريح والفسيولوجيا وتركيب الانسان وقواه وملكاته وأفعاله ، ثم خصص القسم الثالث والأخير لعمل الانسان وطبيعته ويدرج تحته موضوعات متنوعة تتراوح بين الطب والكيمياء الى الفنون (المرئية) والحواس والعواطف والانفعالات والقدرات العقلية والهندسية ووسائل النقل والطباعة والزراعة والملاحة ، وغير ذلك من الامور المتعلقة بالنشاط الانساني . وعلى الرغم مما قد يؤخذ على هذه الخطة من مآخذ طفيفة مثل تكرار بعض الموضوعات الفرعية وتداخلها مع بعض فان هذا التقسيم الثلاثي الذي يضع الانسان في آخر الامر في مركز الخطة كلها ، حيث تخصص القسم الثاني لدراسة طبيعة الانسان وتكوينه ، بينما تخصص القسم الاول لكل ما هو خارج عنه من مظاهر كونية وطبيعية تؤثر بغير شك في حياته بشكل أو بآخر ، وتخصص القسم الثالث لكل ما يصدر عنه من افعال وسلوك وأنشطة مختلفة ، أقول ان القسم الثلاثي أفلح ليس فقط في ايجاد نوع من الترتيب العلمي المقبول لما يمكن أن تتضمن أي موسوعة عامة ، بل ايضا في وضع مخطط عام وشامل لمجالات المعرفة الانسانية وآفاقها المختلفة المتباينة ، مع ابراز ما بين هذه الآفاق من تكامل رغم تنويعها وتباينها . والظاهر أن هذا المخطط العام الذي وصفه بيكون عام ١٦٢٠ كان له تأثير قوي وفعال لدرجة ان ديدرو يعترف في عام ١٧٥٠ ، اي بعد مائة وثلاثين عاما على وضع بيكون لمخططه ، بأنه افاد فائدة كبرى منه في تأليف الانسيكوبيديا الفرنسية ، والمعروف أن معظم دوائر المعارف التي ظهرت بعد ديدرو قد تأثرت به بدرجات متفاوتة ، مما قد يبيح لنا أن نقول إن تفكير فرنسيس بيكون لايزال عاملا مؤثرا بشكل ما في دوائر المعارف الكبرى وموجها لخطتها . او على الرغم من كل ما يقال من ان دوائر المعارف في الوقت الحالي تتبع الترتيب الأبجدي في عرض موضوعاتها و « موادها » فانها في شمولها ومحاولتها الاحاطة بمختلف فروع المعرفة تسترشد بنوع ما من الترتيب المنطقي . سواء ذلك الذي وضعه بيكون في أوائل القرن السابع عشر ، أو بالجهود الاخرى التي بذلت وتبذل في ذلك المضمار . وغلبة الترتيب الابجدي على دوائر المعارف الحديثة لا ينفي وجود كثير من الموسوعات ـ والمتخصصة منها بالذات ـ التي تتبع الترتيب المنهجي المنطقي البحت ، وان كان بعض هذه الموسوعات تحاول الجمع بين النظامين الابجدي والموضوعي المنهجي ، بحيث ترتب الموضوعات التي يتم الاستقرار عليها ضمن خطة واضحة متكاملة ترتيبا ابجديا لتسهيل الرجوع اليها .

ووجد مثل هذا النظام المنهجي والمخطط المنطقي الذي يسترشد به الموسوعيون في تحديد واختيار الموضوعات التي تعالجها الموسوعة ، اعني ببساطة أن الموسوعة او دائرة المعارف ليست مجرد (تجميع) عشوائي للمعلومات والمعارف المتفرقة دون أن يكون هناك ضوابط تحدد العلاقات بين هذه الموضوعات . فالفلسفة التي تنبع منها فكرة الانسيكلوبيديا أو دائرة المعارف هي الايمان بوحدة المعرفة وضرورة المحافظة عليها والتعبير عنها ، وهي فلسفة نحتاج الى ابرازها وتوكيدها في العصر الحالي بوجه خاص نظرا لما يؤدي اليه التخصص الدقيق المتزايد الذي هو سمة العصر من تباعد المتخصصين عن مجالات تخصص بعضهم بعضا ، واغترابهم بالتالي عن بقية فروع المعرفة الانسانية ، وقد يكون من المستحسن أن نشير بشيء من التفصيل الى دائرة المعارف البريطانية كمثال على هذه النظرة التكاملية الى مختلف فروع المعرفة ، خاصة وأنها أشهر الموسوعات وأكثرها انتشارا ، وإن لم تكن أكبرها إجما ، كما أنها تعكس بشكل ممتاز الوظيفتين الأساسيتين اللتين ينبغي ان تؤديها دوائر المعارف الكبرى ، ونعني بهما أن تكون عملا مرجعيا يستطيع القارىء ان يرجع اليها للحصول على المعلومات الاساسية الضرورية فقط حول أي موضوع يريد أن يلم به إلماما سريعا ، وان تكون في الوقت ذاته أداة تعليمية تقدم للباحث ـ وبخاصة المبتدىء ـ مادة خصبة ووفيرة عن الموضوع الذي يهتم ببحثه ، وتفتح له أبوابا جديدة ، كما تثير كثيرا من التساؤلات التي لم تطرأ على باله من قبل حول ذلك الموضوع ، فضلا عن تعريفه بأهم المراجع والمصادر التي يمكن الرجوع اليها .

والواقع أن دائرة المعارف البريطانية هي ثلاث موسوعات متمايزة ، لكل منها طابعها الخاص بها ، ولكنها تكمل بعضها بعضا لتحقيق هاتين الوظيفتين الأساسيتين . وأولى هذه الموسوعات التي تحمل اسم « الموسوعة الصغرى » Micropaedia تتألف من عشرة مجلدات ، هي بمثابة كتاب مرجعي يعطي المعلومات السريعة الضرورية التي يحتاج اليها المرء لسد حاجة معينة بالذات دون ان تدخل في التفاصيل . وهي في هذا اقرب الى القاموس منها الى دائرة المعارف بالمعنى الدقيق للكلمة . ولذا فان مجلداتها العشرة تحمل عنوانا فرعيا له دلالته وهو Ready Reference and Index وتقوم بالوظيفة الحالية التعليمية الموسوعتان الأخريان . وإحدى هاتين الموسوعتين عبارة عن مقدمة او مدخل للعمل الموسوعي الضخم كله ، وتتألف من مجلد واحد تمهيدي ويحمل اسم Propaedia وفيه عرض لخطة الموسوعة في محاولتها الاحاطة بكل آفاق المعرفة المختلفة ، مع تبين ما بينها من تشابك وتفاعل وتأثيرات متبادلة وتكامل ، ولذا فان هذا المجلد يحمل هو ايضا عنوانا فرعيا له دلالته ومغزاه وهو Outline of Kuowledge وقد وضعت خطة الانسيكلوبيديا بحيث تضم عشرة أقسام كبرى يدور كل قسم حول مجال واحد من مجالات المعرفة الكبرى من تفرعات وتخصصات . وهذه الاقسام او الابواب العشرة الكبرى هي : (١) المادة والطاقة (٢) الكرة الارضية (٣) الحياة على الارض (٤) حياة الانسان (٥) المجتمع الانساني (٦) الفن (٧) التكنولوجيا (٨) الدين (٩) تاريخ الجنس البشري (١٠) فروع وأبواب المعرفة ويقصد بها المنطق والرياضيات والعلم والتاريخ

والانسانيات والفلسفة . أما الموسوعة الثانية فهي الموسوعة الكبرىMacro paedia وهي تتألف من تسعة عشر مجلدا تضم عددا هائلا من المقالات الطويلة التي تعالج بأطناب وتفصيل ودقة الموضوعات التي ورد ذكرها في المجلد التمهيدي ، ولكن اذا كان المجلد التمهيدييصنف المعرفة الى أبواب وفروع وموضوعات تتدرج تحتها بحيث يرتكز هذا التقسيم على أساس منطقي بحت فان مقالات الموسوعة الكبرى او الرئيسية تظهر مرتبة ترتيبا ابجديا ، وبذلك تجمع دائرة المعارف البريطانية بين نوعي الترتيب اللذين أشرنا اليهما مثلما تؤدي على وجه أكمل الوظيفتين الرئيسيتين الوظيفة المرجعية والوظيفة التعليمية .

والأمر ليس قاصرا على أي حال على الموسوعات أو دوائر المعارف الكبرى وحدها التي مهما يكن من فائدتها فان الذين تتاح لهم قراءتها والاطلاع عليها والرجوع اليها هم في الاغلب فئة معينة من الناس الذين يشغلون انفسهم بأمر البحث العلمي ، أو الذين وصلوا الى درجة معينة من الثقافة ، وانما يمتد الاهتمام باتاحة الفرصة لتنويع الثقافة والقراءات وتقديم كتابات وموسوعات شاملة تحيط بكل المعارف بقدر الامكان الى نطاق أوسع من نطاق دوائر المعارف الكبرى المحدودة ، حيث تجد في الغرب على الاقل مشروعات ضخمة لتقريب شتى المعارف الى القارىء العادي . وقد يكفي أن نشير هنا الى الجهود الضخمة التي تبذل في الخارج لتقديم سلاسل او مجموعات من الكتب القصيرة العميقة الرخيصة الثمن والتي تعالج موضوعات مختلفة بكتبها كبار المتخصصين وتهدف الى تقريب المعرفة للناس بمن فيهم المتخصصون أنفسهم حتى تكسر من حدة التخصص ، وتخرج هؤلاء المتخصصين من عزلتهم التي يفرضها تخصصهم عليهم ، وحتى يتاح للمثقف العادي في الوقت ذاته التعرف على مختلف الميادين الثقافية التي تقدم له باسلوب بسيط خال من التعقيد ، مع عدم الاسفاف او النزول الى مستويات متدنية . والمعروف أن أشهر هذه السلاسل والمجموعات وأوسعها انتشارا في الوقت ذاته في العالم هي مجموعة Penguin البريطانية الشهيرة من ناحية ، ومجموعة Que Sais — je الفرنسية من الناحية الاخرى . وقد صدر في كل مجموعة مئات عديدة من الكتب التي غطت كل ميادين المعرفة بحيث أصبحت أحد المعالم الرئيسية في الثقافة في الخارج ، خاصة وأنها تكتب بطريقة بحث تنافش التخصص والقارىء المثقف العام في وقت واحد . ولقد كانت هناك جهود عديدة في العالم العربي في فترات مختلفة لتقدم مثل هذه المجموعات او السلاسل التي حققت درجات مختلفة من النجاح ، ولكن لم يظهر حتى الآن من هذه المجموعات او السلاسل ما يرتفع الى مصاف ما يصدر في الخارج سواء من حيث المستوى العلمي او التنوع في الموضوعات ، وان كان هذا لا يقلل بأي حال من الاحوال قيمة الجهود التي بذلت والتي تبذل حتى الآن في هذا المجال .

ومن الناحية الاخرى يهتم العالم الخارجي باصدار (موسوعات) مبسطة تعتمد على الصورة بقدر

ما تعتمد على الكلمة المطبوعة دون أن يكون ذلك على حساب الدقة العلمية . مما يجعل القـراءة والرغبة في الاطلاع والاستزادة من المعرفة في مختلف المجالات أمورا ميسرة ومحببة الى النفس . وهذا أسلوب طيب بغير شك لتكوين عادة القـراءة . وهذا جـانب لا يؤلف جزءا من اسلوب التـربية والتنشئة عندنا . والأمثلة كثيرة لمثل هذه الموسوعات ، ولكن ربما كان من أفضلها الموسوعة المعروفة باسم The Joy of Knowledge التي صدرت في أواخر السبعينات ، والتي تتخذ شعارا لها عبارة سنيكا الشهيرة : « لم تعطنا الطبيعة المعرفة ذاتها وانما اعطتنا فقط بذور المعرفة » .

Scientiam, Non Debit Natura
Semina Scientiae Nobis Debit.

وخطة هذه الموسوعة المبسطة تقوم هي ايضا على فكرة وحدة المعرفة وتشابك فروعها وتداخلها وتكامل مجالاتها ، فالموسوعة تقع في سبعة أجزاء تعالج على التوالي : العلم والكون ، ثم « الارض الفيزيقية » اي الكرة الارضية ، ثم العالم الطبيعي بما فيه من نبات وحيوان ، ثم الانسان والمجتمع ، ثم التاريخ والثقافة (مجلدان) ثم الانسان والآلة ، وأخيرا العالم الحديث ، وواضح من ذلك كيف أن هذه الموسوعة التي أشرف على تحريرها عدد كبير من كبار الاساتذة المشهورين تحيط بعدد كبير من فروع المعرفة الانسانية ، كما يظهر فيها نفس التأثيرات التي انحدرت من فرنسيس بيكون ، وهي التأثيرات التي سبق أن قلنا إنها تظهر بدرجات متفاوتة في دوائر المعارف العامة بما في ذلك دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة ، وعلى الرغم مما قلناه من أن هذه الموسوعة (مبسطة) فان القارىء الذي بلغ درجة عالية من الثقافة لن يعدم أن يجد فيها بعض المعلومات الطريفة والرفيعة ، فضلا عما يلقاه في قراءتها من متعة ذهنية .

●●●

ولم يكن الهدف الاصلي من هذا الحديث القصير الكلام عن الموسوعات او دوائر المعارف في ذاتها . إنما كان الهدف هو محاولة ابراز المشكلة التي تواجه المثقف المتخصص في الوقت الحالي من عزلة عن مجالات المعرفة المتنوعة المتباينة نتيجة لما يتطلبه التخصص الدقيق من الانحصار في دائرة ضيقة لا يخرج منها ، وذلك محاولة التعرف على بعض الأساليب والوسائل التي يمكن عن طريقها كسر هذه الحلقة التي تحيط بـالمثقف المتخصص وتخطي كـل الحواجـز التي تقف دونه وآفـاق المعرفـة المختلفة . وليست الموسوعات على اختلاف أحجامها ومستوياتها ودرجة شمولها واحاطتها سوى وسيلة واحدة من هذه الوسائل ، وهي وسيلة شائعة في الخارج ، لدرجة ان هناك ما يزيد على الفي موسوعة من الموسوعات المهمة الكبرى على ماذكرناه ، الى جانب عدد كبير جدا من الموسوعات المتخصصة والمـوسوعـات

(المبسطة) فضلا عن سلاسل الكتب التي تؤلف في آخر الأمر عملا موسوعيا متكاملا . ولازلنا نحن في العالم العربي بعيدين الى حد كبير جدا عن الاهتمام بمثل هذه الاساليب والوسائل ، وليس من شك في أنه قد آن الأوان لاعطاء شيء من الاهتمام الجدي والدراسة العميقة لامكان نقل الموسوعات الأجنبية الى اللغة العربية مع ادخال التعديلات الملائمة والمناسبة ، ان كان يعز علينا لسبب أو لآخر تأليف موسوعات عربية بأقلام عربية وجهود عربية وعقول عربية .

دكتور/ احمد أبو زيد

***

دراسات أدبية

" المشية " في الشعر العربي

فاطمة محجوب

(١) المقدمة

١ ـ ا علم الحركة الجسمية والمشية

علم الحركة الجسمية ، او ما يسمى بعلم الكينات Kinesics نشأ مع مبتدعه عالم الانثروبولوجيا الامريكي « ري.ل. بير ـ دوسل » في عام ١٩٥٢ حين أصدر كتابه بعنوان « مقدمة الى علم الكينات »[١] .

وقد جعل « بير دوسل » من الحركة الجسمية علما ، بعد ان كانت تعرف تقليديا باسم « الاشارة » أو « لغة الجسم » لأنه عمد الى تحليل الحركات الجسمية التي تصدر عن الانسان تحليلا علميا متخذا من مبادىء علم اللغة الحديث إطارا حدد داخله أنواع الحركات الجسمية . وقسمها الى مستويات مناظرة لمستويات اللغة من وحدات صوتية وصرفية ونحوية وتراكيب . وكما نفعل في علم الاصوات فنحدد أعضاء النطق كاللسان والشفتين والاسنان وسقف الحلق والحنجرة ، ونقسمها الى مناطق هي التي يصدر عنها الصوت ، فكذلك فعل « بير دوسل » فقسم الجسم الى مناطق تصدر منها واليها الحركة ، فهناك الوجه وبه العينان والأنف والفم ، وهناك الرأس والعنق والكتفان والجذع والعجز ، ثم هناك الساقان والقدمان . ولما كان علم الانثربولوجيا يرتبط بعلم السلوك ، فاننا نجد أن «بير ـ دوسل » في تحليله للحركات المختلفة يسميها سلوكا ، فهناك سلوك العينين كالنظرة الجريئة

١ ـ أنظر ثبت المراجع رقم ٣٥ .

والنظرة المختلسة ، والنظرة الشزراء ، وهناك سلوك اليدين وسلوك الكتفين والعطفين والساقين والقدمين . ومن ثم فقد جعل « المشية » واحدة من الحركات الجسمية ، وصنفها على الوجه التالي :

ـ مشية الذكر
ـ مشية الانثى
ـ التمايل
ـ دق الارض بالجزء الخلفي السفلي من الكعب
ـ المشية القهقري حيث ينثني الكاحل بحدة الى الخلف عند اكتمال اتصال القدم بالأرض .

ويتناول « بير دوسل » المشية بالوصف من الناحية الفسيولوجية الحركية فيقول (ص ٦٨) :

« لقد اتضح ان معظم المشاة يمكن تحديد مشيتهم على خط مستقيم طرفاه الدفع والسحب . ففي حالة بعض المشاة تقبض القدم على الارض ثم تنجذب نحوهم ، في حين أن البعض الآخر يستخدم السحب الذي يدفع الجسم الى الأمام » .

ويمضي « بير دوسل » فيقول ويمكن ان نضع في منتصف هذا الخط المستقيم المشية « المتوازية » وتتميز هذه المشية بانه قبل أن تنزع اصابع إحدى القدمين قبضتها القوية عن الارض يكون كعب القدم الأخرى قد حط على الارض بقوة . وهذه الأنواع الثلاثة من المشاة : الدافع والساحب والموازن قد أمدتنا برؤية سيكولوجية ممتازة .

ويضيف « بير دوسل » الى هذا كله تقسيما فرعيا يضم المشية التي يثني فيها الماشي ركبتيه ، وتلك التي تكون ركبتاه فيها مستقيمتين ، وهو يقدم تحفظا في هذا الشأن فيقول : انه يبدو ان هناك نوعا من الصلة بين المشي على ارض خشبية وبين المشي بركبتين منثنيتين .

ثم يضيف « بير دوسل » نوعين آخرين من المشية هما المشية الواثبة والمشية المنسابة (او المنزلقة). فالشخص ذو المشية الواثبة يرفع جسمه كله بأن يشب على أطراف أصابع القدمين حين تمر قدمه تحت الجسم مباشرة ، ومن ثم يمكن أن نرى كتفيه يرتفعان وينخفضان مع كل خطوة يخطوها ، وأما ذو المشية المنزلقة فانه ينسق اتصال القدم بالأرض فيثني الكاحل ، وتنثني الركبة بحيث ان الجسم يتحرك الى الأمام في حين أن الكتفين يبقيان في موضعهما .

ثم ينتقل « بير دوسل » الى تقسيم فرعي آخر يشمل الماشي ذا الخطوة العالية ، والماشي الذي يجر قدميه على الأرض . أما الاول فيرفع قدمه اثناء حركتها فوق عظم الكاحل ، وأما الثاني فانه يجعل القدم التي اتمت الحركة تجر على الارض حين تبدأ حركتها الأمامية . ويشير « بير دوسل » ايضا الى الماشي الذي يمسح الارض دون ان يرفع قدميه عنها طوال مشيه ، كما يشير الى ذلك الذي يجر اصابع القدمين بطريقة متقطعة في نهاية اتصال القدمين بالأرض .

ويتخذ « بير دوسل » من اتساع الخطو بُعْدا آخر يصنف المشية وفقا له ، ويخص بالذكر ما

يسميه « الغامس » او « الغاطس » وهو ذلك الذي تتسع خطوته الى الحد الذي يجعل جسمه ينخفض عن نقطة النهاية لكل خطوة . وهذا النوع قد يكون شكلا آخر للخطوة المنزلقة التي سبق الكلام عنها من حيث ان اتساع الخطوة يتطلب المحافظة على الاتصال بالارض لتحاشي السقوط .

ثم يتحدث « بير دوسل » عن المشية القاطعة ، وهذه تكون نوعا من الخطوة العالية ، والفرق بينهما انه في حالة المشية القاطعة قلما يبسط الماشي القدم الى الامام أكثر من مسافة طول قدم واحدة بعيدا عن القدم الأخرى الملامسة للارض .

ويضيف « بير دوسل » (ص ٧٠) انه لا يوجد فرق كبير بين مشية الرجل ومشية المرأة خلافا لما هو شائع ، فيما عدا أنه يوجد عامل اختيار لنوع من أنواع المشية التي ذكرناها ، اذ ان معظمها ينطبق على الرجال والنساء على السواء ، غير ان انتعال الكعوب العالية او الكعوب القصيرة يؤثر تأثيرا كبيرا على الشكل العام للمشية . ولذلك يلفت « بير دوسل » نظر الدارسين الى انه ينبغي عليهم أن يسجلوا مع ملاحظاتهم عن المشية من الناحية الفسيولوجية عبارة تتصل بنوع الحذاء الذي يلبسه الماشي ، وكذلك الملابس المتدلية من الخصر الى أسفل ، لأن كلا منها يؤثر على نوع المشية .

وكما فعل الشعراء العرب مما سنفصله فيما بعد ، يصف « بير دوسل » المشية من جانب آخر هو تشابهها لمشية حيوان أو طائر بعينه ، فنجده يصف مشية « الحمامة » وفيها تتجه أصابع القدمين نحو الوسط والأمام عند كل خطوة ، ومشية « البطة » وفيها تتجه أصابع القدمين الى الجنب والى الامام . ونجده ايضا يصف مشية « الهنود الحمر » وفيها يضع الماشي القدمين الواحدة أمام الأخرى مباشرة عند كل خطوة ، وفي هذا المجال يلفت « بير دوسل » نظر الدارسين الى وجوب الحذر عند تسجيل وصف المشية التي تتصل بأناس ينتمون الى ثقافات أخرى ، ويشير الى أن العربي يصف المرأة التي تمشي برشاقة بانها تمشي « كالدجاجة » (انظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ البيت رقم ١٨٣) في حين أن الهندي يصف مثل تلك المرأة بانها تمشي « كالفيل » .

ومما يهمنا في بحثنا هذا أن نوجه النظر الى أن معظم أنواع المشية التي حددها « بير دوسل » قد سجلها الشعراء العرب في شعرهم وأضافوا اليها ما يتصل ببيئتهم وتجاربهم وملاحظاتهم الشخصية .

وقد سبق أن قدمنا للقارىء مجموعة من الأبحاث تتناول علم الحركة الجسمية حاولنا فيها تطبيق مبادئه على التراث العربي . ومن هذه الأبحاث بحث بعنوان « الحركة الجسمية » من خلال البيان والتبيين[٢] حاولنا فيه إرجاع ما جاء في البيان والتبيين للجاحظ الى علم الحركة

٢ - أنظر مجلة « الثقافة » العدد ١٩ ، ابريل ١٩٧٥ وكتابنا بعنوان « دراسات في علم اللغة » القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦ .

الجسمية الذي نحن بصدده . كذلك أفردنا لهذا العلم بحثا خاصا تحت عنوان « علم اللغة » و« علم الحركة الجسمية »(٣) كما قدمنا للقارىء بحثا ثالثا بعنوان « الدلالة الحركية للألفاظ في الشعر »(٤) وقد حاولنا أيضا في بحث رابع استخراج الآيات القرآنية الكريمة التي وردت عن الحركة الجسمية ودلالاتها(٥) . واليوم نستكمل تلك الأبحاث بالتركيز على (المشية). والهدف من مثل تلك الأبحاث هو توجيه الانظار الى مدى ثراء اللغة العربية وعطاء العرب الغزير في مجالات أصبحت اليوم موضع اهتمام العلماء ومحور دراساتهم .

ويحدونا الى التركز على المشية في هذا البحث عوامل عدة ، أهمها ما يزخر به التراث العربي من أوصاف لها ، وتحديد للدلالات الفسيولوجية والاخلاقية والنفسية التي تنم عنها مشية انسان بعينه .

١ ـ ب دلالات المشية

إن المشية ترتبط بصاحبها فهو يعرف بها ، وتكون جزءا من شخصيته ، فنحن نقول إن فلانا يمشي على هذه الكيفية أو تلك ، وكثيرا ما نجد الناس في أوقات هزلهم ، وكذلك الاطفال يقلدون مشية شخص بعينه . بل إننا نجد أن رجال الشرطة في بحثهم عن شخص ارتكب جريمة ما ، يسألون الناس أو ضحايا الجريمة عما اذا كانوا قد لاحظوا على الجاني مشية خاصة ، وتعرف المشية في مثل تلك الحالات بانها ثابتة . وتكون المشية ثابتة ايضا في حالة وجود عيب جسماني كاتجاه أصابع القدمين الى الداخل او الخارج ، كما تكون ثابتة بالنسبة لطول القامة او قصرها ، فالطويل له مشية ، كما ان للقصير مشية . كذلك ترتبط المشية الثابتة بالجنس في معظم الاحوال ، فللرجل مشيته وللمرأة مشية أخرى ، ومن ثم كان مما يوجب الذم أن يمشي الرجل كما تمشي النساء ، وأن تمشي المرأة كما يمشي الرجال .

والمشية تكون ايضا متغيرة وذلك بالنسبة لعمر الانسان ، فهو حين يتقدم به العمر وتصبح له مشية يستدل منها على الكبر والوهن بعد أن كانت مشيته في شبابه يستدل منها على القوة والحيوية ، وتكون المشية متغيرة ايضا حين ترتبط بالحالة النفسية للماشي . فالى جانب المشية الثابتة للانسان نجد له مشية أخرى متغيرة ، فان كان فرحا يستخفه الفرح نجده يمشي مشية واثبة ، وان كان مهموما نجده يمشي ثقيل الخطى يكاد يجر قدميه على الأرض جرا .

ويمكننا إجمال دلالات المشية وتحديدها بستة هي :

١ ـ دلالات فسيولوجية تتصل ببناء جسم الماشي كالطول أو القصر ، والنحافة أو الضخامة ،

---

٣ ـ أنظر كتابنا بعنوان « دراسات في علم اللغة » .

٤ ـ أنظر مجلة الشعر ، العدد ١٢ ، أكتوبر ١٩٧٨ ص ٢٣ ـ ٣٢ .

٥ ـ أنظر مجلة « منبر الاسلام » العدد ٧ ، يوليو ١٩٧٤ ص ٢٥ ـ ٢٥٣ ، والعدد ٩ سبتمبر ١٩٧٤ ص ١٦٣ ـ ١٦٥ وكتابنا « دراسات في علم اللغة » .

٢ ـ دلالات سلوكية تنم عن اخلاق الماشي كمشية التبختر والاختيال .

٣ ـ دلالات مرضية تنم عن وجود مرض أو عاهة جسمانية .

٤ ـ دلالات نفسية تنم عن حالة الماشي النفسية كالغضب او الفرح .

٥ ـ دلالات تتصل بعمر الماشي من شباب او هرم .

٦ ـ دلالات تتصل بجنس الماشي كأن يكون رجلا او امرأة .

١ ـ جـ المشية في الطب

ونجد أن علم الطب يعني بالمشية لدلالاتها المرضية كالاصابة بتفلطح القدم ، او الاصابة بالفالج أو إدمان الخمر ، أو التهاب الأعصاب . وتنبئنا الموسوعات الطبية ، ان المشية التي تكون فيها أصابع القدم منثنية الى الخارج والقدم تقع مفلطحة على الارض تكون دليلا على اصابة بالغة بتفلطح القدم ، واذا كان الماشي يجر رجليه فان ذلك دليل على انه قد اصيب بالفالج أو الشلل ، واذا كان الماشي يرفع ركبتيه الى أعلى أكثر من المعتاد وكأنما يمشي فوق أعشاب طويلة فان هذه المشية تدل على انه من مدمني الخمر أو أنه مصاب بنوع من التهاب الاعصاب . وفي حالة الاصابة بالشلل الارتعاشي تتميز المشية بخطوات سريعة متقاربة . ويبدو أن الساقين تحاولان ان تتسق حركتها مع الجزء العلوي من الجسم الذي يندفع الى الامام ، وفي حالة إصابة مفصل الركبة تكون الساق كلها متصلبة ، أما في حالة مرض مفصل الورك فان الساق المصابة تلف حول الساق السليمة أثناء المشي ، ويشترك الحوض كله في الحركة . وفي حالة اصابة اعضاء الحس التي تتلقى المعلومات من الساق ، كمرض اختلاج الحركة ، فان الكعبين يدبان على الارض بقوة وتكون العينان مثبتتين على الارض ، كذلك يمكن ان ينتج عن الاصابة بمرض شلل الاطفال معظم هذه الانواع من المشية ، ويتوقف ذلك على الاعصاب المصابة وهي بطبيعة الحال تكون دائما اعصاب الحركة .

وهكذا نجد أن المعاجم الطبية تفيض في وصف الدلالات المرضية للمشية مما لا يتسع له المقام هنا[٦] ولكن يجدر التنويه الى أن الشاعر العربي لم تفته الاشارة الى مثل تلك الدلالات .

١ ـ د المشية في القرآن الكريم

ويجيء ذكر المشية في القرآن الكريم باعتبارها دليلا على سلوك الفرد ، ذلك السلوك الذي يعد جزءا لا يتجزأ من العقيدة ، ومن ثم فان ما ورد في القرآن الكريم يحدد المشية المستحبة التي تعكس السلوك الحسن للانسان المسلم ، والمشية القبيحة التي يتعين على المسلم ان يتجنبها . فعلى الجانب المستحب من المشية نجد القصر في المشي ، وذلك في قوله تعالى عن

٦ ـ أنظر ثبت المراجع رقم ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

نصيحة لقمان لابنه « واقصد في مشيك واغضض من صوتك » .. (لقمان/١٩) ونجد المشي هونا في قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا .. » (الفرقان/٦٣) ونجد المشي على استحياء في قوله تعالى عن ابنة شعيب وهي تمشي نحو موسى عليه السلام : « فجاءته احداهما تمشي على استحياء .. » (القصص/٢٥) .

أما على الجانب المستقبح فنجد المشي في الأرض مرحا وذلك في قوله تعالى « ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » (الاسراء/٣٧) وقد جعلت تلك المشية ، مع ما نهت عنه الآيات السابقة لهذه الآية ، أمرا سيئا مكروها عند الله ، اذ يقول تعالى بعد ذلك « كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها » ونجد أن هذا النهي عن المشية « المختالة » يتكرر في سورة لقمان (آية ١٨) مع نص صريح في كراهية الله سبحانه لمن يمشي في الأرض مختالا فخورا ، وذلك في قوله تعالى « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور » . كذلك نجد وصفا للمشية يتصل بمعنى الاعراض مع التكبر ، وتشمل الحركة الجسمية فيها « العطف »[7] فيقول تعالى « ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله » (الحج/٩) ..

وهذا لنص القرآني الذي ينهى عن المشية المختالة يفسر لنا ما قاله الرسول ﷺ لأبي دجانة في غزوة أحد ، حين رآه بعد أن أخذ السيف من يد الرسول الكريم وعصب رأسه بعصابته الحمراء إعلانا بأنه سيقاتل المشركين ويأخذ بحق سيف رسول الله ، وجعل يتبختر بين الصفين ، اذ قال الرسول الكريم حينذاك : « إنها لمشية يبغضها الله الا في مثل هذه المواطن »[8] .

١ ـ هـ ـ المشية في الأثر

ومما يدل على اهمية المشية وارتباطها بصاحبها ما نجده في الاثر من بعض اوصاف لمشية رسول الله اذ يقول صاحب اللسان[9] : « وفي صفته ﷺ : كان اذا مشى مشيا مجتمعا ، اي شديد الحركة قوي الإعضاء غير مسترخ ... كذلك نجد ان صاحب « زاد المعاد »[10] يفرد فصلا خاصا عن هدى رسول الله في مشيه وحده ومع اصحابه ، فيحمل فيه كل ما يتصل بدلالات المشية ، وما هو مستحب من أنواع المشية وما هو مذموم مستقبح فيقول « كان اذا مشى تكفأ تكفيا ، وكان أسرع الناس مشية وأحسنها .. وقال علي رضي الله عنه مرة : اذا مشى تقلع

٧ ـ جاء في لسان العرب (٢٢ ، ٣٣ ، ٢٢٩٧) : عطف الرجل جانبه عن يمين وشمال ، وشقاه من لدن رأسه الى دركه . قال الأزهري : جاء في التفسير أن معناه لاويا عنقه ، وهذا يوصف به المتكبر .

٨ ـ أنظر ثبت المراجع رقم ١٠

٩ ـ أنظر ثبت المراجع رقم ٢٣ .

١٠ ـ أنظر ثبت المراجع رقم ٩ .

والتقلع الارتفاع عن الارض بجملته كحال المنحط من الصبب ، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة ، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء وأبعدها من مشية الهوج والمهانة والتماوت ، فان الماشي إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة وهي مشية مذمومة قبيحة ، او أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج ، وهي مشية مذمومة ايضا ، وهي دالة على خفة عقل صاحبها ، ولا سيما إن كان يكثر من الالتفات اثناء مشيه يمينا وشمالا ، وأما من يمشي هونا وهي مشية عباد الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا» قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت ، وهي مشية رسول الله ﷺ ، فانه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب وكأنما الارض تطوى له . . . وهذا يدل على أن مشيته لم تكن مشية بتماوت ولا بمهابة بل مشية أعدل المشيات .

ويمضي صاحب « زاد المعاد » فيحدد لنا أنواع المشية بعشرة فيقول « والمشيات عشرة أنواع هذه الثلاثة منها والرابع السعي والخامس الرمل ، وهو أسرع المشي مع تقارب الخطا ويسمى الخبب . . والسادس النسلان ، وهو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي ولا يكربه ، والسابع الخوزلى ، وهي مشية التمايل ، وهي مشية يقال إن فيها تكسرا وتخنثا ، والثامن القهقرى وهي المشية الى وراء ، والتاسع الجمزى ، وهي مشية يثب فيها الماشي وثبا ، والعاشر مشية التبختر وهي مشية أولى العجب والتكبر ، وهي التي خسف الله سبحانه بصاحبها لما نظر في عطفيه واعجبته نفسه . . . وأعدل المشيات هي مشية الهون والتكفي . . » .

وهكذا نجد في « زاد المعاد » هذا الوصف الجامع لأنواع المشية ودلالاتها ، وهو ما نجده اليوم في أي مرجع حديث في علم الحركة الجسمية الذي وصفناه في بداية بحثنا هذا .

١ ـ و المشية في القصة والرواية والمسرحية

ولعل أكثر من يستغلون وصف المشية هم كتاب القصة والرواية والمسرحية ، وبخاصة المسرحية الفكاهية ، لأنهم يضيفون بالمشية بعدا جديدا للشخصية التي يرسمونها ، بحيث تميزها عن سواها ، فهناك مشية المعجب بنفسه الذي يختال كالطاووس ، ومشية الخائف المترقب او الحذر المتلصص ، والمشية التي يصحبها هز الرأس أو الكتفين ، وغير ذلك ، بل إنهم يلجأون في بعض الأحيان الى المشية ذات الدلالات المرضية كالعرج مثلا ، وبذلك يستعينون على رسم الشخصية او اثارة الضحك بابتداع مشية تميزها ، ونحن نجد أن الافلام السينمائية الفكاهية تركز ايضا على تمييز ابطال الكوميديا بمشية خاصة بهم ، وكلنا يذكر مشية « لوريل » في افلام لوريل وهاردي ، ومشية شارلي شابلن ، ومشية الراحل اسماعيل يسن .

١ ـ ز المشية في الفاظ المعجم

١ ـ ز ـ ١ مشية الانسان

ان الباحث في المعاجم العربية ليذهله ما تزخر به من الألفاظ التي تعدد أوصاف مشية الانسان من حيث الخطو والوطء وغير ذلك ، وهي لا تقتصر على الوصف وحده ، وانما تعطينا في معظم الاحوال شواهد من الشعر تبين مواقع استخدام تلك الالفاظ ، كما انها تضيف عبارات هامشية تتصل بعلم الاجتماع كأن توضح دلالة المشية على أخلاق الماشي من تكبر أو زهو أو خشوع . . . الخ . او تتصل بالناحية الفسيولوجية من حيث شكل الجسم ، وبنائه من قصر أو طول قامة ، او من غلظ او فخامة ، او تتصل بجنس الماشي كأن يكون اللفظ قاصرا على مشية المرأة وحدها أو الرجل وحده ، أو أنه يستخدم لكل منهما . ومن هذه العبارات أيضا ما يتصل بعمر الماشي من شباب او هرم ، وما يتصل بحالته النفسية ، كالفرح أو الغضب . ومن العبارات الهامشية ايضا ما يشير الى بعض مصاحبات المشية من حركات كهز المنكبين أو رفع اليدين ووضعهما . كل ذلك في فيض غزير يعد معينا لا ينضب لمن يعملون في حقل الترجمة ، ويعييهم البحث عن المتعادلات اللفظية . وقد رأينا اتماما للفائدة ان نقدم في نهاية البحث بعضا من هذه الالفاظ وهي التي لم نجد لها شواهد في الشعر الذي جمعناه لهذه الدراسة ، وهذا لا يمنع وجود مثل تلك الشواهد .

١ ـ ز ـ ٢ مشية الحيوان

ولا تقتصر الفاظ المعجم على مشية الانسان ، وانما تشمل مشية الحيوان ايضا ، بل ان مما يلاحظ ان المعاجم ودواوين الشعر على السواء تزخر بالفاظ تتصل بمشية هذا الحيوانات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة اليومية للعرب في تلك الازمنة[١١] ألا وهي الابل والخيل ، كما تصف مشية حيوانات أخرى من البيئة كالذئب ، ويصحب هذه الألفاظ شواهد من الشعر في كثير من الأحيان ، وقد وجد أن تلك الألفاظ هي من الغزارة بحيث يجدر أن يخصص لها بحث مستقل ، اذ لا يتسع لها بحثنا هذا ، ويلاحظ ان المعاجم تحرص على التنويه ـ حيث يجب التنويه ـ بأن لفظا بعينه يمكن أن يستخدم للحيوان وللانسان على السواء .

ومما تجدر الاشارة اليه اننا قد وجدنا ان مقومات مشية الانسان كما حددناها في بحثنا هذا تنطبق ايضا على مشية الحيوان من حيث الخطو والوطء والاتجاه ، مما يتضح من الاشعار التي تشبه فيها مشية شخص ما بمشية حيوان بعينه (انظر ٢ ـ ب ـ ٢ ـ جـ)

١ ـ ح المادة وطريقة العرض

يقوم هذا البحث على دراسة ٢١٠ أبيات من الشعر و١٣٨ لفظا من ألفاظ المعجم التي

---

١١ ـ لم تدرج من الشعر الحديث سوى بضعة أمثلة .

تتضمن وصفا لأنواع المشية عند الانسان ، وقد رأينا اضافة الفاظ المعجم هذه الى البحث رغم ان الاساس فيه هو دراسة المشية كما وردت في الشعر العربي ، ذلك لأننا وجدنا ان هذه الالفاظ تزخر بها المعاجم ، وهي وإن كانت ترد دون أن تصحبها شواهد من الشعر ، فان هذا لا يمنع ورودها في اشعار الشعراء في مصادر أخرى ، كما أننا وجدنا انها تخضع للتصنيف الذي حددناه لأنواع المشية ، وبهذا تكون مكملة للبحث ، على ان تدرج في نهايته تحت التصنيفات نفسها التي حددناها لمقومات المشية وصفاتها ، وتعطي ارقاما تتصل بأرقام الألفاظ التي وردت في الشعر ، كما تضاف نتائجها الى المصفوفة والشكل اللذين سيأتي الكلام عنهما ، وقد رتبت هذه الالفاظ ترتيبا هجائيا على الصيغة التي وردت بها في المعاجم .

أما أبيات الشعر وهي التي تنطوي تحت « الطريقة الرابعة » (انظر ٢ ـ ب ـ ٤) فقد رأينا ان نعزل اللفظ العجمي الدال على المشية بحيث يدرج وحده في هامش ويعرض الى جانبه نموذج الشعر . وقد رتبت الالفاظ هنا ايضا ترتيبا هجائيا على الصيغة التي وردت بها في الشعر ، واعطيت أرقاما مسلسلة مع ارقام الفاظ المعجم ، أما نماذج الشعر فقد أعطيت ارقاما مسلسلة خاصة بها ، والغرض من هذا الترقيم هو تيسير الرجوع الى الالفاظ ونموذج الشعر عند الحاجة ، على انه اذا دعت الضرورة الى تكرار بيت بعينه فان النموذج لا يعطى رقما ، وانما يحال الى الرقم الذي ورد به أول مرة ، وقد رأينا أنه في حالة ورود بيت من الشعر به لفظان لكل منهما معنى حركي مختلف فان مثل هذا البيت يدرج مرتين ، على أن يأخذ رقما جديدا في كل مرة ، ونسوق على سبيل المثال البيتين رقم ١٢٣ ـ ١٢٤ فقد وردا مع لفظ « هركولة » (الفاظ رقم ١٢) تحت ٢ ـ جـ ـ ١ ـ أ ـ ١ (بطيء مع تمايل وعجب بالنفس) ثم تكرر ورودهما مع لفظ آخر هو « ارتهاك » (الفاظ رقم ٥١) تحت ٢ ـ حـ ـ ٢ ـ أ (ضعيف) ومن ثم فقد أعطيا رقمين جديدين ، وقد حرصنا على اثبات المراجع التي استقينا منها نماذج الشعر عند ورود كل نموذج وذلك بوضع رقم المرجع الذي ورد به في ثبت المراجع يليه رقم الجزء ثم رقم الصفحة ، او رقم الصفحة فحسب اذا كان المرجع من جزء واحد ، وعلى ذلك فان ١٠٩٨/١٣/٢٣ تقرأ : لسان العرب (طبعة دار المعارف) الجزء ٢٢ صفحة ١٠٩٨ ، أما (٢٥٦/١٨) فتقرأ : طبقات الشعراء صفحة ٢٥٦ .

ومما تجدر الاشارة اليه اننا وجدنا ان « المصاحبات » الحركية وغيرها كثيرة متعددة ، ولكن كان لابد من اثباتها مع مقومات المشية الاساسية ، لأنها هي التي تميز مشية انسان بعينه ، وهذا مما يجعل التفريعات المنبثقة عنها كثيرة العدد أيضا مما لا يتفق مع احد الاسس الهامة للمنهج العلمي في البحث ، الا وهو « الاقتصار » على اننا رأينا ان نحقق الاقتصار المطلوب بعمل مصفوفة matrix نلخص فيها

مقومات المشية وصفاتها ومصاحباتها كما وردت في الشعر العربي ، بحيث تكون أساسا لمصفوفة شاملة تجمع كل ما يمكن ان يكشف لنا من حقائق جديدة تتصل بالمشية .

ولما كان لابد من حدوث تداخل بين المقومات وبعضها من جهة ، وبينها وبين المصاحبات من جهة أخرى فقد رأينا توضيح ذلك التداخل برسم شكل يقوم على أساس خط مستقيم تقع بين نهايته فقط مقومات المشية ومصاحباتها . فاذا وصلنا نقطة على الخط ترمز الى السرعة مثلا ، بنقطة أخرى تمثل إحدى الحركات الجسمية هي طأطأة الرأس ، فاننا نحصل على مشية تتميز بسرعة الخطو مع طأطأة الرأس ، وقد يحدث أحيانا تداخل أكثر من نقطتين ، فاذا وصلنا نقطة تمثل سرعة الخطو مع نقطة تمثل تقارب الخطو ، مع نقطة ثالثة تمثل نصب الظهر ، حصلنا على مشية تتميز بسرعة الخطى وتقاربها مع نصب الظهر ، وهكذا دواليك .

وتأتي كل من المصفوفة والشكل في نهاية البحث . وتعد المصفوفة تلخيصا مرئيا حيث يمكن للقارىء من النظرة الاولى ان يلم بما جاء في البحث من حقائق عن المشية ومصاحباتها ، وتوضح المصفوفة رأسيا مقومات المشية ، وتوضح أفقيا صفات تلك المقومات ودرجاتها ومصاحباتها . وتدل علامة « زائد » على وجود صفة أو درجة بعينها . أما علامة « ناقص » فتشير الى عدم وجود تلك الصفة او الدرجة او الحركة المصاحبة ، وتدل علامة زائد الموضوعة بين قوسين على أن واحدة من المصاحبات قد تحدث دون الأخرى . أما فيما يتعلق بجنس الماشي فيراعى على أنه حيث لا توجد علامة فان الوصف ينطبق على مشية الرجل او المرأة على السواء ، ويلاحظ أننا قد رقمنا الخط الرأسي بأرقام مسلسلة لكي يتيسر الرجوع اليها عند الاشارة الى مشية بعينها .

ويجدر بنا أن ننوه بأن هذه المصفوفة ليست شاملة ، ولن تكون كذلك الا اذا اشتملت على كل ما جاء في الشعر العربي من ألفاظ أو أوصاف للمشية ، في عصر معين على الأقل ، وذلك أمر لا يتسع له بحث محدود كبحثنا هذا . ولكن يمكن القول بقدر لا بأس به من التأكيد ان العثور على مزيد من نماذج الشعر لن يضيف جديدا الى المقومات والصفات الأساسية التي حددناها ، وان ما يمكن أن يضيفه هو المصاحبات التي تصحب مشية بعينها ، وذلك مما يدخلها في نطاق الخاص لا العام ، ويمكن القول أيضا ان مثل تلك المصفوفة يمكن ان تستخدم في غرض محدود كتقرير اوصاف ونسبة ورود المشية في شعر شاعر بعينه . على انه يمكن اعطاء المصفوفة حيزا أكبر بأن يترك فراغ أفقي بحيث يتسع لأية اضافات جديدة .

١ ـ ط منهج البحث

بدراسة مادة البحث رأينا ان نبدأ بعرض نماذج من الشعر تبين بعضا من الاغراض التي يعمد فيها الشاعر العربي الى وصف المشية ، ثم

يتبع ذلك محاولة لتحديد الطرق التي يتبعها حين يتحدث عن المشية . وقد رأينا أن نحدد هذه الطرق بأربع هي :

الطريقة الاولى : وصف المشية دون ذكر اللفظ المعجمي الدال عليها .

الطريقة الثانية : جعل المشية مشبها ، أما المشبه به فتكون مشية او حركة واحد مما يأتي :

أ ـ انسان في وضع معين ، كالمشي في الوحل او فوق الكثبان الرملية .

ب ـ انسان يتصف بصفة بعينها كالأهدأ والأقبل .

جـ ـ حيوان كالنمر والجمل .

د ـ طائر كالقطا والغراب .

هـ ـ نبات كأغصان الشجر .

و ـ ظواهر الطبيعة كالسحاب .

ز ـ جماد كالرماح .

ح ـ رسم حروف الكتابة .

الطريقة الثالثة : حكاية صوت المشية

الطريقة الرابعة : وصف المشية باللفظ المعجمي الدال عليها .

ولما كانت الطريقة الرابعة هي السائدة في المادة موضع الدراسة فقد رأينا أن نركز عليها ، وأن نجعلها أساسا لتحديد مقومات المشية وصفاتها ، وقد رأينا أن أفضل معالجة للمشية وفقا لمادة البحث هو ان نحددها وفقا لخطين أساسيين :

الاول : خط رأسي وتقع عليه مقومات المشية والثاني : خط أفقي وتقع عليه صفات كل من هذه المقومات ودرجاتها ؛ وكذلك المصاحبات .

وتقسم الدرجات على خط مستقيم طرفه الأيمن الدرجة الدنيا والطرف الأيسر هو الدرجة القصوى ، وقد حددنا المقومات بثلاث هي :

(١) الخطو وله صفتان :

أ ـ السرعة ودرجاتها هي : بطيء ، ثقيل ، عادي ، سريع

ب ـ المسافة ، ودرجاتها هي : متقارب ، واسع .

(٢) الوطء ودرجاته ثلاث : ضعيف ، سهل (لين خفيف) شديد .

(٣) الاتجاه ودرجاته ثلاث : ملتو ، متجاذب يمينا وشمالا ، مستقيم .

أما المصاحبات فقد قسمناها على النحو التالي :

أ ـ خصائص حركية هي : هز الرأس ، طأطأة الرأس ، تحريك الرأس ، تحريك اليدين ، سرعة تقلب اليدين والرجلين ، رفع اليدين ووضعها ، الاعتماد باليد على الخصر ، تحريك الكتفين ، تحريك المنكبين ، هز المنكبين ، تحريك الذراعين ، تحريك العضدين ، تحريك الاليتين ، تحريك العجز ، تحريك الأعطاف ، تحريك الاعضاء ، تحريك الجسد ، تمايل الجسد ، نصب الظهر ، تقاعس ، تقليب القدمين ، سرعة الرفع والوضع ، كثرة الحركة ، القفز على رجل واحدة ، القفز على الرجلين ، الوطء بشدة باحدى الرجلين ، الوطء بشدة باحدى الرجلين ورفع الأخرى ، الوطء بشدة باحدى الرجلين ثم الاخرى على

التوالي ، اختلاف ، اهتزاز وارتعاش ، اضطراب ، اثارة التراب ، تراجع وتفكك .
ب ـ خصائص جسمانية هي : فحج ، قصر قامة ، غلظ ، ضخامة
جـ ـ صفات خلقية : العجب بالنفس ، التخفي
د ـ حالة نفسية : الغضب .

هـ ـ العمر : الهرم
و ـ الجنس : رجل ، امرأة
وبذلك يبلغ مجموع عدد المصاحبات ٤٤.

ولا يفوتنا أن ننوه بأن تعدد معاني الألفاظ قد نتج عنه تداخل في التصنيفات المختلفة مما أشرنا اليه في الهوامش حيثما اقتضى الأمر ، فنحن نجد مثلا أن البيتين رقم ١٢٨ ـ ١٢٩ قد أدرجا تحت ٢ حـ ـ ١ ـ أ ـ ١ (بطيء مع تمايل وعجب بالنفس) لورود اللفظ العجمي « الهوينا » في كل منهما ، غير أننا نجد في هذين البيتين في الوقت نفسه تشبيها بمشية السكران ، مما يمكن أن يدرج أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ أ (التشبيه بمشية انسان في وضع معين) وقد تحدث أكثر من حالتين من حالات التداخل كما هو الحال بالنسبة للبيت رقم ١٤٤ فقد أدرج مع اللفظ المعجمي « بدر من » تحت ٢ ـ حـ ـ ١ ـ أ ـ ٨ (بطيء مع شدة الوطء باحدى الرجلين) ولكننا نجد به في الوقت نفسه تشبيها بمشية طائر القطا مما يمكن ادراجه أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ هـ (التشبيه بمشية الطيور) كما جاء به ذكر لتقارب الخطو مما يمكن ادراجه تحت ٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ (متقارب) .

وقبل أن نبدأ بحثنا يجدر بنا أن نحدد مواقع أعضاء الجسم التي تشترك في المشية ، وذلك على النحو التالي :

الرأس
اليد
الكتف : عظم عريض خلف المنكب .
العنق
الكاهل : أعلى الظهر يلي العنق
الثبج : ما بين الكاهل الى الظهر
المرفق
العضد : غليظ الذراع وهو من المرفق الى الكتف
الذراع : من طرف المرفق الى طرف الأصبع الوسطى
الساعد : ما بين المرفق والكف
العطف : الجانب : عطفا الرجل جانباه
الظهر : من مؤخر الكاهل الى أدنى العجز
الخصر : وسط الانسان فوق الورك
الجذع : جسم الانسان ما عدا الرأس واليدين
العجز : مؤخر الجسم
الساق : ما بين الكعب والركبة
الرجل : القدم . الرجل خلاف اليد .
القدم : الرجل
الأوصال : الوصل . كل عضو على حدة . الجمع أوصال

(٢) البحث
٢ ـ أ المشية في الشعر العربي

سبق أن أشرنا في ١ ـ ب الى دلالات المشية . ومما يدل على اهتمام الشاعر العربي بتلك الدلالات انه جعل المشية واحدة من أربع خصائص يعرف بها عقل المرء ، فيقول الشاعر (١٠٤/٢/١٩) :

١ـ يعرف عقل المرء في أربع
مشيته أولها والحرك

٢ـ ودور عينيه وألفاظه
بعد عليهن يدور الفلك

وكما أن الروائي أو المؤلف المسرحي يتخذ من المشية بعدا جديدا لتحديد شخصياته فكذلك يفعل الشاعر العربي ، فهو يستخدم المشية في وصفه للشخصية ، مما سنحصيه فيما بعد . وهو لا يفعل هذا فحسب وانما نجده يستخدم المشية في أغراض الشعر الأخرى كالغزل والمدح والهجاء والفخر ، كما أنه يجعل منها مؤشرا يدل على المستحسن والمستهجن منها بالنسبة لثقافة أمته .

فأما **الغزل** فمن أمثلته قول **ابن سناء الملك** (١٦٠/١) :

٣ـ وأثقلَها الحسنُ الذي قد تكاثرت
ملاحته حتى تثنت من الثقل

وقول البهاء زهير من أبيات له (١٤٥/٧) :

٤ـ فيا مَشْيَ ذاك القوا
م ويا طي ذاك الحشا

٥ـ مشى لي في خِفْيَةٍ
فيا حبذا من مشى

وقول **أبي الحسن بن معبد** (٥٤/١٦) :

٦ـ ومهفهف طالت ذوائبُ فرعهِ
كالليل فاض على الصباح المسفرِ

٧ـ قصر الدلال خطاه فاعتقلت به
لي مقلة عن حبه لم تقصر

وأما عن **المدح** فنجد الاشارة الى المشية الحسنة من قول **الربيع بن أبي الحقيق** (١٨٣٩/٢١/٢٣) :

٨ـ رُبَّ عِلمٍ لي لو أبصرته
حَسنُ المِشْيَةِ في الدِّرعِ الزعفْ

ومن أمثلة **الذم والهجاء** ما يروى من أن **عبد الصمد بن المعذل** نظر الى جار له فقير رث الحال يختال في مشيته ويخطر خطرة منكرة ، فقال فيه (١٣٧/٥/٢٦) :

٩ـ يتمشى في ثوب عُصْب من العُرْ
يِ على عظم ساقه مسدول

وفي الهجاء الممزوج بالفكاهة يقول بهاء الدين زهير يصف مشية بغلة انسان ثقيل وكأنه يهجوه (٢٢٧/٧) :

١٠ـ لك يا صديقي بغلة
ليست تساوي خردلة

١١ـ تمشي فتحسبها العيو
نُ على الطريق مشكلة

١٢ـ وتخال مدبرة اذا
ما أقبلت مستعجلة

١٣- مقدار خطوتها الطو
يلة حين تسرع أنملة
١٤- تهتز وهي مكانها
فكأنما هي زلزلة

وتستخدم المشية في مجال الفخر فيقول علي ابن جبلة يصف رجله ومشيها (٦٤/١٤) :

١٥- اذا اتسعت لم يلحق الذرُّ شأوَها
وخامرها دون النزاع انبهارُها

ويقول **الشاعر** (٣٠٦٠/٣٤/٢٣) :

١٦- ليس براعي نعجات عَوْكَلِ
١٧- أحلَّ يمشي مِشيةَ المحجَّلِ

وحتى في مجال الرثاء نجد الفخر بمشية بعينها . فهذا هو أبو زيد القرشي يرثي ابن أخته بقصيدة طويلة يشيد فيها ببلائه في الحرب بعد أن تخلى عنه سائر الفرسان ، ويصفه بأنه رغم ذلك يمشي مشية رويدا ، لا مشية من سحقه العدو فيقول (١٤٩/٣١ ، البيت ١٨ :

١٨- غير ما ناكلٍ يسير رويدا
سير لا مرهق ولا مهدود

وفي تحديد المشية الحسنة والمشية القبيحة نجد الشاعر العربي يحث على المشية الحسنة باستخدام صيغة الفعل الأمر ، كقول **عدي بن زيد** (٣٤٤/١/٥) :

١٩- فامش قاصدا اذا مشيت وأبصر
إن للقصيد منهجا وجسورا

وقول **حسان** (٣٣٦/٤/٢٧)

٢٠- ذروا التخاجيء وامشوا مشية سُجُجا
ان الرجال ذوو عصب وتذكير

كما نجده ينهى عن المشية القبيحة باستخدام أداة النهي كقول **ابن عبد ربه** في خدمة السلطان وصحبته من أبيات له (١٥٢/٣/٢٩) :

٢١- ولا تتبختر صيِّتَ النعل زاهيا
ولا تتصدر في الفراش الممهد

٢ - ب طرق معالجة الشاعر العربي للمشية

٢ - ب - ١ الطريقة الأولى : وصف المشية دون ذكر اللفظ المعجمي الدال عليها

من أمثلتها ما أوردناه من نماذج تحت ٢ - أ ، الأبيات ٣ - ١٧

٢ - ب - ٢ الطريقة الثانية : التشبيه .

٢ - ب - ٢ - أ التشبيه بمشية انسان في وضع أو موقف معين

يقول **العباس بن الأحنف** : في وصف تمشي المرأة بالهوينا ، أي في تؤدة ورفق :

٢٢- كأنها حين تمشي في وصائفها
تمشي على البَيْضِ أو فوقَ القواريرِ

وفي وصف المشية المتثاقلة يقول ماني المجنون (٣٨٣/١٨) :

٢٣- وكأنهن اذا أردن خطا
يقلعن أرجلهن من وحل

ويقول العجاج (١٠٩٨/١٣/٢٣) :

٢٤- فقد سبتني غير ما تعذير
٢٥- تمشي كمشي الوحل المبهور
٢٦- على خبندى قصب ممكور

فالوحل (بالفتح والكسر المتلطخ بالوحل ، والمبهور : المقطوع النفس من الاعياء . وقصب خبندي :

ممتلىء ريان ، والمكره : الساق الغليظة الحسنة .

وفي وصف المشية الآمنة تقول جنوب أخت عمرو ذي الكلب ترثيه (٦٤٩/٨/٢٣) :

٢٧- تمشي النسور اليه وهي لاهية
مشى العذارى عليهن الجلابيب

ويشبه الراجز مشية الأقعس ، وهو من خرج صدره ودخل ظهره ، بمشية النفساء فيقول (١١٤٣/٣/١٢) :

٢٨- رب شريب لك ذي حساس
أقعس يمشي مشية النفاس

(أنظر أيضا « يقعس » الفاظ رقم ١٦ البيت رقم ١٣٦ .

ونجد تشبيها بمشية الهرابذة وهم يحجون الى صنمهم في قول جرير (١٥٨/٦)

٢٩- يمشي بها كل موشيٍّ أكارعُه
مشى الهرابذ حجوا بيعة الزون[١٢]

كما نجد تشبيها بمشية العروس في قول الشاعر (١٣١/٢/٢٣) :

٣٠- مرت بنا أول من أموس
تميس فينا مشية العروس

(أنظر أيضا « تميس » الفاظ رقم ٥)

ومشية السكران في قول الشاعر (١٤١٠/١٦/٢٣) :

٣١- قد ارلَغَفَّتْ وهي لا تراني[١٣]
٣٢- الى متاعي مشية السكران .

وقول أبي الطيب المتنبي (٣٠٧/٤/٣٢) :

٣٣- ما زال طرفك يجري في دمائهم
حتى مشى بك مشي الشارب الثمل

ويصف الراجز مشية الأهوج بأنها كمشية المألوس ، وهو الضعيف العقل أي المجنون الذي ذهب عقله فيقول (١٠٧/٢/٢٣) :

٣٤- يتبعن مثل العُمَّجِ المنسوسِ
٣٥- أهوج يمشي مشية المألوس

ونجد مشية المخبل ، وهو المشلول ، مشبها به في قول رجل من بني العنبر في وصف النخل (٥٨/٣١) :

٣٦- ترى الشارب السكران من حلباتها
اذا راح يمشي مثل مشي المخبل

وحين يصف امرؤ القيس تهاوي المرأة وتثاقلها في مشيتها فانه يصف تلك المشية بمشي النزيف ، وهو الذي نزف دمه حتى صار لا يقدر أن يسرع في المشي لما أصابه من الضعف ، خصوصا اذا كان المكان مما يصعب السير فيه كأكثبة الرمال ، فيقول (٦٣/٣٣) :

٣٧- واذا هي تمشي كمشي النزيـ
ـف يصرعه بالكثيب البهر
٣٨- برهرهة رودة رخصة
كخرعوبة البانة المنفطر

ونلاحظ في البيت الثاني تشبيها بحركة النبات (أنظر ٢ - ب - ٢ - و)

---

١٢ - الهرابذة : المجوس الذين يقومون على بيوت النار التي للهند ، وقيل هم عظماء الهند أو علماؤهم ، والواحد هربذ ، والزون : الصنم .
١٣ - قال الليث : الادلغفاف : مشى الرجل متسترا ليسرق شيئا .

ويشير البحتري الى مشية الخاشع المتواضع في قصيدة بمدح الخليفة المتوكل ويهنئه بعيد الفطر فيقول (٢٧٩/٣ و ٢٥٩/٢/٢٩) :

٣٩- ومشيت مشية خاشع متواضع
لله لا يُزهى ولا يتكبر

وفي الوطء الثقيل نجد تشبيها بمشية المقيد ، اذ يقول الحارث بن وعلة الشيباني من قصيدة يصف فيها الحرب التي خاضها مع قبيلته (١١٨/٣١ ، البيت العاشر) :

٤٠- ووطئنا وطأ على حنق
وطأ المقيد نابتِ الهرم

يعني وطأ ثقيلا ، ووطأ المقيد أثقل لأنه لا يحمل يديه .

٢ ـ ب ـ ٢ ـ ب التشبيه بمشية انسان يتصف بصفة بعينها

من أمثلته التشبيه بمشية « الأقبل » وهو من كان في عينيه قبل ، كأن ينظر الى طرف أنفه والاقبال نظر كل من العينين على الأخرى ، فيقول ساعدة بن جوية (٣٠١٤/٣٤/٢٣) :

٤١- كمشي الأقبل الساري عليه
عفاء كالعباءة عفشليل[١٤]

ونجد تشبيها بمشية « الأهدأ » وهو الأحدب ، في قصيدة لأبي النجم العجلي يتحدث فيها عما اعتراه من آيات الكبر فيقول (٣٢٤/٥ ، ٣٢٩ البيت الخامس) :

٤٢- حتى اذا بَعْدَ السخَّام الأفرع
يمشي كمشي الأهدأ المكنع[١٥]

فهو يقول : يمشي أبو النجم بعد الشباب كما يمشي الأحدب المتقبض الكز من الكبر ، فالمكنع هو المتقبض .

كذلك نجد تشبيها بالرجل « الأصور » وهو البين الصور ، أي مائل الجسم وذلك في قول أبي كبير ٢٠٨/٣/٢٣) :

٤٣- ثم انصرفت ولا أبثك حيبتي
رعش البنان أطيش مشي الأصور

ونجد تشبيها بمشية الجنيب ، ويقال رجل جنيب : كأنه يمشي في جانب متعففا . أنشد ابن الأعرابي (٦٩١/٨/٢٣)

٤٤- ربما الجوعُ في أونَيْهِ حتى كأنه
جنيبٌ به إن الجنيبَ جنيبُ

أي أنه جاع حتى كأنه يمشي في جانب متعقفا

وتشبه المشية المتمايلة ، التي يتمايل فيها الماشي كأنما يجتذب مرة يمنة ومرة يسرة ، بمشية المجنون : قال الشاعر (١٢٢٣/١٤/٢٣) :

٤٥- أقبلت تنفض الخلاءَ بعينيـ
ـها وتمشي تخلُّج المجنونِ

ومن الطريف أننا نجد أن الشاعر العربي لا يقتصر في هذا المجال على مشية الانسان ، وانما نراه يجعل مشية الحيوان مشبها ، ومشية الانسان مشبها به ، وعلى نقيض ما أوردناه آنفا . مثال

١٤ ـ الجوهري : العفشليل : الرجل الجافي الغليظ والكساء الغليظ . وقد ورد هذا البيت في لسان العرب (٣٠٩/١٩/٢٤) بلفظ « الأفتل » بدل « الأقبل » وهو من تباعد حنبيه كأنها فتلا .

١٥ ـ جاء ذكر الاهدأ أيضا في البيت رقم ٨٨ .

ذلك قول عمارة بن صفوان الحارث من قصيدة يصف فيها ناقته ، ويشبه مشيتها بمشية المرأة الخرقاء التي مال خمارها وشمر ذيل بردها (٥٦/٣١ ، البيت الثالث) :

٤٦ـ مشت مشية الخرقاء مال خمارها
وَشُمِّرَ عنها ذيلُ بردٍ ومنطق

وقول عمر بن لجاء يشبه مشية الناقة بمشية المرأة العانس التي تتبختر (٥٣٧/٧/٢٣) :

٤٧ـ تمشي الى رواء عاطناتها
٤٨ـ تجبس العانس في ريطاتها

قال أبو عبيد : تجبس في مشيه تجبسا اذا تبختر

وقول عمرو بن عقيل بن الحجاج الهجيمي من قصيدة يشبه مشية القطا بمشية فتاة مسرعة (٢٢/٣١)

٤٩ـ تمشي كمشي فتاة الحي مسرعة
حِذارِ قومٍ الى سِتْرٍ يواريها

وقول المخبل السعدي من قصيدة ، يشبه مشية البقر بمشية النبطيين عند الحج (٢٠٢/٣٠) :

٥٠ـ تمشي به عين النعَّاج كأنها
نبيط توافي الحجَّ حانتْ منازِلُهْ

والعين (بكسر العين) العظام العيون .

ويشبه الشماح مشية بقر الوحش في سواد قوائمها وبياض أبدانها بمشية رجال بيض قد لبسوا خفافا سودا فيقول (١٤٦٣/١٧/٢٢) :

٥١ـ ودوية مَغْرٍ تمشّي نعاجها
كمشي النصارى في خفاف الأرندج

الأرندج والبرندج : الجلد الأسود وتعمل منه الخفاف ، والدوية : المفازة

كما نجد أن ذا الرمة يشبه الثور وهو راجع من غدائه من المرعى وقت الغداء اذا ارتفع النهار بمشية الماضي في أمره المسرول ، فيقول (٢٥٦٠/٢٩/٢٢ ٢١٠/١٩/٢٣) :

٥٢ـ ترى الثورَ يمشي راجعاً من ضحائه
بها مِثْلَ مشي الهبرزيّ المُسَرْوَلِ

ويشبه الشاعر مشية راحلته بمشية الفاجرة من النساء فيقول (١١٣٧/١٣/٢٢) :

٥٣ـ تمشي أمام العيس وهي فيها
٥٤ـ مشيَ الخريعِ تَرَكَتْ بنيها

٢ ـ ب ـ ٢ ـ جـ التشبيه بمشية الحيوان

أما عن التشبيه بمشية الحيوان فمن أمثلته النشبية بمشية الحباب ، وهي الحية كقول ابن أبي ربيعة (٩٥٦/٣/١٢)

٥٥ـ وخفض عني الصوت أقبلت مشية الـ
ـحباب وركني خيفة القوم أزور

وقول حمد بن يحيى النحوي يصف امرأة تثني في مشيتها (٨٢/١٦/٢٠)

٥٦ـ مُنَعَّمَةٌ يحارُ الطرفُ فيها
كأنَّ حديثها سكرُ الشبابِ
٥٧ـ من المتصديات لغير سوء
تسيل اذا مشت سَيْلَ الحُبابِ

وقول عمر بن ربيعة من قصيدة (١٤٢/٢/٢٩) :

٥٨ـ فارجحنت في حسن خلق عميم
تتهادى في مشيها كالحُباب

وقول مطيع بن اياس (٤٥١/٢/٢٥) وقد غناه حكم الوادي للوليد بن زيد (٤٥١/٢/٢٥) :

٥٩ـ إكليلها ألوان
ووجهها فتّان

٦٠ـ وخالها فريد
وليس له جيران

٦١ـ اذا مشت تثنت
كأنها ثعبان

ونجد صخر الغي يشبه مشيته على رسله دون أن يسرع حين تهب الريح الباردة فيقشعر وينقبض بمشية السبنتى (وهو النمر) وكأنه في مشيته تلك نمر يتلمس خطاه في ليلة باردة فيقول (٢٧٨/١٥) :

٦٢ـ وماءٍ وردتُ على زورةٍ
كمشي السبنتى براح الشفيفا

ومثله قول أبي المثلم لصخرٍ هذا (٢٧٨/١٥) :

٦٣ـ يا صخر ثم استقى ثم استمركما
يمشي السبنتي سرَوبٌ ظَهْرُهُ خَضِلُ

ويشبه الشاعر مشية الشر والهجوم والغضب بمشية الليث الغضبان فيقول (٧١/٣١) :

٦٤ـ فلما صرَّحَ الشَّرُ
فأمسى وهو عريانُ

٦٥ـ مشينا مشية الليثِ
غدا والليث غضبانُ

وفي ذم المشية المختالة نجد تشبيها بمشية الفحل ، فتقول الشموس عميرة بنت غفار الجديسية من قصيدة تحرض قومها على عملاق الملك (٢٣٨/٢/٥ و ٧٥/٥/٢٦) :

٦٦ـ فبعدا وسحقا للذي ليس دافعا
ويختال : يمشي بيننا مشية الفحل

ونجد تشبيها بمشية الجمال في قول كعب بن زهير من قصيدة (٦٩/٢/٣٠) :

٦٧ـ يمشون مشي الجمالِ الزُّهْرِ يعصمهم
ضرب اذا عرَّدَ السودُ التنابيلُ

ومن جهة أخرى تشبه المشية السريعة بارقال الجمال وهو سرعة سيرها فيقول النابغة الذبياني (٢٩/٢/٣٠) :

٦٨ـ اذا ستنزلوا عنهن للطعن أرقلوا
الى الموت ارقال الجِمال المصاعبِ

ونجد تشبيها بمشي الظباء قول سحيم عبد بنى الحسحاس (٥٨/٨) :

٦٩ـ أبصرتها تميل كالوسنان
من الظباء الخُرَّدِ الحسانِ

٧٠ـ تمشي بمثل القدح الجيشاني

٢ ـ ب ـ ٢ ـ د التشبيه بمشية حيوان في وضع معين أو يتصف بصفة بعينها

يشبه صخر الغي المشية المتثاقلة بمشي جمال الحيرة ، وكأن صخراً خرج هو وجماعة من أصحابه الى بعض متوجها ثم صادفوا في

طريقهم بني المصطلق فهرب أصحابه فصاح بهم وهو يقول (٢٣/٣٦/٣٢٧٤) :

٧١- يا قومُ ، ليست فيهم غفيرةْ
٧٢- فامشوا كما تمشي جِمالُ الحيرةْ

يقول صاحب اللسان في شرح البيتين : يقول : لا يغفرون ذنب أحد منكم ان ظفروا به ، فامشوا كما تمشي جمال الحيرة

يقول صاحب اللسان في شرح البيتين : يقول : لا يغفرون ذنب أحد منكم ان ظفروا به ، فامشوا كما تمشي جِمال الحيرة ، أي تثاقلوا في سيركم ولا تخفوه ، وخص جمال الحيرة لأنها كانت تحمل الأثقال ، أي مانعوا عن أنفسكم ولا تهربوا .

ونجد تشبيها بمشية المهار وهي تلقى الوحل فيقول الشاعر (٢٧/٢١٤) :

٧٣- يبدحن في أسوق خُرسٍ خَلاخِلُها
مشيَ المهارِ بماء تتقي الوَحَلا

ونرى ابن بري يشبه المشية التي بها غمز وعثار بمشية الرهيص ، وهي الدابة التي يذوى باطن حافرها من حجر تطؤه ، فيقول (٢٣/٥/٣٥٠) :

٧٤- بيضاء تمشي مشية الرهيص .

ويشبه الشاعر مشية امرأة من العواهج (وهم قوم من العرب) بمشية العشراء الفاسج ، وهي الناقة التي تمشي تفرج بين رجليها وقد مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، أو هي كالنفساء من النساء فيقول (٢٣/٣٥/٣١٤٨) :

٧٥- يا رب بيضاء من العواهج
٧٦- شرَّابة اللبن العماهج
٧٧- تمشي كمشي العُشَراءِ الفاسج

قال الأعرابي : العماهج : الألبان الجامدة ، وقال الليث : العماهج اللبن الخاثر من ألبان الابل .

ونجد الأفوه الأودي يشبه بمشية البعير الرعيس ، والرعس : هز الرأس في السير ، وناقة راعسة ، تهز رأسها في سيرها ، وبعير راعس ورعيس كذلك والرعسان : تحريك الرأس ورجفانه من الكبر : يقول الإفوه الأودى (٢٣/١٩/١٦٧٠) :

٧٨- يمشي خلال الإبل مستسلما
في قدِّه مشى البعير الرعيس

ونجد وصفا لمشية الألد ، وهو الرجل العظيم الخلق ، بتشبيهها بمشية الأبَدِّ ، وهو الفرس البعيد ما بين الرجلين ، وذلك في قول الشاعر (٢٧/١/١٧٦) .

٧٩- ألَدُّيمْشَيْ مشِية الأبَدِّ

٢ - ب - ٢ - هـ التشبيه بمشية الطيور

أما التشبيه بمشية الطيور فنجد أن الشعراء يشبهون المشية المتقاربة الخطا بمشية القطاة ، وتوصف مشية المرأة بصفة خاصة بمشية القطاة لتقارب الخطو ، فيقول الشاعر (٢٣/٢٥) :

٨٠- يتمشين كما تمـ
ـشي قطا أو بقرات

ويقول أبو العلاء المعري (١٩٩٦/٥/١٢ ، الدرعية الثامنة والعشرون ، البيت الثامن) :

٨١ـ قصار الخطو يدر من أو مشية القطا
فكيف اذا ما سِرْنَ في الحلق الدَّرْمِ

يقول التبريزي في شرحه للبيت : يدرمن من الدرمان ، وهو شبه العرج ، أو يمشين مشية القطا ، أي قصار الخطا غير لابسات الدروع فكيف اذا لبسنها .

ويقول جران العود (١٩٩٦/٥/١٢) :

٨٢ـ ولما رأين الصُّبْحَ بادرنَ ضَوْءَهُ
رسيم قطا البطحاء أَوْ هُنَّ أَقْطَفُ

ويقول المنخل بن الحارث اليشكري (١٩٩٦/٥/١٢) :

٨٣ـ فدفعتها فتدافعت
مشي القطاة الى الغدير

ويقول سحيم عبد بني الحسحاس من قصيدة (٣٥/٨ البيت الرابع) :

٨٤ـ وماشية مشي القطاة اتبعتها
من الستر نخشى أهلها أن تكلما

ويقول الكميت (١٩٩٦/٥/١٢) :

٨٥ـ يمشي مشي قطا البطاح تأودًا
قُبَّ البطونِ رواجحَ الأكفالِ

كذلك تشبه المشية المتقاربة الخطو بمشية النعام ، كقول أبي الفتح البستي الكاتب من قصيدة له (٦٧٥/٨/٣٤) :

٨٦ـ ثم انثنت مثل المهى
وتبعتها رتك النعام[١٦]

فالرتك هنا مقاربة الخطو

كذلك نجد تشبيها بمشية الظليم وهو ذكر النعام في قول عمر بن لجأ ١٠٤٦/١٢/٢٣ :

٨٧ـ حَوَّزها من بُرَقِ الغَميم
٨٨ـ أهدأ يمشي مشية الظليم

(أنظر البيت رقم ٤٢ حيث ورد لفظ (الأهدأ) .

ومن الطيور التي تشبه بمشيتها أيضا الغراب . قال خلف الأحمر يهجو العتبى والفيض ابن عبد الحميد (٢١٤/٦ ، ٣٣١)

٨٩ـ لنا صاحب مولع بالخلاف
كثير الخطاء قليل الصواب
٩٠ـ ألج لجاجاً من الخنفساء
وأزهى اذا مامشى من غراب

قال الجوهرى : قلت لأعرابي من بنى سليم : ما معنى زها الرجل ؟ قال : أعجب بنفسه .

٢ ـ ب ـ ٢ ـ و التشبيه بحركة النبات .

مما يشبه به من النبات اغصان الشجر ، وكذلك النخل ، فالمشية المتثنية المتكسرة تشبه بتثني **الغصن** ، كقول **البحترى** في الغزل (٦٣/٢)

٩١ـ لست أنساه بادياً من بعيد
يتثنى تثنى الغُصْنِ غضًّا

١٦ ـ جاء في صدر هذا البيت تشبيه المشية المتثنية بحيوان هو المهى ، مما يمكن ادراجه أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ ج .

وتشبه المشية اللينة بالأود ، فيقول رجل من قيس (٣٢٧٣/٣٦/٢٣) :

٩٢- يحملن سربا غطى،فيه الشباب معا
واخطأته عيون الجن والحسد

٩٣- ساجي العيون غضيض الطرف تحسبه
يوما اذا ماامشى في لينه أود

ويشبه ابن مقبل المشية باهتزاز العيدان ، وهى النخل الطوال ، فيقول (٢٨٤٤/٣٢/٢٣)

٩٤- يهززن للمشي أوصالا مُنعمَّةً
هز الجنوب ضُحىً عيدان يَبْرِينا

٢ - ب - ٢ - ز التشبيه بظواهر الطبيعة

ويشبه الأعشى المشية الوئيدة التى لاريث فيها ولاعجل بمر السحاب فيقول (١٦١/١ و ١٩/٢٠) :

٩٥- كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحاب لاريث ولا عجل[١٧]

٢ - ب - ٢ - ح التشبيه بالجماد

وتشبه المشية المهتزة ايضا باهتزاز الرماح التى تحركها الريح وتميل بها ، كقول الشاعر (٢٨٧٢/٣٢/٢٣) :

٩٦- مشين كما اهتزت رماحُ تسفَّهتْ
أعاليها مرُّ الرياحِ النواسمِ

٢ - ب - ٢ - ط التشبيه برسم حروف الكتابة

ونجد تشبيها للمشية برسم الحروف في قول الشاعر يصف المشية غير المستقيمة (٣٥٧/٣/٢٨)

٩٧- اقبلت من عند زياد كالخَرِفْ
تخط رجلاى بخط مختلف

٩٨- تكتبان في الطريق لام ألف

٢ - ب - ٣ الطريقة الثالثة : حكاية صوت المشية

اما عن الطريقة الثالثة وهى التي يعمد فيها الشاعر الى حكاية صوت المشية دون ذكر اللفظ الدال عليها فمن امثلتها ما انشده الأعرابى (٣١٧/١٢/٢٤) :

٩٩- ان زرته تجده عَكٍّ وَكَّا
مشيته في الدار هاك ركَّا[١٨]

وهاك ركّ ، حكاية تبختره

٢ - ب - ٤ الطريقة الرابعة

اما الطريقة الرابعة فهى ان يصف الشاعر المشية باللفظ المعجمى الدال عليها .

وبدراسة هذه الالفاظ امكن تحديد مقومات المشية ودرجاتها ومصاحباتها

٢ - ج مقومات المشية ودرجاتها ومصاحباتها

سبق أن أو ضحنا هذا كله في منهج البحث (انظر - ١ - ط) ونفصل الآن كلا على حدة

٢ - ح - ١الخطو

(السرعة) ٢ - ح - ١ - أ **بطىء** (انظر أيضا الفاظ رقم ٦٤ - ٦٦)

---

١٧ - هذا البيت يلي البيت رقم ١٢٥ .

١٨ - ورد في لسان العرب (٣٠٥٩/٣٤/٢٢) « إزرته » بدل « إن زرته » ويقول الشارح : وقولهم ائتزر فلان ازره علّ وكّ ، وازرة عكّى ، وهو أن يسبل طرفى ازاره ويضم سائره .

١ ـ تـزابى   مشى مشية فيهـا بطء . قال رؤ بة (١٣١٥/١٥/٢٣)

١٠٠ـ اذا تزابي مشية ازائبا

١٠١ـ سمعت من اضواتها دبادبا

ويلاحظ ان لفظ « دبادبا » هو حكاية صوت المشية كما جاء بيانه في ٢ ـ ب ـ٣

٢ ـ رويد   الرود والرؤد المهلة في الشىء . وفلان يمشى على رود ، اى على مهل . قـال الشاعر (١٨٢٦/٢٢/٢٣)

١٠٢ـ وسـرت المـطيـة مـودوعـة
تـضحـى رويـدا وتمشـى زرينـا

يقول : لقد كبـرت وصار مشيى رويـدا ، وانما شدة السير وعجرفته للشباب ، والرجل في ذلـك كـالنـاقـة وقـال الجموح الـظفرى (١٧٧٣/٢٠/٢٣)

١٠٣ـ تكـاد لاتثلم البـطحـاء وطأتهـا
كـأنها ثَـمِـلٌ يمشـى عـلى رود[١٩]

وقال الشاعر (٣٠٨/٤/٢٣) .

١٠٤ـ لـيـلة امـشـى عـلى مخـاطـرة
مشيـارويـدا كـمشيـة البعـج[٢٠]

رجل بعج (بالفتح والكسر) ضعيف كأنه مبعوج البطن من ضعف مشيته

٢ ـ ح ـ ١ ـ أ ـ ١ بـطىء مـع تمـايـل وعجب بالنفس (انظر أيضا الفاظ رقم ٦٧ ـ ٧٨)

٣ـ أخطر   الخاطر : المتبختر . يقال خطر يخـطر اذا تبختر . قـال أبو نـواس في معرض التحسر على الشباب (٨٩/١٣) :

١٠٥ـ كـأن الشبـابَ مـطيـةُ الجهـلِ
ومُحَـسِّـنُ الـضـحـكـاتِ والهـزلِ

١٠٦ـ كـأن الجمـال اذا ارتـديت بـه
ومـشـيـت أخـطـر صيِّـت الـنـعـل

وقال البهاء زهير (١٣٢/٧)

١٠٧ـ مـالى عـلى الـغـبـن قُـدْرَةٌ
وانـت قـد زدت غـرَّه

١٠٨ـ تمـشى لـتـظهـر عـجـبـا
اذا مـشـيـت وخَـطْرَهْ

وقال عبد الله بن العباس وكان أمره الواثق ان يصنع هزجا فقال أبيات منها (٣٢٤/٥/٢٦)

١٠٩ـ زارنى يخـطر في مـشـيـتـه
حـولـه مـن نـور خـديـه قـبس

٤ ـ بختري   بختر بخترة وتبختر : مشى مشيـة المتكبـر المعجب بنفسـه . وفي حـديث الحجاج لما دخل عليه يزيد بن المهلب أسيرا فقال الحجاج (٣١٩/٣/٢٣) :

١١٠ـ جميل المحيا بختري اذا مشى

ويقول ابن عبد ربه في خدمة السلطان وصحبته من أبيات له (١٥٢/٣/١٩) :

١١١ـ ولا تتبخـتَرْ صَيِّتَ النعلِ زاهيـا
ولا تتصـدر في الفـراش الممهَّـدِ[٢١]

---

١٩ ـ هذا البيت يمكن ادراجه أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ أ ، حيث الشبيه بمشية انسان في وضع معين .

٢٠ ـ يمكن ادراج هذا البيت أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ ب حيث التشبيه بمشية انسان يتصف بصفة بعينها .

٢١ ـ سبق ورود هذا البيت تحت رقم ٢١ ولذلك لم نعطه رقما هنا .

٥ ـ تميس الميس مشيــة فيها تمــايــل واختيـال ، كقول العشـار (وهـو مـا سبق ان اوردناه تحت رقم (٣) (١٣١/٢/٢٣)

١١٢ـ مـرت بـنـا أول مـن أمـوس
تمـيس فـيـنـا مـشـيـة الـعـروس

٦ ـ تهادى قال سحيم عبد بنى الحسحاس من قصيدة (١٩/٨) :

١١٣ـ ألكِنْي إليهـا عُمْـرَكَ الله يـافتى
بـآيـة مـا جـاءت الينـا تهـاديـا[٢٢]

١١٤ـ تهـادى سيـل في أبـاطـح سهلة
اذا مـاعـلا صـمـدا تـفـرع واديـا

وقال الشاعر (١٨٨٨/٢١/٢٣) :

١١٥ـ ومـشيـهـن بـالـكـثـيـب مـور
كـما تهـادى الـفـتـيـات الـزور[٢٣]

وقال الشاعر ايضا (٢١٩/١٤/٢٤) :

١١٦ـ قـامت تهـادى مشيهـا الهِرْكَـلا
بـيـن فـنـاء الـبـيـت والمُـصَـلَّى

وحكى ابن برى عن قطرب : الهركلة : المشي الحسن .

٧ ـ الجيضّ (بـالكسر والفتـح والفتـح المشدد) قال ابـو عمرو : المشيـة الجيض فيها اختيـال وجـاض في مشيتـه : تبخـتـر وهى الجيض ، بفتـح الياء وهى مشيـة يختـال فيهـا صاحبها قال رؤ ية (٧٣٩/٩/٢٣)

١١٧ ـ من بعد جذبي المشية الجيضّ
١١٨ ـ فقد أفدى مشية منُقَضاً

٨ ـ الخـوزري (بالفتـح والسكـون والفتـح) الخوزري والخيزري والخيزلي والخوزلي : مشية فيها تبختر .

قال عروة بن الورد (١١٤٨/١٣/٢٣) :

١١٩ـ والناشئات الماشيات الخوزري
١٢٠ـ كعنق الأرام أوفى أو صرى[٢٤]

٩ ـ ذالت ماست وتبخترت ـ قال طرفة بن العبد (٤١/٢/٣٠)

١٢١ـ فـذالت كـما ذالت وليـدة مجلس
تـرى ربهـا اذيـال سـحـل ممـدد

١٠ ـ السبـطرى (بـالكسـر والفتـح والسكـون) الانبساط في المشي والسبـطري : مشية التبختر قال العجاج (١٩٢٤/٢٢/٢٣)

١٢٢ـ يمشي السبطرى مشية التبختر

١١ ـ مياحه ماح الرجـل : مشى مشية البطة ، أي مشى يتبختر وهـو ينظر في ظله ، تميح : تبختر في مشيته . تميل يمينـا ويسارا . تمـايـح : تمـايـل . قـال الـعـجـاج (٣٠٩٦/٣١/٢٣)

١٢٣ـ مياحه تميح مشيا وهوجا
١٢٤ـ تدافع السيل اذا تعمجا

---

٢٢ ـ الكني ، أي أبلغها عني رسالة ، والمألكة (بضم اللام وفتحها) : الرسالة ، وهي الألوك .

٢٣ ـ ورد هذا البيت في معجم مقاييس اللغة (٣٧/٣/٢٣) على النحو التالي :

ومـشـيـهـن بـالخـبـيـث المـور كـما تهـاوى الـفـتـيـات الـرور

والخبيب مصغر الخب بالضم ، وهو الغامض من الأرض .

٢٤ ـ معنى أوفى : أشرف ، وصرى : رفع رأسه .

١٢ ـ هركوله هركل هركلة (بالفتح والسكون والفتح) مشي الهرقل في اختيال وبطء (هرقل بالكسر والفتح او الكسر والسكون : من ملوك الروم) . قال الشاعر (٢٣/٢٠/١٧٥٦ و ٢٤/١٢/٣١٩) :

١٢٥ـ حُيِّيتَ من هركولة ضَناكِ
١٢٦ـ قامت تهز المشي في ارتهاك(٢٥)

١٣ ـ الهويني الهويني تصغير هوني مؤنث اهون (وقد جاء رسمها في بعض الابيات بالياء وبعضها الآخر بالالف) الاختيال والتبختر وهي مشية مستحسنة بالنسبة للمرأة ، قال اعشى قيس (١٧/١٠٤ و ٣/٢/٣٢) :

١٢٧ غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوجل(٢٦)

يقول الشارح : الوجى : الذي يشتكي حافره ولم يحف بعد ، فيكون مشيه متثاقلا فكيف اذا كان وحلا ؟ أي يمشي في الوحل . يعني ان هذه الجارية لسمنها وتدللها تمشي متمهلة متمايلة .

وأنشد ابو الحسن علي بن عبدالعزيز الاعرابي (١٩/٤/٤٨)

١٢٨ـ جارية في سفوان دارها
تمشي الهوينا مائلا خمارها(٢٧)

وقال ربيعة الرقي من قصيدة يصف مشية « ليلى » واترابها (١٨/١٦٩) :

١٢٩ـ فأقبلن من شتى ثلاثا وأربعا
وثنتين يمشين الهوينا تأودا

وقال من قصيدة يتغزل في حبيبته « سعاد » (١٨/١٦٨ ، البيت ٣٢) :

١٣٠ـ مرتجة الردف مهضوم شواكلها
تمشي الهوينا كمشي الشارب الثلم(٢٨)

وفي هذا المعنى ايضا يقول جرير من قصيدة (٣٠/١٠٨ ـ ١٠٩ ، البيت ١٦) :

١٣١ـ عطر الثياب من العبير مذيل
يمشي الهوينا مشية السكران

وقال ابن خفاجه الأندلسي من ابيات (٣/٣٤٢) :

١٣٢ـ يمشي الهوينى نخوة ولربما
أطرته طورا نشوة وشباب

وقال البولاني (٢٣/١٠/٨٥٤)

١٣٣ـ لما رأت أن زُوِّجَتْ حَـزَنْبَـلا
ذا شيبة يمشي الهوينا حوقلا

الحزنبل من الرجال : القصير الموثق الخلق ، وقيل هو القصير فقط

٢ ـ ج ـ ١ ـ أ ـ ٢ بطيء مع تمايل وعجب بالنفس وغلظ وقصر قامة

---

٢٥ ـ ورد هذان البيتان تحت رقمي ١٩١ ـ ١٩٢ مع لفظ آخر هو « ارتهاك » ، ألفاظ رقم ٥١ .

٢٦ ـ هذا البيت يسبق البيت رقم ٩٥. ويمكن ادراجه أيضا تحت ٢ ـ ب ٨ ٢ ـ د ، حيث التشبيه بمشية حيوان في وضع معين .

٢٧ ـ قيل أن هذا البيت لنافع بن لقيط وقيل هو لمنظور بن مرثد الأسدي . وقد ورد في لسان العرب (٢٢/٢٣/ ٢٠٣٥ و٢٢/٣٣/٢٩٦٩) بلفظ « بسفوان » بدل « في سفوان » و « ساقا » بدل « مائلا » .

٢٨ ـ الشواكل : الخواطر . ثلم ثلما وأثلم : حدث فيه خلل . ويلاحظ ان هذا البيت (رقم ١٢٨) والبيت الذي يليه (رقم ١٢٩) يمكن أيضا ادراجهما تحت ٢ ـ ب ٢٠ ـ أ حيث التشبيه بمشية إنسان في وضع معين .

١٤ ـ زَوَنَّكْ (بالفتح وتشديد الواو)
الزونك من الرجال القصير الحياك في مشيته (انظر « حيكان » الفاظ رقم ٧٦) وقال ابن الاعرابي : هو المختال في مشيته الرافع نفسه فوق قدرها الناظر في عطفيه ، الرائي ان عنده خيرا وليس عنده ذلك وانشد (١٨٧٣/٢١/٢٣)

١٣٥ـ تَرْكَ النساءِ العاجزَ الزوَّنكا

ورجل زونك اذا كان غليظا الى القصر . .
قال منظور الدبيري (١٨٧٣/٢١/٢٣)

١٣٦ـ وبعلها زونَّك زونزي
يخصف إن فُزِّعَ بالضبغطي[٢٩]

٢ ـ ح ـ ١ ـ أ ـ ٣ بطيء مع تمايل وعجب بالنفس وغلظ وضخامة

١٥ ـ الجواظ الجواظ : الكثير اللحم الجافي الغليظ المختال في مشيته وفي نوادر العرب رجل جياظ : سمين سمح المشية ، قال رؤبة (٧٢٧/٩/٢٣)

١٣٧ـ وسيف غياظ لهم غياظا
١٣٨ـ يعلو به ذو العضل الجواظا

٢ ـ ح ـ ١ ـ أ ـ ٤ بطيء مع تمايل وعجب بالنفس ورفع اليدين ووضعهما

انظر الفاظ رقم ٧٩ « خزف » .

٢ ـ ج ـ ١ ـ أ ـ ٥ بطيء مع تمايل وعجب بالنفس وتقليب القدمين

انظر الفاظ رقم ٨٠ « خندقة » .

٢ ـ ح ـ ١ ـ أ ـ ٦ بطيء مع تقاعس وكبر السن
أنشد ابن الاعرابي في وصف الكبر (١٥٦/٣١)

١٦ ـ يقعس . . .

١٣٩ـ ورأين شيخا قد تحنى صلبه
يمشي فيقعس أو يكب فيعثر[٣٠]

قعس الرجل : برز صدره ودخل ظهره فيكون صدره كصدر الحمامة . والشاعر يصف مشية الشيخ بأنه حين يقيم صلبه يتقاعس كاهله .

انظر « البزخ » الفاظ رقم ٩٠

٢ ـ ج ـ ١ ـ أ ـ ٧ بطيء في غضب

انظر الفاظ رقم ٨١ « حظل »

٢ ـ ح ـ ١ ـ أ ـ ٨ بطيء مع شدة الوطء باحدى الرجلين

١٧ ـ تعرج العرج (بالفتح) والعرجة (بضم العين وسكون الراء) : الظلع . وقد عرج يعرج عرجانا : مشى مشية الاعرج . واعرج الرجل : جعله اعرج . قال الشماخ (٢٨٦٩/٣٢/٢٣) :

١٤٠ـ فبت كأني متق رأس حية
لحاجتها إن تخطىء النفس يعرج

١٨ ـ حظلان الحظلان عرج الرجل :
قال المرار (٨٩٠/١٠/٢٣ و ٩٢٠/١١) :

١٤١ـ وحشوت الغيظ في اضلاعه
فهو يمشي حظلانا كالنقَرْ

---

٢٩ ـ ورد لفظ « زوجها » بدل « بعلها » في لسان العرب (٢٢/ ٢١/ ١٨٩٠، ١٨٩٩) . والضبغطي شيء يفزع به الأطفال .

٣٠ ـ ورد في الحماسة « ظهره » بدل « صلبه » وأيضا « فيقعس » أو يكب (مبنى للمجهول) موضع « فيقعس » أو يكب .

وقال الشاعر (٢٣/١١/٩٢٠ و ١٠/٨٩٠) :
١٤٢ـ فظلّ كأنه شاة رَمِيٌّ
خفيف المشي يخطل مستكينا
انظر ايضا « حظل » الفاظ رقم ٨١

١٩ ـ خزعلة خزعل في مشيته اي عرج وخزعل الماشي : نفض رجله : قال الشاعر (٢٣/١٣/١٢٥٠) :
١٤٣ـ متى أرد شدتها تخزعل
١٤٤ـ خزعلة الضبعان بين الأرمل

٢٠ ـ ظلع ظلع الرجل والدابة في مشيه يظلع ظلعا : عرج وغمز في مشيه . قال مدرك ابن حصن (٢٣/٣١/٢٧٥٠)
١٤٥ـ من الملح لا تدري أرِجْلٍ شُمالها
بها الظلع لما هرولت أم يمينها

وقال كثير (٢٣/٢٣١/٢٧٥٠)
١٤٦ـ وكنت كذات الظلع لما تحاملت
على ظلعها يوم العثار استقلت

٢١ ـ يدرمن الدرمان (بالفتح) العرج . قال ابو العلاء المعري من درعيته الثامنة والعشرين (١٢/٥/١٩٩٦ ، البيت الثامن) :

١٤٧ـ قصار الخطى يدرمن أو مشية القطا
فكيف اذا ما سرن في الحلق الدرم[٣١]

٢ ـ ح ـ ١ ـ أ ـ ٩ بطيء مع شدة الوطء على احدى الرجلين ورفع الأخرى

انظر « عشز » الفاظ رقم ٨٢

٢ ـ ح ـ ١ ـ أ ـ ١٠ بطيء مع القفز على الرجل او الرجلين

٢٢ ـ الحجلين حجل الرجل حجلا وحجلانا رَفَعَ رِجْلاً ومشى متريثا . حجل المقيد قفز على الرجلين معا .

قال عدى بن زيد العبادي (٢٣/٩/٧٨٨) :
١٤٨ـ أعاذل قد لاقيت ما يزغ الفتى
وطابقت في الحجلين مشي المقيد

وقال الشاعر (٢٣/٣٤/٣٠٦٠) وهو ما سبق ان اوردناه تحت رقمي ١٦ ـ ١٧
ـ ليس براعي نعجات عوكل
ـ أحل يمشي مشية المحجل
انظر « عوكل » الفاظ رقم ٩٦

٢ ـ ح ـ ١ ـ أ ـ ١١ بطيء مع كثرة الحركة

٢٣ ـ الزوال الزوال : الذي يتحرك في مشيه كثيرا ، وما يقطعه من المسافة قليل انشد ابو عمرو (٢٣/٢١/١٨٩١ ـ ١٨٩٢)
البحتر المجذر الزوال

وقال ابن برى : الرجز لأبي الاسود العجلي ، وهو مغير كله ، انظر « الزواك » الفاظ رقم ٤٧

٣١ ـ هذا البيت يمكن أن يدرج أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ هـ حيث التشبيه بمشية الطيور ، وتحت ٢ ـ جـ ـ ١ ـ هـ (متقارب) .

٢ ـ ح ـ ١ ـ ب ثقيل (انظر ايضا الفاظ رقم ٨٣ ـ ٨٤)

٢٤ ـ هـرولـة قـال تـأبط شـرا (١٥٣/٢/٢٦)

١٤٩ـ تمشى اليـك مشيـة هِـرْوَلَـةْ
كـمشيـة الأرخ تـريـد الـعِـلَّهْ[٣٢]

يقول الشارح : العلة : تريد ان تعل بعد النهل ، اي انها قد رويت فمشيتها ثقيلة

٢ ـ ح ـ ١ ـ ب ـ ١ ثقيل مع تراجع وتفكك

٢٥ ـ تنخزل الخزل من الانخزال في المشى كأن الشوك شاك قدمه ، قال الاعشى (١١٥١/١٣/٢٣)

١٥٠ـ اذا تقوم يكاد الخصر ينخزل

ابن سيده : الخزل والتخزل والانخزال مشية فيها تثاقل وتراجع وزاد غيره وتفكك وهي الخزيل والخوزلي مثل الخيزرى والخوزرى اذا تبختر

وقال القطران السعدي من قصيدة طويلة (٢٨/٣١ البيت ١٣) :

١٥١ـ من الماشيات الخيزلى تهاديا
اذا العشة العضلاء خف ثقيلها

٢ ـ ح ـ ١ ـ ح عادى (متوسط السرعة)

٢ ـ ح ـ ١ ـ ج ـ ١ عادى مع تحريك الرأس او الاعضاء

انظر الفاظ رقم ٨٥ « دلدل »

٢ ـ ج ـ ١ ـ ج ـ٢ عادى مع تحريك الذراعين

انظر الفاظ رقم ٨٦ « زرع »

٢ ـ ج ـ ١ ـ ج ـ ٣ عادى مع تحريك العضدين

انظر الفاظ رقم ٨٧ « عشوزن »

٢ ـ ج ـ ١ ـ ج ـ ٤ عادى مع تحريك المنكبين (والجسد)

انظر الفاظ رقم ٨٨ ـ ٨٩ « الحيكان » ، عاك »

٢ ـ حـ ـ ١ ـ جـ ـ ٥ عادى مع تحريك العجز

انظر الفاظ رقم ٩٠ « بزخ »

٢ ـ حـ ـ ١ ـ جـ ـ ٦ عادى مع تحريك إلاليتين

انظر الفاظ رقم ٩١ « الحيكان »

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ ـ ٧ عادى مع تحريك ال[illegible]ن وقصر القامة

انظر الفاظ رقم ٩٢ « جنادف »

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ ـ ٨ عادى مع تحريك وهز المنكبين وقصر قامة

انظر الفاظ رقم ٩٤ « حكك »

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ ـ ١٠ عادى مع تحريك الاعطاف وقصر قامة

انظر الفاظ رقم ٩٥ « تأززت »

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ ـ ١١ عادى مع فحج وقصر قامة

انظر الفاظ رقم ٩٦ « عوكل »

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ ـ ١٢ عادى مع اهتزاز

---

٣٢ ـ يمكن أن يدرج هذا البيت أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ د حيث التشبيه بمشية حيوان في وضع معين .

انظر الفاظ رقم ٩٧ « ألَّ »
٢ ـ حـ ـ ١ ـ د سريع (انظر ايضا الفاظ رقم ٩٨-١١٢)

٢٦ ـ اغذاذ الاغذاذ : الاسراع في السير . قال الشاعر (٣٢٢٢/٣٦/٢٣)
١٥٢ـ لما رأيت القوم في اغذاذ
وانه السير الى بغذاذ
قمت فسلمت على معاذ

٢٧ ـ بازلة هى المشية السريعة لأن المسرع مفتح في مشيته ، قال ابو الاسود العجلى (٢٤٤/١/٢٧)
١٥٣ـ فأدبرت غضبى تمشى البازلة

٢٨ ـ البزابز البربازو البزابز : السريع في السير . انشد الاعرابي (٢٧٥/٤/٢٣)
١٥٤ـ لا تحسنى با أميم عاجزا
١٥٥ـ اذا السفار طحطح البزابزا
وقد انشد الاعرابى بفتح الباء على انه جمع بزباز

٢٩ ـ توضع الوضع هو الاسراع في السير والخب خطو فسيح دون العنق . قال ابو العلاء المعرى (١١٣/٣٥)
١٥٦ـ وانك منذ كون النفس عنسا
لتوضع في الضلالة أو تَخُبُّ
٣٠ ـ جلذى الاجلواذ والاجليواز : المضاء والسرعة في السير . وقال ابن الاعرابي : هو الاسراع واجلوذ واجرهر اذا أسرع وانشد (٦٥٦/٨/٢٣) .
١٥٧ـ ثم مضى في إثرها وجلذا
وقال العجاج يصف فلاة (٦٥٦/٨/٢٢)
١٥٩ـ الخِمْسُ والخِمْسُ بها جَلَذِيَّ
يقول سير خمس بها : شديد

٣١ ـ نسل نسل الماشى ينشل (بضم السين وكسرها) نسلا ونسلانا : اسرع قال لبيد (٢٩٤٧/٣٢/٢٣) وقيل هو للنابغة الجعدى :
١٦٠ـ فان الذى كنتم تحذرو
ن جاءت عيون به يضرب[٣٣]

٣٣ ـ يطمى طمى يطمى مثل طم يطم اذا مر مسرعا . قال الشاعر (٢٧١٧/٣٠/٢٣)
١٦١ـ اراد وصالا ثم صدته نيه
وكان له شكل فخالفها يطمى
٢ ـ حـ ـ ١ ـ د ـ ١ سريع مقاربة الخطو (انظر ايضا الفاظ رقم ١١٣ ـ ١١٤)

٣٤ ـ عجرمة مشى فيه شدة وتقارب . قال ابن برى : العجرمة : اسرع في مقاربة الخطو قال عمرو بن معد يكرب ويقال الأسعر بن حمران (٢٨١٦/٢٠/٢٣)
١٦٢ـ اما اذا يعدو فثعلب جرية
او ذئب عادية يعجرم عجرمة

٣٣ ـ العيون هم قوم بعثوا يتجسون .

وقال رجل من بنى ضبة يوم الجمل (٢٣/٣٠/٢٨١٦)

١٦٣- هذا على ذو لظى وهمهمة
يعجرم المشى الينا عجرمة
كالليث يحمى شبله في الأجمة

٣٥ - يخبعج قال الازهرى : الخبعجة مشية متقاربة مثل مشية المريب . وقال ابن سيده : فيها قرمظة وعجلة . يقال : جاء يخبعج الى ريبة ، وانشد (٢٣/١٣/١٠٩٦)

١٦٤- كأنه لما غدا يخبعج
١٦٥- صاحب موقين عليه موزج

قال ابن سيده : وكذلك الخنعجة

٢ - حـ - ١ - د - ٢ سريع مقاربة الخطو وسرعة رفع الرجل ووضعها

٣٦ - حتك الحتك ساكن التاء : ان يقارب الخطو ويسرع رفع الرجل ووضعها . حتك الرجل يحتك حتكا وحتكانا : مشى وقارب الخطو واسرع . قال ذو الرمة (٢٤/٩/٧٧)

١٦٦- لنا ولكم يامَيُّ أمست نعاجها
نماشين امات الرِّئال الحواتك

٢ - حـ - ١ - د - ٣ سريع مع مقاربة الخطو ونصب الظهر

٣٧ - زوزى زوزى الرجل يزوزى زوزاوة ، وهو ان ينصب ظهره ويسرع ويقارب الخطو .

قال ابن برى : ومنه قول رؤبة (٢٣/٢١/١٨٩٥)

١٦٧- تاج وقد زوزى بنا زيزاءه
وقال تماخر .
١٦٨- مزوزيا لما رآها زوزت

يعنى نعامة ورئلها : اذا رآها أسرعت اسرع معها .

٢ - حـ - ١ - د - ٤ سريع مع تحريك اليدين (وقصر قامة)

انظر « جدف » الفاظ رقم ١١٥

٢ - حـ - ١ - د - ٥ سريع مع تمايل

٣٨ - زياف زاف البعير والرجل وغيرهما يزيف في مشيته زيفا وزيوفا وزيفانا فهو زائف وزيف : اسرع وقيل هو سرعة في تمايل وانشد (٢٣/٢١/١٩٠٠)

١٦٩- أنكب زياف ومافيه نكب[٣٤]

وقيل زاف البعير يزيف تبختر في مشيته ، وزافت المرأة في مشيها تزيف اذا رأيتها كأنها تستدير .

٢ - حـ - ١ - د - ٦ سريع مع اضطراب

انظر « هرع » الفاظ رقم ١١٦

٢ - حـ - ١ - د - ٧ سريع مع اضطراب وهز الرأس

٣٩ - عسل عسل الذئب والثعلب يعسل عسلا وعسلانا : مضى مسرعا واضطرب في

٣٤- يمكن ادراج هذا البيت أيضا تحت ٢ - ج - ١ - أ - ١ (بطيء مع تمايل وعجب بالنفس)

عدوه وهز رأسه : قال الشاعر وقد استعاره للانسان (٢٣/٣٣/٢٩٤٧)

١٧٠ـ والله لولا وجع في العرقوب

١٧١ـ لكنت أبقى عسلا من الذيب

(انظر ايضا البيت رقم ١٥٧ رقم ٣١ « نسل »

٢ ـ حـ ـ ١ ـ د ـ ٨ سريع مع طأطأة الرأس

٤٠ ـ بيقر البيقرة إسراع يطاطىء الرجل فيه رأسه ، قال المثقب العبدى ، ويروى لعدى بن وداع (٢٣/٤/٣٢٥)

١٧٢ـ فبات يجتاب شقارى كما

بيقر من يمشى الى الجَلْدِ

يقول صاحب اللسان : ورواه ابو حنيفة في كتابه النبات : من يمشى الى الخلصة ، قال والخلصة (بالفتح) : الوثن

٢ ـ حـ ـ ١ ـ د ـ ٩ سريع مع سرعة تقليب اليدين والرجلين

٤١ ـ أوب الأوب : السرعة والأوب : سرعة تقليب اليدين والرجلين في السير . قال كعب بن زهير (٢٣/٣/١٦٨)

١٧٣ـ كأن اوب ذراعيها وقد عرقت

وقد تلفع بالقور العساقيل

١٧٤ـ اوب يدى ناقة شمطاء معولة

ناجت وجاوبها نُكْدٌ مثاكيل[٣٥]

٢ ـ حـ ـ ١ ـ د ـ ١٠ سريع مع قصر قامة

٤٢ ـ اوزكت اوزكت المرأة اسرعت . اوزكت المرأة في مشيتها وهى مشية قبيحة من مشى القصار .

قال الشاعر (٢٤/١٢/٤٠٤)

١٧٥ـ يا ابن براء هل لكم اليها

اذا الفتاة اوزكت لديها

(المسافة) ٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ متقارب

انظر الفاظ رقم ١١٧ ـ ١٢٤

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ١ متقارب مع فحج

٤٣ ـ زاكوا الزوك (بالفتح وسكون الواو) مشية في تقارب وفحج . قال الشاعر (٢٣/٢١/١٨٩١)

١٧٦ـ رأيت رجالا حين يمشون فَحَّجوا

وزاكوا وما كانوا يزوكون من قبل[٣٦]

فحج في مشيته : تدانى صدور قدميه وتباعد عقباه فهو افحج . (انظر « حاك » الفاظ رقم ٩٣)

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٢ (متقارب مع ثقل)

٤٤ ـ الدألى دألت (بالفتح وسكون اللام) للشىء دأل دألا ودألاناً ، وهى مشية شبيهه بالختل[٣٧] ومشى المثقل . وذكر الاصمعى في صفة الخيل : الدألان مشى يقارب فيه الخطو ويبغى فيه كأنه مثقل من

---

٣٥ ـ يلاحظ هنا وجود تشبيه بمشية الناقة ، مما يمكن ادراجه أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ أ مع الابيات رقم ٤٦ ـ ٥٤ حيث التشبيه بمشية حيوان في وضع معين .

٣٦ ـ جاء في لسان العرب (٢٤/١٢/٣٢٢) : زاك يزوك زوكا وزوكانا تبختر واختال ، وهو الزُوَّنْكُ وهكذا يمكن ادراج هذا اللفظ أيضا تحت ٢ ـ جـ ـ ١٠ ـ أ ـ ١ (بطىء مع تمايل وعجب بالنفس) أنظر أيضا « زونك » ألفاظ رقم ١٤ ، و « أوزكت » ألفاظ رقم ٤٢ .

٣٧ ـ أنظر « ختل » الفاظ رقم ٥٣ البيت رقم ١٩٦ .

حمل ، ويقال : الذئب يدأل للغزال ليأكله يقول يختله .

وقال ابن سيده : دأل يدأل دألا ودألى ، وهى مشية فيها ضعف وعجلة ، وقيل هو عدو متقارب . أنشد سيبويه فيما تضعه العرب على السنة البهائم لضب يخاطب ابنه (٢٣/١٢/١٠٥٥ و ١٥/١٣١٢)

١٧٧ـ أَهَدَمُوا بيتَكَ لا أبالكا
١٧٨ـ وأنا أمشى الدألى حوالكا

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٣ متقارب مع ثقل وكبر السن

٤٥ ـ دالف دلف دلفا يدلف ودلفانا ودليفا ودلوفا (بضم الدال) اذا مشى وقارب الخطو ويقال هو يدلف ويدلث دليفا ودليثا اذا قارب خطوه متقدما ، وقد أدلفه الكبر قال طرفه (٢٣/١٦/١٤١٠)

١٧٩ـ لا كبير دالف من هرم
أرهَبُ الناسَ ولا اكبو لضرٍّ

وانشد ابن الاعرابي (٢٣/١٦/١٤١٠)

١٨٠ـ هزئت زنيبة أن رأت ثرمى
وان انحنى لتقادم ظهرى
١٨١ـ من بعد ما عهدت فأدلفني
يوم يَمُرُّ وليلة تسرى

والدالف : الكبير الذى اختضعته السن ، والدالف مثل الدالح (انظر « الدلح » الفاظ رقم ٨٣ .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٤ متقارب مع ضعف

٤٦ ـ زكيك المشي الزكيك : المقرمط (انظر « قرمط » الفاظ رقم ١٢٣) زك (بالفتح) الرجل يزك زكا وزككا وزكيكا : مر يقارب خطوه من ضعف ، وكذلك الفرخ ، قال عمر بن لجاء (٢٣/٢١/١٨٤٨)

١٨٢ـ فهو يزك دائم التزغم
١٨٣ـ مثل زكيك الناهض المحمم[٣٨]

والتزغم : التغضب . قال ابو عمرو : الزكيك مشي الفراخ ، والزوك مشي الغراب

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٥ متقارب مع سرعة الرفع والوضع

انظر « زكيك الفاظ رقم ٤٦ و ١٢٥ و « الزكزكة » الفاظ رقم ١٢٦

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٦ متقارب مع تحريك الجسد

٤٧ ـ الزواك الزوك : مشي الغراب ، وهو الخطو المتقارب في تحرك جسد الانسان ، انشد ابو عمر لابي الاسود العجلي (٢٣/٢١/١٨٩١ ـ ١٨٩٢)

١٨٤ـ البهيتر المجذَّر الزوَّاك

وقد سبق ان اوردنا البيت تحت رقم ١٤٦ (٢ ـ حـ ـ ١ ـ أ ـ ١١) بطيء مع كثرة الحركة وهو ما قال عنه ابن برى انه مغير كله ، وان ما انشده ابو عمرو هو هذا البيت بلفظ « الزواك »

---

٣٨ ـ هذا مثال آخر من امثلة تعدد المعاني ، فقد أدرج لفظ « زكيك » هنا بمعنى « مقرمط » وأدرج تحت رقم ١٢٥ بمعنى مقاربة الخطو وسرعة الرفع والوضع . أنظر أيضا « الزكزكة » ألفاظ رقم ١٢٦ .

(بالكاف) بدل « الزوال (باللام) و « البهتر » بدل « البحتر » انظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ ، ١٢٥ و « الزكزكة » الفاظ رقم ٢٢٦

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٧ متقارب مع اهتزاز وارتعاش وكبر السن

٤٨ ـ هدجان هدج (بالفتح) هدجانا وهداج : مشي بخطوات مضطربة مرتعشة قال اعرابي (٣٥٨/٢/١٩)

١٨٥ـ اشكو اليك وجعا بركبتي
وهدجانا لم يكن في مشيتي

١٨٦ـ كهدجان الرال خلف الهيقة[39]

ويقول عروة بن الورد

١٨٧ـ اليس ورائي أن أدب على العصا
فيشمت اعدائي ويسأمني اهلي

١٨٨ـ رهينة قعر البيت كل عشية
يطيف بي الولدان اهدج كالرأل

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٨ متقارب في غضب

٤٩ ـ تأتل أتل الرجل (بالفتح) يأتل أتولا وأتلا اذا قارب الخطو في غضب قال ثروان العكلي ٢٣ / ٢٠ و ٤٧/١/٢٦) :

١٨٩ـ أراني لا آتيك الا كأنما
أسأت والا أنت غضبان تأتل

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٩ متقارب مع قصر قامة

٥٠ ـ حُزُقَّة (بضم الحاء والزاي والفتح المشدد للقاف) : رجل حزق وحزق وحزقة : قصير يقارب الخطو . قال امرؤ القيس (٨٥٨/١٠/٢٣) :

١٩٠ـ وأعجبني مشي الحُزُقَّة خالدٍ
كمشي أتان حُلِّئَتْ بالمناهلِ[40]

٢ ـ حـ ـ ١ ـ و واسع (بغيد)

انظر الفاظ رقم ١٢٧ ـ ١٢٩

٢ ـ حـ ـ ٢ الوطء

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ أ ضعيف

٥١ ـ ارتهاك الارتهاك : الضعف في المشي ، وفلان يرتهك في مشيته ويمشي في ارتهاك ، والارتهاك استرخاء المفاصل في المشي . والرهوكة كالارتهاك (انظر هركولة « الفاظ رقم ١٢) قال الشاعر (٣١٩/١٢/٢٤ ٢٠ و ١٧٥٦/٢٠/٢٣)

١٩١ـ حييت من هَرْكُولَةٍ ضَناكِ

١٩٢ـ قامت تهز المشي في ارتهاك[41]

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ أ ـ ١ ضعيف مع اختلاف

٥٢ ـ خَطَلٌ الخطل مشية فيها ضعف واختلاف . **قال ابو الخطاب عمر بن عيسى البهدلي من قصيدة (١٦١/٤/٢٥) :**

١٩٣ـ أما ترين البَهْدِلِّي قد نَحَلْ
وصار يمشي مشية فيها خَطَلْ

١٩٤ـ على ثلاثِ أرجلٍ فيها عَصَلْ
واحدة في كفه من الأَسَلْ

---

٣٩ ـ نجد هنا تشبيها بمشية حيوان في وضع معين ، مما يمكن ادراجه تحت ٢ـ ب ـ ٢ ـ د ، وكذلك البيت رقم ١٨٨ .

٤٠ ـ هذا البيت يمكن ادراجه أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ د حيث التشبيه بمشية حيوان في وضع معين .

٤١ ـ سبق ورود هذين البيتين تحت رقمي ١٢٣ ـ ١٢٤ مع « هركولة » الفاظ رقم ١٢ ، أعطيت لهما أرقام جديدة هنا لورودهما تحت لفظ « ارتهاك » .

١٩٥ـ كسرطان البحر يمشي في الوَحَلْ[٤٢]

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ أ ـ ٢ ضعيف مع الاعتماد باليدين على الخصر وكبر السن انظر الفاظ رقم ١٣٠ « حوقل »

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ أ ـ ٣ ضعيف في خفية مع مقاربة الخطو وكبر السن

٥٣ ـ خاتل قال ابو منصور : المخاتلة مشي الصياد قليلا قليلا في خفية لئلا يسمع الصَّيْدُ حِسَّهُ . قال ابن حنين بن بلوغ (١١٠٠/١٣/٢٣)

١٩٦ـ حنتنى حانيات الدهر حتى
كأني خاتل يدنو لصيد
١٩٧ـ قريب الخطو يحسب من يراني
ولست مقيدا أني بقيد[٤٣]

أي كبرت وضعفت مشيتي

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ ب سهل (لين . خفيف)

٥٤ ـ تدافيا جاء في الصحاح : الدفيف : الدبيب وهو السير اللين ، ودفَّ الماشي : خف على وجه الأرض . قال الشاعر (١٣٩٦/١٦/٢٣)

١٩٨ـ ليك أشكو مشيها تدافيا
١٩٩ـ مشي العجوز تنقل الأثافيا[٤٤]

٥٥ ـ سُرُحْ مشية سرح (بالضم) مثل سُجُح ، أي سهلة . قال تميم بن ابي مقبل (٨٠٤/٩/٢٣)

٢٠٠ـ يرمي النجار بحيدار الحصى قُمزًا
٢٠١ـ في مشيه سُرُحٍ خلط أفانينا

٥٦ ـ هونا قال المرار (٦٢٩/٨/٢٣)

٢٠٢ـ يمشين هونا وبعد الهون من جشم
ومن جناءِ غضيضِ الطرفِ مستورِ

وقال جرير من قصيدة له (٦٦/٤)

٢٠٣ـ تلقى الرجال اذا ما خيف صولته
يمشون هونا وفي أعناقهم خَضَعُ

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ حـ شديد (انظر ايضا الفاظ رقم ١٣١ ـ ١٣٣)

٥٧ ـ الوَهْصُ (بفتح الواو وسكون الهاء) شدة الوطء ، يقال فلان وهاص المشية قال الشاعر (٢٣٩/٣١)

٢٠٤ـ شديدُ وَهْصٍ قليلِ الرَّهْصِ مُعتدلٌ
بصفحته من الأنساعِ أنْدابُ

وقال ابن طفيل من قصيدة طويلة في غارة كان أغارها على طيء فنال منها وقتل وأسر (٦/٣١ ، البيت ٣٦) :

---

٤٢ ـ يمكن ادراج هذا النموذج أيضا تحت ٢ ـ ب ٢ ـ د حيث يوجد تشبيه بمشية حيوان في وضع معين . والعصل : الاعوجاج . والخلل مشيه فيها ضعف واختلاف . ورجل خطل القوائم : طويلها وفي البيت الثاني عنى العصا التي يعتمد عليها ، وقد اتخذها من الأسل ، وهو شجر . ويقال كل شجر له شوك طويل فهو أسل . وفي البيت الثالث : السرطان معروف بكثرة أرجله . هذا ورد لفظ « حطل » بمعنى آخر تحت ألفاظ رقم ١٣٥ .

٤٣ ـ جاء في مختار الأغاني (٣٥٨/٢/٢٥) لفظ « حابل » بالحاء المهملة والباء بدل « خاتل » ولفظ « أمشي » بدل « أنّ » و « المخاتلة » مشى الصياد قليلا في خفية لئلا يسمع الصيد حسه .

٤٤ ـ يمكن ادراج هذا البيت أيضا تحت ٢ ـ ب ـ ٢ ـ أ ، حيث التشبيه بمشية انسان في وضع معين . والاثفية : الحجر الذي توضع عليه القدر . يقول صاحب اللسان ، انما أراد تدافقا فقلب .

٢٠٥ـ وهصن الحصى حتى كأن رضاضه
ذرى بَرَدٍ من وابلٍ متحلبِ[٤٥]

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ حـ ـ ١ شديد مع مقاربة الخطو وكبر السن

٥٨ ـ توقص التوقص مقاربة الخطو قال الشاعر (٣١٠/١٤/٢٤ ، ٢٩٧/٣/٢٨)

٢٠٦ـ يادَهْرُأَمْ ما كان مشى رَقَصا
بل قد تكون مشيتى تَوَقُّصا[٤٦]

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ حـ ـ ٢ شديد مثير للتراب مع كبر السن

٥٩ ـ نقثله النقثلة (بالفتح وسكون القاف) مشية تثير التراب ، وقد نقثل . قال الجوهري : النقثلة مشية الشيخ يثير التراب اذا مشى . قال صخر بن عمير (٢٠١/١٤/٢٤) .

٢٠٧ـ قاربت أمشي القعولى والفنجلة
وتارة أنبث نبث النقثلة

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ حـ ـ ٣ شديد على كل جانب مرة مع تمايل

٦٠ـ الهَمَقَى مشى الهمقى (بالفتح وكسر الهاء) إذا مشى على جانب مرة وعلى جانب مرة . قال ابو العباس : الهمقى مشية فيها تمايل . قال الشاعر (٢٤٨/١٢/٢٤)

٢٠٨ـ فأصبحن يمشين الهمقى كأنما
يدافعن بالأفخاذ نهدا مُؤَرَّبا

٢ ـ حـ ـ ٣ الاتجاه

٢ ـ حـ ـ ٣ ـ أ ملتوي

انظر « تعكس » الفاظ رقم ١٣٤

٢ ـ حـ ـ ٣ ـ أ ـ ١ ملتو مع تمايل

انظر « خطل » الفاظ رقم ١٣٥

٢ ـ حـ ـ ٣ ـ ب التجاذب يمينا وشمالا

انظر الفاظ رقم ١٣٦ ـ ١٣٨

٢ ـ حـ ـ ٣ ـ حـ مستقيم

٦١ ـ قاصد قصد في مشيه مشى مستويا . قال عدى بن زيد وقيل لابنه سوادة بن عدى والصحيح الأول (٣٤٤/١/٥)

فامش قاصدا اذا مشيت وأبصر
إن للقصد منهجا وجسورا[٤٧]

٦٢ ـ سحج السحج (بالضم) الشيء المستقيم . قال حسان (٣٣٦/٤/٢٧)

ذروا التخاجيء وامشوا مشية سُجُحا
إن الرجال ذوو عصب وتذكير[٤٨]

٢ ـ حـ ـ ٣ ـ حـ ـ ١ مستقيم سهل

٦٣ ـ رهو (بالفتح والسكون) قال ابو

---

٤٥ ـ بالأصل « وهضن » مصحفا عن « وهض » وفي الديوان : « متحلب » بدل « متجلب » .

٤٦ ـ ورد هذا البيت في لسان العرب (٣٠١/١٤/٢٣) بلفظ « رهن » بدل « دهر » ويقول الشارح : « أراديا دهنا فرخم » . والرقص ، عن ابي فارس ، هو الخبب . وقال ابن دريد : الرقص شبيه بالنقرزان من النشاط ، والقولان متقاربان . والتوقص : تقارب الخطو ، وقيل شدة الوطء ، وكلاهما من فعل الهرم . وقد جاء في اللسان أيضا أن أم زائدة وأن الشاعر أراد ما كان مشى رقصا أي كنت أتوقص وأنا في شبيبتي واليوم قد أسننت حتى صار مشيي رقصا .

٤٧ ـ هذا البيت لم يعط رقما لأنه سبق وورد تحت رقم ١٩ .

٤٨ ـ هذا البيت أيضا لم يعط رقما حيث سبق وروده تحت رقم ٢٠ .

عبيد : السير السهل المستقيم . قال عمير القطامي (١٧٥٩/٢٠/٢٣)

٢٠٩ـ يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة
ولا الصدور على الأعجاز تتكل
وقال طفيل بن عوف من قصيدة طويلة (٦/٣١ البيت ٣٦)

٢١٠ـ وعارضتها رهوا على متتابع
شديد القُصَيْرى خارجي محنَّب

٣ ـ الفاظ المعجم (٤٩)

٢ ـ حـ ـ ١ الخطو

السرعة

٢ ـ حـ ـ ١ ـ أ بطيء

٦٤ ـ أون الأون (بسكون الواو) المشي على مهل . أنت في سيرك أونا إذا اتدعت ، ولم تعجل والأون : المشي الرويد ، مبدل من الهون ، ابن السكيت ، أونًا في سيركم أي اقتصدوا من الأون وهو الرفق

٦٥ ـ الحذمان قال خالد بن جنيه : الحذمان إبطاء المشي وهو من الاضداد . انظر « حذم » الفاظ رقم ٩٨

٦٦ ـ الدليف المشي الرويد : وقيل الدليف فوق الدبيب ، كما تدلف الكتيبة نحو الكتيبة في الحرب وهو الرويد . انظر « دالف » الفاظ رقم ٤٥ وابيات رقم ١٧٩ ـ ١٨١ انظر ايضا « الحذم » الفاظ رقم ١٠١

٢ ـ حـ ـ ١ ـ أ ـ ١ بطي مع تمايل وعجب بالنفس

٦٧ ـ اختيال فيه تبختر وعجب بالنفس

٦٨ ـ تبكل (بالفتح تشديد الكاف) تبكل في مشيته اختال . ورجل جميل بكيل : متنوق في لبسته ومشيته

٦٩ ـ تجبس تجبس (بالفتح) في مشيه تجبسا اذا تبختر (انظر البيت رقم ٤٨)

٧٠ ـ تعاطف في مشيه : تثنى يقال : فلان يتعاطف في مشيته بمنزلة يتهادى ويتمايل من الخيلاء والتبختر

٧١ ـ تغطرس تغطرس في مشيته اذا تبختر

٧٢ ـ تغطرف قال ابن الاعرابي : التغطرف : الاختيال في المشي خاصة

٧٣ ـ جُنافي الجُنافي (بضم الجي وكسر الفاء) الذي يتجانف في مشيته فيختال فيها .
وقال شمر : رجل جنافي : مختال فيه ميل

٧٤ ـ الخنطفة (بالفتح والسكون والفتح) مشي فيه تبختر

٧٥ ـ الضيطان (بالفتح وتحريك الياء) : ان يحرك منكبيه وجسده حين يمشي مع كثرة لحم ورخاوه . والضَيَّاطِ : المتمايل في مشيته المتبختر .

٧٦ ـ عال عال في مشيه يعيل عيلا ، فهو

---

٤٩ ـ يلاحظ أن ترقيم ألفاظ المعجم هذه متصل بأرقام الألفاظ التي وردت في الشعر ، كما أن عناوين مقومات المشية كالخطو (٢ ـ جـ ـ ١) هي نفسها التي أعطيت لهذه المقومات كما جاءت في البحث .

مخيال ، وتعيل : تبختر وتمايل واختال وفلان مخيال متعيل ، أي متبختر .

٧٧ ـ العرقلي (بالفتح وسكون الراء) مشية تبختر .

٧٨ ـ حيكان حاك في مشية يحيك حيكا وحيكانا فهو حائك وحياك ، تبختر واختال . ومشية حيكي اذا كان فيها تبختر : (انظر زونّك الفاظ رقم ١٤ البيت رقم ١٣٢)

٢ ـ حـ ـ ١ ـ أ ـ ٤ بطيء مع تمايل وعجب بالنفس ورفع اليدين ووضعها .

٧٩ ـ خزف الخزف (بالفتح والسكون) الخطر باليد عند المشي أي مشى تبختر : أنظر : « أخطر » الفاظ رقم ٣ ، أبيات رقم ١٠٥ ـ ١٠٨ .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ أ ـ ٥ بطيء مع تمايل وعجب بالنفس وتقليب القدمين .

٨٠ ـ خندفة الخندفة (بالفتح وسكون النون) أن يمشي مفاجأ ويقلب قدميه كأنه يغرف بهما وهو من التبختر . وقد خندف وخص بعضهم به (المرأة) قال الأعرابي :

الخندوف (بضم الخاء) الذي يبختر في مشيه كبرا وبطرا .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ أ ـ ٧ بطيء في غضب

٨١ ـ حظل حظل (بالفتح) حظلانا : توقف في مشيه وتمهل ويقال . هو يحظل حظلانا أي يمشي مشية الغضبان . أنظر « حظلان » الفاظ رقم ١٨ وأبيات رقم ١٣٨ ـ ١٣٩

٢ ـ حـ ـ ١ ـ أ ـ ٩ بطيء مع شدة الوطء على إحدى الرجلين ورفع الأخرى .

٨٢ ـ عشز عشز (بالفتح) يعشز عشزانا : مشى مشية المقطوع الرجل ، وهو العشزان ، أنظر « عشوزن » الفاظ رقم ٨٧ .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ ب ثقيل .

٨٣ ـ الدلح الدلح (بالفتح وسكون اللام) : مشى الرجل بحمله وقد أثقله ، دلح الرجل بحمله يدلح دلحا : مر به مثقلا وذلك اذا مشى به غير منبسط الخطو لثقله عليه ، وكذلك البعير تدلح : تمشي مشي المثقل . قال الأزهري ، الدالح : البعير اذا دلح وهو تثاقله في مشيه من ثقل الحمل .

٨٤ ـ العجياء مشية فيها ثقل .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ عادي (متوسط) .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ ـ ١ عادي مع تحريك الرأس والأعضاء

٨٥ ـ دلدل دلدل دلدلة أعضاءه أو رأسه : حركها في المشي ، تدلدل في مشيه : اضطرب واهتز .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ ـ ٢ عادي مع تحريك الذراعين

٨٦ ـ ذرع ذرع (بالفتح) في المشي : حرك ذراعيه

٢ ـ حـ ـ ١ ـ حـ ـ ٣ عادي مع هز العضدين .

٨٧ ـ عَشَوْزَنْ العشوزن (بالفتح وسكون الواو) الأعسر ، وهو عشوزن المشية اذ

كان يهز عضديه (أنظر « عشز » الفاظ رقم ٨٢) .

٢ - حـ - ١ - حـ - ٤ عادي مع تحريك المنكبين (والجسد)

٨٨ - الحيكان الحيكان (بالفتح) أن يحرك منكبيه وجسده حين يمشي من كثرة اللحم . وهذه المشية في النساء مدح وفي الرجال ذم . (أنظر « الحيكان » الفاظ رقم ٩١ و « حاك » ألفاظ رقم ٩٣) .

٨٩ - عاك قال ابن سيده : عاك عيكانا مشى وحرك منكبيه كحاك (أنظر « حاك » الفاظ رقم ٩٣)

٢ - حـ - ١ - حـ - ٥ عادي مع تحريك العجز

٩٠ - بزخ البزخ (بالفتح) خروج الصدر ودخول الظهر ، يقال رجل أبزخ وامرأة بزخاء وتبازخت المرأة اذا حركت عجزها في مشيتها .

٢ - حـ - حـ - ١ - حـ - ٦ عادي مع تحريك الاليتين

٩١ - الحيكان الحيكان مشية يحرك فيها الماشي إليتيه . (أنظر « الحيكان » الفاظ رقم ٨٨ ، و « حاك » الفاظ رقم ٩٣) .

٢ - حـ - ١ - حـ - ٧ عادي مع تحريك الكتفين وقصر القامة

٩٢ - جنادف الجنادف (بضم الجيم وكسر الدال) القصير الملزز الخلق ، وقيل الذي اذا مشى حرك كتفيه وهو مشي القصار .

٢ - حـ ١ - حـ - ٨ عادي مع تحريك المنكبين وفحج

٩٣ - حاك حاك يحيك حيكا اذا فحج في مشيته . أنظر « الحيكان » الفاظ قم ٨٨ ، ٩١ و « زاكوا » ألفاظ رقم ٤٣ البيت رقم ١٧٦ .

٢ - حـ - ١ - حـ - ٩ عادي مع تحريك وهز المنكبين وقصر القامة

٩٤ - حَكَكْ الحكك (بالفتح) مشية فيها تحرك شبيه بمشية (المرأة) القصيرة اذا تحركت وهزت منكبيها .

٢ - حـ - ١ - حـ - ١٠ عادي مع تحريك الأعطاف وقصر القامة .

٩٥ - تأززت تأززت المرأة : مشت وحركت أعطافها كمشية القصار .

٢ - حـ - ١ - حـ - ١١ عادي مع فحج وقصر قامة

٩٦ - عَوْكَل العوكل (بالفتح والسكون) الرجل القصير الأفحج . وفحج في مشيته : تداني صدور قدميه وتباعد عقباه فهو أفحج (أنظر البيت رقم ١٦)

٢ - حـ - ١ - حـ - ١٢ عادي مع اهتزاز

٩٧ - أَلَّ أل (بالفتح) الرجل في مشيه اهتز

٢ - حـ - ١ - د سريع

٩٨ - اجرهَدَّ (الكسر والسكون والفتح) أسرع في السير

٩٩ - الأزفي الأزفي (بالفتح) السرعة والنشاط يمشي الأزفا . يمشي سريعا

١٠٠ ـ الجفز الجفز (بالفتح) سرعة المشي ، يمانية حكاها ابن دريد ، قال : ولا أدري ما صحتها .

١٠١ ـ الحذم الحذم (بفتح الحاء وسكون الذال) الاسراع في المشي شبيه بمشي الأرانب ، والحذم المشي الخفيف . ويقال : حذم في مشتيه اذا قارب الخطى وأسرع والحذم (الضمُّ والفتح) القصير من الرجال القريب الخطو ، وقال أبو عنان : الحذمان شيء من الذميل فوق المشي قال : وقال لي خالد بن جنية : الحذمان إبطاء المشي ، وهو من حروف الاضداد .

١٠٢ ـ حنعق (بالفتح وسكون النون) محنعقا أو مخفنقا يعني ذاهبا بسرعة مشي .

١٠٣ ـ سفا سفا في مشيه وطيرانه يسفو سفوا : أسرع

١٠٤ ـ الضكضكة الضكضكة (بالفتح وسكون الكاف) ضرب من المشي فيه سرعة ، وقيل هو سرعة المشي .

١٠٥ ـ الطرق الطرق (بالفتح وسكون الراء : سرعة المشي وقال : العنق جهد الطرق قال الأزهري ومن هذا قيل للراجل مطرق وجمعه مطاريق .

١٠٦ ـ الطهق الطهق (بالفتح وسكون الهاء) سرعة المشي ، يمانية .

١٠٧ ـ العجرفة العجرفة والعجرفية : السرعة في المشي ، قال الأزهري : يكون الجمل عجرفي المشية ورجل فيه عجرفية وبعير ذو عجاريف .

١٠٨ ـ عدعد عدعد (بالفتح وسكون الدال) في المشي وغيره أسرع والعدعدة : العجلة

١٠٩ ـ غلفاق (بكسر العين وسكون اللام) امرأة غلفاق المشي : سريعته .

١١٠ ـ الهذرمة الهذرمة (بالفتح وسكون الذال) السرعة في المشي .

١١١ ـ هردج (بالفتح وسكون الراء) هردج الرجل : أسرع في مشيه .

١١٢ ـ هوذل (بالفتح وسكون الواو) وهوذل الرجل : مشى بسرعة .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ د ـ ١ ـ سريع مع مقاربة الخطو .

١١٣ ـ الخنعجة أنظر « يخبعج » الفاظ رقم ٣٥ البيت رقم ١٦٤ و « الحذم » الفاظ رقم ١٠١ .

١١٤ ـ هذلم (بالفتح وسكون الذال) مشى في سرعة وقرمطه (أنظر « قرمط » الفاظ رقم ١٢٣) .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ د ـ ٤ سريع مع تحريك اليدين (وقصر القامة) .

١١٥ ـ جدف جدف (بالفتح) حرك يديه اذا أسرع في مشيته . وجدفت المرأة تجدف مشت مشي القصار ، جدف الرجل في مشيته أسرع .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ د ـ ٦ سريع مع اضطراب

١١٦ ـ هرع هرع هرعا اليه : مشى اليه باضطراب وسرعة

المسافة

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ متقارب

١١٧ ـ برقط خطا خطوا متقاربا .
البرقطة : خطو متقارب .

١١٨ ـ التأزف الخطو المتقارب .

١١٩ ـ حرقص (بالفتح وسكون الراء) حَرْقَصْ في المشي : قارب خطاه .

١٢٠ ـ دلث دلث يدلث دليثا اذا قارب خطوه متقدما (أنظر دالف الفاظ رقم ٤٥) .

١٢١ ـ الرتكان تقارب الخطو . وفي التهذيب : الرتك بلابل خاصة (أنظر البيت رقم ٨٦ حيث يرد لفظ « رتك ») .

١٢٢ ـ فهد فهد (بالفتح) فهدا في مشيته : قارب في خطوه .

١٢٣ ـ قرمط قرمط الرجل : مشى مقاربا خطواته (أنظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ البيت رقم ١٨٣) .

١٢٤ ـ المطابقة المشي في القيد ، وهو الرسف (أنظر « الحذم » ألفاظ رقم ١٠١)

٢ ـ حـ ـ ١ ـ هـ ـ ٦ متقارب مع سرعة الرفع والوضع

١٢٥ ـ زكيك قال الأصمعي : الزكيك أن يقارب الخطو ويسرع الرفع والوضع . ويقال : زكت الدرَّاجة كما يقال زافت الحمامة (أنظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ البيت رقم ١٨٣ و « الزكزكة » الفاظ رقم ١٢٦) .

٢ ـ حـ ـ هـ ـ ٧ متقارب مع تحريك الجسد .

١٢٦ ـ الزكزكة الزكزكة أن يقارب الرجل خطوه مع تحريك الجسد (أنظر « زكيك » الفاظ رقم ٤٦ البيت رقم ١٨٣ و « زكيك » ألفاظ رقم ١٢٥) .

٢ ـ حـ ـ ١ ـ و واسع (بعيد)

١٢٧ ـ الخب الخب خطو فسيح دون العنق (أنظر بيت أبي العلاء رقم ١٥٤) .

١٢٨ ـ خطرف خطرف (بفتح الخاء وسكون الطاء) في مشيه وتخطرف : توسع . وجمل خطروف .

يخطرف خطوه ويتخطر في مشيه : يجعل خطوتين خطوة من وساعته .

١٢٩ ـ هرجل هرجل (بالفتح وسكون الراء) اختلط مشيه . كان بعيد الخطو . الهرجل (بضم الهاء) البعيد الخطو .

٢ ـ حـ ـ ٢ الوطء

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ أ ـ ٢ ضعيف مع الاعتماد باليدين على الخصر ، وكبر السن

١٣٠ ـ حَوْقَلَ حوقل (بالفتح وسكون الواو) حوقلة وحيقالا : مشى فأعيا وضعف . ضعف وصار مسنا .

حوقل الشيخ : اعتمد بيديه على خصره اذا مشى .

٢ ـ حـ ـ ٢ ـ حـ شديد .

١٣١ ـ العَدْسُ العدس المدس (بالفتح وسكون الدال) : شدة الوطء على الأرض .

١٣٢ ـ الوكري الوكري من النساء : الشديدة الوطء اذا مشت .

١٣٣ ـ الوهس الوهس (بفتح الواو وسكون الهاء) شدة السير . شدة الوطء

٢ ـ حـ ـ ٣ الاتجاه

٢ ـ حـ ـ ٣ ـ أ ملتوي

١٣٤ ـ تَعَكَّسَ تعكس الرجل في مشيه : تلوى . تعكس الرجل : مشى مشية الأفعى . وهو يتعكس تعكسا كأنه قد يبست عروقه ، وربما مشى مشية السكران كذلك (٣٠٥٧/٣٤/٢٣) . وقد جاء في ٢٩٤٥/٣٣/٢٣ لفظ « تعسك » بمعنى تلوى في مشيته .

٢ ـ حـ ـ ٣ ـ أ ـ ١ ملتو مع تمايل

١٣٥ ـ خطل الخطل : التلوي والتبختر وقد خطل في مشيه

٢ ـ حـ ـ ٣ ـ ب التجاذب يمينا وشمالا

١٣٦ ـ التخلج التخلج في المشي مثل التخلع . وتخلج المجنون في مشيته تجاذب يمينا وشمالا (أنظر البيت رقم ٤٥) .

١٣٧ ـ الترهوك الترهوك : مشي الذي يموج في مشيته .

١٣٨ ـ الكثر الكثر (بالفتح) والكثرة (بسكون الثاء) مشية فيها تخلج كمشية السكران

وقبل أن نقدم الشكل الذي اقترحناه بالاضافة الى المصفوفة ـ لتلخيص أنواع المشية يجدر بنا أن نوضح رموز المصاحبات ، وهي على النحو التالي كما وردت في المصفوفة :

د ١ هز الرأس
د ٢ طأطأة الرأس
د ٣ تحريك الرأس
د ٤ تحريك اليدين
د ٥ سرعة تقليب اليدين والرجلين
د ٦ رفع اليدين ووضعهما
د ٧ الاعتماد باليد على الخصر
د ٨ تحريك الكتفين
د ٩ تحريك المنكبين
د ١٠ هز المنكبين
د ١١ تحريك الذراعين
د ١٢ تحريك العضدين
د ١٣ تحريك الاليتين
د ١٤ تحريك العجز
د ١٥ تحريك الأعطاف
د ١٦ تحريك الاعضاء
د ١٧ تحريك الجسد
د ١٨ تمايل الجسد
د ١٩ نصب الظهر
د ٢٠ تقاعس
د ٢١ تقليب القدمين
د ٢٢ سرعة لأفع الرجل ووضعها
د ٢٣ كثرة الحركة
د ٢٤ القفز على رجل واحدة
د ٢٥ القفز على الرجلين
د ٢٦ الوطء باحدى الرجلين
د ٢٧ رفع الرجل الاخرى
د ٢٨ اختلاف

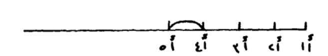
تعريفات المشية	رقم مسلسل	رقم الأبيات الدالة على المشية
	١	١-٢، ٦٤-٦٦
	٢	٢-١٣، ٧٤-٧٨
	٣	١٤
	٤	١٥
	٥	٧٩
	٦	٨٠
	٧	١٦
	٨	٨١
	٩	١٧-٢١
	١٠	٨٢
	١١	٢٢
	١٢	٢٣
[illegible]	١٣	٢٤، ٨٣-٨٤
	١٤	٢٥
	١٥	٨٥
	١٦	٨٦
	١٧	٨٧
	١٨	٨٨-٨٩
	١٩	٩٠
	٢٠	٩١
	٢١	٩٢
	٢٢	٩٣
	٢٣	٩٤
	٢٤	٩٥
	٢٥	٩٦
	٢٦	٩٧
	٢٧	٢٦-٣٣، ٩٨-١١٣
	٢٨	٣٤-٣٥، ١١٣-١١٤
	٢٩	٣٦
	٣٠	٣٧
	٣١	١١٥
	٣٢	٣٨
	٣٣	١١٦
	٣٤	٣٩
	٣٥	٤٠
	٣٦	٤١
	٣٧	٤٢
	٣٨	١١٧-١٢٤
	٣٩	٤٣
	٤٠	٤٤
	٤١	٤٥
	٤٢	٤٦
	٤٣	١٢٥
	٤٤	٤٧، ١٢٦
	٤٥	٤٨
	٤٦	٤٩
	٤٧	٥٠
	٤٨	١٢٧-١٢٩
[illegible]	٤٩	٥١
	٥٠	٥٢
	٥١	١٣٠
	٥٢	٥٣
	٥٣	٥٤-٥٦
	٥٤	٥٧، ١٣١-١٣٣
	٥٥	٥٨
	٥٦	٥٩
	٥٧	٦٠
[illegible]	٥٨	١٣٤
	٥٩	١٣٥
	٦٠	١٣٦-١٣٨
	٦١	٦١-٦٢
	٦٢	٦٣

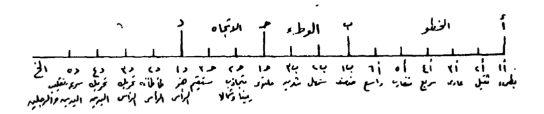
ملاحظة: (١) هذه المصفوفة يمكن أن تُقرأ كما سبق أن أوضحنا في ١-ج (المادة وطريقة العرض) بمتابعة موضع علامة زائد بالنسبة للخطين الأفقي والرأسي مع الرقم المسلسل للألفاظ فبقراءة الرقم ٦ مثلاً ونتابع علامات زائد نحصل على مشية تحمل الوصف ... مع تمايل وعجب بالنفس وتقليب القدمين ... وأن المشية تختص بالمرأة

(٢) عند تحديد نوع المشية يمكن بقراءة رقم اللفظ الدال عليها أن نرجع إلى هذا اللفظ كما ورد في هذا البحث ... اعتبر أن اللفظ الدال على المشية هو "خَنْذَفَه".

د ٢٩ اهتزاز
د ٣٠ ارتعاش
د ٣١ اضطراب
د ٣٢ مثير للتراب
د ٣٣ تراجع وتفكك
د ٣٤ وطء على كل جانب مرة
د ٣٥ فحج
د ٣٦ قصر قامة
د ٣٧ غلظ
د ٣٨ ضخامة
د ٣٩ عجب بالنفس
د ٤٠ في خفية (التخفي)
د ٤١ في غضب
د ٤٢ الكبر
د ٤٣ رجل
د ٤٤ امرأة

أما الشكل المقترح فيقوم على أساس أننا نفترض أن مقومات المشية ومصاحباتها نقط على خط مستقيم يمتد من ١ الى هـ ، فالخطو يقع بين النقطتين أ ـ ب ، والوطء بين ب ـ جـ ، والاتجاه بين حـ ـ د ، والمصاحبات وعددها ٤٤ كما سبق القول ، بين النقطتين د ـ هـ . ونوضح فيما يلي جزءا من الشكل فقط حيث لا يتسع فراغ الصفحة لامتداد الخط كله :





ومن ثم فاننا اذا أردنا أن نحدد مشية بعينها ولتكن مـا ورد تحت الفاظ رقم ٣٤ ، ١١٣ - ١١٤ (سريع مع مقاربـة الخطو فـاننا نـوصل النقطة أ ٤ (سريع) بالنقـطة أ ٥ (متقارب) على هذا النحو :

فاذا كان هناك مصاحبات كالمشية التي وردت تحت الفاظ رقم ٩٤ مثلا (عادي مع تحريك وهز المنكبين وقصر قامة) فان وصف المشية يوضح بتوصيل النقط المطلوبة وهي أ ٣ - د ٩ - د - ١٠ - د ٣٦ وهكذا .

٤ ـ الختام

وبعـد ، فقـد اتضـح من هـذا البحث ان الشاعر العربي قد عني بالمشية في تحقيق أغراضه من مدح أو ذم أو فخر ، وفي وصفه للشخصية المحورية في قصائده وانـه يتبع في ذلـك طرقـا أربعة : فهو اما أن يصف المشية دون ذكر اللفظ المعجمي الـدال عليهـا ، أو أن يجعـل المشيـة مشبها ، أو أن يكتفي بحكاية صوت المشية ، أو أن يصف المشية باللفظ المعجمي الدال عليها .

وبدراسة ماد البحث أمكن تصنيف مقومات المشية كما جاءت في الفاظ المعجم وشعر الشعراء لاثة هي : الخطو والوطء والاتجاه ، والى تحديد صفاتها ودرجات كل منها .

ولمـا كان الكثـير مما جـاء من الفاظ المعجم متعدد المعاني فقد كان لا بد من حدوث الكثير من التداخل بحيث أننا نجد أن البيت الواحد من الشعر يمكن إدراجه تحت أكثر من عنوان ، سواء من حيث الطريقة التي يتبعها الشاعر في وصف المشية ، أو من حيث صفاتهـا ، أو من حيث اللفظ المعجمي الدال عليها ، مما حدانا الى التنبيه على هذا كله في الهوامش حيثما اقتضى الأمر .

ولقد أسفرت مادة البحث عن اهتمام الشاعر العـربي بوصف المشيـة من ناحيـة السـرعـة أو البطء ، ومن نـاحية تقـارب الخطو واهتمـامـه بابراز أثر الكبر على مشية الانسان ، بل اننا نجد أنه حين يشكو مما فعله به الكبر يشكو أيضا من تغير مشيته (أنظر « هدجـان » الفاظ رقم ٤٨ أبيات ١٨٥ - ١٨٨ و « خاتل » الفاظ رقم ٥٣ أبيات ١٩٦ - ١٩٧) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الألفاظ الدالة على المشية ، وبخاصة تلك التي ترتبط بالسرعـة أو التبخـتر ، تتميز بتـركيب صوتي يحـاكي نـوع المشيـة ، بمعنى أن الأصوات التي يتـركب منها

اللفظ تحاكي الصوت الذي تحدثه مشية بعينها ، وذلك مما يدخل تلك الالفاظ في نطاق ما يعرف في علم اللغة بأسماء الأصوات ، [illegible] [illegible]تها « الحـزقـة » الـفـاظ رقم ٥٠ البيت ١٩٠ و « الهمقي » الفاظ رقم ٦٠ البيت ٢٠٨ .

وبالاضافة الى هذا كله فان أهم ما أسفر عنه البحث هو هذا الثراء اللفظي المذهل الذي تتمتع [illegible]تميز به [illegible] [illegible] [illegible] الوافر الذي يتميز به الشاعر العربي .

والله ولي التوفيق .

***

ثبت المراجع

١ ـ ابن سناء الملك ، تحقيق محمد ابراهيم نصر ، مراجعة الدكتور حسين محمد نصار القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٦٨م

٢ ـ البلاغة الواضحة ، تألف على الجارم ومصطفى أمين ـ القاهرة ، دار المارف ١٩٧٥

٣ ـ تاريخ الأدب العربي تأليف أحمد حسن الزيات ، الطبعة الخامسة والعشرين القاهرة دار النهضة مصر للطباعة والنشر

٤ ـ جرير : تأليف محمد ابراهيم جمعة ، سلسلة نوابغ الفكر العربي رقم ١٩ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٥

٥ ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي القاهرة ـ المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٣٤٨ هـ

٦ ـ الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ، للامام حمزة بن الحسن الأصفهاني حققه وقدم له ووضع حواشيه وفهارسه عبد المجيد قطامش الجزء الأول ـ سلسلة ذخائر العرب رقم ٤٦ القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ .

٧ ـ ديوان البهاء زهير ، شرح وتحقيق محمد طاهر الجبلاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ـ سلسلة ذخائر العرب رقم ٥٣ . القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٧

٨ ـ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، بتحقيق عبد العزيز اليمني نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٩هـ ١٩٥٠م سلسلة المكتبة العربية (التراث) القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٤ - ١٩٦٥٨م

٩ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد ، للامام ابن قيم الجوزية . القاهرة ـ المطبعة المصرية ومكتبتها

١٠ ـ السيرة النبوية لابن هشام ، قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبد الرؤوف سعد . القاهرة ـ شركة الطباعة الفنية المتحدة ، ١٩٧٤

١١ ـ شجر الدر ، في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة ، لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي قدم له وحققه وعلق عليه محمد عبد الجواد سلسلة ذخائر العرب رقم ٢١ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٨

١٢ ـ شروح سقط الزند ، لأبي العلاء المعري القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤

١٣ ـ الشعر العربي والذوق المعاصر ، تأليف الدكتور محمد كامل حسين . سلسلة شهرية تصدر عن دار مجلة الاذاعة والتلفزيون القاهرة

١٤ ـ شعر علي بن جبله . جمع وتحقيق الدكتور حسين عطوان . سلسلة ذخائر العرب رقم ٤٨ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٢ .

١٥ ـ شعر الهذليين في العصر الجاهلي والاسلامي ، تأليف الدكتور احمد كمال زكي القاهرة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .

١٦ ـ شعراء الاسكندرية في العصور الاسلامية ، تأليف عبد العليم القباني تقديم الدكتور محمد طه الحاجري ، القاهرة

١٧ ـ الشعراء وانشاد الشعر ، تأليف علي الجندي القاهرة دار المعارف ١٩٦٩

١٨ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار احمد فراج ، سلسلة ذخائر العرب رقم ٢٠ القاهرة دار المعارف ١٩٧٦ .

١٩ ـ العقد الفريد تأليف احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي ، بتحقيق محمد سعيد العريان ، الطبعة الاولى القاهرة ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠م .

٢٠ ـ عيون الاخبار تأليف محمد عبد الله بن مسلم الدينوري . القاهرة دار الكتب المصرية ١٤٣٦هـ ١٩٢٨م

٢١ ـ غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلي بن ظافر الازدي المصري ، تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، والدكتور مصطفى الصاوي الجويني ، سلسلة ذخائر العرب رقم ٤٥ القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧١ .

٢٢ ـ كشف الدجى عن شواهد ابي النجا ، بشرح احمد بن الامين الشنقيطي / الطبعة الاولى القاهرة ـ المطبعة الجمالية ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م

٢٣ ـ لسان العرب لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري / القاهرة دار المعارف

٢٤ ـ لسان العرب لابن منظور طبعة مصورة عن طبعة بولاق سلسلة « تراثنا » القاهرة / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر / الدار المصرية للتأليف والترجمة

٢٥ ـ مجالس ثعلب لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب . شرح وتحقيق عبد السلام محمد هارون الطبعة الثالثة سلسلة ذخائر العرب القاهرة دار المعارف ١٩٦٩

٢٦ ـ مختار الاغاني في الاخبار والتهاني / اختيار ابن منظور محمد بن مكرم ـ الجزء الثاني تحقيق عبد الستار احمد فراج القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ، والجزء الخامس تحقيق عبد العزيز احمد القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م

٢٧ ـ معجم مقاييس اللغة / لابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا ، بتحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الاولى القاهرة / دار احياء الكتب العربية ١٣٦٦هـ

٢٨ ـ المقتضب ، تأليف ابي العباس محمد بن يزيد المبرد الجزء الثالث بتحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، لجنة التراث الاسلامي ١٣٨٦هـ .

[المن]جد في اللغة والادب والعلوم . بيروت ، المطبعة الكاثوليكية

٣ ـ المنتخب من أدب العرب ـ جمعه وشرحه طه حسين وآخرون القاهرة المطبعة الاميرية ببولاق ١٩٣٤

٣١ ـ نخبة من كتاب الاختيارين ، اختيار المفضل الضبي وعبد الملك بن قريب الاصمعي من اشعار فصحاء العرب في الجاهلية والاسلام مما روى عن مشائخ اهل اللغة الموثوق بروايتهم ، بتحقيق الدكتور السيد معظم حسين . عنيت بنشرها جامعة دكه . بنجاله . الهند ١٩٣٨

٣٢ ـ نقد النثر ، لابي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، حققه وعلق حواشيه الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادي ـ القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م .

٣٣ ـ الوسيط في الادب العربي وتاريخه / تأليف الشيخ احمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني . الطبعة الثامنة عشرة / القاهرة / دار المعارف .

٣٤ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / لابي منصور الثعالبي / تحقيق وشرح ايليا الحاوي الطبعة الاولى / بيروت / الشركة الشرقية للنشر والتوزيع .

Arberry, A.T. Arabic Poetry. Cambridge at the University Press, 1965 -٣٥

Birdwhistell, Ray L. Introduction to Kinesics. Washington : Foreign Service Institute, 1952 -٣٦

Dorland's Pocket Medical Dictionary. 22nd edition, Bombay : Oxford & Ibh Publishing Co/ 1977, P. 286. -٣٧

Pears Medical Encyclopedia. London : Sphere Books Limited, 1967, PP, 229 — n 230 -٣٨

Schifferes, Justus J. The Family Mediacal Encyclopedia. New York : Pocket Books, 34 th Printing, February 1975, P. 215. -٣٩

Wehner, Hans. A Dictionary Of Modern Arabic, Edited by Cowan J. Milton. Weisbaden : Otto Harrassowitz, 1961. -٤٠

* * *

الأدب التركي المعاصر

ابراهيم الداقوقي

كلية الآداب - جامعة بغداد

تمهيد :

تستدعي دراسة الادب التركي المعاصر ، بشكل عام ، الرجوع الى المنابع الاصلية والمصادر الرئيسية التي أمدت هذا الادب بالنسغ الصاعد ، اضافة الى ضرورة معرفة الامة التي انجبت هذا الادب ، ودراسة المجتمع التركي دراسة ميثولوجية ، لغوية ، ثقافية ، اجتماعية وسياسية لمعرفة التيارات الفاعلة في هذا الادب وصولا الى النتائج المرجوة من هذه الدراسة .

ولذلك فاننا سنتطرق الى أصل الاتراك ، ونشوء اللغة والكتابة التركيتين ، وعلاقتها بالتطور الميثولوجي والثقافي للشعب التركي ، ومن ثم نشوء الادب التركي في آسيا الوسطى ، وتطوره بعد دخول الاتراك الى الدين الاسلامي الحنيف ، ومن ثم الى استكماله لملامحه الخاصة وامتلاكه لهويته المتميزة في القرن العشرين ، بفضل الادباء والشعراء الكبار والمؤسسات الثقافية والادبية والاجتماعية ، التي وضعت الجوائز الادبية والشعرية السخية للابداع الادبي والفني في كافة المجالات ، مما أدى الى تنوع المدارس الادبية وتصارعها من أجل الابداع والخلق ، مع الحفاظ على هويته التقدمية المقدامة .

ولهذا فسوف نتناول دراسة هذا الادب في ثلاثة فصول :

الفصل الاول - الأتراك ... من هم ؟

المبحث الاول - الميثولوجيا التركية .

المبحث الثاني - اللغة التركية وموقعها من اللغات المعروفة اليوم .

المبحث الثالث - الكتابة التركية .

المبحث الرابع - ثورة اللغة .

الفصل الثاني - التطور الثقافي للمجتمع التركي :

الفصل الثالث - تاريخ الادب التركي :

المبحث الاول - الادب التركي قبل الاسلام .

المبحث الثاني - الادب التركي بعد الاسلام .

أ - تيار الادب الشعبي .

ب - تيار ادب الديوان .

المبحث الثالث - الادب التركي الحديث .

أ - ادب التنظيمات .

ب - حركة الادب الجديد .

ج - الادب التركي في القرن العشرين .

المبحث الرابع - تطور الشعر التركي خلال القرن العشرين .

١ - حركة التغريب .

٢ - تيار الادب القروي .

٣ - تيار الحركة الشعرية الثانية .

٤ - تيار الادب الاشتراكي .

المبحث الخامس - القصة القصيرة في الادب التركي .

المبحث السادس - الرواية في الادب التركي .

وبالنظر الى ان الادب التركي نما وازدهر تحت تأثير الحضارة الاسلامية ، وبقي تحت تأثيرها أكثر من تسعة قرون (من القرن الحادي عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر) لذلك فسوف نحاول اعطاء صورة كاملة للادب التركي ، خلال عصوره المختلفة ، مع ايراد النماذج الادبية التي توضح الفكرة التي نحن بصددها من خلال الفصول التي تتضمنها الدراسة .

(الفصل الاول)

الاتراك ... من هم

الاتراك هم من الاقوام العريقة التي ظهرت في التاريخ . وهم من الاقوام الطورانية التي تسمى علميا عائلة (اورال الطاي) كالمغول والبلغار والمجر والفنلنديين[١] . ولعل اقدم ذكر لهم هو ما ورد في التوراة[٢] ، حيث انها اشارت الى ملوك عوص Uz وهم ملوك الغز الاتراك[٣] غير ان كلمة (تورك)

(١) نبه ابن النديم الى قرابة البلغار والترك في كتابه (الفهرست) وذلك في القرن العاشر الميلادي ، كما تنبه ابن خلدون الى قرابة الاتراك والفنلنديين (في مقدمته) وذلك في القرن الرابع عشر .

(٢) كوبريلي زاده محمد فؤاد : توركيا تاريخي /استانبول ١٩٢٣/ ص ٣ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة التركية) مادة قبجاق /٧١٣/٦٣ .

كانت تطلق على بطن من بطون القبائل[٤] التي كانت تقطن آسيا الوسطى في المنطقة المحصورة بين بحيرة [illegible][٥]. والترك في الاصل عشرون قبيلة ينتسبون كلهم الى (ترك بن يافث بن نوح) النبي وهم بمنزلة اولاد (الروم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم) ولكل قبيلة منها بطون لا يحصيهم الا الله[٦].

كانت آسيا الوسطى الوطن الأم للقبائل التركية الرحالة ، ومنها انحدروا نحو الغرب وأسسوا دويلات وامبراطوريات باسماء مختلفة ، وأقدم الدول التركية المعروفة في التاريخ هي دولة (القومانيين)[٧] التي تأسست في آسيا الصغرى في الالف الاول قبل الميلاد . وكانت ذات صلات وثيقة مع الدولة الاشور[illegible] الملك الاشوري تيغلات [illegible]صر الاول خلال الفترة ١١١٨ - ١٠٩٣ ق .م[٨] . واذا كانت دولة القومانيين قد تأسست في الغرب واتخذت من قوموسا Khoumousa عاصمة لها[٩] فان المصادر الصينية تذكر بان دولة (هيونغ - نو) هي أقدم الدول التركية التي تأسست في الشرق[١٠] وهم اجداد قبائل (الهون) التي غزت اوروبا خلال القرن الخامس[١١] ، وقد استطاع الهون تأسيس امبراطورية عظيمة شملت أجزاء من آسيا الوسطى ، بالاضافة الى آسيا الصغرى ، وذلك خلال القرن الخامس - الثاني قبل الميلاد[١٢] على الرغم من أن الوقائع التاريخية الصينية تؤكد بان الامبراطورية الهونية كانت موجودة في آسيا الوسطى حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد[١٣] ، لكن المصادر الصينية بدأت بايراد المعلومات الصحيحة حول تاريخ الهون اعتبارا من سنة ٢١٠ق .م[١٤] وقد ظهرت بعد الهون اقوام تركية اخرى باسماء مختلفة منها القبجاق

---

4 - Prof Dr . Faruk SumerOguzlar, Ankara 1972, S.9

5 - V.M. Kocaturk : Turk ed . Tarihi, Ank .1970, S.7

(٦) محمود الكشغري : ديوان لغات الترك / استانبول/١٣٣٣هـ ، ج ١/ص ٢٧ .

(٧) يطلق عليهم في التاريخ اليوناني اسم Komanen واللاتيني Kuman والمجري Kun والروسي Polovtisi والالماني Falben (دائرة المعارف الاسلامية ٧١٣/٦٣) والقومان فرع من فروع القبجاق (دائرة المعارف الاسلامية ٩٨١/٦٧) الطبعة التركية .

(٨) كوبريلي زاده [illegible]د فؤاد : تورك ادبياتي تاريخي /استانبول ١٩٢٠/ ص ١٥/ هامش رقم ٢ .

(٩) كوبريلي زاده محمد فؤاد : تورك ادبياتي تاريخي / ص ١٦ .

(١٠) كوبريلي زاده محمد فؤاد : تورك ادبياتي تاريخي / ص ١٦/ هامش رقم ١ .

(١١) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة التركية) مادة قبجاق ٧١٣/٦٣ .

12 - Ahmet Kabakli : Turk Edebiyati, istanbul 1968, Cilt 1, S.3

(١٣) دوكيني : هونلرك ، موغوللرك وداها سائر تاتارلرك تاريخ عموميسي / استانبول ١٩٢٣ ج ١/ ص ١٩٣ (ترجمة حسين جاهد يالجين) .

(١٤) دوكيني ، المصدر السابق / ص ١٩٢ وكان الصينيون يطلقون على الاتراك اسم (توكيو) .

والاويغور[١٥] والغز والافتاليت[١٦] والقرغيز والمغول والتيموريون والسلاجقة والتركمان والعثمانيون وغيرهم .

واول ظهور للأتراك على مسرح السياسة - باسمهم المعروف اليوم - كان في القرن الرابع الميلادي عندما استطاعت قبيلة ترك[١٧] من جمع كافة القبائل الناطقة باللغة التركية والتغلب بهم على (الاورانيين الجوانيين) الذين كانوا أسياد الاقوام التركية - المغولية . وبذلك استطاعت تأسيس امبراطورية عظيمة تمتد من سد الصين وحتى بحر الخزر . ومن هنا فقد اطلقت كلمة (تورك) على كل الاقوام الناطقة باللغة التركية . غير ان هذه الكلمة اكتسبت دلالتها الواسعة بعد قبول الاتراك للدين الاسلامي[١٨] . واذا كانت آسيا الوسطى الموطن الام للاتراك - بجميع بطونها - فانهم قد انتشروا من هناك غربا وأسسوا العديد من الدول والامبراطوريات في المواطن الجديدة التي حلوا فيها . ويمكننا تقسيم الاتراك بحسب توزيعهم الجغرافي في العالم الى[١٩] :

اولا : اتراك سيبريا والمغول :

١ - الياقوتيون والدولغانيون .

٢ - اتراك تاتار الآلتاي .

٣ - اتراك بارابا وتاتار غربي سيبريا .

٤ - اورانخا الصين والاتحاد السوفياتي .

ثانيا : اتراك آسيا الوسطى :

١ - القرغيز والقازاق :

أ - قرغيز وقازاق الاتحاد السوفياتي (جمهورية قيرغيزيا السوفييتية) .

ب - قرغيز وقازاق خيوه وبخاري .

ج - قرغيز وقازاق الصين .

د - القيجاق .

هـ - القالباق السود .

٢ - القرغيز السود أو البوروتيون :

أ - في الاتحاد السوفياتي .

ب - في بخاري .

ج - في الصين .

٣ - التركمان :

أ - في آسيا السوفياتية (جمهورية تركمنستان السوفييتية) .

ب - في بخاري وخيوه .

---

(١٥) يطلق عليهم المؤرخون العرب اسم (التغزغز) والصينيون (هووهي - هو) .

(١٦) ويطلق عليهم المؤرخون العرب اسم (الهياطلة) .

(١٧) البروفيسور فاروق سومر : المصدر السابق / ص ٩ .

(١٨) البروفيسور فاروق سومر : المصدر السابق / ص ٩ .

(١٩) كوبريلي زاده محمد فؤاد : توركيا تاريخي / ص ١٢ - ١٤ .

ج - في افغانستان وايران (اذربيجان الايرانية) والعراق .

د - في القفقاس (جمهورية اذربيجان السوفييتية) .

هـ - في اوروبا الشرقية .

٤ - الاوزبك :

أ - في آسيا السوفييتية (جمهورية اوزبكستان السوفييتية) .

ب - في جنوه وبخارى .

ج - في افغانستان .

٥ - السارتيون :

أ - في آسيا السوفييتية .

ب - في بخارى وخيوه .

ج - في افغانستان .

٦ - اتراك تركستان الشرقية :

أ - اتراك قولجة وتركستان الصينية .

ب - التارانجيون في تركستان السوفييتية .

ج - الكاشغر في تركستان السوفييتية .

٧ - اتراك قانصو :

السالار - والاويغور الصفر .

٨ - التاتار المهاجرون من سيبيريا واوروبا السوفييتية الى آسيا الوسطى .

٩ - اتراك آسيا الوسطى غير الداخلين في الزمر المذكورة اعلاه .

ثالثا : اتراك ما وراء وجنوب غربي القفقاس :

١ - الاتراك العثمانيون (في الاناضول والبلقان) .

٢ - الاتراك العثمانيون فيما وراء القفقاس .

٣ - اتراك اذربيجان القفقاسية .

٤ - اتراك ايران .

٥ - الياباقيون السود .

رابعا : اتراك اوروبا السوفييتية ورومانيا :

١ - اتراك قفقاسية الشمالية :

أ - القراجابيون .

ب - القوموق .

ج - النوغاي السود .

د - اتراك قابار طاي .

٢ - اتراك الاورال :

أ - الباشكرديون .

ب - الميشريون .

ج - التيبتريون .

٣ - اتراك الفولكا والقريم :

أ - اتراك قازان - سيمرسك - ساراتوف - أزدرهان ، بانزا ، تامبوف ، ريازان ونيزني توفكورد .

ب - اتراك القرم .

ج - الجواشيون .

٤ - غاغا وزيوبارابيا (أتراك مسيحيون) .

٥ - نوغاي دوبروجه أو الجيتاقيون .

أما من حيث السيادة والحضارة ، فقد مثل الاوغوز العالم التركي في التاريخ حتى القرن السادس ، والاتراك (التوكيوئيون) حتى منتصف القرن الثامن ، والاويغور حتى القرن الحادي عشر ، ثم الاوغوز (السلاجقة والعثمانيون) مرة اخرى حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، حيث تشكلت دويلات تركية فيا بعد في آسيا الوسطى وآسيا الصغرى .

المبحث الاول

« الميثولوجيا التركية »

يقول البروفيسور بهاء الدين أوكَل : « ان الاتراك لم يخلقوا ميثولوجيتهم ، وإنما الميثولوجيا التركية هي التي خلقت الاتراك ، لانها ليست - مثل الميثولوجيات الاخرى - عبارة عن آراء وافكار بالية وميتة وإنما هي طريق الحياة ، منظم للمجتمع ، وجماع الافكار الحية ... »[٢٠] .

لقد ولدت الميثولوجيا التركية في آسيا الوسطى وقامت بدور كبير في تكوين المجتمع التركي الذي اتخذ من الذئب طوطما[٢١] ومن اللون الابيض[٢٢] والعدد تسعة[٢٣] والمخلوقات المقدسة[٢٤] رموزا للاساطير التي تروي نشوء الكون وتكوين المجتمع التركي وملاحم الابطال وانتصاراتهم ، والكوارث التي حلت بهم وبتنقلاتهم . فاسطورة (قره خان) تمثل المعرفة الطبيعية والسماوية لدى الاتراك ، واسطورتا (بوزقورت - الذئب الاغبر) و (اركنه قون - صاهر المعادن) تمثل نشوء الاتراك وانتشارهم في الارض ، واسطورة (اوغوزخان) تمثل عظمة الاتراك وتأسيسهم للامبراطوريات[٢٥] اضافة الى العديد من الاساطير والملاحم التي تروي بطولاتهم واسفارهم . وتتنوع المواضيع في الملاحم التركية ، غير ان الشعر

---

(٢٠) البروفيسور بهاء الدين اوكل : الميثولوجيا التركية ، المجلد الاول / استانبول ١٩٧١/ ص ٧ .

(٢١) البروفيسور محمد فؤاد كوبريلي زاده : تورك ادبياتي تاريخي / استانبول ١٩٢٤/ ص ٦٩ .

(٢٢) البروفيسور بهاء الدين اوكل : المصدر السابق / ج ٢/ ص ٣٠٨ حيث تعطف الاساطير التركية القديمة منشأ الاتراك الى الذئب ذكرا كان او انثى ، ففي اسطورة بوزقورت (الذئب الاغبر) يتزوج الذئب من ابنة (اللارا) خاقان الاتراك الاعظم . اما في اسطورة طوكيوفان ابن الحاكم التركي يتزوج ذئبة فتلد له ستة اطفال .

(٢٣) يعتقد الاتراك بان السماوات والارض تتألف من تسع طبقات ، كما ان اسطورة اوغوز تؤكد انه ولد من الذئب تسعة اولاد .

(٢٤) ان معظم هذه المخلوقات المقدسة هي في الحقيقة مصادر الخلق والنشوء في الميثولوجيا التركية . فالشجر المقدس هو الالهة (الام) التي ولدت جدود الاويغوريين الخمسة والذئب المقدس (كوك بورو) هو اب الالكائيين والبحيرة المقدسة (آف كول) هي مسكن الارواح حيث توزع منها الهدايا على الاطفال المولودين اضافة الى النهر المقدس (أرتيش نهري) والجبل المقدس (آق داغ) والجزيرة المقدسة .

(٢٥) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق / ص ٢ .

البطولي والمراثي المسماة (ساغو) يشكل اقسامه الرئيسية[٢٦] . وتتألف الملاحم التركية من ثلاثة أقسام :

١ - ملحمة هنكنو (ملاحم الهون) .

٢ - ملحمة توك يو (ملاحم الاتراك) .

٣ - ملحمة اويغور (ملاحم الاوغوز) .

وتعد ملحمة اويغور اهم هذه الملاحم ، وقد وصل الينا فقط قسم منها وهي المسماة (اوغوز نامه) ويدور حول معارك وبطولات احد سلاطين الاتراك المدعو (اوغوزخان)[٢٧] .

لقد كان للاتراك القدماء - مثل اليونانيين - آلهتهم الذين يمثلون الوجود المادي والمعنوي ، الطبيعي والانساني ، وكان (كوك تاكري - الاله الازرق او السماوي)[٢٨] على رأس هؤلاء لأنه - مثل زيوس - كبير الالهة[٢٩] . كما كان ثمة آلهة لبعض القوميات التركية ، فقد كان لأتراك الالطاي إله خالق يدعى (باي أولكَن - Bay ulgen) وللاتراك الياقوتيين إلهة تدعى (آنا تانري - الالهة الأم) وللاغوز إله يدعى (قره خان - الخان الاسود) وغيرهم[٣٠] . واضافة الى هؤلاء فقد كان ثمة أنصاف آلهة يتوسطون بين البشر والآلهة ويقومون بالسحر والطبابة حيث كان يطلق عليهم (قام) أو (باقصي)[٣١] .

كان الاتراك القدماء يدينون بالشامانية ، وهي من الديانات البدائية التي تشكل الاعراف والتقاليد القومية أسسها العامة ، وكان الشاماني - وهو رجل الدين - يعتبر نفسه وسيطا بين الآلهة والبشر ، يستوحي اعماله من الآلهة وينقذ البشر من شر المردة والجان بالطرق السحرية[٣٢] .

وخلال القرون التسعة - من القرن الثاني الهجري وحتى القرن العاشر - التي بدأت فيها هجرات القبائل التركية من آسيا الوسطى نحو الغرب بجحافل هائلة ، اختلطت بالاقوام المجاورة فاقتبست

---

(٢٦) ابراهيم الداقوقي : فنون الادب الشعبي التركماني / بغداد ١٩٦٢/ ص ١٩ .

(٢٧) البروفيسور فؤاد كوبريلي : تورك ادبياتي تاريخي ص ٥٦ - ٧٢ . وتورك انسيكلوبه ديسي / ج ٤/ ص ٥٤ .

(٢٨) كان اتراك الياقوت يطلقون عليه اسم (أرتويون - ER-Toyun) كما ورد في كتاب ده ده قورقورد .

(٢٩) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ص ٢ .

(٣٠) وصفي ماهر قوجاتورك / المصدر السابق / ج ١/ص ٣ .

(٣١) ضياء كوك آلب : توركلرده اجتماعي حيات / توركيات مجموعة سي / ج ٤/ ص ٦ وفؤاد كوبريلي - تورك ادبياتي تاريخي / ص ٧٨ . وفؤاد كوبريلي - تورك ادبياتي تاريخي / ص ٢٣ - ٢٥ .

(٣٢) ابراهيم الداقوقي : فنون الادب الشعبي التركماني / بغداد ١٩٦٢/ ص ١٩ .

الشيء الكثير من اساطيرها وعاداتها وتقاليدها[٣٣] حيث انتقلت فكرة احمرار عين البطل من الميثولوجيا الصينية الى الميثولوجيا التركية ، كما انتقلت اليها فكرة وجود الدم الخاثر في قبضة الطفل المعجزة[٣٤] وانتقل اليها الجبل المقدس سورو Suro والبساط السحري[٣٥] من الميثولوجيا الهندية . اما من الميثولوجيا الايرانية فقد انتقل اليها الاله Kudai [٣٦] واساطير الجن والعفاريت . كما انتقلت عادات وتقاليد الاقوام المتاخمة للاتراك الى قصصهم الشعبي باجوائها الشرقية بشيء من التحوير والتبديل[٣٧] .

ونتيجة لاختلاط الاتراك بالاقوام الاخرى ، فانهم لم يروا بأسا من قبول ديانات تلك الاقوام ، فقد تركوا ديانتهم الشامانية ، وتحول بعضهم الى البوذية بتأثير الهند والمانوية بتأثير ايران ، واليهودية بأثير امراء يهود بحر الخزر ، والمسيحية تحت تأثير المبشرين النساطرة ، غير ان كثرتهم دخلوا في الدين الاسلامي اعتبارا من القرن العاشر الميلادي افواجا افواجا ولكن - مع ذلك - بقيت الآثار الشامانية ماثلة في الميتولوجيا التركية الى يومنا هذا[٣٨] . ومع ذلك فان التأثير الاسلامي كان في القوة بحيث ولدت ميثولوجيا تركية - اسلامية جديدة حل فيها الله عز وجل محل (كوك تانري) ، والرسول (ﷺ) محل الالهة الاخرى ، والامام علي بن ابي طالب (رض) محل الابطال القوميين ، والاولياء محل رجال الدين الشامان[٣٩] كما تحولت الرموز الاسطورية التركية الى رموز اسلامية ، فقد تحول العدد تسعة - بتأثير القرآن - الى العدد ٧ ، واندمج الطير الاسطوري الفارسي (سيمرغ) مع الطير الاسطوري العربي (العنقاء) ونتج عن ذلك طير اسطوري جديد يطوي المسافات طيا ويبلغ السماوات السبع اطلق عليه اسم (زمر عنقا أو (سيمر عنقا) [٤٠] ومشاهد (الجب) وتخضيب القميص بدم الحيوان للتمويه ، وكذلك الرموز الاسطورية من الف ليلة وليلة

(٣٣) يذهب بعض المستشرقين - امثال زايكه وغريم وفون دييز - الى تأثر الميثولوجيا اليونانية بالميثولوجيا التركية ، حيث يؤكدون بان عفريت (بوليفام) في ملحمة اوديسه هو صورة من عفريت (تبه كوز) في ملحمة (اغوز نامه) واننا وان كنا نستبعد هذا التأثر نظرا لبعد الشقه بين القوميتين ، الا اننا نؤيد Van Gennep في تأثر الميثولوجيا الالمانية بملاحم الهون ولا سيا بشخصية (آتيلا) (انظر تفصيلات ذلك في كتاب تاريخ الادب التركي لفؤاد كوبريلي ص ٧٤ - ٧٥) .

(٣٤) الذي يصبح - عادة - فيا بعد بطلا اسطوريا .

(٣٥) على شكل (نير) طائر .

(٣٦) البروفيسور بهاء الدين اوكل : المصدر السابق / ج ٢/ ص ٣٠٩ .

(٣٧) انظر تفصيل ذلك في كتابنا : فنون الادب الشعبي التركماني ص ٤٠ - ٧٤ .

(٣٨) شامانزم - وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ص ٢ .

(٣٩) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق / ص ٢ .

(٤٠) ابراهيم الداقوقي : فنون الادب الشعبي التركماني / ص ٤٥ .

العربية . كما ان الاتراك اقتبسوا الروايات الخاصة بالبطل العربي (عبد الله البطال) الذي استشهد ايام الامويين وجعلوا بطلا اسطوريا تركيا[٤١] وسموه (بطال غازي) .

المبحث الثاني

« اللغة التركية وموقعها في اللغات المعروفة اليوم »

تذهب الدراسات اللغوية الحديثة الى ان اللغات المعروفة اليوم تنقسم من حيث المنشأ الى[٤٢] :

(١) عائلة اللغات الهندو - اوروبية : وهي تضم كافة اللغات الاوروبية (عدا الفنلندية والمجرية) وبعض اللغات الآسيوية (كالهندية والفارسية) ولذلك فانها تنقسم الى قسمين :

أ - شعبة اللغات الاوروبية ، وهي :

١ - اللغات الجرمانية : وهي اللغات الالمانية والانكليزية والاسكندنافية .

٢ - اللغات الرومانية : وتعد اللاتينية أم هذه اللغات التي تتألف من الفرنسية والاسبانية والبرتغالية والايطالية والرومانية الحديثة .

٣ - اللغات السلافية : وهي اللغات الروسية والبلغارية والصربية .

٤ - اللغات المنحوتة : وهي مزيج من هذه اللغات ولهجاتها ، وتشكل الحتية واليونانية الحديثة والالبانية والكلتية والليتوانية اللهجات الرئيسية فيها .

ب - شعبة اللغات الاسيوية : وتنقسم الى فرعين رئيسيين :

١ - اللغات الهندية : وهي السنسكريتية القديمة واللغات الهندية المعروفة اليوم .

٢ - اللغات الفارسية : وتتألف من لغة الافستا والفارسية القديمة وفارسية العهود الوسطى والحديثة والكردية .

(٢) عائلة اللغات السامية : وتدخل فيها الأكدية والعبرانية والعربية .

(٣) عائلة لغات البانتو : وهي اللغاب التي يتلاغى بها الافارقة في وسط وجنوب افريقيا .

(٤) عائلة اللغات الصينية - التيبتية : وهي مجموعة اللغات الصينية والتيبتية واليابانية .

وبالاضافة الى هذه السلالات اللغوية التي تتحد من حيث المنشأ والبناء ، فان ثمة مجموعات لغوية تتحد في البناء فقط ، ولذلك فانها حسبما توصلت اليها الدراسات الحديثة - لا تشكل عائلة لغوية وانما هي (مجموعة لغوية) فقط ، وربما ادت الدراسات في المستقبل الى اكتشاف الاصول المشتركة لهذه المجموعات ايضا . وتعد لغات أورال - التي تدخل ضمنها التركية من هذه المجموعات

---

(٤١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية / بيروت ، ١٩٥٦/ ص ١٠٤ .

42 - Prof. Dr. muharrem Ergin : Turk Dil Bilgisi, istanbul 1972, S.5

اللغوية التي تتحد من حيث البناء فقط . وتنقسم هذه المجموعة الى فرعين رئيسيين[٤٣] :

١ - اللغات الاورالية : وتنقسم الى :

أ - اللغات الفنلندية والايغورية والمجرية والبرمية .

ب - اللغات الساموئيدية .

٢ - اللغات الالطائية : وتضم اللغات المانجوية والمغولية والتركية .

أما من حيث البناء فان اللغات في العالم تنقسم الى ثلاث مجموعات [٤٤] :

١ - اللغات ذات المقطع الواحد : وتتألف كلماتها من مقطع واحد لا يتغير خلال الجملة مثل اللغات الصينية والتبتية والانامية واليابانية .

٢ - اللغات الالتصاقية : وهي اللغات التي لا تتغير صورة الكلمة عند الاستعمال في الجملة وانما يكون تصريف الكلمات وتوليدها باضافة ملحقة بجذر الكلمة ، مثل اللغات التركية والمجرية .

٣ - اللغات التصريفية : تتغير اشكال الكلمات لدى استعمالها بحسب موقعها من الجمل ، اضافة الى البنيان الداخلي للاسماء يتغير لدى تصريفها ايضا وهي كاللغات الهندو - اوروبية واللغة العربية . وتعد اللغة التصريفية ذروة التطور والكمال في اللغات المعروفة اليوم .

وقد ولدت اللغة التركية في قلب آسيا الوسطى ، وحملتها القبائل التركية الرحالة في هجراتها المتعددة نحو الغرب[٤٥] ، ولعل اقدم هذه الهجرات كانت هجرة القبائل الطورانية[٤٦] من الياقوتيين الذين هاجروا من قلب آسيا - شمال الصين - وسلكوا الطريق الجنوبي (نان لو - Nan- Lu) والتي تمتد من سلسلة جبال تيان شان - مارة بكشغر - سغد - فرغانه - ايران - ميديا - ققفاسية - بوسفور - وتنتهي بالجزيرة[٤٧] وعندما وصل الياقوتيون الى بلاد ميديا انتشروا على ضفتي نهر دجلة والفرات وذلك قبل الميلاد بما يقارب ٨٠٠ عام[٤٨] .

ثم كانت الواقعة الكبرى بين الاسكندر المقدوني ودارا الثالث (٣٣٨ - ٣٣٠ق .م) الفارسي قرب

---

(٤٣) البروفيسور محرم اركين : المصدر السابق ، ص ٦ .

(٤٤) البروفيسور محرم اركين : المصدر السابق ، ص ٧ .

(٤٥) ابراهيم الداقوقي : فنون الادب الشعبي التركماني ، بغداد /١٩٦٢/ ص ٩ .

(٤٦) الطورانيون (Touranians) لفظة اطلقها المستشرقون على الاقوام التركية القاطنة في (طوران) وهي المنطقة الممتدة من البحر الابيض المتوسط حتى منغوليا ، والتي تقع شرق (ايران) . وهذه القبائل تجمع بينها رابطة الدم والعنصر واللغة .

(٤٧) م . شمس الدين : مفصل تورك تاريخي ، ص / ١١٧ والخريطة المرقمة (٧) مقابل ص ١١٢ .

(٤٨) م . شمس الدين : المصدر السابق ، ص /٨٠ - ٨٤ .

مدينة كواكميلا[٤٩] وكان دارا قد جمع جيشا جديدا - بعد ان اندحر في المرة الاولى - عدته الف الف مقاتل ويتألف من فرس وميديين وبابليين وسومريين وارمن وكبادوكيين وبلخيين[٥٠] وصغد[٥١] وارخزيان[٥٢] وساكي وهنود . والتقى الاسكندر ومعه سبعة آلاف من الفرسان واربعون الفا من المشاة ، بهذا الخليط المختل النظام غير المتجانس ، ودارت رحى القتال عند كواكميلا فاستطاع الاسكندر بتفوق اسلحته وحسن قيادته وشجاعته ان يبدد شمل هذا الجيش في يوم واحد[٥٣] . فتفرق هؤلاء في منطقة الشرق الاوسط واختلطوا بالاقوام الساكنة فيه . وتسمى هذه الواقعة (اربيلا) ايضا نسبة الى مدينة اربيل وكانت سنة ٣٣٠ق .م .

وفي سنة ٥٤ الهجرية بدأت هجرة القبائل التركية الى اقاليم الشرق الاوسط بصورة عامة والى العراق بشكل خاص بعد ان تغلب عليهم (عبد الله بن زياد) في موطنهم بآسيا الوسطى ابان الفتوحات العربية حيث اختار منهم - من اتراك الغز - الفي مقاتل يحسنون الرماية بالنشاب وبعث بهم الى العراق واسكنهم البصرة[٥٤] .

ثم تتابعت هجرات القبائل التركية من الشرق الى الغرب لاسباب جغرافية وسياسية ، حتى كانت هجرة مجموعة اخرى منهم والتي كانت تقطن اقاصي التركستان والذين عرفوا في التاريخ باسم السلجوقيين - نسبة الى زعيمهم سلجوق بن خاقان الذي عاش أواخر القرن العاشر الميلادي والذي وحدهم تحت قيادته - وذلك خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية تحت ظروف قاهرة . وقد يممت هذه القبائل التركية المهاجرة وجهها شطر الغرب وحاولت الاستقرار في اقليمي ما وراء النهر وخراسان ، ولم تلبث ان بسطت نفوذها على ايران والعراق وعلى اكثر اجزاء الشام واسيا الصغرى[٥٥] .

وعندما توحدت القبائل المغولية بقيادة جنكيزخان (١١٥٥ - ١٢٢٧م) توجهت هذه القبائل من مواطنها في منغوليا نحو الغرب كالسيل الهادر يقودهم جنكيزخان الذي اسس أعظم امبراطورية في العالم والذي هز بفتوحاته اركان الدول جميعا فيما بين الصين شرقا والبحر الادرياتي غربا في النصف الاول من القرن السابع الهجري[٥٦] .

وتجددت هجرة القبائل التركية نحو الشرق

---

(٤٩) كانت مدينة تبعد ستين ميلا عن اربيل الحالية (في الجمهورية العراقية) وقد سميت الواقعة باسمها .

(٥٠ - ٥١ - ٥٢) هؤلاء الاقوام من القبائل التركية القاطنة في آسيا الوسطى .

(٥٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ، الجزء الثالث ، ص ٤٦٠ .

(٥٤) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ٤ ، ص ٢٢١ .

(٥٥) الدكتور عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١١ و١٦ .

(٥٦) الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، ص ١٤ .

الاوسط اواخر القرن الثامن الهجري عندما قاد تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) الجحافل المغولية نحو الغرب فأسس امبراطورية كبيرة جعل عاصمتها (سمرقند) وكانت ممتلكاتها تمتد من نهر (الكنج) شرقا حتى سوريا غربا .

وقد اختلطت هذه القبائل بعضها بالبعض الآخر في منطقة الشرق الاوسط وأسست فيها دويلات مختلفة حتى ان بغداد ، عاصمة الخلافة الاسلامية ، لم تسلم من تدمير هولاكو - وهو احد احفاد جنكيزخان - وكان الفتح العثماني للبلاد العربية خلال القرن العاشر الهجري آخر تلك الموجات من هجرات القبائل التركية[٥٧] .

كانت اللغة التركية في بداية الامر ، مثل بقيّة اللغات ، بدائية تفي بحاجة المتكلمين بها ... حيث البساطة في كل شيء ، وكانت قليلة المفردات ، خشنة المخارج ... الا ان احتكاك هذه القبائل بالاقوام الاكثر تمدنا وحضارة كالصينيين والهندوس والفرس والعرب ادخل الكثير من مفرداتُ لغاتهم الى اللغة التركية فأصبحت أكثر مرونة وسلاسة واعظم قدرة على استيعاب نتاج افكار تلك الاقوام . ورغم اتحاد هذه القبائل في الاصل والعنصر فقد كانت لهجاتها غير متشابهة فكان « ثمة اختلاف في لغات هذه القبائل »[٥٨] .

ولقد كانت لهجتان متمايزتان شائعتين في اللغة التركية قبل الاسلام هما : لهجة كوك تورك ولهجة الاويغور[٥٩] . وبعد دخول الاتراك في الدين الاسلامي اطلق على لهجة كوك تورك (اللهجة الغربية) وعلى لهجة الاويغور (اللهجة الشرقية) تلك التسميات التي استعملت كثيرا من قبل المستشرقين ورواد الحضارة العربية .

ثم استبدلت هذه التسميات باخرى ، فسميت اللهجة الشرقية ب (الخاقانية) التي تطورت فيما بعد الى اللهجة (الجغطائية) نسبة الى احد ابناء جنكيزخان . ولا يزال يتلاغى بها الاتراك في المناطق الواقعة شرقي مدينة كاشغر حتى اواسط الصين[٦٠] .

كانت اللهجة الشرقية (التي يتلاغى بها المغول والقارلوق) خشنة تنقصها السلاسة ، ويرجع سبب ذلك الى ان هذه القبائل كانت في حروب دائمة فيما بينها ، الى ان وحدها جنكيزخان والقى بها في أتون حرب مستمرة لم تتح لها فرصة للاستقرار - مثل القبائل التركية الاخرى - والاستفادة من حضارة الاقوام المجاورة لها كالصينيين والهندوس وغيرهم ..

أما اللهجة الغربية فقد اطلقت عليها تسمية (اللهجة الاوغوزية) نسبة الى اوغوز جد الاتراك الاعلى . وهي اللهجة التي حملها السلاجفة الى

---

(٥٧) الدكتور ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ذكره ، ص ٨ .

(٥٨) الدكتور عبد المعطي الصياد : المصدر السابق ذكره ، ص ٧

(٥٩) كمال دميراي ومصطفى اوزون : اللغة والادب التركي (باللغة التركية) ص ٥٤ .

(٦٠) ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ذكره ، ص ١٠ .

الشرق الاوسط وآسيا الصغرى . وقد نمت وتطورت هذه اللهجة تحت تأثير اللغتين العربية والفارسية ، وفي ظل هذه اللهجة أنشأ الاتراك ، في القرن الثالث عشر ، الامبراطورية السلجوقية .

كان سقوط الامبراطورية السلجوقية ، وقيام الامبراطورية العثمانية على انقاضها ، سببا في انقسام اللهجة الاوغوزية الى لهجتين : اللهجة العثمانية ، واللهجة الآذرية التي يتلاغى بها اليوم تركمان أذربيجان السوفييتية وايران والعراق .

كانت اللهجة الغربية سلسة مطواعة لان المتكلمين بها (السلاجقة والعثمانيون) كانوا يجاورون أقواما ذوي حضارة وتراث راق كالفرس والعرب ، ولذلك فقد نمت وتطوّرت هذه اللهجة تحت تأثير اللغتين العربية والفارسية بحيث اصبحت تساير تلك الاقوام في مناحي حضارتها بعد ان صقلتها ودفعت بها الى ان تكون لغة الامبراطورية العثمانية .

وكانت اللغة الفارسية لغة الادب الرفيع والمراسلات الرسمية في العهود المغولية والسلجوقية والعثمانية ، فقد استعملها المغول في المراسلات الرسمية والتدوين ، حتى ان جنكيزخان نفسه كتب قانونه المسمى « ياسانامه بزرك » « القانون الاعظم » بهذه اللغة[٦١] كما ان نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (١٠٥٤ - ١٠٩٢م) الف كتابه المشهور (سياستنامه - رسالة في السياسة) باللغة الفارسية[٦٢] .

كما احتفظ العثمانيون ، فترة طويلة ، باللغة الفارسية وقوالب الشعر الفارسي - ببحوره العربية والفارسية - حتى ان السلطان سليم الاول (١٤٦٧ - ١٥٢٠) نفسه نظم ديوانا كبيرا بلغة الفرس[٦٣] .

ثم اخذت اللغة التركية تحتل مكانتها في الساحات الواسعة التي تمتد من منغوليا شرقا حتى بحر الخزر غربا حيث اصبحت اللغة الثقافية الثالثة - بعد الفارسية والعربية - للعالم الاسلامي منذ القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي[٦٤] .

ولقد كان تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) واسرته الحاكمة يتكلمون اللغة التركية ، مما كان له اعمق الاثر في ترجيح كفة هذه اللغة - التي كانت لغة الشعب فقط الى تلك الفترة - لتحتل مكانتها كلسان قومي لهم ، تلك اللغة التي استعملها الشاعر التركي المتصوف احمد يسوي (١١٠٣م - ١١٦٦م) في اشعاره وقصائده الصوفية في آسيا الوسطى[٦٥] .

---

(٦١) الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

(٦٢) الدكتور عبد المنعم حسنين : المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٦٣) كارل بروكلمان : الاتراك العثمانيون وحضارتهم ، ص ١١٠ .

(٦٤) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ١٠٦ .

(٦٥) كاظم قدري : تورك لغتي (اللغة التركية) ، ص ٧ .

يمكننا اعتبار عهد السلطان العثماني مراد الثاني (١٤٠١ - ١٤٢١) الذي شمل برعايته العلماء والشعراء والموسيقيين نهاية الثقافة العثمانية المعتمدة على اللغة الفارسية ، حيث ظهرت في بلاطه اولى المؤلفات المسهبة باللغة التركية[٦٦] غير ان ذلك لم يؤد الى اهمال شأن اللغة العربية ، لانها كانت لغة العلوم الدقيقة في تلك العهود ، حيث كانت أمهات الكتب القانونية والفقهية والطبية موضوعة باللغة العربية ، كما دخل الكثير من الالفاظ العربية الى اللغة التركية حتى يمكننا القول ان اللغة التركية في عهد العثمانيين كانت مزيجا من اللغات العربية والفارسية والتركية . ولا يعني ذلك ان اللغة العربية قد سلمت من الالفاظ الدخيلة ، حيث دخل اليها الكثير من الالفاظ التركية والفارسية - عن طريق العثمانيين - لان المجتمع الذي يسود في فترة معينة تسود لغته ايضا ، وتغني نتيجة للحاجة الى ابتكار معان جديدة لتساير تطور المجتمع حتى يواصل سيره[٦٧] وهكذا ، فعندما تأسست الامبراطورية العثمانية تقهقرت اللغتان الفارسية والعربية ، وسادت اللغة التركية التي سميت فيما بعد « لغات عثمانية » التي ولدت نتيجة ابتداع الاتحاديين[٦٨] لفكرة « الاتحاد العثماني » لكسب تأييد الشعوب الاسلامية التي كانت لغاتها تؤلف اللغة الجديدة ايام حكمهم بداية القرن العشرين .

كان الادب المكتوب باللغة العثمانية يسمى (ادب الديوان) وهو ادب سراة القوم وقصور السلاطين الذي نما وتطور بعد القرن الثالث عشر ، ثم اصبح ادب الزمرة المنقفة بعد القرن السادس عشر[٦٩] واستمر الى فترة التنظيمات أواخر القرن التاسع عشر .

ولكن ما ان أطل القرن التاسع عشر حتى بدأت حركة تململ الشباب العثماين للمطالبة بالدستور واطلاق الحريات ولا سيما (حرية النشر) ، كما تزعم شاعر الوطن (نامق كمال) حركة التجديد في اللغة العثمانية . وكانت هذه الحركة تستند الى ركيزتين[٧٠] :

الاولى : تنقية اللغة العثمانية من الالفاظ الدخيلة وايجاد او توليد الفاظ تركية صميمة لتحل محلها والاستناد في ذلك على (أدب الشعب) الشائع في ارجاء الدولة العثمانية .

الثانية : نبذ ادب الديوان وخلق ادب جديد يرتكز على الواقعية ويعبر عن آمال الشعب وآلامه .

وقد وجدت هذه الحركة في ادب الغرب منهلا صافيا فقاموا بترجمة الروائع الكلاسيكية الفرنسية

(٦٦) كارل بروكلمان : الاتراك وحضارتهم ، ص ٤٠ .

(٦٧) الدكتور ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٦٨) جماعة حزب الاتحاد والترقي الحاكم في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى .

(٦٩) الدكتور ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٧٠) باقي سها اديب اوغلو : تورك شعرندن اورنكلر (بالتركية) ص ١٣ .

والالمانية والروسية والانكليزية والايطالية الى اللغة التركية .

غير ان هذه الحركة التجديدية كانت تجابهها حركة اخرى تدعو الى اغناء اللغة العثمانية بادخال الاصطلاحات العلمية والادبية الموجودة في لغات الشعوب الاسلامية ولا سيما العربية والفارسية من اجل ان تكون اللغة التركية لغة التضامن الاسلامي بوجه الغزو الفكري والثقافي الاجنبي لان هذه الحركة تؤمن ان ادخال الاصطلاحات الاجنبية الى اللهجات التركية يؤدي الى ابتعاد هذه اللهجات بعضها عن البعض الآخر ومن ثم تشكيل لهجات مستقلة للاقوام التركية . فاذا قام الاويغوريون - في شمال الصين - مثلا بادخال الاصطلاحات الصينية الى لهجتهم ، والاوزبك بادخال الاصطلاحات الروسية الى لهجتهم ، والعثمانيون بادخال الاصطلاحات الفرنسية الى لهجتهم فان ذلك يؤدي الى ابتعاد هذه اللهجات عن بعضها ، بينما لو تم الاتفاق على ادخال الاصطلاحات العربية والفارسية فقط الى هذه اللهجات تصبح - في المستقبل - لغة واحدة ، لا سيما وان تأثير اللغتين العربية والفارسية على التركية لم يقتصر على ادخال الكلمات والاصطلاحات فحسب وانما دخلت تراكيبها وادواتها وقواعدها الى اللغة التركية ايضا .

وعندما تأسست الجمعيات السرية في الدولة العثمانية وقويت الحركات القومية فيها لا سيما بعد حرب طرابلس الغرب (١٩١١) وحرب البلقان (١٩١٢) والحرب العالمية الاولى (١٩١٤) اصبح من المستحيل تجرع الهزائم التي منيت بها الجيوش العثمانية ، وكانت نتائج الحرب العالمية الاولى واقتسام الدولة العثمانية بين الحلفاء وتقسيم تركيا نفسها والمظالم التي اقترفها اليونانيون والطليان وموقف الحلفاء من تركيا ، من اهم الاسباب التي دفعت الاتراك الى اعلان الثورة فكانت حرب الاستقلال (١٩١٩) التي قادها مصطفى كمال آتاتورك (ابو الاتراك) وحرر تركيا من المحتلين فولدت تركيا الحديثة . فاعلنت فيها الجمهورية والدستور وانتخب آتاتورك بالاجماع رئيسا للجمهورية .

وكانت مشكلة اللغة التركية - شكلا ومضمونا - من اهم العقبات التي سعت الادارة الجديدة الى حلها ، حيث حلت الابجدية اللاتينية محل الابجدية العربية في كتابة اللغة التركية عام ١٩٢٨ كما استبدلت معظم الاصطلاحات والتعابير الفارسية والعربية الدخيلة الى اللغة التركية باصطلاحات وتعابير مولدة ومشتقة من جذور الكلمات التركية القديمة أو من الاصطلاحات الغربية .

تتميز اللغة التركية الحديثة - وهي اللهجة المتداولة في الجمهورية التركية والتي تعد ذروة الكمال والتطور للغة التركية - بثلاث مزايا فريدة تختلف بها عن اللغات المعروفة اليوم وهذه المزايا هي[٧١] :

١ - لا يتغير جذر الكلمة في الجملة ، وتكون الاضافات - دائما - الى نهاية الكلمة .

---

(٧١) طاهر نجاة كنجان : المصدر السابق ، ص ٦ - ٧ .

٢ - تنفرد اللغة التركية بقاعدة اساسية يطلق عليها قاعدة (التوافق الصوتي) التي تقضي ان الكلمة التي تبدأ بحرف العلة الخفيفة لا تتضمن حروف العلة الغليظة ابدا ، الا اذا كانت الكلمة غير تركية[٧٢] ، ولا يجتمع حرفا علة في الكلمة الواحدة جنبا الى جنب الا اذا كانت اجنبية مثل (Said, Faik) وغيرها .

٣ - تأتي عناصر الكلام الاساسية في آخر الجملة ، بينما ترد العناصر المتممة لها في بدايتها .

المبحث الثالث

« الكتابة التركية »

اما من حيث الكتابة فقد استعمل الاتراك العديد من الابجديات التي اقدمها (الابجدية الاورخونية)[٧٣] المستعملة في كتابة المسلات الاورخونية وكانت تتألف من (٣٨) حرفا وتكتب من فوق الى اسفل ومن اليمين الى اليسار[٧٤] . وقد استعمل الاتراك هذه الابجدية من القرن السادس ق .م وحتى الفرن الخامس الميلادي[٧٥] عندما حلت محلها الابجدية الاويغورية المؤلفة من (١٤) حرفا والمكتوبة باسلوب الكتابة الاورخونية ايضا[٧٦] وهي مقتبسة من الابجدية (السريانية النسطورية) التي انتقلت الى الاتراك بواسطة الرهبان النساطرة[٧٧] ونظرا لسهولة كتابة الخط الاويغوري فقد امر جنكيزخان بان يتعلمه اطفال المغول[٧٨] .

وبالاضافة الى الخطين الاورخوني والاويغوري ، اصطنع الاتراك ابجديات اخرى في كتاباتهم اقتبسوها من الاقوام التي اختلطوا بها نتيجة حربهم معها أو استيطانهم بلدانها ، ومن هذه الابجديات السنسكرتية والفهلوية والارامية والنسطورية والبيزنطية[٧٩] والخوارزمية والصغدية والبراهمية واليونانية والعبرانية واللاتينية والسلافية[٨٠] وعلى

(٧٢) تنقسم حروف العلة الموجودة في اللغة التركية اللاتينية الى قسمين : حروف العلة الخفيفة وهي (E,i,o,u) وحروف العلة الغليظة وهي (A,i,o,u) وكمثال على ذلك فان كلمة (عِلْم) تكتب بحروف علة خفيفة (Bilgi) اما كلمة (عَلَم) فتكتب بحروف العلة الغليظة (Bayrak) وتكتب كلمة قلم العربية بحروف علة مختلطة لانها اجنبية (kalem) .

(٧٣) ويطلق عليها ايضا اسم (ابجدية كوك تورك)

(٧٤) كارل بروكلمان : الامبراطورية الاسلامية وانحلالها / بيروت ص ٢٧٧ .

(٧٥) طاهر نجاة كنجان / المصدر السابق / ص ٩ .

(٧٦) محمد فؤاد كوبريلي : تركيا تاريخي / ص ٤٥ .

(٧٧) محمد فؤاد كوبريلي : تركيا تاريخي / ص ٤٦ .

(٧٨) الدكتور عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ / القاهرة ص ٢٣٧ .

(٧٩) طاهر نجاة كنجان : المصدر السابق / ص ١١٩ .

(٨٠) محمد فؤاد كوبريلي : تاريخ تركيا / ص ٤٧ - ٤٨ .

الرغم من استعمال الاتراك لهذه الابجديات في فترات متقطعة واصفاع مختلفة ، الا انهم قد اتخذوا الابجدية العربية خطا لهم اعتبارا من القرن العاشر الميلادي بعد قبولهم للاسلام دينا . وقد اضاف الاتراك - مثل الايرانيين - الى الابجدية العربية ذات ال (٢٨) حرفا الحروف الفارسية الاربعة (الجيم والژاء والپاء والگاف) وبذلك اصبحت الابجدية التركية - ذات الجذور العربية - مؤلفة من ٣٥ حرفا . ولعل اقدم نص تركي مكتوب بالابجدية العربية هو النسخة الاصلية من القصيدة التعليمية الكبرى (قوتاد غوبيليك) التي نظمها يوسف خاص حاجب البلاساغوني عام) ١٠٧٠)م[٨١] وقد اطلقت على اللغة التركية تسمية (اللغة العثمانية) اعتبارا من القرن الرابع عشر الميلادي .

نمت اللغة التركية وترعرعت في ظل الابجدية العربية ، لاسيا بعد ميلاد ادب الديوان تحت تأثير الثقافة الاسلامية حتى مطلع القرن العشرين عندما دعا كل من حسين جاهد يالجين ، وقليج زاده حقي ، وجلال توري ايلري ، الى استبدال الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية ، حيث كتب حسين جاهد يالجين اول مقال حول الموضوع في صحيفة (طنين) في ٣١ كانون الثاني ١٩١٠ وقليج زاده حقي في مجلة (حريت فكرية) في ٢٢ مارت ١٩١١ ، وجلال توري في احد مؤلفاته[٨٢] في العام نفسه على اعتبار انها اكثر ملائمة للتركية ومسايرة لروح العصر وذلك تشبها بالغرب ، الا ان هذه الفكرة واجهت معارضة شديدة من بعض المفكرين الذين وجدوا فيها محاولة لفصم الروابط بين الاتراك والعالم الاسلامي من جهة ولقطع صلة الجيل الجديد بالتراث الثقافي التركي القديم من جهة اخرى . ولذلك فقد جرت محاولات لاصلاح الابجدية العثمانية بحيث تفي بحاجة اللغة التركية فابتدع اسماعيل حقي طريقة جديدة للكتابة الابجدية العربية ، كما اقترح انور باشا كتابة حديثة لتيسير قراءة الابجدية العربية ، الا ان هاتين المحاولتين لم تصادفا نجاحا ولا ذيوعا[٨٣] فشكلت لجنة لدراسة هذا الموضوع[٨٤] فقامت بتنقية اللغة العثمانية من بعض الكلمات الدخيلة غير انها لم تستطع البت في موضوع الابجدية الملائمة للغة التركية . وخلال هذه الفترة قويت الدعوة الى تغيير الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية لا سيا بعد ان طرح اللغوي النمساوي هـ . ف . كيوير غيج (نظرية الشمس) في اللغة التركية[٨٥] التي تقول

(٨١) توهم كثير من الباحثين وذهبوا مذهب الاستاذ بروكلمان في ان قوتاد غوبيليك قد كتبت بالخط العربي . ولكن الدراسات الحديثة اظهرت بانها كتبت بالخط الاويغوري مع استعمال الحروف العربية غير الموجودة في الابجدية الاويغورية وهي (خ ، ع ، هـ) انظر كتاب : حسين كاظم قدري : تورك لغتي / انقرة ١٩٢٧/ ج ١/ ص ١٧ .

(٨٢) آكاه سري لاوند : ادوار اللغة التركية (بالتركية) انقرة ١٩٦٠/ ص ٢٨٧ .

(٨٣) الدكتور حسين مجيب المصري : تاريخ الادب التركي / القاهرة ١٩٥١/ ص ٥٣٧ .

(٨٤) آكاه سري لاوند : حول ثورة اللغة (بالتركية) انقرة ١٩٦٧/ ص ٢٢ .

(٨٥) آكاه سري لاوند : المصدر السابق ، ص ٢٣ .

بان اللغة التركية كانت - خلال العصرين الحجري والحديدي - لغة الثقافة ، ومنها انتقلت الالفاظ الحضارية الى اللغات الاخرى[٨٦] .

وفي خضم هذه الدعوات والافكار والنظريات تبنت الحكومة التركية (نظرية الشمس) وفكرة استبدال الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية لا سيا بعد ان قدم نظمي الازميرلي مع اثنين من رفاقه اقتراحا حول ذلك الى مؤتمر الاقتصاديين المنعقد في ازمير عام ١٩٢٣ ، غير ان المؤتمر صرف النظر عن الموضوع لانه خارج اختصاصه وبعث رئيس المؤتمر المارشال كاظم قره بالاقتراح المذكور الى وزارة التعليم للنظر فيه ، وقد بدأت الوزارة المذكورة باجراء الدراسات حول الاقتراح المذكور ، منذ ذلك التاريخ[٨٧] وعندما انعقد مؤتمر الشعوب التركية في باكو عام (١٩٢٦) لدراسة مشاكل اللغة والكتابة التركية وافق المؤتمرون على احلال الابجدية اللاتينية محل الابجدية العربية[٨٨] .

وقد طبقت الابجدية اللاتينية في اذربيجان السوفييتية منذ عام (١٩٢٢) بدلا من الابجدية العربية[٨٩] . كما استعملت الابجدية الكيريلية بدلا من الابجدية العربية في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية اعتبارا من (١٩٢٧) أما في تركيا فان وزارة التعليم فد اتخذت قرارا - بعد دراسة التفرير الانف الذكر المقدم اليها - باستعمال الرموز اللاتينية في الجامعات والمعاهد العالية في دروس الفيزياء والكيمياء والرياضيات اعتبارا من (١٩٢٧) كما قامت ادارة البريد التركية بطبع عبارة (البريد التركي) باللاتينية على الطوابع البريدية في السنة نفسها وقامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة لاعداد ابجدية من الابجدية اللاتينية وقد قامت اللجنة المذكورة باعداد الابجدية التركية في منتصف عام ١٩٢٨[٩٠] .

وفي اغسطس ١٩٢٨ أعلن مؤتمر اللغويين المنعقد في (سراي بورنو) باسطنبول عن قبوله للابجدية التركية الجديدة[٩١] وفي الاول من تشرين الثاني ١٩٢٨ وافق مجلس الامة التركي على قانون الابجدية التركية الجديدة[٩٢] التي تتألف من ٢٩ حرفا . اما الاقليات التركية الموجودة في الصين وايران والعراق

---

(٨٦) اهملت هذه النظرية بعد الخمسينات ، وان كان بعض الفئات القومية المتطرفة متمسكة بها الى الان .

(٨٧) آكاه سري لاند : ادوار تطور اللغة التركية / ص ٢٩٢ .

(٨٨) الدكتور حسين مجيب المصري : تاريخ الادب التركي ص ٥٣٧ .

(٨٩) غير انها استبدلت بالابجدية الكيريلية عام ١٩٣٩ .

(٩٠) انور ضياء قارال : تاريخ الجمهورية التركية (بالتركية) استانبول ١٩٦٠ ، ص ١٦١ .

(٩١) سرور ايسكيت : حركات النشر في تركيا (بالتركية) استانبول ١٩٣٩ ، ص ١٨٤ .

(٩٢) سرور ايسكيت : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

واليونان فانها لا تزال تستعمل الابجدية العربية في كتاباتها(٩٣) .

المبحث الرابع

« ثورة اللغة »

ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر حركة قوية لتنقية اللغة التركية من الالفاظ الدخيلة ، فقد بدأت مجموعة من المثقفين الاتراك في عام ١٩٠٨ بتشكيل (جماعة التركية الحديثة) الذين استطاعوا وضع اسس جديدة للغة التركية الفصحى بحيث اقتربت كثيرا من لغة الشعب (لغة التخاطب اليومية) بعد تنقيتها من الالفاظ والتعابير والقواعد الدخيلة على اللغة التركية الرسمية .

وبعد اعلان الجمهورية في تركيا عام ١٩٢٣ قام مصطفى كمال أتاتورك بسلسلة من الاصلاحات الاجتماعية التي كان في جملتها (ثورة اللغة) التي لازالت مستمرة الى يوم الناس هذا . وتعتمد هذه الثورة على المصادر التالية في إغناء اللغة التركية وتنقيتها من الالفاظ الدخيلة :

١ - الجمع :

يقوم المجمع التركي الذي تأسس في ١٢ تموز ١٩٣٢ بجمع مفردات اللغة التركية من افواه عامة الشعب فاستطاع في حملته الاولى من جمع ١٥٠,٠٠٠ كلمة ، وفي حملته الثانية من جمع ٥٥٠,٠٠٠ كلمة سوف تأخذ محلها كبديل للالفاظ الدخيلة في معجم اللغة التركية الحديث .

٢ - التمشيط :

قام المجمع اللغوي التركي بتمشيط كافة الكتب والمؤلفات التركية القديمة بحثا عن الكلمة التركية الموجودة فيها ، ثم نشروها في مجموعات مستقلة كل مجموعة تضم كلمات خمسين مؤلفا ممشوطا .

٣ - التوليد :

بدأ اللغويون الاتراك بوضع اللواحق على جذور الكلمات التركية ، وبذلك تم توليد وايجاد العديد من الكلمات والالفاظ التركية الجديدة .

٤ - الدمج :

تسعى معظم اللغات الى دمج كلمتين او اكثر من عبارة واحدة من اجل اختراع تعبير جديد . وقد قام اللغويون الاتراك بالعملية نفسها في اللغة التركية . وبهذه الطريقة اصبحت اللغة التركية الحديثة اليوم اكثر سلاسة وغنى من حيث المفردات والتعابير عن اللهجات التركية السابقة .

الفصل الثاني

« التطور الثقافي للمجتمع التركي »

اذا كانت المصادر الصينية فد اكدت استيلاء القبائل التركية على عاصمة بلادهم (بكين)

(٩٣) تستعمل الاقلية التركية في الصين - وهم من الاويغوريين - الابجدية العربية نظرا لصعوبة اللغة الصينية ، اما تركمان العراق وايران فانهم حافظوا على الابجدية العربية في كتاباتهم اعتزازا منهم بلغة القرآن وبالثقافة العربية .

واستبدلوا اسمها الى (خان بالغ) وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد نتيجة الوحدة التي كانت تجمع شمل هذه القبائل ، فان الصينيين استطاعوا بث التفرقة بين زعماء هذه القبائل لا سيا بعد بنائهم لسدهم العظيم لصد هجماتها[٩٤] بحيث تفرق شملهم وسادت الحروب فيا بينهم حتى - اصبحوا - لفترات طويلة متباعدة تحت السيطرة الصينية[٩٥] .

لم تكن لهذه القبائل حضارة مزدهرة مثل جيرانهم الصينيين والفرس والعرب ، غير انهم كانوا يمارسون التقاليد البدوية الفطرية ، وكان لهم آدابهم التي تتفق مع حياتهم . وشعراؤهم الذين يسمونهم (أوزان) وكانوا يقومون - في الوقت نفسه - بالطبابة والسحر وعزف الآلات الموسيقية في حفلاتهم ومناسباتهم الدينية - حيث كانوا يدينون بالشامانية - فتأخذهم النشوة وتمتلكهم حالة لا شعورية تجود قرائحهم - اثناءها - بقصائد شعرية[٩٦] .

كانت الشامانية - التي كان يدين بها الاتراك قبل الاسلام - من الديانات البدائية التي لا تؤمن بقواعد دينية ثابتة[٩٧] ولذلك كان الشاماني أو (القام) او (الباقشي)[٩٨] يجرون مراسيم هذه الديانة في الاحتفالات الرسمية ، ليس كما هو معروف لديهم ، وانما بحسب ما توحيه الآلهة والارواح اليهم ، لهذا لم تكن ثمة حاجة لكي يقوم (القام) بحفظ الادعية والاوراد والتراتيل عن سلفه . كما انه لم يكن يتورع عن تحريف هذه التراتيل لانه يتلقى الالهام من الارواح الحامية التي تمده بالعلم والمعرفة وأساليب السحر[٩٩] . لذلك نجد في العديد من النصوص الادبية الشامانية اسطرا او عبارات او كلمات غير مفهومة ، مما كان ذلك سببا في صعوبة فهم وادراك معاني تلك النصوص .

اما الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدى الاتراك - قبل الاسلام - فقد كانت تعتمد على البداوة والاقطاع وان كانت بعض هذه القبائل قد عرفت المشاعية البدائية في زراعة الارض وتوزيع المحصولات[١٠٠] . كما كانت ثمة ملكية القبيلة للارض . وهو نظام اجتماعي - اقتصادي لا يظهر الا في المجتمعات البدائية التي تكون خاضعة للسلطة الابوية والتي تعيش على الصيد والقنص ولا تعرف اسلوب تقسيم العمل[١٠١] ، أما الطبقات الاجتماعية عند هذه القبائل فانها كانت تتألف من (رئيس)

(٩٤) دوكيني : توركلرك تاريخ عموميسي ، مترجمي حسين جاهد ، مجلد ٨ ، ص ٣٨ .

(٩٥) المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٩٦) ابراهيم الداقوقي : فنون الادب الشعبي التركماني ، بغداد ، ١٩٦٢ ، ص ١٨ .

97 - 4 - A. iNan : Samanism, Ankara 1954, S. 3- 120

(٩٨) عبد القادر إينان : الشامانية ، المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٩٩) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

100 - 7 - B. Y. Vladimirtsov : mogollarin ictimai Teskilat, ANK. 1944, S.14

101 - 8 - Dr. Muzaffer Sencer : Osmanli Toplum yapisi, istanbul 1971, S. 187

القبيلة التي يتمتع بالسلطة الابوية و (الافراد) و (العبيد)[١٠٢] .

ونظرا لعدم ملاءمة مناخ آسيا الوسطى - موطن الاتراك - للزراعة فقد انشغلت هذه القبائل بتربية الحيوانات وبالرعي[١٠٣] والتنقل من مكان الى آخر طلبا للكلأ والماء - لا سيا وقد ظهرت الدراسات الحديثة التي اجريت حول الكتابات التركية القديمة التي وجدت في آسيا الوسطى ... ان لا اثر للالفاظ والكلمات الدالة على الزراعة في الكتابات الاورخونية[١٠٤] .

وكان الاويغوريون اوفر هذه القبائل حظا من الثقافة ، حيث كان لهم خط معروف يكتبون به وهي الابجدية السامية التي انتقلت اليهم بواسطة المرسلين النساطرة منذ القرن الخامس الميلادي[١٠٥] وكانت تتكون من (١٤) حرفا . وقد حل هذا الخط محل الخط الاورخوني الذي كتبت به المسلات الاورخونية تخليدا لذكرى الابطال الاتراك خلال القرن الثامن الميلادي[١٠٦] وكان الخط الاورخوني يتألف من (٣٨) حرفا كما كان يكتب من فوق الى اسفل مبتدئا من اليمين[١٠٧] ، وبالاضافة الى الخطين الاويغوري والاورخوني فقد اصطنع الاتراك ابجديات اخرى في كتاباتهم منها محاولة المبشرين المسيحيين لايجاد ابجدية جديدة مشتقة من الابجدية اليونانية بعد ان تمت ترجمة الانجيل الى التركية بغية تنصير الاتاركة الخزر : كما ان بعض القبائل التركية كانت تستعمل الابجدية السلافية والعبرانية وغيرها[١٠٨] .

واذا كانت المسلات الاورخونية التي نصبت احداها باسم البطل (كَول تكين) سنة (٧٣٢م) والاخرى للبطل (بلكَه خان) عام (٧٣٥م) تشكل وثيقة تاريخية مهمة لمعرفة الحياة الفكرية لدى الاتراك خلال القرن الثامن الميلادي[١٠٩] في آسيا الوسطى ، فان المصادر الصينية قد ذكرت مجموعة من الاشعار والاغاني التركية التي يعود تاريخها الى القرن الثاني قبل الميلاد[١١٠] ومنها هذه الرباعية المترجمة :

---

(١٠٢) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

103 - 10 - M. A. Sevki : Osmanli Tarihinin Sosyal Bilimle aciklanmasi, ist. 1968, S. 27 - 30

(١٠٤) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(١٠٥) كارل بروكلمان : الامبراطورية الاسلامية وانحلالها : ترجمة الدكتور نبيه امين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٢٧٧ .

(١٠٦) الدكتور ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٠٧) عارف معيد مانسال واخرين . اورتاجاغ تاريخي ، انقره ١٩٤٤ ، ص ٢٦ .

(١٠٨) عارف مفيد مانسال وغيرهم : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(١٠٩) د . ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ١٨ .

110 -Uasfi Mahir Kocaturk : Turk Edebiyati Tarihi, ANK. 1970, S. 6

عندما فقدنا (ين كي سان)
فقــدت نســاؤنا جمالهــن
وتركت جبــال (كي ليان)
حيث غدت دوابنا دون رعاية

بل ان الاتراك الذين أسسوا الدويلات في شمال الصين خلال القرن الرابع والخامس والسادس الميلادي كانوا يترنمون بالقصائد الشعرية التي كانوا يطلقون عليها (القصائد المغناة)[١١١] ونعتقد ان هذه القصائد هي الاشعار التي كان الشعراء الشامان الذين كان يطلق عليهم (اويون) أو (قام) أو (بافشي) أو (اوزان) يرددونها في المناسبات الدينية . وكان هؤلاء يعتبرون انفسهم وسطاء بين الآلهة والانسان يستوحون اعمالهم من الالهة وينقذون البشر من شر المردة والجان بطرقهم السحرية[١١٢] .

واعتبارا من القرن السادس الميلادي ظهرت النصوص المكتوبة في الثقافة التركية في عهد دولة الاتراك الازارقة (كوك تورك) في شمال الصين ، حيث دونوا حروبهم ومراثيهم وتنقلاتهم على المسلات الاورخونية وعلى شواهد القبور لان الاتراك لم يكونوا قد استقروا بعد من حياة البداوة ، حيث انهم لم يعرفوا الزراعة الا في القرن العاشر الميلادي[١١٣] وربما كانت (الذرة الصفراء) اول محصول زراعي يقومون بزراعته لانهم كانوا ينثرونها فوق رأس العروس اذا كانت غريبة او اجنبية - لطرد الارواح الشريرة عنها ولكي تتقبلها الارواح الخاصة بعائلة العريس[١١٤] ، ويتضح من ذلك بان استقرار الاتراك وتكوينهم للقرى والمدن قد بدأ في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، وهي الفترة التي بدأ الاتراك فيها بالدخول في الدين الاسلامي .

ومن جهة اخرى فقد كان الاتراك لا يعرفون من الصناعات غير صناعة اللباد والبساط والحياكة اليدوية[١١٥] غير انهم كانوا يشتغلون بالتجارة مع جيرانهم ولا سيما بتجارة الاغنام والعبيد[١١٦] وكان نظام الدولة يعتمد على اتحاد القبائل[١١٧] ويتربع على رأس هذا النظام (الخاقان) اوال (كاغان) او (الخان) ثم الامراء (Begler) ثم افراد القبيلة فالعبيد[١١٨] . ويقول المؤرخ الالماني المعروف

---

(١١١) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ، ص ٧ .
(١١٢) د . ابراهيم الداقوقي · المصدر السابق ، ص ١٩ .
(١١٣) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .
(١١٤) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ١٩٣ .
(١١٥) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .
(١١٦) البروفيسور فاروق سومر : المصدر السابق ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .
(١١٧) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
(١١٨) فاروق سومر : المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

رينهارد : « ان الحاجة الى رئيس يوجه هذه القبائل نحو تسديد الضربات الى الخصوم والاستحواذ على الغنائم ، هي التي دفعت بهذه القبائل الى الاتحاد وتشكيل الامبراطوريات رغم البداوة وعدم الاستقرار »[١١٩] غير ان الاتراك عرفوا - فيما بعد - نظام ملكية الاراضي التي كانوا يستولون عليها في حروبهم التي تعتمد على الفرسان - بالدرجة الاولى - وبذلك نشأ عندهم (الاقطاع العسكري) حيث كانت الاراضي تمنح الى القادة العسكريين لاستغلالها ومن ثم كانت ملكيتها تنتقل الى الورثة[١٢٠] وهذا النظام استمر حتى ايام العثمانيين ، مع فارق واحد هو ان النظام الاجتماعي عند العثمانيين[١٢١] كان يعتمد على السلطان ثم العلماء ، ثم اغوات الانكشارية وفي الاخير الفرسان وهم اصحاب الاقطاع العسكري . وعلى الرغم من ان الاراضي - أيام العثمانيين - كانت ملكا للدولة ، الا ان الطبقات الاجتماعية في القمة كانوا هم المالكين الحقيقيين لهذه الاراضي ، ولذلك فقد كانوا يشكلون - مع السلطان - الصفوة او الطبقة العليا ، بينما كان افراد الشعب يشكلون الطبقة الكادحة المسحوقة والمحرومة في آن واحد .

وعندما قبل الاتراك الدين الاسلامي خلال القرن العاشر الميلادي ، انطبعت حياتهم بالطابع السياسي الاسلامي اجتماعيا واقتصاديا حتى مطلع القرن العشرين عندما انطلقت الثورة الكمالية ضد الاحتلال الاجنبي لتركيا ، وكانت هذه الثورة هي ثورة الشعب التركي بكل فئاته ضد الاحتلال والعدوان والفساد والتخلف . غير ان هذه الثورة التحررية انحرفت عن مبادئها التي نادت بها عند قيامها ، وهي محاربة الاستعمار والرجعية والاستغلال المتمثل بالرأسمالية ، حيث خطب مصطفى كمال أتاتورك في ذروة حروب التحرير في الاناضول وعند افتتاحه لجلسات المجلس الوطني في ١ آذار ١٩٢٢ قائلا :

« سنقوم بتأميم كافة المؤسسات والاعمال ذات العلاقة بحياة العامة وسنقطع دابر الاستغلال ... »[١٢٢] ثم عاد بعد انتصار الثورة على الغزاة فخطب في المؤتمر الاقتصادي التركي المنعقد في أزمير في ١٧ شباط ١٩٢٣ مؤيدا النظام الاقتصادي القائم على الرأسمالية الوطنية بعيدا عن التأميم وتدخل الدولة[١٢٣] وبذلك انزلقت الثورة التركية لتكون أداة بيد البرجوازية التي رأت في كل انتقاد يوجه الى مؤسساتها ايذانا باسقاطها .. ولذلك خنقت حرية الفكر وهي في مهدها عن طريق اقامة نظام الحزب الواحد . بل كان ثمة اتجاه فاشيستي في

(١١٩) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(١٢٠) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(١٢١) د . مظفر سنجر : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

122 - Dr. Cetin Yetkin : Siyasal iktidarın Sanata Karsi, Ankara 1970, S. 28

123 - Sabahaddin Selek : Anadolu ihtilali, istanbul 1965, SMC, S. 339 - 340

ثلاثينات القرن في تركيا ، والذي كان لا يرى في تركيا « الا شعبا واحدا مؤلفا من طبقة واحدة يحكمها زعيم واحد »[١٢٤] ولذلك فقد منعت الاضرابات بموجب القانون المرقم ٣٠٠٨ الصادر في ٨ حزيران ١٩٣٦ ، واجبر الشباب التركي على الانضمام الى منظمات شبيبة حزب الشعب الجمهوري ، كما ادخل نص المادتين ١٤١ و ١٤٢ من قانون العقوبات الايطالي الى قانون الجزاء التركي عام ١٩٣٦ ... هاتين المادتين المطاطيتين اللتين توصمان كل حركة او قول او رأي تقدمي او مخالف لآراء النظام الحاكم بحركة هدامة يسجن لمتهم بموجبها من ٣ - ١٥ سنة .

واذا اضفنا الى ذلك الشعار الذي رفعه الحزب الحاكم - حزب الشعب الجمهوري - في تلك الفترة (لا امتيازات لا طبقات وانما نحن كتلة واحدة متراصة) والصداقة التقليدية للالمان .. اكتملت الصورة وكانت النتيجة اتجاه فاشيستي في الحكم - لا سيما بعد وفاة مصطفى كمال أتاتورك في ١٩٣٨ - ومحاولة شنق الحريات اضافة الى سحق كل اتجاه يساري أو معارض للحكم .

وكانت المانيا النازية تؤيد هذا الاتجاه نصف الفاشي في تركيا وتدعمه ماديا ومعنويا[١٢٥] كما لعب الكتاب والشعراء الرجعيون ادوارا قذرة في الوشاية بالشعراء التقدميين عن طريق نقدهم والايماء بانهم شيوعيون[١٢٦] في الوقت الذي كان يتمتع فيه جواسيس النازية بالرفاهية ويسكنون برغم الحكم عليهم بالسجن لمدة ١٥ سنة - في شقق مفروشة مع عائلاتهم ويسهرون ويسامرون مع احبائهم تحت حراسة صورية ، بينما كان الشعراء والكتاب التقدميون امثال ناظم حكمت وكمال طاهر واورخان كمال وأ . قادر وعزيز نيسن يعذبون في سجون تركيا ويحشرون مع المجرمين والقتلة . حتى لقد قال ناظم حكمت في احدى رسائله الى كمال طاهر : « لقد حكم علينا بالسجن نتيجة مساعي اصدقاء النازيين ومؤيديهم »[١٢٧] .

ان نصف قرن من الماضي هو تاريخ الفكر في تركيا وكفاح المثقفين من اجل الغد الافضل من خلال نضال الشعراء والادباء .. ويكفي هنا ان نقدم نص التقرير الذي قدمته لجنة مختصة الى رئيس الوزراء (سراج اغلو) عام ١٩٤٣ : « ان مجلتي (يورد - الوطن) و (دنيا) يساريتان ، أما مجلات (كوك بورو : الذئب الاغبر) و (تورك يوردو : الوطن التركي) و (جنار آلتي : تحت الدلف) و (آق بابا : النسر) فلا حاجة لايراد التفصيلات حولها ، واما (مللت : الامة) و (جيغير : التيار) فانهما يمينيتان » .

(١٢٤) الدكتور جين بتكين : المصدر السابق ، ص ٣١ .

(١٢٥) د . جتين بتكين : المصدر السابق : ٣٤ - ٣٥ .

(١٢٦) د . جتين بتكين : المصدر السابق ، ص ٣٥ .

127 - Nazim Hikmet . Kemal tahire Mektuplar, Ankara 1968, S. 305

اننا نتتبع فعاليات اليساريين خطوة فخطوة وعندما تكتسب دعاياتهم الخطورة ، فاننا نسرع الى غلق صحفهم عن طريق الادارة العرفية وبذلك نقضي على نشاطهم .

ان قسما من الكتاب اليساريين قد ابعدوا الى خارج حدود استانبول من قبل الادارة العرفية ومنعوا من الكتابة بينما لا يزال القسم الآخر منهم في السجون ... »[١٢٨] .

غير ان اندحار الفاشية وخيبة امل الفاشيين في تركيا ادى بالنظام السياسي الى التحول الى نظام الديمقراطية الغربية والاخذ بمبدأ تعدد الاحزاب على الرغم من عدم تغير الاوضاع السياسية . فعندما تشكل الحزب الديمقراطي في ٨ كانون الثاني ١٩٤٦ لم يكن هذا الحزب الا تجمعا للبيروقراطيين المنفصلين من حزب الشعب الجمهوري ورئيسه عصمت اينونو . وفي ١٩٥٠ فشل حزب الشعب الجمهوري في الانتخابات النيابية وفاز الحزب الديمقراطي فوزا ساحقا عليه ، وبذلك طويت دكتاتورية الحزب الواحد ، الى فترة وجيزة ، وسادت حرية الصحافة وتكونت احزاب سياسية جديدة ومعارضة . غير ان فوز الحزب الديمقراطي لم يكن يشكل انعطافة سياسية تقدمية ، وانما مظهرا من مظاهر الرغبة في التجديد بعد دكتاتورية الحزب الواحد التي استمرت اكثر من ربع قرن .

واذا كان هتلر قد حرق الرايخشتاغ في ٢٧ شباط ١٩٣٣ لتثبيت حكمه ولضرب اليسار في شخص ديمتروف ، فان الحزب الديمقراطي هو الذي دبر احداث ٦ - ٧ أيلول ١٩٥٥ التي ادت الى سلب ونهب اموال المسيحيين واليونانيين بالتعاون مع اليهود لضرب عصفورين بحجر واحد : تثبيت حكمهم بالتعاون مع اليهود الماسونيين عن طريق السيطرة على الاقتصاد التركي من جهة ، ولضرب التيار اليساري المتنامي في البلاد من جهة اخرى . ولذلك نجد صحيفة ظفر - وهي لسان حال الحزب الديمقراطي آنذاك - تقول في افتتاحيتها حول هذه الاحداث : « لقد كان من بين المحرضين على احداث ٦ أيلول ٤٣ شيوعيا كانوا - خلال الاحداث - في منطقة بيوغلي - باستانبول - وهم من اعضاء الحزب الشيوعي التركي السري الذين حكم عليهم بالسجن لفترات مختلفة .. »[١٢٩] وكان على رأس هؤلاء الشيوعيين !!! الكتاب التقدميون : عاصم بزرخي ، حسن عز الدين ديتمو ، عزيز نسين وكمال طاهر ... هؤلاء الذين زج بهم في السجون لاشهر عديدة دون محاكمة !! ثم اطلق سراحهم .

بلغت انتهاكات الحزب الديمقراطي لحرية الصحافة ذروتها خلال اضرابات الطلبة عام ١٩٥٦ وكاد ان يكون مخلب القط للاستعمار الامريكي عام ١٩٥٧ للتدخل في سوريا ، وكان على وشك التورط العسكري في العراق بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ دفاعا

---

(١٢٨) د . جتين بكتين : المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(١٢٩) جريدة ظفر الصادرة في ١٢ أيلول ١٩٥٥ .

عن حلف السنتو ، بل انه لم يتورع عن ارتكاب الجرائم الوحشية من تعذيب السجناء واطلاق الرصاص على المتظاهرين والطلبة خلال عامي ١٩٥٩ - ١٩٦٠ نتيجة الاندفاع القوي وراء المصالح الذاتية ودفاعا عن السياسة الامريكية في المنطقة مما أدى الى حدوث حركة ٢٧ مارس ١٩٦٠ .

لم تكن حركة ٢٧ مايس ١٩٦٠ ثورة بالمعنى الواقعي الدقيق لهذه الكلمة ، وانما كانت محاولة لتغيير الوجوه ولتثبيت دعائم (الاستغلال الشريف) للطبقات الكادحة من قبل البرجوازية الوطنية التي كانت تمثلها (لجنة الوحدة الوطنية) التي قامت بانقلاب عسكري يوم ٢٧ مايس ١٩٦٠ دون اراقة الدماء .

صحيح ، ان حكومة لجنة الوحدة الوطنية قد قامت باصلاحات عديدة في البلاد ، منها وضع دستور جديد للبلاد يضمن تطبيق الحريات الديمقراطية والسماح بانشاء الاحزاب اليسارية والاشتراكية ، وضمان حق الاحزاب وتأسيس النقابات ومحاولة الحد من نفوذ الاقطاع في الريف التركي ... الا انها بقيت امينة لمبادىء البرجوازية الوطنية في البقاء في الاحلاف العسكرية العدوانية (حلف الناتو والسنتو والسياتو) اضافة الى عدم مساسها بالمادتين الجائرتين ١٤١ و ١٤٢ من قانون العقوبات التركي ، اللتين كانتا - ولا تزالان - تشكلان سيف ديموقليس فوق حرية الرأي في تركيا . ولذلك لم تتورع لجنة الوحدة الوطنية من اعتقال بعض المفكرين اليساريين : ابراهيم بالابان ، عوني محمد اوغلو وعزيز نسين وغيرهم .

وعلى الرغم من ان حكومة لجنة الوحدة الوطنية العسكرية قد تركت الحكم للمدنيين بعد الانتخابات العامة التي فاز فيها حزب الشعب الجمهوري بعد خمسة عشر عاما من المعارضة خارج الحكم ، فان الاوضاع السياسية والاجتماعية لم تشهد تغييرات جذرية ، كبيرة .

تسلم عصمت اينونو رئيس حزب الشعب الجمهوري السلطة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦١ بعد انتخابات ١٥ تشرين الاول بعد ان اصبح جمال كورسيل زعيم الانقلاب رئيسا للجمهورية ... فورث ركاما هائلا من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية اضافة الى المسيرات والاضرابات والاعتصامات واشعال المؤسسات الصناعية والتجارية واخذ الرهائن .

فقد جابهت حكومة عصمت اينونو اول اضراب عمالي في ٣١ كانون الاول ١٩٦١ ، غير ان حكومته استطاعت ان تحل مسألة الاضراب بالحسنى بعد ان لبى اصحاب العمل بعضا من مطاليب العمال .

ولعل اخطر مشكلة جابهت حكومة عصمت اينونو - خليفة أتاتورك السياسي الداهية المخضرم في تركيا - في التكتلات السياسية (اليمينية) و (اليسارية) بابعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ففي ٩ شباط ١٩٦٢ قامت مجموعة من المثقفين اليساريين الاتراك بافتتاح المؤتمر التأسيسي لحزب العمال التركي (Tip) الذي كان يضم كافة الحركات اليسارية والتقدمية والاشتراكية في تركيا ، وكان هذا الخليط غير المتجانس من الآراء والايديولوجيات سببا

في الانقسامات التي شهدتها الجبهة اليسارية خلال ١٩٦٣ - ١٩٨٠ حتى وصل الى حد الاتهام بالعمالة والتجسس .

أما اليمن التركي ، فقد كان هو الاخر ينظم صفوفه بتأييد بعض اعضاء لجنة الاتحاد الوطني وكانت هذه الجبهة ايضا - أي اليمين التركي - تضم مجموعات متباينة الافكار ، فمن الاخوان المسلمين الى النورسيين ومن مؤيدي التعاون مع امريكا فقط الى مؤيدي التعاون مع الغرب بشكل عام ومن الاقطاعيين الى اصحاب المعامل والمصانع .

كان الصراع بين اليمين واليسار قائما على الحوار - في بداية الامر - على صفحات الجرائد والمجلات التي تكتلت هي الاخرى في جبهتين ، غير ان هذا الحوار الديمقراطي ، في مظهره ، كان ينطوي على حوار من نوع آخر ظهر على السطح على شكل حوار ساخن بالعصي والسكاكين والمسدسات واحيانا بالرشاشات ايضا ، لا سيما بعد تأسيس حزب العدالة عام ١٩٦١ وانتخاب سليمان دميرال - المهندس المغمور في اسالة ماء انقرة والمدير السابق لمبيعات تراكتورات فركسون الامريكية - رئيسا لهذا الحزب الذي ظهر وكأنه ينوي ان يتزعم هذه المجموعة اليمينية ، وقد اظهرت الايام الاخيرة صدق هذه النبوءة السياسية .

كما شهدت الساحة الثقافية انقسامات حادة ولا سيما بعد المحاولة الانقلابية التي قام بها طلعت آيدمير زعيم المدرسة الحربية في ٢٢ شباط ١٩٦٢ ، وعندما فشلت حركته الانقلابية ، التجأ الى رئيس الجمهورية وزعيم انقلاب ٢٧ مايس للعفو عنه باعتباره احد اعضاء لجنة الاتحاد الوطني التي قادت حركة مايس بقيادة رئيس الجمهورية ، وعندما اعفي عنه ، واكتفت الحكومة باحالته على التقاعد ، قام بحركته الانقلابية الثانية في ٢٠ مايس ١٩٦٣ حيث اعدم على اثرها .

قامت الفئات اليسارية بزعامة حزب العمال بتأليف (جمعيات الفكر) الثقافية وكان اتحاد طلبة جامعة الشرق الاوسط في انقرة هم الذين بدأوا باقامة هذه الجمعيات اعتبارا من عام ١٩٦٣ ، بينما قامت الفئات اليمينة بتشكيل جمعيات ثقافية اخرى معارضة لتلك الجمعيات باسم (مراكز المثل العليا) المستمدة من المبادىء المثالية الهيغلية والعقيدة الاسلامية .

كان حزب الشعب الجمهوري الذي يتزعمه عصمت اينونو يمثل الوسط في صراع اليمين واليسار في تركيا ، وكان هذا الحزب قد انتخب الصحفي الشاعر (بولند اجاويد) امينا عاما له ، فحاول ان يجد مبدأ سياسيا يرتكز عليه الحزب لا سيما وانه كان يضم خليطا غير متجانس من الآراء الديمقراطية واليسارية والليبرالية نتيجة تفرده بالسلطة لاكثر من ربع قرن ، فتفتق ذهنه عن ايديولوجية جديدة اطلق عليها تسمية (يسار الوسط) وهي قريبة جدا من الاشتراكية الفابية البريطانية ، ويظهر انه تأثر بالفابيين خلال وجوده كملحق صحفي في السفارة التركية بلندن .

وكان بولند اجاويد قد كتب مقالا لتوضيح ايديولوجيته في جريدة (جمهوريت) الواسعة

الانتشار بتاريخ ١١ تموز ١٩٦٦ قال فيه : « ان المجتمع التركي اليوم لا يستطيع ان يتقدم بالديموقراطية التي يؤمن بها ، كما انه لا يمكنه التخلي عن هذه الديموقراطية ايضا .. انه لا يستطيع ان يضخ . اء جديدة لاحياء هذه الديموقراطية ، كما انه لا يستطيع ان يحيا بدون هذه الديموقراطية ايضا .

اذن ما العمل ؟ وكيف يمكننا ان نحل هذه الازمة ؟

ليس هناك من حل الا بالرجوع الى الدستور التركي ، وترجمة نصوصه الورقية واحياء مبادئها الاقتصادية والاجتماعية ضمن ظروف المجتمع التركي لكي يمد الدستور جذوره في نسيج هذا المجتمع لتضيف الى قوة الشعب التركي قوة جديدة ولتصبح ديموقراطيتنا ديموقراطية اشتراكية بعيدة عن الاعيب السياسة في اروقة البرلمان وتنظيمات الاحزاب السياسية . وبذلك تصبح ديموقراطيتنا ، ديموقراطية اجتماعية واشتراكية اضافة الى كونها ديموقراطية سياسية ؟.

استطاع بولند اجويد ابتداء اقناع رئيس الحزب عصمت اينونو للايمان بهذه الايديولوجية الجديدة ، الا انه جوبه بمقاومة عنيفة في الهيئة الادارية للحزب ، فجاب البلاد طولا وعرضا لتوضيح فكرته ولكسب التأييد الشعبي لها توطئة لجمع المؤتمر العام للحزب لوضعه امام الامر الواقع . وهكذا استطاع اجاويد ان يجمع (١٤٠٠) مندوب من الولايات التركية ال (٦٧) في المؤتمر العام الثامن عشر للحزب والذي انعقد بتاريخ ٢١ تشرين الاول ١٩٦٦ وعندما صعد المنصة لالقاء كلمته ، ووصل الى عبارته : « بقيادة اتاتورك استطعنا بحرب التحرير الشعبية من طرد المستعمرين المستثمرين من فوق اراضينا ، واليوم سنطرد في ضوء مبدأ اليسار عن الوسط ، المستثمرين لما تحت اراضينا ... »[١٣٠] دوت القاعة بالتصفيق الحاد . وبذلك استطاع اجاويد ان يكسب الجولة السياسية ليس على خصومه في الحزب فقط ، وانما ضد زعيم الحزب عصمت اينونو ايضا الذي لم يكن يقبل بهذه الايديولوجية الجديدة لولا ضغط منظمات الشباب التابعة للحزب .

يشكل عام ١٩٦٨ نقطة التحول في تاريخ تركيا المعاصر ، حيث بدأت فيه اجتماعات الشرق الجماهيرية التي نظمها الاكراد وخطب فيها الخطباء لاول مرة باللغة الكردية ، في نفس الوقت الذي بدأت فيه الصلاة الجماعية في معظم جوامع الاناضول بعد ان عبأت الجماعات الدينية كافة المسلمين لاقامة تلك الصلوات الجماعية ومن ثم (تلعين) الشيوعية المتمثلة بالحركة اليسارية في تركيا لا سيما بعد ان نظمت - أي الحركة اليسارية - صفوفها وشكلت (القوة الثورية) Dev- Guc التي ستلعب دورا كبيرا في الاحداث السياسية خلال ١٩٦٨ - ١٩٧١ وستشهد المدن التركية الكبيرة سلسلة من الاشتباكات الدامية بينها وبين الكوماندوس اليمينيين الذين ستشجعهم السلطات الحكومية خلال الفترة نفسها .

---

(١٣٠) جريدة اولوس (الشعب) لسان حال حزب الشعب الجمهوري في ٢٢ تشرين الاول ١٩٦٦

شهد عام ١٩٦٩ بداية الاغتيالات الفردية بين المجموعات اليمينية واليسارية وقيام طلاب جامعة الشرق الاوسط في انقرة بحرق سيارة السفير الامريكي (كومر) لدى زيارته لتلك الجامعة التي كانت تعد معقلا من معاقل اليسار التركي .

وفي ١٥ شباط ١٩٦٩ دعت القوة الثورية الى مسيرة سلمية في استانبول بعد مسيرة المعلمين السلمية في اليوم نفسه فقامت مجموعات من الكوماندوس اليمينيين بالتصدي الى المسيرة المذكورة مما ادى ذلك الى وقوع عشرات القتلى ومئات الجرحى .

لم تستطع الحكومات الائتلافية الضعيفة وضع حد لهذه الفوضى والارهاب المستشري في معظم انحاء تركيا ، ولذلك فقد عبأت كافة الاحزاب السياسية مؤيديها واستنفرت قواتها توطئة لخوض المعركة الانتخابية في ١٢ تشرين الاول من العام نفسه ، غير ان نتائج هذه الانتخابات لم تكن متوقعة على الصعيدين السياسي والدبلوماسي ، فقد فاز فيها حزب العدالة اليميني الذي يرأسه السيد سليمان دميرال بعد الانقسامات التي شهدتها الاحزاب اليسارية وحزب الشعب الجمهوري ابان الانتخابات ، مما ادى ذلك الى وقوع العديد من المظاهرات والمسيرات والاضرابات واعتصامات العمال في المعامل التي نظمتها القوى الثورية بينما كانت قوى الكوماندوس - تساندها السلطة الحاكمة - تسدد الضربات المتلاحقة لكافة المؤسسات اليسارية .

وفي ١٦ كانون الاول نشر ٦٩ ضابطا من كافة قطعات القوات المسلحة التركية بيانا في الصحف دعوا فيه الحكومة الى وضع حد لهذه الفوضى ، كما وجهوا نداء الى كافة الاحزاب السياسية لتتحمل مسؤوليتها في وضع حد لاقتتال الاخوة في تركيا .

واذا كانت هذه الدعوة المخلصة قد ضاعت بين اصوات الانفجارات والطلقات والهتافات ، فكان لها اثرها السياسي ، حيث تكتلت القوى اليسارية في البرلمان واستطاعت اسقاط حكومة دميرال في ١٤ شباط ١٩٧٠ عند مناقشة الميزانية العامة للدولة - غير ان دميرال الذي اكتسب الخبرة السياسية وألاعيبها استطاع تأليف ائتلاف وزاري مع بعض الاحزاب السياسية الصغيرة ، ومن ضمنها (حزب النظام القومي) الذي تألف حديثا برئاسة نجم الدين أرباقان وهو حزب ذو اتجاه اسلامي ويدعو الى التعاون مع الاقطار العربية والاسلامية وبذلك استطاع دميرال العودة الى سدة الحكم ولكن بعكازات غير قوية هذه المرة .

اصبحت التكتلات الثقافية امرا لا مناص منه بعد الفوز الايديولوجي في المجتمع التركي وكانت تشكيلات الشباب تمثل هذه التكتلات الثقافية خير تمثيل وهي :

١ - اتحاد الجمعيات الاشتراكية الديموقراطية SDDF التابع لحزب الشعب الجمهوري .

٢ - اتحاد نوادي الفكر FKF والشباب الثوري Dev- genc التابعين لحزب العمال والمجموعات اليسارية الاخرى .

٣ - مراكز المثل العليا Ulku Ocaklari والاتحاد العام للطلبة القوميين الاتراك المؤيدين لحزب العدالة الحاكم والاحزاب اليمينية الاخرى .

٤ - مراكز الثقافة الشرقية Dko وهي التي أسسها المثقفون الاكراد في المناطق الشرقية من تركيا والتي تقطنها الاقلية الكردية هناك للمطالبة بالحقوق الثقافية القومية .

كانت هذه التكتلات تمثل الجماعات الضاغطة بالنسبة للمجتمع التركي ، او كما اطلق عليهم في حينه ، انهم يمثلون المعارضة من خارج المجلس النيابي . وكان لكل كتلة من هذه الكتل ايديولوجيتها الخاصة وطريق نضالها المتميز اضافة الى المجموعات التي تؤيدها .

وخلال عام ١٩٧٠ انقسمت الحركة اليسارية في تركيا الى مجموعات عديدة منها الحركة الثورية الديموقراطية القومية التي يتزعمها (مهري بللي) والتي تؤمن بالكفاح المسلح وبالنظرية الماركسية - اللينينية - الماوية . ثم انقسمت هذه الحركة ايضا الى قسمين :

١ - حركة عصابات المدن التي تؤمن بالثورة المسلحة وبالارهاب والاغتيالات والسطو على البنوك والمصانع .

٢ - حركة عصابات الريف التي تدعو الى تعبئة المزارعين للقيام بالثورة المسلحة لاسقاط النظام .

اما المجموعة الثانية في الحركة اليسارية فهي حركة الاشتراكيين الثوريين التي تتزعمها بهيجة بوران ومحمد علي أيبار وهي تدعو ايضا الى الكفاح المسلح ولكنها تؤمن بالماركسية - اللينينية فقط .

اما المجموعة الثالثة فهي حركة الكادر الثوري ، ومعظم هؤلاء من المثقفين اليساريين الذين يؤمنون بالماركسية ولكنهم لا يصرحون بها وانما يدعون الى الثورة في ضوء المبادىء الكمالية الاصلاحية ويتزعم هذه الحركة دوغان اوجي اوغلو الذي يمثل مع حركته البرجوازية الوطنية في تركيا .

اما الجبهة اليمينية ، فرغم انقساماتها الضمنية ومشاحناتها الداخلية فانها كانت تدعو الى اقامة (الجبهة القومية الواسعة) لمجابهة الخطر الشيوعي ولاقامة الدولة التركية القومية المستندة على الدين الاسلامي والفكرة القومية . وتتألف هذه الجبهة من : حزب الحركة القومية الذي يدعو الى الوحدة التركية من شمال الصين الى البحر الابيض المتوسط ويتخذ من (الكوماندوس) وسيلة لتحقيق اهدافه ومجابهة خصومه . وحزب العدالة ذو الميول الاسلامية والنزعة الليبرالية وحزب السلامة الوطنية الديني .

وكان حزب الشعب الجمهوري بمبدئه يسار الوسط وتشكيلات الشباب في اتحادات الجمعيات الاشتراكية الديموقراطية يؤمن ايضا بالثورة ولكن عن طريق الاصلاح الاجتماعي المستند على البرلمانية الديموقراطية والنضال ضد الاستثمار في الداخل والامبريالية العالمية في حركة الشعب الديموقراطية الثورية[١٣١] .

131 - Suleyman genc : 12 Marta Nasil Geldik, Ankara 1971, S. 260 - 63

كانت الصراعات الايديولوجية بين هذه القوى اليمينية واليسارية ، التي تساندهـا قوى اجنبية خارجية ، من الحدة والشدة الى درجة اصبح التفاهم فيا بينها مستحيلا ، لان كل فئة منها تؤمن بأن فكرتها هي الاصوب وان طريقها في الكفاح هي المثلى وان فرقتها هي الناجية ، وكل من لا يؤمن بها هو خائن وعميل يجب القضاء عليه(١٣٢) .

حاولت حكومة سليان دميرال - بعد ان فاز حزبه في انتخابات ١٩٦٩ - مجابهة قوى اليسار النشيط باستعمال الشدة ، فاعتقلت زعماء مراكز الثقافة الشرقية من الاكراد وكذلك ماهر جايان ورفاقه من زعماء جيش التحرير الشعبي التركي THKO واغلقت نوادي الفكر ، الا ان الجيش التركي ذا التقاليد التحررية والافكار الكمالية وهم من ابناء الطبقات الكادحة في الريف التركي لم يرض على حكومة دميرال ذات الاتجاه الواحد المنصب على مكافحة اليسار . لان الجيش التركي كان يرغب في القضاء على الفوضى وحركات الارهاب سواء كان من اليسار او من اليمين .

ولما كانت حكومة دميرال قد اعلنت الاحكام العرفية في البلاد لمكافحة (النشاط الهدام) ولذلك فقد تم تقديم ماهر جايان ورفاقه ودنيز كيزمش ورفاقه بتهمة تأسيس حزب التحرير الشعبي التركي وجبهة التحرير الشعبي التركي وجيش التحرير الشعبي التركي ، وقتل القنصل الاسرائيلي في استانبول (ابراهام الروم) واختطاف (سيبل أركان) وسرقة مصرفين في كل من انقرة واستانبول وتأسيس المنظمات السرية من اجل قلب النظام الدستوري في البلاد ... تم تقديمهم الى محكمة عسكرية حكمت عليهم بالاعدام(١٣٣) .

وفي هذه الاثناء رفع اتحاد الجمعيات الاشتراكية الديموقراطية شعار (وداعا للسلاح) ودعى كافة الكتل والتنظيمات السرية والعلنية الى القاء السلاح والتوجه نحو الحوار الديموقراطي ولحل القضايا السياسية والاقتصادية عن طريق البرلمان . ولكن الجبهة اليسارية اعتبرت هذه الدعوة بمثابة ذر الرماد في عيون الشعب ليبقى بعيدا عن مشاكله اليومية(١٣٤) بينما اعتبرتها الجبهة اليمينية دعوة للتستر على جرائم اليسار ، ولذلك اصبحت الجمعيات الاشتراكية الديموقراطية هدفا لليمين واليسار على السواء .

وفي خضم كل هذه الاحداث كانت حكومة دميرال تحاول مجابهة خطر الجبهة اليسارية بمساندة وتدعيم الجبهة اليمينية(١٣٥) والقوى الرجعية في البلاد مما ادى ذلك بالجيش التركي - الذي كان غير راض عن اعمال دميرال - الى توجيه انذار للحكومة في ١٢ آذار ١٩٧١ مما ادى الى سقوط دميرال وقيام رئيس الاركان الجنرال (طاغماج) باعلان الاحكام العرفية في كافة الولايات وتسلم السلطة .

استطاع الجيش - خلال فترة قصيرة - من وضع الامور في نصابها ، الا ان تقاليد الجيش التركي وتشعبه بالافكار الاصلاحية ووقوفه دوما ضد

---

(١٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

133 - Burc Evrim : Mahir Cayan Davdsi, Ankara 1974, S. 29 - 32

(١٣٤) سليان كنج . المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(١٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

الاستثار والاستغلال في الداخل وضد التدخل الاجنبي في شؤون تركيا - رغم وجود الاحلاف العسكرية - قد جعلت منه قوة للتوازن السياسي في البلاد ، ولذلك فانه يهب دوما كلما اختل هذا التوازن لاعادة الامور الى مجاريها الطبيعية ومن ثم تسليم مقاليد الحكم الى الساسة والعودة الى ثكنات الجيش .

وكان الجيش يعتقد ان سليمان دميرال - رئيس الوزراء - لا ينوي جديا القضاء على الفوضى والارهاب بكل اشكالها لانه مشغول فقط باتهام كل معارض باليسارية والشيوعية اضافة الى تستره على اعمال الكوماندوس اليمينيين ودعوات الجهاد والحرب المقدسة ضد الملحدين التي تطلقها الفئات الرجعية . وعندما سقط دميرال قام الجيش بتسليم مقاليد الامور الى حكومة (نهاد أريم) وانسحب الى تكناته بعد ان حل المجلس النيابي توطئة لاجراء انتخابات جديدة .

لم يحصل اي حزب سياسي عند اجراء الانتخابات بمفرده على الاكثرية البرلمانية التي تؤهله لتشكيل الحكومة ، الا ان حزب الشعب الجمهوري وحزب العدالة حصلا على اكثرية الاصوات ، بحيث يستطيع كل واحد منهما بالائتلاف مع حزب سياسي صغير او اكثر من تشكيل الحكومة ، وبذلك فتحت هذه الانتخابات الباب على مصراعيها للائتلافات السياسية التي شهدتها تركيا حتى اليوم وهي تلك الحكومات الضعيفة التي لم تستطع - الى الان - من وضع حد للفوضى والارهاب السياسي ، ولن تستطيع تركيا الخروج من مأزقها السياسي وورطتها الا عن طريق حكومة قوية لها صلاحيات سياسية واسعة وايديولوجية فكرية تحررية واستقلالية في السياسة الداخلية والخارجية ، بعيدا عن التأثيرات السياسية الدولية .

الفصل الثالث

« تاريخ الادب التركي »

اعتاد مؤرخو الادب التركي على تقسيم هذا الادب الى ثلاثة اقسسام رئيسية ، وجريا على عادة هؤلاء سوف نتحدث عن الادب التركي قبل الاسلام وبعده بايجاز لنتحدث عنه في القرن العشرين باسهاب .

المبحث الاول

الادب التركي قبل الاسلام

عرف الاتراك - قبل الاسلام - النظم باوزان (الهجا) التي تعتمد على حساب الاصابع ، وكان هذا الشعر ينظم على شكل رباعيات ذات قواف ناقصة وكانت المراثي المسماة (ساغو) تشكل الاقسام الرئيسية لهذا الشعر[١٣٦] كما كان للاتراك ملاحمهم القومية التي تنقسم الى ثلاثة اقسام :

أ - ملحمة هينكتو

ب - ملحمة توك يو

ج - ملحمة اويغور

وتعد ملحمة (اويغور) اهم هذه الملاحم ، وقد وصل الينا فقط قسم منها وهو المسمى (اوغوزنامه)

(١٣٦) د . ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ٢٠ .

الذي يدور حول معارك وبطولات أحد سلاطين الاتراك المدعو (اوغوزخان)[١٣٧] .

كما ان كتاب (ده ده قورقوت) الذي عثر عليه بعد قيام الدولة العثمانية ، يعد جزءا من ملحمة تركية قديمة[١٣٨] واذا اضفنا الى ذلك الكتابات المدونة على المسلات الاورخونية التي كتبت في القرن الثامن الميلادي بالخط الاورخوني ، اكتملت لدينا صورة الادب التركي قبل الاسلام .

اما اللغة التركية ، فقد كانت قليلة المفردات ، خشنة المخارج ، وكانت لهجات القبائل غير متشابهة ، بل ان ثمة اختلاف في لغات هذه القبائل[١٣٩] وكانت ثمة لهجتان شائعتان في اللغة التركية هما لهجة (كوك تورك) ولهجة الاويغور[١٤٠] .

ولعل اقدم اثر فكري للاتراك هو كتاب (ياسانامة بزرك - القانون الكبير) الذي امر بكتابته جنكيزخان بالخط الاويغوري ، وكان يحوي معظم العادات والتقاليد والاحكام والتي أضاف اليها جنكيزخان بعض القواعد ليكون دستورا يرجع اليه المغول في أمورهم ، وكانت نصوص (الياسا) محترمة جدا لدى المغول الى درجة تبلغ التقديس ، فكان عندهم بمثابة القرآن عند المسلمين ، بحيث انه لا يجرق شخص حتى السلطان نفسه على مخالفتها[١٤١] .

وعلى الرغم من ان هذا الكتاب قد تم تأليفه في القرن الثاني عشر الا انه يعد من مؤلفات الاتراك ، قبل الاسلام ، لانه يتضمن معظم عادات وتقاليد الاتراك التي كانت معروفة قبل الاسلام .

اما اول اثر ادبي تركي مستقل - بعد الكتابات الاورخونية - فهو (قوتاد عوبيليك - علم السعادة) الذي ألفه يوسف خاص حاجب البلاساغوني خلال القرن الحادي عشر الميلادي بالخط الاويغوري مع استعمال الحروف العربية غير الموجودة في الابجدية التركية[١٤٢] . ونجد في هذه القصيدة التعليمية ملامح اسلامية واضحة .

المبحث الثاني

تاريخ الادب التركي بعد الاسلام

عندما دخل الاتراك في الدين الاسلامي ، اطلق المستشرقون ورواد الحضارة العربية على لهجة كوك تورك تسمية (اللهجة الغربية) وعلى لهجة الاويغور (اللهجة الشرقية) . ثم استبدلت هذه التسميات بتسميات اخرى ، فسميت اللهجة الشرقية ب (الخاقانية) التي تطورت فيما بعد الى (الجغطائية)

(١٣٧) محمد فؤاد كوبرولي : تورك ادبياتي تاريخي ، استانبول ١٩٢٦ ، ص ٥٦ - ٧٢ .

(١٣٨) الدكتور عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧ .

(١٣٩) الدكتور عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧ .

(١٤٠) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ، ص ١٠ .

(١٤١) الدكتور عبد المعطي الصياد : المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

(١٤٢) حسين كاظم قدري : تورك لغتي ، استانبول ١٩٢٦ ، ص ١٧ .

نسبة الى احد ابناء جنكيزخان . اما اللهجة الغربية فقد اطلق عليها اللهجة (الاوغوزية) نسبة الى اوغوزخان ، وهي اللهجة التي حملتها الموجات التركية الى ايران وآسيا الصغرى والشرق الاوسط[١٤٣] .

نمت اللهجة الاويغورية تحت تأثير اللغتين العربية والفارسية فأصبحت أكثر مرونة وسلاسة ، واعظم قدرة على استيعاب نتائج الحضارة الاسلامية . وكان سقوط الامبراطورية السلجوقية وقيام الامبراطورية العثمانية سببا في انقسام هذه اللهجة الى شعبتين : اللهجة العثمانية واللهجة الآذرية .

ان اقدم المؤلفات المكتوبة باللهجة الاوغوزية هي معراج النبي (معراجنامة) و (بختيار نامه) وتذكرة احياء و (قوتاد غوبيليك) وذلك في القرن الحادي عشر . وعلى الرغم من ان اللغة الفاريسة كانت لغة الادب الرفيع والمراسلات الرسمية في العهود المغولية والسلجوقية وبداية تأسيس الامبراطورية العثمانية ، الا انه لم يهمل شأن اللغة العربية التي كانت لغة العلوم الدقيقة في تلك العهود ، لان امهات الكتب القانونية والفقهية والطبية واللغوية كانت موضوعة باللغة العربية .

وينقسم الادب التركي بعد الاسلام الى تيارين رئيسين :

أولا - تيار الادب الشعبي :

وهو الادب الذي نما وتطور في الاوساط الشعبية باوزان (الهجا) التركية وباشكال النظم (الرباعية) ذات القوافي الناقصة . ولذلك فان هذا الادب يعد امتدادا للادب التركي الذي كان معروفا قبل الاسلام . اما من الناحية التأريخية فان اكثر هذا الادب لا يعرف منشؤه ولا تاريخ انشائه ، بل ربما كان موجودا قبل (الاوزان) بزمن بعيد . ولعل هذا الادب قد نشأ في المجتمعات البدائية التي كونها الاتراك في ادوار حياتهم الاولى لان ما يتضمنه من المراثي والحب والبطولة والفروسية تصور أحاسيس الاتراك ونمط حياتهم في تلك الادوار .

وينقسم هذا التيار الادبي الى ثلاثة أقسام :

١ - الادب الشعبي مجهول المؤلف : وهو الادب الذي لا يعرف منشؤه ولا تاريخ انشائه في تاريخ آداب الشعوب ، ولذلك يعد تراثا عاما للشعب ، ومن فنون هذا الادب : الحكاية الشعبية ، الاساطير ، الامثال الشعبية ، الاغاني ، البكائيات والمراثي والخوريات .

٢ - الادب الشعبي معروف المؤلف : وهو لون من القصص الشعبية الطويلة على شكل ملاحم ، يتراوح بين الشعر والنثر والذي ينظمه الشعراء المعروفون في الادب الشعبي التركي ب (عاشق) ولذلك يطلق على هذا الادب ايضا تسمية ادب العشاق (عاشق ادبياتي) وهو يدور حول البطولات والفروسية والحب ويشتمل على أشعار ملحمية . ولما كان منشىء هذا الفن يتغنى به بآلة موسيقية تسمى

(١٤٣) د . ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ١٠ - ١١ .

(ساز) لذلك يطلق عليه (شاعر الساز) وعلى الشعر المغنى (شعر الساز) .

لقد نسأ هذا القرن خلال القرن الرابع عشر[١٤٤] ونما وتطور خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحت تأثير الحضارة الاسلامية والثقافة العربية ، ولكن رغم تأثر الادب التركي بالادب العربي في موازين سعره ونظمه وانواعه الادبية واستعاراته واشتقاقاته وفي بديعه ومعانيه وتراكيب الجملة والادوات الا انه لم يستطع ان يخلق شعرا غزليا يتحدث بشكل مكشوف عن الحب والغرام والعشق والصبابة كما هو في الادب العربي . لان المجتمع العربي - قبل الاسلام - كان مجتمعا يعيش على السليقة ويستلهم الشاعر افكاره من الطبيعة والحياة الحرة التي كان يحياها الشاعر وقبيلته في اختلاط حر وحياة اجتماعية غنية بالتجارب . غير ان المجتمع التركي - لم يستطع في ظل الاسلام - ان يخلق مجتمعا ينظر الى الحياة نظرة متفتحة ويضع المرأة في موقعها المناسب ، بل كان ثمة تزمت ديني أدى الى وضع جدار سميك بين الرجل والمرأة بحيث انقسم المجتمع التركي الى مجتمع الرجال ومجتمع الحريم ... وهذا مما ادى الى نشوء نوع من الادب التركي الذي يجمع بين الشعر والقصة القصيرة والرواية اطلق عليه (ادب العشاق) والذي يتحدث عن الحبيبة بلهفة ويكتفي بنظرة منها او جلسة معها ، بحيث يكفي ذلك أحيانا لكي يضحي (البطل) بحياته من اجلها .

ومن اشهر نماذج هذا الادب (يوسف وزليخا) للفقيه الصولي و (ورقة وكولشاه) لليوسفي و (ليلى والمجنون) لفضولي البغدادي ولشعراء آخرين و (عاشق غريب) وغيرها .

٣ - ادب التكايا : عندما أنشأ سراة القوم في قصور السلاطين (ادب الديوان) تحت تأثير الحضارة الاسلامية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، انعزلت جماهير الشعب التركي عن هذه الحركة الجديدة التي قامت على اكتاف الطبقة الارستقراطية ذات المراكز الهامة في الدولة ، فأنشأت لها ادبا خاصا - تحت تأثير الاسلام ايضا - هو وسط بين ادب الديوان والادب الشاماني القديم ، وقد أطلق على هذا الادب الشعبي تسمية (ادب التكايا) لانه نما وتطور في زوايا التكايا ، وكان ذا مضمون ديني يستهدف مدح الرسول وآل بيته ومراثي الحسين الشهيد والانفاس البكشاشية والصوفية .

ويعد (ديوان الحكمة) للشاعر احمد يسوي (المتوفي عام ١١٦٦م) نموذجا لادب التكايا ، حيث ضمنه الشاعر شكاته عن الحياة والدنيا وعرض فيه صورا للجنة والجحيم ومدائح الرسول وصورا عن معجزاته وارشاداته الدينية والاخلاقية . وقد كتبت هذه القصائد باللهجة الخاقانية وبأوزان (الهجا) التركية وعلى شكل رباعيات وبلغة شعبية سلسة . ويعد هذا الشاعر مؤسس اول الطرق الصوفية لدى الاتراك ، وقد نظم قصائده هذه بلغة الشعب ليتمكن من نشر تعاليم طريقته (اليسوية) بسهولة ويسر .

---

(١٤٤) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ، ص ١١٤ .

ولذلك فانه يعد مؤسس الشعر الشعبي الصوفي في الادب التركي[145] . ثم ظهر (المولد النبوي الشريف) لسليمان جلبي وتبعه الاخرون ، كما ظهرت (سير الانبياء) و (معراج النبي) و (شهادة الحسين) اضافة الى الشعراء : سروري ، خيالي ، بخشي واوغوز علي وغيرهم .

ثانيا - تيار ادب الديوان :

بدأ تأثير اللغة العربية في الادب التركي اعتبارا من القرن العاشر الميلادي ، عندما وجدت هنا وهناك بعض التفاسير المترجمة للقرآن الكريم باللغة التركية[146] لمؤلفين مجهولين ، ولعل اقدم هذه التفاسير المترجمة هو (تفسير القرآن) الذي عثر عليه العلامة المؤرخ المرحوم زكي وليد طوغان في آسيا الوسطى ، والموجود حاليا في مكتبة لنينغراد[147] وتكتسب هذه التراجم اهمية تاريخية كبرى لانها تحوي العديد من الكلمات العربية واصطلاحات القرآن الكريم اضافة الى قواعد اللغة العربية التي دخلت الى اللغة التركية في هذه الفترة ايضا[148] .

أما أول أثر أدبي تركي مستقل ظهر تحت تأثير الثقافة العربية - الاسلامية فهو كتاب (قوتاد غوبيليك) الذي ظهر في مدينة كاشغر - بآسيا الوسطى - عقب سقوط الدولة الاويغورية . ففي هذه المدينة نظم يوسف خاص حاجب البلاساغوني عام (١٠٧٠م) قصيدة تعليمية كبرى للسلطان بغراخان حسن بن سليمان ارسلان قصد بها ان يبرز حكمة الحياة للافراد ومن هنا جعل عنوانها (قوتاد غوبيليك) أي (علم السعادة)[149] . ولقد بنى يوسف قصيدته هذه على آراء ابن سيناء الفلسفية وافرغها في وزن شعري مقتبس عن الاوزان العربية . وهو يضع مواعظه على السنة شخصيات رمزية من اختراعه . فواحدة تمثل العدالة واخرى تمثل السعادة الى غير ذلك من الشخصيات التي تكشف لنا - رغم ضروب التكلف الساذجة - عن نواح كثيرة فيما يتصل ببيئة المجتمع والدولة في محيط الناظم الثقافي[150] .

وفي هذه الفترة بدأ الاتراك باستعمال الابجدية العربية في كتاباتهم بشكل مستقل او مع الخط الاويغوري الذي كان معروفا لديهم[151] .

اما اول اثر ادبي تركي مكتوب بالابجدية العربية ، فهو ديوان (هبة الحقائق) للشاعر التركي

145 - A. S. Levent . Turk Edebiyati, S. 29

(١٤٦) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ، ص ٤١ .

(١٤٧) محمد فؤاد كوبرولو : المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(١٤٨) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(١٤٩) كارل بروكلمان : المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .

(١٥٠) د . ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(١٥١) حسين كاظم قدري : المصدر السابق ، ص ٢١ .

اديب احمد بن محمد اليوغيناكي . وهو الاثر الادبي التركي الثاني الذي ظهر تحت تأثير الثقافة العربية وهو عبارة عن قصيدة شعرية طويلة اهداها الشاعر الى الامير سباهالار حاكمَ ولاية (سمرقند) وهذه القصيدة تعليمية ايضا - متل غوبيليك - ولكنها تعتمد على ايراد الامثلة في مضار الجهل والخسة والنميمة مقابل فوائد الثقافة والعلم والكرم والشهامة . وقد كتبت هذه القصيدة بأوزان العروض العربية وعلى شكل رباعيات شعرية[١٥٢] .

واذا أضفنا الى هذه المؤلفات الشعرية ديوان (الحكمة) للشاعر التركي المتصوف احمد اليسوي اكتملت لدينا الصورة الكاملة للشعر التركي الوليد تحت تأثير الحضارة الاسلامية ، وبذلك تهيأ المناخ الملائم لميلاد ادب الديوان في القرن الثالث عشر الميلادي .

فما هو المقصود بأدب الديوان ؟

هو التيار الادبي الذي نشأ تحت تأثير الحضارة الاسلامية بعد قبول الاتراك للدين الاسلامي والذي استمر حتى فترة التنظيمات ولا سيا في مجال الشعر ، حيث بدأ الشعراء بجمع أشعارهم في (ديوان) مستقل مع استعمال الالفاظ العربية والفارسية وقواعد النظم العربية بحيث غدا هذا التيار الادبي ، تيارا للارستقراطية التركية ولذلك يطلق عليه ايضا (ادب القصور) و (ادب الزمرة الحاكمة) و (الادب الكلاسيكي) و (الادب الاسلامي) .

نشأ هذا التيار الادبي خلال القرن الثالث عشر الميلادي وتطور ، بل وتكامل ، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على ايدي الشعراء الفطاحل : نسيمي البغدادي ، فضولي البغدادي ، باقي ، نفعي ، نائلي ، يحيى ، نابي ، نديم وشيخ غالب وغيرهم .

يعتمد شعر الديوان بالدرجة الاولى على وحدة البيت وليس على وحدة القصيدة في قواعد للنظم صارمة لا يستطيع كل شاعر ايلاجها او النظم فيها وفق تشبيهات محددة ، بتعابير مجردة مغلقة بالمحسنات البديعة . فقد كان هم الشاعر ان يوحي بهدفه ضمن سلسلة من الصناعة اللفظية البعيدة عن الوضوح والبساطة لكي يظهر مهارته عن طريق استعمال لغة الخواص ذات التراكيب الفارسية والالفاظ العربية في تعابير تطفح بالمشاعر المنبوبة والخيال الواسع الذي يحتمل التفسيرات العديدة بحيث اطلق عليه بحق (الشعر الاصطلاحي) لكثرة الاصطلاحات الصوفية والرمزية الواردة فيه اضافة الى المحسنات البديعية .

يقول فضولي البغدادي في وصف حبيبته :

آشيان مرغ دل زلف بريشاننده در
قنده اولسام أي بري كونلم سنن يانبنده در
جمكه دامان ناز ايدوب افتادوه لردن وهم قيل
كوكلره آجيلماسون أللركي داماننده در

(١٥٢) د . ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ٢١ .

« ان عش طير الفؤاد هو في شعرك المتطاير، ولذلك فاينما حللت يا مليكة القلب فان فؤادي عندك » .

« لا تسحبي اذيال ثوبك دلالا ، احذري العشاق المتيمين ، لكي لا تدعى الايدي المتشبثة باذيالك ترتفع للدعاء نحو السماء » .

الى ان ٥ـل :

اويله سرمستم كه ادراك ايتمزم دنيا نه در
بن كيمم،ساقي اولان كيمدر،مي وصهبانه در؟

« اني ثمل الى درجة لا ادرك ما هي الدنيا ، ومن انا ، ومن هو الساقي ، وما هي الخمرة وما هي الصهباء ؟ »

كرجه جاندن دل شيدا ايجين كام ايسترم
صورصا جانان بيلمزم كام دل شيدا نه در ؟

« قد اطلب من الحبيبة نصيبا للقلب المتيم ، فاذا سألتني الحبيبة ، فلا ادري ما هو النصيب الذي يطلبه القلب ؟ »

وينقسم هذا الادب الى قسمين :

١ - ادب الديوان الديني :

وهو الشعر الديني الذي بدأ بتشبيهات بسيطة وواضحة ثم تطورت هذه التشبيهات الى نوع من المجاز الدقيق المغلف بالمعاني المجردة التي تستمد جذورها من الفكر الاسلامي والمذاهب الصوفية والفلسفة الاشراقية ، ويشكل الشعر الصوفي خير نموذج لهذا الادب .

٢ - ادب الديوان الدنيوي :

هو التيار الشعري الذي بدأه الشاعر (دهاني) في قصور الخلفاء ، وهو شعر دنيوي يصطنع طرائق النظم الفارسية ، وكان هذا الشعر يدور حول الهوى والشراب والصيد ومديح السلاطين وتشكل القصائد ال (بهارية) التي تلهج بمدح السلاطين والتي كانت تبدأ بوصف الربيع ، والقصائد ال (شكارية) التي تبدأ بالمديح ومن ثم وصف رحلات الصيد للامراء والسلاطين ، نماذج من هذا الشعر .

واذا كانت اللغة العربية لغة العلم ، والفارسية لغة الادب ، خلال حكم دولة الفراخانيين والسلاجقة وحتى القرن الثالث عشر ، فان انحلال الامبراطورية السلجوقية خلال القرن الرابع عشر الى امارات صغيرة ادى الى انحطاط مستوى الثقافة العام ، فنشأ نثر ديني شعبي استهدف تفسير القرآن وتنمية الحياة الروحية[١٥٣] .

وعندما آل الامر الى العثمانيين - الذين كانوا بعيدين عن الثقافة العربية والفارسية - وجدت اللغة التركية لها مكانا في قصور امرائهم ، واعتبرت - التركية - اللغة الرسمية في الدولة ، مما ادى ذلك الى تطورها وظهور المؤلفات العديدة فيها شعرا ونثرا ، كما نبغ كثير من الشعراء - في هذه الفترة - وعلى رأسهم كولشهري وعاشق باشا (١٢٧٢م - ١٣٣٣م) واحمدي (المتوفي عام ١٤١٤م) ونسيمي البغدادي (المتوفي عام ١٤٠٤م) الذي كان له الفضل الاكبر

(١٥٣) بروكلمان : الاتراك العثمانيون ، ص ٤٠ .

في تطوير ادب اليونان ، كما ان له مكانته السامية في شعر التصوف التركي حيث نظم فيه قصائد صوفية وغزلية على شكل مثنويات بديعة .

وفي عهد السلطان محمد الثاني (١٤٥١م - ١٤٨١م) اتسعت آفاق الشعر التركي كثيرا ، الا انه لم يتعد قط حدود القصيدة الغزلية الضيقة المعروفة منذ عهد (حافظ) والرامية الى اغراض ليست هي الصوفية الخالصة ولا الدنيوية الخالصة انما وسط بين الاتجاهين[١٥٤] . وفي هذا العصر تحولت اللهجة التركية الشرقية (او الخاقانية) الى اللهجة الجغطائية التي نبغ فيها كثير من الشعراء امثال الشاعر سكاكي في عهد السلطان اولوغ بيك (١٤٠٩م - ١٤٤٩م) والشاعر الامير علي شيرنوائي (١٤٤١م - ١٥٠١م) كما ان السلطان محمد بابرشاه (١٤٨٢م - ١٥٣٠م) مؤسس دولة المغول في الهند ترجم سيرته في كتاب سماه (بابرنامه) بلغة تركية سلسه .

وعلى الرغم من ان معظم الشعراء العثمانيين كانوا ينظمون بالتركية خلال القرن السادس عشر ، الا ان بعضهم كان ينظم بالتركية والفارسية والعربية امثال فضولي البغدادي (٨٨٨هـ - ٩٦٣هـ) الذي يعد الى اليوم اميرا للشعر التركي الكلاسيكي ... لانه مجدد هذا الشعر ومبدعه ، وذلك لصدق تعبيره ولنظرته الشمولية الى الكون والانسان ولانتقاده الاوضاع الاجتماعية في عصره بنظرة انسانية فاحصة وواعية . كما ازدهر الشعر الديني - في هذا العصر - وكان الشاه اسماعيل الصفوي (١٤٨٦ - ١٥٢٤م) المتخلص في شعره ب (خطابي) من ابرز شعراء هذا الاتجاه الديني ، بحيث اتخذ - فيما بعد - مرشدا لشعراء التصوف في النسج على منواله - وازدهر اسلوب القصص الشعبية المفرغة في قوالب شعرية عن حياة الرسول (ﷺ) والحسين الشهيد (رضي) بلغة تركية سلسة وبديعة .

وفي القرن السابع عشر كان طابع الشعر التركي صوفيا رومانتيكيا حيث نزع الشعراء الى تقليد مثنوي جلال الدين الرومي وعبد الرحمن جامي ونظامي الكنجوي ، وكان زعيم هذه المدرسة هو الشاعر التركي باقي (المتوفي عام ١٦٠٠م) لانه استطاع ان يجمع في شعره مزايا ثلاثة شعراء كبار عاشوا قبله في القرن السادس عشر ، حيث انه اخذ الاتجاه الصوفي من الشاعر (خيالي) واللغة البسيطة من الشاعر (يحيى بك) والتنوع الجاذب من الشاعر (ذاتي)[١٥٥] وبذلك انفرد بهذا اللون الجديد من الشعر التركي في ذلك العصر .

تعاظمت الامبراطورية العثمانية ، وغدت قوية بعد الفتوحات التي تمت حتى القرن الثامن عشر حينما بدأ الضعف يدب في جسم الدولة نتيجة للثورات الداخلية والحروب الخارجية . وفي ختام القرن الثامن عشر بدأت الامبراطورية دور الركود ، وانتقلت من الهجوم الى الدفاع ، وقد رافق هذا الضعف السياسي ضعف في حياتها الثقافية لان سلاطين آل عثمان ووزراء هذا العهد لم يكونوا يعيرون الادب ادنى اهتمام ، وكان الشعر التركي لا يزال تحت تأثير الروائع الفارسية والكلاسيكية ورغم ذلك فقد ظهرت بعض

---

(١٥٤) د . ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(١٥٥) وصفي ماهر قوجاك تورك : المصدر السابق ، ص ٣٧٥ .

المحاولات الفردية الرامية الى ادخال الاسلوب الشعبي التركي على الادب(١٥٦) .

اما آلام العصر ومساوىء النظام الاجتماعي ، فقد عبر عنها الشعراء بمناجاة مريرة ، وان لم يعدم وجود مقطوعات شعرية تنتقد الاوضاع الاجتماعية السيئة انتقادا لاذعا ... وكان الشاعر المغروف عبد الرازق نورس (المتوفي عام ١١٧٥هـ)على رأس هؤلاء المنتقدين مما حدا بالسلطان الى نفيه لولاية (بورصه) حيث توفي هناك(١٥٧) كما تبلور الشعر الاجتماعي في هذه الفترة نظرا لتردي الاوضاع ولانغماس السلاطين في الملذات واقتسامهم البلاد بين الاقارب والولاة ، فكان الشعر يعبر عن ذلك بالشكوى تارة وبمهاجمة الفساد والمطالبة بالاصلاح الاجتماعي تارة اخرى(١٥٨) .

وما ان هل القرن التاسع عشر حتى بدأت تيارات الافكار الحرة تهب على الامبراطورية العثمانية من اوروبا ، كما ترجمت شوامخ الفكر الادبي العالمي الى اللغة العثمانية كمؤلفات روسو ومنتسكيو وغوته ولوك وهوغو وتولستوي وغيرهم .

وبدأ الشباب العثماني يتحرك ويؤلف الجمعيات السرية والعلنية للتبشير بالافكار الحرة ، وكان الهاربون من تعسف السلاطين الى اوروبا يعودون في فترات انتعاش الحريات الى الوطن حاملين معهم الافكار الجديدة لينشروها في الصحف والمجلات التركية . وكان من ابرز الشعراء في هذا العصر ، ضياء باشا ، عبد الحق حامد ، نامق كمال وشناسي الذين كانوا ينحون في كتاباتهم منحى جديدا لم يكن معروفا في الادب التركي ، فأحدثوا بذلك تجديدا شاملا في مختلف فنون الادب ، كما حاولوا تطعيم الادب التركي بالروائع الكلاسيكية العالمية وادخلوا كلمات الوطن والشعب والحرية والاستقلال الى الحياة الفكرية والادبية التركية بمدلولاتها الصحيحة(١٥٩) .

كما اعاد المثقفون الاتراك النظر في تراثهم الادبي القديم ولم يعتبروه فنا اصيلا لانه كان قد كتب تحت تأثير الادب والذوق الفارسي وبذلك كثرت فية المحسنات البديعية وطغت عليه الصناعة اللفظية لانه لم يكن مكتوبا للشعب بل كان للقلة الحاكمة آنذاك(١٦٠) . لذلك فقد بدأوا ثورة في دنيا الادب فخرجوا على الاسلوب الادبي الفردي القديم وربطوا بين الادب والسياسة من جهة وبين الادب والشعب من جهة اخرى . ولم تشمل اصلاحاتهم الادب فحسب بل تعدى ذلك الى اللغة التركية فابتعدوا عن استعمال الصناعة اللفظية في الاسلوب وأحدثوا قواعد

---

(١٥٦) بروكلمان : المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

157 - 21 - I. A. Gousa : Turk MESHURLARI, S. 283

(١٥٨) د . ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ٣٢

159 - Hikmet Dizdaroglu : Namik Kemal, S. 13

(١٦٠) حكمت دزدار اوغلو : المصدر السابق ، ص ١٤ .

جديدة للغة التركية كما وضعوا معجما لهذه اللغة الجديدة وطالبوا المسؤولين بترك اسلوب المراسلات القديم والكتابة باسلوب ادبي جديد يتناسب وروح العصر(١٦١) .

المبحث الثالث

الادب التركي الحديث

كان تأثر الادب التركي بالفارسية والعربية نتيجة منطقية لفقر هذا الادب من جهة ولوجود ثقافة وادب فارسي شامخ مع كون القرآن والعلوم باللغة العربية من جهة اخرى . وقد بقي الادب التركي تحت تأثير هذين الادبين الشامخين (العربي والفارسي) في القرن العاشر الميلادي حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما صدر (فرمان التنظيمات) بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٨٣٩ والمعروف ب (كولهانه خطي) الذي يعد اول تنظيم قانوني حديث في حياة الدولة العثمانية لانه كان ضمانا لاموال وارواح واعراض الناس من جهة وتنظيما لاداء الضرائب والمحاكمات وفق اسس حديثة من جهة اخرى . وكان الهدف من اصدار هذا الفرمان اجراء الاصلاحات في الدولة العثمانية والحاقها بركب الحضارة الاوروبية . وكان لابد ان تنعكس المفاهيم التي اتي بها (فرمان التنظيمات) على الحياة الادبية والثقافية في الدولة العثمانية فكان ميلاد ادب التنظيمات .

أ - أدب التنظيمات :

بعد حوالي عشرين عاما من صدور فرمان التنظيمات قام الكاتب التركي المعروف شناسي باصدار جريدة (ترجمان الاحوال) سنة ١٨٦٠ لتكون لسان حال تيار ادبي جديد في الادب التركي . يستلهم الثقافة الاوربية ويحاول تقليدها اطلق عليه ادب التنظيمات .

لقد كان هذا التيار تقليدا للادب التركي الغربي ولا سيما للادب الفرنسي حيث كان كل من شناسي واحمد وفيق باشا تحت تأثير الروائع الكلاسيكية الفرنسية بينما كان كل من نامق كمال واحمد مدحة افندي - اول رئيس تحرير لجريدة الزوراء العراقية - تحت تأثير الرومانتيكية الفرنسية ، حيث حاول كل من الجماعتين خلق ادب جديد على غرار النماذج الفرنسية المقلدة . ويعتقد الكاتب التركي المعروف (طان بينار) ان : « ادب التنظيمات قد ولد نتيجة الحاجة الى تغيير الافكار السائدة في المجتمع التركي خدمة للانسان وتوفيرا لادوات التعبير الحقيقية عن مشاعره بلغة سهلة ومفهومة وتغيير المؤسسات الادبية القائمة لخلق نثر تركي جديد »(١٦٢) .

لقد كان مؤسسو ادب التنظيمات كلهم « سادة القلم »(١٦٣) ولذلك فقد جاهدوا في خلق نماذج لابطال رواياتهم تمثل ذواتهم كما حاولوا هدم الادب

---

(١٦١) د . ابراهيم الداقوقي : المصدر السابق ، ص ٣٣ - ٣٤ .

162 - S. K. Karaalioglu : Edebiyat Sozlugu, S. 694

(١٦٣) سيد كمال قرا علي اوغلو : المصدر السابق ، ص ٦٩٣ .

التركي القديم وخلق ادب جديد يعبر عن تطلعات الطبقة الوسطى بلغتها اليومية المتداولة وافكارها وآرائها البرجوازية . وبذلك اصبح الادب التركي - ولاول مرة - وسيلة من وسائل خدمة المجتمع .

كما بدأ الاهتمام - ولاول مرة - بالنثر التركي وفق الاساليب الحديثة وبمفاهيم جديدة لم تكن مألوفة في هذا الادب طيلة العصور الماضية . وكان على رأس هذا التيار الجديد الشعراء والادباء : شناسي ، ضياء باشا ، نامق كمال ، احمد مدحت افندي ، رجائي زاده اكرم ، عبد الحق حامد ، سامي باشا زاده سزائي وغيرهم .

استمر تيار ادب التنظيمات حتى عام ١٩٠٩ عندما ترك مكانه لتيار « ادبي » جديد اطلق عليه « حركة الادب الجديد » .

ب - حركة الادب الجديد :

بدأ هذا التيار الادبي بأصدار مجلة « ثروة الفنون » عام ١٨٩٦ واستمر حتى عام ١٩٠١ وكان مجموعة من الشباب التركي بزعامة الكاتب المعروف « رجائي زاده اكرم » قد قاموا باصدار هذه المجلة الادبية وهم : توفيق فكرت ، خالد ضيا ، جناب شهاب الدين ، حسين جاهد يالجين ، احمد حكمة ، محمد رءوف ، سليمان نظيف ، سليمان نصيب ، حسين سعاد ، حسين سيرت ، علي اكرم ، جلال ساهر وفائق علي .

وقد استهدف هذا التيار - الذي يطلق عليه ايضا تيار ثروة الفنون - هدم ادب الديوان ، وتقليد الادب الاوربي ، والخروج على وحدة البيت في القصيدة بالاعتماد على وحدة الموضوع فيها . وعلى الرغم من ان هذا التيار قد جدد الادب التركي من ناحية الشكل والمضمون الا انه حافظ على الاسلوب التركي القديم في الاعتماد على الالفاظ العربية والفارسية واستعمال اوزان العروض العربية ، ومع ذلك فان تيار الادب الجديد لم يستطع ان يعبر عن حياة العامة وانما اقتصر اهتمامه على تطلعات الصفوة المختارة وحياتهم المترفه في مدينة اسطنبول[١٦٤] . وقد تطور من خلال هذا التيار الشعر التركي وفنون الرواية والقصة القصيرة والمسرحيات بالاضافة الى النقد الادبي وكتابة المذكرات الادبية والسياسية وقد استمر هذا التيار حتى مطلع القرن العشرين .

ج - الادب التركي في القرن العشرين :

شهد القرن العشرون تطورات هائلة في ميدان الثقافة التركية بشكل عام وفي ميدان الشعر بشكل خاص ، حيث انفض المقلدون للادب الغربي من حول تيار (الادب الجديد) كما ترك وزن العروض مكانه لوزن الهجا التركي وتفكك اركان ادب الديوان وادب التكايا الذي كان يشكل نواة الادب الشعبي واصبحت اللغة التركية ، لغة الشعر بدلا من اللغة العثمانية . وكان حرب التحرير واعلان الجمهورية التركية قد شكل الاطار العام لميلاد حركة الشعر القومي الذي كان يتزعمه الشاعر محمد امين يورداقول (١٨٦٩ - ١٩٤٤) وكان المفكر التركي ضياء كوك

(١٦٤) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ، ص ٧٢٥ .

آلب (١٨٧٥ - ١٩٢٤) يقود هذه الحركة القومية بالدعوة الى تتريك اللغة واستعمال اوزان الهجاء التركي بدل اوزان العروض العربية ... وقد تبعه الشعراء انيس بهيج ، خالد فخري ، اورخان سيفي ، يوسف ضيا ، فاروق نافذ ، وصالح زكي الذين نظموا بوزن الهجا وبلغة تركية سلسة . كما تفنن شعراء النزعة القومية في طرق ابواب جديدة للشعر ، فنظم نجيب فاضل قيصا كوك قصائد صوفية حديثة تعبر عن خوالج الروح وعبر عمر سيف الدين بلغة سلسه عن مشاعر الشعب في قصصه واستطاع احمد محب درناس وجاهد صدقي كتابة قصائد رائعة بالاوزان التركية ، وبدأت جماعة من الشعراء الشباب وعلى رأسهم اورخان ولي بكتابة الشعر الحر ، اما الشعراء الذين تمسكوا - في النظم - باوزان العروض العربية مثل محمد عاكف ويحيى كمال بياتلي فقد تفننوا في تطوير مضمونه وشكل النظم بهذه الاوزان التي سادت في الشعر التركي طيلة العشرة قرون الماضية . اما احمد هاشم - وهو شاعر تركي عراقي المولد ومن الاسرة الالوسية - فقد استطاع تأكيد شخصيته من خلال قصائده الرمزية واعطى رضا توفيق روحا جديدة للشعر التركي . وكان ظهور ناظم حكمت بمفهومه التحرري للشعر وبآرائه الثورية وبأسلوبه الشعري الجديد والعذب والعنيف ايذانا بميلاد حركة الشعر الثوري التي اجتذبت عشرات الشعراء الشباب وارتفعت بالشعر التركي الى مصاف الادب العالمية . ولذلك سوف ندرس التيارات الادبية الفاعلة في الادب التركي من بداية هذا القرن وحتى يوم الناس هذا .

ج أ - تيار الفجر الآتي ١٩٠١ - ١٩٠٨ :

اذا كانت مدرسة ثروة الفنون التي تزعمتها مجلة ثروة الفنون قد انفرط عقدها في بداية القرن العشرين عندما اغلقت السلطات العثمانية هذه المجلة في بداية هذا القرن ، غير ان اعلان المشروطية الثانية وانتهاء حكم السلطان عبد الحميد ادى بهذه المجلة الى الظهور مرة ثانية وبالاسم نفسه ، حيث قامت مجموعة من الشباب التركي المثقف بمهمة اصدارها . واطلقوا فيها على انفسهم تسمية (جماعة الفجر الآتي) التي كان على رأسهم جلال ساهر واحمد هاشم وتحسين ناهد وامين دولاند ومحمد بهجت وفاضل احمد وحمد الله صبحي وفؤاد كوبرولو وشهاب الدين سليمان ويعقوب قدري .

لم تستمر مدرسة الفجر الآتي طويلا على الرغم من انها استطاعت تأكيد شخصيتها من خلال اللغة البسيطة والسلسة واصبحت حلقة الوصل بين الادب الاوربي والادب التركي القديم وقد اصبح معظم شخصيات هذه المدرسة - في العهد الجمهوري - من رواد الادب التركي الحديث كما انضم معظمهم الى جماعة (الادب القومي) . ولعل ابرز سمات مدرسة الفجر الآتي هو تقليد الرمزية الفرنسية في الشعر التركي وكان رائدهم في ذلك هو الشاعر احمد هاشم الذي ادخل الرمزية - لاول مرة - الى الشعر التركي .

يقول احمد هاشم (١٨٨٤ - ١٩٣٣) في قصيدته (البريق) :

كالنار
ينساب نهر
بين روحي وتلك الروح
حيث يروي النهر لها
من الاعماق ... عن حالي .

●●●

عندما انعكست
صورة النهر عليها ،
وليت هاربا
من نظرتها وشفاهها ،
وبت انظر اليها
صامتا من بعيد ،
كلما انعكست
صورة هذا الحب
عليها .

ج ب - تيار الادب القومي ١٩٠٨ - ١٩٢٣ :

نشأ هذا التيار الادبي تحت تأثير الحركة القومية التي كان يدعو اليها شباب حركة الاتحاد والترقي بعد الانقلاب العثماني في ١٩٠٨ وقد استمر هذا التيار الادبي حتى اعلان الجمهورية وكان على رأسه : محمد عاكف ، يحيى كمال بيايلي ، احمد امين ، رضا توفيق ، فاروق نافذ في ميدان الشعر ، وعمر سيف الدين وخالده اديب ويعقوب قدري ورشاد نوري ونور الله أتاج وفالح رفقي وممدوح شوكت في ميادين الادب الاخرى . وكان ضياء كوك آلب وفؤاد كوبرولو وهما العقل المفكر بالنسبة الى هذا التيار الادبي الذي كان يعتمد على العودة الى التراث القومي التركي واستلهامه في الاثار الادبية الجديدة وقطع صلة الادب التركي بالتيارات الادبية الاجنبية وتتريك اللغة واستلهام الواقع التركي في الادب ولذلك فقد دعوا الى ترك اوزان العروض العربية واستعمال اوزان الهجا التركية وتنقية اللغة من الكلمات الاجنبية . وكانت مجلة (الاقلام الشابة - كنج قلملر) بمثابة لسان حال هذه المدرسة . صدرت مجلة الاقلام الشابة في مدينة سلانيك عام ١٩١١ . وقد دعت في افتتاحية العدد الاول الى تنقية اللغة التركية من الشوائب الاجنبية لخلق ادب قومي يعتمد على التراث التركي وفق التصور التالي[١٦٥] :

١ - يجوز لكل لغة من اللغات الاعتماد على مفردات اللغات الاخرى - الا انها يجب ان لا تأخذ القواعد ايضا .

٢ - يجب القضاء على الازدواجية في اللغة التركية بحيث تنطابق لغة الكلام مع لغة الكتابة .

٣ - الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية .

٤ - يجب ان تكون لهجة اسطنبول التي يفهمها معظم الاتراك ، لغة الكتابة التركية .

٥ - استبدال الكلمات العربية والفارسية الموجودة في اللغة التركية بالكلمات التركية المتداولة .

٦ - يجب تطبيق القواعد التركية القديمة في اللغة التركية بدلا من القواعد الاجنبية الموجودة فيها اليوم ..

(١٦٥) سيد كمال قرا علي أوغلو : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

وكانت مجموعة من الشباب التركي مؤلفة من خمسة شعراء هم : فاروق نافذ وانيس بهيج واورهان سيفي وخالد فخري ويوسف ضياء ... قد قامت باصدار هذه المجلة واعتمدت على الادب الشعبي وأوزانه وأشكاله في خلق ادب وطني جديد يعد حلقة الوصل بين الشعر العروضي وشعر الهجا . وقد ادت هذه المجموعة الادبية التي اطلق عليها تسمية (بش هجه ليلر - شعراء الهجا الخمسة) خدمات جليلة للادب التركي عن طريق هذه المجلة التي استحوذ عليها فيا بعد رواد الادب القومي التركي .

يقول فاروق نافذ (١٨٩٨ - ١٩٧٣) في قصيدة من نوع (قوشما) وهو من فنون الادب الشعبي التركي :

ضع الكحل في عينيك
والحناء في اصابعك
ايتها الفتاة
لانك ، في هذه السنة ،
ستبلغين سن الزواج .

●●●

وقفتي تفضح صبابتي ،
تفضح حبي ،
فدع طير فؤادي
يسكن شباك شعرك

●●●

لو كنت دمعة ،
فانها لا تراق على الوجنة .
وان كنت نظرة ،
فلا تلتفت الى الغرباء ،
ولأنك وطني ،
فلن ادعك لاحضان الآخرين .

ج ج - تيار الادب الجمهوري :

كانت انتصارات حرب التحرير التركية واعلان الجمهورية في ١٩٢٣ إيذانا بميلاد ادب جديد يختلف عن اسلامية محمد عاكف وطورانية ضياء كوك آلب ورومانسية يحيى كمال بياتاي ورمزية احمد هاشم التي سيطرت على الحياة الثقافية في تركيا اكثر من نصف قرن والتي صبغت هذه الحياة بالركود الجامد ودخلت في معارك ادبية غير مجدية .

كان التجديد الذي اتى به تيار الادب الجمهوري يغطي كافة ميادين الحياة الثقافية في تركيا الحديثة : اللغة ، اشكال النظم ، الاوزان ، الفنون الادبية ، ووضوح الاهداف ، ومع ذلك فان استقطاب الجمهورية ورجالها للشعراء الذين كانوا يلهجون بفضائل الجمهورية وعظمة رجالها بالاضافة الى التغني بامجاد حرب التحرير والغايات التي يجب تحقيقها وفق منظور رجال الحكم الجدد ... ادى الى ظهور طبقة من الشعراء الموظفين الذين لا هم لهم الا ارضاء رجال الحكم والتحلق حول اهدافهم ضمن اطار الوحدة الوطنية التي كانت من الاهداف الرئيسية لحركة مصطفى كمال أتاتورك .. وهكذا خلقت الحركة الكمالية طبقة من المثقفين البيروقراطيين في الادب التركي في العاصمة انقرة على الرغم من ان المثقفين الموجودين في اسطنبول كانوا هم المسيطرين على الحركة الثقافية في البلاد .

في مثل هذا الجو ظهر ناظم حكمت بمفهومه التحرري للشعر وكان ظهوره صوتا جديدا او نغمة ناشزة في هذا التيار الثقافي البيروقراطي لانه اكتشف اسرار اللغة التركية واستلهم في قصائده تراث الشعب التركي وملاحمه البطولية القديمة مع اضافة عنصر المعاصرة الى كل ذلك ، فكانت كلماته تبشيرا بالثورة وايمانا بالحاجة الماسة الى العدالة الاجتماعية والاخاء الانساني . لذلك سعت البيروقراطية الثقافية التركية والفاشية السياسية الى خنق هذا الصوت الجديد فكان ان حكمت عليه بالسجن لاكثر من ربع قرن .

لذلك ، ان الحديث عن الادب الجمهوري يقودنا الى دراسة الشعر التركي خلال القرن العشرين عن طريق البحث في التيارات الشعرية الفاعلة في الادب الجمهوري .

المبحث الرابع

تطور الشعر التركي خلال القرن العشرين

ان تاريخ الشعر التركي في القرن العشرين هو تاريخ الجمهورية التركية والحركة الوطنية التركية . فمثلما ظهرت الحركة التحريرية للارض التركية من الاحتلال البغيض ، كذلك طهَّر الشعر التركي ارض الساحة الثقافية من الركود والتجريد والتقليد ، الا انه وقع في شباك البيروقراطية البغيض رغم بعض الاصوات القليلة التي نادت – باخلاص – بالاقتراب من هموم الطبقات المسحوقة .

كانت السنوات الاولى في القرن العشرين ارهاصا لميلاد الشعر التركي الجديد على يد الرواد ، الذين ملوا البحث عن الطرق والاساليب الجديدة فاتجهوا الى التقليد بعيدا عن الواقع التركي ... والى الصفوة المختارة بعيدا عن الشعب وتطلعاته . فالشاعر محمد عاكف (١٨٨٣ - ١٩٣٦) جند شعره للتغني بامجاد الاسلام وشحذ الهمم للنهوض بالدين الاسلامي الى مستوى عهد النبوة دون اخذ معطيات العصر بعين الاعتبار . ولذلك فقد ترك تركيا وعاش فترة في المانيا ، خبر خلالها المدينة الغربية التي وصفها في قصيدة (نشيد الاستقلال) بانها (الوحش ذو السن الواحدة)، ثم عاد الى اسطنبول ابان حرب التحرير وذهب الى الاناضول حيث اشترك في حرب التحرير ، غير انه اختلف مع مصطفى كمال بسبب نزعته – أي مصطفى كمال – العلمانية فهاجر الى مصر وعاش زمنا طويلا ثم عاد الى اسطنبول حيث مات عام ١٩٣٦ .

والشاعر يحيى كمال بياتلي (١٨٨٤ - ١٩٦٠) كان متأثرا بطريقة عبد الحق حامد في عرض مشاعره في قوالب شعرية فلسفية بمضامين جديدة وفق اوزان العروض العربية ، غير انه تحول فيما بعد الى نوع من الشعر الصوفي في غزليات مجردة من شخصية الشاعر نفسه ... « فهو يحاول كتابة الشعر القديم باوصاف عصرية ، فالوزن عربي واللغة عثمانية والاشكال اوربية على ارضية حديثة »(١٦٦) .

وكان عبد الحق حامد (١٨٥٢ - ١٩٣٧) هو الذي بدأ بهذا الطراز الشعري الفلسفي الذي تطور

(١٦٦) وصفي ماهر قوجاتورك ، المصدر السابق ، ص ٧٦٧ - ٧٧٤ .

على يدي توفيق فكرت (١٨٦٧ - ١٩١٥) وأثرى باشعار جناب شهاب الدين (١٨٧٠ - ١٩٣٤) واحمد هاشم (١٨٨٥ - ١٩٣٣) بحيث اصبح يشكل اطار الشعر التركي في بدايات القرن العشرين .

وعلى الرغم من ان رضا توفيق (١٨٧٠ - ١٩٥١) كتب الشعر الفلسفي في نواح عديدة : استلهام الشعر الشعبي التركي ، والنظم باوزان الهجا التركية ، ومحاولة تطوير الشعر الشعبي التركي القديم بايجاد القوالب الحديثة له وبذلك فقد اصبح من بعض الوجوه من الشعراء المتصوفة[١٦٧] . إلا انه كتب الشعر باوزان العروض العربية واشعارا بالفارسية والفرنسية ، وهو يلقب في الشسعر التركي بالشاعر الفيلسوف .

كما لم تخل ساحة الشعر من الشاعرات ، فقد نشرت الشاعرة احسان رائف (١٨٧٧ - ١٩٢٦) اولى قصائدها خلال هذه الفترة ، وهي اول امرأة تركية تستعمل وزن الهجا التركي[١٦٨] وتعد من الشاعرات المجددات لانها ارادت تطوير الشعر الشعبي التركي وفق معطيات العصر ، كما كتب مدحة جمال قونتاي (١٨٨٠ - ١٩٥٦) اشعارا قومية ووطنية بأوزان العروض العربية ، تتحدث عن البطولات ايام حرب التحرير .

قلنا ان الشعر التركي وقع في شباك البيروقراطية في السنوات الاولى من عمر الجمهورية ، غير ان مجموعة من الشعراء الشباب ارادت تحريك هذا الجمود وكسر القوالب الشعرية الجاهزة فقامت بتشكيل مجموعة ادبية اطلقت على نفسها (المشاعل السبعة - بيدي مشعلة) وهم : صبري اسعد سياوشكل ، يشار نابي ناير ، معمر لطفي ، ضياء عثمان سابا ، وصفي ماهر قوجاتورك ، جودت قدرت ، وكنعان خلوصي قوراي . وقد قامت هذه المجموعة باصدار ديوان مشترك لهم باسم (مشعلة) واعتمدوا في قصائدهم على السريالية الفرنسية متخذين من (الحيوية والصدق والمعاصرة) شعارا لهم مع عدم الارتباط باية مدرسة ادبية او اتجاه سياسي معين .

اذا كانت مجموعة المشاعل السبعة تشكل اول تيار ادبي في العهد الجمهوري لانه ظهر عام ١٩٢٨ وهي السنة التي سن فيها المجلس الوطني التركي قانون (ثورة الحرف) حيث استبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية ... فان عام ١٩١٩ شهد صوتا جديدا في الشعر التركي ، حيث عاد خلال هذه السنة ناظم حكمت من الاتحاد السوفييتي بعد ان ارسله مصطفى كمال أتاتورك لدراسة الاقتصاد السياسي[١٦٩] عاد وهو يحمل تكنيكا جديدا للقصيدة الشعرية تحت تأثير بودلير وفق اسلوب ماياكوفسكي وبالاعتماد على اوزان الهجا التركية وبقوالب الشعر الحر .

---

(١٦٧) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ، ص ٧٧٦

(١٦٨) وصفي ماهر قوجاتورك : المصدر السابق ، ص ٧٧٧ .

(١٦٩) د . ابراهيم الداقوقي : رحلة مع ناظم حكمت في وقت غير مناسب ، مجلة الاقلام ، العدد الخامس ، السنة التاسعة ، بغداد ١٩٧٣ ، ص ١٩ .

يقول ناظم حكمت (١٩٠٢ - ١٩٦٣) في قصيدته (عناقيد الصفصاف) :

يتلاشى وقع الحوافز موجة اثر موجة ،
يتلاشى الفرسان عند المغيب ،
الفرسان ذوو الخيول الحمر ،
خيولهم اجنحتها من ريح ،
خيولهم اجنحتها ريح !
خيولهم ريح !
خيولهم ...
خيل .

وكان صدور مجلة الوجود (وارلق) عام ١٩٣٠ يشكل انعطافة كبرى نحو الاتجاه الى الشعر الاجتماعي في الادب التركي حيث انضم ناظم حكمت الى هيئة تحريرها مع مجموعة من الشعراء الشباب الذين حاولوا دراسة مشاكل الريف التركي لايجاد الحلول الشافية له . وقد استطاعت هذه المجلة - التي لا تزال تصدر الى اليوم - مع تيار المشاعل السبعة خلق مدرسة ادبية جديدة في الادب التركي اثرت - فيما بعد - بكل التيارات الادبية في الادب التركي ولا سيما حركتي التغريب والادب القروي ، اضافة الى تيار الشعر الاشتراكي .

١ - حركة التغريب :

كانت ثلاثينات القرن ايذانا بتلبد الغيوم السوداء في سماء السياسة الدولية . فقد كانت الفاشية تأخذ بخناق الشعب الايطالي ، ويتهيأ النازيون في المانيا للقفز على السلطة ، ثم تقوم العسكرية الفاشية باحتلال الحبشة ... وفي هذه الفترة التي كان يعمل فيها ناظم حكمت كمترجم للافلام الاجنبية ، يكتب العبارة التالية على الفيلم الذي يصور احتلال الحبشة (الفاشية تسير في شوارع اسطنبول) للايحاء باتجاه الحكم نحو الفاشية في تركيا . كما يحتدم النقاش : في هذه الفترة ايضا - في تركيا حول اساليب تطبيق الاصلاحات الديموقراطية ، فيدب الخلاف بين مصطفى كمال أتاتورك وبين مجموعة من العسكريين الشباب ، فيتخلى مصطفى كمال أتاتورك عن مسؤولياته في الحكم الى (عصمت اينونو) ذي الميول الفاشية ... الا ان الضغط الشعبي يجبر مصطفى كمال للعودة ثانية الى الحكم . غير ان الاوساط الفاشية تتمكن من ناظم حكمت فتحكم عليه بالسجن مددا متداخلة تبلغ واحدا وستين عاما ونصف بتهمة تكوين خلية شيوعية في الكلية الحربية وبترويج الشيوعية بين ضباط البحرية كمحاولة للقيام بانقلاب شيوعي في البلاد وذلك عام ١٩٣٨[١٧٠] .

أرادت الفاشية التركية باعتقال ناظم حكمت والحكم عليه بالاشغال الشاقة لهذه المدة الطويلة ارهاب الاقلام الحرة لا سيما وانها كانت قد اعتقلت معه ايضا الشاعر عز الدين داينمو والكاتب اورهان كمال وحكمت عليهما لمدد مختلفة[١٧١] . الا ان ناظم حكمت لا ييأس من ذلك فيكتب رسالة الى مصطفى

170 - Kemal Sulker : Nazim Hikmet in Dosyasi, Ankara 1967, S. 37 - 40

(١٧١) د . جتين بتكين : المصدر السابق ، ص ٥٧ - ٩٧ .

كمال أتاتورك يؤكد له فيها بانه انسان مخلص لوطنه وانه لم يحاول خيانة هذا الوطن لانه ملتزم بقضايا الشعب ومخلص لمبادىء الحركة الكمالية ... لكن الاوان كان قد فات ، حيث تصل الرسالة الى مصطفى كمال وهو على فراش الموت يحتضر ، ومع ذلك تجده يؤكد لجلسائه ان ناظم حكمت بريء من كل التهم الموجهة اليه وان بعض العسكريين يريدون افناءه[١٧٢] وبموت مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٣٨ يسدل الستار على قضية ناظم حكمت حتى عام ١٩٥٠ ويبدأ عهد جديد من الدكتاتورية والفاشية في تركيا بعد تولي عصمت اينونو للحكم ... حيث الاحزاب ملغاة ولا حرية للصحافة واينونو هو الآمر الناهي عن طريق حزبه الوحيد (حزب الشعب الجمهوري) .

في مثل هذا الجو القلق المليء بالغيوم السوداء وبالتوتر والارهاب يقوم ثلاثة من الشعراء الشباب وهم : اورخان ولي ومليح جودة أنداي واقتاي رفعة ، باصدار ديوان مشترك باسم (الغريب) كانت مقدمته بمثابة بيان شعري يؤكدون فيها رفضهم للشعر التقليدي وتحطيمهم للقوالب المهترئة ومحاولتهم ايجاد التعادل النفسي بين الانسان والطبيعة وبأنهم يبحثون عن الحب والكمال ويقفون الى جانب الطبقات المسحوقة .

كانت الفاشية في أوج طغيانها العسكري والسياسي عندما ولد هذا التيار في الادب التركي عام ١٩٤٠ الذي اطلق عليه (التغريب - غريبجيلر) وكان رواده متأثرين بالسريالية الفرنسية واصبحوا بذلك أول المجددين في الشعر التركي الحديث .

وعلى الرغم من ان شعر التغريب لا يخرج عن اطار القصيدة النثرية لانه يعتمد على الاستعمالات الذكية للالفاظ ، البعيدة عن الابداع الشعري الا انهم خلقوا تيارا جديدا في الشعر التركي استطاع ان يرفد الادب التركي بطاقات شعرية هائلة : عودة اورخان ولي الى منابع الفولكلور وقصائد مليح جودة آنداي الفكرية واشتراكية اوقتاي رفعة الطوباوية ... هذه الاتجاهات المتناقضة في مظهرها والمتحدة في جوهرها استطاعت التأثير على جيل شعري كامل في الادب التركي .

يقول مليح جودت آنداي (١٩١٥ - ٠٠) في قصيدته (الشجرة القلقة) :

ثمة شجرة اعرفها ،
اعرفها ، لانها تسكن
بجوار بيتنا .
غير انها لم تسمع اسم السعادة ،
فانظروا الى ارادة الخالق .

●●●

الا انها تعرف الليل والنهار
وتعرف المواسم والريح والثلوج ،
وتهيم حبا بضوء القمر ،
ولكنها لا تلعن الظلام .

●●●

(١٧٢) د . ابراهيم الداقوقي : رحلة مع ناظم حكمت في وقت غير مناسب ، مجلة الاقلام العراقية ، العدد الخامس ، السنة التاسعة ١٩٧٣ ، ص ١٨ .

سأمنحها كتابا
لكي اقلقها ...
ومن ثم انظروا اليها
عندما تتعلم لغة الهوى .

٢ - تيار الادب القروي :

خلال الاربعينات نشأ تيار أدبي جديد استهدف دراسة الحياة الشعبية في القرى والارياف التركية من خلال دراسة مشاكل الفلاحين والقرويين الذين يشكلون ٨٠٪ من سكان تركيا وكان القاص التركي التقدمي (محمود مقال) على رأس هذا التيار لا سيما بعد ان نشر روايته الشهيرة (قريتنا) التي ترجمت - فيما بعد - الى (٤٦) لغة ، وتم اختيار المؤلف عام ١٩٦٨ كمواطن عالمي في مهرجان ادب الشباب بايطاليا .

يعد هذا التيار الادبي الذي اطلق عليه (تيار الادب القروي) خلاصة التجارب الاجتماعية ورابطة بين الفلكلور التركي الحي والتراث التركي القديم وبين لغة الشعب ومشاعره وواقعة في اطار من الصميمية التي تعتمد على الواقعية والصدق والمشاهدة الحية .

واذا كان (محمود مقال) رائد هذا التيار الادبي ، الا ان الادباء التقدميون صباح الدين علي ، كمال طاهر ، صميم قوجاكوز ، يشار كمال ، اورهان كمال ، الهان تاروس ، طالب آيايدن ، فقير بايقورت ، محمد باشاران ، فكرت اوتيام وبكر بيلدز هم - ايضا - رواد هذا التيار في مجال القصة القصيرة والرواية . كما يمكن مشاهدة نماذج هذا التيار الادبي في قصائد الشعراء التقدميين : احمد عارف ، جيحون عاطف قانصو ، سيد كمال قراعلي اوغلو ، مشين ال اوغلو ، نجاتي جمعة لي ، بكر صدقي اردوغان ، جاهد كوله بي وبدري رحمي ايوب اوغلو الذي يقول حول هذا التيار الادبي : « ان الانتفاع من اغاني وزخارف القرى له اهمية توازي اهمية الخبز ، لان فيها تجربة وكدح ونور عين ملايين البشر ... ولان الجوهر عسل ينبع من عناء وجهد مئات بل مئات الوف من السنين .. » ويقول القاص بكر ييلدز حول هذا التيار الادبي : « انني عندما اكتب عن مشاكل القرية فانما اكتب من داخل الحياة ، اي انظر الى المجتمع واحداثه من الداخل .. واحاول ان اجعل من الحقائق قنابل لكي تنفجر فيما بعد في رؤوس القراء .. »[١٧٣] ولا يزال هذا التيار الادبي من اقوى التيارات التي شهدها الادب التركي رغم تحول بعض رواده الى تيار الادب الاشتراكي كما ان هذا التيار وتيار التغريب مجتمعين خلقا تيار الشعر الاجتماعي في الادب التركي خلال الاربعينات .

٣ - تيار الحركة الشعرية الثانية :

شهدت الاعوام الاخيرة من الاربعينات تطورات سياسية وثقافية كبيرة في تركيا نتيجة اندحار الفاشية وانتصار القوى الديموقراطية ، فانعكست على الاوضاع العامة وادت الى اطلاق الحريات والاخذ

(١٧٣) سيد كمال قرا علي اوغلو : المصدر السابق ، ص ٧٦٩ .

بمبدأ تعدد الاحـزاب بعـد ان حكم حزب الشعب الجمهوري تركيا طيلة ربع قرن بدكتاتورية الحـزب الواحد .

في مثل هذا الجـو برز بعض الشعـراء الـذين استطاعوا ترك بصماتهم على الحركة الشعرية في تركيا وامتد تأثيرهم على الحركة الثقافية التركية حتى اليوم ، وكان على رأس هؤلاء فاضل داغلارجا ذلك الضابط العسكري الـذي ترك الخدمـة ليتفـرغ الى الحياة الثقافية وهو - على الرغم من غزارة انتاجه الشعري - لا يزال محافظا على مكانته الشعرية المرموقة وذلك لتنوع موضوعاته ولغته الجميلة ونظرته التقدمية .

وفي ١٩٤٨ يفـوز طالـب الثانـوية آتيلا الهـان بالجائزة الشعرية لحزب الشعـب الجمهـوري فيكون ذلك اعلانا عن ميلاد شاعر تقدمي تركي سيكون له تأثـيره الفاعـل على جيل كامـل من الشعــراء والشباب .

حملت خمسينات هذا القـرن مفاجـآت سياسية وثقافية عديدة ، فقد فشل حزب الشعب الجمهوري في انتخابات عام ١٩٥٠ وترك الحكم صاغرا للحزب الديموقراطـي المعـارض الـذي اطلـق الحـريات الديموقراطية وسمح بتشكيل احزاب سياسية عديدة . وكانـت المفاجـأة الاولى اعـلان ناظـم حكمـت الاضراب عن الطعام حتى الموت مطالبـا باطـلاق سراحه ، فتقوم الصحافة التقدمية في تركيا والعالـم بتبني قضية اطلاق سراح ناظم حكمت ... حيث تقع المفاجأة الاخرى بقيام حكومة الحـزب الديموقراطـي اصدار العفو العام عن السجناء السياسيين وبضمنهم ناظم حكمت نتيجة لضغـط الـرأي العـام التـركي والعالمي . وكانـت المفاجـأة الكبـرى نجـاح ناظـم حكمت في الهروب الى الاتحاد السوفياتي عن طريق البحر الاسود بزورق بخاري صغير بعد ان واجهته تهديدات الافناء مرة بالاعتقال واخرى بمحاولة قتله في حادث سيارة[١٧٤] ومرة ثالثة بمحاولـة سوقـه الى الخدمة العسكرية باعتباره متخلفا عن الخدمة[١٧٥] . وكانت المفاجأة الاخيرة في سلسلة هذه المفاجآت فوز الحزب الديموقراطي للمرة الثـانية في انتخابـات عام ١٩٥٤ وبذلك بدأت صفحـة جديدة من الارهـاب والبطش والاعتقالات وخنق الحريات الديموقراطية لم تشهد لها تركيا مثيلا حتى في عهد دكتاتورية اينونو وحزبه الوحيد الحاكم .

في مثل هذه الايام العصيبة ولد تيار ادبي جديد في الشعر التركي اطلق عليه تيار (الحركة الشعـرية الثانية) التي كانت رد فعـل لموقف مجلـة الوجـود (وارلق) التـي رفضـت نشر قصائـد مجموعـة من الشباب التركي التقدمي حاول كل واحد منهـم - دون معرفة الآخر - تغيير شكل القصيدة الشعرية باضفاء الاهمية على الكلمات وزخمها اللغوي وتطوير المضمون في اطار تجربة شعرية جديدة تتحدث عن الحرية والحب والجنس والتجريد احيانا ... وكان على رأس هؤلاء الشعراء : مظفر اردوست ، الهـان برك ،

(١٧٤) الدكتور جتين بتكين : المصدر السابق ، ص ٧١ .

(١٧٥) الدكتور جتين بتكين : المصدر السابق ، ص ٧١ .

ثولكو تامر ، جمال ثريا ، نجاتي جمعة لي ، سزائي مراقوج ، طورغوت اويار ، محمد تانر وعلي يوجه .

وكان الشعر التركي يعيش ازمة حقيقية قبل هذه الحركة ... وكانت هذه الازمة تجسد ازمة البلاد برمتها حيث كانت بوادر التحول من الزراعة الى الصناعة قد بدأت وتحول البلد الى قطر نصف مرتبط بعجلة الاحلاف والرأسمالية الدولية ... كما كانت ثمة حركة ونشاط في جميع الميادين : شق الطرق ، بناء السدود ، انشاء المصانع ، ازدياد الهجرة في القرى والأرياف الى المدن طلبا للعمل وهربا من عسف الاقطاع ، اضافة الى تدفق رؤوس الاموال الاجنبية والمساعدات الخارجية التي خلقت نوعا من الرفاهية المؤقتة في البلاد ... الا ان كل هذه المظاهر من الرفاهية والعمل والنشاط كانت تؤدي من الجهة الثانية الى زيادة الضغط والارهاب على رجال الفكر والادباء والشعراء والتنكيل بحرية الرأي ... ففي هذه الفترة تعرض الشعراء التقدميون صبيح شندل وسعاد طاشر والهان برك ورفعة الغاز وشكران قورداقول وأ . قادر وحسن عز الدين داينمو والادباء صباح الدين علي واورخان كمال وكمال طاهر وبشار كمال الى السجن والتشريد(١٧٦) .

لقد كان هذا الضغط والارهاب والتنكيل بالشعراء التقدميين نتيجة طبيعية لتذبذب الطبقة الحاكمة بين ارضاء اصحاب رؤوس الاموال الاجانب والحلفاء الجدد من جهة والطبقة البرجوازية المحلية التي بدأت تتكون في هذه الفترة بسرعة - من جهة اخرى - ولم تكن تقاليد الشعر التركي تسمح لهذا الشعر لكي يتساوق مع مجمل هذه التحولات ، فقد كان الشعر الشعبي بطيء النمو قليل التبدل لم يحدث فيه اي تغيير منذ مئات السنين ، وكان شعر ادب الديوان شعرا راكدا يعبر عن تطلعات الطبقة الحاكمة والعلاقات الاقطاعية ولم يتغير - هو الآخر - منذ مئات السنين رغم التيارات الادبية والثقافية خلال فترة التنظيمات والانقلاب العثماني والعهد الجمهوري ... وان كانت هذه التيارات قد احدثت تغييرات في اشكال القوالب الشعرية ، والتي ادت - فيما بعد - الى خلق نوع من الشعر التركي الهجين الذي لا ينتمي الى ادب الديوان ولا الى الشعر الاوروبي الحديث(١٧٧) .

كانت سنوات ١٩٥٠ - ١٩٦٠ (وهي سنوات حكم الحزب الديموقراطي) تحمل في طياتها الرفاه الاقتصادي لمختلف طبقات المجتمع التركي . غير ان هذا الرفاه لم يستطع ان يساوي الخطى مع التطور الاجتماعي الهائل في البلاد من جهة ومع تطور الوعي السياسي من جهة اخرى . ففي الوقت الذي كانت فيه الكتل الاجتماعية العديدة تقطف ثمار هذا الرفاه الاقتصادي كانت الطبقة الواعية والمثقفة تتعرض يوميا الى اساليب جديدة من القمع السياسي عن طريق وضع القوانين التي تحدد النشاطات السياسية وتضع قيودا جديدة على ممارسة حرية الرأي والتفكير

(١٧٦) الدكتور جتين بتكين : المصدر السابق ، ص ٨١ - ١١٦ .

177 - Rauf Mutluay : 50 Yilin Turk Edebiyati, istanbul 1973, S. 259 - 264

لان البرجوازية الصغيره دانت تعي دور المثقف الواعي والثوري في كشف استغلالها في المجتمع بحيث اصبح النضال بين البرجوازية الصغيرة الحاكمة وبين الطبقة المثقفة الواعية نضالا سياسيا يوميا لم يستطع الشعر التقليدي استيعابه ، فكان ميلاد الحركة الشعرية الثانية[١٧٨]

فما هو الجديد الذي حملته هذه الحركة الشعرية للشعر التركي ... ؟

يقول الناقد التركي المعروف دوغان هيزلان حول هذه الحركة في حديثه عن الشاعر اجه آيهان احد اقطابها : « لقد عرف هؤلاء الشعراء اهمية الكلمة في التعبير عن المشاعر ، غير انهم كانوا يعرفون ان الكلمات ذات القوالب المحددة لا تعني شيئا من الشعر ، لذلك استطاع اجه آيهان وشعراء الحركة الشعرية الثانية وضع معجم خاص لكلماتهم التي كانوا يستعملونها في شعرهم الشبيه بالموزاييك والذي كان يعتمد - بالدرجة الاولى - على تداعي الكلمات والاسماء والمفاهيم حيث كانت الكلمة الواحدة او الاسم الخاص او المفهوم المحدد تقوم مقام عشرات الجمل في السرد والافاضة والشرح والتوضيح في خلق عالم الشعر المطلوب[١٧٩] .

ويقول الشاعر الهان برك احد رواد هذه الحركة : « انها كانت حركة مناوئة لحركة الشعر الاولى[١٨٠] التي كان يتزعمها الشعراء الثلاثة اورخان ولي ومليح جودة واوكتاي رفعه كما كانت حركة معارضة للشعر الاجتماعي الذي كنت قد ولدت - انا مع الشعراء الاخرين - في احضانه . وتعتمد الحركة الشعرية الثانية في معارضتها للتيارين الشعريين المذكورين باعتبار احدهما اطرادا للآخر فقد جعلت الحركة الشعرية الاولى الشعر ذا بعد واحد وافق ضيق ... على الرغم من انه انزل الشعر من عليائه ودفع به الى الشارع - الا انها - اي الحركة الاولى - اكتفت بتركه هناك فقط .

امـا تيار الشعر الاجتماعي فقد كان يتراوح مكانه ، ولم يستطع الاستفادة من الامكانيات الحديثة المتاحة فوقع في قعر الازدواجية والتكرار ولذلك فقد كانت الحركة الشعرية الثانية بمثابة مبضع الجراح الـذي استطـاع بتـر اورام الـركود والازدواجية والتكرار ... لان هذه الحركة فتحت الطريق واسعا امام الشعر التركي الحديث[١٨١] .

اما الشاعر اوزدمير اينجه - وهو ايضا - احد رواد هذه الحركة ، فانه يؤكد بانها قد ولدت « نتيجة التناقضات الـداخلية في بنية المجتمع الجمهوري الذي كانت التيارات السياسية (الاتجاه نحو الغرب ام الشرق) والاقتصادية (الاخذ بالنظام الاشتراكي

178 - T. D. K : Turk Dili Dergisi, Haziran 1977, sayi 309, S. 530 - 535

(١٧٩) مجلة المجمع اللغوي التركي ، العدد الخاص بالحركة الشعرية الثانية ، المصدر السابق ، ص ٥٢٣ .

(١٨٠) يقصد بها حركة التغريب الشعرية (غريبجيلر) .

(١٨١) مجلة المجمع اللغوي التركي : المصدر السابق ، ص ٥٢٠ .

او الـرأسمالي) والاجتماعية (الاتجـاه الفـردي او الجمعي) تتجاذبه وتهز اركان مؤسساته ومفاهيمها .. ولذلك فقد كانت هذه الحركة تمردا ضد الاهمال والتذبذب والازدواجية الثقافية والاستغلال والاستعمار والضغط والارهاب[١٨٢] .

يقول الهان برك (١٩١٦ - ٠٠٠) في قصيدته (لم ار مثل هذا الحب ولا ذلك الفراق) :

عندما افكر فيك
ارى المها
ينزل ليرتوي
من النبع ،
عندما تنمو الاعشاب .

●●●

وفي كل مساء
ارحل معك
مع حبة زيتون خضراء
وقطعة زرقاء من البحر

●●●

وكلما افكر فيك
وكأني ازرع الرياحين ،
ازرع الخميلة ،
ألثم الجبال ،
واسقي الخيول الجميلة .

دافعت الحركة الشعرية الثانية بقوة عن الغموض في الشعر ، وأكدت بان الشعر مثلما يكون مفهوما قد يكون غامضا ايضا ، وان غموض شعرهم يعود الى الشكل الجديد للقصيدة ، هذا الشكل الذي يعتمد على حيوية الالفاظ والديالـوج الـداخلي في تناولـه للاحـداث اليومية من خلال علاقاتهـا التـاريخية ومضمونها العميق[١٨٣] .

لقد كان الشكل الجديد للشعر هو التجديد الذي احدثته الحركة الشعرية الثانية في الادب التركي ، فالشخص الذي لا يستطيع فهم هذا الشكل ومعرفة اصوله وقواعده ، يرى في هذا الشعر غموضا وخروجا على المألوف ، ان التغيير الذي احدثته هذه الحركة في بناء الكلمة الشعرية ادى الى ترسيخ فكرة الغموض حول شعر هذه الحركة غير ان فهـم هذه القصائـد يعتمـد على ثقافـة القـارىء ودرجـة وعيه السياسي والاجتماعـي فمثلما يرى طالـب المتوسطـة في وجــه « غرنيكا » لبيكاسو مثالا بارزا للغموض والرمزية ، يجد فيها المثقف الواعي مثالا حيا للحقد والكراهية ، كذلك كان شعر الحركة الشعرية الثانية حيث ارتفع مضمون الشعر التركي - بدفع من هذه الحركة - من التصويرية والسطحية والمظهرية الى خلق بناء تيار من التفكير والمشاعر العميقة عند القارىء .

٤ - تيار الادب الاشتراكي :

حاولت المحاكم التركية طيلة الفتـرة ١٩٥٠ -

(١٨٢) مجلة المجمع اللغوي التركي ، المصدر السابق ، ص ٥٢٨ .

(١٨٣) مجلة المجمع اللغوي التركي : المصدر السابق ، ص ٥٣٠ .

١٩٦٤ منع كتب ودواوين ناظم حكمت والشعراء والكتاب التقدميين : صباح الدين علي ، حسن عز الدين داينمو ، أ . قادر وغيرهم ، من التداول سواء باقامة الدعاوي ضدهم او اتخاذ مجلس الوزراء التركي لقرارات المنع حول هذه الكتب .

وبعد الستينات ظهرت مجموعة من الشعراء اطلق عليهم (شعراء الشعارات)[١٨٤] كان همهم الوحيد فرض انفسهم على الاوساط الشعرية لانهم صاغوا قصائدهم بعجالة وتصنع في مضامين نهلستيه واحيانا تحت تأثير الحركة الشعرية الثانية بل ان بعضهم توسل بالطرق الملتوية لاثبات كونه وريث ناظم حكمت الشعري[١٨٥] . وكان على رأس هؤلاء : آيدين خطيب اوغلو ، آفشار تيموجين ، حسن حسين ، تورغاي كونه نج ، جان يوجل ، انور كوكجه ، كمال اوزر ، ئولكو تامر ، وتكين سونمز غير ان معظم هؤلاء قد تحولوا نحو تيار الادب الاشتراكي ، بل واصبح بعضهم من رواد ادب الواقعية الاشتراكية في الادب التركي .

ويصدر عدد ٣٠ تشرين الاول ١٩٦٤ من مجلة الجبهة (يون) التقدمية التي كان يرأس تحريرها دوغان اوجي وفيها مقال عن ناظم حكمت (الوطني)[١٨٦] وقصيدته الشهيرة (مملكتي ... وطني) فاقام المدعي العام لمحكمة الصحافة الدعوى عليه لنشره قصيدة من كتاب ممنوع بموجب قرار مجلس الوزراء . الا ان عدم نشر القرار المذكور في الجريدة الرسمية ، صدفة ، اسقط الدعوى المذكورة ضده . فكان ذلك بداية الطريق لنشر اشعار ودواوين ناظم حكمت ، في العام نفسه ، مما ادى الى خلق جيل شعري شاب مؤمن بالنضال وبالثورة ، فاتجه معظم شعراء تيار الشعارات نحو تيار الادب الاشتراكي ... وكان الشاعر القروي احمد عارف هو الصوت البارز بين هؤلاء لانه وقف دوما الى جانب الطبقات المسحوقة وضد قوى البغي والعدوان في قصائد قوية ، نابضة بالحياة ، تجلجل مثل اجراس الكنائس لايقاظ النائمين ولمد الضعفاء بالقوة للنضال والتحدي . ولذلك يعد شعر احمد عارف امتدادا لشعر ناظم حكمت كما يعد هو خليفة ناظم حكمت وحامل لوائه في ميدان النضال .

ويقول احمد عارف (١٩٢٥ - ٠٠٠) في قصيدته (في الداخل) :

أتعلم ايها الجدار ؟
والباب الحديدي ،
وايتها النافذة العمياء ؟
وانت ايتها الصورة الحزينة

---

(١٨٤) مجلة المجمع اللغوي التركي : المصدر السابق ، ص ٥٢٨ .

(١٨٥) فقد كتب حسن حسين مقالا في احدى المجلات باسم مستعار ذكر فيه انه (أي حسن حسين) شاعر كبير وبمنزلة ناظم حكمت الشعرية فقوبل عمله هذا ، بعد انكشاف امره باستهجان كافة الاوساط الادبية .

(١٨٦) كانت الصحافة التركية الرجعية وكذلك الاوساط القومية تتهم ناظم حكمت بالخيانة الوطنية بسبب هروبه الى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٠ . وكان هذا المقال تزكية له ودعها لوطنيته .

والمهربة
كالمناشير السرية ،
التي من اجلها ذقت الموت .
هل تعرفين ؟
ان زوار سجني ،
جلبوا لي البصل الاخضر ،

والسكائر المعطرة بالقرنفل ،
هل تعرفين ؟
ان الربيع ...
هلَّ في ربوع وطني .

وخلال فترة ١٩٦٥ - ١٩٧٥ انضمت مجموعة اخرى من الشعراء الى تيار الادب الاشتراكي منهم : آردال آلوفا ، اوزدمير آصاف ، مثين كو وه ن ، نهاد بهرام ، عصمت اوزه ل ، كمال الدين قايا ، اديب جان ، بالاضافة الى اسماء رواد التيارات الشعرية التقدمية في تركيا : أ . قادر ، آتيلا الهان ، جاهد ابرغات ، فاضل حسني داغلارجا ، الهان برك وغيرهم . ويشكل عام ١٩٧٥ نقطة التحول في تيار الادب الاشتراكي في تركيا ... فقد قام الشاعر والاديب التقدمي اتاأول بهرام اوغلو باصدار مجلة المحارب (مليتان) في كانون الثاني ١٩٧٥ التي ابدت اهتماما ملحوظا بقضايا الفكر الاشتراكي ومشاكل الطبقات الكادحة في العالم وثقافات الشعوب . وقد سعت هذه المجلة - من خلال كافة القصائد والابحاث المنشورة فيها - الى تجسيد نضال الشعوب ضد الاستعمار والفاشية ودفاعا عن حريتها واستقلالها .

لقد اثبت الشعر التركي الحديث هويته التقدمية بجدارة في المحافل الادبية العالمية ... وهو يواصل اليوم مسيرته التقدمية بفضل التراث النضالي للشعر التركي ضد الفاشية والتخلف منذ ثلاثينات القرن وارتبط اسمه باسم ناظم حكمت الذي يرتبط تاريخ حياته (١٩٠٢ - ١٩٦٣) بتاريخ تطور الشعر التركي الحديث .

يقول ناظم حكمت في قصيدته (القرن العشرون)[١٨٧] :

- النوم الآن ،
والبقظة بعد مئة عام ، ياحبيبتي
- كلا ،
عصري لا يخفيني
ولست جبانا .
عصري بائس ، مخجل ،
عصري شجاع ،
عظيم وبطل .
انا ام اندم لكوني اتيت هذا العالم مبكرا .
انني من القرن العشرين ،
وانا فخور بذلك ،
يكفيني فخرا ان اكون من القرن العشرين
ومع الرجال الذين هم معنا
لنقاتل في سبيل عالم جديد .
- بعد مائة عام يا حبيبتي

(١٨٧) ابراهيم الداقوقي : رحلة مع ناظم حكمت في وقت غير مناسب ، مجلة الاقلام ، العدد ١ ، السنة التاسعة ، بغداد ص ٢٠ .

- كلا ، قبل ذلك ، ورغم كل شيء ،
رغم الميت والوليد .
ستكون ايامه القادمة ضاحكة
عصري هذا ، القرن العشرون
وليالي المنهزمة امام الحان الشفق
وستكون ايامه برافة يا خديجتي(١٨٨)
مثل عينيك

المبحث الخامس

القصة القصيرة في الادب التركي

يعد عمر سيف الدين اول من طرق باب القصة القصيرة في الادب التركي(١٨٩) ثم يأتي يعقوب قدري الذي تحدث عن الحياة خارج المدن ورفيق خالد الذي طور القصة القصيرة نتيجة صدقه في التعبير . غير ان هؤلاء القصاصين الاوائل كانوا يلهثون وراء اختراع الاحداث بعيدا عن الحياة الحقيقية للناس ، مما كان يؤدي بهم احيانا الى الوقوع في مطبات ووضع عقد مفتعلة للقصص التي كان حلها في احيان كثيرة - امرا مضحكا - كما نشأت في هذه الفترة القصة القصيرة التي تحاكي الحكاية الشعبية بكل مزاياها وتفاصيلها ومن كتابها اوشاق ليكيل وياجين وكوربينار .

غير ان حرب التحرير الشعبية ، والاهوال التي عانى منها الشعب التركي ادى الى ميلاد القصة الواقعية في تركيا ، فكان قراعثمان اوغلو وآديوار ورفيق خالد قاراي . وعندما استقرت الامور ونشأت الجمهورية التركية ، بدأت القصة القصيرة بتناول المشاكل اليومية المعاشة ومسؤوليات العهد الجديد تجاه الانسان التركي ، فكانت قصص صدري ارتم وصمد آغا اوغلو ، غير ان القاص احمد تانينار - اشتهر في هذه الفترة - بقصصه النفسية التي حاول من خلالها الغوص في اعماق النفس البشرية لكشف خفاياها .

لم يلد تيار الواقعية الحديثة في القصة التركية الا بريادة القاص التقدمي صباح الدين علي وادباء الولايات الذين بدأوا بمعالجة مشاكل انسان الاناضول وصراعاته امثال بيلباشار ، الهان كاروس ، صميم قوجاكوز ، سهاك هاليكارناس ، كما استطاع كل من عزيز نسين وخلدون تانر المزج بين الحكاية والنكتة الظريفة في قصص قصيرة استأثرت باهتمام القراء غير ان القصص - في هذه الفترة - لم تكن تثير اهتمام القراء .

غير ان القاص سعيد فائق اتخذ من مشاكله الخاصة وسيلة لتطوير انواع القصص التركية بحيث اصبحت - اي القصة - اداة مؤثرة في المجتمع واصبح هو - اي القاص - متخصصا يكتب القصة القصيرة ليعيش من وراء مكافآتها ، وقد سار على نهجه كل من اوكتاي اقبال وطارق بغرا ونزيهه مريج .

كما ان الشباب الريفي الذين ولدوا في القرى وترعرعوا فيها ، بدأ بكتابة القصص التي - تتحدث

(١٨٨) خديجة : الاسم الاخر لزوجته (بيرايا) .

(١٨٩) رؤوف موطلو آي : المصدر السابق ، ص ٥٣١ .

عن امال والآم سكان الريف التركي وكادحي المزارع والاقطاع - تعد تيارا قويا ومؤثرا في القصة القصيرة التركية وكان على رأس هؤلاء فقير بايقورت - الذي بدأ مؤخرا بكتابة الرواية ايضا - وطالب آبايدين ومحمد باشاران ودورسون اقجام وأميد قافطانجي اوغلو وعثمان شاهين ، كما ان الشابين الكادحين اورخان كمال وبشار كمال استطاعا تصوير حياة الكادحين في قرى الاناضول ومظالم الاقطاع واستغلالهم وجشعهم .

وبعد الحرب العالمية الثانية قام مجموعة من الشباب المتأثر بالادب الغربي بكتابة انماط من القصة القصيرة على نهج ما هو متبع في الغرب وبذلك ضاق اطار القصة التركية القصيرة ، كما انصرف القراء عن قراءة مثل هذه القصص اضافة الى ضياع تلك القصص بين دفات المجلات والصحف اليومية ، ولعل اشهر هؤلاء القصاصين الشباب هم : اوزلو وادكو ودورو وقاياجان واوزيالجينرو اوزقره صو . غير ان ذلك لا يعني بان القصة التركية القصيرة قد فقدت هويتها وشخصيتها المتميزة بعد هذا التيار ، لان ثمة قصاصين آخرين استلهموا قصصهم من حياة الناس وحقائق الحياة التركية وفرضوا كل ذلك بالتجارب الانسانية فكانت قصصهم تمثل بحق حياتهم الخاصة ضمن اطار الحياة التركية العامة . وبذلك استطاعوا التوصل مع القراء في همومهم ومشاغلهم وفي تطلعاتهم وطموحاتهم . بحيث استطاعوا ان يجعلوا من القصة القصيرة حاجة يومية بعد ان اصبحت مرآة لحياة الناس ، كل الناس وكان على رأس هؤلاء طارق دورسون ، محمد سيدا ، محمد بويروقجو ، بكر يلدز وفروزان .

وان معظم القصاصين قد تحولوا فيما بعد - ولا سيما بعد اشتهارهم - الى الرواية كما سنرى .

المبحث السادس

الرواية في الادب التركي

ان رواية (تعشق الطلعه او فطنت) التي ألفها الاديب واللغوي التركي (شمس الدين سامي) وهي تعد رواية تعليمية اخلاقية صدرت عام ١٨٧٢ ، اول رواية في الادب التركي بالمفهوم العام لفن الرواية في القرن التاسع عشر[١٩٠] .

وخلال ١٨٨٥ - ١٩٠٠ ظهرت مجموعة من الروائيين الاتراك المتأثرين بمدارس الطريقة الفرنسية وبالروائيين الفرنسيين لا سيما فيكتور هوغو ، ومن هؤلاء حسين رحمي كوربينار ويعقوب قدري قره عثمان اوغلو وخالده اديب اديوار ورفيق خالد قارامي وبيامي صفا ورشاد نوري وممدوح شوكة اساندال وعبد الحق شناسي حصار ومحمود يساري وسماك هاليكارنارس واحمد حمدي طانبينار وخالد ضيا اوشافليكيل .

(١٩٠) رؤوف موطلوآي : المصدر السابق ، ص ٥٦٢ .

بينما كان روائيو ١٩١٠ - ١٩٢٥ اكثر صدقا من هؤلاء في تصويرهم للواقع التركي مثل صباح الدين علي وكمال طاهر وكمال بيلبشار واورخان كمال وياشار كمال وصميم قوجاكوز ومحمد سيدا والهان طاروس وفقير بايقورت وآتيللا الهان .

ان الادب التركي الذي يمتلك ماضيا عريقا في حقل القصة القصيرة ، بدأ في العهد الجمهوري يمتلك ناصية الرواية ايضا بحيث خرجت الرواية التركية من اطارها المحلي الى الاطار الانساني العالمي بفضل الروائيين العظام امثال كمال طاهر وبشار كمال وعزيز نسين ومحمود مقال وفقير بايقورت وييلماز كونه ي وجيتين آلتان ونزيهه مريج[١٩١] حتى ان روايات بعض هؤلاء الروائيين ترجمت الى اكثر من (٥٠) لغة من لغات العالم ، مثل رواية (قريتنا) لمحمود مقال ورواية (محمد النحيف) ليشار كمال ورواية (الدولة الام) لكمال طاهر و (التعالي) لفقير بايقورت ومعظم روايات عزيز نسين وغيرهم .

●●●

« خاتمة »

اذا كان تيار ادب الديوان الذي نشأ تحت تأثير الثقافة العربية - الاسلامية وبقي كمدرسة ادبية فاعلة في الثقافة التركية طيلة تسعة قرون ، فان الشعر التركي لا يزال يعتمد في اكثر قصائده على الاوزان العربية وعلى بعض اشكال النظم العربي ، رغم المحاولات المستمرة لايجاد البديل عنها .

ولما كانت اللغة تلعب دورا بارزا في سبك قصائد هؤلاء الشعراء كما ان ثمة رابطة قوية بين لغتهم الشعرية وشكل قصائدهم ... فان محاولة تخليص اللغة التركية من الاثر العربي تبدو محاولة غير مجدية لان اللغة العربية ضربت جذورها عميقا في تربة الثقافة التركية ، بل ان بعض الكلمات والالفاظ العربية اكتسبت - بمرور الزمن - معان ودلالات لا يعرفها ابناء اللغة العربية انفسهم : فكلمة (عطف) تعني في اللغة التركية (الاحالة القانونية) وكلمة (ذي اليد) تعني (الحيازة) وكلمة (اختلال) تعني (الانقلاب العسكري) و (القرنة) تعني (حوض الحمام الحجري) و (المحقوف) تعني (المحفور) و (المحرف) تعني (المدار) و (المصال) تعني (الحكاية) و (المزراق) تعني (الرمح) و (المخطره) تعني (المذكرة السياسية) و (المخلص) تعني (الصافي) و (المخبر) تعني (الواشي) و (الناقصة) تعني (العيب او القصور) وال (لا قيد) تعني (عدم الاهتمام) ومئات الكلمات العربية التي دخلت معظمها كاصطلاحات قانونية وسياسية وثقافية في اللغة التركية .

(١٩١) رؤوف موطلو آي : المصدر السابق ، ص ٥٦٤ - ٥٩٠ .

ان الادب التركي - رغم كل المؤثرات الخارجية - استطاع خلال هذا القرن ان يستكمل ملامحه وان يمتلك هويته وذلك بفضل الشعراء والادباء التقدميين ، وهذا مما دعا الشاعر التقدمي فاضل حسني داغلارجا الى القول : « ميزة الشعراء الاتراك انهم ينتقدون انفسهم قبل ان يقوم الآخرون بانتقادهم اضافة الى وعيهم السياسي واللغوي والفني ، ولذلك فانني متفائل في مستقبل الشعر التركي ... » .

كما نال معظم القصاصين والروائيين والاتراك جوائز عالمية عن اعمالهم الادبية المترجمة الى مختلف لغات العالم .

***

درامـــا يـوربيـــدس

دراسة في الفكر الاجتماعي في أثينا القرن الخامس ق.م

حســين الشيخ

من الثلاثة الدراميين العظام في اليونان ، يأتـي يوربيديس في المؤخرة من حيث الترتيب الزمنـي ، وبالرغم من الفترة الزمنية ، القصيرة نوعا ما ، التي تفصله عن ايسخولوس وسوفوكليس ، فهو يبدو كما لو كان نتاجا لجيل آخر وظروف اجتماعية مختلفة ، فقد تعامل ايسخولوس وسوفوكليس الى حد ما ، مع عالم البطولة والأبطال ، في حين أن يوربيديس تبت عينيه دائما على مواطنيه الاثينيين ، فقـد كان عالما مليئـا بنماذج أثينية معاصرة له .

ورغم أن التعليق المستمر على الأحداث يرتبط بالكوميديا أكثر من التراجيديا ، الا أن هذا لا يعني بالضرورة فصل الكاتب التـراجيدي ـ كيوربيديس مثـلا ـ عن أي حدث من الضخامـة بحيث يحس الكاتب بضرورة اتخاذ موقف معين منه .

من هنا يمكن القول أن المفكر أو الأديب لا يكتب فكرا أو أدبا منفصلا عن معطيات مجتمعه ،فهو بحكم تكوينه عنصر مرن يتأثر بمجتمعه ويؤثر فيه ، لذا كان البحـث فيما وراء الموقف الفـكري الــذي اتخـــذه يوربيديس من مجتمعه هو بالضرورة بحثاً في واقـع هذا المجتمع .

من هذا المنطلق أتت فكرة هذه الدراسة ، فهي مزيج من تحليل واقع المجتمـع الاثينـي في القـرن الخامس ق .م ، وموقف يوربيديس الفكري من هذا المجتمع ، أي الشكل الذي حاول الشاعر أن يطوع الواقع الموجود في مجتمعه له ، فلما كانت الدراســات المستفيضة السابقـة ركزت على الأشـكال الفنية في الدراما اليونانية ، لذا كان البحث في المفاهيم العقلية التي تحملها هذه الدراما أمرا مستحبا .

والفكر الاجتماعي هو خطوة نحو تنظير هذا الفكر ، بمعنى أن الواقع الاجتماعي يوجد أولا ، ثم يتحول هذا الواقع الى موقف فكري تجاه الواقع سواء كان رفضا أو ايجابا أو حتى موقفا وسطا ،ثم يرتقى الفكر ليتحول الى نظرية اجتماعية والتي لا تخضع لضرورة تطبيقها ، اذ من الصعوبة بمكان تطبيق النظرية الاجتماعية وتحويلها الى واقع ، عكس ما هو عليه عند تحويل الواقع الى نظرية . وهنا تجدر الاشارة الى أن الواقع الاجتماعي يتحدد بحدود مجتمعة ولا يتعداها ، في حين أن النظرية يمكن أن تنسحب على أكثر من مجتمع ، ولما كنا هنا نتعرض بالدراسة للفكر وليس للواقع ، لذا كانت الاشارات أحيانا تتعدى أثينة في القرن الخامس ق .م لتشمل كل بلادالبونان من الناحية المكانية ، وكل فترات التاريخ اليوناني السابق ليوربيديس من الناحية الزمنية ، باعتبار أن حديث الشاعر ـ أي يوربيديس الذي كتب مسرحياته ككل كتاب الدراما اليونانيين القدماء شعرا ـ عن مجتمع آخر أو فترة زمنية أخرى انما هو مجرد مادة يستخدمها الشاعر ليوضح من خلالها فكره الاجتماعي الذي هو انعكاس للمجتمع الأثيني في الفترة التي عاش فيها .

حياة يوربيديس :

تكاد تجمع أغلب المصادر القديمة على أن يوربيديس قد ولد في جزيرة سلاميس ، في السنة الأولى من الدورة الاوليمبية الخامسة والسبعين ، أي في خريف عام ٤٨٠ ق .م . في نفس اليوم الذي حدثت فيه موقعة سلاميس بين الفرس واليونانيين (Plut., Mor., 717c.; Diog. Laert., 11.45; Vita Eur., 1 — 5)

أما بعض الكتاب المحدثين فقد ذهبوا في تحديد تاريخ ميلاد الشاعر مذاهب مختلفة ، فقد حدده « بيتس Bates بالثاني والعشرين من سبتمبر عام ٤٨٠ ق .م ، أما « مري Murray فيحدده بعام ٤٨٤ ق.م ، في حين أن « هيج Haigh » يحدده بنهاية عام ٤٨٥ ق.م .

وأمام هذا الاختلاف في الرأي بين النقاد المحدثين ، وبين المصادر القديمة نميل الى الأخذ بما جاء في النقش الموجود على « حجر باروس الذي يحدد تاريخ ميلاد الشاعر بين أواخر عام ٤٨٥ ق .م حسب قراءة « Haigh للنقش وأوائل عام ٤٨٤ ق .م حسب قراءة « Murray .وربما كان الأخذ بهذا النقش آمن كثيرا لأنه يقترب من الفترة التي عاش فيها يوربيديس ، فهو يرجع الى العقود الاولى من القرن الثالث ق .م ، على حين أن المصادر الأخرى مثل بلوتارخوس وديوجينيس لا يرتيوس وسيرة الحياة تعود الى القرن الاول الميلادي وتجاوزه أحيانا .

ولد يوربيديس لأبوين من « فلياPhlya (وهي مدينة تقع على الساحل الشرقي لأتيكا) هما منسار / خيديس وكليتو . ويبدو أن والديه كانا على قدر من الثراء والمكانة الاجتماعية ، بالرغم من ادعاء اريستوفانيس (وهو من أشهر كتاب الكوميديا المعاصرين ليوربيديس) القائل بأن أمه كانت بائعة للخضروات والأعشاب . ويدحض هذا الادعاء بعض الشواهد الهامة ، اذ أن يوربيديس في صباه سمح له بالاشتراك في أحد أعياد الإله ابوللون ، وهو امتياز لم يكن يتمتع به الصبية من الطبقات الدنيا ، كما أنه اشتهر بامتلاكه مكتبة خاصة ، في وقت كانت هذه المكتبات من الندرة بحيث يعتبر امتلاكها دليلا

على الثراء ،كما يقال أنه قد دعى الى أداء بعض الخدمات العامة « Leitovrgia » التي كانت تفرض على أثرياء القوم .

وكمعظم شباب الاغريق تدرب يوربيديس على المصارعة والملاكمة ، وبرع فيها ويقال أيضا أنه قد فاز في بعض المباريات ، ومارس الرسم فيا بعد ، ويقال أن بعض لوحات له قد عرضت في ميجارا « Megara ». وربما كان أهم جزء في التعليم الذي تلقاه يوربيديس في صباه هو دراسته للخطابة على يد بعض السوفسطائيين ، والى هذا يمكن أن يعزى حبه للخطابة والبلاغة والجدل ، كما يظهر ذلك بصورة واضحة في أعماله .

ترك يوربيديس أثينه في أخريات أيامه الى « ماجنيسيا Magnesia » ثم رحل الى مقدونيا حيث أقام هناك بدعوة من ملكها أرخيلاوس وظل هناك الى أن مات .أما أسباب ترك يوربيديس لأثينه فلم تعرف بالتحديد ، فيعتقد البعض أن صبر الشاعر العجوز قد نفذ بعد عرض مسرحيته « اوريستيس » عام ٤٠٨ ق .م بقليل ، فانطلق بمحض ارادته الى المنفى بسبب شماتة مواطنيه وسوء طويتهم وحقدهم عليه . أما البعض الآخر فيرى أن السبب هو خلافه مع بعض الشعراء الأقل مرتبة . على أية حال فقد هجر يوربيديس أثينه بعد عام ٤٠٨ ق .م ، ربما للسبب الاول بالاضافة الى اغراء ارخيلاوس ، ومات قبل عرض مسرحية « الضفادع » لاريستوفانيس بقليل في يناير ٤٠٦ ق .م .

توفي يوربيديس في شتاء ٤٠٧ ـ ٤٠٦ ق .م ، بعد أن شهد ستة وعشرين عاما من الحروب القاسية بين أثينه ودول البلوبونيسوس ، وقلبه ملىء بالمرارة للحال التي وصلت اليها بلاد اليونان .

ويقترح العديد من المصادرخاتمة تراجيدية لحياة يوربيديس ، فقد مزقته كلاب صيد الملك أرخيلاوس خطأ ، ويقال بايعاز من بعض خصومه الذين رشوا حراس الكلاب حتي يطلقوها على الشاعر .الا أنه من الممكن ان يكون قد حدث خلط بين خاتمة « بانثيوس » آخر أبطال يوربيديس في مسرحيته الأخيرة « الباخيات » وخاتمته هو شخصيا . ومما يدلل على صحة هذا الرأى ان اريستوفانيس الذى كتب مسرحيته « الضفادع » مباشرة بعد موت يوربيديس لم يشر اطلاقا الى حادث من هذا النوع ، فقد كانت مثل هذه الخاتمة الفريدة في نوعها ـ لو صحت ـ فرصة ذهبية له ليستكمل سخرياته اللاذاعة ضد يوربيديس .

أما أقرب الآراء الى الصواب وأبسطها فربما كان رأى « ادايوس Addaeus » وهو شاعر من القرن الرابع ق.م ومؤلف Epigram عن يوربيديس ، والذى قال أن يوربيديس مات لكبر سنه (Add., VII.51; Greek Amthology, Loeb, Voi. 11.) ورغم بساطة هذا الرأى وبعده عن كل ما يحاك عادة حول موت العظماء نميل الى الاخذ به حتى يظهر ما يثبت العكس .

هذه الروايات والآراء المتعددة حول مولد الشاعر تبرز حقيقة واضحة هى اهتمام المصادر القديمة به (سواء تعضيدا أو خدما لما أنجزه) . وفي هذا اعتراف ضمنى بمدى أثر أفكاره التي ضمنها اعماله الدرامية على مجتمعه الذى عايشه . ويؤكد هذا العدد الهائل من الاقتباسات المأخوذة عنه التى وجدت في المصادر القديمة ابتداء من معاصريه وحتى بدء انتشار المسيحية في العالم الغربى والشرقى على السواء ، وقد

استمرت هذه الاقتباسات حتى دراما القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في فرنسا والمانيا (ابان حركة احياء التراث الكلاسيكى) والتى بدأت باحياء الدراما عن طريق مسرح الأسرار الكنسى في القرون الوسطى .

أما عن طبيعة شخصية يوربيديس فيبدو أن أغلب المصادر القديمة قد أجمعت على أنه كان شخصا محبا للعزلة والتأمل ، وقد وجدت قصة تقليدية تحكى عنه من أنه لجأ الى كهف مطل على البحر في سلاميس ، حيث كان يقضي أياما طويلة في عزلة تامة ليتأمل ويكتب (Satyrus. 39. IX. 4 — 32; Hunt, ox. pap., Vol. ix) ومما لاشك فيه أن لشعراء الكوميديا وخاصة اريستوفانيس يد طولى في تشويه الصورة التى وصلتنا عن يوربيديس ، سواء عن عمد أو بغير قصد ، وربما كان هذا راجعا الى التصور المسبق لدى شعراء الكوميديا عن شخصيات الفلاسفة ، وما يبعثة يوربيديس من شعور عام بأنه أقرب الى الفلاسفة منه الى شعراء الدراما . وقد رسمت المصادر القديمة لشاعرنا صورة قاتمة ، فهو عابس دائما ، لايكاد يعرف الابتسام حتى وهو يحتسى نبيذه ، كاره للنساء ، جاد الملامح ، قاسى النظرات ، ذو شعر رمادى مرسل ولحية كثة ووجهه ملىء بالتجاعيد .

هذه الصورة القاتمة لاتتفق في كثير من جوانبها مع ما وصلنا من دلائل على أنه كان متواضعا حلو المعشر ، على خلق كريم ، ورفيق بأصدقائه .

الا أن المتعرض بالتحليل لشخصية يوربيديس لا يمكنه إغفال جانب التشاؤم الذي ظهر في العديد من أعماله . هذا التشاؤم والسوداوية وان لم يكونا مهيمنين على كل أعمال الشاعر ، الا أنهما يظهران في العديد منها ، وهو شيء ليس بمستغرب من رجل خبر الطبيعة البشرية ودرسها وصورها كما هي ، لا كما فعل سلفاه ايسخولوس وسوفوكليس اللذان صورا البشر كما يجب أن يكونوا ، وان كان هذا القول لا ينطبق تماما على أعمال سوفوكليس . (Aristot., Poetics, 1460 B., 33— 34.) ففكرة الموت كثيرا ما تظهر بالحاح في أعمال يوربيديس ، ولنأخذ مثلا من مسرحيته المفقودة « فريكسوس » والتي يقول فيها :

(من الذي يعرف ما اذا كان هذا الشيء الذي ندعوه الموت
هو الحياة ...
وأن حياتنا هي الموت بعينه ...
من يعرف ...
ما عدا أننا تحت الشمس نعيش
مرضى ، ونعاني ، وأن هؤلاء الذين ذهبوا عنا
لبسوا بمرضى ، ولن يصابوا بضر أبدا .)

Nauck, T. G. f. Apud Murray, Eur. his Age, pp. 192—193

هذه السطور السابقة تجرنا الى ما قاله فتروفيوس عن يوربيديس حين وصفه قائلا : « يوربيديس .. هو من أسماه الاثينيون بفيلسوف المسرح » (Vitruvius, VIII. 1.) وعلى ما يبدو فان العديد من المصادر القديمة قد أكدت علاقة يوربيديس بالسوفسطائيين ، وسواء أكانت هذه العلاقة هي علاقة التلميذ بأساتذته ، أو الصديق بأصدقائه ، فان الروح السوفسطائية تظهر في أعمال يوربيديس بشكل يدعو الى تأكيد العلاقة بينه

وبينهم ، ومن ثم تصبح مسألة تأثره بهم مطروحة ، وتتمثل هذه الروح في مظهرين ربما جاز تصنيفهما على النحو التالي :

١ ـ ميل الشاعر نحو الخطابة البليغة المؤثرة في النفوس ، وهذا الاتجاه وان كان اتجاها طبيعيا في مجتمع أحب وشجع الخطابة والجدل ، الا أنه اشتد وقوي بعد ظهور طائفة السوفسطائيين المتخصصين في تدريس هذا الفن ، فيظهر عند يوربيديس الميل الى الخطابة واستعمال الاسلوب السلس عذب الالفاظ ، لدرجة قد تهدد أحيانا البناء الدرامي لبعض أعماله . وفي هذا المجال فرغم أننا لسنا بصدد نقد أعمال يوربيديس الا أن دخول بعض الرسل في أعماله وخطبهم التي قد تطول فتصل أحيانا الى المائة سطر من الشعر ، هو مما يضعف الخط الدرامي الصاعد ويحد من تدفقه ، ويهدد تعاطف المشاهد مع الحدث الذي يجري أمامه . (Quintilianus, X. 1. 670 Sq)

٢ ـ جنوح يوربيديس الواضح نحو استعراض العديد من الموضوعات الفلسفية والاخلاقية والسياسية وأحيانا العلمية في ثنايا مسرحياته ، حتى ولو كان الخط الدرامي في المسرحية غير مهيأ لذلك ، فيبرز شبح الشاعر أحيانا على مسرح الحوادث ليتكلم من وراء شخصياته ، ويناقش ويجادل ويقرع الحجة بالحجة . (Aristophanes, Ran., 948 Sq.

هذان الاتجاهان الواضحان في أعمال يوربيديس ، لا يمكن تصنيفهما على أنهما مجرد أخطاء درامية وقع فيها الكاتب ، لأنهما يظهران في أعماله القوية والاقل قوة على حد سواء ، وبهذا يكون الاتجاهان متعمدين ، أو على أقل تقدير نتيجة تأثر بالسوفسطائيين ولو حتى بطريق غير مباشر .

وفي الواقع يتكرر ذكر علاقة يوربيديس بالسوفسطائيين في مصادر عديدة الا أن طبيعة هذه العلاقة ليست محددة في كل الاحوال ، كما أن أثرها يختلف في عمقه من حالة الى أخرى ، وفي هذا المجال نستطيع أن نذكر أن أناكساجوراس وبروتاجوراس (وهما أشهر سوفسطائيي القرن الخامس ق .م) كانا يكبران يوربيديس سنا ، ولذا فمن المحتمل أن يكون قد درس على يد أحدهما ، او كليهما معا . اما بروديكوس وسقراط فقد كانا يصغرانه في السن ، ولذا فمن المستبعد أن يكون قد درس على يد أحدهما .

أما عن أعمال يوربيديس المسرحية فيبدو أن أول ظهور له في مسابقات الدراما اليونانية كان في عام ٤٥٥ ق .م عندما كان في حوالي الثلاثين من عمره بمسرحية بيلياديس (التي فقدت فيما بعد) والتي حصل بها على الجائزة الثالثة . وبالرغم من أن يوربيديس كان كاتبا خصبا غزير الانتاج ، الا أنه من الصعوبة بمكان تحديد عدد مسرحياته بدقة . فقد تراوح العدد بين خمس وسبعين وأثنتين وتسعين مسرحية ، الا أنه يبدو أن العدد ٧٥ أقل من العدد الاصلي ، فحتى الوقت الذي كتبت فيه سيرة حياة يوربيديس Vita كانت توجد ٧٨ مسرحية معروفة له ، لذا فمن المحتمل أن العدد ٩٢ هو الأقرب الى الصحة .

وكان يوربيديس على ما يبدو سيء الحظ في مباريات الدراما اليونانية ، فلم يحرز سوى خمسة

انتصارات ، واحد منها بعد وفاته عندما قدم ابنه او ابن أخ له بعض مسرحياته . ويمكن تفسير هذا بأن الشاعر كان سابقا لعصره في التحرر الفكري عند الحديث عن القيم الأخلاقية والدين والسياسة ، مما لم يكن مقبولا تماما من جمهرة الشعب العادي ، والذين كانوا في الحقيقة يشكلون الحَكَمَ الأول في هذه المباريات .

ومن بين الاثنتين وتسعين مسرحية التي كتبها يوربيديس بقيت ١٩ مسرحية تتناول العديد من الموضوعات ، كالحرب والسلام والدين ، والعواطف المختلفة كالحب والغيرة والكراهية والانتقام ، كما أمكن جمع بعض المعلومات عن ٥٥ مسرحية مفقودة . ومن التسع عشرة مسرحية الباقية أمكن تحديد تاريخ تسع مسرحيات هي :

الكستيس ٤٣٨ ق .م ، ميديا ٤٣١ ق .م ، هيبولوتوس ٤٢٨ ق .م ،
الطرواديات ٤١٥ ق .م ،هيلين ٤١٢ ق .م ، اوريستيس ٤٠٨ ق .م ،
الفينيقيات ٤٠٧ ق .م ، الباخيات ٤٠٦ ق .م ، افيجينيا في أوليس ٤٠٦ ق .م .أما العشرة أعمال التي لم يتأكد تاريخها باستثناء « ريسوس » فهي :

ابناء هيراكليس حوالي ٤٣٠ ـ ٤٢٩ ق .م ، هيكابي حوالي ٤٢٥ ق .م ، اللاجئات حوالي ٤٢٠ ق .م ، اندروماخي حوالي ٤١٩ ق .م ، جنون هيراكليس حوالي ٤١٦ ق .م ، اليكترا حوالي ٤١٣ ق .م ، أيون حوالي ٤٢٤ ق .م أو بعد ٤١٢ ق .م ، افيجينيا بين التاوريين حوالي ٤١٢ ق .م . أما « الكيكلوبس » فمن الصعب تحديد تاريخ لعرضها لأنها لا تحوي أي شواهد تساعد في هذا .

وقد حاول يوربيديس كشاعر نشأ في ظل اثنين من عمالقة الدراما اليونانية هما ايسخولوس وسوفوكليس ، أن يطور ويبتكر في أشكال مسرحياته حتى يضمن التأثير التعليمي المطلوب عند عرضها ، من هنا استعمل الشاعر بكثرة المقدمات المعروفة باسم « البرولوج » ، والحيلة المعروفة باسم « الاله من الآلة » ،والمناظر والملابس التي تتوافق مع موضوعات مسرحياته حتى وان تعارضت مع ما عرف عن فخامة المناظر والملابس المعهودة في التراجيديا اليونانية ، بالاضافة الى أنه وظف الجوقة لخدمة موضوعاته الدرامية حتى لا تصبح عبئا مفروضا عليه ، وفي سبيل هذا لم يتردد في تقسيمها الى قسمين ، أو اضافة جوقة أخرى في بعض الأحيان .

كما أنه لم يتردد في محاولة تطويع التراجيديا (ربما لخدمة أهدافه في التأثير على مشاهديه) بإضافة بعض اللمسات الكوميدية لها . فيشكل أحد أعماله المتقدمة ـ الكستيس ـ دلالة على محاولته المستمرة في تجديد روح الدراما الاغريقية ، فهي كما يعتقد بعض النقاد المثل الذي وصلنا مما يمكن اطلاق لفظ تراجيكو كوميدي **Tragi — Comedy** عليه . كما يمكن القول أن يوربيديس يعتبر صاحب فضل كبير على الكوميديا الحديثة التي اكتملت صورتها في أعمال « ميناندروس » ، ففي أحد أعماله المتأخرة « أيون » ، يظهر العديد من الحوادث والمواقف التي تميزت بها الكوميديا الحديثة ، من اغتصاب للعذارى ، والتخلي عن الأطفال ، ثم التعرف عليهم بعد ذلك بواسطة العقود والخواتم وغيرها من وسائل التعرف .

وبالرغم من عدد الانتصارات المحدودة التي ظفر بها يوربيديس خلال حياته وبعد موته ـ والتي لم تتعد

خمسة انتصارات - في مباريات الدراما الاغـريقية ، فمن الواضح أن شهرته قد بدأت في الازدياد خلال الفترة الاخيرة من القرن الخامس ق .م ، واستمرت على ما يبدو حتى ما بعد القرن الثانـي الميلادي ، ووصل تأثيره على اللاحقين له من شعراء الدراما الى حد أن قال « فيلمون » أحد شعـراء الـكوميديا في القرن الرابع ق .م : « لو كنت متـأكدا أن للموتـى شعورا ، لشنقت نفسي . حتى أرى يوربيديس » . Vita Eur., 109 — 113 ويقـال أن « الاسكندر الأكبر » كان يحفـظ أشعـار يوربيديس ويستشهد بها ، وفي المأدبة التي سبقت موته ، أنشد من الـذاكرة مشهـدا كامـلا من مسرحية « أندروميدا »للشاعر . ويبدو أن « اكسيدو نيكوس » وهو أحد شعراء الكوميديا من القرن الرابع ق .م ، قد أستهواه الموضوع ، فكتب مسرحية تسمى « محب يوربيديس Phileuripides » ، صور فيهـا روح التعصب للشاعر الذي اعتبر اليونانيون - في القرن الرابع ق .م - أن أشعاره هي الأفضل دائما ، ومـا عداها فهو حماقة كبرى .

هكذا كان يوربيديس شاعرا متحررا ، تعليميا ، مجددا في أفكاره وأشكال مسرحياتـه ، ممـا لم يكن يتلائم مع المزاج التقليدي لشعراء القرنـين الخـامس والرابع ق م وخاصه شعراء الـكوميديا وعلى رأسهـم اريستوفانيس . فكان اريستوفانيس دائم الاشارة الى يوربيديس في كوميدياته ، فمن بين أعمالـه الأحـد عشر التي توجد ثلاثة أعمال تلعب فيهـا شخصية يوربيديس دورا رئيسيا هي : (المحتفـلات بعيد تسموفوريا - أهل أخارناي - الضفادع) بالاضافة للعديد من اعماله الاخرى التى امتلأت بالاشارات والتلميحـات الصريحة أو غـير المبـاشرة للشاعـر التراجيدي . ومن الصعب تحديد طبيعة العلاقة بـين الشاعرين ، وأسباب هجـوم اريستوفـانيس المستمـر على يوربيديس ، الا أنه من الممكن استنتاج سببين رئيسيين ربما برراهذا الموقف :

١ - طبيعة اريستوفانيس التقليدية المحافظة ، وعدم تقبله للجديـد من طرق التعليم والاساليـب الجديدة في معالجة الدراما اليونانية ، ونظرته للشاعـر الـدرامـي كمعلـم لعامـــة الشعب . Aristoph ., Ran ., 1005 — 1016 ,) . (Acharn ., 464

٢ - من الطبيعي أن أي كاتب كوميدي يحاول دائما أن يعالج أكثر الموضوعات والشخصيات ذيوعا وانتشـارا في عصره ، فلا يقـدم الكاتـب عادة على التعرض لموضوع غامض أو غير معـروف لجمهـوره حتى لا يفقد عمله فرصـة الانتشار .وبـذا أصبـح يوربيديس (الذي كان في وقت نضوج اريستوفانيس الفني من أكثر شعراء التراجيديا اليونانية انتشارا) ، موضوعا محببا لكوميديي القرن الخامس والرابع ق. م وخاصــة اريستوفـانيس . الا أن هذا الموقف من اريستوفـانيس لم يكن يعنـي أنـه لا يقـدر قيمـة يوربيديس ككاتب درامي ، فهجومـه المستمـر يبـرز حقيقة واضحة ، وهـي أنـه كان ملما تماما بأشعـار يوربيديس دارسا لها ، مما يبرراحتال أنه كان يتذوق هذه الاشعار ، برغم اختلافه مع صاحبها في الافكار وحتـى في « الضفـادع » التـي تبـدو وكأنهـا أكثـر مسرحيات اريستوفـانيس نقـدا ليوربيديس ، فان الفكرة الأساسية فيها أنه لا يوجد من بين كل شعراء التراجيديا الباقين على قيد الحياة - في ذلك الوقت - من يستحـق أن ينـال شرف منافسـة ايسخولـوس

وسوفوكليس. هذا بالاضافة الى العديد من الصفات التي أسبغها اريستوفانيس على يوربيديس في ثنايا المسرحية ، من أنه : « شاعر صادق أصيل » ، « شاعر خلاق مبدع ينطق بأشياء مبهرة » .

وحتى نهاية المسرحية يواجه ديونيسوس صعوبة شديدة في الاختيار بين ايسخولوس ويوربيديس ، وهو في النهاية حينما يختار ايسخولوس ، انما يختاره على أساس حنينه للماضي البعيد ، لكنه في نفس الوقت لا ينكر مقدرة يوربيديس وتمكنه من فنه :

ديونيسوس : الاثنان أصدقاء لي ، ولا أستطيع أن
أفاضل بينهما ، ولا أرغب أن اكتسب عداوة
أحدهما ، أحدهما حكيم ،
والاخر يبهجني كثيرا .
(Aristoph ., Ran ., 1411 — 1413)

يوربيديس ونظم التعليم في المجتمع الاثيني :

بالرغم من الشكل المثالي لنظام التعليم الاثيني الذي وزع الاهتمام بين تنمية القدرات الجسمية والعقلية للشاب ، الا أن تطبيق هذا النظام في الواقع ربما ركز على الناحية العملية (أي تكوين الجسم عن طريق الرياضات المختلفة من مصارعة وملاكمة ، الى الجري ورمي القرص وغيرها) ، وبهذا يكون قد جار نوعا ما على التكوين العقلي للشباب . ويظهر هذا عند الفنانين الاغريق ـ ابتداء من العصر الارضي حتي العصر الكلاسيكي ، وربما تجاوزه ـ في عناصر النحت الدائري والمعماري التي ركز فيها الفنان على المقاييس والنسب الجمالية للجسم البشري ـ والتي بلغت حد الكمال عند بوليكليتوس في تمثاله الدوريفوروس أو القانون ـ وهو بهذا (أي الفنان الاغريقي) كان يعكس فكرا سائدا في مجتمعه حول الكيفية التي يجب أن يكون عليها الجسم البشري من كمال ونسب رياضية مضبوطة،وبالضرورة ينسحب هذا الفكر على تكوينات المعمار والتصوير والفخار ، وحتى في الأدب نجد أن وصف الشخصيات كان يؤكد غالبا على خواصها الجسمية قبل مميزاتها العقلية ، كأخيليس السريع القدمين عند هوميروس . ولهذا يمكن القول أن الاغريق ـ والاثينيين بالطبع ـ ركزوا على التكوين الرياضي للجسم البشري ، وبهذا فقد أعطوا للرياضة نصيبا كبيرا في برامج التعليم تفوق ما حظيت به الموسيقى او الشعر او القراءة .

مثل هذا الوضع الاجتماعي كان ولا بد أن يشد انتباه كاتب في حجم يوربيديس ، الذي كان انعكاسا صادقا لما يشغل مجتمعه من جهة ، ومن جهة أخرى كانت صفاته التأملية والتعليمية حافزا له ليتخذ موقفا مباشرا ، واضحا وصريحا ، نحو نظام التعليم المعنى باخراج طائفة من الرياضيين أولا ، فيقول في مسرحيته المفقودة « أوتوليكوس » :

(من بين كل الشرور العديدة التي تزعج اليونان ، لا يوجد ما هو أسوأ من جماعة الرياضيين .

أولا هم لم يتعلموا كيف يحيون بطريقة صحيحة ، وحتى لو أرادوا فهم لا يستطيعون . حقا ، كيف يمكن عندما يكون الرجل عبدا لفكه وضحية لمعدته ، أن يكسب من الثروة ما يزيد عما جمعه والده ؟ ثانيا هم لا يستطيعون تحمل الفقر ، او

تكييف أنفسهم مع الشدائد معتادين كما هم على عادات دنيئة ، فهم يجدون أنه من الصعوبة تغييرها عندما تأتي الشدائد .

في ريعان شبابهم يأتون ويذهبون ، العظماء ، أحباب المدينة ، لكن عندما تسقط عليهم الشيخوخة المرة ،

يختفون بملابس ممزقة فقدت وبرها .)

Eur ., Autoiycos ,Apud Attenaeus , 413 c. Seq .، والشاعر هنا يهاجم التعليم الرياضي - كما يبدو - ممثلا في طائفة الرياضيين مركزا على عدم جدوى الرياضة في تكوين الأخلاق الفاضلة التي تساعد الانسان على التغلب على الشدائد وتحفظ عليه شيخوخته حتى لاتكون فائدته مرهونة بشبابه ، فاذا ولى الشباب أصبح غير ذي قيمة ، بالاضافة الى أن هذا التعليم لايعلم الانسان كيف يحيا بطريقة صحيحة فيجعله عبدا لشهواته الجسمية .

ويستمر يوربيديس في هجومه على التعليم الرياضي والرياضيين رافضا التكريم الذي يحظون به فيقول :

(لا أستطيع أن أقر عادة اليونانيين الذين من أجل خاطر هؤلاء الرجال ، يعقدون اجتماعا ، ويكرمونهم لأجل لذات غير ذات فائدة . حتى يزيدوا اعيادهم عظمة .) (Ibid , Loc . Cit .) ثم ينتقل الشاعر الى مناقشة مدى انتفاع الدولة بمثل هذا النوع من التعليم فيقرر أن الرياضة والرياضيين لن يفيدوا وطنهم بأي شيء فهم مجرد مظهر لمجد زائل :

(أي عون يستطيع رجل حصل على تاج للمصارعة الجيدة أن يقدمه لوطنه ؟ أو رجل ذو أقدام سريعة ، او من يرمي القرص ، يسدد ضربة محكمة الى الفك ؟ هل سيقاتلون العدو بالقرص في أيديهم ، او بدون درع سيضربون بقبضاتهم ، ويلقون بالعدو خارج أراضيهم ؟) (Ibid , 413 Csq) وهو هنا يسخر منهم سخرية مرة حين يتساءل هل سيدافع هؤلاء ممن تلقوا تعليما رياضيا رفيع المستوى عن وطنهم برمي القرص او الملاكمة او الجري أو المصارعة . ثم يصدر كلامه القاطع عليهم بعدم جدوى تدريباتهم الرياضية حين تستدعيهم الدولة للدفاع عنها حين يقول :

(لا يوجد رجل يقترف مثل هذه الحماقات ، حين يقف ملاصقا للمعدن البارد .) (Ibid, 413c Sq) ولم يقتصر موقف يوربيديس على مهاجمة نظم التعليم السائدة ، وانما طرح البديل الافضل (في رأيه) والذي يتمثل في التركيز على تنمية قدرات الشباب العقلية بدلا من قدراتهم الجسمية ، وتعليمهم الحكمة والبلاغة التي تقودهم الى الفضيلة والعدالة حتى يكونوا ذوي فائدة لوطنهم ولكل بلاد اليونان فيقول :

(أعتقد أنه من المناسب ، أننا يجب أن نتوج بالاغصان الرجال الحكماء والخيرين ، وأيضا من يوجه الدولة الى الخير ، الرجل الرزين والعادل ، وأيضا من يستطيع منع الاعمال الشريرة ببلاغته ، ويبعد القتال والشغب .لأن مثل هذه الصفات هي التي تصلح لكل المدينة ولكل اليونان .) (Ibid, 413c Sq.) ويعود يوبيديس ليؤكد - بوضوح تام هذه المرة - في مسرحيته « هيكابي » أهمية تدريس علوم البلاغة والجدل والاقناع للبشر فيقول :

(لماذا بحق ، نجتهد نحن البشر في تعلم كل المهارات الأخرى ، كما يجب ، ونسعى لتملك ناصيتها ، (وفيما يخص) فن الاقناع ، سلطان البشر بلا منازع ، فاننا لا نبذل الجهد ، ولا ندفع اجورا كي نتعلم هذا العلم تعلما متقنا ، حتى يمكن أن نثني العقول ، وننجح في تحقيق ما نبغي ايضا . اذن كيف يمكن للانسان أن يأمل في النجاح .) (Eur., Hec., 814 — 820) والاشارة هنا عن التعليم بأجر لابد وأنها تعني السوفسطائيين ، وهي بهذا موافقة ضمنية على طريقتهم في التعليم .

وقد يبدو يوربيديس بموقفه الفكري هذا تجاه التعليم مختلفا مع الواقع الاجتماعي السائد في أثينة ، الا أن هذا الاختلاف اذا أمعنا النظر فيه يبدو ظاهريا فقط ، ففي الحقيقة لم يكن يوربيديس الا داعية لتطبيق نظام مثالي في التعليم ، هذا النظام المثالي كان موجودا فعلا (ونعني به التوازن في تنمية قدرات الجسم والعقل معا) ، في المجتمع الاثيني ، الا أن التطبيق الفعلي له ـ وكتطبيق أي نظام مثالي ـ انجرف الى ناحية معينة ، هي تنمية القدرات الجسمية ، على حساب الناحية الأخرى ، أي القدرات العقلية ، وبمعنى آخر يمكن القول أن الشاعر دعا الى تصحيح مسار التعليم حتى يعود به الى مثاليته المفترض تواجدها فيه .

يوربيديس والمرأة :

يقول بولوميستور في « هيكابي » مخاطبا أجاممنون :

(اذا كان أي من الرجال السابقين ، قد تحدث بسوء عن النساء ، أو يفعل هذا الآن ، اوسيفعله فيما بعد ، فكل هذا أعبر عنه أنا بكلمة مختصرة :

فلا الارض او ابحر اخرجت مثل هذا الجنس المفسد ، ويعرف هذا جيدا من يتعامل معهن . (Eur ., Hec ., 1178 — 1182) ويردد هيبولوتوس هذا المعنى في المسرحية التي حملت نفس الاسم ، فيقول :

(أيها الاله زيوس ، أمن أجل شقاء الرجال ، وضعت النساء ، هذا الشر المزين ، ليستقروا حيث تشرق الشمس ؟) (Eur., Hipp., 616 — 17) ثم يعود ليقول :

(ومن هذا يبدو واضحا ، أي لعنة هي المرأة ، حتى أن أباها الذي انجبها ورعاها ، حتى ينهي متاعبه ، يضيف عليها بائنة حتى يتخلص منها) (Ibid , 627 — 629)

هذه السطور تبدو كما لو كانت هجوما متعمدا من يوربيديس على جنس النساء بأجمعه ، ويعتقد البعض أن هذه العداوة ترجع لفشله في حياته الزوجية . ويقال أن يوربيديس قد تزوج مرتين ، الأولى من « مليتو »والثانية من « ضويريلي » ، وأنجب ثلاثة أبناء ، هم منسارخيديس التاجر ، ومينسولوخوس الممثل ، ويوربيديس الاصغر الشاعر . (Vita , 28 — 32 .) .

وتستمر القصة التقليدية حول حياة يوربيديس الزوجية لتؤكد أنه قد كتب مسرحية هيبولوتوس التي هاجم فيها النساء بعد اكتشافه لخيانة زوجته الاولى ، ثم حين فجع في زوجته الثانية التي خانته مع عبده كفيسوفون ، انطلق يهاجم جنس النساء بأكمله ، حتى اجتمعت نساء أثينا وقررن قتله للتخلص منه ، ولم ينقذه منهن الا موهبته الشعرية وتعهده لهن بعدم العودة لمهاجمتهن ثانية .

على أن افتقار كل هذه القصص عن حياة الشاعر الزوجية للسند التاريخي القوى يجعل من السهل التشكيك فيها ، فيبدو أن يوربيديس قد عاش في وئام مع زوجته وعبده كفيسوفون حتى آخر أيامه . (Aristoph., Ran., 1407 — 1409) وبالاضافة الى ذلك فلو كان لأي من هذه القصص ـ عن خيانات زوجاته المتكررة ـ نصيب من الصحة ، لما توانى شعراء الكوميديا ، وخاصة اريستوفانيس الذي طالما سخر من يوربيديس وأمه ، عن استغلالها كمادة دسمة لسخرياتهم اللاذعة .

وبانتفاء الدافع الشخصي وراء كراهية يوربيديس ـ المفترضة ـ للنساء ينهدم ركن أساسي من أركان الاتهام ، وهنا يبرز لنا سؤال : هل كان يوربيديس عدواً للمرأة حقا ؟ والاجابة على هذا السؤال لاتهمنا بالقدر الذي يجعلنا نحاول التوصل الى حكم ما حول المشكلة ، فما يهمنا فعلا هو الموقف الذي اتخذه الشاعر من وضع المرأة كجزء من المجتمع الذي يعايشه والذي ربما حمل في طياته الاجابة على السؤال السابق .

وقبل تحليل موقف الشاعر الفكري من المرأة (وهو في مضمونه موقف نظري) وحقوقها وواجباتها في المجتمع الاثيني ، تجدر الاشارة الى الوضع الفعلي الذي تمتعت به المرأة في هذا المجتمع ، حتى يمكن المقارنة بين الفكر والواقع ومدى اختلافها أو تلاقيها .

كانت المرأة الأثينية تمضي حياتها منعزلة داخل بيتها تمارس مهامها المنزلية لا تخرج الا نادرا ، غير متعلمة في الغالب ، تحتل منزلة أدنى من الرجل الذي نظر اليها لا كرفيقه تشاركه حياته وانما كمدبرة منزل وراعية للاطفال ، لا تتعامل مع المجتمع الخارجي الا من خلال رجلها سواء كان زوجا أو وصيا أو ابنا ، وفي أضيق الحدود الممكنة .

وفي محاولة لبحث أسباب هذه العزلة التي فرضها المجتمع الأثيني على نسائه ، (وهو بالضرورة مجتمع رجال) لا بد من الاشارة الى أن الرجل الأثيني لم يكن رجل عائلة ، فقد كان يقضي أغلب أوقاته خارج بيته ـ ومع التحرر الأخلاقي النسبي الذي اتسم به الأثينيون ـ كان هذا الرجل واعيا تماما بأخطار خروج المرأة الى الحياة العامة بما فيها من اجتماع سهل لا تؤمن عواقبه مع الرجال ـ كما أن النظرة التجارية التي سادت المجتمع الأثيني بعد التجارة ، ربما أدت بالرجل الاثيني الى أن ينظر للمرأة نظرة نفعية ، فقد كانت ترعى شئونه الداخلية في المنزل وتنظمها وبهذا تفرغ هو لعمله خارج بيته . ودعم كل هذه الأسباب صغر سن الزوجة الاثينية بالنسبة لزوجها مما أخضعها تماما له والذي كان يفوقها سنا وعلما ، وجعله هذا قادرا على توجيهها كيفما شاء . لكن كل هذا لا ينفي أن المرأة الاثينية أخذت تدريجيا ـ وان كان ببطء ـ خلال القرنين الخامس والرابع ق .م ، تشغل بال مفكري وشعراء اليونان ، وليس أدل على ذلك من كثرة الشخصيات النسائية المتنوعة عند سوفوكليس ويوربيديس بمشاكلها المختلفة وعواطفها الجياشة ، وحتى الشخصيات النسائية التي اتسمت نوعا ما بطابع القيادة ـ برغم ما فيها من ملامح كاريكاتورية ـ عند اريستوفانيس ، مثل براكساجورا في مسرحية «النساء في الاكليزيا»، وليسستراتا في المسرحية التي

حملت نفس الاسم . هذا الاتجاه البطيء كان لا بد أن يؤدي في النهاية الى فكر آخر يتعامل مع المرأة بنظرة تختلف عن تلك النظرة التقليدية السابقة .

يلخص يوربيديس مشكلة وضع المرأة الاجتماعي الادنى من الرجل الاثيني على لسان فايدرا في مسرحيته « هيبولوتوس » في منولج طويل توضح فيه فايدرا أن الشق الأول من هذه المشكلة يتمثل في التواضع الزائد للمرأة الأثينية (أو الصغار) والذي يجعلها غير مناسبة لأي شيء عدا بيتها ، اما الشق الثاني فهو الخوف الدائم مما قد يقوله الرجل أو يفعله ، وهذا الخوف هو الذي يمنع المرأة من عمل ما تظن أنه صواب . هذا الخطأ أو الاحساس الذي لازم المرأة الاثينية تعترف به فايدرا نفسها حين تقول :

(لقد تعلمت أن أعرف جيدا أنني لست الا امرأة ، شيءلا يكترث به العالم) (Eur ., Hipp ., 406 — 407)وفيما بعد كررت افيجينيا نفس المعنى حين قالت في « افيجينيا بين التاوريين » :

ان فقدان رجل لهو شيء تشعر به أسرته تماما ، بينما فقدان المرأة شيء غير ذي بال .)
(Eur., Iph. Taur., 1005—1006)
وتعود لتكرره بطريقة أخرى في « افيجيبا في أوليس » حين يقول :

(ليس من الحق أن يدخل هذا الرجل (أخيلبس) في قتال مع كل الارجوسيين ، او يقتل من أجل امرأة ، فمن الافضل أن يرى رجل واحد الضوء ، عن عشرة آلاف امرأة (Wue ., Iph . Aut ., 1392—94)وبهذا يكون يوربيديس قد وضع اصبعه على موطن الداء في مشكلة وضع المرأة الاثينية الاجتماعي وهو : النظرة المستمرة لها على أنها مخلوق أدنى منزلة من الرجل . هذه النظرة أدت بالضرورة الى مظهرين آخرين من مظاهر حياتها وهما : عزلتها المستمرة داخل بيتها ، ثم عدم قدرتها على اختيار الزوج المناسب لها . ويلخص يوربيديس أيضا هذين المظهرين على لسان « ميديا » في المسرحية التي حملت نفس الاسم قائلا :

(من بين كل المخلوقات التي تنعم بالحياة والشعور ، فنحن النساء أتعس هذه المخلوقات ، أولا يجب أن نشتري لانفسنا زوجا بسعر باهظ ، وعلى أنفسنا ننصب سيدا ، وهو شر يفوق الشر الأول ، وهنا تكمن النتيجة الاكثر خطرا ، هل سيكون الاختيار صالحا أو سيئا ، فالطلاق هو شيء مشين للمرأة ، ولا يمكننا أن نرفض سادتنا « أزواجنا »)
(Eur., Med., 230 — 237)

والدعوة هنا لأن تكون للمرأة الحرية في اختيار زوجها واضحة صريحة ، ويجدر هنا ذكر أن يوربيديس لم يكن أول من نادى باعطاء هذا الحق للمرأة ، فقد سبقه ايسخولوس في ذلك ، في مسرحية « اللاجئات » والتي تدور أساسا حول رفض بنات داناؤوس الزواج من أبناء عمهن ايجيبتوس ، ولجوئهن الى أرجوس مستجيرات ، والجو العام للعمل الدرامي يتمشى مع طلب اللاجئات حق عدم الزواج ممن يكرهون ويتعاطف معهن حتى أن المسرحية تنتهي بالجوقة التي تنشد :

(زيوس ملك الآلهة ، فليقرر أن لا أرتبط بزوج أكرهه لقسوته وشهواته .) (Aeschyi ., Suppi ., 1053 Sq .)وتستمر مبديا فتتحدث عن عزلة المرأة في بيتها قائلة :

(عندما يتكدر الرجل مما يصادفه داخل بيته ، فهو يخرج (ليلهو) ، مع أصدقاء أو رفقاء في نفس سنه ليخلص روحه من المتاعب ، بينا نحن لا نملك لراحتنا سوى نفس واحدة (هي نحن) ، وهم يقولون أننا نحيا حياة آمنة في المنزل ، بينا هم يخرجون للمعارك ، وبهذا المنطق الخاطىء ، فأنا أفضل أن آخذ مكاني في صفوف المقاتلين ثلاث مرات ، عن أن ألد مرة واحدة .) (Eur., Med., 244 — 251) الا أن هذه السطور لا يجب أن تجرنا الى الاعتقاد بأن يوربيديس كان متحررا تماما في موقفه من المرأة ، فهوما زال يرى أن :

(زينة المرأة في الصمت والفطنة، وأن تحتجب في بيتها.)(Eur., Herac., 476—477) كما أنه لم يدع الى تعليم المرأة تعليما مميزا ، فقد كان يخشى المرأة الذكية . يقول هيبولوتوس :

(انني أكره المرأة الذكية ، أبدا لن تضع قدمها في بيتي ، تلك التي تتطلع لأن تعرف أكثر مما تحتاجه النساء . لأن أفروديتي وضعت في هامة النساء الذكيات اكبر قسط من الشر ، اما المرأة غير الذكية ، فعقلها الضحل يمنعها عن الرعونة .) (Eur., Hipp, 640 — 644) هذا الموقف التقليدي من جانب يوربيديس يتفق مع رأيه في زواج المرأة حيث يرى أنه لا بد من الزواج المتكافىء ، فلا يجب على المرء أن يتطلع للزواج من طبقة أعلى من طبقته أو أقل منها ، حيث يقول على لسان اليكترا :

(فمثلا اذا تطلع رجل الى طبقة أعلى من طبقته ، فلن يكون هناك حديث عن الزوج ، وانما فقط عن الزوجة) (Eur., Eiect., 936 — 937) من كل هذا يمكننا أن نستخلص موقفا فكريا محددا اتخذه يوربيديس من المرأة الأثينية التي عاصرها ، وعبر عن هذا الموقف من خلال كتاباته .

لم يكن يوربيديس عدواً للنساء ، كما لم يكن أيضا محبا لهن ، لقد درس الشاعر المرأة وحلل عواطفها وأنطقها بشكواها على خشبة المسرح ، وجعل المشاهد يتعاطف مع فايدرا رغم حبها الآثم ، ويرثي لغيرة ميديا الجنونية ، ويؤيد في بعض الأحيان اليكترا المنتقمة . كما صور افيجينيا التي تضحي بحياتها في سبيل وطنها ، ومكاريا التي تتقدم للموت طائعة حتى تنقذ اخوتها ، والسكتيس التي تقبل الموت حتى تهب زوجها الحياة ، وبولكسينا النبيلة التي تفضل الموت على حياة العبودية ، وغيرهن من النماذج التي فازت باعجاب العالم القديم والحديث على حد سواء .

ودعا يوربيديس الى أن يكون للمرأة الحق في اختيار زوجها ،وأن تتحرر قليلا من العزلة داخل المنزل المفروضة عليها ، لكنه كان تقليديا حينا قال بأن التعليم المميز للمرأة شيء غير مستحب ، وأن الزواج لا بد وأن يتم من طبقتين متماثلتين ، وان الفضيلة الاولى للمرأة هي الصمت والعقل .

يوربيديس والعلاقة بين الأفراد :

استمرارا في محاولة تحليل موقف يوربيديس الفكري من قضايا عصره ، ففي مجال العلاقة بين الأفراد ، لا يمكن لباحث في تاريخ المجتمع الاغريقي

عامة ، والأثيني خاصة ، أن يتجاهل العلاقة بين أفراد الجنس الواحد ، أي حب الذكور لبعضهم البعض ، ويمتلىء التاريخ والاساطير الاغريقية بأسماء الذكور :أخيليس وبائيروكلوس ، أورستيس وبيلاديس ، هارموديس واريستوجيتون ، سولون وبيز ستراتوس ، سقراط والكبياديس ، وغيرهم كثيرون .

وتمثل علاقة الرجل بالغلام ، أو الغلام بغلام مثله عند الاغريق ، جميع مظاهر الحب ، من غيرة ونشوة ، وطول تفكير ، وحزن للفراق ، وسعادة عند اللقاء . واعتقد اليونانيون أن حب الرجل للرجل أنبل وأكثر روحانية من حب الرجل للمرأة فهو صداقة وانتماء ، ومشاركة في كافة أوجه الحياة ، وامتزاج عقلاني وروحاني قبل أن يكون اتصالا جسديا .

وكمحاولة لاستشفاف الأسباب الكامنة وراء انتشار مثل هذه الظاهرة لا بد من الرجوع الى تركيب المجتمع الاغريقي عامة ، والأثيني خاصة ، فلا شك أن عزلة النساء وعدم النظر الى اختلاط الجنسين بعين الرضاء ، كان من الأسباب التي أدت بالرجال والشباب الى توجيه عواطفهم نحو بعضهم البعض ، كما أن الحياة التي عاشها الشباب واختلاطهم المستمر واشتراكهم في الطعام والألعاب الرياضية في الجمنازيوم ، والعرى فيه ، واجتماعهم في الأسواق العامة ، وطبيعة الملابس الخفيفة التي يرتدونها والتي تكشف عن جمال وتناسق أجسامهم ، كل هذا جعلهم يفكرون أولا في جمال الذكر قبل جمال الأنثى ، وقد انعكس هذا حتى على الفن الذي يكشف عن تناسق جسم الذكر وجماله قبل الأنثى .

هذا بالاضافة الى عدم انتشار التعليم بين النساء مما أحدث ثغرة عقلية بين الجنسين ، فاضطر الرجال الى البحث عن المتعةالعقلية ، ومن ثم المتعة الجسدية خارج المنزل ، والتي لم يجدوها الا بين رفقائهم في الحياة العامة .

أما رأي أرسطو والقائل بأن الاغريق لجأوا الى هذه العلاقة لرغبتهم في تحديد نسلهم لأسباب اقتصادية تتعلق بقضور موارد الثروة في بلادهم ، فهو وان كان بالرأي الطريف ، الا أنه لا يشكل مبررا قويا لاستشراء مثل هذه الظاهرة .

هذه العلاقة لم يرد ذكرها صراحة في أعمال يوربيديس ، كما حدث كثيرا عند اريستوفانيس ، الا أن تصويره للعلاقة القوية التي ربما تعدت الصداقة بين أورستيس وبيلاديس ، في العديد من مسرحياته مثل أورستيس ، واليكترا ، والتي بلغت ذروتها في « افيجينيا في تاوريس » حينما يحاول كل منهما التضحية بنفسه حتى ينقذ حياة الآخر ، تعطي مؤشرا الى مدى اعجاب الشاعر بمثل هذه العلاقة .

ويجرنا احجام يوربيديس عن الخوض في مثل هذه العلاقات ومناقشتها في أعماله الى تساؤل حول موقفه من مثل هذه الظاهرة الاجتماعية .

يبدو ان يوربيديس (وهو الشاعر الذي ناقش العديد من العواطف والعلاقات الاجتماعية كالحب غير المشروع ، والحق والانتقام ، والغيرة ، والعلاقة بين الافراد والطبقات) لم يلق بالا لمثل هذه الظاهرة ، ويمكن تفسير هذا بأحد امرين :

اما انه لم يجد ما يمكن ان يضيفه من جديد حول هذا الوضع الذي استقر كا يبدو ، واصبح معترفا

به من المجتمع حتى ان الانحراف لم يكن سبة ، بل كان البعض يتباهى بكثرة من عشقه من الرجال كالكبياديس نفسه .

او ان هذه الظاهرة لم تسترع اهتمامه وتحفزه على مناقشتها ، وبهذا يكون موافقا (ضمنيا) او على الاقل فهو لم يعترض .

والنص الوحيد الذي وصلنا ويشير الى مثل هذا الوضع وجد عند بلوتارخوس (Plut., Mor., 177A.) حيث يقول :

(وعندما القى يوربيديس ذراعيه حول اجاثون الجميل وقبله ، في وسط المأدبة ، وكان اجاثون اصبح ملتحيا ، قال ارخيلاوس لاصدقائه : لا تتعجبوا ، فان خريف الجمال هو جميل ايضا) .

ويؤكد هذه العلاقة القصة المعروفة عن محاولة اجاثون الانتحار بعد فشله في مسابقات الدراما الا ان يوربيديس يتولاه برعايته ويساعده حتى يصبح كاتبا مشهورا . وعلى فرض ان يوربيديس قد مارس مثل هذا النوع من العلاقات (وهو بهذا يقره كوضع اجتماعي) فان سكوت اريستوفانيس عن التشهير به في هذا الموضع لدليل على انه كان شيئا عاديا ان تكون لشاعر مشهور مثل هذه العلاقات .

الا ان هذا النص الوحيد لا يكفي لاصدار حكم مقنع على الشاعر بميله الى مثل هذه العلاقات وبالتالي اقراره لها كوضع اجتماعي . وبهذا يبقى السؤال حول موقف الشاعر من هذه الظاهرة دون اجابة حاسمة ، وما يمكن قوله فقط ان يوربيديس لم يعترض عليها .

يوربيديس والعلاقة بين الطبقات في المجتمع الاثيني :

يقول تسيوس في مسرحية « اللاجئات » :

(المواطنون ثلاث طبقات : الاغنياء ، وهم طبقة لانفع فيها ، فهم دائما يتطلعون للاكثر ، وطبقة الفقراء والمعدمون ، وهي طبقة يخشى منها ، مليئون بالحسد ، يطلقون سهام شرورهم ضد من يملكون شيئا،ينساقون مخدوعين ببلاغة زعماء اشرار،اما الطبقة الثالثة فهي الوسطى حافظة المدن ، وهي تحمي النظام الذي اختارته الدولة .) (Eur., Suppl., 238—245) .

هذا التحديد الدقيق الذي وضعه يوربيديس للطبقات الرئيسية في مجتمعه الاثيني ، يبرز موقفا واضحا للشاعر ، ففي رأيه ان الطبقة العليا وهم الاغنياء ، والطبقة الدنيا وهم المعدمون ، لا فائدة فيهم ، فالطبقتان على طرفي نقيض ، الاولى مشغولة بزيادة ثرواتها وتنميتها ، والثانية تحقد عليها وتحاول اضرارها .

اما الطبقة التي رأى انها هي حافظة المدن وحامية نظامها فكانت الطبقة المتوسطة . والتي رأى الشاعر انها من الناحية المثالية تتكون من المزارعين الشجعان الصرحاء الذين لا يعرفون الكذب ولا الخداع وهم المخلصون ، الى غير ذلك من الاوصاف التي يخلعها عليهم يوربيديس .

فما هو السبب الذي جعل الشاعر يجسد الطبقة الوسطى في هؤلاء المزارعين بالتحديد ؟ يبدو ان السبب الرئيسي في هذا كان موقع هذه الطبقة

كمزارعين يحرصون على السلام الدائم واللازم لمزروعاتهم مما جعلهم يشكلون صمام امان في اجتماعات الشعب ضد من يطالبون بالحرب دائما .

واستطرادا لهذا التفسير ـ وكاجتهاد شخصي ـ فيبدو ان مسألة الحروب البلوبونيسية هنا تطرح نفسها ، فقد استهدفت اسبرطة في هذه الحروب تدمير المحاصيل الزراعية الاثينية التي كانت في حاجة دائمة للحبوب ، حيث كان محصول اتيكا من الحبوب لايفي الا بثلث حاجة السكان على اكثر تقدير ، ومن هنا تبرز قيمة المزارعين كأشخاص يحتاجهم المجتمع الاثيني ويعتمد عليهم في توفير جزء من طعامه ، ومن ثم فهم الشرفاء المخلصون للمجتمع ، ويؤكد هذا التفسير ان الاشارات المستمرة لهذه الطبقة تكاد تنحصر في ثلاث مسرحيات هي « اللاجئات واليكترا واورستيس » ، ومع ملاحظة ان تواريخ عرض هذه المسرحيات تنحصر ما بين ٤٢٠ ق . م ، ٤١٣ ق . م ، ٤٠٨ ق .م ، وهي الفترة التي اشتدت فيها حدة الحروب البلوبونيسية ، وكانت اسبرطة ماضية في سياستها التي حاولت بها تجويع اثينة ، لأمكن القول ان يوربيديس كتب مؤيدا هذه الطبقة الوسطى من المزارعين حين برزت قيمتهم كعنصر لازم للمجتمع الاثيني في ذلك الوقت .

ويعود يوربيديس ليؤكد اعجابه وتأييده للطبقة الوسطى على لسان الرسول في مسرحية « اورستيس » حين يصف المتكلمين في محاكمة اورستيس :

(وهنا نهض شخص اخر ، ربما لم يكن مظهره الخارجي مقبولا ، لكنه رجل شجاع ، نادرا ما يأتي للمدينة . او يتصل بالتجمعات في السوق ، انه فلاح متوسط الحال ، واحد من الطبقة التي تكون الدرع الحقيقي لوطننا ، ذكي بماضيه الكفاية يتوق لأن يكافح المجادلات ، شخصيته لا تشوبها شائبة، وطريقته في الحياة لا تستحق اللوم .) (Eur., Orest., 917 — 922) وقبل هذه السطور بحوالي خمسين سطرا يصف يوربيديس شخصية الرسول الذي اتى من الريف ، وبرغم كونه فقيرا الا انه مخلص لعائلة اجاممنون ، فيقول مخاطبا اليكترا : (لقد وصلت الآن من الريف ، وكنت اعبر البوابات ، متشوقا كي اعرف ما تقرر بشأنك انت واورستيس ، فقد كنت دائما اميل الى ابيك وكان هذا البيت هو الذي اطعمني ورباني ، فقير انا ، هذه حقيقة ، الا انني مخلص في خدمة الاصدقاء .) . (Ibid., 866 — 870)

وفي « اليكترا » يبدو اعجاب يوربيديس واضحا بشخصية الفلاح (الذي زوجه ايجثيوس لاليكترا) فقد حافظ الفلاح النبيل على زوجته ذات الاصل الملكي ، ولم يقربها رغما عنها ، فيقول هذا الفلاح (وهو هنا ممثل للطبقة الوسطى) عن علاقته باليكترا :

(ان كيبريس هي شاهدتي على انني دائما ما اخترقت عذريتها ، فهي ما تزال كما لو لم تتزوج غير جدير بها كما انا، الا ان الشرف يمنعني ان اسيء الى ابنة رجل فاضل (Eur., Elect., 43 — 46) وتشهد اليكترا للفلاح الطيب بنبل هذا الموقف فتقول وهي تخاطبه : (فانت لم تسخرمني في مصابي . ومن النادر ان يجد البشر دواء شافيا كهذا يلطف من جراحهم القاسية ، كما هو شأني عندما وجدته فيك .) . (Ibid., 67 — 70)

وكان من الطبيعي بالنسبة ليوربيديس كشاعر يتخذ موقفا من قضايا مجتمعه المعاصرة ان يكون له رأي في ظاهرة الحكم الفردي المطلق (كأحد نتائج العلاقة بين الطبقات) والتي مر بها المجتمع الاثيني وسبقت الديموقراطية ـ وان لم يعاصرها الشاعر ـ هذا الرأي لخصه يوربيديس بوضوح تام في مسرحيته « هيلين » حين قال على لسانها : (بين البرابرة الكل عبيد .. عدا واحد فقط .) (**Eur., Hel., 276**) وهو هنا ينفي صفة التحضر عمن يحكمهم حاكم مطلق ، فهم في نظره جميعا عبيد الا حاكمهم . ويعود ثانية في « اللاجئات » ليوضح مضار الحكم المطلق من ان الحاكم فيه لا يقيده قانون مكتوب ، وانما تنبع احكامه من اهوائه الشخصية وبهذا ينتفي العدل والمساواة ، فيقول : (ليس اعدى للمدينة من حاكم مطلق حيث انه في المقام الاول لن توجد قوانين عامة للجميع لكن رجلا واحدا هو المستبد ، لأنه في يديه وعنده فقط يحفظ القانون ، وفي هذه الحالة فالمساواة تنتهي . لكن عندما تكتب القوانين فالفقير والغني على حد سواء سينعمون بعدالة متساوية ويكون مسموحا للضعيف ان يستعمل نفس الاسلوب تجاه المحظوظين ، عندما يظلم بواسطتهم ، وينتصر الضعيف على القوي ، اذا كان الحق في جانبه .) (Eur., Suppl., 428 — 437).

ويعود يوربيديس ليقول بعد بضعة اسطر على لسان ثسيوس ايضا : (وحيثما كان الشعب هو الحاكم المطلق في ارضه فهو يبتهج في الحفاظ على مواطنيه من الشباب ، بينما الحاكم المستبد بالملك يعتبر هذا عنصرا معاديا ويرغب دائما في القضاء على زعماء الرجال وكل من يظنهم فطنين خوفا على سلطانه . وهكذا كيف يمكن لمدينة ان تظل قوية حيث يوجد من يقضي على كل مشروع . ويحصد الشباب كزهور المراعي في وقت الربيع . وما فائدة اكتساب الثروة والعيش الرغد للاطفال الا لزيادة ثروة الطاغية بجهد الفرد فقط . لماذا تنشىء بناتنا العذارى على الفضيلة في منازلنا ، الكي نرضى نزوات الطاغية كلما اراد ويسبب الاسى لهؤلاء الذين ربوهن .) (Ibid., 442 — 454).

ويبدو واضحا موقف الشاعر من نظام الحكم الفردي فهو في رأيه لا يوفر الامن ولا العدالة والمساواة بين المحكومين لانه اساسا يقوم على رأي شخصي واحد فقط .

والبديل الذي يطرحه يوربيديس هنا هو حكم الشعب لنفسه ، حيث يكون للضعيف نفس حقوق القوي وحيث المساواة هي السائدة اي ان شكل الديموقراطية التي فضلها يوربيديس كان الشكل المعتدل غير المتطرف ، حيث لا سيادة لغني على فقير ، او لفقير على غني ، فكما سبق القول كان الشاعر رافضا لسيطرة الطبقة العليا على من هم ادنى وكذلك هو لايؤيد سيطرة الطبقة الدنيا على زمام الحكم ، وانما الشكل المثالي في رأيه ـ كما يتضح من مسرحية اللاجئات ـ هو الشكل المعتدل الذي يشارك فيه كل من الغني والفقير الحكم فيقول على لسان ثسيوس :

(ايها السيد الغريب ، لقد بدأت خطابك بداية خاطئة ، في البحث عن حاكم مطلق هنا ، لأن هذه المدينة لا يحكمها رجل واحد ، لكنها حرة ، والشعب

يحكم بالتعاقب عاما بعد عام ، ولا تفضيل للثروة ، لكن الفقير يشترك بالتساوي مع الغني في الحكم .) (Ibid., 403 — 408) وهو يؤكد على ضرورة اشراك الشعب في تصريف اموره فيقول ايضا في « اللاجئات » على لسان ثسيوس :

(ولكنني سأطلب موافقة المدينة باجمعها ، والتي ستصدق على رغبتي، فبالتشاور في الامور معهم سأجد الشعب هو الحاكم الافضل .) (Ibid., 349 — 351) ويعيدنا هذا الموقف فورا الى « لاجئات » ايسخولوس حيث نجد فيها بيلاسجوس ملك ارجوس يخاطب جوقة اللاجئات قائلا : (هذا ليس أمراً خاصاً بي فاذا حدث بعض الضرر العام ، كان على الشعب بأجمعه ان يجد الدواء ، ليس لي ان اعد بشيء ، قبل ان اتشاور مع كل الرجال الاحرار .) (Aeschyl., Suppl., 365 Sq.) وبعدها بثمانية عشر عاما في « الفرس » تسأل الملكة الفارسية اتوسا : (من السيد الذي يرعى جيشهم ويتولى اموره ؟) فيأتي الرد سريعا موجها الى النظارة في المسرح على سفح الاكروبوليس :

(انهم لا ولم يكونوا عبيدا او تابعين لأحد . (Aeschyl., Pers.,241—242) وبهذا لا يكون يوربيديس اول الشعراء الذين نادوا بحكم الشعب لنفسه فقد سبقه الى ذلك ايسخولوس ، الا ان ايسخولوس كان ديموقراطيا متعصبا من الطراز القديم ، فلننصت الى نشيد النصر في « الفرس » الذي يتغنى بالحرية ، وكيف ان الملك في « اللاجئات » كان صورة وان كانت غير كاملة للدستور والقانون ، وكيف ان بروميثيوس وقف ضد الطغيان ، وكيف ان « ربات الانتقام » كانت تعظيما وتكريما لمجلس الاريوباجوس في نفس الوقت الذي كان فيه بركليس واخياليتس يجددان اغلب سلطات هذا المجلس ، ولم يكن ايسخولوس معارضا لبركليز ـ الذي كان خوريجوس له على الاقل مرة واحدة ـ وانما كان من جيل رجال ٤٩٠ ق . م الذين اعتبروا ان الاريوباجوس هو تجسيد لكفاح اثينا الحرة ضد بلاد فارس ، بينما كان هذا المجلس لا يعني شيئا لمن جاءوا بعد هذا التاريخ .

الا ان موقف يوربيديس من الديمقراطية المعتدلة التي طالب بها في اعماله ، لم يكن تأييدا مطلقا على طول الخط ، فقد كان واعيا لبعض عيوب هذا النظام ومنها ظهور طائفة الديماجوجيين ومحترفي الخطابة لاثارة مشاعر الجماهير والذين لا يهتمون بالصالح العام قدر اهتمامهم بمصالحهم الشخصية ، فهاجمهم الشاعر هجوما مرا وندد بهم في العديد من اعماله مؤكدا على خطورة هذه الفئة التي قد تستغل النظام الديمقراطي وحرية التعبير عن الرأي في الوصول بالأمة الى حافة الهاوية .

تقول هيكابي مخاطبة اوديسيوس ، وان كان الحديث يبدو موجها مباشرا الى الديماجوجيين :

(ايتها السلالة الجاحدة ، يا من تطمحون الى المجد بتملق الغوغاء ، ليتني لم اعرفكم ، يا من تؤذون اصدقائكم دون اي اعتبار ، وتتحدثون بأي شيء من اجل كسب رضى الغوغاء) . (Eur., Hec.,254 — 257) ثم تعود ثانية لتقول وهي تخاطب اجاممنون ، وان كان الحديث هنا ايضا يبدو موجها لنفس طائفة الخطباء بـ .

(لا تستطيع ابدا ان تبرر المظالم بكلمات معسولة ، ذلك لان هناك من الحاذقين من اتقنوا هذا الفن ، ولكنهم لا يستطيعون ان يفلحوا في دهائهم حتى النهاية ، وانما ينتهون نهاية محزنة ، وما نفذ احدهم ابدا) . (Ibid., 1191 — 1194)
ويصدق الرسول على هذا المعنى في « اللاجئات » حين يقول مخاطبا تسيوس :

(ليس عندنا هناك من يغرر بالمواطنين بكلمات معسولة ، ولغرض شخصي يؤرجحهم بين هذا الطريق أو ذاك ، ولفترة يكون عزيزا عليهم ، مسرفا في عطائه ، وفي لحظة ثانية يكون كارثة عليهم ، الا أنه بوشاية حديثة وطعن في الآخرين ، يخفي فشله الأول ويهرب من العقاب .وهكذا كيف يمكن للشعب اذا كان من غير الممكن تكوين حكم صائب ، ان يكون قادرا على توجيه المدينة بجدارة ؟) . (Eur ., Suppi ., 412 — 418) واذا تغاضينا عن هجوم يوربيديس الواضح على الديماجوجيين الذين يستغلون مقدرتهم الخطابية لصالحهم أولا وكراهيته لهم ، لوجدنا أن الاقتباسات السابقة كلها تحمل نقدا داخليا لمواطنيه الاتينيين لمجاراتهم هؤلاء الخطباء ، ودعوة لهم بعدم الاعتداد بهم ، فكيف يمكن للدولة أن تستقيم اذا لم تكن مستقرة على رأي محدود ؟

ولم يكن يوربيديس الوحيد الذي تنبه الى هذا فقد سخر اريستوفانيس بطريقته من مواطنيه الاثينيين الذين ينقادون للخطباء فأسماهم Khauno — أي الذين يصدقون كل ما يقال أمامهم بأفواه مفتوحة كالبلهاء . (Aristoph., Ach., 636)

العبيد :

تقول الجوقة في « هيكابي » :

(ويحي .. كم أن طبيعة العبودية لعينة ، وكم يتحمل المهزوم بقوة السلام من مهانة) . (Eur., Hec., 332 — 333) وفي « أيون » يقول الخادم العجوز :

(هناك شيء واحد فقط هو الذي يجلب العار للعبد) اسمه ، وفيما عدا كل هذا ، فلا يوجد عبد مستقيم أسوأ من رجل ذي مولد حر .) (Eur., Ion, 854 — 856)
للوهلة الاولى يبدو الشاعر هنا مناهضا للعبودية عالما بمساوئها ، الا أن هذا الانطباع لا يستقيم مع نظرة الشاعر للعبيد ، (مثله كمثل كل الأثينيين المعاصرين) على أنهم ضرورة لازمة ، حيث يقول في احدى الشذرات :

(ان حرية العبد هي في أن يكون عبدا) .

ثم يعود ليعدد مساوئهم في قصاصات أخرى فهم :

« تسوقهم بطونهم ، تتلفهم النعمة ، غير جديرين بالثقة » .

هذا التناقض الظاهري في آراء الشاعر يقودنا الى التساؤل حول الموقف الذي اتخذه من فكرة العبودية والاوضاع الاجتماعية للعبيد .

يبدو أن هذا التناقض يعود الى الانطباع الذي توحي به الأسطر الاولى حول « العبودية اللعينة » و

« العار الذي يجلبه اسم العبد » من أن الشاعر كان داعية الى الغاء الرق ، الا أن هذه السطور لا تكفي لترجيح مثل هذا الافتراض المستبعد بسبب طبيعة نظرة الأثينيين ومنهم يوربيديس للرق ، وهو ما سنتطرق له ، فكان أقصى مادعا اليه الشاعر هو النظر للعبد على أنه انسان ذو حظ سيء .

وفي البداية يثور تساؤل منطقي هو : من أين أتى هؤلاء العبيد الى أثينة ؟

تكاد مصادر العبيد أن تنحصر في ثلاثة مصادر هي الحرب ، المولد ، والاحكام القضائية . وكان العبيد الذين فقدوا حريتهم نتيجة لهزيمتهم في الحرب ، وعدم مقدرتهم بعد على افتداء أنفسهم يشكلون القسم الأعظم من مجموع عبيد أثينة ، حتى ان كيمون بعد حملة يورميدون باع في الأسواق ما يزيد عن عشرين ألف أسير .

اما من ولدوا في منزل « السيد » على أنهم عبيد فقد كانوا قلة تماثل في قلتها من فقدوا حريتهم عن طريق حكم قضائي أو جرم بشع .

وقد تضاربت الآراء في تحديد عدد العبيد في أثينة ، الا أن الكل أجمع على أن العدد كان كبيرا جدا بالنسبة لعدد المواطنين ،ولأن استخدام العبيد كان يتم على نطاق واسع في الاعمال المنزلية والصناعات المختلفة أكثر منه في الزراعة ، لذا فقد ارتفع عدد العبيد في المدن كاثينة حيث تشكل التجارة والصناعة جانبا هاما في الحياة الاقتصادية عنه في المناطق الزراعية كأركاديا مثلا أجزاء من بيوتيا .

واستخدم العبيد أساسا في أثينة في الاعمال المنزلية ، فقاموا بالطهي والنسيج وتربية الأطفال وخدمة السيدات المرفهات كوصيفات ، وغير ذلك من متطلبات المنزل . أما في الصناعة فقد استخدم العبيد بكثرة تعويضا عن عدم وجود آلات تقوم مقام الانسان ، فعملوا في البناء ، وكان منهم الفنيون الذين ساعدوا في بناء الأرخثيون ، ومنهم من عمل في حوانيت ومصانع يدوية كصانعي الملابس والأحذية والفخار والأدوات المعدنية والاسلحة وغيرها .

وكان من الاثينيين من يملك عددا كبيرا من هؤلاء العبيد يؤجرهم لاصحاب الاعمال وينتفع هو بأجرهم . ومن هؤلاء العبيد من يربح في عمله وجنى ثروة طائلة . وكان من الممكن دائما أن يحصل العبد على حريته لقاء مبلغ معين من المال ، أو مقابل خدمة جليلة أداها لسيده ، أو لبراعته في عمل معين ، وفي كل الأحوال يعتمد هذا على رضاء السيد على عبده وموافقته على تحريره .

أما من كانوا طبقة من العبيد ، وهم من لم يبرعوا في أي حرفة من الحرف ، فقد كانوا يرسلون الى العمل في مناجم الفضة في لاوريون .

وكانت نظرة اليونانيين للرق تختلف عن وجهة نظرنا الحديثة ، فالرق عندهم شيء طبيعي نشأوا على وجوده بينهم ، وأصبح جزءا من نظام حياتهم،ولم يعتبر اليونانيون امتلاك العبد واستقلاله جرما أخلاقيا ،الا أن التصاق اليوناني صاحب العمل بعبده ، والذي يختلف عن صاحب العمل الحديث المنفصل عن عماله ، جعل مشاعر هذا اليوناني ترق بالتدريج للعبد . فرأى اليونانيون أن العبودية هي سوء حظ للعبد ، لكنهم لم يتعدوا هذه المرحلة ، فكان

أقصى ما فعلوه هو المعاملة اللينة للعبد ، فكان العبيد يعاملون في أثينة مثلا معاملة حسنة نوعا ما ، وكان أقصى ما تثيره المآسي مثل هيكابي واندرو ماخي وافيجينيا ، وهن النساء الأحرار اللواتي تحولن الى عبيد ، هو الشفقة والحزن والخوف من مثل هذا المصير ، الا أنها لم تتعد ذلك الى استهجان أو نقد لنظام الرق .

لكن هذه المعاملة من المواطنين الاثينيين لعبيدهم لم تكن منزهة عن الغرض ، فلا يمكن القول أن السبب في ذلك هو المشاعر الانسانية المجردة ، فماذا تجدي هذه المشاعر حين يعامل المواطن عبده الكسول الذي لا نفع فيه ؟

وفي الغالب كان السبب اقتصاديا ، فقد كانت أثينة بحاجة مستمرة للمال ، وكما قالها كسنوفون بصراحة : كان العبيدهم منتجي الثروة الذين لن ينتجوا الا اذا عوملوا معاملة حسنة .

وهكذا فقد كان الواقع الاجتماعي يقول بمعاملة العبد على أنه « شيء » منتج شبيه بالآلة . وهو مالم يكن يتوافق مع نظرة يوربيديس الانسانية ، فنادى الشاعر بتحسين الوضع الاجتماعي للعبيد من منطق أنهم بشر لا يختلفون عن الأحرار في شيء الا في الاسم ، وفي هذا اختلف يوربيديس مع مواطنيه الأثينيين الذين عاملوا عبيدهم ببعض العطف ، ولكن من منطلق آخر هو المحافظة على آلاتهم المنتجة للثروة .

ولهذا كان يوبيديس يؤكد دائما على أن العبد هو قبل كل شيء انسان يحمل عواطف البشر وآلامهم وأفراحهم ، وقد يكون انسانا طيبا أيضا يفرح لفرح سادته ويحزن لحزنهم ، ففي « ميديا » تقول المربية لحارس أطفال جاسون :

(أيها الرجل العجوز ، راعي أطفال جاسون عندما يسوء مصير سادتنا ، يحزن العبيد الطيبون ويمس هذا قلوبهم.)(Eur., Med.,53—55)

ويعود يوربيديس ليؤكد هذا على لسان الرسول في « هيلين » حين يخاطب منيلاوس قائلا :

(انه لخادم بائس ، هذا الذي لا يهتم بمشاغل سيده ، ولا يتعاطف مع أحزانه وأفراحه ، فبرغم أنني ولدت عبدا الا أنني أضع نفسي في عداد الخدم الأمناء ، لأنني في قلبي حر ، رغم أن اسمي ليس كذلك .) (Eur., Hel., 726—731) واستمرارا من الشاعر في تأكيد العلاقة القوية والعاطفة المتبادلة التي تربط العبد بسيده يرد منيلاوس في « هيلين » أيضا على الرسول قائلا :

(تعال أيها الصديق القديم ، لقد وقفت الى جانبي ، وأخذت نصيبك كاملا من العمل الشاق ، فتعال الآن ولكن شريكي في سعادتي .)

(Eur., Hei., 734 — 736)

وفي « الكستيس » يشير يوربيديس الى اخلاص العبيد المحزونين لفقد سيدتهم على لسان الوصيفة التي تقول :

(وأخذ كل الخدم في المنزل يبكون ، آسفين من أجل سيدتهم ، لكنها مدت يدها لكل منهم ، ولم يكن هناك أحد وضيع ، فكلمتهم وتلقت اجابتهم .)

(Eur., Alcest., 192 — 195)

ويعود يوربيـديس فى « افيجينيـا في أوليس » ليؤكد ثانية على اخلاص العبيد وشجاعتهم وتفانيهم في خدمة سادتهـم ، حينما حاول منيـلاوس الحصول على رسالة أجاممنون التى بعث بها الى زوجته يثنيها عن الحضور ومعها ابنتها وحملها عبده ، الا أن العبد يقاوم منيلاوس في شجاعة تبلغ قمتها حين يقول :

(انـه لمن المجـد أن أمـوت في سبيل قضيـة سيدى .)

(Eur., Iph. Aul., 312)

وفي نفس الاتجاه يصور يوربيدس في « هلين » جوقة العبيد التى تفتدى سيدتها فتقدم نفسها للموت بدلا منها قائلة :

(المـوت من أجـل سادتهـم ؛ هو أفضل موت يستطيع العبيد الفضلاء أن يجدوه .)

(Eur., Hei., 1640 — 1641)

ولم يتردد يوربيـديس في أن يجعـل العبيـد في مسرحياته يتحدثون بالمنطق ، ينصحـون ، يقدمـون الاقتراحات ، بل ويفلسفون الأمور .

وهكذا استخدم الشاعر كافة وسائله الدرامية كي تصور طبقة العبيد بصورة مشرفة ، فأسبـغ عليهـم صفـات الشجاعـة والاخـلاص والعرفـان بالجميل والحكمة والتعاطف مع سادتهم ، الى غير هذا من الصفات التي يبدو أن يوربيديس قصد بها التأكيد على آدمية العبيد وعدم تواجد أى فروق بين الرجل الحر والعبد ، فكلاهما بشر يحمل عواطفه وصفاته ولا يفترقون الا في الاسم .

الا أن هذا لا يعنى مطلقا أن الشاعر قد فكر في الدعوة لالغاء الرق ، فلم يرد ذكر لهذا أبدا في أعماله الموجودة ، وانما كان هدفه الواضح هو تحسين الوضع الاجتماعى للعبيد عن طريق تغيير نظرة معاصريه من الاثينيين لهم . فالأثينى كان ينظر للعبـد على أنـه شيء ، بينما طالبه يوربيديس أن ينظر للعبد على أنه شيء ، بينما طالبه يوربيدس أن ينظر اليه على أنـه بشر ، حتى يحسـن معاملتـه ، من منطلـق النظـرة الانسانية له وليس من المحافظة على الآلات المنتجة للثروة كما قال كسنوفون قبلا .

يوربيديس وقضية الحرب والسلام :

كانت أبرز صفات التاريخ القديم للاغريق هي روح الانعزالية لدى كل مدينة ، والتفتت المبالغ فيه . وربما ساهمت الطبيعةالجغـرافية لبـلاد الاغـريق في اقامةخطـوط طبيعيةفاصلةبـين النـاس.الا أن هذه الفواصل الطبيعية لم توجد بين طيبة وبلاتيا ، بـين أرجوس واسبرطة ، وبرغم هذا كانت العزلة قائمة . لاشك أن للظـروف الطبيعيـة أثـر كبـير في حيـاة الشعوب ، الا أن عقائد الانسان لها دور فعال أيضا ، فقد كان بين أى مدينتين شيء أثر من الجبل أو النهر ، هو اختلاف العبادات ، هذا الحاجز الذى أقامته بين الاجنبى وآلهتها فكانت تحرم على الاجنبي أن يدخل معابدها ، بل وأحيانا كانت تفـرض على معبوداتهـا كراهية الاجنبى .

ولم يفكر الاغريق أنه في استطاعة عدة بلدان أن تتحدوتعيش على قدم المساواة تحت حكومة واحدة ، كان من الجائز أن يوجد حلف بين مدينتين (أى اشتراك مؤقت من أجل مصلحة ما) لكن لم يكن هناك اتحاد كامل . وعندما ضعفت هذه العقائد بمرور الزمن (وهى لم تضعف في ذهن العامة الا بعد زمن طويل) كانت كل مدينة قد أصبحت شديدة التمسك باستقلالها الذاتى ، وكان من السهل على مدينة ما أن تخضع مدينة أخرى ، وفى هذه الحالة إما أن يهدم المنتصر مدينة المهزوم او يستعبد أهلها أو يحتل أرضها . أما فكرة ادماج مدينتين في دولة واحدة ، أى ضم المهزوم الى المنتصر ، فقد كانت أمرا نادر الحدوث .

هذه العلاقة بين الكل (أى المدن المتنافرة - فهى في مجموعها تتكون من أفراد) أدت الى عديد من المعارك الفرعيةالصغيرة،والتي أدت بدورها الى الحدث الاكبر الذى شهده النصف الأخير من القرن الخامس ق . م ، ونعنى به الحروب البلوبونيسية ، ولن نتحدث هنا عن أسباب هذه الحروب ، الا أن هذا الحدث كان من الضخامة بحيث كان على كل مفكر أو ناقد أو أديب معاصر له أن يدلى برأى له سواء كان معارضا أو مشايعا .

وفي هذا الصدد سنحاول تحليل موقف يوربيديس من هذه الحروب خاصة - وفكرة الحرب بصفة عامة ومدى اقترابه او ابتعاده عنها .

يرى بعض النقاد أن يوربيديس كان من دعاة الحرب ومن مؤيدى الزعيم الكبياديس وحملة سيراكوز ، فقد كتب نشيدا للنصر عندما انتصر الكبياديس في سباق للعربات ، وكتب مرثية للذين سقطوا قتلى فى حملة سيراكوز ، كما أنه كتب « الطروادیات » ليحث مواطنية على الحرب ضد سيراكوز عن طريق استعادة أمجاد انتصارات الاغريق فى طروادة .

(J.W. Donaldsen, Theatre of the Greeks, p. 138)

هذا الرأى معرض للنقد من عدة جوانب ، فكتابة يوربيديس نشيدا للنصر لالكيباديس لا يعنى بالضرورة تبعية الشاعر للزعيم الحربى ، بالاضافة الى أن تاريخ هذا النشيد يعود الى فترة متقدمة ، وربما غير يوربيديس رأيه فيا بعد في الزعيم الحربى ، كما أن مرثية قتلى سيراكوز لاتعنى أيضا رضاء الشاعر عن هذه الحملة ، بالاضافة الى أن العديد من الكتب التي صدرت بعد كتاب « دونالدسون » تنسب مسرحية الطرواديات الى الفترة اللاحقة مباشرة لمذبحة « ميلوس » وتربطها بها كنتيجة مباشرة لها .

وبالمقابل نجد ناقدا آخر هو « هيج » ينفى تماما عن يوربيديس تهمة مشايعة الحرب والزعماء الحربيين لأسباب نتفق معه في العديد منها ، وسنوردها فيا يلى :

(A.E. Haigh, Tragic Drama of the Greeks, pp. 275 — 277)

وبين الرأى والرأى المضاد ، يكون الحكم لدينا دائما هو أقوال يوربيديس نفسه والتى أوردها في ثنايا

أعماله بطريقة مباشرة أو عن طريق موقف درامي معين : يقول يوربيديس في « اللاجئات » على لسان ادراستوس :

(أيها البشر التعساء ، لماذا تستعملون أسلحتكم لقتل بعضكم البعض ، كفوا عن هذا ، واستريحوا من شقائكم ، واحفظوا مدنكم عن طريق السلام ، ان أمد الحياة قصير ، وبهذا فمن الأفضل ان نحياها في يسر ، كما يجب ان لا نحمل هما .)

(Eur., Suppl., 949 — 954)

والدعوة للسلام ونبذ الحرب هنا واضحة صريحة لا تحتاج الى تعليق ، وبرغم أن يوربيديس قد اتخذ من أسطورة « السبعة ضد طيبة » مادة لمسرحيته الا أن السطور السابقة تعطى احساسا ربما كان أكيدا بأن المقصود هنا هو الحروب البلوبونيسية ، ويدعم هذا أن تاريخ المسرحية يعود الى حوالى ٤٢٠ ق.م . أى بعد أكثر من عشرة أعوام من نشوب الحرب .

لكن الكورس في مسرحيته « أبناء هيراكليس » (وهو عند يوبيديس هنا يتحدث بلسان مواطنيه الأثينيين) يقول :

(انني أحب السلام ، لكنني أقول لك أيها السيد الشرير ، برغم أنك قد جئت مدينتنا ، فلن تستطيع الحصول على ما تتوقعه . انت لست الوحيد الذى يحمل رمحا أو درعا مصفحا بالنحاس .

كلا أيها المتطلع للحرب ، أحذرك أن لا تجلب مصائب الحروب الى مدينتنا الجميلة . فاكبح جماح نفسك .)

(Eur., Herac., 371 — 380)

للوهلة الاولى يبدو يوربيديس هنا من دعاة الحرب،لكن المتأمل لهذه السطور في ضوء الظروف التي كتبت فيها هذه المسرحية قد يخرج بمفهوم آخر . فترجع « أبناء هيراكليس » الى بداية الحرب البلوبونيسية ، ومع ملاحظة أننا لا يمكن أن ننفى عن يوربيدريس تعصبه لأثينه ضد اسبرطة ، فيمكن القول بأنها كانت محاولة من الشاعر لتبرير هذه الحروب ـ ولم يكن قد أحس بعد بمدى فداحة الخسائر التي يمكن أن تسببها هذه الحروب ـ فوطنه أثينه هنا حصن للعدالةوملاذ للمظلومين واللاجئين، ومواطنوه الأثنينون لا يلجأون للحرب الا لاقرار العدالة ، فهم قد حاربوا في « أبناء هيراكليس » لنصرة اللاجئين المظلومين وكذلك في « اللاجئات » حاربوا من أجل احترام القانون الهللينى القاضى بدفن الموتى . لكنه في نفس الوقت يفضل السلام على الحرب ، ويهاجم من يرتزقون من وراء الحرب ويبحثون عن زعامة أو مال دون النظر لصالح مجتمعهم . فيقول في « اللاجئات » على لسان ثسيوس مؤكدا موقفه من السلام وكراهيته للحرب والمحاربين :

(لقد قدت أهل أرجوس كلهم للحرب ، رغم اعلان العرافين لارادة السماء ، فلم تعبأ بالآلهة ودمرت المدينة ، مدفوعا بالشباب الذين يبغون مكانة متميزة ، ويشنون حربا بعد حرب دون وجه حق ، مدمرين بنى وطنهم .

واحد يرغب في قيادة الجيش ، والآخر في القوة ليملي ارادته ، وآخر في الثروة ،

لا يعبأون بأى ضر يقاسيه الناس .)

(Eur., Suppl., 229 — 247)

هذه السطور تبرز وعى يوربيديس بمسببات الحروب وأهدافها ، فبرغم كل الأهداف المقدسة للحرب التي يعلنها القادة العسكريون ، الا أنه دائما ما تخفى في الظل أهداف أخرى ربما كانت هى المحرك الاول للحرب ، كالطمع في السلطة أو القوة أو المال . واستمرارا لهذا الاتجاه يقول « المنادى » في « اللاجئات » أيضا :

(عندما تصوت مدينة على الحرب ، فان أى رجل لا يأخذ في اعتباره موته هو ، وانما يمرر هذه الكوارث الى جيرانه ، لكن لو كان الموت ماثلا أمام أعينهم وهم يصوتون على الحروب ، ما اندفعت بلاد اليونان الى مصيرها في رغبة محمومة للقتال . وكل رجل بيننا يعلم أن الاثيني يفضل الخير أو الشر ، وكم هو السلام أفضل للبشر من الحرب ، السلام هو أصدق أصدقاء ربات الموسيقى والفنون ، لايتفق مع الأسى ، والذى تتمثل سعادته فى نسل سعيد من الاطفال ، والاستمتاع بالرخاء هذه هى المزايا التي نقذفها بعيدا عنا اذا نحن اشتغلنا بالحرب بشرّ ، حين يستعبد الرجل أخاه الأضعف منه ، وتحذو المدن حذوهم .)

(Ibid., 481 — 493)

واستمرارا من يوربيديس في نفس الاتجاه الذى يجرم الحرب غير العادلة نجد أن عملين من أعماله مكرسين لهذا الغرض ، فمسرحية « هيكابى » (حوالى ٤٢٥ ق .م) التى كتبها بعد عامين من القرار الخاص بتدمير متلينى ثم ألغى ، يمكن القول أنها تصور ما كان من الممكن أن يحدث لو نفذ هذا القرار ، فالعمل بأكمله يصور مدى الدمار الذى يلحق بالبشر من جراء الحروب ، فهيكاس الملكة تتوالى عليها واحدة بعد الأخرى، من الأسر ودمار مدينتها ومقتل زوجها وأبنائها ، الى اغتيال ابنها بوليد وروس ثم التضحية بابنتها « بولكسينا » .

ويسيطر اعلى العمل بأكمله الاحساس بالرثاء لهؤلاء المنكوبين واستبشاع ما حدث لهم بغير ذنب جنوه الا الدفاع عن مدينتهم ضد الغزاة . ولا يخفى يوربيديس اعجابه بهم ، وخاصة بشجاعة « بوكلسينا » التي تذهب للموت في قوة وعظمة يرويها الرسول « تالثوبيوس » في أربعة وستين بيتا ساحرا من الشعر ، يجعل أى مشاهد أو قارىء يتعاطف تماما مع بولكينا والطروادبين .

(Eur., Hec., 518 — 582)

هذا الرأي وان كان ضمنيا يمكن استخلاصه من ثنايا العمل نفسه ، الا ان يوربيديس يصرح به تماما بعد عشر سنوات في مسرحيته « الطرواديات » (٤١٥ ق . م) والتي كتبها بعد عامين من مذبحة ميلوس اقتناعا منه ـ كما يتضح من العمل ككل ـ بعدم عدالة ما حدث . هذا الاقتناع الذي ظهر واضحا ايضا عند ثوكيديديس في الحوار الشهير بين اهالي ميلوس والسفراء الاثينيين ، وهو الحوار الذي اعتمد فيه السفراء الاثينيون على منطق القوة التي تبيح لصاحبها كل شيء .

فيقول يوربيديس على لسان « كاسندرا » ان الحكمة تقضي بتجنب الحروب ، لكن اذا اضطر المرء فالفخر في ان يموت في سبيل وطنه :

(من كان حكيما ، يجب عليه تجنب خوض الحروب لكن اذا كان لا مفر منها ، فان الموت بشجاعة يتوج المدينة بالعظمة والفخر ، اما الموت بجبن فيجللها بالعـار .) (Eur., Troad., 400 — 402)

والجو المسيطر عى المسرحية هنا ايضا هو الحزن والرثاء لمصائب هؤلاء الطرواديين الذين دمرت مدينتهم واستعبدوا لا لسبب الا لدفاعهم عن وطنهم .

من كل ما سبق يتضح ميل يوربيديس للسلام وكراهيته للحروب غير العادلة ، والزعماء الحربيين،وان كان لا ينكر انه من الفخر للمواطن ان يموت في سبيل وطنه ، اذا حارب لاجل قضية عادلة .

وليس ادل على ذلك من بيت الشعـر الـذي اقتبسـه بلوتارخـوس عنـه من مسرحيتـه المفقـودة ارخثيوس Erechtheus ، والـذي يقـول فيه :

(دع حربتي ترقد بدون استعمال ... حتى تغطيها العناكب بخيوطها .)

(Plut., Vitae, Nic., IX. Sand Note)

. (Frederik Poulsen, Delphi, p.211)

وهكذا ففي مجال العلاقة بين المدن التي تكونت من مجموعة من الطبقات والتي تألفت بدورها من الافراد ، كان يوربيديس قد اتخذ موقفا فكريا محددا من ظاهرة اجتماعية عانى منها المجتمع الاثيني بشدة في عصر الشاعر ونعني بها الحرب . (فبرغم ان الحرب ـ بصفة عامة ـ تبدو كما لو كانت ظاهرة سياسية ألا اننا لايمكن ان نفرغها من مضمونها الاجتماعي ، فهي اساسا صراع بين انظمة اجتماعية مختلفة لجأت لها للتعبير عن عدم توافقها .) فلم يشجع الشاعر الحروب غير العادلة وابرز كراهيته للزعماء الحربيين الذين اعتقد ان كل همهم في الحرب هو اقامة نصب تذكاري للنصر غير مبالين بارواح الاف البشر التي تذهب سدى . الا انه لم يطالب بالسلام بأي ثمن فقد احتقر من هربوا من ساحة القتال العادل ، وكرم من ماتوا ابطالا فمع القضية العادلة ـ في رأيه ـ يصبح الموت شرفا لا يعدله اي شرف .

يوربيديس والقيم الدينية في المجتمع الاثيني :

(يوربيدي .. هو الشاعر التراجيدي الـذي يحرض النـاس قائـلا : انـه لا وجـود للآلهة .) .
(Aristoph., Thesmoph., 450 — 451)

هكذا يحكم اريستوفـانيس (على لسـان امـرأة من « المحتفلات بعيد الشموفوريا » على يوربيديس بانه الشاعر الذي يحرض الناس على الكفر بالآلهة .

وفي الحديث عن الموقف الفكري للشاعر من المعتقدات الدينية السائدة في عصره ، (والمكمل لفكره الاجتماعي) يحسن التعامل معه بحذر خشية الوقوع في الخطأ المعروف ، وهو تحميل آراء الشاعر اكثر مما تحتمل ، كما حدث عند مناقشة عقلانية يوربيديس . فلم يكن يوربيديس واضحا تماما فيما يتعلق بالدين ، فالروح السائدة في اعماله هي روح التحرر من الافكار التقليدية ، لكنها ايضا روح البحث والتأمل . ففي احدى الشذرات الباقية من

مسرحيته المفقودة « بيللروفون » نسمع صرخة مدوية لواحد ممن يتعرضون للعذاب :

(هل يدعي أحد أن هناك إلها في السماء ..؟

لا ... ليس هناك احد ..!!)

(Frg. 286, apud Murray, Eur, and his age, pp. 190 — 192) فتأتي الاجابة في صورة صاعقة قاتلة يرسلها زيوس على السائل . (Ibid., Frg. 311.)

(لكن ينبغي هنا ان نحاول وضع حد فاصل لما يمكن ان يقال عنه رأي شخصي للكاتب اورده على لسان احدى شخصياته الدرامية ، وبين الشخصية التي تنطق برأي معين نتيجة لتواجدها في ظروف واوضاع املت عليها هذا الرأي .

وعلى هذا فلا يمكن الجزم بأن النداء السابق هو رأي شخصي ليوربيديس ، فمن المحتمل ان يكون رد فعل لعذاب قاس تعرضت له احدى الشخصيات في المسرحية نجم عنه ان تفوهت بمثل هذا الكلام .) .

من المحتمل ان يوربيديس لم يكن متعاطفا بالقدر الكافي مع الديانة التقليدية التي سادت مجتمعه ، الا انه من السابق لأوانه ان يتحول هذا القول الى اتهام للشاعر بالالحاد ، فقد تعجب الشاعر كيف يمكن للبشر ان يثقوا في آلهة كانت القصص التي اعلنت وجودهم هي نفسها التي نسبت اليهم العديد من الجرائم والنزوات التي لم يرتكبها البشر . فيقول اورستيس في « اليكترا » :

(يجب ان نتوقف عن الاعتقاد في الآلهة ، اذا ما انتصر الباطل على الحق) . (Eur., Elect., 583 — 584) ويتعجب « ايون » في المسرحية المسماة بنفس الاسم ، كيف ان الآلهة التي وضعت للبشر قوانينهم ومثلهم ، هي اول من يخرقها ، فكيف يمكن لهم اذن ان يعاقبوا انسانا على خطيئة ارتكبها تشبها بهم :

(يجب ان احذر ابوللون ، مما يحدث له .. ، فقد اغتصب عذراء ، وبرهن على عدم اخلاصه لها ، فبعد ان انجبت ابنا سرا ، تركه للموت ، اوه فويبوس ، لا تكن كذلك .

لأنك قوي . كن عادلا . فما من البشر الفانين أخطأ ، الا وعاقبته الآلهة .

كيف يمكن اذن أن يكون عدلا ، أن تسن أنت قوانينك للبشر ، ثم تكون أنت نفس الذي تخرقها ؟

وسأضع هذه القضية الآن ... برغم أنها لن تحدث أبدا ... اذا أنت أو بوسيدون ، أو زيوس سيد السماء ، دفعتم للبشر كفارة عن كل شهوة غير قانونية ، ستصبح معابدك خاوية ... اذا دفعت غرامات عن أعمالك غير الشرعية . !!!

فعندما تتبع لذاتك مفضلا اياها على الحكمة ، تصبح غير عادل . وهكذا يصبح أيضا من غير العدل ، أن تدعو البشر أشرارا ، عندما نحاكي الأفعال الشريرة للآلهة ، بل الأشرار هم من أعطونا مثل هذا المثال.) (Eur., Ion,436 — 451)
وفي « هيراكليس مجنون » يقول هيراكليس نفسه :

(أنا لا أصدق أن الآلهة تنغمس في رغبات غير مقدسة أما القصص عن الآلهة ذات الأيدي المصفدة ، فدائما ما احتقرتها ، ولن أعتقد فيها أبدا ،

فلا يمكن ان يسود إله بشكل طبيعي إلها آخر ، فالإلــه اذا كان هكذا حقــا ، ليســت له حاجــات ، انهــا قصص المنشــدين الحمقاء .)
(Eur., Herac. Fur., 1341 — 1346)

وفي « افيجينيا في أوليس » عندما تقــرر افيجينيا التضحية بنفسها ،تعلق الجوقة على هذا بأن طلب الآلهة التضحية بأفيجينيا ليس له معنى ، وأن نزوات الآلهة شيء بغيض :

(لقــد لعبــت دورا نبيلا أيتهــا العذراء ، لكنهــا بغيضــة نزوات القــدر والآلهة .)
. (Eur., Iph. Aul., 1402 — 1403)

هذه النظرة الموضوعية للآلهة ، والتحرر في معالجة الدين أو طبيعة الآلهة من خلال الاسطورة، لم يكن بالضرورة وليد فراغ ، فمــن الملاحــظ أن ايسخولوس وسوفوكليس لم يشــيرا في أعمالها التـي وصلتنا الى عدم ثقتهم بالآلهة الهومرية ، ربما عن عدم جرأة على ذلك ، ربـا رأيا أنـه من غـير اللائــق التشكيك في الآلهة ، أو ربما لم يكن الظرف الزمني مناسبا لهذا . أما يوربيديس فقد ناقش هذا الموضوع بجرأة وتحرر تام ، وساعده على ذلك تكوينه الفكري أولا كمفكر واع درس الدين من خلال الأسطـورة بعقله قبل أن يؤمن ايمانا أعمى ،ورأى أنه من غير المعقول أن توجـد آلهـة ترتـكب كل هذه الحماقـات والنزوات ، فالاله في رأيه ـ اذا كان حقا الها ـ منزها عن النزوات والرغبات كما يقول هـيراكليس . امـا الظرف الثاني الذي ساعد على الخوض بحـرية في الدين والأسطورة ، فكان الرأي العام الذي تأثر الى حد كبير بالسفسطائيين ونظرتهم الى الحياة ، والذي أصبح مهيأ لأن يتقبل آراء أكثر علمانية حول طبيعة القوى العليا أو الآلهة ، من الافـكار القديمـة حول الآلهة الهومرية بكل ما تحمل من صفات تكاد تنزل بها دون مستوى البشر العاديين .

فلم يعد مجلس الاريوباجـوس الآن ينظـر كل الدعاوى القضائية التي تدور حول هجـوم ما على الدين . ويعني هذا أن الطريق امام منتقدي الديانة القديمة أصبح ممهدا دون خطر على حياتهم .

ولا يتعارض هذا مع حادثة اعدام سقراط ، اذ أن سقراط لم يهاجم الآلهة علنا ، ولكنه أعدم لتدريسه « تعــاليم جديدة » مع ما في هذا من خطــر على الديماجوجيين الذين يخشـون فكرة المعرفـة واحتـرام الدستور ، وبرغم هذا فان اعدامه لا يعني بالضـرورة تمسك الاثينيين بالقـديم ، فقـد كان اريستوفـانيس الذي قاد الهجـوم الشرس ضد يوربيديس وسقـراط واتهمهما بالالحاد ، من أكبر الساخرين بالآلهة بجرأة كبيرة تفوق فيها على الشاعر والفيلسوف .

هـذا الموقف المتحـرر من الشاعـر في معالجـة الاسطورة جعـل بعض النقـاد يتهمونـه بالالحـاد ، فيسوق د . فيرال رأيه عن يوربيديس الملحد أو على الاقل المتشـكك في الديانـة التقليدية مدعما بسطـر اقتبسه لوكيانوس عن يوربيديس حيث يقول :

(زيوس ، مهما كان زيوس ، أنا لا أعرف عنه إلا قصصــا .)
(Lucian, Zeus Tragoedus, 41)

مثل هذه العبارات ترد كثيرا عند يوربيديس ، لكن هل يمكن الأخذ بها فعلا كمؤشر لتأكيد الحاد الشاعر ؟

في (هيكابي) عندما يدخل تالثوبيوس رسول الاغريق ليعلن لهيكابي موت ابنتها بولكسينا ، يراها منطرحة أرضا ويحس بما تعانيه من شقاء فيناجي الإله زيوس قائلا :

(مـاذا سأقـول يازيوس ، الا ترى البشر ، أم أننا نتمسك بهذا المجد الخيالي عبثا ، نحن الذين نعتقـد بوجـود جنس الآلهـة ، بينا تسيطر الصدفـة على كل الأشياء بـين البشر .)
(Eur., Hec., 488 — 491)

للوهلة الاولى تبدو مثل هذه العبارات تأكيدا من الشاعر على رفضه فكرة وجود الآلهة فهـو يقـول : زيوس ، مهما كان زيوس أنـا لا أعـرف عنـه الا قصصا . الا أن نفس هذا السطر يعطي احساسـا آخر هو محاولة يوربيديس التعرف على القوى العليا

التي تحكم البشر ، فهو لا يقنع بقصص تحكي عن زيوس أو غيره من الآلهة ، وانما يحاول البحث عن كنه وماهية هذه الآلهة ، هل هي الصدفة ؟ هل هو العقل أو المنطق ؟ أم هي قوى أخـرى لا يعرفهـا البشر ؟ .

وفي مقابل اتهام الشاعر بالالحاد ، فان العديد من أعماله تؤكد احترامـه للـدين مثـل هيبولوتـوس والباخيات ، التي تؤكد على أهمية احـترام اعتقـاد الانسـان في شيء معين ، وأن السخـرية من هذا الاعتقاد تجر المصائب كما حدث لهيبولوتوس وباثثيوس حين سخرا من مقدرة الآلهة .

وفي « أبنـاء هـيراكليس » يصف يوربيديس ازدهار أثينة وتقدمها ويرجعـه الى الايمـان بالآلهـة . وأيضا في « اللاجئات » يمثل ثسيوس هذا الاتجاه .

(Eur., Herac., 901 — 909., Suppl., 594 — 596)

وحتى في المسرحيات التي تهاجم فيهـا الآلهـة هجوما حادا نجد أنها في نهـاية المسرحية تغـير من سلوكها وتبرره مثلما حدث لكريوزا في « أيون » والتي تعود في نهاية المسرحية فتقـول أن (معبـد ومذبـح ابوللون قد عادا ثانية كأحب شيء لها .) وبهذا فمن الطبيعي أن يعود المشاهد ويتعاطف ثانية مع الإلـه العادل .

فقد كان يوربيديس واعيا بضرورة وجود الآلهة للبشر ، مهما كانت الصورة التي تتشـكل بهـا هذه الآلهة .) فاذا انتفى الثواب والعقـاب في الحياة فما جدواها ؟ (وحتى في الأدب الحـديث تبـرز حاجـة الانسان للإله الذي ينظـم العلاقـات بـين البشر ، فيقول الكاتب الروسي « فيودور دو ستويفسكي » في « الاخـوة كارامـازوف » على لسـان أحـد أبطالـه « ميشـكا » : لو لم يكن الله موجـودا لخلقنـاه نحن .) .

تقـول « كليتمنسترا » مؤكدة هذا المعنـى في « افيجينيا في أوليس » وهي تخاطب أخيليس :

(هكذا يكون الأمر ... احكم أنت ، ويجب أن أكون مطيعة .
اذا كانت هناك آلهة ، فان الرجل العادل
سيكسب عطفهم ...

واذا لم يوجدوا ... فلماذا يشقى البشر ؟ !!)
(Eur., Iph. Aul, 1033 — 1035)

ويعود هيبولوتوس ليؤكد أهمية الآلهة التي تنظم العلاقات بين البشر فيقول :

(نعم ، فالبشر يعيشون بالقوانين المستقاة من الآلهة .)

(Eur ., Hipp ., 98)

وفي نفس السياق يؤكد « ادراستوس » في « اللاجئات » على ارتباط الانسان بالإله . (وهو هنا زيوس ، في حين أنه قبل ذلك كان الها مجرداTheusأو قوة عليا مقدسةDaimon ,ويؤكد هذا عدم أهمية الشكل الذي يتخذه هذا الإله عند يوربيديس فيقول مخاطبا زيوس :

(أوه زيوس ، كيف يقولون أن البشر الضعفاء
هم حكماء ، ألا نرتبط نحن بارادتك ،
وما نفعله ، أليس هو ما تريده أنت ؟)
(Eur., Suppl., 734 — 736)

وهكذا فيبدو أن يوربيديس كان يعتقد في وجود (قوة ادراكية ما ...) وقد ظهر عند اريستوفانيس في « الضفادع » وهو يتضرع لهذه القوة التي أخذت عنده أشكالا متعددة منها العقل والذكاء المتدفق الناقد والأثير .

كما ظهرت « هيكابي » من قبل وهي تتضرع الى أي إله أو قوة عليا لتنقذها من محنتها حين تقول :

(أهناك إله أو قوة عليا تنقذني من محنتي ؟)
(Eur ., Hec ., 163 — 164)

كما يبدو أن يوربيديس لم يعط الاهتمام الكافي للسؤال الذي لا بد وأنه قد راود البعض في هذه الفترة ، حول تعدد الآلهة ، فهو كثيرا ما يستعمل الجمع والمفرد للدلالة على الآلهة دون الاحساس بوجود أي فارق ، فيقول على لسان اورستيس :

(نحن عبيد للآلهة ، مهما تكن الآلهة .)
(Eur ., Orest ., 418)

أي أن الصورة التي تتشكل بها هذه الآلهة غير ذات موضوع عند يوربيديس وانما هي قوى غير معروفة تشكل حياة الانسان ، وقد تكون نظرة كل شخص لهذه القوى نظرة شخصية بحتة ، لكن ربما كان الانسان من الناحية الاخلاقية أفضل في بعض الاحيان من هذه القوى ، لانه على الأقل يحب ، ويشفق ، ويحاول أن يفهم ، وهذا هو الانطباع الأخير الذي تتركه قراءة مسرحيات مثل « الباخيات » أو« هيبولوتوس » أو« الطرواديات » .

وفي محاولة يوربيديس الجادة في البحث عن إله واحد ، أو على الاقل تعريف محدد لإله أو آلهة معينة نجد أن « كليمنت الكندري » وهو المسيحي المؤمن بالله يستشهد كثيرا بأبيات من شعر يوربيديس للدلالة على محاولة الانسان الدئمة للاتصال بالإله الواحد ، فهو يقتبس منه :

(الإله يرى كل شيء ، ولكنه نفسه لا يرى أبدا)

(clement of Aiexandria, Exhostation to the Greeks, VI. 59 p.)

وقبـل ذلك اقتبس بلوتارخـوس ثم لوكيانـــوس وديوجينيس لايرتيوس ، أبياتا من أعماله للدلالة على محاولته المستمرة في البحث عن تعريف محـدد لإلـه يرضى عنه .

هذا الإله الـذى ربمـا يتخـذ عنـد يوربيديس أشكالا متعـددة كما يقـول هو نفسـه على لســان « هيكابـي » قد يكون : العقـل أو الضرورة ، أو زيوس نفسه كما يتضح من القطعة التالية :

(أنـت يامـن تحمـل الأرض ، وعرشــك هو الأرض ، مهما تكن ، أنت لغز يفوق ادراكنـا ، ان تكن زيوس ، أو الضرورة الـطبيعية ، أو عقـل الانسان ، لك أُصلي ، فبرغم انك تسـلك طرقـا لا صوت لهـا ، الا أن كل تعـاملك مع البشر يسـوده العدل .) (Eur ., Troad ., 884 — 888) .

هذه الروح المتحررة التي تميز بها الشاعر ، ربما كانت هي التي قادت الى اتهامه بالدنس ، وعن هذا الاتهام لا يعرف الكثير ، لكن يبدوأن يوربيديس قد بريء آخر الأمر .
(Satyrus, 39. X. 15 — 22 and Note.)

وقد ظلت هذه الشخصية المتحررة المميزة للشاعر ماثلة بوضوح شديد حتى آخر سطر كتبـه في آخـر أعمالـه « البـاخيات » هذه المسرحية تفجـر قضية أخرى فيما يخص آراء يوربيديس الدينية ، يرى أن الشاعر كتبها تراجعا منه وتكفيرا عن موقفه المتشكك في الآلهة ، والبعض الآخر يرى عكس هذا .

يقول Paley : أن « الباخيات » تعبر عن وجهة نظر جديدة ليوربيديس في المعتقدات الدينية ، أو على الاقل تغيير في وجهة نظره القديمة ، وتراجع ومحاولة منه في أخريات أيامه للتكفير عن هجومه المستمر على معتقدات مواطنيه الاثينيين . فكتب يمجـد الديانـة ويناصرها . وربما كان ذلك لاتصاله بأناس جدد في مقدونيا وارتباطه بهم ، فقد خذلته الفلسفة والمنطـق اللذان تمسك بهما ، فوجد ملجأه أخيرا في الموافقة على المعتقدات الدينية الموجودة في مقـدونيا . (Paiey, Euripides, vol. 11. pp. 413 — 414) وربمـا كون Paley هذا الـرأي بسبب بعض السطـور في « الباخيـات » والتـي تعطـي احساسا بتراجع يوربيديس عن موقفه السابـق من الديانة التقليدية ، فمثلا يقول كادموس :

(بشر كما أنا ، أنا لا أحتقر الآلهة)
(Eur ., Bacch ., 199 .)

فيرد عليـه العـراف تيريسيـاس مؤكـدا نفس المعنى :

(أنا لم أنغمس في خباثات حول قوى السماء ،
فالايمان الذي ورثناه عن آبائنا ، قديم
كالزمن نفسه لن يهزه أي منطق .)
(Eur., Bacch ., 200 — 202)

الا أن Haigh يرى أن هذا الرأي بعيـد عن الصواب ، خاصة وأن المسرحية قد كتبت بعد رحيل يوربيديس نهائيا عن أثينة . كما أنه من المشكوك فيه أن تكون معتقدات يوربيـديس الدينيـة قد أثـارت مواطنيه الاثينيين وتطلبت نوعا من التكفير عنها .

وان كانت معتقدات يوربيديس لم تظهر في « الباخيات » فيعود ذلك الى طبيعة الاسطورة التي يعالجها يوربيديس ، فلم يكن من الطبيعي أن يعرض يوربيديس مسرحية في عيد ديونيسوس تصور بنثيوس على نه ضحية بريئة ، وديونيسوس على أنه مجرد مخادع .

كما أننا لا يمكن أن نعتبر المسرحية تكفيرا لأن المشهد الأخير بين أجافي وديونيسوس الذي تلومه فيه على انتقامه ، وتقول ان الآلهة يجب أن تكون أنبل من البشر وتترفع عن الانتقام ، فيجيب هو بأن سلوكه هذا كان بموافقة زيوس .

(Eur ., Bacch ., 1433—34)

هذا المشهد لا يعد بأي حال تكفيرا وانما هو عرض لفساد الآلهة الموجودة في الأساطير اليونانية .

ونميل الى الأخذ بالرأي الثاني لأن « الباخيات » ما هي الا دراسة قام بها شاعر من دأبه الاهتمام بالديانة في صورها التقليدية وغير التقليدية . فقد كتب يوربيديس هذه المسرحية أثناء وجوده في مقدونيا حيث عايش جوا وفكرا دينيا يختلف عما عاشه في أثينة من قبل ، مما استرعى اهتمامه بلا شك فكتب هذه الدراسة . واذا كان من الممكن استخلاص درس أراد يوربيديس إلقائه في هذه المسرحية فهو « الاعتدال » ، و « أخطار عدم التحكم في النفس. » .

وهكذا يتضح الى حد ما موقف يوربيديس الفكري من الديانة الاغريقية والأثينية خاصة ، من خلال معالجته للأسطورة في أعماله الدرامية ، فلم يكن يوربيديس ملحدا ، بل كان واعيا ومقدرا لأهمية الدين في تنظيم العلاقات بين البشر ، لكنه كان رافضا للأشكال التقليدية للآلهة الهومرية التي اعتبرها قصصا وخرافات لشعراء جوالين ، ومما يحط من قيمة الانسان في رأيه أن يعتقد في آلهة بهذا الشكل ، مخادعة ، تقودها شهواتها ، لا تحمل أي حب للبشر :

(نحن منساقون في نهر مظلم من الأساطير .)
(Eur ., hippolyt ., 197)

فالإله اذا كان حقا إلها لا يحتاج لأي شيء ـ في رأيه ـ ليثبت وجوده ، كما يقول على لسان هيراكليس . كان الشاعر مفكرا واعيا تأثر الى حد كبير بالسوفسطائيين ، فلم يعد يخضع لخرافات أو قصص تحاك حول الآلهة وانما اخضع كل ما حوله لمنطق خاص منه بأن الإله لا يمكن ان يتخذ هذا الشكل التقليدي الذي ينزل به الى مادون مرتبة البشر أحيانا . حقيقة أن يوربيديس لم يستطع أن يصل الى تعريف محدد لهذا الإله الذي اقترب منه بمنطقة الخاص ، فقد تعددت الصور المعنوية لهذا الإله (فلم يتخذ هذا الإله ابدا عند الشاعر صورة مادية أو تشخيصية أو احلالية .) وتراوحت بين الاثير أو العقل أو الضرورة أو الذكاء أو العدالة ، أو قوة عليا ربما كانت زيوس نفسه بعد أن خلصه يوربيديس من الشوائب والقصص التي حيكت عنه .

الا أنه يشفع له محاولته نفسها في الوصول الى قوة عليا أو إله معين ، وبالتالى تخليص الديانة الاغريقية مما علق بها من شوائب وخرافات حتى يقود مواطنيه الاثينيين الى طريق آخر للتفكير في الإله ،

اسمى وأعمق ، هو تقديس الكائن أو العقل الأعظم ، خالق كل الموجودات .

وساعدته على ذلك الروح العلمية التي سادت أثينة في ذلك الوقت ، وتغليب المنطق والعقل على العاطفة والذي كان أحد نتائج ظهور السوفسطائيين ، وبهذا كانت التربة الأثينية صالحة كى يلقي فيها يوربيديس بذورا تحمل أفكارا منطقية حول طبيعة الآلهة وماهيتها ، ومن هذا المنطلق لا بد وأن يكون قد حدث تغيير ولو طفيف (لأن هذه الافكار الجديدة التي حملها يوربيديس ، ولن نتعرض هنا لسقراط ، لم تكن قد سادت بعد) في البناء الاجتماعي للمجتمع الأثيني في القرن الخامس ق .م . فالفرد الأثيني حين يتعامل مع قوة عليا أو إله لا يدرك كنهه الا بالعقل المجرد ، لا بد وأن يختلف سلوكه الاجتماعي عن وقت مضى كان يتعامل فيه مع آلهة اتخذت أشكالا بشرية وحملت صفات متعددة يحملها البشر أنفسهم ، فيمكن خداعهم أو اثارة حقدهم عليهم أو رشوتهم الى غير هذه الصفات التي خلعها هوميروس .

هذه الآلهة أو الدين اليوناني بشكل عام كان من صنع المجتمع ، فالإله هو تصوير للخيال والمنطق والعواطف النابعة من الظروف الاجتماعية . وككل الاديان البدائية ، كان الدين اليوناني يعكس ضعف الانسان في مواجهة القوى الطبيعية ، ثم وفيما بعد القوى التي يكتشفها في المجتمع حوله ثم في نفسه ، وتزداد رهبته اياها كلما فشل في الوصول الى مصادرها .

وكغالبية الأديان في الشرق والغرب بدأ الانسان بتقديس ظواهر الطبيعة ، ثم تعامل مع أشكال الطبيعة نفسها باعتبارها آلهة . ثم أعطى هذه الآلهة الشكل البشرى ـ باستثناء مصر التي أخذت بعض الآلهة فيها أشكالا حيوانية ـ وعندما انتقل اليونانيون الى تصوير الآلهة على الشكل البشري ، حددوا لهم طريقة مولدهم واختصاصتهم وجعلوا لهم مقرا هو جبل الأوليمبوس . وبالتدريج أصبحت هذه الآلهة التي استخرجها الانسان من عقله ، منفصلة عن واقع هذا الانسان ، فهو يعرفها لكنه لا يحسها أو يشعر بها كما كان الحال مع الآلهة الطبيعية .

ومع التقدم الحضاري كان من الطبيعي أن تفشل هذه الآلهة في الوفاء بمتطلبات الانسان ، ومن هنا يبدأ تدهور النظرة القدسية لهذه الآلهة . ومن هذه النقطة بدأ يوربيديس .



استمرارا لموقف يوربيديس من الدين والأسطورة كان موقفه من النبوءة والمتنبئين . يقول اخيليس في « افيجينيا في أوليس » :

(من هو العراف ؟ انه شخص ينطق بقليل من الصدق ، وكثير من الكذب ، وبما أن الصدفة هي التي توجهه ، فالاعتقاد فيه يقاس بمدى نصيبه من الحظ .)

(Eur ., Lph . Aul ., 956 — 958)

ويقول الرسول في « هيلين » انه من السخف تصديق أن التنبؤ عن طريق الطيور يمكن أن يفيد البشر : (Idem, ., Hel ., 747) ويؤكد نفس الرسول في نفس الموضع أنه :

(لا يوجد رجل اغتنى بنبوءة ، اذا كان كسولا ،

فأفضل العرافين يحكمون ،
بالفطنة والذكاء .)
(Ibid ., 756 — 757)

وربما كانت عدم قناعة يوربيديس كما يبدو هنا بالعرافة واعتقاده أن العراف ان هو الا شخص يعتمد على الحظ في نبوءاته . أول الأسباب التي جعلته يتخذ موقفا مضادا من هذه الفئة التي تغلغلت في المجتمع الأثيني ، وبلغ من قوتها ـ خاصة عرافة دلفي ـ أن تدخلت في أمور السياسة والمعارك كما حدث في حملة صقلية .

ويبدو كره يوربيديس للعرافين واضحا في العديد من أعماله ، ففي معالجته لمأساة اليكترا وأخيها اورستيس وقتله لأم كليتمنسترا ، نجد أن أورستيس يحمل الإله أبوللو وعرافته مسئولية ما حدث .

ففي « اليكترا » ولد شك اورستيس في نبوءة عرافة دلفي تلكؤه في قتل أمه كليتمنسترا ، فيظهر هنا مترددا تماما في قتل أمه ، وهو حينما يقتلها يبدو كما لو كان مغلوبا على أمره بواسطة النبوءة ، بينما عند ايسخولوس لم يتردد الا مرة واحدة عندما تستعطفه أمه فيأخذ رأي صديقه بيلاديس :

(بيلاديس .. ماذا أفعل الآن ، هل أكون رحيما بها ؟)

(Aeschyl ., choeph ., 899)

أما عند يوربيديس فيحمل اورستيس الإله أبوللون وعرافته المسئولية كما يتضح من الحوارالتالي :

أورستيس : (ماذا يجب أن نفعل بأمنا .. أنقتلها ؟)

اليكترا : (ماذا ... هل تملكتك الشفقة لمرآها ؟)

اورستيس : (أيها الإله ... كيف أقتل من ولدتني وأرضعتني ؟)

اليكترا : (اقتلها ... كما قتلت أباك وأنا .)

أورستيس : (أوه فويبوس ... كم هي حمقاء النبوءة .)

اليكترا : (هل يخطيء أبوللو ... اذن من يكون الحكيم ؟)

اورستيس : (عندما يأمرني بهذه الجريمة ... قتل أمي ! !)

وبعد بضعة أسطر يعود اروستيس ليقول :

أورستيس : (من المؤكد أنه كان شيطانا في صورة إله ،
من أمرني بهذا .

اليكترا : (جالسا على العرش المقدس .. !!
لا أعتقد هذا .

أورستيس : (أنا لا أصدق أنه عنى هذه النبوءة .)

(Eur ., Elect ., 966 — 973M 979 — 981)

وبعد قتله لأمه يندب أورستيس حظه ويرثى أمه ويحمل أبوللون وزر ما حدث :

(أوه فويبوس ... كنت أنت الصوت الذي
امتدح هذا الانتقام ،
انه أنت الذي أخرج هذا المنظر المفجع
الى الضوء ،
وتسببت في اراقة الدماء .

(Ibid ., 1190 — 1193).

وفي « افيجينيا بين التاوريين » عندما يحين وقت التضحية بأورستيس وصديقه بيلاديس يخاطب اورستيس وصديقه صراحة قائلا :

(انه فويبوس الذي خدعنا بنبوءاته...ثم استنبط حيلة تبعدني لأبعد ما يكن عن بلاد اليونان ، خجلا من نبوءاته الماضية ، فبعد أن اسلمت أمري اليه ، وأطعت كلمته ، حتى في قتل أمي ، في مقابل هذا وجدت نفسي قد انتهيت .)

(Eur ., Lph . Taur ., 711 — 715)

ويظهر مدى طموح طائفة العرافين من تخوف كل من أجاممنون وفيلاوس فهم كما يتضح من الحوار التالى في « افيجينيا في أوليس » :

أجاممنون : (كل طائفة العرافين هم لعنة واحدة طموحة .)

منيلاوس : (بغيضون غير ذوي نفع وهم أحياء .)

(Eur ., Lph . Aul ., 520 — 521)

هذا الموقف الذي اتخذه يوربيديس من النبوءة والعرافين لم ينبع فقط من قناعة شخصية لدى الشاعر بعدم جدوى مثل هذه الامور في حياة البشر ، وانما اختفى وراء ذلك سبب سياسي قوي ، فقد انحازت مدينة دلفي (وهي مركز عرافة أبوللو) أثناء الحروب البلوبونيسية الى اسبرطة ضد أثينة ، ثم وأثناء المناقشات حول حملة الاثينيين الى صقلية ، شجعت عرافة أبوللو في دلفي هذه الحملة ، والتي انتهت بكارثة للأثينيين .

(Plut ., Vitae , Nic ., 13 c .)

مما ساعد على تصاعد الشعور العام عند الاثينيين ضد أبوللون وعرافته في دلفي .

وبهذا كان من الممكن أن يهاجم يوربيديس الإله أبوللون وعرافته ، دون خشية محاكمة أو معارضة ، وهذا يبرر جرأة الشاعر في معالجة الامور .

وهكذا يرتبط الدين بالسياسة في تفكير الشاعر .

ونتيجة لهذا فقد صور يوربيديس ابوللون في صور كثيرة مخزية ، في « أيون » ، وفي « اندرو ماخي » ، وفي « اليكترا » ، وأيضا في « أورستيس » .

(Eur ., Ion , 67 — 73 ,1557— 1558)

(Ide, ., Andro ., 1161 — 1165)

(Ide, ., Elect ., 1245 — 1302)

(Ide, ., Orest ., 28 — 30 , 160 — 417

وبلغ هجوم يوربيديس اقصى درجات العنف في « هيلين » التي كتبها بعد الحملة على صقلية بفترة وجيزة ، وفيها يهاجم الشاعر العرافين المتنبئن بشراسة وبطريقة مباشرة .

(Eur., hel., 744 — 757)

وهكذا كان الشاعر عن طريق ادواته الدرامية يدفع مواطنيه الاثينين الى عدم الاعتداد بالعرافين ولا باقوالهم التي لا تضر ولا تنفع والعودة الى عبادة الآلهة .

(وفيما يخص الطيور التي تحلق فوق رؤوسنا ، وداعا الى الابد لهم .) .

(Eur., Hipp.,& 1058—1059)

ولا شك ان لهذه الدعوة من قبل الشاعر هدفا يتعدى مجرد دعوته مواطنيه الى عدم الاعتقاد في العرافين ونبوءاتهم .

هذا الهدف يتركز في طبيعة تكوين المجتمع الاثيني المليء بالخرافات ، فلا شك ان مجتمعا مثل هذا يعتقد الناس فيه في مثل هذه النبوءات ، كيّف حياته طبقا لهذه الاعتقادات ، وبهذا تكون كل تصرفات اعضاء هذا المجتمع نابعة من منطلق ايمانهم بصدق العرافين ونبوءاتهم ، وفي حالة اذا ما انهدم هذا الاعتقاد فان مثل هؤلاء المواطنين لابد وان يعدلوا من سلوكهم بما يتلائم مع الوضع الجديد ، وهذا هو هدف الشاعر كمفكر اجتماعي يطرح قضية نظرية تمس واقعا موجودا حتى يستطيع تغيير هذا لواقع .

●●●

هكذا كان يوربيديس ، مفكرا اجتماعيا تعامل مع الدين من خلال الاسطورة كعنصر اساسي في المجتمع الاثيني ، فحاول ان يخلص الديانة الاغريقية مما علق بها من شوائب فقد رفض الآلهة بشكلها الهومري التقليدي ، وحاول التوصل الى تعريف محدد للقوة العليا التي هي الله ، ربما لم ينجح تماما في هذا ، الا انه غلب منطقة وعقله على عاطفته ، حتى يستطيع ان يحدد شكل الديانة الخالية من الخرافات كالآلهة التي تحب وتكره وتنتقم وتخادع ، فالاله عنده قوة عليا تفوق ما عداها ، ولا يهم الشكل الذي تتخذه هذه القوة ، انما يكفي ان يدركها الانسان بعقله ، حتى يستطيع ان يتوائم في سلوكه الاجتماعي مع قوانين هذه القوة العادلة الحكيمة ، التي ربما عني بها يوربيديس « الله » وان لم يفصح عن هذا .

***

فلسفة واجتماع

حرية الانسان في الميزان

محمود زيدان

أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة بجامعة بيروت العربية[1]
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة السابق بجامعة الاسكندرية

(١)

مقدمة

موضوع هذا المقال هو اعادة النظر في إحدى أهم المشكلات الفلسفية التي شغلت المفكرين منذ وقت طويل ، ولا تزال تقلق بالهم ، كما أنها مشكلة تفرض نفسها علينا في عالم الواقع الذي نحياه وهي ما اذا كان الانسان حرا مختارا فيا يفعل من أفعال أم أنه مجبر مغلوب على أمره . ان ما أسعى الى تأكيده هنا هو الدفاع عن المواقف الثلاثة التالية :

(أ) ان الخلاف بين نظرية الجبر ونظرية الحرية أقل حدة مما يظن أصحاب النظريتين المتخاصمتين ، وأن هاتين النظريتين ليستا على طرفي نقيض ، وأن الخط الفاصل بينهما غير موجود .

(ب) ان النظرية الجبرية الدينية أو ما تعبر عن الايمان بالقضاء والقدر لا تهتم اساسا بموضوع حرية الانسان كمشكلة فلسفية خالصة بقدر ما تهتم بموضوع عدل الله وتوحيده وعلمه وارادته ، وهما موضوعان مختلفان متميزان يمكنك البحث في أحدهما دون البحث في الآخر ، وأن الفلاسفة المؤمنين بالله الذين حاولوا التوفيق بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر إما يقعون في نهاية المطاف في أحضان جبرية متطرفة ، او يعترفون بعجزهم عن توفيق حقيقي . لكنا نقترح الدفاع عن الاتفاق بين الايمان بالقضاء والقدر والقول بالجبرية أو بالحرية على حد سواء .

(ج) الحرية بالمعنى الدقيق للكلمة في طاقة الانسان ، لكنها مثلا أعلى نادرا ما يصل اليه ، ولقد

اعتمدنا في اثبات هذه القضية على تحليل معين للفعل الارادي ، فلم نميز فقط بين الافعال اللاارادية التي لا اختيار لنا فيها والافعال الارادية الاختيارية ، وانما ميزنا أيضا في الافعال الارادية بين ما سميناه « الفعل الارادي اسما » و« الفعل الارادي حقا » ، وهذا الاخير هو ما يوصف فقط بالحرية بالمعنى الدقيق . لقد دافعنا عن هذه المواقف في الاقسام الثلاثة الاخيرة من البحث ، ولم تكن الاقسام السبعة الاولى سوى تمهيد وتوضيح لمن يجد في نفسه حاجة الى قراءتها .

(٢)

تعريف بمشكلة الحرية

أ ـ لكي نقدم حلا مقبولا لمشكلة ما ، يجب ان نضعها أولا في صياغة جيدة ، لذا فإننا نبدأ صياغة مشكلتنا في صورة أمثلة نألفها في حياتنا اليومية . قد يتهاون موظف في انجاز ما يسند اليه من عمل ، أو قد يرسب طالب في الامتحان نتيجة اهماله في مذاكرة دروسه ، فيلام كل منهما على ما وصل اليه ، ويصاب بحزن وأسى ، فيشحذ همته ويبذل جهده لأداء واجبه فينال الموظف رضا رؤسائه ويجتاز الطالب امتحانه بنجاح . قد تقدم لموظف خمسين جنيها رشوة لأداء عمل غير مشروع فيرفض أخذها ، فتزاد الرشوة الى مائة جنيه فيمتنع الموظف عن أخذها قائلا : « لم أرفض الرشوة للمرة الاولى لقلتها وإنما أرفض قليلها وكثيرها ، لأن الرشوة نوع من السرقة أو الخيانة ، وكلاهما يعاقب عليهما القانون المدني أو قواعد الاخلاق الصحيحة . قد يعمد زميل الى اثارة غضبي فأكتم غيظي وأقاوم في نفسي سورة الغضب الثائر ، لكن قد لا يستطيع شخص آخر ان يملك نفسه عند الغضب . وقد أفعل ما لا أحبه ولو لم يرغمني عليه أحد ، كمن يتحمل الألم في سبيل الدفاع عن مبدأ خلقي أو سياسي ، وكم رغب اناس ان يكونوا شهداء من طواعية واختيار .

تدلنا هذه الامثلة - وكثير غيرها - على أن بالانسان قدرة على بذل الجهد والمحاولة ومقاومة الرغبات الشريرة والانفعالات في سبيل الدفاع عن مبدأ أو عقيدة ، وقدرة على ضبط النفس . وهناك أيضا أمثلة كثيرة تعبر عن لوم الانسان لنفسه وتأنيب ضميره على بعض ما فعل من أفعال ، يدل كل ذلك على انك قد تفعل فعلا وكنت قادرا على أن تفعل فعلا مختلفا ،وذلك أول معاني الحرية .

لكن هناك حالات أخرى في حياتنا اليومية تؤكد ضعف الانسان وعجزه عن مقاومة رغباته الدافقة وعجزه عن ضبط نفسه أو يقظة ضميره أو تغيير ما درج عليه من أنماط السلوك تعودها فرسخت واستبدت به فلا يملك منها فكاكا ، مثل حالات المدمنين على الشراب والتدخين ، والمصابين بأمراض نفسيه أو عقلية حادة ، أو من يقعون تحت تأثير تنويم مغناطيسي ونحو ذلك ، هؤلاء جميعا مجبرون على ما يفعلون .

خذ أخيرا أمثلة أخرى محيرة يصعب الحكم فيها بالجبر أو بالاختيار . أمامنا أحد رجال الدين الذي كان في ماضيه مدمنا على الشراب المحرم في دينه ، فشعر برغبة حادة في الشراب ، لكنه وجد نفسه

مضطرا الى الامتناع عن تناول الكأس حفظا على هيبته وسمعته بين الناس ، وقاوم رغبته في النهاية ، فهل كان الرجل مختارا فيا فعل أم أنه مجبر ؟ خذ أيضا حالة من ارتكب جريمة قتل وقدم للمحاكمة ، ووقف الدفاع أمام القاضي قائلا ان المتهم اضطر الى ما فعل لظروف طفولته التعسه أو بيئته الفاسدة التي أدت به الى كرهه للمجتمع وحقده عليه ، فدفعه ذلك الى جريمته ، ولم يكن يملك مقاومتها . فيرد القاضي بقوله ان المجرم مسئول عما فعل فقد كان حرا مختارا في تدبير خطة للقتل ، والقانون يحرم القتل العمد بصرف النظر عن تاريخ حياة القاتل أو دوافع القتل . فيعاود الدفاع قوله ان القضاء يعالج القسوة التي عاناها المتهم في حياته بقسوة العقوبة المنصوص عليها في القانون ، فيدفع القاضي ذلك بقوله ان الدفاع يتهم القانون بالقسوة بينما يدافع القانون في الواقع عن المجتمع ويحميه من هؤلاء المجرمين . وكان من الممكن ان يستمر الحوار بين الدفاع والقاضي أياما لولا ان القاضي أوقف الحوار معتقدا بعدالة حكمه ، ودفع بالمجرم الى المقصلة . أنت هنا حقا أمام موقف يصعب عليك الحكم على القاتل بما اذا كان مختارا أم أنه مجبر !

ب ـ بعد الاشارة الى مشكلة حرية الانسان في صورة أمثلة واقعية من حياتنا توحي بعضها بأننا أحرار ، ويوحي بعضها الآخر بأننا مجبرون - نتحدث الآن عن ثلاثة دوافع جعلت من موضوع الحرية مشكلة ، وفي بسط كل دافع صياغة معينة لهذه المشكلة ، ولك ان تختار أي دافع شئت ليكون صياغة لها .

(١) نشأت مشكلة الحرية من المفارقة بين اعتقادين عليهما اجماع كل الناس ، لكن ما يلزم عن أحد الاعتقادين من نتائج مناقض لما يلزم عن الاعتقاد الآخر . اذا أردنا تحديد موقف الجبرية في عجالة قلنا انه الاعتقاد بأن لكل فعل علة ، ولا فعل لا يقبل التفسير ، واذا أردنا تحديد موقف الحرية في عجالة قلنا انه الاعتقاد بأن لكل انسان ارادة واختيارا . لكن اذا تأملنا موقف الجبر رأينا أنه لا يقول فقط ان لكل فعل علة وإنما يقول ايضا ان هذه العلة علة أخرى تسبقها وتفسرها ، وهذه محتاجة بدورها الى شيء آخر أدى اليها ، وهكذا حتى تصل سلسلة العلل الى ظروف طبيعية خارجة عن ارادتي تحتم أفعالي ، أو حوادث قامت قبل أن أولد كالعوامل الوراثية ، وحينئذ أتحدث عن علل لا سلطان لي عليها ولا حيلة لي فيها ، وبالتالي لست مسئولا عما أفعل ولم أكن مستطيعا أن أفعل غير ما قد فعلت . ومن جهة أخرى يبدأ أنصار الحرية باعتقادنا الراسخ ان لنا ارادة واختيارا فحين أؤدي عملا معينا أعتقد انه كان باستطاعتي أن أودي عملا مختلفا لو كنت أردت ، ومن ثم فأنا حر مختار مسئول عما أفعل . والخلاصة أن الجبرية تبدأ باعتقاد يجمع عليه كل الناس وهو أن لكل شيء علة ولكل فعل تفسيرا وسوف يؤدي ذلك الى انكار المسئولية ، لكن مذاهب الحرية تبدأ أيضا باعتقاد يجمع عليه كل الناس

ويحسونه باستبطان وهو أن لكل منا ارادة واختيارا ، ومن ثم التمزق الفكري فظهور المشكلة .[١]

(٢) نشأت مشكلة الحرية أيضا من التفاعل بين اعتقادين آخرين ، فنحن من جهة مسئولون عما نفعل فان أطعنا أوامر الله استحققنا الثواب والنعيم ، وان فعلنا ما نهانا عنه حقت علينا العقوبة والعذاب ، لكن نعتقد من جهة أخرى بتوحيد الله وعدله وخيره ، فما نفعل من شر يعلمه الله بل أراده وقدره ، والا فعلنا ما لا يعلمه الله ولا يريده والله منزه عن الجهل والعجز . فكيف يتسق في عدله المطلق واستحقاقنا للثواب والعقاب تقديره لما نفعل من ذنوب ثم يعاقبنا عليها ، وكيف يتسق مع خيره المطلق ما أراده من شر يقوم به الناس . وها هنا المأزق : ان نادينا بالحرية فقد تعارض ذلك مع التوحيد اذ سيكون الانسان خالق أفعاله ويتعدد الخالقون ، وان نادينا بالجبرية مع الاقرار بمسئوليتنا عما نفعل فقد تعارض ذلك مع العدل الالهي .

(٣) لدينا دافع ثالث لنشأة مشكلة الحرية في أفعال الناس ، وهو حيرتنا في موقف الافعال الانسانية مما يقوله علماء الطبيعة عن تأكيد الحتمية في العالم الطبيعي - والانسان جزء من هذا العالم قد ينطبق عليه ما ينطبق على سائر الاشياء - أو تأكيد الصدفة عاملا فعالا فيما يحدث في ذلك العالم ، فان أخذنا بالحتمية الكلية في العالم الطبيعي وقعنا في جبرية أفعال الانسان ، وان أخذنا بوجود عنصر الصدفة فقد فتح باب للحرية . فقد جاء علماء الطبيعة في العصر الحديث - ومعهم بعض الفلاسفة - ليؤكدوا الحتمية الكلية في العالم الطبيعي ويقصدون بذلك أن لا شيء يحدث صدفة أو عبثا وانما كل ما يحدث في العالم يخضع بلا استثناء لقوانين يكتشفها العلماء ، بحيث ان عرفنا كل القوانين التي يخضع لها العالم أمكننا التنبؤ بكل ما يحدث فيه من ظواهر وحوادث في المستقبل بكل ثقة ويقين ، ومن ثم تساءل بعض الفلاسفة المحدثين عما اذا كان الانسان يخضع لقوانين تحدد سلوكه وأفعاله ، مثل قوانين علم الأحياء وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس والوراثة ، تلك التي تستمد ضرورتها من ضرورة قوانين علم الطبيعة ، فان صح ذلك جاء الانسان مجبورا على ما يفعل ولا حرية له . لكن جاء علم الطبيعة المعاصر ليعلن ثورته على الحتمية الكلية في العالم الطبيعي ويقول ان هنالك مجالا لما يحدث صدفة أوما لا يخضع للقوانين التي نعرفها ، ومن ثم استحالة التنبؤ الدقيق لما سوف يحدث لبعض الظواهر ، وجاء بعض الفلاسفة ليروا في هذا الموقف العلمي أساسا للقول بحرية الارادة . لكن فريقا ثالثا من الفلاسفة رأى أنه على الرغم من أن الانسان جزء من العالم الطبيعي وان جسمه يخضع للقوانين الطبيعية ، فان الانسان ليس مجرد جسم وإنما به نفس وشعور وحالات لا تسمح بتطبيق قوانين الطبيعة ، واذن

---

(١) أنظر:
J. Cornman and K. Lehrer, Philosophical Problems and Arguments — an introduction, PP. 151-158 2 nd ed. Macmillan New York, 1974.

يخرج الانسان وأفعاله من دائرة العلوم الطبيعية . والخلاصة أن مشكلة الحرية نشأت من اختلاف الفلاسفة بشأن ما يقوله علماء الطبيعة فمنهم من يرى جبرية الانسان على ضوء حتمية العالم الطبيعي ، ومنهم من يرى حريته على ضوء تدخل عنصر الصدفة في حدوث الاشياء ، ومنهم من أدار ظهره للعلوم الطبيعية واكتشافاتها حين بحث في مشكلات الانسان .

(٣)

تحديد مجال البحث

بعد صياغة المشكلة ، نريد تحديد مجال البحث ، فموضوع الحرية والجبرية في أفعال الانسان معقد متشابك لارتباطه بعدد من العلوم يختلف بعضها عن بعض في مجال الدراسة . يرتبط موضوعنا أولا بعلوم السياسة والاجتماع والأخلاق ، فكثيرا ما نتحدث عن الحرية السياسية أي حق كل فرد في التعبير عن رأيه وفي اعتناق المذهب السياسي الذي يشاء ، وكثيرا ما نتحدث عن مسئولية الفرد عما يفعل حيث هو عضو في مجتمع ، كما نقول ايضا ان كل انسان يسلك طبقا لمجموعة من القيم والمبادىء الخلقية التي يشرعها لنفسه او تمليها عليه تقاليد المجتمع أو أوامر الدين . نلاحظ أن هذه العلوم تنطلق من التسليم بحرية الفرد ومسئوليته عما يفعل ، وهو عين الشيء الذي نريد بحثه ومعرفة وجه الصدق فيه ، ولذلك فلن نبحث في موضوع الحرية من تلك الجوانب السياسية أو الاجتماعية أو الاخلاقية ، وإنما سيكون بحثنا في الحرية بحثا فلسفيا ، بحثا يتساءل عما اذا كان الانسان حرا مسئولا حقا أم أنه مخير . لكن هنالك طائفة أخرى من العلوم نود الاستعانة بها ومعرفة مواقفها من موضوع الحرية ، وهي علم النفس وعلم وظائف الاعضاء وعلم الطبيعة . وفي بحثنا الفلسفي عن الحرية لا مناص من الوقوف على تحليل علم النفس للفعل الارادي وما يتصل به من دوافع ورغبات وارادة واختيار وسماتنا النفسية ونحو ذلك . لا نريد ان نغفل ايضا تأثير العوامل الفسيولوجية في السلوك الارادي ، وما اذا كانت هذه العوامل تحتم علينا نماذج معينة من السلوك أم أن هذه العوامل لا تمنع من اختيارنا فعلا دون آخر . ولابد أخيرا من اشارة عابرة الى الحتمية او اللاحتمية في العالم الطبيعي ، لأنه إن صحت الحتمية الكلية فقد حكم على الانسان ان يكون عبدا لمجموعة من القوانين الطبيعية الصارمة ومن ثم لا حرية ، لكن كيف يتسق ذلك مع شعور الانسان الراسخ أن له عقلا وارادة واختيارا .

(٤)

الحتمية في علم الطبيعة

بعد هذا التقديم ، ننتقل الى ايجاز مواقف أنصار الجبرية وأنصار الحرية . لكن تجدر الاشارة اولا الى موقف أساسي في علم الطبيعة هو نظرية الحتمية Determinism في العالم الطبيعي . وعلى الرغم من أن هذه النظرية ليست على صلة مباشرة بموضوع حرية الانسان ، غير أنها أثرت في علوم وظائف الاعضاء والأحياء والوراثة وعلم النفس ، وترتبط هذه

العلوم بموضوع الحرية كما سبق القول . ويمكن ايجاز معنى الحتمية العلمية في القضيتين التاليتين .

(أ) يخضع العالم بما به من أشياء وظواهر وحوادث لقوانين معينة تفسر وجوده ، ولا مجال لصدفة أو عبث ، بحيث اذا عرفنا تركيب جزء من المادة في وقت معين ومكان محدد وعرفنا القوانين التي تخضع لها هذه المادة ، فقد أمكننا تفسير كل ما صدر عنها من حركة وتغير في الماضي والحاضر ، والتنبؤ بما سوف يصدر عنها في المستقبل .

(ب) يخضع العالم لمبدأ العلية ، فأي شيء يوجد وأية ظاهرة تحدث إنما تحدد وقوعها شروط سابقة أدت اليها ، واذا غابت هذه الشروط لا يتم وجود هذا الشيء أو تلك الظاهرة . نجد هذا الموقف واضحا في علم الميكانيكا التقليدية الذي بدأه في العصر الحديث جاليليو وديكارت في القرن السابع عشر ، وأرسى نيوتن قوانينه ونظرياته في القرن الثامن عشر ، وظل الموقف سائدا حتى منتصف القرن التاسع عشر . وتعني الحتمية الكلية عند نيوتن اننا اذا عرفنا الوضع المكانسي لكل جزيء Particle في الكون وسرعة حركته في لحظة ما ، فان قوانين الميكانيكا قادرة على حساب وضع وسرعة هذه الجزيئات في أي لحظة أخرى في المستقبل بكل دقة وتحديد . اما اذا حدثت واقعة لا نستطيع تفسيرها في ضوء تلك القوانين فمعنى ذلك اننا لم نكتشف بعد القانون الذي يحكمها(٢) .

لكن حين ظهرت نظرية الكوانتم Quantum Theory في أواخر القرن التاسع عشر ، بدأت الثورة على نظريات نيوتن ، أو على الأقل بدأ تطوير هذه النظريات في اطار علم الميكانيكا الموجبة Wave Mechanics وأهم رواده ماكس بلانك M. Planck ونيلز بور N. Bohr ثم هيزنبرج Heisenberg وشورودنجر Schrodinger وماكس بورن M. Born يهمنا من نظرية الكوانتم اكتشاف لبور وآخر لهيزنبرج . رأى بور في عالم الذرة أن الالكترونات تدور حول النواة في مدارات بيضاوية كما تدور الكواكب حول الشمس ، كما اكتشف ان الالكترون حين يصدر طاقة أو يمتص طاقة أخرى فانه يقفز من مدار الى آخر ، وحين يدور في أضيق مدار تصبح الذرة في حالة سكون ، لكن تتغير هذه الحالة الساكنة حين يوسع من مداره ، وحينئذ يلتحم مع الكترون آخر . وهنا يقفز الالكترون من مدار الى آخر . ولقد جزم بور باستحالة التنبؤ بتغير مدارات الالكترون وقفزه ، ومن ثم الثورة على الحتمية المطلقة عند نيوتن .

---

(٢) أنظر :

D. Runes, **The Dictionary of Philosophy**, p. 78' London' 1975.

وأيضا : R. Taylor, **Metaphysics** Ch. 4, Englewood Gliffs, New Jeresy, 1963.

وأيضا : A. J. Ayer, **Fatalism**, in the Concept of A Person, P. 262, Macmillan, London 1963.

وأيضا : Ducasse, **Determinism**, Freedom and Responsibility, in S. Hook (ed.), Determinism and Freedom, pp. 160-166, New York, 1961.

وأيضا : J. Hospers, **An introduction to Philosophical Analysis** p. 321, 2 nd ed., London, 1967.

أما هيزنبرج فقد صاغ « مبدأ اللاتعين » Uncertainty Principle عام ١٩٢٧[٣] ، ومؤداه أن من المستحيل أن نعرف بتحديد ودقة الوضع المكاني للالكترون وسرعة حركته في وقت واحد معا ، وانما يمكننا حساب وضعه المكاني بكل دقة ولا نستطيع حساب سرعة حركته بنفس الدقة ، أو حساب دقيق لسرعة حركة الالكترون دون معرفة وضعه المكاني بنفس الدقة .

والآن هل تقضي نظرية الكوانتم واكتشافات بور هيزنبرج بوجه خاص على الحتمية الكلية في العالم الطبيعي ؟ ان الجواب الحاسم أمر عسير ، وذلك لاختلاف صياغات العلماء لقوانين النظرية واختلاف تفسيراتهم لها . ربما لا تزال النظرية تنادي بالحتمية المطلقة ، وما نراه محركا في حركات الالكترونات قد يرجع الى قصور معرفتنا الحاضرة بكل القوانين .[٤] لكن قد نفسر هذه الاكتشافات في ضوء القوانين الأخرى وهي قوانين أحصائية لا علية ، وفي ذلك ينكر كل أقطاب النظرية تفسيرات علية لما يحدث داخل الذرة ، كما تؤكد النظرية نقطة هامة أخرى هي وجود عنصر الصدفة ، قائما في الطبيعة من الناحية الانطولوجية . وانكار عمومية مبدأ العلية واثبات عنصر الصدفة الحقيقية فيما يحدث داخل الذرة يقضيان على الحتمية المطلقة بكل وضوح . وعلى الرغم من كل ذلك نجد بلانك ينادي بأن من الممكن لنظرية الكوانتم أن تجد تعبيرا دقيقا في بعض المعادلات التي تحقق صياغة أكثر دقة لقانون العلية ، بل يعلن بلانك أيضا أن هدف العلم هو الوصول الى حوادث ترتبط ارتباطا عليا ، والعلية فرض أساسي للعلم[٥] . وفي نفس الاتجاه يقول العالم الطبيعي الفرنسي المعاصر لويس دي بروي Louis de Broglie : « أكاد أقطع بأن من الممكن اقامة تصور حتمي للميكانيكا الموجبة ولكني أرى أنه بالنظر الى آرائي السابقة فانه يحسن بنا ان نعيد وضع المشكلة من جديد لكي نعاود فحصها بكل دقة »[٦] . ولعل هذا الموقف والتخفيف من حدة الثورة على الحتمية المطلقة ما دفع أحد فلاسفة العلم المعاصرين الى القول بأن الحوادث داخل الذرة لا تخضع لمبدأ العلية وأن بعض الحوادث تحدث صدفة لكن لا يزال يوجد نوع من النظام والاطراد ، لأن الفوتونات التي تحدث صدفة تؤلف نموذجا منتظما ، ولا يتم ذلك إلا اذا كان هنالك مبدأ يحكم تلك الحوادث .[٧]

---

(٣) يسمى هذا المبدأ أيضا Indeterminacy principle لكن هذه التسمية ليست لهيزنبرج وإنما لادنجتون الذي فسر المبدأ بأن للالكترون حرية واختيارا ما لم يقبله هيزنبرج نفسه .

(٤) B. Blanshard, The Case For Determinism, in S. Hook (ed.) Determinism and Freedom, p. 24, New York, 1961.

(٥) S. Stebbing, Philosophy and The Physicists, pp. 141-3, Penguin, Harmondsworth, Middlesex, 1944.

(٦) زكريا ابراهيم : مشكلة الحرية ، مكتبة مصر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ص ١٠٠ هامش .

(٧) Bridgman, Determinism in Modern Science,in S. Hook(ed.)Derterminism and Freedom, p.65

والآن اذا أردنا تلخيص موقف علماء الطبيعة المعاصرين من نظرية الحتمية المطلقة التقليدية أمكننا القول بأنه على الرغم من أكتشافهم عنصر الصدفة الحقيقية تفعل فعلها في حوادث الذرة ، وانكارهم التفسير العلي لهذه الحوادث ودعواهم باستحالة التنبؤ - غير أنهم لا يزالون يعتقدون بالحتمية والعلية كمصادرة منهجية أو برنامج في البحث (لا كموقف ميتافيزيقي) ، وان لم يجدوا لها سندا تجريبيا ، يجب أن يبدأ البحث العلمي بالمصادرة على امكان تفسير ما يحدث في اللعالم بقوانين محددة ولا يمنع ذلك من وجود حوادث تحدث صدفة تتحدى تلك القوانين .

فان صحت هذه الاستنباطات من نظرية الكوانتم فمن الخطأ الاعتقاد بأنها تفتح الباب على مصراعيه للفلاسفة بالحرية مادامت تصادر على التفسير العلمي ، ومادامت تفترض ان الصدفة لازالت تحقق لنا نسقا فيزيائيا منتظما يسير حسب مبادىء قد لا نجد لها تفسيرا حتى اليوم .

(٥)

النظريات الجبرية المتطرفة

تتخذ نظرية الجبرية عدة صور تؤكد كل منها جبرية الافعال الانسانية من جانب يختلف عن الجوانب التي تؤكدها الصور الأخرى . وهذه الصور - فيا يبدو - خمسة : الجبرية الدينية أو الايمان بالقضاء والقدر ، والجبرية الميتافيزيقية ، والجبرية المنطقية ، والجبرية الفسيولوجية ، والجبرية النفسية المتطرفة ونظرية التحليل النفسي . سوف نؤجل البحث في الجبرية الدينية الى القسم التاسع من هذا البحث ، والآن نتناول الصور الاربعة الاخرى ، ونبدؤها بما يمكننا تسميته « الجبرية الميتافيزيقية » .

(٥ أ)

الجبرية الميتافيزيقية

ونقصد بها موقف سبينوزا Spinoza (١٦٣٢ - ١٦٧٧) من مشكلة الحرية الانسانية . ويدعو هذا الموقف الى جبرية مطلقة لافعال الانسان الارادية ، وترتبط هذه الجبرية بتصور معين للعالم الطبيعي اذ يخضع لقوانين حتمية مطلقة لا استثناء لها ، وان كل شيء في العالم مرتبط بكل شيء آخر بعلاقات علية صارمة محكمة ، ذلك لأننا نعتقد أن لكل حادثة علة ، ولهذه العلة علة تسبقها وتفسرها ، الى ما لا نهاية . ولا تستند هذه الحتمية الطبيعية والجبرية الانسانية الى أساس تجريبي أو استنباط مما هو تجريبي ، وإنما تقومان على مذهب ميتافيزيقي معين هو « وحدة الوجود » Pantheism أو « الواحدية المطلقة » Monism . لا يرفض سبينوزا خضوع أفعال الانسان لقوانين علم وظائف الاعضاء أو الوراثة أو علم النفس أو الأحياء ، ولا يرفض خضوع العالم الطبيعي لقوانين طبيعية حتمية تقوم على ملاحظات وتجارب ، وإنما يرى أن تلك القوانين تعتمد على الحواس والتجارب ، وهذان مؤديان الى معرفة احتمالية فقط ، لكن سبينوزا يريد بالمعرفة ان تكون يقينا لا أحتمال فيه ، وصدقا مطلقا لا يعرض له شك ، ورأى أن العقل - كقدرة برهانية استنباطية - قادر على هذه المعرفة المثلى للانسان . والمذهب وحدة الوجود هنا طابع لاهوتي يجعل الله مبدأ الوجود وأساسه وعلته ، بل لا

يوجد » إلا هو ، وما عداه من أشياء وبشر ليست إلا حالات له ومظاهر لوجوده . ولقد تأثر سبينوزا في هذا المذهب بعدد من الفلاسفة اليهود والمسيحيين والاسلاميين ، مثل ابن رشد في اتجاهه العقلاني ، وابن عربي بتراثه الصوفي ، وموسى بن ميمون ، وعاش هؤلاء في القرن الثاني عشر الميلادي ، ثم جيورادنو برونو Giordano Bruno (١٥٤٨ - ١٦٠٠) من أوائل الفلاسفة المحدثين في القرن السادس عشر الميلادي . لكن الفلسفة التي أثرت في سبينوزا تأثيرا مباشرا وكانت منها نقطة انطلاقة هي فلسفة ديكارت . بدأ سبنوزا فلسفته بنقطتين أساسيتين عند ديكارت هما تصوره للجوهر وتحمسه للحتمية المطلقة في العالم الطبيعي ودمجهما معا في مذهب منسق متسق قوامه وحدة الوجود ، وهو ما لم يقل به ديكارت . أخذ تعريفا معينا للجوهر وهو « ما يوجد بذاته ولا يعتمد في وجوده على أي شيء آخر غير ذاته » ووجد هذا التصور للجوهر تطبيقا واحدا هو الله ، اذ ليس في الوجود غيره ، ورأى سبينوزا لله عددا لا متناهيا من الصفات لا نعرف منها الا صفتين هما الفكر والامتداد (وان كان سبينوزا يقول عن الله أيضا أنه الموجود المستقل بذاته استقلالا مطلقا ، واللامتناهي ، وأنه علة بذاته Causa Sui أي أنه يحدد ذاته أو تحدده طبيعته) . ولذلك لا تمييز عند سبينوزا بين الله والعالم بل يسوي بينهما ، والوجود واحد يسميه « الله أو الطبيعة » Deus sive Natura إن نظرت الى الوجود من جهة مبدئه ومصدره فهو الله أو الطبيعة الطابعة الخلاقة Natura naturans . وان نظرت اليه من جهة ما يحدث من أشياء وحوادث وظواهر فهو العالم أو الطبيعة المطبوعة المصنوعة Natura naturata . ويؤلف هذا الوجود نسقا مغلقا وان القوانين التي تحكم الاشياء - وهي مجرد حالات ومظاهر لوجود الله هي قوانين حددتها طبيعة الله وحكمته منذ الأزل ، والماضي والحاضر والمستقبل محدد مقدر لا تغيير فيه ولا تبديل .

بعد ايجاز تصور سبينوزا للكون ، ننتقل الى جبرية أفعال الانسان عنده . الانسان مجبور على كل أفعاله ، وحين يؤدي فعلا بارادته ، لم يكن يستطيع ان يفعل فعلا مختلفا ، لانه يخضع في كل ما يفعل لعوامل اضطرته الى فعله ، وهذه العوامل ذاتية داخلية أو خارجية . والمقصود بالعلل الداخلية لافعالنا علل فسيولوجية أو نفسية في ذات الانسان تحكم سلوكه ، وبالعلل الخارجية علل طبيعية هي الظروف الخارجية المحيطة بالانسان في العالم وقت أدائه أفعاله والتي تحفزه الى فعل ما أو تجعله يعزف عن فعل آخر ، وهذه العلل الخارجية تنبع في نهاية المطاف من طبيعة الله وحكمته .

لا تنكر الجبرية الميتافيزيقية أننا نعي في واقعنا الحي أننا نختار ونتروى في الاختيار ونتخذ قرارات لتنفيذ أفعال معينة ، وقد نتردد في أداء فعل ما أو الامتناع عن فعل آخر ، وإننا قد نبذل جهدا في مقاومة بعض رغباتنا - لا تنكر هذه الجبرية شيئا من هذا لكنها تؤكد أن لكل ما نفعل ونعاني خبرته ونكابده عللافسيولوجية أو نفسية لا نملك السيطرة عليها ، وهذه العلل تحكمها علل خارجية هي الظروف الحتمية المحيطة بنا في العالم الطبيعي ،

وتعود هذه الظروف في نهاية المطاف الى العلة الاولى التي رسمت كل شيء بضرورة أزلية وكمال أسمى. ان الاعتقاد بأننا أحرار وهم، مرده جهلنا بكثير من تلك العلل داخلية كانت أو خارجية، ولو عرفنا كل هذه القوانين لأدركنا حقيقة الجبر الصارم، وكلما ازددنا معرفة بتلك القوانين ازددنا يقينا بالجبرية. لكن هيهات أن يدرك الانسان المحدود المعرفة كل القوانين التي تخضع له ذاته والكون ككل. والانسان الحكيم هو من ازدادت معرفته لعلل أفعاله، وحينئذ يعزف عن أن تشده رغبة جزئية أو لذة وقتية، أو أن ينفر من ألم ينتابه، لأنه بدأ يدرك أنه يجب ألا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما يأتيه، وإنما هو جزء ملتحم بالكون ككل بعالم سبق تقديره طبقا للخير المطلق والحكمة الالهية.

ولنا تعقيب موجز على هذه الجبرية بالاشارة الى نقطتين هما الحتمية الطبيعية وتصور سبينوزا لله.

(١) لم تقرر الجبرية الميتافيزيقية الحتمية الطبيعية على أساس ملاحظات وتجارب واستنباط علمي، وانما على أساس موقف ميتافيزيقي خلاصته ان الوجود الحقيقي هو وجود الله وحده ثم استنباط ما يلزم عن هذا الوجود من لوازم منطقية، يلزم ان كل ما يوجد غير الله ليس سوى مظاهر أو ظلال لوجوده، وهذه المظاهر تحدد وجودها وسلوكها طبيعة الله الثابتة الخيرة بضرورة أزلية. لكن العلماء المعاصرين وصلوا - كما رأينا في القسم السابق - الى اعلان الحتمية بمعنى خضوع العالم لقوانين، لكنهم رفضوا الحتمية الكلية، حيث أظهرت التجارب حدوث حوادث صدفة، أو لا تفسر تفسيرا عليا، ورغم ذلك رأى هؤلاء العلماء وجوب اتخاذ الحتمية والعلية مبادىء موجهة للبحث أو مصادرات للبحث العلمي دون أن نقررها تقريرا قبليا حاسما. ولعل هذا الموقف العلمي هو تطوير للحتمية المطلقة عند سبينوزا من الفلاسفة ونيوتن من العلماء.

(٢) لا يمكننا اعتبار الجبرية الميتافيزيقية نوعا من الجبرية الدينية أو الايمان بالقضاء والقدر، ذلك لأن تصور سبينوزا لله مختلف عن تصور الاديان، ذلك الذي يلتزم به الفلاسفة المدافعون عن القضاء والقدر - كما سنرى ببعض تفصيل في القسم التاسع من هذا البحث. ليس الله عند سبينوزا فردا ولا شخصا لأن الفردية تحديد، والتحديد سلب ولا يجري على الوجود المطلق سلب، والله عند سبينوزا لا يرغب في شيء، لأن في الرغبة نقصا يراد التغلب عليه، والله لا ينقصه شيء، وليس لله عند سبينوزا ارادة ولا فعل وإنما كل ما يتم في الكون يتم بضرورة اقتضتها طبيعته، والانسان عند سبينوزا ليس مسئولا عن أفعاله ولا تكليف عليه ولا حساب ولا جزاء. لكل ذلك لم ندرج سبينوزا مع الداعين الى جبرية القضاء والقدر، كما أن ذلك أدى بأحبار اليهود الى الحكم على سبينوزا بالالحاد.[٨]

---

(٨) أنظر: Spinoza, Ethics, pt., IProp. Xxvi, Appendix; Pt. II, Prop. XIVIII; Pt. IV Prop LXIII' translated into English by A. Boyle, Dentand Sons, London, 1910.

وأيضا: S. Hampshire, Spinoza, PP. 150-168, Pelican, 1953

وأيضا: زكريا ابراهيم: مشكلة الحرية ص ٢١، ٢٢، ٥٢

(٥ ب)

الجبرية المنطقية

تقوم هذه الصورة من الجبرية على أساس منطقي بحت لا تداخله تصورات لاهوتية أو ميتافيزيقية ، وتتعلق بما يسمى عالم الحقائق ، والحقائق هي القضايا الصادقة دائما ، كبديهيات الرياضيات وقوانين المنطق . لكن حين نصوغ حادثة طبيعية وقعت فعلا في قضية تصبح هذه القضية صادقة وتدخل في اطار عالم الحقائق . وهذا العالم عند أنصار الجبرية المنطقية عالم نكتشفه ولا نخلقه ، كما أنه لا يتعلق بزمن اذ يخرج على حدود الزمن ، أي لا نقول عن حقيقة ما انها كانت صادقة وانما نقول انها صادقة وكفى . ولا تسل من علَّم عالم الحقائق أو قدَّره أو أراده ؟ لأن الجواب سوف يكون : لا أحد . ان علم أي كائن - مهما سما قدره - بأني سأفعل كذا في المستقبل لن يلزمني بفعله ، اذ لا يلزم عن الحقائق إلا حقائق ولا يلزم عن القضايا الصادقة إلا قضايا صادقة ، لكن الحقائق لا يلزم عنها حوادث أو أفعال . ان قلت « اليوم يوم الاثنين » وكانت قضية صادقة تعبر عن واقع ، فقد لزمت القضية « الغد يوم الثلاثاء » .

ولئن قلت إن علم الله يلزم عنه وقوع ما علم وقدر ، فان الجبرية المنطقية تدفع ذلك بقولها ان ليس بين العلم بحادثة قبل وقوعها ووقوعها بالفعل علاقة منطقية ضرورية ، فقد أتنبأ بشيء ولا يحدث ، واذا قلت ان علم الله وتقديره لفعل ما يلزم عنه حدوث هذا الفعل فانك مضطر الى أضافة قضية أخرى هي أن الله علمه مطلق وتقديره أزلي لما سوف يكون ، لكن حقائق المنطق لا يفترض وجود الله أو أي وجود آخر وإنما يفترض فقط وجود حقائق .

تتعلق الجبرية المنطقية بوجود عالم الحقائق وتقول ان كل ما يوجد من أشياء وما يقع من حوادث في الماضي والحاضر والمستقبل مقدر ابتداء ، بحيث تصبح القضية المركبة الآتية صادقة دائما وتحصيل حاصل : « ما وقع لم يكن منه مفر ، وما سوف يحدث سيحدث حتما ومن المستحيل ألا يتم » . حين نقول مثلا ان نابليون هزم في ووترلو عام ١٨١٥ ، فان نابليون لم يعلم عن هزيمته الا حين وقعت بالفعل ، ونحن لم نعلم هزيمته الا بعد قراءتنا لها من كتب التاريخ ، وكل ذلك وقع في زمن ، لكن واقعة الهزيمة أمر حتمي كان لابد أن يقع . قد يقال ان هزيمة نابليون أمر حادث لا ضرورة فيه وكان يمكن ان ينتصر لو كانت ظروفه مختلفة . هذا حق ، لكن حين وقع ما وقع بالظروف التي أحاطت به بالفعل لم يكن هنالك مفر من منعه . يمكنك أن تسأل متى هزم نابليون ؟ لكن لا يمكنك أن تسأل متى صدقت القضية « هزم نابليون عام ١٨١٥ » فالصدق لا يتعلق بزمن كما سبق القول . والقضية الصادقة تعبر عما حدث أو يحدث لكن هذه الوقائع مقدرة منذ الأزل وان كنا نكتشفها في زمن معين .

يمكننا التعقيب على هذه الجبرية المنطقية بأنه يمكن اعتبارها الجانب المنطقي البحت من الجبرية الميتافيزيقية عند سبينوزا الذي أعطى الله العلم المطلق والتقدير السابق منذ الأزل لكل ما يحدث ،

وبذلك أضاف مقدمات فلسفية ليست في ذاتها حقائق منطقية خالصة . ويمكننا القول أيضا أننا سواء نادينا بالجبرية أم بالحرية فكلا الموقفين يتسقان مع الجبرية المنطقية ، فما نفعله عن جبر - من أي نوع - أو عن اختيار فهو أمر واقع لا مفر منه ولا معنى للحديث عن منعه او تجنبه بعد حدوثه بالفعل .

ويمكن التماس هذه الجبرية المنطقية عند أرسطو فيا سماه « الاشياء الخالدة » eternal things مثل حقائق الرياضيات وما يحدث في العالم المحسوس وعالم الافلاك بوجه خاص من حركات وحوادث(٩) ويمكن التماسها أيضا عند ديكارت الذي وضع القضية « لابد مما ليس منه بد » what has been done cannot be undone من بين ما يسميه الحقائق الخالدة(١٠) . لكن خير من صاغ هذه الجبرية من المعاصرين جلبرت رايل G. ryle (١٩٠٠ - ١٩٧٧) والفرد اير A. J. ayer (١٩١٠ -)(١١) .

(٥ ج)

الجبرية الفسيولوجية

الجبرية الفسيولوجية تطبيق للحتمية الطبيعية في الانسان ، لا بالقول ان الانسان جزء من العالم الطبيعي يخضع لكل ما تخضع له أجزاء المادة من قوانين طبيعية ، وانما باخضاع سلوك الانسان لقوانين علم وظائف الاعضاء . يفسر هذا العلم أولا كل أفعالنا اللاأرادية والمنعكسة بردها الى علة فسيولوجية ، هي حادثة أو مجموعة حوادث داخل البدن ، فكل ما يحدث داخل البدن من حركات وتغيرات ووظائف كنبض القلب وافرازات المعدة والامعاء والكبد والغدد الصماء وحركات الخلايا الحية يمكن تفسيرها بقوانين علم وظائف الاعضاء ، ولا أرادة للانسان في أحداثها ، ولا وعي له بها ، ولا سيطرة له عليها . ويفسر علم وظايف الاعضاء ثانيا تفسيرا فسيولوجيا بحتا كل أفعالنا الارادية - وهي مختلف نماذج سلوكنا - من حركات أعضاء الجسم وحالاتنا النفسية من احساس بألم أو لذة أو رغبة أو انفعال ، وحوادث عقلية من ادراك حسي وتذكر وتخيل واستدلال وما الى ذلك ، اذ يعتمد كل سلوكنا الارادي على تركيب الجسم وسلامة أعضائه وأداء كل عضو لوظيفته أداء ناجحا ، ويعتمد سلوكنا الارادي على تركيب الموروثات (الجينات) وهي جزيئات معينة في نواة الخلية الحية تحوي مركبا كياويا يسمونه Deoxyribonuclei Acid (أو باختصار D N A) يحمل الخصائص الوراثية التي تنتقل من فرد لآخر ويتحكم في تركيب الاعضاء وطريقة استجابة الفرد لبيئته . كما ان البروتو بلازم - وهو مركب كياوي

---

(٩) Aristotle, Nicomachean Ethics 1112 a 23-29

(١٠) Descartes, Principles of Philosophy, Pt. I' Princ. XLIX

(١١) G. Ryle, It was to be, in Dilemmas, PP. 15-35 Cambridge, 1960.
A. J. Ayer, Fatalism, in The Concept of A Person, PP. 235-254, Macmillan,London, 1963.
Freedom and Necessity,, in Philosophical Essays, 284, Macmillan, 1959.

أساسي يدخل في تركيب كل خلية حية - ينظم سلوك الفرد بصورة معينة لتحقيق تكيف الجسم مع بيئته . وتنادي الجبرية الفسيولوجية ثالثا بتفسير فسيولوجي خالص لسلوك الافراد الشواذ المصابين بأمراض نفسية وعقلية حادة مثل الهستيريا والصرع epilepsy والبارانويا وجنون الفصام schizophrenia وترد هذه الامراض الى سوء أداء الجهاز الهضمي العصبي بعامة والمخ بخاصة لوظائفها ، وبذلك لا يكون لهؤلاء الافراد الشواذ سيطرة على أفعالهم . بل يرى بعض علماء وظائف الاعضاء ان في مقدورهم خلق ظروف أو علة فسيولوجية معينة تثير رغبة معينة أو انفعالا مفاجئا أو تهدئة انفعال آخر ، ومن ثم يصبح الانسان آلة تحت رحمة هؤلاء العلماء أو ضحية عاجزة في يدهم . وثمة نقطة أخيرة يثيرها بعض علماء وظائف الاعضاء مستوحاة من نظرية الكوانتم في علم الطبيعة المعاصر : اذا كانت الصدفة عاملا فعالا في حركات الذرة ، فقد يكتشف العلماء يوما ما حادثة تحدث صدفة في الجهاز العصبي لانسان ما وتصبح علة لسلوك معين ، وبذلك يكون للسلوك علة فسيولوجية حدثت صدفة ، ولا معنى هنا لمسئولية أو اختيار ، مثلما اكون مدخنا ثم امتنعت عن التدخين ، ثم يأتي صديق ليقدم لي سيجارة ومددت يدي اليها تلقائيا ثم تراجعت فجأة عن أخذها . وقد أفسر تراجعي عن التدخين في هذه المناسبة بحادثة فسيولوجية صدفة .[١٢]

ونود التعقيب على هذه الجبرية الفسيولوجية بما يلي . لا خلاف بين الفلاسفة جميعا على تأثير العوامل الفسيولوجية في سلوك الانسان ، وأن لحياتنا الشعورية أساسا فسيولوجيا في المخ والنخاع بوجه خاص ، لكنهم قد لا يتفقون مع علماء وظائف الاعضاء وعلماء النفس التجريبي والسلوكيين في سلامة الانتقال من هذا التأثير الى الجبرية المطلقة . نذكر فيما يلي بعض انتقادات الفلاسفة على تلك الجبرية الفسيولوجية .

(١) تعتمد هذه الجبرية على صدق مبدأ العلية ، ولها ما يبررها بطبيعة الحال ، اذ تكاد حياتنا اليومية لا تخلو من التفكير على هداه ، لكن ليس هذا المبدأ ضرورة منطقية قاطعة ، اذ يمكنك الطعن فيه دون وقوع في التناقض ، لانه يمكننا تصور حادثة بلا علة أو حدوث حادثة لا نفسرها بما في حوزتنا من قوانين ، وليست كل القوانين العلمية قوانين علية ، اذ ان بعضها قوانين احصائية وبعضها الآخر قوانين وصفية لا أثر للتفسير العلي فيها .

(٢) يقيم علم وظائف الاعضاء قوانين عامة يفسر بها تركيب أعضاء الكائن الحي ووظائفها ، لكنا نلاحظ أن هذه القوانين لا تبلغ في عموميتها قوانين الطبيعة والكيمياء . هذه القوانين الاخيرة أكثر عمومية من العلوم الانسانية لانها تتناول وحدات مادية متجانسة متشابهة يمكن قياسها وتحديد سرعة حركتها واتجاهها ووصف تفاعلات مركباتها بكل دقة ، لكن لا يمكن تطبيق هذه الدقة والعمومية على

(١٢) أنظر : J. Hospess, A n Introduchtion to Philosophical Analysis, PP. 324-337
وأيضا : L. Hertzberg, ,Blame and Causality, Mind, Oct. 1974.

الانسان يسبب الفروق الفردية بين الناس ، كما أن السلوك الانساني يخضع للظروف الخاصة بكل فرد والبيئة المحيطة به . وذلك حال علوم النفس والاجتماع ووظائف الاعضاء ونحوها .

(٣) تتضمن الجبرية الفسيولوجية التي تجري في الفرد الذي يصدر عنه هذا السلوك ، لكن التنبؤ بسلوك الناس قدره ضئيل لسببين .

(أ) وظائف اللحاء في المخ الانساني - كما يقول علماء فسيولوجيا الاعصاب Neurophysiology - شديدة التعقيد ، ولا زلنا نجهل عنها أكثر مما نعلم - لا زلنا نجهل الظروف المحددة التي تنشأ في ظلها نماذج العمليات العصبية التي تؤدي الى عمليات شعورية معقدة ، تلك التي تشترك فيها عشرات الملايين من الخلايا العصبية وتتم في اللحاء وتؤدي الى تذكر أو اختيار .

(ب) قدرتنا على التنبؤ بالسلوك ضعيفة وذلك لاختلاف طبيعة التغيرات الفسيولوجية عن العمليات الشعورية . افرض أني أردت الاختيار بين الاستمرار في الكتابة وترك المنزل لأداء عمل معين وترددت بعض الوقت ثم قررت الخروج من المنزل ، وافرض ان عالما فسيولوجيا كان يرقب ما يدور في مخي من عمليات وتغيرات ، فانه لن يستطيع ان يحدد مقدما أنني سأخرج من المنزل ، وكل ما يستطيع قوله أن هنالك في المخ تغيرات فسيولوجية نشطة تنطوي على جهد عقلي حاد .[(١٣)]

لا نريد بهذه الانتقادات جعل الجبرية الفسيولوجية بغير أساس ، لكنا نريد القول فقط أن ليس فيها فصل الخطاب ، اذ على الرغم من أن العوامل الفسيولوجية شرط ضروري لقيام أي سلوك أنساني ، غير أنها لا تكفي وحدها لتفسير تام لهذا السلوك ، فهناك عوامل نفسية تفعل فعلها في توجيه السلوك تتفاعل مع تلك العوامل الفسيولوجية .[(١٤)]

(٥ د)

الجبرية النفسية المتطرفة والتحليل النفسي

لقد أوجزنا في الأقسام السابقة من البحث ثلاثة صور لنظريات الجبرية المتطرفة ، تدعو اثنتان منها الى أن الانسان مجبور على أفعاله من سلطة خارجية عليه ، هما الجبرية الميتافيزيقية والجبرية المنطقية ، بينما تدعو الصورة الثالثة - وهي الجبرية الفسيولوجية -

(١٣) تناولنا موضوع التنبوء من جوانب أخرى ، انظر الفقرة الاخيرة من القسم ٦ والفقرة ز من قسم ٧

(١٤) أنظر : **G. Sommerhoff, Logic of The Living Brain, PP. 12-23, London, 1974**

وأيضا : **Eccles, Facing Reality : Philosophical Adventures By A Brain Scientist, Chs. 2, 4, New York 1971**

C. H. Whiteley. min, In Action, An Essay In Philosophical Psychology, PP. 33-35. Oxford University Press, London, 1973.

وأيضا : **D. M. Mackey, 'Brain and Will, in Vesey (ed.) Body And Mind' p. 394 Allen and Unwin London, 1964.**

الى جبرية أفعال الانسان بفعل قوة داخلة فيه . فقد رأت الجبرية الميتافيزيقية أن العالم الطبيعي يخضع لقوانين حتمية مطلقة وعلاقات علية صارمة ، ومادام الانسان جزءا من هذا العالم فأفعاله الأرادية تخضع لقوانين فسيولوجية ونفسية طاغية ، تشتق طغيانها من حتمية قوانين الطبيعة ، وقوانين الطبيعة جزء من قوانين أعم قدرها الله منذ الازل لا تغيير فيها ولا تبديل . أما الجبرية المنطقية فرأت أن الحقائق (وهي ما يعبر عنها بقضايا صادقة دائما لا موضع لكذب أو شك فيها) محتومة منذ البدء ولا تتعلق بزمن وانها تؤلف عالما لا نخلقه وليس من صنعنا وانما نكتشفه حين تقع الوقائع الصادقة في الزمن أو في واقعنا الحي . ما حدث في الماضي كان لابد ان يتم على النحو الذي تم به ، وما سوف يقع في المستقبل أمر لا مفر منه ، وأي جهد نبذله لتغيير مسار شيء ما قبل وقوعه انما يدخل في مجال ما سوف يقع بالفعل في المستقبل ، وتصبح الجبرية المطلقة تحصيل حاصل حتى لو مارسنا ارادة واختيارا .

نأتي الآن الى صورة رابعة للجبرية المتطرفة ترى ان الانسان مجبور على أفعاله من داخله ، لا في أطار جبرية قوانين وظائف الاعضاء كما تنادي الجبرية الفسيولوجية ، وانما في اطار جبرية نفسية ذاتية . وتدعو الجبرية النفسية بوجه عام الى ان كل انسان يقوم بأفعاله الارادية في حدود تركيبه النفسي المتفرد المتميز ، من دوافع ورغبات وانفعالات وعواطف ، ومدى اندفاعه التلقائي لتحقيقها أو محاولة التسامي على بعضها ومقاومتها ، ومدى استجابته لانفعالاته وعواطفه ، وما اذا كان هادىء الطبع رزينا في اشباع انفعالاته أم حادا لا يستطيع ضبط نفسه ، هل هو خجول أم جسور ، خائف أم متهور أم شجاع ، منطو أم منبسط ، وما اذا كان قوي الارادة أم ضعيفها ، أم مصاب بالتردد وعدم القدرة على اتخاذ القرار . كما يدخل في التركيبة النفسية المتفردة لكل فرد مجموعة عقائده وشكوكه وقيمه ومبادئه واتجاهاته التي يؤمن بها أو يعتنقها ، وتراثه الثقافي الذي يوجهه في حياته - ذلك هو المقصود بالتركيبة النفسية المتفردة التي ترى الجبرية النفسية ان كل انسان يسلك طبقا لها ولا يستطيع الخروج من اطارها . وهذه الجبرية النفسية نوعان سماها وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) « الجبرية النفسية المعتدلة أو اللينة » . Soft Psychological determinism و « الجبرية النفسية المتطرفة » Hard Psychological determinism . أما الجبرية النفسية المعتدلة فهي نصير للحرية لا للجبر ، ولذلك نؤجل تفصيلها للقسم السابع من هذا البحث ، بينما يدعو أصحاب الجبرية النفسية المتطرفة الى الجبر . ولقد اعتمدت هذه الجبرية النفسية المتطرفة في بادىء أمرها على الحتمية العلمية وتطبيقها على قوانين الاحياء وعلم النفس وعلم وظائف الاعضاء ، ومن رواد هذه الجبرية في تلك الصورة المبكرة دولباخ D'Holbach (١٧٢٣ - ١٧٨٩) وشوبنهاور Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠) . لا ينكران اننا نختار أفعالنا ، وأننا قد نتروى فيما سوف نفعله ، واننا نبذل الجهد في مقاومة بعض رغباتنا ، وأن أفعالنا تصدر عن ارادتنا ونحقق بها رغباتنا ، لكنهما ينكران

أن لدينا حرية في اختيار رغباتنا أو تحويل مجرى ارادتنا ، يقولان بعبارة أخرى أننا نفعل ما نريد لكنا لا نستطيع أن نحدد ما نريد ، والمقصود ان الفرد لا يستطيع ان يغير طباعه أو سماته النفسيه ، ذلك لأن هذه الطباع والسمات ليست إلا حصيلة عوامل الوراثة والبيئة التي شكلت سمات كل منا منذ الطفولة ، وحصيلة العادات والاتجاهات والقيم التي اكتسبناها في حداثتنا ، ولم يعد للفرد قدرة على تغييرها .(١٥)

ولهذه النظرة المبكرة انصار اليوم من الفلاسفة المعاصرين بعد ان طوروها ، اذ لم يتجاهلوا وقائع بذل الجهد ومحاولة تغيير طباعنا وعاداتنا ، لكنهم يقولون ان الشخص الذي يحاول تغيير بعض سماته وتعديلها لابد وأن لديه استعدادا لهذا التغيير والتعديل في اطار سماته واتجاهاته وثقافته . ويضيفون أنهم لا ينكرون ان للانسان حرية واختيارا ، وإنما يصرون على القول أن الحرية غير ممكنة الا في اطار الجبرية النفسية ويقصدون بذلك أن لا فعل بلا علة فان كان بلا علة فانه ينشأ صدفة ، وأنا لا أملك السيطرة على ما يحدث لي صدفة ولا مسئولية لي فيه . وتكمن علل أفعالي الحرة في سماتي النفسية التي حصلت عليها وترد في نهاية المطاف الى عوامل وراثية وفسيولوجية واجتماعية ، بالاضافة الى ما أؤمن به من قيم ومبادىء .(١٦)

نلاحظ أن هذه الجبرية النفسية المتطرفة لم تتعمق في تصور السمات النفسية مثلما فعلت نظرية الجبرية النفسية المعتدلة - كما سنرى بعد حين - لكنها دعمت موقفها الجبري باللجوء الى نظرية التحليل النفسي عند فرويد ومدرسته . ان الشخص الذي يقوم بفعل ارادي وهو على وعي تام باختياره ويؤدي عقب تفكير وروية ويعتقد ان له سيطرة تامة على ما فعل ويشعر بمسئوليته عما فعل ، هذا الشخص في الواقع إنما هو مجبر على فعله نتيجة صراع لا شعوري نشأ منذ الطفولة ، ولا سيطرة له الآن عليه ، بل لا يعرف هذا الشخص أنه يعاني هذا الصراع . ويوضح أنصار الجبرية النفسية المتطرفة ذلك بحال فتاة رغبت في الزواج فاختارت شخصا يكبرها بعشرين عاما وصدر اختيارها عن وعي وروية وتفكير . ويفسر التحليل النفسي هذا السلوك بان الفتاة كانت تعاني لا شعوريا من حب مفرط لأبيها منذ الطفولة ورأت فيه مثال الرجل فاختارت زوجا على مثاله ، وهي لا تعي بهذا الدافع اللاشعوري بل ترفض هذا التفسير اذا ووجهت به . ومثل المجرم الذي خطط لجريمته عن وعي وتفكير وحساب نتائج فعله قبل أدائه ، لكن قد يكون لسلوكه الاجرامي دافع لا شعوري ، فقد يكون نشأ لقيطا أو منبوذا أو لاقى حياة بائسة تعسة في صباه فأدى ذلك الى كرهه للمجتمع وحقده عليه .

(١٥) P. Edward ', Hard and Soft Determinism, in S. Hook (ed.), Determinism and Freedom, PP. 119-121, New York 1961.

(١٦) J. Hospers' ,What Means This Freedom, in S. Hook (ed.) Op. cit' PP. 126-140.

نؤجل هنا مناقشة تصور السمات النفسية واتخاذها قاعدة لجبرية الافعال حتى نصل الى نظرية الجبرية النفسية المعتدلة ، لكن لنا هنا تعقيب على جبرية التحليل النفسي التي تستند اليها نظرية الجبرية النفسية المتطرفة . المألوف ان نظرية التحليل النفسي تتضمن جبرية متطرفة ، لكنا نريد مناقشة هذا التضمن ، ولذلك نوجز هذه النظرية في خطوطها العريضة دون دخول في تفاصيلها التي يعرفها القارىء في كتب علم النفس العام . أراد فرويد ومدرسته والمطورون له ان يجعلوا من الدراسات النفسية علما تجريبيا يبعده عن التأملات الميتافيزيقية في أحوال الناس ، كما يبعده عن نماذج النظريات السابقة من علم النفس التجريبي . ولقد مارس فرويد أول أمره علاج الافراد المصابين بأمراض نفسية بالبحث في فسيولوجيا المخ والجهاز العصبي المركزي وما قد أصابها من خلل وتلف وسوء أدائها وظائفها السوية ، لكن فرويد أقلع عن هذا النوع من العلاج ، وصاغ فرضا علميا جديدا يرسم فيه تخطيطا للجهاز النفسي في الانسان ، مم يتركب ، وما علاقة كل وجه من وجوه هذا الجهاز بالوجوه الاخرى ، وأعانه على صياغة هذا الفرض ما توصل اليه من ملاحظات ومشاهدات في علاجه لمرضاه . ويتلخص هذا الفرض العلمي في ثلاث نقط : الاولى تطبيق مبدأ العلية على السلوك الانساني ، اذ يجب ان يكون لكل فعل يقوم به الفرد تفسير علي ، ولا مجال لصدفة . والنقطة الثانية هي ادخال التفسير الغائي مع التفسير العلي في مجال السلوك ، وهو ما لم يكن موجودا من قبل في العلوم التجريبية ، والمقصود بالتفسير الغائي هنا أن كل سلوك يحقق رغبة أو يشبع دافعا أو يهدف الى غرض . والنقطة الثالثة في فرض فرويد - وهي بيت القصيد - هي فكرة اللاشعور ، وقد وسع بها من معنى الدوافع والرغبات والقصد بحيث تشمل الدوافع والرغبات اللاشعورية ، وهي ما لا نعي به في حياتنا الشعورية . وتقول مدرسة التحليل النفسي ان الدوافع اللاشعورية هي الدوافع الحقيقية التي تضطرنا الى ما نفعل من أفعال ، ورغم ذلك تظل مجهولة لنا ولا نعي بها . والمقصود باللاشعور مجال الرغبات المكبوتة التي يراد إشباعها بحرية مطلقة لا ضابط لها من عقل أو رقيب من الاسرة أو المجتمع أو القانون ، ويتألف هذا المجال من رغبات تكونت في الطفولة المبكرة وأصابها كبت بتأثير تلك النماذج السابقة من الرقابة ، فأصابها نسيان لاشعوري ، لكنها تعاود الظهور في الحياة الشعورية في صور رمزية ملتوية فيما يبدو من اسقاط أو نكوص أو فلتات لسان أو أحلام أو تقمص ونحو ذلك . والشخص القائم بهذه النماذج من السلوك مجبر عليها ولا سلطان له عليها . وان نظرية التحليل النفسي لا تقصر هذه النماذج من السلوك على المصابين بأمراض نفسية ، وإنما تقول ان للدوافع اللاشعورية تأثيرها على كثير من مظاهر سلوكنا السوي .

تلك خلاصة نظرية التحليل النفسي . وقد قلنا أن المألوف أن تدعو هذه النظرية الى جبرية أفعال الانسان بتأثير سلطان الدوافع اللاشعورية . لكنا لا نرى تعميم هذا القول المألوف ، على أساس أن علماء التحليل النفسي لا يقفون عند حد صياغة النظرية والاستدلال على صدقها من شواهد الحياة اليومية ،

وإنمــا يمارســون علاج تلك الحــالات المرضية في عياداتهم ، وذلك بأطلاق الـذكريات المنسية ونقـل الدوافع اللاشعورية الى مجال الشعور ، وحـين يتـم علاج الشخص المصاب يتخلص من سلطـان تلك الدوافع . واذن ففكرة العلاج هدفها تخليص الفرد من جبرية الدوافع اللاشعورية والرغبات المكبوتة ، فان تحقق الهدف تحكم الفرد في سلوكه وسيطر عليه وكان حرا فيما يفعل . نريد القول أن زعماء التحليل النفسي يؤمنون بحـرية الانسـان ويسعـون الى تحـريره من سلطان المؤثرات اللاشعورية وإلا فلا معنى للعلاج . يؤمنون أن الانسـان السـوي والانسـان الحـر شيء واحـد ، فاذا جعلنا الفـرد سويا كان حرا ، وراحـوا يخلصوننا من عوائق الحرية . لكنهم اعتقدوا في نفس الوقت ان الشخص السوي بالمعنى الدقيق للكلمة مثل أعلى لا يمكننا الوصول اليه ، أو أن المعرفة التامة بكل دوافع أفعالنا وأنماط سلوكنا مثل أعلى نسعى الى الوصـول اليه لكنا لا نناله على الوجه الأكمل . سوف نصل الى هذه النتيجة في نهاية البحث لكن بمقدمات مختلفة .(١٧)

(٦)

نظريات الحرية المطلقة

ليس لكلمة حرية معنى واحد ، وإنما لهـا عدة معاني ، لعل أهمها ستة هي :

(أ) الحرية أحساس ذاتي عميق يدركه كل منا باستبطان ، أو هي وعي مباشر بأن لدينا قدرة على الاختيار .

(ب) الفعل الحر لا علة له .

(ج)الفعل الحر فعل يستحيل التنبؤ به قبل حدوثه .

(د) الحرية غياب الاضطرار أو غياب القسر .

(هـ) الفعـل الحـر تحقيق هدف أو غاية عن وعي وشعور .

(و) الحرية تحرر من الشهوات ، أو هي قدرة على ضبط النفس . هذه معان للحرية قد يقول بها جميعا فيلسوف واحد ، أو يقول فيلسـوف ببعضهـا ويرفض البعض الآخر . نلاحظ أن أنصـار الحـرية

---

(١٧) أنظر : A. C. Macintyre, The Unconscious : A Conceptual Study, London, 1960.

S. Hampshire, Thought and Action, London, 1960.

A. Ellis, An Operational Reformulation of Some of the Basic Principles of Psychoaralysis,

B. F. Skinner, ,Critique of Psychoanalytic Concepts and Theories, A. Flew, Motives and the Unconscious'

المقالات الثلاث الاخيرة منشورة في :

H. Feigl and M. Scriven, (ed.) Minnesota Studies in the Philosophy of Science, Vol. I, The Foundations of Science and the Concepts of Psychology, Minneapolis, 1959.

عبد العزيز القوصي : أسس الصحة النفسية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٤٨ .

محمد فؤاد جلال : مبادىء التحليل النفسي ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨ .

فريقان ، فريق يمكننا تسميتهم بأنصار الحرية المسرفة أو المطلقة ، وفريق نسميهم أنصار الحرية المعتدلة ، وهم موفقون بين أنصار الجبرية المتطرفة وأنصار الحرية المطلقة ، واهتمامنا الآن بأنصار الحرية المطلقة . ولعل هؤلاء يأخذون بالمعاني الثلاثة الاولى للحرية ، ما سبقت اليها الاشارة ، وهي أن الحرية أحساس ذاتي عميق بأننا أحرار ، وأن الفعل الحر لا علة له سوى أني أخترته ، وان الفعل الحر لا يمكن التنبؤ به قبل حدوثه . ولا يمنع ذلك من أن يستخدم أنصار الحرية المطلقة بعض المعاني الأخرى للحرية ، كما لا يمنع من أن يستخدم أنصار الحرية المعتدلة تلك المعاني التي يتحمس لها أنصار الحرية المطلقة ، وإنما لا يعطي المعتدلون لها تلك الأهمية كما يعطيها المتطرفون . ومن فلاسفة الحرية المطلقة أو المتطرفة جاك بوسويه J. B. Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٠٤) وتوماس ريد T. Reid (١٧١٠ - ١٧٩٦) ، ومين دي بيران Maine de Biran (١٧٦٦ - ١٨٢٤) وشارل رينوفييه Ch. Renouvier (١٨١٨ - ١٩٠٣) ، ووليم جيمس W. James (١٨٤٢ - ١٩١٠) (وان كان هذا الاخير لا يعلن أنه نصير الحرية المطلقة لكنه يؤكد المعاني الثلاثة السابقة للحرية !) ، ولويس لافل L. Lavelle (١٨٨٣ - ١٩٥١) ، وكامبيل C. A. Campbell والفلاسفة الوجوديون المعاصرون .

الحرية أحساس ذاتي عميق بأننا أحرار

يرى أنصار الحرية المطلقة أن لكل منا أحساسا مباشرا بأنه حر ، وان له ارادة ، ويستطيع أن يفعل فعلا ما ، كما يستطيع ان يمتنع عن فعله ، أو يستطيع ان يفعل فعلا ويعتقد أنه كان باستطاعته أن يفعل غير ما قد فعل . يدرك كل منا ذلك باستبطان لا ريب فيه . ويمكن الدفاع عن هذا الاحساس العميق بأساليب مختلفة ، فقد نقول مع توماس ريد وغيره ان الاحساس الذاتي بالحرية أحد المعتقدات الاساسية للادراك العام common sense التي يعتنقها كل منا في حياته اليومية . انه اعتقاد شبيه تماما باعتقادنا بوجود عالم طبيعي من حولنا مستقل عن ادراكنا له ، واعتقادنا بوجود أناس من حولي لهم مثلي احساسات وعقل ورغبات وانفعالات وعواطف وأماني وآمال وآلام ، واعتقادنا بأن هنالك ماض نستطيع تذكر بعضه ، وإننا على ثقة في الأعم الأغلب بصدق ذكرياتنا . وأن أي مفكر يبذر الشك في هذه المعتقدات إنما يفعل ذلك لاسباب معرفية لا موضع لذكرها هنا ، لكنه يعتقد بها في حياته العملية ، ما في ذلك شك .(١٨) وقد ندافع عن هذا الاحساس العميق بالحرية بأسلوب آخر مثل قول الفلاسفة الوجوديين المعاصرين بأن الانسان في أساسه ارادة واختيار ، اذ يقول ياسبرز « أنا اختار اذن أنا موجود » ، ويقول سارتر ان أهم ما في الانسان هو

---

(١٨) قارن :

Cornman and lehrer Philisophical Problems and ; Arguments, An Introduction pp. 163-4, 174-5 Macmillan/14/1974

ارادته وهي الشيء الذي له قيمة فيه . ويعبر عن هذا المعنى أيضا فلاسفة آخرون (ليسوا من أنصار الحرية المطلقة) مثل ديكارت الذي قال ان لدينا فكرة بديهية راسخة عن حرية أفعالنا ، بل ان فكرة الحرية هي أكثر أفكارنا الفطرية شيوعا بين الناس[١٩] ، ومثل برجسون الذي قال ان الحرية معطى مباشر من معطيات الشعور ، بل هي أوضح معطياتنا المباشرة ، وندرك ذلك بحدس مباشر لا شك فيه ، ولذلك فالحرية ليست مشكلة تتطلب الحل وإنما هي واقعة حية يمكنك ملاحظتها في نفسك باستبطان .[٢٠] ولدينا ملاحظة جديرة بالاشارة هنا هي أن أنصار الحرية المطلقة يتجاهلون معطيات العلوم الطبيعية ونتائجها وهم يبحثون مشكلة حرية الانسان ، وينفرون من اتخاذ الكشوف العلمية أساسا ينطلقون منه الى حل لمشكلة الحرية ، ذلك لاعتقادهم ان الانسان نسيج وحده وسط العالم الطَّبيعي لا يخضع لما يخضع له عالم المادة من قوانين ، ولاعتقادهم ان المنهج السليم لحل المشكلات الفلسفية هو الاتجاه مباشرة الى الذات الانسانية ووصف حالاتها الشعورية وتحليلها ، وأهم خصائص الذات هو الاختيار بين ممكنات ، والاختيار ضرورة ، لأن الانسان لا قيمة له بدون فعل وسلوك ، والفعل هو معنى وجوده ، والفعل انما هو اختيار .[٢١]

وقد لا يوافق كثير من الفلاسفة على اتخاذ هذا الاحساس الذاتي بالحرية أساسا متينا يدعم حريتنا ، لأن الاحساسات الذاتية كثيرا ما تكون وهما وخداعا ، ولا ثقة لنا بالوهم ، ومثل أنصار الحرية في ذلك كمثل مريض أصيب بخوف مرضي فذهب للعلاج النفسي وأجريت عليه عملية تنويم مغناطيسي وأوحى اليه أن يستجمع قواه ويلقي حديثا طويلا أمام حشد كبير من الناس ، وقد فعل ذلك بالفعل ، فلما أفاق المريض وأخبر بما فعل أدعى انه كان حرا في قيامه بذلك الفعل وهو في الواقع مخدوع .[٢٢]

الفعل الحر لا علّة له

ثاني مواقف أنصار الحرية المطلقة قولهم أن الفعل الحر لا علّة له ، وقد وصلوا الى هذا الموقف نتيجة ربطهم فكرة العلية بنظرية الجبر ، ذلك لأن الاساس الأول الذي يستند اليه أصحاب الجبرية المتطرفة هو أن لكل فعل ارادي علة حددته ، وأن لا فعل ينشأ صدفة بلا تفسير ، ولذلك جاء أنصار الحرية المطلقة ليعلنوا أن الفعل الحر « اختيار حادث » contingent choice جاء بعد أن لم يكن ، وأنه تم فجأة وأنه جديد كل الجدة لم تسبقه عوامل تفسره سواء كانت وراثية أم فسيولوجية أم نفسية . الحق أن أنصار الحرية المطلقة يعترفون بتأثير الوراثة

---

(١٩) Descartes, **Principles** of Philosophy, pt. 1, Sec. xxxIx.

(٢٠) **Bergson, Essai Sur** les Données Immediates de **la Conscience, translated** into **English as Time and Freewill,** by F. L. Pogson, p. 142, **London,** 1910.

(٢١) زكريا ابراهيم : الفلسفة الوجودية ص ١٨٩ ، ٢٠٦ ، القاهرة ١٩٥٧ وأيضا عبد المحسن بدوي : دراسات في الفلسفة الوجودية ص ١٧ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢٢) **K. Hempel, some Reflections** on the case for **Determinism,** in S. Hook, (ed.)**Determinism and Freedom**. p. 161.

والعوامل الفسيولوجية وتأثير البيئة في أدائنا لأفعالنا الارادية ، لكنهم يردفون ذلك بقولهم اني حر في موقفي من هذه العوامل حر في اغتباطي بها أو استسلامي لها أو خجلي منها أو ارادة الثورة عليها ، وبذل جهدي في مقاومتها وتقويمها . اني لا أختار تلك العوامل وإنما أختار استجابتي لها . ويضيف هؤلاء الفلاسفة لتدعيم تلقائية الفعل الحر وعدم تفسيره بعلل أن الفعل الحر أبعد ما يكون عن الروية والتفكير ، وإنما هو أقرب الى الفعل الغريزي وتلقائية الكائن الحي .

وعلى هذا الموقف اعتراضات كثيرة ، نكتفي باثنين : الاول أني أعي باستبطان حقا أني أخترت الفعل كذا دون أختيار فعل آخر، لكني لا أعي باستبطان مماثل ان ليست له علة ، ولا أن له علة ، ذلك لأني حين أفعل فعلا أنظر دائما الى المستقبل ، أي ما أهدافي وأغراضي من فعل الفعل ولا أفتش عن علته قبل أدائه ، لكني حين أريد تفسيره بعد أدائه فلا شك واجد عللا تفسره . نريد القول أننا نعترف أننا قد نفعل فعلا باختيار وحرية ولكن لا يمنع ذلك من اكتشاف علته وتفسيره بعلل .(٢٣)

الفعل الحر لا يسمح بالتنبؤ

يذهب أنصار الحرية المطلقة الى أن الفعل الحر لا يسمح بالتنبؤ به قبل وقوعه ، ذلك لأنهم يربطون التنبؤ بالجبرية العلمية في صورها المختلفة سواء كانت جبرية ما يحدث في العالم الطبيعي أم جبرية العوامل الفسيولوجية والنفسية وتأثيرها على أفعال الانسان . وأراد أنصار الحرية رفض الجبرية بما يلزم عنها من امكان التنبؤ . ولهذا الرفض وجاهته بعد ما رأينا من قبل أن التنبؤ بأفعال الانسان الارادية قدره ضئيل وضعيف لعدة أسباب .(٢٤) ورغم ذلك يمكن القول ان الفعل الذي لا يمكن التنبؤ به قبل حدوثه يمكن تفسيره تفسيرا عليا بعد حدوثه ، كما سنرى في القسم التالي من البحث حين نتناول أنصار الحرية المعتدلة الذين يمتازون على أنصار الحرية المطلقة في تحليل أعمق للحياة النفسية .

(٧)

نظريات الحرية المعتدلة

تحدثنا في الاقسام السابقة عن الجبرية المتطرفة بمختلف صورها ، والتي لا يزال يدعو اليها بعض الفلاسفة المعاصرين كما سبق القول . وتحدثنا ايضا عن الحرية المطلقة وأهم المواقف التي يدعم بها أنصارها حرية الانسان ، ونلاحظ ان ليس لهذه النظرية أنصار اليوم . وفي كل مشكلة هامة تقدم لها حلول متطرفة ، ينشأ دعاة توسط ، وقد نشأ في مشكلة حرية الانسان من بين الفلاسفة المعاصرين دعاة توسط وتوفيق بين الجبرية المتطرفة والحرية المطلقة ، يسمى النقاد موقفهم « نزعة التوفيق » Compatibilism ولا يخطىء معرفة هذا الموقف من له احاطة بالكتب والمقالات المعاصرة في المجلات الفلسفية ، ويضم هذا الاتجاه الوسط فريقين من

(٢٣) قارن : P. H. Nowell-Smith, Ethics, p. 281, Pelican, 1954;

(٢٤) راجع تعقيبنا على الجبرية الفسيولوجية .

الفلاسفة ، فريق يسمى موقفه « الجبرية النفسية المعتدلة » في مقابل « الجبرية النفسية المتطرفة » التي تدعو الى جبر . وأصحاب الجبرية النفسية المعتدلة دعاة حرية لا جبرية ، لكنها تلك الحرية المقيدة التي تخفف من حدة مواقف أهل الحرية المطلقة ، كما نواجه حجج الجبرية المتطرفة وتهاجم بعضها وتخفف من حدة بعضها الآخر . ومن فلاسفة هذا الفريق من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين توماس هوبز T. Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) وجوك لوك J. Locke (١٦٣٢ - ١٧١٤) ، ودافيد هيوم D. Hume (١٧١١ - ١٧٧٦) ، وجون استوارت مل J. S. Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ، والهيجليين الجدد مثل توماس هل جرين T. H. Green (١٨٣٦ - ١٨٨٢) وبرادلي Bradley (١٨٤٦ - ١٩٢٤) ، كما نادى بها ايضا مورتش شليك M. Schlick (١٨٨٢ - ١٩٣٦) وألفرد اير A. J. Ayer (١٩١٠ ـ) .

أما الفريق الثاني الذي ينادي بالحرية المعتدلة فلا يدعو نفسه من أنصار الجبرية النفسية المعتدلة لكنه يتفق معهم في كثير من مواقفهم ، وقد يضيفون اليهم مواقف أخرى ، ومن فلاسفة هذا الفريق سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ق.م) وافلاطون (٤٢٨ - ٣٤٨ق.م) وأرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م) وديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) وليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) وكنط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) وبرجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) وجورج مور G. E. Moore (١٨٧٣ - ١٩٥٨) ، ونوجز فيما يلي مواقف أنصار الحرية المعتدلة دون اهتمام بأوجه الخلاف بين هذين الفريقين .

أ - لا حرية مع اضطرار

ان أول معنى من معاني الحرية يهتم به انصار الحرية المعتدلة - وان كان معنى سلبيا - هو غياب الاضطرار او القسر absence or compulsion or constraint ومن ثم نقابل بين الحرية والاضطرار اذ لا يجتمعان ، والاضطرار نوعان : خارجي وداخلي ، ويضم الاضطرار الخارجي خضوعنا بطبيعة الحال للقوانين الطبيعية التي يخضع لها كل ما يوجد في العالم الطبيعي من ظواهر وأشياء مادية ، وتلك الافعال التي يفعلها الانسان تحت تهديد أو تعذيب من الآخرين مثلما يحدث عادة في عهود الارهاب السياسي . والمقصود بالاضطرار الداخلي كل أفعالنا اللاارادية والمنعكسة مثلما يحدث لاجسامنا من نبض قلب وافرازات أعضاء بدنية وغدد وحركة خلايانا الحية الخ ، وما يصدر عنا عند تناول عقاقير معينة من شأنها أن توقظ رغبة أو تثير انفعالا أو تخفف من حدتها ، أو عند تعرضنا لتنويم مغناطيسي ، أو ما يصدر عن الحالات المرضية بأمراض نفسية أو عقلية حادة من أفعال لا حيلة لهم في منعها ولا سيطرة لهم عليها . ان كل من يسلك في أطار هذه الانواع من الاضطرار مجبور لا حرية له ولا اختيار ما في ذلك شك

ولا مسئولية له عما يفعل ، وما كان يمكنه ان يفعل غير ما قد فعل .(٢٥)

ب - اتساق العلية مع الحرية

بين الحرية والاضطرار أو القسر تقابل وتنافر اذ أن الفعل الذي أفعله مضطرا لست حرا في فعله ، لكن لا تنافر بين الحرية والعلية ، ولا تعارض . وقد قصد انصار الحرية المعتدلة بذلك ان يوفقوا بين دعوة الحرية المطلقة التي تنادي بالتنافر بين الفعل الحر والفعل المسبوق بظروف أدت اليه ، ودعوى الجبرية المتطرفة التي تنادي بأن كل أفعالنا تحتمها ظروف أدت اليها ومن ثم فهي مجبورة ولا يمكن وصفها بالحرية . اتفق انصار الحرية المطلقة وانصار الجبرية المتطرفة في أن الحرية والعلية لا يجتمعان ، بينما رأى أنصار الحرية المعتدلة إمكان اجتماعهما ، فليس ما يمنع ان أفعل فعلا اراديا حرا ، ويمكنني في نفس الوقت تقديم تفسير علي له . والآن ، ما علة الفعل الارادي الحر ؟ يعترف انصار الحرية المعتدلة بتأثير العوامل الفسيولوجية في أفعالنا الارادية ويقولون ان العوامل الفسيولوجية علل ضرورية لاحداث الفعل الارادي لكن هذه العوامل ليست هي الوحيدة التي تفسر ذلك الفعل ، ومن ثم يرفضون الجبرية المتطرفة الفسيولوجية . أما العلل التي يضيفونها لتفسير الفعل الارادي فهي علل نفسية ، أو ينادون بتفسير أفعالنا الارادية في اطار ما يسمى « السمات النفسية » the character of the agent .

ج - السمات النفسية

لكل انسان ميول ودوافع فطرية تنشأ عن تركيب جسمه وعوامل الوراثة والبيئة التي أحاطت به منذ ولادته وفي صباه ، ولكل انسان ميول ودوافع مكتسبة تنشأ عن خبراته وتجاربه ، لكن لكل انسان نموذجا خاصا يتفرد به في اشباع ميوله وتحقيق رغباته يختلف به عن غيره من الناس . وبالمثل يختلف كل منا عن غيره في اتجاهاته النفسية المكتسبة من كرم أو بخل ، إنبساط أو انطواء ، عرفان للجميل أو نكرانه ، تواضع أو غرور أو شعور بالعجز ، تفاؤل أو تشاؤم ، هدوء طبع أو حدة انفعال ، قوة ارادة أو ضعفها أو ميل الى التردد فيما أقوم به من أفعال ، ميل الى الصمت أو قلة الكلام أو الثرثرة ، جبن وهروب من المشكلات أو جرأة وشجاعة في مواجهتها . يضاف الى ذلك ان لكل انسان مجموعة من اعتقادات دينية وسياسية أو شكوك ، ومبادىء وقيم يعتنقها ، وأهدافا وأغراضا يبغي تحقيقها . ان التركيبة النفسية الفريدة التي تشكل نموذج كل فرد فيما سبق من مفردات الحياة النفسية انما تؤلف ما نسميه « السمات النفسية » عند أنصار الحرية المعتدلة . وحين يدعو أصحاب الجبرية النفسية المعتدلة الى ان جبرية السمات انما هي حرية يقصدون ان الانسان مجبر من ذاته وليس في ذلك

(٢٥) أنظر : Aristotle, Nicomach ean Ethics, 1109 b 30 ff. 11129, 20-30

وأيضا : Hume, Enquiries Concerning the Human Understanding and Concerning The principles of Morals, pp. 90, 94, ed. by Selby-Bigge, Oxford, Ayer, Fatalism, in the Concept of A Person, p. 257 Macmillan, London 1963.

جبر ، لأن ما أفعله مطابقا لسماتي النفسية يصدر عني باختيار لم يضطرني اليه أحد ، بل ويتسق مع ما ارتضيت من مبادىء وقيم ومعتقدات وما رسمت لنفسي من أهداف وغايات ومع ما في نفسي من اتجاهات أنا أقبلها واعتبرها هي ذاتي .

ويتعمق انصار الحرية المعتدلة في تحليل السمات النفسية للانسان ، ويواجهون تعقيد الحياة النفسية وما يكتنفها من تضارب وتناقض أحيانا ، ومن هذه التحليلات تلك الامور الثلاثة الآتية :

(أ) ليست السمات النفسية منعزل بعضها عن بعض ، وإنما يندمج بعضها في بعض ، فقد يكون الخوف من سماتي لكني قد أسلك أحيانا سلوك الشجاع حين أريد الدفاع عن مبدأ أخلاقي أو عقيدة سياسية والتضحية في سبيلها ، وتفسير ذلك ان الدفاع عما اعتنقه هو من سماتي أيضا . أو قد تكون الشجاعة من سماتي لكني قد أسلك في ظروف معينة ما يدل على هدوء طبع وحب للسلام ، وتفسير ذلك أن ميلي للسلامة مع الناس وعدم الرغبة في العدوان هو من سماتي أيضا[٢٦] .

(ب) ان الرغبة الاقوى هي التي تدفع الى السلوك ، اذ لكل انسان رغبات وميول قد يتعارض تنفيذ بعضها مع الرغبة في اشباع البعض الآخر ، وفي هذه الحالة يندفع الناس الى اشباع الرغبة الاقوى ، فقد يكون لدي أحساس شديد بالجوع ، ولدي في نفس الوقت رغبة في الاستمرار في عمل معين ، فاذا كان الاحساس بالجوع شديدا طاغيا بحيث لا أستطيع الاستمرار في العمل فأني أجدني تركت العمل الى تناول الطعام . لكن قد يحدث أن أقوم بعمل تدفعه رغبة ضعيفة ، وحينئذ تكون هذه الرغبة دفعت اليها رغبة ملحة طاغية ، مثلما اذا كنت أكثر ولعا برؤية الافلام السينمائية من مشاهدة حفلة موسيقية ، ورغم ذلك أجدني مندفعا الى الحفلة الموسيقية وتفسير ذلك أني رأيت أن سماع الموسيقى قد يرفع شأني بين الناس ، وتلك رغبة دافقة في سماتي النفسية ، أو مثلما أجد نفسي مدفوعا الى رد الامانات الى أهلها على الرغم من أني في حاجة شديدة الى المال ، وهكذا[٢٧] .

(ج) يمكنك ان تتساءل : كيف عرفت ان لديك سمات نفسية معينة أو ان شخصا ما لديه سمات معينة ؟ والجواب المألوف أني لم أكتشف سماتي أو سمات غيري الا من خلال ما نقوم به من سلوك فعلي في الواقع ، وحينئذ قد أقول أن تصور السلوك أسبق منطقيا من تصور السمات النفسية ، وان صح ذلك فلا أساس لسلطان السمات النفسية . لكن يبدو لي أن السمات أسبق منطقيا من السلوك ، وان كانت معرفتي للسمات لاحقة على معرفتي لأنماط السلوك ..

---

(٢٦) أنظر :

Ilham Dilman, the Freedom of Man,Proceedings of Aristorelian Society, p.30,London,1961.

(٢٧) أنظر :

J. Wisdom, Problems of Mind and Matter, PP. 127-8, London, 1934.

تتكون السمات أولا ثم يليها سلوك يطابقهـا ، وان كنت لا أعرف تلك السمات الا من خلال مفردات السلوك التي تطابقها(٢٨) .

د - التفسير الغائي للسلوك

قد لا نفسر سلوك الفرد بدوافع ورغبات وارادة وعواطف فقط ، وانما نفسره أيضا بما نبغي من غايات وأهداف وأغراض ، وهنا نقـول اننـا نفسر أفعالنـا بأسباب reasons لا بعلل causes حين أقوم بعمل ما أنظر الى مستقبل أدائي له ولا أنظر الى ماضٍّي وما يشكلني من دوافع ورغبات ، قد أفسر هرولة شخص بمحاولته النجاة من حيوان مفترس ، وأفسر رغبتي في شراء منزل جديد برغبة في مسكن أفضـل ، أفسر امتناعي عن التدخين حفظا على صحتي وهـكذا . ولعل هذه النظرية الغائية في تفسير السلوك لا تعترض على نظرية السمات النفسية بقـدر ما تعتـرض على التفسـير الفسيولوجـي للفعـل الارادي ، وذلك لأن الفعل الانساني ليس مجرد حركات جسمية في المكان وإنما هو أشد ارتباطا بالبيئة التي أحياها وما يحيطني من أهداف وغايات . حين أقوم مثلا بحـل تمـرين هندسي ، أو أقوم بعملية استدلال منطقي ، أو أتذكر حادثة ماضية ، فأني أخضع في ذلك لقواعد منطقية أو قوانين رياضية أو أعتقد أن ما أتذكره صدق وحق ، وهـذه القواعـد والقيم لا يمـكن تفسيرهـا بعمليات فسيولوجية في المخ . ولذلك تميز النظرية الغائية بين العلو والسبب .

(أ) العلة دائما تسبق المعلول سبقا زمنيا بينما السبب يتلو الفعل في الزمن اذ ينظر الفاعل بفعله الى مستقبل .

(ب) يمكن تعميم التفسير العلي على عدد كبير من الامثلة كما يحدث في تفسير علي لحوادث طبيعية ، بينما قد يصدق التفسير الغائي على حالة فردية واحدة طبقا لاطار الاهداف والغايات التي يتحرك فيها كل انسان .

يدعو الى هذه النظـرية الغـائية عدة فلاسفـة معاصرين .(٢٩) لكن يمكن تعقب أصولها عند أرسطو وليبنتر وكنط والوجوديين المعاصرين . يقول ارسطو في افتتاحية كتاب الاخلاق الى نيقوماخس : « ان كل فن وكل بحث ، وبالمثل كل فعل انما يهدف الى خير ما » . ويقول ليبنتر أن لا تعارض بين حرية الافعال الانسانية وتفسيرها بأسباب ، اذ يجب أن يوجد دائما سبب يدعوني الى فعل شيء دون آخر وان لم يلزمني هذا السبب بأداء فعلي بالضرورة ، ويقـول عبارتـه المشهـورة ان الاسبـاب تدعـو لكنهـا لا تضطر reasons incline but not necessitate مثلما نقـول

---

(٢٨) Nowell - Smith, Ethics, p. 297, Penguin Series, Middlesex, 1954.

(٢٩) R. S. Peters, the Concept of Motivation, N. Y., 1958

وأيضا :

D. Davidson, Actions, Reasons and Causes, in The Journal of philosophy, LX, no. 23, 1963.

وأيضا :

Whiteley, Mind In Action, pp. 70, London, 1973 B. Russell, A Critical Exposition

ان عفتي وقناعتي تمنعاني من أخذ رشوة وتدعواني الى سلوك الزاهد لكن قد لا أكون زاهدا في كل الحالات اذ قد تدفعني الحاجة الى أخذ الرشوة(٣٠) . ورأي كنط ان للمبادىء الاخلاقية التي اعتنقها سلطانا يدعوني الى تنفيذ ما هو خير لكني قد أقصى هذه المبادىء . على الرغم من أن الفلاسفة الموجودين المعاصرين - وخاصة سارتر - يدعون الى الحرية المطلقة والى ان الفعل الحر لا علة له سوى ارادتي والى ان الفعل الحر لا تفسره سماتي النفسية من دوافع ورغبات وعادات واتجاهات نفسية ، غير أنهم يدعون الى تفسير غائي للسلوك حين ينادون بتفسير السلوك بأسباب ويسمونها « دوافع » motives ويقصدون بالدوافع أهدافي وغايتي من الفعل : الدافع الى الفعل عندهم هو عزل نفسي عن حاضري وماضي . والوعي بأنه لا يمكنني الصبر عليهما وضرورة الثورة عليهما . فذلك يدفعني الى اختيار شيء جديد أحقق به ذاتي وأغير به واقعي وان أتحمل مسئولية ما أفعل .(٣١) (وتجدر هنا ملاحظة أن هذا الموقف القائل بأن ما يدفعني الى الفعل الحر هو النظر الى المستقبل عند الوجوديين يعتبر علة لذلك الفعل وسببا له ، وذلك يتعارض مع قولهم السابق ان الفعل الحر لا علة له .)

والآن يمكن القول أن النظرية الغائية التي تفسر السلوك بأهداف الفاعل وأغراضه وغاياته منه ليست معارضة لتفسير نظرية السمات النفسية ، ذلك لأن هذه النظرية تضم الى جانب الميول والرغبات وما اليها ما لدى من أهداف وغايات ومبادىء وقيم اعتنقها ، ومن ثم يمكن اذابة الأسباب في العلل .

وان اعترض معترض بأن التفسير العلي للسلوك الذي تأخذ به نظريات الحرية المعتدلة لا يزال يؤذن بنوع من الجبرية ، على أساس أن الجبرية المتطرفة تبدأ من الصدق المطلق لمبدأ العلية ، فانه يمكننا تقديم صياغة جديدة لمبدأ العلية في مجال السلوك الانساني الحر . يمكننا القول ان العلاقة بين الفعل الحر وما يدفع اليه من دوافع ورغبات وغايات ومبادىء ليست علاقة بين حوادث مثل العلاقة العلية الطبيعية ، ذلك لأن الدوافع والرغبات ليست حوادث وإنما هي استعدادات للسلوك ، واذا ربطنا الفعل الحر بمبادىء خلقية أو قيم اعتنقها يمكننا القول أنها ليست حوادث وإنما موضوعات فكر لا تنطوي على تعاقب زمني . وحينئذ نربط الفعل بمبادىء لا بحوادث(٣٢) . هذا الموقف لا يتعارض مع قولنا السابق ان الحرية تتسق مع العلية ، وإنما يعطي للعلية في مجال السلوك رؤية جديدة .

---

(٣٠) B. Russell, A Critical Exposition of the philosophy of leibnizy pp. 191-4, 2 rd ed., London, 1937.

وأيضا : R. Chiskolm, Person and Object, A Metaphysical Study, p. 69, London, 1976.

(٣١) Blackham, Six Existertialist Philosophers, pp. 1278, London, 1965.

وأيضا : Mary Warnock, The Philosophy of Sartre, p. 113, London, 1966.

(٣٢) S. Korner Fundamental Questiors in Philosophy, pp. 242-3, Penguin, 1971.

هـ - هل يمكنني أن أفعل غير ما قد فعلت ؟

لقد اشتهر جورج مور - من أئمة فلاسفة الاخلاق في القرن العشرين - بمبدأ يدافع فيه عن حرية الانسان معتدلة أو مقيدة ، يقول فيه ان الفعل الحر هو ما أفعله وأنا على وعي بأني كنت أستطيع ان أفعل غير ما قد فعلت(٣٣) . ويمكن تعقيب هذا المبدأ عند أرسطو الذي كتب « حين يكون في قدرتي أن أفعل شيئا فان في قدرتي أيضا ألا أفعله ، والعكس بالعكس ... واذن في قدرة الانسان ان يكون فاضلا كما ان في قدرته ان يكون رذيلا »(٣٤) ولكن هذا المبدأ مجرد امكان منطقي لا تناقض فيه ، لكني في الواقع لا أستطيع أن أفعل غير ما قد فعلت اذا وضعت في الاعتبار ان كل فعل يجب ان يكون متسقا ومطابقا لسماتي النفسية بالمعنى الواسع الذي يضم دوافعي ورغباتي وارادتي وأهدافي وغاياتي ومبادئي وقيمي واتجاهاتي الفردية . يمكنني القول اني كنت مستطيعا ان أفعل غير ما قد فعلت لو أن لي سمات نفسية مختلفة ، لكن اذا كانت سماتي المتفردة التي تؤلف طباعي الراسخة والتي تشكل ذاتي هي هي فلن استطيع ان أفعل غير ما قد فعلت ، لأن ما أفعل عن روية واختيار وعزم صادر عن مجموعة رغباتي التي ارتضيتها لنفسي واعتقاداتي وأهدافي ومبادئي التي استمسك بها ، والا كنت شخصا آخر له سمات نفسية أخرى . لكن هذا الموقف قد يعطي انطباعا خاطئا بأن سماتي النفسية المتفردة إنما هي سجن لا أستطيع الخروج منه ، وذلك ينقلنا الى الفقرة التالية .

و - هل يمكنني تغيير نفسي أو تعديلها ؟

يجيب أنصار الحرية المعتدلة بالايجاب ، اذ يرون اننا كثيرا ما نحس بفساد بعض عاداتنا الراسخة ، أو خطأ في كثير مما نفعل ، أو عيب في بعض مبادئنا التي نعتنقها ، بل كثيرا ما أقبل بعض سماتي ، وأنفرد من بعضها الآخر ، أقبل ما أجد تأييدا له وتشجيعا من الناس ، وأنفر مما يكرهونه . فاذا كانت لدي رغبة صادقة في نقد ذاتي وتعديل نفسي وتطويرها وأن أتحول من حال الى حال أفضل منه ، فان ذلك يدفعني الى بذل الجهد ومحاولة تعديل بعض سماتي واصلاح ما أحاط بي من نقص أو فساد . حينئذ يكون الانسان سيد نفسه يفعل ما يرضيه عن تعقل وتدبر ، يفعل ما يتسق ومبادئه دون صراع أو تأنيب أو لوم ، ومن ثم يكون حرا . وهذا الجهد وهذه المحاولات وهذا التفكير في تعديل السمات هو في طاقة الانسان ومقدوره وان كان أمرا صعبا .

ز - هل التنبؤ بالفعل الحر ممكن أم مستحيل ؟

لقد رأى أنصار الجبرية المتطرفة بمختلف صورها أن التنبؤ بالفعل الارادي في المستقبل أمر ممكن على اساس أفتراض ان لكل فعل علة أو تفسيرا ، وان لنفس العلل نفس المعلولات . أما أنصار الحرية المعتدلة فأنهم يتفقون مع أنصار الجبرية في أن لأفعالنا الارادية عللا وتفسيرات لكنهم يختلفون فيما بينهم . يرى بعضهم أن من الممكن ان نتنبأ بأفعال الانسان الارادية قبل وقوعها اذا كانت لدينا معرفة كاملة

(٣٣) G. E. Moore, Ethics, ck, vi, London, 1958.
(٣٤) Aristotle, Nicomachean Ethics, 111367-14.

بسماته وطباعه مثل جون ستورات مل ، بينما يرى فريق آخر من أنصار الحرية المعتدلة ان من المستحيل التنبوء بالفعل الحر قبل وقوعه ، لأنه به جدة وأصالة ، وان كان يمكن تفسير الفعل بعد وقوعه في اطار السمات النفسية المتفردة في الشخص ، مثل برجسون بوجه خاص .

لقد هاجم برجسون الجبرية النفسية المعتدلة عند جون ستوارت مل في انجلترا وفوييه Fouillee في فرنسا بقوله انهم يتصورون الحياة النفسية كما لو كانت مؤلفة من حالات وحوادث منعزل بعضها عن بعض ، ويعقب بعضها بعضا ، وان الحالة الراهنة للفرد إن هي إلا حصيلة لحالات نفسية سابقة عليها . أما برجسون فرأى قصور هذه النظرة الى طبيعة النفس ، ونادى بأن الحياة النفسية هي في حقيقتها تيار متصل تندمج وحداتها وتتداخل بعضها مع بعض ، وأن ليس بينها تعاقب وإنما مصاحبة ، وأن للحياة النفسية خاصة فريدة يسميها « اللاتجانس » heterogeneity ، ويقصد بها أن أي حالة نفسية من انفعال أو عاطفة أو وجدان لن تحدث مرتين في وقتين متتابعين وإنما تحدث مرة ولا تعود ، حتى ان تكرر حدوث حالة نفسية واحدة في وقتين متتابعين فليس من الضروري أن يصدر عنها سلوك في المرة الثانية مشابه تماما للسلوك الصادر عنها حين حدثت في المرة الاولى . ومن ثم فلا توقع ولا تنبوء . ان الحالة النفسية الواحدة تعبر عن تطور عضوي للشخصية كلها بكامل خبراتها الماضية والحاضرة . والفعل الحر بهذا المعنى أصيل جديد لا يمكن التنبوء به قبل حدوثه . يسلم برجسون في الواقع بنظرية السمات النفسية وغم مهاجمة بعض أنصارها ، لكن يضيف أن ما أفعله إنما يصدر عن سماتي بتطور فريد ، تماما كالثمرة حين تخرج من الزهرة ، لا وجه شبه بينهما ، لكن لولا الثانية لما جاءت الاولى[٣٥] .

ح - الحرية تحرر من الشهوات

ولبعض أنصار الحرية المعتدلة نقطة أخيرة يدافعون بها عن حرية الانسان ، حين يستخدمون الحرية بمعنى مختلف عن المعاني السابقة ، وهو التحرر من عبودية الانفعالات الجامحة والعواطف العمياء والعادات الراسخة ، أو هو محاولة ضبط النفس . ويتطلب ذلك اخضاع سلوكنا لأحكام العقل ، كما يتطلب مرانا وتعودا وممارسة بحيث يكون الفعل الارادي متسقا والمبادىء والقيم التي اعتنقها . ومن الواضح ان هذا المعنى للحرية مرتبط بالافعال الاخلاقية ، أو بالصراع الذي قد ينشأ عن التفكير في فعلين أحدهما تمليه رغباتي الوقتية والثاني تمليه قواعد الاخلاق التي أتمسك بها ، وعلي أن اختار احدهما . ونجد هذا المعنى للحرية عند ألوان شتى من الفلاسفة ، صوفية مثل سقراط وأفلاطون ، وعقلانيين مثل أرسطو وليبنتز ، وتجريبيين مثل جون ستوارت مل وبرجسون . لا أكون حرا عند سقراط الا اذا بذلت الجهد في مقاومة رغباتي الحسية ومارست شيئا من الزهد والتقشف واعتناق المبادىء العقلية

(٣٥) Bergson, Time and Freewill : An Essay on the Immediate Data of Conseciousness' pp. 100' 155-186, London, 1910.

التي يمليها العقل . وليس غريبا على القارىء نظرية أرسطو الخلقية التي تقوم على الوسط وهذا الوسط يحدده العقل . ويقول ليبنتز ان كل فعل ارادي أوديه بمقتضى العقل فعل حر ، وان الناس احرار بقدر ما يستطيعون التحرر من عبودية شهواتهم . ومن المأثور عن جون ستوارت مل فيلسوف الاخلاق النفعية قوله ان اللذائذ العقلية والفنية أفضل للانسان من اللذائذ الحسية ، وقوله اني أفضل ان اكون سقراطا ساخطا على أن أكون أبله مستمتعا . وسوف نشير فيا بعد الى أن الصوفية من الاسلاميين لا يأخذون الا بهذا المعنى للحرية .

(٨)

الخصومة المزعومة بين أنصار الجبرية والحرية

من هنا نبدأ ، نبدأ الدفاع عن أول أغراضنا من هذا البحث ، وهو أثبات أن الخصومة بين أنصار الجبرية وأنصار الحرية أقل حدة مما يظن الباحثون أو الفريقان المتخاصمان أنفسهما ، أو أثبات أن نظريتي الجبرية والحرية ليستا على طرفي نقيض ، وإنما يمكن التوفيق بينهما أو على الاقل تضييق مساحة الخلاف بينهما . ولم يكن ما سبق من أقسام في هذا البحث سوى تمهيد للمقارنة بين النظريتين ، وذلك بتحديد مختلف معاني الجبرية والحرية ، وتوضيح أهم مواقف أنصار الجبر وأنصار الحرية . فقد عرضنا فيا سبق لصور شتى للنظرية الجبرية ، وهي الجبرية الميتافيزيقية والجبرية المنطقية والجبرية الفسيولوجية وجبرية التحليل النفسي ، قدمنالها بكلمة عن الحتمية الطبيعية التي تلقي ضوءا على بعض تلك الجبريات .

ومن جهة أخرى ، عرضنا لمجمل نظريات الحرية واستطعنا التمييز بين « نظرية الحرية المطلقة » و « نظرية الحرية المعتدلة » ، وفي هذه النظرية الاخيرة ميزنا بين ما يسميها أصحابها « الجبرية النفسية المعتدلة » (وهم أنصار جبرية لا جبر) ، وما لا يسميها أصحابها بذلك الاسم لكنهم يلتقون مع أصحاب الجبرية النفسية المعتدلة في أكثر مواقفهم . ولقد استطعنا بدراستنا لتلك النظريات التي تدعو الى جبرية أفعال الانسان أو الى حريته أن نلتقط النقط التالية نتخذها موضوعا للمقارنة بين تلك النظريات :

(أ) الحرية والعلية .

(ب) الافعال المجبورة .

(جـ) الاحساس الذاتي بأننا أحرار

(د) تفسير الفعل الارادي بدوافع واسباب .

(هـ) الحرية خضوع لسلطان العقل وتحرر من الشهوات .

(و) امكان التنبوء بأفعال الانسان أو استحالته . وسوف نجد من المقارنة ما أقل المواقف التي يختلف فيها الفريقان المتخاصمان ، وما أكثر المواقف التي عليها اجماعهم ، أو اتفاقهم من حيث المبدأ واختلافهم في التعبير عنه .

(أ) الحرية والعلية

ان الفكرة الاساسية التي يعتمد عليها كل أنصار الجبر هي قولهم أن لكل فعل انساني علة أو ظروفا معينة في ذات الانسان أو خارجة عليه أدت

اليه وحددته ، ومن ثم تسليم كل الجبريين بمبدأ العلية الكلية . بل يعلن هؤلاء انهم لا ينكرون ان لنا ارادة واختيارا وعزما وتصميا أو الامتناع عن اداء فعل ما ، وإنما ينكرون فقط أن يحدث كل ذلك بصدفة أو بمعجزة دون تفسير ، ويقولون ان الحرية الانسانية ليست ممكنة إلا في اطار نظرية الجبر ، فاذا انتقلنا الى أنصار الحرية المطلقة وجدناهم يعلنون في الظاهر اختلافهم عن أهل الجبر اذ يرون ان الفعل الحر لا يسمح بأي تفسير علي داخلي يصدر تلقائيا لا تحدده أي عوامل سابقة قبل حدوثه . لكن اذا تعمقنا موقف أنصلر الحرية المطلقة وجدناهم يفسرون الفعل الحر بالاهداف والغايات التي أحددها للفعل المختار ، كما يفسرونه بصدوره عن ارادتي واختياري ، واذن فموقفهم يتضمن القول أن لافعالي تفسيرا في حياتي النفسية وأهدافي التي أسعى لتحقيقها . واذا ذهبنا الى أنصار الحرية المعتدلة رأيناهم - بعد حوارهم مع حجج الجبريين - ينادون ان لا مقابلة ولا تنافر بين الحرية والعلية ، أي يمكن للفعل الحر أن يجد تفسيرا بعلل أو بأسباب ولا ينتقص ذلك من وصفه بالحرية . واذن فالاتفاق تام بين أنصار الجبرية المتطرفة وأنصار الحرية المعتدلة ، في هذه النقطة ، وحين يختلف عنهم فيها أنصار الحرية المطلقة نجد أن اختلافهم غير متسق مع باقي مواقفهم .

(ب) الافعال المجبورة

يتفق أنصار الحرية مع أنصار الجبرية في نماذج الافعال الانسانية التي لا أختيار لنا فيها ولا نملك السيطرة عليها ولا حيلة لنا في منعها ، بل يوسع أنصار الحرية من مجال هذه الافعال ويزيدون الامثلة ، ويتسق ذلك مع نداء الفريقين المتخاصمين معا أن الحرية لا تنافر التفسير العلي لكنها تنافر الاضطرار والقسر . ونماذج الافعال المجبورة صنفان ، صنف نضطر الى فعله من قوة خارجة علينا ، وصنف نضطر الى فعله بقوة داخلة فينا . ويندرج في صنف الافعال المجبورة من الخارج ثلاثة أنواع من الافعال :

(١) ما نفعله خضوعا لقوانين الطبيعة مادمنا نحيا في عالم الطبيعة ويجري علينا ما يجري على سائر الاجسام الطبيعية من قوانين .

(٢) ما نفعله تحت تهديد أو تعذيب أو في ظل الرق والعبودية مثلما يحدث في المجتمعات الديكتاتورية .

(٣) يضيف الفلاسفة الوجوديون المعاصرون - وهم أنصار حرية مطلقة - الى الافعال المجبورة السابقة ما يسمونه « المواقف المفروضة » مثل ميلادي في يوم معين ومن جنس معين ذكر أو أنثى من أبوين لا أختيار لي فيهما وفي مجتمع معين له أعرافه وتقاليده وطبقاته الاجتماعية ومؤسساته المختلفة التي لا مفر من الانخراط فيها والخضوع لها ، وتلك أمور لا حرية لي في اختيارها ولا حيلة لي في منعها (وان كان الوجوديون يرون ان الرضوخ التام لهذه الأطر التي أنشأ فيها وأعيشها إنما هو « الوجود الميت » ويجب عزل نفسي عنها وأن أعي بضرورة تغييرها ومن ثم تنشأ الدوافع الى الفعل الحر) .

أما صنف الافعال المجبورة من داخلنا فتقع في ثلاثة أنواع أخرى من الافعال :

(١) الافعال اللاارادية والمنعكسة مثلما يجري داخل جسمنا من حركات وتغيرات ووظائف يقوم بها القلب والكبد والمعدة والامعاء والمخ ونحو ذلك .

(٢) نماذج السلوك الصادرة عن الافراد الشواذ المصابين بأمراض نفسية أو عقلية حادة ، ولهذه الامراض علل فسيولوجية في الجهاز العصبي المركزي ، أو دوافع لا شعورية لا يملكون السيطرة عليها ولا التحكم فيها .

(٣) نماذج السلوك الناتج عن التنويم المغناطيسي أو تناولها عقاقير معينة من شأنها أن توقظ الجسم رغبة أو انفعالا أو أن تخفف من اندفاعها .

(جـ) الاحساس الذاتي بالحرية

يجمع أنصار الحرية المطلقة وأنصار الحرية المعتدلة على أن لكل منا وعيا مباشرا واحساسا ذاتيا بأننا أحرار ، ويحس كل منا في نفسه باستبطان أن له قدرة على أختيار فعل دون آخر . وقدرة على تنفيذ فعل والامتناع عن الآخر . يعطي أنصار الحرية المطلقة لهذا الاحساس أهمية كبرى ويبدأون به دفاعهم هن الحرية ، وانه احساس صادق لا شك فيه ، بينا لا يعطيه أصحاب الحرية المعتدلة مثل تلك الاهمية القصوى ويعتمدون في تدعيم الحرية على حجج أخرى تفوقه في القوة في رأيهم . فماذا يقول أنصار الجبرية في هذا الاحساس ؟ رأى بعضهم أن كثيرا من احساساتنا الذاتية وهم وخداع وينبغي عدم الوثوق بها ، وأن احساسنا بالحرية من هذا النوع ، مثل كارل همبل Hempel لكن البعض الآخر من أنصار الجبرية المتطرفة يعترف بهذا الاحساس وصدقه وان فسروه في اطار الجبرية ، وذلك بقولهم ان وجود هذا الاحساس فينا لا يلغي التفسير العلي لافعالنا الارادية : نعم حين أفعل فعلا اراديا حرا عن طواعية واختيار لا أدرك سبب فعله على وجه التحديد ، ومن ثم الظن بأنه أحساس تلقائي لا علة له ، لكن يمكن لهذا الاحساس ان يجد تفسيرا . حين أؤدي فعلا اراديا حرا أنظر عادة الى عواقبه ونتائجه فاذا جاء التفكير والروية بوجاهته أقدمت على أدائه ، لكني أستطيع بعد أدائه أن أفسره بدوافع معينة أحدها في نفسي . نلاحظ أن أنصار الحرية المعتدلة يعترضون على هذا التفسير ، فعلى الرغم من قبولهم بالحرية كأحساس ذاتي وأني أعي باستبطان أني قادر على اختيار ما أفعل ، فأني لا أعي باستبطان مماثل ان كان لهذا الاحساس علة أو ليست له علة . نخلص من ذلك الى أن الفريقين المتخاصمين متفقون على أن لدينا أحساسا ذاتيا بأننا أحرار ، وان كان فريق منهم يعطيه أهمية أكبر مما يعطيه الفريق الآخر ، أو أن فريقا يفسره بلغة التفسير العلي ، بينا يرفض فريق ثالث هذا التفسير .

(د) تفسير الفعل الحر بدوافع وأسباب

لا خلاف بين كل أنصار الجبرية والحرية على تأثير العوامل الفسيولوجية والوراثية في توجيه سلوكنا الى حد كبير . ولا خلاف بينهم أيضا على تأثير السمات النفسية المتفردة لدى كل شخص في سلوكه .

والمقصود بالسمات النفسية - كما سبق القول - ان لكل منا ميولا ودوافع ورغبات وانفعالات وعواطف واتجاهات وأهداف وأغراض ومعتقدات ، لكن لكل منا نموذجه الخاص في اشباع ميوله وتحقيق رغباته والتعبير عن انفعالاته وأسلوبه في الحياة وطريقته في التفكير والسلوك ، ولكل منا أهدافه وغاياته وقيمه واعتقاداته واطاره الثقافي والحضاري - هذه جميعا تؤلف سماته النفسية المتفردة التي تفسر سلوكه وتحدد أفعاله ولا يستطيع شخص ما أن يفعل ما لا يتسق واطار سماته . تبدأ بعد ذلك الاختلافات بين الفريقين المتخاصمين بحيث تصبح هزيلة أو لفظية في نهاية الأمر كما سنرى . يتفق أنصار الجبرية المتطرفة وأنصار الحرية المعتدلة أولا في ان الانسان لا يستطيع ان يفعل إلا في اطار ما تمليه عليه سماته النفسية وطباعه المتفردة ، ويسمى الجبريون المتطرفون ذلك جبرية ، بينما يسمي أنصار الحرية المعتدلة نفس الموقف حرية ، ذلك لاني حين أفعل ما تمليه علي سماتي فاني أفعله باختياري لم يضطرني أحد اليه ، وأفعل متسقا والاطار النفسي الذي أرتضيه لنفسي ومن ثم فاني مسئول عما أفعل . يتفق أنصار الجبر المتطرف وأنصار الحرية المعتدلة ثانيا في أن بالامكان تعديل سماتي وتطويرها ، بينما يسمح الجبريون بذلك في أضيق الحدود ، يرى أصحاب الحرية المعتدلة أن بأمكاني تعديل سماتي وتطويرها في حدود أوسع ، اذ تدلني خبراتي المباشرة على أني متمسك بتلك المفردات من سماتي التي تلقى ترحيبا من الآخرين واني نافر من تلك المفردات من سماتي التي تلقى استهجانهم ، فيكون ذلك بمثابة دوافع الى محاولتي بذل الجهد لتعديل تلك السمات . بل قد أدرك بنفسي عيوبا في عاداتي أو نقصا في مبادئي أو ثغرات في قيمي وأهدافي مما يدفعني الى تغيير نفسي قدر طاقتي ، وفي ذلك أقصى مراتب الحرية . وهنا نلاحظ ان الخلاف بين أنصار الجبرية المتطرفة والحرية المعتدلة خلاف لفظي ، مرة حين يسمي الجبرية جبرية السمات جبرية ، بينما يسميها نصير الحرية المعتدلة حرية ، وخلاف في الدرجة مرة أخرى حين يضيق الجبري المتطرف من قدرتي على تطوير سماتي وطباعي بينما يوسع نصير الحرية المعتدلة من تلك القدرة .

والآن الى أنصار الحرية المطلقة فهم يعلنون عداءهم لجبرية السمات النفسية لكنهم في واقع الامر أصدقاء لتلك الجبرية : انهم لا ينكرون تأثير الوراثة والفسيولوجيا والسمات النفسية المتفردة لكنهم يردفون ذلك بقولهم اننا أحرار في قبولها أو الثورة عليها ، ولا يعني ذلك أكثر من قدرتنا على تعديل سماتنا وتطويرها ، وهو ما قالته أنصار الحرية المعتدلة . يقول أنصار الحرية المطلقة ثانيا ان ما يدفع الى الفعل الحر ليس حاضري وماضي وما ورثته واكتسبته من دوافع ورغبات ، وانما ما يدفع الى الفعل الحر هو ثورتنا على الحاضر والماضي والوعي بضرورة تغييره ، ووجود أهداف وغايات أود تحقيقها في المستقبل ، لكن الحديث عن أهدافي وقيمي ومبادئي التي أعتنقها جزء من الحديث عن سماتي النفسية وامكان تطويري لها . نخلص من كل ذلك الى أن أنصار الجبرية المتطرفة وأنصار الحرية - متطرفة أو معتدلة - متفقون على ان السمات النفسية لدى كل فرد هي التي تحدد سلوكه ،

لكن يسمي أنصار الجبر المتطرف تلك العوامل جبرا ، بينما يسميها أنصار الحرية حرية ، ويتفقون على امكان تعديل الفرد لسماته وتطويرها على خلاف في درجة التشاؤم أو التفاؤل في مداها .

(هـ) الحرية خضوع لسلطان العقل وتحرر من الشهوات .

نحن الآن أمام معنى جديد من معاني الحرية لم نعرض له من قبل بطريق مباشر ، وهو اللاخضوع لسلطان العقل والتحرر من الشهوات ، ويتضمن هذا المعنى للحرية أن أخضاع سلوكنا لأحكام العقل لا يعتبر نوعا من الجبرية وإنما هو أعلى درجات الحرية . وهذا المعنى للحرية أكثر ارتباطا بالمواقف الخلقية منه بالافعال الارادية بالمعنى الواسع : حين أواجه صراعا بين اشباع رغبة حسية وأداء واجب خلقي فاني محتاج لاعمال العقل وجهد الارادة وممارسة الروية والتفكير حتى يضعف تأثير رغبات الحس وانفعالات النفس ويصبح العقل هو الآمر الناهي فان انتصر العقل والتزمت الارادة بحكمه فقد تحققت حرية الفعل . ولقد نادى بهذا المعنى للحرية كل أنصار الحرية المعتدلة على اختلاف اتجاهاتهم في التعبير عنه ، سواء منهم الفلاسفة العقليون مثل أرسطو وليبنتز وكنط ، أم المثاليون مثل سقراط وافلاطون ومتصوفة المسيحية والاسلام ، أم الفلاسفة التجريبيون المحدثون مثل جون ستوارت مل وبرجسون . فنظرية أرسطو في الوسط الخلقي الذي يحدده العقل أمر مألوف لمن قرأ أرسطو ، والحرية عند ليبنتز تخلص من العبودية للشهوات والله بهذا المعنى حرٌ حرية مطلقة والناس أحرار بقدر ما يستطيعون التحرر من تلك العبودية ، وقد رأى سقراط ان الجسم سجن النفس ولن يحقق الانسان انسانيته حتى يقاوم نزواته الوقتيه وانفعالاته الجامحة ، ويقول جون ستوارت مل رائد المذهب النفعي في الاخلاق ان اللذائذ الذهنية والفنية أنفع للفرد وللمجتمع من اللذائذ الوقتية الحسية ، كما يقول ايضا أني أفضل أن أكون كائنا عاقلا بائسا على أن أكون أبله مستمتعا . فماذا يقول انصار الجبرية المتطرفة في هذا المعنى للحرية ؟ ينادي به البعض مثل سبنوزا الذي رأى أن الحرية هي تحرر من عبودية الاهواء والغرائز ، أما البعض الآخر من أنصار الجبرية المتطرفة الذين ليست لهم ميول لاهوتية فانهم لا يتحمسون لهذا المعنى وان لم يعترضوا عليه ، اذ يتسق هذا المعنى للحرية مع مواقفهم حين ينادون بامكان تعديل الانسان لسماته النفسية وتطويرها . أما أنصار الحرية المطلقة - خاصة منهم خصوم الاخلاق التقليدية والاتجاهات الدينية مثل بعض الفلاسفة الوجوديين المعاصرين - فانهم لا يقبلون هذا المعنى للحرية لانهم لا يرون ان تقوم افعالنا على مبادىء أخلاقية عامة عليها اجماع ، وانما تقوم على مبادىء يخلقها كل فرد بنفسه بما يرى فيها تحقيق ذاته .

(و) امكان التنبؤ بالفعل الحر أو استحالته

يبدو لأول وهلة ان الخلاف كبير بين انصار الجبرية وانصار الحرية حول امكان التنبوء بأفعال الفرد في المستقبل أو استحالته ، اذ يقول انصار الجبر أن التنبؤ ممكن ، بينما يقول انصار الحرية انه مستحيل . لكن يتبين من النظرة الفاحصة ومتابعة

أقوال الفلاسفة المعاصرين ان الفريقين المتخاصمين على اتفاق في استحالة التنبوء بأفعال الانسان في المستقبل قبل حدوثها على نحو دقيق . فقد رأى أنصار الجبرية أول الأمر أن التنبوء ممكن على اساس أن لنفس العلل نفس المعلولات ، فاذا عرفنا التركيب الفسيولوجي والخصائص الوراثية لشخص ما ، واذا عرفنا مفردات السمات النفسية المتفردة لهذا الشخص - أمكننا التنبوء بما سوف يفعله بدقة كبيرة . لكن أنصار الحرية رأوا استحالة التنبوء بمستقبل أفعالنا الارادية الا اذا كان المقصود أن نتنبأ اطارا واسعا من الامكانيات تنعدم فيه الدقة والتحديد . ويتقدم أنصار الحرية بالنقط التالية :

(١) ليس لقوانين علم وظائف الاعضاء عمومية شاملة مثل قوانين الطبيعة لوجود الفروق الفردية بين الناس التي لا يحكمها قانون عام ، والموضوعية في العلوم الانسانية خرافة لا أساس لها .

(٢) نصيب التنبؤ ضئيل نحيل لأن أقصى ما يستطيعه عالم وظائف الاعضاء من معرفة هو مراقبة التغيرات الفسيولوجية من خلايا المخ مما يرمز الى أن انفعالا أو أختيارا أو نشاطا عقليا معينا على وشك الحدوث ، لكن لا يستطيع هذا العالم أن يحدد مقدما الفعل الجزئي المحدد الذي سوف أفعله .

(٣) ان السمات النفسية المتفردة لشخص ما من التعقيد والتشابك والتداخل والصدفة وامكان تعديلها بحيث لا يستطيع أحد ان يزعم معرفة تامة لما سوف يصدر عن الفاعل ، كما لا يستطيع الجزم بأن نموذج السلوك لدى فرد ما انما هو مطرد منتظم فقد يطرأ على سلوكه ما لم يكن في حسابنا أو حساب الفرد ذاته . أمام هذه الاعتراضات من جانب أنصار الحرية تراجع انصار الجبرية عن امكان التنبؤ ، ونادوا بالتمييز بين الاعتقاد بالجبرية ودعوى التنبؤ ، وان ليس بينهما من علاقة ضرورية . فقد ادافع عن الجبر دون ان يترتب على ذلك جزم التنبؤ ، وأساس التمييز عندهم ان الجبرية هي موقف ميتافيزيقي بينما التنبؤ هو أمر ابستمولوجي ، وقصور معرفتنا بكل القوانين الفسيولوجية والنفسية التي يخضع لها الانسان تعوق التنبؤ الدقيق .

نخلص من المقارنات السابقة بين مواقف انصار الجبرية وانصار الحرية الى سبع نتائج ، اثنتان منها يتفق فيهما كل الاطراف المتخاصمة بالاجماع ، واربعة أخرى تتفق فيها كل الاطراف من حيث المبدأ ، وان اختلفوا في بعض التفاصيل أو طريقة التعبير عنه ، وان نتيجة واحدة فقط هي التي يختلف فيها بعض أنصار الحرية عن خصومهم . وهذه النتائج هي :

١ - يتفق انصار الحرية مع انصار الجبرية في ان الافعال المجبورة التي أوجزناها قبل حين هي افعال لا اختيار لنا فيها ولا ارادة لنا في التحكم فيها ولا حيلة لنا في منعها .

٢ - يتفق انصار الجبرية مع انصار الحرية في ان من المستحيل ان نتنبأ بدقة وتحديد بالفعل الحر قبل أدائه .

٣ - يتفق انصار الجبرية وانصار الحرية المعتدلة في اتساق الحرية والعلية أي لا تعارض بين ان يكون

فعل ما حرا وامكان تفسيره في نفس الوقت بعلل أو بأسباب ، بينما لانصار الحرية المطلقة رأي مختلف حين يقولون ان الفعل الحر تلقائي لا علة له ، لكن هذا الموقف الاخير لانصار الحرية المطلقة يتناقض مع باقي مواقفهم مثلما ينادون بتفسير الفعل الحر بأسباب هي غايتنا وهدفنا في العمل . ولنا الحق في رفض الموقف القلق ، وقبول الموقف المتسق وهو ان لا تنافر بين الحرية والعلية .

٤ - لا خلاف بين انصار الحرية وانصار الجبرية على ان في كل انسان احساسا ذاتيا عميقا بأنه حر مختار ، وان اختلفوا في تقدير قيمته اذ رأى أنصار الحرية المطلقة في هذا الاحساس أقوى حججهم على الحرية ، بينما رأى أنصار الحرية المعتدلة والجبرية المتطرفة أنه حجة ضعيفة .

٥ - لا خلاف بين الخصوم من حيث المبدأ على تأثير العوامل الفسيولوجية والوراثية في أفعالنا الارادية (أما تأثيرها في أفعالنا اللاارادية فليس فيه شك) لكنها ليست العوامل الوحيدة التي تؤثر في أفعالنا ، اذ يجب ان تتفاعل مع تلك العوامل عوامل نفسية أخرى .

٦ - لا خلاف بين الخصوم من حيث المبدأ على التأثير الكبير الذي توجهه السمات النفسية المتفردة للفرد - بالمعنى الذي حددناه لتلك السمات - في سلوكنا ، وان اختلفوا في بعض التفاصيل مثل قول الجبريين ان جبرية السمات النفسية تثبت الجبر وقول انصار الحرية ان نفس السمات تثبت الحرية (ويصبح الخلاف هنا لفظيا) ومثل اختلافهم في قدرتنا الضئيلة أو قدرتنا الكبيرة على تعديل سماتنا المكتسبة وتطويرها .

٧ - اذا أخذنا الحرية بمعنى استخدام العقل والتحرر من الشهوات نجد اختلاف انصار الحرية عن انصار الجبرية ينادي به كل انصار الحرية المعتدلة ولارتباطه بمواقفهم الاخلاقية والدينية ، وينكره بعض انصار الحرية المطلقة كالوجوديين المعاصرين لرفضهم القيم الاخلاقية المطلقة والقيم الدينية ، أما انصار الجبر فلا يرفضونها ولكنهم لا يتحمسون لها .

ليس التمييز حاسما قاطعا بين نظرية الجبر ونظرية الحرية ان صحت القضايا السابقة ، وهذا هو جوهر موقف انصار الحرية المعتدلة - الذي نأخذ به ، اذ نادوا بان بعض افعالنا مجبورة ، وان لدينا احساسا ذاتيا بأننا أحرار ، وان الحرية والعلية متسقان ، وان سماتنا النفسية بالمعنى الواسع تحدد سلوكنا ، وان كانت في قدرتنا طاقة كبيرة على تعديل سماتنا وتطويرها ، ولا مجال للتنبوء الدقيق بأفعالنا في المستقبل ، وان استخدام العقل والتحرر من الشهوات جزء لا يتجزأ من معنى الحرية .

ولك أن تسأل : أهذه النظرية في الحرية المعتدلة أو المقيدة تدافع عن جبرية أم عن حرية ؟ الجواب أننا لا نتقاتل على الفاظ . لكن ان أصررت على وضع اسم لموقف أنصار الحرية المعتدلة ، فيجب ان نبحث عن « تجربة حاسمة » ترجح موقف الحرية أو موقف الجبر ، وقد وجدنا هذه التجربة الحاسمة في تحليل معين للفعل الارادي ، يقذف بنا في وصف الحرية ، وهذا التحليل موضوع القسم الاخير من

البحث ، لكن أمامنا الآن ان نطرق باب مشكلة عاتية هي موضوع القسم التالي .

(٩)

الايمان بالقضاء والقدر ومشكلة الحرية

لقد حان الوقت للسير على استحياء نحو مشكلة من أعوص المشكلات في تاريخ الفكر الانساني ، وهي العلاقة بين حرية الانسان أو جبريته من جهة ، وايماننا بالقضاء والقدر أو بالمصير المحتوم للانسان والذي لا راد له ، من جهة أخرى . هذه العلاقة أو المواجهه قديمة قدم الفكر الانساني ، بدت أولا من أساطير الحضارات القديمة سواء في مصر الفرعونية والشرق الادني القديم بوجه عام ، أم في أساطير الاغريق القدماء المتمثلة في قصة أوديب وغيرها ، أم في الاديان السماوية . لكنا نقصر بحثنا هنا على هذه العلاقة في اطار العقيدة الاسلامية ، واسهام المتكلمين والفلاسفة والصوفية الاوائل في حل المشكلة . سوف نجد فرقة الجهمية تدافع عن جبرية مطلقة ، والمعتزلة تدافع عن حرية مطلقة ، والأشاعرة والفلاسفة والصوفية يقفون موقفا وسطا يدعون فيه الى اتساق حرية الانسان مع الرضا بقضاء الله وقدره . ويذكرنا هذا التصنيف لمفكري الاسلام الاوائل في مشكلة الحرية الانسانية بما وجدناه في حضارة الغرب قديما وحديثا من قيام انصار الجبرية المتطرفة والحرية المطلقة والحرية المعتدلة ، مما يدل على ان تاريخ الفكر والبحث في مشكلات الانسان متصل مترابط ، وان العقل الانساني واحد متجانس في مراحل تطوره مهما اختلفت ألوان الحضارة الانسانية . لكنا نلاحظ اختلافا واضحا بين مفكري الاسلام الاوائل والمفكرين الغربيين ، وهو ان الدافع الى البحث في مشكلة الحرية أو « مشكلة الجبر والاختيار ، عند الاسلاميين لم يكن الحاح مشكلة فلسفية بحتة تتطلب الحل ، وانما كان – الى جانب اسباب سياسية لا يعنينا هنا أمرها – محاولة التوفيق بين موقفين متقابلين : فمن جهة توجد بالقرآن آيات توحي بالاختيار كما أنه ينص على تكليف الانسان باتباع أوامر واجتناب نواهي واستحقاق الانسان للثواب ان أطاع وللعذاب ان عصى ، وذلك يفترض الحرية ، فكيف تتسق هذه الحرية مع الايمان بالقضاء والقدر الذي ينص الدين ايضا على أنه جزء من العقيدة . لكن توجد بالقرآن من جهة أخرى آيات توحي بالجبر ، فكيف يتسق الجبر والتكليف مع عدل الله .

خذ أولا هذه الآيات التي توحي باختيار الانسان وحريته : (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، (من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) ، (وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) ، (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ، ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

ومن الآيات ما يوحي بالجبر : (وما تشاؤون الا أن يشاء الله) ، (وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) ،

(يهدي من يشاء ويضل من يشاء) ، (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم واليه ترجعون) ، (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار) .

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يؤكد أن الايمان بالقضاء والقدر جزء من العقيدة ، عن جابر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)[٣٦] . وعن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ، في القدر فنزلت الآية « يوم يسبحون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، انا كل شيء خلقناه بقدر »[٣٧]

في هذا الجو العقائدي نشأ الحديث في الجبر والاختيار في الاسلام ، ومعه مختلف الآراء والفرق ، وفيما يلي اشارة الى أهمها .

الجهمية دعاة جبرية متطرفة

الجهمية من بواكير الفرق الاسلامية التي اهتمت بمشكلة الجبر والاختيار في افعال الانسان ، وسميت كذلك نسبة الى زعيمها جهم بن صفوان الذي نشأ في سمرقند بخراسان بفارس وأقام بالكوفة بالعراق في أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني الهجري ، وكان وزيرا للحارث بن سريج أحد ولاة بني أمية . رأت الجهمية ان الانسان لا ارادة له ولا اختيار ولا استطاعة وإنما هو مجبور على كل افعاله ، وان الله هو الفاعل الحقيقي لكل ما يحدث في الكون والانسان . يخلق الله في الانسان افعاله كما يخلقها في الجماد ، كما يجري الماء ويتحرك الهواء ويسقط الحجر . تصدر أفعال الانسان ، وتنسب الى الانسان أفعاله مجازا كما تنسب كذلك الى الجمادات ، كما يقول أثمرت الشجرة وجرى الماء وطلعت الشمس وأمطرت السماء وأنبتت الارض ، يقال كتب محمد وقضى القاضي وأطاع فلان وعصى فلان .[٣٨]

نلاحظ أننا لا نجد أنصارا كثيرين في تاريخ الفكر للدعوى بأن الانسان كائن مسلوب الارادة لا حول له ولا قوة يحركه القدر بهذا التعبير القاسي ، سوى اللاهوتي الامريكي الحديث جوناتان ادواردز (J. Edwards) ١٧٠٣ - ١٧٥٨ ، وأيضا اولئك الفلاسفة الطبيعيين المنكرين لله في كل عصر والقائلين ان الانسان شيء مادي بحت كسائر الاشياء الجامدة في الطبيعة تحكمه قوانين الطبيعة . نلاحظ ثانيا ان ما دفع الجهمية الى ذكر موقفهم ليس اهتماما أساسيا بموضوع حرية الانسان وإنما هجوم على فرق كلامية سادت الكوفة وحران وقتئذ - من بينها فرقة مقاتل بن سليمان المفسر والمحدث (ت ١٥٠هـ) -

---

(٣٦) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٢٨٤ ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

(٣٧) أبو الوفا التفتازاني : دراسات في الفلسفة الاسلاميةص ٦٨ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٥٧ .

(٣٨) فجر الاسلام ص ٢٨٦ ، وأيضا :

أحمد صبحي : في علم الكلام : دراسة فلسفية لآراء الفرق الاسلامية في أصول الدين ، ص ١٨٣ - ١٨٦ ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ .

نادت بتشبيه الله بالانسان ، أي حملوا على الله ما نحمله على الانسان من صفات ، ورأى جهم في ذلك دعوة الى الشرك بالله فنهض للدفاع عن التوحيد وأثبت ان الله لا يوصف بصفة يوصف بها خلقه ، ووجب تأويل الآيات التي توحي بالتشبيه ، ودعا الى وصف الله بصفات فريدة له مثل الخالق البارىء المحيي المميت . ومن ثم فدافع جهم الى القول بالجبرية دفاع عن توحيد الله اذ هو الفاعل الحقيقي لكل شيء ، ولو كان الانسان حرا لقلنا انه خالق أفعاله وبذلك يتعدد الخالقون .

القدرية والمعتزلة أنصار حرية مطلقة

وفرقة القدرية من بواكير الفرق الاسلامية التي دافعت عن حرية الانسان واختياره لافعاله ، وتنسب الى معبد الجهني - أحد جلساء الحسن البصري - وتابعه كثير من أهل البصرة ، وغيلان الدمشقي الذي عاصر هشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وعاشا في نهاية القرن الاول الهجري ، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة . وقد ورد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (القدرية مجوس هذه الامة ، ان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم) ، مما يدل على ان الرسول أنكر القول بحرية الانسان مستقلة عن ارادة الله وقضائه . (والمجوس هم مشركوا أهل فارس آمنوا بإلهين إله للنور وآخر للظلمة) . وقد جاءت تسمية القدرية من خصوم الفرقة لا من دعاتها ، والقدرية في القاموس المحيط هم جاحدو القدر .[٣٩]

أما المعتزلة فهم أكبر دعاة حرية الانسان المطلقة في الاسلام ، وكانوا يسمون أيضا بالقدرية ، وكان خصومهم يسمونهم أحيانا بالجهمية لاشتراكهم معهم في بعض آرائهم وان اختلفوا عنهم في موقفهم من الجبر ، بل لم يرتض المعتزلة تسميتهم بالمعتزلة وكانوا يفضلون تسمية أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » . والمعتزلة طبقات وفرق يختلفون فيما بينهم لكنهم متفقون في القول بحرية الانسان . ومؤسس فرقة الاعتزال الأوائل هو واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، ونشأ الاعتزال بالبصرة وانتشر بالعراق واعتنقه بعض خلفاء بني أمية ، وامتد تأثيرهم في الدولة العباسية ، وتكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان بالبصرة وبغداد .

ولقد اعتمد المعتزلة فيما يخص مشكلة الجبر والاختيار أولا على الآيات القرآنية التي توحي بالاختيار ، وتأويل الآيات التي توحي بالجبر ، لكنهم اعتمدوا أساسا في قولهم بالحرية على أدلة عقلية أو - بمعنى أدق - أدلة جدلية ، يبدأون بالتسليم بمقدمات اعتقادية ثم يستنبطون منها النتائج . يبدأون بمقدمتين أساسيتين هما أن الله عادل لا يجوز عليه الظلم ، وان الانسان مكلف مسئول عن أفعاله ، ولا تتسق هاتان المقدمتان الا اذا كان الانسان حرا مختارا . فان كان الانسان مجبورا وكان في نفس الوقت مسئولا عما يفعل فقد تنافى ذلك مع عدل الله ، ولو كان مجبورا للزم ان يكون الكافر والمؤمن سواء في طاعتهم لله اذ فعلا ما قدر الله عليهما ، ولا يستوي الكفر مع الايمان ، بل لو

(٣٩) انظر : فجر الاسلام ص ٢٨٥ ، وأيضا : التفتازاني : المرجع السابق ص ٦٨ - ٦٩ .

كان الانسان مجبورا لما غدت هنالك ضرورة لنزول الشرائع ، ولزم ان يكون الانبياء مخالفين لما أراد الله اذ ينهون عما قدر الله أن يكون .(٤٠)

الاشاعرة والفلاسفة والصوفية أنصار حرية معتدلة

ليس من المألوف في نظر الباحثين في الفلسفة الاسلامية جن نجمع الاشاعرة والفلاسفة والصوفية في بوتقة واحدة ، والحق ان كل طائفة من هؤلاء المفكرين تخاصم الطوائف الاخرى في منهجها ونظرياتها ، بل لا يمكن تجاهل الخلافات بين أفراد الطائفة الواحدة . لكن ما دفعنا الى وضعهم جميعا في مقولة واحدة هو انهم حين تناولوا مشكلة الجبر والاختيار رفضوا مواقف الجهمية والمعتزلة معا ، ودعوا الى حرية معتدلة ، وحاولوا التوفيق بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر ، وان اختلف بعضهم عن بعض في المقدمات التي تقدموا بها .

ونبدأ بالاشاعرة . سميت هذه الفرقة كذلك نسبة الى زعيمها ابن الحسن الاشعري (ت ٣٢٤هـ) ، ويعبر الاشاعرة عن موقف أهل السنة والجماعة (وهم فريق أهل الحديث والفقهاء وبعض الصوفية وجمهور الامة) . لقد هاجم الاشاعرة فرقة الجهمية بقولهم ان دعوى الجبر المطلق مع التسليم بالتكليف واستحقاقنا للثواب والعقاب لا يتسق وعدل الله ، كما أن الجهمية تجاهلوا احساسنا الطبيعي بالارادة والاختيار والاقتدار على فعل شيء دون شيء آخر . كما هاجم الاشاعرة فرقة المعتزلة تفصيلا . أما عن قول المعتزلة لو أراد الله أن يقع في العالم شر لكان سبحانه سفيها ، فيرد الاشاعرة بقولهم كما أن الله يريد الطاعة لعباده ولا يسمى مطيعا فانه قد يريد السفه ولا يسمى سفيها ، وحين يقول المعتزلة ان الانسان حر يختار ما يفعل ولم يقدر الله عليه شيئا منذ الازل ، يرد الاشاعرة بانه يلزم عن ذلك ان يقع في ملك الله ما لا يريد ، أو أن يحدث في العالم ما يغفل الله عنه ويجهله ، لكن في المحال على الله ان يوصف بسهو أو عجز . وبعد هجوم الاشاعرة على المعتزلة يتقدمون بموقفهم الجديد وخلاصته أن الله خالق أفعال العباد خيرها وشرها ، لكن للانسان استطاعة على الفعل واختيارا بقدرة حادثة ، والدليل على ان للانسان ارادة واختيارا ان له جهدا وتدبرا وقصدا . ويوفقون بين خلق الله لافعالنا وقدرتنا الحادثة على الفعل المختار بقولهم حين يريد الانسان اداء فعل باختياره بقدرة حادثة فان الله هو الذي يخلق فيه الاقتدار على هذا الفعل وقت أدائه ، وبذلك يكون فعل الانسان من الله خلقا وابداعا ، ومن الانسان كسبا واستطاعة - وذلك معنى « نظرية الكسب » التي نادى بها الاشاعرة . يكتسب الانسان قدرة على أداء ما يريد لكن الله يخلق فيه هذه القدرة وقت أدائه الفعل . وبذلك تكون استطاعة الانسان للفعل مصاحبة للفعل لا سابقة عليه ، كما ينكر الاشعري أن تكون قدرة الانسان قدرة على أداء فعل أو الامتناع عنه وإنما للانسان قدرة على الفعل فقط

(٤٠) أحمد صبحي : المرجع السابق ص ١٥٧ - ١٥٨ .

بتوفيق الله ، اذ من شرط القدرة الحادثة وقت الفعل أن يلزم في وجودها وجود مقدورها[٤١] .

واضح ان حل الاشاعرة للمشكلة يصل في نهاية المطاف الى قول بجبرية القضاء والقدر ، ولا يختلفون عن الجهمية الا بالاعتراف الصريح أن للانسان ارادة لكنها تدخل في تقدير الله منذ الازل .

خذ الآن موقف فلاسفة الاسلام الاوائل . ليس لهم موقف واحد بل لكل فيلسوف موقفه يختلف فيه عن غيره ، وكلهم مختلفون عن الاشاعرة . ولسنا نستطيع هنا حصر مواقفهم جميعا ، يكفي ان نأخذ موقف ابن رشد مثالا بصفته احد عمالقة فلاسفة الاسلام من المتأخرين الذين استوعب كل آراء السابقين ومحصها وزاد عليها . وهاك خلاصة موقفه : بالانسان ارادة وقدرة على الاختيار بين بدائل من الافعال ، يسميها « اختيارا بين أضداد » ، ولابد من تفسير كل شيء بأسباب ، (والقول بانكار الاسباب جملة قول غريب جدا عن طباع الناس .) اذن لافعالنا الارادية اسباب ، ونوعان من الاسباب ، داخلية فينا أو خارجة علينا ، وتدخل ارادتنا ورغباتنا وانفعالاتنا ... الخ في الاسباب الداخلية لافعالنا ، فالارادة تحركها رغبة ، والارادة تدفع الى فعل ، أو « هنالك أسباب خلقها الله داخل أبداننا » و « الارادة شوق يحدث لنا عن تخيل ما » . لكن للفعل الارادي أيضا أسبابا خارجية ، وهي ما يحدث حولي من أشياء وظروف ومثيرات وعوائق في البيئة ، أو « هي أسباب سخرها الله من خارج » ، « وهي تجري على نظام محدود وترتيب منضود لا تخل في ذلك بحسب ما قدرها بارئها عليه ، وهذه الاسباب بنظامها المحدد هي القضاء والقدر الذي كتبه الله على عباده وهو اللوح المحفوظ » و « وعلم الله تعالى بهذه الاسباب وما يلزم عنها هو العلة في وجود هذه الاسباب ولذلك لا يحيط بمعرفتها إلا الله وحده »[٤٢] وذلك هو حل ابن رشد للتوفيق بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر .

ويذكرنا موقف ابن رشد هذا بموقف سبنوزا ، مما يدعم قول مؤرخي الفلسفة أن ابن رشد كان أحد مصادر سبنوزا الفلسفية ، ومما هو جدير بالذكر أن ما سماه ابن رشد حرية يسميه سبنوزا جبرية متطرفة ، وأن الحرية التي نزعمها لانفسنا سببها جهلنا بأسباب أفعالنا .

أما الصوفية فقد اعتقدوا بحرية الانسان بالايمان بالقضاء والقدر في نفس الوقت دون محاولة التوفيق بينهما ، معتمدين في ذلك على نقطة بدء أساسية هي التسليم المطلق بأن الله واحد ولا فاعل غيره ، وبعدله المطلق . أما دليل الصوفية على حرية الانسان فقولهم « ان مخالفة النفس رأس العبادة »

---

(٤١) التفتازاني : المرجع السابق ص ٧٦ - ٨٠ وأيضا : أحمد صبحي : المرجع السابق ص ٤٨٤ - ٤٨٨ .

(٤٢) انظر : ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة في عقائد الملة ، الفن الخامس في معرفة الافعال ، المسألة الثالثة في القضاء والقدر .

وانظر أيضا : محمد عاطف العراقي : « مشكلة الحرية في الفكر الاسلامي » في كتاب دراسات فلسفية مهداة الى الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ، القاهرة ١٩٧٤ .

وحثهم على التوبة من المعاصي والندم على ما فات ، وبذل الجهد لمخالفة النفس وحرمانها مما تشتهيه من أهواء وشهوات « والتوبة أول منزل من منازل السالكين وأول مقام من مقام الطالبين » ، ولا شك ان في التوبة مجاهدة ، والمجاهدة تفترض الجهد والمحاولة والاقتدار . ـ ولذلك يبرز عند الصوفية معنى رئيسي للحرية دون باقي معانيها وهو التحرر من الشهوات[٤٣] . أما ما يشهد بالايمان المطلق بالقضاء والقدر عند الصوفية فهو تأكيدهم توحيد الله بكل ما تحمل كلمة التوحيد من معنى ، اذ لا خالق غيره - خلق الكون والانسان وخالق لما يكتسب من فعل ، بل ان مجاهدة الانسان لنفسه سبق علمها وارادتها وتقديرها منذ الازل ، والتوحيد عند الصوفية هو اليقين ، واليقين هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل .

تعقيب واتخاذ موقف

١ - لاحظنا فيما سبق من اشارات في هذا القسم ان المفكرين الاسلاميين الاوائل حين بحثوا مشكلة الجبر والاختيار لم يكن اهتمامهم الرئيسي بمشكلة حرية الانسان كمشكلة فلسفية بحتة تشغل الناس في حياتهم اليومية وتتطلب الحل ، وإنما بمشكلة عقائدية تتعلق بموقفين متقابلين يلزم التوفيق بينهما ، يتلخص الموقف الاول في تقرير الاسلام ان الانسان مسئول عما يفعل ، فيثاب اذا أطاع أوامر الله ويعاقب اذا عصاها ، وأن الله عادل لا يظلم أحدا ، ولا يتسق ذلك الا اذا كان الانسان حرا ، ويتلخص الموقف الثاني في تقرير الاسلام بالتوحيد الخالص لله وان لا فاعل غيره ، وان الايمان بالقضاء والقدر خيره وشره جزء من هذا التوحيد ، لكن ذلك يتضمن جبرية أفعال الانسان . ومن ثم لزم التوفيق بين عدل الله وتوحيده بالنسبة الى أفعال العباد .

٢ - جاءت الجهمية ودافعت عن توحيد الله بثمن غال ، وهو تجاهل الدفاع عن عدل الله ، حيث جعلت الانسان بلا ارادة واختيار مع اقرارها بالتكليف ، كأن الجهمية سلمت ابتداء بعدل الله وهو مصادرة على المطلوب . وجاءت المعتزلة تدافع عن عدل الله بثمن غال وهو التضحية بالتوحيد الخالص لله حيث فتح قولهم بحرية الانسان وخلقه لافعاله ثغرات تهدد التوحيد ، مثل القول بأنه قد يحدث في العالم ما لا يحيط به من علم الله وارادته . وجاء الاشاعرة والفلاسفة والصوفية يقفون موقفا وسطا بين الجهمية والمعتزلة ، على اختلاف اساليبهم في التوفيق . نادى الاشاعرة بحرية الانسان واستطاعته على اداء ما يريد من أفعال ، لكنهم اردفوا ذلك بقولهم ان الله هو خالق هذه القدرة والاستطاعة وقت قيام الانسان بفعله ، وذلك يوقعهم في جبرية مقنعة . ونادى بعض الفلاسفة بالتوفيق بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر لكن تفصيلهم لهذا التوفيق أوقعهم في جبرية واضحة كما سبقت الاشارة عند الحديث عن موقف ابن رشد . أما الصوفية فانهم

---

(٤٣) انظر : الرسالة القشيرية في علم التصوف للامام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ، القاهرة .

آمنوا بالضدين معا - حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر - دون محاولة للتوفيق بينهما ، انطلاقا من التسليم المطلق بالعدل والتوحيد معا .

٣ - على الرغم من ضعف مواقف الجهمية والمعتزلة وتأرجح مواقف الاشاعرة والفلاسفة والصوفية في حل مشكلة الجبر والاختيار في حدود المشكلة الرئيسية التي كانوا يبحثونها ، فقد كانت لهم تحليلات طيبة للفعل الارادي الانساني ، سبقوا بها فلاسفة الغرب ، مثل تمييزهم بين الافعال الاضطرارية التي لا ارادة لنا فيها ولا حيلة لنا في منعها ، والافعال الارادية التي لنا فيها اقتدار واختيار ، ومثل اعتراف اكثرهم باحساس طبيعي لدى الانسان ان له ارادة واختيارا ، ومثل قولهم ان لكل فعل عللا وأسبابا ولا يمنع ذلك من وصفه بالحرية ، ومثل قولهم ان الفعل الارادي تسبقه ارادة لفعله والارادة تدفعها رغبة (فيما عدا الاشاعرة الذين أخطأوا في جعل الارادة مساوقة للفعل ولا تسبقه) ، ومثل ادراك الصوفية للحرية التي تعني التحرر من الشهوات .

٤ - بعد ما أوضحنا المشكلة الاساسية التي شغلت المفكرين الاسلاميين الاوائل حين بحثوا موضوع الجبر والاختيار ، وبعض حسنات بحثهم وثغراته ، ننتقل الى هدفنا الثاني في كتابة هذا البحث ، ونوجزه الآن قبل تفصيله . ان مشكلة عدل الله وتوحيده وصلتها بأفعال الانسان مشكلة متميزة تماما عن مشكلة الحرية الانسانية بحيث يمكن البحث في احداها دون البحث في الاخرى بالضرورة ، الا ان كانت لنا دوافع دينية تضطرنا الى ربط المشكلتين .

وحين تلح علينا هذه الدوافع نجد أمامنا ثلاثة مواقف : إما زعم باقامة توفيق حقيقي بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر كما زعم بعض الفلاسفة الاسلاميين ، واما اعتراف بعجز العقل البشري المحدود عن التوفيق كما اقترح بعض فلاسفة الغرب المؤمنين . لكننا نقترح حلا ثالثا خلاصته أن القول بالمصير المحتوم لافعالنا يتسق مع القول بجبرية افعالنا أو بحريتها على حد سواء ، ويمكن لمن شاء أن يترجم فكرة المصير المحتوم الى لغة قضاء الله وقدره ، كما يمكن ان نعتقد بالمصير المحتوم دون الدخول في مشكلة القضاء والقدر . وقد أقمنا هذا الاتساق بين المصير المحتوم من جهة والجبر أو الاختيار من جهة أخرى على أساس أن ما تم لنا فعله لم يكن بالامكان ان نفر منه ولا سبيل لنا لمنع حدوثه . والآن الى تفصيل هذا الموقف .

توهم المفكرون الاسلاميون الاوائل انهم نادوا برأيهم في مشكلة الحرية الانسانية كمشكلة قائمة بذاتها ، بينما كانوا في الحقيقة ينادون برأيهم في مشكلة أخرى هي عدل الله وتوحيده في المقام الاول . لكن مشكلة الحرية ومشكلة عدل الله وتوحيده مشكلتان متميزتان تماما . ومما يؤيد هذا التمييز اننا نجد في تاريخ الفلسفة فلاسفة يؤمنون بالله ويدعون الى الجبرية (جهم وسبنوزا وجوناثان ادواردز) وفلاسفة مؤمنين ويدعون الى حرية (المعتزلة وفلاسفة الاسلام والصوفية وديكارت وليبنتز وكنط) ، ومن الفلاسفة المفكرين لله من هم جبريون (بعض علماء الفسيولوجيا وعلماء التحليل النفسي وأصحاب الجبرية النفسية المتطرفة) وفلاسفة منكرون يدعون الى

حرية (هوبز وهيوم وجون ستوارت مل والجناح الملحد من الوجوديين المعاصرين) . ولذلك فليس من علاقة ضرورية بين الايمان بالله وعدله وتوحيده من جهة وجبرية أفعال الانسان أو حريتها من جهة أخرى .

ولقد لاحظنا فيما سبق أن بعض فلاسفة الاسلام أقتنعوا أنهم أقاموا محاولات ناجحة للتوفيق بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر، لكنا وجدنا بنظرة فاحصة أن تلك المحاولات توقع أصحابها في جبرية . نلاحظ الآن ان بعض فلاسفة الغرب من المؤمنين اعترفوا بعجزهم عن ذلك التوفيق ، ومنهم ديكارت وليبنتز . دعا ديكارت الى حرية الانسان فرأى فكرة الحرية أول أفكارنا البديهية ، وان الانسان خالق أفعاله ، ومستحق للثواب والعقاب ، وان افعاله لا تخضع لحتمية القوانين الطبيعية الصارمة بما بالانسان من عقل وارادة وهذان ليسا من طبيعة مادية لتجري عليهما قوانين طبيعية ، والانسان حر بما لعقله من قدرة على التفكير فيما سيقوم به من أفعال وادراك قيمته وتبريره واختياره أو الامتناع عنه ، والانسان حر بما لارادته من قدرة على مقاومة لبعض دوافعه ورغباته ، كما أننا نستطيع بارادتنا أن نثبت ما نعتقد بصدقه أو ننكر ما نعتقد بكذبه ، لكنا قد نخطىء فيما نعتقد أو ننكر ، ويدل كل ذلك على حرية ارادتنا واختيارنا .[٤٤] ولقد أحس ديكارت أن دفاعه عن الحرية يتعارض مع اعتقاده بجبرية القضاء والقدر، فقال أولا أننا ندرك بوضوح ان الله علم قديما ما سوف يعمل كل انسان من بدء حياته الى منتهاها حتى لو لم نفهم بعقلنا المحدود كيف تم ذلك ، وعدم فهمنا لشيء ما لا يلزمنا بانكاره . لكن ديكارت زاد موقفه ايضاحا حين ألحت عليه تلميذته المعجبة الاميرة اليزابث فقدم لها القصة الرمزية الآتية . يحكي ان ملكا عرف ان اثنين من رعاياه تشاجرا يوما ما ثم توعد كل منهما الآخر أن يتبارزا بالسيوف اذا تقابلا مرة أخرى ، على الرغم من أن الملك حرم المبارزة في مملكته . وحدث أن أمر الملك بلقائهما ، فتبارزا بالسيوف وعصيا أمر الملك ، وعلى الرغم من أن الملك رتب اللقاء وقدر المبارزة فانه لم يجبرهما على ذلك ، اذ تقاتلا بمحض ارادتهما كما لو أن الملك لم يعلم عنهما شيئا . وكذلك الامر في علم الله وتقديره لافعال الناس ، فقبل ان يخلقنا الله علم تماما ما سوف نريد ونعمل ، وهو الذي خلقنا بميولنا ونوازعنا وعلم منذ البدء بما سوف يحيط بكل منا في كل لحظة من ظروف ، ورأى بسابق علمه أننا سوف نقوم باختيارنا بكل ما سيتم بالفعل ، لكن الله لم يجبرنا على شيء .[٤٥] كأن ديكارت يريد القول أن الله علم منذ الأزل ما سوف نختاره بارادتنا فقدره ، أما القول بأن الله هو الذي أودع فينا نوازع وميولا اخترنا على

---

(٤٤) أنظر : Descartes, Principles of Philosopby, pt, I, Sees. xxxvll, xxx1x.
Descartes, The Passions of the Soul, pt. 1, Art. xli.
وأنظر أيضا : خطاب ديكارت الى مسلاند Mesland عام ١٦٤٤ في
Adem and Tannery, OEuvres Completes, Vol. 1v. p. 115

(٤٥) خطاب ديكارت الى الاميرة اليزابيث في يناير ١٦٤٦ .

أساسها ما اخترناه فهو مما لا نستطيع بعقولنا المحدودة ادراك حكمته .

والى نفس الموقف ذهب ليبنتز نصير مؤمن آخر للحرية ، وان كان بأسلوب مختلف . سجل ليبنتز توفيقه بين حرية الانسان وايمانه بالقضاء والقدر بطريق غير مباشر حين كان يشرح احدى نظرياته الفلسفية وهي نظريته في « الجوهر الفردي » Individual Substace وهاك خلاصتها . المحمول في كل قضية شخصية صادقة محتوى في تصور موضوع هذه القضية بحيث اذا أحطنا بتصور كامل للموضوع أمكن استنباط كل محمولاته . ففي القضية « الاسكندر هزم دارا » أو « الاسكندر مات في بابل » أو « يوليوس قيصر عبر نهر الروبيكون » ، نجد أن المحمول متضمن في تصور الموضوع ، وتصبح العلاقة بين الاسكندر أو قيصر وما صدر عن كل منهما من أفعال كالعلاقة بين المثلث وخصائصه التي يمكن استنباطها من طبيعة المثلث ، وبذلك تصبح القضية الشخصية قضية تحليلية . ويوضح ليبنتز هذه النقطة التحليلية المنطقية ذات الاساس الميتافيزيقي بتمييزه بين القضايا الضرورية ضرورة مطلقة مثل قضايا الرياضيات والمنطق ، والقضايا الضرورية بالعرض مثل القضايا الحادثة contingent propositions ويقوم صدق القضايا الثانية على ارادة الله الحرة . لا نعرف صدق هذه القضايا الحادثة الا حين وقعت ، بل لم يعرف الاسكندر مثلا ما حدث له الا بعد حدوثه ، لكن الله وحده علم بعلمه المطلق على نحو قبلي ما سوف يفعله كل انسان . وليس في ذلك جبر وإنما كل انسان حر مختار فيما يفعل ويفكر ويتروى فيما يقدم عليه من أفعال ارادية ويستطيع ان يفعل ما يشاء . كما يستطيع ان يمتنع عن فعله . ولا شك ان لكل فعل سببا يقوم فيما لدى الانسان من ميول ورغبات ومبادىء وقيم وغايات ، « وهذه الاسباب توحي لكنها لا تضطر » but do not necessitate seasons incline ومعنى ذلك ان الله خلقنا وخلق ارادتنا واستطاعتنا لكن من الممكن منطقيا وواقعيا ان نفعل غير ما قد فعلنا ، فقد يكون الفعل صعب التنفيذ أو قد يكون لدى أسباب أخرى تعوق أداءه وما الى ذلك . ثم يقول ليبنتز قوله المثير الجذاب : تخيل آدم قبل ارتكابه الخطيئة ، فلقد كان حرا مختارا في أكل التفاحة ولم يدفع آدم الى فعل ما فعل سوى رغبته وارادته . ماذا تريدون مني أكثر من ذلك لكي أكون نصير الحرية لكنك ان قلت ان الله أودع فينا من النوازع والميول والرغبات والظروف ما يضطرنا الى فعل ما نفعل ، ومن ثم قدر علينا ما نفعله - فذلك ما لا ينبغي التوغل فيه ولا نريد الحديث في أعماق الحكمة الالهية .(٤٦)

نخلص مما سبق عن العلاقة والمقابلة بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر الى النتائج التالية :

---

(٤٦) تجد نظرية الجوهر الفردي وصلتها بافعال الانسان في كتاب ليبنتز Discourse De Merabysique وفي مراسلات ليبنتز مع أرنو A. Arnauld اللاهوتي الكاثوليكي المعاصر لديكارت ليبنتز وقد جمع هذان الكتابان وكتاب ثالث في مجلد واحد مترجما الى الانجليزية بعنوان :

Leibnis, Discourse On Metaplysies, Correspondance With Arnauld, Monadology, trans, by g. Montgomery, Open Court Publishing Company, la Salle, Illinois, 1957.

١ - ليس من علاقة ضرورية بين البحث في حرية الانسان والبحث في موضوع عدل الله وتوحيده وعلمه وارادته ، اذ هما مشكلتان متميزتان .

٢ - لا يربط المشكلتين في بحث واحد ولا يحاول التوفيق بينهما سوى أولئك المفكرين المهتمين بموضوع الالوهية ، لكن هذا الربط لا يهم الفلاسفة المنكرين لله والمهتمين في نفس الوقت بمشكلة الحرية كمشلة فلسفية بحتة ، وليست كل فلسفة هي فلسفة دينية .

٣ - فيما يخص الفلاسفة المهتمين ، لدينا نوعان من المحاولات : محاولات الاسلاميين الاوائل الذين وقعوا في نهاية المطاف في أحضان الجبرية ، ومحاولات الفلاسفة الغربيين الذين اعترفوا بعجز العقل الانساني عن توفيق حقيقي بين الحرية والايمان بالقضاء والقدر . لكن يمكننا اتخاذ موقف وسط يتلخص في اتساق التسليم بالمصير المحتوم مع القول بالجبرية أو الحرية على حد سواء . وقد أقمنا هذا الاتساق مفيدين من الجبرية المنطقية التي أشرنا اليها في القسم الخامس ب ، على أساس أن ما تم لنا فعله - سواء كنا مجبرين عليه أم مختارين فيه - لم يكن منه مفر ولا حيلة لنا في منعه ، ذلك لان ما وقع وقع ، والوقائع حقائق والحقائق مستقلة عن ارادة الانسان نكتشفها بعد علمنا لها ولا نخلقها ولا تتعلق بزمن اذ هي خارجة على الزمان .(٤٧)

(١٠)

خاتمة : تحليل الفعل الارادي وندرة الفعل الحر

لقد دافعنا في القسم الثامن من هذا البحث عن أول أهدافنا من كتابته ، وهو أن الخصومة القائمة بين أنصار الجبرية وأنصار الحرية أقل حدة مما يظن كثير من الناس ، أو حتى الفريقان المتخاصمان أنفسهم ، وأن نظريتي الجبر والحرية ليستا على طرفي نقيض ، وإنما يمكن تضييق الخلاف أو النزاع بينهما ، يدل على ذلك وجود أنصار للحرية المعتدلة في كل عصر يقفون موقفا وسطا بين الجبرية المتطرفة والحرية المطلقة . بل وجدنا ان المواقف التي يتفق فيها الفريقان المتنازعان أكثر من تلك التي يختلفون عليها ، مما يوحي بأن الخلافات بينهما لفظية أحيانا وغير حاسمة قاطعة أحيانا أخرى .

ولقد تناول القسم التاسع من البحث موضوع التقابل والتنافر بين حرية الانسان والايمان بالقضاء والقدر الذي يتضمن الجبرية ، ومحاولة بعض المفكرين في كل عصر للتوفيق بينهما . وقد وصلنا الى أن موضوعي الحرية والايمان بالقضاء والقدر موضوعان مختلفان متميزان بحيث يمكن البحث في أحدهما دون البحث بالضرورة في الآخر ، وأن ما دفع دعاة جمع الموضوعين معا لم يكن اهتماما في الدرجة الاولى بمشكلة الحرية الانسانية ، وانما كان اهتماما أساسيا بمشكلة أخرى هي مشكلة الالوهية وعدل الله وتوحيده

(٤٧) جدير بالملاحظة ان موضوع الايمان بالقضاء والقدر لا يزال موضوع بحث كثير من الفلاسفة المعاصرين ، خاصة المنكرين منهم لوجود الله ، وان اتخذ الموضوع صورة أخرى ، فبدلا من بحث موضوع الايمان بالقضاء والقدر متعلقا بأفعال الانسان ومدى حريته أو جبريته ، أصبح هذا الموضوع متعلقا بمشكلة فلسفية أخرى هي مشكلة وجود الشر في العالم : كيف يتسق وجود الشر في العالم مع وجود الله والعناية الالهية .

وعلمه وارادته القديمة . ولقد وصلنا في بحث هذا التقابل الى أن من الممكن ان يتسق الايمان بالقضاء والقدر أو الايمان بالمصير المحتوم لافعالنا مع القول بالجبرية أو القول بالحرية على حد سواء .

والآن نعود في هذا القسم الى مشكلة الحرية كمشكلة فلسفية بحتة ونداقع عن هدفنا الثالث من بحثنا وهو ان بالانسان مقومات الحرية لكنه نادرا ما يكون حرا . أؤمن بان الانسان حر أو قادر على ان يكون حرا ، لكني أؤمن أيضا بأن الانسان نادرا ما يكون حرا بالمعنى الدقيق لكلمة حرية ، ذلك لأن الحرية ليست منحة ولا هدية معطاة للانسان وانما يتطلب الفعل الحر جهدا واكتسابا وتدريبا وممارسة شاقة وتحررا من شتى صنوف العبوديات . وان المعنى الدقيق لكلمة حرية هو أن أفعل الفعل الذي يصدر عن ذاتي ولا يضطرني اليه شيء أو أحد غيري ، وما يعبر عن شخصيتي بكاملها بحيث أحس بعد أدائه أني راض عن نفسي ، سعيد في أعماقي بما فعلت ولا أحس بعد أدائه بتقريع أو لوم أو تأنيب ضمير . ولقد وصلنا الى هذا الموقف في ضوء تحليل الفعل الارادي للانسان ، لم نميز فيه فقط بين الفعل اللاارادي والفعل الارادي ، بل ميزنا ايضا في الافعال الارادية بين ما أمكننا تسميته « الافعال الارادية اسما » و « الافعال الارادية فعلا » وهذه الاخيرة فقط هي التي توصف بالحرية .

نماذج الافعال اللاارادية

الفعل اللاارادي هو ما لا ارادة لي فيه ولا سلطان لي عليه ولا حيلة لي في منعه ، وقد اتفق انصار الجبرية والحرية على ان الافعال اللاارادية نحن مجبرون فيها مضطرون اليها . وتقع هذه الافعال في صنفين رئيسيين : أفعال نضطر اليها من مصدر خارجي علينا ، وأفعال تضطرنا اليها علل في ذواتنا وأبداننا . ويندرج تحت الافعال اللاارادية التي تفرض علينا من خارج ثلاثة أنواع :

(١) الافعال التي نخضع فيها لقوانين الطبيعة ، مثلنا فيها كسائر الاشياء والظواهر الطبيعية والكائنات العضوية .

(٢) الافعال التي نضطر اليها بتأثير تهديد أو تعذيب أو أسر وعبودية الانسان للانسان .

(٣) ولادة الانسان من جنس معين ذكر أو أنثى من أبوين معينين لم يستشره أحد في اختيارهما وفي مجتمع معين له اعرافه وتقاليده التي يخضع لها في أغلب الاوقات رضي أم أبى .

أما الافعال اللاارادية التي تضطرنا الى فعلها عوامل داخلية فينا فأغلبها فسيولوجية ونفسية ، وتقع كذلك في ثلاثة أصناف :

(١) كثير مما يصدر عن أعضاء البدن من حركات وعمليات ووظائف مثل نبض القلب وافرازات المعدة والكبد والامعاء والغدد الصماء وتغيرات الخلايا الحية في الجهاز العصبي والمخ بوجه خاص .

(٢) تلك الافعال الصادرة عن افراد يتناولون عقاقير معينة من شأنها ان تثير انفعالا معينا أو رغبة معينة أو أن تخفف من حدتها ، فاذا جاءتنا حالات

نفسية بذلك الطريق الفسيولوجي فلا سلطان للفاعل عليها .

(٣) ما يصدر عن الافراد حين يقعون تحت تأثير الايحاء أو التنويم المغناطيسي أو الافراد الشواذ المصابين بأمراض عقلية أو نفسية حادة ، كما سبقت الاشارة ببعض تفصيل حين تحدثنا عن جبرية التحليل النفسي في قسم سابق . ويدخل في هذا النموذج من الافعال اللاارادية تلك المظاهر من السلوك الشاذ الذي يصدر عن فرد مصاب بفكرة ثابتة سيطرت عليه لها أساس بيولوجي ونفسي . ومثال لذلك تلك الحالة المشهورة التي يسوقها عالم النفس المشهور ريبو Ribot ويتناقلها كثير من علماء النفس حالة فرد سيطرت عليه فكرة قتل أمه وقال في نفسه : أنا مدين لأمي بكل شيء وأحبها من كل أعماقي ، لكن سيطرت علي فكرة قتلها مما أزعجني وأطار صوابي ، ولكي أتخلص من هذه الفكرة تركت أمي بل تركت وطني وتطوعت في الجيش لعلي أنسى ذلك الدافع الملح الى قتلها . لكن هذا الدافع ظل يلح علي وأنا في الميدان ، وقاومت نفسي بكل قوتي فتحولت الفكرة الى فكرة قتل زوجة أخي . وفجأة علمت بوفاة زوجة أخي فتنفست الصعداء وقررت الرجوع الى وطني وقد أحسست أني شفيت . ولدهشتي وجدت زوجة أخي على قيد الحياة فارتعدت وصارحت أخي بمرضي الشاذ ورجوته ان يقيدني بحبال كما لو كان يقيد ذئبا مفترسا ، وأحسست أني مقدم على جريمة أنا أنفر من ارتكابها . تلك هي الحالة الشاذة التي ضربها ريبو على جبرية الافعال الثابتة . ولقد كان فرويد أول عهده يعالج هذه الحالات في اطار فسيولوجيا المخ والاعصاب ، ولكنه تحول عن هذا العلاج حين صاغ نظريته في اللاشعور وجعل التحليل النفسي علاجا والكشف عن الدوافع اللاشعورية واطلاقها الى حيز الشعور .

نماذج الافعال الارادية اسما

« الافعال الارادية اسما » افعال نقوم بها بارادة واختيار ، لكنا نجد بنظرة فاحصة أنها أكثر شبها بالافعال اللاارادية منها بافعال ارادية حقا ، بحيث تبدو فيها طابع الجبر أو ما يشبهه . ونذكر من هذه الافعال ثلاثة نماذج :

(١) الافعال الغريزية مثلما يدفعني اليها انفعال محتد أو عاطفة جارفة عمياء أو احساس شديد بجوع أو بعطش أو بجنس ، ويدخل في هذا النموذج أيضا حالات الخوف والخجل المرضي أو حالات العدوان وما الى ذلك . حين أؤدي هذه الافعال أؤديها عن وعي وقصد لكني أحس في نفس الوقت أني مدفوع اليها ومن الصعب السيطرة عليها . والدليل على طابع الجبر في هذه الافعال أني كثيرا ما أحس بتأنيب ضمير أو لوم بعد أدائها ، وتفسير ذلك أن ما يدفع الى هذه الافعال دافع طارىء تلقائي وقتي يؤثر علي بمعزل عن باقي دوافعي ورغباتي وغاياتي وأهدافي التي تؤلف شخصيتي المتكاملة وسماتي النفسية المتفردة التي تجعلني من أنا . ويدل هذا النموذج من الافعال على ضعف في ضبط النفس ، وقد يكون ضبط النفس هو الحرية بكامل معناها .

(٢) هنالك أفعال ارادية اسما أقوم بها عن وعي لكن يدفعني اليها سلطان العادة وطغيان التقليد

والمحاكاه أو ضعف الارادة . وأبرز مثل عليها حالات الادمان في الشراب أو التدخين ، فقد يصل المدمن الى حالة يحس فيها انه نافر مما يفعل نادم عليه ، ورغم ذلك يستمر في شرابه أو تدخينه ، وقد يقدم على ذلك حتى قبل ان يفكر ، وحين يفكر ويقاوم نفسه ويود الاقلاع عن عاداته السيئه يجد نفسه عاطل الارادة . وواضح ان الافراد المصابين بحالات الادمان ينقصهم ضبط النفس وحاجة الى قوة الارادة .

(٣) كثير من أفعالنا اليومية الجارية أفعال ارادية اسما ، مثل قيامي من نومي كل صباح في موعد معين وأداء طقوس نظافتي وطريقتي في ارتداء ملابسي وتناول طعامي والقائي التحية لزملاء العمل وطريقة سيري في الطريق أو انتقالي من جانب من الطريق الى الجانب الآخر اثناء سيري حتى دون تفكير أو دون سبب معين ، وما الى ذلك ، كل هذه الافعال ارادية أعي بها وأقصدها لكنها أشبه بأفعال آلية بحيث لو سألتني كيف أرتدي معطفي أو ما طريقتي الخاصة في تحية صديقي لما استطعت الاجابة بسهولة .

الفعل الارادي حقا

الفعل الارادي بالمعنى الحقيقي هو الفعل الحر ، ويحس به كل منا باستبطان . ويمكن تمييزه من سائر الافعال اللاارادية والافعال الارادية اسما بأنه ينطوي على عدة خطوات لابد أن تتم ، وليس بين هذه الخطوات فصل أو تمييز واضح في الواقع وإنما هي في تداخل واندماج ، لكن في ذكرها وتحليلها توضيحا للفعل الارادي الحق . وخطوات الفعل الارادي الحقيقي هي : التروي ، اتخاذ قرار ، العجز أحيانا عن اتخاذ القرار ، ارادة الانتباه ، المحاولة وبذل الجهد ، قوة الارادة وتأثرها بالمبادىء والقيم التي أعتنقها .

التروي deliberation : يجب ان يسبق الفعل الارادي حتما عنصر التروي ، وهو التفكير في الفعل الذي أريد فعله قبل تنفيذه ، ويضعني التروي بين بدائل من الافعال علي أن أختار أحدها ، بحيث ما أختاره بعد ترو يتفق مع شخصيتي بكاملها أو مع سماتي النفسية وطباعي ومبادئي ومثلي التي أتحمس لها وأهدافي وغاياتي التي أجد في تحقيقها اثبات وجودي . وأنا لا أمارس التروي في كل أمر وإنما فيما لدي قدرة على فعله ، فالمجنون لا يتروى فيما يفعل وكذلك الطفل ، كما لا نتروى فيما يصدر عن العالم الطبيعي من حركات وتغييرات ولا نتروى في اختيار أبجدية اللغة التي نتكلمها . نلاحظ أيضا أننا لا نتروى في الهدف من الفعل وإنما فقط في الوسائل اليه ، فالطبيب لا يفكر في شفاء المريض وإنما في وصف الدواء الشافي ، والخطيب لا يتروى في اقناع السامعين وإنما في الأقوال والأفكار التي يقولها لتقنعهم .(٤٨)

---

(٤٨) قارن : Aristotle, Nicomachean Ethics, Bk III, Ch, 3

اتخاذ القرار: ويتلو التروي الناجح خطوة اتخاذ القـرار – قرار تنفيذ فعـل ما دون باقـي الافعـال البديلة. ما يحدث في خطوة التروي حساب نتائج الفعل الذي أنوي فعله، وفي هذه الخطوة تجذبنـي رغبة ما مرة تدفع الى فعله، وقد تجذبنـي في نفس الوقت رغبة أخرى تساند الاولى او تعارضها فتبعدني عن ادائه. واتخاذ القرار هو حسم الصراع بين دوافع الفعل وعوائقه، وقد يعينني على ذلك اعتناقي لمبدأ سلوكي معين أو قانون أخلاقي أتمسك فيه أو هدف أساسي أبغي الوصـول اليه وهـكذا. حـين تسيطـر الرغبة الاقوى أو المبدأ أو الهدف الطاغي يتم اتخاذ القرار.

احتمال العجز عن اتخاذ القرار: قد يحدث لي في خطوة التروي أن أعجز عن تفضيل فعل على آخر، فقد تجذبني رغبة ما الى فعله تصارعها رغبة أخرى تنفرني من فعله، وأجدني حائرا لأن ما يشجعني على اداء الفعل يساوي في قيمته ما ينفرني من أدائـه. وهنا اقف عاجزا عن اتخاذ القرار او عاجزا عن اختيار فعل دون آخر، فأصاب بتردد مؤلم بين أداء الفعل أو الامتناع عنه، وقد لا أحتمل هذا الموقف فأحاول الخروج من المأزق بالقيام بأي عمل قد يدفع اليه مثير خارجي لا فضل لي فيه، فيصبح الفعل الذي أؤديه لا اختيار لي فيه ولا سبب يدعو اليه.

ارادة الانتباه:

هنـالك أفعـال ارادية فعـلا، وكثيرا ما أؤديها بلا تفكير ولا جهد ارادة، لاني تعودتهـا ومارستها وتتسق وشخصيتي المتكاملة ومتفقة ودوافعي وميولي المكتسبة ومبادئـي وأهـدافي بحيث اصبحـت جزءا من شخصيتي، مثلما أكون تعودت الجلوس الى مكتبي أقرأ أو أكتب كل مساء لرغبتـي القـوية في البحـث او اندفاعـي التلقائـي لسماع الموسيقـى أو العزف على البيانو كلما اتيح لي فراغ وقـت لولعـي بالموسيقى. أو مثلما أجد نفسي مدفوعا لانقاذ غريق أو اغاثة محتاج أو أن أؤثر غيري على نفسي فيما يحتاج اليه أو قول الصدق ولو حقق لي أذى وما الى ذلك. لكن قد أصادف موقفا صعبا أو جديدا لم أتعوده من قبل وأجد نفسي في صراع بين دافعين أو رغبتين، وبعد رؤية لا أجد اني حسمت الصراع وتوصلت الى قرار، في مثل تلك المواقف أجدني محتاجا الى خطوة الانتباه، والمقصود به ارادة مزيد من تفكير وجهـد عقلي لحسم ما أنا فيه من حيرة، ويدفعني ذلك الى جهد ارادة لأستجمع كل دوافعـي وسماتـي النفسية واهدافي ومعتقداتي وما أحب ومـا أكره امـام عينـي عقلي، وقد أجد حينئذ باستبطـان ان لدي دافعـا ضعيف الاثر لم انتبه اليه من قبل، وحين انتبه اليه أبذل جهدي في الوعي به واكتشاف أهميته، فقـد يساعدني ذلك على حسم الصراع واتخاذ قرار. وفي اتخاذ هذه الخطوة – ارادة الانتبـاه الى نفسي بكل نوازعها ورغباتها وعواطفها ومبادئها – تقوم الحرية، لاني في هذا الموقف لا أريد أفعالي وانما أريد ارادتي أو اكتشف قدراتي واستعداداتي من جديد.

المحاولة وبذل الجهد

قـد تكون هذه الخطـوة متضمنـة في الخطـوات

السابقة لكن يجب ان نفرد لها اهتماما خاصا لاهميتها في قيام الفعل الارادي الحق . حين أريد اداء فعل ما فأني أفكر فيه قبل ادائه واحسب نتائجه على ان فعلته ومدى تحقيقي لذاتي ان فعلته أو ان امتنعت عنه ، فاذا وصلت الى تفضيله على بدائل اخرى من الافعال أكون قد اتخذت قرارا بفعله . وبعد خطوة اتخاذ القرار يأتي دور تنفيذ ما اخترت من فعل . وفي هذه المرحلة يأتي دور الارادة - ان كنت قوي الارادة أقدمت على الفعل دون عناء ، وان كنت ضعيف الارادة أصبت بتردد ثم تراجع وأنا أتمزق فشلا من عدم قدرتي على تحقيق ما أرغب فيه . ويصاحب خطوة الارادة على أداء الفعل خطوة المحاولة . وفي المحاولة بذل جهد ، وبذل الجهد درجات فقد يكون الجهد ضعيفا باردا باهتا وقد يكون الجهد واضحا حادا به اصرار وعناد ، وقد ادعي اني بذلت جهدا قويا عنيدا على فعل شيء ما ، وأبرر عدم فعلي له بعلل وهمية ، ذلك لان الجهد كان ضعيفا في واقع الامر ، وأوضح مثل على ذلك المحاولة الجادة التي يزعنقهامها المدمنون على الاقلاع عن ادمانهم وباءت بالفشل . وكل منا على وعي مباشر بقدرته على المحاولة وبذل الجهد ومقاومة بعض رغباته ، وكل منا على وعي مباشر بأن في قدرته أن يكون جادا عنيدا في تنفيذ ما وصل اليه فكره ، أو أنه أحيانا ما تكون محاولاته باهتة يكتنفها استهتار أو تهاون . لكن كيف يبلغ الجهد مبلغا كافيا لتأدية الفعل ؟ هنا تي خطوة قوة الارادة .

قوة الارادة : ليس منا من يتمنى أن يكون ضعيف الارادة ، وليس منا من يتمنى ان يكون خامل العقل كسول التفكير . لكن كم منا من يمارس قوة ارادته ويحرص على تطوير نفسه وتعديل سماته واصلاح ما اعوج من مبادئه ومعتقداته وعاداته ؟ هنا الفارق بين الحر والعبد ، وهنا تمكن صعوبة الفعل الحر وندرته . فالحر محتاج الى يقظة العقل وقوة الارادة . خذ الآن قوة الارادة . لا توجد نصائح جاهزة لتقوية الارادة الضعيفة لكن يمكننا ايراد دافعين أساسيين لتقوية الارادة ، هما اهتمامي الذاتي بتحقيق وجودي وبارتفاع مكانتي بين أفراد المجتمع الذي أعيش فيه ، وتأثير المبادىء والقيم الاخلاقية التي اعتنقتها . الفرد الحر هو من يأتي بفعل يحس معه بارتياح ورضا لا لوم فيه ولا تقريع ، فان أحس مرة بلوم على ما فعل فعليه ان يسعى لتصحيح نفسه وتطوير ما درج عليه من عادات ونماذج السلوك ، وقد يكون دافعه الى ذلك أمر ذاتي يمليه طموحه وسعيه ان يكون قدوة ومثلا أعلى ، لكن قد يساعده على ذلك شعوره بفرديته في مجتمع يتمنى ان يحظى برضا الناس ومدحهم وثقتهم ، والمجتمع يستخف ويزدري ضعيف الارادة . والسبب الآخر الذي قد يقوي الارادة هو

تأثير المبادىء والقيم الاخلاقية التي أتمسك بها ولكل انسان مبادئه وقيمه وأهدافه التي تؤلف شخصيته الفريدة وهي جزء من دوافعه للسلوك الحر ، فان كان اعتقادي بمبادئي وقيمي قويا جادا أضحي في سبيلها كل عزيز وغال ، ساعد ذلك على تقوية ارادتي ودفعني الى اختيار الفعل الذي يتسق وهذه المبادىء . بل ان فضيلة المبادىء والقيم التي اعتنقها ان تجعل الارادة تحثني وتدفعني الى اداء الافعال التي تتفق مع تلك المبادىء وان اتعودها دون صراع وتردد .

●●●

ان صح تحليلنا السابق للفعل الارادي في الانسان فقد اتضح ان بالانسان مقومات الحرية الحقيقية أو هو قادر على ان يكون حرا . لازال قول ارسطو عن الانسان أنه حيوان مفكر قولا صحيحا صادقا - هو حيوان بما به من غرائز دافقة ورغبات جسدية وانفعالات محتدة وعواطف جارفة وتلقائية وقتية ، لكنه كائن مفكر بما به من عقل وروية ومحاولة على بذل الجهد والمحاولة الجادة لتطويع غرائزه وانفعالاته وعواطفه بما يليق بالانسانية وحضارتها . وهو مفكر بما لديه من قدرة على رسم أهداف سامية وغايات راقية وسعيه لتحقيقها . وهو مفكر بما يختار من معتقدات ومبادىء وقيم ، ولعل كنط هو الذي قال بصدق ان الانسان هو الحيوان الاخلاقي الوحيد اذ لا يفهم الحيوان الاعجم من قاموس الاخلاق شيئا . والانسان مفكر بما لديه من قدرة على تعديل نفسه وتغيير ما يرى في نفسه من اخطاء وعيوب وثغرات . فان طغى سلطان العقل والتفكير بتلك المعاني السابقة تحرر الانسان من عبودية حيوانيته . ومن ثم به مقومات الحرية . لكن لعل جون لوك كان أكثر صدقا من أرسطو - في السياق الذي نتحدث فيه - حين كان أول من أوضح ان الانسان فكر وارادة وليس فكرا فقط ، فالانسان قادر على اتخاذ قرار وبذل الجهد والمجادلة الجادة لتطوير ذاته وتعويض نقصه وفق ما وصل اليه فكره في يقظته وهمته . واذا ما تعاون العقل اليقظ بمبادئه وقيمه وأهدافه وغاياته مع الارادة ، فان قويت الارادة تم ضبط النفس وهو عمق اعماق الحرية .

بالانسان مقومات الحرية أو هو قادر على ان يكون حرا ، لكنه نادرا ما يكون حرا ، وذلك هو الجانب الدرامي في وجود الانسان ، اذ أغلب أفعالنا تصدر عنا جبرا نضطر اليها ولا اختيار لنا فيها . فاذا استبعدنا كل نماذج الافعال اللاارادية التي سبقت اشارتنا اليها ، واذا استبعدنا كل الاعمال الارادية اسما والتي كثيرا ما نتوهم انها صادرة عن اختيار

وارادة لكنها ليست كذلك وانما أقرب الى العادة الراسخة منها الى الاختيار المتروي ، لم يبق للانسان من مجال ممارسة الحرية الحقة الا القليل ، وأقل منه ان نجد الانسان الكامل اليقظة في تفكيره المناضل لحيوانيته والأحرص على ممارسة ارادته في كل أمر. واذن فالحرية في الانسان ممكنة لكنها مثل أعلى يحاول النفر القليل من الناس ان يصل اليها وان لم يبلغها !

***

الابستمولوجيا الوضعية عند أوجيست كونت

محمد وقيدي

استاذ مساعد للفلسفة

كلية الآداب (فاس ـ المغرب)

أثار « اوجيست كونت » في كتابه « دروس في الفلسفة الوضعية » عددا من المشكلات المتعلقة بالابستمولوجيا ، والتي يمكن بفضلها أن نعتبر كونت أقوى ممهد للابستمولوجيا في صورتها المعاصرة . فلديه نجد تحديدا لمعنى العلم يمكن أن نقول إنه المعنى السائد منذ ذلك الوقت الى اليوم . ولديه نجد تحديدا جديدا لعلاقة الفلسفة بالعلوم يقدم ضمنه تصورا للمهمة التي يمكن ان ترجع الى الفيلسوف عندما يكون موضوع تفكيره هو العلوم في تطورها ومناهجها ونتائجها ، كما أنه يقدم تصنيفا للعلوم يمكن أن نعتبره متقدما على ما سبقه من تصنيفات لكونه يقدم على مبادىء مستقاة من دراسة تاريخ العلوم .

إن دراسة هذه المسائل جميعها لن تمكننا من معرفة آراء كونت فحسب ، بل ستعرفنا على وجهة نظر كان لها أثر على كثير من فلاسفة العلم المعاصرين لنا ، الى الحد الذي يمكننا معه القول بان دراسة التيارات الابستمولوجية المعاصرة لا غنى لها عن أن تأخذ بعين الاعتبار ابستمولوجيا كونت ، ليس مراعاة لتأثيرها الواضح والمعلن عنه على كثير من فلاسفة العلم المعاصرين فحسب ، بل وأيضا لوجود تأثيرات لهذا الاتجاه الابستمولوجي حتى عند عدد كبير من المفكرين الذين لا يعلنون صراحة انتمائهم الى هذا التيار النظري .

وحيث أننا نعتقد بأن وجهة النظر الابستمولوجية تنشأ ، شأنها في ذلك شأن أي

فكر نظري في علاقة مع ظروفها المجتمعة التاريخية من جهة ، وشروطها المعرفية من جهة أخرى ، فاننا سنحاول في بداية حديثنا هذا عن الابستمولوجيا الكونتية أن نتعرض بايجاز ، للمناخ التاريخي والمعرفي والايديولوجي الذي نشأت فيه الفلسفة الوضعية عند كونت ، لنتبين ضمن هذه الشروط الأهداف الخاصة التي انتدبت هذه الفلسفة نفسها لانجازها استجابة لمناخها التاريخي والايديولوجي .

المناخ التاريخي والايديولوجي للفلسفة الوضعية هو مناخ فرنسا القرن التاسع عشر . ولقد كان هذا الزمن ، كما يصفه كونت نفسه زمن الاضطرابات المجتمعية والسياسة التي عرفتها فرنسا ، بصفة خاصة في اعقاب الثورة الفرنسية الكبرى . وشيئا فشيئا بدأت تناقضات الثورة تكشف عن نفسها ، وبدت الثورة الفرنسية غير قادرة على الوفاء لأهدافها وانجاز تلك الاهداف ، فادى ذلك الى وجود صراعات مجتمعية كانت مصدرا لاضطرابات كبرى في المجتمع الفرنسي . وتبعا لأوجيست كونت نفسه فان الصراع كان يدور بين الفئات المحافظة في المجتمع ، وهي التي كانت تسعى الى أن تفرض على المجتمع الجديد قوانين المجتمع القديم ، وبين القوى الثورية التي كانت افكارها تتسم بالفوضى ، بعبارة أخرى يرى كونت ان أيا من القوى المتصارعة في ذلك الوقت لم تستطع ان ترفع عن المجتمع حالة الفوضى السياسية التي كانت تسوده والتي ترجع في الاساس الى فوضى أخلاقية ، سببها ما يسود الأذهان من فوضى ، بصدد المجتمع الانساني وشروط وجوده . لقد كان من اللازم لرفع تلك الفوضى السياسية ان يوجد تآلف بين فكرتي النظام والتقدم . ولكن القوى التي كانت تتصارع في المجتمع الفرنسي في زمن كونت لم تستطع تحقيق هذا التآلف . فالقوى التي كانت تحمل فكرة النظام هي القوى المحافظة التي اذا كانت تسعى الى أن تخضع المجتمع الجديد لقوانين المجتمع القديم ، جعلت فكرتها عن النظام تعوق تحقيق التقدم . وعلى العكس من ذلك فان القوى التي كانت تحمل فكرة التقدم ، وهي القوى الثورية ، كانت تضفى على تصوراتها للمجتمع صفة الفوضوية ، وهو الامر الذي كان يجعل افكارها عن التقدم معارضة لكل نظام .[1]

أما على الصعيد المعرفي فان القرن التاسع عشر قد شهد درجة كبيرة من تطور العلوم الرياضية والفيزيائية فضلا عن بدايات النجاح بالنسبة لعلوم الحياة . ومعنى هذا أن المعرفة العلمية كانت قد شملت بنجاح ، لم يفتأ الشعور يزداد به حينئذ ، كل الظواهر الكونية عدا الظواهر الانسانية ، لذلك فقد رأى كونت أن

(١) أنظر كتاب كونت « دروس في الفلسفة الوضعية » .

Auguste Conte Cours de Philosophie Positive Towe II, Physique Socide, Editions Hermann, Paris (1975), P. 16 ets Suite

اقامة علم بالمجتمع أصبح امرا ضروريا بالاهتمام بسلسلة العلوم المكونة للمعرفة الوضعية .

غير أن ضرورة علم الاجتماع لم تكن ضرورة معرفية فحسب ، بل كانت مطلبا ايديولوجيا ايضا ، فكونت كان يرى أن الحل الوسط القادر على تجاوز تناقضات القوى المحافظة والقوى الثورية على السواء ، أي على التأليف بصورة ايجابية بين فكرتي النظام والتقدم ، هو اقامة معرفة علمية بظواهر المجتمع ، باقامة علم يتعلق بالاجتماع الانساني . وهكذا فان « الفيزياء الاجتماعية يمكن ان تقرأ في الجغرافيا المزدوجة للعلم والايديولوجيا »[٢] .

وحيث يستجيب علم الاجتماع للاهداف المعرفية والايديولوجية التي كانت الفلسفة الوضعية تسعى الى تحقيقها فان مشروع هذا العلم يمكن أن يعتبر النواة المركزية في مشروع الفلسفة الوضعية عند كونت . ويمكن ان نؤكد بان اقامة علم الاجتماع هي الغاية التي توجه المجهود النظري لأوجيست كونت وتتمركز حولها آراؤه الابستمولوجية .

١ ـ المعنى الوضعي للعلم

لم يكن هنالك غنى لأوجيست كونت ، وهو الذي يريد أن يضيف الى نسق المعرفة الانسانية علما جديدا ، عن البحث في معايير الاتصاف بالعلمية . لذلك فقد حدد كونت العلم بمعنى محدد .

والواقع أننا عندما نستقرىء المعنى الذي استخدمت به لفظة علم في التصنيفات التي سبقت تصنيف كونت للعلم ، فاننا نجد أن معنى العلم كان مرادفا لمعنى المعرفة . فكل معرفة يمكن ان يحدد لها ، ضمن نسق معرفي معين ، موضوع خاص ، وكانت تعتبر لأجل ذلك علما من بين العلوم التي يضمها ذلك النسق المعرفي . إن العلم ، ضمن تلك التصنيفات هو المعرفة المنظمة المتعلقة بموضوع واحد ، ونتيجة لذلك فان كثيرا من المعارف التي قد لا نعتبرها اليوم علوما قد صنفت على أنها كذلك في التصنيفات القديمة للعلوم .

اما العلم عند كونت فانه لا يطلق الا على المعرفة التي بلغت من تطورها الحالة الوضعية ، وهي الحالة التي يصل اليها الفكر في ميدان معرفي ما ، كمرحلة نهائية لتطور يمر فيه بمرحلتين سابقتين هما الحالة اللاهوتية والحالة الميتافيزيقية . ويعرف كونت الحالة الوضعية مبرزا وضعها من تطور الفكر الانساني ، فيقول عنها ما يلي :

« واخيرا عندما يدرك العقل البشري في الحالة الوضعية استحالة الحصول على مفاهيم مطلقة يقلع عن البحث في أصل ومصير الكون وعن معرفة العلل الباطنة للظواهر ، لكي

(٢) أنظر المقدمة التي كتبها Jean - Paul Enthouen لكتاب كونت السابق . ص ٢ .

يخلص بفضل الاستخدام المنظم للبرهنة والملاحظة ، الى اكتشاف قوانينها الفعلية ، أي العلاقات الثابتة لتعاقبها وتماثلها ولن يصبح تفسير الوقائع عندئذ ، وقد أرجع الى حدوده الطبيعية ، سوى الرابطة المقامة بين مختلف الظواهر الجزئية وبعض الوقائع العامة التي ينزع تقدم العلم الى اختزال عددها اكثر فاكثر » .[٣]

يتحدد العلم اذن بطريقة النظر الى الظواهر . وهذه الطريقة مرحلة من تطور الفكر البشري الذي يمر فيه بالمرحلة اللاهوتية أولا ، وهي التي يحاول فيها الفكر البشري تعليل الظواهر بالقوى الغيبية ، والمرحلة الميتافيزيقية وهي التي يعمل فيها الفكر الانساني الظواهر بارجاعها الى كيانات مجردة ملازمة لمختلف كائنات العالم . اما في المرحلة العلية او الوضعية فان الفكر البشري يترك كل ذلك ، ليقتصر على تفسير الظواهر بفضل العلاقات الثابتة لتعاقبها او تماثلها ، اي ليقتصر على البحث في القوانين ، وكل ميدان لا يطبق فيه الفكر الانساني هذه الطريقة في النظر الى الظواهر ، فهو ميدان لم يبلغ بعد المرحلة الوضعية ، ولا يصح لذلك اعتبارة معرفة علمية الى جانب المعارف العلمية الأخرى .

٢ ـ الفلسفة الوضعية والابستمولوجيا

يتميز بلوغ الفكر المرحلة الوضعية من تطوره في ميدان من ميادين المعرفة ، بذلك التغيير الجذري الذي يحدث في طريقة النظر الى الظواهر . ولا شك في ان هذه الخاصية هي أهم ما يميز المرحلة الوضعية . غير انه يتجاوز الحدود الخاصة بكل ميدان من ميادين المعرفة . وبالنظر الى نسق المعارف الانسانية في مجموعها ، يتبين لنا ان مما يميز المعرفة الانسانية في المرحلة الوضعية هو التقسيم المنظم لهذه المعارف الى جملة من الاختصاصات ، في المراحل التي سبقت المرحلة الوضعية من تطور الفكر الانساني لم يكن هنالك اى تقسيم منظم للمعارف . فلقد كان مفكر واحد ، يمكن ان ندعوه فيلسوفا ، يشتغل بكل المعارف الموجودة في عصره . وهذه الحالة التي كانت عليها المعرفة الانسانية لم يكن منها مناص . وذلك ان الدرجة التي كانت عليها هذه المعارف من النمو لم تكن تقتضي تقسيمها ، غير ان النمو المتدرج للمعارف المحصلة في كل ميدان من ميادين المعرفة ، قد أدى بالتدريج الى أن يجعل من كل واحد من هذه الميادين قادرا على ان يشغل وحده فكر مجموعة من المفكرين وهكذا ، فان المعارف الانسانية التي كانت توجد في الماضي في حالة خلط ضرورية ، قد اصبحت بفعل نموها المتزايد بصدد كل موضوع من موضوعات المعرفة ، أمام ضرورة التمايز وحتمية اختصاص كل مجموعة من المفكرين بالبحث في موضوع معين . فالفكر الانساني لم يعد أمام نمو المعارف قادرا على ان يجمع في

(٣) أنظر الجزء الأول من كتاب أوجيست كونت السالف الذكر ص ٢١ . ٢٢ وعنوان هذا الجزء هو Philosophie Premiere مع نفس المعطيات السابقة .

شخص مفكر واحد القدرة على الاشتغال بالميادين المختلفة للبحث العلمي . فكل علم يستقل بنفسه ، اذن عند تحقيق شرطين : التراكم الكمي للمعارف المحصلة بصدد موضوعه والتغيير الجذري في طريقة نظره الى ذلك الموضوع ، أي تطبيقه للطريقة الوضعية في الدراسة .

هذا التقسيم المنظم للمعارف كان له على نسق المعارف الانسانية نتيجتان إحداهما ايجابية تقتضي منا تطوير المعارف والحفاظ عليها ، وأخرى سلبية يتمثل فيها خطر يهدد تطور المعرفة الانسانية ، وينبغي إذن ، دفعه عنها . تتمثل النتيجة الايجابية في كون التقسيم المنظم للمعارف قد سمح بنمو اسرع للمعرفة في كل ميدان خاص من ميادينها المختلفة . وذلك لان اختصاص كل مجموعة من العلماء بالبحث في ميدان دون غيره قد هيأ لتطوير المعارف بهذا الميدان المعرفي اكثر مما كان عليه الامر في السابق في الحالة التي كانت فيها المعارف متصفة بالخلط .

أما النتيجة السلبية لذلك التقسيم فهي أن المضي في الاختصاص والامعان فيه ، قد جعل كثيرا من العلماء لا يهتمون الا بعلم واحد ، او ضمن العلم الواحد ببعض الجوانب منه ، دون الانتباه بما فيه الكفاية الى علاقة نتائج علمهم بمجموع المعرفة الوضعية ، وهذا يمثل خطرا على المعرفة الانسانية . لذلك فانه سيكون علينا ان نبحث عن الوسيلة التي تبعد هذا الخطر الذي يهدد المعرفة الانسانية ، من جهة ، لتحافظ من جهة أخرى على النتيجة الايجابية لتقسيم المعارف الانسانية وهو ما يلائم الحالة الوضعية . في تحديده لهذه الوسيلة يعطي كونت معنى الفلسفة الوضعية ثم يقول :

« ان الوسيلة الحقيقية لايقاف هذا التأثير الوبيل الذي يبدو أن المستقبل الفكري مهدد به ، تبعا لـلا معان في تخصص البحوث الفردية ، لن تكون بالطبع هي العودة الى ذلك الخلط الذي كانت عليه اعمالنا ، والذي ينزع الى العودة بالفكر الانساني الى الوراء ، لانه اصبح اليوم لحسن الحظ أمرا مستحيلا . ان الوسيلة الحقيقية تقوم على العكس من ذلك في اتمام عمل التقسيم . يكفي في الواقع ، ان نجعل من دراسة العموميات العلمية اختصاصا آخر ، ويكفي ان توجد فئة جديدة من العلماء ، مهيأة بفضل تكوين ملائم ، لئلا تخلص للثقافة الخاصة لأي فرع من فروع الفلسفة الطبيعية وتهتم فقط ، اعتبارا للحالة الحاضرة لمختلف العلوم الوضعية بان تحدد بشكل مضبوط روح كل واحد منها وبأن تكشف عن علاقاتها وترابطها ، وبأن تلخص حين يكون ذلك ممكنا كل مبادئها في اقل عدد ممكن من المبادىء العامة ، بحيث تتفق دون توقف مع المبادىء العامة للمنهج الوضعي . وفي نفس الوقت ينبغي ان يكون العلماء الآخرون قادرين قبل التخلص الى اختصاصاتهم ، وبفضل تعليم يتعلق بمجموع المعرفة الوضعية على ان يستفيدوا

بكيفية مباشرة من الاضواء التي يلقيها هؤلاء العلماء الموهوبون لدراسات العمومية ، وعلى ان يصححوا في مقابل لذلك نتائجهم ، وهي حالة يقترب منها العلماء اليوم شيئا فشيئا بشكل ملحوظ . فاذا تحقق هذان الشرطان ، ويبدو أن ذلك ممكن ، فان تقسيم العمل في العلوم سيخطو الى الامام دون خطر ، وسيذهب بعيدا بقدر ما يقتضي ذلك تطور مختلف نظم المعرفة . اذا وجدت فئة خاصة ، مراقبة باستمرار من كل الآخرين ، تكون وظيفتها ان تربط باستمرار كل اكتشاف جزئي جديد بالنسق العام ، فلن يخشى بعد ذلك أن يؤدى الاهتمام الكبير بالتفصيلات الى الحيلولة دون ادراك المجموع . وفي كلمة واحدة ، فان تنظيم العالم العارف يكون قد قدم الأسس بصفة كاملة ، ولن يبقى له بعد ذلك الا أن يتطور بدون حد ، محافظا دائما على نفس طابعه .

« وهكذا فاننا حين نجعل من دراسة العموميات العلمية فرعا متميزا من العمل العلمي الكبير لا نعمل الا على أن نوسع مبدأ التقسيم الذي فصل بنجاح بين مختلف الاختصاصات . ذلك لانه عندما كانت المعارف الوضعية على قدر ضئيل من التطور ، فان علاقاتها المتبادلة لم تكن لهذه الاهمية التي تسمح ، بصفة دائمة على الاقل ، بقيام فئة خاصة من الاعمال ، كما ان ضرورة هذه الدراسة قد كانت في الوقت ذاته اقل استعجالا . اما اليوم فان كل واحد من العلوم قد تطور بشكل مستقل ، بحيث ان البحث في علاقاتها المتبادلة يعطي المكان لعمل تابع لهذا التطور ، في الوقت الذي يصبح فيه هذا النظام الجديد من الدراسات أمرا لا غنى عنه لاتقاء توزع المفاهيم الانسانية .

« هذه هي الكيفية التي أتصور بها مكانة الفلسفة الوضعية في النسق العام للعلوم الوضعية بمعناها الحق » .(٤)

هذه الفقرة من كتاب كونت « دروس عن الفلسفة الوضعية » تبرز لنا أن المعنى الذي يحدد به كونت ضمنها الفلسفة الوضعية يمهد لذلك الذي يتبناه كثير من فلاسفة العلم في زمننا ، إما في صورته أو بادخال بعض التحوير عليه . إن الفيلسوف الوضعي كما يتمثل في تصور اوجيست كونت هو الابستمولوجي . وان الشروط التي يضعها كونت أمام الابستمولوجي من اجل تحقيق اهدافه تقترب من الشروط التي يضعها عدد من فلاسفة العلم المعاصرين .

وان أول ملاحظة يمكن أن نستخلصها من نص كونت الذي اوردناه هي أن الفلسفة الوضعية التي تتمثل فيها ضمنه فلسفة العلوم تنبثق من الاختصاص العلمي كعنصر متمم له . وذلك لانه لم يكن من الممكن قبل ان يبلغ الفكر العلمي من التطور المرحلة التي ادت الى تقسيمه الى اختصاصات متعددة ، ان يخلق به

(٤) المرجع السابق ص ٣١ - ٣٢

هـذا الاختصاص الجـديد الـذي هو الفلسفـة الوضعية والذي تقوم مهمته أساسا في التنسيق بين الميادين المعرفية المختلفة بربط كل اكتشاف علمي جزئي بالنسق العام للمعارف العلمية . فحيث أن التقسيم المنظم للمعارف الانسانية الى مجموعة من الاختصاصات العلمية أمر فـرضه التطور التاريخي للعلوم ، من حيث نموها الكمي ومن حيث بلوغهـا المرحلة الـوضعيـة عـلى السواء ، وحيث أن ما يؤدى اليه تقسيم المعارف يصبح بالنسبة لتطور المعرفة الانسانية واقعا لا رجعة فيه . فـان الفلسفة الـوضعية تـأتي عند كـونت كاستمـرار لواقـع الاختصاص هـذا ، وتضاف اليه من حيث هي اختصـاص جديـد كبقية الاختصاصـات ، لا يختلف عنها الا من حيث ان مـوضوعـه هو العمـوميات العلميـة المتعلقة بمجموع المعرفة الانسانية في فترة تاريخية معينة من تطور العلوم .

ان الفلسفة الوضعية اذن ، ليست شيئا غريبا عن الاختصاص العلمي بل هي بعض منه ، انها تستجيب لشـرط التخـصص العـلمي في مـظهـريـه المتعـارضـين . فمن حيث ان هـذا التقسيم المنظم للمعارف الانسانية قد اصبح في الوقت الحاضر شرطا لتطور تلك المعارف بصورة ملائمة ، فان الفلسفة الوضعية تستجيب له من حيث انها اختصاص جديد موضوعه العموميات العلمية .

ومن حيث أن ذلك التقسيم يكون مصـدر خطر على المعرفة الانسانية بصفـة عامـة ، لأن الاختصاص قد يؤدي بكل مجموعة من العلماء الى الاهتمـام ، بميـدان بحثكم فقط واغفـال النتائج المحصلة في ميادين معرفية اخرى ، فان الفلسفة الوضعية تستجيب لشرط الاختصاص في هذه الحالة بدفع هذا الخطر عنه ، وذلك من حيث ان الفلسفة الوضعية تعمل على الربط بين النتائج العلمية المحصلة في كل ميدان على حدة وبين مجموع المعـرفة العلميـة ، فتمكن العلماء المختصين في كل ميدان من معرفة ما يجري في الميـادين المعرفيـة الأخرى ومن معـرفة عـلاقـة النتائج التي يحصلونها بمجموع المعرفة العلمية . وهكـذا تستجيب الفلسفـة الـوضعيـة لشـرح التخصص في البحوث العلمية سواء في الحالة التي يتطلب فيها الأمر المحافظة على تمايز المعرفة في كل ميدان عنها في الميادين الأخرى ، او في الحـالـة التي يكـون الاقتضـاء فيهـا هـو ابـراز العلاقات المتبادلة بـين العلوم المختلفة واحـالة الاكتشافات المتعددة فيها الى جملة من المبادىء العامة .

الملاحظة الثانية التي نخرج بها من نص كونت متعلقة بوظيفـة الفيلسوف الـوضعي وبشروط انجازه لهذه الوظيفة .

نجد بصدد مهمة الفلاسفة الوضعين عددا من التحديات أن عليهم أن يجـددوا روح كل علم من العلوم . واليهم يـرجع امـر اكتشاف العلاقات المتبادلة بين العلوم المختلفة ، وعليهم ان يلخصوا المبادىء الخاصة للعلوم في أقل عدد ممكن من المبادىء العامة . واليهم يرجع اخيرا

أمر الربط بين كل اكتشاف علمي وبين النسق العام للمعارف الوضعية .

أما بصدد شروط هذه المهام فنجد أن كونت يذكر لنا شرطا عاما وهو أن الفلسفة الوضعية لا تجد مكانتها إلا ضمن نسق المعارف الوضعية ، وانه لم يكن من الممكن قبل القرن التاسع عشر ، وهو الزمن الذي شملت فيه الروح الوضعية ، دراسة الظواهر في كل مستوياتها بما في ذلك الظواهر الانسانية أن يقع الحديث عن فلسفة وضعية ، لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لوجود المهمة التي سيرجع الى الفلسفة الوضعية أمر انجازها .

وهناك شروط اخرى نتعرف عليها عندما نحدد طبيعة التكوين اللازم للقيام بدور الفيلسوف الوضعي ، فمهمة الربط بين المعرفة العلمية الجزئية وبين النسق العام للمعارف العلمية لا يمكن أن يقوم بها الفيلسوف التقليدي ذو التكوين الميتافيزيقي ، بل يقوم بها فيلسوف ذو تكوين علمي . أن الفيلسوف الوضعي ، كما هو في تصور كونت له ، منبثق من بين العلماء ذوي الاختصاصات المختلفة لا يميزه عنهم غير كونه يترك الاهتمام بتفصيلات ليهتم بأعم نتائجها . الفيلسوف الوضعي عالم يقوم بدور ايجابي بالنسبة لتطور العلوم في الفترة المعاصرة له ، وذلك لانه يكون بمثابة الوسيط بين العلماء المختصين في فروع المعرفة المختلفة وبين أعم النتائج العلمية ، ويهيء هذا العالم أنه يتلقى تكوينا ملائما لأجل القيام بدوره الايجابي ذلك .

هذا المعنى الذى يحدد به كونت الفلسفة الوضعية ، ويعين به مهمة الفيلسوف الوضعي وشروط انجازه لها ، يقترب من المعنى الذي يحدد به عدد من الابستمولوجيا المعاصرين معنى الابستمولوجيا .

يلتقي المعنيان من حيث أن العمل الفلسفي فيهما لا يفرض على العمل العلمي أي قيم من خارجه ، فهو ذاته منبثق عنه ، كما يلتقيان ايضا في كون كونت يتصور أن الفيلسوف الوضعي ذو تكوين علمي ، وهو الأمر الذي يلتقي مع وجهة نظر عدد من الابستمولوجيين المعاصرين في كونهم يركزون على ضرورة انطلاق الابستمولوجيا من داخل مبادىء العلوم لا من خارجها .

إلا أن الالتقاء لا يعنى التطابق في كل الاحوال بين الابستمولوجيا وبين الفلسفة الوضعية عند كونت ، فهناك من الابستمولوجيين المعاصرين من يعمل على تضييق مهمة فيلسوف العلم اكثر مما يفعله كونت.. إن كونت يحصر مهمة الفيلسوف الوضعي في التنسيق بين النتائج العلمية ، أما الوضعيون المنطقيون فانهم يحصرون هذه المهمة في التحليل المنطقي للتعبير العلمي . وهناك من جهة أخرى فلاسفة غير وضعيين لا يقفون بفيلسوف العلم عند حدود التنسيق بين النتائج العلمية ، بل يوسعون من نطاق مهمته ليجعلوها تمتد الى ابراز قيمة الاكتشافات العلمية بالنسبة للفكر البشري والى القيام

بتحليل نفسي للمعرفة العلمية (باشلار) او يريدون لفيلسوف العلم ان يقوم بتحليل المفاهيم العلمية ، لا من جهتها المنطقية فحسب ، بل من جهة كون هذه المفاهيم هي نتيجة لتكون (بياجيه) ان الابستمولوجيا المعاصرة ، عدا الوضعية المنطقية ، قد تقبل من كونت أن يكون عمل فيلسوف العلم تابعا لعمل العلماء ، ولكنها قد لا تقف عند حدود حصر مهمتها في التنسيق بين النتائج العلمية المحصلة في العلوم المختلفة .

٣ ـ تصنيف العلوم وترتيبها : ـ

قدم اوجيست كونت تصنيفا للعلوم يمكن ان يعتبر متقدما على ما سلفه من تصنيفات ، وهذا لأنه يصنف العلوم بناء على شروط ومبادىء اكثر عقلانية . فالتصنيف عند كونت ليس تعدادا لمعارف عصره وترتيبا لها بحسب موضوعاتها . وهذا لأنه لا يدمج ضمن تصنيفه إلا الميادين التي يمكن وفقا للشروط الوضعية أن نعتبرها علوما .

هناك بالنسبة لكونت شرط عام ينبغي ان يتوفر في كل علم يراد تصنيفه ضمن قائمة العلوم الوضعية . وهذا الشرط هو ان يكون ذلك العلم قد اجتاز في تطوره المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية ، وبلغ من ذلك التطور المرحلة الوضعية ، كما ان كونت يوضح أن تصنيفه يشمل العلوم النظرية وحدها دون المعارف العملية . وهذا لأن الهدف من تصنيفه للعلوم كما يقول ، ليس اعطاء نظرة عامة عن المعارف المعاصرة له بقدر ما هو عرض الأساس منها ، أي ذلك الذي يتخذ موضوعا ظواهر يمكن ان تعتبر دراستها قاعدة لدراسة ظواهر اخرى ، ويمكننا من جهة اخرى ان نقسم العلوم الى قسمين علوم مجردة عامة موضوعها هو اكتشاف القوانين التي تتحكم في مختلف فئات الظواهر ، وعلوم وصفية جزئية يمكن ان تدعى احيانا بالعلوم الطبيعية الحق ، وتقوم على تطبيق القوانين السالفة الذكر على التاريخ الفعلي لمختلف الكائنات الموجودة ، والعلوم النظرية هي العلوم الاساسية في نظر كونت وهي التي يهتم بها تصنيفه للعلوم .

وهكذا نرى أن تصنيف كونت ليس مجرد تعداد لمعارف عصره وتقسيمها لها من حيث موضوعها ، بل هو تصنيف للعلوم الوضعية ، أي لمجموع العلوم التي بلغت المرحلة الوضعية بوصفها المرحلة النهائية التي يبلغها الفكر البشري من تطوره في كل مجال من المجالات المختلفة للمعرفة . وان العلوم التي يصنفها كونت ، فضلا عن ذلك ، هي العلوم النظرية المجردة وليست العلوم العملية التطبيقية .

تبعا لهذه الشروط يذكر كونت العلوم التالية بالترتيب : الرياضيات ، الفلك ، الفيزياء ، الكيمياء ، علوم الحياة ، وعلم الاجتماع .

غير أننا لم نتبين إلى حد الآن بصدد العلوم الآنفة سوى الشروط التي تجعلها مقبولة ضمن تصنيف كونت ، ولكي نستوفي النظرة الموضوعية عن تصنيف كونت ينبغي لنا ان

نبحث في المبادىء التي ادت به الى ترتيب العلوم تبعا للترتيب الذي ذكرناها عليه ، كما أن علينا ان نبحث في دور كل من هذه العلوم ومكانته ضمن مجموع المعرفة الوضعية .

هناك ، في نظر كونت مبادىء أربعة تتفق جميعها في أن تأسيس ترتيب العلوم وفقا لها ، يجعل هذه العلوم على الترتيب الذي ذكرناه .

المبدأ الاول : هو مبدأ البساطة والعمومية . وتبعا لهذا المبدأ فان العلوم مرتبة تبعا لبساطة وعمومية الظواهر التي تدرسها ، وتكون الظواهر اكثر بساطة واكثر عمومية كلما تبين لنا ان دراسة تلك الظواهر لا تتوقف على دراسة ظواهر أخرى او تقتضي معرفة مسبقة بقوانينها . وتبعا لهذا المبدأ فان العلوم الرياضية توضح في أول قائمة الترتيب ، بينما تليها تباعا العلوم التي تدرس الظواهر التي تقضي معرفة قوانينها معرفة بقوانين ظواهر العلم الأسبق في الترتيب .

المبدأ الثاني : الذي يرتب كونت العلوم تبعا له هو ترتيبها لتطور الفكر الانساني في التاريخ ، وحسب بلوغه المرحلة الوضعية من تطوره في كل مجال من مجالات المعرفة ، ويبين كونت هنا أنه ليس من الضروري أن يبلغ الفكر الانساني المرحلة الوضعية في كل مجالات المعرفة دفعة واحدة . فقد بلغ بعض المعارف الحالة الوضعية بينما يكون بعضها الآخر في المرحلة اللاهوتية او في المرحلة الميتافيزيقية من تطوره .

المبدأ الثالث : هو أن العلوم مرتبه على ذلك النحو تبعا للدرجة التي يتصف بها كل علم منها من حيث دقته ، وتبعا لامكانية تطبيق كل علم منها للتحليل الرياضى في دراسة ظواهره .

المبدأ الرابع والأخير : مبدأ معرفى تربوى ، وهو أن معرفة القوانين المتعلقة بظواهر كل علم من هذه العلوم التي ذكرناها يقتضى معرفة قوانين الظواهر التى يدرسها العلم السابق له في الترتيب .

وفقا لهذه المبادىء جميعا رتب أو جيست كونت العلوم التي تضمنها تصنيفة . فتبعا لهذه المبادىء جميعا يمكن أن نفسر المكانة الخاصة للعلوم الرياضية التي يصنعها في أول قائمة العلوم المرتبة ، فالعلوم الرياضية هي العلوم الأكثر بساطة وعمومية من حيث موضوعها ، لأن فهم الحقائق الرياضية لايتوقف على فهم سابق لأى نوع من انواع الظواهر التي تدرسها العلوم الأخرى . ثم أن العلوم الرياضية من حيث أهميتها بالنسبة لمجموع المعرفة الوضعية لاتماثل العلوم الاخرى ، وينبغى النظر اليها على أنها القاعدة الاساسية لهذه العلوم . ان العلوم الرياضية قد تبدو أقل اهمية فيما لو نظرنا اليها من حيث ماتقدمه من معارف واقعية ، ولكنها ستبدو اكثر اهمية فيما لو نظرنا اليها من حيث كونها الأداة التى يمكن ان يستخدمها الفكر الانسانى في فهم الظواهر الطبيعية الأخرى وفي التعبير الدقيق عن ذلك الفهم .

ومن ناحية أخرى فان العلوم الرياضية قد كانت ، من حيث تاريخ الفكر الانسانى أول العلوم التى بلغت المرحلة الوضعية .

فالرياضيات قد قامت كعلوم وضعية بفضل المحاولات التي قام بها علماء الحضارة اليونانية القديمة وخاصة طاليس وفيثاغورس .

اذا انتقلنا من الرياضيات الى العلوم الأخرى ، فاننا سنجد أنفسنا أمام العلوم التي تدرس ظواهر الطبيعة . وحين ننظر الى هذه العلوم في ضوء مبدأ البساطة والعمومية ، نجد انه يمكن تقسيمها الى قسمين : الفيزياء غير العضوية أولا ثم الفيزياء العضوية ثانيا . موضوع دراسة العلوم الأولى هو الأجسام الجامدة ، أما موضوع دراسة العلوم الثانية فهو الظواهر المتعلقة بالحياة . وبما ان ظواهر الحياة اكثر تعقيدا من ظواهر الاجسام الجامدة ، وحيث انها تتوقف على دراسة هذه الظواهر فانه يلزم عن ذلك أن تكون الفيزياء غير العضوية سابقة على الفيزياء العضوية .

غير أن الفيزياء اللاعضوية ذاتها يمكن تقسيمها تبعا للمبدأ السابق ذاته الى قسمين : الفيزياء اللاعضوية من حيث هي علم يدرس الظواهر الكونية العامة . ثم من حيث هى علم يدرس الظواهر الارضية ، ومن الواضح ان الظواهر التي تجرى على كوكبنا اكثر تعقيدا من جهة ، كما أن دراستها من جهة أخرى تقتضى دراسة الظواهر الكونية العامة . فظواهر الكوكب الارضى خاضعة بصفة عامة لقانون الجاذبية ، ودراسة اية منها تقتضى ، بالاضافة الى اعتبار القوانين التى تخصها اعتبار تأثير قانون الجاذبية فيها . ولذلك فان علم الفلك الذى يدرس الظواهر الكونية العامة يكون ضمن الفيزياء اللاعضوية أسبق في الترتيب بالنسبة للعلوم الأخرى المتعلقة بظواهر الطبيعة ، وهذا لأن الظواهر التى يدرسها علم الفلك اكثر بساطة من حيث أن دراستها لاتتوقف على دراسة اية ظواهر طبيعية اخرى .

وتبعا لنفس المبدأ دائما فانه يمكن تقسيم الفيزياء التى تدرس الظواهر الأرضية الي علمين : الفيزياء الأرضية من حيث هى علم يقوم على دراسة ظواهره من وجهة النظر الميكانيكية ، والفيزياء الارضية من حيث هى علم يدرس ظواهره من وجهة النظر الكيميائية . العلم الاول هو الذى نسميه بحق الفيزياء ، أما العلم الثانى فهو الكيمياء . وحيث ان دراسة الظواهر الكيميائية متوقفة على دراسة الظواهر الطبيعية من وجهة النظر الميكانيكية فان علم الفيزياء سيكون ، اذن ، هو العلم الذى يتعلق بظواهر ، أبسط واعم فيكون موضعه لذلك ، أسبق في الترتيب على علم الكيمياء . فكل ظاهرة كيميائية تخضع لتأثير الثقل والحرارة والكهرباء فهي ظواهر يتكفل علم الفيزياء بدراستها ، ولذلك فان المنطق يقتضى أن يكون هذا العلم أسبق في الترتيب .

وهكذا نرى اذن انه بعد العلوم الرياضية تأتي في الترتيب العلوم الفيزيائية اللاعضوية ، وهى تضم ثلاثة علوم أساسية هى الفلك والفيزياء والكيمياء . وتأتي هذه العلوم الثلاثة على ذلك

الترتيب بناء على مبدأ الانتقال من العلم الذى يدرس الظواهر الابسط الى ذلك الذى يدرس الظواهر الاكثر تعقدا . فالظواهر الفلكية أبسط وأعم من الظواهر الفيزيائية ، وهذا من حيث ان ظواهر الكوكب الارضى خاضعة لقوانين الظواهر الكونية العامة التي يدرسها علم الفلك . ومثل هذا الامر يقال بصدد العلاقة بين الفيزياء والكيمياء .

والفيزياء اللاعضوية في مجموعها من حيث انها العلم الذى يدرس الظواهر المتعلقة بالاجسام الجامدة تأتي الثانية في ترتيب العلوم بعد العلوم الرياضية ، ليس باعتبار تعقد موضوعاتها بالنسبة الى موضوعات العلوم الرياضية فحسب ، وانها ايضا تبعا للتطور الذى عرفه الفكر الانسانى وبلوغه المرحلة الوضعية في مختلف ميادين المعرفة . وهذا لا يصدق على الفيزياء اللاعضوية بصفة عامة فحسب ، بل ينطبق على العلوم التى تتضمنها هذه الفيزياء . وهكذا فان علم الفلك قد كان في تاريخ الفكر البشرى أسبق الى بلوغ المرحلة الوضعية من علم الفيزياء ، وعلم الفيزياء قد كان اسبق في تطبيق الروح الوضعية في دراسة ظواهره من علم الكيمياء . فالعلوم المرتبة في تصنيف اوجيست كونت يمكن اذن أن تفهم في ترتيبها من حيث الانتقال من الأبسط الى الأقل بساطة ، وان تفهم في الوقت ذاته من حيث هى مرتبة وفقا لبلوغها ، من حيث التطور ، المرحلة الوضعية .

وهذا الترتيب ذاته يمكن ان يفسر تبعا للمبدأ الثالث ، اى من حيث درجة الدقة التي يتصف بها كل علم ، وهي التي ترتبط بمدى تطبيق هذا العلم للمنهج الرياضى . فعلم الفلك يقع مباشرة بعد الرياضيات ، وهذا لأنه اكثر العلوم الطبيعية دقة من حيث أنه أكثرها اعتمادا على المهنج الرياضي ، فالفلك يعتمد ملاحظة الظواهر ، وحيث انه لا يمكن أن يجرب فانه يستنبط من ملاحظاته للظواهر معتمدا في استنباطاته وفي تحصيل القوانين والتعبير عنها على المنهج الرياضى ، أما العلوم الفيزيائية فانها لاتستنبط من الملاحظة مباشرة بل انها تجرب ، ولذلك فان اعتمادها على المنهج الرياضى يكون بدرجة اقل مما هو عليه في علم الفلك ، ولكنها تأتي مع ذلك في ترتيب العلوم قبل الكيمياء لأنها اكثر دقة لاعتمادها بصورة اقوى على العلوم الرياضية .

وهكذا نرى اذن كيف ان ترتيب العلوم الفيزيائية التي تدرس الاجسام غير العضوية ياتي متفقا مع جميع المبادىء التي يضعها كونت لترتيب العلوم . كما ان ترتيب هذه العلوم ذاتها يخضع لنفس تلك المبادىء .

اذا انتقلنا من الفيزياء اللاعضوية الى الفيزياء التي تدرس الاجسام العضوية فاننا ننتقل بذلك الى علم اكثر تعقيدا ، ويرى كونت ان الظواهر الاكثر عمومية والاكثر بساطة هي التي تكون بالضرورة اكثر بعدا عن الانسان ، ولذلك فان دراسة هذه الظواهر تتم بصورة اكثر هدوءا

واكثر عقلانية ، وهذا في الواقع سبب آخر من الاسباب التي جعلت العلوم المتعلقة بهذه الظواهر تعرف تطورا اسرع وتبلغ المرحلة الوضعية من تطورها قبل العلوم الفيزيائية التي تدرس الاجسام الوضعية[٥] فهذه العلوم الأخيرة أقرب الى الانسان من حيث انه جسم عضوى قبل كل شيء ، ولذلك فانه كان من اللازم أن تمر فترة طويلة من تاريخ الفكر البشرى قبل أن يصل الى المرحلة التي ينظر فيها الى الظواهر المتعلقة بالاجسام العضوية بنفس الروح الوضعية .

فتعقد ظواهر الاجسام العضوية وخصوصية هذه الظواهر مبدأ جعل الفيزياء المتعلقة بهذه الظواهر تأتي من الناحية المنطقية في ترتيب العلوم بعد العلوم الفيزيائية المتعلقة بظواهر الاجسام غير العضوية .

وتنقسم الفيزياء العضوية بالنظر الى الظواهر التي ندرسها الى علمين أساسيين ، فالظواهر الحية التي هي موضوع هذه الفيزياء تتميز الى مجموعتين : تلك التي تتعلق بالكائن الحى فردا وتلك التي تتعلق من حيث قابليته للاجتماع . ومن الواضح ان هذا التمييز اساسى عندما يكون الامر متعلقا بالانسان . عندما تكون الفيزياء العضوية متعلقة بالكائن الحى من حيث هو فرد فانها تمثل عندئذ الفيزيولوجيا . أما العلم الذى يدرس ظواهر الكائن الحى من حيث هو قابل للاجتماع فان كونت يدعوه في البداية بالفيزياء الاجتماعية ، ثم يطلق عليه بعد ذلك اسم علم الاجتماع . وحيث ان ظواهر العلم الثاني تتوقف على دراسة ظواهر العلم الاول أى على معرفة القوانين الفيزيولوجية ، فان الفيزيولوجيا تدرس اذن الظواهر الاكثر بساطة وتستحق لذلك ان ترتب في قائمة العلوم في درجة أسبق من الفيزياء الاجتماعية . فالظواهر الاجتماعية هي اقرب الظواهر الى الانسان ، ولذلك فان التقدم في دراستها نحو الصورة التي تكون بها هذه الدراسة اكثر هدوءا وعقلانية ، وبالتالي نحو سيادة الروح الوضعية في طريقة دراستها ، أمر تطلب زمنا أطول مما تطلبه بلوغ الروح الوضعية في دراسة الظواهر الفيزيولوجية . وبالاضافة الى ذلك فان الفيزيولوجيا أكثر اعتمادا على المنهج الرياضى واكثر دقة من الفيزياء الاجتماعية .

هذه اذن وبصفة عامة ، المبادىء التي يرتب كونت على أساسها العلوم النظرية الستة التى يتضمنها تصنيفه للعلوم . وهذه المبادىء هى التي تجعل تصنيف العلوم عند كونت يرتب العلوم الترتيب السالف الذكر ، ويجعل من ذلك الترتيب بتلك الصورة ضرورة ، فان ترتيب العلوم الستة بصورة اعتباطية دون مراعاة لتلك

(٥) أنظر المرجع السابق ص ٥٤ و ٥٥ .

المبـادىء يقود الى تـرتيبها بسبعمـائة وعشـرين صورة مختلفة .(٦)

ولكن استكمال نظرتنا عن ترتيب العلوم عند اوجيست كونت يقتضي كما اشرنا الى ذلك سابقا ان ننـظر في كل علم من العلوم المـرتبة ضمن التصنيف لكي نعـرف مكـانتـه ودوره ضمن المعرفة الوضعية في مجموعها ، وسننـظر لأجل تحقيق هذا الشرط في تلك العلوم وفقا لترتيبها في تصنيف كـونت ، أي تبعـا للتـرتيب الآتي : العلوم الـريـاضيـة ، الفلك ، الفيـزيـاء ، الكيمياء ، الفيزيولوجيا ، وعلم الاجتماع .

العلوم الرياضية

أ ـ لقد بينا المبادىء التي يفسر بفضلها كونت وضع العلوم الرياضية على رأس قائمة العلوم التي يتضمنها تصنيفه . ومايهمنا الآن هو تحديد ميـدان العلوم الريـاضية من حيث مـوضوعـه ومنهجه وبيان الـدور الذى تلعبـه هذه العلوم ضمن مجموع المعرفـة الوضعيـة ، وهو الـدور الـذي يؤ هلها ، فضـلا عن المبـادىء سـالفـة الذكر ، الى ان تكون العلم الذى ينبغى أن يبدأ به ترتيب العلوم الوضعية .

كيف نعرف العلوم الرياضية ؟

بالرغم من أن العلوم الـرياضيـة هى أقدم العلوم الوضعية الا أن كونت يرى ان التعريفات التي قـدمت عن هذا العلم الى حـدود القـرن التاسع عشر لم تكن تعاريف وافية بصدد طبيعة هذا العلم ، ولا تعاريف عاكسة لمقدار أهميته ضمن مجموع المعرفة الوضعية . غير ان كونت يرى ان الرياضيات قد عرفت في زمنـه تقدمـا كافيا سواء بالنظر اليها في ذاتها كعلم او بالنظر الى اتساع مجال تـطبيقاتهـا ، وهو الأمـر الذى يساعد على تعريف أدق لهذه العلوم .

لكى يصل كونت الى هذا التعريف فانه يقبل ان ينطلق من تعريف للرياضيات يعتبره عائما وبدون دلالة ، وهذا لأن هذا التعريف يتضمن تحديداً لموضوع العلوم الرياضية يمكن ان يكون نقطة انطلاق للوصول الى تعريف أدق .

يمكن ان تعرف الرياضيات التعـريف الآتى « انها علم المقـدار ، او بتعبـير اكـثر انصـافـا بالوضعية ، انها العلم الذى يهـدف الى قياس المقادير »(٧) .

وتتجلى عدم دقة هذا التعريف وعموميته في كونه لايحدد لنا نوع القياس الذى يهدف العلم الرياضى اليه . هل هو القياس المباشر ؟ ذلك ما قد يخطر للذهن للوهلة الاولى ، عندما نعتقد ان قياس المقادير يعنى الاعتماد على مقدار مماثل لما نعتبره وحدة لكل المقادير الأخـرى التي من نفس نوعه ، الا ان هذا القياس المباشر لايتلاءم

(٦) Voir B. Kedrov : La Classification des Sciences, Les Editions du Progres (Moscou) 1977, Toue 1, P. 117

(٧) أنظر الجزء الأول من كتاب كونت سالف الذكر ج ١ ص ٦٦

ودقة واهمية الرياضية . فهو ان لم يكن يخطىء في الهدف الحقيقى للعلم الرياضي الا انه يخطىء من حيث انه يقدم بصفة المباشر موضوعا هو بالأساس غير مباشر .

ان القياس المباشر غير ممكن . وحين ناخذ مثال خط مستقيم نريد قياسه تتبين لنا صعوبات القياس المباشر . فلكى نقيس خطا مباشرا على آخر ، يكون اول الشروط هو أن نقطع مسافة هذا الخط لكى نطبق وحدة القياس على كل نقط امتداده ، ولكن هذا يكون محالا عندما تكون المسافات المراد قياسها من الكبر كالمسافات التى تفصل كوكب الأرض عن بعض الكواكب الأخرى . كما ان الخط الذى نتصور إمكان قياسه في حالة كونه خطا افقيا سيصبح محالا عند تصور الخط افقيا . فهناك دائما شروط تجعل القياس المباشر غير ممكن لأن هناك صعوبات تعترض قيامه . ومثل هذه الصعوبات التى تواجه القياس المباشر للخط المستقيم يمكن ان تنطبق على قياس المساحات والاحجام ، والسرع ، والزمان ، والقوى الخ .

وهذه الملاحظة تقودنا اذن الى أن نتبين أنه اذا كان هدف العلوم الرياضية هو القياس فان ذلك لايعنى القياس المباشر . وهذا ما يثبته في نظر كونت ، تاريخ العلوم الرياضية التي يبدو انها قد تقدمت عبر محاولاتها لتجاوز المباشر موضوعا لها كعلوم . لقد سعى الفكر البشرى باستمرار الى تحديد القياس بصورة غير مباشرة ، فأوجد سعيه ذلك وبصورة غير مباشرة العلوم الرياضية .[٨] .

هدف العلم الرياضي اذن هو القياس غير المباشر . فعند ما نصل الى قياس مقادير لا تقبل القياس المباشر نربطها بمقادير اخرى تقبل ذلك القياس ونكشف عن الأولى عن طريق العلاقة بين الاثنين . الا أن الانتقال الى المقادير التي تقبل القياس المباشر قد لا يكون يسيرا ، وقد نقيس مقاديرا بأخرى هي في حاجة بدورها الى أن تقاس بفضل علاقتها بمقادير اخرى ، وهكذا نمضى في الانتقال عبر سلسلة من القياسات غير المباشرة .

وكمثال على القياس غير المباشر المتعلق بسقوط جسم فاننا نريد ان نقيس الارتفاع الذى سقط منه الجسم والزمن الذى استغرقه سقوطه ، وهما أمران لا يمكن قياس أى منهما بصفة مباشرة . بينما يمكن قياس كل منهما بصفة غير مباشرة بالنظر الى علاقته بالآخر ، أى حين اعتبار كل منهما دالة بالنسبة للآخر .

وكذلك عندما نريد ان نقيس مسافة ما ، فلا يكون ذلك ممكنا لنا بصورة مباشرة ، فاننا نتصور هذه المسافة كجزء من شكل يمكن ان تكون عناصره الأخرى قابلة للقياس فنتمكن عندئذ من قياسها بصورة غير مباشرة . وبعبارة أخرى فان هذه المسافة تكون نتيجة لمجهود

(٨) نفس المرجع السابق ص٦٨

رياضى يزداد تعقيدا كلما كانت العناصر التي ينبغي الاعتماد عليها متعددة .

بهذه الطريقة غير المباشرة في القياس تمكن الانسان من قياس المسافات التي تفصل الكوكب الارضى عن الكواكب الأخرى ، ومن معرفة المقادير الفعلية لهذه الكواكب واشكالها الحقيقية واختلاف مساحاتها .

وهكذا نكون ، انطلاقا من ذلك التعريف العام الذى بدأنا به ، قد توصلنا الى التعريف الدقيق للعلوم الرياضية من حيث انها العلوم التى تقوم على « تحديد المقادير بعضها بواسطة البعض الآخر ، تبعا للعلاقات المضبوطة القائمة بينها » .[٩] وهذا التعريف يبين ان العلوم الرياضية ترجع دائما الى مقادير اخرى من اجل قياس المقادير المراد قياسها ، كما أنه يعنى من جهة أخرى أن العلوم الرياضية تأخذ كل المقادير المتعلقة بظاهرة ما من حيث انها مترابطة فيما بينها ، يمكن استنباط بعضها من البعض الآخر ، وتحديد العلوم الرياضية بهذه الصورة يتلاءم ودقتها ، ويتوافق مع المكانة التي تحتلها ضمن مجموع المعرفة الوضعية .

ثم ان هذا التعريف الذى يحدد العلوم الرياضية بتلك الصورة هو ، في الواقع تعريف للعلم بصفة عامة ، فهدف العلم هو البحث في علاقات الظواهر فيما بينها ، وكل العلوم الأخرى حاولت بدورها التخلص من الملاحظات المباشرة . فدراسة العلوم الرياضية وحدها كافية لان تجعلنا نكون فكرة صادقة وعميقة عما يمكن أن يكونه العلم . وفي العلوم الرياضية وحدها ينبغى ان نبحث على التعرف الدقيق على المنهج العام الذى يستخدمه الفكر الانسانى في كل ابحاثه الوضعية ، لأننا لا نجد علما آخر تتم فيه حلول المشكلات بصورة أتم ، أو تتسلسل فيه الاستنباطات بصورة اكثر إحكاما ، كما ان العلوم الرياضية هي المجال الذى اظهر فيه فكرنا دلائل قسوته ، من حيث ان الافكار التي يتناولها في هذه العلوم اكثر تجريدا[١٠] .

وهكذا تكون دقة العلوم الرياضية ، لا دقة للعلوم الرياضية في ذاتها فحسب بل النموذج الذى ينبغى ان تحتذيه كل دراسة لكي تصير علما متصفا بالروح الوضعية . فالعلم الرياضى علم ونموذج للعلم في الوقت ذاته ، « فبفضل الرياضيات بدأت الفلسفة الوضعية تكونها ، ومن العلوم الرياضية يأتينا المنهج » .[١١]

لقد تم لنا حتى الآن تعريف الرياضيات كما يراها كونت ، وبينا كذلك اهميتها بالنسبة للمعرفة الوضعية من حيث انها مصدر المنهج الوضعي بصفة عامة ، وبقى لنا ان نعرف الآن المعارف التى تشملها العلوم الرياضية ، وان

---

(٩) نفس المرجع ص ٧٠
(١٠) المرجع السابق ص ٧١
(١١) نفس المرجع ص ٨٢

نرى كيف يمكن ترتيب هذه العلوم التي تشملها العلوم الرياضيـة ترتيبـا يتوافق والمبـادىء التي سلف أن رتبنا العلوم الأساسية بناء عليها .

تتمثل وحدة العلوم الرياضية في كونها العلوم التي تهدف الى القياس المباشر للمقادير بفضل النظر في علاقة بعضها بالبعض الآخر . ولكن اختلاف العلوم الرياضية يتجلى في الجهة التي ينظر منها كل علم رياضى الى تلك المقـادير ، وفي الطريقة التي يحصل بها نتائجه .

وهكـذا يقسم كونت العلوم الـرياضيـة في البداية الى قسمين يعتبرهما على قدم المساواة من حيث اهميتهـا ، وهما الـرياضيـات المحسوسـة والرياضيات المجردة . ويعبر كونت عن الفرق بين هذين القسمين للعلوم الريـاضية بصـورة مختلفة . فأولا إن الرياضيات بصفة عامة تبحث في المقادير بواسطة العلاقات القائمة بـين هذه المقادير . ان التعيين العددى لتلك العلاقات هو موضوع الرياضيات المجردة . غير انه لابد من معرفة تلك العلاقات في ذاتها وهذا هو موضوع الرياضيات المحسوسة . ومن جهة ثانية يمكن ان نقول بان الرياضيات المحسوسة تتعلق بنوعيـة الـظواهر ، ولـذلك فـانها تتغير من نـوعية من الظواهر الى أخرى ، أما الـرياضيـات المجردة فانها مستقلة عن كل بحث في نوعية الـظواهر وهي تبحث فقط في العلاقات العددية . وهذه العلاقات يمكن ان تكون متماثلة حتى عند تغير نـوعية الـظواهر . فـالعـلاقـات التي يمكن ان نكتشفها بين علو السقوط لجسم ما وزمن هذا السقوط ، يمكن أن تكون قائمة بين التناقض في كثافة الضوء او الحرارة تبعا للمسافة التي تفصل الجسم الذى تقع انارته او اخضاعه للحرارة عن مصدر الضوء او الحرارة . ومن جهة ثالثة فان الرياضيات المحسوسة لها طابع تجريبي فيزيائى ظاهرى ، في حين ان الريـاضيات المجـردة لها طابع منطقى عقلانى ، وهكذا فالجزء المحسوس من أية مسالة رياضيـة هو الـذى يتأسس عـلى اعتبار العالم الخارجي و لا يمكن ، بالتالى حله بفضل المضى في العمليات الرياضية العقلية ، وهذا على عكس الجزء المجرد من تلك المسألة ذاتها .

تشمل الرياضيات المحسوسة علمين هما علم الهندسة والميكانيكا ، بينما تشكل الـرياضيـات المجـردة علم الحسـاب . وحيث ان المسـائـل التحليلية التي هى موضوع الحساب هى اكثر بساطة وعمومية فان علم الحساب يوضع ضمن العلوم الأسبق في الترتيب من علم الهندسة ومن الميكـانيكـا . ومـوضـوع علم الحســاب هـو المعاملات المتعلقة بالأعداد ، واما هـدفه فهـو استنبـاط قيمة الكميـات المجهـولـة بـواسـطة الكميات المعلومة[١٢] .

وتبعا لنفس المباديء التي خضع لها تـرتيب العلوم بصفـة عامـة ، فـان الهندسـة تـأتي في

(١٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥

الترتيب بعد علم الحساب ، ولكنها في هذا الترتيب ذاته قبل الميكانيكا يأتي علم الهندسة بعد الحساب لأنه أقل تجريدا وعمومية منه ، ولأنه يمكن تطبيق التحليلات الحسابية على المسائل الهندسية ، كما ان علم الهندسة ينبغي ان ينظر اليه ، في نظر اوجيست كونت ، كعلم طبيعي حقيقي لا يميزه عن العلوم الطبيعية الأخرى سوى انه اكثر بساطة ، وبالتالي اكثر كمالا كعلم من أي علم طبيعي آخر .(١٣)

وبالقياس الى الميكانيكا فان علم الهندسة يتناول بالدراسة ظواهر اكثر بساطة وعمومية ، ولذلك فهو يأتي اسبق منه في الترتيب . ان تفوق علم الهندسة على الميكانيكا يقوم في كون الظواهر التي ينظر فيها هذا العلم ، وان تكن بالمقارنة مع موضوعات علم الحساب اقرب الى ظواهر علوم الطبيعية فانها الظواهر الاكثر عمومية والاكثر بساطة من كل الظواهر الأخرى . ولا تظهر هذه الصفة في ان الاجسام الطبيعية جميعها يمكن ان تكون موضع ابحاث هندسية فحسب ، بل فضلا عن ذلك لأن الظواهر الهندسية تظل قائمة حتى لو افترضنا ان جميع ظواهر الكون في حالة سكون . وهذا بعكس علم الميكانيكيا الذي يكون عليه ان يعتبر الاجسام في خواصها الهندسية وفي خواصها الدينامية . فهو اذن علم اقل بساطة من علم الهندسة واكثر منه خصوصية في الوقت ذاته ، على اعتبار انه لا يدرس الاجسام الطبيعية الا في حالة خاصة منها هي حالة ديناميتها .(١٤)

وهكذا اذن نكون قد وضعنا الدور الذي تلعبه العلوم الرياضية بصفة عامة في المعرفة الوضعية ، فاستخدام التحليل الرياضي هو المعيار الذي يقاس به تقدم أي علم من العلوم نحو الاتصاف بصفة العلم الوضعي . فالتحليل الرياضي يمثل القاعدة العقلانية الحقيقية لمجموع المعارف الوضعية . كما اننا قد أبرزنا من جهة أخرى كيف تخضع مجموعة العلوم التي تشملها العلوم الرياضية لنفس المباديء العامة التي تخضع لها العلوم الأخرى من حيث ترتيبنا لها ، بما ان العلوم الرياضية هي علم نموذج بالنسبة لكل العلوم الأخرى فانها توضع في أول قائمة العلوم المرتبة ، ولكن ضمن العلوم الرياضية ذاتها . وتبعا لنفس المباديء والترتيب ، فان الحساب يأتي قبل علم الهندسة ، والهندسة تاتي قبل الميكانيكا ، فالميكانيكا تأتي ضمن العلوم الرياضية آخر هذه العلوم في الترتيب ، لأن الظواهر التي يدرسها هذا العلم هي في الوقت ذاته ، وبطبيعتها اكثر تعقدا واكثر خصوصية من ظواهر الهندسة . ودلالة التعقد والخصوصية ان الظواهر الهندسية يمكن دراستها في كل الأحوال في استقلال تام عن الاعتبارات الميكانيكية ، بينما لا يمكن دراسة الظواهر الميكانيكية دون اعتبارات هندسية ،

(١٣) نفس المرجع ص ١٥٤

(١٤) نفس المرجع ص ١٥٥ .

وهذا لأن شكل الأجسام يؤثر حتما في ظواهر حركة الاجسام وتوازنها .(١٥)

ـ علم الفلك

ياتي علم الفلك ثانيا في الترتيب بعد العلوم الرياضية . ويحتل علم الفلك هذه المكانة نظرا لطبيعة موضوعه ، ولتقدمه في التاريخ من حيث التخلص من الاعتبارات اللاهوتية والميتافيزيقية ، ثم لأن هذا العلم يمكن ان يكون نموذجا للعلوم الطبيعية الاخرى من حيث اعتماده على التحليل الرياضي .

الظواهر الفلكية اكثر بساطة وعمومية من الظواهر الطبيية الأخرى ، ويمكننا ان نقف على ذلك من خلال التعريف الذي يحدده اوغست كونت للفلك ، والذي يحدد فيه جملة الظواهر التي يختص هذا العلم بدارستها . يقول كونت « اعتقد انني استطيع ان أعرف الفلك بدقة ، ولكن بصورة واسعة مع ذلك ، حين ارجع اليه موضوع اكتشاف قوانين الظواهر الهندسية والظواهر الميكانيكية المتعلقة بالاجسام السماوية » .(١٦)

ان بساطة هذه الظواهر التي يدرسها علم الفلك تبرز عندما ننظر في العلاقة الممكنة لها بالظواهر التي تدرسها العلوم الأخرى . فان علم الفلك يبدو مستقلا عن جميع العلوم الأخرى ، عدا اعتماده على التحليل الرياضي ، ذلك لان الظواهر الفيزيائية والكيميائية والفيزيولوجية لا تمارس أي نوع من التأثير على الظواهر الفلكية . وعلى العكس من ذلك فان الظواهر الفيزيائية والكيميائية والفيزيولوجية بل وحتى الظواهر المجتمعية ، تابعة بدرجات مختلفة للظواهر الفلكية ، بصورة مستقلة عن التناسق المتبادل بينها ، فالعلوم الأساسية الأخرى لا يمكن ان يكون لها حقا طابع عقلاني ، الا اذا اتخذت كقاعدة لها معرفة دقيقة بالقوانين الفلكية(١٧) وهكذا فان قوانين الظواهر الفلكية تعتبر قوانين أعم من قوانين الظواهر التي تدرسها العلوم اللاحقة في الترتيب على علم الفلك ، فيفسر ذلك ان يكون علم الفلك سابقا عليها في الترتيب .

ويمكن ان يزيد فهمنا لهذا الأمر ذاته عندما نعرف الطريقة التي يصل بها علم الفلك الى ظواهره ، ثم الى اكتشاف قوانين هذه الظواهر ، فقد يبدو علم الفلك نموذجا ممتازا للعلم الوضعي لأنه علم طبيعي ومجرد في آن واحد ، ولأن هذين الطابعين يوجدان فيه بصفة واضحة على حد سواء ، في حين أن هذا الامر لم يتحقق في العلوم الرياضية ، لان نصيب الملاحظة في هذا العلم ضئيل جدا(١٨) ولكن ما يميز علم

(١٥) أنظر المرجع السابق ص ٢٢٦
(١٦) نفس المرجع ص ٣٠٣ .
(١٧) نفس المرجع ص ٣٠٩
(١٨) نفس المرجع ص ٣٠٦

الفلك عن العلوم الرياضية هو أن الفلك يصل الى ظواهره بواسطة الملاحظة . غير ان الملاحظة في علم الفلك محدودة بكونها لا يمكن ان تكون الا ملاحظة بواسطة حاسة واحدة هي حاسة الرؤ ية . وكل بحث فلكي لا يمكن ان نرجعه في نهاية الامر الى ملاحظات بصرية بسيطة ، هو بالضرورة بحث مستحيل بالنسبة الينا . فالظواهر المتعلقة بالأجرام السماوية هي ، بالتالي ، الظواهر التي نلاحظها في اقل الشروط تنوعا ، ولهذا الامر اهميته من حيث انه يوقفنا على الحدود التي تقف عندها امكانيات التجربة في علم الفلك ، فالواقع هو اننا لا نستطيع ان نجرب في علم الفلك ، ولا نستطيع فوق ذلك ان نلاحظ ظواهر الأجرام السماوية إلا بالصورة التي نعتمد فيها على ملاحظات بصرية بسيطة . فاننا نستطيع ان نفهم أشكال ، ومسافات ومقادير وحركات الاجرام السماوية ، في حين أننا لا نستطيع ابدا ، مهما تكن وسيلتنا ان نصل الى دراسة تركيبها الكيميائي او الى دراسة بيئتها المعدنية ، ولا نستطيع بالأولى ان نصل الى دراسة الاجسام العضوية التي تحيا على سطحها[١٩] . ان الملاحظة التي يعتمدها علم الفلك في دراسة الظواهر المتعلقة بالاجرام السماوية ، تقف عند حدود ملاحظة الظواهر الهندسية والظواهر الميكانيكية لهذه الاجرام ، أي كل ما يتعلق بالشكل والحركة .

الملاحظة في علم الفلك محدودة ، واما التجربة فهي . نحيلة في نظر كونت . فالتجريب بصفة عامة يكون على عدة مستويات يمكن ان ندمج ضمنها الملاحظة باعتبارها الشكل الأولي للاتصال بالظاهرة ، **وهكذا فان ملاحظاتنا للظواهر يمكن ان تكون على ثلاثة مستويات .**

الأول يعني الملاحظة بمعناها الدقيق ، أي الامتحان المباشر للظواهر كما تمثل لنا بصفة طبيعية .

وأما **الثاني** وهو الذي يمكن ان ندعوه بالتجريب ، فهو مشاهدة الظواهر بعد أن نخضعها لتحوير بفضل شروط مصطنعة من جانبنا نهدف بها الى دراسة جوانب من تلك الظواهر .

وأما المستوى **الثالث** والأخير فانه يتمثل في المقارنات التي نقوم بها بين الظواهر التي نلاحظها وبين ظواهر أخرى تماثلها . ان العلوم التي تدرس الأجسام العضوية وهي العلوم التي تدرس الظواهر الاكثر تعقيدا ، تقسم بكونها العلوم التي يمكن بها الجمع بين المستويات الثلاثة السالفة الذكر من حيث النظر في الظواهر التي هي موضوع دراستها . اما علم الفلك ، فانه على عكس هذه العلوم لا يمكن ان يعتمد إلا على الطريقة الأولى في البحث ، أي تلك التي دعوناها ملاحظة بالمعنى الدقيق للكلمة ، أما

(١٩) نفس المرجع ص ٣٠١

التجريب بالمعنى الثاني فهو مستحيل فيه لأننا غير قادرين على التغيير من شروط حدوث الظواهر المتعلقة بالأجرام . واما المقارنة فهي غير ممكنة لان ذلك يقتضي ان نكون قادرين على ملاحظة الظواهر المتعلقة بمجموعات أخرى فير مجموعتنا الشمسية ، وهذا الامر لا يبدو ممكنا .(٢٠)

وحيث ان علم الفلك يتميز عن العلوم الرياضية من جهة أولى بكونه يستخدم الملاحظة طريقة ، وحيث انه يتميز عن باقي العلوم الطبيعية ، من جهة أخرى بكونه يقف عند حدود الملاحظة دون أن يستخدم الى جانب ذلك طرق التجريب الأخرى ، فان هذا يجعله من حيث مكانته كعلم في مكانة بين العلوم الرياضية وبين العلوم الطبيعية الأخري . ويؤهله لذلك ايضا انه حين يقف عند حدود ملاحظة الظواهر وفقا لملاحظات بصرية بسيطة ، فهو يستعين بصورة قوية لا ستخلاص قوانين تلك الظواهر على التحليل الرياضي ، ان الملاحظات التي يعتمد عليها علم الفلك لا يمكن ان تجعل العالم يرى بصفة مباشرة شكل الارض او المنحنى الذي يرسمه كوكب ما . فالاستنتاجات الدقيقة في هدا الشأن تعتمد بقوة على التحليل الرياضي ، وهكذا فالوقوف عند الملاحظة بصدد الظواهر دون التجريب عليها ، والاعتماد القوي على البرهان الرياضي من اجل استخلاص القوانين المتعلقة بتلك الظواهر ، هما الخاصيتان اللتان اذ يجمع بينهما علم الفلك يجعلانه ، من جهة أولى ، في مكانة بين العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية الأخرى ، كما يجعلان منه من جهة اخرى ، نموذجا للعلوم الطبيعية الأخرى من حيث تطبيقه للمنهج الرياضي في دراسة ظواهره .

والواقع ان كونت وهو يقدم لنا ضمن تصنيفه للعلوم هذه النظرة عن علم الفلك ، يعكس لنا بذلك عن الواقع الموضوعي لهذا العلم ضمن مجموع المعرفة الوضعية . ولكن الصورة التي يقدم لنا بها علم الاجتماع تعكس من جهة أخرى وجهة نظر كونت في حدود المنهج العلمي في علم الفلك . فالتجريب في هذا العلم غير ممكن في نظر كونت ، لأننا لا نستطيع أن نخضع صيرورة الطواهر الفلكية لشروط - مصطنعة يهيؤ ها الباحث من طرفه لكي يتحقق من صدق فرض علمي . كما أننا خارج الظواهر الهندسية والظواهر الميكانيكية للأجرام السماوية لا نستطيع ان نتجاوز ذلك لكي نقف على تركيبها الكيميائي او على بنيتها المعدنية او على شروطها المناخية . غير انه يبدو ان تقدم الابحاث العلمية وتقدم وسائل هذه الابحاث من حيث القوة والفعالية والدقة ، قد أدى بعلم الفلك الى ان يتجاوز اليوم الصورة التي حددها له أو جيست كونت . لقد غدا من الممكن اليوم لعلماء الفلك ، بعد ملاحظاتهم للظواهر ، ان يضعوا

---

(٢٠) نفس المرجع ص٣٠٣

فروضا علمية يسعون الى تحقيقها بالوسائل التجريبية ، كما أنه أصبح من الممكن تجاوز الوقوف عند الظواهر الهندسية والميكانيكية للأجرام السماوية للتعرف على ظواهرها الكيميائية وشروطها المناخية . حقا ان مثل هذه التجارب لم تصل بعد الى درجة قصوى من التطور ، ولكن امكانها يغير نظرتنا الى علم الفلك كما تصوره كونت ، كما يغير نظرتنا الى علاقة هذا العلم بالعلوم الطبيعية الأخرى . فمن الناحية الأولى تعد التجربة مستحيلة في علم الفلك ، ولم يعد هذا العلم ينتقل في كل الاحوال بصفة مباشرة من الملاحظة الى البرهان الرياضي . ومن الناحية الثانية فان التجارب التي تجري اليوم بصدد الأجرام السماوية مهما تكن حدودها دنيا ، تجعل علم الفلك يتعاون مع العلوم الأخرى ، تعاونا متبادلا لايفيدها فيه فحسب ، بل ويستفيد منها ايضا ، وهذا التجاوز في واقع علم الفلك للصورة التي قدمها عنه كونت في القرن التاسع لا يغير مع ذلك من شيء في القيمة المعرفية لهذا العلم ضمن مجموع المعرفة الوضعية .

هناك مسألة اخيرة يتعرض لها كونت هي تقسيمه لعلم الفلك الى قسمين رئيسين تبعا لطبيعة الظواهر التي يدرسها هذا العلم . وهكذا فانه يميز بين علم الفلك الذي يدرس الظواهر الهندسية للاجرام السمارية وبين علم الفلك الذي يدرس الظواهر الميكانيكية لهذه الأجرام . ان الدراسة الهندسية تهتم بتحديد شكل ومقادير الظواهر الفلكية ، ولذلك فهي أبسط وأعم ، ولذا فهي تكون من حيث التاريخ أسبق في تخطي المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية ، كما تكون بالتالي من حيث ترتيب المعارف أسبق من الدراسة الميكانيكية للظواهر الفلكية لأن هذه الدراسة الأخيرة اكثر تعقيدا وخصوصية .

تلك اجمالا اهمية علم الفلك بالنسبة لمجموع المعرفة الوضعية . والواقع كما يقول ليفي بريل « فانه لم يكن أي علم آخر اشد تأثيرا من علم الفلك في تطور العقل الانساني . ان العصور الكبرى لعلم الفلك هي ايضا العصور الكبرى للفلسفة الكونية . ولقد كانت المقاومة اليائسة التي قابلت بها العقيدة اللاهوتية كشف « جاليلي » تعبر عن شعور خفي صادق بما سيفضي اليه هذا الكشف من نتائج لأن التسليم بان الأرض ليست مركزا للعالم كان معناه القيام بالخطوة الأولى والحاسمة في الطريق التي تبتعد بالناس عن الفكرة الوهمية القائلة بان الانسان مركز الكون ، وكان معناه أن الانسان قد عقد العزم على ان يستعيض يوما ما ، بوجهة النظر النسبية في الفلسفة عن وجهة النظر المطلقة ، وكان معناه ادخال التفكير الوضعي اليوم في البحوث الطبيعية النظرية ، وغدا في البحث الاخلاقي النظرى .[٢١]

(٢١) أنظر ليفي بريل : فلسفة أوجيست كونت ، ترجمة : محمود قاسم السيد محمد بدوي ـ المكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ص ١٥٩ .

العلم الفيزيائي

ترتب العلوم عند او جيست كونت تبعا لبلوغها المرحلة الوضعية من تطورها . والعلم الفيزيائي من هذه الناحية ياتي في الترتيب بعد الفلك . ذلك ان علم الفلك من حيث هو العلم الذي يدرس ظواهر الاجرام من الناحية الهندسية ، قد تطور نحو المرحلة الوضعية منذ نشأة مدرسة الاسكندرية . اما الفلك من حيث هو دراسة للجانب الميكانيكي للظواهر ، فانه لم يبدأ تطوره الفعلي نحو المرحلة الوضعية إلا بقرنين قبل زمن كونت . ولكنه مع ذلك ، قد كان اول العلوم الطبيعية الى التطور واسبقها ايذانا بتطبيق الروح الوضعية في دراسة مختلف نظم الظواهر ، والفيزياء تلي علم الفلك مباشرة ، وهي قد بدأت تطورها نحو بلوغ المرحلة الوضعية في القرنين السابقين لأوغست كونت ، واستمر تطورها في هذا الاتجاه الى زمنه .

يرى كونت أنه ليس من السهل تعريف العلم الفيزيائي بما يميزه من حيث موضوعه وبصورة دقيقة عن العلوم الأخرى التي تدرس ظواهر الطبيعة بما فيها الظواهر العضوية وظواهر الاجسام غير العضوية .

من الواضح ، بهذا الصدد ان تمييزا أوليا بسيطا سيجعلنا نميز في العلوم الطبيعية بين تلك التي تدرس ظواهر الاجسام العضوية وتلك التي تهتم بدراسة الاجسام العضوية ، ومن هذه الناحية فانه يسهل علينا ان نضع الفيزياء ضمن قائمة العلوم التي تدرس الاجسام غير العضوية وهي علوم الفلك والفيزياء والكيمياء . وضمن هذه المجموعة من العلوم يسهل علينا ايضا ان نميز بصورة أخرى بين الفيزياء وعلم الفلك معتبرين ان الفلك يهتم بدراسة الظواهر الهندسية والميكانيكية المتعلقة بالأجرام السماوية ، وهي الظواهر التي لا يمكننا ان نلاحظها الا ضمن نطاق محدود ، في حين يلعب التحليل الرياضي دورا كبيرا في استخلاص قوانينها ، معتبرين ان الفيزياء تدرس الظواهر الارضية . غير انه لا يمكن ان نميز بنفس السهولة بين الفيزياء والكيمياء لأنهما علمان يتعلقان معا بالظوهر الارضية ، هذا فضلا عن كون كثير من الاكتشافات العلمية تتعلق بالعلمين معا وتؤدي الى ترابطهما ، ومع ذلك فانه يمكن التمييز بين هذين العلمين من وجهات نظر ثلاثة ، وذلك وفقا لنفس المبادىء ألعامة التي خضع لها ترتيب العلوم .

فاولا : ان الظواهر التي يدرسها العلم الفيزيائي أعم من الظواهر التي تدرسها الكيمياء ، لأن ظواهر الفيزياء تهم كل الاجسام ، في حين ان ظواهر الكيمياء تتعلق ببعض الظواهر ، وبتعبير آخر ، فان كل الاجسام الطبيعية تظهر خواصا تتعلق بالثقل او بالصوت او بالضوء او بالكهرباء ، وهذا هو ما يهم الفيزياء ، اما ما تتعلق به الكيمياء فهو خاصيات نوعية تتغير من جوهر الى آخر ، وتغير

اكثر من ذلك مع كل تآلف جديد بين عناصر طبيعية .

ثانيا : يمكن ان نميز بين الفيزياء والكيمياء من حيث ان العلم الاول يدرس الظواهر المتعلقة بكتل الاجسام في حين يدرس العلم الثاني الظواهر المتعلقة بالجزئيات .

ثالثا : يتعلق كل من العمين بدراسة العلاقات التي تربط الاجسام الطبيعية بعضها بالبعض الآخر ، بينما تتعلق الفيزياء بدراسة العلاقات المتبادلة التي لا تؤثر في تركيب الاجسام الطبيعية ، فان الكيمياء تتعلق على العكس من ذلك بدراسة العلاقات المتبادلة بين الاشياء في الصورة التي تؤدي فيها هذه العلاقات الى تغيير في تركيب الموضوعات التي تدرسها .

هذه التمييزات هي التي تساعد كونت على تعريف علم الفيزياء بتحديد موضوعه وهدفه المميزين له .

فمن حيث الموضوع يرى كونت ان علم الفيزياء يقوم على دراسة القوانين التي تحكم الخصائص العامة للأجسام منظورا اليها من حيث هي كتلة ، وهذا ضمن الشروط التي لا تمس تغيير تركيب جزئيات وحالات اندماجها .

اما من حيث الهدف ، فان ما تهدف اليه النظريات الفيزيائية في نظر كونت هوان تحقق باكبر قدر ممكن من الضبط توقع الظواهر التي تصدر عن الاجسام ضمن شروط معينة معطاة .[٢٢]

حينئذ وتبعا لهذا التحديد ، **يبرز بوضوح الفرق بين علم الفيزياء وعلم الكيمياء** ويصبح واضحا لنا وضع علم الفيزياء في ترتيب العلوم بأنه اسبق من علم الكيمياء . فظواهر الفيزياء وفقا للتحديد السالف الذكر تبدو اقل بساطة من الظواهر الفلكية . فلقد رأينا ان الفلك يدرس ظواهر الاجرام من جانبيها الهندسي والميكانيكي ، وأنه لا يلاحظ هذه الظواهر الا في شروط محدودة هي الملاحظة ـ البصرية ، اما الفيزياء فانها تصل الى ظواهرها بواسطة كل الحواس وتعرف فيها بالتالي كل الشروط العامة التي تميز وجودها الواقعي ، فهي تنظر اذن في الظواهر في شروط اعقد من تلك التي يعرف فيها الفلك ظواهره . ولكن الفيزياء من ناحية أخرى تنظر في ظواهر الطبيعة في شروط ابسط من تلك التي تنظر بها الكيمياء في هذه الظواهر فالفيزياء كما رأينا تنظر في العلاقات المتبادلة بين الظواهر في صورتها العامة حين لا يكون لهذه العلاقات اثر على تركيب الاشياء ، بينما تنظر الكيمياء في العلاقات المتبادلة التي يؤثر وجودها على بنية الأشياء . وهكذا فان العلم الفيزيائي ، بالنظر الى موضوعه وهدفه معا ، يقع في الترتيب تاليا لعلم الفلك وسابقا للكيمياء .

ويمكن من جهة اخرى تفسير موقع الفيزياء

(٢٢) كتاب أوجيست كونت السالف الذكر ج . (٢) ص ٤٤٦ .

من ترتيب العلوم من وجهة نظر المنهج . فالمنهج في العلم الفيزيائي منهج تجريبي ، لا غنى له عن خطوة التجريب بالمعنى الذي يكون به التجريب تدخلا في شروط الظواهر من اجل احداثها ضمن شروط مصطنعة تمكن من التحقق من الفروض . المنهج في العلم الفيزيائي لا يقف ، كما هو الامر في علم الفلك ، عند حدود الملاحظة البصرية ولا ينتقل مباشرة من هذه الملاحظة الى استخلاص القوانين بفضل البرهان الرياضي . كما ان المنهج التجريبي يطبق في العلم الفيزيائي بالمستويات الثلاثة التي سلف لنا ذكرها جميعا . ملاحظة الظواهر كما هي ، التأثير في هذه الظواهر باحداثها وفقا لشروط يصطنعها المجرب ، والمقارنة حقا ، ان المنهج المقارن لا يطبق في الفيزياء الا في حدود دنيا عندما يكون الامر متعلقا بصفة خاصة بمقارنة الظواهر الفيزيائية بالظواهر الفلكية . ولكن الملاحظة والتجريب بمعناهما الدقيق الذي سلف ذكره يطبقان في الفيزياء ، وذلك لاننا نستطيع ان نخضع الظواهر لشروط نصطنعها دون أن نجد كما كان الامر في حالة الفلك ، حدودا لامكان هذه التجربة ، وهذا التطبيق للتجربة بمعناها الكامل هو الذي يميز من حيث المنهج بين الفيزياء والفلك ، وهو الذي يجعل الفيزياء تالية للفلك في ترتيب العلوم .

على ان هنالك جانبا منهجيا آخر يتمايز فيه العلمان ، وهو تطبيق التحليل الرياضي . ان البساطة النسبية للظواهر الفيزيائية ، بالقياس الى الظواهر التي تدرسها العلوم اللاحقة في الترتيب تمكن من تطبيق التحليل الرياضي في دراسة هذه الظواهر . الا ان هذا التطبيق يكون من جهة اخرى ضمن التي تسمح لنا بملاحظة ملاحظة تجريبية ، أي ان تطبيق التحليل الرياضي لا يقوم ابدا مقام التجريب كخطوة لا غنى عنها في منهج العلم الفيزيائي . والتحليل الرياضي اذن لا يتم تطبيقه بالصورة الكاملة التي يطبق بها في علم الفلك .

الجانب المنهجي الثالث الذي يميز علم الفيزياء عن الفلك ، هو دور الفرضية العلمية في كل منهما . فالفرضية في الفلك اكثر بساطة ، لأن تدخل المنهج الرياضي فيها اقوى ، ولكنها في العلم الفيزيائي اقل بساطة واكثر اهمية من حيث دورها . ان ما يميز بين الفرضية في علم الفلك وبين الفرضية في الفيزياء انها في الفيزياء لا يمكن ان تستغني عن التحقق التجريبي منها . وكل فرضية لا تخضع لهذا الشرط لن تكون في الواقع الا مصدر بلبلة للفكر العلمي . كما ان كل فرضية تتجاوز اهداف البحث الوضعي ، من حيث الاقتصار على البحث في قوانين الظواهر دون عللها الاولى والمطلقة لن تكون بدورها الا مصدر تشويش لبقدم البحث الوضعي ، ولن يكون وجود مثل هذه الفرضيات في العلم إلا دلالة على ان هذا العلم لن يتخلص بعد من آثار المرحلة الميتافيزيقية . فكل فرضية علمية ينبغي ان تقف عند حدود البحث في قوانين الظواهر ، دون ان تجاوز ذلك

الى البحث في انماط انتاجها ، وذلك من اجل ان تكون هذه الفرضية قابلة للحكم عليها[٢٣] .

هذه المستويات المختلفة التي ميزتا فيها بين الفلك والفيزياء تفسر جميعها مكانة الفيزياء ضمن المعرفة الوضعية ، فالفيزياء كما رأينا تدرس ظواهر اقل بساطة من تلك التي يدرسها علم الفلك ، كما انها أقل من هذا العلم تطبيقا للتحليل الرياضي في دراسة ظواهرها . لذلك فان الفيزياء تاتي مرتبة بعد الفلك لهذه الاعتبارات المنهجية ، فضلا عن أن الفيزياء في دراستها للظواهر ، ومهما تكن هذه الظواهر بسيطة ، تعتبر كل العوامل الموثرة في الظاهرة بما فيها تأثير العوامل الآتية من الظواهر الفلكية . لذلك فالفيزياء لا يمكن ان تقوم قبل علم الفلك بوصفه نموذجا وقاعدة لها في الوقت الحاضر ،

ولكن الفيزياء تأتي في الترتيب سابقة على الكيمياء وهذا لأن دراسة الخواص العامة للاجسام الطبيعية ، تلك الخصائص التي تظهرها الاجسام في كل حالاتها ، مع اختلاف في الدرجة فقط ، تكون أسبق من دراسة التغيرات التي تحدث في تركيب الاجسام نتيجة لعلاقاتها المتبادلة ، وللتأليفات التي يمكن ان تقوم عند تفاعل عناصر طبيعية مختلفة . واذا كانت الفيزياء لهذا الاعتبار اسبق في الترتيب من الكيمياء ، فهي تكون لنفس الاعتبار اسبق من العلوم التي تدرس الاجسام العضوية ، وهذا لأن جميع الاجسام العضوية خاضعة بالضرورة لقوانين فيزيائية .

وكما كان الشأن بالنسبة لجميع العلوم ، فان كونت يقسم العلم الفيزيائي الى اقسام تتفق ونوع الظواهر التي يدرسها كل قسم ويتم ترتيبها تبعا لبساطة الظواهر التي يدرسها . فالظواهر التي يدرسها العلم الفيزيائي ليست جميعها على نفس الدرجة من البساطة والعمومية . وبصفة عامة فاننا يمكن ان نلاحظ ان الظواهر الفيزيائية على علاقة بالظواهر الفلكية من جهة أولى وبالظواهر الكيميائية من جهة ثانية . والظواهر الفيزيائية الأكثر بساطة ، تلك التي يمكن ان يتقدم بصددها المنهج الوضعي بصورة أسرع ، هي الظواهر الأقرب الى الظواهر الفلكية ، في حين أن أعقد ظواهر الفيزياء هي التي تكون أشدها صلة بالظواهر الكيميائية .

وهكذا وفقا لمبدأ الانتقال من الابسط الى الاقل بساطة فان العلوم الفرعية للعلم الفيزيائي يمكن ان ترتب كالتالي : العلم الذي يدرس ظواهر الجاذبية ، ثم العلم المتعلق بالظواهر الحرارية ، ثم العلم الذي يدرس الاصوات ، فالعلم الذي يدرس الظواهر البصرية ، واخيرا العلم الذي يتعلق بدراسة الظواهر الكهربية التي لا يفصل عنها كونت الظواهر المغيطيسية .

(٢٣) راجع المرجع السابق ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

العلم الكيميائي

عندما نصل الى علم الكيمياء نكون قد بلغنا من حيث ترتيب العلوم الى العلم الذي تختتم به قائمة العلوم التي تدرس الأجسام غير العضوية . وهذا العلم يأتي في آخر قائمة هذه العلوم ، لأنه يدرس اكثر ظواهر الاجسام غير العضوية تعقدا .

يقع علم الكيمياء في ترتيب العلوم بين العلم الفيزيائي من جهة ، والعلوم التي تدرس الكائنات العضوية من جهة أخرى . وهذا الموقع تفسره طبيعة الموضوع الذي تدرسه الكيمياء كما تفسره المرحلة التي بلغها من حيث تطبيقه للمنهج الوضعي ، والدرجة التي يمكن ان يبلغها في تطبيقه لهذا المنهج .

لقد سلف لنا ونحن بصدد الحديث عن علم الفيزياء أن قارنا بين هذا العلم وبين الكيمياء مبرزين بساطة الظواهر الفيزيائية بالنسبة الى الظواهر الكيميائية ، من حيث ان الظواهر الفيزيائية تتمثل في أعم خواص الاجسام المادية تلك التي لا تعرف الا تغيرا نسبيا مهما تكن العلاقات المتبادلة التي تدخل فيها هذه الاجسام ، بينما تدرس الكيمياء التغيرات التي يعرفها تركيب الاجسام نتيجة لتفاعلها المتبادل ، لذلك فان تبعية الكيمياء للعلم الفيزيائي واضحة وموقع الكيمياء بعد الفيزياء في ترتيب العلوم واضح كذلك .

أما بصدد علاقة الكيمياء بعلم الحياة وسبقها له في الترتيب فانه يمكن من حيث بساطة الظواهر ان يفسر كالآتي : ان الأجسام المادية لا تظهر قربا من حالة الحياة الا في الحالة التي يؤثر فيها بعضها في البعض الاخر ، فيؤدي هذا التأثير المتبادل الى تغيرات في تركيب تلك الاجسام . لذلك فان علم الكيمياء الذي يدرس هذه الظواهر سيكون اقرب علوم الاجسام غير العضوية الى علوم الاجسام العضوية . وبقدر ما يفسر هذا العامل مكانة علم الكيمياء ضمن مجموع العلوم ، فانه يفسر في الوقت ذاته التأخر التاريخي لسيادة الروح الوضعية في دراسة الظواهر الكيميائية ، كما يفسر لماذا لا يقع تطبيق المنهج الوضعي في صورته التامة التي نجده عليها في الفلك ثم بعد ذلك في الفيزياء .

ولكن نريد وضعية علم الكيمياء بيانا نسوق التعريف الذي يقدمه عنه كونت والذي يحدد فيه كما يفعل ذلك بالنسبة لسائر العلوم موضوع وهدف هذا العلم ، يقول كونت : « ان الهدف العام للكيمياء هو دراسة قوانين ظواهر الامتزاج والتحليل اللذين ينتجان عن الفعل الجزيئي والنوعي المتبادل بين الجواهر سواء كانت طبيعية او اصطناعية » .(٢٤)

وهذا لتعريف للكيمياء يوضح اذن مرتبة الكيمياء بعد الفيزياء وسبقها لعلوم الحياة ، وهذا لأن ظواهر الامتزاج والتحليل هي اعقد

(٢٤) المرجع السابق ص ٥٧١ .

من الظواهر التي تدرسها الفيزياء ولكنها اقرب الظواهر غير العضوية الى الظواهر العضوية . وهـذه الطبيعـة التي يتميـز بهـا مـوضـوع علم الكيميـاء تنعكس آثـارهـا عـلى حـالـة المنهـج الوضعي بهذا العلم .

فلقد رأينا ونحن ننتقل من علم الفلك الى الفيزياء أن المنهج يتعقد بتعقد الظواهر ، فلقد كـان الفلك يعتمد عـلى الملاحـظات البصريـة البسيطة ، في حين وجدنا ان الفيزياء تضيف الى الاعتماد على حاسة البصر اعتمادها على حواس اخرى وخاصة حاستي السمـع واللمس . اما الكيمياء فانها تعتمد في معاينتها لظواهرها على جميع الحواس المتوفرة لـلانسان ، اي بـاضافـة حاستي التذوق والشم . ومعنى هذا ان الملاحظة تستخدم في الكيمياء بمعناها الكامل لأنها تعتمد على جميع الممكنات الطبيعية للانسان من اجل الملاحظة .

ومن جهـة اخرى فـان التجريب يلعب في الكيميـاء دورا كبيـرا ، وهـذا لان الـظواهـر الكيميائية تلاحظ في الغالب في شروط مصطنعة والتقدم الذي حققه علم الكيمياء ساعد فيه الى حد كبير قيام تجريب على ظواهره .

والمقــارنــة وان تكن منهـجـا يخص علوم الكائنات العضوية فانها تستخدم في الكيمياء . وهكذا نجد ان المنهج التجريبي الذي سبق لنا ان ذكرنا طرقه الثلاثة يستخـدم بهذه الـطرق جميعها في علم الكيمياء ، هذا فضلا عن كون الكيمياء تضيف الى تلك المناهج العامة طرقـا خـاصة بهـا تتمثل في طـريقتي التحليل الـذي يبحث في المهناصر المكـونة لكـل جوهـر مادي والتركيب الذي يبحث في تـأليف الجوهـر من العناصر . وتتميز الكيمياء من حيث المنهج ايضا بعـلاقتها بـالمنهـج الـريـاضي ، ان استخـدام التحليـل الريـاضي معيـار من معـايـير المنهـج الوضعي ، وقد رأينا ان هذا المنهج مستخدم في الفيزياء . الا انه بالنظر الى تعقد الظواهر التي يدرسها علم الكيمياء ، فاننا لا ينبغي ان ننتظر تطبيقا مماثلا للتحليـل الريـاضي للصورة التي يطبق بها في علم الفلك او في الفيـزياء الا ان يكون ذلك من مجرد الاستعاضـة عن المفاهيم الوضعية بالمفاهيم المجردة ، او ان يكون مجرد تعبير جبري بسيط عن اكتشاف الظواهر .(٢٥) ولكن هذه الحدود التي يضعهـا كونت لتـطبيق التحليل الرياضي على ظواهر الكيمياء تعكس واقع هذه الظواهر ولا تدل على ان كونت يتخلى عن اعتباره للتحليل الرياضي كمعيار لانصاف أي علم بالوضعية .

تلك اذن هي مجمل الاعتبارات التي تفسـر وضعيـة علم الكيمياء ضمن مجمـوع المعـرفـة الوضعية ودوره ضمن هذه المعرفة .

البيولوجيا :

نستطيع ان نؤكد ان العلوم عند أوجيست كونت مرتبة ، فضلا عن المبادىء السالفة الذكر

(٢٥) راجع المرجع السابق ص:٥٧٨

تبعا لقرب الظواهر التي تدرسها من الانسان ، وهذا لأنه كلما اقتربت الدراسة الوضعية من الانسان وجدت نفسها امام ظواهر اكثر تعقيدا . ان الظواهر الفلكية تؤثر بلاشك في الظواهر الارضية ، ولكن تأثيرها بالنسبة للانسان ابعد من تأثير الظواهر الفيزيائية . فالانسان خاضع للقوانين الفيزيائيةالمتعلقة بالظواهر الارضية اكثر من خضوعه للقوانين الفلكية المتعلقة بظواهر الاجرام السماوية . وسيبرز هذا التدرج في القرب من الانسان عندما نصل الى الظواهر الكيميائية ، ولكنه يظهر في صورة اقرب من هذه العلوم جميعا عندما نصل الى العلوم التي تدرس الكائنات العضوية ، فالانسان ليس متأثرا بقوانين الظواهر العضوية فحسب ، بل انه هو ذاته كائن عضوي يخضع بصفة مباشرة لتلك القوانين . لذلك كانت الظواهر العضوية اكثر تعقيدا من الظواهر التي تدرسها العلوم السابقة في الترتيب . وهذا فضلا عن تعقدها بفعل المبادىء التي سلف لنا ذكرها ، من حيث ان معرفتنا بالظواهر العضوية تفترض معرفتنا بالظواهر الفلكية والفيزيائية والكيمائية ، في حين ان معرفتنا هي بهذه الظواهر الأخيرة .

ويمكن النظر الى العلم البيولوجي بوصفه يمثل نقلة كيفية في سلسلة المعارف الوضعية ، وهذا لأنا عند علم البيولوجيا ننتقل من عالم الظواهر اللاعضوية الى عالم الحياة : فالبيولوجيا تمثل من هذه الناحيه حلقة للربط بين اكثر جهات المعرفة تباعدا طواهر الطبيعة وظواهر الانسان . [٢٦]

بالنظر الى هذا التعقيد ولهذه المكانة الخاصة التي تحتلها علوم الظواهر العضوية فانه لم يكن امرا غريبا ان يتأخر بلوغ هذه العلوم للمرحلة الوضعية من تطورها ، وان تكون لاحقة في ذلك للعلوم التي تدرس الظواهر الوضعية . ان المسار الذي اتبعه تطور المعرفة الوضعية مخالف لذلك الذي كان الفكر الميتافيزيقي يسير عليه . فالفكر الميتافيزيقي كان يريد الوصول الى الكون انطلاقا من الانسان ، في حين ان الفكر الوضعي يتدرج نحو فهم الانسان بمحاولته الانطلاق من ظواهر الكون والتدرج فيها من أبسطها الى أقلها بساطة ، ومن اكثرها بعدا عن الانسان الى اكثرها قربا منه « فالروح الحقيقية للفلسفة اللاهوتية او للفلسفة الميتافيزيقية تقوم في تفسير ظواهر العالم الخارجي ، على ان تعتبر كمبدأ شعورنا المباشر بالظواهر الانسانية ، في حين ان الفلسفة الوضعية تتميز على الدوام بالتبعية الضرورية والعقلانية لمفهوم الانسان فيها الى مفهوم العالم » . [٢٧]

وهذا الفرق بين الفلسفتين اللاهوتية والميتافيزيقية من جهة ، والوضعية من جهة اخرى نتج عنه اختلافها في تفسير الظواهر

---

(٢٦) راجع المقدمة التي كتبها علال سيناصر للجزء الخاص بالبيولوجيا من كتاب كونت .

(٢٧) كونت · دروس في الفلسفة الوضعية ج ١ ص ٦٦٦ .

الطبيعية والانسانية على السواء . فحيث ان الفلسفة الميتافيزيقية واللاهوتية تنطلق من الانسان فقد نتج عن ذلك اعتمادها على فكرة الارادة كصفة للظواهر ، أما سيادة الروح الوضعية فقد ادت الى بروز فكرة القانون والتي تمثل تقدم الروح الوضعية في مدي تدرجها في الظواهر الى بلوغها الانسان ذاته والمجتمع بوصفهما آخر مجالين يبلغهما تطور سيادة هذه الفكرة .

وهكذا حيث ان التطور الطبيعي للمعرفة هو أن يسير من العالم الى الانسان ، فان تأخر ظهور علوم الظواهر العضوية كعلوم وضعية كان امرا طبيعيا ومطابقا لخط سير تطور المعرفة الوضعية .

اذا كنا نؤكد تخلف العلوم البيولوجية في بلوغ المرحلة الوضعية عن العلوم الأخرى ، فينبغي ان نوكد ايضا أن هذه العلوم لم تكن قد بلغت في عهد كونت وبصورة حاسمة استكمال سيادة الروح الوضعية على دراستها لظواهرها . كانت البيولوجيا لا تزال بعد في مرحلة التطور نحو بلوغ الروح الوضعية . ولذلك نجد أن حديث كونت عن العلوم السابقة قد كان حديثه عن العلوم الوضعية بالمعنى التام للكلمة ، في حين ان حديثه عن البيولوجيا يتميز توعه بانه بصدد علم ناشيء ، وبأن الخطاب الابستمولوجي الذي يتخذه موضوعا له ينبغي ان يسهم في دفع هذا العلم خطوات اخرى نحو استكمال الاتصاف بالصفة الوضعية .

والواقع انه فضلا عن كل الاعتبارات النظرية التي سلف ذكرها فان تطور البيولوجيا كان يتوقف على وجود دوافع عملية . بعبارة اخرى اذا كان تطور العلوم جميعا لا يتوقف على انتقال الفكر بتهيؤ طبيعي من الحالة الميتافيزيقية الى الحالة الوضعية ، لأن تطور العلوم لا يتوقف على مجرد تسلسل منطقي للمفاهيم المجردة ، واذا كان لا بد من وجود حوافز خارجية لهذا التطور اهمها واكثرها عمومية وفعالية هو الرغبة في تطبيق المعارف ، فان هذا الامر ينطبق على البيولوجيا . **ان الفنون تساعد على تطور العلوم سواء بما تمدها به من عناصر وضعية او بما تمارسه على تقدم البحوث النظرية من تأثير حين تذفع بها الى أن تسير في الاتجاه الذي تستجيب فيه لحاجات عملية . وفي حالة البيولوجيا فان الفن الذي دفعها الى التطور بربطها بالحاجات العملية للانسان هو الطب .** فالعلاقة بالطب هي التي ساعدت علم الحياة على ان يخطو خطواته في الانتقال من المرحلة الميتافيزيقية الى المرحلة العلمية . على اننا لا ينبغي ان نظن بان كل فن عملي قادر في كل حالة على ان يدفع بالعلم الموافق له نحو التطور النظري الذي يسير به الى المرحلة الوضعية ، اذ ينبغي ان يكون ذلك الفن العملي ذاته قد بلغ مرحلة من التطور يصبح بفضلها قادرا على اثارة اشكالات نظرية تساعد على التطور النظري للعلم الموافق له وهكذا ، فقد كان من الضروري ان يحصل تطور في الطب لكي يصبح الطب قادرا على

الارتقاء بالبيولوجيا ومساعدتها على الاتجاه نحو المرحلة الوضعية .

اول مايحدده كونت بصدد علم الحياة هو موضوع هذا العلم . وفي هذا الصدد فان اوجيست كونت يشيد بفضل بيشا على تطور البيولوجيا ولكنه لا يقبل كلية التعريف الذي يقدمه بيشا للحياة . فالحياة عند بيشا هي مظاهر مقاومة الموت . وما يأخذه كونت على هذا التعريف انه لا يراعي حقيقة علاقة الجسم الحي بوسطه ، وانه لا يدرك ان الوسط لا يكون في جميع الاحوال مصدر هدم للحياة فهي في كثير من الاحوال شرط من شروط وجودها واستمرارها . ان الوسط لا يصبح مصدر هدم للحياة الا عندما تقع فيه اضطرابات . ثم ان كونت يبين من جهة اخرى ان علاقة الجسم الحي بالوسط الخارجي لا تتمثل في تبعية الجسم الحي التامة للعوامل المؤثرة الخارجية فحسب ، بل ان للجسم الحي شروطه الداخلية التي تعمل على تكييف المؤثرات الخارجية ، والتي تعمل ايضا على ان تعطي للجسم الحي نوعا من التلقائية يتمثل في ردود الفعل التي يرد بها الجسم على المؤثرات الخارجية . وهكذا فالحياة لا ينبغي ان تعرف بمقاومتها للوسط الخارجي ، لأن هذا الوسط ليس مصدرا دائما لهدمها بل ينبغي ان تعرف بعلاقة التكييف التي تربطها بهذا الوسط الخارجي والتي يلعب فيها التكوين الداخلي للجسم الحي دوراً خاصا ، غير ان تميز الجسم بتلقائيته الناتجة عن شروطه الداخلية ، لا ينبغي ان يدفعنا الى خلط آخر في تعريف الحياة هو تعريفها بانها كل فعالية تلقائية . وهذا لأن من شأن هذا التعريف ان يجعلنا ننسب الحياة الى اجسام اخرى غيرحية ، على اعتبار ان الاجسام الطبيعية تظهر بدرجات مختلفة نوعا من النشاط التلقائي . إن تعميما مثل هذا لا يعكس الا استمرارا للفلسفة الميتافيزيقية في اذهان القائلين له .

ماهو اذن الموضوع الذي يبحث فيه علم الحياة ؟ انه يبحث في فكرة الجسم العضوي والوسط من جهة ، وفي فكرة الوظيفة من جهة اخرى ، فالجسم الحي يتضمن اعضاء لها وظائف ، وهذه الوظائف لها علاقة بالشروط الداخلية للجسم ، ولتأثر هذه الشروط بالعوامل الخارجية الآتية من الوسط . والبيولوجيا علم يبحث في القوانين التي تنظم علاقات العضو والوسط من جهة بالوظيفة من جهة اخرى ، فعندما يعطاها العضو وما يحدث فيه من تغيرات عضوية يكون عليها ان تبحث عن الوظيفة او الفعل ، أو أنها تبحث انطلاقا من العكس . ان هدف البيولوجيا هو ان تسمح دائما بتوقع الكيفية التي يسلك بها جسم حي محدد ضمن شروط معطاة او أن تسمح لنا بمعرفة العضو الذي يكون قد قام بهذا الفعل او ذاك عندما تحصل لنا معرفة الفعل .[٢٨]

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٨٤ .

ماهي صورة المنهج في البيولوجيا في نظر كونت ؟

لقد سبق أن بينا بأنه كلما ازداد موضوع العلم تعقيدا كانت الوسائل المعرفية التي نتوسل بها الى معرفة هذا الموضوع اكثر عددا . وقد بينا بصفة خاصة بصدد الملاحظة ، حيث ان اهمية الملاحظة تزداد بزيادة تعقد الموضوع ، كما ان طرقها تتعدد نتيجة لذلك ، فقد رأينا ان علم الفلك يتوقف في نظر كونت عند الملاحظات البصرية ، ولكننا بينا في الوقت ذاته ان الانتقال الى الفيزياء ثم الى الكيمياء يجعل الملاحظة تعتمد على عدد اكبر من الحواس ، حيث انها في الكيمياء تعتمد على كل الحواس . وحيث ان موضوع البيولوجيا اكثر تعقيدا من موضوعات العلوم التي سبق الحديث عنها ، فمن الضروري ان نجد انه يعتمد على منهج يعتمد تطبيق طرق متعددة ، بل ويعتمد على تطبيق تلك الطرق كاملة بصورة اكثر دقة .

وهكذا فان اهمية الملاحظة كخطوة في المنهج العلمي تزداد في البيولوجيا كما تتعقد وسائلها ، فحتى بصدد الملاحظات البصرية فانه لا بدمن اتمامها بان نضيف فيها عمل الآلات الى عمل الحواس ، وهذا لأننا لا يمكن أن ننفد الى اعضاء الجسم الحي بدون الاستعانة بالآلات .

اما التجريب فانه في البيولوجيا اعقد منه في العلوم السابقة . وهذا لان هنالك عوائق تعوق تطبيق التجريب بنفس الصورة التي نجده عليها في العالم الفيزيائي ويرجع هذا الامر في الواقع ، الى التكاثف الموجود بين اعضاء الجسم الحي ، بحيث انه لا يمكن عزل اي عضو من هذه الاعضاء والمقارنة بناء على ذلك بين حالة الجسم الحي في الحالتين اللتين كان العضو فيهما موجودا وتم حذفه . كما ان ما يمنع التجريب من جهة اخرى من أن يكون تاما بصدد الجسم الحي ، ان هذا الجسم يخضع لشروط داخلية والأخرى خارجية تتعلق بالوسط ، الشيء الذي يصعب معه اقامة تجريب ياخذ الاعتبار هذين المستويين في الوقت ذاته . على ان هذه الصعوبات لاتعني ان علم الحياة لايلجأ الى التجريب بقدر ماتعني ان التجريب معقد في هذا العلم . فان البيولوجيا يمكن أن تجرب على الجسم الحي بصفة غير مباشرة حين يتعذر التجريب المباشر ، وذلك من خلال مراقبة الحالات المرضية التي تمكن الملاحظ من أن يلاحظ الجسم في حالة اختلال طبيعي يمكن مقارنته بحالة السواء .

فضلا عن الملاحظة والتجريب فهناك خطوة اخرى في المنهج العلمي هي المقارنة ومنهج المقارنة يتصف اكثر من غيره من المناهج الأخرى بكونه غير مباشر ، ولذلك فانه يلائم الموضوعات الاكثر تعقدا والاكثر تنوعا . وهذا هو السبب الذي يفسر لنا لجوء البيولوجيا الى هذا المنهج اكثر مما كانت تفعل ذلك العلوم السابقة عليها في الترتيب .

تستخدم البيولوجيا منهج المقارنة في خمس صور يمثل كل منها مستوى من المستويات المقارنة .

أولا المقارنة بين الاجزاء المختلفة لكل جسم حي .

ثانيا المقارنة بين الاجناس المختلفة للكائنات الحية .

ثالثا المقارنة بين المراحل المختلفة لمجموع تطور الكائنات الحية .

رابعا المقارنة بين اختلاف الأعراق او المقارنة بين التنوع داخل النوع الواحد .

خامسا واخيرا المقارنة بين كل الاجسام الحية التي يشملها التراتب البيولوجي .

ان منهج المقارنة ملائم لعلم الحياة اكثر من العلوم الأخرى التي سلف عرضها . وهذا لأن المادة التي يدرسها هذا العلم على قدر كبير من التنوع من جهة ، كما ان الملاحظة والتجريب المباشرين يعوضان في هذا المنهج عن طريق البحث في الفروق على المستويات المختلفة التي - ذكرناها . كما ان منهج المقارنة ينطلق من وحدة مظاهر الحياة في الكائنات الحية ، وذلك لأنه يفرض ان هناك تماثلا أساسيا بين الكائنات التي يقارن بينها من حيث وجهة النظر التي نقارنها منها ، وان الاختلافات ليست الا مجرد تحويرات ضمن نمط يؤخذ نظريا على انه واحد . ومن جهة أخرى فان تنوع اشكال الحياة ومستوياتها يجعلنا في حاجة الى تصنيفها من اجل دراستها وهذه فائدة يقدمها منهج المقارنة .

بقيت لنا لكي نكمل تصورنا عن المنهج الوضعي في البيولوجيا ان نعرف علاقة هذا العلم بالتحليل الرياضي الذي يعتبر معيارا لبلوغ اية معرفة عن المرحلة الوضعية . اذا وتبعا لهذا الاعتبار فاننا نصل الى ان هناك ضرورة لتطبيق المنهج الرياضي في دراسة الكائنات الحية حتى يصح لنا اعتبار البيولوجيا علما وضعيا ، فالفروق بين الكائنات العضوية والكائنات الحية لاتمنع ، تبعا لهذا الاعتبار من تطبيق المنهج الرياضي . غير ان الانطلاق من واقع الظواهر الحية يبين ان تعدد العناصر المكونة لها لن تسمح بمعرفة عددية دقيقة لتغيراتها . فالعوامل التي تدخل في التأثير على الظاهرة الحية يرجع بعضها الى الجسم الحي وقوانينه الداخلية ، وبعضها الآخر الى محيط هذا الجسم الحي . غير ان ذكر كونت لهذه الصعوبة الناتجة عن تعقد الجسم الحي لاتمنعه مع ذلك من أن يسجل انه قد وجدت في زمنه بداية لتطبيق غير مباشر للمنهج الرياضي في دراسة الكائنات الحية ، وهي البداية التي تمثلت في تطبيق الاحصاء في الدراسات الطبية ، كما أن أوجيست كونت يرى أنه بين العلوم الرياضية يمكن أن نعتبر الميكانيكا العلم الرياضي الذي ينطبق بصورة أقوى على البيولوجيا .

وهكذا نتبين اذن كيف يكتسب المنهج الوضعي خصائص معينة تتلاءم مع هذه النقلة الكيفية التي يحققها عند انتقاله الى دراسة الكائنات الحية . فهناك حاجة اقوى الى تدقيق الملاحظة والى استخدام الآلات لاكمال الحواس الذي يبدو غير كاف ، وهناك من حيث التجريب لجوء الى التجريب غير المباشر عن

طريق ملاحظته الحالات المرضية التي تتيح للمجرب شروطا طبيعية للجسم الحي لايستطيع اصطناعها . وهناك ثالثا اعتماد قوى على منهج المقارنة بالنظر الى تعدد وتنوع مستويات مظاهر الحياة في واقعها وفي تاريخها . وهناك اخيرا صعوبات في استخدام التحليل الرياضي كما هو مستخدم في العلوم الأخرى ولجوء الى استخدام غير مباشر للعلوم الرياضية في دراسة الكائنات الحية .

وفي الواقع فان هذه الخصائص المميزة للمنهج الوضعي في حالة تطبيقه على دراسة ـ الكائنات الحية . تفيدنا في معرفة الخصائص العامة لهذا المنهج في وحدته ونوعه . ذلك انه لايمكن لمن يريد معرفة المنهج الوضعي كاملة ان يستغني عن معرفة كيفية تطبيق هذا المنهج في البيولوجيا . ذلك لأنه عبر معاينة هذا التطبيق نستطيع ان نتعرف على منهج المقارنة في صورته الكاملة باعتبار انه لايطبق الا بصورة بسيطة في العلوم الاخرى ، ونتعرف كذلك على الفائدة التي تعود على المنهج الوضعي عامة من تطبيق هذا المنهج ، كما اننا نستطيع ان نراقب الدور الذي يمكن ان يلعبه التصنيف ، وفضلا عن هذا كله ، فاننا ندرك انطلاقا من البيولوجيا ان الوحدة التي يتميز بها المنهج الوضعي لاتمنع من وجود تنوع داخل هذا المنهج ، هذا باعتبار ان بعض الخطوات المنهجية التي يتضمنها المنهج الوضعي ـ تختلف في درجة الحاجة اليها وفي قوة تطبيقها من علم الى آخر تبعا لطبيعة الموضوع الذي يدرسه كل علم وللدرجة التي بلغها من التعقيد ، كل هذا يدفعنا الى القول بانه بالرغم من ان العلوم السالفة في الترتيب لاتعتمد على البيولوجيا ، فان معرفة البيولوجي ضرورية لكل عالم لكي يستكمل نظرته عن الروح الوضعية . وبطبيعة الأمر فان هذه الصورة ستبدو اقوى عند التعرض للعلم اللاحق اي لعلم الاجتماع الذي سيجد في البيولوجيا اقرب نموذج اليه من حيث تطبيق المنهج الوضعي .

الفيزياء الاجتماعية او علم الاجتماع

لقد اكدنا في بداية هذه الدراسة ان علم الاجتماع يحتل مكانه خاصة ضمن المشروع النظري لأوجيست كونت . وهذا لأن اقامة هذا العلم تستجيب لدواعي ايديولوجية تتمثل في ارادة كونت رفع حالة الاضطراب التي كانت تسود المجتمع آنذاك نتيجة لعدم القدرة على التوفيق بين فكرتي التقدم والنظام ، باعتبار أن القوى المتصارعة في المجتمع كانت تحمل احدى هاتين الفكرتين بالصورة التي تكون بها معارضة للأخرى . إن قيام علم الاجتماع بوصفه العلم الذي سيدرس ظواهر المجتمع بطريقة وضعية ، هو الأمر الكفيل وحده بدفع الاضطراب وبخلق الانسجام بين التقدم والنظام . وحيث ان كونت كان يرى ان الفوضى القائمة في المجتمع أساسها فوضى أخلاقية . وان هذه ترجع الى فوضى عقلية فان ما كان ينبغي البداية به ، في نظره هو رفع الفوضى الفكرية باعادة النظر في نسق المعرفة الانسانية . وعلم الاجتماع من هذه

الناحية يستجيب لدواعي معرفية باعتباره العلم الذي تكتمل بفضل قيامه المعارف الوضعية . لذلك قلنا في بداية هذه الدراسة ان انشاء علم الاجتماع يكون النواة المركزية للفلسفة الوضعية عند كونت .

ومن جهة أخرى فان حديث كونت عن علم الاجتماع يختلف من حيث مستواه عن حديثه عن جميع العلوم الأخرى . لقد رأينا ان كونت يتحدث عن العلوم الرياضية والفلكية والفيزيائية والكيميائية بوصفها علوما وضعية قائمة استكمل فيها الفكر الانساني تطوره وبلغ المرحلة الوضعية . ولقد وجدناه يتحدث عن البيولوجيا بوصفها علما وضعيا كان الى عهد كونت لا زال يخطو نحو استكمال سيادة الروح الوضعية على دراسته لظواهره ، وقد كان هدف كونت أن يبين معالم الطريق بالنسبة لهذا العلم . أما بالنسبة لعلم الاجتماع فان الأمر مختلف تماما لأنه يتعلق بعلم ينسب كونت انشاءه الى نفسه ، ويريد أن يضيفه الى نسف المعارف الوضعية . بعبارة أخرى كانت كل العلوم الأخرى قائمة كعلوم مطبقة للمنهج الوضعي ، في حين أن علم الاجتماع هو العلم الذي كان يريد أن يرسم له طريق تطبيقه لهذا المنهج لكي يكون جديرا بأن يعتبر معرفة وضعية .

ما هو موضوع علم الاجتماع ؟

يحدد كونت هذا الموضوع في تعريفه للفيزياء الاجتماعية . فالفيزياء الاجتماعية في نظره هي العلم الذي يدرس الظواهر المجتمعية بمثل ما تدرس العلوم الأخرى للظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية . هذا يعني أن الفيزياء الاجتماعية تكون هي العلم الوضعي بالظواهر المجتمعية .

يرى كونت ان الظواهر المجتمعية أكثر تعقيدا ، وهو الأمر الذي يفسر العلم الذي يدرسها في آخر قائمة العلوم الوضعية . ويمكن أن نتبين تعقد الظواهر المجتمعية عندما نلاحظ تبعيتها للظواهر الأخرى . فان المعرفة الحق بقوانين الظواهر المجتمعية تتطلب معرفة بقوانين الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية ، في حين أن دراسة هذه الظواهر الأخرى جميعها ومعرفة قوانينها لا تتوقف في نظر كونت على معرفة قوانين الظواهر المجتمعية .

وحيث أن سيادة الروح الوضعية قد سارت في تاريخ الفكر البشري متدرجة بانتقالها من الموضوعات الأكثر بساطة الى الموضوعات الأقل بساطة ، فقد كان من الطبيعي ، بالنظر الى تعقد الظواهر المجتمعية ، أن تكون هذه الظواهر آخر ما تصل اليه سيادة المنهج الوضعي في تاريخ تطورها .

وأخيرا فان قيام أي علم وضعي يقتضي قيام موضوعه . وهذا أيضا عامل من العوامل التي أخرت قيام علم الاجتماع كعلم وضعي . اذ لم يكن من الممكن اقامة دراسة علمية بظواهر المجتمع دون أن يكون قد حصل في هذه الظواهر قدر كاف من النمو يجعلها قابلة لأن تكون موضوع ملاحظة علمية . بعبارة أخرى

إن تأخر سيادة المنهج الوضعي في دراسة ظواهر المجتمع لم يكن ناتجا عن نقص في طريقه البحث فحسب ، بل كان ناتجا أيضا عن عدم نمو كاف في موضوع الدراسة . . لذلك فان الثورة الفرنسية بوصفها حدثا تاريخيا لحق أثره المجتم بأكمله ، قد ساعدت على تغير شامل في المجتمع جعل الظواهر المجتمعية قابلة للملاحظة . وهناك في نظر كونت مفهوم أساسي لا غنى عن بروزه لقيام علم بالمجتمع ، وهو مفهم التقدم ، وان التغيرات الجزئية التي عرفها المجتمع الأوربي قبل قيام الثورة الفرنسية لم تكن كافية لابراز ذلك المفهوم .

لقد تأخر علم الاجتماع في الظهور كعلم وضعي لأن التفكير في موضوعه ظل خاضعا لهيمنة الأفكار اللاهوتية والميتافيزيقية وحيث أن هنالك تأثيرا من المنهج في الموضوع ، فان الموضوع ذاته قد ظل موضوعا غير محدد بصفة علمية .

هذا التحديد الذي يجعل من علم الاجتماع وهو علم الظواهر المجتمعية تحديدا واسعا جدا ، ونستطيع أن نعرف ما الذي يشمله هذا الموضوع في نظر كونت ونعرف في الوقت ذاته تقدم خطوات المنهج الوضعي في دراسة هذا الموضوع عندما نعرف كيف ينظر كونت الى أعمال المفكرين السابقين التي هي على صلة بهذا العلم الجديد الذي كان كونت يريد أن يكمل به قائمة العلوم الوضعية ، ذلك لأنه اذا كان أوجيست كونت يرى ان قيام الفيزياء الاجتماعية على أسس علمية لم يكن ممكنا الا معه هو بالذات في القرن التاسع عشر ، فإنه يعترف بوجود مفكرين رواد قاموا في نظره بمحاولات في طريق هذه النشأة ، انه يذكر بهذا الصدد ارسطو الذي يعتبر كتابه « السياسة » نقدا لأحلام افلاطون ومثاليته . غير أن كتاب ارسطو لم يستطع ، مع ذلك أن ينفذ الى مفهوم التقدم ولا أن يدرك القوانين الطبيعية للحضارة ، في حين هيمنت عليه بصفة أساسية المناقشات الميتافيزيقية حول مبدأ وشكل الحكومة ، ولم يكن بامكان أرسطو أن يضفي على ملاحظاته للظواهر المجتمعية الصفة الوضعية بالنظر الى أنه من بين جميع العلوم التي كان على ملاحظة الظواهر المجتمعية أن تعتمدها ، كان علم الهندسة وحده قد بلغ حينئذ المرحلة الوضعية من تطوره ، كما أن هذه الملاحظات التي قام بها أرسطو لم يتح لها أن تلاحظ الظواهر المجتمعية الا في صورة أولية لها وضمن نطاق محدود . ومع ذلك فان كتاب أرسطو يظل ، بالرغم من هذه الحدود ، من المحاولات التي مهدت في نظر كونت للعلم الاجتماعي متجاوزة التأملات الميتافيزيقية لكثير من الفلاسفة .

يذكر كونت بعد ذلك مونتسكييه ويشيد بصفة خاصة بكتابه « روح القوانين » ، وان أهم ما يميز عمل مونتيسكيه في نظر كونت ، قوله بأن الظواهر السياسية تخضع لقوانين طبيعية شأنها في ذلك شأن الظواهر الأخرى . فهذه أول

محاولة تتم فيها فكرة القانون لتشمل كل الظواهر . ولا شك في أن مونتيسكيه قد تأثر بالعمل الهام الذي قام به خارج ميدان الظواهر الانسانية علماء من أمثال ديكارت وجاليلو و « كلبر » و « نيوتن » ومما يجعلنا نقدر محاولة مونتيسكييه انها وجدت في زمن لم يكن النهج الوضعي قد شمل فيه الا الظواهر الطبيعية الأكثر بساطة ، ودون أن يكون قد تحقق بصدد الظواهر الكيميائية بصورة كاملة ، وأن يكون قد نفذ بالأحرى الى دراسة ظواهر الحياة التي تعتبر قوانينها مدخلا الى قوانين الظواهر المجتمعية ، ولكن ما يدفعنا الى تقدير عمل مونتسكييه هو في الوقت ذاته ما يجعلنا نتبين حدوده من حيث أنه محاولة سابقة لأوانها ، اذ لم تكن الظروف السياسية ولا الظروف العلمية قد تطورت بالصورة الكافية التي تجعلها تهيىء المجال لنشأة علم وضعي بالمجتمع ، ففكرة التقدم التي يعتبر روزها ضرورة لقيام علم الاجتماع لن تبرز الا بعد مونتيسكييه وعند قيام الثورة الفرنسية بوصفها الحدث التاريخي الكبير الذي سيؤدي الى بروز ديناميكية الظواهر المجتمعية . وكذلك فان الروح الوضعية التي يمكن أن يقاس بها مدى اتصاف أية معرفة بالصفة العلمية ، ولم يكن من الممكن أن تسود في زمن مونتيسكيه دراسة الظواهر المجتمعية من حيث هي ظواهر على درجة أعلى من التعقد والخصوصية . وهكذا يبين كونت أن مشروع مونتيسكيه بالرغم من كل مظاهر التقدم التي يمكن ان نسجلها في حقه ، قد كان ، نتيجة لسبقه لأوانه ، يحمل في ذاته تناقضا بين التصور النظري له وبين امكان تطبيقه ، من حيث إن التطبيق كان يتطلب شروطا موصوعية لم تكن متوفرة جميعها وبصورة كاملة في زمن مونتيسكيه .

ومن بين المهدين لنشأة العلم الاجتماعي يذكر كونت ايضا كوندروسيه وما يميز هذا المفكر عن مونتيسكيه ، هو بروز فكرة التقدم لديه في كتابه الأساسي . ولم يكن هذا الامر في الواقع لأن كوندورسيه كان اكثر فطنة من مونتيسكيه او ممن سبقه من المفكرين ، بل لكونه عاش في فترة لا حقة كانت فيها القوى الثورية في المجتمع قد نمت بصورة اقوى ، وكانت التناقضات الداخلية للنظام السابق قد زادت من قوة نزوع النوع الانساني الى ان يتجاوز النظام السابق بصورة لا تقبل الرجعية فيها ، ومن الناحية المعرفية فان كوندورسيه قد زامن تاريخ العلوم فترة كانت الطريقة الوضعية قد شملت فيها بكيفية أقوى دراسة الظواهر المتعلقة بالحياة .

هناك محاولات أخرى في طريق انشاء العلم الوضعي المتعلق بالمجتمع نجد بعضها عند المفكرين الاقتصاديين وبعضها الآخر عند المهتمين بالتارخ . وكلها تمهد الى انشاء حقيقي لعلم الاجتماع ، دون ان تصل موضوعيا الى ان تكون بذاتها هذا التأسيس .

في ما يتعلق بالمحللين الاقتصاديين ، نجد ان المفكر الذي يحظى بتقدير خاص لدى كونت هو آدم سميث ، ولكن كونت يرى ، خارج هذا

التقدير ان ما قام به المحللون الاقتصاديون لم يرق الى الدرجة التي يمكننا معها اعتباره علما وضعيا بالظواهر المجتمعية . وهناك اسباب ثلاثة رئيسية هي التي منعت التحليل الاقتصادي من أن يكون علما وضعيا . فهناك **اولا** تشبث المحللين الاقتصاديين تمييز علمهم عن علم السياسة اعتبارا منهم انهم يتبعون في تحليلاتهم للظواهر الاقتصادية النوذج المنهجي الفيزيائي ولكن دون ان يكون الامر في الواقع كذلك . وهناك **ثانيا** عدم قدرة هولاء المحللين على تطبيق المنهج الوضعي في دراساتهم باعتبار انهم لم يهيئوا من حيث تكوينهم للقيام بهذا التطبيق . وهناك **ثالثا** بقاء التحليل الاقتصادي ضمن حالة الاختلاف بين من يمارسونه . فبدلا من أن يعتمد اللاحق منهم السابق نجد أن كل عالم منهم يقدم مفاهيم جديدة بتناول شخصي يختلف عن سابقه .

من حيث التاريخ يرى كونت ان الجهد الفكري الذي سار في طريق انشاء علم وضعي بتسلسل الوقائع التاريخية هو الذي قام به « بوسييه » وان التقدير الموضوعي للعمل الذي قام به هذا المفكر يأتي من كونه جاء في زمن كان ادراك الاحداث التاريخية لم يزل فيه بعد خاضعا لهيمنة الافكار اللاهوتية والتصورات الميتافيزيقية . لقد حاول « بوسيه » ان يتخطى كل العقبات التي كانت تفرضها عليه مثل هذه الافكار . ولكن هذه المحاولة بالرغم من قيمتها لم تنجح بصورة كاملة ، في ان تنقل التفكير الماضي المجتمعي الى المستوى الذي يكون به تفكيرا وضعيا في طريقته . وهناك مظاهر ثلاثة تدل على هذا الامر . ففي **المظهر الاول** لقد ظل التاريخ علما وصفيا غير قادر على ربط الاحداث التاريخية وفهم تسلسلها فهما عقلانيا يهيء الفكر ، كما هو الشأن بصدد الظواهر الأخرى ، للوصول الى توقع بالتسلسل اللاحق للظواهر المجتمعية ، **ومن جهة ثانية** ، فان عمومية وغموض النظريات التاريخية قد منعاها من ان تكون تفسيرا واقعيا لمجموع الظواهر ، ومكن من استمرار اتصافها بالطابع الميتافيزيقي . اما **المظهر الثالث** ، فهو هذا الفصل الذي يحاوله المؤرخون بين علمهم وبين العلم السياسي في حين انهما يتطابقان في نظر كونت لكي يكونا علما واحدا .

هكذا ، اذن ، نرى ان كونت اذ يعترف بمحاولات سبقه بها بعص المفكرين من اجل اقامة علم وضعي بالظواهر الانسانية ، واذ يشيد من جهة أخرى بالجهد الذي بذله كل من هؤلاء المفكرين من اجل تجاوز العقبات التي كانت تعمل على ابقاء التفكير في الظواهر الانسانية ضمن حدود التفكير الميتافيزيقي واللاهوتي ، لا يرى في اية من هذه المحاولات الخطوة الحاسمة لا نشاء العلم الوضعي بالمجتمع . وحين يعلن من جهته بانه يريد ان يضيف الى قائمة العلوم الوضعية علما جديدا موضوعه الظواهر المجتمعية ، فانه يرى ان تفوقه على سابقيه يرجع بالدرجة الاولى الى توفر

الشروط الموضوعية التي تجعل الحديث عن هذا العلم ممكنا ، فمن الناحية السياسية والمجتمعية سمح قيام الثورة الفرنسية نصف قرن من الزمن قبل كتابة كونت للدراسة الوضعية ، ببروز فكرة التقدم الاجتماعي من حيث هو مفهوم لا غنى عنه للعلم الوضعي بالمجتمع ، ومن الناحية المعرفية فان امتداد الطريقة الوضعية لكي تصبح طريقة لدراسة ظواهر الحياة قد جعل هذه الطريقة تشمل كل الظواهر الأخرى الاكثر بساطة من الظواهر الانسانية ، فمهد ذلك إذن لامكان تطبيق هذه الطريقة ذاتها على الظواهر الانسانية من حيث هي الاكثر تعقدا .

ان تعقد موضوع علم الاجتماع كما يتصوره اوجيست كونت ياتي من أن هذا العلم يريد ان يكون في الوقت نفسه ، بديلا لكل المحاولات السابقة التي تتعلق بميادين مختلفة قد ترجعها اليوم الى علوم انسانية متعددة . ان موضوع علم الاجتماع يصبح هو موضوع كل المحاولات السابقة التي تعلق بعضها بالظواهر السياسية والمجتمعية ، وبعضها بفلسفة التاريخ ، وبعضها الآخر بعلم الاقتصاد السياسي ثم أخيرا تعلق جزء منها بالتاريخ .

ضمن هذا الاطار العام الذي يحدده كونت لعلم الاجتماع نجد انه يقبل تقسيمه الى قسمين وذلك تبعا لوجهة النظر التي ندرس منها الظواهر المجتمعية . ذلك لان الظواهر المجتمعية يمكن أن تدرس في حالة تأثيرها المتبادل من جهة والى ما يمكن ان تدرس من حيث ديناميتها من جهة ثانية . يسمى كونت علم الاجتماع الذي يدرس الظواهر المجتمعية من وجهة النظر الاولى بعلم الاجتماع الاستاتيكي ، ويدعو علم الاجتماع الذي ينطلق من وجهة النظر الثانية بعلم الاجتماع الدينامي .

ان موضوع علم الاجتماع الاستاتيكي هو الدراسة الوضعية ، التجريبية والعقلانية في آن واحد ، للفعل المتبادل والمستمر لظواهر المجتمع بعضها في البعض الآخر . وما يبرر ذلك ان ظواهر المجتمع متماسكة وأن مؤسساته متكاتفة بحيث لا يمكن ان نبدأ دراسة ظاهرة او مؤسسة من بينها دون ان نقف على ضرورة البحث في علاقة التأثير والتاثر المتبادلة بين مجموعة الظواهر والمؤسسات الأخرى . ومن الواضح ان الدراسة التي يقوم بها هذا العلم للظواهر المجتمعية لا تغفل الصفة الدينامية ، ولكنها تغض الطرف عن وعي ، وبصفة مؤقتة عن الدينامية ، واهمية الطريقة التي يتبعها علم الاجتماع في هذه الحالة انها تساعدنا على معرفة علاقة الظواهر التي نكون بصدد البحث فيها بظواهر اخرى معروفة لدينا . وبذلك يكون هذا العلم ممهدا لنا للحصول على قاعدة معرفية لا غنى عنها تكون لنا اساسا لدراسة الظواهر المجتمعية في صورتها الحركية .

اما علم الاجتماع الدينامي فان موضوعه هو الدراسة الوضعية لتعاقب الحالات المجتمعية وبيان القوانين التي تجعل اللاحق منها ناتجا عن السابق ، وذلك لأن مجموع هذه القوانين هو

الذي يحدد مسيرة التطور البشري . وهذا لعلم مكمل للأول من حيث أن أحدهما يهتم بدراسة الظواهر الانسانية من حيث تواجدها ، بينما يدرس الآخر هذه الظواهر ذاتها من حيث تعاقبها .

وهذا لتقسيم للدراسة الاجتماعية الى دراسة تخص الظواهر من حيث تواجدها وأخرى تدرس الظواهر من حيث حركيتها ، يستجيب لحاجة المجتمع الى التأليف الايجابي بين فكرتي النظام والتقدم ، ذلك لأن الدراسة الاستاتية للمجتمع تهيء لقيام نظرية وضعية عن النظام الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بفضل تناسق بين الشروط المختلفة لوجود المجتمعات الانسانية . وأما الدراسة الدينامية فإنها تسمح بقيام نظرية وضعية عن التقدم المجتمعي . ومن الواضح أن التكامل بين الدراستين من شأنه أن يرضي بصورة ملائمة حجة المجتمع المزدوجة الى النظام والتقدم المجتمعي في آن واحد(٢٩) ففكرتا النظام والتقدم اللتان تبدوان متعارضتين عندما تتبنى الأولى منهما قوى ترجع الى المجتمع القديم ، وتتبنى الثانية منهما قوى ذات تفكير فوضوي تبدوان على قابلية للتأليف بينهما بفضل تكوين نظرية وضعية عن كل منهما .

هناك قضية أخيرة تهم هذا العلم الجديد عند كونت وهي مسألة النهج . فما هي طبيعة المنهج الذي يؤهل علم الاجتماع لأن يعد في قائمة العلوم الوضعية ؟ ان شرط الاتصاف بالصفة الوضعية لا يختلف في هذا المجال عن العلوم الأخرى ، لأنه اتباع الطريقة الوضعية في تفسير الظواهر وهي ـ الطريقة التي تترك البحث عن العلل الأولى والمطلقة ، وهو ما يميز المرحلة اللاهوتية ، كما تترك البحث عن تعليل الظواهر بكيانات مجردة تفترض أنها ملازمة لها ، وهو ما يميز المرحلة الميتافيزيقية لكي تخلص الى البحث عن القوانين بوصفها العلاقات الثابتة لتماثل الظواهر وتعاقبها .

واذا كان أمد المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية قد طال بالنسبة لعلم الاجتماع أكثر من العلوم الأخرى ، فان ذلك ينبغي أن يفهم ضمن الشروط المعرفية الموضوعية لهذا العلم الجديد من حيث أنه يتناول أكثر الظواهر تعقدا . ولكن كونت رأى أن الأوان قد آن في زمنه لكي يتجاوز هذا العلم الطريقتين اللاهوتية والميتافيزيقية ، مستعيضا عنهما بتطبيق الطريقة الوضعية . فمما يقدم العلم انه يستعيض عن الخيال بالملاحظة ، وانه يستعيض عن الوقائع بالمفاهيم العلمية والملاحظات التي لا يهتم تسجيلها بكيفية موضوعية ودقيقة ويطغى عليها الخيال الذي قد تحفزه ميول ذاتية لن يمكن العلم من بلوغ هدفه . ان هذه الملاحظات المتأثرة بالخيال والميول هي التي كانت تسود دراسة

(٢٩) المرجع السابق راجع الدرس ٤٨ .

الظواهر المجتمعية في المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية من تطور الدراسات الاجتماعية .

تتميز الطريقة الوضعية من جهة ثانية باضفاء الصفة النسبية على الظواهر المدروسة . وهذا الأمر لا يخص علم الاجتماع ، فالانتقال من النظرة المطلقة للظواهر الى النظرة النسبية لها قد مثل دائما أحد المظاهر الأساسية للتطور الذي ينقل أية معرفة من المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية الى المرحلة العلمية . ذلك لأن كل بحث عن العلل الأولى للظواهر ، وكل تفسير يعلل تماثلها أو تعاقبها بكيانات باطنة ملازمة لهذه الظواهر هو في نهاية التحليل بحث في تفسير مطلق . أما الدراسة التي تكتفي بالبحث في القوانين فانها تفترض أن معرفتها بالظواهر تتقدم بالقدر الذي تزداد به دقة وقوة ملاحظاتها ، ولذلك فانها لا تستخدم الا المفاهيم النسبية ، والواقع ان هذا الفرق بين الطريقتين لا يتمثل في الموقف النظري لكل منهما ازاء الظواهر فحسب ، بل يبدو أيضا ان هذا الفرق بين الطريقتين لا يتمثل في الموقف النظري لكل منهما ازاء الظواهر فحسب ، بل يبدو أيضا في الطريقة التي يراد بها التأثير في ظواهر المجتمع فالفلسفة اللاهوتية والميتافيزيقية دفعتا بالانسان دوما الى الظن بأنه يستطيع التأثير في الظواهر المجتمعية بصفة كلية . أما الفلسفة الوضعية فتتميز بكونها لا تسعى الا الى التأثير في عدد محدود من الظواهر ، هو ذلك الذي تصل الى معرفة قوانين حدوثه المتأني والمتعاقب . الميزة الثالثة التي تتميز بها الطريقة الوضعية هي التوقع العقلاني للظواهر . وتعتبر هذه الخاصية في نظر كونت لمعيار الأقوى من حيث الدلالة على أن الدراسة المتعلقة بفئة معينة من الظواهر بلغت المرحلة الوضعية من تطورها . ذلك لأن توقع الظواهر يقتضي معرفة بقوانين حدوثها وهو الأمر الذي يتوقف على ملاحظتها بدقة ، وعلى اضفاء النسبية عليها بالاقتصار على دراسة عدد محدود منها . حقا ان تعقد الظواهر المجتمعية وخصوصيتها قد يجعلان التفكير في توقعها أمرا غير ممكن ، ولكن العلماء الذين اعتادوا العمل وفقا للمفاهيم العلمية لن يروا في ذلك أية صعوبة خاصة عدا ما يعود بصفة خاصة الى هذه الظواهر ، ولذلك فهم يميزون بصدد الظواهر المجتمعية بين القوانين التي تتعلق في حالتها الدينامية ، وتلك التي تتعلق بها في حالتها الاستاتيكية .

وضمن اتباعه للطريقة الوضعية بخصائصها التي انتهينا من بيانها يطبق العلم الجديد المنهج العلمي بخطواته المعروفة خاصة منها تلك التي تتبعها أقرب العلوم اليه وهي علوم الحياة ، وهذه الخطوات هي الملاحظة والتجريب وطريقة المقارنة .

يدرك كونت مباشرة أن البعض قد يعترض على علمية علم الاجتماع بالاعتراض على امكان تطبيق خطوات المنهج العلمي في هذا العلم . ولكن كونت يرد على ذلك بكيفيات متعددة .

فأولا ان الاعتراض على امكان قيام ملاحظات دقيقه للظواهر الانسانية نظرا لتعقدها بالقياس الى الظواهر الأخرى ينطوي على العوامل لطبيعة القوانين المتعلقة بالظواهر الانسانية ، فهذه القوانين تمهد لها القوانين المتعلقة بالظواهر الفيزيائية الكيميائية ثم ، بصفة خاصة ، القوانين المتعلقة بظواهر الحياة ، وهذا بالنظر الى تبعية الظواهر الانسانية لكل هذه الظواهر سالفة الذكر .

وثانيا : إن ملاحظة الظواهر المجتمعية التي يكون تماسكها بعضا من تعقدها ينبغي أن تتم بطرق متنوعة تتلاءم مع طبيعة الظاهر التي نحن بصددها والدرجة التي هي عليها من التعقد .

وثالثا : ان الملاحظات لا تتم بصد الظواهر المجتمعية بصورة مباشرة دون وساطة من نظرية مجتمعية ، فان أية واقعة مجتمعية لا تكتسب معناها العلمي الحق دون أن تكون متعلقة بواقعة مجتمعية أخرى ، فالواقعة المنعزلة قد تشفي الفضول الى الاستطلاع ولكنها لا تستطيع من حيث هي كذلك ، أن تكون موضوعا لعمل علمي ، وان النظرية الوضعية التي تدرك الظواهر المجتمعية في تماسكها هي ما يمكن أن يكون الاطار النظري لكل ملاحظة علمية .

قد تظهر اعتراضات مماثلة فيما يتعلق بتطيق التجريب على الظواهر الانسانية وكونت يدعو هنا الى الاستفادة من أقرب النماذج العلمية الى علم الاجتماع وهو علوم الحياة . ينبغي أولا التمييز بين الملاحظات المباشرة والملاحظات غير المباشرة للظواهر ، وينبغي اذن أن نؤكد أن التجريب العلمي لا يتوقف دائما على صفة المباشرة . قد نستطيع التجريب على ظاهرة ما عندما نؤثر سلبا أو ايجابا على أحد عوامل حدوثها . ولكن بالنظر الى تعقد الظواهر الحية فان مثل هذا التجريب المصطنع قد يخل بالسير الطبيعي للظاهرة ، وهذا يصدق أيضا على الظواهر المجتمعية . فكما أن التجريب على ظواهر الحياة فرصة ملائمة في ملاحظة الحالات المرضية التي تمثل بفضل تلقائيتها ما يعادل التجريب المصطنع في العلوم الأخرى فهذا ما يمكن اللجوء اليه في حالة الظواهر المجتمعية بدورها التي تمثل حالات الاضطراب المجتمعي فيها ما يعادل الحالات المرضية بالنسبة لظواهر الحياة . وذلك لأن هذه الاضطرابات أو هذه الحالات المرضية لا تؤدي إلا الى تغيير جزئي في الظاهرة دون أن تمس قوانينها الأساسية أو تغير من طبيعتها . هذا التجريب غير المباشر يصدق على الظواهر المجتمعية سواء تعلق الأمر بها في حالة سكونها أو كان متعلقا بها في حاة حركتها ، وذلك لأن تطور المجتمع لا يخلو باستمرار من اضطرابات وإن تكن تختلف من حيث درجتها .

فيما يتعلق بمنهج المقارنة ، فان كونت يعود الى تطبيقات هذا المنهج في علوم الحياة لكي يبين من خلالها صلاحيته لدراسة ظواهر المجتمع . غير أن ما أخر تطبيق هذا المنهج في علم الاجتماع هو الأفكار اللاهوتية الميتافيزيقية التي تمنع كل محاولة للتقريب بين المجتمعات الحيوانية آراء مفيدة في

فهم ظواهر المجتمع في بعض جوانبها هناك ، لا شك هناك عيب لمثل هذه المقارنات من حيث انها تكتفي بالنظر الى الظواهر التي تقارن بينها في حالتها الاستاتيكية لا في حالتها الدينامية ، لكن هذا العيب لا يمنع تلك الملاحظات من أن تساعدنا على اكتشاف القوانين الأولية للتضامن ، وذلك بادراك هذه القوانين في مجتمع أدنى قبل الانتقال الى ملاحظاتها في صورتها الأكثر تعقيدا في المجتمع الانساني .

ولا يقف المنهج المقارن عند هذا فهو يتجاوز ذلك الى المقارنة بين المجتمعات المختلفة خاصة وان هذه المجتمعات المتزامنة قد يمثل بعضها ، بالنظر الى اختلافها من حيث درجة التطور ، خصائص لا يمكن ملاحظتها في المجتمعات التي بلغت درجة أكبر من هذا التطور فان المقارنة هنا تساعدنا على أن نتبين المراحل المختلفة لتطور المجتمع الانساني . ان التطور الانساني واحد في جملته وبقانونه الذي يخضع له ، ولكن المجتمعات الانسانية المتواجدة ليست جميعها في نفس المرحلة من هذا التطور . لذلك تتيح لنا المقارنة بينها ان نتعرف في أدناها من حيث التطور على مالا يمكن أن نلاحظه في أرقاها ، والنظرة الوضعية التي تقول بوحدة التطور هي التي تضمن التطبيق العقلاني للمنهج المقارن . ينبغي في الواقع ، في نظر كونت أن تجري المقارنات دائما ضمن هذه النظرية الوضعية التي تقول بوحدة التطور ، والا فان هذه المقارنات قد تقود الى بعض الاستنتاجات الخاطئة التي قد تقتصر على اعتبار الحالات المختلة للمجتمعات الانسانية كما لو كانت واقعا يرجع الى طبيعة هذه المجتمعات ، أو الى تأثير بعض العوامل الثابتة تأثر العامل الجغرافي لذلك ، ففضلا عن هذه المقارنات التي تقوم بين المجتمعات المتواجدة في زمن واحد ، لا بد من استخدام المنهج التاريخي في المقارنة بين المراحل المختلفة لتطور المجتمع الانساني بصفة عامة وذلك لأن ملاحظة الحاضر وحده ، دون تدعيمها بملاحظة الماضي قد تقود الى بعض التفسيرات الخاطئة التي قد تعطي أهمية قصوى لبعض الأسباب الثانوية المؤثرة في تطور المجتمع الانساني ، أو تخلط بين هذه الأسباب وبين حالة التطور العامة التي ترجع الى أسباب رئيسية أخرى . وهكذا فان المقارنة التاريخية تصحح بعض الأخطاء التي يمكن أن تقع فيها المقارنة التي تقتصر على الحاضر وتدفع عنها تلك الأخطاء .

تبعا لانتقالنا ضمن ترتيب العلوم من الأبسط الى الأقل بساطة فان تطبيق المنهج الرياضي يزداد تعقدا . وهكذا فدور العلوم الرياضية يتناقص بالتدريج ، بالرغم من ضرورته ومن كونه معيارا للوضعية ، وقد رأينا أنه كلما انتقلنا الى موضوع أكثر تعقدا زاد دور التجريب بالقياس الى دور التحليل الرياضي ، أما حين نبلغ دراسة ظواهر الحياة فان المنهج المقارن يصبح أكثر ضرورة ويلعب في معرفة تلك الظواهر دورا أقوى ، بينما لا نجد الا تطبيقا غير مباشر للرياضيات ، وحيث أن علوم الحياة هي

أقرب نموذج علمي الى علم الاجتماع ، حيث ان الظواهر المجتمعية أكثر تعقدا من ظواهر الحياة فان تطبيق المنهج الرياضي في دراسة هذه الظواهر سيكون محددا ، وقد كان كونت يرفض تطبيق الاحصاء في الدراسات الاجتماعية تطبيقا كاملا ، وهذا هو السبب الذي دفعه الى أن يستغني عن تسمية هذا العلم الجديد فيدعوه علم الاجتماع بدلا من الفيزياء الاجتماعية ، ان تطبيق النظرية الرياضية تطبيقا كاملا في دراسة الظواهر المجتمعية قد يعطي الوهم العلمي ، ولكنه ليس في نظر كونت كافيا بالنظر الى تعقد الظواهر التي يريد ان ينطبق عليها هذا التحليل .

وبالعرض الذي قدمناه عن علم الاجتماع نكون قد أتينا على جملة العلوم التي رتبها أوغست كونت ناظرين في تعريف كل واحد منها بموضوعه ومنهجه ، ومحددين لكل علم مكانته ضمن مجموع المعرفة الوضعية ودوره ضمن هذه المعرفة ، فنكون بذلك قد أكملنا نظرتنا عن تصنيف العلوم عند أوغست كونت ، اذ نظرنا مثل هذا في شروط اعتبار أية معرفة علما وضعيا ، وفي المبادىء التي اعتمدها أوغست كونت في ترتيبه للعلوم الوضعية .

خاتمة تقدية

لقد كان هدف فلسفة أوجيست كونت هو اعادة النظر في نظام المعرفة باعتباره الوسيلة التي تعيد النظام على صعيد الفكر ، لأن ذلك يعتبر في نظر أوغست كونت السبيل الأمثل لاستعادة النظام على الصعيد الأخلاقي ثم على الصعيد المجتمعي . وقد كان تصنيف العلوم عند كونت هو المظهر الذي تتجلى فيه اعادة النظر تلك .

ويمكن أن نؤكد أن تصنيف العلم الذي يقدمه كونت متقدم على عدد كبير من التصنيفات السابقة له ، من حيث أنه يقوم على مبادىء أكثر وضوحا . فالتصنيف كما رأينا ليس مجرد تعداد للعلوم القائمة في عصر كونت ، بل هو محاولة للنظر في معاييره العلمية ومحاولة لترتيب العلوم تبعا لمبادىء معرفية من بينها الدور المعرفي الذي يكون لأي علم من العلوم ضمن النسق العام للمعارف . ان نتيجة هذه الاعتبارات ان تصنيف كونت للعلوم يبدو أكثر دقة من التصنيفات السابقة له لكونه لا يدمج جميع المعارف ضمن ترتيبه للعلوم . فليست كل معرفة قائمة علما في نظر كونت . ان أية معرفة لا تصبح علما أولا الا اذا كانت قد بلغت المرحلة الوضعية من تطورها ، أي حين تصبح قادرة على أن تنظر الى موضوعات دراستها وفقا للطريقة الوضعية . واذا ما نظرنا الى الزمن الذي انتج فيه أوغست كونت ترتيبه للعلوم ، فاننا نجد أن العلوم التي اتخذت لديه صفة النموذج بالنسبة للعلم الوضعي هي بالدرجة الأولى العلوم الرياضية ثم الفلك والفيزياء والكيمياء . هذا بينما كانت علوم الحياة لا زالت تخطو نحو الاتصاف بالوضعية ، في حين أن من الضروري لأقامة علم وضعي بالمجتمع النظر في

الكيفية الخاصة التي يمكن أن تطبق بها الطريقة الوضعية في دراسة الظواهر المجتمعية . لذلك فان المنهج العلمي كما تطور في العلوم الرياضية وفي العلوم الطبيعية هو الذي أصبح لدى كونت معيارا للوضعية . ينتج عن ذلك ان كثيرا من المعـارف التي كـانت تصنف ضمن العلوم في التصنيفات السابقة . لا تتدرج ضمن تصنيفات كـونت . ان التصنيف الكونتي لا يشمـل كـما رأينـاالعلوم الوضعيـة النظريـة والمجردة ، ولا يصنف المعارف اللاهوتية والعلمية والتطبيقية ، إلا أن اثبات هذا التقدم لتصنيف العلوم عند كونت لم ينف عنه قيام عدد من الاعتـراضات التي تنـاقشـه في مبـادئـه . من أهم هـذه الاعتراضات ما يلي :

أ ـ يربط أوجيست كونت بين تصنيفه للعلوم وبين بلوغ العلوم المصنفة المرحلة الوضعيـة ، وهذا من خلال القول بقانون عام لتطور الفكر البشري وهو قانون مروره على التعاقب بحالات ثلاث في تطوره تبدأ بالمرحلة اللاهوتية وتنتهي بالمرحلة الوضعية مرورا بالمرحلة الميتافيزيقية .

هناك أمر ايجابي في هذا الارتباط هو ان كونت لا ينظر الى تاريـخ الفكر العلمي نـظرة مجردة ويربطه بالتاريخ العام للبشرية . يقـول كونت بهذا الصدد :

(أننا باعتبار التطور الفعلي للفكر الانساني في مجمـوعه ، سنـلاحظ بصفـة اقـوى ان العلوم المختلفة نمت في الواقع في نفس الوقت وفي تأثير متبادل ، بل ونـرى بان تقـدم العلوم والفنون يـرتبط بعضه بـالبعض الآخر بفعـل تأثيـرات متبادلة لا عد لها ، وأخيرا بان هذه العلوم قد تـطورت في ارتبـاط ضيق مـع التـطور العـام للمجتمـع الانسـاني . ينتـج اذن انـه لا يمكن معرفة التاريخ الحقيقي لأي علم ، أي التكون الواقعي للاكتشافات التي يتألف منها ، إلا اذا درسنا بكيفية عامة ومباشرة تاريخ الانسانية . لذلك فان كل الوثائق المجمعة حتى الآن حول تاريخ الرياضيات والفلك والطب . . . الخ لا تعتبر مهما كانت إلا مواد للعمل) .[٣٠]

إن الايجابي في تأكيد كونت هنا انه يربط فهم تاريخ العلوم بضرورة العودة الى تاريخ الفكـر البشري بصفة عامة والى تاريخ تطور المجتمع الانساني بصفة أعم . الا ان هذا التأكيد لا يبدو بالرغم من ايجابيته كافيا في الصورة التي يقدمها بـه كـونت . ذلـك لأن كـونت يقـدم تصـورا مضبوطا عن علاقة تـطور العلوم بالمجتمـع ، ويكتفي بان يقيم تقابلا بين الحـالات الثلاث التي تتعـاقب في تطور الفكـر البشري وبعض المراحل التي يعرفها تاريخ التطور الانساني ، ثم يقابل بعد ذلك بين تلك الحالات الثلاث وبين تطور الخاص لكل علم من العلوم .

ثم أن هذه الفكرة العامة التي يؤسس عليها كونت تصنيفه للعلوم والقائلة بأن الفكر البشري

(٣٠) أخذنا هذا النص عن مختارات لاوجيست كونت ، المطابع الجامعية الفرنسية ص ٤٠ .

يمر ضرورة وعلى التعاقب بالحالات اللاهوتية والميتافيزيقية ليصل في نهاية تطوره الى المرحلة العلمية ليست الا فكرة عامة من جهة اولى قد لاتعكس حقيقة التطور الفعلي للفكر البشري كما ان الفكرة من جهة ثانية ، فكرة تطورية ترى ان تطور الفكر البشري يسير في خط استمرار متطور وتفهم ضمن ذلك التطور الخاص بالمعرفة البشرية .

واذا انتقلنا الآن الى تصنيف العلوم ذاته ، وجدنا أن من بين اهم الانتقادات التي تؤخذ عليه انه لايذكر جملة من العلوم منها أولا بعض العلوم التقنية ، ثم منها ثانيا بعض العلوم النظرية المتمثلة بصفة خاصة في بعض العلوم الانسانية كعلم النفس والتاريخ واللسانيات ، فاوغست كونت يوحد العلوم الانسانية جميعها في علم واحد هو علم الاجتماع .

فيما يخص العلوم الاولى ، أي العلوم التقنية ، نظن ان موقف اوجيست كونت اقوى من منطق الاعتراض عليه . وذلك لان كونت لاينكر وجود مثل هذه العلوم . ولكنه يرى فقط انها لايمكن ان تصنف ضمن العلوم النظرية الأساسية . والواقع أن جميع تصنيفات العلوم التي حاولت بعد كونت ادماج العلوم التقنية لم تختلف كثيرا عن تصنيف كونت ، اذ انها ادمجت العلوم التقنية بوصفها ملحقة بعلوم نظرية أساسية وحفظت في الغالب من حيث هذه العلوم الاساسية على نفس العلوم التي ذكرها كونت فهي تصنيفه .

من حيث العلوم الانسانية التي لم يذكرها كت ، يقتضي الامر النظر في حالة كل واحد منها على حدة .

لنأخذ أولا حالة علم النفس ، ان كونت لايذكر هذا العلم ضمن العلوم التي يرتبها ولكن ذلك لم يكن اغفالا منه ، بل اعتبارا منه الى ان علم النفس كما كان قائما في زمنه لايمكن ان يكون علما وضعيا من جهة أولى ، ثم ان الموضوعات التي يريد هذا العلم دراستها لاتتطلب قيام علم خاص بها ، لأن علم الاجتماع يمكن ان يشمل دراستها .

فمن حيث الموضوع لا يهمل كونت الظواهر النفسية لكونها ظواهر واقعية ، ولكنه لا يرى فيها موضوعا يمكن أن نرجع دراسته الى علم خاص نرتبه ضمن قائمة العلوم الوضعية ، فاذا كان هذا العلم يريد أن يدرس الشروط العضوية التي تتوقف عليها الظواهر النفسية والعقلية فان هذا يكون من اختصاص الفيزيولوجيا . أما اذا كان يريد أن يدرس نتائج الفعاليات العقلية فان هذا الأمر من اختصاص علم الاجتماع . وبذلك يفقد علم النفس مبرر وجوده من حيث الموضوع ، لأن هذا الموضوع يتقاسمه علمان هما الفيزيولوجيا من جهة ، وعلم الاحتماع من جهة أخرى .

أما من حيث المنهج ؛ فان دراسة المضايا التي يريد البعض ارجاعها الى علم النفس كانت لا تزال في نظر كونت محلا لصراع بين الطريقة اللاهوتية التي تجعل هذا العلم علما بالنفس ،

وهذا مستحيل اذا أريد لهذا العلم أن يكون علما وضعيا ، وبين الطريقة الميتافيزيقية التي قد تجاوز الأولى ولكن دون أن تصل الى الاتصاف بالصفة الوضعية بالنظر الى أنها تريد أن تعتمد التأمل الباطن لمعرفة الظواهر النفسية . والواقع أنه لا يمكن اعتماد المنهج الباطني في علم النفس لما في ذلك من تناقض من حيث إن الذات الواحدة لا يمكن أن تكون في الوقت ذاته ذاتا ملاحظة وأخرى هي موضوع للملاحظة .

وهكذا يمتنع ادراج علم النفس ضمن العلوم الوضعية سواء من حيث موضوعه أو من حيث منهجه ، فكونت اذن يبعد علم النفس من عداد العلوم الوضعية ولا يفعل اغفال الوقائع التي يدرسها هذا العلم ولا بفعل عدم ادراك أهمية المحاولات التي كانت قائمة في زمنه لتأسيس علم النفس ، ولكن لأنه لم يكن يجد في هذه المحاولات الشروط التي تجعلها معرفة وضعية .

أما التاريخ والاقتصاد واللسانيات فان جواب كونت المبدئي بالنسبة اليها هو أن الظواهر التي تدرسها هذه العلوم هي ظواهر مجتمعية من اختصاص علم الاجتماع . لذلك فان ما يجب مناقشته لدى كونت ليس هو عدم ذكره لهذه العلوم بل هو الوحدة التي يفرضها على العلوم الانسانية ضمن علم واحد هو علم الاجتماع . ويمكن في نظرنا مناقشة كونت وفقا للشروط التي تدفع في نظره الى التقسيم المنظم للمعارف الانسانية . فكونت يرى أن المعرفة الانسانية قد كانت تعرف حالة خلط ضروري بين المعارف المختلفة ، حيث كان فكر واحد يشغل بكل المغارف التي تسود زمنه . ولكن نمو المعارف في الميادين المختلفة قد أدى بالتدريج الى استحالة استمرار حالة الخلط السابقة والى ضرورة التقسيم المنظم لمجموع معارفنا . وهكذا فان كل فرع من فروع المعرفة قد أصبح علما مستقلا عندما وصل به نموه وتراكم المعارف به الى أن يكون قادرا على أن يشغل وحده فكر مجموعة من الباحثين . اذا كان هذا هو الدافع الذي دفع الى تقسيم المعارف فاننا يمكن أن نطرح التساؤل حول وحدة علوم الانسان في علم الاجتماع : ألا تكون تلك الوحدة مجرد خلط ضروري ينبغي تجاوزه ؟ الواقع هو ان العلوم الانسانية قد عرفت بعد كونت تطورا ملحوظا ، حيث تقدمت الدراسات الانسانية في الجوانب المختلفة التي تتعلق بها تلك العلوم الى الحد الذي أصبح معه كل فرع من فروعها قادرا على أن يكون علما خاصا مستقلا بذاته من حيث أن نمو المعارف به قد جعله ميدانا قادرا على أن يشغل وحده فكر مجموعة من الباحثين .

بالاضافة الى هذه العلوم الانسانية فان هنالك علما آخر يوجه الى كونت انتقاد اغفاله ضمن قائمة علومه الوضعية وهو علم المنطق . لذلك فاننا نجد أن بياجيه يدمج هذا العلم ضمن العلوم التي يصنفها ، ولكنه يدمجه ضمن مجموعة العلوم التي يدعوها بالعلوم المنطقية الرياضية .

يوجه الى تصنيف أوجست كونت للعلوم

انتقاد آخر . وهو أن هذا التصنيف لا يعكس حقيقة العلاقات بين العلوم . فأوغست كونت يأخذ في نظر كدروف بتصنيف استاتيكي . فالعلوم توضع في تصنيف كونت وكأن كلا منها يمثل حقيقة ثابتة لا تتطور . إذن العلوم توضع ضمن ذلك التصنيف في صورة تقابل خارجي بينها ، دون النظر الى العلاقات المتبادلة التي تجعل البعض منها يتطور انطلاقا من البعض الآخر ، وخاصة انطلاقا من العلوم الأكثر بساطة الى العلوم الأكثر تعقيدا . ان ما كان يهم كونت بالأساس هو البحث في تناسق العلوم لا البحث في تبعية البعض منها للبعض الآخر بصورة متبادلة . ويفسر كدروف هذا النقص في تصنيف كونت للعلوم بكونه راجعا الى نظرة كونت الى الطبيعة التي كانت نظرة ميتافيزيقية لا نظرة جدلية ، وهو أمر يرجعه كدروف لا الى كونت وحده ، بل الى النظرة التي كانت سائدة عن ظواهر الطبيعة والتي تعكس بدورها مستوى تطور علوم الطبيعة . فالواقع انه اذا كان ينظر الى موضوعات الطبيعة باعتبارها موضوعات ساكنة خاضعة لقوانين ثابتة ولا تعرف الانتقال من الواحد منها لى الآخر . فان انعكاساتها (أي العلوم التي تدرسها) ينبغي أن تعتبر بالضرورة متقابلة وليس ناتجا بعضها عن البعض الآخر .[٣١] .

ويستلهم كدروف هنا وجهة نظر انجلز التي يعرب عنها في احدى مراسلاته مع ماركس سنة ١٨٧٣ . يعبر انجلز عن أفكاره الجدلية بصدد العلوم الطبيعية كالآتي : ان موضوع العلوم الطبيعية هو المادة في حركتها أي الأجسام . فالأجسام لا يمكن فصلها عن الحركة ، لأن صورها وأنواعها لا يمكن أن تعرف الا بفضل الأجسام الحرة ، فليس هناك ما يمكن قوله بصدد الأجسام خارج اعتبارها انطلاقا من الحركة ومن علاقاتها بالأجسام الأخرى . ولذلك فان الموضوع الرئيسي للعلوم الطبيعية هو بالتالي الأشكال المختلفة للحركة . وينتج عن ذلك ان العلوم الطبيعية تنقسم تبعا للأشكال المختلفة للحركة . وهناك في نظر انجلز أشكال أربعة للحركة . فأبسط الحركات التي هي تغيير المكان حركة ميكانيكية والعلم الذي يدرس هذا الشكل من أشكال الحركة هو الميكانيكا . ولكن هذا الشكل البسيط للحركة ينتج عنه في درجة معينة من كثافته وفي شروط معينة أشكال أخرى . من الحركة متميزة عن الحركة الميكانيكية : الحرارة ، الكهرباء ، الضوء ، الجاذبية المغنيطيسية وهذه الأنواع من الحركة هي التي يختص علم ثان بدراستها هو العلم الفيزيائي ، والفيزياء عند دراستها لكل نوع من أنواع الحركة المذكورة تصل الى أن بعضها يتحول الى البعض الآخر ، والى أنه ينتج عنها أنواع أخرى من الآثار تتجاوز العلم

(٣١) راجع كتاب Kedrov السالف الذكر في فصله المخصص لدراسة أوجيست كونت .

الفيـزيـائي لأنها تغيـرات في البنيـة الـداخليـة للأجسام ، أي آثار كيميائية هي التي يدرسها علم ثالث هو الكيمياء . وهناك أخيـرا حركـة أعقـد من هـذا النـوع الأخير هي المتعلقـة بـالعضـويـة الحيـة وهي التي يـدرسهـا علم الحياة .(٣٢) .

وهكذا نرى ان العلوم الطبيعية أربعة لأنها توافق المستويات الأربعة لحركة المادة والمتدرجة من نوعها الأبسط الى نـوعها الأعقـد . ولكن انجلز يؤكد ان هذه الأنواع من الحركـة ينبثق بعضهـا عن البعض الآخر . وبـالتالي ، فـان العلوم التي تدرسها يتطور بعضها انـطلاقا من البعض الآخر . ان هذا الأمر يخالف مـذهب أوجسيت كونت في تصنيف العلوم ، من حيث أنه لا يضعها متقابلة بل مترابطة بعضها بالبعض الآخر . ولكن هذا الارتبـاط يتجاوز مـا يقف عنده كونت من البحث في التناسق بين العلوم لا يعمل ، بدلا من ذلك على ارجاع أي من هذه العلوم الى الآخر .

يـلاحظ بياجيـه عـلى تصنيف كـونت عـدة ملاحظات . فهو يأخذ عليه عدم ذكره لبعض العلوم ويخص منها بالذكر علم النفس والمنطق . كما أنه يأخذ على تصنيف كونت للعلوم انه يسير في تصوره لعلاقات العلوم بعضها البعض الآخر في اتجاه خط مستقيم ، بحيث ان العلاقات بين العلوم تكون بين كل علم ولاحقه في الترتيب ، وذلك دون أن يقدم لنا كونت أي تصـور عن علاقات متبادلة بين العلوم ، وعلى العكس من ذلـك فان بيـاجيه يشيـد بتصنيف « كدروف » باعتباره أقرب التصنيفات في نظره الى العلاقة الواقعية القـائمة بـين مختلف العلوم التي يمكن تصنيفها . لذلك يقدم بياجيه ضداً على تصنيف كونت للعلوم تصنيفا يشمل أربعة مجموعات من العلوم هي :

١ ـ العلوم المنطقية الرياضية .
٢ ـ العلوم الفيزيائية .
٣ ـ العلوم البيولوجية .
٤ ـ العلوم النفسانية السوسيولوجية (بما في ذلك اللسانيات والاقتصاد) على أن هذه العلوم لا ترتب بصورة خطية تجعل العلاقة قائمة فيها بين كل مجموعة والتي تسبقها في الترتيب ، بل تنظم بصورة تجعل العلاقات بينها متبـادلة من جهـة أولى ، كما ان العـلاقات يمكن أن تقـوم فيهـا ، مثـلا بيت علوم المجمـوعـة الأولى والمجموعة الأخيـرة ، انطلاقـا من أية واحـدة منهـا . فالعلوم النفسيـة ـ السوسيـولوجيـة لا تستفيد من العلوم الرياضية فحسب ، بل إنها هي ذاتها يمكن أن تفيد هذه العلوم . يميز بياجيه بصدد كل العلوم بين أربعة ميادين هي : الميدان المادي الذي هو مجموع الموضوعات التي يتناولها العلم ، والميـدان المفهـومي ، وهـو مجمـوعـة المفاهيم ، والابستمولوجيا الداخلية أي الخاصة

---

(٣٢) راجع مراسلات انجلز وماركس ، مطابع التقدم موسكو (باللغة الفرنسية) ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

بكل علم ، والابستمولوجيا العامة . ومن الواضح أن الميدان الأول والرابع هما اللذان يتضمنان العلاقات بين العلوم ، ومن هذه الناحية يمكن أن نربط العلوم الرياضية المنطقية بالعلوم النفسانية ـ السوسيولوجية . وذلك لأنه يمكن ربط البنيات المنطقية الرياضية باللغة ، وهكذا اذن نفهم العلاقات بين العلوم بصورة دينامية لا بصورة استاتيكية .

تلك أهم الانتقادات التي وجهت الى تصنيف كونت للعلوم والتي أدت بعدد من المفكرين الى تقديم تصنيفات أخرى ، تقوم على مبادىء مغايرة في ترتيب علومها وفي النظر الى العلاقات التي تربطها . ومن الواضح أن تجاوز تصنيف كونت يعتبر أمرا طبيعيا بالقياس الى أن اللحظة المعرفية التي أنجز فيها كونت هذا التصنيف قد تجاوزت . ولذلك نجد أن بياجيه يضيف الى تصنيفه عددا من العلوم التي لم يذكرها كونت كالمنطق المرتبط لديه بالرياضية ، وكالعلوم النفسية والاقتصادية واللسانية .[٣٣] .

***

(٣٣) راجع ما كتبه بياجيه بهذا الصدد في الفصل الذي خصصه لتصنيف العلوم من المؤلف الذي أشرف على انجازه .

Logique et Connaissance Scientifique, In Encgclopedre de Lopleeole (1967)

علـــوم

الكيمياء ومشكلة الطاقة المكملة

محمد نبهان سويلم

أستاذ ـ منتدب ـ التكنولوجيا الكيميائية بالكلية الفنية العسكرية ـ القاهرة

الطاقة كلمة متسعة المعنى متشعبة المفاهيم تدل على عدة مدلولات وتحوي أكثر من مغزى ، ويندرج تحتها وبين جنباتها عدد كبير من حقائق العلم وصور متعددة من واقع فعلي مستبان أثره وفعله ، لكن الفاعل ما انفك مجهول الهوية ... ورغم هذا الاختفاء اصبحت في أيامنا كلمة شائعة الاستخدام والتناول ، نقرأها كثيرا كل صباح ومساء ، ونسمع صداها يتردد يوميا سيان على قارعة الطريق أو بين قاعات الدارسين ، وتتلقاها مسامعنا من صوت مذياع منطلق او تليفزيون مضيء ولا تكاد ساعة تمر أو يوم ينقضي الا وتشغل عقول الناس بين الأمل والرجاء والخوف والقلق . والكلمة ـ الطاقة ـ رغم انتشارها فهي إعلام بشيء مبهم وتعبير عن حالة أو صورة ذهنية أو دلالة ... نتعامل معها ولا نمسك بها ، وندرك فعلها ولا ندركها ، نستشعرها في أشكال متعددة ، ولا نلقاها وجها لوجه ، نحس بها في تنفس كائن حي ، أو نمو نبات أو هبات الرياح وفي دفء الشمس وبرودة الثلج ، أو هدير الماء ، لكننا غير قادرين على رؤيتها رأي العين ، فهي مدلول غيبي ولن تكون مدلولا بيقين ، فالانسان يستطيع وصف كتاب او ثمرة او جريدة او زهرة او ما شابه من المواد ذات الكيان والوجود ، واشغال الفراغ ، لكنه يعجز عن وصف الطاقة وتحديد كنهها ، ولو وضع مصدر طاقة بين يديه وحاول ترجمة خياله عنه فلن يكتب الا عن المادة الماثلة امام ناظريه ، أما الطاقة الداخلية فشيء لا يلمس ولا يدرك ، لكنه رجع الصدى لفعل نحدثه في المادة ، فاذا بالطاقة تبرز من مخبئها بين الجزئيات والذرات وتتلقى رد الفعل في الحركة والحل والترحال والنمو... الخ .

والطاقة وفق المفهوم الحسابي وتحت راية علوم الرياضيات تعني القدرة على بذل شغل ، فيقال مثلا الانسان البالغ قادر على حمل ثقل وزنه خمسون كيلوجراما ورفعه من مستوى سطح الارض ـ ضد الجاذبية الارضية ـ الى مستوى كتفيه أو وضعه على رأسه ، ورفعه الثقل معناه أنه بذل عملا خلال مسافة تحسب بالسنتيمترات او الأمتار وحركته هذه اكسبت الثقل طاقة وضع او طاقة امكانية او طاقة ارتفاع نتيجة رفعه عن سطح الارض .

وإن شاء الانسان استعادة هذه الطاقة او تسخيرها في عمل مفيد لا عليه الا ترك الثقل يهوى من عليائه فوق قطعة من السكر فيهشمها او يدق به عنق مسمار او يحطم به قطعة خشب وان شاء وكرر تجربة العالم الانجليزي جول فانه قادر على تقدير المكافىء الميكانيكي للطاقة التي بذلها .

ولو تأملنا المثال السابق لوجدنا أمرا يستحق وقفة قد ندرك منها شيئا نافعا او نأتي منها بقبس علمي يضيء الطريق ، فان لم نتوصل الى شيء فحسبنا الأمر ان طاقة عضلات الانسان تحولت امام اعيننا الى طاقة وضع ، اذ بها في النهاية تأتي على صورة طاقة ميكانيكية ، وكلها صور من ابداعات تأتي جنبا الى جنب مع الطاقة الكهربية والطاقة الكيميائية والطاقة النووية وطاقة الرياح وطاقة المد والجزر والطاقة الحرارية وجميعها من أصل واحد تشترك وتتآزر في تحقيق الشغل النافع ، او تشترك أزواجا او جماعة في عمل محدد ، فنحن نرى زمرة من صور الطاقة ينتظم عقدها في القاطرة الحرارية ، فالطاقة الميكانيكية المستفادة من الماكينة العملاقة تحرك المكابس فتندفع القاطرة الى الامام ، وتدير العجلات التي تحرك بدورها مولدات كهربية تمد العربات بالتدفئة والتكييف وتثبت فيها النور والضياء والباقي منها يرتد الى البطاريات حيث تتحول الى طاقة كيميائية ، فاذا توقف القطار انقلبت الآية وانعكست التفاعلات داخل البطاريات وأخذت على عاتقها مهمة توفير الضوء والحرارة للركاب . أما الطاقة الميكانيكية في القاطرة فزودتها بها غازات الاحتراق التي تصدر بدورها عن الطاقة الكيميائية للوقود البترولي المستخدم ، وما المقطر البترولي الا قطعة من البترول الخام الذي هو بدوره عبارة عن تحلل الخلايا الحية في نباتات وحيوانات عاشت قبل ملايين السنين واستمدت غذائها من ضياء الشمس .

ويثبت المثال الذي أشرنا اليه أن كل الطاقات المتاحة يمكن تحويلها من صورة الى صورة فهي لا تفنى ولا تتبدد بل تتحور وتتبدل ، لكن ليس من السهل علميا إجراء التبديل والتحوير وفق الأهواء والرغبات فلكل أمر حدود وضوابط ، فهناك كما في دنيا الناس ضرائب ومكوس يجب أن تؤدي حين يتم الكسب ، وتحويل الطاقة لا يبعد عن ذلك ، بيد أن الجزية هنا قد تكون حرارة أو احتكاكاً ، فالطاقة الحرارية يسهل تحويلها الى طاقة ميكانيكية ، بينا يصعب إجراء العكس الا بكفاءة ضحلة ، والطاقة الميكانيكية يمكن تحورها بسهولة الى طاقة كهربية ، وعلى النقيض تفقد الطاقة الكهربية جزءا وقدرا وكما لا يستهان به اذا انقلبت وحولت الى حرارة . وكان للامر مسارا منتظما وخطا مرسوما ومنهجا معلوما يبدأ اولا من الطاقة الحرارية أم الطاقات والمنبع الاساسي

والعملي لكل صورها ، فهي المنشأ والاساس والقاعدة الراسخة للحصول على صور الطاقة المتعددة ، ويصدق قول بعض العلماء لولا النار والحرارة لظل الانسان أسير الغابة لا يبرحها ، ولا نبا بها ، على أرضها يعيش وبين ثراها يدفن لا فرق بينه وبين أسد أو فيل ، وما قامت على الأرض حضارة

تذكر او كان لها تاريخ يستعاد ، لن اكتشاف الانسان للطاقة الحرارية او بالمعنى الدارج النار فتح للبشرية باب الارتقاء والرفعة ونقلها من مرتبة الوجود الحيواني الى رحلة التطور الحضاري ، وكانت بمثابة الخطوة الاولى على طريق الانطلاق او إشارة بدء الرحلة الحضارية ... حقيقة عرف الانسان الأول النار منذ قرابة ٢٥٠,٠٠٠ سنة خلال الحقبة الجيولوجية المعروفة بالعصر البيلوسيني التي عاش خلالها إنسان بكين الذي استمرأ الاستقرار والاقامة فوق أرض عاصمة الصين الحالية ، وكشفت البعثات كهفه الذي ارتضاه منزلا ومعاشا وعثر فيه على كمية من رماد الخشب تجاور بعض القدور والأواني الفخارية .

المهم لا يعنينا في مقامنا هذا الـ ٢٥٠,٠٠٠ سنة فهذا تاريخ له علماؤه ومريدوه إنما يهمنا بالدرجة الاولى الاشارة الى ان التغيير الحقيقي والارتقاء الحضاري الفعلي بدأ مع مشارف واشراقات الثورة الصناعية ، فرغم معرفة الانسان بالنار من أكثر من الفين وخمس مائة قرن فقد ظلت الطاقة العضلية للانسان والحيوان تمثل ٩٥٪ من جملة الطاقات المستخدمة في العالم الى عام ١٨٣٠ ميلادية ، ويوم جادت بعض القرائح بزاد علمي يسير اذا بالطاقة العضلية تدنو الى ٩٠٪ عام ١٨٥٠ ، وما أن أشرق عصر العلم حتى تبدل الحال غير الحال ولم تعد تمثل الطاقة العضلية اكثر من ٥٪ من جملة الطاقة المستخدمة على امتداد عالم اليوم .

١ ـ كيميائيا .. ما هي الطاقة الحرارية ؟

النار أو الاحتراق أو الطاقة الحرارية منذ ذلك الجد القديم والى ان تقوم الساعة عبارة عن تفاعل كيميائي حاد بين المادة المحترقة واكسوجين الهواء الجوي . ويسمي الكيميائي هذه العملية أكسدة ، وينتج عن الاكسدة طاقة كبيرة لدرجة ينتج عنها نار ، وهذا هو الاسم الذي يطلق على الحرارة والضوء المنطلقين بغزارة اثناء هذا التفاعل الكيميائي ، ولا تتكون النار أثناء عملية الاكسدة الا في الحالات التي يكون فيها التفاعل شديدا للغاية . ومثال ذلك إحتراق شمعة مصنوعة من الشحم فانها تعطي لهيبا ، في حين أن تأكسد نفس الشحم في جسم الحيوان يولد حرارة غير مصحوبة بلهب ، لان هذه العملية تتم تحت ظروف دقيقة للغاية ... لكن الأجدر من ذلك ان نفس كمية الشحم ينشأ عنها ذات كمية الطاقة سيان احترقت بسرعة كما في حالة الشمعة او ببطء كما يحدث في أنسجة الجسم ، فالخلاف ليس في كمية الطاقة المنبعثة فهي واحدة في الحالتين لكنه في سرعة انطلاق الطاقة .

من ذلك يتضح انه لابد من توافر بضع مواد كي يحصل القوم على الطاقة الحرارية .

١ ـ ١) الوقود :

وهو في مجمله عبارة عن مواد عضوية تتركب كيميائيا من ذرات متآلفة من عنصري الكربون

والايدروجين بدءا بالعشب ونهاية بالزيت الخام او الفحم ، لا فرق بين هذا وذاك الا بكمية ذرات كل عنصر ونسبتها الى بعضها البعض ولذلك تتباين وتختلف كمية الطاقة المنبعثة ، وقد يحتوي الوقود على شوائب من عناصر الكبريت أو الفوسفور أو النيتروجين أو الاكسوجين ، ولكن متى احترق الوقود والتهب أوراه تصاعدت غازات أهمها ثاني اكسيد الكربون وبخار ماء وقدر يسير من ثاني اكسيد الكبريت وبعض أكاسيد الأزوت .

١ ـ ٢) الاكسوجين :

لا يتم الاحتراق دون الاكسوجين (١) ولو سرنا على نهج الرعيل الاول من الكيميائيين لأطلقنا عليه ذات تسمية لا فوازيه الذي دعاه غذاء النار ، لانه لو أخذنا الفحم او البترول الى القمر لأصبحا عديمي الفائدة والقيمة نظرا لخلو جو القمر من الاكسوجين ، وكذلك فان وليمة فاخرة بدون اكسوجين لا تسمن ولا تغني من جوع ، والاكسوجين غاز يميل ميلا عظيما للاتحاد بالايدروجين مكونا اكسيدا ثابتا جعله رب العزة اساس كل شيء ، كما أن الاكسوجين يميل للاتحاد بالكربون مكونا اكسيدا ثابتا هو ثاني اكسيد الكربون ، وتختلف كمية الهواء اللازم لحرق وقود عن آخر . فرطل الخشب يحتاج حوالي ٧٣,٤ قدم مكعب ، وتحتاج نفس الكمية من الفحم ما مقداره ١٤٥ قدم مكعب ، ولنا خيالنا في تقدير حجم الهواء اللازم لانتاج الطاقة الحرارية في العالم ، ولسوف تنبهر العقول والافئدة بحكمة الخالق جل وعلا بجعله الهواء ثروة مشاعا تنالها كل الاحياء متى تشاء دون تمييز بين جنس وجنس ولم يعط السيطرة على مقدراته لإنس أو جان .

والاكسوجين والوقود منفردان لا يعملان نارا ولا يبعثان طاقة ، فقطعة الخشب الملقاة على رمال الصحراء تظل على حالها أبد الدهر رغم تلامسها المباشر مع الاكسوجين ما انفك بادىء الاشتعال غائبا ، لكن متى قرب منها شرر صغير تنشط الجزئيات والذرات من خمولها وتزداد حركتها الاهتزازية والانتقالية والدورانية وتكتسب مزيدا من حرية الحركة وتستعد داخليا للقاء الاكسوجين بسهولة ويسر ، وتتولد غازات الاحتراق وتعرض الطاقة الحرارية المحددة في عرف الكيمياء بأنها فرق الطاقة الداخلية للجزئيات المتفاعلة والداخلة في أتون الاشتعال وبين الطاقة الداخلية لبقايا الاحتراق صلبة كانت أو سائلة او غازات ... ويصدق قول القائل معظم النار من مستصغر الشرر .

٢ ـ وحلت الندرة محل الوفرة

إن ثلاثية انتاج الطاقة الحرارية رغم أهمية جميع مكوناتها وعناصرها لم تثر في العالم قدرا متوازيا من القلق ، فالاكسوجين والهواء الجوي بلا قيود او حدود ، وبادىء الاشتعال رغم أهميته القصوى شيئا يسير لا يكلف جهدا ولا يشحذ عقلا او فكرا ، وانما شغلت العقول بالعنصر الزائل المتقلص دواما . فالانسان

(١) الاكسوجين غاز عديم اللون والطعم ودرجة غليانه ـ ١٨٣ درجة مئويه ويكون الوزن ٨/٩ الماء وحوالي ١/٥ الهواء . ويرجع الفضل في اكتشافه الى الكيائي الفرنسي لافوازيه عام ١٧٧٧ .

الاول ـ بالحدس ـ بدأ في استخدام العشب الجاف لأنه الأسرع اشتعالا رغم طاقته الواهية ، بعدها استخدم أغصان الشجر والحطب ، ويوم عرف الاستقرار والتحضر وسكنى المنازل واقامة مجتمعات التوطن الدائم حول مجاري الماء وعيون الآبار نهض الى مخلفات الحقل ، ثم تطرق الى استهلاك الخشب مع بدء معرفته الصناعة البدائية واستخلاص المعادن ، ثم انكب على الفحم مع الثورة الصناعية وبدء عصر الصناعات الثقيلة ، حتى اكتشف الزيت الخام وعرف مزاياه الرائعة واستخلص من مكوناته مقطرات عديدة متنوعة ، فأتى اليه في أبشع صورة حرق جرت في التاريخ حيال خامة حفرية غير متجددة زائلة ذاهبة الى فناء ، وترك الفحم حيث وجد ، وغير الانسان نظمه الصناعية وانطلق لا يلوي على شيء ، فتزايد الاستهلاك العالمي من الزيت ٥,٣٪ سنويا منذ الحرب العالمية الثانية وينتظر أن يتعدى خمسة أضعاف المعدل الحالي عام ٢٠٠٠ لأسباب أهمها :

ـ تزايد عدد السكان بصورة حادة ، فبينما يزيد سكان العالم وفق متوالية هندسية اساسها (٢) حسب التردد ٦٤,٣٢,١٦,٨,٤,٢ .. مما يزيد الطلب على مصادر الطاقة عامة والبترول خاصة . بينما مصادر الطاقة لا تزيد الا وفق متوالية عددية اساسها ½ بالتردد ½ ، ١ ، ١½ ، ٢ ، ٢½ ... الخ

ـ استقلال غالبية الدول النامية وانطلاقها نحو خطط تصنيع طموحة وانتشار الميكنة الزراعية وارتفاع مستوى دخل الافراد وتغير النمط الاستهلاكي وتكالب الناس على شراء مستحدثات الحضارة وتكثف عمليات النقل .. كلها سببت ضغطا على موارد الطاقة .

ـ استحداث الدول الصناعية تكنولوجيا متطورة شبه آلية تستهلك قدرا متعاظما من الطاقة .

ـ تمسك شعوب الدول المتقدمة ودول الاقتصاد الحر بمستوى رفاهية مرتفع لا تقبل السيطرة عليه أو الاقلال منه ، ويكفي ما ذكره الاستاذ احمد بهاء الدين رئيس تحرير مجلة العربي في احدى مقالاته ـ ان ٦٨٪ من جملة موارد العالم يستهلكها ترفا ٣٢٪ من سكان الارض .

وحلت أزمة الطاقة :

ان قيام الحضارة الحديثة في جميع جوانبها (صناعة ـ نقل ـ انتاج زراعي ـ ادارة حياة الافراد ـ الانتاج الخدمي ...) على محور الزيت كان سلاحا ذا حدين ، حد يكمن فيه رخاء العالم ورفاهيته ، فسهولة تخزينه ونقله وتوزيعه ومنح مقطراته طاقة حرارية تناسب كل أغراض الاستهلاك جعل الضغط يشتد في طلبه ، بيد أن هذا تم على حساب النفط العربي في أغلب الاحيان ، ومع تصاعد الطلب على الزيت ظهر اتجاه الدول الصناعية المنتجة للنفط في تقليل انتاجها المحلي من الزيت وتعويض الخفض بالاعتماد على وارداتها من النفط العربي والذي تحول فجأة واصبح يمثل ٦٦٪ أو أكثر من جملة انتاج الدول المصدرة للبترول ، ولم يقابل بخفض أسعار المنتجات الصناعية ، إنما تعالت الدول الصناعية وتطرفت في رفع الأسعار .. وبدأت ازمة حادة في الطاقة قرب نهاية عام ١٩٧٣ .. واختلطت السياسة بالاقتصاد بالعلم ،

ورفعت الدول المتقدمة اعلام الدعوة الى حتمية ايجاد طريق بديل للطاقة يبعد عن البترول ، وما من حاكم تولى سدة الحكم ومقاليد الامر في الدول الصناعية المتقدمة منذ عام ١٩٧٣ الى يومنا هذا الا وطرح حل ازمة الطاقة كاحدى أوراق اعتماده الى شعبه ودرجة سلم يتسلقها الى مقاليد السلطة وتولي زمام الأمور. والأمثلة عديدة ومتنوعة وتأخذ مثالا واحدا من رد فعل الازمة المستمر ، ونجد من أشهر خطب الرئيس الامريكي كارتر ما أعلنه يوم اول يوليو ١٩٧٩ من ضرورة عدم استيراد امريكا اكثر من ٩ مليون برميل يوميا ويتحتم على الشعب الامريكي كبح جماح استهلاك النفط لعدة اعتبارات سياسية واقتصادية وعسكرية ، وحذر انه لو سارت معدلات الاستهلاك على النحو القائم فان الحكومة سوف تكون مطالبة في غضون عام ٢٠٠٠ باستيراد اكثر من ٣٠ مليون برميل يوميا ، ودعا الى ايجاد حلول علمية جذرية تبعد عن استخدام النفط.

٣ ـ مكملات الطاقة

والدعوة الى نبذ النفط والاستغناء عنه قدر المتاح ليست جديدة كما يتصور البعض ، بل لقد نشطت قبل عام ١٩٧٣ وبدأت حمى البحث العلمي مع بداية ١٩٧٤ ضمن حملة أطلق عليها بدائل البترول . ورغما عن المسميات وبريقها ونبرة التفاؤل العالية بين ثنايا الاسماء الا ان الواقع الحالي والمستقبل القريب يشيران بأنه لا فكاك من الازمة الراهنة الا بمنح المصادر المتاحة عمرا أطول والحد من استهلاك الزيت استهلاكا ترفيا ، وبذا يصبح مصطلح بدائل الطاقة خاليا من مضمونه ، فالبديل يعني التغيير وما يستتبعه من قلب أوضاع الانتاج والنقل والحركة رأسا على عقب بما يناسب الوافد الجديد ، ومادام البديل لازال جنينا في أحشاء الغيب لم يولد بعد ، فمن الأفضل والأوفق إستخدام مفهوم مكملات الطاقة فلا غنى عن الزيت لأمد طويل .

وأيا كان المسمى أو المصطلح الذي يوافق هوى العالم ، سيان استخدم مصطلح الطاقات الجديدة او الطاقة البديلة أو مكملات الطاقة ، فهي في مجملها لا تخرج عن واحدة أو أكثر أو كل هذه المصادر وفق تصنيف موضوعي وليس حسب حجم البحوث الجارية ، في محاولة للرد على السؤال هل يستطيع العلم كسب جولة الطاقة ؟

- اسالة الفحم الى مقطرات بترولية وغاز.
- البحث عن مكامن الغاز الطبيعي .
- اعادة استغلال الآبار البترولية بدرجة أكبر وبكفاءة أعلى مع التركيز على تطوير طرق استخلاص النفط من الرمال البترولية .
- استغلال الحرارة الجوفية المنبعثة من باطن الارض .
- التوسع في استخدام طاقتي الانشطار والاندماج النووي .
- التركيز على الايدروجين كوقود للمستقبل .
- اكتساب الحرارة الصادرة من الشمس .
- تحويل الطاقة الضوئية الشمسية الى كهرباء .
- تحويل طاقة الامواج والمد والجزر الى طاقة ميكانيكية .

ـ تسخير طاقة الرياح .

ـ استغلال الكتلة العضوية من مخلفات زراعية ومخلفات مدن ومخلفات بشرية وتحويلها الى وقود غازي أو وقود سائل .

ـ توليد الطاقة الكهربية بطرق كيميائية وخيصة .

ـ خزن الطاقة الكهربية وادماجها مع الشبكات الكهربية .

ـ اعادة النظر في هندسة انتقال المادة والحرارة لتحقق اعلى كفاءة متاحة .

ـ خزن الرياح والماء واستعادة طاقة الوضع والحركة .

ـ الاتجاه نحو تمعدن غازات الوقود وخاصة الايدروجين بمعنى تحويل غاز الايدروجين الى كتلة صلبة جافة .

٤ ـ ودخلت الكيمياء ساحة المعركة

ان التحدي كبير ، السؤال السالف ليس سهل الاجابة ، فلأول مرة يواجه العلماء تحديا شموليا لا انفصام بين عناصره ، وليس علما أكاديميا محضا ، كل يتداوله حسب هواه إنما مشكلة عويصة ذات جوانب اقتصادية وسياسية وعلمية وتقنية وبيئية واجتماعية ، مشكلة مركبة متشابكة وصعبة المراس تتطلب كل العقول والقدرات والامكانات العلمية المتاحة بحيث ينتظم عقدها في توافق وتوازن والكل فيها مدد وعون للآخر والجزء يتكامل مع الكل ويدور في فلكه بانضباط والتزام ودأب غير كلول .

وفي خضم هذا التحدي برز دور الكيمياء بروزا عظيما ، فقد يظن البعض منا ان سخان الماء الشمسي هو مجرد تصميم هندسي لا مجال للكيمياء فيه ، والحقيقة هي العكس تماما ، فالى جانب التصميم الهندسي وحسابات الزوايا وانتقال الحرارة وسقوط الاشعة الحرارية ومروقها الى قلب السخان يا حبذا لو ابتدع أهل الصنعة والكيمياء نوعا جديدا من البويات او الطلاءات السطحية الماصة للحرارة ، فقد ترتفع قدرة السخان عدة مرات وتجعله يمتص قدرا أكبر من طاقة الشمس .

والأمثلة كثيرة ومتعددة ومتنوعة ، ومجال البحوث الكيميائية في ميدان الطاقة المكملة متشعبة وممتدة وتلفت النظر باتساعها .. ونفتح الباب ونمرق سويا لنرى ماذا يحدث في هذا الخضم العلمي الهادر بعدما سبحنا طويلا ، لكن ليس بعيدا عن المشكلة فنحن لازلنا في قلب الموضوع وصلبه .

٥ ـ الكيمياء واسالة الفحم

علميا يعتبر الفحم صخورا رسوبية تكونت من بقايا النباتات التي دفنت في باطن الارض منذ بلايين السنين وتتمركز معظم مناجمه في نصف الكرة الشمالي ويعود تاريخ تكوين الفحم الى قرابة ٣٥٠ مليون سنة مضت ، وهي الحقبة الجيولوجية المسماة بالعصر البلازويك والتي أتاحت تكون الفحم الحجري الجيد بينما تكون الفحم الأقل جودة إبان العصر الجيولوجي كريتاسيوس في غضون ١٣٦ مليون سنة .

وفي هذه العصور الجيولوجية السحيقة اتصفت الطبيعة الجوية للارض بدرجة رطوبة عالية واحتوى الهواء على نسبة كبيرة من ثاني اكسيد الكربون جعلت النباتات والاشجار تنمو أسرع من المعدل الحالي ، مكونة أشجارا عملاقة تخزن قدرا عظيما من

الكربون ، لكنها قصيرة العمر سهلة الموت وتسقط في شقوق الارض وبين ثنايا التربة متحولة تحت الضغط والحرارة الى فحم اللجينيت والذي يتحول بدوره الى فحم البيوتومين وينتهي امره الى فحم الانتراسيت ، ومثل هذا التحول لازال ملحوظا في دلتا الأنهار الكبيرة مثل نهري الامازون والمسيسبي ، وتتراوح طبقة الفحم المتكونة بين عدة سنتميترات وتصل أحيانا الى حوالي ١٢٠٠ متر.

وتتوقف خصائص الفحم على نوعية الاشجار التي كونت الراسب الحي ونوعية الطبقات الضاغطة على المادة السليلوزيه ودرجة التحلل التي أصابت الألياف ودرجة وحدة التقلبات الجيولوجية في القشرة الأرضية .

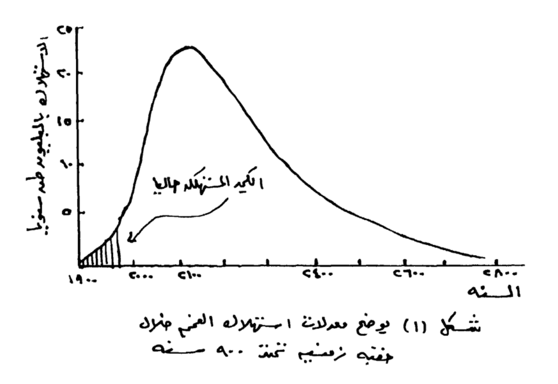
واقتصاديا تقدر كميات الفحم المتاحة عالميا سيان المؤكدة والمحددة بخرائط جيولوجية أو المحتملة بحوالي ١٥,٣ × ١٠^١٢ أي خمسة عشر وثلاثة أعشار وأمامها اثنا عشر صفرا حسب الجدول .

ومن الدراسة التي قدمها باول أفريت P. Averit عام ١٩٦٩ وأهمل فيها كل رواسب الفحم اقل من ٣٠سم لعدم جدواها اقتصاديا يمكن القول بان نصف المتاح عالميا يعتبر ذا جدوى اقتصادية عالمية ويمكن استغلاله مئات السنين على اعتبار أن أقصى ما يمكن استخراجه عالميا لن يتعدى ٥٠٠ مليون طن . شكل (١)

ويشير الشكل رقم (١) الى معدلات استخراج الفحم ، ونلحظ زيادة كبيرة في السنوات الاخيرة بعد تصاعد ازمة الطاقة واهتمام الولايات المتحدةوالدول الصناعية عموما نحو الارتكاز على الفحم كمصدر محلي متوافر يمكنه ان يشكل تعويضا عن النفط ، ولذا اهتمت به كثيرا مؤسسة Energy Research and Development Association المعروفة اختصارا باسم E.R.D.A في احدى محاولاتها النشهيرة لكسر احتكار البترول العربي وقد وضعت خطط E.R.D.A على هيئة برنامج انتاجي يتكلف

جدول رقم (١) كميات الفحم المتاحة عالميا

الدولة أو القارة	احتياطي الفحم × ١٠^٩ طن			النسبة
	مؤكد	محتمل	الاجمالي	المئويه
آسيا	٤٥٣	٩٠٧	١٣٦٠	٨,٩
روسيا	٥٨٩٥	٢٧٢١	٨٦١٦	٥٦,٤
الولايات المتحدة وكندا	١٥٦٠	٢٦١٢	٤١٧٢	٢٧,٣
أوروبا	٥٦٢	١٩٠	٧٥٣	٤,٩
افريقيا	٧٢	١٤٥	٢١٨	١,٤
امريكا اللاتينية	١٨	٩	٢٧	٠,٢
تحت مياه البحار والمحيطات	٥٤	٦٤	١١٨	٠,٨



شكل (١) يوضح معدلات استهلاك الفحم خلال فترة زمنية تمتد ٩٠٠ سنة

٣٠ مليار دولار في اطار خطة عشرية (١٩٧٣ ـ ١٩٨٣) تبغي انشاء سلسلة من معامل الاسالة قدرة الواحد ٥٠,٠٠٠ برميل نفط صناعي يوميا ويستهلك المعمل الواحد ٢٥,٠٠٠ طن فحم يوميا ويتكلف المعمل حوالي ١,٥ مليار دولار.

والسؤال الآن ... كيف السبيل الى اسالة الفحم وكيف تدخلت الكيمياء لتواجه المشكلة المطروحة وتتناول تكنولوجيا الكيمياء المتغيرات العلمية وتطرح على ارض الواقع حلا محليا لأزمة النفط المستورد ؟

●●●

ويقول الكيميائيون ان اسالة الفحم الى نفط وغاز ترتكز على تفاعل كيميائي بسيط لم تقم به الطبيعة لحكمة لا يعلمها الا خالق السماوات والارض فكلا الفحم والبترول مزيج من مواد كيميائية اساسها الكربون والايدروجين والفرق الوحيد بينهما ان النفط يحتوي على نسبة عالية من الايدروجين بينما يحتوي الفحم على نسبة عالية من الكربون . ولو امكن اجبار ذرات الايدروجين على الالتحام مع جزئيات الفحم لتكون النفط.

وبمعنى لغة الكيمياء

٧ ذرات كربون + ٨ جزئيات ايدروجين ← جازولين

وقد تم اجراء ما يكفي من البحوث الكيميائية لإمكان التنبؤ بانجاز تكنولوجيا عالية الكفاءة يمكنها استكمال ما لم تقم به الطبيعة ، لكن احتياج العملية الى الايدروجين جعلها صعبة ، فاستخدام الايدروجين من تحليل الماء كهربيا سوف يدفع تكاليف اسالة الفحم الى سعر غير اقتصادي او منافس للخام الطبيعي ، ولهذا اتجهت الكيمياء الى جعل الفحم يفصد الايدروجين والذي يعاد الى الفحم مرة اخرى معطيا النفط الصناعي ومزيجا من الغازات الهيدروكربونية بديلا عن الغاز الطبيعي . ويقول اهل الكيمياء هناك جملة طرق قديمة العهد منذ الحرب العالمية الثانية اعادت E.R.D.A الى وضعها مرة اخرى تحت مجهر العلم وعيون الاقتصاد في محاولة للتوفيق بين الكفاءة والسعر. واهم هذه الطرق الاربعة : ـ

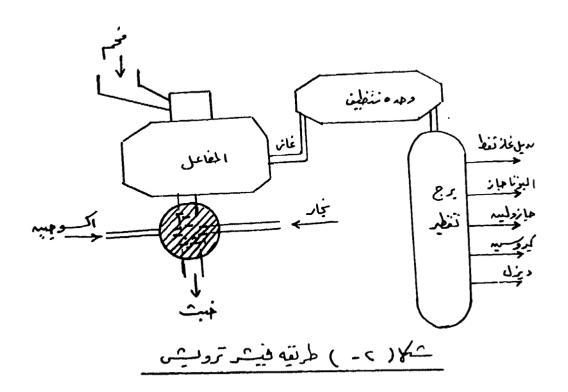
٥ ـ ١ طريقة الهيدروكرتيه :

وتعتمد على تسخين مسحوق الفحم الى درجة ١٠٠٠ ف في وجود الايدروجين تحت ضغط ٦٠٠ رطل على البوصة المربعة وتعطي نواتج تتراوح بين بديل الغاز الطبيعي الى زيت وقود مرتفع الجودة .

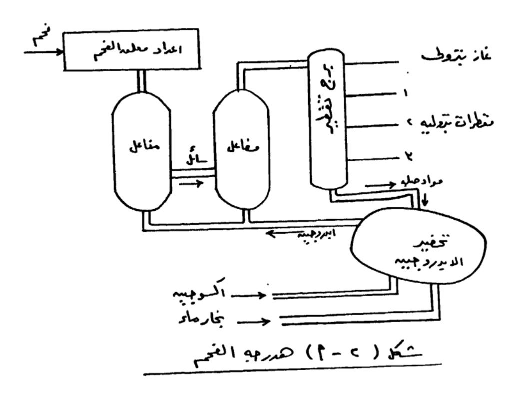
٥ ـ ٢ طريقة المدرجة : شكل (٢)

وفيها يدفع مسحوق الفحم الى غرف التفاعل ويختلط بالايدروجين (بنسبة ٧ : ١٦) في وجود وسيط حفاز مكون من عنصري الكوبالت والموليبدنيوم عند درجة حرارة عالية وتحت ضغط يصل الى عدة مئات من الضغط الجوي .

وطريقة المدرجة ذات تاريخ قديم نسبيا فقد ابتكرها بارجيرس خلال الحرب العالمية الاولى وعلى هديها تم بناء ١٨ معمل اسالة في المانيا انتجت زهاء ٢٨ مليون جالون من البنزين وجعلت الالمان يحاربون ايامها دون خوف من نضوب الوقود .



شكل (٢ -) طريقة فيشر تروبش



شكل (٢ - ٩) هدرجة الفحم

واليوم تجري الابحاث في المانيا الغربية بمركز ابحاث بتسبرج نحو تعديل الوسيط الحفاز وتقليل زمن التلاقي بين الفحم والايدروجين وتبسيط تصميم المفاعل والنتائج حسب ما جاء في مؤتمر الطاقة المنعقد في ميونيخ سبتمبر ١٩٨٠ لم تبشر بالامل المنشود .

٥ ـ ٣ طريقة فينشر تزويش . : شكل (٢أ)

طريقة لتركيب الجازولين (البنـزين) صناعيا ابتكرها الكيميائي الالماني فرانسز فينشر ، مدير معهد القيصر وليام للابحاث بالاشتراك مع الكيميائي هانز تزويش . وبموجب الطريقة يسحق الفحم سحقا جيدا ويعرض الى درجة حرارة عالية ويمرر اعلاه تحت الضغط (بخار الماء والهواء) وتتم التفاعلات على النحو التالي : ـ

فحم + بخار ماء ← غاز اول اكسيد الكربون + ايدروجين .

والمخلوط الغازي الناتج على الجهة اليسرى من المعادلة يجري ضبطه وتعديل نسبته الى ٧ احجام من أول اكسيد الكربون و١٢ حجما من غاز الايدروجين ويمرر المخلوط فوق وسيط حفاز ويتفاعل الغازان ويكونان مزيجا من البنزين وزيت الديزل .

والى طريقة فينشر تروبش يعود الفضل في انتاج المانيا لحوالي مليون طن سنويا من الجازولين زمن الحرب العالمية الثانية ، وبذا كسرت الجيوش الالمانية حدة الحصار البحري المفروض على موارد المانيا النازية من النفط .

٥ ـ ٤ طريقة الاذابة :

من المعروف سلفا ان الفحم لا يذوب في المذيبات المختلفة تحت ظروف الحرارة المعتادة ، لكن يمكن اذابته تحت الضغط والحرارة ، بعدها يهدرج المحلول بامرار غاز الايدروجين فاذا بالفحم يعطي البنزين ووقود الديزل والسولار وبديلا عن الغاز الطبيعي .

٥ ـ ٥ مقارنة انتاجية طرق الاسالة :

الى جانب ما المحنا اليه هناك طريقة الكرنبة ، وفيها يسخن الفحم بمعزل عن الهواء وتؤدي الحرارة الى تحلل الفحم وينتج القطران والغاز تاركة فحم الكوك . ورغما عن سهولة الكرنبة الا انها ليست اقتصادية لانتاج النفط الصناعي لأن التكاليف الثابتة لانشاء افران الكوك مرتفعة الثمن بالنسبة للوحدة المنتجة من النفط . لذلك تتركز الابحاث الكيميائية حاليا على استحداث وابتداع طرق جديدة للكرنبة مثل استخدام طبقات مميعة من الفحم عند درجة حرارة منخفضة نسبيا .

ويعيب هذه الطرق مجتمعة صعوبة استخراج الفحم اللازم للتشغيل بما يكفي التقليل من الطلب على البترول مع ضرورة طحن الفحم الى مسحوق ناعم وتوفير غاز الايدروجين ، وكلها عمليات صناعية تستهلك جزءا كبيرا من التكاليف الثابتة وتكاليف التشغيل والصيانة والخبرة . كما تتطلب انشاء المعامل على مقربة شديدة من المناجم والا تحولت اقتصاديات التشغيل الى الحد الخاسر ، كما يلعب التركيب الكيميائي للفحم واختلافه من منجم لآخر بل من قدم لقدم في المنجم الواحد دورا معاكسا ذا اثر حاد في زيادة التكاليف .

والمضطر يركب الصعب ـ كما يقولون ـ وبدأت فعلا بعض معامل الاسالة في العمل وشمرت الشركات الكبرى عن سواعد الجد ، واذا بأهل الكيمياء يطلبون التأني .

٥ ـ ٦ وحذرت الكيمياء من مغبة الردة الى الفحم :

في الوقت الذي فيه قدم الكيماويون منذ الحرب العالمية الاولى طرقا كيميائية وابتدعوا طرقا يعيدون بها اتزان الفحم وتحويله الى نفط وغاز طبيعي جاء كيميائيون آخرون واضاءوا الضوء الاحمر محذرين من مغبة الاسراف في اسالة الفحم او الردة اليه باعتباره ملك الوقود ، وحددوا الاعتراضات على النحو التالي : ـ

* الردة الى الفحم واعادة استخدامه مباشرة كوقود احلالي للنفط في خطط الصناعات القائمة سوف يترتب عليه الى جانب حتمية تغيير اساليب وانظمة انتاج الطاقة الحرارية فانه سوف يدفع الى الهواء كميات كبيرة من ثاني اكسيد الكربون واكاسيد الكبريت تزيد عن نسبة الاتزان الايكولوجي المفترض مما ينجم عنه ارتفاع درجة حرارة الجو باستمرار وتغيير خريطة الاحوال الجوية ، بعدما لوحظ ان نسبة ثاني اكسيد الكربون الموجودة في الجو زادت بمقدار ١٥٪ خلال المئة سنة الاخيرة وانها زادت بمقدار ٥٪ خلال الخمسة عشر سنة الاخيرة ، وما وطأة الحر الذي شعر بها انسان اليوم الا محصلة هذه الزيادة . حيث يعمل الغاز كمرشح ضد نفاذ الاشعة تحت الحمراء والاشعة الحرارية من الارض ، مما يدفع درجة الحرارة باستمرار ، ويستشهد الكيميائيون في دعواهم بما يردده بعض العلماء بان عصر ارتفاع الحرارة بدأ فعلا ونجم عنه تصحر بعض الاراضي الزراعية وانهيار الانتاجية وتغير خصائص بعض البيئات الطبيعية .

* الامر الثاني ، وهو الاهم والاخطر والادعى للحيطة والحذر ، ان استخدام الفحم على صورته الصلبة او حتى اسالته كيميائيا سوف يتلوه ارتفاع نسبة الملوثات السرطانية من مادة البنزوبيرين Benzo (a) Pyrene (والاسم مختصرا B (a) P) الناجمة عن حرق الالياف الجافة

ونخلص الى مقارنة الجدوى الاقتصادية لاسالة الفحم من الجدول التالي : ..

الطريقة	الانتاج لكل طن فحم	
	برميل نفط صناعي	قدم مكعب من الغاز
المدرجة	٢,٥ ـ ٣	٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠
فيشر نزويش	١,٥ ـ ٢	٨٠٠٠ ـ ١٠,٠٠٠
اذابة الفحم	٢ ـ ٣	٣٥٠٠ ـ ٤٥٠٠
الكرنية	١,٥ ـ ٢	٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠

والاوراق الجافة وهي سبب انتشار الاصابة بالمرض اللعين بين المدخنين وعمال الافران والقائمين على امر محطات القوى الكهربية الحرارية وعمال تكويك الفحم . واكد الكيميائيون ان احتمال الاصابة بالمرض سوف ترتفع الى عشرة اضعاف الاحتمال الحالي .

والتحاليل الكيميائية اثبتت صدق ما سبق ذكره فتواجد مادة (B (a) P) في النفط الطبيعي لا تتعدى من واحد الى خمسة اجزاء في المليون . بينما تزداد الكمية في المقطرات البترولية المصنعة من الفحم وتتراوح ما بين ١٠ ـ ١٠٠ جزء في المليون ، اي تتضاعف عشر مرات .

معنى هذا ان اسالة الفحم سوف تزيد نسبة الملوثات السرطانية في الجو عشر مرات ، والمعمل الواحد الذي قدرة اسالته ٢٥,٠٠٠ طن فحم يوميا سوف يقدم عطاءا خطيرا مدمرا وقاتلا مقداره ٤ كيلوجرامات من مسببات السرطان . ولنا ان نتصور حجم المشكلة اذا علمنا انه يكفي للاصابة بالمرض اللعين ـ حفظنا الله منه ـ عدة ميللجرامات [٢] من (B a P) والمواد المناظرة .

مشكلة ما بعدها مشكلة خطرة وبشعة ...

٥ ـ ٧ واعيدت المشكلة الى اهل الكيمياء :

والفحم شأنه شأن اي وقود حفري يحتوي نسبا متباينة من المواد الكبريتية ، تتحول معه اثناء الاسالة وتبقى لصيقة به لا تفارقه وتتأكسد خلال الاحتراق مكونة اكاسيد حامضية غازية من ثاني وثالث اكسيد الكبريت ، تهرب الى الهواء وتسبب مشكلات بيئية عديدة ، جنبا الى جنب مع ثاني اكسيد الكربون وماء المطر الحامضي الذي سقط على بعض البلدان الامريكية فأتلف الزرع عنا ببعيد .

وقد حاولت الكيمياء حل بعض مشاكل الفحم عبر ثلاثة منطلقات :

الاتجاه الاول : ازالة الملوثات الكبريتية من الفحم قبل الحريق باسلوب مناظر لطريقة الهدرجة المستخدمة في الاسالة لكنها طريقة لم تقدم نتيجة تستحق العناء الاقتصادي .

الاتجاه الثاني : يميل الى استخدام نظرية حرق مسحوق الفحم على مخدات مموعة من حجر الجير ويتفاعل الكبريت مع الجير مكونا كبريتات الكالسيوم (الجبس) ولا زال هذا الاتجاه تحت الفحص والدراسة والتجريب ، ويحاول الكيمياويون جاهدين التوصل الى مادة يمكنها امتصاص اكاسيد النيتروجين وتفتيت مواد B (a) P حراريا .

الاتجاه الثالث : وهو محصلة جملة دراسات هدفت الى التعامل مباشرة مع غازات المداخن بامرارها في مجموعة ممصات تحتوي مواد كيميائية تمتص اول اكسيد الكربون [٣] ـ ثاني وثالث اكسيد الكبريت ـ اكاسيد النيتروجين وتمتص الى جانب الغازات بعض القطرات السامة وذرات الكربون المكونة للدخان . وفي الابحاث الجديدة على مادة

(٢) الجرام = ١٠٠٠ ميللجرام .

(٣) غاز عديم اللون يتركب كيميائيا من اتحاد ذرة كربون وذرة اكسوجين ورمزه الكيميائي ك أ وهو غاز له خصائص سمية ويمتص في الدم بدرجة عالية مسببا الوفاة . ويختلف عن ثاني اكسيد الكربون بأن الاخير غاز خامل وليس ساما وله بعض الفوائد الصناعية .

النوشادر كمادة ماصة اختيارية Selective Absorper ثبت بما لا يدع مجالا للشك انه اذا تجاوزت درجة حرارة غازات العادم ١٠٠٠ درجة مئوية تفاعل غاز الاكسجين المتبقى من الاحتراق مع النوشادر مكونا اكاسيد نيتروجين مما يضاعف كمية الملوثات الغازية ، بينما عند درجة حرارة ١٠٠٠ مئوية تتكسر النوشادر كيميائيا وتتحول الى غاز النتروجين ، وعند درجة حرارة اقل من ١٠٠٠ مئوية لا يحدث تفاعل ، ويخرج النوشادر كما دخل من المعركة صفر اليدين ، ويوضح ما سبق ان التحكم في مشكلة التلوث من خلال الاجراءات الكيميائية المضادة لا زال امرا يكتنفه الكثير ... الكثير من المصاعب ولا ينتظر لها حل قريب .

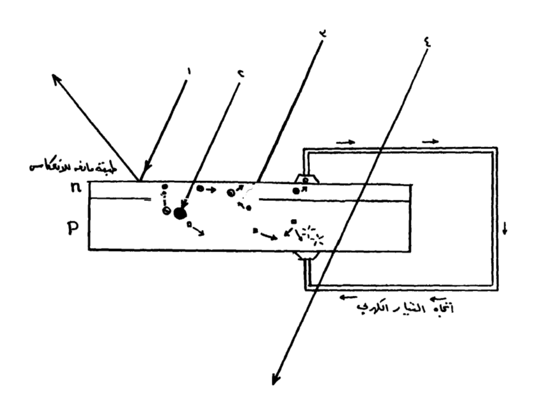
٦ ـ الكيمياء والشمس والكهرباء :

ولا شك ان الدراسات الجادة التي قام بها المهندسون الكيميائيون والاكاديميون في مجال المنظومات المعدنية واكاسيدها وابتداعهم مواد كيميائية جديدة من اكاسيد غير معدنية حسنت كثيرا خصائص الخلايا الضوكهربية التي يعتمد عليها العلم الحديث في تسخير طاقة الشمس وتحويلها الى طاقة كهربية وفي أواخر الحقبة الثالثة من هذا القرن بدأ علما كيمياء الجوامد وطبيعة الجوامد اولى خطواتهما على الطريق وتمكنا من اعطاء تفسيرات علمية واضحة محددة عن الظواهر الغير مألوفة عن بعض المواد الكيميائية مثل التوهج الفلورسيني ـ الموصلة الكهربية ـ الاستجابة للاشعة الضوئية ـ تكوين الصور الكامنة في التصوير الضوئي .. الخ من خصائص كهربية ومغناطيسية ، وعلى هدى الحقائق الجديدة صنعت اول خلية ضوكهربية من اكسيد النحاسوز ووصلت القوة الدافعة الكهربية للخلية حوالي واحد فولت ، وبلغت شدة التيار الناجم بضع مئات من الميكروامبير [٤] لكل ليومن من الضوء [٥] وخلية اكسيد النحاسوز لم تعمر طويلا واستعمل عنصر السيلنيوم [٦] في انتاج خلية ضوكهربية تكاد حساسيتها للاشعة الضوئية تقرب من حساسية عين الانسان السليم مما جعلها تعمر كثيرا وتستخدم مع اجهزة وكاميرات التصوير وبعض طرق التصوير الجاف المعروفة عالميا باسم Electrophatograply ، وقد استاطع عالمان هما كوفتير وكولومتيس صناعة خلية ضوئية من مادة كبريتور الثاليوم اتصفت بحاسيتها الشديدة للضوء ويمكنها الامداد بحوالي ١٠٠٠٠ ميكرو امبير لكل ليومن ، ثم تلتها خلية من ملح سلفيد الفضة والذي يتركب كيميائيا من ذرة كبريت اتحدت وتلاحمت مع ذرتي فضة وأنتجت خلية ضوكهربية اشد حساسية للضوء واكثر دفقا للكهرباء ، ثم جاء اكتشاف خلايا السيليكون والجرمانيوم وتمتاز عن سابقتها بقدرتها على تحويل ١٠٪ من جملة الاشعة الضوئية الساقطة الى طاقة كهربية . شكل (٣) .

(٤) الامبير وحدة قياس شده التيار.

(٥) الليمون هي كمية الضوء الساقط على سطح مساحة متر مربع ويبعد مترا واحدا عن مصدر ضوئي شدته شمعة قياسية واحدة .

(٦) يحتوي الضوء الابيض على الاشعة البنفسيجية ـ النيلي ـ الزرقاء ـ الخضراء ـ الصفراء ـ البرتقالي ـ الاحمر . كما توجد الاشعة فوق البنفسيجية وتحت الحمراء وكلاهما طيف غير منظور لا تحس به العين.



● ذرة سيليكون ○ الكترون ▫ ثقب

١- شعاع ضوئي يسقط وينعكس .

٢- شعاع ضوئي اصطدم بذرة سيليكون حرر الكترونات تتجه إلى الشريحة n .

٣- شعاع ضوئي عالي الشدة حرر الالكترون و الثقب ما أحدث تسخينا في الخلية .

٤- شعاع ضوئي واطئ الشدة يمر من الخلية دون إحداث أي أثر .

" ولذا لا تتراوح كفاءة الخلية أكثر من ١٤ - ١٨٪ "

شكل (٢) خلية السيليكون

٦ ـ ١ تحسيس الخلايا للضوء :

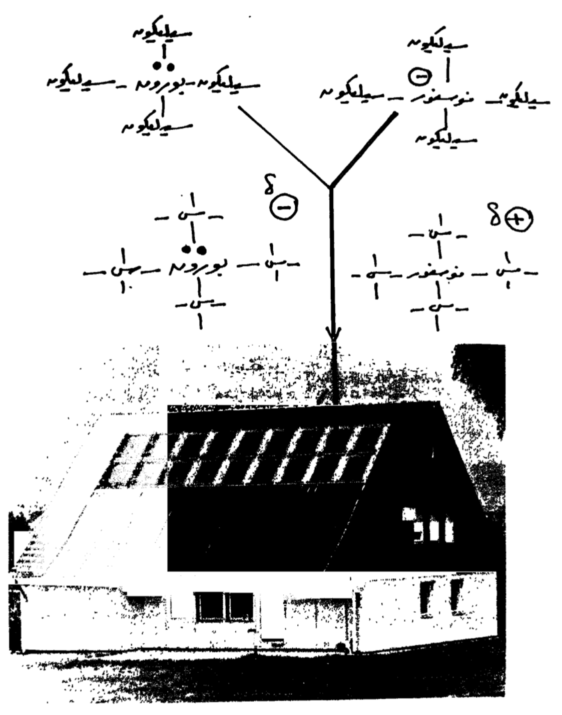
ان مواد اشباه الموصلات كثيرة ومتنوعة وتحفل بها الكتب والمراجع ، لكن يتحتم على الكيميائيين تطويرها ورفع كفاءتها التحويلية واجراء الموائمة بين جملة متغيرات اهمها تعديل الخصائص الطبقية وجعلها تنفعل باكبر قدر متاح من الاطياف المنظورة وغير المنظورة لضوء الشمس ، وذلك باستخدام اصباغ كيميائية حساسة لها ، وهم في هذا الصدد يراجعون تجارب العالم الكيميائي ماكسويل وابحاث التصوير الملون وكيمياء الصبغات الازوتية والكبريتية . وعلى حد علمي ـ يجري في مصر وفي مركز بحوث الطاقة الشمسية بالكويت دراسات جادة لتحديد اثر اضافة الاصباغ على اكسيد الزنك وثاني اكسيد التيتانيوم وبعض الاكاسيد المزدوجة من عناصر المجموعة الثانية والرابعة ، وتبشر النتائج بتحسن خصائص الخلايا التجريبية تحسنا ملموسا ، ولم يقف دور اهل الكيمياء على بحث التوافق الطيفي انما وجب عليهم اختيار مواد شبه موصلة تتصف بالثبات الشديد ضد العوامل الجوية والفعل التالف للاشعة فوق البنفسجية والرطوبة الجوية ، شريطة ان تكون رخيصة الثمن ، زهيدة التكاليف ، خفيفة الوزن يسهل تشكيلها في مسطحات كبيرة فوق دعامات انشائية خفيفة .

٦ ـ ٢ خلايا السيليكون وحيدة الخلية :

يوم استطاعت الكيمياء التحكم في خصائص المادة والعنصر والملح حققت بذلك تحويل طاقة الشمس باستخدام خلايا السيليكون وحيدة البلور ونجحت الخلايا في امداد مركبات الفراغ ورحلات الفضاء بالطاقة الكهربية اللازمة لادارة اجهزة المركبات واتمام الاتصال اللاسلكي والتليفزيوني بين الرواد ومحطات المتابعة الارضية .

وقد يسأل قارىء ولماذا وحيدة البلورة ؟ **ولم لا تصنع الخلايا من مواد عديدة البلورات او يجري تشكيلها من مسحوق المادة الكيميائية ؟** وللقارىء كل الحق في تساؤلاته ، فالسؤالان يلخصان في كلمات معدودة مشكلة من اعقد مشاكل الخلايا عديدة البلورات (شكل ٤) . ففي الخلية وحيدة البلورة لن يجابه التيار الكهربي بمانعة داخلية في جسم البلورة الواحدة ويسري عبرها في سهولة ويسر ، بينما يجابه بموانع داخل جسم الخلية الثانية تمثل في الفاصل البنائي ، لكن بلورة عن الاخرى ، وتقل كفاءة وكمية التيار الناتج وتضعف قدرة تحويل الخلية رغم انها اقل سعرا ولا تأخذ جهدا مثل المبذول في صناعة خلايا السيليكون التي تتطلب (شكل ٤) .

- اختيار نوع من الرمل فائق النقاء واستكمال تنقيته كيميائيا .
- تحويل الرمل النقي واختزاله من ثاني اكسيد السيليكون الى عنصر السيليكون في افران كهربية خاصة .
- ادخال عنصر السيليكون في سلسلة من التفاعلات الكيميائية للحصول على مركب كيميائي يبين السليكون والكلور والايدروجين ويعرف الناتج باسم سلينات SIHCL3 Silanes .
- من المركب العضوي يتم الحصول على عنصر السيلكون النقي ١٠٠٪ بالتميؤ المائي الحراري .



شكل (٤) التركيب الكيميائي لخلايا السيليكون واستخدامها في توليد الكهرباء للمنزل الريفي.

ـ يتم صهر السيليكون في افران كهربية خاصة واستخراج بلورة واحدة تبني بطريقة فريدة على هيئة اسطوانة غير منتظمة يستغرق سحبها من المصهور اياما عديدة بعدها تقطع الى شرائح غاية في الرقة بواسطة مناشير من الماس .

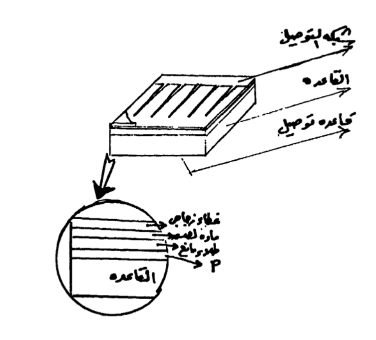
لكن السيليكون رغم هذا غير موصل للتيار الكهربي ويلزم تعديل خصائص ذراته بطلاء سطح واحد من الشريحة بعنصر ... مثل الفوسفور تحتوي ذراته على عدد اكبر من الكترونات المدار الخارجي للذرة وطلاء السطح الآخر ببعض ذرات عنصر البورون الذي تحتوي ذراته على عدد اقل من الكترونات المدار الخارجي مقارنة بعنصر السيليكون ، وبذا اصبحت الشريحة من جهة بها فائض من الالكترونات القلقة n-type ومن الجهة الاخرى تولدت محلات خالية او ثقوب موجبة p - type وتحولت الى مولد كهربي صغير دقيق شكل (٣) يبلغ سمكه ٢سم ويعمل فور سقوط اشعة الشمس عليه فاذا الفوتونات تزيح الالكترونات وتدفعها للانطلاق عبر الاسلاك مولدة التيار الكهربي المنشود على التوالي او على التوازي ان شئت .

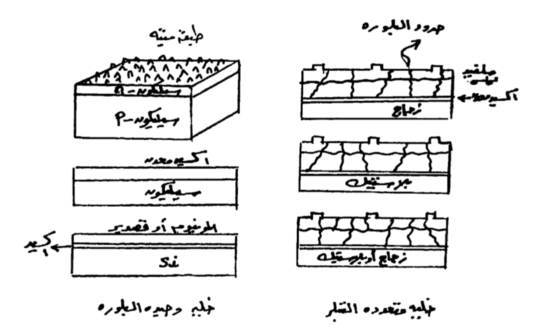
هذه حكاية خلايا السيلكون التي جعلت بعض المتفائلين من كتاب العرب يقولون وينشرون لقد قاربت الايام التي ستعبأ فيها الشمس داخل زجاجات واشاعوا في كتاباتهم نبوءة تفاؤل ورنة سرور ، والحقيقة انه حتى الآن ووفق ما نشر عن مؤتمر الطاقة المنعقد في ميونخ بالمانيا الغربية اغسطس ١٩٨٠ ـ لم تتعد كفاءة التحويل اكثر من ١٧٪ من جملة طاقة الشمس الساقطة على وحدة الخلية والباقي يضيع على هيئة حرارة او اشعة غير ممتصة .. اضف الى ذلك ان تكاليف صناعة خلايا تكفي لاعطاء كيلو واط واحد تقارب خمسة عشر الف دولار وهي قطع لها تكاليف غالية جدا مقارنة بالطاقة الكهربية الكهروحرارية وان لم يغب عن الاذهان انه رغم التكاليف المرتفعة فلا مناص عن استخدام خلايا السيليكون لمن يريدون لوحداتهم العسكرية الضياء والاتصال اللاسلكي وفي محطات مراقبة الجو وفي نقط تفتيش الحدود وفي غياهب الصحراء واتمام الاتصالات التليفونية بين القرى والنجوع وفي البؤر السكانية المتباعدة حيث يصعب فرد شبكة تيار كهربي (٧) بتكاليف مقبولة ذات جدوى اقتصادية .

٦ ـ ٣ الكيمياء والخلايا متعددة التبلر :

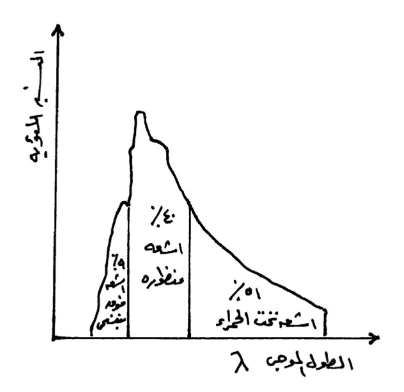
حاولت الكيمياء مرة اخرى التقليل من نفقات انتاج الخلايا الضوكهربية بالعودة مرة اخرى الى تكثيف البحوث في اتجاه الخلايا متعددة التبلر ، وطرح عدد من الباحثين مواد جديدة اقل كلفة مثل كبريتيد الكاديوم ـ أرسيد الجاليوم ـ اكسيد النحاسوز ـ اكسيد الزنك ـ فوسفيد الانديوم ، وفي المؤتمر السابق الاشارة اليه نوقشت بحوث جادة عن استخدام المواد العضوية Organic Subs بديلا عن المواد الغير عضوية لكنها على اية حال لا زالت تجارب تمهيدية ولم تقدم حلا جذريا للمعادلة الصعبة شكل (٥) ، شكل ٥أ .

(٧) تعتبر المملكة الاردنية الهاشمية اول دولة عربية تستخدم الخلايا الضوكهربية على شبكة الطرق السريعه بها .





شكل (٥) مقارنه بين الخلايا متعدده التبلر والخلايا ذات البلوره الواحده



شكل (٥٠أ) توزيع الاطياف الضوئية من اشعة الشمس ولاتستفيد الخلايا الضوء-كهربية الا بقدر يسير من هذه الاطياف ولذا تتجه الابحاث الحديثة إلى رفع كفاءة الخلايا باستخدام الصبغات الكيميائية مثل المستخدمة من المصور الملون .

وتعتمد الخلايا متعددة التبلورات على ترسيب المادة او الملح على شريحة من الزجاج او قاعدة من البلاستيك واعادة تغطية المادة بطبقة اخرى من كبريتيد النحاسوز وصهر المكونات لخلق اتصال p-n كما اقترح Sigurd Wagner المشرف على بحوث الخلايا الضوئية في شركة بل والدكتور هاشميان والدكتور فوجداني من جامعة طهران طريقة جديدة لانتاج الخلايا عديدة البلورات على هيئة شرائط رقيقة من عناصر الجرمانيوم وسبيكة الانديوم والرصاص ، وقد اضافت بحوث العالمين الايرانيين اضافات جيدة الى ما سبقها من بحوث نوقشت في مؤتمرات الطاقة الشمسية خاصة ما عقد في هامبورج عام ١٩٧٤ .

٧ ـ الكيمياء الكهربية وخلايا الوقود

الوقود والاكسوجين مكونان أساسيان لاشعال النار وانفصاد الطاقة الحرارية الكامنة بين الجزئيات الداخلة في التفاعل والناجمة عنه ، ولو حاولنا تفسير الاحتراق على هدي مبادىء الكيمياء وجب علينا القول بأنه على الرغم من تصاعد ألسنة النار واللهب والسعير كشيء ظاهر ودليل واضح على عنف التفاعلات وشراستها فان داخل كتلة الاحتراق يتم انتقال الالكترونات بين الذرات والجزئيات مكونة مقطوعة كيميائية إبداعية تحتاج وقفة متأنية ونظرة ثاقبة ، هناك ذرات تضحي بالالكترونات وذرات اخرى تستقبل وترحب ، وكل الذرات تؤدي دورها المرسوم دون خلل او ملل ، ودون التواء أو لف ودوران ، وهذا الأخذ والعطاء اطلق عليه الكيميائيون اسماء ومسميات ، فالذرة التي تفقد الالكترونات يقولون عنها انها تأكسدت ، بينما الذرات المستقبلة للالكترونات سموها اختزلت ، ودليلنا المثال المبسط التالي :

الايدروجين + الاكسوجين ← ماء

وتفصيل المعادلة

٢ ذره الايدروجين ← ٢ ايدروجين+[١] + ٢ الكترون (فقد الكترونات)

ذرة اكسوجين + ٢ الكترون ← اكسوجين-[٢] (اكتساب الكترونات)

ويتحد الايونان مكونة بخار الماء .

معنى هذا انه لو أمكن بطريقة او اخرى اتمام الاحتراق دون التقاء الوقود والمؤكسد التقاء مباشرا فلن ترتفع ألسنة اللهب او تحدث مظاهر النيران ، انما تدور الالكترونات في رحلة الأخذ والعطاء وتنتقل من الوقود الى المؤكسد مارة عبر الاسلاك أو الموصل الكهربي منتجة طاقة كهربية .

هذا بالضبط دالة خلايا الوقود ومعناها الذي تحدد على ضوء المثال السابق وانها وسيلة ابتكرها الكيميائيون وتتناول تفاعل احتراق طارد للحرارة وقادرة على تحويل الطاقة الحرارية الى طاقة كهربية ، وتمتاز عن غيرها من المولدات الكهروكيميائية باستمرارية تدفق الطاقة الكهربية طالما استمر دفع الوقود المؤكسد الى قطبي الخلية . وهذه الفكرة البسيطة عن خلايا الوقود وقعت تحت الفحص والتمحيص والتدقيق وتناولها الكيميائي لانجر عام ١٨٩٩ ودرسها الكيميائي سيجيل عام ١٩١٣ وأدخل عليها

تحسينات وتعديلات يعتد بها رفعت من قدرتها وحسنت ادائها ، حتى استطاع الكيميائي مولر عام ١٩٢٨ فرض اضافة جديدة لم يسبقه اليها أحد واستخدم لأول مرة وقودا من غازات بترولية خفيفة حول اقطاب معدنية مغموسة داخل وسيط كيميائي .

ذلك العمل العلمي لم يقدره العالم حق قدره ولا نال من أهل التطبيق اهتماما يذكر ولا فكرا يذكر وظل نوعا من الترف العلمي والبحث الاكاديمي المحض ، او العالم للعلم ولا شيء سواه ، بيد أن النظرة تغيرت فجأة مع هبات رياح الحرب العالمية الثانية واكتسبت البحوث اهمية كبرى فور انفضاض الحرب ودخول العالم مرحلة السلام والاستقرار النسبي ، وتحول الصراع الدموي الى صراع سلمي ادواته الفكر والبحث والمعمل ... واتخذ الصراع بعدا حضاريا جديدا مع بدء تفكير العلماء في غزو الفضاء ورحلات الفراغ ، وقامت مؤسسة بمراجعة كل تقدمات كيمياء خلايا الوقود ، وقدرة الكيمياء الكهربية على ابتداع مولدات كهربية خفيفة الوزن تستطيع توفير قدر مناسب من الطاقة الكهربية بما لا يشكل عبئا على مركبات الفضاء ، وظهرت على ساحات العلم خلايا جديدة استخدمت فيها أقطاب من اكسيد المغنسيوم الملبد Sintered Magnesium Oxide فتحت بابا علميا ظنه البعض موصدا . ومع ازمة الطاقة العالمية طلبت مؤسسة E.R.D.A بحوثا كيميائية مكثفة عليها تعثر على الضالة المنشودة ووزعت التعاقدات البحثية يمينا ويسارا ، ودارت العجلة لاهثة في تعقل ، مسرعة في دقة وتأن وجاءت النتائج (شكل رقم ٦) .

١/٧] أنواع خلايا الوقود :

١/١/٧] الخلايا المباشرة :

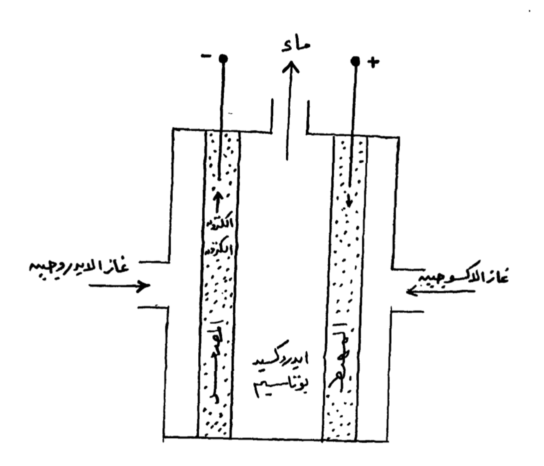
ضمن خطط بحوث الطاقة المكملة يجيء الحصول على غاز الايدروجين في المقدمة كما سنأتي اليه تفصيلا ، لذا خططت البحوث تبغي استكمال الدائرة واستخدام الايدروجين إما كوقود احتراقي مباشر أو وقود احتراقي غير مباشر كما في خلايا الوقود .

وخلايا الايدروجين عبارة عن وعاء يضم قطبين يفصلهما محلول متأين من ملح أو حمض مخفف ، والقطبان مجرد وسيط ناقل للالكترونات ، بينما يلعب المحلول كوسيط ناقل للايونات وتشير النتائج الى نجاح خلايا الايدروجين نجاحا يعتد به .

٢/١/٧] خلايا الهيدرازين :

جاء استخدام الهيدرازين [٨] كوقود تأكسدي من خلايا الوقود محققا بعض آمال من يبغون البحث عن مكملات الطاقة ، فالهيدرازين من أنشط المواد الكيميائية ، اذا استخدم على هيئة محلول وقتي دفع الى خلايا الوقود انتج قدرا عظيما من الطاقة الكهربية . حقيقة الهيدرازين النقي له خصائص انفجارية وخواص كاوية وثمنه مرتفع ، الا أن تفاعله مع الهواء أقل اخطارا من تفاعل الايدروجين النقي ،

(٨) الهيدرازين مركب كيميائي يتركب من ذرتين نيتروجين واربع ذرات ايدروجين ورمزه الكيميائي NH 2 NH 2 او ن يد ٢ ن يد ٢ .



شكل (٦) خلية وقود تعمل بغازي الايدروجين والاكسوجين وتنتج كهرباء وماء عذب .

وان بعث تفاعله التأكسدي غاز ثاني اكسيد الكربون يتحتم ازالته من المحلول المتأين والا سبب تضاغط الجزئيات بعيدا عن الاقطاب ، ويزيد مقاومة البطارية الداخلية ولهذا ابتدعت البحوث الجديدة استخدام أقطاب مسامية ، كما وجد أن اضافة كميات قليلة جدا لا يعتد بها من مادة كبريتيد الصوديوم أو سيلينيد الصوديوم ترفع كفاءة الخلية ، كما أثبتت البحوث الجديدة أفضلية أقطاب من الذهب أو البلاتين واليوم يحاولون ايجاد بدائل عن الاقطاب الذهبية غالية الثمن .

٢/٧] مجموعة خلايا الوقود المذاب :

وجد الكيمائيون ان اذابة الوقود في المحلول المتأين امام قطب مسامي يحقق أعلى قوة دامغة كهربية متاحة من الخلية ، وخير أنواع هذه الخلايا تلك التي تم تصميمها لاكسدة غازات البترول الحقيقية مثل البروبان على سطح معدن جيد فوق عامل حفاز معقد التركيب من أكاسيد المنجنيز والفضة والنحاس والكوبالت ، وأكدت البحوث انه كلما زاد عدد ذرات الكربون في الوقود عن اربع ذرات فشلت عملية الاكسدة وتوقف دفع التيار الكهربي تماما .

كما جرب العلماء اكسدة النوشادر داخل محلول ايدروكسيد البوتاسيوم فوق أقطاب من البلاتين ، وتتأكد الجزئيات وينتج كل جزيء ثلاثة الكترونات وينتظر مع متابعة البحوث واستمرارها وحل المشاكل الفنية الحصول على طاقة كبيرة وينتظر التركيز على خلايا النادر لانها لا تسبب مشاكل تلوث ، فمعظم نواتج الاكسدة النيتروجين الخامل وبخار الماء .

واذا كانت خطط الطاقة المكملة تتجه صوب احلال كحول الايثانول محل المقطرات البترولية فان استخدام الكحول المنتظر في خلايا الوقود كان أحد الأهداف الرئيسية لادماجه في بحوث خلايا الوقود ، وداخل الخلية تتأكسد الى الايدروجين وثاني اكسيد الكربون بعدها يعاد استخدام الايدروجين الناتج كوقود جديد في خلايا الوقود المباشرة . وتمتاز خلايا الكحول عن مثيلاتها من الايدروجين والهيدرازين بامكانية التحكم في درجة التأكسد فوق أقطاب من الجرانيت او الفضة . وقد تمكن علماء الكيمياء من تحسين اداء خلايا الكحول وأمكنهم صناعة خلية طاقتها ٥٠ واط بقوة دافعة مقدارها ٠,٤ فولت وتؤدي الخلية دورها عند درجة حرارة ٥٠ درجة مئوية .

٣/٧] خلايا الوقود غير المباشرة :

استطاعت البحوث الكيميائية خفض تكاليف انتاج الكيلوواط الواحد من ٤٧٥٧٨ دولار عام ١٩٦٣ الى خمسين دولار عام ١٩٧٨ وهذا معناه ان العلم خفض التكاليف الف مرة ، ولولا هذا التقدم لظلت خلايا الوقود غير المباشرة ضربا من خيال ، فكل الخلايا تتطلب غازات نقية جدا ، لكن الخلايا غير المباشرة تستطيع اكسدة غازات التكوين والغازات الصناعية . ويقول الدكتور د .ل كيرنير انه بالامكان صناعة خلية وقود تستخدم مسحوق الفحم عند درجة حرارة ١٠٠٠ درجة مئوية مصحوبا بالماء وثاني اكسيد الكربون ، ويتفاعل الفحم مع الغازات مكونا غازات تخليق تتأكسد مباشرة وتعطي تيارا كهربيا .

وهناك خلايا غير مباشرة ساخنة تتطلب رفع درجة حرارة المحلول الوسيط الى درجة حرارة ٦٠٠ ـ ١٠٠٠ درجة مئوية ، ومن المنطقي ان الوسيط المتأين لن يكون محلولا مائيا بل ملحا منصهرا من كربونات البوتاسيوم أو متعدد فوسفات الصوديوم داخل وعاء مسامي من المواد الحرارية . وتمتاز هذه الخلايا باستخدام أقطاب رخيصة من النحاس أو النيكل .

٤/٧] خلايا الوقود الحيوية :

أثارت خلايا الوقود الحيوية اهتمام العلماء منذ عام ١٩١١ لما لها من مزايا تعجز عنها الخلايا الكهروكيائية ، فالاختزال والاكسدة تتم بوسيط بيولوجي ولا تطرد عوادم احتراق أو تسبب تلوثا بيئيا يخشى منه ويمكنها التعامل مع المخلفات الزراعية ونفايا الحقل والمزرعة والمنزل ولا تحتاج الى مواصفات كيائية عويصة مجرد محلول متعادل عند درجة الحرارة المعتادة .

وكل التفاعلات البيولوجية تتم باستخدام انزيمات تكسر الجزئيات العملاقة الى جزئيات عضوية أصغر ، بسرعة واقتدار بتعدى عشرة الاف مرة عن التفاعلات الكهروكيائية ، واذا زادت درجة الحرارة عشر درجات فقط تتعدى سرعة التفاعل مئة مليون مرة عن التفاعلات الكيائية المعتادة .

والمهم هنا ليس تفصيلات التحلل وفك التركيبات المعقدة بل محصلة الامر تتولى العملية الحيوية انتاج الايدروجين ثم أكسدته حيويا الى الماء وتوليد تيار كهربي واهي الشدة ... لكنها أمل يسعى خلفه العلماء حثيثا .

٥/٧] الخلايا المتجددة :

هي احدى جواهر بحوث الكيمياء الكهربية والهندسية الكيائية يوم استطاع الفريق البحثي ادماج خلية الوقود مع وحدة تخليق في تكامل علمي رائع لاكسدة كحول الايثانول داخل وسيط ٨٥٪ من ايدروكسيد البوتاسيوم عند درجة حرارة ٢٠٠ مئوية بكفاءة ٤٠٪ بسعر منافس لخلايا الايدروجين والاكسوجين .

٦/٧] وماذا قدمت خلايا الوقود ؟

تعتبر نتائج بحوث السويد في ميدان خلايا الوقود على النطاق العسكري مثلا يحتذى ، فالجيش السويدي وبعض الجيوش الغربية تستخدم خلايا وقود قدرة ١٧ كيلوواط ساعة من مجرد حرق أو أكسدة كيلوجرام من الايدروجين ولم يتعد وزن المولد عشرة كيلوجرامات ، وتستخدم الخلايا في تزويد اجهزة الرادار الخفيفة واجهزة الاستقبال اللاسلكي ، وذات الجهد الكهربي توفره بطاريات كيائية للبحرية الامريكية بجهد ٢٨ فولت لمدة ١٠٠٠ ساعة تحت ظروف حرارية متغيرة واستخدمتها البحرية بكفاءة في لنشات السواحل الخفيفة بتكاليف مقبولة ، كما استخدمت كمصدر طاقة للغواصات فترة بقائها تحت الماء .

٨ ـ البطاريات الكيائية وخزن الكهرباء :

بحوث البطاريات الكيائية وخزن الطاقة الكهربية كيائيا تكاد تكون التعبير العلمي للقول المأثور « قدِّر لقدمك قبل الخطو موضعها »

فيوم اهتمت وكالات بحوث الطاقة مثل E.P.R.I , E.R.B.A [٩] بمشاريع تطوير الطاقات البديلة وضعت أهمية كبرى على تكثيف جهد العلماء صوب **التخزين الكيائي للطاقة الكهربية لماذا ؟**

ـ لأن الطاقة الكهربية سيان من الخلايا الضوكهربية أو المحطات الكهروحرارية أو خلايا الوقود يلزم الاحتفاظ بها وخزنها للاستخدام في اوقات الذروة ، وهي طاقة عكس الفحم أو البترول لا يمكن خزنها تحت الارض او الابقاء عليها في محلاتها ومناجمها وآبارها ، فهي لا تخزن على حالها ، انما تتحول الى طاقة كيائية .

ـ ولأن محطات القوى الكهروحرارية والنووية تجابه في اليوم الواحد احمالا متغيرة الشدة ، فهي صباحا تحت وطأة سحب الطاقة ثم يزداد المعدل ، بعدها يعاود الخفض مساره ، وتشغيل المحطات اقتصاديا يستدعي ثبات الاحمال ولا مناص عن خزن الطاقة في فترات خفة الاحمال .

ـ ولأن العلماء تراودهم احلام السيارة الكهربائية مرة اخرى ويبغونها على الطرق منطلقة تعيد مجدها التليد وتوفر من الجازولين كميات يعتد بها ، كما أن السيارة الكهربية حلم علماء البيئة نحو حل مشكلة التلوث الهوائي بالغازات السامة واملاح الرصاص .

وإذا كانت الاحصائيات في عديد من الدول غير جاهزة او معدة او يعتد بها فان الاحصائيات الامريكية دائما جاهزة كعلامة ثقة بالنفس ، ولهذا سوف نشير اليها دواما ، وعن السيارة الكهربية تقول جريدة نيويورك تايمز في عددها الصادر يوم ٧٩/٩/٢٣ انه ابتداء من العشرينات دمرت جنرال موتورز مع ستاندارد أويل في كاليفورنيا وفاير ستون تاير السيارة الكهربية وشبكات النقل السريع في ٤٥ مدينة بما فيها نيويورك ، وسمح بتدهور السكك الحديدية التي كانت ذات يوم العماد الرئيسي لنظام النقل ... لصالح سيارة الجازولين والتي تستخدم طاقة أكبر بكثير ، وما تبقى من قاطرات تحولت فجأة الى الديزل ، وتم بناء أحياء واسعة منازلها منفصلة ، ولا يستطيع المرء شراء رغيف دون ان يذهب بسيارته ، واليوم تجري على الطرق الامريكية ١٢٥ مليون سيارة وينتظر ان تصل الى ٢٠٠ مليون سيارة ، ويقولون لو استطاع العلم تسيير ١٠ مليون سيارة بالطاقة الكهربية سوف توفر نصف مليون برميل جازولين يوميا ، ولو تحقق الحلم وأمكن تسيير كل السيارات كهربيا فانه يغني امريكا عن استيراد ٧ مليون برميل يوميا ، وخيالا لو تجاوز العلماء الهدف المنشود وتوصلوا الى ادارة حركة النقل عام ٢٠٠٠ كهربيا فقد تستغني امريكا عن شراء ١٠ مليون برميل يوميا .

وإذا كنا اقتربنا من المشكلة **بالسؤال لماذا ؟**

فانه ترتيبا على الاجابة يجيء السؤال المباشر التالي .. كيف ؟ والاجابة .. يرى العلماء انه لا بديل عن المراكم (البطاريات) الحامضة لما لها من ميزة خاصة خزن الطاقة الداخلة اليها او الصادرة منها

(٩) Electrelcal Power Reseabch Instute

الى مجرد طاقة كهربية بريئة كل البراءة من تهمة تلوث البيئة ، كما أن البطاريات قادرة على دفع السيارات وادماجها في الشبكات الكهربية حيث تخزن الفائض منها في وقت انخفاض السحب وتعاود دفعة وقت الذروة .

وقد حدد معهد اديسون لبحوث الطاقة الكهربية جملة مواصفات ومحددات يأمل العلماء توافرها في المركم الكهربية اهمها :

رخيصة الثمن ـ طويلة العمر ـ سهلة التشغيل ـ قادرة على دفق قدرة كهربية عالية ـ لا تتعرض الاقطاب للتلف الطبيعي Physical Damage نتيجة تغير الشكل البلوري ومسامية الاقطاب ...الخ .

٨ ـ ١) وكيف يفكر الكيائيون في الهدف :

باديء ذي بدء يقول الكيمياء تتكون البطاريات الحامضية من وعاء غير قابل للتلف يحتوي على محلول ٣٢٪ حمض كبريتك تغمر داخل قطب سالب من الرصاص وقطب موجب مصنوع من الرصاص المغطى بطبقة من اكسيد الرصاص ومجمل التفاعلات الكيائية في قلب البطارية تلخصه معادلة بسيطة مؤداها :

فوق اكسيد الرصاص + رصاص + حمض الكبريتيك ⇄ (التفريغ ← / الشحن →) كبريتات رصاص + ماء

وتتوقف كفاءة مراكم الرصاص على درجة الحرارة وتركيز الحامض ، واستمرار عملية التفريغ والشحن تسبب بلورات كبيرة من كبريتات الرصاص تقاوم الاندماج في التفاعلات الكيائية وتضعف القوة الدافعة الكهربية تدريجيا ثم تتوقف تماما (شكل ٧) .

واليوم يركز الكيائيون على بطاريات الصوديوم والكبريت ذات الأقطاب المصنوعة من مصهور معدن الصوديوم ومصهور الكبريت بينما يقوم بدور حمض الكبريتيك مادة سيراميكية خاصة توصل اليها الكيائيون بعد جهد جهيد ، والملاحظ ان التفاعلات الكيائية الحادثة في بطارية الصوديوم والكبريت عكس بطارية الحامض مما يتيح للبطارية عمرا افتراضيا اطول . وتنشر النتائج الأولية نجاحا يعتد به ، وبدأ فعلا تحويل التجارب المعملية الى وحدات نصف صناعية وتقوم شركة جنرال اليكتريك على صناعة بطارية سعة ١٠٠ كيلوواط ساعة ينتظر الانتهاء منها عام ١٩٨٢ وتخطط الشركة لانتاج بطارية سعة ٥٠٠٠ كيلوواط ساعة في غضون عام ١٩٨٤ .

واتجاه آخر ترعاه E.R.D.A وتتولاه معامل البحوث صوب ابتداع بطاريات الزنك قدره ٥٠٠٠ كيلوواط ساعة .

وحتى لا نثقل على القراء بالتفاعلات الكيائية والتفصيلات الفنية للبطاريات الحديثة نلخص نتائج البحوث في الجدول التالي :

نوع البطارية	التيار/كيلوجرام	عمر التشغيل ساعة	التكاليف بالدولار لكل كيلوواط ساعة	تاريخ التشغيل التجاري
بطارية حامض معدلة	٤٠	٢٠٠٠	٨٠	١٩٨٤
بطارية نيكل/حديد	٥٥	٢٠٠٠	١٠٠	١٩٨٣
بطارية نيكل/زنك	٩٠	٢٠٠٠	٧٥	١٩٨٥
صوديوم/كبريت	٩٠	٣٠٠٠	٧٥	١٩٨٥
ليثوم/سلفين حديد	١٠٠	١٠٠٠	٨٠	١٩٨٥

٩ ـ) الايدروجين وقود المستقبل :

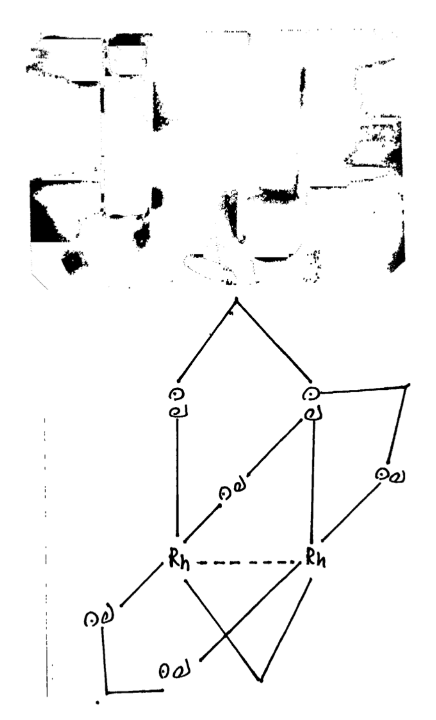
انه من محض الخيال الآن تصور أن يحل الايدروجين [١٠] محل الوقود الحفري ، لكنه الى جانب ذلك بديل متاح في المستقبل عندما ينضب الوقود الحفري بصورة مختلفة . وصناعة الايدروجين بالتحليل الكهربي تستهلك كمية كبيرة من الطاقة الكهربية أكبر كثيرا عن الطاقة التي يمكن الحصول عليها من الايدروجين الناتج عن التحلل الكهربي للماء ، وعلى احسن الظروف فان طاقة الايدروجين لن تتعدى ٥٠٪ من الطاقة الكهربية المستهلكة ، ولو استخدم الفحم في توليد الطاقة الكهربية اللازمة لانتاج الايدروجين فان كفاءة التشغيل لن تتعدى ١٥ ـ ٢٠٪ تحت أحسن الظروف الانتاجية ، والتحليل الحراري المباشر للماء بفعل التفاعلات النووية لا تتعدى كفاءتها ٢٥٪ .

ويقول ج . ك دواسون ـ أحد كبار العلماء المهتمين ببحوث الطاقة إن الأمل معقود على الكيمياء في تفهم طبيعة التفاعلات بين المواد الكيمائية المتنوعة لحل مشاكل تحضير الايدروجين ، وحتى لو تجاوزت الكيمياء حدود المشكلة العلمية يبقى على المهندسين الكيمائيين وضع خطه وبرنامج من أجل تذليل العقبات الفنية المتعلقة بالتفاعلات واقتصاديات المشروع وتآكل مواد التشغيل .

الاستاذ الدكتور ت . ن فيزوجلو استاذ ورئيس قسم هندسة الطاقة بجامعة ميامي ورئيس اول مؤتمر للطاقة الهيدروجينية الذي عقد في ميامي عام ١٩٧٦ ينظر الى الايدروجين على أنه طاقة وسيطة أو همزة الوصل بين الطاقات الحفرية والقطاعات المستهلكة للطاقة ، فهو سهل التخزين والنقل ووقود اقتصادي متجدد ولا يسبب تلوثا ، والايدروجين وفق تكوينه الذري والجزيئي مستقل تماما عن مصادر الطاقة الحفرية ولذا يظل محتفظا بمحطاته ومخازنه وطرق ضخه ، بعيدا عن النظم الحفرية ولا يرتبط بها ، سيان تغيرت أم بقيت على حالها .

---

(١٠) الايدروجين اخف العناصر جميعها وهو غاز عديم اللون والرائحة يشتعل بسرعة ودرجة غليانه (ـ ٢٥٣) م واهم مركباته الماء .



شكل (٨) تجربة تحضير الايدروجين باستخدام المركب الكيميائي رمزه اسفل
الصوره التي تبدو فيها لون المحلول داكنة اللون
انظر شكل (٩)

والايدروجين يشكل ٣٣٪ من وزن كل أنواع الوقود الحفري بالنسبة لقدر معلوم من الطاقة ويشغل حجما يماثل ٣,٥ مرة حجم ذات النظير الطاقي من البترول ويعتبر وقودا ممتازا لخفته وسهولة اشعاله وان كان الغاز ساما .

وقد أبرزت دراسات بحوث الايدروجين ان نقل الغاز الى مسافة ٢٥٠ كيلومترا ارخص كثيرا عن نقل الكهرباء الى ذات المسافة ، وينتظر استخدامه في الطهي والاضاءة وتوليد الكهرباء وتدفئة المساكن وصناعات الصلب كما يستخدم في خلايا الوقود كما أشرنا ، بيد أن مشكلة حجم الايدروجين لازالت تؤرق الباحثين ، ويقوم فريق بحثي متكامل مكون من رجال ذوي تخصصات في الكيمياء الطبيعية ـ كيمياء المواد ـ الطبيعية النووية ... الخ بدراسة واعادة صياغة سلوك الايدروجين تجاه قوانين بويل .

التطرف الآخر تسخين الغاز حتى يتعدى حالة البلازما تماما وسوف يصبح الغاز ذا نشاط كيميائي باهر ويتخلى عن خصائصه المألوفة ويتحول تماما الى طاقة ؛ لكن الجدير بالذكر ان كل الامر ارهاصات تجريبية لم تستقر بعد على حالة .

ويحاول الكيميائيون خفض تكاليف الايدروجين باستغلال الطاقة الشمسية وتسخيرها في اتمام تفاعلات كيميائية هدفها تحضير أخف عناصر الكرة الارضية قاطبة بأرخص التكاليف ، ومن هذه البحوث ما قدمه الدكتور هاري جراي بمعهد بحوث جامعة كاليفورنيا عن استخدام مادة Dirhodium Complex (شكل ٧ ، ٨) الذي متى اذيب في محلول حمضي تتكون منه نويات ثابتة تمتص بشدة الأطياف الضوئية ، ويميل لون المحلول الى الاسوداد ، وفجأةتتكون على سطحه فقاعات صغيرة دقيقة من غاز الايدروجين مع تكوين ناتج تأكسدي للملح المستخدم .

ويفسر الدكتور جراي ما حدث داخل انبوبة التجارب (شكل ٨) مؤكدا فعل الأطياف الضوئية على إثارة الملح نجم عنها تولد الايدروجين بعد رحلة قصيرة استقطب فيها المركب الكيميائي غاز الايدروجين على سطحه .

لكن نضع أقدامنا على ارض الحقيقة ونقول رغم تصاعد الايدروجين بهذه السهولة لازالت تجربة الدكتور جراي تتصف بالاكاديمية العلمية ولن تكون قريبا حلا ناجحا للمشكلة ويلزمها اعادة تنشيط المادة بعد تأكسدها واعادتها الى حالتها الاولى والتركيز على خفض سعر الملح المستخدم .

أيا ما كان الأمر فان رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة .

●●●

الاقتراب الثاني من المشكلة جاء من كيمياء المواد الجامدة ، وبالتحديد من مخلوط أكاسيد عناصر المجموعة الثانية والرابعة في الجدول الدوري للعناصر أو جدول مندليف لمن يهوون تحديد الأسماء .

هذه المواد اذا أحسن تحضيرها حسب الأصول والقواعد العلمية الدقيقة وسمحت للأكاسيد بالالتقاء والتزاوج الجيد تكونت أملاح ' ' خصائص



شكل (٨٢) يوضح التجربة من شكل (٨١)، على اقصى يسار الصورة الكشاف الضوئي المستخدم لتعريض المحلول ... وتبدو فقاعات غاز الهيدروجين حول جدار الاسفنجة الداخلي بينما يبدأ تصاعد الهيدروجين من الاسفنجة على اقصى يمين الصورة وذلك لانشغال القدر الكامن من التعريض الضوئي .

كهروضوئية ؛ أو تحولت الى مواد شبه موصلة مثل تيتانات الباريوم ـ تيتانات الاسترنشيوم ـ تاتنالات الكالسيوم ، وتتلبد الاملاح حراريا أو تطلى بها شرائح معدنية بعدها تغمر في محلول مخفف من ايدروكسيد البوتاسيوم وتعرض لضوء الشمس ويتحلل الماء شمسيا مكونا غازي الايدروجين والاكسوجين .

ويفسر أهل المعرفة ميكانيكية التفاعل أو بالاحرى خطواته الى عدة مراحل خلاصتها ان سقوط الضوء على التيتانات ينجم عنه خلق فراغات موجبة وتكون مجال الكتروستاتيكي وفرق جهد يؤكسد الماء الى عناصره الأولية التي خلق منها ، لكن كل الدلائل تشير حتى الآن بأن نتيجة المحاولات غير مشجعة حتى الآن ، فالخلايا لا تمتص أكثر من ١٪ من جملة الضوء الساقط عليها ، ويتم حاليا تكثيف الجهود لتحسين اداء الخلايا .

وننتقل من المواد العضوية وأملاح البيروفسكيت الى املاح المعادن البسيطة وعليها تجري بحوث لدراسة قدراتها الانفعالية تجاه الضوء وأبرزت التجارب قدرة ملح الحديدوز والحديديك على امتصاص فوتونات الضوء وتلعب لعبة مزدوجة نجملها على النحو الآتي :

ماء + ملح ثلاثي التكافؤ ← طاقة ضوئية ملح ثنائي التكافؤ + ايون ايدروجين + ذرة اكسوجين .

ويعيد الايدروجين اكسدة ذرات الملح الذائب في الماء الى تكافؤه الأصلي ويتصاعد غاز الايدروجين .

ملح ثنائي التكافؤ (ناتج التفاعل الأول) + ٢ أيون ايدروجين + ← غاز ايدروجين + الملح ثلاثي التكافؤ

وبذا يعمل الملح وسيطا طيبا ومتعادلا بين الاكسدة والاختزال لاتمام تحليل الماء الى الايدروجين والاكسوجين .

والحديث عن الايدروجين من الطاقة الشمسية لا ينفي او يقلل من اهمية تحضير الايدروجين من الفحم الذي تراكم في باطن الارض ، واليوم وليس غدا يعاودون الاهتمام به واعادته الى عرشه سيان بالطرق المباشرة ... فحما .. او وسيط انتاج صورة من صور الوقود الاخرى .

والفحم سهل النقل والتخزين لذا فان ميزة تحضير الايدروجين منه تعطي وقودا نظيفا ، كما ان الايدروجين صالح في حد ذاته وقودا للسيارات او انتاج الكهرباء ، ويحضر غاز الايدروجين من الفحم بتسخينه بشدة تحت الضغط والحرارة وفي وجود بخار الماء .

فحم + بخار ماء ← ثاني اكسيد كربون + اول اكسيد كربون + ايدروجين

أول اكسيد الكربون + بخار ماء ← ثاني اكسيد الكربون + ايدروجين

ويعتمد حجم الايدروجين الناتج من التفاعل الاول على نوعية الفحم والعوامل الكيميائية المألوفة من درجة حرارة وضغط وزمن تفاعل بينها يحتاج التفاعل الثاني الى وسيط نشط قادر على استكمال سحب ذرتي الايدروجين من جزئيات الماء ، وان كان الوسيط الكيميائي المتاح حاليا لا يقف على الحياد بين الفرقاء وينتهي دوره ، لكن تشل فاعليته متى تلاقى مع الشوائب ، كما انه لا يطيق لقاء الكبريت

والفوسفور دون كل الشوائب . وهذا في حد ذاته تحد لاهل الكيمياء لم يجدوا له حلا ولا استطاعوا اكتشاف وسيط لا يكترث بالكبريت او الفوسفور .

وليس الفحم هو مصدر الايدروجين المتاح ، فالماء وحده يمكن تحليله كهربيا كما اسلفنا ، والماء ايضا متى سخن الى ٢٥٠٠ درجة مئوية تحلل وانهار وانفصلت عرى الترابط بين ذرات الايدروجين والاوكسجين ، لكن العالمين وينتورف وهانمان قدما في مؤتمر الايدروجين الدولي بالنرويج عام ١٩٧٧ مفاجأة سارة ، فالرجلان يعلمان جيدا معنى ٢٥٠٠ درجة مئوية في ظل ازمة الطاقة ، لذا حاولا حل المشكلة بطريقة كيميائية جديدة تعد احدى روائع الكيمياء غير العضوية ، وعرضا على القوم بحوثهما لاستخلاص الايدروجين من براثن الترابط الكيميائي للماء مستخدمين ملح كلوريد الحديدوز ـ يتركب من ذرة حديد وذرتي كلور ـ ولم يستخدما درجة حرارة اعلى من ٤٥٠ درجة مئوية فاذا بالايدروجين يأتي بين يدي العالمين طوعا لاكرها .

●●●

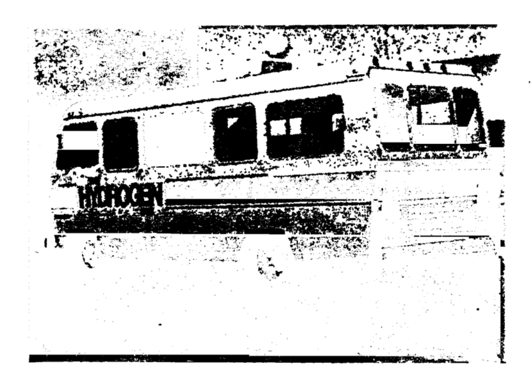
وظن القوم ان المشاكل انتهت لكنها في الحقيقة بدأت ... فالغاز لا ينفك يلعب مع المعادن العابا خطرة تنهار فيها السبائك والفلزات وتتفتت ـ اليس عجبا ان اخف عناصر الكون وارقها واضعفها بنية ينهار تحت ضربات ذراته الحديد ذو الباس الشديد والصلب ويتحولان قباله الى جسم هش ، فتارة يدخل الغاز بين ذرات المعدن ويتحدها مكونا ملح الهيدريد . حجم المعدن ٢٥٪ من حجمه الاصلي المنتفخة على الذرات المجاورة وتتكون اجهادات داخلية وشروخ دقيقة تسبب انهيار المعدن وتحطمه .

وكثيرا ما يلهو الايدروجين مع الاوعية المعدنية وانابيب الصلب ويتفاعل مع الكربون ويكون غاز الميثان ، ويا لها من فرصة لو عثرت ذرات الايدروجين على شرخ او خدش فاذا بالشرخ يتمدد وكأن طفلا صغيرا يقص ورقة او يمزق قطعة قماش واهية ، ولهو ثالث لا زالت قواعده حتى الان غير واضحة المعالم فيه ينهار المعدن لمجرد وجود الغاز الى جوار نسبة ضئيلة من الاكسجين او ثاني اكسيد الكربون او بعض اكاسيد الكبريت .

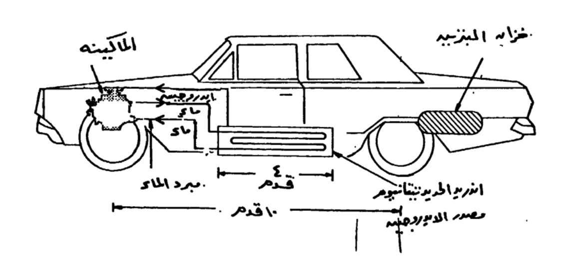
والايدروجين على ما بينا يصعب تقييمه وقودا للمستقبل ... ولكن عقول العلماء لا تهدأ ولا تستكين ويوما سأل احدهم نفسه ولماذا لا يكون هذا العبث مفيدا جدا فلندع الايدروجين يلهو مع المعدن فهذا افضل اسلوب لخزنه وكبح جماحه والسيطرة على قوته ما دام يمكن استعادته منها بالتسخين البسيط . وعلى هدى الفكرة التي حاولنا تبسيطها ظهر في عام ١٩٦٩ اول دراسة متكاملة عن تصميم سيارة تسير بالايدروجين واستخدام هيدريد المغنسيوم كوسيط ناقل للغاز ، واليوم تجري الشركات الامريكية والالمانية دراستها لاستكمال طرح سيارة الايدروجين تجاريا . (شكل ٩) .

١٠ ـ الهندسة الكيميائية وخزن الحرارة وانتقالها :

نرى على شاشة التليفزيون شريرا يهدد بالقاء ماء النار على وجهه ، والرجل لا حول له ولا قوة ... تارة يستدر عطفه واخرى تنهمر



شكل (٩) سيارة ايدروجينية تحت الاختبار



شكل (٩) تفاصيل سيارة ركوب تعمل بالايدروجين

دموعه على خديه فقد رسخ في قرارة ذهنه ان ماء النار تفترس انسجة الوجه وتتلفها وتشوه خلقة الانسان ايما تشويه ، والذي عادة تهمله المسلسلات والافلام ان ماء النار هو بعينه حمض الكبريتيك ، وان سبب التشوه شراهة الحامض لامتصاص الماء وارتفاع درجة الحرارة لدرجة قد تفحم وجه الضحية ، وان التفاعل اللااخلاقي هو تطويع بشع لخاصية هامة من خصائص الكيمياء ، فهناك تفاعلات ماصة للحرارة واخرى تطرد الحرارة في مقدمتها ذوبان حمض الكبرتيك في الماء ، وهو مثل كل المواد الكيميائية له حدان ... حد يكمن فيه الشر وحد آخر يكمن العلم بمفاخره ، فذات التفاعل بدأت البحوث تتجه صوبه لتخزين طاقة الشمس كيميائيا والفكرة بسيطة ورائعة وقدمها دونالد بول ودوجلاس هكس تايل للمؤتمر الامريكي الكندي المشترك للطاقة الشمسية الذي عقد بمدينة ويبنج في الفترة من ١٥ ـ ٢٠ أغسطس .

والفكرة ببساطة تعتمد على جملة حقائق مؤداها ان الحمض المركز متى خفف بالماء تصاعد من الاذابة قدر هائل من الطاقة الحرارية ، ويمكن اعادة تركيب الحامض المخفف بالطاقة الشمسية وتكثيف الماء الناتج واعادة الحلقة مرات ومرات ومرات ، ويمكن استغلال الحرارة في تبريد او تدفئة المنازل اوضخ الماء من الآبار .. الخ .

والنظام رغم غرابته يمتاز بسهولة تشغيله في اي دولة ، فالحامض ينتج تقريبا في كل دول العالم والطاقة المنبعثة قدرها خرافي ، ويبقى تطويع النظام حتى يناسب الاستخدامات المتعددة ومجابهة مشاكل البخر وفقد الحامض اثناء البخر واعادة الخلط والتخزين والتقليل من الفاقد الحراري .

بحث آخر درس امكانية خزن حرارة الشمس باستخدام اكاسيد وايدروكسيدات القلويات الارضية وبالاخص اكسيد الكالسيوم المعروف شعبيا « بالجير الحي » وقد سمي بهذا الاسم لأن الجير الحي متى لامس الماء انفعل داخليا وانقلبت صورته وصار غضبانا شرسا تتطاير منه الحرارة بشدة ويتصاعد بخار الماء الى الهواء وكأنه لا يحتمل ما يجري من تغييرات داخل كتلة الجير الحي ، واذا به بعد فترة ينطفىء غضبه ويصبح لينا هشا ، ويضحي كيميائيا صورة جديدة او مادة جديدة هي ايدروكسيد الكالسيوم .

وقد تابع مهندسو الكيمياء هذه الخاصية وترجموا معادلتها الكيميائية

ايدروكسيد كالسيوم طاقة حرارية من الشمس ←
اكسيد كالسيوم + ماء + طاقة + →

الى بحث ودراسة وتنميق وتمحيص تناولت سعة المبدلات الحرارية والعزل الحراري وسرعة التفاعل وحجم الحبيبات والاضافات الكيميائية ، وتقدموا بالنتائج وذكروا ان الجير الحي يمكنه تدفئة المنازل الصغيرة وصوابي المزروعات والزهور ، ويقترحون تخزين الحرارة نهارا وسحب الطاقة ليلا ، ويرى بعض مهندسي الكيمياء استحلاب طاقة الشمس صيفا وخزن الجير الحي حتى يحين الشتاء ، وحددوا احتياج منزل مساحته ١٥٠ مترا مربعا ب١٢ متر مكعب جير باستخدام مسطح تجميع في حدود ٣٠ مترا مربعا .

ومحاولات العلم لا تقف عند حد ولا يعرقلها سد ولا تتهاوى امام صعاب ظاهرة او باطنة ، فالحدث جلل والمشكلة يخشاها كل ذي عقل سليم وتفكير غير سقيم ، ولأجل الحل يطرقون كل الابواب ويحاولون العثور على بصيص من الضوء ينير طريق المستقبل ويبدد الخوف من نفاذ الطاقات الحفرية والبترول على صدارتها . ودفعتهم المحاولات الى البحث في امور كثيرة منها الاكاسيد الفوقية(١١) التي تسمح بتكوين مواد او اكاسيد اصلية وتمنح الطاقة الحرارية مثل :

وايدروكسيد البـاريوم وحمض البـوريك ونتـرات البوتاسيم وكلورات الصوديوم ، وبات وشيكا الانتهاء من بحث كفاءة محلول كبريتات الصوديوم ويستطيع المتر المكعب من المحلول خزن ما مقداره ٢٥٠ ميجا جول عند درجة حرارة ٣٠ مئوية او حوالي ١٨٠٠٠ وحدة حرارية بريطانية ، واذا امكن تبديل هذا الكم الحراري باستخدام وسيط ناقل للحرارة من الكحول والماء فان تدفئة المنازل سوف تصبح امرا يسيرا عن قريب .

الاكسيد		فرق الطاقة الحرارية	درجة حرارة التخلل
الفوقي	العادي	سعر /جرام	درجة مئوية
فوق اكسيد ليثيوم	اكسيد ليثيوم	٢٧٤	٢٠٠
فوق اكسيد الباريوم	اكسيد الباريوم	١٢٦	٥٦٥
فوق اكسيد الصوديوم	اكسيد الصوديوم	٣٧٦	٦٥٠
فوق اكسيد البوتاسيم	اكسيد البوتاسيم	٥١٣	٣٠٠

ورغما عن جدة النتائج النظرية الا ان العلم شيء والتطبيق امر مختلف ، فهنـاك مشـاكل تداول المواد الصلبـة والسائلـة والابخـرة وتحـديد سرعـة التفاعلات وتبديل الحرارة وانتقالها وخفض تأثير ثاني اكسيد الكربون على الاكسيد وتنقية الجو من دقائق المواد وتأمين العاملين صحيا ضد اخطار التشغيل .

ولا زال في جعبـة الـكيمياء الكثـير فدرسـت ديناميكية انتقال الحرارة في المحاليل المركزة والمشبعة لاملاح كربونـات الصـوديوم وكبـريتيات الصـوديوم

وهندسة الاحتراق شغلت بال مهندسي الكيمياء ومهندسي الميكانيكا وتشكلت فرق بحثية ضمت طرفي الموضوع .

شكلت ازمة الطاقة الراهنـة عبئـا جديدا على الكيمياء والهندسة الـكيميائية يوم طرح على مائـدة البحث فكرة تعديل ورفع كفاءة الاحتـراق وخفض الفاقد الحراري من الافران والابنية ووحدات الانتاج الصناعي . والمشكلة لاتبدو حديثة عهد وان اكسبتها ازمة الطاقة ابعادا جديدة ، فقد ظل العالم راضيا كل

(١١) الاكسيد العادي عبارة عن اتحاد العنصر مع قدر معين من الاكسوجين بينما الاكسيد الفوقي هو ذات الاكسيد العادي متحدا بكم أكبر من الاكسوجين .

الرضا عن كفاءة الاحتراق داخل محركات السيارات الذي لا يتجاوز في افضل الظروف عن ٣٠٪ من جملة الطاقة الحرارية المنتجة ، كما ظل سعيد النفس هاديء البال وقرير العين رغم فقد اكثر من ٢٠٪ من جملة الطاقة الحرارية الصناعية الى الهواء ، واليوم لم يعد هناك رضا ولاقناعة وسبحان مغير الاحوال .

وبدءا بالمشكلة تشكلت فرق بحثية في الجامعات والمعاهد مراكز البحوث تبغي في الاساس غرضين : ـ

أ ـ ابتداع اساليب علمية وكيميائية بالدرجة الاولى ترفع كفاءة الاحتراق .

ب ـ وابتكار او تطوير وسائل السيطرة على تسرب الحرارة الى الاوساط المحيطة .

عن هذه الدراسات الكثيرة والعميقة نأخذ لمحات او نلقي بعض ضوء واه وليكن مثالنا الدراسة التي قدمها اثنان ... مهندس كيميائي ومهندس ميكانيكي عن طريقة لاكتساب اكبر قدر من حرارة الاحتراق داخل الافران باجراء مجموعة كبيرة من التبديلات الحرارية واعادة تصميم جدار الفرن وخفض كمية الطاقة الحرارية المنبعثة مع غازات العادم ، ولزم لها صناعة جدار الفرن من مواسير صلب قطرها ٥سم تتصف بالقدرة على تحمل شدة الضغط والفعل الناشر لغازات الاحتراق تحت ظروف درجة حرارة التشغيل ، وابتكرا طريقة خلط الهواء بالوقود في حركة دوامية ـ كما تتضح من الصورة ـ بحيث يتم الخلط كاملا ، ويفصد الوقود عن كل مكوناته من الطاقة ، ولم يتركا جدار الفرن هكذا بلا عمل انما دفعا في الانابيب ماء باردا فاذا به يتحول الى بخار عالي الضغط يحرك توربينات توليد الكهرباء ، شكل (١٠) .

ومن الطرق الجديدة استخدام الزلط كمبدل حراري بين السوائل الساخنة والباردة والسيطرة على اختبار مكان شمعة الاحتراق في قلب سلندرات السيارات ومحاولات تحسين ترذيذ الوقود والوصول بنسبة الهواء الى الجازولين للحد الامثل والحدية الاقتصادية .

والامثلة كثيرة ومتنوعة والتجارب قاب قوسين او ادنى من اللحظات الحاسمة ... ونترك الاحتراق ونأخذ الشق الثاني من اجراءات السيطرة على الفاقد الحراري وسوف نلحظ ان بحوث المواد الحرارية العازلة اكتسبت نشاطا جديدا بعد طول رقاد واليوم يعاودون اجراء ضبط النتائج المعملية على الحواسب الالكترونية هادفين الى تحديد الآتي :

ـ مدة استهلاك المنشأ الواقع تحت الحرارة .
ـ تكاليف العزل الحراري .
ـ درجات الحرارة المحتملة .
ـ رفع كفاءة العزل الحراري الى اقصى حد ممكن .

ونلحظ ان مادة مثل الاسبستوس (سليكات ماغنسيوم) تجري عليها دراسات مكثفة لانتاج مواد عزل جديدة بخلطها مع مادة البولي موريثان ، كما ان الطفلة الدياتومية[١٢] يعاد النظر في نشاطها

---

(١٢) الموجودة في الجزائر ، مصر ، المغرب ، كاليفورنيا ، انجلترا ، روسيا .





شكل (١٠) تنظيم عملية الاحتراق داخل الافران وتكثيف عزل جدران الافران بالمواد الحرارية العازلة الذي يعتبر انتاجها بالدرجة الاولى من اختصاص علوم الكيمياء.

الكيميائي بطرق الكيمياء الكهربية وتجري عليها بحوث مكثفة لخلق عازل حراري خفيف يصلح لتبطين الانشاءات والمباني والافران ، وينتظر من نتائج تجارب خلطها مع البولي يوريثان الحصول على عازل حراري جيد ، كما ان الصوف الزجاجي من المواد التي تلاقي الآن اهتماما بحثيا متجددا وكربونات المغنسيوم القاعدية تنال حظا وافرا من الفكر العلمي المنظم .

وبلاستيك البولي يوريثان عبارة عن نوع من البلمرات العضوية لبعض المواد الاولية تنتج بلاستيكا اسفنجي الشكل ذا فراغات مغلقة غير متصلة مملوءة بغاز ثاني اكسيد الكربون الخامل ، ويمكن تشكيل المادة بالشكل الهندسي المناسب تأكيدا للعزل الحراري .

وتحظى مادة البولي استرين الاسفنجي وتبلغ كثافتها رطلا لكل قدم مكعب باهتمام كبير كعازل حراري ، حيث يفضل استخدامها في عوازل التبريد والتكييف لما لها من قدرة عالية على منع تسرب حرارة الوسط الجوي الى المكان المبرد او منع فقد برودة المكان .

١١ ـ الكيمياء والكتلة العضوية والطاقة

الكلوروفيل او اخضر الورق هو العامل الفعال في اعجب معمل كيميائي عرفه الانسان ، وذلك لأن جميع العمليات الحيوية للنبات تعتمد على عمليات البناء الاولية التي تجري في خلايا الورق . وتحتوي خلايا النسيج الاسفنجي للورقة على دقائق صغيرة من الكلوروفيل مغمورة في سائل الخلية ووظيفتها انها تمكن الطاقة المشعة من الشمس من تحويل ثاني اكسيد الكربون والماء الى مواد كربوهيدراتية وتسمى العملية بالتمثيل الضوئي مكونة سكريات بسيطة بعدها تتحول الى سكريات ثنائية يتلوها تكوين سكريات معقدة مثل النشا والسليلوز .

وقد يختزل السكر المتكون ويتحد بالنيتروجين المثبت مكونا البروتين النباتي او يختزل السكر فقط ويتحول الى زيوت ، ولم يعرف المدى الذي يتدخل فيه التمثيل الضوئي في العمليات السابقة لكن من الواضح جدا ان الكربوهيدرات هي الاصل الذي تتفرع منه كل مركبات الكائن الحي .

والورقة الخضراء او المعمل الكيميائي الحي مجهز بابداعية واعجاز يقف امامه كل العلماء خاشعين لقدرة الخالق ، فالورقة تحتوي مساما يبلغ عددها اكثر من ٢٠,٠٠٠ ثغر في البوصة المربعة منها ينفذ ثاني اكسيد الكربون ، اما عروق الورقة فتجذب الاملاح المعدنية والماء وتنقل المواد بعد تفتيتها وينشأ عن ذلك دورة مثالية لا تنقطع مكونة الكتلة العضوية باشكالها المتنوعة من الحبوب ـ الثمار ـ الزيوت ـ السكر ـ النشا ـ السليلوز والخشب ـ والالياف ـ البروتين النباتي ... الخ .

ويتناول الانسان والحيوان غذاءه من هذه الكتلة المتنوعة الاصناف والاشكال ، وتأخذ الصناعات ما تحتاج اليه من مادة خام تعمل فيها تغييرا وتبديلا ، وكلا الآلتين الحية والمعدنية يتبقى منها فوائض او تفرز مخلفات عضوية لا زالت تحمل بين جنباتها قدرا من الطاقة الشمسية لا يستهان بها .

ولقد اثارت الكتلة العضوية قرائح العلماء لايجاد منهج يحصلون منه على خبر ، ويتقون به شر الازمة فابتدأوا الالتفات ناحية التقطير الاتلافي بعزل عن الهواء عند درجة حرارة في حدود ٥٠٠ درجة مئوية ، وتنتج هذه الطريقة مقطرات تشابه الزيت الخام بقدرة حرارية تعادل ٧٥٪ من القيمة الحرارية للزيت وتبلغ كمية المقطر حوالي برميل للطن الواحد ، وفرح بها القوم فهي الحل الامثل لمشكلة نفايات المدن ومصدر جديد للطاقة ، لكن دراسات الجدوى الاقتصادية ثبت منها ان الاقلال من النفايات عند المنبع ... اي عند قاطن المدينة افضل كثيرا من استعادة الطاقة بطرق مكلفة ، فالتقطير الاتلافي سوف يحتاج الى جملة خطوات اعداد وضغط النفايات واستهلاك طاقة حرارية للوصول الى درجة الحرارة المثلى للتقطير ... وكأن ما تأخذه باليد اليمنى يفر من بين اصابع اليد اليسرى ، وكما تفرغ مهندس كيميائي شاب للمسألة المطروحة وحسب العقبات الفنية في تعميم وتشغيل الافران فجاء من معمله يسعى قائلا يا قوم انفضوا ايديكم من الامر وابحثوا عن طريق اخر. واين الطريق ؟

والطريق المنشود وامل العالم اليوم في حل بسيط ، ففي كتابه الصغير الممتع عن الميكروبات والحياة يقول الدكتور عبد المحسن صالح .. في الليالي المظلمة في الريف قد تخرج من البرك والمستنقعات حلقات من النيران تظهر اول ما تظهر على سطح المستنقع ثم تضيء ، وقد ترتفع الى اعلى في الهواء فتحدث هلعا ورعبا في القلوب .

وقد نسب العامة هذه الظاهرة الى الشياطين والجن التي تسكن هذه البرك لكن حلقات النيران لا تنتسب الى جن او شيطان بل الى ميكروبات تعيش في طين البرك ، فبين وقت وآخر تتساقط بقايا نباتية تدفن شيئا فشيئا في الطين وتبدأ في التحلل في غياب الاكسوجين وينتج غاز الميثان (غاز البرك والمستنقعات) وتتجمع الفقاعات شيئا فشيئا وعندما يزداد ضغطها تهرب الى السطح وتحترق في الهواء على هيئة حلقات النار المشتعلة .

وكلمة ميكروب كلمة منفرة تستاء النفس عند سماعها وتقشعر الأبدان لذكرها ، فقد ارتبطت هذه الكلمة في عقولنا بالمرض والاذى والقذارة ، واخذت الاجيال جيلا تلو جيل تتناقل هذه المشاعر تجاه الميكروبات ، ويستكمل الدكتور محمد صابر تقديمه للميكروبات في كتابه الموضوعي الرائع الانسان والميكروب والزراعة ـ قائلا ـ اننا نظلم الميكروبات ظلما مبينا بهذه المشاعر فليست جميع الميكروبات ضارة ... بل على العكس من ذلك فبجانب القليل الضار ... هناك ايضا الكثير النافع الذي لا يمكن للحياة ان تستقيم في غيابه ، فقد أوكل الله سبحانه وتعالى الى الميكروبات دورا اساسيا في الحياة .. لا يمكن لها ان تسير في غيابه ... الا وهو اتمام دورة العناصر في الكون .. ولا تكاد تمر ساعة من نهار او ليل لا تتدخل فيها الميكروبات بطريقة مباشرة او غير مباشرة في شئون حياتنا ... فهناك ميكروبات ضارة تتطفل على الانسان والحيوان والنبات وتمرضه ... وهناك ميكروبات تترمم على المواد الغذائية وتحولها الى نفايا عديمة القيمة .

وعديم القيمة شيء نسبي في هذا الزمان ... فعديم القيمة امس ، ونفايات الماضي قد تصبح غدا شيئا لايقدر بمال ، ولا تكفي معادن الارض الثمينة له وزنا وسبحان مبدل الاحوال ، ولن اكون مبالغا اذا ما وصفنا رميم الامس بأنه وقود الغد ، ولأجل عديم القيمة هذا عقدت عدة مؤتمرات عالمية كان اهمها قاطبة مانظمته وزارة البحوث والتكنولوجيا بالمانيا الغربية تحت اشراف المنظمة الدولية للتدريب ، وعرض تحت اضواءه علميو العالم ومفكروه اكثر من خمسين بحثا جادا وعميقا عن الميكروبات وبدائل الطاقة طرحها علماء اكثر من سبع عشرة دولة .

ودور الميكروبات ليس جديدا على الاذهان ، فيمكنها تحويل جميع انواع المواد العضوية السليلوزيه الى مزيج من ثاني اكسيد الكربون وغاز الميثان خلال عملية الهضم اللاهوائي الى جانب قدرتها على اجراء التخمر الكحولي للمواد السكرية البسيطة والمعقدة وبمقتضاها تتحول السكريات الى كحول الايثانول . وفي كلتا العمليتين تحتوي المواد المتخلفة على مواد معدنية متنوعة سمادا للتربة .

وقد بدأت بعض الدول النامية الاهتمام بالتخمر اللاهوائي وانتاج غاز الميثان واستخدامه كوقود بديل ، وعلى وجه الخصوص في الهند اكثر من ٣٠,٠٠٠ مفاعل ، وهناك في الصين اكثر من ٢ مليون مولد ميثان ، وبدأت مصر اجراء مخطط بحثي واسع المدى يجريه المركز القومي للبحوث بالدقي لانتاج غاز الميثان من اجل استخدامه في الطهي والاضاءة بالريف المصري بديلا عن امرين :

الاول : تخفيف استهلاك البوتاجاز والحد من استهلاكه في القرية المصرية .

ثانيا : التخلص من الروث والحطب واعادة العناصر الغذائية للارض الزراعية استكمالا للدورة الطبيعية حتى تعود الارض الى سابق عهدها التي ما كان لها ان تتغير أو تتبدل .

بيد ان الامر لم يقف عند حد دول العالم الثالث فقط بل اهتمت به سلفا كل الدول الاوروبية وامريكا واليابان في محاولة استخدام النفايات والمخلفات اليومية للسكان في انتج البيوجاز .

وغاز الميثان من الوجهة الكيميائية يعتبر اصل المركبات العضوية المساة عائلة البرافينات بالرغم من انه لا يمكن ان يحضر منه سوى عدد محدود من المركبات نظرا لانه ابسط الهيدروكربونات حيث يتكون من ذرة كربون واحدة متحدة باربع ذرات هيدروجين ، والميثان غاز عديم اللون يغلي في درجة ـ ١٦٤ متوية وعند احتراق الميثان تنطلق كمية كبيرة من الحرارة ولذا تتجه بدائل الطاقة نحو انتاجه بيولوجيا ، واستخدامه كمصدر متجدد للطاقة .

(١١ ـ ١) انتاج الميثان من المخلفات اليومية :

تتوقف كمية المخلفات ونوعيتها على جملة اعتبارات اهمها عدد السكان وجملة الدخل القومي ومستوى حياة الافراد وانعكاس الدخل القومي على المستوى الثقافي للافراد وتقبلهم للنظم الحضارية ومحاولة التوفيق بين الامكانات والقدرات والتطلعات وتغيير الانماط الحياتية كدالة على الدخل والمستوى الحضاري ، فهناك شعوب يعتبر دخلهم من اعلى

الدخول العالية ، بيد ان هذا المستوى حكم الانماط الاستهلاكية في حدود مرنة لكنها واضحة ، بينا اثر على بعض الشعوب وجعلها تنحو نمطا استهلاكيا مفرطا في الغرابة .

واغلب مخلفات الانشطة البشرية تضم مواد متنوعة مثل الورق ـ الزجاج ـ المعادن ـ البلاستيك ـ الكاوتش والمطاط ـ الاقمشة البالية ـ كسر الخشب ـ مخلفات اغذية .. فالورق يمثل ٦٠٪ من مخلفات الشعب السويدى ، ٣٠٪ من مخلفات الشعب الفرنسى ، ٥٪ من جملة مخلفات دول الشرق الاوسط .

ايا ما كان نوع وكمية المخلفات فيجب ان تعد وتجهز وجبة الميكروبات حسب هواها حتى يتسنى لها القيام بدورها البارع وفعلها المبدع على من يرغب في خدمات البكتيريا :

ـ فصل الورق وتوجيه الناتج صوب صناعة الورق الرخيص والماص أو استخدامه في صناعات الجلوكوز والبروتين الاحادى والكحول الاثيلى وهى صناعات نؤجل الكلام عنها هنا ونفرد لها فقرة مستقله لما لها من اهمية .

ـ فصل المواد المعدنية حديدية كانت أوغير حديدية .

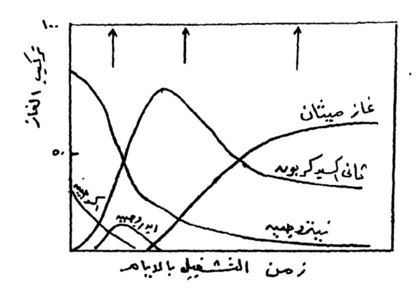
ـ فصل المواد الصلبه غير المعدنية وغير العضوية .

وتدخل الكتلة العضوية الى Land fill حتى يصل الهضم اللاهوائى الى مداه وتستقر معدلاته (المنحنى شكل ١١) ويتقلص الهواء الجوى في الكتلة ويتصاعد غاز ثانى اكسيد الكربون ، وبعد احد عشر يوما يتراجع ثاني اكسيد الكربون ، وبعد ٢٣ يوما تزداد معدلات انتاج غاز الميثان حتى تتعدى نسبة ٥٠٪ من جملة الغاز الناتج ، وبالحساب الكيميائى وجد ان كل رطل من المخلفات ينتج ٣٢,٥ قدما مكعبا من الميثان ، وهى بالقطع ليست شيئا جامدا انما تتسوقف شأن كل التفاعلات الكيميائية على درجة الحرارة والرطوبة وحامضية المكونات ونسبة الكربون الى الكتلة العضوية ومدى نعومة المخلفات وطحنها .

(١١ ـ ٢) الميثان من مخلفات الزراعة

وذات التكنولوجيا تستخدمها الدول في الهضم اللاهوائى لمخلفات الزراعة الأمر عادى ، لكن ما رأى القارىء في انه منذ نهاية العقد الماضى اتجهت البحوث الزراعية صوب زيادة انتاجية المحاصيل الزراعية مع الاقلال ما امكن من القش ومخلفات الحقل ، واخترعت الآلات التى تقطع الثمار وتدوس القش والنباتات في باطن الارض وتخلطها في ثنايا التربة حتى الاعماق ، واليوم في صحبة ازمة الطاقة انقلبت الآية وانعكست الصورة وطالبوا أهل العلم تحقيق أعلى انتاجه من الحاصلات الزراعية والتوصل الى ما يمكن التوصل اليه من قش النباتات والمخلفات الزراعية ، وتطرف قوم آخرون وطالبوا بزراعة الارض نباتات عشبيه لاغذاء يرجع منها ولافائدة سوى تلبية متطلبات الطاقة ... !!

ويقول ادوارد لا فسكى من معامل ابحاث باتل



شكل (١١) تغير تركيب انتاج غاز الميثان من المخلفات
ويمكن تمثيل التفاعلات من المعادلة المسجلة التالية

[كربون$_{أ}$ ايدروجين$_{ب}$ اكسوجين$_{جـ}$ نيتروجين$_{د}$ كبريت$_{هـ}$] تعطى +

(أ - ب/٤ - جـ/٢ + ٣د/٤ + هـ/٢) ماء ⟵

[أ/٢ + ب/٨ - جـ/٤ - ٣د/٨ - هـ/٢] ميثان + د نشادر

+ هـ كبريتيد ايدروجين + [أ/٢ - ب/٨ + جـ/٤ + ٣د/٨ + هـ/٤]
ثاني اكسيد الكربون

بولاية اوهايو انه يتمنى رؤية نبات قصب السكر وقد طالت ساقه وامتدت في الهواء عشرة امتار ، وان يتمكن الزراعيون واخصائيو الكيمياء الزراعية من استنباط نبات قمح أو شعير ترتفع سيقانها في الهواء ست أو سبع امتار ، ويتمنى من كل قلبه ان يتحكموا في ماء الرى واستخدام افضل نسب السماد محققين بذلك التوازن المطلوب ، فوجود نسبة رطوبه عاليه في القش أو المخلف الزراعي سوف يكلف مشاريع الطاقة نفقات هم في غنى عنها .

(١١ـ ٣) الميثان من روث المواشي

في عام ١٩٧٥ قدر العالم الامريكى ل . ف . نيلسون في بحثة امام الجمعية الامريكية للهندسة الزراعية بان ٥٠٪ من الطاقة التي تنالها حيوانات المزرعة تبقي في روثها .

والبحث كان مفاجأة لكل الذين سبقوه فمعظم مانشر قبله أفتى بأن نسبة الطاقة في الروث لاتتعدى ٢٣٪ والباقى يستهلك في الانشطه الحيوية بجسم الحيوان وتكوين اللحم واللبن أو البيض ويمكن استعراض ال ٢٣٪ بالهضم اللاهوائى للروث .

ولتكن النسبة ٥٠٪ أو ٢٣٪ أو ادنى من ذلك أو اكثر فهناك اعتبارات لامناص منها ولا مفر ان شاء القوم استعواض الطاقة من الروث . (شكل ١٢) .

١/٣/١١ جمع الروث

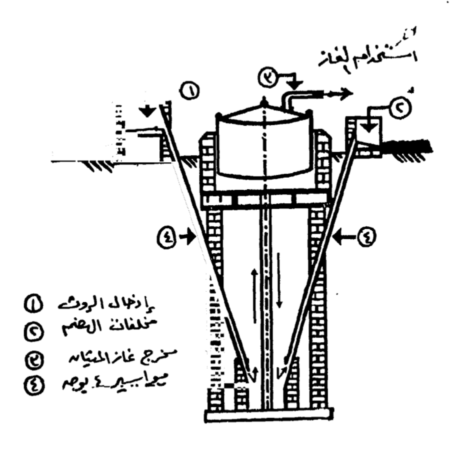
ويجب ان يتم بطريقة رخيصة أولا وسهلة ، ويتم نقله الى المفاعل عند درجة حرارة تسمح بالهضم وبدء عمل البكتيريا ، وليس افضل من جمع الروث فور سقوطه ، فدرجة حرارته (٣٥°م) هى انسب درجة حرارة وهى المثلى لبدء المفاعل ، ونقلة سريعا سوف يوفر الى حد كبير امداد المفاعل بطاقة حرارية والاضطرار الى تقليب الروث وخلط مكوناته جيدا .

(٢/٣/١١) موقع المفاعل

قد تتجمع فقاعات الغاز بسرعة وتلتقى على سطح الكتلة وترتفع درجة الحرارة وتنشط التفاعلات الحيوية ويبدأ الضغط في الزيادة ويحدث انفجار غير متوقع قد يصيب بالاضرار البشر والحيوان لذا يلزم انشاؤه بعيدا عن مبنى المزرعة ومحلات اعاشة الحيوانات والمبانى الادارية أو السكانية في المزرعة ، وهذا اجراء سوف يكلف انشاءسيور ناقلة للروث معزولة حراريا .

٣/٣/١١] التحكم في سرعة التفاعل

التفاعلات الحيوية والكيميائية خلال الهضم اللاهوائي لازالت معقدة وتحتاج الى فهم أعمق وبحوث كيميائية حيوية أكثر تخصصا وتشعبا ، وأي خلل فيها ربما أدى الى مشاكل ، لذا يحتاج المفاعل الحيوي الى متابعة دقيقة واشراف جيد وعين واعية ، فالتغيير الفجائي في حرارة المفاعل أو تغيير سرعة امداد الروث ونوعيته وحامضية الخامة أو قلويتها ، ووجود مواد ذات سمية في الروث .. كلها تجعل التفاعلات تحيد عن الخط المرسوم وتبعد عن المنطقة التجريبية وتجعل البكتريا إما تعبث في الكتلة هضما وتضع خطر الانفجار قيد دقائق أو تموت البكتيريا وتنتقل الى رحمة مولاها وتنفض نفسها من الأمر وتترك المفاعل يبث روائحه الكريهة .



شكل (١٢) مولد غاز الميثان

والبكتريا لها مناشير تقتضي منها وتوقف عملها ولهذا تحذر الابحاث من خطورة تزايد بعض الاحماض العضوية والغازات القلوية ، ففي كندا تمت تجارب على اربعة مفاعلات صغيرة وضعت تحت السيطرة العلمية ، وصار العلماء يلهون مع بكتيريا الميثان لهوا مدروسا ، وبين الحين والآخر يختبرون نتيجة هذا العبث وعواقبه بأحدث أجهزة التحليل الكيميائي والبيولوجي ، وفجأة توقفت المفاعلات عن اداء دورها المعهود وكأن اللهو تعدى مداه لحظة زادت كمية حمض الخليك او جاوز غاز النوشادر تركيزه الامثل .

٤/٣/١١] تداول الغاز

الحصول على غاز الميثان وتنقيته من مركبات الكبريت ليس مشكلة في حد ذاتها ، انما التكاليف الانشائية للمفاعلات تتوقف على كمية الروث المتاح والتي بدورها تنعكس على تقييم شبكة الانابيب الخاصة بالامداد . وعموما يمكن القول بأن الوحدات الصغيرة في الريف الهندي او الصيني أثبتت كفاءة عالية ، فتكاليف النقل تكاد تكون معدومة ويستهلك وعلى مقربة شديدة من مواقع الانتاج والمفاعلات ذاتها بنيت من خامات أولية بسيطة ولهذا ربما يتفوق الميثان على البوتاجاز قريبا ، أما اذا اريد لغاز الميثان منافسة الجازولين .. فهذا أمر آخر ليس بعيدا عن الكيمياء وليس بعيدا جدا عن هندسة الكيمياء .

●●●

١١ ـ ٤] سكر وطاقة من ورق الصحف القديمة

ورق الكتابة وورق الصحف والمجلات واللف والتعبئة وكل صور الورق المتاحة هي بالضرورة أحد منتجات السليلوز الطبيعي الذي تبنيه الاشجار والنباتات من خامات أولية بفضل التمثيل الضوئي الذي يسر للنبات دون سواه من المخلوقات وسخر للانسان بأمر خالق الكون ، فمن ثاني اكسيد الكربون والماء وضوء الشمس يجيء السليلوز كأكثر المواد العضوية شيوعا على الكرة الارضية ويمكن استخدامه مصدرا للطاقة اذا أحرق مباشرة او يعطى الغذاء أو يدخل في صناعة المواد الكيميائية .

ويقدر الانتاج العالمي من السليلوز بحوالي مئة بليون (بالياء) طن سنويا ، بمعنى ان الحق جل وعلا سخر النبات الاخضر كي ينتج ٧٠ كيلوجراما يوميا لكل فرد من الاربعة بليون انسان الذين يعيشون على سطح الكرة الارضية ، وللانسان ما هوى ولهماابتغى ان أراد السليلوز خشبا أو ورقا او وقودا او غذاء ، فالخامة الطيعة رهن قدرات عقله وسعة افقه ومقدار تضلعه من المعرفة وتسلحه من العلم .

ومادمنا بصدد الحديث عن ازمة الطاقة فلا محل لقول سواها ، ومادمنا نتداول الورق القديم والمهمل فان الطن به ينتج نصف طن جلوكوز واذا حول السكر الناتج الى كحول اعطى ٧٨ جالونا بالتمام والكمال .

وتحويل الورق الى سكر بعملية التسكر تطرحها الكيمياء عبر مسارين .. ان اردتها ضاجة بالآلات والحركة فلك مع التحلل المائي الحمضي في أوعية الضغط ماشئت وعليك عاقبة امرها ، فالاحماض تنخر الجدران وقد تتلف بلورات السليلوز ولا تعطى تسكرا

بالمعنى المرغوب ، وان اردتها هادئة صامتة ناجحة فدع عنك العلم الجامد واترك الميكروبات تعمل عملها تحت ما تهوى من ظروف وضوابط وسوف تختار الميكروبات الورق وتترك احبار الطباعة وشوائب الطباعة وهذا ما تعجز عنه الاحماض المعدنية عجزا ولا تفرق بين السليلوز واسود الكربون ـ وسوف تعطيك الميكروبات السكر محلولا رائعا صافيا نقيا بعدها تستخدم السكر غذاء أو تجعل بكتريا اخرى تتغذى عليه وتعطيك البروتين او تمثل به تمثيلا غريبا فاذا بالسكر يرتد كحول الايثانول .

والذين يهوون نسب كل أمر الى صاحبه أقول إن الجيش الامريكي وبالتحديد U.S. Army وحدة Natick Research Development الميكروبيولوجي التطبيقية في الجيش الامريكي المعروفة بالاسم الانجليزي السابق هي التي حددت معالم البحث وأماطت اللثام عن خفاياها وباليت الميكروبيولوجيين في الوطن يتأسون ببحوثها .

١١ ـ ٥) هل تحل الحاصلات الزراعية مشكلة الطاقة ؟..

شبح الخوف من ازمة الطاقة بلغ مداه بأمر الطاقة ولا يتركون خامة أو قشة أو ورقة دون دراسة وبحث وتأصيل حتى حاصلات الحقل دخلت معامل الطاقة ولم يسلم قصب السكر والعنب والبنجر والقمح والشوفان وشجر المطاط والكاكاو ... الخ وتأخذ قطرة من محيط هادر يحاول كل جهده ولا يترك شاردة أو واردة دون فحص أو تمحيص .

قصب السكر مثلا ـ نال اهتماما بحثيا واسعا فقد ثبت أن للنبات مزايا جعلته يتصدر قائمة محاصيل الحقل في صدد أزمة الطاقة فهو :

ـ نبات يعطي أعلى انتاج بالنسبة للفدان أو الهكتار (١١٢ طن في السنة/هكتار) .

ـ ولأنه لا يتطلب نقل المحصول تكاليف عالية حيث تقام المعاصر وسط الحقول في حدود دائرة قطرها ٣٠ كيلومترا .

ـ ولأن نتاجه من السكر يمكن تخميره مباشرة دون تعقيدات كيميائية .

ـ ونبات القصب لا يستنزف نتروجين التربة مثل باقي حاصلات الحقل .

ـ وجزئي السكر بالتخمر يعطي جزيئين كحول وجزئين من غاز ثاني اكسيد الكربون ، يعني أن كل ١٨٠ جم سكر تعطي ٩٢ جرام كحول و٨٨ جرام ثاني أكسيد الكربون والأرقام تعني أن ميزة تحويل السكر الى كحول تحول مادة صلبة الى وقود سائل سهل النقل والتداول دون خفض من الطاقة[١٣] لا

(١٣) جزئي سكر ـــــ ٢ جزئي كحول + ٢ جزئي ثاني أكسيد الكربون
١٨٠ جم سكر = ٩٢ جم ٨٨جم
٦٧٣ كيلو سعر = ٦٥٥ كيلو سعر
وفرق الطاقة =٦٧٣ - ٦٥٥ = ١٨ كيلو سعر .

يتعدى ١٨ كيلو سعرا وأن وزن الكحول الناتج لا يتعدى نصف وزن السكر .

وعلى ضوء المحددات السابقة اتخذت البرازيل قرارها باحلال الكحول جزئيا محل الجازولين في السيارات والمركبات والاستعاضة بالكحول عن المقطرات البترولية في صناعة البتروكياويات على نحو قد يخفف الضغط على الزيت . فالكحول يمكن أكسدتها الى حمض الخليك أو امتصاص جزئي ماء منه ليعطي الاثيلين الذي بدوره يمكن منه صناعة البولي اثيلين ، وبالقاء الاثيرلين في طريق غازات عائلة الهالوجينات يمكن تحضير مركبات كيميائية لا عد لها ولا حصر .

كحول اثيلي ——أكسدة——> حمض خليك

كحول اثيلي ——سحب جزئي مائي——> ايثلين

ايثلين ——عامل مساعد——> بلاستيك

حمض خليك + كربونات كالسيوم ——> ملح

والملح يمكن تسخينه لانتاج مواد كياوية متنوعة

وينتظر أن تحذو أمريكا حذو البرازيل وتلجأ الى صناعة الكحول بالتخمر الهوائي لمحاليل السكريات بعدما ظلت لأكثر من خمسين سنة تعتمد على البترول في انتاج حاجاتها من الكحول ، فمن البترول تأخذ المصانع الاثيلين وتعامله بحمض الكبريتيك وتحلل الناتج بالماء فيتكون كحول الاثيل بسعر ٢٠ سنتا للرطل واذا انتج ميكروبيا سوف ينخفض السعر الى ٤,٥ سنتا .

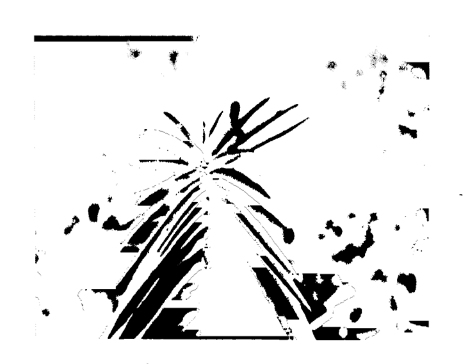
والتخمر الميكروبي للسكر سوف ينتج ٨ مليون متر مكعب من الكحول في البرازيل وحدها ، وسوف يستخدم ٢٠٪ من الناتج لخلطه بالجازولين وقد بلغ استهلاك هذا الخليط حوالي ٢٠ مليون متر مكعب عام ١٩٧٧ بعد ما طورت صناعة السيارات البرازيلية محرك الاحتراق الداخلي باضافة مبدل حراري دون خفض كفاءة الاحتراق ..

١٢ ـ البترول من الأشجار .. بالكيمياء : في عام ١٩٦١ نال الاستاذ الدكتور ملفين كيلفين جائزة نوبل عن بحوثه التي حلت الغاز كيمياء التخليق الضوئي المعقدة والتي ساعدت في الكشف عن بعض أسرار النبات ، واليوم ومنذ عام ١٩٧٣ يحاول الرجل التوصل بما يعلم الى مساعدة العالم في أزمته الراهنة ، فالمدرسة العلمية التي يقودها تبغي تقسيم ودراسة كل النباتات المنتجة للهيدروكربونات مثل شجرة المطاط وشجرة الجوفر الكاليفورنية وهي نباتات تدر عصارة بيضاء غليظة تحتوي على ما بين ٣٠ و ٤٠٪ من هيدروكربونات تشابه في كثير من الأوجه النفط الخام . (شكل ١٣ ، ١٤) .

وتم تحليل عصارة ثلاثة عشر نوعا من أشجار الهيدروكربونات ثبت فيها أن جزئيات العصارة من الناحية الكيميائية أصغر كثيرا وأقل تعقيدا مما يجعل تكريرها أسهل وأيسر ، فمن التكسير الحراري



(شكل (١٣) نبات يخو Euphorbia Tirucalli من كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية ويعتبر من نباتات العصارة القادرة على خزن الطاقة الشمسية بكفاءة وعليه يركز الدكتور م. كالفن بحوثه من بدائل البترول.



شكل (١٤) نبات Euphorkia Lathyris
أثبتت البحوث أن هذا النبات يحتوي على عصارة المطاط وبعض الشموع كما يحتوي على مركبات عضوية يبلغ عدد ذرات الكربون بها ثلاثون ذرة واقتصاديا وجد أن الفدان الواحد ينتج أكثر من ١٠ طن من المواد الهيدروكربونية سنويا أي ما يعادل ١٠ برميل زيت خام .

لعصارة أشجار المطاط ومن جملة البحوث تجارب تجري على نباتات Euphorias ونباتات Asclepias (الصور المرفقة) وتبغي البحوث زيادة ادرار العصارة والوصول بها الى ٥٠ برميل هكتار سنويا . ويبني العلماء تقديراتهم على نحو يقترب من خيالات القصص العلمي فيقولون أن زراعة أرض في مساحة غانا قد تكفي الولايات المتحدة من حاجتها النفط (شكل ـ ١٥) .

١٣ ـ الكيمياء ومشاكل أخرى :

[١٣ ـ ١] النفط من الرمال القطرانية : هي مادة سوداء لزجة تشبه القطران ذات رائحة كريهة ، ويقول الانجيل أن النبي نوح عليه السلام استخدمها لسد الشقوق بين الألواح الخشبية في فلكه ، واليوم يستخلص ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ برميا يوميا من الرمال القطرانية بالقرب من مقاطعة البرتا بكندا وتضم تلالا تحتوي على ٩٦٧ بليون برميل .

وهندسة التقطير جاءت بالحل الناجح فعدلت من طرق معاملة الرمال واستخدام بخار الماء والهواء الساخن ويعالج الناتج لازالة الكبريت كيميائيا والاقلال من نسبة النتروجين ويقولون سوف يكون سعر البرميل منافسا لسعر النفط .

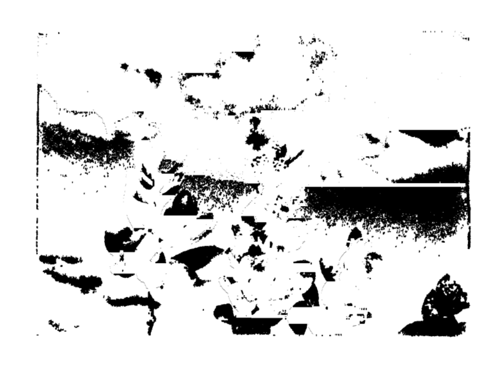
[١٣ ـ ٢] رفع كفاءة استخراج النفط : لا يتعدى حجم النفط الخام من كل آبار العالم أكثر من ثلث المتاح دفعه بالطرق التكنولوجية الحديثة ، وعلى مستوى آبار أمريكا هناك أكثر من ٢٠٠ بليون برميل من الزيت لا يعرف العلماء والمهندسون كيف تسحب من آبارها وتبلغ قيمتها ٣ تريليون دولار ، وعلى مستوى العالم هناك عشرات الألوف من بلايين البراميل لا تستغل ولا أمل فيها حتى الآن . فالطبيعة أرادت طرح سؤال عويص على مدارك أهل العلم كيف السبيل الى هذه الثروة فأنتم حيال أزمة ، فالآبار لا تكفي طاقاتها دفع كل مخزون النفط . وكان أول أسلوب تقنى باستخدام الماء في تعويم الزيت بحقن الماء داخل الآبار دفعا للزيت من رقاده ، وظلت هذه الطريقة ٤٠ سنة دون جدوى لأن لزوجة الماء أقل من لزوجة الزيت وبالتالي لا يحمل الماء الزيت ويترك حوالي ٤٠٪ من الزيت يتسرب ويعود أدراجه ويقال كل برميل يستخرج يتسرب مقابلا له برميلان .

وعرض الأمر على مؤتمر اختص بالكيمياء وتناقش المؤتمرون وعرضوا زيادة لزوجة الماء كيميائيا أو تقليل التوتر السطحي للنفط باستخدام كيميائيات البلولة واستخدام بلمرات ميكروبية تمنع تسرب النفط وتغطي سطح الآبار بالامصاص للجزئيات عليها ويبدو أن الأمل مشرق في ظل الكيمياء .

وبعد هل اتضح دور الكيمياء ؟.. ارجو ذلك .

١٤ ـ استخلاصات الدراسة

١ ـ إسالة الفحم الى مقطرات بترولية رغم انها أقدم البدائل طرحا على مائدة التقنية ، فان مخاطر التلوث البيئي وتزايد كمية الملوثات السرطانية لا شك سوف تلعب دورا مؤخرا في تكثيف الجهد نحو هذا الحل حتى يحل العلماء المشكلات التي استجدت .



شكل (١٥) نبات يسمى Asclepias
ينمو في البرازيل ويعتبر احد محاور البحث العلمي في
الحصول على المقطرات البترولية من النباتات حتى
تحتوي العصارة من المواد الهيدروكربونية .
ذاع الشجر المطلق عليه عربيا في الصحف والمجلات
اسم شجرة البترول رغم انه اقتصاديا لم يثبت
نجاحها.

٢ ـ لازالت الخلايا الضوكهربية صوب التطبيق الاستراتيجي اكثر منه على المستوى التكتيكي ولا ينتظر ان تكون في متناول الفرد العادي قبل مرور عدة سنوات قد تطول ، ومن المؤكد انها لن تنشر على مستوى الخلية وحيدة البلورة .

٣ ـ خلايا الوقود تعتبر ذات تاريخ علمي راسخ في ميدانها تبشر بنجاح يعتد به وان استخدمت حاليا على المستوى العسكري .

٤ ـ قضايا الايدروجين ومشاكله لازالت قيد البحث والدراسة ، ووفق ما ذكر بالدراسات والبحوث والمراجع الحديثة فالامل معقود عليه في النقل والطيران رغم مخاطره الانفجارية .

٥ ـ تقدم الهندسة الكيميائية نجاحا مضطردا في هندسة العزل الحراري ورفع كفاءة الاحتراق لكنها لازالت ارهاصات علمية لم تخرج الى حيز التطبيق الفعلي وكفاءتها الفعلية رهينة باختبارات الحقل والميدان .

٦ ـ تشير بحوث الكتلة العضوية الى نجاحين :

أ ـ انتاج الميثان كمصدر طاقة يعتز به في الريف .

ب ـ انتاج الكحول كمكمل وقود وخامة اساسية في الصناعات الكيميائية سوف يوفر قدرا من البترول .

٧ ـ انتاج البترول من الاشجار المدرة للعصارة ينال حظا من الدعاية والاثارة الصحفية ذات الطابع العلمي اكثر من واقعه ، كما ان الحصول على بديل بترولي من نفاية المدن اصبح مجرد ذكرى .

٨ ـ لا أمل للعالم في رفع كفاءة استخراج البترول من الآبار او الرمال القطرانية إلا بطريق ميكروبيولوجية لم تبدأ أبحاثها بعد .

٩ ـ لم تتطرق الدراسة لطاقات الرياح والمد والجزر والأمواج والحرارة الجوفية من باطن الارض لعدة اسباب أهمها :

أ ـ انها تخرج من اختصاص الكيمياء فمشاكلها وحل البحوث الخاصة بها تنطلق من الهندسة الميكانيكية او الكهربية .

ب ـ ولان الجانب الكيميائي فيها لا يعدو خزن الطاقة في البطاريات الكيائية .

١٠ ـ ولم يتعرض المقال للطاقة النووية الاندماجية او الانشطارية ، كما لم يعرض الى خزن الماء وضغط الهواء في انفاق تحت الارض لذات السبب السابق ذكره في البند ٩ .

●●●

والآن هل اتضح سبب اختيار العنوان والتأكيد على ان كل المجالات لا تعدو الوصول الى مكملات للطاقة . وفي الختام أقول سوف يبقى الزيت كما منحه الله عطاءا منفردا ، إنه نعم المعطي ونعم الوهاب .

***

المراجع

١ ـ الدكتور عبدالعزيز أمين

أ ـ ماذا يحدث في مسيرة العلوم — عالم الفكر المجلد ١٠ العدد ٤ الكويت السنة ١٩٨٠
ب ـ الانسان والعلم — كتابك رقم ١٢٤ دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٠

٢ ـ الدكتور عبداللطيف ابو السعود

أ ـ خلايا الوقود — مجلة العلم العدد ٢٣ القاهرة يناير ١٩٨٠
ب ـ قصة النار — مجلة العربي عدد ٢٥٠ الكويت سبتمبر ١٩٧٩

٣ ـ الدكتور علي عتيقة

خطر استمرار الضغط على النفط العربي — مجلة العربي العدد ٢٥٤ الكويت يناير ١٩٨٠

٤ ـ الدكتور عبدالمحسن صالح

الميكروبات والحياة — المكتبة الثقافية رقم ٣٤٠ القاهرة سنة ١٩٧٧

٥ ـ زهير الكرمي

العلم ومشكلات الانسان المعاصر — عالم المعرفة العدد ٥ الكويت سنة ١٩٧٨

٦ ـ الدكتور فؤاد عطاالله سليمان

الكتلة العضوية ـ آن الأوان للاستفادة منها — مجلة العلم العدد ٥٢ القاهرة يونيه ١٩٨٠

٧ ـ الدكتور محمد صابر

الانسان والميكروب والزراعة — المكتبة الثقافية رقم ٢٠٠ القاهرة سنة ١٩٧٠

٨ ـ الدكتور محمد نبهان سويلم

أ ـ بدائل البترول والفكر العالمي — مجلة المهندسين العدد ٦ القاهرة سنة ١٩٧٦
ب ـ التكامل العلمي في الدوائر الالكترونية — مجلة المهندسين العدد ٥ القاهرة سنة ١٩٧٦
ج ـ دعوة الى حب الشمس — مجلة الفيصل العدد ١٠ الرياض سنة ١٩٧٨
د ـ التطرف في استخدام قوانين الغازات — مجلة العلم العدد ٣٢ القاهرة سنة ١٩٧٨
هـ ـ واشتعلت النيران — مجلة المهندسين العدد ٤ القاهرة سنة ١٩٧٨

٩ ـ هالاسي ، د . س .

عصر الطاقة الشمسية القادم

عرض الدكتور احمد عبدالقادر المهندس — مجلة الفيصل العدد ٣٧ الرياض سنة ١٩٧٩

١٠ ـ .... الطاقة
رسالة اليونسكو العدد ٢٠٥ اغسطس ١٩٧٨

١١ ـ يوسف لبنو يوسف
اشباه الموصلات وتطبيقاتها العلمية
« مترجم »
تاليف أ . ف . يوفي الالف كتاب
رقم ٢٣٦ القاهرة سنة ١٩٦٠

12. B. Cockayane & D. W. Jones
Modern Ceramic Oxide Materials Academic Press Lon. 1972

13. Christian And Zuckerman
Energy and chemical Sciencrs Pergamon Press Lon. 1978

14 . Daniels
Direct Use Of Sun Energy Yale Univ. Press 1964

15. Douglas D. Huxtable & Donald R. Poole
Sharing The Sun Conference Solar Tech. Institute Vol. 8 1976

16 . G. Bauerie et AI.
Storage of solar energy by inorganic oxide hxdroxide IBID VOI. 8 1976

17. F. R. Kalhammer
Energe Storage Systems
J. Scientific American /24I/ No 6 Dec. 1979

18. H. G. Schlegel & J. Barnea Edit.
Microbial Energy Coversion, Pergamon Press 1978

19. J. A. Simmons Reversible Oxidation of metal oxides for thermal energy storage
Sharing The Sun Conference SOLAR TECH. IN SEVENTIES 1976

20. J. B. Goodenough & M. S. Wittingham
Solid state Chemistry of Energy conversion and Storage.
Advances In Chemistry Series.
Amer. Chem. Soc. 1977

21. J,oel du Bow
Solar Energy Electronics Nov. 11 1976

22. K. Kordesch
Fuel Cells Academic Press. N.Y. 1963

23. K. W. Kauffman
Thermal energy storage with saturated aqueos solutions.
Solar tech. In Sventies Vol. 8 1976

24. L. Curran
Electronics NOV. 11, 1976

25. Liviu Oniciu
Fuel Cells (In English)
Abacus Press, Romania 1976

26. M. W. Breiter
Electrochemical process in fuel cells
Berlin Heidelberg New York 1969

27. Philip Sporn
Energy in one age of limited availability and delimited applicability.
Pergamon press. Ist Edit. 1975

28. Y. Borisov & I. Pyarnova
Harnessing the Sun
Foreign Language Publishing House Moscow 1960

29. ——————
Publications of different conferences related to energy and haressing the sun
A . Roma 1969
B . Muniec — West Germany — 1979 , 1980
C . Canada 1976
D . ABO DABI March 1979

30. ——————————

Bullitiens and published data of some firms

A . philips

B . Simens

C . A. E. G.

***

صدر حديثا

الحيـاة الممتـدة

تأليف : ماجنوس بايك

عرض وتحليل : محمد عصام فكري

مع تزايد اعداد الشيوخ في العالم واطراد التقدم في نسبتهم الى التعداد في جميع بلاد العالـم ، سواء المتقدمة أو النامية فانه من اللافت للنظر وجود كتب تتناول الشيخوخة من نواحيها المتعددة في جميع أنحاء العالم وبكل اللغات ، ولعـل هذا مواكب للطوفـان الذي نشعر به نحن المهتمين بعلـم الشيخوخـة ... طوفان من الأبحاث العلمية التـي تتنـاول الأوجـه المختلفـة للشيخوخـة ، سواء طبيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا ، بحيث أصبحت الشيخوخة بئرا لا ينضب من العلم يستطيع كل من يدلي فيه بدلوه أن يخرج بكنوز من العلم والثقافة والمعرفة .

ان كان من الصعب تقدير عدد الكتـب التـي تتناول موضـوع الشيخوخـة من نواحيهـا المختلفـة وبمختلف لغات الأرض فانـه قد يكون من الأيسر تقدير عدد البحوث التي تتناول موضوع الشيخوخة من النواحي الطبية ، سواء العلوم الطبية الأساسية أو البيولوجية أو التجريبية أو التطبيقية ، ولقد كان هناك تقدير لذلك منذ حوالي سبع سنوات بعدد يقرب من ربع مليون بحث ، ويمكن طبعا تصور أن هذا العدد قد قفز الى عدة أمثاله الى يومنا هذا .

الكتاب الذي نتناوله اليوم بالتحليل والنقد هو واحد من هذه المجموعة التي نراها كثيرا بالمكتبات تتـداول موضـوع الشيخوخـة والشيوخ ومشاكلهـم ومتطلباتهم وآمالهم وواجب المجتمع نحوهـم ، وهـذه ظاهرة صحية ومفيدة ، اذ أن كل باحث أو مفكر ينظر

- قامت بنشر هذا الكتاب هيئة بريطانية اسمها :

THE BRITISH ASSOCIATION FOR THE ADVANCEMENT OF SCIENCE

الى نفس المشكلة أو نفس الموضوع من وجهة نظر مختلفة نابعة من ثقافته ودينه وعلمه وخبرته ، هذا التعدد يؤدي الى حصيلة وذخيرة غنية من الأفكار المتشابهة والمتناقضة في نفس الوقت مما يعطي اثراء لا شك فيه للموضوع .

١ عنوان الكتاب هو : LONG LIFE EXPECTATION FOR OLD AGE

وفي محاولة لتعريب هذا العنوان فقد يكون أقرب تعريب الى ذلك هو « حياة طويلة ـ توقعات للشيخوخة » وهذا التعريب تقائضه ، فانه يلتزم تقريبا بالمعنى الحرفي ، لانه في واقع الأمر فان كلمة LONG اذا ترجمناها الى « طويل » وهو المعنى الحرفي لها فان هذا لا يشير الى حياة ولكنه ينطبق أكثر على الأطوال أو الأشياء ، ولقد تكون كلمة « ممتدة » أقرب الى المعنى المقصود ، وكذلك نفس الحيرة تواجهنا عند تعريب أو ترجمة كلمة OLD AGE فما هو المقصود بكلمة OLD أو كلمة AGE ؟ ويمكن تعريب كلمة AGE الى سن أو عمر ، أما كلمة OLD فانها أساسا بمعنى « قديم » ولعل هذا ما قابلنا نحن الباحثين في علم الشيخوخة عند اطلاق اسم GERIATRIC عليه ، وهذا الاسم مشتق من GEROS باللغة اليونانية ومعناه « قديم » أو على الأصح « عتيق » فأين هذا من المفهوم الحالي لعلم الشيخوخة ولكن هذا هو الأمر الواقع ، يبدأ التعريف واطلاق اسم مفهوم ما ثم يتطور هذا المفهوم بالتطبيق الى مفهوم آخر مختلف تماما عن المفهوم الأصلي ، هذا بالاضافة الى الاختلاف الناشيء من النقل من لغة الى أخرى .

« الرابطة البريطانية لتقدم العلوم » ومنبثق من هذه الجماعة أو الرابطة « لجنة للاهتمامات الاجتماعية والتقدم البيولوجي » ولقد كانت اجتماعات هذه اللجنة وما دار فيها من مناقشات وما اتخذته من قرارات هو العمود الفقري وأساس هذا الكتاب ، ولقد بدأ نشاط هذه الجماعة البريطانية عام ١٩٧١ بتمويل سخي من إحدى المؤسسات البريطانية لمناقشة المشاكل (الاجتماعية أساسا) الناجمة من التقدم المذهل في مجال علم الوراثة وانعكاس ذلك على المجتمع ، وبما أن المشاكل المرتبطة بالشيخوخة سواء اجتماعية أو طبية هي في الواقع من أهم التحديات التي يواجهها مجتمعنا الحالي فلقد كان منطقيا ان تستهلك معظم وقت ومناقشات واجتماعات هذه الجماعة ، الى أن تكونت لجنة الاهتمامات الاجتماعية والتقدم البيولوجي ، ولهذا السبب وبحكم الأمر الواقع تحولت هذه اللجنة الى لجنة الشيخوخة وذلك منذ عام ١٩٧٤ ، وأصبحت جل مناقشتها وما يصدر عنها من بحوث ونشرات خاصة بالشيخوخة ، خاصة فيما يتعلق بانعكاسات التقدم الفائق الذي حدث في علم الشيخوخة ، وانعكاسات ذلك على المجتمع .

ينقسم الكتاب ، بخلاف التقديم الذي قام به الدكتوران بودمر وفيرجوسن ، الى ثمانية ابواب بخلاف الفهرس .

الباب الاول : REWARDS ATANYAGE أي المكافآت في أي عمر ويقع في ١٤ صفحة .

الباب الثاني : SCIENTIFIC PROMISE أي الوعود (أو العهود أو الالتزامات) العلمية ويقع في ٣٠ صفحة .

الباب الثالث : WHERE ARE WE NOW أي أين مكاننا الآن أو أين نحن الآن ويقع في ١٩ صفحة .

الباب الرابع : CHOOSING A TARGET أي اختيار الهدف أو تحديد الهدف ويقع في ٢٠ صفحة .

الباب الخامس : HALFWAY HOUSE أي منزل النصف طريق أو نصف الطريق الى المنزل ويقع في ٢٢ صفحة .

الباب السادس : MEASURED IN MONEY أي القياس بالنقود أو التكلفة الاقتصادية ويقع في ٢٠ صفحة .

الباب السابع : BETTER THAN A WALKING STICK أي أفضل من العكاز ويقع في ٢٠ صفحة .

الباب الثامن : ? WHAT NOW أي ماذا الآن أو ما هو المطلوب الآن ويقع في ١٦ صفحة .

أما الفهرس فيقع في خمس صفحات على النظام التقليدي .

وبهذا يتكون الكتاب من ١٦٦ صفحة ويقع كل باب من الأبواب في عدد متقارب من الصفحات ، حوالي ٢٠ صفحة لكل باب .

من الملاحظ في هذا الكتاب انه لم يتبع الطريقة العلمية او الطريقة المتبعة في الكتب العلمية وهي الاشارة الى المراجع في أثناء الكتاب ، ثم إفراد بضع صفحات في آخر كل باب من الأبواب أو في آخر الكتاب للمراجع التي رجع اليها الكاتب حتى يمكن للقراء الرجوع اليها للاستفاضة من نقطة ذكرها الكاتب ، أو لمعرفة الأساس الذي بني عليه استنتاجه أو كتابته ، واعتبر هذا نقصا في الكتاب من الوجهة العلمية التأليفية ولا أدري كيف . فان ذلك على المؤلف ولعل له عذرا في ذلك ، وهو تعوده على تبسيط المعارف والعلوم لجمهرة القراء العاديين ولمشاهدي التليفزيون وهؤلاء لا يطلبون معرفة هذه المراجع ولا يقرأونها .

واذا كان لنا ان نشير الى بعض المراجع التي جاءت عرضا في أثناء الكتابة فأنها لا تتجاوز تسعة مراجع والمؤلف لم يذكر كيف يمكن الرجوع اليها .

الباب الاول : يدخل الكاتب بهدوء وبطريقة مقنعة الى الموضوع وبشكل محبب الى النفس فيشير الى الاهتمام بالشيخوخة والجوانب الانسانية من أبحاثها ، وانها كانت موضوع اهتمام اجتماعي وفي هذا المجال يقتطف مؤلف كتابنا هذا وهو الدكتور ماجنوس بايك Dr. MAGNUS PYKE وبنظرة تحليلية سريعة الى هذا المؤلف يتعمق المفهوم الذي أنادي به منذ أن تعلقت بعلم الشيخوخة وبدأت اهتماماتي به منذ حوالي ١٥ عاما ، وهذا المفهوم هو أن علم الشيخوخة وانعكاساته هو ما يطلق عليه باللغة الانجليزية MULTIDISCEPLINARY

أي متعدد الأنظمة أو متعدد الجوانب ، وأنه ، ولو ان للطبيب الدور الأساسي فيه ، الا أنه لا يمكن أن يعمل بمعزل عن نشاطات أخرى اجتماعية واقتصادية وانسانية بل ودينية .

دكتور ماجنوس بايك ليس طبيبا ، ولا أخفي سرا هو أنه عند بدء قراءتي لهذا الكتاب اندهشت أن يقتحم شخص ليس طبيبا مجال علم الشيخوخة ، ولكن باستطرادي في قراءة الكتاب ودراسته سررت لأن الدكتور بايك « ليس » طبيبا فان هذا يعطيه وبالتالي يعطي الكتاب نظرة أكثر شمولا ويجعل المؤلف غير مرتبط أساسا بثقافة معينة .

دكتور ماجنوس بايك معروف لملايين المشاهدين للتلفزيون البريطاني ، وهو شخصية شعبية بسبب برامجه عن العلوم والتعليم والموضوعات ذات الاهتمامات العامة والتي لها ارتباط بالعلوم وتبسيطها للجمهور .

ولقد قام اثنان من العلماء البريطانيين الأجلاء بتقديم الكتاب ، وهما من أعضاء الرابطة البريطانية لتقدم العلوم ومن لجنة الاهتمامات الاجتماعية والتقدم البيولوجي وهما دكتور و . ف . بودمر [١] مدير مركز السرطان والاستاذ السير/ فيرجوسن اندرسون[٢] أستاذ طب الشيخوخة بجامعة جلاسجو وعضو الجمعية العلمية البريطانية ، أرقى هيئة علمية في بريطانيا مقطعا من قصة « أليس في بلاد العجائب » Alice in Wonder Land المعروفة وفيها يتساءل شاب عن تصرف أحد الشيوخ وهل هو صواب أم لا . ولقد كتبت هذه القصة عام ١٨٦٥ أي منذ ١١٥ عاما ، ويوضح ان الشيوخ قادرون على الاتيان بالحركات العنيفة مثل الوقوف على الرأس مثلما يفعل الشاب دون خشية من حدوث مضاعفات لذلك على أعضاء الجسم مثل المخ .

ولقد كان التطور الحضاري هو الذي أدى الى التركيبة الحالية للمجتمع ، خاصة المجتمعات الغربية الصناعية المتقدمة ، فانه مع اجراءات تنظيم النسل بكافة الوسائل فقد تساوت تقريبا نسبة الزيادة بالانجاب مع نسبة الوفاة بالشيخوخة أساسا وبالأمراض كعامل مساعد ، وأصبحت التركيبة الحالية فيما يتعلق بالسن أن نسبة كل سن متساوية مع النسب الاخرى ، وأختفى الهرم الذي كان موجودا منذ عشرات السنين ، وقاعدة الهرم هي في الاطفال والصغار ، وقمته أي قلة المجتمع هي الشيوخ ، وهو ما نراه بهذه المناسبة مازال موجودا في المجتمعات الفقيرة أو النامية (كما يطلق عليها تأدبا) وهذا طبعا بسبب الزيادة في أعداد الشيوخ . ولقد أورد المؤلف النسبة المئوية في انجلترا ، والكاتب باعتباره بريطانيا فانه كما سوف نرى فان كثيرا من كتاباته وتحليله واقتراحاته

---

(١) Dr. W. F. Bodmar FRS.
Director of Research, Imperial Cancer Research Fund Labaratories.

(٢) Professor Sir Ferquson Anderson Aandeason OBE
Cargill Professor of geriatric Medicine,
University of Glasgow

متعلق بانجلترا أو بلاد متقاربة منها في المجتمع الغربي .. في انجلترا مثلا فان النسبة المئوية لمن تجاوز سن الخامسة والستين هي ١٤ في المائة أي سبع المجتمع ، ومعناه أن هذه الحقبة العشرية (مكونة من ١٠ سنوات) في سن الانسان متساوية مع باقي الحقبات العشرية ، وبالاضافة الى ذلك فان منهم ٦ في المائة تجاوزوا سن الخامسة والسبعين والمنتظر ان تظل هذه النسبة المئوية في هذا النطاق خلال السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة دون زيادة ، ولكن من المتوقع أن تتزايد نسبة من يتجاوزون الخامسة والثمانين عاما طالما أن قدرتنا العلمية لمقاومة الأمراض بمختلف أنواعها تتزايد ، وهذا حقيقي إذ أن العلماء والباحثين في علم الشيخوخة مثلما يقدرون « عمر الانسان البيولوجي » فيما بين ١٢٠ الى ١٤٠ عاما والبعض يقدره بأكثر من ذلك ، ولكن في اعتقادي أن هذه السن هي أقرب الى الواقع ومستندة الى شواهد علمية ، ونقول نحن الأطباء والاخصائيين في الشيخوخة أن الذي يحد من انطلاق الانسان الى السن البيولوجية التي يستحقها هو الأمراض ، ومن هذه الأمراض ما هو قابل للعلاج أو على الأصح الوقاية مثل أمراض القلب والجهاز التنفسي والهضمي ومنه مازال للآن ، غير قابل للعلاج أو حتى للوقاية وهي الأورام الخبيثة . وهي في الواقع العائق أو ما يمكن وصفه بالمانع لهذا العمر البيولوجي ، واذا أمكن للعلم أن يجتاز هذا المانع فانه لا عقبة أمام انطلاق الانسان الى عمره البيولوجي الافتراضي ، تماما مثل أعمار باقي الاحياء سواء حيوانات أو نباتات ، وهي أعمار محسوبة تصل اليها .

ومن المقدر انه في عام ٢٠٠٠ فان النسبة المئوية لمن تجاوز سن الخامسة والثمانين سوف تزيد بمقدار النصف الا انها سوف تظل في نطاق ١٠ في المائة ممن تجاوزوا سن الخامسة والثمانين ، أي أنه سوف يحدث تعديل في النسبة داخل هؤلاء ممن تجاوزوا هذه السن ولكن ليس على حساب حقبات أخرى من السن الأقل منها .

ولقد أدت هذه الزيادة في النسبة المئوية للشيوخ الى هزة شديدة وتغيير في المجتمع ، فان هؤلاء الشيوخ الذين يمثلون سُبع المجتمع ليسوا فقط متقدمين في السن ولكن لهم تركيبا نفسيا واجتماعيا واقتصاديا وصحيا مختلفا عن باقي المجتمع يتطلب تصرفا جديدا وقوانين جديدة ومنازل جديدة ومستشفيات جديدة ونظم اقتصادية جديدة وتغييرا كبيرا في نفسية المجتمع مما يمكن أن يسمى ثورة فيه ، أو ما يمكن أن نطلق عليه « ثورة الشيوخ » أو ثورة الشيخوخة ، أو ما يماثل الثورة الصناعية التي حدثت منذ حوالي مائتين من السنين أو أكثر .

مثال ذلك أن معظم ما ينفقه المجتمع البريطاني ، (ومثله في ذلك مثل باقي المجتمعات الغربية خصوصا فرنسا والمانيا وايطاليا خلاف الولايات المتحدة الامريكية التي لها وضع خاص سيأتي ذكره فيما بعد) في باب الرعاية الطبية يذهب الى رعاية الشيوخ ، واذا أدركنا أن المشاكل الطبية للشيوخ مختلفة عن المشاكل الطبية للأعمار الأخرى بالاضافة الى تعقيدها وتشابكها لأدركنا مدى الحاجة الى وجود أطباء وما يتبعهم من قوة بشرية ، مدربين

ومؤهلين لهذه الرعاية بحيث أنها اذا لم تتوافر لساءت الامور .

وعلى نفس طريق التفكير في نواح أخرى غير طبية يمكن أن نذكر الفقر ، ومشاكل الاسكان والمشاكل الاجتماعية الاخرى الخاصة بالشيوخ ممن تجاوزوا سن الخامسة والستين ، فانها تفاقمت وتضاعفت بدخول هذه الفئة من الناس بهذه السن في المجتمع بشكل قوي ومؤثر ، ولا يمكن تجاهله .

ولكن هل من الضروري أن يصبح الشيوخ « مشكلة » ؟ في رأي المؤلف ورأيي فانه يمكن ألا يكون ذلك مشكلة ويصبح المجتمع في العصر الحديث شاملا جميع فئات السن بشكل متكامل ومتكافىء ، أي أن العناية بالشيوخ هي « جزء » من مسئوليات المجتمع وليس « إضافة » عليها ، اذا قبلنا هذه الناحية المعنوية عن الموضوع إنحلت أزمات كبيرة ، أو بمعنى آخر تجنبنا حدوث مشاكل كثيرة حيث أن الشيوخ يمثلون جزءا لا بأس به من المجتمع .

ولتحقيق هذا الهدف ، في المجتمعات الصناعية الحديثة بما لها من وسائل تكنولوجية ، لن يصعب عليها حل مشاكل التقاعد والمعاش وتهيئة فرص العمل للشيوخ لمن يرغب منهم في الاستمرار في العمل أو تهيئة فرص الراحة والعيش في رغد لمن يرغب منهم في التقاعد ، رجالا وسيدات ، وفي تصوري أن هذا لن يتأتى الا بادخال النواحي الانسانية في أفكارنا وترتيباتنا ونظرتنا الى الموضوع بهذه الروح الانسانية .

ولقد كنت دائما أنادي ، حتى في محاضراتي لطلبتي ومساعدي من دارسي علم الشيخوخة فضلا عن المرضى منهم وغير المرضى ، بل لمن لم يصلوا الى سن الشيخوخة ، أنادي بأن السر في علم الشيخوخة وواجب الشخص نحو نفسه وواجب المجتمع (صحيا وغيره) نحو الشيوخ يبدأ في سن ما قبل الشيخوخة بل لا أكون مغاليا اذا قلت أن ذلك يبدأ في سن الشباب بل والطفولة فان آثار ومضاعفات هذه الأعمار تظهر في سن الشيخوخة ، حين لا يكون هناك سبيل قط لعلاجها أو تجنبها .

ونحن ، القائمين بدراسة الشيخوخة علميا واجتماعيا ونفسيا يجب أن نتذكر دائما ، وأن يرسخ ذلك في الأذهان أن الشيخ على أعتاب سن الخامسة والستين ليس شخصا مقضيا عليه أو منتهيا وأن المجتمع يجب أن يلفظه ، كما تفعل بعض القبائل البدائية ، تأكيدا لذلك فان التاريخ القديم والحديث زاخر بأشخاص أضافوا للعلم والأدب والثقافة والعلوم الانسانية والسياسية والحرب بالاضافة الى الفنون المختلفة ، اضافات كثيرة وهم في سن الشيخوخة ، ولقد أورد المؤلف اسماء كثيرة منهم ويمكنني ان أضيف أسماء أخرى كثيرة حيث قد تعرضت الى ذلك في عدة مقالات ومحاضرات عن الشيخوخة سواء في مجلات عربية ثقافية أو علمية طبية أو محاضرات عامة مثال ذلك باديريفسكي ، كينياتا ، برتراند راسل ، شيفرويل ، توينبي ، برنارد شو ، بيكاسو ، ماوتسي تونج ، سير أوريان بولت ، السيدة هارتيت تشك ، فرانكو ، ديجول ، تشرشل ... وخلافهم كثير في مختلف الشعوب وعندنا في العرب توفيق الحكيم ، طه حسين ، العقاد ، أم كلثوم ، محمد عبدالوهاب ، يوسف وهبي ، وخلافهم ...

ولعله من أفدح الاخطاء التي يمكن أن يقع فيها الشخص العادي هو الاعتقاد بأن الشخص المسن أقـل قدرة على التفكير أو المنطق أو استخلاص النتائج أو اتخاذ القرار، ولقد حدث ذلك لنا جميعا في سن العشرين عندما كنا ننظر باشفاق وعطف الى الشيوخ وكأننا نتفضل عليهم بالصبر وطول البال، كأننا نتعطف عليهم بذلك، ولقد دارت الايام بنا جميعا وعندما اقتربنا من سن الشيخوخة أدركنا مدى خطئنا الفادح في ذلك ولا أقول الظلم، وهو ظلم وخطأ فعلا، فان الشيوخ، كما أثبتت الدراسات الحديثة أقدر من الشباب على التفكير والمنطق والتصرف الحسن من الشباب الى درجة ان المؤسسات عندما يتقدم اليها من يتقدم لشغل وظائف معينة فان الشيوخ يتفوقون في الاداء على الشبان وأصبحت المؤسسات تفضل تعيينهم في تلك الوظائف وهذه المؤسسات طبعا لا يدخل في اعتبارها أو تقييمها أي اعتبارات انسانية ولكنها حسابات بالحاسبات الالكترونية.

ولعل من أسباب الوقوع في هذا الخطأ ما كنا نعتقده سابقا من أن مخ الانسان الذي يكون وزنه ١٤٠٠ جرام في سن العشرين ينخفض الى وزن ١٢٠٠ أو ١١٠٠ جرام في سن الثمانين، أنه يصاحب هذا الانخفاض في الوزن هبوط في كفاء المخ على العمل، وهذا القصور ظل ملازما لنا طوال عشر السنين الماضية التي بدأ فيها اهتمامنا بالشيخوخة وأمراضها، ولو أنه في قرارة نفوسنا نحن الباحثين في هذا المجال، كنا نشعر بنوع من عدم الاقتناع أو من التناقض بين ما نشاهده في الحياة وبين هذا الاستخلاص، الى أن أدركنا منذ حوالي ١٠ الى ١٥ سنة أن الأمر في الواقع غير ذلك، فان هذا الشيخ الذي اختزن في نفسه وفي ذاكرته ومخه خبرة هذه السنين الطوال يصبح قادرا على استغلال هذا المخ الاصغر حجما والأقل وزنا واستغلالا يفوق بكثير الاستغلال أو الاستعمال الذي يقوم به شاب في سن العشرين العديم الخبرة أو في سن الثلاثين او الاربعين قليل الخبرة، واذا أمكننا، بطريقة ما حساب ذلك رقميا لرجحت كفة الشيوخ بالرغم من انخفاض وزن أمخاخهم، وهو تفسير لما ذكرناه سابقا عن وجود عباقرة في سن متأخرة يتولون مناصب رئيسية في بلادهم مثل الصين والاتحاد السوفييتي، أو يبدعون علميا وفنيا وثقافيا كما في البلاد الاخرى مما جاء ذكره.

وبالمثل فان الانسان تقاس كفاءته بما « تعلمه » أثناء حياته وليس بما خلق به أو ولد به فان الانسان بقيمته الحالية هو نتاج أشياء تعلمها في حياته، وأفكار وخبرات « اكتسبها » في حياته، وقد يكون ذلك شيئا بسيطا أو بدهيا مثل الوقوف على قدمين مثلا في الوضع القائم، أو قد يكون أكثر تعقيدا مثلا مثل تعلم تناول الطعام بأدوات المائدة أو لبس الزي العصري المعقد، سواء للسيدات أو للرجال، أو الألعاب الرياضية وما تتطلبه من دقة في التصويب، هذه كلها أشياء اكتسبها الانسان أثناء حياته وهذه الاشياء هي التي تظل معه في شيخوخته ويفضل فيها الشيخ على الشاب أو الطفل.

واذا تقدمنا خطوة أخرى مع المؤلف في هذا التحليل المنطقي ونسلم بأن نقص أو قلة أي عضو ما

في الشيخوخة يصاحبه نقص فعلي في كفاءة هذا العضو، فقد يكون ذلك نعمة لا نقمة، ولقد أورد المؤلف مثال ذلك أن حويصلات التذوق على لسان الشاب عددها ٢٤٥ وأنها تنخفض الى ٩٠ على لسان الشيخ، وكيف ان ذلك قد يكون اضافة للشيخ، أذ يحميه من الطعم المر أو السيء لبعض أصناف الطعام مما قد يؤدي الى حرمان الشاب من فائدة تناولها في حين ان الشيخ يمكنه تناولها ويستفيد بقيمتها الغذائية دون أن يشعر بهذا الطعم المر أو السيء.

واذا تقبلنا أساسا من الاسس المبني عليه علم الشيخوخة ألا وهو أن الحياة وتقدم العمر بل والشيخوخة هي عملية مستمرة وقد تبدأ من سن مبكرة جدا، فانه من السخف ان نقسم مراحل الحياة الى مراحل مفيدة أو مثمرة وأخرى غير سعيدة فان السعادة والاثراء في الحياة سواء عطاء أو أخذا يأتي في أي وقت، ولقد أورد المؤلف مثلا ان السيد المسيح عليه السلام أرسى تعاليمه في سن الثلاثين في حين أن البابا جون أعطى المثل الحي للمسيحي الحق وهو في سن الثمانين، ومن الخطأ الجسيم استنتاج أن الشخص بسبب تجعد جلده أو بياض شعره أو ضعف نظره أو سمعه أو صعوبة حركته أصبح أقل قدرة أو كفاءة من الشاب، فان الكفاءة والسعادة ليست نتاج ذلك، والتاريخ زاخر بأشخاص مثل نلسون فقدوا أحد أعينهم أو اصيبوا بشلل مثل روزفلت رئيس الولايات المتحدة وأعطوا الانسانية مثلا لم يعطه غيرهم. وعلى نفس القياس فان المرأة في سن الخامسة والاربعين مثلا تصبح غير قادرة على الانجاب، ولكن هذا لا يمنع من وجود علاقات انسانية مثمرة بينها وبين الرجل حتى بعد فقدان صفة أساسية من صفاتها كأمرأة، فان هناك وجوها اخرى كثيرة لعلاقات انسانية متعددة بين المرأة والرجل، بعضها حسي أيضا بالاضافة الى العلاقات المعنوية، ومن يدرينا أن العلاقات الحسية او الجنسية التي تمارس بين كل رجل وأمرأة تمارس ممارسة طبيعية تؤتي ثمارها من النشوة والرضا كما يجب ان يحصل عليها الطرفان، وهذا ما ذكره المؤلف وهو حقيقي وما تدل عليه الاحصاءات الحديثة من أن نسبة كبيرة (تتراوح بين ٢٥ الى ٤٠٪)من المتزوجين أو ممن يمارسون العلاقات الجنسية لا يمارسونها بطريقة صحيحة يمكنهم التمتع بها التمتع الذي تتيحه الخصائص الفسيولوجية للجسم ويؤكد ذلك أنه قد يكون سن الشباب والنضوج ايضا فيه نقص، وليس فقط في سن الشيخوخة.

الباب الثاني: في هذا الباب يتحدث المؤلف عن الاكتشافات العلمية وما حققته للشيوخ، ويعتب في مقدمته على الشيوخ لأنهم على عكس الشباب الذي يعتقد أن لكل مرض علاجا فان هؤلاء يأخذون كثيرا من المعلومات الصحية كأنها قضية مسلم بها غير قابلة للعلاج أو تحاشيها وأنه يجب الاستسلام لها وهذا في الواقع غير صحيح، بالأضافة الى أنه علميا غير صحيح، فأنه من الخطأ اعتبار أن الكوارث والضمور من صفات الشيخوخة، فأن الاحصائيات تشير الى أن نسبة الحالات السيئة أو التدريجية التي تصيب الشيوخ قليلة جدا، ومن الخطأ تبعا لذلك ان تستسلم الغالبية من الشيوخ لهذا المفهوم الخاطىء، والذي يؤدي بهم الى الشعور باليأس والاحباط

والاكتئاب والاحساس بعدم العطاء للجميع ، في حين انهم قادرون صحيا ونفسيا على هذا العطاء بل والانتاج ، وألا يصبحوا عبئا على المجتمع بل اضافة اليه ، ويورد المؤلف مثلا جميلا لذلك يتساءل هل في سبيل منع داء الكلب أن نقوم باعدام جميع الكلاب ؟

ولقد ظل الاطباء يشكون في الاعوام الماضية ، من ندرة الابحاث الطبية في مجال قياس آثار الشيخوخة في الجسم ، مما حدا بنا الى التوسع في ذلك ولقد كنت أقول أنه في الأعوام الحالية فاننا نعرف آثار الشيخوخة على معظم اعضاء الجسم ووظائفه . ولقد آن الاوان في رأي المؤلف وأوافقه على ذلك تماما ، لاجراء تغيير في المفاهيم التي نقيس كفاءات الشيوخ والمعوقات التي تصيبهم والفائدة التي يجنيها المجتمع منهم ويجنونها هم لأنفسهم . وكما كان للعلم الفضل في زيادة عمر الشيوخ وزيادة عددهم في المجتمع فان المجتمع مطالب بأن يعطي هؤلاء ما يستحقونه من أهمية ، ويزنهم بميزانهم الحق ، ويورد المؤلف لذلك مثلا بالثقل السياسي لهؤلاء الشيوخ حيث أنهم يمثلون في كثير من بلاد العالم المتقدمة ما بيم ١٢ الى ٢٠ في المائة من مجموع السكان ، ولقد تبدو النسبة مفاجأة لنا وخاصة للسياسيين ولكن هذا هو الواقع . ولقد أورد المؤلف مثالا لذلك من الأوفق ذكره هنا وهو يتعلق بهولندا ، فلقد كان هناك في عام ١٨٩٩ ستون ألف شخص مسن في كل مليون من السكان ، ولقد ظل الرقم ثابتا الى عام ١٩١٠ مع تغيير طفيف الى عام ١٩٢٠ حيث وصل الى اثنين وستين ألفا فقط ، ثم اسرع الرقم قفزا الى ٧٠,٠٠٠ في ١٩٤٠ و ٩٠,٠٠٠ في ١٩٥٠ ومائة الف في ١٩٦٠ ولسوف يظل الرقم حول هذا المعدل في هولندا (وفي ايطاليا) وقد يزيد الى ١٢٠ ألفا في نهاية القرن الحالي ؛ أما في بريطانيا والمانيا الغربية وفرنسا وبلجيكا فان المعدل الحالي هو ١٣٠ ألفا .

وبالاضافة الى ذلك فانه في العهود القديمة فلقد كان الدرن الرئوي مرضا قاتلا والروماتزم مرضا معجزا ، ولكن بالوسائل الطبية الحديثة سواء الطبية أو الاقتصادية فقد انخفضت الاصابة الى حد كبير واصبحا لا يمثلان مشكلة بالنسبة للشيوخ ، مما جعل الشيوخ ، كما يوضح المؤلف ، يمكن ان يتمتعوا بحياة رغدة سعيدة .

ولقد أورد المؤلف احصائية طريفة تؤيد ما يود توضيحه وذلك من نتائج بحث اجري في اسكوتلاندا (شمال انجلترا) في عام ١٩٧٥ ، ودل هذا البحث على ان ثلاثة ارباع من تجاوزوا سن الخامسة والثمانين مازالوا قادرين على مواجهة اعباء الحياة العادية اذا أعطي لهم القول المناسب ، في حين ان الربع فقط ممن تتراوح أعمارهم بين السبعين والرابعة والسبعين ، والثلث فقط ممن تتراوح أعمارهم بين الثمانين والرابعة والثمانين يحتاجون لمساعدة من نوع ما لكي يعيشوا حياة عادية .

ولقد تناول المؤلف بعد ذلك بعض المشاكل الصحية للشيوخ مثل فقدان التحكم في التبول ولقد ذكر الكاتب في هذا المقال انه في عام ١٩٦٥ فان ٩٤ في المائة ممن تجاوزوا سن الخامسة والستين يعيشون في منازلهم حياة عادية تماما وان واحد في المائة فقط منهم

يعيشون في منشئات عقلية ، وأن فقدان القدرة على التحكم في التبول يحدث غالبا في هؤلاء ، وأوضح المؤلف ان لهذا الفقدان في التحكم في التبول أسبابا من الممكن علاجها مثل التدفئة وعلاج التهابات المثانة والامراض النسائية وتضخم البروستاتا بالاضافة الى الخوف والقلق النفسي خشية إهمال الأهل أو القائمين بالرعاية لهذا الشيخ ، ولقد يكون نقص التدفئة أو نقص التغذية من الأسباب المؤدية الى ذلك ، وكلها كما هو ظاهر من الممكن تداركها وعلاجها وخاصة القول أنه يجب ألا يؤخذ عدم التحكم في التبول كقضية خاسرة يتحتم قبولها أو الاستسلام لها .

انتقل المؤلف بعد ذلك الى قصور المخ المصاحب لتقدم السن وكيف ان اعتقاد الناس في ارتفاع نسبة الاصابة به مبالغ فيها جدا ، فان واحدا في المائة فقط من الشيوخ يحتاجون الى رعاية وعلاج لامراض عقلية ، ومن هؤلاء ٣٠ في المائة تسوء حالتهم الى درجة القصور الفعلي أي أنه في المجتمع البريطاني (يجب ان نتذكر دائما أن المؤلف بريطاني) ٣ في الألف فقط من عدد الشيوخ يصابون بمرض القصور العقلي ويؤكد المؤلف ، وأشاركه في ذلك ، على أنه من الاكتشافات الحديثة في علم الشيخوخة وطبها أن القصور العقلي ما هو الا مرض مثل باقي الامراض وهناك أبحاث تشير الى أن سببه هو الاصابة بفيروس وليس من أمراض الشيخوخة ، ولكنه مرض قد يصيب الانسان في أي طور من أطوار حياته والشيخ مثل الشاب ، بالاضافة الى اكتشاف اتجاه وراثي للاصابة بهذا المرض .

ولقد كان لادراك هذه الحقيقة أثر كبير في رعاية الشيوخ وفي نظرة الاطباء بل والمجتمع لهم ، مما أعطانا راحة نفسية كبيرة ، وفي الواقع فان هذا المفهوم كما أنقله الى طلبتي ومساعدي فان الشيخوخة ليست مرضا بل هو تطور « طبيعي » في جسم الانسان بل وفي عقله وأفكاره ونفسيته وأنها ليست مرضا والا كنا اعتبرنا الطفل بسبب أنه مختلف عن الشبان مريضا .

ويستطرد المؤلف الى ذكر بعض الامراض التي تصيب الشيوخ ومنها الأورام الخبيثة ومرض البول السكري ، وهي في رأي المؤلف وأوافقه على ذلك قابلة للوقاية منها ، ومثال ذلك الأمراض الخبيثة التي تصيب الرئتين فان الامتناع عن التدخين يقلل الى حد كبير الاصابة بها وكذلك الاكتشاف المبكر للاورام مما يمكن علاجه جراحيا، أما مرض البول السكري فان تنظيم الغذاء كفيل بالاقلال الى حد كبير من اضراره ومضاعفاته .

وتناول المؤلف مرض الشلل النصفي نتيجة جلطة شرايين المخ وأن هذا المرض يمكن تفاديه بالنظام الغذائي وفي حالة حدوثه فانه يمكن مع الانتظام في العلاج البدء المبكر في العلاج الطبيعي الحصول على نتائج جيدة ، وهذا يؤيد ما قمت به من أبحاث في هذا المجال لابراز الفائدة من العلاج المبكر لهذا الشلل . واختتم المؤلف هذا الباب بالتنويه بهبوط درجة الحرارة بسبب توقف التدفئة أو نقصها في المساكن في البلاد الباردة وتأثير ذلك على وظائف الجسم وكذلك أشار المؤلف الى أمراض المفاصل وتأثير

ذلك على الشيوخ لالزامهم بالبقاء في الفراش مع ما في ذلك من متاعب كثيرة للشيوخ بالذات ، وبما أن هذه الاشياء يمكن تفاديها أو علاجها سواء طبيا أو بالعلاج الطبيعي أو اداريا عن طريق الجهات الحكومية ، فان متاعبها سوف تقل كثيرا وبالتالي تتهيأ حياة كريمة للشيوخ . ثم تناول المؤلف أمراض الجهاز التنفسي التي تمثل ١٢ في المائة من اسباب الوفاة وكيف يمكن تجنبها بالتدفئة المنزلية والامتناع عن التدخين ، وأمراض القلب وكيفية تجنبها بالنشاط والحركة والامتناع عن الأكلات الدسمة والاقلال من الوزن للبدناء وتجنب التدخين ، كما أكد الكاتب فيما يتعلق بالجهاز البولي على أن يتناول الشخص المسن كميات كبيرة من السوائل حتى يمكن للكليتين التخلص من سموم الجسم ، كذلك أوضح المؤلف ، وهو محق في ذلك ، على تفادي حدوث التهابات الكلى والمسالك البولية وعلاج تضخم البروستاتا .

ويتناول المؤلف في البابين الثالث والرابع موقف الشيوخ اليوم ويبدأ الموضوع بأن المنطق أن مرحلة الشيخوخة هي المرحلة التي يتطلع اليها الصغار والشباب ومتوسطو السن ، والتي ينضج فيها الشخص ويصل الى المرحلة القصوى من الخبرة والعلم والمناصب العليا وما يتبعها من جاه وسلطة وأجور مرتفعة وشهرة في المجتمع ، وهي مرحلة يحسدهم عليها من هم دون ذلك في سلم العمر ، فاذا أضفنا الى ذلك أن هؤلاء الشيوخ ، بعضهم على الأقل قد أمكنه أن يقتصد من مرتبه طوال سنين عمره بحيث أصبح يمتلك منزلا سواء بيت مستقل أو شقة ، أو على الأقل يدفع ايجارا رمزيا بسيطا تم تحديده منذ عدة سنوات والقوانين تمنع رفعه ، لأمكننا أن نقدر نحن الأصغر سنا مدى النعيم الذي ينعم به هؤلاء الشيوخ ، خاصة اذا أضفنا الى ذلك الوقت الذي يسمح بالاسترخاء والتمتع بالهوايات مثل زراعة الحديقة أو القراءة أو الاشتراك في النوادي السياسية أو الاجتماعية أو القيام بالرحلات في بلده أو انحاء العالم .

ولكن هناك في المقابل يوجد بعض الشيوخ ممن لا يشعرون بهذه النعم إما لأن الشيوخ لم يدركوا امكاناتهم المادية والسياسية أو لأن المجتمع لم يتيقظ تماما لدورهم ويعاملهم كما يستحقون ، ويورد المؤلف لذلك ما حدث في بريطانيا عام ١٩٧٣ حينما أصدرت مصلحة الصحة والأمن الاجتماعي (وزارة الصحة والشئون الاجتماعية هي المقابل لذلك في البلاد العربية) وثيقة للمنافسة أطلقت الاسم الجذاب « شيخوخة سعيدة » ولقد كان لهذه الوثيقة المعروضة للمناقشة أهداف ثلاثة الاول تمكين الشيوخ من المعيشة في راحة وصحة دون الحاجة الى بذل أي جهد بنفسهم ، والثاني هو ابقاء هؤلاء الشيوخ في حالة نشاط ولكن بعيدا عن نهر الحياة ، والثالث هو اعطاء الفرصة للشيوخ لابداء رأيهم فيما يصلح لهم ويريدونه لأنفسهم . وهذه الوثيقة مع كل النوايا الطيبة التي حدت بالقائمين عليها تجاهلت شيئا أساسيا بل حيويا عن بعض الشيوخ وهو رغبتهم في الكسب أو القيام بعمل يحصلون منه على أجر مهما كان هذا الأجر ، قد يكون ماديا بدرجات متفاوتة ولكنه أجر على أي حال ، بل قد يكون معنويا في صورة ثناء أو تقدير أو حفل تكريم أو شهادة أو مجرد الشعور بأن

هذا الشخص المسن ذو فائدة للمجتمع الذي يعيش فيه - لابد أن ندرك نحن الذين نتناول هذا الموضوع أن المسألة بالاضافة ليست مالية فقط ولكنها معنوية فان فقدان الوظيفة وما يتبعها من فقدان الجاه والسلطة والأقدمية والمزايا الاخرى ولو دون نقص في الايراد له مضاعفات خطيرة على نفسية هذا الرجل المسن مما يتسبب عنه اكتئاب واحباط وانعزال عن المجتمع والناس ، وهذا هو المعروف لنا نحن الباحثين في علم الشيخوخة ويطلق عليه « فك الاشتباك » (Disengagement) وهو شيء خطير في حياة الشيوخ ويجب التنبه اليه تماما وهذا جزء مما كنت أقصده عندما ذكرت أن التحضير للشيخوخة ، ماديا ومعنويا وصحيا و....الخ . يجب ان يحدث في سن مبكرة جدا . وهذا يؤدي بنا في رأي المؤلف ، وأنا أوافقه تماما ، الى أنه ليس من الحكمة ان يكون دور المجتمع تجاه الشيوخ هو وضعهم في أمكنة منعزلة عن المجتمع ومجرد إطعامهم أو إسكانهم أو المرور عليهم في أوقات منتظمة بواسطة ممرضة أو زائرة صحية أو موظف في مصلحة الصحة أو التأمينات ، كلا فان هذا لا يرضي الشيوخ مطلقا ، حتى الذين تدهورت صحتهم نوعا ما ، غالبية الشيوخ كما دلت الاحصائيات التي أجريت في بريطانيا وبلاد أخرى ، غالبيتهم يرفضون الاحسان أو الانفاق عليهم أو أن تتحمل الدولة عنهم اعاشتهم ، بل هم يطلبون أن تعطى لهم الفرصة للمشاركة في نهر الحياة وليس بعيدا عنه ، ولقد يطلبون ان تعطي لهم وظائف أو أعمال تتناسب مع التغيير الفسيولوجي الذي حدث في أجسامهم وعقولهم .

ويتطرق المؤلف الى مناقشة النقطة التالية لذلك وهي الناحية الاقتصادية ألا وهي هل يملك الشيوخ الوسائل التي تمكنهم من المعيشة في رغد وصحة أم لا ؟ وهذا التساؤل له أهمية كبيرة في البلاد الديمقراطية التي يعتمد الحكم فيها أساسا على أصوات الناخبين ، وبما ان الشيوخ يمثلون ما يزيد على ١٤ في المائة من اصوات الناخبين فضلا عما هو معروف عنهم من الحرص على أداء واجبهم الانتخابي بعكس الشباب ، فانه وبسبب هذا الوزن السياسي تثار مشاكل الشيوخ ورعايتهم في المجتمع على النطاق السياسي والحزبي أحيانا كثيرة . ولقد أمكن القاء الضوء على هذه التساؤلات عن امكانية معيشة الشيوخ في رغد وصحة في دراسة حديثة أجريت في عام ١٩٧٧ في بريطانيا ، فقد أجريت احصائيات سنوية متكررة فيما بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٣ ولقد كانت هذه الدراسة التي أجريت لاستكشاف احتياجات الشيوخ من المجتمع الذي يعيشون فيه وكانت النتائج مذهلة فلقد كانت المفاهيم وقتها هي هل يتم تثبيت المعاش على ٢٨ جنيها (استرلينيا) في الاسبوع في حين ان الرجل العامل يحتاج الى ٧٥ جنيها لاحتياجاته الاساسية في الاسبوع ، وما أشارت اليه هذه الدراسة هو انه في المجموع ، من يعملون والعاطلون ، ولكن في سن العاملين فان ٣,٢ شخص يتعيشون على ٨٤,٣٠ جنيها في الاسبوع أي ٢٦,٣١ جنيها لكل شخص ، في حين انه للشخص المتقاعد المسن فان الدخل يتراوح بين حد أدنى هو ٢١,٣٥ جنيها لكل شخص لعائلة مكونة من فردين الى حد أعلى هو ٢٥,٤٨

جنيها أسبوعيا للرجل المسن ذي الخمسة والستين عاما الذي يعيش بمفرده . واذا أخذنا في الاعتبار بعض الشيوخ الذين لم يتقاعدوا لارتفع هذا الدخل الاسبوعي عن ذلك . وبالمثل في حساب هذه الفروق البسيطة فان ميزانية الشخص العامل الاسبوعية التي تشمل ايجار السكن ، الوقود ، الانارة ، الطعام ، الكساء ، والمواد الاخرى التي تدخل ضمن ميزانية الاسرة لوجد أنها ١٩,٥٨ جنيها للشخص غير المتقاعد ، في حين أنها ١٨,١٤ جنيها في الاسبوع للشخص المتقاعد ، وبهذا وبحسبة بسيطة نجد أن هناك تعادلا ولا يوجد نقص في دخل أو متطلبات الشيوخ ، ولكن للموضوع وجهة نظر انسانية أخرى وهي في رأيي الظلم الذي يسببه علم الاحصاء ، ألا وهو التعميم فان درسنا مجموعة من الناس يتزايد دخلها الاسبوعي مع ارتقائها في السلم الوظيفي وأن هذا الشخص عند التقاعد يكون دخله الاسبوعي قد وصل الى ١٣٦ جنيها وكيف ان هذا الدخل ينخفض فجأة الى ٨٠ جنيها مثلا أي ثلاثة أخماس دخله (ولكن أعلى بكثير من الحد الادنى) لأمكننا تقدير التأثير الذي يشعر به هذا الشخص من هبوط الدخل الفجائي . ولقد أشار المؤلف وأنا أؤيده في ذلك تماما الى أن المسألة على أي حال ليست بهذه البساطة ، فلقد ظهر من هذه الدراسة أنه في المجموع فان للشخص المسن ، دخلا ونفقات ، لا يقل عن زميله الشاب أو غير المتقاعد ، ولكن فجائية التغيير وعند ذوي الدخول المرتفعة بالذات هم الذين يشعرون بنقص في دخلهم وبشكل فجائي ، والعامل الذي أظهرته الدراسة هو أن ٤٣ في المائة ممن شملتهم الدراسة فوق سن الستين قد أمكنهم أن يتملكوا سكنهم ، وهذا الرقم يمثل ستة أمثال من يمتلكون سكنهم في أعمار تتراوح بين ١٦ و ٤٤ عاما ، وقد ترتب على ذلك أن من هم أصغر سنا يدفعون ١٠,٥٠ جنيهات في الاسبوع للسكن في حين ان المسنين يدفعون ٥,٥٠ جنيها فقط في المتوسط . اذا أضفنا الى ذلك أن ذوي الأعمار المبكرة من الشباب لهم تطلعات ، وهم محقون فيها تماما في الحياة العصرية المليئة بالاجهزة الحديثة والآلات الالكترونية والكهربائية مما يزيد من متطلباتهم وتطلعاتهم ويلقي أعباء على دخلهم ، في حين أن الشيوخ إما أن منازلهم تحوي هذه الاشياء التي قاموا باقتنائها في سنوات شبابهم وعملهم ، أو عندهم حالة من الزهد او الشبع من متع الحياة ولا يتطلعون اليها ، لو أخذنا كل هذا في الاعتبار لتغيرت نظرتنا الى الشيوخ المتقاعدين (وغير المتقاعدين) ومدى احتياجهم الى العون المادي ، ويعزو المؤلف هذا الموقف الذي أظهرته هذه الاحصائيات الى كرم المجتمع في الأجيال الثلاثة الماضية والنظرة الاجتماعية او الاشتراكية التي دخلت الى المجتمعات الغربية بصورة أو أخرى أو تحت نظام أو آخر بحيث أن الشيخ أصبح يعيش في رغد دون الحاجة لبذل أي مجهود .

ولكن المؤلف يشير الى نقطة أخرى وهي في نظري أساسية ايضا ، اذا كان الأمر مسألة مادية فقط فليست هناك مشكلة ، ولكن الأمر ليس كذلك فان هذا الشيخ يجب « ان يترك له تقرير نوع الحياة التي يرغبها ولا تفرض عليه » أي أن المجتمع ليس هو صاحب الحق في فرض نوع الحياة على الشخص

المسن ، يجب ان يتيح المجتمع للشخص المسن الذي يرغب في العمل أو الانغماس في نهر الحياة والانتاج أن يفعل ذلك ليس بغرض استيفاء احتياجات الحياة الاساسية ولكن لغرضين آخرين هما تحسين دخله واشباع رغبته في العمل ، وهذا يتحقق بطريقتين أورد المؤلف أمثلة لها في انجلترا وعلى نطاق اختياري أو تطوعي الأول أن يوجد مكتب يقيد فيه الشخص المسن إمكانياته وما يمكنه عمله وفي نفس الوقت يقيد فيه الناس ما يرغبون من خدمات ، وذلك مثل جلساء الاطفال ، توزيع البريد ، توصيل الهدايا ، الاصلاحات المنزلية الخفيفة ...الخ . وكل ما يعمله المكتب (Office) هو ان يجمع الاثنين مع بعضهما وطبعا هناك أجور رمزية لذلك لكي يشعر الشخص المسن بعائد مادي ولو طفيف بجانب العائد المعنوي من خدمة الغير بالاضافة الى إشعاره بأنه ذو فائدة كبيرة للغير . والنظام الآخر هو الأجر الكامل للعمل الذي يؤديه الشخص المسن مقدرا حسب انتاجيته بالنسبة للشباب . وأخذا في الاعتبار أن هناك في بريطانيا الآن ١٠,٧٨٤,٠٠٠ شخصا تجاوزوا سن الستين أي ٢٠ في المائة من سكان بريطانيا البالغ عددهم ٥٤,٥٠٠,٠٠٠ لأمكن تقدير هذه الطاقة الكبيرة الممكن الافادة منها ، دون أن تؤثر على دخل أو عمل الطبقة العاملة إذ أنهم يؤدون أعمالا أخرى ولن يؤثر ذلك في أرزاقهم .

ولقد لخص المؤلف الباب الثالث في أنه لو أن التغيرات الفسيولوجية والتشريحية للشيخوخة تجعل الشيوخ أضعف وأقل صحة الا أنه وبسبب التقدم العلمي في العصور الحديثة فان هناك كثيرا مما يمكن عمله لهؤلاء الشيوخ ، وانه يمكن لمن يعيشون بين الستين والثمانين أن تكون حياتهم كلها متعة ورغد وسعادة وصحة ، بالمقاييس التي يرونها لأنفسهم وأنه يمكننا ، نحن المجتمع ، أن نجعل حياتهم أكثر رغدا وأكثر متعة وأكثر صحة ، وان هناك كثيرا في هذا المجال يمكننا القيام به . وفي الباب الرابع يؤكد المؤلف على ان الهدف هو سعادة الشيوخ . وليس فرض العمل عليهم ، وهذا يتطلب اعطاءهم الفرصة لاختيار نوع حياتهم إما تقاعد كامل أو تقاعد جزئي أو البقاء بكامل المسئولية في نطاق ما يطلق عليه « نهر الحياة » ، على ألا يؤثر قرارهم على حصولهم على أساسيات الحياة التي تجعل الشخص يحيا حياة كريمة وذلك في مقابل ما قدمه هؤلاء لاخوانهم في الانسانية . ولقد كان من العلامات البارزة في ذلك إقرار « قانون التمييز بالسن في العمل » في الولايات المتحدة الامريكية في عام ١٩٧٦ وأن يكون العامل المحدد للأجر هو الانتاج وكميته ولا يتعلق ذلك بالسن اطلاقا ، (ذلك أسوة بعدم التفرقة في الأجر بسبب الجنس) واستطرادا من ذلك وإحقاقا لحقوق الشيخوخة فان هذا القانون يتناول من وصلوا الى سن الخامسة والستين ويتوقف بعد هذا السن فان هناك اتجاهات في الولايات المتحدة باطلاق السن دون حدود ، وهذا الاقتراح ولو أنه لم يؤخذ به الآن ، الا انه مؤشر ذو دلالة هامة .

في الباب الخامس يتناول المؤلف الوسائل التطبيقية التي يمكن ان يتخذها المجتمع لتحقيق الرفاهية ورغد العيش والصحة للشيوخ في ضوء ما ذكر في الأبواب السابقة من الكتاب .

ولهذا الهدف يذكر المؤلف طريقتين مطبقتين في بريطانيا ، الاولى وهو ما يطلق عليه Link Opportunity أو باللغة العربية « فرصة حلقة الاتصال » أو « حلقة الاتصال » ، والواضح أن هذا التنظيم أو هذا النظام يحقق هدفين الاول إيجاد مخرج لطاقة ومهارات أعضائه ، والثاني هو اثراء العلاقات الاجتماعية لاعضائه وذلك عن طريق لقاءاته مع الناس الذين يقوم بخدمتهم أو العمل لديهم .

الثاني : وهو ما يطبق بالفعل في حي من أحياء لندن ويسمى « بالعمل بعض الوقت » وهذا النظام أساسه هو أن الادارة المحلية تكون على اتصال بالأطباء والمستشفيات الذين لديهم مرضى من المسنين ممن هم في حاجة الى العمل كجزء من علاجهم من ناحية ، ومن ناحية اخرى مع مؤسسات ومكاتب العمل وجماعات ، وفي هذا العمل فان العاملين يمكن جمعهم من أماكن تجمعهم في النوادي والبارات والمنتديات الانجليزية الخاصة بهم ، وهذا النظام يؤدي الى الانتفاع بالشيوخ للانتاج بدلا من جلوسهم على المقاعد في الحدائق ، وهؤلاء الشيوخ لديهم القدرة على العطاء والانتاج ـ صحيا (ذهنيا وجسمانيا) ولقد يكون العمل الجديد الذي يقوم به الشخص المسن امتدادا لعمله السابق قبل التقاعد وهو ما حدث في قلة منهم (١٠ في المائة فقط) أما الأكثرية (٩٠ في المائة) فقد فضلت تغيير نوعية العمل مما يشير الى حيوية متدفقة وحماسة لدى هؤلاء الشيوخ في مدينة مانشستر ، والأمر بالعكس تماما في مدينة مثل لندن ، وأرجع المؤلف ذلك الى ارتفاع تكلفة المعيشة في لندن عنها في مانشستر .

وهناك مجموعة ثالثة هي مجموع الشيوخ الذين يتكسبون من عمل لا علاقة له بالسن مثل الفنانين من كل صنف وكذلك الاطباء والمهندسين والمحامين والمحاسبين ممن يظلون في الغالب في عملهم الى أن تنطفىء شمعة حياتهم .

وهذه الأنظمة في رأيي تتطابق تماما مع ما أنادي به من أن كل شخص مسن هو وحدة مستقلة ولا يمكننا إيجاد نظام عام أو فرض نظام عام على جميع الشيوخ ، وذلك على غرار ان الشيخوخة مختلفة في كل فرد ، دون مبالغة ، عن الفرد الآخر بل إن أعضاء الجسم وأجهزته تشيخ كل منها بطريقة مختلفة تماما في نفس الشخص .

والمؤلف يرى ، وأوافقه على ذلك ، أن يقتصر دور الاخصائيين الاجتماعيين على العملية التنظيمية فقط وطرح البدائل أمام الشيوخ وتبسيط القوانين التي تتعامل معهم بشكل يستطيعون فهمه بعقولهم التي أصابتها الشيخوخة ، وأن يكونوا باستمرار مدركين مدى السعادة التي يشعر بها الشيوخ من العطاء وأداء الخدمات لغيرهم .

أما في الباب السادس وهو يتناول الموضوع من زاوية اخرى فهو يحتوي على أرقام التكلفة لرعاية الشيخوخة في المجتمع ولقد كان الشيخ مكلفا حتى عام ١٩٠٨ في بريطانيا أن يتولى أمر نفسه في شيخوخته واذا أخفق في ذلك فما عليه الا الاقامة في بيوت الفقراء ، ولكن سرعان ما أدرك المجتمع

الصناعي التزامه في هذا الصدد وبدأ في عام ١٩٢٥ نظام تحصيل اشتراكات من العاملين حتى يمكن اعطاءهم معاشات عند التقاعد وانتقل المجتمع خطوة تقدمية أخرى في عام ١٩٤٨ بعد الحرب العالمية الثانية بالاعتراف بحق كل شخص على أعتاب الشيخوخة في معاش يحصل عليه اسبوعيا ، ولقد أمكن تنفيذ هذا النظام بالنسبة للعاملين بعيدا عن الحكومة باشتراك العاملين وأصحاب العمل فيه وتضاعف عدد المشتركين في هذا النظام بحيث أنه في عام ١٩٧١ أصبح نصف العاملين أعضاء فيه وبعيدا عن معاش الدولة .

وفي المجتمعات الحديثة مهما كان النظام الاقتصادي فيها ، أمكن إيجاد توازن بين ما يمكن للشيوخ كسبه لأنفسهم وبين ما يمكن تقديمه لهم ، وهذا قد يكون واجب الدولة أو تنظيا على نطاق أصغر مثل جمعية خيرية ، الكنيسة ، العائلة أو القبيلة ... ، وعلى نقيض ذلك فان هناك من المجتمعات ، مثل الولايات المتحدة الامريكية حيث لا يزال عبء تنظيم دخل في سن الشيخوخة ملقى على عاتق الشخص نفسه .

وخلص المؤلف الى أنه يجب على الشخص المسن والمجتمع الذي يعيش فيه أن يصلا الى اتفاق في هذا الموضوع وليكن هذا الاتفاق من أي نوع وعلى المجتمع ان يغطي النفقات الاقتصادية المطلوبة منه بأي طريقة .

في هذا الباب السابع والذي يليه يستطرد المؤلف في تناسق وتتابع جيد الى ما هو المطلوب من المجتمع . فهو قد أوضح في الابواب السابقة تاثير الشيخوخة على الجسم ، وكيف ان هذه الآثار قد تكون نعمة كما هي نقمة أي ليست نقمة كلها ، وحالة الشيوخ في المجتمع وما يقوم به المجتمع حاليا تجاههم وذلك في المجتمعات ذات الأنظمة الاجتاعية المختلفة ..

يشير المؤلف في أول هذا الكتاب الى التقدم المذهل في العلوم البيولوجية ، ومنها الطبية بالطبع ، وتأثير ذلك على الاقلال من الأمراض والمعاناة لدى الشيوخ في العصر الحديث ولكن لا زالت هناك ، كما يقول المؤلف ، أمراض تصيب الشيوخ بالرغم من ذلك ، بعض الشيوخ ، وهنا يعود المؤلف الى الأديان والايمان بدور الخالق والقدر في إصابة الانسان المسن بالمرض فهو يقول انه بالرغم من هذا التقدم المذهل في العلوم الطبية الا ان الانسان مازال في يد الله ويناقش المؤلف دور العقل والعلم والنوايا الطبية في التخفيف من متاعب الشيوخ .

ولقد تعمد المؤلف الفصل بين العقل والعلم ويركز على أهمية أنه لا داعي أن تتوقع أو تنتظر أن تحل مشاكل الشيوخ ومتاعبهم كلها بالوسائل التكنولوجية الحديثة ولكن هناك من الوسائل البسيطة ما يؤدي نفس الغرض دون تعقيدات أو انتظار اكتشاف أجهزة الكترونية معقدة .

يورد المؤلف عديدا من الامثلة لذلك بدءا بالعكاز الذي يساعد الشخص المسن على الوقوف في الوضع الرأسي وكيف ان الاختراع البسيط بوضع قطعة من المطاط الصناعي في أطراف العكاز مكن

الشيخ المسن من السير على الطرقات المرصوفة والارض الملساء التي هي من سمات المجتمع الحديث . ولقد تكونت في انجلترا مجموعات من الناس لتساعد على تجهيز مثل هذه الأدوات البسيطة في مكانها لحل مشاكل الشيوخ على الطبيعة . مثال ذلك جهاز خاص لتثبيت البيضة بواسطة الشفط حتى لا تقفز من صحن الشيوخ ومفرش به مادة لاصقة تمنع تحرك الصحن أو وسيلة لتدبيس السكينة ذات النصل الحاد المقوس التي تمكن الشيخ من تقطيع اللحوم بيد واحدة واستعمال سوسته الملابس بدلا من الأزرار وبالمثل الوسائل التي تسهل الاعمال اليومية المنزلية مثل غسيل الصحون ، والاستحمام والتبرز والتبول ، وبالنسبة لعملية طهو الطعام فيمكن تجهيز المطبخ بطريقة تجعل السيدة غير محتاجة الى حركة كثيرة لمباشرته .

ومن الامثلة الاخرى التي لها آثار هامة على الشخص المسن هي مساعدته على القيام من على المقعد الذي يجلس عليه باستعمال جلسة (وسادة) للمقعد قابلة ان تنتفخ بحيث تعطي الشخص المسن الدفعة الاولى التي يحتاجها ، وهذه المسألة في غاية الاهمية عندنا نحن العاملين في حقل رعاية الشيوخ ، فانه ان يحتاج الشيخ الى مساعدة ، من أي نوع ، فان كرامته ونفسيته تصاب بصدمة شديدة قد تكون قاتلة له ، يتحول بعدها الى مرحلة من الاكتئاب تؤدي به بعد وقت قليل الى الوفاة ، وبالمثل يمكن تصميم أنواع من الموبيليا خاصة بالشيوخ مثل المنضدة التي لا تقع أو استعمال الهواء المضغوط لنقل أو رفع الاشياء .

ويشير المؤلف في هذا المجال الى الخوف التقليدي لدى الشيوخ من كل جديد ، مما قد يحرمهم من مزايا استعمال هذه الاشياء الجديدة وهذا يحتاج الى صبر وأناة من القائمين على رعايتهم لادخال مزايا هذا الاستعمال في أذهانهم بطريقة تدريجية ومبسطة ، وبالمثل الوسائل التي اخترعت لمساعدة الشيوخ على ارتداء ملابسهم وهي عديدة وتمتاز بالبساطة .

ثم يستطرد المؤلف في الصفحات الاخيرة من هذا الباب الى المجال الواسع الذي يمكن فيه الاستفادة من الاجهزة الالكترونية الحديثة التي أمكن بواسطتها جعل حياة الشيوخ متعة وأي متعة ، وهنا في نظري يأتي دور المجتمع بسبب أن هذه الاجهزة غالية الثمن ومن واجب المجتمع المساهمة فيها وقد يكون ذلك باعارتها الى هؤلاء الشيوخ .

أما الباب الثامن والأخير فان المؤلف يضع فيه عنوانا هو « ماذا الآن » أو بمعنى آخر « ماذا نفعل الآن » أو « ما هو المطلوب منا الآن » أو « ما هي قدرتنا على فعل ما يفيد هؤلاء الشيوخ ؟ »

بانتهاء القرن العشرين فان مشاكل كثيرة من مشاكل المجتمع قد انتهت وتبلورت ، مواقف مثل دور الطلبة في السياسة وحقوق المرأة في المجتمع الغربي ، في المجتمع الاسلامي وخلافه ، وكذلك أصبح واضحا ان التوصيات القديمة بحدودها العتيقة آخذة في الانقراض وظهرت بدلا منها أفكار أكثر شمولا تأخذ في الاعتبار نواحي انسانية واقتصادية أخرى .

وبالرغم من ذلك فلازالت بعض المجتمعات

تعتبر الشيخوخة جريمة ، وان الشيوخ يجب ألا يعاملوا معاملة مختلفة أو أقل من باقي الأعمار ـ وهذا موجود في الولايات المتحدة الامريكية بوجه خاص ـ ولكنه كما أسلفت ، آخذ في طريق الاصلاح .

ينحصر في رأي المؤلف ، واجب المجتمع في معرفة التطورات الفسيولوجية المصاحبة للشيخوخة ، ومقاومة الامراض التي تؤدي الى شيخوخة مبكرة أو تجعل الشيخ يعيش حياة كئيبة كلها معاناة ، واستغلال المجتمع للتطورات العلمية الحديثة في زيادة عدد الشيوخ الذين يتمتعون بحياة رغدة كلها صحة وسعادة ورفاهية في سنى حياتهم الأخيرة ، فان الموت حق على كل شخص على أي حال .

في المقدمة يجب على المجتمع أن يدرك أن الشخص المسن الذي بلغ سن الستين وتجاوزها قادر في أحوال كثيرة على أن يستمر في عمله السابق أو يعمل عملا جديدا بنفس كفاءة الشباب أو متوسطي العمر من الناس . والشيء الآخر في نظر المؤلف وفي نظري ، هو ان يهيىء المجتمع للشخص المسن المتطلبات الأساسية فهذا واجب المجتمع وحق الشخص المسن ، ولكن يجب علينا نحن الذين نخطط وننظم للشيخوخة أن لا « نجبر » الشخص المسن على نوع خاص من الحياة وفي فترة تقاعده فهذا في غاية الخطورة ، يجب أن نترك لهذا الشيخ (رجلا أو أمرأة) أما ان يختار حياة التقاعد وعدم العمل وقد تشمل القراءة وزراعة الحديقة والانضمام الى النوادي والجمعيات ولكن دون انتاج ، أو قد يرغب الشخص المسن أن يستمر في عمله السابق أو يبدأ عملا جديدا فاذا رغب في ذلك لا نقف في طريقه بل نهيىء له الوسائل لتنفيذه .

ولقد يقال ان الشيوخ يدركون متى تحين منيتهم ولسنا ندري هل هذا حقيقي ، أو كان الأمر كذلك في الماضي وليس في الحاضر ، ولكن قد يكون من الانسانية بمكان ان نهيىء لهؤلاء الشيوخ الوسائل الكفيلة بادخال الراحة النفسية عليهم في الأيام الأخيرة من حياتهم والتي يكون فيها من الواضح أن نهايتهم قد دنت .

وفي النهاية يجدر بي أن أشير الى أنني قد استمتعت جدا بقراءة هذا الكتاب ، أولا لأنه يتناول موضوعا يمس شغاف قلبي ألا وهو الشيخوخة ومشاكلها ورعاية الشيوخ ، وثانيا لأن الكتاب مكتوب بطريقة مبسطة وواضحة ومتسلسلة ومنطقية .

***

الفلاحون الفلسطينيون
من الاقتلاع إلى الثورة

تأليف: روزماري الصايغ
عرض وتحليل: أحمد جمال ظاهر

تحاول روز ماري الصايغ في الكتاب المذكور ان تقدم شرحا مفصلا للأسباب الرئيسية التي ادت الى انتقال حالة الفلاح الفلسطيني من كونه عاملا في الارض « فلاحا » الى كونه ثوريا يحمل السلاح ضد اسرائيل .

في تتبع دراسة الحركة الوطنية الفلسطينية يمكن القول بانها مرت خلال اطوار اربعة :

أولا : في الفترة بين ١٨٨٠ الى ١٩١٤ ظهرت الحركة الوطنية كرد فعل للمستوطنات اليهودية السبعة التي اقيمت في اوائل الثمانينات من القرن الماضي ، والتي تبعتها مستوطنات اخرى مع بداية القرن الحالي في اماكن متعددة في فلسطين .

ثانيا : في الفترة ما بين ١٩١٤ و١٩٤٨ تطورت الحركة الوطنية الفلسطينية نتيجة السياسة الاستعمارية البريطانية ، وما صاحب ذلك من تسهيل هجرة اليهود الى المنطقة ، وذلك بقصد انشاء وطن قومي يهودي بناء على الوعد الذي قطعته حكومة صاحبة الجلالة البريطانية .

ثالثا : في الفترة ما بين ١٩٤٨ الى ١٩٦٥ اتخذت الحركة الوطنية الفلسطينية مسارا جديدا ـ راكدا في معظم الاحيان ـ نتيجة للحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨ وتغيير الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للفلسطينيين ، اذ اضحى الفلسطيني يتميز اجتماعيا بكونه لاجئا ، واقتصاديا « بات يعتمد على غيره من اجل الحياة » وسياسيا لم يعد لديه

قيادة او ما يمكن ان يكون بدولة . اضف الى ذلك الصراع العربي ـ العربي بين قادة الدول .

رابعا : في الفترة من ١٩٦٥ حتى الوقت الحاضر برزت الحركة الوطنية الفلسطينية بثوب جديد حيث تبنت استعمال العنف كاستراتيجية لتحرير الوطن السليب ، وقد دفع هذا النمو الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ .

على خلاف ما كتب سابقا عن ردود فعل الحركة الوطنية الفلسطينية فان كاتبة الكتاب المشار اليه أعلاه تبحث في « تجربة الفلاح الفلسطيني » . باختصار شديد يدور الكتاب حول التغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي للفلاح الفلسطيني الذي اضحى لا حول له ولا قوة على اثر حرب عام ١٩٤٨ ، ولكنه انبعث مرة اخرى حاملا بندقية بعد حالة من الركود استمرت سبعة عشر عاما . لقد اعتمدت الكاتبة على المقابلات الشخصية لساكني المخيمات الفلسطينية ، والتي يمتاز سكانها بحالة من الفقر كمصدر اولي لمعلومات الكتاب او البحث . اضف الى ذلك انهم كانوا اصلا من فلاحي الارض الفسطينية قبل عام ١٩٤٨ ، او بدوا عاشوا في الصحراء الفلسطينية ، اومن سكان المدن الذين اضطروا للسكن في المخيمات (ص٩) . والكتاب في جملته تسجيل لآراء عينة من (هؤلاء) الذين عاشوا احداثا معينة كاحداث اضرابات عام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ وحرب ١٩٤٨ ومعايشة النكبة وما الى ذلك . فالبحث المذكور ليس تاريخيا وانما رؤ ية وملاحظات ، فالكاتبة لا تهتم بالاحداث بقدر اهتمامها بآراء الناس . وقد جعلت الكاتبة مدار حديثها الفلاح الفلسطيني لسببين هما : ان نسبة ما يقارب ٨٠٪ من سكان فلسطين هم من الفلاحين ، وهناك نسبة لا تزيد عن ١٥٪ من البدو و٥٪ او اقل ما يمكن ان يسمى بالطبقات الارستقراطية ساكنة المدن . وكذلك فان المقاومة الفلسطينية التي ظهرت في السنوات ١٩٢١، ١٩٢٢، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٩، ١٩٣٣. واخيرا اضراب سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ قد قام بها الفلاحون دون سواهم .

تشير الكاتبة الى انه ـ بالرغم من حياة الفقر ـ التي عاشها الفلاح في فلسطين قبل النكبة الا انه كان يتمتع بوضع اقتصادي يكفيه سد الحاجة نتيجة لما تفيء عليه الارض بزراعتها ، اما على النطاق الاجتماعي فقد كانت الاسرة والعشيرة محور هذا النظام ، وتميزت العلاقة الاجتماعية بمقدار لا بأس به من الحب والتآلف حتى امتد ذلك ليشمل القرية بكاملها والقرى المجاورة الاخرى . بمعنى آخر تؤكد الكاتبة على ان الحياة الاجتماعية للفلسطيني في ارضه كانت بعيدة كل البعد عن حياة الاغتراب والتمزق التي يعيشها حتى الآن في المخيمات ، وتظهر الكاتبة من خلال مقابلاتها الشخصية التي اجرتها دليلا على ان نفس الفلاح ساكن المخيمات يعيش حياته السابقة ـ قبل النكبة ـ عن طريق الذكريات . ففي جلساته الليلية في المخيمات يدور الحديث عن القرية الفلسطينية الهادئة ، وبناء مدرسة

القرية ومسجد القرية ، ومن زرع ماذا ومتى وكيف ، وذكريات الحب والعشق التي تتعلق بالارض .

حقا ان هذا الحديث هو ما يمكن القول بانه عملية التنشئة الاجتماعية التي بواسطتها ينقل كل جيل خبراته وذكرياته للجيل الجديد ، اذ يركز الاب دائما في حديثه لأبنائه عن تلك الحياة التي عاشها في القرية الفلسطينية ، لذا نجد كثيرا من الابناء الذين لم يولدوا في فلسطين يدركون وصفا لقرى آبائهم واجدادهم وكانهم وجدوا في تلك الفترة من الزمن .

الحديث عن الارض والمدرسة والبيت والمسجد والشجر والزرع واحلام الماضي وذكرياته لا تنفصل ايضا عن اعمال المقاومة والعنف التي تبناها ذلك الفلاح منذ وعد بلفور حتى السقوط سنة ١٩٤٨ . كل هذه العوامل ـ الهدوء والمقاومة ـ لعبت دورا اساسيا في التحاق ابناء المخيمات بالمقاومة الفلسطينية تماما ، كما التحق نفس الفلاح في صفوف مقاومة السياسة البريطانية والاستيطان الصهيوني قبل النكبة . ويتذكرون ايضا انهم لم يكونوا على دراية كاملة بما كان يدور حولهم من تخطيط وتنظيم على ايدي بريطانيا والصهيونية . لم يكن في اذهانهم تصور ولو بسيط انهم في يوم من الأيام سيبتعدون عن قراهم ، لقد كان اعتقادهم بانفسهم كبيرا ، وجهلهم بالقوة التنظيمية التي امتاز بها الصهاينة اكبر ، ومما زاد الطين بلة اعتمادهم في خططهم الحربية على نظام تقليدي قديم بعيد عن التنظيم ، واعتمادهم على وعود من الزعماء العرب بخاصة في الاردن والعراق ، وغياب قيادة سياسية قادرة على تفهم الوضع القائم (ص١٢ ـ ١٣) . حقا لقد قيل للفلاح الفلسطيني ان يجاهد في سبيل الله والوطن فجاهد ولكن كيف جاهد ؟ لم يكن هناك برنامج سياسي يحارب بمقتضاه ، ولم تكن هناك قيادة سياسية واعية مما جعل الهزيمة محققة .

لا تشكل القرية الركيزة الاولى في التركيبة الاجتماعية الفلسطينية فحسب ، وانما تتعدى ذلك لتشمل الوعي الفلسطيني بوجه عام (ص١٣) اضف الى ذلك فان القرية هي دليل الولاء والانتماء والهوية وتصنيف الطبقة . وتحاول الكاتبة ان ترسم مقارنة بين الفلاح الفلسطيني وقريته والفلاح المصري وقريته ، وترى الكاتبة شدة التصاق الفلاح الفلسطيني الشديد باسم قريته على عكس الفلاح المصري الذي يركز على اسم المحافظة التي تتبع لها القرية . على الرغم من هذا التصوير الا ان بعض الدراسات كتلك التي قام بها حليم بركات وبيتر دود في كتابهما نهر بلا جسور ان الفلاح الفلسطيني قد قدم ولاءه لأسرته اكثر مما قدم ولاءه لقريته . اذ وجد الباحثان في اعقاب حرب الايام الستة سنة ١٩٦٧ ان الفلاح الفلسطيني قد ترك ارضه خشية اغتصاب الجنود الاسرائيليين لأفراد اسرته .

تذكر الكاتبة ان هناك عوامل ثلاثة حددت وجود القرية : استغلال الارض ، ومواجهة

الأخطار الخارجية ، والاحترام المتبادل بين العائلات . وكان هذا يتم من خلال العمل الجماعي في ترتيب الامور الداخلية من اجتماعية واقتصادية ، اما على النطاقين السياسي والاداري فقد اعتبرت القرية وحدة ادارية ، وذلك لأغراض فرض الضرائب وجمع الفلاحين تحت سيطرة الدولة ، سواء كان ذلك اثناء سيطرة الدولة العثمانية او البريطانية . وتشكل اداريو القرية من الوجهاء « كبار القوم » « والشيوخ » « رجال الدين » واخيرا المخاتير . وقد كان لجامع الضرائب من القوة والسلطة مالا يملكه احد في القرية فهو الشرطي والمنظم وجابي الضرائب في نفس الوقت ، ولا يجرؤ احد سواء كان وجيها او شيخا او مختارا على الوقوف امامه . اضف الى ذلك ان الاصطهاد السياسي الذي تواجد ابان الحكم التركي كان موزعا وغير محصور ، اما الحكم البريطاني فقد نظم السيطرة على القرية بحيث اضحى كل من يساند ثائرا « مجاهدا » يعرض نفسه من قبل السلطة الانجليزية الحاكمة للهلاك . كنسف بيته او سجنه أو غير ذلك ، وتجمع القرية ممثلين عنها لرفع شكاويها للوالي او الحاكم العسكري اما في حالة الدفاع فأبناء القرية هم المكلفون في ذلك .

لا يوجد في القرية الفلسطينية ـ على النطاق الاجتماعي ـ تفرقة بين الرجل والمرأة سواء داخل البيت او خارجه في الحقل ، والواقع ان المرأة في القرية الفلسطينية تتمتع بمساواة مع الرجل الى ابعد الحدود . وتقارن الكاتبة بين هذا الوضع ووضع المرأة في القرية المصرية والجزائرية ، حيث يجتمع فيها الرجال معا والنساء معا . اما على النطاق الاقتصادي فالعائلة وهي غالبيا ما تضم الاب والام وابنائهم وزوجات ابنائهم ، اذ يعمل الجميع ويتوزع نتاج الدخل على افراد الاسرة بالتساوي . (ص٢٢٠) .

كان من نتيجة الاضطهاد السياسي العثماني ان شارك الفلاح الفلسطيني في الحروب مما ادى الى تعميق حدة الفقر من جهة ، وزيادة المواليد من جهة اخرى ، اضف الى ذلك ان الحكومة العثمانية قد طلبت من الفلاح الفلسطيني ان يدفع محصولا زراعيا عوضا عن الضرائب ، الا انه في فترة لاحقة قد غير هذه السياسة وطالب بالدفع المادي ، مما اضطر الفلاح الى بيع محصوله بفوائد من ٣٠ ـ ٣٠٠٪ . هذا الوضع ادى الى مزيد من الفقر والفاقه . اما في عهد الانتداب البريطاني فقد ساعدت بريطانيا على تعميق الفقر وذلك عن طريق استيراد كميات هائلة من المحاصيل الزراعية من استراليا وغيرها ، وبيعه في الاسواق بنصف الثمن (ص٣٠) وقد نتج عن ذلك عدم قدرة الفلاح على استغلال ارضه مما اضطره للعمل في مستوطنات اليهود ، والتي بات رزقه مهددا من قبل ساكنيها . وقد اثار هذا الوضع انتباه الفلاح الى ضرورة تغيير حياته نوعا ما وذلك بالاتجاه نحو العلم والدراسة ، خاصة عندما وجد ان التعليم يتيح فرصا في الحياة افضل ، وفعلا

تذكرنا الكاتبة بقولها « ان ما اخذه الطلبة معهم في اعقاب حرب ١٩٤٨ وبدء الهجرة هو اوراقهم وكتبهم حتى اذا وصلوا لبنان او لاردن او الى اي مكان اخر التحقوا بالمدارس التعليمية لاستكمال دراستهم ».

في حديث الكاتبة عن القيادة الفلسطينية والقيادة الصهيونية السياسية يجد القارىء ان التجانس يعمم القيادة الثانية (الصهيونية) على عكس ما كانت تعانيه القيادة الفلسطينية من تبعثر وتمزق ، والواقع ان الادارة البريطانية لم تنظر الى وجود الفلسطينيين كشعب او امة فكانت تشير اليهم دائما « بالمجتمع غير اليهودي » ولم يعترفوا ايضا بالقيادة الفلسطينية . حتى ان الهيئة العربية العليا والتي ضمت مختلف الاحزاب السياسية الفلسطينية التي عرفت في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن لم تكن بريطانيا تعترف بها كممثلة شرعية للشعب الفلسطيني ، وحجة بريطانيا في ذلك ان هذه الهيئة لم تكن تمثل الشعب الفلسطيني ولكنها تمثل طبقة من الارستقراطيين الذين لا تتجاوز نسبتهم ٥٪ . الغريب في الموضوع ان الادارة البريطانية كانت تعترف بوجود الهيئة العربية العليا عندما يكون لها غرض في ذلك كوضع حد للعنف الذي غالبا ما كان يظهر على ايدي الفلاحين . الا ان احدا لا بد ان يكون منصفا في هذا الشأن ويعترف بوجود هوة كبيرة بين فلاحي فلسطين وقيادتهم السياسية . فالسياسيون يشكلون فعلا مصالح الطبقة الارستقراطية ولم يكن لديهم اي حرص لمصالح فلاحي البلاد . اضف الى ذلك استغلال القيادة السياسية واضطهادها للفلاحين ، كما تثبت اقوال من عاصروا الحقبة . اللطيف في الموضوع ان احدا لا يستطيع فهم العلاقة بين المستوطنين اليهود والفلاحين ، وهي علاقة اكد فيها المستوطنون ضرورة استئصال الفلاحين من الارض وابعادهم عنها ، ولذا فقد نظر المستوطنون اليهم نظرة عدم اعتراف وحجتهم في ذلك « انه لم يكن هناك شعب فلسطيني ولم يملكوا الارض ولم يشكلوا دولة في اي وقت مضى » (ص٤٥) .

اما القيادة السياسية الارستقراطية الفلسطينية فقد كانت تنظر باستعلاء للفلاح الفلسطيني تصل الى حد الاحتقار . وكانت الطبقية ظاهرة للعيان ، فبينما يقوم الارستقراطي بعمل الدبلوماسي السياسي كان من واجب الفلاح المشاركة في الحرب والانتاج . انه وضع يُذكرنا بطبقتي السادة والعبيد في اليونان القديمة . حتى التقدم والتحديث الذي اوجدته الادارة البريطانية لم تستطع ان تقضي به على وجود الطبقية .

تشير الكاتبة الى اسباب ضعف القيادة الفلسطينية بعدم مشاركتهم في النوادي الادبية والاحزاب السياسية السرية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، والتي دعت للانفصال عن الدولة العثمانية واحياء فكرة القومية العربية كنادي

الفتاة ، والاحد ، الحزب اللامركزي ، جمعية بيرت والاصلاحية (ص٤٨) . وتشير الكاتبة ايضا في حاشية رقم ٨٦ من الفصل الاول نقلا عن مانديل ان ١٢ عضوا فقط من اصل ١٢٦ قد شارك في مثل هذه النوادي . ولكن مراجع هذا الكتاب يوافق مع جورج انطونيو اكثر في كتابه « يقظة العرب » الذي يشير الى المشاركة الفعالة من قبل الفلسطينيين في مثل هذه النوادي والذين وصلوا الى مراكز قيادية لا بأس بها . المهم في الموضوع انه لم يكن هناك احد من الفلاحين ـ وذلك لعدم قدرتهم التعليمية المشاركة في مثل هذه النوادي .

اما السبب الثاني الذي اشارت اليه الكاتبة فهو حصر اعضاء الهيئة العربية العليا على الطبقة الارستقراطية البرجوازية وعدم اشتراك الفلاحين بها . اود ان اضيف عاملا اخرا وهو انشغال القيادة الفلسطينية بمحاربة بعضها البعض اكثر من محاربة الاعداء . وحتى الاحزاب السياسية قد مثلت عائلات ارستقراطية كالحسيني والنشاشيبي وغيرهما فقط . فاذا دعي حزب الى مؤتمر لشرح القضية وتبني وجهة نظر كما حدث سنة ١٩٣٣ عندما دعي الى مؤتمر اسلامي لتصبح القضية الفلسطينية اسلامية قام حزب آخر بالدعوة الى مؤتمر اخر لمناهضة الفكرة مما ينتج عن ذلك من تعميق الصراع بين الاحزاب السياسية الفلسطينية والتي بالتالي لا تستطيع ان تتبنى استراتيجية معينة لمواجهة العدو ، على عكس الاحزاب السياسية اليهودية . اضف الى ذلك عدم مقدرة القيادة الفلسطينية على تبني وجهة نظر معينة ضد حدث معين ، اذ ترى الكاتبة في ذلك ان القيادة السياسية الفلسطينية ركزت على ضرورة قتل المندوب السامي البريطاني صموئيل عام ١٩٢٠ ، ثم غيرت وجهة النظر هذه الى تبني الدعوة الى عدم استقباله ومقاطعته ، الا انه حين وصوله لم يكن احد من القيادة السياسية قد تخلف عن استقباله .

على النقيض من ذلك فقد توفر للصهاينة العتاد والقيادة الموحدة والتخطيط الجيد ، حتى اذا بدأت الحرب سنة ٤٨ كان لدى اليهود قوة عسكرية تعدادها ٣٦,٠٠٠ مقاتل في الخط الامامي و٣٢٠٠٠ يشكلون خط الدفاع الثاني و ١٥٤١٠ جنود مستوطنات و٣٢٠٠٠ حراس منازل وما يقارب ٤٠٠٠ مقاتل في صفوف المنظمات السرية ك ستاون ، ارجن . اما الهجانة فقد كانت تضم ٢٠٠٠ جندي مدرب في ايام السلم و٤٠٠٠ آخرين احتياطي و١٦٠٠٠ جنود ميدان مدربين عسكريا بالاضافة الى ٤٠٠٠٠ مقاتلين احتياطيين يعملون بعض الوقت . وكان الصهاينة قد فرضوا الخدمة الاجبارية العسكرية في مدارسهم بدءا من سنة ٤٥ (ص٧٢ ـ ٧٣) .

تصف الكاتبة احداث دير ياسين وبشاعة قتل الاطفال والنساء والاعتداء الجنسي عليهن من قبل الجنود الصهاينة مما حدا بالرجال الفلسطينيين ان يختاروا بين الهروب بعائلاتهم او

البقاء في اراضيهم . اضف الى ذلك ما قام به الصهاينة من توزيع صور للجرائم التي ارتكبوها في دير ياسين على القرى العربية الاخرى لاقناع السكان العرب بضرورة ترك منازلهم والافلات بجلودهم .

القوة العسكرية الفلسطينية الوحيدة التي ظهرت سنة ٤٨ فقد كانت قوة جيش الجهاد المقدس الذي اسسه المفتي الحاج امين الحسيني بقيادة ابن اخيه عبد القادر الحسيني (الرجل الوحيد الذي اشترك في الحرب من الاسر الارستقراطية جميعا فقاتل حتى قتل في معركة القسطل) . وكان عدد هذا الجيش لا يزيد عن ٥٠٠٠ مقاتل . وكان يفتقد للعتاد والتنظيم وقلة الاتصالات وبطء الحركة . اما الجيش الآخر فقد تألف من ٣٠٠٠ رجل نصفهم فلسطينيون بقيادة فوزي القاوقجي التابع للعائلة للهاشمية في العراق وكان يسمى بجيش الانقاذ . ومما عرف عن هذا الجيش عدم تسليحه وعدم تدريبه ولم يكن على دراية بالارض والشعب الذي كان من المفروض ان يدافع عنهم و يحاول تنظيمهم على الاقل لمساندته ، واشتهر عنه القول « ماكو اوامر » . اضف الى ذلك انهم لم يحسنوا معاملة اهل القرى واتهموا بمساعدة العدو في الاحتلال وتمهيد الطريق له وذلك بالانسحاب الى الخطوط الخلفية دائما لذا فقد اطلق عليه الفلسطينيون « جيش الركض » (ص٧٧ ـ ص٨١) .

كان اهم نتاج للحرب العربية الاسرائيلية ان فقد الفلسطينيون هويتهم كفلسطينيين .

واضحوا قلة في اماكن عديدة تحت انظمة سياسية عربية مختلفة بعد ان كانوا اكثرية في مكان واحد . واقتصاديا فقد اصبح الفلسطينيون يعتمدون على غيرهم للحياة بعد ان كانوا يعتمدون على انفسهم . وتتحدث الكاتبة في اكثر من موضوع (ص٨٣ ـ ص١١٠) عن الاضطهاد السياسى والاجتماعى الذى وجده الفلسطينى المهاجر امامه . لقد كان اكثر الاضطهاد في الاردن واقله في سوريا . اما المقيمون في الدول العربية الاخرى فقد وجدوا من الاضطهاد ما يشبه بقليل او كثير ذلك المنصوص عليه في الدولتين المذكورتين . حقا لقد كان توزيع وانتشار الفلسطينيين في اماكن عديدة سببا مباشرا للاضطهاد والقهر . افرز الوضع السكاني للفلسطينيين تحت انظمة سياسية مختلفة انواعا مختلفة من السياسة التي انطبع بها الفلسطينيون ، فالفلسطيني في الاردن محافظ اما سكان غزة فعرف عنهم الميل الشديد للثورة والعنف ، وسكان الجليل الاعلى (الذين شكلوا العمود الفقري لثورة ٣٦ ـ ٣٩ والذين قطنوا سوريا ولبنان كانوا دائما على اهبة الاستعداد لمواجهة اي طارىء سياسي ، اما اولئك الذين بقوا في داخل الاراضي الفلسطينية المحتلة وتحت الحكم الاسرائيلي فلم تتح لهم فرصة الاشتراك بالعمل السياسي المنفرد وقيام قيادة خاصة بهم . ان المحاولة الفريدة التي قاموا بها ٥٦ بقيام « حركة الارض » طحنت من قبل الاسرائيليين على الفور (ص١٠٠) .

تحدثت كل الاحزاب السياسية العربية باسم فلسطين والقضية الفلسطينية الا انها قدمت مصلحتها الحزبية على مصلحة فلسطين . وتتحدث الكاتبة عن السبب الرئيسي للمعاملة السيئة التي يواجهها الفلسطيني الى خوف الدول العربية من هذا العنصر الجديد الذي دخل اراضيها ويتميز بوضع ثقافي سياسي عال قد يؤدي الى قلب انظمة الحكم فيها .

اعتقدت الطبقة الوسطى من الفلسطينيين ان حل قضيتهم يكمن في ايجاد وحدة عربية قوية قادرة على التصدي لاسرائيل ، الا ان هذا الامل قد خاب على اثر الانفصال بين مصر وسوريا سنة ١٩٦٢ ، فاتجهوا الى البحث عن عنصر آخر يتضمن حمل السلاح والاعتماد على انفسهم . اما الطبقة البرجوازية الفلسطينية ولأجل مصالحها مع الدول العربية فينحون منحى آخر كثيرا ما يتضمن لوم القيادة الفلسطينية خاصة عندما يجدون مضايقة من حكومات الدول العربية . اما سكان المخيمات فيتذكرون دائما ان الدول العربية وجيوشها قد قتلت منهم اكثر مما قتلته اسرائيل في خلال ثلاثين عاما من قيامها .

تفيض الدراسة بقصص وروايات عن المعاملة السيئة التي وجدها الفلسطينيون اثناء الهجرة على الحدود السورية واللبنانية والاردنية . وتشير الكاتبة ايضا الى حياة البؤس والحرمان التي وجدها الفلسطينيون في الدول المضيفة . الا انه يمكن للمرء ان يتذكر قول آرون في كتابه الحرب والسلم الذي يقول : ان المآسي تخلق النظريات الكفيلة بتقدم الناس . وهذا ما حدث للفلسطينيين ، فقد اجبرتهم حياة البؤس والحرمان الى الانصراف للتعليم والعمل خاصة في منطقة الخليج ، حيث توفرت فرص النجاح لهم للحصول على مزيد من العلم والعمل . وتشير الكاتبة الى احصائيات عن عدد العمالة الفلسطينية الوافدة الى منطقة الخليج ، وتدعي عدم وجود مثل هذه الاحصائيات على الرغم من ان هناك احصائيات متوفرة عن ذلك في كثير من دول المنطقة .

لقد كان لحياة العزلة التي عاشها الفلسطينيون في الدول العربية وفقدان شعورهم بالاحترام نتيجة لفقدانهم للارض ونتيجة للتمزق العائلي ونتيجة لحالة الفقر وعدم السماح لهم بالتنقل والزيارة ادى بهم الى المطالبة بالرجوع الى الارض ، وهي فكرة تعطيهم الأمل في اعادة حالتهم النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الى الوضع الطبيعي ، بعبارة اخرى المطالبة بان يحيوا حياة عادية كما يحياها كل انسان (ص١٣٠) . اما الظلم السياسي الذي احاق بالفلسطينيين فيعود الى سياسة الدول العربية التي لم تأخذ موقفا حاسما من اجل إرجاعهم ، على الرغم من الوعود التي نادوا بها ، بل على العكس من ذلك فقد صرفوا وقتا غير قليل في نزاعاتهم الشخصية . اذ لم تقم اي دولة عربية باستثناء سوريا ومصر تدريبا وتسليحا عسكريا لاعضاء المقاومة الفلسطينية .

اما في لبنان والاردن فقد استعملت السلطات القائمة شتى انواع البطش والعنف لاخماد المقاومة الفلسطينية ، فما زالت منظمة التحرير الفلسطينية مثلا تذكر ان اول فدائي قد قتل من اعضائها كان برصاص الجيش الاردني . اضف الى ذلك استعمال القوة والضغط الاقتصادي والتفتيش والاعتقال والضرب والتنكيل وفرض غرامات مالية على كل من له صلة بأي عمل فدائي . الا ان كل هذه الضغوط لم تمنع الثورة من الظهور والمقاومة من التنظيم ، وتعلم الفلسطينيون ان يميزوا بين الذين يتحدثون باسم فلسطين لأسباب سياسية وبين اولئك الذين يفعلون من اجلها .

تفرد الكاتبة الفصل الأخير للحديث عن الثورة الفلسطينية التي انطلقت في الاول من يناير ٦٥ بعد ان اكتشف الفلسطينيون الثوريون انه لا يمكن ان يستعيدوا حريتهم وكرامتهم الا ضمن حدود دولة آمنة خاصة بهم . ويعود ظهور المقاومة الفلسطينية على الشكل الذي نراه الآن الى هزيمة الدول العربية ١٩٦٧ . والذي اعطى مجالا واسعا للمقاومة لتنظيم صفوفها واقناع كثير من الجماهير الفلسطينية وغير الفلسطينية على ان المقاومة الفلسطينية شيء آخر جديد يختلف عن الحكومات العربية وبالفعل فقد نما عدد اعضاء المقاومة الفلسطينية الى ما يقارب ٥٠٠٠٠ سنة ٦٨ وبالذات في اعقاب معركة الكرامة في ٢١ مارس ١٩٦٨ .

ويعود السبب المباشر الى ظهور المقاومة الفلسطينية وتعليق الشعب الفلسطيني كل الآمال عليها لأسباب :

١ ـ انفصال الوحدة المصرية السورية وخيبة الأمل العربي بالوحدة العربية .

٢ ـ الحرب اليمنية والتي غذتها الدول العربية .

٣ ـ التجربة الجزائرية التي اكدت للفلسطينيين ان بامكان احد ان ينجح بغير الاعتماد على الدول العربية .

٤ ـ يمكن ان يستغل موقف المقاومة الفلسطينية للدعاية لحركة الوحدة العربية ودفعها الى الامام (ص١٤٥ ـ ١٤٩) .

جملة القول ان المقاومة نمت وترعرعت نتيجة للبؤس والحرمان والشعور بالاغتراب وعدم الانتماء الذي عاشه وعاناه الشعب الفلسطيني ، وكذلك فشل قيام وحدة عربية تمتد من الخليج الى المحيط . ناهيك عن القول بان زعماء الدول العربية يعيشون ليلهم ونهارهم في صراعهم مع بعضهم البعض .

تشير الكاتبة الى ان السلاح والصراع في المقاومة الفلسطينية اعطى الفلسطينيين ثقة بالنفس ، واصبح العرب الآخرون ينظرون اليهم نظرة احترام يختلف تماما عن نظراتهم السابقة . حقا لقد عرف الفلسطينيون ان البندقية هي المدخل الوحيد لكل الفضائل .

المقاومة الفلسطينية لا تعني حرية الحركة في الدول العربية المجاورة لاسرائيل على الاقل وانما تعدو ذلك فتشكل خطرا على الوضع السياسي القائم في الدول العربية . خير مثال على ذلك ما حدث في الاردن وما يحدث الآن في لبنان . اذ

ن حرية الحركة للمقاومة الفلسطينية ادى بالتالي
لى صراع بين المقاومة والحكومات المذكورة .

تشير الكاتبة في ص ١٦٨ الى مشكلة السلطة ـ الثورية وظهور عدة مراكز قوى داخل المقاومة ـ. حقا ان المقاومة الفلسطينية تعاني من مشكلة التنظيم ، ويعود ذلك لسبب اغفلت الكاتبة ذكره ويتعلق « ببيروقراطية » المقاومة بعد ان نمت وتطورت وزاد عدد كوادرها . فالبيروقراطية ان لم تستطع المقاومة القضاء عليها فانها تشكل خطرا لا يستهان به على المقاومة نفسها . وتشير الكاتبة الى مشكلة اخرى تتضمن تعدد المنظمات كالجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وجبهة التحرير العربية . . . الخ وهي مثلا مشكلة لا بد لقيادة منظمة التحرير ان تضم كافة هذه المنظمات تحت لوائها . لقد كان كاتب هذه السطور يعتقد ان كثرة المنظمات الفلسطينية يعتبر ظاهرة صحية ، ويدعو الى اختلاف وسائل مقاومتها واستراتيجيتها العسكرية لهدف واحد . الا ان ارتباط بعض فصائل المقاومة ببعض الدول العربية يفسر هذا الاعتقاد .

ان احدا لا يستطيع ان يذكر الحدث الذي قدمته المقاومات الفلسطينية على صعيد الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والسياسية لدى الفلسطينيين ، حقا لقد خلقت المقاومة الفلسطينية روحا جديدة في الفكر الفلسطيني والأكثر من ذلك لقد وجد الفلسطيني هويته الضائعة .

يلاحظ قارىء هذا الكتاب التكرار في المواضيع الكثيرة التي كان بالامكان اختصارها خاصة في حديث الكاتبة عن المعاناة التي وجدها الفلسطيني في الدول العربية عند الهجرة .

على الرغم من رسم صورة للفلاح الفلسطيني وقريته بشكل موضوعي يا حبذا لو صرفت الكاتبة فصلا آخر عن مدى تغيير التراث الاجتماعي الذي احدثه ظهور المقاومة الفلسطينية . حقا لقد اشارت الكاتبة الى بعض التغييرات ، الا انه بالامكان البحث بصورة مفصلة عن ذلك .

بدت الكاتبة متحيزة نوعا ما للمقاومة الفلسطينية في الجزء الأخير من الكتاب ، ولم تشر الى سلبيات كثيرة تعاني منها المقاومة الفلسطينية ، خاصة على النطاق القيادي . أضف الى ذلك انها لم تشر الى وضع القادة وانتماءاتهم السياسية المختلفة ومدى تأثيرها على المقاومة ككل .

يبدو ان الكتاب قد كتب في النصف الاول من السبعينات من هذا القرن ولم يأخذ بعين الاعتبار دور السياسة والنفط ، وكذلك لم يشر الكتاب للدور الذي تلعبه دول الخليج العربي سواء بالسلب او الايجاب .

لقد أشارت الكاتبة الى ان المقاومة الفلسطينية قد لعبت دورا كبيرا في تثقيف وتعليم الجماهير الفلسطينية عن الدول التي تعمل لصالحهم والتي تعمل ضدهم . على الرغم من صحة ذلك الا ان الفلسطيني كان على دراية كاملة بما يدور حوله قبل ظهور المقاومة الفلسطينية .

وأخيرا فان احدا لا بد ان يقدم الشكر لكاتبة هذا الكتاب على ما ابدته من جهود ، واسلوب لا يسع القارىء اذا بدأ بقراءة الصفحة الأولى ان يشعر وكأنه يحاول الغوص الى قاع بحر هائج طلبا للحصول على معلومات اكثر .

العدد التالي من المجلة

العدد الثاني - المجلد الثالث عشر
يوليو - اغسطس - سبتمبر

قسم خاص عن

"دراسات في الشخصية"

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة

طبع في
مطبعة حكومة الكويت



● التعلم والشخصية

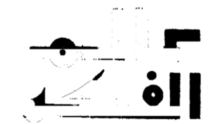
● الشخصية السوية

● الأساليب المعرفية الإدراكية

● الشخصية وتعديل السلوك

المجلد الثالث عشر ● العدد الثاني ● يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٢

٢



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو - اغسطس - سبتمبر ١٩٨٢
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت: ص.ب ١٩٣

المحتويات

دراسات الشخصية

●●●

شخصيات وآراء

●●●

مطالعات

●●●

من الشرق والغرب

●●●

صدر حديثا

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

تمهيد

الثقافة والشخصية

منذ حوالى خمسين سنة ، وفي عام ١٩٣٤ على وجه التحديد ، أصدرت عالمة الانثـربولـوجيا الامريكية روث بنديكت Ruth Benedict كتـابا بعنـوان « انماط الثقـافة Patterns of Culture قيض له أن يحتل مكانة مرموقة بين الكتابات الانثـربولـوجية ، وأن يصبـح أحد الأعمال الرئيسية الهامة في هذا المجال ، مع أنه كان في الأصل مجموعة من المقالات المتفرقة التي نشـرت في بعض المجلات العلميـة ثم جمعتها صاحبتها ، وأدخلت عليها بعض التعديـلات واسخصلت منها بعض النتائج ، بحيث باتت تؤلف وحدة متناسقة ، واتخذت بذلك شكـل الكتاب المتكامل . وقد يمكن القـول ان ظهور هذا الكتاب كان بمثابة البداية لظهور فرع هام من فروع الانثربولوجيا الثقافية الذى يطلق عليه اسم دراسـة الـطابـع القـومي أو الشخصيـة القـومية ، وهـو اتجاه حـديث وطريف يـدخل عموما ضمن مايعرف في الكتابات الانثربولوجية الحديثة باسم « الثقافة والشخصية » والطريف في الأمر هنا هـو أن روث بنديكت لم تتبـع في تأليف الكتاب المنهج الانثربـولوجى التقليـدى الـراسخ ، الـذى يحتم على البـاحث ان يقـوم بنفسـه بجمـع المعلومـات الاثنـوجـرافيـة من المجتمعات أو الثقافات التى يتعرض لها ، وما

وما يتطلبه ذلك من اقامة الباحث نفسه فترة طويلة من الزمن في ذلك المجتمع وملاحظة سلوك الناس وتصرفاتهم وعلاقاتهم ، وانما اعتمدت بدلا من ذلك ـ على الاقل في بعض فصول الكتاب ـ على بحوث قام بها غيرها من العلماء الذين كان كل واحد منهم يهتم في بحثه بدراسة وتحليل العلاقة بين نمط الثقافة السائد في احد المجتمعات البدائية وملامح الشخصية العامة كما تنعكس في سلوك أعضاء ذلك المجتمع . وقد اشارت المؤلفة بوجه خاص ـ الى جانب بحوثها هى ـ الى دراسة روث بونزل Ruth Bunzel لقبائل الزونى التي تعيش في جنوب غربي الولايات المتحدة والذين يتميزون عموما بالهدوء والدعة والميل الى الألفة والمودة ، والدراسة التي قام بها استاذها فرانزبواس Franz Boas لقبائل كواكيوتل في شمال غربي أمريكا ، وهم يمتازون بالتطرف والفردية وشدة التنافس والصراع فيما بينهم ، ثم دراسة ريو فورشن Reo Fortune لقبائل دويو بالقرب من غينيا الجديدة ، وهي قبائل مشهورة بالميل الى الشجار وحب المنازعات ، كما يتصف أفرادها عموما بالتشكيك والارتياب في الآخرين . وحول هذه المجوعات القبلية الثلاث التي تمثل في نظرها ثلاثة انماط ثقافية مختلفة يدور معظم الكتاب .

والقضية الأساسية التي تريد روث بنديكت ابرازها والدفاع عنها ، والتي انتقلت منها بعد ذلك الى الكثير من العلماء ، هي أن السلوك العام السائد في أى ثقافة من الثقافات يمكن فهمه بطريقة أفضل وأعمق في ضوء القيم والمثل والاتجاهات العامة التى تسود في هذه الثقافة ذاتها ، وأن هناك عددا من الضوابط المحددة التى تحكم انفعالات الافراد في كل ثقافة ، مما يعنى أن هذه الضوابط تختلف من مجتمع لآخر . وبقول آخر فان سلوك الافراد والجماعات يجب دراسته في ضوء ماتعلمه هؤلاء الأفراد أو تلك الجماعات على أنه صواب أو خطأ ، وكذلك في ضوء فكرتهم عن السلوك المباح والمحرم ، وبذلك تكون روث بنديكت قد وضعت في هذا الكتاب أسس نظريتها المعروفة باسم « **الصيغة الثقافية العامة** » ومؤداها أن كل ثقافة تسيطر عليها اتجاهات عامة شاملة تطبعها بطابع خاص يميزها عن غيرها ، وان ذلك يتطلب بالضرورة الاهتمام بدراسة الاتجاهات الاساسية للثقافة أكثر من الاهتمام بدراسة كل سمة من السمات وعلاقتها بالسمات الأخرى ، التي تدخل في تكوين هذه الثقافة على ما يفعل الوظيفيون (يمكن للقارىء الرجوع في ذلك الى كتابنا عن « البناء الاجتماعى » ـ الجزء الأول ، المفهومات صفحة ٢٣٨) .

هذا الكتاب الممتع العميق الذى كتبته امراة على جانب كبير من العلم والذكاء وشمول النظرة ، كانت له آثار بعيدة قلما تنبه اليها الباحثون . فلقد ساعد الكتاب على ايجاد بعض الاتجاهات الجديدة في الدراسات الانثربولوجية ، أو على الاقل ابراز أهمية عدد من الاتجاهات التى كانت بوادرها ظهرت من

قبل ، ولم تجد الاهتمام والعناية الكافيين ، فأرسى الكتاب هذه الاتجاهات على أسس منهجية اكثر قوة وصلابة ورسوخا . ويتمثل ذلك بوجه خاص في اثارة الاهتمام من جديد بدراسة بعض الموضوعات المشتركة بين الانثربولوجيا وعلم النفس ، وهى الموضوعات التى تندرج تحت مقولة « الثقافة والشخصية » والتى لهاعلاقة بالعمليات الادراكية والمعرفية ، والفوارق بين الجماعات السلالية المختلفة في مجال القدرات الخاصة والذكاء ، وصلة هذه الاختلافات بالظروف والأوضاع الثقافية ، وكذلك الموضوعات المتعلقة باختلاف انساق القيم واثرها على حياة الافراد ،وما الى ذلك . أى ان كتاب بنديكت فتح الباب على مصراعيه امام دراسة الجوانب السيكولوجية في الثقافة ، وبوجه خاص دراسة الشخصية في علاقتها بالثقافة عن طريق تحليل العلاقات بين الثقافة والفرد ، وأثر الثقافة في تكوين الشخصية . وكانت النتيجة من هذا كله أن أصبح بعض العلماء ينظرون الى الثقافة على انها« شىء » ذاتى يربط الأفراد الذين يشتركون معا في صيغة ثقافية معينة او نمط ثقافي واحد ، وبذلك بدأ هؤلاء العلماء يعتبرون الأنماط الثقافية تجريدات من السلوك ومن التجربة الثقافية ، وانه ليس لها بالتالى وجود واقعى مشخص بعيدا عن الافراد الذين صنعوها .

.وبطبيعة الحال ، لم تسلم آراء بنديكت من النقد والتجريح والتشكيك والاعتراض والتعديل والاضافة اليها .

كانت بنديكت مثلا ترى أن (عقل) الفرد عبارة عن (صفحة بيضاء) يمكن لأى ثقافة أن تؤثر فيها وتطبعها بطابعها الخاص . فلم يكن الفرد في نظرها اكثر من مجموعة ضخمة من الامكانات التي يمكن لأى ثقافة أن تختار منها وتنتقى ما يتلاءم ويتفق مع نمطها الخاص . فموقف الفرد ـ في نظرها ـ كان موقفا سلبيا الى حد كبير فيما يتعلق ويتصل بعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى وعمليات التربية والتعليم . وقد أثار ذلك كثيرا من الاعتراضات . فلقد اعترض كاردينر Kardin-er وغيره من العلماء الذين عالجوا نفس هذه النقطة وذهبوا فيها الى ان الفرد « يخرج » ـ حسب تعبير كاردينر ـ « لمقابلة » ثقافته اثناء عملية التعليم والتربية وعمليات التنشئة الاجتماعية عموما ، وان يحصل من الثقافة اثناء هذه « المقابلة » على ما يحتاج اليه من اشباع ، مما يؤدى الى ظهور اشكال السلوك الفردى المختلفة التي تضمها الثقافة العامة التى تسود المجتمع الواحد .

وليس المقصود على أية حال الكلام عن روث بنديكت ونظريتها عن الصيغة الثقافية بقدر ما هو محاولة تبين مدى عمق هذا الاتجاه (الجديد) في دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية بوجه عام ، على

اعتبار ان هذا الاتجاه يمثل نوعا من التقارب العام بين الانثربولوجيا وعلم النفس . ولذا يكفى أن نشير هنا الى ما يقوله الاستاذان أوجرن Ogburn ونيمكوف Nimkoffفي صفحة ٢١٩ من كتابهما : « لقد ظل الانثربولوجيون لسنوات طويلة يهتمون بالتنظيم الصورى للثقافات المختلفة دون ان يهتموا كثيرا بالطريقة التى تؤثر بها الثقافة في الشخصية ، كما ظل علماء النفس يقفون معظم جهودهم على دراسة السلوك في المعامل التى اعدت خصيصا لهذا الغرض ، ويبعدون تماما عن التأثيرات البيئية رغم مالها من أهمية عالية . ولكن لم يلبث الانثربولوجيون ان اكتشفوا الشخصية في آخر الامر ، كما اكتشف علماء النفس الثقافة ، وبدا العالمان يتعاونان بشكل فعال في دراسة مشكلة العلاقات المتبادلة بين العوامل الثقافية والعوامل السيكولوجية . فكأن اهمية كتاب بنديكت تتمثل في آخر الأمر في انه ساعد على تحرر الانثربولوجيين الثقافيين من الاتجاهات الصورية في دراسة الثقافة ، والاهتمام بدرجة اكبر بدراسة علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة ، مع ادراك أن الفهم الدقيق للثقافة يتطلب دراسة شخصية الفرد الذى هو في آخر الأمر جزء من هذه الثقافة ، يتأثر بها حسب ما تذهب اليه بنديكت ، ويؤثر فيها كما يقول غيرها ، ثم الاهتمام بعد ذلك بدراسات الشخصية القومية التي هي أحد فروع مدرسة الثقافة والشخصية .

وليس ثمة شك في أن ظهور الاتجاه الى دراسة الشخصية القومية وتعدد مداخل هذه الدراسة من أهم النتائج التي ترتبت على الاهتمام بموضوع الثقافة الشخصية . وتعبير « الشخصية القومية » تعبير يطلق على الدراسات الانثربولوجية التي تهدف الى تحليل وتفسير المقومات الرئيسية التي تميز شعبا من الشعوب في ذاته . وقد ازدهر هذا الاتجاه في امريكا ابان الحرب العالمية الثانية نتيجة للرغبة في فهم الخصائص العامة التى تتميز بها الشعوب المتحاربة من كلا الطرفين ، اى الحلفاء والمحور على السواء . وقد برع الامريكيون في ذلك بوجه خاص ، ولذا ارتبطت هذه الدراسات بالمدرسة الامريكية بالذات اكثر مما ارتبطت بغيرها من مدارس الانثربولوجيا . وقد استفاد العلماء في هذه الدراسات بغير شك من خبراتهم المباشرة في البحوث الحقلية التي قاموا بها هم انفسهم في المجتمعات البدائية والبسيطة وطبقوها في هذه الدراسات الجديدة ، كما استفادوا من معرفتهم بالحضارات والثقافات القديمة او الزائلة وتلك التى على وشك الاندثار . والطريف هنا أيضا أن أهم دراسة أجريت في هذا المضمار اثناء الحرب العالمية الثانية كانت هى الدراسة التى قامت بها روث بنديكت نفسها على اليابان ، والتي ضمنتها كتابا طريفا آخر لها بعنوان (زهرة الكريزانيتم والسيف) ، عرضت فيه لتراكيب وبناء الثقافة اليابانية وللمزاج وللروح اليابانية ، وطابعهم الخاص الذى يجمع بين العنف والقسوة من ناحية والرقة وحب الجمال والروح الفنية الراقية التي تتمثل بوجه خاص في الاهتمام بالزهور وتنسيقها من الناحية الاخرى

وقد استخدم تعبير (دراسة الثقافة عن بعد) للاشارة الى هذه البحوث والدراسات التى كان يقوم بها الانثربولوجيون معتمدين على كتابات غيرهم وعلى الوثائق والشهادات الحية وما اليها دون ان يقوموا هم انفسهم بالبحث الحقلى المباشر الذى تقضى به أصول المنهج الانثربولوجى . وقد تأثر معظم الذين درسوا هذه الثقافات عن بعد بالمناهج المتبعة في دراسات الثقافة والشخصية ، كما اعتمدوا على نظريات التحليل النفسى ، سواء نظريات فرويد أو نظريات يونج ، فضلا عن نظرية الجشطلت Gestalt وسيكولوجيا التعلم . وبدأت عبارات جديدة تبرز في الكتابات الانثربولوجية الثقافية نتيجة لذلك ، وهى في الاغلب عبارات متأثرة بالمصطلحات المستخدمة في دراسة الشخصية الفردية بعد تحويرها بحيث تتلاءم وتتفق مع اهداف الانثربولوجيين ، وبحيث تميز دراساتهم عن الدراسات السيكولوجية في مجال الشخصية ، كما انها تشير الى الاتجاهات السائدة في دراسة الشخصية القومية . وبذلك بدأنا نسمع عن « البناء الاساسى للشخصية » ودراسة « الشخصية المنوالية » ودراسة « الطابع الاجتماعي والثقافي » ، وهي كلها تشير الى اهمية الخصائص السيكولوجية والسلوكية التى تظهر نتيجة للاتصال بالنظم الاجتماعية والانساق الثقافية . فبناء الشخصية مثلا هو نوع من الاشتقاق من المفهوم السيكولوجي للشخصية ، وان كان تحديد (البناء) يتم عن طريق دراسة الثقافة وليس الفرد ، وبذلك فان البناء الاساسى للشخصية يمثل « تجمع او ارتباط كل خصائص الشخصية التى يبدو انها تتطابق مع كل النظم والعناصر والسمات التى تؤلف أى ثقافة من الثقافات . وليس من الضرورى ان يتحقق ذلك البناء الأساسي للشخصية في كل عضو من اعضاء الجماعة ، بل انه يكفي ان يوجد لدى غالبية الافراد حتى يمكننا التعرف عليه وتحديد الملامح التى تدخل في تكوينه والتى تعطى المجتمع بالتالى طابعا معينا متمايزا ، خاصة وأن هذا البناء الاساسى للشخصية لايظهر عند الافراد الانتيجة للتجارب السابقة التى يكتسبونها منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، بمعنى انه لايظهر تلقائيا نتيجة للغرائز أو الدوافع أو القوى الأساسية ، وانما هو شىء يستمد ويكتسب من الثقافة ذاتها .

(انظر كتابنا صفحة ٢٤١)

وبصرف النظر عن المنطلق النظرى الذى يوجه دراسة الثقافة والشخصية ، وبخاصة الشخصية القومية ، فلا بد للباحث من أن يأخذ في الاعتبار عددا من الأمور ، لعل اهمها هو ضرورة التعرف على العلاقة بين التراث الاجتماعى والثقافى الشامل الذى يعيش فيه الفرد ويتأثر به بطريقة شعورية أو لاشعورية . فاختلاف التراث الثقافى يؤدى الى اختلاف انماط السلوك السائد في المجتمع . والمثال الذى أحب أن استشهد به دائما في هذا الصدد هو اختلاف نظرة الشخص الواحد الى قيمة (الوقت) وتقديره لأهمية ومعنى عنصر الزمن حين تتغير ظروف الحياة العامة في المجتمع . وهذا واضح ليس فقط

بين تقدير سكان المدن والقرى والصحراء لعنصر الزمن ، بل وأيضا تقدير القروى لهذا العنصر حين تتغير ظروف حياته هو نتيجة للعمل في أحد المصانع مثلا ، اذ تسير حياته حسب توقيت دقيق لم يكن له به عهد من قبل . ومع ذلك فلا يمكن أن يمحو كل الفروق (المزاجية) التي تميز الأشخاص بعضهم عن بعض في نطاق الثقافة الواحدة ، بحيث يصبحون جميعا نسخة واحدة متكررة . ولذا فان تتبع دقائق وتفصيل وتفاصيل السلوك عن الافراد والامكانات والقوى والدوافع والقيم التى تختفى أو تكمن وراء هذا السلوك ، والتراث الذى يوجه سلوك وتصرفات وعلاقات افرادالمجتمع خلقية كلها بان تعطينا في آخر الأمر فكرة عامة عن ثقافة المجتمع وعن الشخصية القومية او الطابع القومي . وهذا يدفع الكثيرين من العلماء الى القول بان الشخصية القومية هي المرادف الدقيق لكلمة ثقافة ، بل ان بعضهم يذهب الي حد القول بانه يمكن وضع اى من المصطلحين مكان الآخر دون أن يطرأ اي لبس او خطأً على السياق الذى يستخدم فيه احد هذين المصطلحين.

●●●

ولقد اعطى علماء النفس في العالم العربي كثيرا من جهودهم لدراسة الشخصية ، وظهرت لهم في ذلك كتابات كثيرة حول نظريات الشخصية ومداخل دراستها والمناهج والاساليب المختلفة التي تتبع في ذلك ، ومقاييس الشخصية ونموالشخصية وغير ذلك من الموضوعات . وكثير من هذه الكتابات تعتمد على بحوث أصيلة قام بها هؤلاء العلماء بأنفسهم . والدراسات التي يضمها هذا العدد من المجلة تمثل نماذج من الاسهامات التى يضيمها علماء النفس العرب طيلة الوقت الى هذا الميدان الرحب الهام من ميادين البحث العلمى ، وهى اسهامات ليس لها مع الأسف ما يماثلها حتى الآن على المستوى الانثربولوجي ، وان كانت هناك بعض دراسات متفرقة يمكن ادراجها بشكل او بآخر تحت موضوع « الثقافة والشخصية » . وربما كان اشهر هذه الدراسات تلك الدراسة القيمة التي قام بها حامد عمار في إحدى قرى الصعيد ، والتي ضمنها كتابه الهام الموسوم Growing Up in an Egyptian Village .

ويرجع انصراف الانثربولوجيين في العالم العربي عن هذاالنوع من الدراسات الى اسباب تاريخية صرفة ، تتعلق بالظروف التى لابست دخول الانثربولوجيا الى مصر ، وبالذات جامعة الاسكندرية التى كانت اول من وجه النظر الى الانثربولوجيا كعلم متميز عن علم الاجتماع ، والتى أنشىء فيها اول قسم مستقل للانثربولوجيا في العالم العربي ، والتي تخرج منها معظم الانثربولوجيين العرب أو تاثروا باتجاهها النظرى وموقفها المنهجي ، واهتمامها بدراسة البناء الاجتماعى والانساق الاجتماعية اكثر مما

تهتم بدراسة الثقافة . الا أن السنوات الأخيرة شاهدت بعض التغيرات على هذا الموقف تتمثل في اتساع نطاق اهتمامات تلك المدرسة ، بحيث بدأت الاجيال الجديدة من الدارسين تعطى اهتماما اكبر للدراسات الثقافية وللاتجاهات المعرفية والادراكية في تفسير الثقافة ومعالجة موضوعات تدخل في مجال « الثقافة والشخصية » ، وبالذات الشخصية القومية ، والطابع القومي .

وربما كان أهم بحث في هذا المجال هو بحث الشخصية القومية الذى قام به قسم الانثربولوجيا تحت إشرافي منذ أعوام قليلة ضمن مشروع ضخم اضطلعت به جامعة الاسكندرية تحت عنوان (اعادة بناء الانسان المصرى) . ولم تظهر النتائج النهائية لهذا المشروع ، وان كان احد تقارير المتابعة ، وهو التقرير الثالث الذى نشرته تلك الجامعة في ديسمبر ١٩٧٩ ، يعطى فكرة واضحة عن أهم ملامح البحث الانثربولوجي وفروضه ومناهجه . وقد يصلح هذا التقرير لأن يكون مرشدا وموجها ، وبداية للقيام ببحوث اخرى مماثلة في مناطق أخرى من الوطن العربي ، ولذا فانني أعطى نفسى شيئا من الحرية في الاقتباس او النقل من هذا التقرير باعتبارى المشرف على البحث ، كما أنني وضعت خطته وأشرفت على كتابة التقرير .

ولقد كان الدافع الى القيام بالمشروع كله ، وبوجه خاص بدراسة الشخصية القومية المصرية او الطابع القومى المصرى ، هو الشعور بأن مصر تمر في الوقت الحالى بمرحلة حاسمة من تاريخها الطويل تتطلب الاهتمام بفهم الاوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية التى تسود في المجتمع المصرى ، مثلما تتطلب ضرورة التعمق في فهم الشخصية المصرية ومقوماتها وما تتعرض له في الآونة الأخيرة من بعض المظاهر السلبية ، والاحساس بضرورة التعرف على الأسباب الموضوعية لهذه المظاهر الجديدة والسمات الطارئة على الشخصية المصرية ، حتى يمكن معالجتها واتاحة الفرصة للمجتمع وللانسان المصرى لتغيير مسارهما والانطلاق نحو اهداف سامية محددة . والواقع ان الاهتمام بدراسة (الانسان المصرى) جاءت ايضا كنوع من الاستجابة المباشرة للاتجاه العام الذى يسود المجتمع المصرى الآن من التحسر على الماضى وعلى القيم الضائعة وعلى التسيب ومظاهر السلوك السلبي ، والحاجة الى علاج هذه الأوضاع التي تسيء الى صورة مصر والمصريين ، ليس في نظر الآخرين فحسب ، بل وأيضا في نظر المصريين انفسهم . والدراسة من هذه الناحية تختلف عن الغالبية العظمى من الدراسات التى اجريت في المجتمع المصرى ، لأنها تعتبر (الانسان) هو الهدف وليس النظم الاجتماعية او السياسية او الاقتصادية ، وذلك على اعتبار أن (الانسان) هو صانع تلك النظم ، كما انه هو المنفذ لها والذى يتأثر بها من حيث انها تنعكس في آخر الامر في سلوكه وتصرفاته وتحكم علاقاته

داخل المجتمع . وهذا معناه ان الدراسة اتخذت (الانسان) وليس المجتمع نقطة مركزية يدور حولها البحث ، كما انها اخذت في الاعتبار ان يتم تفسير البيانات والمعلومات الاثنوجرافية وتحليلها من هذه الزاوية حتى يمكن الوصول في آخر الأمر الى فهم أعمق للانسان المصرى وعناصر شخصيته الاساسية ومقومات تلك الشخصية والعوامل التي تحكم سلوكه والقيم التي يسترشد بها في حياته ، ونظرته الى العالم ومكانه في ذلك العالم ، والتغيرات التي طرأت على هذا كله خلال السنين الطويلة ، وبخاصة الفترة الاخيرة ، ونواحى الايجاب والسلب في كل تلك المقومات والمكونات ، وافضل الطرق التى يمكن بها تعديل وتغيير نواحى الضعف والسلبية ، بحيث تستبدل بها قوة ايجابية بناءة .

وبقول آخر ، فان التساؤل الرئيسى الذى يدور حوله البحث عن مقومات الشخصية المصرية كان : ما هى العوامل التى ادت الى ظهور هذه الشخصية القومية التى تسود الآن المجتمع المصرى بكل جوانبها ومظاهرها الايجابية والسلبية ؟ وذلك على أمل ان يساعد البحث في هذا المجال والنتائج التى يتوصل اليها في تقوية العناصر الايجابية وعلاج العناصر الضعيفة والسلبية او القضاء عليها تماما . وكان الهدف الأخير هو محاولة وضع سياسة شاملة لتنمية (الانسان) المصرى كمقابل لتنمية (المجتمع) المصرى ، وذلك على اعتبار أن البحوث الانثربولوجية تهتم (بالانسان) بينما تركز البحوث السوسيولوجية على (المجتمع) ، وان كان هناك بالضرورة علاقات متبادلة قوية بين الاثنين من حيث انهما يمثلان وجهين لعملة واحدة .

مثل هذه الدراسة المتشعبة تحتاج الى ان تركز منذ البداية على عدد من الابعاد التى يلزم بحثها العميق للوصول الى نتائج محددة . ولذا فقد اهتم البحث اهتماما خاصا بالابعاد التالية التى تلقى كثيرا من الاضواء على الطابع القومي المصرى والشخصية المصرية :

اولا - البعد التاريخى او الزمانى - وذلك على اعتبار ان الشخصية المصرية القومية هى نتاج لتفاعل عدد كبير العناصر التى سادت في المجتمع المصرى لقرون طويلة ، وقد احاطت الدراسة في هذا المجال بالبعد المصرى القديم (التراث الفرعونى والمؤثرات اليونانية والرومانية والقبطية) والبعد الاسلامي والعربي والبعد الافريقى ، والبعد المتوسطى ثم بالتاريخ الاجتماعى لمصر في العصر الحديث وما طرأ على مصر من تغيرات نتيجة للاستعمار التركى والفرنسى والانجليزى ، ثم الاستقلال والحركات الوطنية الحديثة ، وأثر ذلك كله في ظهور شخصية الانسان المصرى المعاصر .

ثانيا - البعد الجغرافي او البعد المكانى - وهو بعد ناشىء من القول الشائع من أن (مصر هبة

النيل) ، وكان لابد من التعرض هنا لايكولوجيا المجتمع المصرى والخصائص الديموجرافية العامة مع الأخذ في الاعتبار القول الاكثر حداثة من أن (مصر هبة المصريين) . ونظرا لتعدد الثقافات الفرعية وتنوع الجماعات العرقية ووجوب الاحاطة بها حتى تخرج الدراسة شاملة ومتكاملة ، كان لابد من دراسة انماط الحياة الاجتماعية والانساق الثقافية دراسة مركزة في عدد من الجماعات المحلية التى تنتمى الى نمط الحياة الصحراوية ، ونمط الحياة الريفية ، ونمط الحياة الحضرية ، ثم دراسة عدد من الجماعات العرقية المتمايزة مثل سكان واحة سيوه من عرب وبربر ، ودراسة النوبيين وبعض جماعات الغجر وما الى ذلك .

ثالثا ـ واخيرا فقد كان من الضرورى دراسة التراث الضخم من الكتابات العلمية والادبية والتاريخية والاجتماعية التي تناولت الانسان المصرى في مختلف مراحل التاريخ . وكثير من هذا التراث يضم معلومات تعطي صورة حية لمقومات الشخصية المصرية خلال فترة معينة بالذات ، وبذلك فان هذه الكتابات تصلح أساسا للمقارنة العلمية الدقيقة وقياس التغيرات التي طرأت على الشخصية المصرية . ويكفي ان نذكر هنا ، على سبيل المثال ، ما كتبه هيرودوت عن مصر وكتابات الجبرتى وكتاب وصف مصر الذى خلفته الحملة الفرنسية على مصر وكتاب محمد المويلحى (عيسى بن هشام) وهكذا . . . وذلك فضلا عن الروايات الكثيرة التى كتبها عدد من الروائيين المصريين وسجلوا فيها كثيرا من ملامح الحياة في مصر ، وتلك التى كتبها بعض الأجانب من أمثال داريل في رباعيته المشهورة عن الاسكندرية ، أو جان كوكتو في كتابه المشهور (معلهش) وهكذا .

ونظرا لأن البحث اقتصر على دراسة مقومات الشخصية القومية المصرية فان الدراسة ركزت بالضرورة على عدد من الموضوعات الأساسية التى تغطى فيما بينها اهم تلك المقومات والسمات الرئيسية والعوامل التي ساعدت على ظهورها ، والاسباب التي ادت الى حدوث تغيرات فيها ، والدوافع اللاشعورية التى تكمن وراء سلوك الناس ونصرفاتهم . وكان اهم هذه الموضوعات هى : عمليات التطبيع الاجتماعي او التنشئة الاجتماعية ، والثقافة الشعبية ومدى تعبيرها عن الشخصية المصرية ، واهم مقومات الشخصية المصرية (مثل الايجابية والسلبية ـ الموقف من السلطة ـ التفكير الغيبى والنظرة العلمية ـ النظرة الى العمل ـ القيم التقليدية كالصبر وفكرة الشرف والعار والشعور بالانتماء ، ثم الايديولوجيات ونسق القيم ووجهة نظر الناس الى عدد من الموضوعات الهامة كالقومية والنزعات الفرعونية والعربية والاسلامية . وحركات التحرر والاصلاح الدينى والاجتماعى ، وموقف المثقفين والمفكرين من الواقع المصرى ، واحداث الحياة وما الى ذلك) .

ويكفى هذا العرض الموجز لاعطاء فكرة عما يفعله الانثربولوجيون حين يعرضون في بحوثهم لأحد الموضوعات المتعلقة بالثقافة والشخصية ، وبخاصة موضوع الشخصية القومية لشعب من الشعوب . والذى أرجوه أن يكون في هذا دعوة الى الاهتمام بدراسة هذه الجوانب التى طال اغفالها بحيث تلحق الانثربولوجيا في مجال دراسات الشخصية ، وان يحقق الانثربولوجيون (الثقافيون) من الانجازات في مجال الثقافة ما حققه الانثربولوجيون (الاجتماعيون) في مجال البناء الاجتماعي والانساق الاجتماعية .

احمد ابوزيد

***

التعلم والشخصية

أنور محمد الشرقاوي (١)

قسم علم النفس ـ جامعة الكويت

مقدمة :ـ

يتناول علماء النفس في أبحاثهم ودراساتهم كثيرا من المشكلات ذات الاهتمام الخاص بالنسبة للمربين والآباء ، وبعض مؤسسات التغيير الاجتماعي والسلوكي . وبالبحث عن اصول الكثير من هذه المشكلات نجد ان مظاهرها قد تكونت لدى الاشخاص بفعل عوامل الممارسة ومبادىء التعلم حتى أصبحت هذه المظاهر بمثابة صفات أو خصائص مميزة يمكن ملاحظتها وقياسها بسهولة لدى هؤلاء الاشخاص في كثير من مواقف حياتهم اليومية . وبتكرار هذه المواقف ، وثبات العوامل والأسباب التي أدت الى هذه المظاهر السلوكية ، مع استمرار تعزيزها تتكون العادات السلوكية التي هي بمثابة المكونات النفسية شبه الثابتة في الشخصية .

ويحاول علم النفس مع غيره من العلوم السلوكية الأخرى ان يصل الى تفسير أسباب ودوافع هذه المشكلات ، واثناء البحث والدراسة تظهر امام الباحثين كثير من التساؤلات المرتبطة بهذه المشكلات ، وعلى سبيل المثال :ـ

(١) استاذ مساعد علم النفس بكلية التربية ـ جامعة عين شمس ، وكلية الآداب ـ جامعة الكويت . . . حصل على درجة الماجستير في مجال انحراف الاحداث ، والدكتوراه في مجال سيكولوجية التعلم من كلية التربية ـ جامعة عين شمس ، كما حضر برنامج الـ Post Doctoral Fellowship لمدة عام في مركز خدمة الاختبارات التربوية Educational Testing Service بولاية نيوجيرسي في مجال القياس النفسي والتربوي له واشترك في عدة مؤلفات : التعلم وتطبيقاته ، سيكولوجية التعلم : ابحاث ودراسات ، انحراف الاحداث واسس علم النفس العام كما اشترك في اعداد بطارية الاختبارات المعرفية العاملية ، واختبار الاشكال المتضمنة لقياس بعد الاعتماد ـ الاستقلال عن المجال الادراكي . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية والجمعية الاميريكية لعلم النفس .(A.P.A)

* ماهي الوسائل الفعالة لمساعدة الشخص على ضبط الانفعالات ، وبعض مظاهر السلوك غير المرغوب لديه مثل القلق ، والغضب ، والعدوان . ، والتحيز ؟

* ماهي الأساليب الأساسية المتوفرة لدي المشتغلين بعلوم النفس والتربية والخدمة الاجتماعيه لاختزال وخفض مستوى بعض العادات السلوكية غير السوية مثل السرقة ، والكذب والخداع ، أو بعض العادات العصبية مثل نوبات الصرع ، أو مص الأصابع ، أو قضم الاظافر ؟

* ماهي الأساليب الاجرائية الفعالة التي يمكن ان يستخدمها الاشخاص للاقلال من التدخين ، أو تناول الطعام بشراهة ، او الامتناع عن تعاطي المخدرات والمسكرات ؟

* كيف يمكن أن نخفض من مستوى الأرق ، والأحلام المزعجة ، والوساوس ؟

* كيف يمكن تعديل اساليب ممارسة الجنس الخاطئة ؟ أو كيف يمكن خفض درجة الاستثارة الجنسية في المواقف غير المناسبة ؟ أو المثيرات الجنسية غير المرغوبة ؟

* كيف يمكن ان نغير من اتجاهات الاشخاص نحو انفسهم ، أو نحو الأشخاص الآخرين ؟

* كيف يتعلم الشخص أساليب السلوك الفعالة لتحقيق الهدوء لنفسه ، وضبط الأفكار غير المرغوبة ؟

* ماهي الأساليب الاجرائية التي يجب أن يمارسها الآباء في تربية ابنائهم بصفة عامة ؟ وبخاصة لمواجهة مشكلات التدريب على الاخراج ، أو بلل الفراش ، أو مشكلات النمو الأخرى ؟

* وفي مجال التعلم المدرسي ، كيف يمكن ان ننشط من دافعية الطلاب للتعلم ، وكيف نواجه سلوك التخريب ، والعدوان لدى الطلاب ؟ كيف يمكن ان نحقق تفريد التعليم Individualiza-tion instruction بقدر ما تسمح به الظروف والامكانيات ؟

* كيف يمكن مساعدة الاشخاص المترددين على مكاتب التوجيه والارشاد النفسي طلبا للعون ؟

مجمل القول . . كيف يمكن مساعدة كل هؤلاء حتى يحققوا أعلى مستوى من الكفاية في الآداء في مواقف الحياة المختلفة ؟ (٢)

وتهدف الدراسة الحالية الى تناول العلاقة بين التعلم والشخصية لتوضيح دور عملية التعلم ليس فقط في تكوين واكتساب اساليب السلوك المختلفة التي تشكل مجموعة العادات السلوكية لدى الفرد فحسب ، سواء كانت مرغوبة أو غير مرغوبة ، او مايسمى أحيانا بالسلوك غير السوى ، أو الاضطرابات السلوكية .

ولتحقيق الهدف من هذه الدراسة ، نحاول أن تناول هذا الموضوع من خلال العناصر التالية :-

أولا : العلاقة بين التعلم والشخصية .

ثانيا : المدرسة السلوكية وتقدم اساليب علاج المشكلات السلوكية .

ثالثا : محاولات علاج اضطرابات السلوك في اطار التعلم .

رابعا : اسلوب تعديل السلوك ، والخصائص التي تميزه ، والمبادىء والعمليات الأساسية التي يعتمد عليها .

العلاقة بين التعلم والشخصية :

لكي نحاول ان نفسر الأسباب أو العوامل والدوافع التي أدت الى وجود مثل هذه المشكلات السابقة في سلوك الأفراد ، وان نجد اجابة واضحةومقنعة الى حد ما عن كل هذه التساؤلات وغيرها مما يوجد في محيط حياة الأفراد ، يتطلب الأمر أولا ان نوضح كيف تكونت أصلا هذه المشكلات السلوكية ، حتى أصبح كثير منها لدى البعض بمثابة خصائص مميزة له تميزه عن غيره من الافراد ، وبالتالي أصبحت هذه الخصائص دالة على شخصية هؤلاء الأفراد .

2 — Mikulas, william L. (1978) "Behavior Modification" Harperand Row, Publishers, New York.

واهتمام الانسان بتأمل ودراسة سلوكه الذاتي ، وسلوك من يحيط به من بشر قديم قدم وعي الانسان بوجوده ، وبوجود الآخرين . وقد كانت محاولات الفلاسفة القدامى من اولى الاجتهادات الفكرية التي حاولت فهم الروح ، والنفس ، والعقل ، والأفعال . ولهذا نجد انهم درسوا كثيرا من الموضوعات التي تدخل في نطاق علم النفس الحديث ، كما نجد انهم قد اثاروا تساؤلات متعددة حول كثير من المشكلات التي يدرسها علم النفس مثل :

التفكير والشعور ، والتعلم ، والمعرفة ، وقد أدت المحاولات التي بذلها المفكرون في ذلك الوقت للاجابة على هذه التساؤلات وغيرها الى وجود حصيلة كبيرة من التراث الفكري .

ويدفعنا البحث والتقصي عن كيفية تكوين المشكلات السابقة المشار اليها في المقدمة الى ضرورة أن نلم ببعض الالمام بما يعرف بالتعلم Learning ذلك الفرع الهام من فروع علم النفس . وكأي مفهوم من المفاهيم الأساسية في احد فروع المعرفة ، فان التعلم ليس من السهل تعريفه . والسبب في ذلك اننا لا نستطيع أن نلاحظ عملية التعلم ذاتها بشكل مباشر ، ولا يمكن ان نشير اليها كوحدة منفصلة ، أو ندرسها كوحدة منعزلة . ولكن الشيء الوحيد الذي يمكن في الواقع دراسته هو السلوك . والسلوك يعتمد على عمليات أخرى غير عملية التعلم .

ولذلك ننظر الى التعلم على انه عملية افتراضية Hypothetical process يستدل عليها من ملاحظة السلوك ذاته . وحيث أننا لا نستطيع أن نعزل عملية التعلم بشكل مباشر عن باقي جوانب السلوك ، فاننا نعرف التعلم بانه « عملية تغير شبه دائم في سلوك الفرد ينشأ نتيجة الممارسة ، ويظهر في تغير الأداء لدى الكائن الحي »[٣] .

والتعلم على هذا النحو يتطلب ضرورة ان يتعرض الكائن الحي للموقف السلوكي المراد تعلمه . ولما كان التغير في الأداء لدى الكائن الحي هو الأساس في الاستدلال على التعلم ، فاننا لا نستطيع ان نقول ان كل تغير في الأداء يعتبر تعلما . فقد يكون التعلم في موقف اضطراري ينشأ عنه ان يستمر لفترة قصيرة من الزمن ، كما أن ممارسة الاستجابة ربما تؤدي الى اختزال ، أو نقص الأداء نتيجة للتعب ، او الى زيادة معدل فاعلية الأداء نتيجة لزيادة جهد العضلات او النيورونات العصبية اثناء التمرين . ولذلك لا تعتبر كل هذه الانواع من التغيرات تعلما ، لأنها ستزول بزوال المؤثر الذي تسبب في

(٣) انور محمد الشرقاوي (١٩٨٢) « التعلم وتطبيقاته » الطبعة الثالثة (تحت الطبع) دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة .

إحداثها ، سواء كان عدم الاستعمال او راحة الكائن الحي . مما يجعلنا نعتبر ان التعلم يحدث فقط نتيجة لتعير في الاداء يكون شبه دائم في سلوك الفرد .

ولذلك تعبر سيكولوجية التعلم Psychology of learning من أهم فروع علم النفس . ذلك لأننا إذا أردنا أن نفهم السلوك ، والفرق بين مظاهره المختلفة ، يجب أن نفهم أولا كيف تتكون الاستجابات التي تختلف من موقف الى آخر ، ومن حالة الى اخرى ، والعوامل والمتغيرات التي تحكم المواقف السلوكية بوجه عام .

وفي الحقيقة ان الانسان يتعلم كيف يكون انسانا ، حيث ان أغلب ميولنا واتجاهاتنا وآراءنا ومعتقداتنا ، والخرافات التي نتمسك بها ، وخصائص سلوكنا كلها متعلمه . اي اننا نتعلم كيف نكون افرادا متمايزين فيما بيننا . وعلى الرغم من ان الامراض العقلية في بعض الحالات تكون متأثرة وناشئة عن اسباب عصبية (نيورولوجية) فانها تكون في اغلب المواقف نتيجة لتعلم اساليب السلوك غير المتوافق والفشل في تعلم اساليب السلوك المتوافق ، وكذلك الحال في اساليب السلوك الاجرامي والانحرافي، حيث يعتبر الجناح في رأي المدرسة السلوكية عبارة عن استجابة نمطيه مدعمة للتوتر والقلق الناجم عن استمرار عملية الاحباط . كما أن كثيرا من اساليب الجناح تحقق حاجات معينة ، وتشبع دافعا اجتماعيا قويا ومن الواضح ان لعملية التطبيع الا جتماعي أثرها الكبير في تعلم القيم وامتصاصها (٤) . حتى سلوك الحرب ، رغم انه في بعض الحالات يتحدد بعوامل كثيرة معقدة ، الا انه يتأثر بتاريخ الافراد المتعلم . ولذلك فان فهم مبادىء وأسس عملية التعلم يساعد مساعدة كبيرة في فهم كثير من استجابات الافراد في مواقف السلوك المختلفة . كما ان عملية التعلم تهم اي فرد يحاول في موقف ما ان يؤثر في تعلم الافراد الآخرين .

وقد اثيرت تساؤلات كثيرة في مجال تفسير السلوك حول ماهو متعلم ، وماهو فطري من السلوك . مما نشأ عنه أن قسم السلوك الى نمطين : النمط الاول ، السلوك المتعلم Learned behavior ، والنمط الثاني السلوك غير المتعلم Unlearned behavior ونشأ هذا التقسيم منذ فترات بعيدة للتمييز بين ماهو طبيعي ، وماهو راجع الى التربية والتنشئة . وذلك في محاولة للاجابة على كثير من التساؤلات حول الذكاء ، وهل يعتمد على الوراثة ، أم يعتمد على البيئة ؟ هل الاضطرابات العقلية والنفسية موروثة أم مكتسبة ؟ هل يمكن تعديل الخصائص السلوكية المتعلمة ؟ . ولكن حينما ننظر الى

---

(٤) انور محمد الشرقاوي (١٩٧٧) « انحراف الاحداث » دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة .

الأمور نظرة موضوعية علمية ، فان السلوك لا يمكن تقسيمه الى نمطين منفصلين ، نمط من السلوك غير متاثر بالعوامل والمؤثرات البيئية ، ونمط آخر يعتمد في حدوثه على التعلم . وحقيقة الأمر ان أي سلوك للكائن الحي هو عبارة عن نتاج مشترك لكلا المؤثرات الوراثية والمؤثرات البيئية . فمن الواضح والثابت ان الانسان يتعلم ، الكلام ، ولكن من الثابت ايضا انه المخلوق الوحيد الذي يولد ولديه الاستعداد الطبيعي لهذا النمط من السلوك ، حيث لا يتمكن أي قدر من التمزين ان يعلم الفأران يتكلم .

وكذلك لا يمكن لأي فرد ان يصدر كلمات لها معنى دون تدريب وتعلم . وهذا ما جعل . الانسان يختلف عن باقي الكائنات الاخرى ، ويختلف عن غيره من الافراد الى حد ما نتيجة ما يتعلمه من اساليب السلوك .(٥) .

لذلك يعتبر التعلم ضرورة في كثير من مواقف الحياة . كما يعتبر الاساس في تفسير كثير من مظاهر السلوك البشري السوي منها وغير السوي . وبالتالي يؤثر على اغلب مواقف حياتنا . ولما كان المعالجون والمعلمون والآباء لا يستطيعون تغيير كثير من مظاهر السلوك المرتبطة بالنضج ، فان جهودهم تركز بالدرجة الاولى على التعلم ، على اعتبار انه الوسيلة الرئيسية لاكتساب الفرد لكثير من المعارف ، والمهارات ، وتكوين العادات السلوكية ، والاتجاهات والقيم التي تعتبر الهدف من عملية التعلم .

اما عن المتغير الثاني لهذه الدراسة ، وهو الشخصية Personality فهو يعتبر من الموضوعات ذات الاهتمام الكبير في علم النفس الحديث . وتأتي هذه الأهمية من أن الظاهرة النفسية متعددة الابعاد ، متشعبة الجوانب . وان دراسة مستوى التوافق النفسي والاجتماعي للفرد لا يقل في الاهمية عن دراسة مستوى ذكائه ، وقدراته العقلية المتخصصة وكذلك ميوله واتجاهاته . وان الفصل في الدراسة بين الابعاد المختلفة للسلوك إنما هو أمر تعسفي بغرض التحكم الدقيق في ضبط الجوانب النفسية للفرد ، وهو ما تقتضيه الدراسة العلمية المتعمقة للوصول الى الدوافع والأسباب ، والتعرف على المظاهر السلوكية المختلفة للعمليات النفسية التي يمارسها الافراد في مواقف حياتهم المختلفة .

لذلك فان ما يشار اليه في كتب علم النفس بالشخصية ، انما يقصد به جميع السمات والخصائص النفسية والعقلية من ذكاء وقدرات عقلية ، وميول واتجاهات وطرق تفكير وادراك وحل مشكلات ،

(٥) مرجع سابق .

التي تميز فردا معينا عن فرد آخر . أي ان الشخصية هي الاطار العام أو الوعاء الذي يضم كل المكونات النفسية للفرد ، والتي تميزه عن غيره من الأفراد الآخرين .[٦]

ولكي ندرك مدى العلاقة الوثيقة بين بُعدي الدراسة وهما التعلم والشخصية نفضل ـ كما فعلنا بالنسبة لموضوع التعلم ـ ان نشيرهنا الى ماهية الشخصية وبعض التعريفات التي تناولتهـا ، حتى نستطيع ان ندرك اهمية عملية التعلم ليس فقط في تكوين كثير من اساليب السلوك في الشخصية ، ولكن كذلك في تفسير كثير من مظاهرها وفي تغيير بعض العادات السلوكية غير المرغوبة التي قد يتميز بها بعض الأفراد . وبمعنى آخر ، نحاول في هذه الدراسة تحديد دور عملية التعلم في تعديل بعض الخصائص النفسية والسلوكيـة السائـدة في الشخصية حيث يعتبـر ذلك هـو الهدف الـرئيسي لهذه الدراسة .

ويوجد في ميدان دراسة الشخصية تفسيرات متعددة تحاول كل منها تحديد طبيعة الشخصية في ضوء التصورات والأسس التي تقوم عليها كل نظرية أو يقوم عليها كل تفسير . وقد تتفق هذه التفسيرات او تختلف مع بعضها بدرجة أو بأخرى . وبالتالي فليس هناك تعريف واحد يعتبر هو الصحيح والباقي تعريفات خاطئة . فكل تعريف يستند على تصور نظري معين .

ونشير فيما يلي الى بعض هذه التعريفات التي تتفق مع موضوع هذه الدراسة الى حد ما وذلك على النحو التالي : ـ

يعرف « واطسون Watson (١٩٣٠) الشخصية بانها مجموع انواع النشاط التي يمكن ملاحظتها في سلوك الفرد لفترة زمنية كافية ، بحيث يمكن التعرف عليه بدرجة كافية .

وبمعنى آخر ، الشخصية هي النتاج النهائي لمجموعة العادات التي تميز الفرد »[٧] .

في حين يعرفها « جيلفورد Guilford (١٩٥٩) بانها « نمط السمات التي تميز فردا بذاته »[٨] .

6 — Flynn, J. & Herbert, G., (1967) "Assessing Behavior: Reading in Educational and Psychological measurement". Addison - Wesley Pub. Co.

7 — Watson, J. (1930) "Behaviorism" chicago university Press.

8 — Guilrord, J.P. (1959) "Personality" New York: McGraw - Hill.
In Lean H. Levey (1970) conceptions of Personality,
Theories and Research, New York: Random House.

ويعرفها « البورت » Allport (١٩٦١) بانها « ذلك التنظيم الدينامي الكامن في الفرد الذي يتضمن مختلف النظم النفسية التي تحدد خصائصه السلوكية وتفكيره » (٩) .

ويحددها « لندين » Lundin (١٩٦١) بأنها « ذلك التنظيم الذي يميز سلوك فرد ما ، والذي اكتسبه خلال مراحل نموه تحت شروط معينه » .

في حين يعرفها « بيرفن » Pervin (١٩٧٠) بانها ذلك التنظيم الذي يمثل الخصائص البنائية والدينامية لفرد ما ، أو لمجموعة افراد كما تعكس نفسها في الاستجابات المميزة له بالنسبة لموقف معين » . او بمعنى آخر « الشخصية هي ما تمثل الخصائص التي تميز فردا معينا دون الافراد الآخرين » (١٠) .

ويعرفها « سميث » Smith (١٩٧٤) بانها « ذلك الفرد المميز الذي يمكن التعرف عليه بواسطة السمات التي تميزه عن غيره من الأفراد الآخرين » (١١) .

اما بالنسبة للمصادر العربية ، فنشير الى بعض التعريفات التي وردت فيها على النحو التالي :ـ

يعرف « سيد محمد غنيم » (١٩٧٨) الشخصية بانها ذلك التنظيم او تلك الصورة المميزة التي تأخذها جميع اجهزة الفرد المسئولة عن سلوكه خلال حياته » (١٢) .

كما يعرفها « محمد عماد الدين اسماعيل » (١٩٥٩) بأنها « ذلك المفهوم ، اوذلك الاصطلاح الذي يصف الفرد من حيث هوكل موحد من الأساليب السلوكية والادراكية المعقدة التنظيم ، التي تميزه عن غيره من الناس ، وبخاصة في المواقف الاجتماعية » (١٣) .

---

9 — Allport, G.W. (1961) Pattern and growth in Personality.
New York, Holt, Rinehart and Winston.
Lundin, R.W. (1961) "Personality: an experimental approach" New York: Macmillan.

10 — Pervin L. A. (1970) "Personality: Theory, Assessment and research". John Wiley & Sons, inc.

11 — Smith, Henery Clay (1974) "Personality Development"
Second Edition, Mc Graw - Hill Book Company.

(١٢) سيد محمد غنيم (١٩٧٨) « سيكولوجية الشخصية : محدداتها ، قياسها ، نظرياتها » الطبعة الثانية ـ مكتبة النهضة العربية ـ القاهرة .

(١٣) محمد عماد الدين اسماعيل (١٩٥٩) « الشخصية والعلاج النفسي » النهضة المصرية ـ القاهرة .

في حين يعرفها « احمد زكي صالح » بانها « تكوين فرضي ، أو تغير متوسط ، ويقصد به المجموع الكلي للتنظيمات السلوكية الثابتة نسبيا التي تتحد في اطار واحد منسجم ، والتي تميز فردا معينا ، وتقرر الأساليب المميزة لتكيفه مع بيئته المادية والاجتماعية »(١٤) .

وما يهمنا من هذه التعريفات هو ان ندرك العلاقة بين عملية التعلم وموضوع الشخصية . حيث يلاحظ على اغلب هذه التعريفات انها قد حددت الشخصية بالتنظيم الذي هو عبارة عن وحدات من السلوك ، او بمجموعة من اساليب الاداء ، يرتبط بعضها ببعض في شكل معين يجعل منها كلا موحدا . وان هذه الأساليب من الاداء يمكن ملاحظتها في سلوك الشخص لفترة زمنية كافية ، مما يجعلها ثابتة نسبيا ، كما انها تميزه عن غيره من الاشخاص الآخرين في المواقف الاجتماعية المختلفة .

ونحن نستدل على وجود تغير شبه دائم في سلوك الفرد من ظهور درجة معينة من الثبات والاستقرار في السلوك المعدل او المكتسب لدى الفرد ، ستستمر فترة من الزمن ، ومن ثم نفترض تكوين العادة السلوكية . ولا شك ان العادة كتنظيم سلوكي هي تكوين معقد يخضع لمجموعة من العوامل الشارطة له . فالميل مثلا وحدة سلوك ، وهو تنظيم سلوكي مكتسب ، لأنه مجموع استجابات القبول ازاء موضوع خارجي معين . وتقاس ميول الفرد ازاء هذا الموضوع عن طريق قياس استجابات القبول او الرفض له . وقد يتغير الميل نتيجة لعوامل متعددة . اي ان التنظيمات السلوكية التي تعتبر مكونات الشخصية الأساسية هي عادات تكونت خلال حياة الفرد . وهذه العادات رغم ثبوتها النسبي فهي بدورها قابلة للتعديل . ويتوقف مدى تعديل العادة على قوتها ، فالعادات القوية تقاوم التغيير والتعديل ، والعادات الضعيفة تكون مقاومتها أقل .

وهكذا بالنسبة للعادات الانفعالية التي تتحكم كثيرا في سلوك الفرد ويمثل السلوك المرضي ، وخاصة العصابي ، أحد المظاهر الهامة للعادة الانفعالية . حيث ان انماط السلوك غير السوي تعتبر في اصلها عادات سلوكية تعلمها الفرد اثناء احتكاكه بمجالات حياته المختلفة ، وتعلم ان يسلك هذا السلوك ، او ذاك لكي يزيل التوتر الناشىء من بعض دوافعه المرتبطة باحد مواقف هذه المجالات . وبالتالي فان المرض النفسي هو مجموعة عادات تعلمها الفرد للهرب من مواقف معينة ، او هو عبارة عن اسلوب فاشل من اساليب التوافق مع البيئة التي يعيش فيها ، ولذلك فانه يخضع لقوانين التعلم واكتساب العادة ، سواء في تكوينه او في تعديله او تغييره .

---

(١٤) احمد زكي صالح « علم النفس التربوي » النهضة المصرية ـ القاهرة .

المدرسة السلوكية وتقدم اساليب علاج المشكلات السلوكيه :

لم يقتنع علماء النفس بالاتجاهات النفسية التي سبقت ظهور اتجاه المدرسة السلوكية Behaviorism في تفسير كثير من مظاهر السلوك الانساني . وكان من اهم دواعي عدم الاقتناع ان كثيرا من المفاهيم الاساسية التي تقوم عليها نظريات هذه الاتجاهات لم تكن محددة تحديدا واضحا ، مثل بعض المفاهيم التي وردت في كتابات مدرسة التحليل النفسي كالأنا ، والأنا الاعلى ، والهو ، والعقد النفسية ، وغيرها من المفاهيم الغامضة ، والتي يصحب قياس مظاهرها قياسا دقيقا .

وقد ظهرت في ذلك الوقت كثير من « النظريات » كل منها تفسر سلوك الأشخاص من خلال المكونات التي تقوم عليها هذه النظريات . وكانت أغلب هذه « النظريات » تميل الى تفسير المشكلات السلوكية في اطار بعض الخصائص التي تميز الشخص صاحب المشكلة وليس في اطار الفهم الوظيفي لنماذج السلوك التي تتضمنها هذه المشكلات .

ويمثل الاتجاه الفرويدي (اريكسون Erikson ١٩٦٣ فرويد Freud ١٩٣٥ . ربابورت Rapaport ١٩٥٩) ، والاتجاه النفسي الديناميكي (روجرز Rogers ١٩٥١) اهم هذه الاتجاهات النفسية التي تركز في تفسيرها للسلوك على العمليات النفسية الداخلية لا على المظاهر السلوكية الخارجية (١٥) .

وفي مطلع القرن العشرين ظهر اتجاه السلوكية او الثورة الواطسونية كما ذكر في ذلك الوقت ، نسبة الى عالم النفس « جون واطسون Gohn B. Watson » الذي قاد هذا الاتجاه ، وقاوم بعنف اساليب الاستبطان Introspection والأساليب الذاتية الأخرى في تفسير السلوك ، والتي نادى بها علماء النفس قبل ذلك . وكان اتجاه « واطسون » واضحا ، ويتلخص في انه لم ينكر عدم وجود الوعي أو الشعور Consciousness ، بل زعم انه داخلي ، وغير ملاحظ ، ولا يمكن قياسه بواسطة الاجراءات العلمية الموضوعية . ولذلك اشار واطسون بأن موضوع علم النفس يجب ان ينحصر في دراسة السلوك الخارجي للكائن الحي ، ذلك السلوك الذي يخضع للملاحظة والمشاهدة والقياس . وبذلك يكون علم النفس ، علما موضوعيا ومحددا .

15 — Menhrabian , A. (1978) "Basic Behavior Modification" Human Science Press, New York.

ولذلك يدين علم النفس اليوم بدرجة كبيرة الى « واطسون » الذي ساهم في وضع علم النفس بين العلوم الموضوعية . وعلى الرغم من أن الاتجاه السلوكي ليس هو الاتجاه الغالب بين علماء النفس اليوم ، الا أن الأغلبية منهم قد اختارت الأسس التي وضعها واطسون في دراسة السلوك الخارجي دراسة موضوعية . ومن خلال وجهة النظر السلوكية بدأت دراسات التعلم في محاولة الكشف عن الأسس التي يقوم عليها السلوك المتعلم . وكما حدث في العلوم الطبيعية ، فقد بدأ علماء النفس في مجال التعلم بدراسة بعض الاستجابات المحددة لدى بعض الكائنات البسيطه في محاولة كشف أسس التعلم التي قد تكون عامة لدى جميع الكائنات ، أو عامة بالنسبة لجميع أنماط التعلم (١٦) .

ثم عزز « سكينر Skinner (١٩٧٤) اتجاه المدرسة السلوكية بالدعوة الى اتجاه جديد متطرف يعرف بالسلوكية الراديكالية Radical Behaviorism ، والذي يدعو الى التعرف على الأحداث أو الوقائع العقلية ودراستها على انها نماذج من السلوك الداخلي .

محاولات علاج اضطرابات السلوك في اطار التعلم :

وهكذا اقتنع السلوكيون وخاصة في الفترة من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٣٠ بـان علاج كثير من المشكلات النفسية انما يخضع لعملية التعلم . كما انهم اكدوا على ان اسس الاشتراط البسيط او ما يطلق عليه الاشتراط الكلاسيكي Clasical conditioning ، او الاشتراط الاستجابي Respondent Conditioning ، والتي تطبق على السلوك السوي ، يمكن ان تطبق كذلك بنفس الدقة على كثير من انماط السلوك غير السوي . وكانوا مقتنعين تمام الاقتناع بان طرق العلاج التي تقوم على اتجاهات التحليل النفسي تعتبر غير مناسبة ، كما انها تعتبر مضللة الى حد ما ، لذلك يجب ان تستخدم اساليب التعلم بدلا منها في علاج هذه المشكلات . اي ان يقوم العلاج على اساس مبادىء التعلم وليس على اساس مبادىء التحليل النفسي (١٧) .

وقد وجه كثير من الباحثين من انصار المدرسة السلوكية اهتمامهم الى دراسة العلاقة بين الاشتراط Conditionig واكتساب السلوك المرضي . وكانت دراسات « واطسون وراينر » Watson & Rayner (١٩٢٠) أولى الدراسات الرائدة في ذلك.. حيث اشارا الى ان المثيرات التي تستدعي

16 — Tarpy, Roger M . (1975) "Basic Principles of Learning" Scott, Foresman and Company .

17 — Mc Laughlin, B. (1978) "learning and Social Behavior" The Free press NEW YORK .

استجابات الخوف يمكن ان تستخدم كمثيرات غير شرطية Unconditional Stimuli في تكوين استجابة الخوف الشرطي لمثيرات « محايدة » neutral غالبا ما توجد في المواقف السلوكية . اي ان استجابة الخوف الشرطي تنشأ نتيجة ارتباط مثير محايد موجود في الموقف السلوكي ، وليكن حيوانا اليفا او لعبة ، أو أي شيء آخر ، بمثير آخر له قوة استدعاء هذه الاستجابة ، وليكن هذا المثير صوتا مرتفعا . وبعد عملية اقتران قوي بين المثير المحايد (المثير الشرطي) . Conditioning Stimulus ومثير الصوت المرتفع (المثير غير الشرطي) Unconditioning Stimulus ، يكتسب المثير المحايد خصائص وفاعلية المثير غير الشرطي في استدعاء استجابة الخوف ، والتي تسمى بعد ذلك باستجابة الخوف الشرطية (١٨) .

كما كان دراسات « سميث وجاثري Smith & Guthrie » (١٩٢٢) من عوامل إضعاف اتجاه مدرسة التحليل النفسي في تفسير كثير من المشكلات السلوكية . فقد اشارا الى ان ـ كثيرا من مظاهر السلوك التي يردها « فرويد » Freud الى الغريزة الجنسية مثل سلوك الاستقراض Exhibitionism ، انما تكتسب لأي عادات سلوكية اخرى خلال عملية الاشتراط (١٩) .

ويعتبر الأسلوب الذي استخدمه « موريو وموريو Mowrer & Mowrer (١٩٣٨) - و « مورجان وتمر » Morgan & Witmer (١٩٣٩) في تجنب عملية التبول اللاارادي لدى الاطفال احد التطبيقات الهامة لنظرية الاشتراط . فقد استخدم « فوريو » ملفا كهربائيا صغيرا موضوعا تحت قطعة قماش سميكة توضع تحت مكان نوم الطفل . وهذا الجهاز متصل بجرس . وعندما يبدا الطفل في التبول اثناء النوم ، فان الدائرة الكهربائية بهذا الملف تكتمل ويدق الجرس . وحينئذ يستيقظ الطفل لكي يستكمل عملية التبول . وكان افتراض « موريو » قائما على اساس ان التبول اثناء النوم هو نتيجة لتدريب خاطىء على امكانية الطفل تمييز الاحساس بامتلاء المثانة اثناء الليل . ولذلك فهو يعتبر ان هذا الشكل من التبول اللاارادي مكتسب ، ولا يرجع لعوامل عضوية كما يحدث في بعض الاحيان .

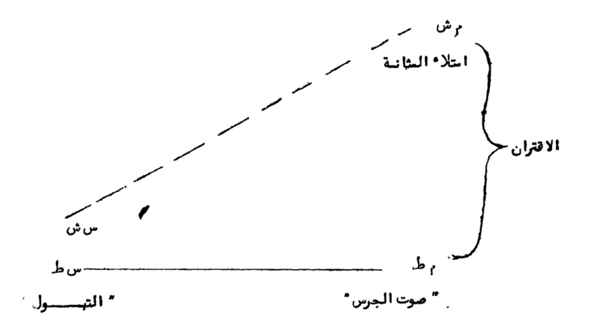
---

18 — Watson, G.B., & Rayner, R. (1920) "Conditional emotional reaction" Gournal of Expeermental psychology, 3. Lh MC Laughlin, B. : Learning and Social Behavior, (1978) the Free Prss, NEW YORK.

19 — Smith, S., & Guthrie, E.R. (1921) "General psychology in termes of dehavior". Appleton- century. In Mc Laug hlin, b. Learning and social Behavir, (1978), The Free press.

والشكل التالي يوضح ذلـــــــــك .

(شكل رقم - ٢) يبين عملية الاقتران بين المثيرين ، الشرطي وغير الشرطي :



ويحدث ذلك بعد اقتران صوت الجرس كمثير غير شرطي (م ط) بالمثير الشرطي (م ش) وهو امتلاء المثانة عدة مرات وبدرجة كافية حتى تقوى عملية الاقتران بين المثيرين . بعد ذلك يصبح للمثير الشرطي (م ش) قوة وفاعلية المثير غير الشرطي (م ط) في استدعاء الاستجابة الطبيعية (س ط) وهي التبول والتي تسمى بعد ذلك بالاستجابة الشرطية . أي أن الطفل يستيقظ للتبول لاستجابة شرطية (س ش) بمجرد الاحساس بالمثير الشرطي وهو امتلاء المثانة (م ش) وبالتالي يتعلم الطفل الاستيقاظ بمجرد الاحساس بامتلاء المثانة بعد ذلك لتجنب التبول اثناء النوم[٢٠] .

وقد استفاد الباحثون بعد ذلك من الاسلوب الذي اتبعه « ماورر » في علاج بعض حالات التبول اللاارادي . فقد استخدم تيرنر وتيلور Turner & Taylor (١٩٧٤) هذا الأسلوب في علاج نفس الظاهرة لدى الكبار[٢١] . كما اضيفت بعض التعديلات على هذه الطريقة تشمل زيادة ضبط عملية كف الاستجابات غير المرغوبة ، واكتساب عادة الاستيقاظ مبكرا ، وتنظيم تعزيز استجابات التبول الطبيعي ، والتصحيح الذاتي لاستهداف الأفراد للحوادث ، والتدريب على عملية الاخراج ، وخفض معدل استجابات التبول اللاادارى في أقل فترة زمنية ممكنة بعد فترة تدريب مكثف[٢٢] .

وهكذا اقتنع السلوكيون الأوائل بأن أغلب انماط السلوك ، وخاصة المرضى منه ، انما يخضع للتعلم خلال عملية الاشتراط .

وكما يتم تكوين الاستجابات الانفعالية غير السوية عن طريق عملية التعلم ، فانه يمكن كذلك العمل على استبعاد هذه الاستجابات من حياة الفرد عن طريق عملية الانطفاء Extinction وهو نقص أو اختزال في قوة الاستجابة يحدث بعد مرور الوقت نتيجة عدم التعزيز Reinforcement منذ آخر عملية اقتران بين المثيرين ، الشرطي وغير الشرطي . مما يؤدي الى اختفاء الاستجابة غير المرغوبة في مجال العلاج النفسي . كما يشار في دراسات الاشتراط البسيط الى ظاهرة اختفاء الاستجابة الشرطية لدى الأشخاص بالنسيان Forgetting نتيجة عدم الممارسة .

وبذلك يمكن تطبيق مبادىء السلوك والتعلم ليس فقط في تكوين عادات سلوكية مرغوبة ، ولكن كذلك في علاج كثير من الاضطرابات النفسية .

---

20 — Mowrer .H., (1950) "Learning Theory and personality Dynamics" The Ronaldlress Company, N.y.

21 — Turner, R.K. & Taylor, P.D., (1974) "Conditioning treatment of nocturnal enuresis in adults: preliminary findings" Behavior Research and Therapy, 21, 41—25.

22 — Az rih, N.H., Sneed, T.G., & FOXX,R.M., (1974) "Dry- bed Training : Rapid elimimination of child hood enuresis" Behavioir Reserh and Therapy, 21, 741- 651.

وقد استخدم كثير من الباحثين عملية انطفاء الاستجابات غير المرغوبة في علاج بعض الاضطرابات السلوكية . مثال ذلك استطاع « جونز » Jones (١٩٢٤) استبعاد استجابات ـ المخاوف المرضية لدى بعض الأطفال بواسطة تغذية الطفل في حضور المثيرات المسببة للقلق لديه ، وذلك باظهارها امامه تدريجيا ، ولفترة معينة لا تتعدى حد الاحتمال أو نقطة التحمل Point of telerance . وتدريجيا خلال جلسات العلاج تزداد فترات ظهور مثيرات الخوف مع تزايد حد الاحتمال ، حتى تنطفيء تماما استجابات الخوف من المثيرات التي أدت اليه[٢٣] .

كما تمكن دنلاب « Dunlap (١٩٣٢) من علاج بعض الانحرافات السلوكية بواسطة اسلوب الممارسة السالبة . negative practice الذي يقوم على عدم تعزيز الاستجابات غير المرغوبة والمطلوب كفها[٢٤] . وقد استخدم « فشمان » Fishman (١٩٣٧) نفس الاسلوب في علاج بعض صعوبات الكلام[٢٥] .

وتناول « ماكس » Max (١٩٣٥) عملية الانطفاء بطريقة مباشرة في علاج سلوك الجنسية المثلية Homosexual behavior حيث استخدم صدمة كهربائية قوية كمثير منفر aversive Stimulus في علاج أحد المرضى والذي كان يقوم بعملية الجنسية المثلية عقب التعرض لمثيرات معينة ارتبطت لديه باستثارة الدافع الجنسي . وبواسطة اصدار الصدمة الكهربائية في حضور هذه المثيرات اثناء جلسات العلاج ، استطاع « ماكس » أن يعمل على استبعاد أثر هذه المثيرات في الاستثارة الجنسية ، واطفاء سلوك الجنسية المثلية لدى الشخص[٢٦] .

والشكل التالي يوضح عملية انطفاء الاستجابة الشرطية نتيجة عدم تعزيزها بالمثير الشرطي (م ط) . (٣)

---

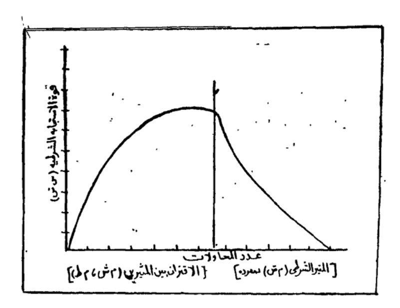
23 — Gones, M.C. (1924) "The elimiatøn of childrenls fears" Gournal of Experimental psychology, 7, 382-90

24 — Dunlap, K., (1932) "Habits, their making ang and unmal. ng' New York. Liveright,. In MC. Layghlin, : Learning and social Behavior, (198), The Free press, N.y.

25— Fishman, H.C., (1937) "A study of the efficincy of negative practice as a Corrective for Stammering louma ofspeech Disorders, 2,. In MC Laughlin, B., ;

Learning and Social Behavior, (1978) The Free press, N.Y.

26— Max, L.W. (1935) "Breaking up a homosexual fixation by the conditioned reaction technique : Acass study" Psychological Bulletin, 32 734.



وعلى الرغم من تعدد الأساليب السابقة في علاج بعض مظاهر . السلوك غير السوي لدى الأشخاص ونجاح هذه الأساليب في كثير من المواقف في تحقيق الهدف الذي تسعى اليه ، فان الاهتمام السائد والمشترك لدى أغلب علماء المدرسة السلوكية في ذلك الوقت هو اخضاع اسلوب علاج اضطرابات السلوك الى التجارب المعملية التي تقوم على أساس التعلم ، وليس مجرد الاستفادة من المعلومات والأفكار التي خرجت بها نظريات التعلم في علاج المشكلات السلوكية . وحتى عام ١٩٦٠ لم يكن هناك محاولة منتظمة متكاملة تستخدم كنموذج سلوكي في ممارسة العلاج النفسي . حيث كان الشعور السائد لدى الباحثين في هذا المجال آنذاك أن هناك حاجة ماسة الى بحوث أكثر وأشمل قبل أن يحدث أي تقدم في مجال العلاج النفسي[٢٧] . وفي هذا الصدد اشار « كاليش » Kalish (١٩٦٥) الى أن السبب في تأخر ظهور تطبيقات الأساليب السلوكية في علاج اضطرابات السلوك انما هو محاولات العلماء في ترجمة نموذج العلاج النفسي التقليدي الى لغة نظرية التعلم[٢٨] .

---

27 — MC Laughlin, B. (1971) "Learning and social Behavior" The Free Press, New york.

28 — Kalish, H. I. (1965) "Behavior Therapy"
HanH book of clinical Psychology, Mc Graw — Hill, N. Y.

اتجاه نظرية التعلم في علاج اضطرابات الشخصية :

بعد المحاولات العديدة السابقة لتفسير الاضطرابات السلوكية في اطار مبادىء السلوك والتعلم ، ظهر اتجاه آخر أكثر شمولا وتكاملا ، يشار اليه باتجاه نظرية التعلم في العلاج النفسي Learn-ing — theory approach to Psychotherapy ويعتبر الاتجاه في الحقيقة من أهم النتائج المباشرة لنظرية « هل » Hull في التعلم ومن المعروف أن « دولارد وميللر » Dollard & Miller من أكثر تلاميذ « هل » الذين تناولوا مبادىء نظريته في التعلم ، وما خرجت به من نتائج ، وحاولوا الاستفادة منها في مجال علاج اضطرابات الشخصية .

وقد كان الاتجاه السائد لدى « دولارد وميللر » هو وصف وتفسير الأحداث أو الوقائع التي تدور خلال عملية العلاج النفسي في اطار ، أو في مصطلحات نظرية التعلم . ولم ينكر انصار هذا الاتجاه ومنهم « دولارد وميللر » نموذج التحليل النفسي التقليدي الذي كان سائدا لفترة طويلة ، ولكنهم اعتمدوا في تفسير السلوك على مبدأ رئيسي وهو أن ما يحدث اثناء العلاج يجب أن يفسر على أساس من نظرية التعلم ، ويكون في ذات الوقت داخل اطار هذا النموذج ـ التقليدي . هذا رغم أوجه النقد التي توجه الى هذا الاتجاه ككل وهو ما سنشير اليه بعد ذلك .

وأهم ما يتضمنه هذا الاتجاه من مبادىء في تفسير الاضطرابات السلوكية نعرض له بايجاز في الجزء التالي :

لقد ظهرت المحاولات الأولى لدولارد وميللر في الاستفادة من مبادىء نظرية « هل » في التعلم في كتابهما « التعلم الاجتماعي والتقليد Social Learning and imitation (١٩٤١) . حيث كان هدفهما تكوين نموذج نظري في التعلم الاجتماعي يقوم اساسا على المبادىء والأسس التي وضعها « هل » في نظريته . وتعتبر هذه المحاولة بمثابة اختيار تجريبي بالفعل لتكوين هذا النموذج النظري . حيث قد تناولت كثيرا من الأسس التي يتم عليها بعد ذلك تفسير العديد من مظاهر السلوك السوي وغير السوي . ومن ذلك اعتبار أن التعلم أساسي بالنسبة للسلوك الانساني . وبدون عملية التعلم لا يستطيع الفرد أن يأخذ مكانه كعضو فعال ومؤثر في المجتمع الانساني . وكما أن اللغة سلوك متعلم ، فان السلوك السوي وغير السوي كذلك كلاهما يخضع لعملية تعلم . حتى توافق الاشخاص بعضهما الى البعض الآخر داخل الأسرة وخارجها في المجتمع المحيط ، وما به من مؤسسات اجتماعية أخرى ،

انما يحتاج لعملية تعلم ، ولذلك يتطلب تحليل السلوك الاجتماعي المعرفة الدقيقة بمبادىء التعلم والأسس التي يقوم عليها .

وكان من رأي « دولارد وميللر » أن ذلك ما يجعل فرع سيكولوجية التعلم ذا أهمية كبيرة بين فروع علم النفس . ولكن ذلك لا يتم بصورة جيدة الا في حالة مساعدة العلوم الاجتماعية الأخرى . لأن علماء التعلم في حاجة ماسة الى فهم الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع والتي في ضوئها يحدث التعلم الانساني بالنسبة لكثير من انماط السلوك الاجتماعي . والدليل على ذلك ما يلاحظ بوضوح في الاستجابات السلوكية التنافسية والعدوانية في المجتمع . حيث يوجد الصراع بين الأفراد من أجل التقدم الاجتماعي . ويمكن أن تكون هذه الاستجابات ذات أثر فعال ومعزز لسلوك الأفراد . كما يمكن أن تكون من ناحية أخرى مصدرا من مصادر العقاب ، ومن عوامل اضعاف السلوك . ويعتمد ذلك على طريقة ومستوى استجابة الأفراد الآخرين في المجتمع على درجة كبيرة من الأهمية في التنبؤ بدرجة فاعلية التعلم والحالة التي سيكون عليها . فهل ستكون هذه الانماط عاملا مساعدا في تكوين عادات سلوكية سوية مرغوبة ؟ أم سيترتب على وجودها عادات سلوكية غير مرغوبة تظهر في شكل بعض الاضطرابات النفسية ؟[٢٩] .

ويقوم اتجاه نظرية التعلم لدى « دولارد وميللر » في تفسير السلوك بوجه عام ، والاضطرابات السلوكية بوجه خاص على أربعة مبادىء أساسية هي الحافز ، والدلالة ، والاستجابة والمكافأة . ويفضل أن نفسرها بايجاز على النحو التالي : ـ

١ ـ الحافز : Drive

قد تكون الحوافز فطرية ، كما قد تكون مكتسبة والحوافز الأولية أو الفطرية Primary drives هي تلك المثيرات التي يبدو انها تكون الأساس الأولى لأغلب انماط سلوك الدافعية . ومن هذه الحوافز الشعور بالالم ، والعطش ، والجوع ، والجنس . وتكون هذه الحوافز واهنة غير متسلطة على السلوك الأنساني في التنظيمات الاجتماعية الحديثة . ولا تظهر في كامل قوتها وتأثيرها الا في ظروف خاصة مثل الحروب ، والثورات ، والمجاعات . وعلى العكس من ذلك تشكل الحوافز الثانوية أو المكتسبة Secondary drives الاطار الاجتماعي للأنسان المتمدين الذي يعتمد بدرجة كبيرة على حماية

29 — Miller, N. E., & Dollard, J. (1941) " Social Learning and imitation " New Haven : yale university Press.

المجتمع له ، وعلى تحقيق أكثر مطالبه الحياتية في اطار التقدم الاجتماعي والنفسي الذي وصل اليه المجتمع الحديث ، والحوافز المكتسبة يتم تعلمها على أساس من الارتباط بالحوافز الفطرية .

ومن المحتمل أن يكون الخوف أو القلق أقوى هذه الحوافز . ويستطيع أي مثير أن يكون له قوة الحافز وفاعليته في السلوك ، اذا كان هذا المثير على درجة كبيرة من الشدة تتيح له دفع الفرد الى العمل .

٢ ـ الدلالة : Cue

هي عبارة عن مثير يحقق وظيفة هامة ، وهي توجيه الاستجابات الصادرة عن الكائن الحي في المواقف السلوكية المختلفة ، مما يساعد على تحديد خواص الفعل . والمثيرات عادة يكون لها قيمة حافزية drive value تعتمد على شدة هذه المثيرات في الموقف السلوكي . كما يكون لها قيمة دلالية Cue value تحقق توجيه السلوك . وتعتمد هذه القيمة على الخاصية التميزية لهذه المثيرات . وكلما ازداد تمايز المثير ، ساعد ذلك على تكوين الاستجابات المتعددة . والمتنوعة التي ترتبط بهذا المثير . ولذلك ليس من الضروري أن تكون الاستجابة نتاج لمثير واحد فقط ، ولكن قد تكون نتيجة لنمط من المثيرات . وبالتالي قد يكون هذا النمط من المثيرات مكونا من عدة مثيرات حافزة ، واخرى لها وظيفة الدلالات Cues . مثال ذلك كما في حالة الفرد الجائع ، فانه يستجيب لسير حافز الجوع ، كما يستجيب الى الدلالات التي تظهر في البيئة المحيطة به ، كرائحة الطعام ، أو لعنوان المطعم ، أو الى أي دلالة أخرى ترتبط بمثير حافز الجوع . لذلك فان الدلالات لها خاصية على جانب كبير من الأهمية ، وهي أنها تحدد متى وأين يستجيب الفرد ، وما هي الاستجابات التي سيصدرها من حيث الشكل والمستوى . وهكذا فان المثير الحافز drive Stimulus ، والمثيرات والدلالات تعمل معا في نسق متواز في اصدار الاستجابة المناسبة .

٣ ـ الاستجابة : Response

والاستجابات هي كل ما يصدر عن الكائن الحي من أعمال ، أو افعال ، أو حركات أو انفعالات نتيجة لوجود مثير أو موضوع ، أو مجموعة مثيرات أو موضوعات يتعرض لها الكائن الحي في هذا الموقف ، وتحدد موضوعيا في هذا السلوك الصادر عنه . ويسهل تعلم أي نمط من الاستجابات اذا اعقبها مكافأة . حيث أن مكافأة الاستجابة من شأنه أن يقويها ويعززها ، ويجعل احتمال حدوثها في

المرات القادمة أكبر من احتمال عدم حدوثها . كما أن تعزيز الاستجابة يجعلها تحتل مكانة هامة نسبيا في « التنظيم الهرمي الأولي للاستجابات » ـ initial hierarchy of responses. ويختلف وضع الاستجابات في هذا التنظيم من حيث احتمال حدوثها ، ودرجة فاعليتها . فالاستجابة المعززة تكون الأكثر فاعلية وسيادة في هذا التنظيم . وقد يغير التعلم من نظام وضع الاستجابات في التنظيم . حيث يشار الى الاستجابات التي تتكون نتيجة الاكتساب والتعلم « بالتنظيم الهرمي المكتسب resultant hierarchy، في حين يشار الى الاستجابات التي تتكون غالبا نتيجة العوامل الوراثية ، وليست نتيجة الخبرة والتعلم « بالتنظيم الهرمي الفطري » innate hierarchy.

٤ ـ المكافأة : Reward

ولها أثر كبير في عملية التعلم . حيث أن الاستجابات التي تكافأ تكون أكثر احتمالا في الظهور في المواقف التالية المشابهة للموقف الذي تمت فيه المكافأة ، من الاستجابات التي لا تكافأ . وبالتالي تحقق المكافأة عملية التعزيز Reinforcement بالنسبة للاستجابات المطلوب تعلمها . ويعتبر « دولارد وميللر » ان احتمال تكرار الاستجابات ، أو احتمال أن تغير من نظامها في التنظيم الهرمي للاستجابات ، انما يعتمد على ما اذا كانت الاستجابة معززة أم لا . فاذا لم تكافأ الاستجابة فان شدة الحافز لدى الفرد من شأنها أن تخفض . وتبعا لذلك يزداد ميل الفرد الى تكرار نفس الاستجابة الى نفس المثيرات . وهكذا يؤدي تعزيز الاستجابات الى خفض الحافز ، وبالتالي خفض درجة التوتر الناشيء عن الحافز مما يساعد على التعلم[٣٠] .

وبعد هذا العرض السريع للمبادىء الأربعة الأساسية التي يقوم عليها التعلم في نظر دولارد وميللر ، تعرض لاتجاه العلاج الذي يقترحانه في ضوء هذه المبادىء على النحو التالي : ـ

يعتبر دولارد وميللر أن أسلوب العلاج الذي يقوم على نظرية التعلم يعتمد أساسا على عمليتين من أكثر العمليات النفسية أهمية في مجال تعلم العادات السوية ، وكف العادات السلوكية غير المرغوبة ، وكذلك محو تعلم unlearning بعض الاضطرابات السلوكية مثل الخوف والقلق . والعمليتان هما التعميم والتمييز .

ومن المفضل أن نشير الى كل منها بكلمة صغيرة قبل أن نتبين دورهما في تكوين أسلوب العلاج الذي تبناه دولارد وميللر .

30 — I bid.

أولا : التعميم : Generalization

ويعني أنه حينما يتم اشتراط الاستجابة الى مثير معين ، فان المثيرات الأخرى المشابهة للمثير الأصلي ، يصبح لها القدرة على استدعاء نفس الاستجابة .

مثال ذلك في حالة تعلم الطفل من بعض الحيوانات ، فان استجابة الخوف تظهر لديه حينما يشاهد الحيوانات الاخرى المشابهة ، خاصة في السنوات الاولى من العمر لعدم قدرته على التمييز بين المثيرات التي تظهر في الموقف السلوكي ، ويرجع ذلك الى أن المثيرات الجديدة الأكثر تشابها ، والأقرب الى المثير الأصلي ، يصبح لديها القدرة بدرجة أكبر من غيرها على استدعاء الاستجابة الشرطية . وبالتالي تعتبر عملية التعميم من الأسس الهامة في تفسير السلوك حينما يعيد الفرد في المواقف الجديدة تكرار بعض الاستجابات التي حدثت في المواقف السابقة بنفس الأسلوب . ويحدث ذلك بمقدار ما هناك من أوجه التشابه بين هذه المواقف الجديدة والمواقف السابقة . وكلما كان التشابه بين المواقف الجديدة ، والمواقف السابقة كبيرا ، كان احتمال حدوث التعميم أكبر .

ثانيا : التمييز : Discrimination

ويعتبر عملية مكملة لعملية التعميم . فبينما التعميم يعتبر استجابة الى التشابهات ، بمعنى أن الكائن الحي يستجيب الى كل المثيرات التي تشبه المثير الأصلي ، فان التمييز يعتبر استجابة الى المختلفات . أي أن الكائن الحي يستطيع في هذه العملية أن يميز بين المثيرات الموجودة في الموقف ولا يستجيب الا للمثير المعزز . وهكذا لا تبقى الا الإستجابة المعززة ، بينما تنطفيء الاستجابات الأخرى لعدم تعزيزها .

ويعتبر التمييز عملية متقدمة بالنسبة الى التعميم . حيث أن الطفل لا يستطيع أن يقوم بعملية التمييز الا بعد مرحلة متقدمة من النمو . ولذلك فانه في المراحل المبكرة من العمر يعمم استجابة الخوف الى كل المثيرات المشابهة للمثير الأصلي الذي تسبب في تكوين هذه الاستجابة . بينما في المراحل التالية يستطيع أن يميز بين المثيرات التي توجد في الموقف السلوكي .

وهكذا بعد أن كان الطفل يخاف من جميع الحيوانات التي تشبه الحيوان الذي كون نحوه استجابة الخوف ، فانه يبدأ بعد ذلك في إصدار استجابات الخوف الى نفس الحيوان فقط ، وليس الى جميع

الحيوانات المشابهة . وتصبح عملية التمييز أكثر تخصصا كلما تقدم في النمو ، مما يؤدي الى ظهور عملية أخرى هي عملية التمايز بين الاستجابات[٣١] .

وقد تناول « دولارد وميللر » (١٩٥٠) عمليتي التعميم والتمييز ، والمبادىء الأساسية للتعلم السابق الأشارة اليها في كيفية ظهور وعلاج بعض الاضطرابات السلوكية كالعصاب والخوف مثلا .

وتبدو مظاهر هذه الأساليب السلوكية غير السوية من خلال عمليتي الصراع **Conflict** والكبت **Repression**. ولما كان الصراع الانفعالي الحاد يعتبر أساسا لكثير من الاضطرابات السلوكية ، فقد تناول دولارد وميللر الصراع اللاشعوري الذي يؤدي الكبت دورا رئيسيا في تكوينه .

وينشأ الصراع في رأي اصحاب النظرية نتيجة عملية اكتساب وتعلم خاطىء لأساليب التوافق مع البيئة . ويتم اكتساب وتعلم هذا النمط من السلوك خلال مرحلة الطفولة المبكرة ، حيث تساهم الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الطفل ، وما يرتبط بها من عوامل ثقافية معينه في تكوين الصراع . ويكتسب الطفل الصراع من الأشخاص المحيطين به . وخاصة الوالدين . فممارسة الوالدين لأساليب التربية الخاطئة في معاملة وتربية الطفل قد ينشأ عنها ذلك الصراع . ويتكون الصراع لدى الطفل نتيجة التعارض بين استجابات اشباع الدوافع (الحوافز) البيولوجية ، وخاصة دوافع الجوع وضبط الاخراج وضبط الجنس وبين الاستجابة لمثيرات البيئة ، وما فيها من قيم أو عوامل ثقافية معينة تحول دون اشباع مثل هذه الدوافع ، مما قد يؤدي الى بعض مشاعر الخوف والغضب والشعور بالذنب . ولكي يتجنب الطفل هذا الصراع الناشىء عن التعارض بين هذه الاستجابات ، فانه يلجأ الى الكبت علاجا لهذا الموقف . ويعتبر اتجاه الوالدين من اشباع الطفل لدوافعه الأولية من الأسباب الرئيسية التي قد تؤدي الى تكوين الصراع . فقد يترتب على عقاب الوالدين لطفلهما للعبث باعضائه التناسلية ، ان يصبح الدافع الجنسي مثيرا للخوف ، مما يجعل الطفل يقع في حالة صراع بين شدة الدافع من ناحية ، والخوف من اشباعه من ناحية اخرى ، مما قد يؤدي الى حالة الصراع ، والتي تسمى في مثل هذا الموقف بصراع الاقدام والاحجام **Approach - avoidance**.

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فطبقا لعملية التعميم السابق الاشارة اليها ، قد تعمم استجابة الخوف على الأب على اساس انه اقترن بعملية للعقاب . والأكثر من ذلك قد يشمل التعميم المكان

31 — Olson, R.D. & smith, R.K. (1971) "Learning in the classroom theory and Application". Publishing Corporation.

الذي تم فيه العقاب ، وكذلك وسيلة العقاب وغيرذلك من المثيرات المشابهة للمثير الأصلي الذي كون استجابة الخوف ، والتي اقترنت بظروف العقاب (٣٢) .

وهكذا غالبا ما يؤدي التلازم بين الصراع والكبت الى ظهور الاعراض العصابية neurotic symptoms التي تخضع في تكوينها لعملية التعلم ، وتبدو أهم مظاهرها في سوء تكيف الفرد مع نفسه ، ومع الآخرين ، والمعاناة الشديدة من الصراع والتهديد والشعور بالتعاسة .

مثال آخر يوضح كيف تؤدي هذه العمليات النفسية دورا هاما في كثير من الاضطرابات ـ السلوكية . والمثال هذه المرة لشاب يعاني من ظاهرة الاعتماد العصابي neurotic dependence حيث انه يمارس سلوك الاعتماد الزائد على امه في كثيرمن امور حياته . مما يجعل هذا النمط من السلوك يوصف بعدم التوافق . ذلك لان صاحبه لا يتمكن من ممارسة امور حياته العادية مستقلا عن امه . فلا يستطيع ان يتخذ قرارا في اختيار مجال العمل الذي يفضله ، أو ممارسة نواحي النشاط الذي يميل اليه ، كما لا يستطيع اختيار شريكة حياته . ويفسر دولارد وميللر اسباب هذه الحالة في ضوء الصراع الذي يعاني منه هذا الشاب ، والذي ينشأ عن الشعور بالعداء والكراهية للأم ، الشعور بالذنب في نفس الوقت . وعندما لا تجد هذه المشاعر متنفسا لها ، فانها تتحول الى حالة كبت وانكار . يتبع ذلك ظهور بعض اعراض الخوف والقلق التي قد يلازمها احيانا بعض اعراض الامراض السيكوسوماتية psychosomatic illnesses (٣٣) ومن شأن هذه الاعراض جيعها ان تزيد من اعتماد الشاب على امه ، وتجعله يحجم عن اتخاذ قراراته .

ويكون علاج هذه الحالة في رأي دولارد وميللر في محاولة حل الصراع الكامن لدى الشاب ، ومحو التعلم unlearning بالنسبة لاستجابات الكبت اللاشعورية التي يمارسها لمواجهة اعراض الصراع ، واستبدال هذه الاستجابات باخرى مدركة ومميزة . ولما كان الشاب لا يدرك ان مشاعر الكبت لديه هي التي ادت الى الخوف وتسببت في حالة الصراع ، فانه يجب خلال جلسات العلاج ان تتاح له فرصة التعبير عن هذه المشاعر ، وذلك بمناقشة اتجاهاته نحو امه حتى يصبح قادرا عن الافصاح عما تتضمنه هذه الاتجاهات من جوانب سلبية . وعندما يكتشف الشاب ان الحديث بحرية عن هذه

---

32 — Dollard, J. & Miller, N. E. C (1950) "Personality and Psychotherapy" Mc Graw—Hill, New york.

(٣٣) حالات مرضية جسمية المظهر ، نفسية المنشأ ، مثل بعض حالات قرحة المعدة والربو الشعبي ، وضغط الدم العالي ، والتهاب المفاصل ، وبعض أمراض القلب .

المشاعر السالبة لا يقابل بالعقاب من المعالج ، فان الاحساس بالذنب ، ومظاهر القلق المرتبطة بمشاعر العداء والكراهية نحو امه تأخذ تدريجيا في الانطفاء ، ثم ينتقل الانطفاء الى المشاعر السالبة الأخرى من خلال عملية التصميم (٣٤) .

وهكذا يتم علاج مثل هذه الحالات اذا اصبح الشخص مدركا ومميزا للمثيرات المسببة لسلوكه ، والمكونة لاستجاباته ، واعيا بالأسباب والعوامل التي ادت الى استجاباته الانفعالية غير السوية . وحينئذ يكون سلوكه مضبوطا ، ومتسقا مع الواقع .

ويلاحظ من العرض السابق لاتجاه نظرية التعلم الذي أخذ به دولارد وميللر في تفسير الشخصية ، وما قد تتضمنه من بعض الاضطرابات السلوكية ، ان هذا الاتجاه يتميز بالدقة العلمية بدرجة اكبر مما سبقه من الاتجاهات أو المحاولات . وكان من ابرز مميزات هذا الاتجاه انه اعتمد في هذه المحاولة على القوانين المعملية ، مستندا في ذلك على القواعد والمبادىء التي تحكم عملية التعلم . ولكن ما يؤخذ على هذا الاتجاه ان اسلوب تناول الظاهرة النفسية وما يعتمد عليه من قوانين أو اسس اكتساب السلوك كان في اطار نظرية التحليل النفسي وما تشتمل عليه من وجهات نظر في تفسير السلوك .

اسلوب تعديل السلوك والأسس التي يقوم عليها

يقصد بتعديل السلوك Behavior Modification ببساطة التطبيق الفعلي لمبادىء السلوك على مشكلات السلوك . تلك المبادىء والأسس التي توصل اليها علم النفس تجريبيا . واغلب هذه المبادىء هي نتاج الدراسات والابحاث العديدة والمتنوعة التي أجريت في مجالي التعلم والدافعية ، على الرغم من ان اسلوب تعديل السلوك لا ينحصر فقط في هذين المجالين ، بل يمتد الى مجالات اخرى من علم النفس .

لذلك عندما يستخدم اسلوب تعديل السلوك في مجال علم النفس العيادي Clinical psychology مثلا ، يشار اليه بالعلاج السلوكي Behavior therapy او بالعلاج الاشتراطي Conditioning therapy واحيانا اخرى يطلق على تعديل السلوك ، الاشتراط الاجرائي التطبيقي Applied Operant Conditioning الذي هو في الحقيقة جزء من تعديل السلوك كما قد يشار اليه بالتحليل التجريبي للسلوك Experimental analysis behavior .

34 — Ibid.

وحتى سنوات قليلة مضت غالبًا ما كان بعض الكتاب يستخدمون مصطلح تعديل السلوك للاشارة الى اي نوع من الممارسة من شأنه ان يغير من السلوك الانساني . ولكن ذلك كان يجانب الصواب ، حيث ان تعديل السلوك على وجه الدقة لا يعني مطلقا أنه عمل من اعمال غسيل المخ Brain Washing أو ضبط التفكير . كما ان الباحثين المختصين بتعديل السلوك لا يستخدمون اي نوع من انواع الجراحة ، كما انهم لا يلجأون الى ما يسمى بالعلاج بواسطة الصدمات الكهربائية electroshock therapy ونادرا ما يستخدمون بعض العقاقير كوسائل معينه بصفة مؤقتة للمساعدة في تغيير بعض الاجراءات السلوكية .

وانما تعديل السلوك يقوم اساسا على مبادىء التعلم ، وما نفقه من تكوين المهارات وأساليب السلوك الجديدة ، واختزال وكف الاستجابات والعادات السلوكية غير المرغوبة . كما ان الأشخاص الذين يخضعون لأسلوب تعديل السلوك غالبا ما يصبحون أقوى دافعية لتقبل التغيرات الجديدة المرغوبة .

ويقوم تعديل السلوك اساسا على التجريب . حيث ان الاساس الذي يعتمد عليه المشتغلون بعلم النفس هو ان هذا العلم يقوم على مجموعة من القوانين تفسر العوامل النفسية التي تؤثر على سلوك الشخص . مما يجعل احداث أي تغيير في سلوك شخص ما ، بغض النظر عن تسمية اسلوب التغيير ، سواء كان تعديلا أو تحليلا للسلوك ، او ارشادا غير مباشر nondirective counseling ، من الضروري ان يتم اساسا على خصائص هذه القوانين . هذا بالاضافة الى ان اجراءات التعديل في السلوك التي يتناولها هذا التغيير يجب ان تستخدم هذه القوانين حتى تكون هذه الاجراءات اكثر فاعلية في تحقيق الهدف المطلوب .

ويعتبر الباحثون في مجال علم النفس التجريبي ان المعلومات التي تم الوصول اليها من الدراسات التي اجريت حتى الآن بمثابة ركيزة أساسية لممارسة اسلوب تعديل السلوك بالنسبة لكثير من المشكلات السابق الاشارة اليها في مقدمة هذه الدراسة . ومع تزايد الوصول الى قوانين ومبادىء جديدة تفسر السلوك الانساني ، ينمو ويتطور اسلوب تعديل السلوك [٣٥] .

المدرسة السلوكية وأسلوب تعديل السلوك :

واتجاه المدرسة السلوكية الذي يعتمد عليه اسلوب تعديل السلوك يختلف بدرجة كبيرة عن المنحمي

35 — Ibid.

الذي اشار اليه سكينر وبعض انصار هذه المدرسة . فهو اتجاه لا يسعى الى محاولة اخضاع كل اساليب السلوك الانساني الى بعض الانعكاسات البسيطة ، أو محاولة تفسير هذه الأساليب على اساس بعض الارتباطات التي تنشأ بين المثير والاستجابة ، ولكنه اتجاه ينظر الى السلوك الانساني على انه سلوك معقد بدرجة كبيرة ومحاولة فهمه وتفسيره لابد وان يكون في اطار العلاقات المتبادلة والمتشابكة بين مكونات كل نمط من انماط السلوك المختلفة . ومحاولة تفسير السلوك في اطار مكوناته لا يعني تفتيت السلوك الى اجزاء ، ولا ينتقص من فهم الانسان ككل . بل ان ذلك يسهل على المهتمين بتعديل السلوك وضع برامج فعالة لتغيير نماذج السلوك غير المرغوبة . حيث ان اسلوب تعديل السلوك لا ينظر الى مكونات السلوك في اطار العلاقة بين استجابات محددة ارتبطت بمثيرات محددة ، ولكنه ينظر الى هذه المكونات على انها نماذج من السلوك تم تعلمها في اطار مواقف معينة .

وبالتركيز على السلوك ذاته الصادر عن الشخص ، والقابل للملاحظة والقياس ، يؤدي اسلوب تعديل السلوك دورا هاما في تقديم معلومات في شكل اساليب عملية مما يجب ان يحدث في المواقف السلوكية الحقيقية . مثال ذلك : ماذا يجب ان يفعل ممارس أسلوب تعديل السلوك حينما يأتي اليه احد العملاء يشكو من الضعف الجنسي الذي يسبب له شعورا بالاحباط ؟ . والمدرس الجديد ربما يكون لديه معلومات وافرة حديثة عن اساليب التدريس وتفريد التعليم ، ولكن ماذا يفعل بالضبط حينما يواجه الفصل الدراسي لأول مرة كمسئول عن مجموعة من التلاميذ مختلفين في الميول والقدرات ، متباينين في بعض النواحي مثل الحالة التعليمية ، أو الاجتماعية ، أو الاسرية وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات السلوكية الأخرى والتي سبق الاشارة اليها في مقدمة هذه الدراسة .

وفي كثير من الأحيان يعتبر فهم الشخص للمشكلة ، او معرفته لماذا يتصرف على وجه معين في موقف معين بمثابة مساعدة له على التعامل مع عناصر هذه المشكلة . وقد يكون لدي الشخص المهارة والخبرة الكافية لكي يتغلب على المشكلة التي تواجهه بمجرد فهمه لها . ولكن عادة لا يكون ذلك كافيا في مواقف اخرى . كما قد لا يكون ذلك متوفرا لدي كثير من الأشخاص . لذلك لا يعتمد تعديل السلوك على فهم ، أو استبصار ، أو على امكانية تفسير السلوك على اساس نموذج نظري معين لتحقيق التغيير . فقد يكون الأشخاص في حاجة ماسة الى تعلم انماط سلوك بديلة ، أو اكتساب مهارات معينة لا يكون قدر استطاعتهم ممارستها قبل مقابلة ممارس تعديل السلوك .

ولا يعني ذلك ان اسلوب تعديل السلوك لا يتضمن كلا عمليتي الفهم والاستبصار ، ولكن ذلك وحده لا يكفي لتحقيق الأهداف التي يسعى اليها تعديل السلوك . بل ان العميل غالبا ما يشجع اثناء

ممارسة تعديل السلوك على ملاحظة وفهم دوافع واتجاهات سلوكه . وهذا النمط من الادراك ، أو تعلم التمييز Descrimination Learning غالبا ما يكون ضروريا بدرجة كبيرة خلال عملية التقويم الشامل لسلوك الشخص . وقد يكون ذلك بمثابة الخطوة الأولى في مساعدة الشخص لكي ينمي عملية ضبط الذات Self - Control . بالنسبة لبعض انماط سلوكه غير المرغوبة .

والعمل في مجال مشكلات السلوك غالبا ما يتطلب الاستعانة بمساعدات مختلفة من مصادر متنوعة ، قد تكون من المجالات الأخرى غير مجال علم النفس . ففي بعض الحالات مثلا قد يتطلب الأمر المساعدة من مجال التربية لتصحيح بعض المفاهيم او الافكار الخاطئة لدي الشخص ، او مساعدة طبية . وقد يحتاج العميل الى الشجاعة كمواجهة موقف معين ، او قد يكون في حاجة الى تدريب مهني معين ليرفع من مستوى ادائه في العمل . ولكن علاوة على ذلك كله ، وغيره من المساعدات الأخرى ، فان برنامج تعديل السلوك يكون له اسلوب عملي واضح ومحدد فيما يفعله العميل ازاء مشكلة معينة ، وما يتطلبه حلها من اختزال ممارسة بعض اساليب السلوك ، أو تعلم انماط سلوك جديدة (٣٦) .

مجالات اهتمام اسلوب تعديل السلوك :

من المسلمات الأساسية لدي المشتغلين بالعلوم السلوكية ان السلوك الانساني يتأثر بكثير من المتغيرات مثل المتغيرات الوراثية ، والاضطرابات الفسيولوجية ، والتغذية . وغيرها من المتغيرات الأخرى المتعددة . وعلاج المشكلات الناتجة عن بعض هذه المتغيرات قد يتضمن تغيير نظام التغذية ، او ازالة بعض الآثار الجسمية او الفسيولوجية أو العصبية المترتبة على وجود هذه المشكلات .

اما عن المشكلات الناشئة عن عوامل فسيولوجية مثل بعض اشكال الفصام ، Schizophrenia ، اضطراب استجابات الجهاز العصبي ، عدم الاتزان البيوكيمائي في المخ ، والتخلف العقلي Mental retardation فقد تبين بوجه عام انه من الصعب علاج هذه المشكلات بشكل مباشر في الوقت الحاضر . كما ان هذه المشكلات في ذاتها تعتبر من عوامل اعاقة تحقيق الهدف من اسلوب تعديل السلوك الى حد ما (٣٧)

36 — Mikulas, William L. (1978) " Behavior Modification " Harperand Row, Publishers, New york.

37 — Mikulas, William L. (1974) " Concepts in Learning " W. B. Saunders, Philadelphia.

ورغم ان اسلوب تعديل السلوك ربما لا يستطيع ان يزيل آثار التخلف العقلي مثلا ، الا انه يستطيع مساعدة الأشخاص المتخلفين عقليا على تحقيق اكبر قدر ممكن من التكيف مع واقعهم . وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات التي كان ينظر الى علاجها في وقت مضى على انه يعتمد على الأساليب الطبية الخالصة ، فقد تغير النظر اليها الآن على اساس اعتماد العلاج على قدر كبير من التزاوج والمشاركة بين الأسلوب الطبي واسلوب تعديل السلوك (٣٨)

اما بالنسبة للمتغيرات النفسية والاجتماعية التي يتأثر بها السلوك الانساني ، فانه بالنظر الى المشكلات السابق الاشارة اليها في مقدمة هذه الدراسة ، يمكن التوصل الى ان المتغيرات الرئيسية المسئولة عن اغلب هذه المشكلات هي متغيرات مرتبطة ارتباطا وثيقا بمجالي التعلم والدافعية . وقداشار بعض الباحثين امثال « دولارد وميللر » Dollard & Miller (١٩٥٠) ، « فرنش » French (١٩٣٣) ، « كمبل » Kemble (١٩٦١) ، « كراسنر » Krasner (١٩٦٢) ، « شوبن » Shoben (١٩٤٩) الى ان كثيرا مما يدور في الأساليب المختلفة للعلاج والارشاد النفسي يمكن ان تفسر على اساس مبادىء التعلم (٣٩) . مما يؤكد على اهمية نظرية التعلم بوجه عام بالنسبة لأسلوب تعديل السلوك .

وفي بعض الأحيان تتضمن المشكلات السلوكية نماذج من اساليب السلوك المتعلمة في وقت ما ، او في مواقف معينة . ولكن هذه النماذج من السلوك تصبح غير مرغوبة في وقت آخر ، أو في مواقف اخرى غير تلك التي تم فيها تعلم هذه الأساليب . وهكذا بالنسبة لكثير من المشكلات وآثارها لا تلاحظ الا في مراحل متأخرة . وذلك مثل ممارسة بعض المراهقين التدخين لتحقيق بعض الأدوار الاجتماعية المعينة . ولكن بعد عدة سنوات يكتشف هؤلاء الأشخاص انهم قد تعلموا عادة التدخين المعقدة ، والتي يصعب كفها ، او اختزال ممارستها الا بعد فترة زمنية ليست بقصيرة ، وربما لا يتم تعديل هذا النمط من السلوك غير المرغوب .

ومن جهة اخرى ، قد توجد مشكلات من نوع آخر ، تتضمن ممارسة بعض انماط من السلوك لم يتم تعلمها . ويرغب الأشخاص في تعلمها مثل :

38 — Knapp, T. J. and Peterson, L. W. (1976) " Behavior management in medical and nursing Practice ". In W. E. Craighead, A. E. Kazdin, and M. J. Mahoney (eds.) Behavior Modification : Principles, issues, and applications. Houghton Mifflin.

39 — Ibid.

ما هي افضل اساليب الاستذكار

كيف يمكن ان نحقق اختزال القلق والتوتر ؟

كيف يمكن ان يكون الشخص اكثر حزما في مواقف معينة ؟

تلك المشكلات ، وغيرها من المشكلات المتشابهة التي اشرنا اليها في مقدمة هذه الدراسة هي محور اهتمام وامكانية اسلوب تعديل السلوك الذي يهدف اساسا الى مساعدة الأشخاص على اختزال انماط السلوك المتعلمة غير الموغوبة والتخفيف من آثارها ، وتعلم انماط سلوك جديدة مرغوبة .

كل ذلك يؤكد على اهمية اسلوب تعديل السلوك في علاج كثير من المشكلات السلوكية على اساس اتجاه التعلم ـ الدافعية . هذا رغم ان المهتمين باسلوب تعديل السلوك يدركون تماما ان علم النفس يزخر بكثير من نظريات الشخصية والأساليب الكلينيكية التي تعبر بمثابة بدائل لأسلوب تعديل السلوك في تفسير كثير من المشكلات موضع اهتمام علم النفس ذلك لان نموذج التعلم الدافعية الذي يقوم عليه اسلوب تعديل السلوك يحقق كثيرا من المزايا . منها ان مكونات هـذا الاتجاه تعتبـر محدده تحديدا واضحا ، مع اقل درجة من تداخل المعنى وكثرة الارتباطات ، وذلك بالنسبة لغيره من الاتجاهات الأخرى في علم النفس . كما ان هذا الاتجاه ـ اكثر من أي اتجاه آخر ـ يستند على العلاقات المركبة للمكونات المتعددة التي يتضمنها ، مما يحقق فهم وعلاج كثير من المشكلات الانسانية ذات الأبعـاد السلوكية المتعددة .

الخصائص الرئيسية التي يتميز بها اسلوب تعديل السلوك :

مما سبق نوجز الخصائص التي يتميز بها اسلوب تعديل السلوك وتجعله في وضع يختلف عما سبق من اتجاهات او محاولات في تفسير وعلاج الاضطرابات السلوكية في النواحي التالية :ـ

١ ـ ان تعديل السلوك اسلوب « لا تاريخي » ahistorical بمعنى انه لا يهتم بالدرجة الأولى بتاريخ حياة الشخص صاحب المشكلة ، ولا بخبرات الطفولة التي مر بها ، او متى اكتسب الاضطرابات السلوكي الذي يعاني منه . بل انه يهتم بدرجة كبيرة بالاعراض الحالية ، وما يلاحظ من سلوك على

الفرد . كما ان اهتماماته تنحصر بدرجة اكبر في تحديد نماذج السلوك الخاطىء الذي يمارسه الفرد حاليا ، وماذا يمكن ان يقدم ممارس تعديل السلوك في هذا الموقف في ضوء ما يلاحظ من سلوك .

وليس معنى ذلك ان اسلوب تعديل السلوك لا يعطي اي اعتبار للمعلومات التاريخية عن حياة الفرد . فقد تكون هذه المعلومات في كثير من المواقف ضرورية ومطلوبة ولكن ما يجب ان يؤخذ في الاعتبار ، ان هذه المعلومات التاريخية تستخدم كعامل مساعد في تحديد المتغيرات الحالية المؤثرة على سلوك الفرد . وقد لا تكون هذه المعلومات مطلوبة في مواقف معينة ، مما يجعلها ليست موضع اعتبار بالنسبة للممارس .

٢ـ يتجنب اسلوب تعديل السلوك تصنيف الأفراد الى فئات معينة ، او وضعهم تحت عناوين مميزة ، كما يتحاشى استخدام المفاهيم والمصطلحات الغامضة غير المحددة مثل « غير سوي » abnormal « ومنحرف » daviant او « مريض عقليا » memtally ill . لان هذه الصفات التي تطلق على الأشخاص لا تفيد كثيرا في التحليل الوظيفي للسلوك موضع اهتمام هذا الأسلوب ، الذي يعتبر ان السلوك ـ بعض النظر عن كيفية تصنيفه الى سوي وغير سوي ، ! او غير ذلك من التصنيفات ـ يخضع لعملية الاكتساب ، وذلك بدون اعتبار الى شكل هذا السلوك سواء كان مقبولا او غير مقبول بالنسبة لطبقة من الناس ، او لحضارة معينة . فتلك اعتبارات ثقافية ، لا وزن لها بالنسبة للاجراءات التي تتبع مع الأشخاص .

٣ ـ يعتمد اسلوب تعديل السلوك على الادراك والوعي والاقتناع باجراءاته ، سواء من جانب الأفراد أصحاب المشكلات السلوكية ، أو المدرسين ، أو الآباء ، أو غيرهم . حيث أن ذلك يحقق نتائج أفضل لهؤلاء الأفراد ، كما أنه يزيد من حماسهم ودافعيتهم للتعاون في حل المشكلات .

٤ ـ ومن أهم خصائص هذا الاسلوب أنه لايحتاج الى علاقة مباشرة وجها لوجه بين ممارس تعديل السلوك الذي يخطط ويشرف على تنفيذ البرنامج ، والعميل . ولذلك يستطيع أخصائي تعديل السلوك وتدريب المدرسين أو غيرهم من العاملين في مجالات الرعاية الاجتماعية والنفسية على القيام بتنفيذ البرامج التي تطبق على التلاميذ ، أو على غيرهم من الأفراد . كما يمكن تدريب الآباء على تنفيذ برامج تعديل السلوك على الأطفال (٤٠) . وقد تبين فاعلية هذه البرامج ، خاصة اذا كان الآباء أو المدرسون

40—Berkowitz, B. D. & Graziano, A. M. (1972) " Training Parents as behavior therapists : Areview " Behavior Research and Therapy, 10, 297 — 317 .

لايدركون في كثير من الأحيان مسؤوليتهم عن نماذج السلوك الخاطىء الذين يرغبون في تغييره [٤١] . لذلك أمكن اعداد بعض الكتيبات التي تحتوي على برامج خاصة لتدريب الأفراد على تنفيذ خطط تعديل السلوك ، وخاصة للمدرسين ، الاخصائيين العاملين في بعض مجالات الرعاية الاجتماعية . حيث تحقق هذه البرامج الخاصة عدة أهداف أهمها امكان تفرغ الممارس المتخصص في تعديل السلوك لتناول المشكلات الخاصة التي تحتاج الى تدريب عال وخبرة متعمقة ، ومواجهة مباشرة مع العميل . كما أن هذه البرامج توفر اعدادا لابأس بها من الفنيين المتدربين العاملين في المؤسسات الاجتماعية على تنفيذ برامج تعديل السلوك [٤٢] .

٥ ـ يعتمد تعديل السلوك بدرجة كبيرة على أساليب ضبط الذات Self — Control التي تحقق تعليم الأشخاص كيفية القيام بتنفيذ برامج التغيير على أنفسهم ، مما يساعد على تحقيق فاعلية برامج تعديل السلوك ، وخاصة عندما يدرك الأشخاص أنهم هم المعنيون بتغيير السلوك ، وأنهم المستفيدون من هذا التغيير .

واكتساب أساليب ضبط الذات تتطلب تعليم الأفراد بعض القواعد العامة التي يمكن تطبيقها في عدة مواقف سلوكية من تحديد نوعية ومستوى المشكلات مبكرا ، أو أنها تساعد الأفراد على تجنب الوقوع في هذه المشكلات . وبذلك يمكن تحقيق هدفين رئيسيين بتنفيذ هذه البرامج الأول وقائي ، والآخر علاجي . كما يمكن تعليم الأفراد مهارات تطبيق هذه القواعد والأسس من خلال عدة وسائل يشرف عليها ممارس تعديل السلوك مثل البرامج الخاصة ، والكتيبات ، والبرامج التلفزيونية أو خلال عملية الارشاد النفسي [٤٣] .

وقد أمكن بالفعل بواسطة الباحثين في هذا المجال تنفيذ بعض برامج ضبط الذات في علاج بعض المشكلات ، مثل تحسين عادات الاستذكار والدراسة [٤٤] ، وانقاص الوزن ، وضبط عملية القذف

---

41 — O'Dell,s. (1974) "Training Parents in Behavior Modification: A Review" Psychological Bullctin, 81, 418 — 433.

42 — Loeber, R. & Weisman, R. G. (1975) "Contingencies of therapist and trainer performance : Areview". Psychological Bulletin, 82, 660 — 688.

43 — Mikulas, W. L. (1976) " Atelevised self—control clinic " Behavior Therapy, 7, 564 — 566 .

44 — Beneke, W. M. & Harris, M. B. (1972) " Teaching Self — control of Study behavior " Behaviour Research and Therapy, 10, 35 — 41 .

لدى الذكور أثناء ممارسة الجنس (٤٥) . وقد كشفت نتائج الدراسات التي تناولت تنفيذ هذه البرامج عن فاعليتها في علاج هذه الشكلات .

المبادىء والعمليات الأساسية التي يقوم عليها اسلوب تعديل السلوك :

يعتبر اسلوب تعديل السلوك في ضوء ما سبق من خصائص يتميز بها دون سابق الأساليب والاتجاهات الاخرى ، بمثابة اطار شبه متكامل ضمن ما توصل اليه علم النفس الحديث من طرق وأساليب يتناول بها تفسير وعلاج اضطرابات الشخصية والتي تظهر في كثير من أساليب السلوك .

وسنحاول في هذا الجزء عرض أهم المبادىء والعمليات النفسية التي يستند اليها هذا الاسلوب في تحديد اجراءاته ، حيث لا يتسع المجال لعرض كل جوانب هذا الاسلوب .

أولا : الاشتراط الاستجابي : Respodnent Conditioning

لقد رأينا فيما سبق عن الحديث عن المحاولات الأولى لعلاج اضطرابات السلوك في اطار التعلم انه بظهور المدرسة السلوكية بدأ كثير من الباحثين من أنصار هذه المدرسة يوجهون اهتمامهم الى دراسة العلاقة بين عملية الاشتراط الاستجابي واكتساب وتعديل بعض أنماط اضطرابات السلوك . وكانت دراسات « واطسون وراينر » Watson & Rayner (١٩٢٠) ، وما بعدها من دراسات ، أهمها على وجه الخصوص دراسات « ماورر وماورر » Mowrer & Mowrer (١٩٣٨) ، ودراسات « دولارد وميللر » Dallard & Miller (١٩٥٠) بمثابة نقاط الارتكاز الأساسية التي أقيم عليها كثير من التجارب والدراسات التي استخدمت عملية الاشتراط في تفسير كثير من أساليب السلوك ، وتعديل بعض الأساليب السلوكية الخاطئة التي أخذت شكل العادات السلوكية غير المرغوبة .

وقد أدت الدراسات والأبحاث التجريبية التي أجريت في مجال الاشتراط سواء على السلوك الحيواني أو على السلوك الانساني الى وجود ذخيرة كبيرة من المعلومات والمبادىء والقوانين التي دعمت نظرية التعلم الشرطي . ومن ذلك الطرق التي يتم بواسطتها تكوين الاستجابة الشرطية ، والتي تؤثر كل منها بدرجة معينة على نمط وقوة الاشتراط .

---

45 — Low, J. C. & Mikulas, W. L. (1975). " Use of Written material in learning self—Control of premature ejaculation " Psychological Reports, 37, 295 — 298 .

وتعتبر العلاقة الزمنية بين تقديم أو ظهور المثير الشرطي (م ش) ، وتقديم أو ظهور المثير غير الشرطي (م ط) هي العامل الرئيسي المؤثر على قوة الاقتران ، تكوين الاستجابة الشرطية ، والعامل المشترك بين هذه الطرق جميعا .

وقد استفاد اسلوب تعديل السلوك من طرق تكوين الاستجابة الشرطية في تفسير كثير من مظاهر السلوك . وتشكل هذه الطرق أربعة نماذج رئيسية هي : -

١ ـ الاشتراط المتزايد: Simultaneous Conditioning

ويتم فيه تقديم أو ظهور المثير الشرطي (م ش) في نفس وقت تقديم أو ظهور المثير غير الشرطي (م ط) . وقد تبين من الدراسات التجريبية التي أجريت أن تأثير الاشتراط المتآني على التعلم يكون ضعيفا ، لأن الكائن الحي لاتتاح له الفرصة الكافية للتصرف في هذا النموذج على المثير الشرطي في وجود المثير غير الشرطي في زمن واحد في الموقف السلوكي .

٢ ـ الاشتراط المتقدم : Forward Conditioning أوما يشار اليه أحيانا بالاشتراط المرجأ De-layed Conditioning والذي يقدم أو يظهر فيه المثير الشرطي (م ش) قبل تقديم غير الشرطي (م ط) بفترة قصيرة ، ويستمر وجوده حتى تقديم المثير غير الشرطي (م ط) . وقد يتم سحب المثير الشرطي من الموقف اما خلال وجود المثير غير الشرطي ، أو عقب ظهوره في الموقف ولايتأثر تكوين الاستجابة الشرطية بذلك .

٣ ـ اشتراط الأثر : Trace Conditioning

ويقدم فيه المثير الشرطي ، ويتم سحبه من الموقف قبل تقديم المثير غير الشرطي . وبالتالي توجد فترة زمنية بين تقديم المثيرين أطول ما يوجد في نموذج الاشتراط المتقدم .

٤ ـ الاشتراط المتأخر : Backward Conditioning أو ما يشار اليه أحيانا بالاشتراط العكسي ، حيث يقدم أو يظهر المثير الشرطي في هذا النموذج عقب تقديم أو ظهور المثير غير الشرطي . أي أن ظهور المثير غير الشرطي يتقدم على ظهور المثير الشرطي . ولذلك فان التعلم في هذا

النوع من الاشتراط يكون ضعيفا . وبالتالي فليس من المستبعد في هذا النموذج عدم ظهور الاستجابة وذلك لانعدام حالة التوقع التي تؤدي دورا هاما في تكوينها (٤٦)

وقد اعتمدت الطرق المبكرة في علاج ادمان المسكرات alcoholism على الاشتراط المتأخر ، وذلك بجعل المدمن في حالة اعياء (م ط) بوسيلة أو بأخرى ثم يقدم له بعد ذلك مشروب مسكر (م ش) . وقد وجد بالفعل أن هذا النموذج غير فعال بدرجة كافية في علاج هذه الظاهرة وبالتالي تم العدول عنه (٤٧) .

كما قد يحدث في بعض المواق بالنسبة لبعض الأشخاص تكوين الاستجابة الشرطية في اطار نموذج الاشتراط المتأني ، وخاصة فيما يكون هناك صعوبة بالغة في فصل الشخص عن أحد الخصائص التي تميزه ، مما يجعل الموقف مهيئا لتكوين الاستجابة الشرطية .

وقد كشفت الدراسات التجريبية ومنها دراسة « روس روس » Ross & Ross (١٩٧١) التي اجريت على مجموعة من طلبة الجامعة لقياس اشتراط جفن العين وكذلك دراسة « ولسون » (١٩٦٩) التي أجراها على اشتراط معدل ضربات القلب ، ان الاشتراط يكون في أقوى نماذج الاشتراط المتقدم ، واشتراط الأثر مما يكون في الاشتراط المتأخر (٤٨) .

وما يجب أن يلاحظ بعناية ويؤخذ في الاعتبار في عملية الاشتراط ، أن فاعلية وقوة الاستجابة الشرطية يعتمد بدرجة أساسية على مستوى قوة المثيرين ، الشرطي (م ش) ، وغير الشرطى (م ط) قبل عملية الاقتران بينهما ، والتي تتأثر بقوة كل منهما ، وبدرجة تشابه الاستجابات التي يكونها ، وبعدد مرات الاقتران بين المثيرين في الموقف السلوكي .

وكما تتناول عملية الاشتراط تكوين بعض أساليب السلوك التي تأخذ شكل العادة السلوكية ، سواءا كانت مرغوبة أوغير مرغوبة ، فان اسلوب تعديل السلوك يعتمد بدرجة كبيرة على كيفية تكوين

(٤٦) مرجع سابق .

47 — Ibid.

48 — Ross, s. M. & Ross, L. E. (1971) " Comparison of Traceand Dclay classical eyelid Conditioning as a function of interstimulus interval " Journal of Experimental Psychology, 91, 165 — 167.

الاستجابة الشرطية في تغيير أو محو تعلم السلوك غير المرغوب وهو ما يعتبر أحد الاهداف الرئيسية التي يسعى اليها هذا الاسلوب في علاج الاضطرابات السلوكية . ويستند اسلوب تعديل السلوك في ذلك على عمليتين أساسيتين هما الانطفاء ، وتكوين الاستجابة الشرطية المضادة . ونعرض لهما على النحو التالي : ـ

ثانيا : الانطفاء Extinction

عرضنا اثناء الحديث عن المحاولات الاولى لعلاج اضطرابات السلوك في اطار التعليم عن بعض المواقف التجريبية التى استفادت من خاصية عملية الانطفاء في نحو تعلم اساليب السلوك غير المرغوب . والانطفاء كما ذكرنا ، يعنى نقص او اختزال في قوة الاستجابة الشرطية يحدث بمرور الوقت نتيجة عدم تعزيز هذه الاستجابة منذ آخر عملية اقتران بين المثير الشرطي (م ش) ، والمثير غير الشرطي (م ط) مما يؤدي في النهاية الى تلاشى او اختفاء الاستجابة الشرطية سواء كانت مرغوبة او غير مرغوبة .

وقد تعود الاستجابة الشرطية الى الموقف السلوكي الذي ظهرت فيه مرة اخرى بعد فترة . وتسمى هذه الحالة بظاهرة الاسترجاع التلقائي Spontaneaus Recovery الا ان الاستجابة الشرطية في هذا الموقف عادة ما تكون اضعف من الاستجابة التي سبقت عملية الانطفاء ، حيث تؤثر عملية الانطفاء على قوة الاستجابة حتى لو ظهرت بعد ذلك مرة اخرى .

وبالاضافة الى ما سبق ذكره عن عملية الانطفاء ، وبعض المحاولات التجريبية التي استخدمت هذه العملية في محو تعلم بعض اساليب السلوك غير المرغوب ، نعرض للطريق الرئيسية التي تشتمل عليها هذه العملية ، والتى استفاد منها اسلوب تعديل السلوك ، وهى :

١ ـ الانطفاء التدريجي : Qradual Extinction

ويعنى العمل على خفض فاعلية الاستجابة الشرطية حتى تختفي تدريجيا من الموقف السلوكى وذلك بالتحرك في خطوات متتابعة تدريجيا نحو الموضوع او المثير او الموقف الذي ينشىء الاستجابة الشرطية . والمثال التالي يوضح ذلك : اذا كان احد الأطفال يشعر بالخوف من الاقتراب من شاطىء البحر .

فلازالة هذا الخوف باستخدام طريقة الانطباق التدريجي ، يتطلب الامر اقتراب الطفل نحو البحر تدريجيا . ولتكن اولى الخطوات لحل هذه المشكلة ، ان يلعب الطفل على شاطىء البحر على مسافة ٢٠ قدما من الماء لفترة زمنية معينة يعقب ذلك ان يلعب على مسافة ١٠ اقدام من الماء ، ثم يلي ذلك الاقتراب اكثر وليكون بالقرب من حافة الماء وهكذا حتى تصل اقدام الطفل الى الماء ، وهكذا الى ان يمكث الطفل في الماء فترة من الوقت .

وعلى الرغم من انه يمكن استخدام عملية الانطفاء مع اى نمط من انماط السلوك الشرطى الاستجابي ، الا انه غالبا ما تستخدم هذه العملية في حالات الخوف والقلق . فكثيرا ما يتعرض الاطفال والاشخاص الكبار في حياتهم اليومية الى مواقف تدعو الى الخوف او تستثير القلق . ويعتمد الانطباق التدريجي للقلق او للخوف على عدة خطوات رئيسية هي :

أ ـ من الضرورى في بداية تنفيذ هذه الطريقة تكوين نظام متدرج ومتتابع الخطوات نحو موضوع الخوف او مثير القلق . ومن الأفضل ان تكون مراحل او مراتب هذا النظام متعددة الخطوات ، لا ان يكون في خطوات قليلة .

ب ـ من المفضل ان يشجع الشخص ، وان تستثار دوافعه او ان يكافأ سلوك الاقدام نحو هذا التتابع ، كما يعزز الاداء بعد كل مرحلة من مراحله ، مما يساعد على خفض درجة الخوف او القلق لدى الشخص .

جـ ـ من المفيد معاونة الشخص على خفض درجة التوتر او الخوف لديه اثناء ممارسة الخطوات السابقة ، وذلك بتدريبه على كيفية ممارسة سلوك الاسترخاء ، او تخيل بعض المواقف او المناظر التى تدعو الى السرور والابتهاج . او ان يتظاهر بأنه لا يخاف او يقلق من المواقف المشابهة للموقف الذي يسبب له الخوف او القلق . كل ذلك وغيره من اساليب التشجيع والتعزيز وتنشيط الدافعية الاخرى يساعد على خفض التوتر او الخوف حتى تتلاشى تدريجيا الاستجابة الشرطية بفعل عملية الانطفاء .

٢ ـ الانطفاء غير التدريجي : Non — gradual Extinction

ويطلق عليه احيانا الانطفاء الفوري ، وهو البديل للانطفاء التدريجي ، حيث لا تمر عملية الانطفاء باغلب الخطوات الوسيطة لحل المشكلة . وبالتالى تتم مواجهة النهائى او الموضوع المثير مرة واحدة دون

تدرج او تتابع . واذا اخذنا المثال السابق الذي اشرنا اليه في الانطفاء التدريجي . فانه طبقا لخواص الانطفاء غير التدريجي ، يجب وضع الطفل مباشرة في الماء دون المرور بالخطوات التي تتطلبها عملية الانطفاء التدريجي . اى ان حل المشكلة يتطلب مواجهة مباشرة ، للموقف المخيف او المثير الذي يستدعي استجابة الخوف او القلق فاذا سقط طفل اثناء تعلمه ركوب الدراجة ، ونتج عن ذلك بعض الجروح البسيطة فيجب ان نجعل الطفل يعاود الركوب مرة اخرى عقب الوقوع مباشرة ، وهكذا حتى مع الكبار .

ولكن ما يجب ان يلاحظ بعناية ان هذه الطريقة قد يكون لها مضارها بل والأكثر من ذلك ، قد تكون نتائج هذه الطريقة اشد ضررا من النتائج التي تترتب على وجود مثير الخوف او القلق في الموقف السلوكي ، مما قد يترتب عليه ان تصبح استجابة الخوف او القلق اقوى مما كانت عليه . لذلك فانه من المفضل اتباع طريقة الانطفاء التدريجي فهي اكثر أمنا ، ولو انها تحتاج الى بعض الوقت .

وهكذا تتلخص طريقة الانطفاء غير التدريجي في وضع الشخص في موقف المواجهة مع المثيرات المنشئة للخوف او للقلق ، والعمل على ابقائه في موقف الخوف أو القلق دون هروب اذا كانت حالة الشخص تسمح بذلك . وهذه الطريقة هي مما يطلق عليها طريقة « الغمر » Floodinq والتي سنعرض لها بعد ذلك .

وبذلك يؤدي الانطفاء الاستجابي Respondence Extinction كما يطلق على الاجراءات السابقة ـ دورا هاما في محو تعلم كثير من انماط السلوك غير المرغوب ، وذلك بتقديم او ظهور المثير الشرطي (م ش) في الموقف بدون حالة اقتران مع المثيرغير الشرطي (م ط) عدة مرات حتى تتلاشى او تختفي تدريجيا الاستجابة الشرطية (س ش) (٤٩) ، (٥٠) .

ثالثا : الاشتراط المضاد : Counterconditioninq

ويعني العمل على تكوين استجابة شرطية جديدة مرغوب فيها تكون غير منسقة ، او غير منسجمة مع الاستجابة التى نشأت اصلا بواسطة المثير الشرطى (م ش) ويتم تكوين الاستجابة الشرطية المضادة بعدة خطوات اساسية هى :

49 — Gotestam, K. C. & Melin, L. (1974) "Covert extinction of amhetamine addiction". Behavior therapy, 5 90-92.

50 — Cautela, J. R. (1971) "covert extinction" Behavior therapy, 2, 192- 200 .

١ ـ تحديد الموقف السلوكى الذي ينشىء الاستجابات غير المرغوبة كرؤ ية العنكبوت مثلا التى تسبب قلقا زائدا عند بعض الاشخاص .

٢ ـ تحديد الأسلوب او الطريقة التى تتكون بها الاستجابة غير المتسقة مع الاستجابة الشرطية غير المرغوبة ، بحيث تصبح هذه الاستجابة بعد ذلك لها صفة السيادة على الموقف السلوكى . ولتكن الاستجابة غير المتسقة في هذا الموقف احد اشكال الاسترخاء والهدوء من قلق رؤ ية العنكبوت .

٣ ـ واخيرا العمل على تكوين العلاقة الاشتراطية بين الاستجابة غير المتسقة وهى الاسترخاء والمثيرات التى تنشىء الاستجابة غير المرغوبة وهي رؤ ية العنكبوت . كما يحدث بين المثيرات المكونة للاسترخاء التى تقترن بمثيرات العنكبوت .

ويستمر ظهور الاستجابة الشرطية المضادة حتى تبدأ الاستجابة الشرطية الأصلية وهى الاستجابة غير المرغوبة في التناقص والتضاؤ ل حتى تتلاشى نهائيا من الموقف السلوكى للشخص [٥١] .

وغالبا ما يستخدم الاشتراط المضاد في خفض او اختزال الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة مثل القلق ، والغضب ، والغيرة ، والخوف . والمثال التفصيلي التالي يوضح استخدام عملية الاشتراط المضاد في خفض استجابات الخوف . وكما رأينا في المثال السابق ، يتطلب الامر تكوين استجابة شرطية جديدة مرغوب فيها تكون غير متسقة او غير منسجمة مع الاستجابة الشرطية الأصلية التى نشأت اصلا بواسطة المثير الشرطى . وهذه الاستجابة الشرطية الجديدة تكون بمثابة اتجاه مضاد بالنسبة لمثير الخوف ، بحيث يمكن ان يصاحب هذا الاتجاه بتقديم مثير غير شرطي (م ط) سار وليكن هدية مثلا مع ظهور المثير الشرطي ، وهو مثير الخوف . وبالتالي تنشأ استجابة شرطية جديدة يكون لها صفة السيادة على الاستجابة الشرطية الأصلية . وحتى يقترب الطفل من الحصول على هذه الهدية لا بد له من ان يقترب من مثير الخوف . فاذا كان المثير غير الشرطي الجديد مرغوب فيه بدرجة كافية ، فان الطفل سيقترب منه ، ويكتشف ان المثير الشرطي وهو مثير الخوف ليس ضارا على الاطلاق . وبعد عدة مرات من الاقتران ينعدم تأثير المثير الشرطي ، وبالتالي تضعف استجابة الخوف حتى تختفى من سلوك الفرد [٥٢] .

51 — Ibid
52 — Ibid

ومن العوامل الهامة في تكوين الاشتراط المضاد ان تكون الاستجابة الشرطية المضادة او ما تسمى بالاستجابة غير المتسقة Incompatible Response في حالة قوية بحيث يتضمن يصبح لها صفة السيادة على الاستجابة الشرطية الأصلية في الموقف السلوكى . ولكى يتم ذلك يجب ان يعد الموقف السلوكى بحيث يتضمن ما يشبه التنظيم الهرمى او التدرج الهرمي Hierarchy لمكونات الموقف من حيث مستوى درجة استثماراتها للشخص . وهذا التنظيم او التدرج يشبه التدرج الذي سبق ان اشرنا اليه عند الحديث عن الانطفاء الاستجابي التدريجي .

وهكذا يحدث تكوين الاشتراط المضاد في شكل تتابع غير سريع لعناصر ومكونات هذا الموقف حتى يتم الاقتراب من الموضوع ، او من المثير الذي ينشىء الاستجابة غير المرغوبة . ففي حالة الشخص الذي يخاف من رؤ ية العنكبوت مثلا نبدأ باولى مراحل هذا التدرج الهرمي ، ولتكن ان يسمع الشخص كلمة « عنكبوت » يلي ذلك ان تعرض عليه صورة العنكبوت ، وبعد ذلك تتاح له فرصة رؤ ية العنكبوت مجسما ، ثم في النهاية يعرض عليه العنكبوت حيا مع الاقتراب منه .

ويقوم هذا التتابع على افتراض ان تأثير الاشتراط المضاد يحدث له تعميم الى المثيرات المشابهة في التنظيم الهرمي ، وهي تلك الخطوات السابقة ، وأولها سماع كلمة عنكبوت حتى رؤ ية العنكبوت والاقتراب منه . وبالتالي تنخفض قوة الاستجابة غير المرغوبة تدريجيا . وهى القلق من رؤ ية العنكبوت ، وذلك بفعل سيادة او تفوق الاستجابة الشرطية الجديدة ، وهي استجابة الاسترخاء ، وما يطلق عليها في الاشتراط المضاد بالاستجابة غير المتسقة . ولو لم تتكون استجابة الاسترخاء في اول التتابع عقب سماع كلمة عنكبوت لما اصبح لهذه الاستجابة السيادة على الاستجابة الأصلية . كما ان دقة التتابع في التنظيم الهرمي ، ودرجة التشابه بين المثيرات في مراحل هذا التتابع لها اثر كبير في تسهيل عملية التعميم بين هذه المثيرات ، مما يؤدي في النهاية الى سرعة تكوين الاستجابة الشرطية وسيادتها .

وقد كشفت نتائج الدراسات التي قامت بتطبيق اسس الاشتراط المضاد عن فاعلية هذه العملية في علاج كثير من الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة ومنها ما يسمى بمخاوف الفصل الدراسي -Clas sroom Phobia التي تنشأ من مقاومة التلاميذ للعودة الى المدرسة بعد فترة انقطاع معينة . وخاصة بعد انتهاء الاجازة الاسبوعية . وتحدث مخاوف المدرسة كنتيجة لقلق الانقطاع . فمع الانقطاع كمثير غير شرطي (م ط) ينشأ القلق لاستجابة غير شرطية (ش ط) مصاحبا للمدرسة كمثير شرطي (م ش) والذي يعمل على ظهور الخوف . وعلاج هذه الظاهرة يتضمن العمل على تشجيع حضور

التلميذ ، وذلك بمكافأته بعد حضوره اليوم الدراسي كاملا . وطالما يتم تعزيز الحضور ، فان الاستجابة الشرطية المضادة وهي الاستجابة غير المتسقة مع الاستجابة الشرطية الاصلية ، تأخذ في التكوين . لان المثير الأصلي (م ش) وهو المدرسة يصبح مقترنا بالحضور الذي يؤدى الى المكافأة بدلا من الخوف .

وهكذا يمكن علاج الاستجابات الانفعالية الأخرى نحو المدرسة ، والتى قد ترتبط بالمدرسة ، او زملاء المدرسة ، او بعملية التعلم ذاتها ، وذلك عن طريق الاقتران بالمثيرات المرغوبة ، او على الاقل تجنب ارتباطها بالمثيرات غير المرغوبة (٥٣) .

رابعا : الاسترخاء Relaxation

وهو من العمليات الهامة التي يعتمد عليها اسلوب تعديل السلوك ، وخاصة في علاج كثير من الاستجابات الانفعالية غير المرغوبة ، كالقلق ، والخوف . وقد رأينا عند الحديث عن الاشتراط المضاد كيفية خفض القلق الناشىء عن بعض المثيرات المنفرة بواسطة تكوين استجابة جديدة غير متسقة مع استجابة القلق وهي استجابة الاسترخاء عند رؤية هذه المثيرات المنفرة . لذلك كثيرا ما يستخدم الاسترخاء في كثير من مواقف القلق او الخوف في عملية الاشتراط المضاد .

ويعتبر تعليم الاشخاص الذين يعانون من بعض الاضطرابات السلوكية كيفية ممارسة عملية الاسترخاء من الأمور الهامة في اسلوب تعديل السلوك بصفة خاصة ، كما ان تعلم الاسترخاء في ذاته يعتبر الآن من متطلبات العصر ، وما يتسم به من استمرار ظهور عوامل الاستثارة العصبية والنفسية التى تؤدى في النهاية الى اكتساب كثير من انماط السلوك غير المرغوب الذي يلازم الافراد فترات طويلة . وشكوى الأفراد من القلق والاضطراب النفسي ، والخوف ، وغيره من اشكال السلوك غير المرغوب مستمرة ومتزايدة . وقد يكون بعض هذه الاشكال مرتبطا بمثيرات معينة او مواقف محددة في حياة الشخص . كما قد يكون منها ماله علاقة وثيقة ببعض المشكلات الفسيولوجية ، مثل بعض اعراض البرد ، والقرحة والسرطان (٥٤) ، (٥٥) .

---

53 — Ibid

54 — Seliqman, W.E.P., (1975) "Helpleasness : on depression, development, and death" San francisco : W.H. Freeman. inm Mikulas W.l. (1978) Behavior Modificaion, harper apd and row, publishers.

55 — Holmes, T.H. & Masuda, M., (1972) "Psychosomatic syn drome" Psycholoqy Today, April, In Mikulas, W.l. (1978) Behavior Modificaions .

وهكذا قد تتعدد العوامل المسببة لهذه الاضطرابات السلوكية ، ولكن في جميع هذه الاحوال يصبح التدريب على الاسترخاء عاملا مشتركا في كثير من برامج العلاج والرعاية النفسية .

وتركز برامج التدريب على الاسترخاء التى يتناولها اسلوب تعديل السلوك بدرجة كبيرة على كيفية تعليم الاشخاص وممارسة الاسترخاء واستخدامه كأحد مهارات ضبط الذات . ويتضمن ذلك كيفية التصرف عند بداية الاحساس بالقلق وبالتالى كيف يمارس الشخص الاسترخاء في هذا الموقف وغيره من المواقف المشابهة . كما تشتمل هذه البرامج على تعليم الاشخاص كيفية مواجهة مواقف الاستثارة النفسية والعصبية التى تسبب التوتر والاجهاد النفسي . كما انها تتضمن كيفية اختزال أو العمل على خفض المظاهر النفسية والعصبية لبعض المشكلات الخاصة مثل التوتر الناشىء عن الصداع ، والحركات أو الاتعاشات الناشئة عن اضطراب الجهاز العصبي والقلق الناشىء عن اخطاء وتحريف التعلم والادراك في بعض المواقف الخاصة (٥٦) ، (٥٧) .

وقد كشفت الدراسات التجريبية التى اجريت عن فاعلية تعلم الاسترخاء كأحد المكونات في برنامج لعلاج بعض مظاهر الأرق. . وتوصلت هذه الدراسات الى نتيجة هامة ، وهي أن أفضل إجراء لتحقيق الاسترخاء في كثير من مواقف الاضطراب النفسي . هو اكتساب وتعلم الشخص مهارة ممارسة عملية الاسترخاء بنفسه ، مما لو حصل الشخص على بعض الخدمات او المساعدات التى تحقق له الاسترخاء (٥٨) .

ومن اكثر برامج التدريب على الاسترخاء المستخدمة في اسلوب تعديل السلوك ، البرنامج الذي اقترحه اصلا « جاكوبسون » Jacobson (١٩٣٨) . ويقوم هذا البرنامج على عدد من الخطوات ، حيث يتضمن العميل بممارسة شد ارخاء العضلات بالتناوب ، بينما يركز انتباهه على ..

56 — Goldfried, M.R. & Trier, C.S. (1974) "Effectiveness of relaxation as active copinq aill".

Journal of abnormal psycholoqy, 83, 348 - 355 .

57 — Hutchinqo, D.F., et.al. (1980) "Anxiety manaqement and applied relaxation in reducinq qeneral anxiety" Behaviour Research And Therapy. Vol. 181-190 .

58 — Borkovec T.D., Kalaupek, D.G., & Slama, K.M., (1975) The facititative effect of muscle tension-release in the relaxation treatment of sleep disturbance

Behavior therapy, 6.

مشاعره المختلفة وبعد فترة معينة من التدريب وممارسة هذه الاجراءات ، يتعلم العميل كيفية ممارسة الاسترخاء بنفسه دون مساعدة ، مدركا بداية الشعور بالقلق او التوتر العصبي ، مما يساعده على تحقيق ضبط الذات الذي يؤدي دورا هاما في عملية الاسترخاء وبذلك يصبح العميل اكثر وعيا واحساسا بحركة العضلات ، مما يؤدي الى خفض مستوى كثير من المشكلات التي يعاني منها ، مثل الصداع الناشىء عن توتر عضلات الرقبة ، او بعض الارتعاشات اللا ارادية في اللسان ، او بعض حركات الوجه الزائدة(٥٩)

خامسا : الاشتراط المضاد المنفر : Aversive Counterconditioninq

رأينا فيما سبق ان الاشتراط المضاد يعني تكوين استجابة غير متسقة مع الاستجابة الشرطية الأصلية المطلوب انطفائها وشرط تحقيق عملية الاشتراط المضاد أن تصبح هذه الاستجابة الجديدة اقوى من الاستجابة الشرطية ، بحيث يصبح لها صفة السيادة على الموقف السلوكى حتى يتحقق انطفاء الاستجابة غير المرغوبة .

وذكرنا ان اغلب المواقف التي يحدث فيها الاشتراط المضاد هى مواقف القلق والخوف ، والغيرة وما الى ذلك اي ان الاستجابة غير المتسقة تسعى لخفض او اختزال استجابة غير مرغوبة ذات طبيعة سالبة مثل استجابات الخوف او القلق .

في حين تهدف عملية الاشتراط المضاد المنفر الى خفض او اختزال الاستجابات غير المرغوبة ذات الطبيعة الموجهة بالنسبة للفرد . اى ان عملية الاشتراط المضاد المنفر تسعى الى تكوين استجابة منفردة مضادة للاستجابة الشرطية الأصلية المرغوبة من الشخص ، والتى عادة تكون غير مرغوبة في نظر الاشخاص الآخرين . وبمعنى آخر يعتمد الاشتراط المضاد المنفر في اجراءاته على تكوين استجابة شرطية جديدة غير سارة تكون هي الاستجابة غير المتسقة ، والتي يصبح لها صفة السيادة على سلوك الفرد بعد ذلك (٦٠) .

59 — Bernstein, D.A. & Borkovec, T.D., (1973) "proqressive relaxation traininq : Amanual for the helpinq professions" chompaiqn, 111. : Reseorch press. In Mikuias, W.L. (1978) Behavior Modification.

60 — Hallan. R.S. & rachman, S. (1976) "Current status of aversion theapy in Hersen, M., eisler, R.M. & M er, P.M. (eds.) proqress inbehavior modifcation . vol 2. New York. Acadenic press.

والمثال التالى يوضح تكوين الاستجابة الشرطية المضادة المنفردة . بالنسبة لمدمن المخدرات او المسكرات ، او التدخين يكون لديه بعض الارتباطات الموجبة لكثير من مظاهر ما يدمن عليه ، مثل الارتباطات السارة التي تكونت لديه من تعاطي هذه المخدرات في ظروف معينة ، مثل التعاطى في مكان معين ، او مع بعض الأصدقاء المعنين ، او حالة الانسحاب من الواقع وما يتضمنها من شعور بالهدوء والراحة بعيدا عن مواجهة المشكلات . هذه النماذج من الارتباطات الايجابية يزيد تعزيزها كلما اقبل الشخص على التعاطى في المرات التالية ، وبالتالي تقوى ممارسة التعاطى . وجوهر عملية الاشتراط المضاد المنفر تكمن في احداث عملية الاقتران بين المواقف التي تنشىء الاستجابة الايجابية غير المرغوبة من الآخرين (الارتباطات السارة للشخص المدمن) والمثيرات التى تعمل على انشاء الاستجابة السائدة غير المتسقة ، وهى الاستجابة المنفرة ، مثل الاستجابة الناشئة عن صدمة كهربائية خفيفة .

وتسير الخطوات في الاشتراط المضاد المنفر على النحو التالى :

١ ـ ان نحدد المثيرات ، او المواقف ، او الموضوعات التى تنشىء الاستجابة غير المرغوبة ، وهى كما في المثال السابق الاستجابة السارة للفرد المدمن مثلا والناشئة عن تعاطي المخدر .

٢ ـ ان نعمل على انشاء الاستجابة غير المتسقة ، وهي الاستجابة المنفرة التي يكون لها صفة السيادة على الموقف السلوكى بعد ذلك .

٣ ـ ان نعمل تدريجيا على تكوين الاشتراط المضاد ، ويفضل ان يكون ذلك في تتابع متدرج لكى نضمن سيادة الاستجاية غير المتسقة ، وهى الاستجابة المنفرة .

وقد لا يكون هذا التدرج في تكوين الاشتراط المضاد ضروريا اذا رأينا ان الاستجابة المنفرة ستكون اقوى من الاستجابة الشرطية الاصلية ، وهى الاستجابة غير المرغوبة . ثم تستمر عملية الاقتران حتى يشعر العميل بالحياد نحو المثيرات ، اي تصبح المثيرات في حالة متوازنة ، وبالتالي لا يكون لأى منها خاصية انشاء الاستجابة بمفرده أو ان يشعر العميل بالكراهية والنفور من المثيرات مما يؤدى في النهاية الى انخفاض فاعلية الاستجابة غير المرغوبة بفعل الاستجابة الجديدة التي تكونت ، وهى الاستجابة المنفرة غير المتسقة مع الاستجابة غير المرغوبة .

واغلب المواقف السلوكية التي يستخدم فيها الاشتراط المضاد المنفر ، هي مواقف سلوك مكافأة الذات Self — Rewardinq Behavior حيث يكافىء مدمن المخدرات ذاته ، اي يعزز ذاته بواسطة النتائج التى يحصل عليها من تعاطي المخدر ، وهى حالة السرور والنشوة والغيبوبة . كما ان الشخص الذي يستثار جنسيا بواسطة مثيرات معينة مثل ممارسة الجنس مع افراد من نفس النوع Homosexual اومع الأطفال الصغار ، اورؤية الملابس الداخلية مثلا ، انما يعزز ذاته بالاستثارة الجنسية وما يتبعها من بعض التخيلات او التصرفات الجنسية ولذلك غالبا ، لا يصلح في مثل هذه المواقف من سلوك مكافأة الذات طرق العلاج القائمة على الارشاد النفسي . حيث تحتاج هذه الحالات الى العلاج السلوكى الذي يتضمن تكوين عملية اشتراط مضاد منفر لكى تخفض من اثر الارتباطات الموجبة الناتجة عن المصدر الطبيعي للتعزيز . كما يمكن مساعدة العميل على تنمية وتكوين نماذج سلوكية معززة بديلة ، مثل العمل على تكوين استجابة شرطية مضادة منفرة بواسطة صدمة كهربائية خفيفة تقترن برؤية صور بعض الأطفال مثلا وبذلك يعمل الاشتراط المضاد المنفر على تكوين ارتباطات جديدة منفرة بالنسبة للمثيرات التى سبق وارتبطت مع الاستجابات غير المرغوبة .

وغالبا ما يستخدم في اسلوب تعديل السلوك اكثر لزيادة فاعلية العلاج في كثير من المواقف السلوكية التى يستخدم فيها الاشتراط المضاد المنفر . فقد تتضمن اجراءات العلاج طريقة « سلب الاحساس » (٦١) Desensitization مثلا ، او التدريب على ممارسة بعض المهارات الاجتماعية ، او التدريب المهنى او تدريب الأشخاص الذين يعانون من ممارسة سلوك الجنسية المثلية ليس فقط على خفض درجا الاستثارة الجنسية للأشخاص الآخرين من نفس النوع ، بل مساعدتهم كذلك على تنمية استثمار سلوك الجنسية الغيرية Heterosexuality والمهارات الاجتماعية اللازمة لذلك .

وتستخدم الصدمات الكهربائية الخفيفة والعقاقير في اغلب مواقف وحالات الاشتراط المضاد المنفر لتكوين الاستجابة الشرطية المنفردة . ولكن تستخدم الصدمات الكهربائية بشكل اكثر من العقاقير . حيث يمكن ضبط المتغيرات الكثيرة التي قد تؤثر على عملية الاشتراط مثل بداية تأثير الصدمة ، ونهايتها ، ومدتها ، وشدتها . عكس العقاقير فمنها ما يؤدى الى القيىء الذي غالبا ما يسبب عدم

---

(٦١) احدى الطرق التى تستخدم في اسلوب تعديل السلوك ، وتتضمن عملية الاشتراط المضاد مع استخدام الاسترخاء في سلب احساس الشخص لمثيرات الخوف او مثيرات القلق التى تسبب حالة الاضطراب السلوكى .

الارتياح للعميل والمعالج . هذا بالاضافة الى ان العقاقير قد يكون لها بعض الأثار الجانبية على الجهاز العصبي المركزى ، وبالتالي يؤثر ذلك على تعلم الاستجابة مما يقلل من فاعلية اسلوب العلاج(٦٢) .

وقد كشفت نتائج الدراسات التجريبية التي استخدمت طريقة الاشتراط المضاد المنفر عن فاعلية وسائل اخرى غير الصدمات الكهربائية والعقاقير كمثيرات منفرة فقد استخدم دخان دافىء له رائحة دخان السجاير لخفض ممارسة التدخين بواسطة نفث الدخان بشدة في وجه العميل اثناء التدخين (٦٣) . كما استخدم التدخين ذاته كمثير منفر بالنسبة لغير المدخنين الذين يكرهون رائحة التدخين وذلك لخفض ظاهرة تناول الطعام بكميات كبيرة ، وبين الوجبات الرئيسية . وقد كشفت نتائج العلاج بواسطة المعالج ، والعلاج الذاتي بالمنزل عن فاعلية هذا الاجراء في انقاص الوزن بشكل ملحوظ (٦٤) . كما استخدمت بعض الروائح الكريهة كمثير منفر علاج الجنسية المثلية لدى بعض الأشخاص حيث تضمنت اجراءات العلاج استرخاء وتخيل العميل للخبرة الجنسية غير المرغوبة واقترانها بالمثير المنفر . وبعد فترة معينة من العلاج تكونت الاستجابة المضادة المنفرة وتضاءلت الاستجابة الشرطية الأصلية غير المرغوبة حتى تم انطفاؤها(٦٥) .

الخلاصة :

هذه بعض المبادىء والعمليات الأساسية التى يعتمد عليها اسلوب تعديل السلوك في تناول الاضطرابات السلوكية . ولم يتسع المجال لعرض كل ابعاد هذا الأسلوب الذي يعتبر من اكثر الأساليب والاتجاهات تكاملا في علاج المشكلات السلوكية ، ضمن الأساليب الأخرى الحديثة التى يستخدمها علماء النفس الآن في العلاج النفسى ، منها الاتجاه المعرفي ، والاتجاه التكاملي الذي يعتمد على اكثر من اسلوب من اساليب العلاج .

62 — Lubetkin, B.S. & Fishman, S.T. (1974) "Electrical aversion therapy with a chronic heroin user". Journal of Behavior therapy and Experimental psychiatry. 5, 193-.195

63 — Lichten, E. et. al. (1973) "comparison of rapid smokinq, warm smoky air, and attention placepo in the modification of smokinq behavior." Journal of consultinq and clinical psycholoqy, 40, 42-98.

64 — Moranstern, K.P. (1974) "Ciqarette smoke as a noxious stimulus in self- Mamaqed aversion therapy for compulsive eatinq" Behavior therapy, 5, 255-260

65 — Colson, C.E. (1972) "Olfactory aversion therapy for homosexual behavior". Journal of Behavior therapy and experimental psychiatry, 3, 185-188.

ومن خلال هذا العرض للمحاولات المختلفة في تفسير الاضطرابات السلوكية في اطار عملية التعلم ، وما تقوم عليه من اسس وقوانين والتي بدأت مبكرا قبل ظهور المدرسة السلوكية . وما اعقبها من محاولات شبه متكاملة ظهرت في ابحاث واجراءات دولارد وميللر ، ومورير ومورير ، وغيرهم من الباحثين الذين اهتموا بتطبيق نتائج ابحاث ودراسات وتجارب التعلم في مجال علاج اضطرابات الشخصية . والتي ادت جميعها وساهمت في ظهور اسلوب تعديل السلوك . تبين من كل هذه المحاولات ، والاتجاهات او الاساليب التي اشتملت عليها مدى اهمية عملية التعلم بما تتضمن من مبادىء وقوانين ، وما تعتمد عليه من اجراءات ، ليس فقط في تكوين اساليب السلوك الصحيح او الخاطىء ، ولكن كذلك في تفسير كثير من الاضطرابات السلوكية التي اخذت شكل العادات السلوكية شبه الدائمة في حياة الافراد . هذه العادات التي تعتبر بمثابة تنظيمات او وحدات أساسية في الشخصية وهكذا يعتبر التعلم المدخل الرئيسي لفهم كثير من جوانب الشخصية . كما انه يعتبر في نفس الوقت اساسا لتعديل بعض هذه الجوانب .

ومع هذا فهناك بعض نواحى النقد التي توجه الى هذا الاسلوب . ومن اهم اوجه النقد الموجهة الى اجراءات اسلوب تعديل السلوك ، انه يتعامل مع الاعراض السلوكية فقط ، وليس مع الاسباب او الدوافع والعوامل المؤدية الى هذه الاعراض او الاستجابات السلبية التي تأخذ لبعض اشكال السلوك المرضى او غير المرغوب من الآخرين .

***

المراجع

أولا : المراجع العربية :

١ ـ احمد زكي صالح « علم النفس التربوي »
الطبعة العاشرة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة

٢ ـ انور محمد الشرقاوي (١٩٧٧) « انحراف الأحداث »
دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة .

٣ ـ انور محمد الشرقاوي (١٩٨٢) « التعلم وتطبيقاته »
الطبعة الثالثة (تحت الطبع) ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة .

٤ ـ سيد محمد غنيم (١٩٧٨) « سيكولوجية الشخصية : محدداتها ، قياسها ، نظرياتها .
الطبعة الثانية ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة .

٥ ـ محمد عماد الدين اسماعيل (١٩٥٩) « الشخصية والعلاج النفسي »
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة

ثانيا : المراجع الاجنبية :

(6) Allport, G.W., (1961) "**Pattern and grouth in personality,,** **New York, Holt, Rinehart** and winston.

(7) Azrin, N.H., sneed, T.J., & Foxx, R.M, (1974) "**Dry-bed training Rapaid elimination of childhood enuresis,,** Behaviour Research and Therapy, 12, 147-156.

(8) Beneke, W.M. & Harris, M.B., (1972) "**Teaching self-control of study behaviour,,**. Behaviour Research and Therapy, 10, 435-41.

(9) Berkowitz, B.D. & Graziano, A.M. (1972) "**Training parents as behaviour therapists :** A review, Behaviour Research and Therapy, 10, 297-317.

(10) Bernstein, D.A. & Borkovec, T.D., (1973) "**Progressive relaxation training Amanual for the helping professions,,**. Champaign, III. : Research Press. In KMikulas, W.L.(1978). Behaviour Modification Harper and Row, publishers.

(11) Borkovec, T.D., Kaloupek, D.G., & Slama, K.M., (1975). "**The facilitative effect of muscle tension-releas in the relaxation treatment of sleep disturbance,,**. Behaviour therapy, 6, 301-309.

(12) Cautela, J.R., (1971 "**Covert Extinction,,** Behavior Therapy, 2, 192-200

(13) Colson, C.E. (1972) "**Olfactory aversion therapy for homosexual behavior,,** Journal of Behavior Therapy and Experimental psychiatry, 3, 185-187.

(14) Dollard, J., & Miller, N.E., (1950) "**Personality and psychotherapy,,**. McGraw Hill, New York.

(15) Dunlap. K., (1932) "**Habits their making and unmaking,,** New York : Liveright, in Mclaughlin, B., ; Learing and social Behavior, 1978, The Free Press N.Y.

(16) Fishman, H.C., (1937) "**A study of the efficiency of negative practice as a corrective for stammering,,** Journal of speech Disorders, 2, in McLaughlin, B., : Learnign and social Behavior, 1978, The Free Press, N.Y.

(17) Flynn, John and Herbert Garber (1967) "**Assessing Behavior : Reading in Educational and Psychological Measurement,,**. Addison - Wesly Publishing company.

(18) Gold fried, M.R. & Trier, C.S., (1974) "**Effectiveness of relaxation as active coping skill,,** Journal of Abnormal Psychology, 83,348-355.

(19) Gotestam, K.G. & Melin, L. (1974) "**Covert extinction of amphetamine addiction,,**. Behavior Therapy, 5, 90-92.

(20) Guilford, J.P., (1950) "**Personality,,** New York : McGraw - Hill. In Leon H. Levy (1976) Conceptions of Personality, Theories and Research, New York : Random House. Academic Press.

(22) Holmes, T.H. & Masuda, M ., (1972) "**Psychosomatic syndrome,,** Psychology Toda April. In Mikulas, W.L (1978) Behavior Modification, Harper and Row, Publishers.

(23) Hutchings, D.F., Denney, D.R. & Basgall, J. (1980) "**Anxiety management and applied relaxation in reducing general anxiety,,** Behavior Research And Therapy, vol. 18, 181-190.

(24) Jones, M.C. (1924) "**The elimination of children,s f ars,,** Journal of Experimental Psychology, 7, 382-390.

(25) Kalish, H.I. (1965) "**Behavior therapy,,** Handbook of clinical psychology, McGraw-Hill,N.Y.

(26) Knapp. T.J. and paterson, L.W. (1976 "**Behavior management in medical and nursing practice,,**. in W.E. craighead, A.E. Kazdin, and M.J. Mahoney (eds.) **Behavior modification : Principles'** issues, and applications - Houghton Wifflin

(27) Lichtenstein, E. Harris, D.E., Birchler, G.R., Wahl, J.M., (1973),,"**Comparison of rapid smoking' warm smoky air, and attention placebo in the midification of smoking behavior,,** Journal of consulting and Clinical Psychology, 40, 92-98.

(28) Loeber, R. & Weisman, R.G., (1975) "**Contingencies of therapist and trainer performance: Areview,,**. Psychological Bulletin, 82, 660-688.

(29) Lowe, J.C. & Mikulas, W.L. (1975) "**use of written material in learning Self-Control of premature ejaculation,,** Psychological Reports, 37, 295-298.

(30) Lubetkin, B.S. & Fishman, S.T. (1974) "**Electrical aversion therapy with a chronic heroin user,,** Journal of Behavior Therapy and Experimental Psychiatry, 5, 193-195.

(31) Lundin, R.W., (1961) "**Personality : an experimental approach,,** New York : Macmillan.

(32) Max, L.W. (1935) "**Breaking up a homosexual fixation by the conditioned reaction technique: A case study,,** Psychological Bulletin, 32.

(33) MCLauughlin, B. (1978) "**Learning and social Behavior,,** The Free Press, New York.

(34) Mehrabian, A. (1978) "**Basic Behavior Madrfication,,** Human sciences Press, New York.

(35) Mikulas, William L. (1978) "**Behavior Modification,,** Harper and Row, Publishing, New York.

(36) Mikulas, W.L., (1976) "**A televised Self-control clinic,,** Behavior Therapy, 7, 564-566.

(37) Mikulas, William L. (1974) "**Concepts in learning,,** Philadelphia : W.B. Saunders. In Mikulas, W.L. (1978) Behavior Modification Harper and Row, Publishers, N.Y.

(38) Miller, N.E., & Dollard, J. (1941) "**Social Learning and imitation,,** New Haven : Yale University Press.

(39) Morganstern, K.P. (1974) "**Cigarette Smoke as a noxious stimulus in Self-managed aversion therapy for compulsive eating,,**. Behavior Therapy, 5, 255-260.

(40) Mowrer, O. Hobart, (1950) "**Learning Theory and Personality Dynamics,,** The Ronald Press company, New York.

(41) O' Dell, S. (1974) "**Training Parents in behavior modification : A Review,,**. Psychological Bulletin, 81, 418 - 433.

(42) Olson, R.D. & Smith R.K., and o'lson G.A., (1971) "**Learning in the classroom' Theory and Application,, publishing** corporation.

(43) Pervin, Lawrance A. (1970) "**Personality : Theory, Assessment and Research.,,** John Wiley & Sons, Inc.

(44) Ross S.M. & Ross, L.E., (1971) "**Comparison of Trace and delay classical eyelid conditioning as a function of interstimulus interval,,** Journal of Experimental Psychology, 91, 165-167.

(45) Seligman, M.E.P., (1975) "**Helplessness: on depression' development, and death,,** San Francisco : W.H. Freeman. In Mikulas, William, L. (1978) Behavior Modification, Harper and Row, Publishers,

(46) Smith, Henery clay (1974) "**Personality Development,,** second Edition, McGraw - Hill Book Company.

(47) Smith, S., & Guthrie, E.R. (1921) ' **General Psychology in terms of behavior,,**. Appleton-Century in McLaughlin. Barry : Learning and Social Behavior, 1978, The Free Press.

(48) Tarpy, Roger M. (1975) **Basic Principles of Learning,,**Scott, Foresman and company.

(49) Turner, R.K., & Taylor, P.D., (1974) **Conditioning treatment of nocturnal enuresis in adults Preliminary findings,,** Behavior Research and Therapy, 12, 41-52.

(50) Watson, J.B., & Rayner, R. (1920) "**Conditioninged emotional reaction,,** Journal of Experimental Psychology, S. in Mclaughlin, Barry : Learning and Social Behavior, 1978, The Free Press, New York.

(51) Watson, J., (1930) "**Behaviorism,,**Chicago University Press.

***

الشخصيّة السّوية

طلعت منصور

يفترض البحث في الشخصية ، في صحتها ومرضها ، « أن معظم الناس (وفقا للمتوسط كمفهوم إحصائي) تتشكل على أساس التصميم الفطري للطبيعة ، وهو تصميم سوي بطبيعته » [١] . **فالسواء النفسي بذلك ينبغي أن يكون هو الصفة الغالبة المميزة لمعظم الأشخاص..**

ومن ناحية اخرى ، يؤكد « ماسلو » على حقيقة الطبيعة الانسانية ، وهي طبيعة سوية ومبدعة ؛ ويرى في ذلك « الخاصية الأساسية المميزة للطبيعة الانسانية العامة - وهي إمكانية تعطى لكل الكائنات الانسانية عند الميلاد »[٢] . ومن ثم ، **فان الطبيعة الانسانية - وفقا لماسلو - لا تتميز بالسوية فحسب ، وانما بالابتكارية أو الا بداعية كذلك .**

لهذا ، قد نتوقع ان جُل البحث في الشخصية الانسانية سوف يكون موجها الى دراسة الشخصية السوية أكثر من دراسة الشخصية المرضية . ولكن الواقع مغاير للتوقع - فيبدو أن الانسان قد استهواه البحث في مرض الشخصية أكثر من البحث في صحتها وسوائها لذا طفق يرى في نفسه وجهه العابس والصورة القاتمة لبنائه النفسي أكثر من أن يدرك فيها وجهه الباسم والصورة المشرقة له ، وذلك هو الأعم والأهم .

(1) Royce, J.E. **Personality and mental health** (rev. ed.). Milwaukee : Bruce, 1964, p. 49.

(2) Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed : 1970), p. 223.

لقد صار معظم اهتمام العلوم السلوكية والممارسات الكلينيكية في دراساتها لديناميات السلوك والشخصية ، موجها الى الجوانب المرضية . واذ ظلت هناك نقاط هامة كثيرة تتطلب مزيدا من البحث والدراسة ، فقد توفرت معلومات تجريبية كثيرة ونظريات قيمة تتعلق بمفاهيم الشخص المنحرف ، والمريض ، والقلق ، والعصابي ، والمضطرب ، والسيء التوافق . وعلى العكس من ذلك ، لا توجد الا معلومات قليلة ووضوح تصوري أقل عن طبيعة السواء النفسي Psychological Normality . بل وهناك من يذهب حتى الى أنه لا يوجد ذلك الشيء الذي نسميه بالانسان السوي (٣) .

فلعل من الأسهل تناول ظاهرات الشخصية المرضية وقضايا علم النفس المرضى أكثر من تناول الشخصية السوية والصحة النفسية . فالسواء أو الصحة ـ مصطلح مركب غامض الى حد كبير ، بقدر ما يرتبط بالتصور النظري للطبيعة الانسانية وبتعدد نظريات الشخصية ، وبالأطر الثقافية المتباينة ، وبحالات المرض والشفاء وبدرجة هذه الحالات . والواقع أن الكثير من المعرفة السيكولوجية بالشخصية السوية مستوحى بشكل أو بآخر من البحث في الشخصية المرضية ، ومن نظريات العلاج النفسي ومن الخبرات والممارسات الكلينيكية لعلماء النفس ، كما لو أن الشخصية السوية ، بخصائصها ودينامياتها وشروط بنائها ، هي « عكس » الشخصية المرضية !

إن علم النفس مطالب بأن يكون أكثر توجها نحو تناول الانسان السوى من منظور أكثر صحية ، تناول الانسان بكامل إنسانيته Fully Luman ؛ وبأن يكون أكثر توجها نحو تركز البحث في شروط ومقومات وديناميات وأشكال السواء النفسي وفي ضمانات تدعمه واستمراره ، وبأن يكون أكثر توجها نحو بناء طرق للبحث تهدف الى الكشف عن الجوانب الايجابية ، البنائية ، الا بداعية في الشخصية ؛ وبأن يكون أكثر توجها نحو تبني استراتيجيات تهدف الى تنمية الانسان ـ الشخصية .

فرغم الانجازات العظيمة لعلم النفس ، الا انه مطالب ، الآن وأكثر من اي وقت مضى ، بأن يكون أكثر سوية في بحثه للانسان السوي ؛ وبأن يقدم للعلم تحليلا علميا دقيقا لحقيقة الشخصية السوية ، يضاف الى ما أسداه ويسديه للانسانية من مقومات لحياة إنسانية أكثر استحقاقا وفعالية وإبداعية . هذا التوجه نحو البحث في السواء النفسي والشخصية السوية تمليه عدة اعتبارات ، منها :

(3) Shoben, E.J. Toward a concept of the normal personality. **American Psychologist'** 1957, 12, 183 - 189.

رغم ان التنظير والبحث في الشخصية السوية قد أفاد بالفعل من البحث في ديناميات الشخصية المرضية ، الا أن فهمنا لسواء الشخصية لا يزال في معظمه مستمد من نتائج البحث في أمراض الشخصية .

رغم توفر بعض الكتابات والدراسات عن الشخصية السوية ، الا انها لا زالت في معظمها مجرد تصورات نظرية أو حتى فلسفية تتطلب تحقيقا تجريبيا .

رغم أن عدد الأشخاص الأصحاء نفسيا اكثر من عدد مرضى الشخصية (على الاقل من الناحية الاحصائية وفقا لقاعدة التوزيع الاعتدالي) ، الا أن حجم البحوث في هذا الميدان قليل في جملته .

رغم أن عدد الاشخاص الأصحاء نفسيا لايزال يفوق عدد مرضى الشخصية ، الا أن البيانات والاحصاءات تشير الى أن ثمة تناقصا باديا في معدل الأشخاص الأصحاء نفسيا ، وتزايدا في عدد الاشخاص الذين يعانون من أشكال اضطرابات الشخصية المختلفة .

ورغم أن عصرنا الحاضر ، وهو عصر الثورة العلمية التكنولوجية ، قد توفرت فيه منجزات حضارية فذة ، الا أنها تحمل في طياتها أيضا الكثير من الآلام والمتاعب النفسية ، والكثير من مقومات التدمير والتخريب ، وبالتالي الكثير من الشقاء الانساني ؛ وهذا يستلزم بناءًا للشخصية أقدر على مواجهة ضغوط هذا العصر ومتطلباته ، وأكثر استجابة لمقومات التقدم والارتقاء .

●●●

والدراسة الحالية تعرض بالتحليل العلمي للمفاهيم المختلفة للسواء النفسي في سياق أطر وتصورات نظرية متباينة ، ولمظاهر وخصائص الشخصية السوية كما كشفت عنها النظريات والأبحاث الرئيسية التي توفرت في هذا الميدان أو يمكن أن تفيده . ومن هذا « التحليل » المتعمق نحاول استخلاص « تركيب » لنموذج الشخصية السوية من حيث تمايزها وتفردها .

ومن المفيد في مدخل هذه الدراسة ايضا أن نقدم لها بالتعريف بطبيعة الشخصية الانسانية .

فالشخصية ، كما يحددها قاموس علم النفس ، هي تنظيم متكامل وديناميي للخصائص الجسمية (مثل وظائف الجهاز العصبي المركزي وخصائصه المورفولوجية ، ووظائف الحواس والغدد وغيرها) ، والخصائص العقلية المعرفية (كالقدرات العقلية ، والوظائف العقلية العليا من احساس

وادراك وتفكير وذاكرة وتخيل . . . .) ، والخصائص المعنوية (كالقيم والمثل . . .) ، والخصائص الانفعالية الاجتماعية (كنوع الأنفعالات السائدة ، والاتجاهات الاجتماعية ، ودور الفرد في الجماعة ومركزه فيها . . . .) ـ هذا التنظيم يتضح في تفاعل الفرد مع الاشخاص الآخرين وفي الحياة الاجتماعية المبنية على الأخذ والعطاء . والشخصية بتحليل أكبر تتضمن الحوافز الطبيعية والمكتسبة والعادات والاهتمامات والميول والعواطف والمثل والأفكار والمعتقدات ، كما تتضح في علاقة الفرد مع وسطه الاجتماعي [٤] .

واذا استعرضنا معظم المفاهيم الرئيسية للشخصية، نجد انها تتفق بشكل او بآخر مع هذاالتعريف «*».

يكشف « جوزيف نوتان » ، رئيس المنظمة الدولية لعلم النفس عن الفترة ما بين المؤتمر الدولي العشرين (طوكيو ١٩٧٢) والمؤتمر الدولي الحادي والعشرين لعلم النفس (باريس ١٩٧٦) ، عن طبيعة الشخصية الانسانية وما تنطوي عليه من إمكانات النماء والصيرورة : [٥] .

يفهم علماء النفس كقاعدة ، الشخصية على أنها تنظيم داخلي للسمات والاتجاهات والاستعدادات والاتساقات السلوكية . حقيقة ، الشخصية هي ذلك التنظيم الداخلي ؛ ولكن الخاصية الأساسية المميزة للشخصية ، أكثر من أية خاصية أخرى ، تختفي في ذلك المفهوم ـ **الشخصية أساسا بنية تتجاوز تنظيمها الداخلي** . فأبرز معالمها المميزة تتمثل في تلك الحقيقة بأن النظرة الى العالم والتعرض له والانضواء فيه ، تكون متضمنة في تكوينها . **الشخصية طريقة للوجود والسلوك Way of being and behaving في عالم يوجد بالنسبة للذات** . فالنظرة الى العالم أو الموقف الحياتي مكون ضروري للشخصية ذاتها . بهذا المعنى **تكون البنية الأساسية للشخصية هي « وحدة الأنا ـ العالم »** . وفي الحقيقة ، إن الشخصية تتألف من أنماط مختلفة من علاقات الأنا ـ العالم ، تلك العلاقات اللازمة بالفعل لتوظيف الشخصية **Personality Functioning** ، ليس على مستوى التفاعل البيوـ كيميائي بين الكائن الحي ـ البيئة فحسب ، ولكن ايضا على مستوى العلاقات المعرفية والوجدانية بين الأنا ـ العالم [٦] .

(4) Drever, J. **Dictionary of psychology**. Penguin books, 1973.

(5) Nuttin, J. Consciousness, behavior, and personality. **Psycholol.** Rev. 1955,62,349-355.

(6) Ibid.

«*» يمكن الرجوع في ذلك الى بعض المصادر العربية مثل :

- محمد عماد الدين اسماعيل : الشخصية والعلاج النفسي . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .
- سيد غنيم : سيكولوجية الشخصية . القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ .
- سعد عبد الرحمن : السلوك الانساني . الكويت : مكتبة الفلاح ، ١٩٧١ .
- هول ، . لندزي ، ج : نظريات الشخصية . ترجمة : فرج أحمد واخرين . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، ١٩٧١ .

تحديد طبيعية الشخصية على هذا النحـو ينطوي عـلى مفهوم آخـر لجانب أسـاسـي من جوانب الشخصية ، وهو الوعي ، الذي يضيء كافة أركانها ، ويرشد سلوكها ، ويستلهم انطلاقتها وتساميها . والوعي لا يشير أساسا ، خلافا للنظرة الاستبطانية ، الى عالم داخلي يتكون من تمثيـلات ومعاني ، فالوعي هو الحضور الفوري للعالم ذاته ؛ هو التعرض الى العالم السلوكي الحقيقي . والانفتاح عليه ، وليس انحصارا في عالم داخلي من التمثيل **Represenation** . وبالوعي « التأملي » يكون الانسان حاضرا بالنسبة لنفسه . ويؤدي حضور الانسان بالنسبة لنفسه الى تمكينه من النظر الى نفسه والى العالم من زوايا مختلفة ، والى أن يعمل على إعادة تشكيل شخصيته ذاتها . هذا الحضور يمكنه من التدخل ، بقصد ، في مسار نموه لكي يعيد بناء علاقاته مع البيئة . تلك هي الوظائف « العليا » للوعي التي تحرر الشخصية من الانغلاقية . وتلك هي الامكانية الانسانية التي تعتبر أساس تلك الاشكال الراقية من السلوك كالعلم والجهود القصدية الرامية الى تحسين الذات [٧] .

●●●

مفاهيم الشخصية السوية

من المشكلات الرئيسية في ميادين دراسة الشخصية والصحة النفسية وعلم النفس المرضي تلك الصعوبة الكبيرة التي تكتنف مفهوم « السوية **Normality** » ؛ وهي مشكلة قد آلت بدورها الى صعوبات بالغة بالنسبة للبحث العلمي في هذه الميادين . [٨]

تعني كلمة norm معيار قاعدي **authoritative standard** ، وبالتالي تعني كلمة (سوى **normal**) الالتزام بهذا المعيار . وتكون الشخصية السوية بذلك هي الشخصية التي يساير سلوكها ذلك المعيار القاعدي والشخصية غير السوية هي التي لا يتفق سلوكها مع ذلك المعيار . والواقع ان محاولات تحديد هذا المعيار قد آلت الى انواع مختلفة من المعايير التي يجري استخدامها في تعيين مفهوم الشخصية السوية وتمييزها عن الشخصية غير السوية ، كما يتضح من العرض التالي :

المعيار الاحصائي :

يشير مفهوم السوية الى تلك القاعدة الاحصائية المعروفة بـالتوزيـع الاعتدالي **normal distribution** التي تقوم على التوزيع ذي الحدين **binominal distribution** فيأخذ التوزيـع

(7) Ibid.

(8) Scott, W.A. Research definitions of mental health and mental illness. **Psychol. Bull.'** 1958,55,29-45.

شكل المنحنى الجرسي . هذا المنحنى طرفاه متناسقان بحيث لو قسمناه عند المنتصف بخط رأسي فاننا نحصل على نصفين متكافئين غالبا . وعلى هذا المنحنى يقع حوالي ٦٨٪ من عدد الأفراد في المستوى المتوسط من السمة التي نقيسها ، في حين يتضمن طرفا المنحنى (الطرف الموجب والطرف السالب) ١٦٪ من التوزيع في كل طرف من الطرفين . والسوية هي المتوسط العام لمجموعة الخصائص والأشخاص ، في حين يشير الانحراف على طرفي المنحنى الى اللاسوية او غير العادية . وتعني اللاسوية بذلك انحراف سلوك الفرد عن الآخرين أو عن الأنماط السلوكية العادية . والشخص غير العادي او اللاسوي هو الذي ينحرف عن المتوسط العام لتوزيع الأشخاص او السمات او السلوك .

هذه المظاهر اللاسوية ، من منظور المرغوبية الاجتماعية social desirability قد يأخذ بعضها طابعا إيجابيا ـ مثل الذكاء المرتفع والعبقرية والابتكار والخلق الطيب ـ وهو ما يعرف بـ « **اللاسويات الايجابية** » positive abnormalities؛ في حين أن المظاهر اللاسوية الأخرى قد تكون ذات طبيعة سلبية كالأمراض العصابية (النفسية) والأمراض الذهانية (العقلية) والاضطرابات السلوكية والتخلف العقلي واضطرابات الخلق وغير ذلك مما يعرف بـ « اللاسويات السلبية » negative abnormalities(٩) .

قياسا على هذا المعيار الكمي الاحصائي ، يمكننا أن نطرح السؤال التالي : **هل يمكن تحديد عدد الاشخاص ذوي الشخصيات السوية ؟** والواقع أن تحديد عدد الأشخاص ذوي الشخصيات السوية أصعب كثيرا من تحديد عدد الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات او أمراض الشخصية . يعزي ذلك الى سببين رئيسيين :

السبب الأول ، هو عدم وجود سجلات للأشخاص الأصحاء نفسيا ، في حين أن سجلات الأشخاص ذوي الشخصيات المرضية متيسرة في المؤسسات والمصحات والعيادات النفسية ، وفي المدارس والكليات ، وفي التقارير المهنية . ورغم ما يشوب هذه السجلات من نقص ، إلا أنها تعطي فكرة الى حد كبير عن النسبة المئوية لذوي الشخصيات المرضية باختلاف درجات انحرافها .

أما السبب الثاني ، فهو الغموض الذي يكتنف محكات الشخصية السوية . فالبعض قد يعتبر الشخص الذي لا يكون مزعجا والذي يتوافق مع الآخرين ومع مواقف الحياة عامة شخصا سويا . ولكن هذه المحطات تخفق في أن تضع في الاعتبار ذلك المطلب الرئيسي بأن التوافق عند الشخص

(9) Szasz, T. **The Myth of mental illness.** New York : Harper & Row Pub., 1961.

ينبغي أن يكون مصحوبا بالرضا عنده وبتوافقه مع نفسه . ويعتبر آخرون أن مصطلحات مثل « صحي » و« سوي » و« مثالي » و« خاصية المتوسط » على أنها مترادفات ، وأن « السواء » و« الصحة » تعني غياب أي شكل من أشكال المرض أو أي درجة من درجاته . ولكن ، من المشكوك فيه ، كما هو الحال بالنسبة للصحة الجسمية ، أن نجد شخصا خاليا من درجة ما من الاضطراب النفسي [١٠] .

المعيار القيمي

من الصعب تحديد مفهوم السوية بمعزل عن النظام القيمي . هذا المعيار القيمي او الأخلاقي قد يتعارض في بعض الأحيان مع تصورات بعض علماء النفس والطب النفسي الذين يسعون الى التوصل الى تعريفات لا تولي أهمية كبيرة للمعايير القيمية والأخلاقية .

فمن المنظور القيمي أو الأخلاقي ، يستخدم مفهوم « السوية » لوصف مدى اتفاق سلوكنا مع المعايير الاخلاقية في المجتمع وقواعد السلوك السائدة فيه ، وكيف يكون سلوكنا مقبولا بالنسبة لأنفسنا وللآخرين . وعلى هذا النحو ينظر الى السوية على أنها « مسايرة » او « اتساق » او « أخلاقية » [١١] .

تعني السوية كمسايرة conformity موافقة السلوك للأساليب او المعاني التي تحدد التصرف او المسلك السليم في المجتمع . ويعتبر الاسلوب الاتفاقي مقبولا لذاته ، لأن الممارسات العامة لمعظم الناس في مجتمع من المجتمعات هي الأساس السليم لتحديد معايير السلوك لدى الفرد بصفة عامة .

ويشير مفهوم السوية كاتساق consistency الى معايير التقبلية acceptability standards للقيم من وجهة نظر الفرد ذاته ؛ فالشخص السوي هو الذي يتسق سلوكه مع المعايير القيمية . بهذا المعنى يعتبر السلوك سويا اذا كان يقابل محكات ثلاث :

(١) التبصرية intelligibility أي ندرك بأننا نفهم طبيعة سلوكنا والدوافع الكامنة وراءه .

---

(10) Mc Cammon, R.W. The concept of normality. Ann. N.Y. Acad. Sci. 1966,134,559-562. Simonson, E. The concept and definition of normality. Ann. N.Y. Acad. Sci.' 1966, 134,541,-558.

(11) London, p. & Rosenhan, D. The meaning of abormality. In "Foundations of Abnormal psychology,, N.Y.' 1968.

(٢) التنبؤية predictability أن ندرك بأن سلوكنا يمكن التنبؤ به على أساس ما نعرفه عن ذواتنا .

(٣) الضبط control أي الوعي بأن سلوكنا يخضع لرغباتنا ومقاصدنا لكي نأتي بسلوك ما أو لكي نمتنع بارادة عن فعل سلوكي معين .

أما النظر الى السوية كأخلاقية morality، أي في ضوء مبادىء أخلاقية أو قواعد سلوكية تقرها ثقافة المجتمع ، فيتحدد بمعايير التقبلية التي لا ترتبط بالممارسات العامة ولا بتوقعات الفرد بالنسبة لذاته ، وانما يتحدد أساسا بالمعايير المعنوية أو المثالية التي يعتقد بأنها تميز كل تفكير سليم ، وكل مشاعر طيبة ، وكل عمل جيد . وينطلق هذا التصور ، على سبيل المثال ، من عدة مبادىء مفادها أن الناس « ينبغي » أن يسلكوا على نحو ما ، وأن يراعوا ما تفرضه قيم المجتمع من أوامر ونواه وقواعد للسلوك . فمن السواء أن تحب وأن تعمل وأن تؤمن بالله عز وجل ؛ وأن لا تكون منسحبا او خجولا أو متهورا او عدوانيا او حاقدا . . . . الخ .

النظام القيمي لتحديد مفهوم السوية يقوم اذن على جوانب ثلاث : التوجه الاجتماعي socially oriented، والتوجه الذاتي self - oriented، والتوجه المعنوي المستمثل idealized moral oriented للشخصية الانسانية .

والواقع ، أنه بصرف النظر عن المفهوم الذي يتبناه عالم الشخصية للسوية ، فان هذا المفهوم يؤول غالبا الى حكم مستمد من نظام قيمي معين . وقد يعتقد الاخصائي الكلينيكي أن القيم لا تدخل في علاقاته العلاجية مع المرضى ، ومع ذلك ، لا يستطيع الاخصائي الكلينيكي أن يقوم بالعلاج دون ان يتبنى لنفسه ، بطريقة صريحة او ضمنية ، نظاما ما من القيم [١٢] . بل ان مجرد قول المعالج للمريض عبارة مثل ، « سوف لا أخبرك بما تفعله ولكن سوف أساعدك على اختيار البدائل حتى تستطيع أنت ان تتخذ قرارك » ، لا يعتبر وسيلة لاستبعاد القيم من العلاقة العلاجية .

مفهوم السوية بين المعيارين الاحصائي والاخلاقي ؟

لقد آل تحديد مفهوم الشخصية السوية على أساس معيارية السلوك التي تبني تصورين مختلفين ـ

(12) Glad, D.D. **Operational values in psychotherapy.** New York : Oxford University Press, 1959.

أحدهما إحصائي والآخر قيمي أخلاقي ، الأول يركز على المتوسط او المألوف أو الاعتيادي ، والثاني على المرغوب أو على القيمة .

والواقع أن هذين المعيارين ليسا مختلفين فحسب ، ولكنهما كثيرا ما يتعارضان مع بعضهما تعارضا شديدا . فعلى سبيل المثال ، من المألوف او الاعتيادي بالنسبة للناس ان يحملوا في طبيعتهم بعض النزعات السلبية أو الهدامة ـ مثل بعض أمراض الجسم ، وبعض دلائل العصبية ، وبعض العادات السلوكية المحبطة للذات ؛ ولكن هذه النزعات رغم أنها عادية او مألوفة أو في معدل المتوسط إلا أنها غير صحية . فما هو مألوف او اعتيادي قد لا يكون هو المرغوب ؛ وما يكون سويا في ناحية قد لا يكون سويا من ناحية أخرى . ولا شك أنه لا يوجد نظام أخلاقي في العالم المتمدين يتمسك بفكرة الانسان العادي average man كنموذج مثالي للتنشئة الاجتماعية للاطفال . فليست « الحقائق الواقعية » للطبيعة الانسانية وانما بالأحرى « إمكاناتها » هي التي تزودنا على نحو ما بمعيار للشخصية السليمة او الصحية .

ان هذا المعنى المزدوج لمفهوم السوية لم يكن يمثل مشكلة بالنسبة لعلم النفس في مطلع هذا القرن ، مقارنة بما ينطوي عليه اليوم من صعوبات بالغة . لقد كان الاهتمام الأساسي لعلم النفس في تلك الفترة هو اكتشاف المعايير العادية average norms لكل وظيفة من الوظائف العقلية . وغدت مفاهيم إحصائية مثل المتوسط والمنوال والأس تحتل مكانة كبيرة ، وصار لعلم النفس الفارقي مركز الصدارة . ولذا لقيت فكرة منحنى التوزيع الاعتدالي من علماء النفس قبولا ؛ فاعتبروها مقياسا معقولا للسوية . وفي ذلك أيضا شهدت هذه الفترة تقريبا ، وخاصة في العشرينات من القرن الحالي ، نمو فكرة « التوافق النفسي » وقوامه السلوك العادي او المألوف . ولكن الموقف الآن قد تغير ـ فاهتمام معظم علماء النفس موجه الى تحسين السلوك الانساني العادي ، لأنه من المشكوك فيه كثيرا بقاء الانسان العادي او المتوسط mediocre man. فكلما انتشر « الأنومي » الاجتماعي social anomie (انعدام المعايير الاجتماعية) ، وكلما أصبح المجتمع ذاته أكثر مرضية ، فاننا نشك في أنّ الانسان العادي أو المتوسط سوف يهرب من المرض العقلي والجنوح ، او سوف يقي نفسه من بطش المستبدين والدكتاتوريين . وكما نرى ، لا يقدم لنا منحنى التوزيع الاعتدالي أي أمل للخلاص من هذا الموقف . فنحن بحاجة الى مواطنين أسوياء وأصحاء بمعنى أكثر ايجابية . والعالم بحاجة الآن الى مثل هؤلاء المواطنين .

ولهذا السبب يسعى علماء النفس الى البحث عن تعريف جديد للسواء واللاسواء ، وعن محكات جديدة تتجاوز المجال التقليدي لفلسفة الاخلاق . ويدرك علماء النفس أيضا ان الفلاسفة قد أخفقوا

في إقرار معايير قاعدية لما يؤلف الحياة السليمة ـ وهي تلك الحياة التي ينبغي أن يسعى المربون والآباء والمعالجون الى تشكيلها . لذلك يحاول علماء النفس ان يدفعوا البحث في هذا المجال بطريقة جديدة ، وأن يتجنبوا ـ اذا استطاعوا ـ المزالق التقليدية لعلم القيم .

المعيار الطبيعي :

ثمة محاولات لاشتقاق مفهوم السوية (بالمعنى القيمي) من حقيقة الانسان (بالمعنى الطبيعي) . والهدف من هذه النظرة الطبيعية هو استنباط مفهوم للسوية naturalistic derivation من البحث عن القواعد الاخلاقية استخلاصا من البيولوجيا وعلم النفس ، وليس من نظرية القيم مباشرة . هذه النظرة تسعى بشجاعة الى البحث عن « الينبغيات » the oughts (وهي الهدف الذي ينبغي ان يتوجه المعلمون والمرشدون والمعالجون الى تحقيقه) من « ماهية » the is الطبيعة الانسانية . تتمثل هذه النظرة في تصورات عالم النفس الامريكي « شوبان » وعالم الاجتماع الانجليزي « هالموس » .

يتساءل « شوبان » ما هي الفروق النفسية الرئيسية بين الانسان والحيوانات الدنيا ؟ (١٣) يحدد شوبان خاصيتين إنسانيتين متميزتين . وهو وإن كان لا يزعم بأن إجابته كاملة في هذا التحديد ، إلا أنه يأتي بافتراض زائد في سيكولوجيته extra psychological assumption مؤداه أن الانسان ينبغي أن يصل بخصائصه التي يتفرد بها كانسان الى المستوى الاقصى .

الخاصية الاولى ، هي مقدرة الانسان الفريدة على استخدام اللغة الرمزية propositional language (المقدرة على الترميز symbolization) بهذه الامكانات التي يتفوق بها الانسان على الحيوان ، يستخلص شوبان عدة مؤشرات نوعية للسوية . فبفضل اللغة الرمزية ، يستطيع الانسان ، على سبيل المثال ، أن يرجىء حاجاته وإشباعاته ؛ وأن يحتفظ في عقله بهدف بعيد ، وباثابة مرجأة ، وبهدف قد يحققه فقط في نهاية حياته او ربما لن يصل اليه على الاطلاق . وبفضل اللغة الرمزية ، يستطيع أن يتخيل مستقبلا لنفسه أفضل كثيرا من حياته الحاضرة . وهو يستطيع بذلك أيضا أن يكون نظاما متينا من المفاهيم الاجتماعية يساعده على اقامة كل العلاقات الممكنة مع الآخرين ،

(13) Shoben, E.J. Towars a concept of the normal personality. Amer. Psychologist' 1957,12,183-189.

تتفوق كلية مع الطقوس الجامدة للتعايش rigid symbiotic rituals التي تعرف بها مثلا بعض الحشرات الاجتماعية .

ان المقدرة الرمزية للانسان هي التي تجعله هكذا المخلوق الوحيد الذي يستطيع « النظر الى الأشياء في حضورها وغيابها ، والتطلع الى ما هو مستحيل » . فالكلام الرمزي يمكنه من التعلم ليس من خبرته الشخصية فحسب ، ولكن أيضا من خبرات الآخرين في أوقات وأماكن أخرى ، ومن التنبؤ بنتائج سلوكه ، ومن أن تكون له مثله وقيمه . هذه الامكانات الرمزية الثلاث («أ» الاستعداد للافادة من الخبرة ـ بما فيها خبرة الآخرين ـ عبر الزمن ، « ب » المقدرة على التبصر وبعد النظر وعلى الضبط السلوكي النابع من الداخل من خلال توقع نواتجه ، «جـ» المقدرة على تخيل عوالم أخرى يقربها الى قلبه) تؤلف المجموعة الرئيسية للامكانات الانسانية المتميزة .

أما الخاصية الثانية التي يتميز بها الانسان ، فهي طول فترة الطفولة عند النوع الانساني بسبب عدم الاكتمال البيولوجي النسبي عند الطفل ، وهي فترة قد تطول أكثر كلما أصبحت الثقافة أكبر تعقيدا . هذه الخاصية تحدد شرطين أساسيين للحياة الانسانية : الشرط الأول هو ان بقاء الفرد واشباع حاجاته وشعوره بالرضا يتطلب حتمية الاعتماد على الآخرين . أما الشرط الثاني فهو مسؤولية الكبار وتعاطفهم وغيرتهم التي تعتبر شرطا ضروريا للبقاء الانساني . ويقوم المجتمع الانساني على علاقة تبادلية بين الاعتماد والمسؤولية ؛ هذا الاعتماد المتبادل يعطي للحياة الانسانية خاصية اجتماعية لا نجدها في المملكة الحيوانية .

من هذين النمطين للامكانات الانسانية الفريدة (المقدرة الرمزية ، والطبيعة الاجتماعية للحياة الانسانية) ، يستخلص « شوبان » تصوره للسوية على أساس نموذج معياري Normative model أو نموذج مثالي Ideal model للشخص السوي أو للشخص النامي على نحو ايجابي أو للشخص المتوافق على نحو تكاملي . يطلق شوبان على تصوره « نموذج التوافق التكاملي » (model of integrative adjustment) : فالشخص السوي يتسم بالاحساس بالمسؤولية الشخصية لأن المسؤولية مقدرة مميزة نابعة من الاحتفاظ في عقله بصورة رمزية عن المستقبل ، ومن ارجاء اشباعاته ومن قدرته على السعي والكفاح وفقا لتصوراته عن أفضل مبادىء وسلوك بالنسبة لنفسه . كذلك تعتبر المسؤولية الاجتماعية من المعالم المميزة للشخص السوي ، فكل هذه المقدرات الرمزية يمكن أن : تتفاعل مع ذلك العامل الفريد وهو الثقة أو الغيرية . ويرتبط بذلك محك الاهتمام الاجتماعي الديمقراطي . وفقا لهذا التحليل الطبيعي أيضا ، يعتبر اكتساب المثل

والمقدرة على ضبط الذات من معالم الشخصية السوية . ويشير شوبان بحق الى أن الاحساس بالذنب هو نتيجة حتمية لاخفاق الانسان في أن يعيش وفقا للنموذج الانساني المتميز ، ومن ثم ينبغي أن يتضمن مفهومنا للسوية كذلك معايير الاحساس بالذنب وأساليب التكفير عنه بطريقة بناءة .

ذلك هو تصور « شوبان » للشخصية السوية . وهو وان كان يلقى تقديرا بالغا من علماء النفس ، الا أنه قد يقابل باعتراض من وجهة النظر الفلسفية : فاننا لا نستطيع أن نستخلص « ما ينبغي أن يكون عليه الانسان » من « ماهية » الطبيعة الانسانية . فما هو إنساني بشكل متميز ليس بالضرورة أن يكون طيبا وخيرا .

أما المحاولة الثانية للوصول الى معيار طبيعي للسوية ، فتتمثل في كتاب بول هالموس « نحو مقياس للانسان » ، حيث يبدأ تصوره بطرح السؤال التالي « ما هو الحد الأدنى للشروط اللازمة للبقاء »[١٤] ؟

يقرر « هالموس » ان ما يكون دون مستوى الحد الأدنى ، فإنه يقع في نطاق اللاسوية ويؤدي الى الموت والدمار . ويطلق على ذلك محك اللا سواء أو الشذوذ abnorm ، ويعتقد أن بإمكاننا تحديده ، حتى وإن كنا لا نستطيع تحديد السوية ، لأن الناس بصفة عامة تتفق على ما هو سيء بالنسبة للانسان أكثر مما تتفق على ما هو حسن وخير بالنسبة له .

يحدد « هالموس » الحاجة الى البقاء بحاجتين رئيسيتين : الحاجة الى النمو Need for growth والحاجة الى الترابط الاجتماعي Need for social cohesion يعني النمو الاستقلالي وعملية التفرد ، أما الترابط فهو الحقيقة الاساسية للاعتماد الاجتماعي المتبادل الذي يتضمن ، على الأقل بالنسبة للانسان ، الثقة والتبعية والزواج وتأسيس أسرة .

ويذهب « هالموس » الى أننا ربما نستطيع تحديد « اللاسواء » أو « الشذوذ » ، وذلك عن طريق اعداد قائمة بالشروط أو الظروف المعطلة للنمو والترابط . في مقدمة هذه الشروط الاضطرابات المتعلقة بتدريب الطفل . ويقول إن « الاعاقة المستمرة » أو المتكررة للتقارب الفيزيقي بين الأم والطفل » ، أو « النبذ الانفعالي » للطفل بواسطة الأم تمثل شروطا تؤدي بقاء الفرد والجماعة . هذا المحك الأولي للاسوية يكمن وراء « الحيلولة دون تحول الترابط الى حب » . ومعظم ما هو غير سوي يتتبعه ويرجعه الى الاخفاق في مبدأ الترابط ، لأن الطفل يصير لحوحا وكثير المطالب وقسريا بشكل زائد . ويتفق ذلك مع دراسات وكتابات « بولبي » و « ايريكسون » و « ماسلو » .

(14) Halmos, P. **Towards a measure of man : The frontiers of normal adjustment.** London : Routledge & Kegan Paul, 1957.

ويقبل « هالموس » تضمين قائمته الخاصة بـ « اللاسواء » زملات الأعراض التي يقرها الأطباء النفسيون . فمن اللا سواء ، مثلا ، إذا كان السلوك يتكرر بصرف النظر عن الموقف ولا يتعدل بواسطة ما يترتب عليه من نتائج ، واذا كانت الانجازات التي يحققها الفرد أقل باستمرار من امكاناته ، وكذلك إذا كانت الاحباطات النفسية الجنسية تعوق كل النمو والترابط .

ومما تجدر ملاحظته ان الوظائف الرئيسية للنمو والترابط كما قررها هالموس قد أكدت عليها الكثير من الكتابات السيكولوجية .

يعد « بيرجسون » و « يونج » و« آنجوال » من بين المفكرين الذين يوافقون على أن « السوية » تتطلب توزانا بين الفردية والجماعية ، بين الاستقلالية والتبعية . وقد لقيت هذه المفاهيم تأييدا لدى كثير من العلماء . يقول « ويرنر وولف » (١٥) :

« حينما يوجد شخص نفسه بدرجة مفرطةمع جماعة ، فالنتيجة أنه يفقد قيمته ، ومن الناحية الأخرى، يترتب على العجز الكلي للفرد في التوحد أن البيئة تفقد قيمتها بالنسبة له ، في كلتا هاتين الحالتين المتطرفتين ، تختل العلاقة الدينامية بين الفرد والبيئة . فالشخص الذي يسلك على هذا النحو هو ما يسمى بـ « العصابي » . أما في الجماعة السوية فيحتفظ كل عضو بفرديته ولكنه يتقبل دوره كمشارك في الجماعة كذلك » .

والواقع ، أنه بينما يوجد اتفاق كبير على أن الشخصية السوية ينبغي ان تستقر على توازن بناء بين النمو كفرد والترابط مع المجتمع ، الا أننا لانملك بعد محكا واضحا ، به نحدد متى تكون هذه العوامل في توزان بناء ومتى لاتكون كذلك ، وكيف نحدد التوازن الأمثل بين الترابط والنمو داخل الشخصية الواحدة ؟

المعيار الثقافي :

الشخصية الانسانية هي بدرجة كبيرة انعكاس للواقع الثقافي الذي يعيشه الفرد . فالمجتمع وثقافته ، بما يخلقانه من أشكال التفاعل الانساني وبما ييسرانه من ظروف لنمو الشخصية وتشكلها ، يمثلان محددات رئيسية لبناء الشخصية .

(15) Wolf, W. **The threshold of the abermal.** New York : Hermitage House, 1950,pp.131F.

فالانسان (الشخصية) كائن حي ، اجتماعي وتاريخي ، يشتق الكثير من حياته من التركيبات الاجتماعية والتاريخية ، وهو كائن محكوم ببعدى الزمان والمكان ، يكون أسلوب حياته انعكاسا لثقافة عصره .

وعادة ماينطوي مفهوم الشخصية السوية على بيئة صحية خالية الى حد كبير من عوامل الضغط والشدة . مثل هذه البيئة تيسر مقومات النمو السوى وتقلل من عوامل التأزم والاضطراب النفسيين . ويؤدي الجو الاجتماعي الذي تغلب عليه عوامل الضغط والتوتر الزائدين الى تثبيط واهدار جهود الافراد في التمكن من أنفسهم وفي السيطرة على بيئاتهم . فمثلا ، لاحظ علماء عديدون أن التباين بين مستوى الطموح وفرض تحقيق المطامح في بعض الجماعات يعتبر مصدرا للضيق والتوتر النفسيين (١٦) . وهم يقررون أنه اذا اتسم أسلوب حياة الجماعة (وهو الثقافة) بعوامل الصراع والتنافس والفردية وقلة الفرص المتاحة لكي يحقق الأفراد ذواتهم ، انما تكثر فيه ردود الأفعال المرضية ومظاهر النشاط المضاد للمجتمع (١٧) . لذا ، فان تحديد مفهوم الشخصية السوية لاينفصل عن الاطار الثقافي وعما يستحسنه ويثيبه من أنماط السلوك وعما يقره من قواعد ومعايير للسلوك والعلاقات .

فوفقا للمعيار او المفهوم الثقافي للشخصية السوية ، حكمنا على السلوك في اطار الجماعة المرجعية للفرد . هذا المفهوم الثقافي أقرب الى المفهوم الاحصائي ، فيما عدا أن المعايير الثقافية للحكم على السوية تكون كثيرة ومتعددة وفقا لكثرة وتعدد الثقافات .

ولعل من الصواب ، لذلك ، أن نتناول الشخصية السوية كمفهوم ثقافي على أساس معايير النسبة الثقافية Cultural relativism ـ فما هو سوى في جماعة قد يعتبر شاذا أو مرضيا في جماعة أخرى . ويعني ذلك أن الحكم على السوية لايمكن التوصل اليه الا بعد دراسة ثقافة الفرد وتحليلها الى الثقافات الفرعية المختلفة .

هذا المفهوم الثقافي للسوية ينطوي على مبالغة زائدة في الاخذ بمعايير « المسايرة » : فالاشخاص المسايرون للجماعة ولأسلوب حياتها هم الاسوياء ، في حين أن غير المسايرين هم غالبا من غير

(16) Parker,S. & Kleiner, R. **Mental illness in the urban negro community.** New York, 1966.

(17) Horney, K. **The neurotic personality of our time.** New York, 1939.

الاسوياء . ورغم ما للمسايرة من أهمية في عملية التوافق ، الا انها قد تفتح المجال أمام الانتهازية وايثار المصالح الذاتية وعدم تبلور الهوية والتقبل غير الناقد لأوضاع غير سليمة ، وقد تغلق الباب في وجه البعض من غير المسايرين الذين يجتهدون ببصيرة في سبيل بناء المجتمع وتطوره وقد يعانون في سبيل ذلك ، ناهيك عن أن المسايرة الزائدة هي بذاتها سلوك مرضى .

المعيار الذاتي (الظاهري) :

وهو السوية كما يدركها الشخص ذاته في نفسه . فبصرف النظر عن المسايرة او التوافق اللذين قد يبديهما الشخص على أساس المعايير السابقة ، فالمحك الهام هو ما يشعر به الشخص وكيف يرى في نفسه الاتزان أو السعادة . أي أن السوية هنا احساس داخلي ، خبرة ذاتية . فاذا كان الشخص يشعر بالقلق أو التعاسة ، فانه يعد وفقا لهذا المعيار الذاتي غير سوى .

رغم ما لهذا المعيار الظاهري (الفينو مينو لوجي) من أهمية في اختبار السوية ذاتياexperiencing ، الا أن علماء النفس والطب النفسي يقررون أن بعضا من المرضى النفسيين والعقليين يعطون تقريرات ذاتية وانطباعات شخصية عن هدوئهم واحساسهم بالسعادة . بالاضافة الى ذلك ، كثيرا ما يخبر معظمنا حالات من الضيق او القلق .

ولاشك أن مجرد الخلو من الضيق أو القلق ليس هو محك السوية . واذا لم يكن الأمر كذلك ، فما هو مقدار الضيق الذي يمكن أن نسمح به لأنفسنا من منظور السوية ، ولاي فترة من الوقت ؟ وغني عن القول ، أن الحياة والوجود تتضمنان وبالضرورة بعضا من الاحباط أو الضيق أو التوتر . ومن الصعب ، بأي معدل أو معيار ، ان نتخيل مجتمعا لايخلق قدرا معينا من عدم السعادة ، فما بالنا بالمجتمعات المعاصرة وما تفرضه على الانسان من مطالب وضغوط وتوترات .

المشكلة اذن ليست هي الصراعات والضغوط والتوترات من عدمها ، فهي مفروضة على الانسان بحكم طبيعة العصر ، انما المشكلة هي مقدرة الانسان على « مواجهة » هذه الضغوط وتنمية هذه المقدرة على المواجهة بما لا يخل بالتوازن النفسي للفرد .

المعيار الكلينيكي (١٨)

قد يتحدد مفهوم السوية او الصحة في ضوء المعايير الكلينيكية لتشخيص الاعراض المرضية : فالسوية او الصحة تتحددان على اساس غياب الاعراض والخلو من مظاهر المرض اما اللاسوية ،

(18) Affer, D. & Sabshin, M. Norm[illegible] : **Theoretical and clinical c[illegible]ept of mental health.** New. York : Basic Books, Inc., 1956:

فتتحدد بوجود اعراض المرض او الاضطراب . واذا تقبلنا هذا المعيار السلبي للسوية او الصحة فان بعض القضايا المنافية للعقل تصير ممكنة مثل : فلان كان سليما (خاليا من الاعراض) بالنسبة للقلب ، ولكنه توفي بالسرطان . وبنفس الطريقة ليس من المنطقي ان نقول ان شخصا قد استرد صحته النفسية (من الفصام مثلا)، ولكن يستمر بقاؤه نزيلا في احدى المصحات العقلية (بسبب الجنون الدوري : جنون الهوس والاكتئاب) . من الواضح بذلك اننا نستخدم مصطلح « الصحة » او « السوية » لنعني به الخلو العام من الاعراض ، اكثر مما يعني الخلو النوعي منها .

فالخلو العام من الاعراض مفهوم سلبي للصحة او السوية ، كما انه مفهوم ضيق ومضلل : فمن الصعب غالبا ان نفصل هذا المفهوم عن التضمين الايجابي للسوية لأنه لا يكفي ان يخلو الشخص من الاعراض المرضية لنعتبره سويا ، وانما ينبغي ايضا ان تلقى اهدافه وطاقاته وخبراته توظيفا فعالا في مواقف الحياة المختلفة فيحقق ذاته على نحو بناء . لذا فان المعيار الكلينيكي او السلبي لا يحدد الصحة او السوية على نحو ايجابي وذي معنى .

معيار النمو الامثل :

ادى قصور المعيار الكلينيكي وهو معيار طبي سلبي الى تبني نظرة اكثر ايجابية في تحديد معيار الشخصية السوية . يستند هذا المعيار الى تحديد « منظمة الصحة العالمية » لمفهوم الصحة على انها « حالة من التمكن الكامل ، الجسمي والعقلي والاجتماعي وليس مجرد الخلو من المرض او العجز ».

وفقا لهذا المعيار وهو معيار طبي ايجابي ، يتجاوز مفهوم الشخصية السوية ما هو ابعد من « المتوسط » او « العادي ». فهذا المعيار يؤكد على النمو الامثل optimal development اي على « تحقيق امكانات الفرد » وعلى « تحقيق الذات » كمحكات للشخصية السوية .

ورغم ما ينطوي عليه مفهوم النمو الامثل من قيمة بالغة في تحديد مفهوم الشخصية السوية الا انه من الصعب ان نحدد اي نموذج من السمات او الانماط السلوكية يشكل النمو الامثل . فما يعتبره الناس مرغوبا وامثل يعكس ثقافة المجتمع كما يعكس المعتقدات والقيم الشخصية للفرد الذي يصدر احكامه بشأن المستوى الامثل من نمو الشخصية ، ومن ثم فان مفهوم النمو الامثل مبدأ عام وليس محكات يمكن تحديدها وقياسها بدقة .

المعيار النظري

ثمة اتجاه يعمد الى اشتقاق معايير الشخصية السوية من اطار مرجعي نظري يستند الى تصور او

نموذج خاص للانسان , فنظرية التحليل النفسي على سبيل المثال تقدم اطارا مرجعيا تصوريا عاما لتقييم بناء الشخصية ونموها في عمليات متتابعة خلال مراحل نفسية جنسية (ليبيدية) وعلى اساس نمو الانا والانا الاعلى , ويذهب علماء التحليل النفسي الى ان الخلو من الكبت دليل على التوافق ويستنفذ المحلل النفسي ساعات علاجية كثيرة مع مريضه لكي يجعل ما هو لا شعوري شعوريا ويدخله في بؤرة وعيه ، ولكن اذا طبقنا الاطار المرجعي للتحليل النفسي على مواقف كثيرة فقد يكون نقص التعلم وليس الكبت هو المسئول مثلا عن السلوك المضاد للمجتمع او عدم السعادة او الضيق واليأس .

من ناحية اخرى قد يقوم الاطار المرجعي للشخصية السوية او التوافق السليم على نظرية التعلم الاجتماعي social learning theory (١٩) . ووفقا لذلك ، يعتبر الشخص متوافقا على نحو سليم اذا كان يعطي لاهدافه في الحياة قيمة عليا ولديه توقعات عالية بان انماطا سلوكية معينة سوف تنجح في تحقيقها وسوف تلقى استحسانا وتدعيما اجتماعيين.

والواقع انه من المتعذر ان لم يكن من المستحيل ان نفصل البحث في الشخصية وفي معايير سوائها وصحتها عن النظريات او النماذج او التصورات التي يتبناها علماء الشخصية ويطورونها ، ولكن المشكلة في تحديد معايير السوية والصحة النفسية تكمن في الاقتصار على اطار مرجعي نظري بعينه وفرضه بالقسر على كل جوانب الشخصية .فلا تستطيع نظرية سيكولوجية باطارها النظري وبادواتها وطرقها في البحث ان تدعي لنفسها انها تمثل النموذج الوحيد الذي يحيط بكل شخصية وبكل الشخصية.

الشخصية السوية مفهوم متعدد المعايير :

« من الواضح ان موضوع الشخصية قد تناوله علماء عديدون يمثلون اكثر من اتجاه نظري واحد ، ويستخدمون ادوات مختلفة للبحث ، ولذلك فمن الصعب كثيرا ان نحدد اي نظرية في الشخصية اكثر فائدة من الاخرى ، فكل النظريات مفيدة ولكن لا توجد نظرية واحدة كافية ، ومن ثم فان افضل تناول للشخصية هو من وجهات نظر كثيرة رغم انها غالبا ما تكون متعارضة (٢٠) . ان تحديد معايير متعددة (احصائية ، قيمية ، طبيعية ، ثقافية ، فينومينولوجية ، كلينيكية ، نمائية ، نظرية) لمفهوم الشخصية السوية لا يعني ان كل معيار منها يناقض الآخر او يجبه ، كما لا يعني اننا نفاضل فيما بينها . يعزى هذا التعدد الى ان الشخصية ذاتها ، شأنها في ذلك شأن معظم وحدات الدراسة في علم

(19) Rotter, J.B. Social learning and clinical psychology. Englewood cliffs, N.J. : Prentice - Hall, Inc., 1954.

(20) Wiggins, J.S., et al. The psychology of personality. London : Addison-Wesley Pub. Co., 1971, p. 4.

النفس ، بنية معقدة ، وان ما يحدد سوية الشخصية عوامل ومتغيرات عديدة متداخلة ، ولذلك فرغم تحديد هذه المعايير كمحكات منفردة الا ان المتمعن فيها يجد انها متداخلة فيما بينها ، بل ، ويعصب كثيرا ان نفصلها عن بعضها .

ومن هنا ، فان تقييم الشخصية وفقا لمعيار بعينه من معايير السوية انما هو اتجاه ينطوي على مخالفة لـ « طبيعة الاشياء » وعلى نظرة ضيقة مجتزأة لحقيقة الشخصية وللحكم على مدى سويتها . فالنظرة العلمية الى فهم الشخصية السوية تتطلب منا ان نضع في الاعتبار تكامل هذه المعايير التي يمثل كل منها منظورا نرى من خلاله الشخصية ونقيمها منه ، ومع ذلك فقد تملي طبيعة البحوث والدراسات في هذا الميدان والمنحى الذي تأخذه اهتماما بمعيار معين تتبناه اكثر من غيره من المعايير الاخرى .

عندئذ يبقى السؤال قائما : « ما هي الشخصية السوية ؟» والواقع ان الاجابة المحددة على هذا السؤال تستلزم منا تناول الشخصية السوية في ضوء الصحة النفسية ومعاييرها ,وبالتالي يمكن التساؤ ل بشكل اخر : من هو الشخص ذو الصحة النفسية؟ للاجابة على هذا السؤ ال الذي طرحناه بصيغتين مختلفتين نجد انه من الصعب كثيرا وضع حدود قاطعة بين الشخص السوي المتمتع بصحة نفسية سليمة والشخص غير السوي او سيء الصحة النفسية ,فالسوية ليست مفهوما مطلقا وانما هي بالأحرى مفهوم نسبي (٢١) .

فالشخص ذو الشخصية السوية او ذو الصحة النفسية السليمة لا يخلو تماما من التوتر او القلق او مشاعر الذنب ولكنها لا تستحوذ عليه ولا تغمره ، فلا يكون مغلولا بها ، فهو قادر على ان يكون حرا من سطوة قيودها وعلى مواجهتها بطريقة بناءة . وفي معظم الاحوال يستطيع حل مشكلاته دون ما اخلال بتركيبه الذاتي الداخلي .

أما الشخص غير السوي اوالشخص سيء الصحة النفسية ، فتتملكه مشاعر الذنب في معظم الحالات ، وما يخبره من قلق ليس من النوع البناء ، وانما هو من النوع الغامض والمعمم والمهدد لكل توازنه النفسي . وهو لايرى طريقة واضحة لحل صراعاته ، وعادة ما يعجز عن تناول أزماته بطريقة ناجحة ، وعدم القدرة هذه تسلبه ثقته بنفسه واحترامه لذاته . وقد يتفاقم احساسه بالتهديد بحيث ينمو معه اضطراب في السلوك ، تترواح درجته من الشكل البسيط الى الخطير والحاد . فالاختلاف بين

(21) Klee, J.B. The absolute and the relative : Two aspects of dynamic experience. Darshana International, Moradabad (India), 1964, Vol. IV, Nos. 1 & 2.

الشخصية السوية والشخصية غير السوية ، او بين الشخص حسن الصحة النفسية والشخص سيء الصحة النفسية ، هو في حقيقته « اختلاف في الدرجة وليس في النوع »[٢٢] .

يعني ذلك ايضا ، ان الشخصية السوية او الصحة النفسية مفهوم نسبي ، وان تقييم الشخصية يتحقق على نحو أفضل في اطار معايير نسبية السوية او نسبية الصحة النفسية . فمفاهيم الصحة والمرض ليست بمصطلحات تشير الى معايير ومعاني مطلقة ، ولكنها دلائل مميزة متفق عليها فحسب ، نستخدمها لتحديد الحالات المختلفة بطريقة نسبية . بيد أنه لاينبغي أن يفهم من هذا أنه لاتوجد صورة عامة للشخصية السوية يتفق عليها علماء النفس ، وهو ما نوضحه فيما يلي .

●●●

خصائص الشخصية السوية

لقد استطاع علماء الشخصية Personologists ، من الدراسات الوفيرة التي أجريت على أشخاص من مستويات عمرية مختلفة ، ومن كلا الجنسين ، ومن خلفيات اجتماعية اقتصادية وثقافية متباينة ، أن يحددوا عددا من الخصائص التي وجدوها في الاشخاص الذين يتصفون بشخصيات سوية . **واذا كان لايوجد شخص ممن يتصف بالشخصية المريضة Sick personality يعاني من كل أشكال مرض الشخصية ، كذلك لايوجد شخص ممن يتصف بالشخصية السوية او الصحية والمتمتعة بالصحة النفسية Healthy personality يتسم بكل الخصائص المميزة للأشخاص الأصحاء** نفسيا . وفيما يلي نعرض بالتحليل لابرز هذه الخصائص المميزة للشخصية السوية :

تقبل الذات :

يعني تقبل الذات Self — acceptance « الدرجة التي يكون عندها الفرد قادرا على ، وراغبا في ، أن يعيش مع خصائصه الشخصية التي تلقى منه تقديرا واعتبارا »[٢٣]. وتفسر « جيرسيلد » ذلك[٢٤] « بأن الشخص المتقبل لذاته يتصف بتقدير واقعي لمصادره مقترنا بتقديره لجدارته واستحقاقه ،

(22) Carroll, H.A. Mental Hygiene. London, Toronto, Tokyo : Prentice-Hall, Inc., 1959, P.4.

(23) Pannes, E.D. The relationship between self-acceptance and dogmatism in junior-senior high school students. J.educ. Siocial. 1963,36,419-426.

(24) Jersild, A.T. The Psychology of adolescence. 2d ed. New York : Macmillan, 1963.

وبتأكيد على معاييره واعتقاداته الخاصة دون أن يكون عبدا لآراء الآخرين ، وبتقييم واقعي لحدوده دون اقلال غير معقول من شأنه . والاشخاص المتقبلون لذواتهم يعترفون بمصادر قوتهم ، وهم في نفس الوقت متحررون من الاعتماد عليها حتى ولو لم تكن كلها مرغوبة . وهم ايضا يعترفون بنواقصهم بدون توجيه اللوم غير الضروري الى ذواتهم » .

ويرتكز تقبل الذات الى بعض المقومات الرئيسية كما يلي :

فهم الذات وهو ادراك للذات يتصف بالصدق لا بالادعاء ، بالواقعية لا بالوهم ، وبالحق لا بالزيف ، وبالصراحة لا بالخداع ، وبالمواجهة لا بالالتواء . وفهم الذات Self — understanding ليس مجرد الاعتراف بالحقائق ولكن ايضا التحقق من مغزى هذه الحقائق .

ويتوقف فهم الفرد لذاته ليس على قدراته العقلية فحسب ولكن ايضا على فرص اكتشافه لذاته self — discovery فينبغي أن تتاح له فرصة اختبار قدراته دون أن يلقى حماية زائدة من الآخرين ، وأن يسمح له بأن يدرك مهاراته وقدراته في تمايزها في مقابل مهارات وقدرات الآخرين لكي يعي موقعه بالنسبة لهم .(٢٥)

وقد يأتي نقص فهم الذات من الغباء أو العماء ، أو من الجهل ، وقد يأتي من نقص فرص اكتشاف الذات ، او من نزعة الشخص الى أن يرى نفسه كما يود أن تكون عليه فحسب ، لاكما هي عليه .واذا كان الشخص في غمامة ازاء مايفعله ويعمى عن أن يرى واقعه ، فانه يندمج في نوع من الخداع الذاتي self — deception لكي يخفي مايراه حتى تتفق رؤيته مع ما يتوق اليه .

ان فهم الذات وتقبل الذات هكذا يرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا . فبقدر ما يكون فهم الشخص لذاته سلبيا ، يكون تقبله لذاته سلبيا أيضا ، والعكس صحيح . ويؤدي نقص الذات الى تباين بين مفهوم الشخص عن ذاته كما يود أن يكون عليه (مفهومه عن ذاته المثالية) والصورة التي يدركها عن نفسه من خلال تفاعله الاجتماعي مع الآخرين (مفهومه عن ذاته الواقعية) .

فهم الفرد لذاته يمثل بذلك مقوما هاما من مقومات السواء النفسي ، فمن خلال الفهم نتمكن من

(25) Bruce, P. Relationship of [illegible] to other [illegible] orien-ted in self-understanding [illegible] Psychol.' 1958,49,[illegible]

أن تكون لدينا بصيرة أفضل بأفكارنا وأفعالنا ومشاعرنا ، وكذلك بأفكار وأفعال ومشاعر الآخرين . بهذا الفهم نكون أكثر واقعية مع انفسنا ومع الآخرين ، وأكثر ادراكا لأسباب السلوك ومحركاته وموجهاته ، وأكثر قدرة على حل مشكلاتنا وعلى حماية أنفسنا من سوء التأويل الذي يهدد سلامة العقل والعلاقة مع الآخرين .

وقد درس بعض الباحثين العلاقة بين فهم الفرد لنفسه ولبيئته ، ووجدوا أن الأشخاص الذين يميلون الى أن يكونوا « في موقف دفاعي » ، وهو من دلائل سوء التوافق ، يكونوا أقل دقة وأكثر خطأ في رؤ يتهم لأنفسهم وللآخرين ، وأقل توفقا مع أنفسهم ومع الآخرين ، والعكس صحيح بالنسبة للأشخاص الأقل دفاعية ، فهم أكثر إدراكا لأنفسهم وللآخرين ، وأفضل توافقا مع أنفسهم ومع الآخرين(٢٦) .

التوقعات الواقعية : حينما تكون توقعات الشخص للانجاز واقعية ، يكون أداؤه متفقا مع توقعاته ، وتكون توقعاته أكثر قابلية للتحقيق والتطبيق . وهذا بدوره يسهم في رضاء الفرد عن نفسه ، وهو شرط ضروري لتقبل الذات .

وتميل التوقعات الى أن تكون واقعية حينما يحددها الشخص نفسه دون أن يكون خاضعا الى حد كبير لتأثير الآخرين ، وحينما يكون لديه فهم كاف لذاته يمكنه من التعرف على حدوده وامكاناته . فقد تكون أهداف الشخص واقعية ، ولكنه قد تنقصه المعرفة أو المهارات اللازمة لتحقيق هذه الاهداف . وينتج عن هذا الموقف « احباطات » تهدد سلامة الشخصية . وهذا يستلزم تضييق الفجوة بين ذاته الواقعية وذاته المثالية ، ومن ثم يكون الشخص أكثر تقبلا لذاته .

عدم وجود معوقات من الخارج : قد يعزى عجز الشخص عن تحقيق أهدافه الواقعية الى معوقات بيئيه لايملك حيلة في التحكم فيها ، مثل التفرقة القائمة على السلالة أو الجنس أو الدين . في هذه الحالة ، يجد الشخص الذي يعرف امكاناته أنه من الصعب عليه أن يكون راضيا عن نفسه وواقعه ، وبالتالي يقل تقبله لذاته . وحينما يلقى تشجيعا وتأييدا من الآباء والمعلمين والزملاء لتحقيق النجاح الذي تؤهله له امكاناته ، فانه يجد فرصا مواتية لاكتشاف ذاته ولمعرفتها ولتقبلها .

(26) Chodorkoff, B. Self-perception, perceptual defense, and adjustment. Journal of Abnormal and Social Psychology 1942,49,508-51[illegible].

ولما كانت اتجاهات أعضاء الجماعة نحو الفرد هي التي تشكل وتعدل من اتجاهاته نحو نفسه ، فاننا نتوقع أن الشخص الذي يخبر اتجاهات اجتماعية مرغوبة يكون متقبلا لذاته . ومما يساعده على ذلك : عدم وجود معوقات بيئية ، وتمكن الفرد من المهارات الاجتماعية التي تساعده على التوصل مع الآخرين ، وتقبله لأهداف الجماعة ولمعاييرها .

ويؤدي غياب الضغط الاجتماعي الانفعالي على الفرد الى تمكينه من أن يبذل أقصى جهده ويعمل بأقصى طاقاته ، والى أن يكون أكثر توجها خارج ذاته ، والى أن يكون مرتاحا بدلا من أن يكون متوترا ، والى أن يكون سعيدا بدلا من أن يكون محبطا ، عدوانيا ، ناقما .

عدم وجود معوقات من الداخل : يعني ذلك تحرر الفرد من المعوقات الذاتية او الشخصية النابعة من داخله ، والتي تحول دون تقبله لذاته على نحو صحي بناء . هذه المعوقات تثبط من الهمة وتنتقص من الطاقة وتقلل من فعالية قدرات الفرد ومهاراته . ومن أخطر هذه المعوقات الداخلية مشاعر الذنب والخوف التي تستنفذ الحيوية النفسية عند الفرد .

فالشخص يتملكه شعور مهدد بالتعاسة يعوق نجاحه نتيجة لخوفة من الاذى الذي قد يصيبه بسبب الاحساس المؤلم بالذنب عما يعتقد أنه عمل خاطىء قام به . وقد يشعر بالذنب عندما يتحقق من أن أفعاله لاتتفق مع مايعتقد أنه من الواجب عليه عمله ، أو حينما لاتلقى استحسانا من الآخرين . والثابت ان الوالدين والمعلمين والزملاء يشاركون في معاونة الطفل بالتدريج على تكوين مقومات التحكم والتوجيه الذاتيين . ولكن ، قد يحاول بعض الكبار اخجال الطفل عندما يتصرف او يعمل على غير مايفضلون له ان يفعل ، وقد يتجاهل الطفل مثل هذا الضغط أو يقاومه ، ولكنه قد يشعر بالقلق والاضطراب اذا لم يستطع الاستجابة الى مطالب الكبار الذين يسعى الى اكتساب حبهم واحترامهم . وفي بعض الأحيان يتسبب الكبار في خلق مشاعر الخوف والذنب عند الطفل بهدف فرض حدود جامدة على سلوكه ، ويفوتهم في هذا أن فرض القيود قد يسبب من المشكلات الحادة مايفوق في نتائجه اخفاق الطفل في مراعاتها . وهكذا ، فان مثل هذه المعوقات الداخلية الذاتية أو الشخصية هي نتاج شروط أو ظروف غير مواتية في فترة الطفولة خاصة .

ومن ناحية أخرى ، ثمة شروط تكمن وراء تحرر الشخص من المعوقات الداخلية الذاتية ، في مقدمتها : ظروف أسرية مواتية للنمو الصحي لشخصية الطفل ، التوحد مع نماذج سوية من الكبار ، خبرات النجاح لدى الطفل ، استقرار مفهومه عن ذاته .

فالشخص الذي يتوحد مع أشخاص أسوياء يكون أكثر استعدادا لأن يكوّن اتجاهات ايجابية نحو الحياة ، ومن ثم يسلك على نحو يساعد كثيرا على تقبله البناء لذاته . ورغم ان التوحد او التقمص قد يتم بقوة في أي مرحلة عمرية ، الا أن ذلك يتحقق خاصة في الطفولة ، وهي الفترة التكوينية التي ترسي فيها دعائم الشخصية . وهذا يفسر لماذا تعتبر البيئة الأسرية هي المجال الرئيسي الذي يزود الطفل بمصدر ايجابي بناء للتوحد أو التقمص يسهم في نمو الشخصية السوية . ومن ثم بقدر مايكون النموذج الوالدي سويا ، فانه يكون مصدرا للتوحد الطفلي يؤثر بقوة في نموذج شخصية الطفل .

ومن شأن رجحان كفة خبرات النجاح عند الطفل أن يؤدي الى حسن تقبله لذاته ، في حين أن غلبة خبرات الفشل تؤدي الى رفضه لذاته . ويكون رجحان كفة خبرات النجاح كميا أو كيفيا : فقد يفوق العدد الحقيقي لخبرات النجاح على عدد خبرات الفشل ، وقد تكون خبرات النجاح أكثر أهمية ومغزى من خبرات الفشل التي قد تفوق في مقدارها خبرات النجاح .

اما مفهوم الذات المستقر أو الثابت فهو المفهوم الذي فيه يرى الشخص ذاته بنفس الطريقة معظم الوقت . واذا كان مفهوم الذات المستقر مرغوبا ، فأن الشخص يكون أكثر استعدادا لتقبل ذاته . ومن ناحية أخرى ، لايساعد عدم استقرار مفهوم الذات على تزويد الفردبصورة واضحة عن حقيقته ، فيتناقض بشأن ذاته ، يتقبلها أحيانا ويرفضها أحيانا أخرى . واذا كان للشخص أن ينمي عادة تقبله لذاته ، فينبغي أن يرى نفسه في ضوء مرغوب معظم الوقت لتدعيم مفهوم ذاته حتى يصير تقبل الذات عادة سلوكية .

تقبل الذات والتوافق الشخصي ـ الاجتماعي :

من الثابت في الدراسات النفسية تلك العلاقة الوثيقة بين تقبل الفرد لذاته وتوافقه مع نفسه ومع الجماعة :

التوافق الشخصي : ان الشخص المتقبل لذاته لايعتبر نفسه على أنه مثال الكمال . فبدلا من ذلك ، يكون على بصيرة بذاته يدرك من خلالها امكاناته واستعداداته بطريقة موضوعية ويكون أقدر على تبني مستويات موضوعية للطموح وعلى تحقيقها ، وبالتالي يكون أقدر على تجنب مواقف الاحباط بطريقة بناءة . وهو شخص يعترف بقوته وكذلك بضعفه ، وبايجابياته وكذلك بسلبياته وأخطائه . ومن

خصائص الشخص حسن التوافق أنه يعترف عادة بخصائصه الطيبة ، وبايجابياته قبل أخطائه ويركز على جوانب القوة في نفسه بدلا من جوانب ضعفه .

ويتصف الشخص المتقبل لذاته بالثقة بالنفس واحترام الذات . فهو أكثر ميلا الى تقبل النقد من الشخص الأقل تقبلا لذاته ، الذي يتجنب مواجهة واقعه وماقد يكون فيه من نقص أو خطأ . والشخص المتقبل لذاته ، وان كان قد لايحب النقد ، الا انه يتقبله ويفيد منه ، بل ويأتي بتقدير ذاتي ناقد يساعده على الاعتراف بضعفه وتصحيحه بهدف تحسين نفسه .

ويصاحب تقبل الذات الاحساس بالأمان . ويشجع ذلك الشخص بأن يعتقد في قدرته على تناول مشكلات الحياة ، وفي أنه يلقى قبولا واستحسانا من الآخرين في حياته ، ويشجعه ذلك أيضا على أن يرتكن الى مبادئه وقيمه في توجيه سلوكه بدلا من الاعتماد على آراء ومعايير الآخرين .

التوافق الاجتماعي : ويصاحب تقبل الذات بتقبل الآخرين ، وهذا بدوره يصاحب غالبا بالتقبل من الآخرين . فالشخص المتقبل لذاته يشعر بالأمان بدرجة من الاهتمام بالآخرين ، ومن أن يبدي استشعار Empathy بهم أي القدرة على ان يتفهم أفكار ومشاعر وأفعال الشخص الآخر . ونتيجة لذلك ، يأتي بتوافق اجتماعي أفضل من الشخص الذي يكون متوجها نحو ذاته بسبب مشاعر النقص وعدم الكفاية .

والشخص المتقبل لذاته أكثر تحملا للآخرين وأكثر بصيرة بضعفهم ، بينما الشخص الرافض لذاته يستجيب للآخرين بطريقة عدوانية . ويصاحب تحمل الآخرين بالرغبة في مساعدتهم . « فالاشخاص المتقبلون لذواتهم متحررون في أن يكونوا كأنفسهم ، وفي ان يحققوا امكاناتهم ، وفي ان يساعدوا الآخرين على تحقيق ما لديهم من امكانات كذلك » .[٢٧] والشخص الذي يتعلم كيف يتقبل نفسه والآخرين يستطيع ايضا تقدير نفسه والآخرين ؛ أي ان احترام الذات واحترام الآخرين يرتبط بتقبل الذات وتقبل الآخرين .[٢٨]

(27) Brandt, R.M. The accuracy of self - estimate : A measure of self concept reality. Genet. Psychol. Monogr.' 1958, 58,5..-99.

(28) Stock, D. The self-concept and feelings toward others. J.Consult. Psychol.' 1494,13, 176-180.

ولايؤدي ادراك الشخص حسن التوافق بأنه موضع تقبل وتقدير الآخرين الى تنميته مفهوم ذات مرغوبة لديه فحسب ، ولكن يؤدي أيضا الى مشاركة اجتماعية أكبر . فالشخص حسن التوافق يرى نفسه على أنه كفء يستطيع مواجهة التحديات والمطالب والتوقعات والمسؤوليات الاجتماعية ؛ ومن ثم فهو أكثر ميلا الى المشاركة في النشاط الاجتماعي وأكثر قدرة على التوحد مع الآخرين .

والشخص حسن التوافق ليس بحاجة الى التباهي او الاستعراض او غير ذلك من اشكال السلوك المميز للأشخاص سيىء التوافق الذين يحاولون بآلياتهم الدفاعية الحصول على تقبل اجتماعي . فالشخص حسن التوافق يمكن ان يكون طبيعيا ، متحررا ، صدوقا في علاقاته مع الآخرين ؛ وكل هذا يزيد من تقبله الاجتماعي .

ونجد في المبدأ الذي وضعه « إيريك بيرني » صاحب نظرية التحليل التبادلي **Transactional analysis** في علم النفس ، وهو :(٢٩)

« أنا بخير ـ وأنت بخير (**I'm O.K. — Youare O.K.**) ـ تأكيدا على اهمية الاعتراف المتبادل بين الاشخاص لبعضهم البعض ، والتقبل والتقدير والاحترام والحب والمعاضدة لبعضهم البعض ـ وذلك بالنسبة لسلامتهم النفسية .

الواقعية :

من الخصائص المميزة للأشخاص الاسوياء نزعتهم الى تقبل الواقع بدلا من الهروب منه . وهم وإن كانوا قد يبدون بعضا من عدم الرضا ازاء الواقع ، الا أنهم يتعلمون تقبل حدودهم ، ويسعون الى تحسين أنفسهم في اتجاه جوانب القوة فيهم . اما الاشخاص سيئو التوافق ، فهم على العكس من ذلك ينمون في أنفسهم عقدة الاستشهاد **Martyr complex** ـ فيعتبرون أنفسهم ضحية للواقع الخاطيء ـ فيحسبون بالأسى لذلك من أنفسهم أو يلومون أنفسهم والآخرين على الظروف غير المواتية .

(29) Berne, E. **Games people play.** New York : Grove press, 19[illegible]

Berne, E. **What do you after you say hello.** New York : Grove press, 1972.

والشخص السوي يتقبل الحقيقة بأن الحياة صعبة في الغالب . ويعتبر بأن نجاحاته وارضاءاته تعوض الى حد كبير من اخفاقاته وخيبة أمله . يقرر « لاوتون » :(٣٠) ان الشخص حسن التوافق لايغير ، حتى وان كان يستطيع ، من الحقيقة بأن الحياة كفاح لاينتهي ، فيها ترتطم أهداف الانسان بقوى مقاومة خارجية ، انسانية وطبيعية . والشخصية تنمو وترتقي وتبدع من خلال محاولات حل المشكلات .

والشخص الذي يتقبل الواقع يعرف ان أحدا لايستطيع ان يدير عقارب الساعة الى الوراء أو ينصرف عن الحاضر لينتقل الى المستقبل . فهو يعرف انه ينبغي ان يعيش الحاضر ، بالرغم من شعوره بأن الماضي أو المستقبل قد يكونا أكثر اشراقا . والواقع أن الشخص السوي ينضوي بسرور في الخبرات التي تنتمي الى كل مرحلة عمرية من المراحل المتتابعة التي يمر بها ، فلا يتثبت على الماضي ولا يحلم بالمستقبل فحسب . **فالشخص السوي « لايعيب زمانه » ، فلا يعتبر الحاضر من « الزمان العاتي » والماضي أو المستقبل من « الزمان المواتي » ؛ وانما يعيش زمانه الذي فيه استمرار لماضيه وتطلع لمستقبله .**

يلاحظ ان الاطفال والمراهقين غالبا ما يعيشون في توقع للوقت الذي سوف يكبرون فيه ؛ وهم في ذلك يتخيلون كل المسرات والحريات التي يتمتع بها الكبار ويغفلون عن المسؤليات المنوطة بعالم الكبار . وقد يتوق بعض الناس في المرحلة الوسطى من العمر الى الايام التي سوف يحالون فيها الى التقاعد كي يرتاحوا من المسئوليات والمتاعب ، ولكن لايدركون ما قد يكون في هذه الفترة من احساس بالوحدة والعجز .

كذلك قد يحن بعض الناس الى الماضي ؛ فيمضون وقتهم في ذكريات وأحلام ، ويجترون لهو وانتصارات الشباب .

هذا « النكوص » الى الماضي قد يقف حجر عثرة أمام حسن توافقهم . يقول « بريين » :(٣١)

« ان الحنين الى الماضي **Nostalgia** ربما يصبح عقارا مخدرا ، وشكلا من أشكال افساد الذات او الاستنباء الذاتي **Self — abuse**، ووهما لاستعادة الماضي كبديل للعفوعن الاخفاق في الحاضر» .

(30) Lawton, G. Aging successfully. New York : Columbia, 19[illegible].

(31) Brien, H. Looking back at the future. The New York times' Nov. 17, 1969.

فبصرف النظر عما قد يوجد في العالم الواقعي من أشياء غير مستحبة ، فان الشخص السوي لايحاول الهرب الى عالم الخيال والاوهام حيث قد يجد كل شيء مستحبا ووردیا . فهو ، بدلا من ذلك ، « يتقبل سلطة الواقع ، حيث يجد اشباعاته في الحياة في انجازاته وخبراته التي تحدث في العالم الحقيقي وليس في عالم الايهام وأحلام اليقظة .[٣٢]

ولا يعني هذا بطبيعة الحال ان الشخص السوي لايعيش أحيانا في أحلام وخيالات ، وانما يعني أن الهروب الى أحلام اليقظة ليس أسلوبه المميز في التوافق مع المواقف الواقعية الصعبة او غير السارة في الحياة . واذا راودته أحلام يقظة ، يكون أمد هروبه قصيرا ، أو سرعان مايعود الى العالم الحقيقي ليواجه مشكلاته بموضوعية ومسئولية .

التوجه في الحياة وفقا لفلسفة غنية بالمعاني :

يرتكز الشخص السوي في توجيه حياته على فلسفة تساعده على تكوين خطط بناءة وانتهاج أسلوب حياة رشيدة يتفق مع نظام أهدافه وقيمه وتحقيقها بطريقة تلقى استحسانا اجتماعيا . فتبني الشخص لنظام من الاهداف والقيم يجعل الحياة بالنسبة له غنية بالمعاني **Meaningfulness** ـ فتبدو اكثر غنى وحيوية ، وأكثر أقبالا واكتمالا ، وأكثر استحقاقا واشراقا . والشخص السوي تكون حياته هكذا ذات معنى (*) . اما الشخص غير السوي او غير الناضج فحياته جدباء من المعاني ـ **Meaninglessness** ـ فاللا معنى في الحياة هو الاحساس بالفراغ ، وباللاهدف ، وباللاقيمية[٣٣] .

هذه الفلسفة الغنية بالمعاني التي يرتكن اليها الشخص السوي في توجهه في الحياة ، قد ترتكز على معتقدات دينية ، أو على معايير مثالية ، أو على خبرات شخصية .

ان الشخص سيء التوافق يفعل ما يريده دون أن يضع الآخرين في اعتباره ، أو يفعل ما يحثه الآخرون عليه حتى وان كان يعرف ان افعاله خاطئة ولا تلقى استحسانا من جماعته . وعلى العكس من

(32) Lawton, G. op. cit.
(33) Frank, V.E. Man.s search for meaning. New York : Washington square press 1963.
Frank, V.E. The Will to meaning : Foundations and applications of logotherapy. New York : World, 1969.

(*) ارجع الى كتاب : فيكتور فرانكل . الانسان يبحث عن المعنى . (ترجمة : طلعت منصور تحت اشراف الدكتور عبد العزيز القوصي) ، تحت الطبع .

ذلك ، فان الشخص حسن التوافق يتمتع بزاد أخلاقي معنوي يوجه سلوكه في المواقف الاجتماعية المختلفة ويحدد علاقاته بالآخرين .

ولقد تبين ان الفلسفة الموجهة لحياة الاشخاص الاسوياء كثيرا ما تتأثر بالعقيدة الدينية ، ان لم تكن مستندة عليها بالفعل . وهم يعتبرون الدين خبرة شخصية تغني حياتهم وتشبع حاجتهم . اما الاشخاص غير الاسوياء أو سيئو التوافق ، فيميلون الى رفض الدين ويدعون الى الالحاد ، أو يتعلقون ببعض الدعاوي أو التيارات الدينية المتطرفة التي ترتكز أكثر على الشكل لا على جوهر الدين ، أو تركز على الممارسات والطقوس الدينية أكثر مما تركز على المبادىء الدينية[٣٤] . فالدين بالنسبة لهم غالبا ما يكون تكأة لمشاعر عدم الامان او عدم السعادة او ميكانزما هروبيا من هذه المشاعر[٣٥] .

ويمكن ان نميز بين التوجه الهادف **Goal orientation** عند الأسوياء وغير الأسوياء في ناحيتين : فالأسوياء يتبنون أهدافا واقعية ، في حين تغلب اللا واقعية على اهداف غير الأسوياء في الحياة . ويعني ذلك بالنسبة للأسوياء خبرات نجاح وانجاز ، بينما يعني بالنسبة لغير الأسوياء خبرات احباط وخيبة أمل . ومن ناحية اخرى ، يتضح الفارق في أن الاسوياء يجعلون مهمتهم الرئيسية اكتساب الخبرات والمعلومات والمهارات اللازمة لتحقيق أهدافهم . وهم يسعون الى تحسين خبراتهم ومعارفهم ومهاراتهم ، أو يخفضون من مستويات أهدافهم حتى تصير أكثر واقعية وأكثر قابيلة للتحقيق . بقول آخر ، تعتبر أهداف الاشخاص الاسوياء في الحياة أهدافا موجهة الى النمو والتقدم . اما الاشخاص غير الاسوياء ، فلا ينظمون جهودهم وظروفهم حتى يحققوا أفضل استخدام لامكاناتهم واستعداداتهم الطبيعية . ولكنهم ، بدلا من ذلك ، يحققون طموحاتهم اما بواسطة محاولة الحصول على مساعدة من الآخرين أو يحققونها في الخيال والوهم .

---

(34) Clark, W.H., & C.[illegible] Warner. The relation of church attendance to honesty and kindness in a small community.
Relig. Educ.' 1955,50,340-342.
Keene, J.J. Religious behavior and reuroticism, spontaneity and world-mindedness. **Sociometry'** 1967,30,137-157.
Lowe, W.L. Religious beliefs and religious delusions. **Amer. J. Psychother.'** 1955,9,54-61.

(35) O'Reilly, C.T. Religious practices and personal adjustment of older people **Social. Sec. Res.'** 1958,42,119-121.

الشخص السوي اذن شخص جيد التنظيم ـ فهو يكامل بين وظائفه وأدواره المختلفة في الحياة ويوجهها وفقا لنموذج متسق وواضح ومحدد . ويمكنه ذلك من تحقيقه لذاته .

الاستقلالية والتوجيه الذاتي :

يتميز الشخص السوي باستقلالية في الفكر والعمل ، تتبدى في مقدرته على التوجيه الذاتي التي تتضح في تخطيطه لمجرى حياته لكي يوفي بحاجاته ومطالبه . يقول « باريت » في دراسة له عن « الشخص الناضج » ، « أن الشخص الناضج يثق في مقدراته ويعتمد عليها في تنظيم وتفسير البيانات الخاصة بخبرته . وهو يحرك بحرية مساره في الحياة[٣٦] .

فالشخص السوي أكثر تحررا في تقرير مصيره اعتمادا على نفسه وثقته في مقدراته . وبقدر ما يكون الشخص أكثر توجيها لنفسه كأن يعول على مقدراته في جمع الحقائق وتقييمها ، يكون اكثر مقدرة على « التحرر من التوجيه من الخارج » ؛ أي يكون متحررا من الاعتمادية غير الناضجة على آراء وتوجيهات الآخرين . هنا يكون الشخص في موقع افضل ، يزداد فيه فهمه لنفسه وثقته فيها واحترامه لها . وكلما يزداد ادراكه لحقائق الحياة وتعلمه لكيفية معالجة مشكلتها ، يتعاظم توجيهه لنفسه وتحمله للمسؤولية ازاء قراراته وعلاقاته .

اما الشخص غير الناضج ، فهو غير قادر على تقرير مصيره وتوجيه مسار حياته ، لأنه قد توجهه من الداخل « حتمية الحاجات البيولوجية » ، ومن الخارج « حتمية الادوار الاجتماعية » ؛ فلا سبيل أمامه في الغالب لأن يخبر تلك الموجهات الاساسية للشخصية الناضجة وفي مقدمتها « الحرية » و « الاختيار » و « المسؤولية » وغير ذلك من مقومات « التوجيه الشخصي المسؤول » . وبالتالي ، فان الشخص غير الناضج يعيش وجودا قدريا محتوما ، يلعب فيه الادوار المعينة له ويشبع حاجاته المادية والجسدية ، بلا احساس واع بمعنى الوجود وبتحقيقه .

والشخص الموجه لذاته أقدر على احترامه لنفسه وللآخرين ، لأن نموذج حياته نابع من اختيار ذاتي مسئول ؛ وذلك خلافا للشخص الذي يخاف من الاستقلالية بسبب شعوره بالتهديد من النقد او بسبب مشاعر عدم الكفاية في تحمل المسؤولية .

---

(36) Barrett-Lennard, G.T. The mature person, Ment.Hyg.' 1962,46,98-102.

والشخص السوي يبدي استقلاليته بطرق شتى : ففي اتخاذ القرارات ، يكون قادرا على « ان يتخذ قرارات هامة بأقل قدر ممكن من القلق أو الهموم أو الصراعات أو البحث عن النصيحة أو غير ذلك من أنماط السلوك غير الناضج . وبعد ان يصل الى اختيار ، فانه يلتزم به ، الى ان تدخل في الصورة عوامل جديدة ذات أهمية رئيسية » . (٣٧)

وتبدو الاستقلالية في ان الشخص يكون مدفوعا من داخل ذاته **self — motivated** ، فلا يعتمد على الآخرين حينما يكون قادرا على أن يكون مستقلا . فمن الخصائص المميزة للشخص حسن التوافق « تلك الدرجة التي عندها يتوصل الى حل لاعتماديته ويكون في مقدوره أن يقوم بوظائفه مستقلا عن التأثيرات الاجتماعية »(٣٨) . وهو قادر بذلك على ان يكون اهتمامات جديدة ، وصداقات جديدة ، وخبرات جديدة ، ومهارات جديدة ؛ فثمة قوى دافعة من داخله موجهة الى المزيد من نمو شخصيته وارتقائها . (٣٩)

واذا كان « جيلفورد » قد توصل ، من تحليله لنتائج مجموعة الدراسات التجريبية ، الى تحديد بُعْدٍ من أبعاد الشخصية يطلق عليه « الاعتماد على النفس في مقابل الاعتماد على الآخرين »(٤٠) **Self - reliance ver sus dependence** ، فان الشخص السوي ، استنادا الى ثقته بنفسه ومقدرته على توجيه دفة حياته ، يعتمد أيضا على الآخرين في سياق تبادل الأدوار الاجتماعية لاشباع بعض حاجته أو لمنع الاحباط أو العقاب أو للتعاون معهم في تحقيق مهام اجتماعية . يعني ذلك أيضا أن الشخص السوي « يساير » الجماعة التي يتوحد معها ، فيكون عضوا بناءا فعالا فيها دون ان يفقد احترامه لذاته ودون ان تتميع هويته .

الارادة :

تتجسد فاعلية السلوك ، التي تستدعيها الحاجات النفسية ، في اداءات متعددة تتحقق بفضلها

(37) Lawton, G. **Aging successfully**. New York : Columbia, 1951.

(38) Brower, D. Child psychology : A look at tomorrow. J. Genet. Psychol., 1963,102,45-50.

(39) Havighurst, R.J. Personality and patterns of aging. **Gerontologist'** 1968,8,20-23. Havighurst, R.J., & Albrech, R. **Older people**. New York : Longmans, 1963.

(40) Guilford, J.P. **Personality**. New York : Mc Graw-Hill, Inc., 1959.

عملية سيطرة الانسان على الواقع المحيط به وعلى نفسه ، وتغييره وترقيته لهذين الواقعين الداخلي والخارجي ، لواقعه الذاتي والموضوعي ، وما بينهما من تفاعل . هذه الفاعلية في السلوك قوامها ، بجانب عوامل أخرى ، آليات (ميكانزمات) الارادة عند الشخص السوي .

والارادة ، كظاهرة نفسية ، نعتبرها ركيزة أساسية لعمليات الضبط والتوجيه الذاتيين ، رغم ان البحث في سيكولوجية الارادة لم يلق اهتماما من علماء النفس . لذا علينا أن نتسائل : ما الارادة والسلوك الارادي ؟ وما هي آليات العملية الارادية ؟ تكشف الاجابة عن هذين السؤالين بالتالي عن مكانة الارادة في البناء النفسي للشخص السوي .

يرى بعض علماء النفس أن الخاصية الرئيسية المميزة للارادة هي ما يتصف به السلوك من وعي . لهذا تعتبر أي فاعلية يبديها الشخص - بقدر ماتفترض وعيا بالهدف - سلوكا اراديا . ولكن الوعي بهدف السلوك وبطرق تحقيقه يمثل نشاطا يرتبط باعمال الفكر والذهن أساسا . ومن ثم يمكن أن نسمى السلوك في هذه الحالة سلوكا واعيا أو عقليا ولكنه ليس بالارادة . فرغم أن الوعي مكون رئيسي للارادة ، الا أن توحيد السلوك الارادي بالسلوك الواعي فيه مجانبه للصواب , فقد يكون الفرد في حالة من الوعي حينما يأتي بالخطأ أو حتى تأخذة الغواية والضلال , أو يخل بخططه ، أو تصدر عنه تصرفات عن غير ادرادة ، وغير ذلك مما يجعلنا نقرر أن كل سلوك واع ليس بالضرورة أن يكون سلوكا اراديا[٤١] .

وقد يربط البعض مفهوم الارادة بالسلوك الاندفاعي ، وهو الأداءا ت التي تخضع لتوجيه الانفعالات والعواطف في معظم الحالات أكثر مما تخضع للوعي . ولكن السلوك الارادي ، خلافا للسلوك الاندفاعي ، يقوم على الوعي والضبط والتوجه نحو الهدف . فتوحيد السلوك الارادي بالاندفاعي ، أي اعتبار الاندفاعية كمكون من مكونات عمليات الضبط والتوجيه الذاتيين ، يعني اغفال مقدرة الانسان على ادارة وتوجيه نشاطه بوعي[٤٢] .

كذلك ، فان تصور السلوك الارادي على أنه يتحقق بواسطة « قوة الارادة » يعتبر فهما خاطئا لحقيقة هذه الظاهرة النفسية . فالانسان لايستطيع بواسطة قوة مباشرة ضبط سلوكه وتوجيهه ، شأنه في ذلك

---

(41) Tchikharitchivily. Sh. The problem of will in psychology. **Journal of soviet psychology'** 1967. No. 4.

(42) Ibid.

شأن « الظل الذي لايستطيع ان يحمل الحجر » . فنمو العمليات الارادية يتأتي كنتيجة لاتقان العمليات المختلفة التي تكمن وراء السلوك ، ولتعبئة الطاقات النفسية عند الفرد لتحقيق أهدافه(٤٣) .

يحدد « لوريا » الارادة على أنها القدرة على خلق مثيرات من داخل الفرد ، وعلى اتباع هذه المثيرات ومتابعتها ، أي القدرة على الاستثارة الذاتية self — stimulation الموجهة نحو تنظيم السلوك وضبطه . وتستند الأفعال السلوكية الارادية على وعي الفرد بأهدافه ، وعلى تصوره وتدبره للعمليات والاجراءات التي يمكن ان تضمن تحقيق الاهداف ، وعلى ما يباشره من سلطة واعية على نفسه ومن ضبط لنزعاته وحفزاته ، وعلى مغالبة الصعوبات والمعوقات التي قد تقف في طريق تحقيق الاهداف ، وعلى اتخاذ القرارات البناءة الحاسمة في حياته (٤٤) . وفي ضوء ذلك يمكن تحديد بعض آليات العملية الارادية كما يلي :

<u>الفعالية الداخلية</u> : وهي حالة تنشيط الجهد الذاتي ، وشحذ طاقات الفرد وتعبئتها في سبيل مغالبة الصعوبات والمعوقات ، وبالتالي مواجهة مايعترض تحقيق أهدافه وبرنامجه ، سواء كانت خارجية تفرضها الظروف المحيطة به ، أو معوقات أو مثبطات داخلية ذاتية كالنزعات السلبية والدفاعات والخوف والوهن والتردد والأنانية والضحالة المعرفية وغير ذلك مما قد يهدر من طاقات الفرد ومن توظيفها .

<u>توجيه الاوامر الى الذات</u> : وهو من الآليات المميزة للسلوك الارادى . فاذا كان الشخص قد تعود أن يأتمر بذاته ، فان ذلك يعني أنه قد حقق درجة عالية من الضبط والتوجيه النابعين من داخله . ومن شأن « توجيه الاوامر الى الذات » self - ordering ، أنه يسمح للفرد بأن « يحقق عن مبدأ وبقوة أهدافه وبرامجه التي يلتزم بها ، وينجز خططه ، وينظم سلوكه » . (٤٥)

تذخر الأعمال الأدبية بأمثلة عديدة عن دور « توجيه الأومر الى الذات » في مواجهة المواقف الصعبة التي قد يمر بها الفرد . فمثلا ، يصف « ليو تولستوى » هذا الدور الذي كان يقوم به أبطاله وخاصة في المواقف الحربية :(٤٦)

---

(43) Luria, A.R. **The nature of human conflicts : An objective study of disorganization and control of human behavior.** New York : Liveright Inc. Pub., 1932, p.p. 401-403.

(44) Ibid.

(45) Agaphonofe, IT. **Psychology of self-ordering.** Moscow : Krasnadar Pub.. 1959,p.65.

(46) Tolostoi, L. **Selected works.** Moscow : Mir Pub., 1952, vol. 4.p. 238.

« وانهالت القذائف من فوقه واحدة تلو الأخرى ، وتملكته رعشة عارمة حالما عاد الى قواعده ، ثم جالت بخاطره فكرة أخذت تدفعه الى الخوف والتردد ، ولكن نفس هذه الفكرة اخذت تنقشع من ذهنه مرة أخرى ، وأنهضته لتوه . . . « لا ، لايمكن أن اخاف » ـ وأخذ يفكر ,يحزم أمره ؛ ثم انطلق بحصانه في خضم قعقعة السلاح » .

وأمثلة هذه المواقف كثيرة في الحياة اليومية ، حيث قد يراود الفرد تردد أو وهن بشأن اتخاذ قرار حاسم . ويعني ذلك أن ثمة علاقة وثيقة بين أن نأتمر بانفسنا وان ننطلق في سبيل تحقيق اهداف كبار في حياتنا .

مقاومة الغواية والاغراء : يحدد « سيرز وآخرون » ثلاث معايير لقوة الضمير وللضبط والتوجيه الذاتيين[٤٧] :

(اولا)مقاومة الغواية والاغراء resistence of temptation (ثانيا) التهذيب الذاتي ـ self instructionلاتباع قواعد السلوك السليم ، (ثالثا) الدلالة الواضحة للشعور بالذنب حينما يكسر الفرد هذه القواعداو تراوده نزعات الى ذلك . هذه المعايير السلوكية دالة للضبط الذي استدخله الطفل من نظام المبادىء والأحكام الخلقية , المعايير الاجتماعية (internalized control) ، وهو ضبط قد مارسه واعتاده بواسطة ماتعرض له من قبل من اثابة وعقاب .

تعني مقاومة الغواية والاغراء القدرة الداخلية للفرد على العزوف عن الاستجابة للمؤثرات الخارجية التي قد تغويه أو تغريه لكي يأتي بسلوك لاتقره المرغوبية الاجتماعية ولايقره ضميره وزاده الأخلاقي المعنوي رغم عدم افتضاح أمره او انكشاف فعلته ، كما تعني مقاومة الغواية والاغراء قدرة الفرد على مغالبة المؤثرات والالحاحات الداخلية التي قد توعز اليها« نفس أمارة بالسوء » ، وعلى طرد الأفكار والهواجس التي تراوده بشأن فعل أو نزعة لاتقرها أخلاقيات الجماعة ولايأباها ضميره الواعي .[٤٨]

(47) Sears, R.R., et al. **Patterns of child rearing.** New York : Harper & Row Pub., 1957.

(48) Hill, W.F. Learning theory and the acquisition of values. **Psychol. Rev.**, 1960,67,317-331
Breckenridge, M.E., & Vincent, E.L. **Child development**. Philadelphia, London : Saunders Co., 1966, P. 386.

الاقتناع الذاتي : فيما يتبناه الفرد من أهداف ومن أساليب تحقيقها تتطلب تدعيما بالأدلة والبراهين والمعلومات التي من شأنها أن تجعل ارادته واعية . يرتبط ذلك بتبني الفرد لفلسفة في الحياة غنية بالمعاني ، وباستقلاليته وتوجيهه لذاته كما سبق ان ذكرنا .

هكذا ، يتضح ان الارادة وماتنطوي عليه من آليات تعتبر ركيزة أساسية للشخصية السوية .

المسئولية :

الشخص السوي أو حسن التوافق شخص مسئول ، أما الشخص غير السوى أو سيء التوافق فهو اما ان يكون كسولا أو متردداً في تقبله للمسئولية وتحمله لها ، أو يكون قعودا باحساسه بعدم الكفاية في الاضطلاع بالمسئولية .

فالشخص السوي يدرك ثقته في قدرته على مواجهة الحياة ومشكلاتها وعلى الاضطلاع بالمسئوليات الملائمة لعمره ولمستوى قدرته ولحجم معارفه وخبراته ومهاراته .

وهو واقعي لدرجة أنه يعترف بأنه لاينبغي أن يقدم على تحمل مسئولية بعض المهام التي لايكون مهيئا للاضطلاع بها بنجاح . وهو يعرف أنه اذا فعل فانه سوف لايجني عدم استحسان الجماعة على اخفاقه فحسب ، ولكنه سوف ينتقص أيضا من ثقته بنفسه الى الحد الذي قد يجعله يتردد في تقبل المسئوليات في المستقبل . ومع ذلك فهو يتقبل التحدي لقدراته ، ولكنه ليس مدفوعا بطريقة قسرية الى المبالغة في تقديرها .

وهو يتقبل المسئولية ازاء نفسه وسلوكه . فاذا أخطأ ، فانه يتقبل النقد ، ويكون راغبا في تصحيحه لذاته . واذا واجهته مشكلة ، فانه يضطلع بمسئولية التصدي لها والسعي الى حلها . فهو يواجه المشكلات التي تتطلب حلا بدلا من أن يجد وسائل الهروب منها ، بل انه يستمتع بالمواجهة وبتحطيم الصعوبات التي تقف في طريق نموه وسعادته ، طالما أنه قد اقتنع بأنها معوقات حقيقية وليست وهمية[٤٩] . وهو يلتزم بموقع في الحياة أو بدور معين فيها ، وهو يدرك أنه مطالب بأن يملأ هذا الموقع ويثري هذا الدور بتقبله للمسئوليات واقباله على الخبرات التي تلائم موقعه ودوره »[٥٠] .

(49) Lawton, G. **Aging successfully.** New York : Columbia, 1951.
(50) Ibid

لكل هذا أيضا يعتبر الشخص المسئول شخصا يمكن الاعتماد عليه ، حيث يعرف الآخرون مدى التزامه بما يقوله وبما يوكل اليه من مهام ، وذلك خلافا للشخص سيء التوافق الذي يبدي عذراء لكل شيء ، والذي تكون حياته متاهة من الوعود المنكوثة والاعمال غير المكتملة .

التوجه خارج الذات :

يعتبر الأسوياء أكثر توجها خارج ذواتهم ، بينما يميل الأشخاص غير الأسوياء أو سيئو التوافق الى ان يكونوا أكثر توجها داخل ذواتهم أو تقيدا بعالمهم الداخلي .

فالشخص السوي ، المتوجه خارج ذاته ، يبدي اهتماما بالناس وبالمواقف وبالاشياء , كما يبدي اقبالا على موضوعات الحياة . وهو يستخلص لذة واشباعا من اتصالاته الاجتماعية أكثر مما يستخلصها مـ اتصاله مع نفسه ومعايشته لعالمه الذاتي . ويختلف ذلك عن الشخص المتوجه داخل ذاته - nner oriented أو المقيد بذاته self — bound الذي يبدي اهتماما أكبر بنفسه .

والشخص الذي يتسم بالتوجه خارج ذاته outer orientation يتسم ايضا بعدم الانانية ، فهو يرى صالح الآخرين ويسعى الى تقديم العون والسند لهم . وهو بذلك يتصف بصفتين رئيسيتين : (اولا) الاستشعار empathy(*) ، أي القدرة على أن يحس بمشاعر الآخرين وأن يفهمها (ثانيا) ـ المشاعرة sympathy (*) اي القدرة على التعاطف مع الآخرين وعلى تبادل المشاعر معهم دون ماشعور بالحسد او الحقد ازاء نجاحاتهم او بالشماته او الازدراء ازاء اخفاقاتهم .

وثمة خاصية مميزة للشخص السوي وهي مايتصف به من مقدرة متزنةوناضجة على بذل الحب وتلقي الحب ، على أن يحب وأن يكون محبوبا . ولايعني ذلك أنه يفتن بالآخرين ويتيم بهم بطريقة [illegible] ، ولايعني انه يمطر بالحب والعطف أولئك الاشخاص الذين يبدون اهتماما ضئيلا به ، كما لايعني ذلك سعيه الى طلب الحب والاهتمام من أولئك الاشخاص الذين يعجب بهم بصرف النظر عن شعورهم نحوه . يعني ذلك ، بالاحرى ، عطاء وأخذا ناضجين للحب مع الأشخاص الذين يتبادل معهم الاعجاب والاحترام والتواد .

ومن شأن الاهتمام بالناس والاقبال عليهم أن يساعد الشخص السوى على أن يكتسب استبصارا كافيا بنفسه بقدراته ، مقارنة بقدرات الآخرين ، وبالتالي لاتنمو عنده أوهام الاستعلاء او

(*) Pathos كلمة يونانية تعني الوجدان او الشعور او العطف .

العظمة . وهو لذلك يكون قادرا على أن يتعرف على مشاعره وردود أفعاله وعلى أن يعترف بهـا ، وبالتالي يكون أقدر على التغير في الاتجاه الصحيح .

ولما كان الشخص السوى متحررا من داخله ، أي متحررا من الأوهام والـدفاعـات والمخاوف والذنب والنقص والتعصب والعداوة وغير ذلك من المعوقات الذاتية فانه يكون بالتالي مرنا في تفكيره . فهو لايتشبث برأيه ، فلا يعتقد أنه دائما على الصواب وأن من لايتفق معه فهو دائما على باطل . وعلى العكس من ذلك ، فهو امين مع نفسه ، ويقدم نفسه للآخرين كما هو .

وهو لا يبدي لذلك قساوة على الآخرين وانما تتسم ردود افعاله حيالهم بالشفقة ، حتى ولو لم يكونوا شفوقين معه . ولا يعني ذلك ابداء الضعف ازاء ردود افعالهم او اغفال قساوتهم ، وانما بالاحرى النظر اليهم بعين العطف اكثر ما هو بالغضب .

والشخص المتوجه خارج ذاته بحبه واحترامه للآخرين وبثقته في نفسه وفي الآخرين ، يكون تواقا الى ان يكشف لهم عن افكاره ومشاعره ، ومن ثم تعتبر الدرجة المعقولة من الكشف عن الذات **self - disclosure** خاصية مميزة للاشخاص الاسوياء ، ولا يعني ذلك الكشف عن النفس بطريقة غير مميزة او غـير مشروطـة ، وانما بـالاحرى انكشـاف الذات لأولئـك الاشخاص الـذين يحبهم ويحتـرمهم كاصدقاء ، ولقد تبين من بعض الدراسات ان الاشخاص سيئي التـوافق ، الذين يتصفـون بعدم الثبات الانفعالي غالبا ما يكشفون عن انفسهم بدرجة اكبر مما يفعله الاشخاص الذين يتصفون بالاتزان الانفعالي ، كذلك فان الشخص سيء التوافق اقل تمييزا في انتقاء الاشخاص الذين يكشف لهم عن نفسه ، ومن ناحية اخرى يشيع نقص الكشف عن الذات بين اولئك الاشخاص الذين يتصفون بسوء التوافق والذين يعانون من الاشكال المختلفة من اضطرابات الشخصية(٥١) .

فالشخص السوي يكشف عن افكاره ومشاعره ومطامحه فقط لأولئك الاشخاص الذين يعتقد انهم سوف يبدون فهما له وتعاطفا معه والذين يبادلهم ثقة بثقة(٥٢) .

يلخص « باريت ـ لينارد » في دراسته عن الشخص الناضج خصائص الشخص المتوجه خارج ذاته على النحو التالي :(٥٣) .

(51) Jourard, S.M. A study of 'self-disclosure. Scient. American' 1958,198,no.5,77-82. Pederson, D.M., & V.J. Breglio. Personality correlates of actual self-disclosure.. 'psychol. Rep.' 1968,22,495-501

(52) Jourard, S.M. Healthy personality and self-disclosure. Ment. Hyg.' N.Y.,1959,43; 499-507.

(53) Barrett-Lennard, G.T. The mature person Ment. Hyg.' N.Y., 1962,456,98-102.

« الشخص المتوجه خارج ذاته ينزع بصدق الى تقدير وتقييم الآخرين كما يقدر ويقيم ذاته . وهو يبدي ارتياحا للآخرين وانفتاحا عليهم لأنه مرتاح ومنفتح مع نفسه وهو ليس بمحاذر او بمدافع عن نفسه لأنه لا يوجد لديه ما يخفيه . وهو لا يمسخ نفسه لكي يرضي الآخرين كما لا يستخدمهم على انهم كباش فداء لعدم رضاه عن نفسه » .

النضج الانفعالي

يمثل مقوما أساسيا للشخصية السوية . فبقدر مايكون الشخص ناضجا انفعاليا ، تكون قدرته على أن يحيا حياة سعيدة نافعة فعالة ، وأن يواجه عوامل الضغط والشدة وما يرتبط بهامن احباطات وقلق في العالم المحيط به .

والشخص الناضج انفعاليا يتسم بالضبط الانفعالي - فهو يضطلع بمسئولية اخضاع انفعالاته تحت ضبطه وسيطرته حتى لايسبب ايذاء لغيره او لنفسه ، فهو قادر على مواجهة الاحباطات دون عنف او تدمير .

والشخص الناضج انفعاليا يستطيع ان يعيش مع انفعالاته في ارتياح ، بدون أن تسيطر عليه ، وبدون أن تلون تفكيره وتوجه سلوكه ، وبدون أن يجد أنه من الضروري أن يكون في حرب معها بصفة مستمرة . وهو مقتدر في ذلك لانه قد نمت فيه درجة من تحمل الضغط او الشدة stress tolerance تحمل القلق ، الاكتئاب ، الاحباط ، تحمل الألم والحرمان . واذا لم يكن كذلك ، فانه سوف يتعرض باستمرار للا ضطراب الانفعالي حتى اذا تعلم كيف يقمع انفعالاته الى درجة أن الآخرين قد يعتبرونه ناضجا انفعاليا .

يحدد « فرانز الكسندر » مضمون النضج الانفعالي بأنه قهر للاحساس بعدم الامان ، واتزان في المشاعر والاستجابات الانفعالية . والنضج الانفعالي يتضمن بذلك اختبارا لمقدرات الفرد ازاء حقائق الحياة ومعرفة بماهية هذه المقدرات ، وبالتالي فان الشخص الناضج انفعاليا يكون قد أثبت نفسه للآخرين ، وهو راض عن نفسه ، فلا يستحوذ عليه عالمه الذاتي ، بل يقدر على أن يحول اهتمامه الى خارج ذاته تجاه بيئته الاجتماعية والمادية (٥٤) .

(54) Alexander, F. Emotional maturity. Mental Health Bulletin of Illions Society for Menta Hygiene' 1948, 26, 1-4.

والشخص الناضج انفعاليا ناضج اجتماعيا في الغالب ـ فهو قادر على اقامة علاقات اجتماعية سليمة تقوم على الاخذ والعطاء البنائين مع الآخرين ، وهو فعال منتج في عمله ، وهو اذ يحقق ذاته في العمل يسعى الى تحسين عمله وتنمية دوره فيه .

وهو يتميز بالمرونة والمواءمة ، فيستطيع مواجهة حقائق العالم الخارجي ، ويتقبل حقيقة الظروف المتغيرة ، ولايتشبث على أن « يعيش في الماضي » ولايتمسك بنمطية جامدة من السلوك . ويعني ذلك أيضا مقدرته على مواجهة المواقف الصعبة على اساس من الوعي والسعي والتحمل وبذل الجهد (٥٥) .

اما الشخص غير الناضج انفعاليا ، فتسيطر عليه انفعالاته ، وبالتالي فهو أقل سيطرة عليها وضبطا لها . وهو يتسم بالخجل ، وحدة الاستثارة ، والتناقض الوجداني ، والتقلب المزاجي ، والنزعة الى العدوان ، ويوجه حياته الوجدانية مبدأ السعي وراء اللذة أساسا . وهو شخص جامد ، قليل الحيلة ، يشعر بالتوتر ازاء أبسط المشكلات التي كثيرا مايهرب منها او يعالجها بطريقة غير بناءة . ويتسم سلوكه بالمحدودية التي لاتتلاءم الا مع الأشخاص الأصغر منه سنا ، وبالتالي فهو يبدي عجزا في الحصول على الاشباعات المرتبطة بسلوك الراشدين (٥٦) . ويرتبط الضبط الانفعالي بالضبط المعرفي عند الشخص السوي . فمقدرته على التحكم في انفعالاته تخضع ايضا لوعيه المعرفي ولثراء خبراته ومعلوماته . ولذلك فهو أقدر على تنظيم وضبط انفعالاته ودوافعه .

يطلق « كلاين » على هذه المقدرة مصطلح « الضبط المعرفي » cognitive control ، مؤكدا بصفة خاصة على أهمية الانتباه الانتقائي selective attention ـ أي الانتباه للجوانب ذات الأهمية الأكبر ، وليس لكل الجوانب في البيئة ـ في تنظيم السلوك وضبطه(٥٧) . وقد توصل « لازاروس وآخرون » الى أن الكثير من اضطرابات الشخصية يعزى الى تضاؤل آليات الانتباه الانتقائي والضبط المعرفي للدوافع والانفعالات(٥٨) .

(55) Ibid.

(56) Cantril, H. **The "why,, if man,s experience.** New York : Macmillan, 1950,p.128.

(57) Klein, G.S. **Need and regulation.** In M.R. Jones (Ed.), **Nebraska Symposium on Motivation.** Lincoln : Nebraska Univ. Press 1954.

(58) Lazarus, R.S., et al. Personality and psychological stress. **Journal of personality'** 1957, 25,559-577.

امـا « زيمبـاريـو » في كتـابـه « الضبط المعـرفي للدافعيـة » cognitive control of motivation، فيؤكد على الدور الذي تباشره المعارف في تنظيم الجانب الدافعي ـ الانفعالي من بناء الشخصية ، وبالتالي في تعديل السلوك وضبطه وتوجيهه .(٥٩)

تحقيق الذات :

يسيطر على معظم نظريات الدافعية مفهوم الاتزان homeostasis ويعني الاحتفاظ بحالة من الثبات ، ومايتضمنه ذلك من التغلب على القصور والعجز ، واختزال التوتر ، واستعادة حالة التوازن . ولكن هذا المفهوم لايفسر سلوك المكتشفين والعلماء والمبدعين والطموحين والانجازيين ، كما لايقدم تفسيرا كافيا لاستمرار الفرد في النمو والارتقاء .

فالانسان يسعى الى ان ينمو ، وأن يتحسن ، وأن يصير أكثر مقدرة ، وأن يعبر عن نفسه ـ أي أن يحقق امكاناته وأن يثبت ذاته ككائن انساني . يوضح « هكسلي » ذلك فيما يلي : (٦٠)

« ان الحياة الانسانية كفاح ـ ضد الاحباط ، والتجاهل ، والمعاناة ، والشر ، والقصور بصفة عامة ، ولكنها أيضا كفاح من أجل شيء ما . . . . ويبدو أن مصطلح تحقيق ، اكثر من أي كلمة أخرى ، يصف الجانب الايجابي من النمو الانساني والارتقاء الانساني ـ أي تحقيق الامكانات الكامنة بواسطة الفرد والامكانات الجديدة بواسطة الجنس البشري ، واشباع الحاجات ، النفسية والمادية ، ونمو خصائص جديدة للخبرة يستمتع بها الفرد ، وبناء الشخصية » . فالهدف من السعي الى تحقيق الذات actualization strivings ليس هو الاحتفاظ بحالة التوازن أو الوضع الراهن ، وانما هو التحسن والنمو .

يضع « ماسلو » تحقيق الذات على قمة النظام الهرمي للحاجات الانسانية الرئيسية (الحاجات الجسمية ، حاجات الأمن ، حاجات الحب ، حاجات الاحترام والتقدير ، الحاجة الى تحقيق الذات) . يرتبط تحقيق الذات بما يحفز الفرد الى الانجاز والتحصيل والتعبير البناء عن الذات : ان

(59) Zimbarbo, P.G. **The cognitive entrol of motivation.** Illinois : Scott, Foresman and Co., 1969, P. II.

(60) Huxley, J. **Evolution in action.** New York : Harper, 1953, pp. 162-163.

يكون مبدعا ومنتجا ، ان يقوم بأفعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة له وللآخرين ، أن يحقق امكاناته ويترجمها الى وقائع سلوكية حية(٦١) .

فالحاجة الى تحقيق الذات هي « رغبة الانسان في مطابقة الذات **self —fulfillment** ، أي ميلة الى أن يصبح مالديه من امكانات **potentials** محققا ، وبالتالي صيرورة طاقاته الداخلية الكامنة حقيقة واقعة »(٦٢) .

لذلك فان الشخص المحقق لذاته هو الذي يتصف بـ« الشخصية كاملة التوظيف » (٦٣) **fully functioing personolity** (روجرز) أو « الذات كاملة التوظيف »(٦٤) **fully functioning self** (كيلي) . ويعني ذلك أن الامكانات الكامنة في الشخص المحقق لذاته تكون في حالة من التوظيف الأمثل ، وفي مستوى أمثل من الصيرورة . وبذلك يقل الفاقد في فعاليته في الوجود ، لأنه يشغل امكاناته وينميها ، يعمل وظيفيا باقصى ماتؤهله له طاقاته .

لهذا يعتبر « ماسلو » : الأشخاص المحققين لذواتهم **self - actualizing persons** : مكتملي النضج ، ومكتملي الانسانية **fully - human** . فهم أشخاص قد تحقق لهم بالفعل وبطريقة ملائمة اشباع في كل حاجاتهم الرئيسية (الى الانتماء ، والعطف ، والاحترام ، واحترام الذات) . ومن ثم فهم يتسمون بالشعور بالانتماء وبالتأصل **rootedness** ، وهم مشبعون في حاجاتهم الى الحب ، ولديهم أصدقاؤهم ، ويشعرون بالحب ، وأنهم مستحقون للحب وأهل له **love - worthy** ، وهم يحظون بمكانة وبموقع في الحياة باحترام الآخرين لهم ، ويتمتعون بشعور عاقل بالجدارة او الاستحقاق واحترام الذات »(٦٥) .

هكذا ، يعتبر أصحاب « التوجه الانساني في علم النفس » الشخصية السوية او الصحية هي الشخصية المحققة لذاتها .

---

(61) Maslow, A.H., **Motivation and personality.** New York : Harper & Row pub., 1954, Ch. 5.

(62) Ibid, pp. 91-92.

(63) Rogers, C.R. **On becoming a person.** Boston : Houghton Mifflin, 1961.

(64) Kelly,E.C. The fully fnctioning self. **Inperceiving' behaving' becoming.** Yearbook of Association for Supervision and Curriculum Development, 1962.

(65) Maslow, A.H. A theory of meatamotivation : The biological rooting of the value-life **Journal of Humanistic Psychilogy'** 1967, Fall, 93-127.

الاستمرار في النمو الشخصي :

من الخصائص المميزة للانسان بصفة عامة وللشخص السوي بصفة خاصة قابليته المستمرة للتعلم المتعاظمة على الخبرة ، وبالتالي استمراريته في النمو والارتقاء .

يتضمن النموالشخصي بالضرورة تتابعا « حلزونيا » يقوم على التفاضل والتكامل : تزايد في المعارف والمهارات والخبرات والمقدرات كما وكيفا ، واستيعابها في مستويات من تكامل الشخصية أكثر تعقيدا وارتقاء . هذا النمو الشخصي يرتكز الى مقومات محددة ، تقع في وحدة أو اكثر من الفئات التالية :(٦٦)

١ ـ استقلال ذاتي متزايد ـ التغير في اتجاه المزيد من الاعتماد على النفس ، ومن اعتبار الذات ، ومن توجيه الذات . ويتضمن ذلك تحررا من المؤثرات الاجتماعية غير الملائمة ، وتزايدا في القدرة على اتخاذ القرارات وتحمل المسئوليات بشأن نتائج هذه القرارات ومواجهة مترتباتها .

٢ ـ اطار مرجعي أكثر كفاية ـ التغير في اتجاه استيعاب المزيد من المعلومات الاكثر دقة عن ذات الفرد وعن عالمه . هذا التغير يؤول الى واقع اكثر اقبالا واشباعا ، والى فهم معنى أعظم ، والى مقدرة أكبر على حل المشكلات واتخاذ القرارات .

٣ ـ هوية ذاتية أكثر ملاءمة ـ النمو في اتجاه احساس متمايز لدى الفرد بذاته كشخص كفء ومقتدر ، وكشخص خالق لأفعاله ومسئول عنها . ومن الاهمية كذلك في هذا الشأن ، مايقوم به الشخص من تقييم واع لقدراته ولجوانب ضعفه ، مع تبني الشخص لمستوى واقعي من الطموح يقوم على الانسجام المعقول بين مفهوم الذات والذات المثالية .

٤ ـ اقتدار متزايد ـ التغير في اتجاه المزيد من الاقتدار العقلي والانفعالي والاجتماعي . مثل هذا التعالم يؤدي الى مقدرة أكبر على التمكن من مواجهة مشكلات الحياة ، ومن تنفيذ خطط الفرد وبرامجه في الحياة . وينطوي على تحسن في علاقات الفرد ، عمقا وثراءا ، مع بيئته الاجتماعية .

(66) Coleman, J.C. **Psychology and effective behavior.** Bombay : Taraporevala Sons & Co., 1971, pp. 446-447.

٥ ـ حل الصراعات ـ فك الدفاعات وحل الصراعات ، بحيث يتمخض عن ذلك تحرر الفرد « من الداخل » ، وانفتاح متزايد على الخبرة ، ومزيد من الانسجام أو الاتساق الداخلي ، ومزيد من تحمل التوتر ، ومزيد من المرونة العامة .

هذه المقومات التي يرتكز عليها استمرار الشخص في نموه وبالتالي في ضيرورة ارتقائيته ، تكون هكذا في اتجاه المزيد من تحقيق الشخص لامكاناته الكامنة . وهي تغيرات تؤول بالفرد الى التعبير الخلاق عن الذات ، والى اتجاهات أكثر ايجابية نحو الذات ونحو الآخرين ، والى علاقات قائمة على الدفء والحب ، والى احساس أكبر بالانتماء الى الانسانية جمعاء .

ومن ثم ، لايكفي للشخص ان يحقق ذاته ، وانما استمراريته في تحقيق الذات . فالنمو بحاجة الى المزيد من النمو ، والصحة النفسية بحاجة الى مزيد من الصحة النفسية . فليس المهم أن يصل الفرد الى القمة وانما الاهم ان يحتفظ بها * . هكذا يتعاظم ارتقاء الشخصية ، وصلا بها الى مستوى « التسامي بالذات » .

*

خلاصة وتعقيب

عرضنا بالتحليل لأبرز الخصائص التي تتميز بها الشخصية السوية ، وهي خصائص متعددة ، ومتداخلة فيما بينها ، بل وكثيرا مايتعذر الفصل بينها على نحو قاطع .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : **« هل الشخص السوي يتصف بالضرورة بكل هذه الخصائص ؟**

ان الشخصية السوية لا تتصف بالضرورة بكل الخصائص السابقة الذكر ـ فليس هناك من خاصية واحدة ترتبط بحسن توافق الفرد مع نفسه ، ومع الآخرين ، ومع الحياة بصفة عامة . كذلك لايعني غياب خاصية أو أكثر من هذه الخصائص أنه دالة بالضرورة على سوء التوافق أو مرض الشخصية .

واذا كان الباحثون في « علم الاعراض » symptomatology لايعتمدون في تشخيصهم لمرض

(*) راجع في هذا الصدد كتاب : طلعت منصور : التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ ، ص١٩ ـ ٢١ .

معين ، جسمي اونفسي اوعقلي ، على عرض بعينه ، اوعلى بعض الأعراض غير المترابطة فيمابينها ، وانما يعتمدون على مايعرف بـ « التشخيص الفارقي » differential diagnosis أي يعولون في تشخصيهم لمرض معين ، تمايزا عن أي مرض آخر ، على « تجمع » clustering مجموعة مترابطة من الأعراض . فالتشخيص الفارقي لايعتمد على عرض معين أوعلى أعراض منعزلة ، وانما على « زملة » syndrome من الاعراض ـ وهي مجموعة متزاملة من الاعراض تميز مرضا عن آخر .

قياسا الى ذلك ، فان خصائص الشخصية السوية عند شخص ما ليس بالضرورة أن تكون هي نفس الخصائص المميزة لشخص سوي آخر . يدعونا ذلك الى التحليل النوعي للشخصية السوية ، ليس وفقا لخصائص مطلقة ، وانما وفقا لما يمكن أن يطلق عليه « زملة الشخصية السوية »(٦٧) (healthy personality syndrome) ـ أي على أساس تزامل مجموعة من الخصائص تحدد « تفرد » الشخصية عند شخص سوي عن شخص سوى آخر .

ومع ذلك ، ثمة صورة عامة تتضمن عددا من الخصائص المشتركة التي تتفق عليها معظم النظريات والدراسات النفسية كخصائص مميزة للشخصية السوية بصفة عامة ، وكمحكات تستخدم غالبا في تقديرها . وفي ذلك تقدم « جاهودا » ملخصا بالخصائص الرئيسية العامة المميزة للشخصية السوية كما اتفقت عليها معظم الدراسات النفسية فيما يلي : (٦٨)

اتجاهات نحو الذات : مفهوم واقعي للذات ، الموضوعية نحو الذات ، واحساس واضح بالهوية ، تقبل الذات .

النمو ، الارتقاء ، التحقيق : دافعية نحو النمو والارتقاء ، تحقيق الامكانات الكامنة .

التكامل : انسجام واتساق بين الجوانب المكونة للشخصية ، فلسفة محددة للحياة ، تحمل للضغط والشدة .

---

(67) Buhler, C.A. Brind, and A. Horner. Old age as a phase of human life. **Hum. Develpm.**' 1968, 11,53-63.

(68) Jahoda, M. **Current concepts of positive mental health.** Joint commission on Mental Illness and Health.

Monograph Series No. 1. New York : Basic Books, 1958.

الاستقلال : توجيه ذاتي ، مع إدراك للذات على أنها جزء لا ينفصل عن كل أكبر .

ادراك الواقع : ادراك موضوعي ، التحرر من الحاجة الى المسخ والتشويه ، مقرونا بحساسية اجتماعية .

التمكن من البيئة : الكفاية في الحب ، والعمل ، واللعب ، مع القدرة على حل المشكلات الجديدة . ويلخص « بين » أيضا الخصائص الرئيسية للشخص السوي على النحو التالي : (٦٩) .

« الشخص السوي يفكر ، ويعمل ، ويشعر وفقا لما هو متوقع منه ومسموح له به داخل مجتمعه . . . .

وحياته التي يقودها هو تلقى منه رضا وتخلق فيه استثارة . وهو قد اعتاد السعادة ، وعنده عادة تكوين العادات واستبعاد عاذات بفاعلية : وهو ليس بخائف بشكل غير ملائم من المستقبل ، ولا بمشدود الى الماضي . . . . وهو لا يعاني من احساس بالخطيئة ولكنه يفيد من الخبرة . وهو لديه إحساس ثابت بالمرح يجعله يضحك مع الناس ، لا عليهم .

وهو يعرف حدوده ومقدراته ، ويسلك وفقا لذلك ، وهو لديه حكم دقيق سديد عن الآخرين وعن نظرتهم اليه . . . وهو يحدد أهدافه ومثله على أساس اتساقها مع معرفته عما هو « ممكن » ، وهو متفتح الذهن بشأن ما هو ممكن ومحتمل . وهو يحترم نفسه لأنه يحترم الآخرين . . . . وهو يسعى الى ما يحقق امكاناته طالما ان ذلك لا يحول دون تحقيق الآخرين لذواتهم » .

يقدم « ادوارد جوزيف شوبان » (٧٠) : نموذجاً للصورة العامة للشخصية السوية يطلق عليه : نموذج التوافق التكاملي **Integrative adjustment** ـ وهو توافق ايجابي يرتكز على الضبط الذاتي ، والمسئولية الشخصية ، والمسئولية الاجتماعية ، والاهتمام الاجتماعي الديمقراطي ، والمثل العليا . هذا النموذج يستبعد التصور المستحيل للشخص السوي على أنه ذلك الشخص الذي يكون

(69) Bain, R. Making normal people. Marriage fam. Living' 1954, 16,27-31.

(70) Shoben, E.J. Toward a concept of the normal personality. **American Psychologist'** 1957, 12, 183-189.

سعيدا دائما ، خاليا من الصراع ، وبلا مشكلات . اما الشخص الذي يتفق مع هذا النموذج ، فهو الشخص الذي يتمتع بدرجة علية من الاتساق الداخلي ، ومن احترام الذات ، والذي يستثير في الآخرين ردود أفعال ايجابية ودافئة .

انّ الخصائص الرئيسية التي يمكن ان تؤلف الصورة العامة للشخصية السوية هي تحقيق لأصالة إنسانية الانسان ولجوهر طبيعته الانسانية . والشخص السوي بذلك يتميز باحساس واضح بذاته ، بأصالته .

الاحساس الواضح بالهوية : يتسم الشخص السوي بوضوح رؤ يته عن نفسه وباحساسه الواعي بهويته . يتوصل « كورت جولد شتين » ، في كتابه (الطبيعة الانسانية في ضوء علم النفس المرضى) ، الى نتيجة عامة تؤكد أن الانسان تحركه من الداخل قوى أصيلة لكي ينطلق في الحياة ، ولكي يوظف إمكاناته وطاقاته وفقا لأحسن مستوى تؤهله له ، ولكي يحقق وجوده على الرغم مما قد يواجهه من معوقات . ومن ثم فان توجه الانسان السوي في الحياة ينطلق من سعيه الأكيد لأن « يكون كنفسه »[(٧١)] .

هذا الاحساس الواضح بالهوية يجسد مبادىء هامة في فهم الشخصية السوية ، مثل « التمايز » و « التفرد » بين شخص سوي وآخر .

يقول « كارل روجرز » [(٧٢)] :

يبدو لي ، من خلال تتبعي لخبرة مرضى (عملاء) كثيرين في سياق العلاقة العلاجية التي نسعى الى خلقها معهم ، أن كل مريض (عميل) لديه نفس المشكلة . فتحت مستوى الموقف المشكل الذي يشكو منه الفرد - أي وراء الصعوبات أو المشكلات المتعلقة بدراسته أو زوجته أو عمله ، أو بسلوكه الشاذ او الذي لا يملك حياله قدرة على ضبطه ، أو بمشاعره الباعثة على الخوف - تكمن نزعة رئيسية الى البحث عن الهوية . فيبدو لي أنه في القاع من البناء النفسي للمريض تتبدى تساؤلات مثل : من أنا حقيقة ؟ كيف أستطيع التوصل الى هذه الذات الحقيقية ، التي تكمن وراء كل سلوكي الذي يطفو على السطح ؟ كيف أستطيع أن أصير كنفسي ؟ »

(71) Goldstein, K. **Human nature in the light of psychopathology.** Camb. Harvard Univ., 1940.

(72) Rogers, C.R. **Becoming a person.** Austin : Univ. of Trxas, 1958, pp. 9-10.

يؤكد ذلك أيضا « كلارك موستاكاس » في دراسته عن « الاحساس بالذات »[٧٣] ، وهو إحساس يكشف عن عظمة الخبرة الانسانية أو الخبرة الذروية ـ وهي الخبرة الكلية ، حيث يكون الانسان إنسانا ، وحيث يندمج كل عنصر في الآخر ، وحيث يعطي كل جانب معنى للجانب الآخر ؛ هذه الخبرة الكلية في وحدتها وتكامها تخلق كيانا أصيلا متمايزا ، يقوم على الاحساس الخلاق بالذات ـ إحساس الشخص السوي بالانسجام الداخلي ، وبالتكامل الشخصي ، وبالمعنى الانساني لحياته . وهو إحساس بالذات ، كما تنمو ارتباطا بمصادرها الداخلية واتفاقا مع الطبيعة والذوات الأخرى . وهو إحساس يشعر فيه الشخص السوي بسلام مع نفسه ، وبتلقائيته وبكينونته كنفسه .

فالشخص السوي بإحساسه الواضح بهويته ، خلافا لتميع الهوية عند غير الأسوياء ، أعظم اقتدارا في توظيفه لامكاناته وطاقاته وفي تحقيقه لذاته ، وأكثر توجها نحو تكامل شخصيته ، وأكثر إبداعا في انتهاجه لأسلوب حياة رشيد قائم على التوجيه الذاتي المسئول ، وأكثر انفتاحا على الخبرة وانضواء فيها ، وأكثر استمرارية في نموه وتقدمه .

***

(73) Moustakas, C. The sense of self. **Journal of Humanistic psychology' 1961,1(1), 20-34.**

الأساليب المعرفية الإدراكية وعلاقتها بمفهوم التمايز النفسي

نادية محمود شريف

كلية التربية - جامعة الكويت

قسم علم النفس التربوي

تعتبر عملية الادراك من العمليات الغقلية المعرفية التي يتحدد على اساسها اسلوب تنظيم العلاقات المتضمنة في موقف من المواقف ، سواء كان تنظيم تلك العلاقات يتم في اطار نظرة كلية شاملة لعناصر الموقف ، أو في إطار فقرة تحليلية لعناصر هذا الموقف . ويعتبر الاتجاه العرفي في تفسير السلوك بوجه عام الأسلوب الاكثر ملائمة لفهم الكثير من اساليب النشاط العقلي التي يمارسها الانسان في كثير من مواقف حياته ، مما جعل لعلم النفس المعرفي في الوقت الحاضر أهمية قصوى بين علماء النفس والمشتغلين بالدراسات السلوكية . ويشير مصطلح معرفة **Cognition** الى جميع العمليات النفسية التي بواسطتها يتحول المدخل الحسي **Sensory input** فيطور ويختصر ويختزن لدى الفرد الى ان يستدعي استخدامه في المواقف المختلفة . ومن أهم العمليات النفسية التي تتعرض لها المدخلات الحسية ، عمليات الادراك والتحليل ، والتذكير ، والاستدعاء ، والتخزين ، والتحويل ، والتفكير وغيرها من العمليات النفسية المختلفة ، ويتضح من ذلك ان المعرفة تدخل في جميع ما يمكن للانسان ان يعقله او يمارسه في حياته بصفة عامة ، كما يتبين كذلك ان كل ظاهرة نفسية لدى الانسان هي ظاهرة معرفية .

ولما كان الادراك احدى هذه العمليات النفسية (العقلية المعرفية) فقد اهتم عدد كبير من

علماء النفس بدراسته ، ليس باعتباره وسيلة من وسائل تحديد الفروق بين الافراد في قدرتهم العقلية « الذكاء » فقط ، وانما باعتباره من الوسائل الهامة لتحديد الفروق المختلفة التي تعكس أساليب معرفية Cognitive styles أوسع واشمل من مجرد الفروق في الذكاء ، وقد تخطى مفهوم الأساليب المعرفية الحدود التقليدية التي سارت في التصورات النظرية للشخصية الى آفاق أبعد وأعمق ، حيث تعتبر النظرة الى الشخصية من خلال هذا المفهوم نظرة كلية شاملة لا تتجزأ ، فلا ينظر الى الجوانب المعرفية للشخصية على حدة ، والجوانب الانفعالية على حدة ، واساليب التكيف وفهم الذات على حدة ، وانما ينظر اليها على انها كل متكامل الأجزاء ، ومن هذا المنطلق فقد استخدمت تلك الاساليب المعرفية كأساس للتمييز بين الافراد اثناء تفاعلهم مع المواقف الحياتية المختلفة ، إلا ان هذا التمييز ليس تمييزا كميا يحدد مقدار ما يملكه الفرد من سمة من السمات او قدرة من القدرات ، وانما هو تمييز كيفي يعتمد على الاسلوب (Style) الاكثر تفضيلا لدى الفرد ، والذي يسلكه اثناء تفاعله وتعامله مع المواقف المختلفة ، والذي يتميز بانه على درجة عالية من الثبات النسبي .

لذلك سوف تتناول هذه الدراسة التعرف على بعض النقاط الاساسية في هذا المجال وتشمل : .

١ ـ مفهوم الاساليب المعرفية(Cognitve styles)

٢ ـ التصنيفات والأبعاد المختلفة للاساليب المعرفية .

٣ ـ كيف درست الاساليب المعرفية في الادراك (بعد الاستقلال ـ الاعتماد الادراكي)

٤ ـ مدى الاستفادة من تحديد الاسلوب الادراكي المعرفي في دراسة الشخصية في المواقف الاجتماعية او التعليمية .

اولا ـ مفهوم الاساليب المعرفية : (Cognitive Styles)

يقصد بالاساليب المعرفية الوان الاداء المفضلة لدى الفرد لتنظيم ما يراه وما يدركه حوله وفي اسلوبه في تنظيم خبراته في ذاكرته ؛ وفي اساليبه في استدعاء ماهو مختزن بالذاكرة ، بمعنى آخر فانها الاختلافات الفردية في أساليب الادراك والتذكر والتخيل والتفكير ، كما انها ترتبط بالفروق الموجودة بين الافراد في طريقتهم في الفهم والحفظ والتحويل واستخدامات المعلومات وفهم الذات (Messick , 1976)

. وقد يتبادر الى الذهن في هذا الصدد سؤال هام هو : ما الفرق بين مفهوم الذكاء الذي يشتمل على مثل تلك العمليات وبين مفهوم الأساليب المعرفية ؟

يتضح الفرق الرئيسي بين كلا المفهومين عندما نعرف أن مفهوم الذكاء او القدرات العقلية يعنى بالدرجة الاولى بمستوى المهارة (**Level**) او الاداء . بمعنى انه كلما زادت الدقة والمهارة في اداء عمل من الاعمال أو حل موقف من المواقف عبر ذلك عن مستوى عال للذكاء او القدرة ، وكان ذلك افضل او أكثر تعبيرا عن قدرة اكبر لما يمتلكه الفرد من الصفة التي نحن بصددها . في حين أنه كلما انخفض مستوى الأداء او مستوى الدقة في موقف من المواقف كان ذلك دليلاً على ضعف القدرة العقلية او الذكاء ، أو معبرا عن قدرة اقل لما يمتلكه الفرد من صفة من الصفات (**Messick, 976**)

اما الأساليب المعرفية فانها تهتم بالدرجة الأولى بحالة (**manner**) او شكـل **form** النشاط المعرفي الذي يتم به اكتساب او اداء سلوك ما . فهو مفهوم يتعلق بشكل النشاط المعرفي الممـارس وليست بمحتواه . وبالتالي فهو يشير الى الفروق الفردية في الطريقة او الاسلوب الذي يدرك به الافراد كل ما يدور حولهم ، او عندما ينكرون كل ما يواجههم من مشكلات . وقد اشرنا من قبل الى ان مفهوم الاساليب المعرفية مفهوم يستخدم في الوقت الحاضر كأساس لتحديد الفروق بين الافراد ولكن بطريقة تختلف كثيرا عما هو شائع في مجال دراسة الفروق الفردية .

فقد ألف الناس ان يصنف الافراد حسب ما يتصفون به او ما لا يتصفون به من سمات فيقال إن شخصا له موهبة موسيقية ، وآخر له موهبة للرسم او الرياضة او غير ذلك ، ويتم هذا التصنيف او التمييز بين الافرقد بناء على اعتبارات عملية خالصة . فالشخص الذي يمتلك قدرا معينا من القدرة الموسيقية تصبح امكانية تقبله في مهنة الموسيقى اكبر واكثر احتمالا . اما إذا كانت درجته دون هذا الحد الادنى فانه لا يعتبر موسيقيا . كذلك تعودنا على ان نصف الفرد حسب خواصه وقدراته البارزة ، بينما نتجاهل ببساطة السمات التي يقترب فيها الانسان من المعيار المتوسط ، علما بأن أي مهمة من سمات الشخصية يمكن توزيعها على طول مقياس مندرج ومستمر . لذلك كان من غير الملائم أن نصف الافراد الى انماط متمايزة اشد التمايز كما يتضح من هذا الاسلوب الكمي ، كما نه ينبغي عدم الاعتماد على تحديد القدر او الكمية التي يملكها الفرد لسمة من السمات بحيث يتحدد مصيره سواء في حياته العملية او التعليمية على أساسها . واذا كان استخدام مفهوم الأساليب المعرفية في الوقت الحـاضر كأساس للتمييز بين الافراد يقوم على أساس تجميع الخصائص الفردية من انماط كلية متمايزة ، فان هذا التصنيف ليس يفرض المفاضلة بين نمط وآخر ، وانما يفرض تحديد مجموعة الخصائص والمواصفات

الكلية الشاملة التي تميز بين ذوي الأساليب المعرفية المختلفة في تعاملهم مع الموضوعات الحياتية المختلفة ، ولذلك فانه يعتمد على تحديد الطريقة او الشكل الذي يمارس به الفرد اي نشاط من الانشطة ومدى الثبات النسبي الذي يمكن ملاحظته في مختلف الانشطة التي يقوم بها الفرد . لذلك فانه يقال ان الاساليب المعرفية لاتهتم بمحتوى النشاط ومقداره بقدر اهتمامها بالعمليات النفسية والطريقة الخاصة التي يمارس بها الفرد ذلك النشاط . (Witkin, 1974)

كذلك يختلف مفهوم الأساليب المعرفية واستخدامه كوسيلة لتحديد الفروق بين الافراد عما كان شائعا في وقت من الأوقات ، والمعروف باسم نظريات الانماط التي كان كل تركيزها هو محاولة تحديد العلاقة بين السمات الجسمية والنفسية وتصنيف الأفراد تبعا لواحد منها . فبالرغم من ان نظريات الانماط قد استقبلها الناس في وقت من الأوقات بشغف شديد وقبول كبير باعتبارها طريقة مختصرة لتفهم الطبيعة الانسانية الا ان اهم مايؤخذ عليها هو استخدامها للتقسيم الثاني بين نمطين تكوينيين متعارضين ، فمن الناحية الجسمية تفرق النظريات النمطية بين الجسم الطويل الذي له اطراف طويلة نسبيا ، والتكوين الغليظ القصير الذي له جذع كبير واطراف قصيرة . ومن ناحية الشخصية نجد في احد الطرفين الشخص الاجتماعي الذي يكون مع غيره علاقات منسقة بسهولة ويسر وفي الطرف الآخر الشخص غير الاجتماعي (Anastas, 1965)

ومن النظريات التي اثرت تأثيرا كبيرا في دراسات الشخصية في مرحلة من المراحل نظرية كرتشمر للانماط حيث صنف الافراد على أساس النواحي الجسمية الى اربعة انواع (المكتنز والرياضي والواهن ، والمشوه البنية ،) وحاول ان يوجد علاقة بين انماط الجسم وبين النواحي المزاجية ، فالمكتنزون يميلون الى ان يكونوا اجتماعيين ، واقعيين ، في حين ان النحيفين يميلون لان يكونوا هادئين متحفظين ، وميالين الى الوحدة .

كذلك اظهرت محاولة شلرن انه يمكن تقسيم الناس الى مجموعات تبعا لثلاثة مكونات .

(١) المكون الحشوي (٢) المكون الجلدي (٣) المكون العقلي . ويقابل كل منهم خصائص مزاجية خاصة .

كذلك ظهر تقسيم آخر قدمه كارل يونج للأفراد تبعا لخصائصهم ، وحيث صنف الافراد على

اساس المنطوي ، والمنبسط وارتبط بكل نمط منها خصائص وسمات معينة ، فقد اشار يونج الى ان المنطوي يميل الى الانسحاب ، والاختلاء بنفسه ، ويفضل العمل الانفرادي ، في حين ان المنبسط يميل الى الاقبال والاجتماع بالآخرين ، ويفضل العمل في وسط الجماعة ، وعلى الرغم من التشابه الذي يمكن ملاحظته بين نظريات الانماط وبين الاساليب المعرفية باعتبارهما اساليب لتصنيف الناس الا ان هناك فروقا جوهرية فيما بينها تتضح فيما يلي :-

١ـ ان نظريات الانماط المختلفة تعتمد في تصنيفها للافراد على التطرف والتمييز في النواحي الجسمية وعلاقة ذلك بالنواحي المزاجية للشخصية ، في حين أنه الدراسات والبحوث المختلفة اظهرت وجود ارتباط ضعيف وقليل بين التكوين الجسمي والتكوين المزاجي .

٢ ـ ان نظريات الانماط تنظر الى الشخصية الانسانية كنتيجة للدراسة البيولوجية وهذا ما يتضح من اعتماد تلك النظريات على الخصائص الجسمية بالذات ، وبالرغم من اهمية الجسم للشخصية الا ان الشخصية بصفة عامة تتضمن العلاقات بين الناس ، والآثار الثقافية ، واثار التنشئة الاجتماعية حيث تلعب جميعها دورا هاما في تحديد خصائص الشخصية وسماتها المختلفة .

٣ ـ ان التصنيف تبعا للأسلوب المعرفي يؤكد على انه ليس تصنيفا ثنائيا للافراد في انماط متمايزة ، وانما يقصد به ان الافراد يتوزعون على سلم متدرج ومتصل وانه توزيع اعتدالي بحيث يصبح للبعد المعرفي الواحد منوالا واحدا وليس منوالين كما تعني نظرية الانماط . بمعنى اخر فان توزيع الناس الى (مستقل ادراكيا ـ معتمد ادراكيا) انما يمثل تدرجا متصلا وانهما ليس الا طرفين لمقياس واحد . فهما يختلفان كما يختلف الطويل عن القصير ، او يبعد احدهما عن الآخر في اتجاهين مختلفين بالنسبة لنقطة متوسطة ، وانه حينما تحلل نتائج الاختبارات التي تقيس تلك الجوانب المعرفية المختلفة تحليلا عامليا فاننا يمكننا ان نتوصل الى عوامل كثيرة Messick, 1976 وبناء على ذلك فانه يمكننا ان نجمل اهم الخصائص التي تميز الاساليب المعرفية وتجعلها اسلوبا يختلف عن الاساليب الأخرى التي تعمل على تجميع الخصائص الفردية في انماط كلية فيما يلي :

١ـ ان الاساليب المعرفية هي ابعاد مستعرضة ، تمكننا من النظر الى الشخصية بطريقة كلية .

فالاساليب المعرفية لا تقتصر على الجانب المعرفي من الشخصية فقط ، بل هي اساس يتحدد عليه جميع جوانب الشخصية الأخرى . بالاضافة الى ذلك فان قياس تلك الاساليب المعرفية والذي يعتمد

على استخدام الاختبارات او الوسائل غير اللفظية يمكنه ايضا ان يقيس ويحدد جوانب غير معرفية للشخصية .

٢ـ ان مفهوم الاساليب المعرفية يتعلق بشكل النشاط الممارس وليس بمحتواه ، فهو فروق ترتبط بالطريقة التي يدرك بها الافراد ويفكرون ويحلون مشكلاتهم ، ولذلك فان الاساليب المعرفية تتحدد في عبارات العمليات النفسية (**Psychological Pro Usses**)

٣ـ على الرغم من ان مفهوم الاساليب المعرفية قد يوحى بانه مفهوم ثنائي القطب الا ان ذلك مخالف للواقع . فتبعا لهذا المفهوم لا يكون لدينا نمطان متمايزان في اساليب الادراك ، بل هو توزيع متصل يبدأ من أحد الطرفين وينتهي بالآخر . واذا كانت تلك الخاصية وهي « الاستمرارية » موجودة ايضا في مفهومنا للفروق الفردية بصفة عامة إلا أنها لا تظهر بهذه الصورة في الممارسات التي تعتمد على قياس الكم الذي يملكه الفرد لسمة من السمات . فمثلا كلما زاد ذكاء الفرد او زادت قدرة معينة لديه كان ذلك افضل او معبرا عن مستوى أفضل ، اما بالنسبة للاساليب المعرفية فان كل قطب له قيمته في طل شروط خاصة .

٤ـ واخيرا فان الاساليب المعرفية تعتبر اساليب ثابتة نسبيا لدي الافراد ، وان كان ذلك لا يعني انها غير قابلة للتعديل او التغيير تماما ، بل يمكن تعديلها وتوجيهها ، وانما ليس بصورة سريعة او مفاجئة في حياة الفرد العادية . ومن هنا كانت وسيلة في التنبؤ بسلوك الافراد في المواقف التالية . **(gooale-nough av karp, 1967, (Wilkin, 1974)**

ثانيا ـ التصنيفات والأبعاد المختلفة للأساليب المعرفية :ـ

اشرنا من قبل الى ان مفهوم المعرفة (**Cogniton**) يشير الى جميع العمليات النفسية التي بواسطتها يتحول المدخل الحسي فيطور ويختصر ويختزن لدى الفرد في تنظيمه العقلي المعرفي ، وان هذه العمليات العقلية المعرفية تتضمن الادراك والتذكر ، والاستدعاء والتخزين ، والتفكير وغيرها ولقد اختلفت التسميات المستخدمة في الحديث عن الأساليب المعرفية فظهرت تسميات مثل الاساليب المعرفية (**Cognitive Styles**) واساليب التحكم المعرفي ، **Cognitive Contral**)

والاستراتيجيات المعرفية (Cognitive Strategies) والواقع ان كل هذه التسميات وما تبعها من تصورات كان راجعا الى اختلاف النظرة الفلسفية او التصور النظري وراء كل باحث اكثر من كونها اختلافات في شرح او تفسير الظاهرة نفسها .

ومهما تكن الاختلافات في التسميات إلا انه أمكن للعلماء امثال دمكن ، هرمان ، كوجان ، وميسك وغيرهم من تحديد مجموعة من الاساليب المعرفيه التي تميز الافراد في تعاملهم مع مواقف الحياة المختلفة ، والتي تعتبر اساسا يعتمد عليه بدرجة كبيرة من الدقة في التنبؤ بألوان سلوك الافراد من مواقف الحياة المتنوعة ، وفي تفسير كثير من جوانب الشخصية ، وقد افترض المهتمون بكل اسلوب من تلك الاساليب المعرفية بان التعرف على الاسلوب المعرفي للفرد والذي يعتبر اكثر تفضيلا لدى صاحبه يساعد بطريقة أو بأخرى في فهم الوان السلوك الانساني بصفة عامة ، كما تمدنا بالمعلومات اللازمة عن خصائص الشخصية وبنائها ، وقد اشار ميسك (١٩٧٠) الى ان هناك عشرة انماط اساليب معرفية يمكن استخدامها مجتمعة ، او استخدام كل منها على حدة للتمييز بين الافراد ، إلا أن بعض هذه الانماط قد نال عناية واهتمام علماء النفس وابحاثهم ، في حين أن بعضها الآخر مازال غامضا ويحتاج الى كثير من الدراسات والبحوث .

ويمكن اجمال هذه الاساليب المعرفية بابعادها المختلفة فيما يلي :-

١- بعد الاستقلال - الاعتماد الادراكي (Flelol — Independant, Fielol —De-pendant)

ويرتبط هذا الاسلوب المعرفي بمدى الفروق الموجودة بين الافراد ومدى الثبات النسبي الذي نلاحظه في سلوك كل منهم في تفاعله مع عناصر الموقف المحيط به . حيث يظهر ان هناك افرادا لديهم القدرة على عزل وانتزاع الموضوع المدرك بما يحيط به في المجال ، في حين ان هناك آخرين لا يستطيعون التعامل مع ميزات الهيئة بصورة منعزلة او غير معتمدة على المجال ، علما بان تصنيف الافراد تبعا لأسلوبهم الادراكي المعرفي (مستقل - معتمد) لا يعني الثنائية ، وانما هو توزيع متصل ، كما يرتبط بكل بعد من البعدين خصائص وسمات معينة ترتبط بالوان التفضيل المهني والاجتماعي والعلمي . ويعتبر هذا الاسلوب المعرفي في بعهديه (المستقل - المعتمد) من اكثر مجالات الاساليب المعرفية دراسة وبحثا ، وستستقر دراستنا الحالية للتعرض لهذا الاسلوب المعرفي فقط . وسيجيء ذلك بعد استعراض سريع للاساليب المعرفية الاخرى(Witken Oltman, 1973)

٢ ـ بعد التريث ـ الاندفاع :ـ Reflection Versus Impulsivity

ويرتبط هذا البعد بالفروق الموجودة بين الافراد في سرعة استجاباتهم للمواقف المختلفة . ويرتبط بذلك أيضا مدى كفاءة البدائل التي يقدمها الفرد كفروض او أسس لحل المواقف او المشاكل التي تصادفهم .

فالافراد الذين يطلق عليهم مصطلح اندفاعي (**Lmpulsive**) يميلون الى اصدار وتقديم اول استجابة تطرأ على اذهانهم والتي غالبا ما تكون غير صحيحة ، في حين ان من يطلق عليهم مصطلح **Seflective** (متريث) يميل الى معالجة مختلف البدائل وتقديم الفروض والتحقق في الاستجابة قبل اصدارها او قبل اتخاذ قرار ما . (Kayn and Kogan, 1970 Kogan and Messen 1975)

٣ـ بعد تكوين المدركات (Conceptua Lizing Styles)

ويرتبط هذا البعد بذلك الثبات النسبي الذي يلاحظ في اداء الافراد وتعاملهم مع الخواص المختلفة للمثيرات المختلفة . وفي اسلوبهم في تكوين المدركات . حيث يتضح ان هناك مجموعة من الافراد يعتمدون في تكوين مدركاتهم على العلاقة الوظيفية الموجودة بين المثيرات **Zelational Con Coptualizing** في حين توجد مجموعة أخرى من الافراد يميلون الى تكوين مدركاتهم عن طريق تحليل الخصائص الوصفية الظاهرية للمثيرات (Analytic Descripltive Conceptuali zing) والتعامل معها بناء على خصائصها الظاهرية . وان هناك مجموعة ثالثة وهم الذين يعتمدون في تكوين مدركاتهم على قدرتهم في استنباط واستنتاج مستويات للعلاقات (Categorical in- terechal Conceptualizing) بين المثيرات المختلفة (Kagan,noss Vsigal, 1960, 1963) (Wallash Kogan 1965)

٤ ـ بعد ترتيب الثبات (ثابت ـ شاحذ الصقل (الشحذ) Leveling Vevsus Sharpening

ويقصد بها الفروق الموجودة بين الافراد في الاساليب المعرفية المرتبطة بمدى استيعاب الذاكرة ، فهناك افراد يتميزون بأنه يصعب عليهم استرجاع الخبرات الموجودة بالذاكرة ويصبح ما هو مختزن

بالذاكرة صعب استدعاؤه بصورة مطابقة لما حدث . ويقع هؤلاء الافراد في اقصى طرفي هذا البعد ويطلق عليهم مصطلح (رتيب (Leveling حيث يجد هؤلاء الأفراد صعوبة في الاستفادة من المعلومات المتشابهة المختزنة لديهم وبحيث يتعاملون مع الاشياء او الاحداث الحاصرة دون ـ الرجوع او البحث في الاحداث الماضية المختزنة في العقل . بل ان الاختلافات في الاشياء المختزنة تميل لأن تضيع وتمحى من أثر الذاكرة .

أما الطرف الآخر من هذا البعد فيوجد أولئك الذين يطلق عليهم مصطلح (شاحذ (Sharpening) وهؤلاء الافراد يكونون عادة اقل عرضة للتشتت بالتشابه الموجود بين الاشياء المختزنة لديهم ، وانهم قد يعظمون ويوسعون من حجم الفروق الموجودة بين اثار الذاكرة المتشابهة ، وبالتالي يزيدون ويبالغون في الفروق الموجودة بين الماضي والحاضر ، مما يساعدهم بصورة أوضح على التعامل مع الموقف الجديد (Holzman Rousey, 1971)

٥ ـ بعد ـ الفحص والتدقيق

ويرتبط هذا البعد بالفروق الموجودة بين الأفراد كسعة وشدة الانتباه التي تجعل الافراد يختلفون في مدى وضوح الخبرات التي تمر بهم وسعة هذا الادراك ، فالافراد الذين يمكن وصفهم بأنهم من ممعني النظر **Scaming** يتميزون بشدة التدقيق فيما تحيط بهم ويهتمون بالتفاصيل كما يتميزون بحدة الانتباه مع سعته بحيث يتسع انتباههم ليشمل قدرا واسعا من الميزات المحيطة بهم **(Holtzman, 1966, 1971)**

٦ـ بعد الشمولية ـ القصور (Inclusivness - Versws Exclusiveness)

ويرتبط هذا الاسلوب المعرفي بذلك الثبات النسبي الذي يتضح في ميل بعض الافراد في تصنيف مواقف الحياة والمثيرات المختلفة بصورة شاملة ، في مقابل أولئك الذين يتعاملون مع المواقف بصورة ضعيفة « او بنظرة قاصرة » ويعكس هذا الاسلوب المعرفي مدى قدرة الفرد على تحمل التناقض الكبير المتضمن في المواقف المختلفة ، بحيث يتضح ان هناك افراداً يتميزون بالقدرة على تحمل التعامل مع المواقف ذات الطبيعة المتناقضة او المتعددة المثيرات ، في حين ان هناك آفرادا آخرين لا يمكنهم تحمل مثل تلك المتناقضات **Messick and Kogan, 1963**

٧ ـ البعد المعرفي البسيط ـ المعرفي المعقد : Cognitve Simpili city Versui Cognitive Complexity

ويرتبط هذا البعد المعرفي بالفروق القائمة بين الافراد في ميلهم لتفسير العالم المحيط بهم وخاصة في جانبه الاجتماعي ، إما على اساس ابعاد متعددة او على اساس ابعاد متميزة ومحددة ، فالفرد الذي يتميز بالاسلوب المعرفي المعقد يتميز بانه اكثر قدرة على التعامل مع ابعاد الموقف الاجتماعي المتعددة ، واكثر قدرة عى ادراك ما حوله بصورة اكثر تحليلية ، كما ان لديه القدرة للقيام بعمليات التكامل لما يراه من حوله ، وذلك عكس الشخص الذي يتميز بالاسلوب المعرفي البسيط . ويرتبط بهذا البعد ايضا التمييز بين الافراد من حيث امكانية تعاملهم مع الاشياء المجردة وبين أولئك الذين يحتاجون الى التعامل المحسوس .

٨ ـ بعد المخاطرة في مقابل بعض الحذر Risk taking versus cautiousness

ويرتبط هذا البعد المعرفي بمدى الفروق القائمة بين الافراد في مدى إقبالهم على المجازفة واقتناص الفرص لتحقيق هدف من الاهداف في مقابل اولئك الذين يميلون الى الحصول على ضمانات مؤكدة قبل الدخول في أي مغامرة . فمثلا هؤلاء المغامرون نجدهم اكثر اعتمادا على التخمين في المواقف ذات البدائل المعقدة ، كما انهم يتميزون بروح المغامرة في حين ان الافراد الحذرين يتسم سلوكهم بعكس ذلك تماما . بمعنى آخر كان من يتميز بروح المخاطرة هم اولئك الذين يقبلون الدخول في المجالات التي تتميز بأنها ذات مردود عال وكبير ، بالرغم من ان احتمالات النجاح بسيطة وضعيفة وانهم لا يقبلون الدخول في الموضوعات او المجالات التي تتميز بان مردودها ليس كبيرا مهما كانت احتمالات نجاحها اكثر تأكيدا (**Kogan Morgan 1969**)

٩ ـ بعد التحمل Tolerance for incongvuous

ويرتبط هذا البعد بالتمايز الاستعدادي لتقبل ما يحيط بالفرد مهما تباينت الموضوعات المدركة مع الخبرات التقليدية ، ففي إحدى طرفي هذا البعد نلاحظ أولئك الافراد الذين لديهم استعداد لتحمل وتقبل الاحداث والافكار التي تختلف كثيرا عن المألوف او الشائع ، كما يمكنهم اتخاذ خطوات ايجابية تقدمية وابداء آراء غير واقعية أو أفكار غريبة . أما في الطرف الآخر فيوجد اولئك الذين لا يتحملون الجديد او الغريب ، والذين يفضلون كل ماهو واقعي وكل ما هو تقليدي .

(Klein, Gavalner amd schlescnger, 1962)

١٠- بعد التزمت - المرونة Constricted vs flexible control

ويرتبط هذا البعد بالفروق القائمة بين الأفراد في تعاملهم وتأثرهم بالمتناقضات أو التداخلات المعرفية الموجودة في الموقف . ويتضمن هذا البعد ايضا مدى قدرة الفرد على الانتباه الى المميزات المرتبطة بالموقف مباشرة ، مع قدرة على إيصال المشتتات الأخرى الموجودة في الموقف وابطال تأثيرها على نشاطه او استجاباته (Jonsen and Rohwer, 1966

وهكذا يتضح من هذا الاستعراض السريع لمفاهيم الاساليب المعرفية وتسمياتها المختلفة مدى التفاوت القائم بين كل بعد من الابعاد ومدى التشابه الموجود بين بعضها الآخر . كما يتضح أيضا انه من الممكن إدماج بعض هذه الأبعاد نظرا للتشابه فيما بينها . والواقع ان هذه التسميات المتعددة للأساليب المعرفية قد ترجع الى اختلاف النظرة الفلسفية او الاسلوب المنهجي المتبع في دراسة كل منها . بل انه يمكن القول ان مثل هذه الاساليب المتعددة قد تستدعي في بعض الاحيان ضرورة دراسة مدى الارتباط الذي يمكن ان يوجد بين بعض هذه الأساليب وبعضها الآخر .

وكما سبق ان اشرنا فان هذه الابعاد المعرفية العشرة لم تنل حقها من الدراسة والبحث بدرجة واحدة من القوة والعمق . فبعض هذه الأبعاد نال العناية والدراسة المستفيضة وبحيث أصبح يعتمد على نتائجه في التعرف على كثير من جوانب الشخصية ، كما اصبح وسيلة للتمييز بين الافراد واداة من ادوات تحديد الفروق الفردية في الشخصية بجوانبها الكلية . في حين ان بعضها الآخر مازالت تجري عليه الدراسات والبحوث . فمثلا يعتبر بعد الاستقلال - الاعتماد الادراكي من اكثر المجالات دراسة وبحثا ، كذلك الحال في بعد التريث - الاندفاع ، في حين ان باقي المجالات المعرفية الاخرى لم تتم عليها الدراسات بالدرجة التي يمكن الاعتماد على نتائجها في دراسة وفهم جوانب الشخصية بصفة عامة .

لذلك فسوف نتعرض في هذه الدراسة الى بعد واحد فقط من هذه الابعاد المعرفية وهو بعد الاستقلال - الاعتماد الادراكي . فكيف درس هذا البعد المعرفي وماهو الاساس النظري الذي يستند عليه تصنيف الافراد تبعا له ؟

كيف درست الاساليب المعرفية في الادراك - « بعد الاستقلال - الاعتماد الادراكي »

الواقع ان الجهد الذي بذل والدراسات التي تمت في مجال الاساليب المعرفية **Cognitive styles**

ولا سيما بعد الادراك يعادل خمسة وعشرين عاما تم معظمها على يـد وتكن **Witken** وهرتـزمان **Hertzman** وميسك **Messick**ووارنر **Warner** وذلك منذ عام ١٩٥٤ . وقد تمكن هؤلاء العلماء من تقييم العديد من المواقف الاختبارية التي استطاعت ان تقيس الخصائص المعرفية الادراكية لدى الافراد المختلفين ، كما استطاعوا ان يخرجوا العديد من الحقائق والمعلومات عن مدى الارتباط القائم بين الاسلوب المعرفي الادراكي للفرد وبين جوانب الشخصية المختلفة ، سواء كانت اساليب السلوك في مواقف التعلم ، او اساليب التكيف الشخصي الذي ينميها الفرد لنفسه خلال مراحل نموه المختلفة ، أو في تفضيله لأنواع دراسية معينة أو مهنية من المهن ، لذلك فقد نشطت ايضا الدراسات والبحوث المختلفة عن كيفية الاستفادة من تلك الخصائص الادراكية المعرفية في مجال التوجيه والارشاد المهني واساليب التنشئة الاجتماعية ، ومشكلات التربية ومجالات التعليم واساليبه في حجرة الدراسة .

ويعتبـر بعـد الاستقـلال ـ الاعتمـاد الادراكي **Field - independent, Field - dependent**
(F - L, F - D) من اهم ابعاد الاساليب المعرفية التي نالت عناية ودراسة علماء النفس ، حيث قام وتكن وزملاؤه بتعميم مجموعة من المواقف التجريبية والاختبارية التي يمكن عن طريقها تحديد تلك الاساليب المعرفية الادراكية وتحديد الفروق الموجودة بين الأفراد على اساسها .

وقد ركزت ابحاث وتكن وزملائه على تحديد ما اذا كان الفرد يستطيع ان يدرك موقفا من المواقف او موضوعا من الموضوعات متميزاً عن المجال الذي يوجد فيه . وقد صمم ثلاثة مواقف حسية ـ ادراكيه **(Percepkual - TASKS)** كان الموضوع في احد المواقف هو جسم الفرد حيث يعرف هذا الموقف الاختياري باسم اختيار تعديل الجسم **(Body- Adjustment Test)**

اما الموقف الآخر فيعرف بأسم اختيار المؤشر والاطار **Rod and Frame Test**

وكان الموقف الثالث هو اختبار الاشكال المتضمنة .

(Merman and Witkin, 1969) (Embedded figure - test)

وقد تمكن وتكن وزملاؤه من ان يحددوا الى اي مدى يختلف الافراد في قدرتهم على ادراك هذه المواضيع (الجسم ـ المؤشر ـ الاشكال الهندسية) منفعلة ومميزة عن المجال الذي يحيط بكل منها ، والذي يعتبر كل موضوع منها جزءا من هذا المجال ، بمعنى آخر فقد طلب من الافراد ان يتعاملوا مع اجزاء كل موقف من المواقف محاولين فصلها عن باقي الموقف الكلي .

ويمكن توضيح كل موقف من المواقف التجريبية التي استخدمها وتكن وزملاؤه فيما يلي :-

يعتبر أول هذه المواقف الاختبارية هو ما يعرفه باسم « اختبار تعديل الجسم » من هذا الاختبار يكون موضوع الادراك هو جسم الفرد نفسه ، وليس شيئا خارجيا ، ويهدف الى تحديد كيف يحدد الفرد وضع جسمه في الفراغ . وفي هذا الموقف يجلس المفحوص على كرسي ، يمكن ان يميل في اتجاه عقارب الساعة او عكسها . وبعد ان يجلس المفحوص على الكرسي يدخل في حجرة صغيرة يمكن أن تميل ايضا في اتجاه عقارب الساعة او عكسها بصرف النظر عن وضع الحجرة الكبيرة التي يجلس فيها المجرب . وبعد ان يتم تعديل وضع الغرفة الصغيرة (وبداخلها المفحوص) بواسطة المجرب بحيث يكون مائلا بدرجة محددة مسبقا يطلب من المفحوص ان يعدل من وضع جسمه بحيث يكون معتدلا ، أي في وضع رأسي .

اما الموقف الثاني فهو ما يعرف باسم « اختبار المؤشر والاطار . حيث يقدم للمفحوص اطار مربع مضيء، ومثبت في مركزه مؤشر مضيء أيضا . والاطار والمؤشر كلاهما يمكن ان يميل في اتجاه عقارب الساعة او عكسها مستقلا عن وضع الآخر . ويقدم الاطار (وبداخله المؤشر) الى المفحوص في حجرة مظللة بحيث لا يرى غيرهما وفي اوضاع مائلة . ثم يطلب من المفحوص ان يعدل من وضع المؤشر بحيث يصبح وضعه رأسيا ، بينما يظل الاطار حوله في وضعه المائل المحدد مسبقا .

اما الموقف الثالث فهو اختيار الاشكال المتضمنة » وفي هذا الاختبار يعرض على المفحوص شكل بسيط لفترة زمنية قصيرة ثم يقدم له بعد ذلك شكل معقد يتضمن داخله الشكل البسيط ولكن في صورة مطمورة ، ويطلب منه ان يستخرج الشكل البسيط من الشكل المعقد ، وان يُعَلِّمَ على حدود هذا الشكل البسيط ، وقد خرج وتكن وزملاؤه بان هناك فروقا واضحة بين الافراد في آرائهم وتعاملهم مع المواقف المختلفة ، ووجد أن هذه الفروق تتسم بالاتساق والتشابه في المواقف الاختبارية الثلاث ، وان الافراد يختلفون في قدراتهم على ادراك اجزاء المجال كشيء منفصل او مستقل عن المجال المحيط ككل . وقد كان من نتائج هذه الدراسات ان امكن التمييز بين الافراد بحيث امكن تحديد هؤلاء الافراد الذين يتميز ادراكهم للمواقف بانه ادراك كلي **global** يعتمد على تنظيم المجال ووضوح اجزائه ، وسمى اصحاب هذا النمط بذوي الاسلوب المعرفي المعتمد (**F . D**) . وفي مقابلهم كان هناك آخرون يتميز ادراكهم للمجال بانه ادراك تحليلي **analytic** حيث يمكنهم ادراك عناصر الموقف منفصلة او متمايزة عن بعضها البعض الاخر وسمى اصحاب هذا النمط بذوي الاسلوب المعرفي المستقل (**F.I**) .

ولابد ان نشير مرة اخرى الى ان كلا الاسلوبين في الادراك (المعتمد ـ المستقل) لا يمثل تصنيفا ثنائيا للافراد بحيث يصبح لدينا نمطيين متمايزين في اساليب الادراك المعرفي وانما هو توزيع متصل يبدأ من احد الطرفين وينتهي بالطرف الآخر (Messick, 1976) وقد اسفرت الدراسات في مجال الاساليب المعرفية ان الافراد بصفة عامة يميلون الى الثبات النسبي في موضعهم تبعا للأسلوب المعرفي الذي ينتمون اليه (تحليل كلي) وذلك بالمقارنة بزملائهم ، أي ان كل فرد يميل الى البقاء في موضعه من الاسلوب المعرفي المنتمي اليه ، وذلك خلال مراحل نموه المختلفة . وبالتالي فالطفل الذي اظهر منذ طفولته المبكرة دلائل تشير الى انه من ذوي الاسلوب المعرفي المعتمد ، بمقارنته بمجموعة من اقرانه فانه سوف يظل متدرجا تحت هذا الاسلوب المعرفي الكلي في سنوات العمر التالية ، وذلك بمقارنته بنفس افراد هذه المجموعة من الاعمار الزمنية الاكبر ، مع العلم ان هذا الطفل ومجموعة الافراد الذين ينتمي اليهم يتجهون جميعا خلال مراحل النمو المختلفة نحو مزيد من الاسلوب المعرفي التحليلي بصفة عامة .

ويرتبط مفهوم الثبات النسبي للأساليب المعرفية الادراكية ارتباطا وثيقا بمفهوم التمايز النفسي **Psychological Dippesentiation** الذي يعتبر الاساس الذي ترتكز عليه كل اعمال ودراسات وتكن وزملاءه ، حيث يفترض ان الافراد يختلفون في اسليب سلوكهم وخصائصهم النفسية تبعا لدرجة نمو عملية التمايز النفسي المعرفي لكل منهم ، فهناك افراد يتميزون بقدرة عالية على تمييز انفسهم والفصل بين خصائصهم النفسية والشخصية المختلفة ، وبالتالي يتحدد سلوكهم على هذا الاساس ايضا . ومن هنا فان القدرة على تنمية عملية التمايز النفسي المعرفي لدى الفرد منذ بدء حياته وطوال مراحل العمر المختلفة يعتبر المسئول الأول عما نلاحظه من ذلك الثبات النسبي في الوان السلوك التي يقوم بها الفرد ، والتي استخدمها وتكن وزملاؤه للتمييز بين اولئك الذين يتميزون بالاساليب المعرفية التحليلية (المستقلة) واولئك الذين يتميزون بالاساليب المعرفية الكلية (المعتمدة) .

ماذا نقصد بعملية التمايز بصفة عامة ؟

من المعروف ان عملية الادراك لدى الاطفال في الاعمار الصغيرة تتميز بالكلية والعمومية ، وانه بازدياد التقدم في مراحل النمو يزداد التمايز وتزداد القدرة على ادراك التفاصيل وتزداد القدرة على عزل الذات عما يحيط بها من مثيرات أو أمور . لذلك فانه يمكن القول ان الاطفال في مراحل العمر المبكرة يتميز ادراكهم بانه من ذلك النوع المعتمد (الكلي) وانه مع ازدياد النمو يتجة الافراد نحو مزيد من

الاستقلالية في عمليات الادراك . ولما كان وتكن وزملاؤه يستخدمون مفهوم الأساليب المعرفية في معنى نمائي ، فان ذلك يقودنا الى الخروج بنتيجة أساسية وهي انه اذا حقق الفرد او تعطلت لسبب او آخر تنمية أساليبه الادراكية التي تختلف عن تلك الاساليب التي تميز مراحل الطفولة كان ذلك سببا فيما نشاهده من فروق بين الافراد في جوانب شخصياتهم المختلفة .

ويمكن القول انه من خلال شرح وتوضيح الكيفية التي تنمو بها عملية التمايز في حياة الافراد ، ومن خلال التعرف على مستوى نمو تلك العملية يمكن تحديد الفروق القائمة بين الافراد في سماتهم الشخصية المختلفة (Goadenouyh, 1967) بحيث يمكن في النهاية توزيع الناس على سلم متدرج من اقصى اليمين ، حيث نجد اولئك الذين لم يتمكنوا من تنمية اسلوب واضح ومحدد للتمايز في حياتهم وتعاملاتهم ولم يتمكنوا من فصل انفسهم عما يحيط بهم ، وبالتالي انطبع ذلك على جميع مظاهر سلوكهم ، اما في اقصى اليسار فاننا نجد اولئك الذين يمكنهم ادراك التمايز الموجود بين خصائصهم الشخصية المختلفة مع نمو القدرة على تمييز انفسهم عما يحيط بهم من امور وظواهر ، وبالتالي ينطبع ذلك ايضا في جميع مظاهر حياتهم الشخصية ، واخيرا فان تصنيف الافراد الى معتدلين - مستقلين ادراكيا انما يعني مدى نمو عملية التمايز النفسي في حياة هؤلاء الأفراد ، التي تظهر آثارها في ذلك الثبات والاتساق النسبي في سلوك الافراد .

ويتبادر الى الذهن في هذا الصدد سؤال هام هو . . **ماهي طبيعة عملية التمايز هذه وماهي العوامل المسئولة عن تنميتها أو اعاقتها ؟**

الواقع ان صفة التمايز تعد صفة اساسية من صفات اي نظام (System) سواء كان ذلك النظام نظاما سيكولوجيا او بيولوجيا او اجتماعيا . ويقصد بمفهوم التمايز في معناه العام مدى التعقد النهائي لأي نظام من الأنظمة ، فالنظام الاقل تمايزا يمكن وصفه بان بنيته او مكوناته تتميز بالتجانس النسبي ، في حين أن النظام الاكثر تمايزا يمكن وصفه بأن بنيته او مكوناته تتميز بعدم التجانس النسبي ، ويمكن القول ان وصف اي نظام بأنه ذو درجة عالية من التمايز او درجة منخفضة منه يحمل في طياته معنى للاسلوب الوظيفي الذي يعمل به هذا النظام ، بل انه من خلال بعض المظاهر الوظيفية الخاصة يمكن ان يتضح مقدار هذا التمايز الموجود في نظام ما .

ويرتبط مفهوم التمايز لأي نظام مفهوم آخر وهو مفهوم التخصص ، ذلك ان كل مكون من مكونات أي نظام لابد وان تكون له وظيفة خاصة ومحددة داخل هذا التنظيم الكلي ، وتظهر صفة

التخصص بصورة اكثر وضوحا كما كان ذلك النظام اكثر تعقيدا . في حين أن النظام الاقل تعقيدا والاقل تمايزا يصبح من الصعب ان نجد لمكوناته مثل هذه الوظائف التخصصية حيث تعمل اجزاء النظام كلها دفعة واحدة وبطريقة بدائية وبسيطة .

واذا اردنا ان نطبق ذلك المعنى للتمايز في وصف الجوانب النفسية للشخصية باعتبار ان الشخصية ماهي الا نظام معقد من السمات والخصائص فان مفهوم التخصص يعني مدى القدرة على الفعل والتخصص بين الجوانب والمجالات المختلفة ، مثل الفصل بين المشاعر والادراك والفصل بين التفكير والسلوك ، والفصل بين الذات وعناصر البيئة والمجال المحيط بها ، بمعنى آخر فان التمايز يعني ضرورة تحديد الحالة الوظيفة ، أو نوع السلوك الوظيفي المناسب في موقف من المواقف . فهناك الوان سلوكية وردود افعال معينة تصبح اكثر احتمالا واكثر حدوثا كاستجابات لمثير معين في حين انها لا تصبح كذلك ازاء مثيرات أخرى . أو أن الفرد يصبح لديه القدرة على تمييز وادراك المثيرات المعينة الموجودة في الموقف ويتخير لها . اسلوب الاستجابة المناسب (Witkeneral . 1974)

ولما كان النظام النفسي يرتبط الى حد كبي بالتفاعل المستمر مع عناصر اخرى موجودة في البيئة المحيطة بالفرد (Bertal 1960, Allport 1960) فان مفهوم التمايز يتضمن بجانبه القدرة على الفصل بين الوظائف النفسية المختلفة داخل الفرد الواحد ضرورة الفصل بين ما يمكن تحديده كخصائص تنتمي للذات والخصائص الأخرى التي يمكن تحديدها كخصائص خارجه عن هذه الذات . ـ وبالتالي فان ادراك الفرد لنفسه كشيء منفصل عما حوله وادراكه لذاته وكانها ذات اطار محدود ومرسوم يعتبر أمراً في غاية الأهمية ، حيث يساعد ذلك على ان تصبح امكانية تحديد السلوك الوظيفي المناسب في كل موقف من المواقف عملية نابعة من داخل الفرد وليست معتمدة على أمور خارجية .

كذلك يحمل مفهوم التمايز في طياته عملية أخرى مكملة له تعرف باسم عملية التكامل ، ويقصد بهذه العملية الكيفية التي تندمج بها وتتكامل في إطارها مكونات أي نظام من الانظمة . بمعنى آخر فأن عملية التكامل بين اجزاء ذلك النظام المتمايز يقصد بها الصورة او الشكل الذي يتم على اساسه تنظيم العلاقات الوظيفية المتضمنة كعناصر في النظام بحيث يصبح لكل نظام نمطه الخاص به المميز له . ففي نظام مثل نظام السيكولوجي ، ونظراً لطبيعية الشخصية المتفتحة والمتفاعلة مع المجال الخارجي فان عملية التكامل يقصد بها شكل العلاقات الموجودة بين المكونات المختلفة من ناحية وبين البيئة المحيطة من ناحية اخرى .

نحو مفهوم التمايز

وقد يكون من المفيد لكي تزيد من وضوح مفهوم التمايز ووضعه في اطار اكثر فاعلية لـوصف الشخصية الانسانية والسلوك الصادر عنها ، ان نقارن بين الكائن الحي (الفرد) في مراحل الطفولة وفي مراحل العمر التالية :

ففي مراحل العمر الاولى يصعب على الطفل ان يميز بين ذاته وبين البيئة المحيطة به ، وكما ان قدرة الطفل على العقل بين ذاته الجسمية وانتزاعها من المجال بما يكون في اضيق الحدود ان لم يكن معدوما ، ولكن مع التقدم في النمو يبدأ الطفل في انتزاع هذا الادراك للذات الجسمية من المجال او البيئة المحيطة بحيث تعتبر تلك العملية أولى مراحل نمو التمايز النفسي التي يمكن ان يقوم بها الطفل . فالقدرة على ادراك حدود فاصلة بين الجسم والعالم الخارجي تبدأ في التكوين والنمو شيئا فشيئا وتستمر في نموها وتمايزها خلال مراحل النمو المتطورة . ومع تنمية تلك الحدود وتكونها فان الطفل يمكنه ايضا ان يدرك مختلف اجواء هذا الجسم والعلاقات الموجودة بين هذه الاجزاء المختلفة ، والواقع ان تنمية الشعور بالذات الجسمية وتميزها كشيء منفصل عما حولها لا يتم فقط من خلال الاشباع الفسيولوجي الذي يحصل عليه الطفل من الوظائف المختلفة لأعضائه ومطالبه العضوية (الجوع - والعطش - الالم) بل ايضا من خلال الشعور باشباع الحاجات النفسية . فهذه كلها امور تنبع من داخل الفرد ويمكن تمييزها عن غيرها من الخبرات الأخرى المرتبطة بالبيئة الخارجية والصادرة اليه من مصادر خارجة عن الذات .

وتتضح فكرة التمايز باجل وأدق صورها في عملية انتقال من حالة الالتصاق مع أنه نحو الانفصال التدريجي عنها - كما يبدأ الطفل في تشرب وامتصاص قيم المجتمع وتقاليده سواء من والديه المحيطين به ، بحيث يساعده ذلك على تكوين قيمه الداخلية ومعايير سلوكه التي من شأنها ان تساعـده على تكوين فكرته عن ذاته ، ففي مراحل النمو المختلفة ينمي الطفل مفهومه عن ذاته ، وكما انه ينمي ايضا تصوره لنفسه ، واوجه الشبه والخلاف بينه وبين الآخرين ، أي يستطيع ان يحدد هويته المنفصلة عن الآخرين (**Sense of separate identity**) وتستمر حـالة التقـدم والتطور نحـو مزيـد من الانتظام البنائي للشخصية مع ما يرتبط بذلك من قدرة على الفصل الكبير بين الذات وخصائصها من ناحية وبين ما يحيط بها من ناحية اخرى ، بمعنى آخر فانه مع التقدم في النمو يزداد تمايز الذات وتصبح اكثر تحديدا ووضوحا عما يحيط بها من مؤثرات .

وهكذا فانه بنمو الفرد ووصوله الى مرحلة القدرة على تمييز ذاته عما حولها فان ذلك يتضمن بالضرورة ان يصبح قادرا على فهم وادراك مدى التمايز الموجود بين الوان نشاطه وسلوكه وخصائصه الشخصية ، وتصبح لا مجال لادراك هذه الأمور بطريقة كلية كما كان الحال في المراحل السابقة . كذلك الحال فيما يتعلق بالخبرات الموجودة حول الفرد الخارجة عن ذاته حيث انه يصبح قادرا على ادراك هذه الخبرات كجوانب منفصلة وبطريقة اكثر تفصيلا ووضوحا . فبعد ان كان الطفل غير قادر على فهم خصائص الجزء الا في ضوء الكل الموجود به هذا الجزء ، يزداد وضوح الاجزاء المكونة لهذا الكل ويزداد تفصيلها وتمايزها . فمثلا في مجال الادراك البصري فان تنظيم عملية الادراك تخضع الى حد كبير الى العلاقات والارتباطات الموجودة بين اجزاء المجال المثير أو الشكل المثير . فالمجال المثير الذي يتميز بقلة العلاقات وعدم وضوحها بين اجزائه غالبا مايدركه الفرد وكأنه أقل تنظيما ، ولكن مع مراحل النمو المتطورة فان هذه الأجزاء المثيرة تكتسب معنى وظيفة محددة من خلال تكرار حدوثها ومن خلال تنوع التعامل معها . وبتأثير هذا التكرار وبتأثير هذا التنوع في التعامل مع المثيرات المنفصلة يزداد وضوحها ، وتتضح وظيفته مما يسهم او يساعد على زيادة القدرة على الفصل والتمييز وتحديد الفروق بين هذه المثيرات وبعضها البعض (سواء كانت تلك المثيرات اشكالا هندسية او رسوما هندسية أو غير ذلك) .

ويمكن القول ان زيادة الوضوح وزيادة التمايز للمثيرات او الاجزاء الموجودة في الموقف تعد عملية اساسية من أجل القيام بعملية اخرى مكملة لعملية التمايز وهي عملية التكامل للاشكال او المظاهر غير المترابطة . بمعنى آخر فان نمو القدرة على التمييز والفصل بين الاجزاء المختلفة في الموقف يستتبعها بالضرورة عملية اخرى مكملة لها وهي ضرورة اعادة تركيب هذه الاجزاء بصورة ذات معنى وهي ما نسميها بالتكامل . ويرى وتكن وزملاؤه (**1974**) اي نمو القدرة على ادراك الموقف باجزائه المنفصلة ، ثم التعامل معه بطريقة متكاملة هو دليل على نمو عملية التمايز النفسي ، سواء لجوانب الذات المختلفة ، او التمايز بين الذات وكل ما يحيط بها من أمور خارجية .

وهكذا يصل وتكن الى توضيح العلاقة بين نمو عملية التمايز النفسي لدي الفرد خلال مراحل العمر المختلفة وعلاقتها بتحديد النمط أو الأسلوب المعرفي للفرد . فالفرد الذي نمت لديه القدرة على ان يدرك ما حوله بطريقة متميزة ، أي من نمت لديه القدرة على الفصل بين المثير المعين وانتزاعه من الخلفية التي تحيط به او من غيره من المثيرات الأخرى الموجودة في الموقف ، يصبح ايضا اكثر قدرة على تنظيم المجال او الموقف ، او اعادة تنظيمه عندما يقدم له في صورة اقل تنظيما . وفي كلتا الحالتين سواء قدرته على انتزاع المثير بصرف النظر عن الخلفية والاطار الموجود به المثير عندما يكون الموقف منظما دقيقا ، او

قدرته على اعادة تنظيم علاقات الموقف واجزائه لادراك المثير المحدد ، كلها عمليات مرتبطة بنمو عملية التمايز النفسي للفرد .

والواقع ان النمو نحو مزيد من التمايز في جوانب الشخصية يظهر ايضا في زيادة قدرة الفرد على تنمية الجوانب الانفعالية والوان السلوك الدفاعي (**Controls and defenses beh.**) ففي مراحل العمر الاولى تتميز انفعالات الاطفال بانها استجابة كلية عامة ، على درجة كبيرة من الشد ، وهي استجابة غير محددة وغير واضحة ، وكلما زادت شدة المثير ادى ذلك الى صدور استجابات غاية في البساطة الكلية ، كوسيلة دفاعية يلجأ اليها الطفل ازاء هذا المثير . وفي خلال مراحل النمو المختلفة فان نوعا من التخصص والتمايز يأخذ في النمو ، بحيث تتحول تلك الاستجابات البدائية غير المحددة الى استجابات اكثر تنظميا ، ويصبح الفرد نفسه اكثر قدرة على التحكم والضبط في اصدار استجاباته ، وهذا كله يؤدي بدوره الى مزيد من التخصص في الوان السلوك المدفوع بحيث تمكن الفرد من تأجيل او تعديل استجاباته ، كما تنمو قدرته على حماية نفسه من الآثار المشتتة او المحيطة لبعض المثيرات . كما ان النظام القيمي الداخلي للفرد **Intenalized value systen** يساعد الفرد ايضا في احداث مثل هذا التمايز النفسي . فلم يعد الطفل معتمدا في الضبط والتحكم في سلوكه على قيم ومعايير تأتيه من مصادر خارجة عنه كما كان الحال في مراحل العمر الاولى ، او من خلال الثواب والعقاب التي يتعرض لها . او من خلال النتائج المترتبة على مخالفته للقواعد والقوانين ، وانما يكون قد تشرب تلك القيم والمبادىء واصبحت جزءا مكملا ومميزا لذاته ، وبالتالي تساعده في أن يصبح المنظم الاول لألوان سلوكه ودوافعه نابعا من داخله ومن قيمه ومعاييره التي نماها داخليا . وكل هذا ماهو الا مؤشرات أخرى للتمايز والوضوح في هذه الذات (**Witkin 1974**) وهكذا يمكننا ان نخلص من هذا كله بان القدرة على احداث التمايز النفسي للفرد هي عملية نمائية مضطردة ، فمع زيادة النمو تزداد قدرة الفرد على عزل نفسه وتميزها عما حولها ، كذلك الحال يزداد نمو الشعور باستقلال الهوية ، ويزداد مقدار ما يكتبه الفرد من قدرة على تنظيم انفعالاته والوان سلوكه المدفوع ، وتزداد مقدرته على التنظيم والتحكم في هذه الجوانب الرئيسية للشخصية في علاقتها مع البيئة الخارجية بصفة عامة .

وبناء على حقيقة عملية التمايز النفسي هذه فانه لابد وان نتوقع ان يختلف الناس في مدى تلك العملية ، لذلك فالسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو :

هل هناك مؤشرات أساسية يمكننا ان نستدل منها على المستوى الذي وصل اليه الفرد في نمو عملية

التمايز النفسي ؟ وقد اجاب وتكن وزملاؤه على ذلك بان هناك بعض هذه الموشرات التي يمكن اجمالها فيما يلي :-

١ـ مدي النمو الحادث من مفهوم الذات وتفصيلها وتمييزها عما حولها .

٢ـ مدى النمو الحادث من فهم الذات الجسمية والشعور بالشخصية المستقلة .

٣ـ مدى النمو الحادث في اساليب السلوك الدفاعي واساليب التكم والضبط الانفعالي .

ولذلك فانه يمكن القول ان قياس تلك الموشرات وتحديد درجة نموها لدى الافراد يعد اساسا هاما في التعرف على مدى التمايز النفسي القائم في شخصية الفرد ، بل انه على اساس تحديد ذلك يمكننا ان نميز بين الافراد وان نحدد الفروق الفردية القائمة بينهم على هذا الاساس ، وبناء على ما تقدم استعراضه عن مفهوم التمايز النفسي فانه يصبح من المتوقع ان اولئك الافراد الذي تمت لديهم عملية التمايز بدرجة عالية هم اولئك الافراد الذين اطلق عليهم وتكن وزملاؤه « ذوي الاساليب المعرفية التحليلية » في حين أن اولئك الذين لم تنم لديهم عملية التمايز بدرجة كافية هم اولئك الذين اطلق عليهم « ذوي الاساليب المعرفية الكلية » .

رابعا ـ الاستفادة من تحديد الاسلوب الادراكي في دراسة الشخصية :ـ

وفي ختام هذه الدراسة يظل هناك سؤال آخر وهو كيف يمكن الاستفادة من ذلك الاتجاه في دراسة الشخصية في مواقف الحياة المختلفة سواء في مجالات التعليم والتوجيه المهني والتربوي ، أو في حجرات الدراسة ، او في غير ذلك من مواقف الحياة المتنوعة .

وتقدر الابحاث والدراسات التي تمت في هذه الميدان التطبيقي لهذا الاتجاه في دراسة الفروق الفردية بالآلاف ، وقد اجمعت معظم هذه الدراسات الى ان ذوي الاساليب المعرفية المختلفة يتميز كل منهم بخصائص وسمات معينة في كيفية تعاملهم مع المواقف التعليمية ، او اختبار المهنة او نوع الدراسة او في طريقة تفاعله في حجرة الدراسة ، او في اساليب التفاعل الاجتماعي بصفة عامة .

فقد اشار كل من جستس وهولي وجرين (١٩٧٢) **Juskice, Holley and Green** الى ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد يفضلون العمل وهم قـريبون مـاديا وحسيـا **Physically** من الآخرين ، ففي تجربة قام بها جستس (**1976**) لمعرفة الى اي مدى يختلف اصحـاب الاسلوب المعرفي المعتمد عن اصحاب الاسلوب المعرفي المستقل ، في تفضيلهم للجو الاجتماعي السائد والمكان الذي يعملون فيه ، فوجد أن اصحاب الاسلوب المعتمد عندما طلب منهم اعداد مقالة ما وقراءتها على مجموعة من المحكمين كانوا يدخلون الحجرة ويقتربون كثيرا من المحكمين وذلك بمقارنتهم باصحاب الاسلوب المعرفي المستقل .

كذلك اوضح كونستاد ، وفورمان **Konstadt and Forman 1965** ان اصحاب الاسلوب المعتمد يتميزون بأنهم يهتمون بتمايز الوجه للآخرين ، بل انهم يطيلون النظر في وجوه من يتعاملون معهم ، كما انهم يتأثرون كثيرا بالجوانب والخبرات الانفعالية العاطفية السائدة في الموقف .

كذلك اكدت دراسات نـوفل ، وريـل وناكـامورا **Novill, Ruble and Nakamura**) (**1971**) الى ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد في حاجة دائمة الى تأييد الجماعة لهم ، با انهم مهتمون اشد الاهتمام بمعرفة - اي الجماعة عن سلوكهم . وقد ظهر أثر اهتمام اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد برأي الآخرين في اختيارهم لنوع المهنة التي يعملون بها ، فهم يفضلون الاعمال التي تتطلب قدرا من الالتصاق والاندماج والتفاعل مع الغير ، مثل اعمال الجمعيات الخيرية او الارشاد والتـوجيه ، او الاعمـال المرتبـطة بالامتنـاع والتأثـير في الآخرين ، كـذلك فـانهم يفضلون دراسة الانسانيات بصفة عامة .

وبمقارنة هذه الجماعة بالجماعة الأخـرى (ذوي الاسلوب المعرفي المستقـل) نجد ان المستقلين ادراكيا لا يولون اهتماما كبيرا للعلاقات الاجتماعية ولا يهتمون كثيرا برأي الآخرين عنهم ، كما انهم لا يفضلون ولا يهتمون بالمجـالات ذات العلاقـات الاجتماعيـة التي تتطلب انـدماجـا او تفاعـلا مع الأخـرين ، وهم في اختيارهم المهني يفضلون المجـالات المهنية التي تحتـاج الى كثـير من التحليـل والتدقيق ، كما انهم يختارون المجالات ذات الطبيعة التكنولوجية او العلمية بصفة عامة .

اما عن العلاقة بين الاساليب المعرفية ومواقف التعليم فقد اظهرت الدراسات المختلفة ان اصحاب الاسلوب المعتمد يظهرون صعوبة بالغة في تنظيم المواقف الجديدة او الغامضة . بل انهم يفضلون

التعامل مع المادة التعليمية التي تقدم اليهم بطريقة منظمة والتي لا تحتاج منهم الى اي جهد من تنظيمها او اعادة تنظيم المعلومات الواردة بها ، وانهم يجدون صعوبات بالغة في تعاملهم مع المادة التي تفتقر الى التنظيم والبناء السليم ، بل ان المواقف الغامضة عليهم تجعلهم يواجهون حالة من القلق والاضطراب وعدم التنظيم ويكون من نتيجة ذلك تأثر مستوى ادائهم مما يجعلهم في حاجة الى افراد ذوي سلطة او مركز اكبر للحصول على اطار مرجعي يعتمدون عليه في فهم تلك المواقف (**Bruce, 1970**) وقد اكد بروس هذه الحقيقة في تجربته التي اجراها على مجموعة من تلاميذ الصف السادس حيث طلب منهم ان يكونوا قصصا من مجموعة من الصور المتفاوتة في التنظيم والوضوح والتنسيق . فقد كانت بعض هذه الصور واضحة ومنظمة ، في حين ان بعضها الآخر كانت تحتاج الى دمج لاكثر من صورة اوجزء من الصورة ليكون منها قصة ذات معنى . وقد خرج برونس بنتائج تؤكد وتوضح مدى الصعوبات التي وجدها ذوو الاسلوب المعرفي المعتمد ، وان ادائهم جاء اقل من مستواه من الافراد ذوي الاسلوب المستقل ، ولا سيما مع الصور غير الواضحة والتي تحتاج الى مجهود لتنظيم عناصرها او اعادة تنظيمها وترتيبها ، في حين انه لم توجد فروق بين المجموعتين في ادائهم عندما كانت الصور واضحة المعالم ولا تحتاج الى تحليل او دمج او تركيب . وقد اكد هذه الحقيقة ايضا لوزيتو Lezotte (1969) واوضح ان اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد في حاجة دائما الى ان تقدم لهم المواقف والمعلومات في صورة اكثر تنظيما وترتيبا من اصحاب الاسلوب المعرفي المستقل .

ومن الاحداث ذات النتائج الهامة التي ربطت بين الاساليب المعرفية الادراكية ومجالات العمل في ميدان التعليم تلك الدراسة التي قام بها دي ستافوانو **Distefano, 1969** للتعرف على العلاقة بين الاساليب المعرفية للمدرسين واختيارهم لمواد التخصص ، كذلك العلاقة بين التحصيل الدراسي للتلاميذ وعلاقته باساليب وطرق التعلم المسنخدمة ، وقد ظهرت هذه الدراسات ان اختيار مهنة التدريس بصفة عامة يرتبط بالاسلوب المعرفي المعتمد ، والواقع ان هذه الحقيقة نجدها متمشية تماما مع الخصائص والصفات الشخصية للمعتمدين ادراكيا الذين يفضلون ان يمضوا اوقاتهم يعملون مع الآخرين ، كما اظهرت الدراسة ايضا ان اختيار المدرس لتخصص معين يرتبط باسلوبه المعرفي ، فأولئك الذين يتميزون بالاسلوب المعرفي الاستقلالي يختارون عادة المواد العلمية مثل الرياضيات او العلوم ، في حين ان المعتمدين ادراكيا يختارون مجال تدريس الاجتماعيات .

اما الدراسة الاخرى فكانت عن العلاقة بين الاساليب المعرفية واساليب تعليم التلاميذ ، وقد اظهرت دراسة جريف ، وديفيز (Grieve and Davis 1971) ان هناك اختلافا بين ذوي

الاساليب المعرفية المختلفة (مستقل ـ معتمد) في مقـدار تحصليهم الدراسي تبعـا لاسلوب التعلم المستخدم ، فعندما استخدمته طريقة التعلم بالالقاء (**expository** وطريقة التعلم بالاستكشاف (**discovery**) فقد وجد ان ذوي الاساليب المعرفية المعتمدة كانوا اكثر استفادة من اسلوب التعلم بالاستكشاف ، وقد اوعزت هذه النتيجة الى ان اسلوب التعلم الاستكشافي يتطلب نوعا من التفاعل الاجتماعي ، سواء مع المعلم او مع التلاميذ الآخرين ، وهو ما يفضله اصحاب الاسلوب المعرفي المعتمد ، وذلك بمقارنتهم بذوي الاسلوب المعرفي المستقل .

والواقع ان الدراسات في هذا المجال التطبيقي اي مجال الاستفادة من مفاهيم الفروق في الجوانب المعرفية وعلاقتها بمواقف التعلم واختيار المهنة او العلاقات الاجتماعية تقدر بـالآلاف ، الا انه لا يسعنا ، المقام في هذه الدراسة لأن نلقي نظرة كاملة على كل ما تم من دراسات في هذا الصدد ، الا انه يمكننا ان نستخلص حقيقة عامة وهي ان الفروق القائمة بين الافراد في عمليات الادراك والعلميات العقلية المعرفية بصفة عامة يمكنها ايضا ان تعطينا صورة عن الفروق الفردية في جـوانب الشخصية الأخرى . وانه يكفي ان تحدد الاسلوب المعرفي للفرد لنتمكن من التعرف على باقي السمات والحقائق الشخصية الأخرى ، والتي تنسحب آثارها على تعامله في مواقف الحياة المختلفة ، سواء في مواقف المدرسة او المهنة او العلاقات الاجتماعية ، ولذلك فان الاساليب المعرفية تعتبر في واقع الامر اساسا يعتمد عليه في التنبؤ بنوع السلوك الذي يمكن ان يقوم به الافراد المختلفون في اساليبهم المعرفية اثناء تعاملهم مع المواقف المختلفة ، سواء كانت مواقف اجتماعية مع الآخرين من اجل التكيف النفسي ، او مواقف تعليمية في حجرة الدراسة ، او في تفضيل نوع الدراسة او في اختيار المهنة ، او غير ذلك من مواقف الحياة اليومية المتعددة .

***

المراجــع

— Anastasi, A. Differential Psychology Individual and group Differences in behavior, Macmillan Comp. New york, 3rd ed. 1965.

— Berry, J — W. Temne and Eskimo perceptual skills. International Joumal psychology. 1966

— Bruce, D. K. The effect of field dependence and anxiety on the Perception of social Stimuli. Doctoral dissertation, unv. of U T.A Ann Arbor, Mich University microfilms, 1965 No. 65 — 12.

— Dawson, J. L. M. cultural and psychological influence upon Spatial perceptual processoss in West Africa — part 1. International Journal of psychology 1967 — 2 (2) .

— Dawson. J. L. Theory and research in cross — cultural psychology Balletin of the British Psychological Society, 1971 24 (85) .

— Derussy, E. A., and Futch, E. Field dependence — independeuee as related to college curricula perceptual and motor skills, 1971, 33.

— Distefano, J. J. Interpessonal perceptions of field irdependent And field dependent teachers and students unpublished doctoral Dissertation, 1969.

— Dyk, R. B. A. exxploratory Study of mother — clild interaction in infaucy as related to the development of differentiation. Journal of the American Academy of child psychiatry (1969) 8.

— Dyk, R., and Witkin, M. A. Family experiences related to the development of differentiation in children. Child development 1965 30.

— Good enough, D. R, and kaip, S. A. Field dependence and intellectual Functioning Journal of Abnormal and social psychology, 1961,63.

— Grieve, T. D. and Davis, J. K. the relationship of cognitive style and method of instruction to performance in ninth grade geography Journal of educational research, 1971, 65.

— Herman, A. and Witkhin, A. H. some implications of research on cognitive Style for problems of education protessional School psychology. Vol. 111, 1969.

— Justice, M. T. Field — dependency, intimacy of topic and irterperson distance. Doctoral dissertation Unv. of Florida 1969. Amarbor, Michigan Unv. microfilms, 1970. No. 70 — 12.

— Konstadt, N. and forman, E. Field dependence and external directedness Journal of personality and social psychology 1965, 1.

— Lozotte, L. W. The relationship between cognitive styles scholastic ability and learning of structured and unstructured materials,Doctoral Diessertation 1976.

— Messick. S. Individuality in learning. Jossey — Bass, Washington 1976.

— Mssick, S. and Kogan N. Differentiation and compartmentalization in object — sorting measures of categorizing style perceptual and motor skills, 1963.

— Novill, Ruble, D. N, and Nakamura, C. Y Task orientation versus social orientation in young children and their attention to relevant social cues. child development, 1972, 43.

— Rogers, carl, Dymond, R. F. psychotherapy and personality change,Chicago university of chicago press, 1954.

— Rudin, S. A. and stagneer, R. Figare — ground phenomena in the perception of physical and social stimuli. Journal of psychology 45. 1958.

— Witkin, M. A, Moore, C. A cognitive style and the teaching Learning process. A paper presented at the annual meeting of the A. E. R. A. Chicago, 1974, 1975.

— Witkin, M, A. and Dyk, R. B. and others. psychological differentiation. N, Y wisley, 1974.

— Witkin, M. A. Field dependence — independence. A bibliography through 1972. N. J. Educalional Testing Services, 1973.

— Witkin M, A and oltman, P. K and others : field — dependence, field — independence and psychological differention Abibliography through 1972. princftion N, J Educational Testing Service, 1973.

— Kagan, J. and Kogan, N. Individual variation in cognitive processes in P. M. Mussen cedl. carmichaels manual of child psychology vol. 1. New York wiley 1970.

— Kagan J. and Messer, S. A seply to some misgiving about the matching Familiar Figures test, as a Measure of selfection inplusivity Developmental psychology 1975.

— Kagan. J. Moss, M and sigel, I, conceptual style and the use of affect labels. Merrill — palmer quarterly, 1960.

— Kagan J., Moss, M. and sigel, I. Psychological Signifcanse of styles of Conceptualization. Monographs of the society for research in child development. 1963.

— Holzman P. and Rousey, C. Disintilition of communicated thought. generality and role of cognitive style,Journal of abnormal Psychology 1971.

— Holzman, P. S, scnning : A principle of reality contact perceprual and Mokor Skills 1966.

— Kagan, N. and Morgan, F. Task and motivational influences on the Assessment of creative and intellectual ability in children, Genetic Psychology Monographs, 1969.

— Klein G. Gardner. R. and Schlesinger M. Tolerance for unrealistic experiences. A Study of the generality of a Cognitive control. British Journal of psycliology 1962.

— Jensen, A. R. and Rohwer. W. the stroop color — Ward Test. A review. Acta psychologica. 1966.



الشخصية وتعديل السلوك

ڤيولا الببلاوى

مدرسة علم النفس بكلية التربية بجامعة الكويت

مقدمـــة

لم يقتصر اهتمام معظم نظريات علم النفس على محاولة الكشف عن طبيعة الشخصية ، وعلى سعي أصحاب كل نظرية الى بناء تصور نظري لها ، واعداد طرق ومقاييس خاصة بدراستها ، بل كان لهذا الاهتمام أيضا متضمنات وتطبيقات بالنسبة لعلاج اضطرابات الشخصية وما يرتبط بذلك من طرق علاجية وارشادية وتأهيلية . ولم يؤد التقدم في التنظير في الشخصية الى تقدم في فلسفة العلاج النفسي وطرقه وأدواته فحسب كما طورتها كل نظرية من نظريات الشخصية ، بل أن التقدم في البحوث الاكلينيكيـة وفي العمل العلاجي قد انعكس بدوره أيضا عـلى تطويـر التنــظير في الشخصيــة ، وعــلى الكشف عن جوانب وديناميات في الشخصية لم تكن لتتضح بغــير البحث الاكلينيكـي في اضــطرابــات الشخصية .

وفي السنـوات الحديثـة ، منذ الخمسينـات تقريبا من القرن الحالي ، كان لنظريات السلوك الاجتماعي أثر عظيم في بناء طرق كثيرة للعلاج تعرف بطرق تعديل السلوك تستند الى مبادىء التعلم . ورغم أن مبادىء التعلم كانت متاحة للاستخدام للأغراض الأكلينيكية العلاجية منذ أكثر من نصف قرن ، الا أن التوظيف الفعلي لمبـادىء التعلم في العـلاج النفسي لم يتحقق أساسا الا بعد الخمسينات من القرن الحالي . هـذه الأشكال من العـلاج القائم عـلى التعلم تتميز بثلاثة معالم عامة رئيسية هي : -

أولا : أن هـذه الأشكـال من العـلاج تحـاول تعديل السلوك المشكل ذاته ، ولذلك تعرف بـ « العلاج السلوكي » .

ثانيا : تركز العلاجات السلوكية ، مثل نظريات السلوك الاجتماعي التي توجهها ، على السلوك « الحالي » للفرد أكثر مما تهتم بالأصول التاريخية لمشكلته .

ثالثا : يفترض معظم المعالجين السلوكيين أنه يمكن فهم وتغيير السلوك المنحرف بواسطة نفس مبادىء التعليم التي تحكم السلوك العادي أو السوي .

كان الاتجاه التقليدي في دراسة الشخصية يضع حدا فاصلا بين سيكولوجية الشخصية السوية والشخصية غير السوية ويعتبر هما موضوعين منفصلين . ولكن هذا التمييز بين دراسة الشخصية السوية والشخصية غير السوية قد صار ، حديثا ، تمييزا واهيا لأنه يستند الى اقامة حدود غير محددة بين هذين المجالين من الدراسة . وفي ذلك يحاول المعالجون السلوكيون أن يبينوا أنهم يستطيعون استخدام نفس المبادىء السيكولوجية في تعديل كل أنواع المشكلات الانسانية ، دون اعتبار لنمط المشكلة أو لشدتها . وفي الحقيقة أنهم يفضلون علاج المشكلات الانسانية الحادة ، والتي قد تستعصي على العلاج بطرق أخرى ، وذلك لكي يبرهنوا على فعالية طرقهم وعلى صحة المبادىء التي تقوم عليها .

- والهدف من الدراسة الحالية هو تحليل الأسس النظرية والتجريبية للعلاج السلوكي والتفسيرات التي تقدمها النظريات السلوكية للشخصية الانسانية في سوائها واضطرابها ، وأهم طرق تعديل السلوك وما تستند اليه من دراسات وتجارب ، وتقييم آثارها بالنسبة لتغير الشخصية ودورها في اثراء التنظير في دراسة الشخصية ، مع ابراز نواحي النقد الذي وجه الى النظرية السلوكية في العلاج النفسي .

طبيعة الشخصية في النظريات السلوكية المعاصرة

تطور التنظير السلوكي في الشخصية : ـ

يذخر التوجه السلوكي في دراسة الشخصية بمفاهيم رئيسية . ومع ذلك ، فان التوجه السلوكي يتضمن أنماطا متميزة عديدة من التصورات النظرية التي نمت مع ظهور علم النفس الحديث . ورغم أن النظريات السلوكية في تفسير الشخصية تحمل في الغالب تسميات متشابهة ، الا أنها في الواقع مختلفة كثيرا عن بعضها البعض .

فما يوحد بين هذه النظريات ويجعلنا نسميها بـ « النظرية السلوكية في الشخصية » ، هو أنها تنطلق في تفسيرها للظاهرات النفسية من « نموذج م ـ س » (stimulus — response paradigm) ـ فالظاهرات النفسية هي نظام من العلاقات بين المثيرات والاستجابات . وتتفق هذه النظريات في تأكيدها على خبرات التعلم من حيث أنها المحددات الرئيسية للشخصية ، وبالتالي القابلة للقياس والتجريب ـ وهي المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة ، أما ما بين هاتين الفئتين من عمليات غير قابلة للملاحظة ـ وهي المتغيرات الوسطية ـ فهي تكوينات فرضية يمكن تحديدها بالاستدلال من المتغيرات المستقلة والتابعة .

واذا كان السلوكيون قد تأثروا غالبا بفرويد واتباعه من أنصار نظرية التحليل النفسي ، الا أنهم قد التزموا أساسا بالدراسة العلمية لعلم النفس ، وبتطوير منهج تجريبي يمكن به القيام ببحوث دقيقة وموثوق بها . لذا فقد تأثر السلوكيون الأوائل بالمنهج العلمي الذي تطور في العلوم الطبيعية ، وفي ذلك نجد تفسيرا لاهتمام السلوكيين بالدراسات التجريبية التي أجريت على الحيوانات في مواقف معملية تتوافر فيها شروط الضبط التجريبي .

واذا كان بعض السلوكيين قد أعجبوا بما وصل اليه فرويد من تأملات جريئة ، خاصة بالجهاز العقلي والتكويني النفسي للانسان ، الا أن معظمهم قد أبدى تشككه أو حتى رفضه للطرق الاكلينيكية الذاتية التي اعتمدت عليها . فبدلا من البحث في سبر غور الأحلام والتداعيات الحرة لدى المرضى النفسيين ، أو بدلا من التنظير على نطاق واسع في الطبيعة الانسانية والمجتمع ، سعى السلوكيون الى البحث عن نظام يكون قابلا للاختبار والتجريب الموضوعيين وخاصة بواسطة الطرق المعملية .

هكذا يركز السلوكيون على العمليات الرئيسية للتعلم التي يكتسب من خلالها الكائن الحي في تفاعله مع بيئته معينا أو مستودعا من الاستجابات . لقد درسوا آليات (ميكانزمات) التعلم التي من خلالها تصير أحداث معينة ـ « مثيرات » ـ مرتبطة بأنماط سلوكية أو باستجابات معينة . وكان هدفهم ، ككل المنظرين العلميين ، هو فهم « الأسباب » ـ وهي في هذه الحالة ، التعلم أو الطرق التي بها تصير مثيرات معينة مرتبطة باستجابات معينة .

ويمكن أن نحدد مرحلتين أساسيتين للتطور التاريخي للتنظير السلوكي في الشخصية : المرحلة المبكرة حتى أوائل الخمسينات من القرن الحالي ، والمرحلة المعاصرة من الخمسينات وحتى الوقت الحاضر .

أ ـ النظريات المبكرة للتعلم الاجتماعي :

تأثرت بالمدرسة الوظيفية في علم النفس التي تعزى الى وليم جيمس وجون ديوي مؤسسي هذه المدرسة . وكانت هذه المدرسة انعكاسا بدرجة كبيرة للفكر الداروني . فأهمية البيئة والتكيف معها مبدأ داروني صار أساسا لوجهة النظر التجريبية من جيمس حتى الوقت الحالي . ولكن التأكيد على أهمية البيئة يثير عدة تساؤلات : كيف تؤدي الخبرة التي تغير الفرد ؟ ما هي العملية التي بها يتوافق الفرد مع بيئته ؟ وللاجابة على هذه الاسئلة ، قدم المنظرون الأوائل مفهوم « العادة » على أنه الوسيلة التي بها تؤثر الخبرات السابقة في سلوك الفرد في المستقبل . هذا المفهوم يتفق مع نظرية دارون في ناحيتين : تأكيد دارون على العمليات الطبيعية الآلية ، وفكرة دارون عن استمرار الأنواع بقدر ما أن كلا الانسان والحيوان يتصفان بالقدرة على تكوين العادات .

لقد بنى كلارك هِلْ نظريته في التعلم حول مفهوم العادة ، وكانت نظريات التعلم الاجتماعي في الثلاثينات والأربعينات تطبيقا لنظام هِلْ هذا . ولم يقتصر تطبيقها للمفهوم على نمو الشخصية فحسب ، وانما امتد كذلك إلى العلاج النفسي الذي اعتبره السلوكيون موقفا يحدث فيه اعادة تعلم .

أما إدوارد لي ثورنديك ، الذي صار من المعالم البارزة في تاريخ علم النفس الامريكي ، فقد كان تلميذا لوليم جيمس بجامعة هارفارد . وقد وفرت تجاربه على الحيوانات والمعروفة بتجارب « التعلم الوسيلي » وكذلك قانونه المعروف بقانون « الأثر » أساسا هاما لنظريات التعلم الاجتماعي المبكرة . اهتم ثورنديك ، مثل جيمس من قبله وهل من بعده ، بمبادىء تكوين العادة . وقد أدى تطور التنظير وتجمع البحوث في هذا الميدان ، بالاضافة الى أعمال جون واطسون في أمريكا وايفان بافلوف في روسيا ، الى بلورة وتعميق سيكولوجية التعلم .

هكذا ، شهدت الثلاثينات من القرن الحالي نظريات عظيمة في التعلم : سكينر ، جاثري ، تولمان ، هل وغيرهم . وكان لنظرية هل خاصة أكبر تأثير على نظرية الشخصية . لجأ « معهد العلاقات الانسانية » بجامعة ييل الأمريكية في عام ١٩٣٣ الى أن يضم اليه مجموعة من العلماء المهتمين بالعلوم الاجتماعية والسلوكية ، وذلك بهدف التكامل بين نتائج علوم النفس والاجتماع والأنثرو بولوجيا والطب النفسي . وقد بدأ كلارك هل ، الذي انضم الى جامعة ييل في عام ١٩٢٩ ، في تنظيم حلقة بحث (سيمنار) في هذا المعهد في عام ١٩٣٦ بالاشتراك مع ثلاثة من الباحثين الذين صاروا من رواد المدرسة السلوكية وهم : نيل ميلر ، جون دولارد ، هوبارت ماورر . وكان للجو العلمي بجامعة ييل في هذه الفترة تأثير كبير على النظريات المبكرة في التعلم الاجتماعي كما تطورت على يد دولارد وميلر .

لقد تدرب كل من دولارد وميلر أيضا على التحليل النفسي في أوربا : دولارد في برلين ، وميلر في فيينا . لذا جاءت أعمالهما توفيقا بين التقليد الأوربي في التحليل النفسي والتقليد الأمريكي في السلوكية ، وحاول كلاهما ترجمة ملاحظات فرويد وكذلك ملاحظات الانثروبولوجيين (وقد أصبح دولارد مثلا أستاذا للاجتماع والانثروبولوجية وعلم النفس بجامعة ييل) وفقا للغة المثير ـ الاستجابة . يتضح هذا الاتجاه التوفيقي أو اتجاه المعرفة المتكاملة Interdisciplinary من إهداء كتابهما الأول باسم هل وكتابهما الثاني باسم فرويد وبافلوف وتلاميذهما .

ب ـ النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي :

وهي النظريات التي تطورت خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين . في الخمسينات ساد اتجاه تحليل التعلم كتغير في احتمالات الاستجابات response probability وفي الستينات سيطر على بحوث التعلم والتنظير السلوكي اتجاه يهتم بالتحليل الكيفي الأعمق على تكوين نماذج تركيبية للتعلم والذاكرة باستخدام نظرية العمليات الكيفية المتناهية theory of finite stochastic processes التي تعزى الى « باش وموستلر » (١٩٥٥) ، و « استس » (١٩٥٠ ـ ١٩٥٩) ، و « لوس » (١٩٥٩) . تقدم هذه النظرية تمثيلا طبيعيا للانتقال بين الحالات المتميزة للمعرفة أو مراحل تشغيل المعلومات ، وهي الحالات أو المراحل المختلفة في خصائصها الكيفية . أما التطور الذي حدث أساسا في السبعينات فيتمثل في التحليل التفصيلي لتركيب المعرفة باستخدام نماذج شكلية formalisms

تتألف من لغات برامج الكومبيوتر . تقدم هذه النماذج فروضا محددة عن العمليات والتركيبات المعرفية المتضمنة في حل المشكلات وفهم اللغة . ومن التطورات المرتقبة لسيكولوجية التعلم في الثمانينات ، بناء نظرية للتعلم تقدم تحليلا تفصيليا لاكتساب التراكيب المعروفة ، كما تقدم تفسيرا للتعلم كعملية تعديل وترابط للتراكيب المعرفية ، وتكون هذه النظرية قابلة للتطبيق على تحليل العمليات التي بها يكتسب الأطفال المعرفة والمهارات المعرفية . (١)

ويلاحظ من تطور نظريات التعلم المعاصرة أن التطور الأكبر في سيكولوجية التعلم قد تحقق أكثر في التنظير في الجانب المعرفي فيما يعرف بنظريات التعلم المعرفي ، مثل نظرية جيروم برونر (١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١) ونظرية دافيد أوزابل (١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩) وغيرهما ، وما كان لها من تطبيقات عظيمة في العملية التعليمية . كذلك كان لتطور نظريات التعلم المعاصرة تطبيقات خلاقة في تفسير طبيعة الشخصية الانسانية فيما يعرف بنظريات التعلم الاجتماعي ، كما طورها « جوليان روتر » و« ألبرت بندورا » وتلميذه « ريتشارد والترز » . وبجانب ذلك فانه بالرغم من أن نظريتي « دولارد وميلر » و « سكينر » في التعلم الاجتماعي ترجعان الى المرحلة المبكرة في تطور نظريات التعلم ، الا انهما قد احتفظتا بمكانة كبيرة بين النظريات المعاصرة في التعلم الاجتماعي ، كما أن هؤلاء المنظرين السلوكيين قد استمروا في تطوير تصوراتهم النظرية في الخمسينات والستينات من القرن الحالي .

لذا سوف نعرض فيما يلي لتحليل طبيعة الشخصية في ضوء النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي (دولارد وميلر ، سكينر ، باندورا ووالترز ، روتر) .

●●●

النظرية السلوكية ـ السيكودينامية

(دولارد وميلر)

يمكن أن يطلق على نظرية دولارد وميلر ، التي طوراها في الاربعينات بجامعة ييل ، « النظرية السلوكية السيكودينامية » لأنها تقوم على التوفيق والتكامل بين بعض الأفكار الرئيسية في النظرية الفرويدية السيكودينامية ومفاهيم ولغة وطرق البحوث المعملية التجريبية في السلوك والتعلم .

James, G, Greeno · Psychology of learning, 1960 — 1980, American psychologist, 1980, vol. 35, No. 8, 713 — 728. (١)

المكونات الرئيسية لعملية التعلم :

لقد استطاع دولارد وميلر ، انطلاقا من الافتراض الاساسي بأن السلوك متعلم ، ان يبنيا نظرية في التعلم يمكن بها تفسير نطاق واسع من السلوك المتضمن في الشخصية السوية والمرض النفسي والعلاج النفسي : (٢)

في هذه النظرية يحددان أربعة مكونات أو عوامل هامة في عملية التعلم ، وهي : الحافز drive (الدافعية) ـ والاشارة أو العلامة cue (المثير) ـ والاستجابة (الفعل أو التفكير) ، والتدعيم (الاثابة) . ويعبران عن تصورهما تعبيرا بسيطا على النحو التالي : (٣)

« لكي يتعلم الفرد ، يجب أن يريد شيئا ما ، وأن يلاحظ شيئا ما ، وأن يفعل شيئا ما ، وأن يحصل على شيء ما » .

ويكون التعلم ، وفقا لهذه النظرية ، هو العملية التي فيها تصير استجابة معينة وإشارة المثير مترابطتين . ولنتناول هذه المكونات الأربعة للتعليم فيما يلي :

١ ـ الحافز : يبدأ الطفل الوليد حياته بمجموعة من الحاجات البيولوجية « الفطرية » أو « الاولية » ـ كالحاجة الى الطعام والماء والهواء والدفء ـ التي يعتبر اشباعها ضروريا لبقاء الكائن الحي . ولكن بالرغم من أن هذه الحاجات فطرية ، الا أن السلوك اللازم لاشباعها يتضمن تعلما . ويتضمن معظم السلوك الانساني اهدافا وحوافز ـ كالمال والمركزو القوة والحب والاقتدار والتمكن والابتكار وتحقيق الذات وغيرها ـ قد تبدو علاقتها بالحاجات الأولية بعيدة للغاية . ولكن دولارد وميلر استطاعا تحليل عمليات التعلم التي فيها تنشأ مثل هذه الدوافع الانسانية من الحاجات الأولية .

إن اي مثير قوي (داخلي أو خارجي) ، وفقا لدولارد وميلر (١٩٥٠) ، قد يدفع الفعل أو الاداء ، ولذلك يعمل كحافز . وكلما كان المثير أقوى ، ازدادت وظيفة الحافز . فالحوافز هي مثيرات قوية تحرك السلوك . وبينما قد يصبح مثير ما قويا بدرجة تكفي لأن يعمل كحافز ، فان بعض فئات من المثيرات (كالجوع والعطش والتعب والألم والجنس) تكون هي الأساس الأولي لمعظم الدافعية ، هذه المثيرات هي حوافز أولية أو فطرية . وتختلف قوة الحوافز الأولية وفقا لشروط الحرمان : فبقدر ما يزداد الحرمان ، تزداد قوة الحافز .

---

(٢) J. Dollard & N. E. Miller : **Personality and Psychotherapy : An analysis in terms of learning, thinking, and culture.** New York : Mc Graw — Hill, 1950.

(٣) N. E. Miller & J. Dollard : **Social learning and initation.** New Haven : Yale Univ. Press, 1941, P. Z.

ويؤدي الكف الاجتماعي ـ للجنس مثلا ـ الى الحيلولة دون التعبير المباشر أو الكامل عن الحوافز الأولية . لذا يكون الكثير من السلوك مدفوعا بواسطة الحوافز « الثانوية » أو المتعلمة والتي قد تعرضت للتغير والتهذيب . تلك هي الدوافع المتحولة التي تبدو أكثر وضوحا في ظل شروط المجتمع الحديث ، والتي تنطوي على أهمية بالغة بالنسبة للسلوك الانساني المتمدين .

هذه الحوافز المتعلمة يكتسبها الانسان على أساس الحوافز الأولية (الفطرية ، غير المتعلمة) . والكثير من الحوافز يتم تعليمها من ارتباطها بخفض الحوافز الأولية .

والواقع أن اهتمام دولارد وميلر بالحوافز ، الأولية والثانوية ، هو إحياء لأفكار فرويد الخاصة بالدوافع والحفزات Impulses كقوى تكمن وراء السلوك . ولكن بينما يهتم التصور الفرويدي بالرغبات الغريزية ، فان دولارد وميلر يهتمان بالكثير من الدوافع المتعلمة التي تكمن جذورها في الحوافز الأولية .

٢ ـ <u>الاشارة أو العلامة</u> : إن الحافز يدفع الفرد الى السلوك ، أما الاشارات أو العلامات فهي التي تحدد متى سوف يأتي الفرد بالاستجابة ، وأين سوف يأتي بها ، وما هي هذه الاستجابة . (٤)

مثال ذلك ، جرس الغذاء يعمل كاشارة أو علامة بالنسبة للتلميذ الذي يحس بحافز الجوع ، فيدخل كتبه في حقيبته ويخرج طعامه منها . وقد تكون الاشارات أو العلامات سمعية أو بصرية أو لمسية أو غير ذلك . وقد تختلف في شدتها ، كما أن تجمع مثيرات مختلفة مع بعضها قد يعمل كعلامات أو إشارات . وقد تكون التغيرات والاختلافات ، ووجهة وحجم الاختلافات اشارات وعلامات متميزة أكثر من المثير المنعزل . والمثير الشديد قد يصبح حافزا . لذا فان المثير قد يعمل كحافز وكعلامة أو إشارة على حد سواء ـ فهو يدفع السلوك ويوجهه كذلك .

٣ ـ <u>الاستجابة</u> : قبل أن تلقى الاستجابة لاشارة أو علامة إثابة وتعلما ، فانها ينبغي أن تحدث بالفعل . ويقترح دولارد وميلر ترتيب استجابات الكائن الحي وفقا لاحتمال حدوث الاستجابات ، فيما يعرف بـ « المدرج الهرمي المبدئي » Initial hierarchy ويؤدي التعلم الى تغيير نظام الاستجابات في هذا المدرج الهرمي . فالاستجابة الضعيفة مبدئيا ، اذا خضعت لاثابة بشكل ملائم ، قد تحتل موقعا رئيسيا في هذا الترتيب الهرمي . يطلق على المدرج الهرمي الذي حدث بواسطة التعلم مصطلح « المدرج الهرمي الناتج » resultant hierarchy . ومع التعلم والنمو ، يصبح المدرج الهرمي للاستجابات مرتبطا باللغة ، وبالتالي يتأثر بشدة بالثقافة التي يحدث فيها التعلم الاجتماعي .

---

(٤) Dollard & Miller : 1950, P. 32.

٤ ـ التدعيم : وهو حدث معين من شأنه أن يقوي ميل الاستجابة الى أن تتكرر . ويؤدي خفض قوة الحافز الى تدعيم الاستجابة السابقة عليه مباشرة . ويعني ذلك ، أن اختزال الحافز يعمل كتدعيم (أو إثابة) . وينطبق ذلك على كل من الحوافز الأولية والثانوية . كذلك قد يعمل اختزال أو تجنب الاستثارة المؤلفة أو المخاوف أو مشاعر القلق المتعلمة المرتبطة بالألم والعقاب ـ كتدعيم .

إن مفهوم دولارد وميلر عن التدعيم كاختزال للحافز أو خفض للتوتر أقرب الى « مبدأ اللذة » عند فرويد . فهذان المفهومان يعتبران حالات الحاجة كحالات من التوتر المرتفع ، تتطلب خفضا للتوتر وتحقيقا للتوازن ـ أي كأهداف للكائن الحي .

ويعتبر التدعيم شرطا ضروريا لبقاء العادة وكذلك لتعلمها . أما الانطفاء extinction ، فهو الاستبعاد التدريجي للميل الى الاتيان باستجابة ؛ ويحدث الانطفاء حينما تتكرر تلك الاستجابة بدون تدعيم . أما الوقت اللازم لاطفاء عادة فيعتمد على القوة المبدئية للعادة وعلى شروط موقف الانطفاء . فمن الشروط التي تؤثر في الانطفاء ـ الحافز الضعيف ، الاستجابات القوية ، الوقت القصير المنصرم بين محاولات الانطفاء ، والاستجابات البديلة القوية .

وقد حاول « ميلر » حديثا أن يعدل من مفهومه عن خفض الحافز لتدعيم التعلم ، مستندا في ذلك الى آليات التنشيط activating mechanisms في الدماغ ـ فهذه الآليات (الميكانزمات) تنشط بطرق مختلفة (كأن تنشط بواسطة التفكير) ، وليس فقط بواسطة خفض الحوافز أو الاستثارة المؤلمة . (٥)

الصراع : إن أي فرد قد يجبر صراعا حينما يريد أن يحقق هدفين أو أكثر ، كل منهما يتعارض مع الآخر . فقد يرغب في الخروج في رحلة مع بعض اصدقائه ، أو أن يكرس هذا الوقت للاستذكار لأنه يقترب من الامتحان . فحينما يكون على الفرد أن يختار بين بدائل متعارضة ، قد يتعرض للصراع .

يفترض تصور ميلر ، والذي تأثر فيه بنظرية ليفين (١٩٣٥) ، أن الصراع يقوم على ميول إقدامية وإحجامية :(٦) : في ذلك يحدد ميلر أربعة أنواع للصراع :

---

(٥) N.E. Miller : Some reflections on the law of effect produce a new alternative to drive reduction. In M. R. Gones (Ed.), **Nebraska Symposium on Motivation.** Lincoln : University of Nebraska, 1963.

(٦) N. E. Miller : Experimental studies of conflict. In J. Mc V. Hunt (Ed.), **Personality and behavior disorders,** Vol. 1. New York : Ronald Press, 1944, PP. 431 — 465.

N. E. Miller : Liberalization of basic S—R concepts : extensions to conflict behavior, motivation, and social learning. In S. Kock (Ed.) , **Psychology : Astudy of science.** Vol. 2. New York : Mc Graw—Hill, 1959. PP. 196 —292.

(أ) صراع الاقدام ـ الاقدام approach — approach conflict وفيه يكون الشخص مشدودا ، على الأقل وقتيا ، بين هدفين أو بديلين مرغوبين ـ مثال ذلك الطفل الذي عليه أن يختار بين لعبتين ، والشخص الذي يقدم على الزواج أو يتفرغ لاستكمال دراسته أو مشروعاته .

(ب) صراع الاحجام ـ الاحجام avoidance — avoidance conflict بين بـديلين غير مرغوبين ـ مثال ذلك قبول الشخص لأن تجري له عملية جراحية أو يعاني من المرض .

(جـ) صراع الاقدام ـ الاحجام approch — avoidance conflict وينشأ نتيجة لوجـود أهداف أو بواعث ايجابية وسلبية في آن واحد ، لذا يتكون لدى الشخص ازاء هذه الأهداف « مشاعر مختلفة » أو « اتجاهات متناقضة » ، مثال ذلك قد يحب الطفل في والديه جوانب معينة ويكره جوانب أخرى ؛ الاقبال نحو أطعمة شهية والاحجام عنها خوفا من زيادة الوزن .

(د) صراع الأقدام ـ الأحجام المزدوج double approach — avoidance conflict مثال ذلك الشاب الذي يقبل على الزواج وهو مشدود باتجاهين كل منها يحمل خصائص جاذبة ومنفرة ـ فهل يتزوج ويحظى بحياة مستقرة (خصائص ايجابية) ولكن يتخلى عن حياة الانطلاق والمرح (خصائص سلبية) ؟ أو هل يظل أعزبا محتفظا بحرية (خصائص ايجابية) ولكن يعاني من الوحدة وغيرها من الصعوبات (خصائص سلبية) ؟ ولما كانت الأهداف البديلة في هذا الشكل من أشكال الصراع ليست إيجابية أو سلبية بطريقة واضحة تماما ، فان حلها يعتبر أمرا معقدا .

ثمة اتفاق واختلاف بين نظريتي فرويد ودولارد وميلر فيما يتعلق بالصراع : فالصراع يعتبر محورا رئيسيا لهاتين النظريتين . ولكن بينما يفترض فرويد أن الصراع ينشأ أساسا من الصدام بين قوى الجهاز النفسي (أي بين إلهي والأنا والأنا الأعلى) ويستنبط هذه الحالات الصراعية من المرضى المصابين ، فان دولارد وميلر يخضعان فروضهما للتجريب على الحيوانات .

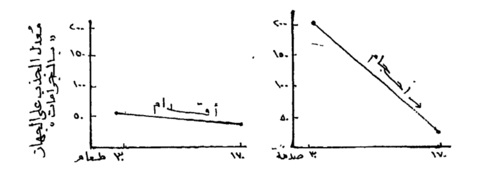
لقد أقام ميلر نـظريته أسـاسا عـلى التجارب التي أجـريت على الحيـوانات : (٧) في بعض هـذه الدراسات تعلمت الفيران الجائعة كيف تتوجه من خلال معبر لكي تحصل على الطعام عند نقطة معينة

---

(٧) J. S. Brown : The generalization of approach responses as a function of stimulus intensity and strength of motivation. **Journal of Comparative Psychology,** 1942, 33, 209—228.

J. S. Brown : Gradients of approach and avoidance responses and their relation to level of motivation. **Journal of Comparative and Physiological Psychology.** 1948, 41, 450—465.

N.E. Miller : 1959.



المسافة التي تبعدها نقاط الاختبار عن الصدمة (بالسنتمترات)

المسافة التي تبعد بها نقاط ألاختبار عن الطعام (بالسنتمترات)

شكل (١) : يوضح مدرجي الاقدام والاحجام .

(Brown, 1948)

في المتاهة . ولكي يخلق الباحثون حالة من « التناقض » (الاقدام - الاحجام) ، تعرضت الفيران الى صدمة كهربية حينما تقبل على الطعام . ولاختبار الصراع الناتج ، وضعوا الفيران مرة أخرى عند بداية المعبر . عندئذ بدأت الفيران الجائعة في الاقدام نحو الطعام ولكنها توقفت وترددت قبل الوصول اليه . وهذه المسافة التي يتوقف عندها الفأر تتغير بواسطة تغيير مقدار الجوع أو قوة الصدمة الكهربية .

ولتحليل الصراع في هذه المواقف ، طبق دولارد وميلر مفهوم « مراتب الهدف » أو « مدرج الهدف » goal gradients . يعني هذا المفهوم تلك التغيرات في قوة الاستجابة كدالة للبعد عن موضوع الهدف . ولقياس قوة الميول الاقدامية والاحجامية عند نقاط مختلفة من البعد عن الهدف ، صمم جهاز يقيس قوة جذب الفأر في اتجاه الحصول على التدعيم الايجابي (الطعام) أو بعيدا عن التدعيم السلبي (الصدمة) ، وذلك عند نقاط مختلفة من البعد عن الطعام . وقد تبين أن الفيران كانت تجذب بقوة أكبر كلما اقتربت من الهدف وتعرضت لصدمة عند هذه النقطة الأقرب الى الطعام . تتضح هذه النتيجة من انحدار مدرج الاقدام (كما يتضح من الشكل رقم « ١ ») . بالاضافة الى ذلك ، استخدمت اجراءات تجريبية أخرى ، تلقت فيها الفيران صدمة كهربية عند نهاية المعبر . وحينما وضعت الفيران عند نفس النقطة بالمعبر حيث تلقت صدمة من قبل (ولكن الآن بدون صدمة) ، فانها جرت بعيدا عن هذه النقطة . وكلما اقتربت الفيران من هذه النقطة ، فانها كانت تجذب بقوة أكبر للابتعاد عنها . يبدو ذلك خاصة في ازدياد انحدار مدرج الأحجام ، مقارنة بانحدار مدرج الاقدام (انظر الشكل « ١ ») . تعني نتائج هذه التجارب أن كلا من السلوك الاقدامي والاحجامي يتزايد كلما اقترب الكائن الحي من الهدف ، وأن الأحجام يتزايد أسرع من الاقدام .

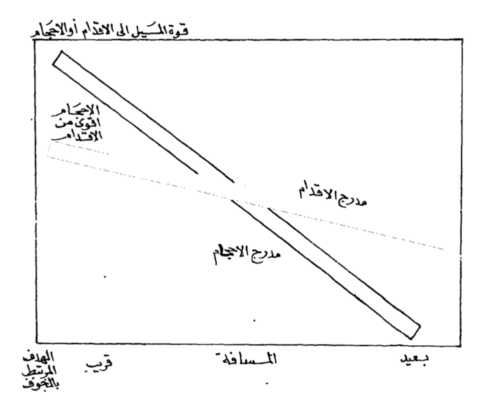
هكذا استنادا الى هذه الدراسات ، يحدد دولارد وميلر عدة مبادىء لتفسير الصراع في ضوء مفاهيم التعلم :

١ - يزداد الميل الى الاقدام نحو الهدف كلما اقترب الفرد من الهدف - يطلق على ذلك المبدأ مصطلح « مدرج الاقدام » approach gradient

٢ - يزداد الميل الى تجنب مثير سلبي كلما اقترب الفرد من المثير - يطلق على ذلك المبدأ مصطلح « مدرج الاحجام » avoidance gradient

٣ - كلما اقترب الفرد من الهدف ، تزداد قوة الميل الى الاحجام بدرجة أسرع من الميل الى الاقدام . أي أن مدرج الاحجام أكثر شدة في انحداره من مدرج الاقدام .

(تتضح هذه المبادىء الثلاث من الشكل رقم « ٢ ») .



شكل (٢) : صراع الاقدام ـ الاحجام . فالميل الى الاقدام يكون هو الأقوى من بين الميلين اذا كان بعيدا عن الهدف ، بينما يكون الميل الى الاحجام هو الأقوى من بين الميلين اذا كان قريبا من الهدف . لذا حينما يكون المفحوص بعيدا عن الهدف ، فانه يميل الى الاقدام على الممر لمسافة ثم يتوقف ؛وحينما يقترب من الهدف ، فانه يميل الى التراجع على الممر لمسافة ثم يتوقف . أي أن الكائن الحي يميل الى البقاء عند المنطقة ألتي يتقاطع فيها مدرجا الاقدام والأحجام .

(Miller, 1944)

٤ ـ تؤدي الزيادة في الحافز المرتبطة اما بالاقدام أو الاحجام الى رفع المستوى العام لمدرج الاقدام أو لمدرج الاحجام .

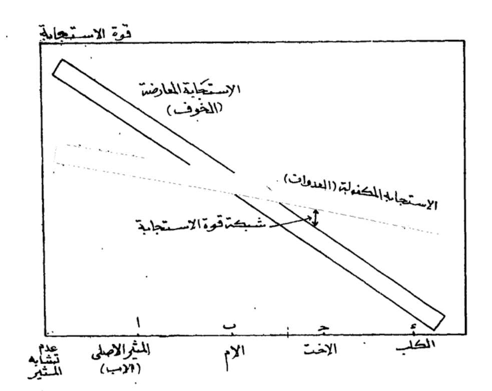
٥ ـ حينما يكون هناك ميلان الى السلوك في حالة من التنافس ، فان الميل الاقوى الى السلوك هو الذي يحدث .

تؤكد نظريتا فرويد ودولارد ميلر على الصراع والقلق كمحور للسلوك العصابي . ولكن الصراع العصابي يتضمن ، وفقا لنظرية فرويد ، صداما بين حفزات الهي التي تبحث عن تعبير لها والكف الداخلي الذي يراقب ويقيد التعبير عن هذه الحفزات وفقا لمحرمات الثقافة التي يعيش فيها الفرد . أما دولارد وميلر فيقرران نفس المبادىء الرئيسية بلغة نظرية التعلم .

تقوم نظرية دولارد وميلر في تفسير العصاب على أن الخوف القوي (القلق) هو حافز متعلم يستثير صراعا يرتبط باستجابات الهدف ازاء حوافز قوية أخرى كالجنس أو العدوان . فحينما يبدأ الشخص العصابي في الاقتراب من الهدف الذي قد يؤدي الى خفض تلك الحوافز كالجنس أو العدوان ، فان خوفا قويا يستثار لديه . هذا الخوف قد يستثار بواسطة أفكار تتعلق بأهداف الحافز ، وكذلك بواسطة أية محاولات إقدامية ظاهرة . فعلى سبيل المثال ، قد تكون مشاعر العداوة نحو الأب مثلا باعثة على الخوف ؛ لذا ينشأ صراع بين تلك الرغبات والخوف الذي يستثار بواسطة التعبير عنها . هذه الاستجابات المرتبطة بالخوف والباعثة على الكف تحول كذلك دون اختزال الحافز ، لكي تستمر الحوافز المعاقة (كالجنس أو العدوان) في أن ترتقي الى مستوى أعلى . هكذا يقع الفرد في صراع لا يحتمل بين حوافزه المحبطة المقيدة والخوف المرتبط باستجابات الاقدام الذي يعمل على خفض حالة التوتر هذه .

فالشخص العصابي في هذه الورطة قد يستثار في آن واحد بواسطة الحوافز المحبطة وبواسطة الخوف الذي تستدعيه هذه الحوافز . وتؤدي الحالة المرتفعة للحافز المرتبطة بهذا الصراع الى تعاسة هذا الشخص والى أن تتداخل مع فعالية تفكيره وحله للمشكلات . هذه الأغراض التي يبديها الشخص العصابي تنشأ من تكوين الحوافز ومن الخوف الذي يكف خفض هذه الحوافز .

النقل او الازاحة : ينظر فرويد الى الطاقة النفسية على أنها تنتقل أو تتحول من فكرة لأخرى ؛ فالحفزات الجنسية أو العدوانية التي تكون موجهة أساسا نحو موضوع غير مقبول تخضع لاعادة توجيه نحو الموضوع الذي يلقى قبولا أكثر .



شكل (٢) : نظرية النقل أو الازاحة . فكلا الاستجابتين (المكفوفة والمتعارضة) تعممان على مثيرات بدلا من الهدف الأصلي . ان كلا من الأب والأم يستدعي الاستجابة المعارضة ، بينما تستدعي الأخت والكلب الاستجابة المتحولة، أو المزاحة ، وتكون شبكة قوة net strength الاستجابة هي الفارق بين المدرجين .

(Miller, 1948)

لقد وسع ميلر نظريته عن الصراع لتتضمن المواقف التي تحدث فيها ظاهرة النقل أو الازاحة : (٨) يوضح الشكل رقم (٣) مثالا لهذه الظاهرة . ولد يحركه حافز عدواني نحو أبيه ، ولكنه يلقى كفا بواسطة استجابة للخوف تتعارض مع هذا الحافز . وفي هذا تطرح النظرية عدة افتراضات :

(١) ان الاستجابة التي خضعت للكف (توجيه عدوان نحو الأب) والاستجابة المعارضة (الخوف) تعممان على مثيرات مماثلة (أشخاص آخرين) .

(٢) كلما ازداد تشابه المثيرات الأخرى مع المثير الأصلي (الأب) ، تزداد درجة التعميم .

(٣) ان مدرج أو مراتب التعميم بالنسبة للاستجابة المتعارضة يكون أشد انحدارا من مدرج أو مراتب التعميم بالنسبة للاستجابة المكفوفة . فعلى امتداد متصل التعميم generalization continuum تكون الاستجابة المتعارضة التي تتضاءل بشكل أسرع ، أضعف من الاستجابة المكفوفة ـ يتضح ذلك في أن هذا الولد يوجه عدوانه في النهاية نحو مثير بديل وهو أخته أو كلبه .

ولقد اجريت تجارب كثيرة لاختبار نظرية النقل أو الازاحة . في إحدى هذه الدراسات التجريبية ، أبدى الأولاد في معسكر صيفي تعبيرات عن العداوة المتحولة نحو اعضاء جماعات الأقلية في المعسكر بعد أن تلقى هؤلاء الأولاد إحباطا من المجرب . (٩)

القلق والكبت : يتقبل دولارد وميلر ، مثل فرويد ، القوى اللاشعورية كمحددات هامة للسلوك ؛ كما يعطيان ، مثل فرويد أيضا ، للقلق (وهو خوف متعلم) مكانة رئيسية في ديناميات السلوك .

يتضمن الكبت ، وفقا لدولارد وميلر ، الاستجابة المتعلمة الخاصة باللاتفكير not — thinking في شيء ما ، ويكون مدفوعا بواسطة الحافز الثانوي للخوف . فبسبب الخبرات السابقة ، قد تؤدي أفكار معينة الى استدعاء الخوف كنتيجة لارتباطها مع الألم أو العقاب . ولكن باللاتفكير في هذه الأفكار ، يحدث اختزال في مثيرات الخوف وتلقى الاستجابة (الخاصة باللاتفكير) تدعيما . وفي النهاية يصير « اللاتفكير » (الكف ، التوقف ، الكبت) متوقعا ، من حيث أن الفرد يتجنب أفكارا معينة قبل أن تؤدي الى نتائج مؤلمة . هذا التصور أشبه بفكرة فرويد بأن الكبت هو نتيجة للقلق وأنه يعمل على

---

(٨) N. E. Miller : Theory and experiment relating psychoanalytic displacement to stimulus response generalization. **Journal of Abnormal and Social Psychology,** 1948, 43, 155—178.

(٩) N. E. Miller and R. Bugelski : Minor studies in aggression : I I. The influence of frustrations imposed by the in—group on attitudes expressed toward out — groups. **Journal of Psychology,** 1984, 25, 437—442.

خفض القلق الذي ينشأ نتيجة لأن مشاعر أو أفكار غير مقبولة تبدأ في الانتقال من اللاشعور الى الشعور .

ان نظرية دولارد وميلر هي ترجمة واضحة للمفاهيم السيكودينامية الخاصة بالقلق والكبت والدفاعات الى الغة نظرية التدعيم في التعلم . فالدفاعات والاعراض (كالمخاوف والعمى الهستيرى) تتدعم بواسطة الاختزال المباشر لحافز الخوف . وبينما يكون التأثير الوقتي للعرض هو اختزال الحافز والتخفيف الوقتي من التوتر ، فان التأثيرات البعيدة المدى قد تؤدي الى المزيد من تدعيم الأعراض وتعميمها . فمثلا ، عرض الخوف المرضي قد يعوق الشخص عن العمل بفاعلية . وبالتالي يخلق قلقا وإحساسا بالذنب وصراعات أخرى وغير ذلك من المظاهر المصاحبة لصراع الحافز المرتفع .

●●●

هكذا فان نظرية دولارد وميلر عن الدافعية المتعلمة ذات أهمية كبيرة ، لأنها تتضمن طريقة لفهم الأصول التطورية لكل الدوافع الانسانية ـ فهذه الدوافع تتطور من جذور بيولوجية . ولقد سعى الكثير من المنظرين في الشخصية ، انطلاقا من هذه النظرية ، الى أن يذهبوا الى ما هو أبعد من التجريب على الحيوانات ومن الحوافز الأولية ، لكي يكتشفوا الدوافع الأرقى التي تكمن وراء السلوك الانساني المعقد .

السلوكية الراديكالية

(ب . ف . سكينر)

يختلف المنحنى الذي يأخذ به سكينر في نظرية التعلم اختلافا جذريا عن نظرية دولارد وميلر . فاهتمام سكينر الأساسي هو بالسلوك أكثر مما هو بالاستعدادات والدوافع ، وبرفضه لاستنتاج أو افتراض الحوافز المتعلمة أو اية قوى وسمات دافعية داخلية أخرى . (١٠)

(١٠) B. F. Skinner : **Science and human behavior.** New York : Macmillan, 1951.

B. F. Skinner : Pigeons in a pelican. **American Psychologist,** 1960, 15, 28—37.

B. F. Skinner : Behaviorism at fifty. In T. W. Wann (Ed.), **Behaviorism and Phenomenology.** Chicago : University of Chicago Press, 1964. PP. 79—108.

رفض الدوافع-والديناميات الافتراضية : ان الكثير من الدوافع الانسانية هي تكوينات فرضية . والمعروف أن نظريات الدافعية قد ساعدت على الكشف عن مجموعة كبيرة وعن تنظيم معقد من الدوافع الانسانية وعن الاسباب التي تكمن وراءها ، رغم أنه لا يوجد اتفاق تام بشأن معظم الدوافع الأساسية . وقد قامت معظم نظريات وبحوث الدافعية على نموذج البحث التجريبي في الحوافز البيولوجية عند الحيوانات . فافتراض وجود حاجة عند الحيوان (كالجوع مثلا) يجري ربطه بالشروط القابلة للملاحظة كما يتناولها الباحثون في المختبرات المعملية . فقوة حافز الجوع ، مثلا ، يجري استنباطها من مقدار الوقت الذي حرم فيه الحيوان من الطعام .

ان تطبيق نظرية الدافعية على الشخصية ، يجعل قيمتها في تفسير السلوك موضع شك . فالنزعة الى استخدام الدوافع كتفسيرات للأسباب التي تجعل الناس تسلك على النحو الذي يسلكون به ـ تبدو واضحة ، لأننا بهذه الكيفية « نفسر » السلوك . فلكي نفسر لماذا يقضي شخص وقتا طويلا في تنظيف نفسه ، فقد نقرر بسهولة « لأنه لديه حاجات قوية الى النظافة » أو « لأن لديه رغبة قسرية في النظام » . هذه الفروض الخاصة بوجود دوافع معينة قد تعمل كتفسيرات للسلوك ، ولكنها لا تقدم لنا تفسيرا كافيا الا اذا تحدد الدافع موضوعيا واتضحت أسباب الدافع ذاته . ما الذي يجعل الشخص تكون لديه حاجة الى النظافة ؟ ما الذي يحدد رغباته القسرية ؟ لماذا يرغب في أن يكون نظيفا ؟

ان سكينر وأنصاره ينتقدون مفاهيم كثيرة تتعلق بالحاجات الانسانية ، من حيث أنها ليست أكثر من مجرد مسميات دافعية تلحق بالنشاط الانساني وتضاف اليه . هكذا يعزى السلوك المنظم الى الدافع للنظام ، والسلوك الخانع الى الحاجة الى التبعية ، والسلوك الاستكشافي الى الحاجة الى الاستكشاف ، الخ . ولتجنب هذه الدائرة المفرغة ، يفضل سكينر وغيره من السلوكيين تحليل السلوك في ضوء الأحداث والشروط القابلة للملاحظة . لذا يحجمون عن افتراض دافعيات معينة . فبدلا من افتراض حاجات تستثير نشاطا معينا ، يحاولون اكتشاف الأحداث التي تقوي هذا النشاط في المستقبل وتحافظ عليه أو تغيره . فهم يبحثون عن الشروط التي تنظم السلوك بدلا من افتراض وجود حاجات أو حالات داخل الشخص كدوافع لسلوكه .

هكذا تقوم نظرية سكينر على أن علم النفس هو علم السلوك ، وان استنباط حالات أو حاجات داخلية غير قابلة للملاحظة لا يعتبر تفسيرا سليما لأنه لا يضيف شيئا الى الاهتمام العلمي بالشروط التي تحكم السلوك . والدافعية ، وفقا لسكينر ، هي ببساطة نتاج حرمان أو إشباع الكائن الحي . أي أن الدافع يشير الى أحداث قابلة للملاحظة كالحرمان أو الاشباع . وعلى هذا النحو ، يرفض سكينر أي استنتاج يتعلق بصراعات داخلية ، مفضلا التحليل التجريبي للشروط الواقعية للمثير والتي تحكم السلوك .

استراتيجية البحث في السلوك :

يؤكد سكينر على أن العلم ينبغي أن يحاول أن يتنبأ وأن يحدد تجريبيا (أي يضبط) سلوك الفرد . وبذلك تصبح علاقات السبب ـ النتيجة في السلوك هي قوانين العلوم السلوكية .

لذلك يقترح سكينر ما يسميه بـ « التحليل الوظيفي » functional analy sis للكائن الحي ، الذي يتناوله كنظام في حالة من السلوك Behaving system يقوم هذا التحليل على محاولة ربط سلوك الكائن الحي بالشروط المحدودة التي تحكم السلوك أو تحدده . ولذلك يركز اتجاه سكينر على التلازمات covariations القابلة للملاحظة بين « المتغيرات المستقلة » (أحداث المثير stimu-lus events) و « المتغيرات التابعة » (نماذج الاستجابة response patterns) .يعني ذلك أيضا أن المتغيرات المتضمنة في التحليل الوظيفي ينبغي أن تكون خارجية وقابلة للملاحظة والوصف في مصطلحات فيزيقية وكمية .

ويذهب سكينر الى أنه بقدر ما يمكن اخضاع المتغيرات الى الضبط التجريبي ، فان التجارب المعملية تقدم أفضل الظروف للحصول على تحليل علمي للسلوك . وبالاضافة الى ذلك ، فان الدراسة التجريبية للسلوك تفيد كثيرا من تناول سلوك الحيوانات الأدنى من المستوى الانساني المعقد . فالعلم ، كما يشير سكينر ، يتقدم من البسيط الى المركب ويهتم باستمرار بما اذا كانت العمليات والقوانين التي تكتشف عند مرحلة معينة أو مستوى معين تلائم المرحلة التالية أو المستوى التالي (١١) .

الاشتراط الكلاسيكي والمدعمات الشرطية :

يعترف سكينر ، مثل معظم علماء النفس التجريبيين ، بأهمية الاشتراط « الكلاسيكي » أو « الاستجابي » كما اكتشفه بالوف في الأصل . ولكي نفهم إسهامات سكينر ، علينا أن نتناول أولا طبيعة هذا النموذج من نماذج التعلم .

يتضح مضمون هذه الظاهرة في التجربة التي قدم فيها طبق من الطعام الى كائن حي في حالة من الجوع . وبعد فترة ، صار الطبق الفارغ وحده يستدعي الاستجابة الأولية أو غير الشرطية ـ وهي سيلان اللعاب ، وبالتالي يصبح الطبق الفارغ « مدعما شرطيا » conditioned reinforcer الى

(١١) B. F. Skinner : 1953, P. 38

حد ما بفضل ترابطه الوثيق مع المثير التدعيمي غير الشرطي (الطعام) . ونرى مثالا آخر للمدعم الشرطي إذا سلط ضوء في كل مرة يقدم فيها الطعام الى الحيوان الجائع . في النهاية يصبح الضوء مدعما شرطيا يؤثر في السلوك بنفس قوة تأثير الطعام غالبا .

ثمة قواعد تحكم اكتساب المدعمات الشرطية . فبقدر ما يزداد تزاوج المثير الشرطي (الضوء في المثال الأخير) مع المثير غير الشرطي (الطعام) ، يكتسب المثير الشرطي قوة تدعيمية أكبر . وينبغي الا تكون هناك فترة طويلة من الوقت بين الحدثين (الضوء والطعام) . وفي النهاية قد تتلاشى القوة التدعيمية للمثير الشرطي بسرعة اذا لم يترابط مرة ثانية مع المثير غير الشرطي .

لقد جرى توسيع استخدام مبادىء الاشتراط لتفسير الكثير من الظاهرات الاجتماعية المعقدة . فقد استخدمت في دراسات التجاذب بين الاشخاص ، حيث فسروا نمو العلاقات العاطفية في ضوء مفاهيم الاشتراط . [١٢] وفي ذلك تفترض هذه الدراسات ان تقييم الناس الأشياء قد يكون دالة لمقدار التدعيمات الايجابية المرتبطة بها . [١٣] فعلى سبيل المثال ، تتوقف علاقتك القائمة على المودة مع صديق بالدرجة التي يرتبط بها هو بالاشباع بالنسبة لك .

كذلك استخدمت مبادىء الاشتراط في تفسير السلوك العصابي أو المرضي كالخوف والقلق . فالمثيرات المحايدة التي ترتبط باستمرار مع مثير غير شرطي مؤلم ، تصبح بالتالي مثيرات شرطية مؤلمة قادرة على استدعاء الخوف والاستجابات الاحجامية . ويعني ذلك أنه وفقا للاشتراط الكلاسيكي قد يكتسب الفرد ردود افعال انفعالية عميقة ازاء مثيرات محايدة في الأصل .

ومن الأمثلة الايضاحية للاشتراط الكلاسيكي - حالة الطفل « آلبرت » التي تكشف عن الاستجابات الشرطية وتعميمها (واطسون وراينور ، ١٩٢٠) : [١٤] في هذه التجربة استطاع الباحثان استدعاء حالة من الخوف المرضي الشديد من الفيران لدى هذا الطفل الذي لم يكن يخاف من

---

(١٢) D. Byrne : Attitudes and attraction. In L. Berkowitz (Ed.), **Advances in experimental social psychology** : vol.4. New York : Academic Press, 1969.

A. J. Lott & B. E. Lott : A learning theory approach to interpersonal attitudes. In A. G. Greenwald, et al. (Ed. , **Psychological Foundations of attitudes.** New York : Academic Press, 1968.

(١٣) W. Griffitt & P. Guay : Object evaluation and conditioned effect. Journal **of Experimental Research in Personality,** 1969, 4, 1—8

(١٤) J. B. Watson & R. Raynor : Conditioned emotional reactions. **Journal of experimental Psychology,** 1920, 3, 1—4

مثل هذه الحيوانات من قبل . فقد أجلسا هذا الطفل على منضدة ووضعا أمامه فأرا أبيض . ولم يبد الطفل أي خوف حيال هذا الحيوان وأخذ يقترب منه ويحاول الامساك به . في تلك اللحظة أحدث الباحثان صوتا عاليا يستثير خوف الطفل . هذا الموقف تكرر لعدة مرات ، وتكون عند الطفل بذلك حالة من الخوف تبدو في سلوكه الاحجامي عند الاقتراب من الفأر مرة أخرى . كذلك صارت حالة الخوف هذه « تعمم » على موضوعات مماثلة أخرى ، كالارنب أو الكلاب أو الماعز وغيرها .

ومن الأمثلة الايضاحية كذلك عن الاشتراط « الصدمي » **traumatic conditioning** تلك التجربة الدرامية التي أجريت على مفحوصين كبار متطوعين : [(١٥)] لقد كان المثير غير الشرطي صادما بشكل غير عادي ـ فقد اعطوا المفحوصين عقار السكولين **Scoline** الذي سبب لهم اضطرابا مؤقتا في التنفس ، وخلق نوعا من الشلل الحركي المؤقت بدون إحداث اضطراب في الوعي . هكذا تسبب هذا العقار في إحداث حالة من الفزع الشديد ومن الشعور بأنهم على وشك الموت . أما المثير الشرطي فقد كان عبارة عن نغمة محايدة . وبتزاوج هذين المثيرين (النغمة وتأثير العقار) تكونت استجابة خوف شرطية عند هؤلاء المفحوصين ازاء النغمة المحايدة . وقد كانت استجابة الخوف تتضح أيضا في بعض التغيرات الدالة على الاضطراب الانفعالي كاختلال ضربات القلب والتوتر العضلي واختلال التنفس . وبالاضافة الى ذلك ، كانت هذه الاستجابة الشرطية الانفعالية الصادمة تقاوم الانطفاء بدرجة شديدة .

يفسر السلوكيون نتائج هذه الدراسات التجريبية على أنها دليل على أن الاستجابات الانفعالية العصابية ـ كما في حالات الخوف المرضي ـ تعكس مبادىء الأشتراط أكثر مما تعكس الرغبات اللاشعورية والصراعات الداخلية ، هذه المبادىء التي يقوم عليها اكتساب الاستجابات الصادمة ، هي نفس المبادىء التي تستخدم في الأغراض العلاجية .

الاشتراط الاجرائي ونواتج الاستجابة :

لقد سعى سكينر الى تضمين نظريته مفاهيم كثيرة تتعلق بالاشتراط الكلاسيكي ، ولكنه ركز على جانب آخر من التعلم : [(١٦)] فمعظم السلوك الاجتماعي الانساني يتضمن أنماطا من الاستجابات

---

(١٥) D. Campbell, R. E. Sanderson & S. G. Laverty : characteristics of a conditioned response in human subjects during extinction trials following a single traumatic conditioning trial. **Journal of Abnormal and Sosial Psychology**, 1964, 68, 627—639.

(١٦) B. F. Skinner : 1953

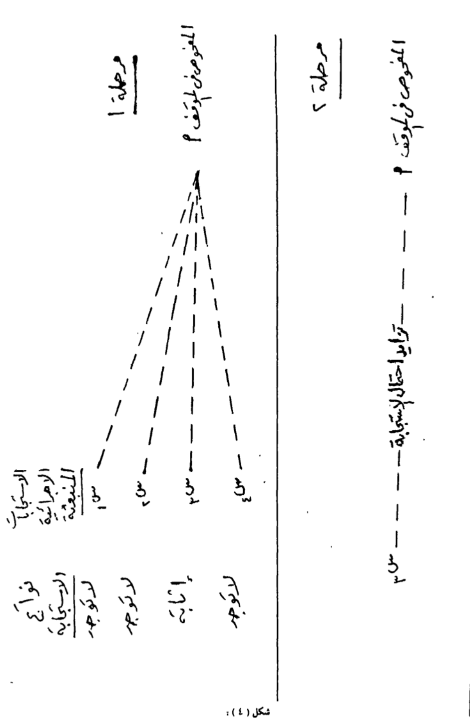
المنبعثة بحرية ـ أو من « الأفعال الاجرائية » (operants) . يشير هذا المصطلح الى كائن حي نشط « يعمل بفعالية » على التأثير في عالمه وعلى التغيير في بيئته ، وعلى تغيره هو من خلال تغييره لبيئته ولعالمه . فنواتج هذه الانماط الاجرائية الفعالة من الاستجابات تقوي احتمال حدوث استجابات مماثلة في المستقبل . أي أن السلوك الاجرائي operant behavior يتحدد بنواتجه أو مترتباته . واذا كانت نواتج أو مترتبات الاستجابة response consequences مرغوبة أو مدعمة ، فان السلوك الاجرائي يحتمل أكثر أن ينبعث مرة أخرى في مواقف مماثلة في المستقبل . هذه « المدعمات » أو النواتج المرغوبة ، خلافا لبعض التصورات الخاطئة الشائعة ، لا تكون مقيدة بتلك الاثابات البدائية كالطعام أو الاشباع الجنسي . فغالبا ما قد يعمل أي حدث كمدعمات ، بما في ذلك الاشباع المعرفي والانجاز .

ومن ناحية أخرى ، إذا لم تكن نواتج الاستجابات غير مرغوبة (غير مدعمة) ، فان السلوك الاجرائي الفعال يكون أقل احتمالا للحدوث في المستقبل . فمثلا ، اذا كانت الأم تستجيب بانتباه واهتمام لما يبديه الطفل من دلال سلوكية على الاستقلال ، فان الاستقلالية سوف تتدعم عنده . أما اذا تجاهلت هذه الدلائل وتركتها بدون إثابة ، فسوف يتضاءل احتمال نمو الاستقلالية في المستقبل .

تركزت معظم بحوث سكينر في التعلم على دور الاثابه أو التدعيم كمحددات لتغير السلوك . وتعتمد الطرق المعتادة في هذه الدراسات على خلق شروط يعمل فيها الكائن الحي بحرية أو يأتي باستجابات فعالة (« الافعال الاجرائية ») . في هذه البحوث كان المجرب يختار مسبقا فئة خاصة من السلوك (مثل اسماء ضمائر خلال مقابلة ، رافعة ضاغطة في دراسة على الفيران) . وبعد ذلك يقوم المجرب بتوزيع المدعم مرهونا باقبال المفحوص على انتقاء الاستجابة الاجرائية . فمثلا ، كان المجرب يصدر تعليقات مدح ـ مثل « حسنا » ـ فقط حينما يستخدم المفحوص أسماء ضمائر مثل « أنا » أو « إني » . أو يقدم الطعام الى الحيوان مرهونا باستجابة الضغط على الرافعة . يطلق على هذه العملية ظاهرة « الاشتراط الاجرائي "operant conditioning" ' كما تتضح من الشكل رقم (٤) .

وقد تبين من دراسات كثيرة أن التغير في نواتج الاستجابة قد يؤدي الى تغيير مدى واسع من الأنماط السلوكية ـ من الكلام الذهاني ، والجناح ، والانحرافات الجنسية العصابية ، الى التفاعل الاجتماعي في رياض الاطفال مثلا . التميز discrimination :

يطلق على المثيرات التي تحمل اشارة أو علامة بالوقت أو المكان الذي فيه سوف يترتب عن فعل اجرائي نواتج مرغوبة ، مصطلح « المثيرات التمييزية » discriminative stimuli . وتؤدي التغيرات في المثيرات التمييزية الى تغيرات في السلوك . فبدون المثيرات التميزية لن نعرف بالنواتج التي يحتمل أن تؤدي اليها الانماط السلوكية المختلفة . فنحن بسرعة نتعلم أن نمرق بالسيارة حينما تكون



شكل (٤) :
الاشتراط الاجرائي . ففي أي موقف يبتعث المفحوص استجابات اجرائية كثيرة : فاذا أعقب فعل اجرائي اثابة (تدعيم) على الفور ، فانه يحتمل أكثر أن يبعث هذا الفعل مرة أخرى في موقف مشابه .

إشارة المرور خضراء وليست حمراء ، وأن نصيح بانفعال في مباراة لكرة القدم وليس في قاعة المحاضرة ، الخ . فالحياة بدون العلامات أو الأمارات البيئية environmental cues المتعلقة بالنواتج المحتملة للسلوك تكون حياة بلا نظام .

المدعمات المعممة الشرطية :

ان المثيرات المحايدة ـ كما ذكرنا من قبل ـ قد تكتسب قيمة وتصبح مدعمات شرطية حينما تصير مرتبطة بمثيرات أخرى يكون لها بالفعل قوى تدعيمية وخصائص الاستثارة الانفعالية . وتصبح المدعمات الشرطية « معممة » حينما تتزاوج مع أكثر من مدعم أولي واحد . ومن الأمثلة الواضحة على المدعم المعمم الشرطي ـ النقود لأنها تستطيع أن توفر إشباعات أولية مختلفة كثيرة (طعام ، مسكن ، ملبس ، راحة ، علاج طبي ، الخ . .) . وبالتدريج قد تصبح المدعمات المعممة فعالة تماما حتى اذا لم تعد تصاحبها المدعمات الأولية التي قامت عليها في الأصل . مثال ذلك ، تعلم بعض الناس حب المال كغاية في حد ذاته .

واذا كانت هناك بعض المدعمات المعممة واضحة كالمال ، فان بعضها الآخر غير واضح ويتضمن علاقات اجتماعية معقدة . فالانتباه والاستحسان الاجتماعي والتقدير من الأشخاص الذين يعملون كمصدر للتدعيم ـ مثل الوالدين أو المعلمين أو الأشخاص المحبوبين ـ يمثل غالبا مدعمات معممة قوية .

لقد استثارت بحوث سكينر والسلوكيين الجدد آفاقا جديدة للبحث في السلوك ، اعانت في الكشف عن الطرق التي بها تتكون وتتغير أنماط السلوك .

●●●

نظرية التعلم الاجتماعي والسلوك الاجتماعي

(باندورا ، والترز ، روتر)

لقد اهتمت معظم نظريات التعلم بدور التدعيم أو الاثابة في التعلم . يعزى هذا الاهتمام الى سببين على الأقل : الأول ـ لقد اتضح أن للتدعيم والحوافز مؤثرات قوية في التعلم وفي انتقاء السلوك

في مواقف مختلفة كثيرة ، وان نواتج أنماط الاستجابة تعمل كمحددات رئيسية للسلوك . الثاني ـ لقد أجريت معظم بحوث التعلم ، وحتى وقت قريب ، على الحيوانات أكثر مما أجريت على الانسان ، واعتبر أن التدعيم المباشر كما تبين من تجارب التعلم الحيواني هو الآليات الرئيسية للتعلم .

شهد الربع الثالث من القرن العشرين تطورات جذرية في نظريات التعلم ـ وأبرز معالمها دراسة السلوك الاجتماعي الانساني المعقد فيما يعرف بالتعلم الاجتماعي ، الذي يمكن أن يتحقق بدون أي تدعيم مباشر واضح . تبدو هذه التغيرات في تطور مفاهيم ومبادىء التعلم وتوسيعها وتطبيقها على الظاهرات والعلاقات الاجتماعية ، وفي نقل دراسات وتجارب التعلم من مختبرات التعلم الحيواني الى المجالات الانسانية والاجتماعية الواسعة . تنسحب هذه التطورات على علم النفس الاكلينيكي (روتر ، ١٩٥٤ ؛ أولمان وكراسنر ، ١٩٦٩ ؛ فولبي ، ١٩٥٨) وعلى نمو الشخصية (باندورا ووالترز ، ١٩٦٣) وعلى بنية الشخصية وقياسها (ميتشيل ، ١٩٦٨) وعلى تغير السلوك (باندورا ، ١٩٦٩ ؛ أيزنك وراشمان ، ١٩٦٥) .

التوقعات والقيم :

تقوم نظرية روتر في التعلم الاجتماعي على تضمين عناصر معرفية أكثر في نظريات التعلم ذات التوجه نحو الشخصية personality — oriented learning theories : (١٧) يؤكد روتر على التوقعات الذاتية لدى الفرد بشأن النواتج المستقبلية ، وعلى القيمة الذاتية للتدعيمات في الموقف النفسي الذي يمر به الشخص . ووفقا لنظرية روتر ، تتوقف احتمالية حدوث نمط معين من السلوك على توقعات الفرد التي تتعلق بالنواتج أو المترتبات التي سوف تتمخض عن سلوكه ، وعلى القيم المدركة لتلك النواتج .

ويتطلب التنبؤ ، وفقا لروتر ، تقييما للتوقعات والقيم المعنية عند الفرد في المواقف الاختيارية التي تواجهه . وتعكس التوقعات الذاتية المتعلقة بالنواتج المحتملة الخبرات السابقة للتعلم التي اكتسبها الشخص في مواقف مشابهة . أي أن التوقعات دالة للتدعيم السابق المباشر عند الشخص . وعلى هذا النحو ، فان القيم الذاتية لنواتج سلوكه هي أيضا دالة للتعلم السابق ، ويذهب روتر الى أن التوقعات الخاصة أو النوعية تكون قابلة للتعديل بسهولة عن طريق إحداث تغييرات طفيفة في الموقف الذي يوجد فيه الفرد . أما التوقعات المعممة فهي أكثر اتساقا وثباتا عبر المواقف المختلفة ، ولذا فهي أقرب الى مفهوم السمات .

(١٧) J. B. Rotter : **Social learning and clinical Psychology.** Englewood Cliffs, N. J. : Prentice Hall, 1954.

التعلم بالملاحظة :

وهو نموذج من التطورات المعاصرة في نظرية التعلم ، يؤكد على التعلم الاجتماعي من خلال الملاحظة . يشيرنموذج التعلم بالملاحظة observational learning model الى التعلم بدون أية إثابة مباشرة أو تدعيم مباشر (١٨) . فالناس تتعلم من ملاحظة الاشخاص الآخرين والأحداث وليس فقط من مجرد النواتج المباشرة لما يفعلونه . فما تعرفه وكيف تسلك يتوقف على ما تراه وتسمعه وليس فقط على ما تحصل عليه .

قد يطلق على التعلم بدون تدعيم مباشر مصطلح « التعلم المعرفي » cognitive أو « التعلم الانتقالي » vicarious أو « التعلم بالملاحظة » observationalأو « التعلم بالنموذج » modeling . تشير كل هذه المصطلحات الى اكتساب الفرد لمعرفة جديدة ولامكانات جديدة للسلوك من خلال الملاحظة دون أن يتلقى أي تدعيم خارجي مباشر لأفعاله ، أو دون أن يأتي بالاستجابة الملاحظة . وقد يحدث التعلم بالملاحظة حينما يلاحظ الناس ما يفعله الآخرون ، أو حينما ينتبهون الى البيئة الطبيعية ، والى الأحداث ، والى الرموز كالكلمات والصور . ويعتمد الكثير من التعلم الانساني على العمليات ادراكية - معرفية (كالانتباه الانتقائي ، التركيزي) وعلى ملاحظة البيئة الاجتماعية والطبيعية أكثر مما يعتمد على التدعيم المباشر الذي يحصل عليه الفرد من أفعاله ذاتها . بل أن بعض الحيوانات قد تتعلم سلوكا معينا بدون أن تأتي بأي استجابة ظاهرة أثناء خبرة الملاحظة التي لاحظوا فيها ذلك السلوك لأول مرة (١٩) . فمن خلال الملاحظة يتعلم الناس من البيئة ومن سلوك الآخرين . وقد يتعلم الملاحظون أنماطا جديدة من الاستجابات لم تكن متاحة لهم من قبل وذلك عن طريق ملاحظتهم لهذه الأنماط السلوكية الجديدة التي يبديها الآخرون (٢٠) . يتضح اكتساب هذه الأنماط الجديدة من الاستجابات السلوكية في تعلم اللغة خاصة .

---

(١٨) A. Bandura & Walters : **Social learning and personality development.** New York : Holt, Rinehart & Winston, 1963

A. Bandura : **Principles of behavior modification.** New York : Holt, Rinehart, Winston, 1969.

D. T. Campbell : Conformity in Psychology's theories of acquired behavioral dispositions. In I. A. Berg & B. M. Bass (Eds.) , **Conformity and deviation.** New York : Harper, 1961. PP. 101—142.

D. O. Hall : **Psychology.** Philadelphia : W. B. Saunders, 1966.

W. Mischel : **Personality and assessment.** New York : Wiley, 1968.

(١٩) J. A. Deutsch & D. Deutsch : **Physiological Psychology** : Homewood, 111. : The Dorsey Press, 1966.

(٢٠) Bandura & Walters : 1963.

الاكتساب والأداء :

لا يوجد فرد يفعل كل الأشياء التي تعلمها والتي يستطيع أن يعملها . فمن الواضح أن ثمة تباينا بين ما يتعلمه الفرد أو يعرفه ويستطيع عمله ، وما يفعله في مواقف معينة بالفعل . لذا ، فمن المفيد أن نميز بين التعلم أو اكتساب السلوك ، وممارسته أو أدائه .

فتعلم أو اكتساب استجابات جديدة يخضع للتنظيم بواسطة عمليات حسية ومعرفية . وربما يتيسر هذا التعلم بواسطة الحوافز أو التدعيمات ، ولكنه غير مرهون بها (٢١) . ويعني ذلك ، أن ما يستطيع الشخص أن « يفعله » يتوقف على ما « يعرفه » وعلى المهارات والمعلومات والقواعد وأنماط الاستجابة التي اكتسبها أو تعلمها . هذه الانماط السلوكية المتعلمة قد تكتسب من خلال الملاحظة والعمليات المعرفية وليس فقط من خلال الاشتراط والتدعيم المباشر .

ومع ذلك ، فان الحوافز والتدعيم تمثل محددات هامة لانتقاء الاستجابة في حالة « الأداء » . فاختيار الشخص لما يفعله في موقف ما ـ أي ما هي الاستجابة التي ينتقيها من بين عدد هائل من الانماط السلوكية المحتملة التي يستطيع أن يأتي بها ـ يتوقف على المتغيرات الدافعية . فالسلوك الذي ينتقيه الشخص يعتمد على النواتج التي يتوقعها من بين الأفعال السلوكية المختلفة .

وقد لا يمارس شخص سلوكا معينا لأنه لم يتعلمه أصلا . ومن ناحية أخرى ، قد يكون نمط الاستجابة متيسرا بالنسبة لامكانية الفرد ، ولكنه لا يستدعي بواسطة المثير المعين وشروط الاثابة . يعني ذلك ، أن استجابته لا تخضع للكف ، ولكن شروط الحافز في الموقف قد لا تكون قوية بدرجة تكفي لاستدعاء الاستجابة . فحينما يتوفر حافز أكثر فعالية ، فان الاستجابة قد تستدعى بالفعل .

تأثير ملاحظة نواتج سلوك الأشخاص الآخرين :

لا تعتمد توقعاتنا المتعلقة بالنواتج المحتملة لسلوك معين فحسب على النواتج التي تلقيناها عما فعلناه في مواقف مماثلة ، ولكن أيضا على النواتج التي نلاحظ غيرنا يحصل عليها . فملاحظة النواتج أو المترتبات التي يتلقاها أشخاص آخرون قد توفر معلومات قيمة عن النواتج التي سوف يكون من المحتمل أن نحصل عليها اذا أتينا بسلوك مماثل .

(٢١) D. O. Hebb : 1966.

فحينما يلاحظ شخص أن أشخاصا آخرين (« نماذج models ") يحصلون على نواتج تدعيمية ايجابية لنمط معين من الاستجابة ، فانه يميل الى أن يسلك بالفعل بطرق مماثلة . ومن ناحية أخرى ، حينما تتلقى النماذج الاجتماعية عقابا على سلوكها ، يميل الأشخاص الملاحظون أكثر الى كف مثل هذه الأنماط السلوكية التي تلقى عقابا (٢٢) .

في دراسة عن التقليد أو المحاكاة تكشف عن تأثير ملاحظة نواتج أو مترتبات سلوك الأشخاص الآخرين ، لاحظ الأطفال فيلما لشخص كبير يأتي باستجابات عدوانية مثل ضرب أو ركل بعض الدمى : (٣٣) وكانت النواتج المترتبة على السلوك العدواني الذي يأتي به هذا الشخص الراشد متنوعة بشكل متعمد ـ ففي بعض المواقف كان هذا الشخص يلقى عقابا على سلوكه العدواني ، وفي موقف آخر يلقى إثابة ، وفي موقف ثالث لم تكن هناك أية نواتج أو مترتبات . وقد خضع الأطفال الملاحظون للاختبار بعد عرض الفيلم ، وتبين أن الأطفال الذين لاحظوا أن السلوك العدواني كان يلقى عقابا ، كانوا يقلدون هذه الانماط السلوكية العدوانية بدرجة أقل من الأطفال الذين رأوا أن العدوانية تلقى إثابة أو إهمالا .

هل هذه الفروق في الأداء تعكس فروقا في التعليم ؟ تكشف الاختبارات التتبعية أنه حينما قدموا لهؤلاء الأطفال حوافز جذابة لمحاكاة استجابات النموذج ، فان الفروق بين هذه المواقف قد تلاشت . ويبدو أن الأطفال في كل المواقف قد تعلموا بدرجة متساوية تقريبا سلوك النموذج ، وان ملاحظة النواتج المختلفة قد أدت الى كف أو تيسير أدائهم للسلوك فيما بعد .

وقد تؤدي الخبرات القائمة على الملاحظة Vicarious experiences أيضا الى ردود أفعال انفعالية شرطية قوية (٢٤) .
ففي إحدى التجارب لاحظ أشخاص كبار بشكل متكرر صوت جرس مقترنا باستجابات للخوف يبديها شخص راشد آخر . وقد نتج عن ذلك أنه قد نمى بالتدريج لدى هؤلاء الملاحظين استجابات انفعالية شرطية (الخوف) لصوت الجرس وحده (٢٥) . وكثيرا ما يتعلم بعض الناس الذين لم يتعرضوا لأية خبرات مؤلمة مع حيوانات ، أن يخافوا منها بشدة بعد أن يلاحظوا ردود الافعال الانفعالية التي يبديها غيرهم حينما يواجهون هذه الحيوانات .

---

(٢٢) A. Bandura, D. Ross & S. A. Ross : Imitation of film — mediated aggressive models. **Journal of Abnormal and Social Psychology,** 1963, 66, 3—11.

(٢٣) A. Bandura : Vicarious Processes : A case of no—trial learning. In L. Berkowitz (Ed.) , **Advances in Experimental Social Psychology.** Vol. I I. New York : Academic Press, 1965. PP. 1—55.

(٢٤) S. M. Berger : Conditioning through vicarious instigation. **Psychological Review,** 1962, 69, 450—466.

(٢٥) A. Bandura & T. L. Rosenthal : Vicarious classical conditioning as a function of arousal level. **Journal of Personality and Social Psychology,** 1966, 3, 54—62.

التركيز على السلوك الاجتماعي الحالي :

تفترض نظريات التعلم الاجتماعي أن السلوك يكون متسقا عبر المواقف المختلفة cross — situational فقط الى الحد الذي فيه تؤدي ، أو من المتوقع أن تؤدي ، أنماط سلوكية مماثلة الى نواتج مماثلة عبر تلك المواقف . يختلف ذلك عن نظريات السمات التي تفترض وجود استعدادات واسعة واتساقات عبر المواقف على أنها الوحدات الرئيسية للشخصية . فوفقا لمبادىء التعلم الخاصة بتعميم المثير والتميز ، يصير السلوك معمما على نطاق واسع فقط حينما يلقى تدعيما في الكثير من المواقف التي يحدث فيها . وتؤكد معظم النظريات السلوكية ، استنادا الى فكرة أن السلوك يعتمد على نواتجه المحتملة ، بذلك على « النوعية السلوكية » behavioral specifity أكثر مما تؤكد على اتساق السمات عبر المواقف المختلفة التي تتضمن مثيرات متميزة مختلفة . لذا فان المقاييس المشتقة من نظريات السلوك الاجتماعي لا تصنف الفرد في مصطلحات خاصة بسمات معممة ، أو تصنفه في فئات من الأنماط ، أو تستنتج صراعاته ودوافعه .

فالمقاييس السلوكية ، بدلا من ذلك ، تحدد ما يفعله الفرد الآن ارتباطا بالشروط التي يأتي في ظلها بأفعاله السلوكية . ويعني ذلك ، أن القياس السلوكي يتضمن كشفا للجوانب الفريدة في شخصية الفرد عن طريق تحليل كيف يتغير الشخص استجابة للتغيرات في شروط المثير .

وتطرح نظريات التعلم الاجتماعي موقفا مغايرا للنظريات السكودينامية فيما يتعلق بديناميات السلوك : يفترض التنظير السيكودينامي وجود نظام ثابت نسبيا من الدوافع والاستعدادات الرئيسية للشخصية ، رغم تغير استجاباتها الظاهرة . أما نظريات التعلم الاجتماعي فتعتبر وجهة النظر الدينامية غير ملائمة وقد أدت الى بعض الاخطاء البالغة الخطورة في التشخيص والعلاج الاكلينيكيين لأكثر من خمسين عاما [٢٦] . وتفترض هذه النظريات أن الأنماط السلوكية المتنوعة لا تعكس بالضرورة نظاما متماثلا يكمن وراءه نظام من الدوافع . فهذه الأنماط السلوكية متباينة نسبيا ، وتحكمها أسباب مستقلة نسبيا ، وتستدعيها ظروف وشروط منظمة قد تكون منعزلة عن بعضها .

ان النظريات السيكودينامية تميز بين الأنماط السلوكية الظاهرة أو « العرضية » symptomatic من ناحية وما يكمن وراءها من اسباب نفسية رئيسية من ناحية أخرى . وتفترض أن هذه الأسباب هي الدوافع الثابتة وتحولاتها الدفاعية المستقرة ، والتي تكونت منذ فترة مبكرة من تطور النمو النفسي ـ جنسي للفرد . لذلك تهتم النظريات السيكودينامية بالبحث عن الجذور الدافعية للشخصية في مرحلة الطفولة .

(٢٦) D. R. Peterson : The Clinical study of social behavior. New York : Appletoncentury crofts, 1968.

أما نظريات السلوك الاجتماعي ، خلافا لذلك ، فتركز على الأسباب الراهنة لسلوك الفرد . ولذلك فان مدخل التعلم الاجتماعي في دراسة الشخصية وتحليل السلوك الاجتماعي يعطي اهتماما أقل للتكوينات الدافعية والاستعدادات الشخصية ، ويركز أكثر على سلوك الفرد ، وعلى العلاقات الوظيفية بين ما يفعله والظروف أو الشروط النفسية لحياته . فتحليل السلوك الاجتماعي يحاول أن يكتشف دور أو معنى مثيرات معينة وشروطها في حياة الفرد وذلك عن طريق ملاحظة كيف أن التغير في تلك الشروط يغير فيما يفكر فيه وفيما يفعله .

المعرفة والسلوك :

لقد أصبح علم النفس المعاصر أكثر اهتماما بالجوانب المعرفية للظاهرة النفسية . واذا كان مصطلح « معرفة » cognition ينطوي على معان كثيرة ، الا انه يعني ببساطة « تشغيل أو تعميل المعلومات » information processing ' كما هو في التفكير وفي التمثيل العقلي وتناول الأحداث . وتدخل المعرفة في عمليات مثل الانتباه الانتقائي وتجميع المعلومات والتفكير المدفوع أو الموجه نحو الهدف (حل المشكلات) [٢٧] .

والواقع أن النظريات المعاصرة للتعلم الاجتماعي تولي أهمية خاصة للعمليات المعرفية في دراسة الشخصية . يؤكد هذا التوجه المعرفي لنظريات التعلم الاجتماعي على ضرورة فهم العمليات التوسطية mediating processes التي تجري داخل الشخص بين المثيرات التي يتعرض لها والاستجابات الظاهرة التي يأتي بها . [٢٨] لذا تهتم هذه النظريات بالتمثيلات الداخلية covert representations (كما هو في التعلم بالملاحظة) وتسعى الى دراسة تفسير الفرد للاحداث والخبرات . ويعني ذلك أن نظريات التعلم الاجتماعي تعترف بحدوث نشاط توسيطي mediation؛ فهي لا تنظر الى المثيرات كما لو أنها ترتطم بكائن حي أجوف من الداخل ليأتي آليا بأفعال ثابتة معينة . فتأثير المثير على الفرد يعتمد على عوامل كثيرة : فاذا لم يلاحظ المثير مثلا ، فمن الواضح أنه لن يؤثر في الفرد . هذا التأثير لا يعتمد فحسب على خصائصه الطبيعية الموضوعية ولكن أيضا على كيفية تقديمه الى الفرد ، بما في ذلك التعليمات والرموز التي تستخدم لتغيير معناه العادي .

يؤكد الكثير من علماء النفس بقوة على أهمية التفسير أو « التقدير المعرفي » cognitive appraisal الذي يبديه الفرد للموقف - أي على « معنى » المثير . يعترف العلماء السلوكيون بهذه

---

(٢٧) W. Mischel : Continuity and change in personality. American Psychologist, 1969, 24, 1012—1018.

(٢٨) U. Neisser : Cognitive psychology, New York : Appleton—Century—Crofts, 1967.

النقطة ولكنهم يذهبون عادة الى ما هو أبعد من ذلك . ..متعدين أن مهمتهم ينبغي أن تتضمن عزل المتغيرات الفعلية التي تحكم ما الذي قد يعنيه المثير في نسق معين ، حتى يستطيعوا تحديد الشروط التي تحكم المعنى .

فأهمية المعرفة والمعلومات تتضمن جوانب كثيرة من السلوك الانساني المركب . فالمعلومات تؤثر بقوة في عمليات التعلم الانساني وفي الاداء . فمثلا المعلومات التي يحصل عليها السائح للوصول الى أماكن معينة في مدينة يزورها لأول مرة تكون أكثر فعالية من التجول في المدينة بطريقة المحاولة والخطأ . كذلك ، فان معلومات التغذية المرتدة informational feedback التي يحصل عليها الفرد بشأن أدائه السابق والمعلومات الخاصة بالموقف الحالي وبالتوقعات التي سوف تنشأ في المستقبل تؤثر بقوة في سلوك الفرد . (٢٩)

وقد يتعدل السلوك الاجتماعي بواسطة العمليات الرمزية والمعرفية التي لا تعتمد على الملاحظة الفعلية لسلوك النموذج . فمثلا ، قد يعدل الفرد من اتجاهاته الاجتماعية بعد قراءته عن السلوك المتعلق بهذه الاتجاهات لدى أشخاص آخرين . (٣٠) وغالبا ما تكون هذه التأثيرات المستثارة رمزيا قوية وقد تؤدي الى تغيير الانماط السلوكية المتعلقة بالشخصية كالضبط الذاتي والعدوانية والسعي الى الانجاز ، ورغم أن الآليات التي تكمن وراءها لا زالت غير واضحة ، الا أن المعلومات الجديدة التي تحملها اللغة والرموز تستطيع أن تغير بعمق من معنى المثيرات والمدعمات .

الكائن الحي النشط :

هل التركيز على دور شروط المثير قد يعني أن النظرية السلوكية تنطوي على نظرة سلبية للانسان ، قوامها صورة للكائن الحي على أنه أجوف من االداخل عدا عمليات الربط الآلي بين مجموعة من الاستجابات للمثيرات الخارجية ؟ والواقع أن التحليل السلوكي يهتم بالتلازم الحقيقي بين الشروط المتغيرة والسلوك المتغير عند الفرد . ولكن اذا كان التغير في الشروط يؤدي الى تنظيم سلوك الفرد ، فانه الشخص ـ وليس المثير أو الموقف ـ هو الذي يكون نشطا وفعالا وهو الذي يأتي بالافعال السلوكية . فالاستجابات تسكن فقط في الكائن الحي ، وليس في المثيرات أو الشروط . والنظريات السلوكية المعاصرة تركز على المثيرات في محاولة لفهم الشخص ولتغييره الى الأحسن .

(٢٩) A. L. Baldwin : A. cognitive theory of socialization. In D. A. Goslin (Ed.) . **Handbook of socialization theory and research.** Chicago : Rand Mc Nally. 1969. PP. 325—480.

(٣٠) A. Bandura & W. Mischel : Modification of selfimposed delay of reward through exposure to live and symlbolic models. Journal of personality and Social Psychology. 1965, 2, 698—705.

ان نظريات التعلم الاجتماعي تعترف بأن الفرد ليس مجموعة سلبية من الاستجابات . فلكل فرد تاريخه من التعلم ومخزونه من الذاكرة ، والكثير مما يمر به يستوعبه ويؤثر في كل سلوكه الحالي . والانسان يفسر نفسه وسلوكه ـ فهو يقيم أداءه ويحكم عليه وينظمه . وبالاضافة الى ما يتعرض له الفرد من إثابة وعقاب بواسطة البيئة الخارجية ، يتعلم الناس أن ينظموا سلوكهم ويقيمونه ، وأن يثيبوا أنفسهم ويعاقبوها ، وبالتالي أن يعدلوا من سلوكهم وأن يؤثروا في بيئتهم .

هكذا تركز نظرية التعلم الاجتماعي معظم اهتمامها ومهامها على ما يفعله الشخص وفقا لقاعدة « هنا والآن » أكثر من أن تركز على اعادة بناء تاريخه النفسي . هذه النظرية تميل الى رفض افتراض الحوافز والقوى والدوافع وغيرها من الاستعدادات النفسية كتفسيرات للسلوك ، والى التركيز على امكانات الفرد على التغير . والواقع أن الكثير مما تذهب اليه النظرية السلوكية المعاصرة يتفق مع نظريات أخرى في علم النفس المعاصر ، وخاصة النظريات ذات التوجه الوجودي والظاهري .

●●●

تعديل السلوك وطرقه

العلاج السلوكي behavior therapy ' أو ما يعرف بـ « تعديل السلوك » behavior modification، هو التطبيق المباشر لمبادىء التعلم (أيزنك ، ١٩٥٩) (٣١) ؛ فنظرية التعلم هي أساس العلاج السلوكي (أولمان وكراسنر ، ١٩٧٥) . (٣٢) ويتوصل « ايزنك » ، من خلال تجاربه وممارساته الاكلينيكية الواسعة ، الى نتيجة تؤكد على مكانة العلاج السلوكي كنظام علمي (أيزنك ، ١٩٧١) (٣٣) ، وعلى دور العلاج السلوكي كعلم تطبيقي (أيزنك ، ١٩٧٦) (٣٤) .

وفيما يلي نتناول بعض الطرق الرئيسية لتعديل السلوك ، وأسسها ، وما ترتب عليها من نتائج .

(٣١) H. J. Eysenck : Learning theory and behavior therapy. **Journal of Mental Sience**, 1959, 105, 61—75.

(٣٢) L. P. Ullman & L. Krasner : **A psychological approach to abnormal behavior** (2nd ed.) . Englewood cliffs, N. J. : Prentice — Hall, 1975.

(٣٣) H. J. Eysenck : Behavior therapy as a scientific discipline. **Journal of Consulting and clinical psychology**, 1971, 36, 314—319.

(٣٤) H. J. Eysenck : Behavior therapy : Dogma or applied science ?In

M. P. Feldman & A. Broadhurst (Eds.) , **Theoretical and experimental bases of the behavior therapies.** London : Wiley, 1976.

التحصين المنظم التدريجي : (*)

لقد كانت مبادىء التعلم التي يقوم عليها التغير العلاجي للسلوك في متناول علماء النفس منذ أكثر من ستين عاما ، ولكنها نادرا ما كانت تطبق لأن معظم المعالجين كانوا يبدون تخوفا من حدوث ظاهرة « إبدال الأعراض » (**) . فالاعتقاد الشائع هو أن ازالة السلوك المشكل سوف يتبعه ظهور أغراض أخرى تكون أكثر شدة في مرضيتها من الأعراض الأصلية .

ولقد كان « جوزيف ڤولبي » J. Wolpe، وهو طبيب نفسي صار من أكثر ناقدي نظرية التحليل النفسي ، هو الذي خاطر بمحاولة التعديل المباشر للسلوك لدى الكثير من مرضاه . وفي عام ١٩٥٨ نشر كتابا يصف فيه « طريقة التحصين المنظم التدريجي » التي تقوم على مبدأ الاقتران الشرطي الكلاسيكي (٣٥) .

تأثر « فولبي » بالنظريات الكلاسيكية في التعلم وخاصة بنظرية بافلوف ، واعتقد أن العصاب (المرض النفسي) يتضمن عادات متعلمة سيئة التكيف ، وخاصة استجابات القلق . ويفترض انه في السلوك العصابي ، يصبح القلق هو الاستجابة الشرطية لمثيرات لا تستدعي القلق عند الاشخاص العاديين . واستنبط أن العلاج ينبغي أن يساعد الشخص العصابي على كف القلق بواسطة تعريضه لاشتراط مضاد counterconditioning، وذلك لاستدعاء استجابة منافسة (مضادة) -com-peting) antagonistic (response للمثيرات الباعثة على القلق . ويقول : « اذا كان من الممكن استدعاء استجابة مضادة للقلق لتقع في وجود مثيرات باعثة على القلق ولكي تصاحب بقمع كلي أو جزئي لاستجابات القلق ، فان الرابطة بين هذه المثيرات واستجابة القلق سوف تضعف » . (٣٦)

يحدد فولبي ثلاث خطوات لتحقيق التحصين المنظم التدريجي ضد المثيرات الباعثة على القلق :

الخطوة الأولى : تحديد مستويات التدرج الهرمي لمثير القلق (*) : ففي البداية يجري تحديد المواقف التي تستدعي استثارة واحجاما انفعاليين باعثين على الضيق ، وذلك بواسطة اجراءات القياس المفصل الذي يتم عادة من خلال المقابلات . ففي بعض الأحيان يعاني الشخص من قلق معمم على مجالات

---

* Systematic desensitization

** Symptom substiution.

(٣٥) J. wolpe : **Psychotherapy by reciprocal inhibition.** Stanford : Stanford univ. Press, 1958.

(٣٦) Ibid , P. 71.

* ANXIETY STIMULUS HIERARCHY.

كثيرة ، مثل الخوف من الفشل ، والشكوك الذاتية ، والاحساس بالذنب المرتبط بالجنس ، وغير ذلك . وبصرف النظر عن مقدار مجالات أو « موضوعات » القلق ، فان كل مجال أو موضوع منها يجري علاجه على نحو منفصل . فبالنسبة لكل موضوع من موضوعات القلق يحدد الشخص درجة أو مرتبة المثيرات المرتبطة به وفقا لمستويات التدرج الهرمي لشدة المثيرات ، فتتراوح من أكثر الأحداث شدة الى أقلها شدة من حيث أستثارة القلق . فعلى سبيل المثال (٣٧) : الشخص الذي يتملكه الخوف من الكلام مع مجموعة كبيرة من الأشخاص ، فان خوفه يأخذ درجات مختلفة من الشدة وفقا لاختلاف المواقف والأشخاص . .

الخطوة الثانية : التدريب على الاستجابة المضادة (الاسترخاء) :

بعد تحديد وترتيب مستويات المثيرات الباعثة على القلق ، من الضروري تزويد الشخص بالاستجابات التي يستطيع استخدامها فيما بعد لكي يكف قلقه . وتوجد أنماط سلوكية تتعارض مع القلق . لذلك يفضل فولبي استخدام استجابات الاسترخاء لأنه يمكن تعلمها بسهولة ، ولأنها دائما تكون متعارضة مع القلق : فلا يستطيع أحد أن يكون في حالة استرخاء وقلق في آن واحد . ولذلك يساعد المعالج المريض على تعلم الاسترخاء عن طريق تعليمات محددة ، بها يتعلم أولا أن يبعث توترا في بعض أجزاء الجسم ثم أن يسترخي بالنسبة لهذه الأجزاء من الجسم (كالذراعين ، الكتفين ، الرقبة ، الرأس) حتى يمكنه بالتدريج أن يصل الى حالة من الهدوء الكلي ، والاسترخاء العضلي العميق . ويستطيع معظم الناس أن يتعلموا كيف يسترخون من خلال جلسات قليلة . والمشكلة الرئيسية هي أن يتعلم الشخص أن يسترخي بالنسبة للمثيرات التي تستدعي القلق ، وهذا ما يجري محاولته في الخطوة التالية .

الخطوة الثالثة : ربط مثيرات القلق بالاستجابات المضادة :

وهي المرحلة الحاسمة - مرحلة الاشتراط المضاد - وفيها تجري مساعدة المريض على الاسترخاء بعمق بينما يقدم اليه المثير مرتبة استدعاء القلق من بين مستويات المثيرات التي جرى ترتيبها هرميا في المرحلة الأولى . وعادة ما يتم وصف الحدث المثير بطريقة لفظية أو تقديمه في شكل رمزي (في صورة) بينما يكون المريض في حالة استرخاء وهدوء عميقين . وحينا يذكر المعالج للمريض كلمات العبارة (البند) ، فان المريض يحاول أن يستخلص الصورة الأكثر اشراقا وحيوية ، والتي يستطيع أن يكونها في تخيله . وحالما يستطيع أن يركز أفكاره على هذه العبارة وهو مستمر في حالة هدوئه واسترخائه ، تكون الخطوة التالية هي تقديم العبارة الأكثر شدة في الترتيب الهرمي اليه ، حتى يستطيع التمكن ، خطوة بخطوة ، من كل مستويات مثير ت القلق .

---

(٣٧) G.L.PAUL : INSIGHT VS. DESENSITIZATION IN PSYCHOTHERAPY. STANFORD : STANFORD UNIV. PRESS, 1966.

واذا حدث عند أي نقطة في الاجراء ، أن تعرض المريض لخبرة يحس فيها بتناقض في حالته الاسترخائية (أي يصبح قلقا) عندما يقدم اليه مثير باعث على القلق ، عليه أن يحيط المعالج علما بذلك . وفي هذه الحالة يطلب المعالج منه فورا أن لا يستمر في تكوين صورته عن المثير حتى يسترد هدوءه . وبعد أن يصبح في حالة من الاسترخاء التام مرة ثانية ، يقدم اليه بند أقل شدة في التدرج الهرمي حتى يستطيع التركيز عليه بدون قلق . وحينما يفعل ذلك بنجاح ، فانه يكون في حالة استعداد لأن يتقدم الى البند الثاني في الترتيب الهرمي من مستويات قلقه ، وهكذا حتى يستأنف تقدمه خطوة بخطوة في القائمة المرتبة هرميا لمثيرات القلق .

وباختصار ، تحاول اجراءات التحصين المنظم التدريجي (الاشتراط المضاد) استدعاء استجابات قوية مضادة للقلق (كالاسترخاء) مرهونة بوجود مثيرات باعثة على القلق بدرجة خفيفة ، حتى تستطيع الاستجابة المضادة ـ على الأقل جزئيا ـ أن تمنع استجابة القلق . ومن ثم يصبح الترابط بين المثير المنفر والقلق ضعيفا ، بينما يقوى ترابط المثير مع رد فعل الاسترخاء (٣٨) .

لقد استخدمت طريقة التحصين المنظم التدريجي لتعديل أنماط متنوعة من السلوك الاحجامي ، والسلوك العصابي . وكذلك لتعديل بعض المخاوف . فعلى سبيل المثال ، يذكر فولبي حالة قام بعلاجها . ولد مراهق كان يعاني من أفعال قسرية شديدة تتعلق بالتكرار الجبري لغسل الأيدي . لقد كان هذا الولد يقضي غالبا أكثر من ثلاثة أرباع ساعة في أبعاد نمطية دقيقة لتنظيف أعضائه التناسلية بعد عملية التبول ثم يقضي بعد ذلك حوالي ساعتين في تنظيف يديه . وقد لاحظ فولبي أن التبول كان هو العامل المعجل دائما بحدوث هذه الأفعال الطقوسية . لذا خضع هذا المراهق لتحصين منظم تدريجي لتقليل حساسيته . للمثيرات الباعثة على القلق والمتدرجة في درجة شدة استثارتها للقلق المرتبط بالبول والتبول . ووفقا لهذه الطريقة حقق فولبي تقدما رائعا وسريعا في علاج هذه الحالة . وعندما ما لم يعد التبول يستثير قلق هذا المراهق ، فانه تخلى عن أفعاله القسرية الطقوسية (٣٩) .

ان التقارير الاكلينيكية عن نجاح طريقة التحصين التدريجي مشجعة على استخدامها بفاعلية ، ومع ذلك فهي لا تقدم برهانا قاطعا على أن الاجراءات الاكلينيكية ، وليس أية عوامل أخرى في حياة المريض هي المسئولة عن التحسن الملحوظ . وتأتي الأدلة الأكثر اقناعا بفاعلية هذه الطريقة من بحوث

---

(٣٨) E.R. GUTHRIE : **THE PSYCHOLOGY OF LEARNING.** NEW YORK : HARPER, 1935

(٣٩) J. WOLPE : BEHAVIOR THERPY IN COMPLEX STATES. **BRITISH JOURNAL OF PSYCHIATRY,** 1963, 110, 28 - 34.

توفرت فيها شروط الضبط التجريبي [٤٠] توضح النتائج المستمدة من هذه البحوث بصفة عامة أن طريقة التحصين التدريجي ذات قيمة كبيرة في علاج المخاوف المرضية (الخواف) وفي خفض القلق .

ومن التجارب القيمة في هذا الميدان ، دراسة فعالية التحصين المنظم التدريجي في عـلاج القلق الشديد المرتبط بالكلام أمام مجموعة كبيرة من الأشخاص [٤١] : في هذه الدراسة جرى تقسيم الطلبة الذين يعانون من قلق شديد ازاء الكلام في حضرة جمهور الى أربعة مجموعات : في المجموعة الأولى تلقى الطلبة علاجا **بالاشتراط المضاد** وفقا لطريقة فولبي ، يقوم على تعلم الاسترخاء لمواقف متخيلة أكثر تهديدا مرتبطة بالكلام في حضرة أشخاص كثيرين . وفي المجموعة الثانية تلقى الطلبة **علاجا نفسيا قائما على التوجه بالاستبصار** (*) على يد اخصائي اكلينيكي . أما المجموعة الثالثة فقد حصلت فقط على أدوية مهدئة لمجرد ارضاء الطلبة في هذه المجموعة وعلى تدريب كاذب جرى تصميمه لايهامهم بأنه يساعدهم على « مواجهة الضيق » ، وبالتالي فان هذه المجموعة قد تلقت اهتماما ولكن لم تتلق علاجا (**اهتمام دون علاج**) أو (**مجرد الأهتمام**) هذه المجموعات الثلاث قد تلقت علاجـا لفترة متساوية (ستة أسابيع) وفقا لاختلاف شروط كل موقف من هذه المواقف الثلاثة . وكانت المجموعة الرابعة التي لم تتلق أي علاج هي **المجموعة الضابطة** .

ولقياس متغيرات الدراسة ، طبقت على هذه المجموعات الأربع مجموعة من الأختبارات ومقاييس لتقدير السلوك ، كما جمعت ملاحظات عن السلوك . أما القلق المرتبط بالكلام في حضرة الآخرين فقد تم تقديره وفقا لمقاييس تقرير الذات فسيولوجيا وسلوكيا (بواسطة ملاحظة السلوك الفعلي للكلام في حضرة الآخرين) . يلخص الشكل رقم (٥) نتائج هذه الدراسة التجريبية الأكلينيكية : طريقـة التحصين المنظم التدريجي كانت أفضل علاج وبشكل متسق . ولم تختلف طريقة العلاج بالاستبصار عن مواقف الأهتمام دون العلاج أو الأهتمام لمجرد ارضاء الحالات attention - placebo، رغم أن الطلبة في هاتين المجموعتين (الأستبصار ، مجرد الأهتمام) . فقد انخفض القلق عنـدهم (وفقا لبعض المقاييس) أكثر من المجموعة الضابطة التي لم تتلق علاجا .

---

(٤٠) من هذه البحوث التجريبية التي تثبت فعالية طريقة التحصين المنظم التدريجي في علاج بعض الانماط السلوكية

G.C.DANISON : SYSTEMATIC DESENSITIZATION AS A COUNTERCONDITIONING PROCESS.

JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1968, 73, 91—99.

P.J. LANG, A.D.LAZOVIK, D.J.REYNOLDS : DESENSIZATION, SUGGESTIBILITION

AND PSEUDO / THERAPY. **GOURNAL OF ABNORMAL PSYCHOLOGY,** 1905, 70, 395.

A.A. LAZARUS : GROUP THERAPY OF PHOBIC DISORDERS BY SYSTEMATIC DESENSITIZATION.

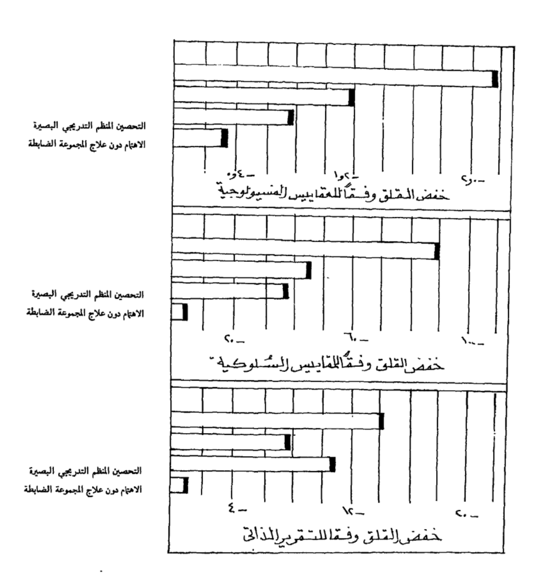
JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1961, 63, 504 - 510.

S. PACHMAN : SYSTEMATIC DESENSITIZATION.

PSYCHOLOGICAL BULLETIN, 1967, 67, 93 - 103.

(٤١) G.L. Paul : **Insiqht Vs. Desensitization in Psychotherapy.** Stanford : Univ : 1966.

* Insight - Oriented Psychotherapy .



شكل (٥) : معدل انخفاض القلق (قبل الاختبار وبعده) وفقا للمقاييس الثلاثة .
المقاييس الفسيولوجية ، والتقديرات السلوكية ، والتقرير الذاتي .

(Paul, 1966)

وفي بعض الدراسات التتبعية لهؤلاء المفحوصين ، طبقت عليهم نفس بطارية الاختبارات والمقاييس بعد ستة أسابيع (٤٢) ، ثم مرة أخرى بعد عامين (٤٣) . ولقد أثبتت هذه الدراسات أن التحسن في السلوك قد ظل قائما ولم يتعرض للكف أو الانطفاء .

بل أن الطلبة الذين تلقوا علاجا للقلق المرتبط بالكلام في حضرة جمهور بطريقة التحصين المنظم التدريجي ، قد خبروا أيضا تحسنا في درجاتهم في التحصيل الدراسي بالكلية حينما نقارنهم بالطلبة في المجموعات الأخرى (٤٤) .

التعلم بالملاحظة : (*)

قد تخضع المخاوف وغيرها من ردود الأفعال الأنفعالية القوية للتعديل من خلال التعلم بالملاحظة . ففي احدى الدراسات ، قامت مجموعة من الاطفال في سن ما قبل المدرسة - وكانوا يخافون بشدة من الكلاب - بملاحظة طفل زميل لهم لا يخاف من الكلاب ، وهو يلعب مع واحد منها . وكان هذا النموذج الشجاع من الأطفال يعرض سلوكه الجرىء في لعبه مع كلبه ، بينما يقوم الاطفال الذين يخافون من الكلاب بملاحظته من بعيد بمسافة يشعرون فيها بالأمان (٤٥) في خلال سلسلة من تسع جلسات انتقل الطفل النموذج من التربيت على الكلب من خلال القضبان الحديدية حيث يجري حبس الكلب الى الدخول معه في القفص ومشاركته في اللعب . في هذه المرحلة الأخيرة كان الطفل النموذج يلعب بمرح وبهجة مع الكلب ، يعانقه ويطعمه . أما الأطفال الذين كانوا يلاحظون هذا الطفل الذي كان نموذجا للشجاعة أمامهم ، فقد أبدوا تحسنا في سلوكهم الاقدامي نحو الكلب ، حينما قورنوا بزملائهم في المجموعات الضابطة .

في العلاج السلوكي ، لقي الخوف من الثعابين اهتماما كبيرا بسبب الدلالة الجنسية الرمزية التي تعطيها نظرية التحليل النفسي لهذه المخاوف (٤٦) . والافتراض الآن أنه اذا كانت تلك المخاوف

(٤٢) Ibid .

(٤٣) G.I. PAUL : INSIGHT VERSUS DESENSITIZATION IN PSYCHOTHERAPY TWO YEARS AFTER TERMINATION, JOURNAL OF CONSULTING PSYCHOLOGY, 1967, 31, 333 - 348.

(٤٤) G.L.PAUL D.T. SHANNON : TREATMENT OF ANXIETY THROUGH SYSTEMATIC DESENSITIZATION IN THERAPY GROUPS. JOURNAL OF ABNOR,AL PSYCHOLOGY, 1966, 71, 124 - 135.

(*) VICARDOUS (OBSERVATIONAL) LEARNING

(٤٥) A.BANDURA, J.E. GRUSEC F.L. MENLOVE : OBSERVATIONAL LEARNING AS A FUNCTION OF SYMBOLIZATION AND INCENTIVE SET. CHILD DEVELOPMENT, 1966, 37, 499 - 506.

(٤٦) A.A. BRILL : BASIC PRINCIPLES OF PSYCHOANALYSIS. GARDEN CITY, N.Y. : DOUBLEDAY, 1949 .

المرضية مظهرا رمزيا لمشكلة نفسية دينامية تكمن وراءها (كما تسلم نظرية التحليل النفسي) ، فان العلاج الحقيقي لهذه المخاوف لا يتحقق بدون أن يجري أولا تعديل الصراعات اللاشعورية التي يفترض أن عرض الخوف المرضي يرمز اليها . ولقد حاول معالجون سلوكيون كثيرون إزالة هذه المخاوف بطريقة مباشرة بدون استكشاف لمعانيها اللاشعورية المحتملة ولمصادر العلة في تاريخ حياة الفرد ، وذلك لكي يروا ما اذا كانوا يحصلون على تحسن مستمر (٤٧) ومن شأن نجاح هذه الطرق المباشرة أنه يتعارض مع تنبؤات نظرية التحليل النفسي ، ويتضمن أهمية كبيرة ، نظرية وعملية .

قام « باندورا وبلانكارد وريتر » في عام ١٩٦٩ بدراسة تجريبية شاملة عن تأثير بعض الطرق العلاجية على الخوف الشديد من الثعابين لدى أشخاص راشدين تطوعوا كمفحوصين في هذه التجارب (٤٨) . وقد قسم المفحوصون بطريقة عشوائية الى مجموعات أربع ، تلقت كل مجموعة طريقة علاجية مختلفة : (١) ـ التحصين المنظم التدريجي ، (٢) ـ تقديم نموذج رمزي في شكل فيلم ، (٣) ـ يلاحظ المفحوصون نموذجا حيا مع الاسهام الموجه ، (٤) ـ أما المجموعة الرابعة فهي المجموعة الضابطة . في المجموعة الأولى ، استخدمت طريقة فولبي في التحصين المنظم التدريجي . وفي المجموعة الثانية ، لاحظ المفحوصون فيلما عن أطفال ومراهقين وكبار ينهمكون في اللعب مع ثعبان ، وكانت المناظر باعثة على التهديد . وقد بدأ هذا الفيلم بعرض النماذج الأقل اثارة للخوف وهي نماذج من الثعابين البلاستيك ، ثم تطورت المناظر بالتدريج حيث كان هؤلاء الأشخاص يلمسون ثعبانا ضخما ثم يمسكونه ثم يدعونه يلتف حولهم ، وقد تعلم المفحوصون في هذه المجموعة أيضا أن يسترخوا أثناء فترة عرض الفيلم . وبالأضافة الى ذلك ، كان في مقدورهم تنظيم عرض الفيلم حتى اذا شعروا بالقلق ازاء بعض المناظر فانهم يوقفون الفيلم ويعيدونه الى مناظر سابقة أقل تهديدا ، حتى يتمكنوا من الاسترخاء ومن الانتقال بالتدريج الى المنظر التالي . أما المجموعة الثالثة ، فكانت تلاحظ نموذجا حيا ، حيث لاحظوا في البداية وبسلام نماذج حية من الأشخاص تتفاعل جسميا مع ثعبان خلف نافذة للملاحظة . وبعد ذلك يقوم النموذج بمسك الثعبان بطريقة غير مخيفة أمام المفحوص ، وبالتدريج يجعله يلمس الثعبان ثم يمسكه من الوسط ، أولا وهو يلبس قفازا ثم بيدين عاريتين ، ثم يصل مسك الثعبان بقوة من الرأس والذيل .

وقد طبقت على المفحوصين في هذه المجموعات الأربع ، قبل وبعد العلاج ، بعض الاختبارات لقياس قوة مخاوفهم وسلوكهم الاحجامي عن الثعابين ، كما طبق عليهم مقياس للخوف . ويوضح

---

(٤٧) P.F. LANG A.D. LAZOVIK : EXPERIMENTAL DESENSITIZATION OF A PHOBIA. JOURNAL OF ABNORMAL AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1963, 66, 519 - 525.

(٤٨) A.BANDURA, E.B. BLANCHARD AND B.RITTER : RELATIVE EFFICACY OF DESENSITZATION AND MODELING APPROACHSS FOR INDUCING BEFAVIORAL, AFFECTIVE, AND ATTITUOTINAL CHANGES.JOURNAL OF PESSONALITY AND SOCIAL PSYCHOLOGY, 1969, 13, 173 199 .

الشكلان (٦ ، ٧) نتائج هذه الدراسة التجريبية الاكلينيكية وهي تبين أن الطريقة القائمة على ملاحظة المفحوصين لنموذج حي ثم مشاركتهم فيه (المجموعة الثالثة) هي أكثر الطرق فعالية ، حيث أدت في الغالب الى محو تام لسلوك الخوف المرضي عند كل مفحوص .

النفور الشرطي : (*)

لقد رأينا كيف أن المثيرات التي تستدعي استجابات انفعالية سلبية (كالقلق) يمكن أن تصير محايدة ، ولكن ، بينما يخبر بعض الأشخاص معاناة بسبب تعلمهم الاستجابة بطريقة سلبية لمثيرات معينة ، فان أشخاصا آخرين يعيشون في عذاب لأنهم قد صاروا يخبرون لذة بواسطة الاستجابة لمثيرات يجدها معظم الناس في ثقافتهم انها مثيرات محايدة أو حتى تبعث على النفور أو التقزز . ومن الأمثلة على هذه المشكلة : الجنسية المثلية و « الفيتشية » fetishism وهي حالة تستثار فيها نزعة جنسية لدى الشخص المريض بواسطة أشياء معينة كحذاء أو جورب أو ثوب تحتي أو خصلة شعر أو غير ذلك . في مثل هذه الحالات المرضية ، تكتسب الاشياء المحايدة أو حتى الأشياء الباعثة على النفور والتقزز والاشمئزاز عند معظم الناس قوة استدعاء استثارة انفعالية باعثة على اللذة . واذا كانت مثل هذه الاستجابات قد تزود المريض ببعض اللذة المباشرة إلا أنها تؤدي في الغالب الى نتائج بعيدة المدى ، تتمثل في تدعيم السلوك المرضي بشدة ، وفي تزايد الاحساس بالذنب ، وفي التعرض للعقاب والنبذ الاجتماعيين ، وغير ذلك من مظاهر السلوك المرضي .

والمثير الذي تكون له قيمة وظيفية بالنسبة للمريض قد يصير مثيرا محايدا بواسطة الاشتراط المضاد اذا ما جرى تقديمه بطريقة متجاوزة مع مثيرات تستدعي ردود أفعال غير سارة بشكل زائد . وبالتدريج ، وكنتيجة للتزاوج المتكرر ، تكتسب المثيرات الوظيفية سلفا بعض الخصائص الانفعالية المنفردة أو المقززة التي تستدعيها أحداث بغيضة أو ضارة اقترنت بها .

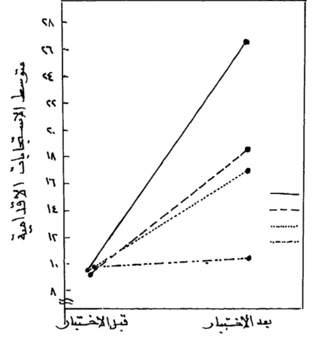
فعلى سبيل المثال ، لكي تقدم مساعدة لمريض يرغب في التخلص من مشاعر الجنسية المثلية ، فانه وفقا لطريقة العلاج بالنفور الشرطي يجري تعريضه بشكل متكرر لمثيرات تستدعي فيه لذة جنسية مع مزاوجة هذه المثيرات بردود أفعال سلبية بشدة ، مثل الغثيان الشديد بتعاطي دواء لذلك أو التعرض لصدمة كهربية . وبالتدريج تصير هذه المثيرات الباعثة على الجنسية المثلية محايدة أو منفرة (٤٩) .

(*) Conditioned aversion

(٤٩) K.freund : some problems in the treatment of homosexuality.

In H.J. Eysenck)ed. (**Behavior therapy and the neuroses.** Elmsford, N.Y. pergamon 1960, P. 312 - 325.

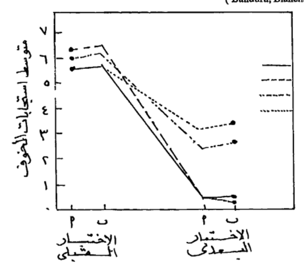
R.B. Feldman J.S. Werry : An unsuccessful attempt to treat a tiqueur by massed practice. **Behavior Research and theray,** 1966m4m 111 - 117.



ملاحظة نموذج حي مع المشاركة
ملاحظة نموذج رمزي
التحصين المنظم التدريجي
المجموعة الضابطة

شكل (٦) ٠ تأثير ملاحظة نماذج سلوكية والتحصين المنظم التدريجي على نمو الاستجابات الاقدامية لمثيرات تبعث على الخوف من قبل ويوضح الشكل متوسط الاستجابات الاقدامية التي أتى بها المفحوصون قبل وبعد تلقي هذه الأشكال من العلاج .

(Bandura, Blanchard, and Ritter, 1969)



ملاحظة نموذج حي مع المشاركة
ملاحظة نموذج رمزي
التحصين المنظم التدريجي
المجموعة الضابطة

شكل (٧) : خفض مستويات القلق بعد العلاج بالنموذج وبالتحصين المنظم التدريجي . يوضح الشكل ارتباط معدل مستوى استثارة الخوف بالامتحانات الاقدامية التي يأتي بها المفحوصون قبل العلاج ، ومستويات الخوف التي يقررونها في فترة ما بعد العلاج : « أ » تشير الى شدة الخوف الذي يخبره المفحوصون حينما يصفون لهم كل استجابة إقدامية نحو الثعبان ، أما « ب » فتشير الى مستوى الخوف الذي يقررونه حينما يقومون بالفعل بالسلوك المطلوب . (نفس المرجع)

يذكر « كلارك » حالة رجل كان يعاني من الفيتشية وخاصة فيما يتعلق بـارتدائـه لبعض الملابس الداخلية الخاصة بالسيدات ، وكان يتملكه قلق شديد اذا لم يرتدي بعضا منها طيلة اليوم . وقد أثر هذا في اضطراب حياته مع زوجته لأنه كان يرتدي هذه الملابس الشاذة ، وكذلك في عمله ، حيث كان يضطرب اذا لم يكن مرتديا بعض هذه الأشياء أثناء عمله . وقد اضطر هذا الشخص الى أن يدخل بارادته إحدى المصحات النفسية طلبا للمساعدة . وفي خلال اسبوع واحد تكرر اعطاؤه دواء يجعله يشعر بالغيثان الشديد مقترنا بعرض الاشياء الفيتشية التي تستثير سلوكه المرضي .

وكان يجري تشجيعه على ارتداء هذه الاشياء (ملابس داخلية) ويتأمل في صورها بينما يصل في حالة الغثيان الى درجة مرضية . وفي أثناء إحساسه بالغيثان الشديد كان يستمع أيضا الى تسجيل له في بداية التحاقه بالمصحة لما كان يفعله بالتفصيل وكيف كان يجد لذة في ذلك . هذه الاجراءات العلاجية كانت تتم مرتين يوميا . وتوضح الاختبارات التي استخدمت في تتبع حالة هذا المريض بعد ثلاثة أسابيع ثم بعد ثلاثة شهور من العلاج ، أن هذا المريض قد عاد الى عمله « وصار يسعد بحياة زوجية طبيعية ، كما اختفت أعراض المرض عنده » (٥٠) .

وقد استخدمت طرق مماثلة في علاج حالات فيتشية أخرى ، (٥١) ، وكذلك في عـلاج حالات الجنسية المثلية (٥٢) . ومن الاستخدامات الفعالة لهذه الطريقة من طرق الاشتراط المضاد علاج حالات الادمان . استعرض « باندورا » نتائج ١٥ بحثا عن استخدام النفور الشرطي كطريقة لعلاج ادمان الخمور . وقد تضمنت هذه الدراسات اعدادا كبيرة من المدمنين تراوح عددهم بين ١٥ الى أكثر من ٤٠٠٠ شخص ، استخدمت أنماطا مختلفة من المثيرات الباعثة على النفور . وقد تبين من الدراسات التتبعية لهذه الحالات ـ وقد تراوحت فترة التتبع في هذه الدراسات بين بضعة شهور الى عشر سنوات ـ أن النسبة المئوية للتخلص من عادة تعاطي الخمور قد تراوحت بين ٢٣ الى ٩٦٪ (٥٣) .

وتعتبر دراسة « ليمير وفويجتلين » أكبر هذه الدراسات ، فقد تتبعت ٤٠٩٦ حالة من حالات ادمان

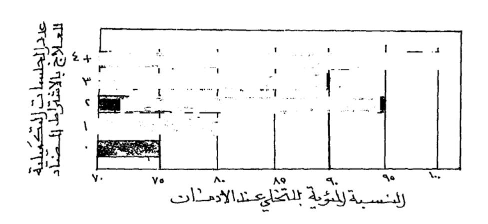
---

(٥٠) D.F. Clark : Fetishism treated by negative conditioning .
Britisk Journal of psychiatry, 1963,109,404 - 407.

(٥١) M.S. Raymond : Case of fetishism treated by aversion therapy .
British Medical Journal , 1956, 2, 854 - 857.
I.M. Marks M.G. Gelder : Transvestism and fetishism : clinical and psychological changes during faradic aversion. **British Journal of psychiatry,** 1967, 113, 711 - 729 .

(٥٢) K. Freund : op. cit .

(٥٣) A. Bandura : **Principles of behavior modification .**
New York : Holt, Rinehart, Winstion, 1969 .



شكل (٨) : علاقة التخلص من الادمان بعدد الجلسات التكميلية للعلاج بالاشتراط المضاد .

(Voegtlin, etal., 1942)

الخمور لفترة طويلة تراوحت بين عام الى عشرة أعوام . وقد خرج الباحثان من هذه الدراسة الى أن نسبة من خبروا شفاء تاما من مرض إدمان الخمور قد بلغت ٥١٪ من هؤلاء المرضى (٥٤) .

وتفترض البيانات المستمدة من هذه الدراسات أن الفاعلية بعيدة المدى للعلاج بالنفور الشرطي تتوقف على اعتبارات كثيرة ، مثل البدائل التي تتاح للمريض بعد التخلص من مرض الادمان وكذلك مثابرته على العلاج . وتوضح الدراسة « فويجتلين » وآخرون أن ما يلقاه المريض بالادمان من « تدعيم » لسلوكه الجديد الذي به يتخلص من عادة الادمان ، يكمن وراء الخلاص التام من هذا المرض . يبين الشكل رقم (٨) أن المرضى الذين حصلوا على جلسات علاجية تكميلية تزيد على أربع مرات ـ أي بهدف تدعيم السلوك السليم قد تخلصوا تماما بنسبة ١٠٠٪ من هذا المرض . ويعني ذلك أن مشاركة المريض عن إرادة في العملية العلاجية ودافعيته القوية على التغير تزيد من معدل نجاح العلاج بالاشتراط المضاد (٥٥) .

ومما هو جدير بالذكر أنه اذا كان علماء النفس لا يميلون في الغالب الى استخدام علاجات تسبب ألما للشخص المضطرب نفسيا ، فان العلاج بالاشتراط المضاد يستخدم في الغالب بعد أن يثبت فشل الطرق الأخرى ، مثل العلاج باستخدام طريقة المقابلة . كذلك ، فان العلاج بالنفور الشرطي لا يفرض على المريض : فهو بارادته يقبل عليه ويتقبله عن معرفة كاملة ، عدا تلك الحالات التي تقرر علاجها سلطات رسمية وفقا لهذه الطريقة . فما يبديه المريض من تحمس للعلاج وتعاون في العملية العلاجية يحدد فعالية هذه الطريقة . وقد يحدث في بداية العلاج أن يتراجع المريض عن اقباله على العلاج ويرتد الى ممارسة سلوكه المنحرف . واذا كان ايداعه باستمرار في مصحة نفسية أو عزله عن التعرض لمثيرات مشكلته يعتبر اجراء غير عملي ، فانه ينبغي أن يتعلم أن يعرض نفسه لمثيرات باعثة على النفور ، كأن يحمل في طيات ملابسه جهازا صغيرا يعمل ببطارية ليجعله يحدث له صدمة كهربية ، أو كأن يستدعي في عقله أفكارا وصورا باعثة على النفور ، وذلك حينما يخبر نزعة الى الاتيان بالسلوك المرضي . ويعني ذلك ان طريقة التشريط المضاد تزود المريض كذلك بنوع من الضبط الذاتي وممارسة المسئولية في علاجه .

تغيير نواتج السلوك :

يحاول الكثير من علماء النفس ، استرشادا بآراء سكينر في التعلم ، تعديل الأنماط السلوكية السيئة

---

(٥٤) F. Lemere W.L. Voegtlin : An evaluation of the aversion treatment of alcoholism. **Quarterly Journal of studies on Alcohol**, 1950,11, 199 - 204 .

(٥٥) W.L. Voegtlin, etal : Conditioned reflex therapy of chronic alcoholism. Iv. A preliminary report on the value of reinforcenent. **Quarterly Journal of studies on Alcohol**, 1942,2, 505 - 511.

التكيف بواسطة تغيير النتائج التي يؤدي اليها مثل هذا السلوك . وهم في ذلك يحاولون سحب التدعيم من السلوك السيء التوافق ، وتوجيه الانتباه والاهتمام والاستحسان أو غير ذلك من أشكال التدعيم تلازما مع حدوث السلوك الأكثر توافقا وملاءمة .

وتتضمن دراسات « آلين » (١٩٦٤) [٥٦] ، وخاصة « هاوكنز » (١٩٦٦) [٥٧] تفصيلا للاجراءات التي تستخدم في تعديل السلوك على أساس العمل على تغير نواتجه .

يصف « آلين وآخرون » في دراسة لهم ، الخطوات الأساسية التي اتبعت في مساعدة طفلة في رياض الأطفال : كانت هذه الطفلة ، وعمرها أربع سنوات ، على قدر عال من الذكاء ، ولكنها كانت تنزع بشكل متزايد الى عزل نفسها عن الأطفال في مدرسة رياض الأطفال . وفي نفس الوقت استطاعت هذه الطفلة أن تستخدم طرقا تحصل بها على اهتمام الكبار من حولها ، كالمدرسات اللاتي وجدن فيها مهارات عقلية وجسمية تجذبهن اليها بشكل زائد . ولكن استحواذها على اهتمام الكبار أدى الى زيادة تباعد الأطفال عنها وبالتالي زيادة انعزالها . وهكذا ، تورطت هذه الطفلة في دائرة مفرغة ، يستلزم الخروج منها تنظيم خطة علاجية لها . تقوم الخطة على أساس ألا تعود هذه الطفلة تتلقى اهتماما من الكبار بشأن سلوكها الانسحابي عن زملائها ومحاولتها الاستحواذ وحدها على التفاعل مع الكبار . وفي نفس الوقت لا يعطيها الكبار اهتماما إلا في حالة مشاركتها زملائها اللعب والنشاط . فاهتمام الكبار أصبح مقرونا فقط بلعبها مع زملائها .

بدأ تنفيذ الخطة العلاجية بعد فترة خمسة أيام جمع فيها الباحثون بيانات عن سلوك الطفلة كخط قاعدي (*) لما سيطرأ على هذا السلوك من تغير كنتيجة للعلاج . والآن وفقا للخطة ، حينما تبدي الطفلة تفاعلا مع الاطفال ، يعطيها الكبار انتباها على الفور ، ويثيبون مشاركتها في نشاط اللعب مع المجموعة . بل ان ما قد تبديه الطفلة من اقدام على اللعب الاجتماعي ، كأن تقف أو تلعب بالقرب من طفل آخر ، فان المعلمة توجه انتباها اليها لتشجيعها على المزيد من التفاعل مع الأطفال . أما حينما تبدأ الطفلة في التخلي عن الجماعة أو في محاولة الاستحواذ على انتباه الكبار ، فان المعلمات تتوقفن عن توجيه الانتباه اليها .

---

(٥٦) K.E. Allen, etal : Effects of social reinforcement on isolate behavior of a nursery school child. **Child Development,** 1964,35, 511 - 518.

(٥٧) R.P. Hawkins, etal : Behavior therapy in the home : Amelioration of problem parent - child relations with the parent in a therapeutic role. **Journal of Experiment child Psychology,** 1966,4,99 - 107.

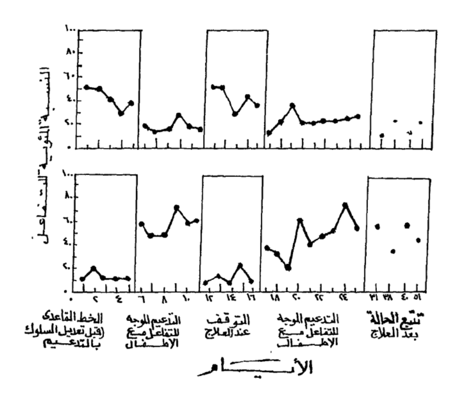
(*) - Base - line data .

يلخص الشكل رقم (٩) تأثير التغير في نتائج السلوك على الطفلة بالنسبة لتعديل سلوكها الانعزالي عن زملائها . ويلاحظ من هذا الشكل أنه في فترة الخط التقاعدي قبل استخدام طريقة التدعيم للسلوك المرغوب وهو السلوك الاجتماعي ، كانت الطفلة تقضي ١٠٪ فقط من وقتها في المدرسة في التفاعل مع الأطفال الآخرين ، بينما تقضي من هذا الوقت ٤٠٪ مع الكبار ، ٥٠٪ في عزلة مع نفسها . وأخذ السلوك يتغير بسرعة نتيجة للاجراءات العلاجية التي تقوم على التدعيم وفقا لقاعدة التلازم في الوقوع والتلازم في التخلف : تلازم وقوع الانتباه من جانب الكبار مع السلوك الاجتماعي المنشود تكوينه عند الطفلة ، وتلازم سحب الانتباه مع ما قد تبديه الطفلة من سلوك انعزالي عن الأطفال أو نزعة الى الاستحواذ على انتباه الكبار . لذلك يلاحظ من الشكل أن الطفلة قد قضت ٦٠٪ من وقتها مع الأطفال في اليوم الأول للعلاج بعد فترة الخمسة أيام القاعدية . ولقياس تأثير التدعيم على نحو أكثر دقة ، جرى « إبطال » هذه الاجراءات العلاجية في الفترة من اليوم الثاني عشر الى اليوم السادس عشر ، حيث صار الكبار مرة واحدة يثيبون الطفلة باهتمامهم بتفاعلها معهم ولم يعودوا يهتمون بتفاعلها مع الأطفال .

(التوقف عن العلاج)

وتحت شروط إبطال الاجراءات العلاجية هذه ، ظهر السلوك السابق للطفلة على الفور . ولكن بعد العودة مرة اخرى الى الاجراءات العلاجية في اليوم السابع عشر ، زاد معدل تفاعلها الاجتماعي مع الأطفال بنسبة ٦٠٪ . ويوضح تتبع سلوك الطفلة بعد انتهاء خطة العلاج أن زيادة السلوك الاجتماعي للطفلة ، كما يتضح في مشاركتها للأطفال الآخرين في نشاط اللعب ، قد ظل ثابتا .

أما دراسة « هاوكنز وآخرون » (١٩٦٦) ، فتتناول حالة طفل صغير أحضرته أمه الى عيادة نفسية بشكوى أنه « زائد النشاط » و « غير منضبط في سلوكه » . ولما كانت المشكلة تتضمن علاقات الطفل بأمه ، فقد جرى تقييم سلوكه وعلاجه في منزله ، حيث استخدمت أمه كمعالج تحت توجيه واشراف من المعالجين النفسيين . وكانت المهمة الاولى هي تحديد أنماط السلوك المشكل عند هذا الطفل كما تلاحظ في المنزل ، وهي : عض ذراعه وقضم قميصه ، واخراج لسانه للآخرين ، ضرب أو ركل نفسه أو الآخرين أو الأشياء المحيطة به ، استخدام كلمات بذيئة ، القاء ملابسه أو التهديد بذلك . وبعد أن قامت الأم بهذه المهمة ، تعلمت أن تستجيب لهذه المظاهر السلوكيه على أساس خطوات محددة . تتضمن هذه الخطوات تعريف الطفل بأن سلوكه قد أصبح سيئا ، واذا أخفق التحذير اللفظي تعزله لفترة قصيرة في حجرة ويحرم فيها من الألعاب أو غير ذلك مما يجذب انتباهه . ويكون الافراج عن الطفل من الحجرة (وتعاد اليه الألعاب ، وكذلك الاهتمام به) متفقا مع انتهاء نوبة غضبه وإبدائه لسلوك أقل تدميرا وأكثر نضجا . وكانت هذه الاجراءات عكس ما كانت تلجأ اليه الأم عن غير وعي



(٩) : النسب المئوية للوقت الذي استغرقته الطفلة في التفاعل الاجتماعي خلال جلسات علاجية لمدة ساعتين في صباح كل يوم من الفترة العلاجية .

(Allen, etal., 1964)

من قبل ، حينما تصير قلقة ومهتمة بابنها بشكل متزايد كلما يصير شرسا . ويوضح تتبع هذه الحالة أن هذه الطريقة العلاجية كانت فعالة في خفض ثورات الغضب عند هذا الطفل وفي مساعدته على تطور نموه .

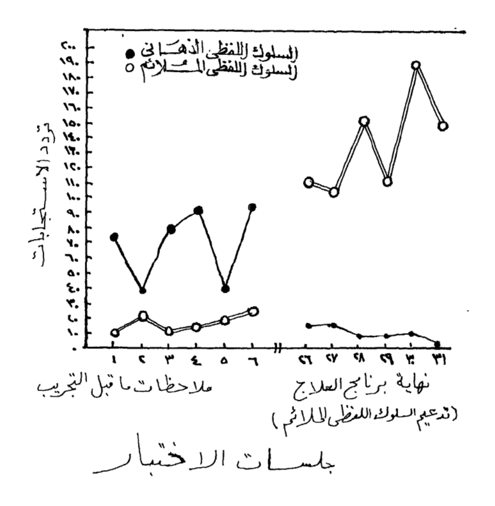
وفي حالة أخرى لطفلة تبلغ من العمر ثلاث أعوام ، أبدت سلوكا « نكوصيا » وارتدت الى الزحف بدلا من المشي . ومن الطبيعي أن يترتب على نكوصها مشكلات تقف حجرة عثرة في سبيل نموها . ويكشف تحليل سلوكها على أن أفعالها المرتدة كانت تلقى تدعيما عن غير وعي من الوالدين لأنهما كانا يعطيان للطفلة انتباها لما تأتي به من سلوك . ولذلك قام العلاج على جعل تدعيم السلوك (توجيه انتباه الوالدين) متفقا مع الأنماط السلوكية الأكثر نضجا وملاءمة كالقفز والجري والمشي ، بينما لا تثاب الأفعال غير الناضجة كالزحف أو غيرها (٥٨) .

وقد حاول « لوڤاس » بهذه الطريقة تعديل السلوك الكلامي عند أطفال ذهانيين (٥٩) . كان هؤلاء الاطفال يأتون بتوليفات شاذة تضم مجموعة من الكلمات الغريبة . كما كانوا يرددون صدى الكلمات التي يسمعونها . قام « لوڤاس » في الجلسات العلاجية بتدعيم السلوك اللفظي السليم الذي يبديه الاطفال (مع استخدام الاستحسان اللفظي والحلوى لذلك الغرض) وتجاهل التحدث بطريقة مرضية . وفي كل جلسة كان يسجل كلام الطفل ويقيم ككلام « ذهاني » حينما يكون كلاما غريبا أو بلا معنى ، أو كلام « ملائم » حينما يكون منسقا وينطوي على معاني مترابطة . ويوضح الشكل رقم (١٠) مدى تردد هذين النمطين من السلوك اللفظي (الذهاني والملائم) عند طفل فصامي وذلك في مواضع مختارة من الجلسات العلاجية : الجلسات الست الأخيرة من سلسلة اكتساب (تعلم) السلوك الكلامي الملائم حيث كان التدعيم متطابقا مع السلوك اللفظي الذهاني قد انخفض الى أقصى حد مع نهاية برنامج العلاج ليحل محله السلوك اللفظي الملائم فينمو الى أقصى حد مع نهاية العلاج .

وفي تجربة أخرى ، استخدم « لوڤاس » طريقة تعتمد على الجمع بين اجراءات تعديل الكلام وفقا لنماذج صوتية سليمة ، وإجراءات التدعيم ، وذلك لتعديل اضطرابات الكلام والسلوك الاجتماعي عند اطفال يعانون من اضطرابات نفسية شديدة الى درجة العجز عن الكلام . في البداية قام المعالج بنفسه بعمل نماذج صوتية سليمة أمام الأطفال ، وكان يثيب الطفل فقط حينما يتلفظ هذه الأصوات

(٥٨) F.R. Harrid, etal : Effects of positive social reinforcement on regressed crawling of a nursery school child. **Journal of Educational Psychology**, 1964,55,35 - 14.

(٥٩) O.I. Lovaas, etal.: Experimental Studies in childhood schizophrenia : I. Analysis of self - deftructive behavion. **Journal of Experimental child psychology**, 1965,2,67 - 84.



شكل (١٠) : تأثير تدعيم الاستجابات اللفظية الملائمة على تردد السلوك اللفظي الملائم والذهاني لدى أحد الأطفال .
(Lovas, 1967)

خلال فترة زمنية محددة . وكلما ازدادت كفاءة الطفل انتقل به المعالج الى الخطوة التالية لكي يتلفظ وحدات لفظية أكثر تعقيدا ، وهكذا يتقدم الطفل بالتدريج من التـدرب على أصـوات الى كلمات وعبارات . وكانت الاثابة (التدعيم) تصدر من المعالج مقترنة فقط بالتلفظات الدقيقة التي يـأتيها الطفل بمهارة أكبر . وقد ساعدت هذه الاجراءات العلاجية الأطفال على تعلم معان أكثر تعقيدا وكلام أكثر تركيبا (٦٠) .

والواقع أن أشخاصا كثيرين يعانون من سوء التكييف أساسا لانهم لم يتعلموا كيف يأتون بالأنماط السلوكية اللازمة لمواجهة المتطلبات الاجتماعية أو المهنية بفاعلية . فهم لا يستطيعون أن يسلكوا على نحو ملائم لأنه تنقصهم المهارات التي يستلزمها التفاعل الوظيفي الناجح مع الأدوار الاجتماعية والمهنية وغيرها . هذا النقص في الكفاءة السلوكية اذا اتسع مداه ليمتد الى مـواقف كثيرة ، قـد يؤدي الى مشكلات أخرى كثيرة كالاضطرابات الانفعالية ، وكأنماط السلوك الاحجامي لكي يهرب الفرد من العواقب غير السارة للفشل والعجز . ولعلاج مثل هذه الحالات أفاد علماء النفس من مبادىء التدعيم في تصميم برامج تعلم خـاصة لتعليم هؤلاء الاشخـاص عددا من استـراتيجيات حـل المشكلات والمهـارات المعرفيـة (٦١) . . وذلك لأغـراض تحسين التعلم في مـواقف الفصل المـدرسي (٦٢) . . ولأغراض المساعدة في تأهيل الأطفال الذهانيين (٦٣) .

الجماعات العلاجية :

من الاستخدامات الفعالة للنظريات السلوكية لأغراض العلاج تلك الجهود الـرامية الى تعـديل المشكلات السلوكية لمجموعات من الأشخاص ، وذلك بواسطة تغيير التدعيم الذين يحصلون عليه في

(٦٠) O.I. Lovass : A behavior therapy approach to the treatment of childhood schizophrenia. In J.P. Hill (ed), **Minnesota symposia on child psychology.** Vol.L.Minneapolis : University of Minnesota press, 1967,pp.108.159.

C.L. Lovass, etal : Acquisition of imitative speech by schizophrenic children. **Science,** 1966,151,705 - 707.

(٦١) S.W. Bijou R.Orlando : Rapid development of multiple Schedule performances with retarded children. **Journal of Experimental Analysis of Behavior,** 1961,4,7 - 16.

S.W.Bijou : Experimental studies of child behavior, normal and deviant. In L.Krasner L.P. Uilmann (Eds.), **Research in behavior modification.** New York : HOLT, Rinehart Winston, 1965 pp.56 - 81.

(٦٢) J.S.Birnbrauer, etal. : Programmed instruction in the classroom. In L.Ullman and L.Krasner (Eds) **Case studies in behavior modification. New York : Holt,Rinehart, Winston,1965.**

(٦٣) C.B. Ferster M.K. DE.Myer : The development of performances inautistic children in an automatically controlled environment. **Journal of chronic Diseases,** 1961,13,312 - 345.

بيئتهم . . وقد استخدمت هذه الطريقة في دراسات كثيرة خاصة مع مرضى كبار يعانون من فصام حاد مودعين بمصحات عقلية (٦٤)

ان الكثير من المرضى الذين عولجوا في هذه الدراسات قد دخلوا المصحات العقلية طلبا للعلاج بسبب عدم كفاءتهم السلوكية في المحل الأول . وبالاضافة الى ذلك ، عادة ما أصبحت عدم كفاءتهم ومشكلات الاعتماد على الغير أسوأ كثيرا كنتيجة لنظام الرعاية النفسية التي يعيشونها بالمستشفى . فهذا النظام يميل الى إخضاع المريض الى قواعد وتعليمات المستشفى ، والى عدم تشجيع الفردية وتشجيع سلوك الاعتماد على الآخرين وذلك باستبعاد أية فرصة للعزلة الفردية ، وبالنظام اليومي الثابت بالنسبة للطعام والتطبيب والنظام ، وبتدعيم المسايرة السلبية وسهولة الانقياد والطاعة (عن طريق المدح وتقديم المزايا) . وبعد فترة الايداع بالمستشفى لسنوات كثيرة تحت هذا النظام ، يميل المريض الى أن يصبح أكثر إعاقة في مهاراته الاجتماعية والمهنية ، وأكثر اعتمادا على المستشفى . ومع مرور الوقت يفقد المريض اتصالاته مع أسرته وأقاربه وزملائه كما يفقد خبراته ومهاراته التي اكتسبها في « العالم الخارجي » ، وتصبح توقعاته وأمانيه في أن يحقق لنفسه حياة طبيعية خارج مأوى المستشفى شبه مستحيلة . يصف « آيلون وآذرين » هذه الحالة على النحو التالي (٦٥) :

« ان الغالبية العظمى من المرضى لا تزال بدون علاج . وتوضح الاحصاءات الحديثة أن متوسط أعمار مرضى المستشفيات العقلية الحكومية هو ٦٥ عاما على وجه التقريب . ويعني هذا أن نصف كل المرضى في المستشفيات العقلية الحكومية هم في تلك المرحلة المتقدمة من العمر التي تتضاءل فيها فرص العمل والروابط الأسرية . وحتى اذا لم تكن هناك أخطاء تحيط بحياتهم ، إلا أنه من الصعب اطلاقهم

(٦٤) T.Ayllon : Some behavioral problems associated with eating in chronic schizophrenic patients, In L.P. Ulimann L.krasner (Eds.) **Case studies in behavior modification.** NEW York : Holt, Rinehart and Winston, 1965.pp.76 - 77,

T.Ayllon, & N.H.AZRIN : The measurement and reinforcement of behavior of psychotics. **Journal of the Experimental Analysis of Behavior,** 1965,8,357 - 383.

T.Ayllon & E. Haughton : Control of the behavior of schizophrenic patients by food. **Journal of the Experimenta Analysis of behavior,** 1962,5,343 - 352.

G.W. Fairweather : **SOCIAL psychology in treating mental illness : An Experimental approach.** New York : Willy,1964.

J.M. Atthowe & L.Krasner : A preliminary report on the application of contingent reinforcement procedures (Token economy) on a " Chronic " psychiatric Ward. **Journal of Abnormal psychology,** 1968,73,37 - 43.

(٦٥) T.Ayllon & N.H. Azrin : **The token economy.** New York : Appleton - Century - Rrofts, 1968, P.3.

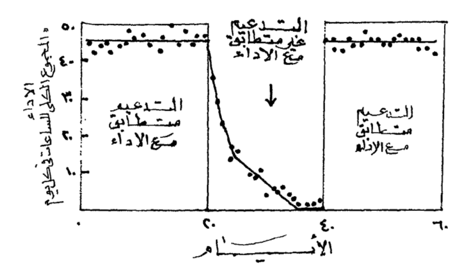
في العالم الخارجي ، طالما أنه لا يوجد لهم مكان في هذا العالم . وبقدر ما يظل هؤلاء المرضى بالمستشفى ، بقدر ما يزداد نمو مشكلاتهم السلوكية . فالايداع بالمستشفيات يصف حالة من البلادة ونقص الدافعية يكتسبها المريض من بقائه بالمستشفى . فعادة ما يكون اهتمام جماعة المستشفى منصبا على توفير المتطلبات البيولوجية اللازمة للحياة ، وربما أيضا بعض فرص الترويح ، ولكن العبارة الكلية هي عبارة عن اعتماد طفيلي لا يحتاج معه المريض الى أن يكون نشطا لكي يحصل على معظم ، ان لم يكن كل ، الأنشطة أو المزايا التي ربما لا تزال ذات أهمية بالنسبة له » .

ولكي نساعد المرضى على التغلب على هذا الموقف الصعب ، ثمة برامج جديدة يمكن اتباعها مع هؤلاء المرضى لزيادة سلوكهم الاستقلالي ولمساعدتهم على تحقيق رعاية للنفس أكثر ملاءمة وذلك عن طريق خلق بيئة أكثر استثارة لدافعيتهم بشكل ملائم . ويستخدم لذلك مبادىء التدعيم الذي يأتي متطابقا مع ما ينمو عندهم من سلوك استقلالي : في البداية يقترن التدعيم بالوظائف الأبسط كالاعتماد على أنفسهم في تناول الطعام والنظافة والنظام ، ثم تدريجيا يقترن بالوظائف الأكثر تعقيدا كالعمل والعلاقات الاجتماعية .

قام « أيلون وآذرين » (١٩٦٥) بتجربة تلقي فيها مرضى ذهانيون أقاموا لفترة طويلة باحدى أجنحة المستشفى للأمراض العقلية ، عملة رمزية مشابهة للنقود حينما يشتركون في الأنشطة العلاجية . فالمرضى يتسلمون هذه العملة الرمزية نظير اشتراكهم في مهام ووظائف كالعناية بأنفسهم والعمل الانتاجي والأعمال التأهيلية سواء داخل الجناح أو خارجه . هذه العملة يستطيعون استبدالها بما يرغبونه من مجموعة كبيرة من الأشياء المتنوعة . ولقد وجد أن المرضى قد عملوا بنجاح في أعمالهم التأهيلية عندما كان الحصول على العملة متوقف على « أداء » هذه الأعمال . واذا جاء تلقي العملة غير متطابق وغير مقترن مع السلوك التكيفي ، فان المرضى سرعان ما يعودوا الى سلوكهم الذهاني الذي اعتادوا عليه أكثر في المستشفى . ويوضح الشكل رقم (١١) اعتماد السلوك التكيفي على التدعيم المطابق (*) . فحينما يأتي هذا الأداء يرتفع الى أقصى حد ، بينما ينخفض مستوى هذا الأداء الى الحد الأدنى حينما لا يقع التدعيم متطابقا مع الأداء .

ومن البرامج الفعالة في تعديل السلوك تلك التي تقوم على تقليل دور الاخصائي المعالج كضابط لسلوك المريض ، ومحاولة نقل المسئولية ـ بدلا من ذلك ـ الى المريض والى جماعة من المرضى بأسرع ما يمكن . ومن الأمثلة البارزة في ذلك تجارب « فيرويزر » على تصميم جماعة علاجية لتأهيل مرضى

Contingent reinforcment



شكل (١١) : المجموع الكلي لعدد ساعات الأداء التأهيلي لدى جماعة علاجية تتألف من ٤٤ مريضا باحدى المصحات العقلية .

(Ayllon and Agrin, 1965)

بالذهان المزمن مكثوا بالمستشفى لعدة سنوات (٦٦) : يحاول برنامج « فيرويزر » تحريك المرضى الفصاميين المزمنين خارج المستشفى . فهؤلاء المرضى الذين ظلوا لأكثر من عامين بالمستشفى قد أصبحوا « أشخاصا هامشيين » ، واذا ما تم خروجهم من المستشفى فانهم سرعان ما يعودون اليها في غضون أشهر قليلة . لذا يحاول البرنامج تكوين أنظمة اجتماعية صغيرة يمكن أن تنشط وتعمل في جماعة المستشفى ويكون مكانها في جناح خاص ، مع تزويد المرضى بقدر كبير من الاستقلالية . هذه الجماعة العلاجية يعمل أعضاؤها مع بعضهم على أساس المشاركة وتبادل الوظائف والمهام ، وهي تتخذ قراراتها على نحو متدرج من الأبسط والأسهل الى الأعقد والأصعب . وتكون الجماعة ككل مسئولة عن سلوك كل اعضائها . وتتقدم الجماعة في البرنامج من خلال سلسلة من الخطوات المتدرجة بعناية : كل خطوة جديدة تكتسب مسئوليات جديدة ولكنها أيضا توفر للجماعة مزايا أكثر . ويأتي التدعيم (الانتقال الى الخطوة التالية) مطابقا دائما للنجاح في الخطوة السابقة .

وتنتقل الجماعة من المستشفى الى مكان خاص بها ، وبعد شهر تبدأ في العمل كتنظيم مستقل ومكتف ذاتيا . فعلى سبيل المثال ، تقوم الجماعة بتنظيم قسم الأعمال التجارية وقسم لخدمات العاملين به يعني بسجلاتهم وترتيب مواصلاتهم ، والعناية بشئون حياتهم وغذائهم وصحتهم وغير ذلك . ويأخذ الاخصائيون وغيرهم من الأشخاص المعينين لرعايتهم في التخلي عن مواقعهم ليحل محلهم بالتدريج بعض المرضى ليقوموا بأدوارهم مثل التمريض وتنظيم الأعمال التأهيلية أو الانتاجية . وفي خلال ثلاث سنوات تختفي تدريجيا كل مساعدة من الخارج ، لتصبح الجماعة بأعضائها مستقلة ومكتفية ذاتيا وتلتزم بالمسئولية الكاملة في اتخاذ القرارات والأعمال .

ولا يعني ذلك أن مثل هذه البرامج قد أدت الى علاج تام لهؤلاء المرضى المزمنين في مرضهم العقلي . ولكن ، المقارنة بين المرضى الذين خضعوا لتعديل للسلوك وفقا لهذه البرامج (المجموعات التجريبية) والمرضى الآخرين الذين لم يخضعوا لها (المجموعات الضابطة) تبين أن المرضى في هذه الجماعات العلاجية قد اكتسبوا درجة طيبة من التحسن في سلوكهم واعتمادهم على انفسهم والقدرة على العمل والانتاج ، بالاضافة الى ما أدت اليه هذه البرامج من توفير في التكاليف والجهود والوقت .

تحديد المشكلات العامة في عبارات ومواقف سلوكية :

ان العلاج السلوكي يتناول عادة مشكلات سلوكية محددة وواضحة كالمخاوف المرضية والمشكلات

(٦٦) G.W. Fairweather : 1964.
G.W. Fairweather : **Methods in experimental social In novation**. New York : Wiley, 1967.
G.W. Fairweather, etal. : **Community life for the mentally ill : An alternative to institutional care.** Chicago : Aldine, 1969.

الكلامية والانحرافات الجنسية ونقص الدافعية . ولكن الكثير من المرضى يعاني من مشكلات مركبة معممة ليس من السهل وصفها بدقة . فقد يشكو شخص ، مثلا ، من « أزمة هوية » أو « احساس بالتعاسة » أو « حياتي مفقودة » ، أو ربما يقول « اني أكره شخصيتي » أو « أنا ضائع ـ لا أعرف ماذا أفعل » ، وغير ذلك من أمثلة التعبير عن مشكلات سلوكية عامة غير محددة .

والواقع أن الناس تميل الى تصور نفسها في اطار سمات عامة أكثر مما هو في اطار أوصاف سلوكية وهكذا بينما تكون اهداف العلاج في بعض الحالات واضحة (كما هو الحال في بعض المخاوف المرضية) ، الا أنه في معظم الحالات يكون من غير السهل تحديد ما الذي يتطلب علاجا وما هي الانماط السلوكية التي ينبغي أن تكون أهدافها للعلاج .

ففي هذه الحالات يصف المريض مشكلاته وأهدافه في عبارات غامضة عامة . ولذلك ينبغي أن تكون مهمة الاخصائي الاكلينيكي هي مساعدة المريض على أن يحدد بدقة مايعنيه في عبارات سلوكية . ويمكن أن يحقق ذلك بواسطة التقارير المكتوبة كالسجلات اليومية ، أو المناقشة المباشرة ، أو تكليف الشخص في مواقف منظمة لهذا الغرض خاصة حيث يجري تنويع المثيرات بطريقة متعمدة ومنظمة كما هو الحال في البحوث التجريبية . كذلك تستخدم مواقف اللعب بالأدوار ، حيث يكتشف بعمق معنى الشكوى التي يبديها المريض .

مثال : : اذا كان شخص يصف نفسه على أنه « مكتئب » ، فان الاخصائي الاكلينيكي يستطيع أن يستكشف معه متى يشعر بالاكتئاب ومتى لا يشعر به . ولكي تتعين الأمثلة أو الأدلة أو الأصول السلوكية ، على الاخصائي الاكلينيكي أن يأخذ في البحث عما يحدث حينما يشعر المريض بأنه أكثر أو أقل اكتئابا وعن التغييرات التي تحدث فيه وفي سلوكه حينما يخبر الاكتئاب . فهو يمكن أن يسأل المريض مثلا : « كيف تعرف حينما تكون مكتئبا ؟ فالغرض من مثل هذه الاسئلة الاستقصائية هو الحصول على أمثلة سلوكية للخبرات الذاتية ، وليس التحقق من صدق أو زيف ما يبديه المريض ظاهريا .ـ الهدف هنا اذن هو اكتشاف الأنماط السلوكية التي تكون مشكلة بالنسبة له وكذلك الشروط التي تحكم هذه المظاهر السلوكية .

●●●

تعديل تغير السلوك وتغير الشخصية

اذا كان لطرق تعديل السلوك التي اعتمدت على مفاهيم نظريات التعلم ، متضمنات بالنسبة للتغيير في الشخصية ، الا ان العلاج السلوكي كمدخل لتغيير الشخصية كان موضع نقد بحق وبغير حق .

فلقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن بعض الطرق العلاجية ، التي هي في أحسن الاحوال مرتبطة ارتباطا واهيا بنظرية التعلم وتأخذ بها من حيث الشكل ومع ذلك فهي تزعم بأنها مشتقة منها ، وأن الممارسة العملية للعلاج السلوكي قد تتضمن عوامل كثيرة غير مضبوطة وغير مقررة في تقارير بحوثها ، وأن نظرية التعلم ذاتها قد تكون في الغالب غير ملائمة لتناول الظاهرات المعقدة في الحياة(٦٧) .

وقد يوجه النقد الى العلاج السلوكي من حيث أن تاريخ الجهود العلاجية الرامية الى تغيير الشخصية مليء ببدايات مزعومة وبحركات يفوق ادعاؤ ها وحماسها الرامية الى تغير الشخصية مليء ببدايات مزعومة وبحركات يفوق ادعاؤ ها وحماسها كثيرا نتائجها النهائية . بل أن المناصرين المتحمسين للعلاج السلوكي قد بدأوا الآن يعترفون بأن تبنيهم لطرق تعديل السلوك مشوب بالخطر :

« فثمة مخاطر ينطوي عليها التطور السريع للعلاجات السلوكية : فقد ينمو في ذلك اتجاه تقليدي مبتسر ، وقد تعتذر ترجمة المزاعم بوجود أصول علمية الى تأييد وتجديد علميين ، وقد يتكون جيل جديد من الممارسين ، يؤدي نقص وعيهم بالمشكلات النظرية والتجريبية الأساسية غير المحلولة الى اطالة أمد طرق غير فعالة ؛ وقد تكون اجراءات الوقاية من جانب المجتمع في استخدام طرق الضبط السلوكي الاكلينيكي غير كافية في حماية الفرد أو في التجريب الاجتماعي غير الناضج الذي قد يترتب عليه تأثيرات سلبية غير منظورة . ومع ذلك فان المزايا الكامنة في استخدام العلاج السلوكي ، والتي تعرضت لتقييم نقدي كاف ولبحوث بناءة ، تنطوي على الأقل على اسهامات علمية عظيمة » . (٦٨) .

ولكن ، هل معنى ذلك أن التوجه السلوكي في العلاج النفسي سوف يتحول الى وعد كاذب آخر ؟ فما يحققه العلاج السلوكي من تقدم أو ما قد يتعثر فيه من معوقات رهن بالعلم الذي يكمن وراءه ـ وهو علم السلوك الاجتماعي ـ وما يتحقق لهذا العلم من تقدم .

فالنقد الموجه للعلاج السلوكي كاستراتيجية لتغيير الشخصية يعترف بأن طرق تعديل السلوك قد تؤدى الى تغييرات في أنماط سلوكية معينة عند الفرد ، ولكنه يتشكك في اصالة وعمق ذلك التعديل السلوكي . هذا النقد الموجه للعلاج السلوكي يركز تشككه على عدة نقاط نناقشها فيما يلي :

انتقال أثر تعلم السلوك المعدل : هل يكون هناك انتقال « أو تعميم » للآثار الايجابية التي تتحقق في

---

(٦٧) Breger & J. L. Mc Graugh : Critique and reformulation of " Learning theory " approaches to psychotherapy and neurosis. **Psychological Bulletin,** 1965, 63, 338 — 358.

(٦٨) J. S. Phillips & F. H. Kanfer : The validity and vicissitudes of behavior therapy. **International psychiatry clinics,** 1969, 6, 75 — 131.

العلاج السلوكي على مواقف الحياة التي يعيشها الفرد بالفعل ؟ هل الشخص الوجل الذي تمرس على سلوك أكثر حزما وثقة داخل حجرة المعالج الآمنة يصبح بالفعل أكثر تمكنا في عمله ؟ هل سيصبح أكثر ثقة مع رئيسه الذي يهدده ؟ هل الشخص الذي يفكر بهدوء في استجاباته للاختبارات يصبح هادئا أيضا حينما يجتاز اختبارات في الواقع ؟

ان طرق تعديل السلوك تعمد الى التعميم الى درجة أن شروط المثير المتضمنة في العلاج تكون مشابهة لتلك الشروط المتضمنة في مواقف الحياة التي سوف تستخدم فيها الأنماط السلوكية الجديدة . لذلك يحاول المعالجون السلوكيون أن يدخلوا في المواقف العلاجية مواقف أقرب تماما الى مواقف الحياة التي تستلزم تغيرا في السلوك . فمثلا ، اذا كان شخص قادرا على أن يجتاز الامتحانات بفاعلية ولكنه يقلل من قدر تحصيله ، فان العلاج الملائم ينبغي أن يساعده على اعادة تقييم أداءه بدلا من أن يغير مهاراته في اجتياز امتحاناته . ويعني ذلك أن العلاج ينبغي أن يوجه بقدر الامكان الى الأنماط أو الأهداف السلوكية المنشودة .

يؤكد العلاج السلوكي ، مثل نظريات السلوك الاجتماعي التي توجهه ، أن سلوك الشخص يميل الى أن يكون سلوكا نوعيا محددا بشروط معينة في المثير . لذلك تحاول طرق تعديل السلوك الوصول الى تطابق تمام بين ما يمارس في العلاج والأهداف السلوكية المنشودة في حياة الشخص .

ان التأكيد على نوعية السلوك يفترض أيضا أن يتضمن العلاج مثيرات ومواقف عديدة تتعلق بهذا السلوك النوعي وتكون هي الهدف من تحسين السلوك . فمثلا ، التحصيل المنظم التدريجي الفعال ضد الخوف من الظلام ينبغي أن يتضمن تعريض الشخص لأماكن مختلفة مظلمة وفي سياقات كثيرة ؛ والتدريب على الكلام الملائم عند أطفال فصاميين ينبغي أن يتضمن جوانب كثيرة للغة في سياقات كلامية كثيرة .

ولتيسير التعميم يعتقد كثير من المعالجين أنه من الافضل أن يجري العلاج في مواقف الحياة الواقعية وليس في مواقف مصطنعة كالمعمل أو العيادة . لذلك يسعون الى نقل خدماتهم العلاجية الى المجتمع بدلا من انتظار الناس حتى يحضرون الى العيادات أو المستشفيات أو يحضرونهم اليها . فكما أن برامج التعلم الأكاديمي للتلاميذ تجري في المدارس ، على سبيل المثال ، كذلك فان الكثير من برامج التعلم الاجتماعي للتلاميذ الذين يواجهون مشكلات في علاقاتهم مع الآخرين ينبغي أن تتم في اطار نظام المدرسة ذاته . كذلك اذا كانت المشكلة هي علاقة الطفل بوالديه ، فانه من الأفضل أن يكون هناك مساعدون يقدمون العون في تعديل المشكلات في مجالها الطبيعي ـ وهو المنزل ـ بدلا من نقل الاسرة الى العيادة . وبالاضافة الى ذلك قد يجري اشراك المعلمين أو الآباء أو الأصدقاء أو غير ذلك من الاشخاص

غير المتخصصين مهنيا ـ للمساعدة في العملية العلاجية كما تجري في المواقع والمجالات الواقعية الحية (٦٩) . وهناك اتجاهالآن يهدف الى أن يشترك في العملية العلاجية أولئك الاشخاص الذين يـدخل المريض معهم في علاقات يومية هامة ، بدلا من الاعتماد على اتصالات متكررة مع العيادة أو المستشفى أو الاخصائيين المعالجين أو المرشدين (٧٠) . كذلك تعتبر المواقف الجماعية أفضل غالبا من علاج الفرد وحده . خاصة اذا كان من أهداف العلاج تحسين علاقاته مع الاشخاص الآخرين . وفي ذلك تبين بعض الأحداث أن الجماعة توفر موقفا فيه يتمكن الـطلبة القلقـون من خفض الكثير من مخـاوفهم الاجتماعية بطريقة تلقائية وطبيعية من خلال التفاعل التأييدي المتبادل مع الآخرين (٧١) .

وعلى هذا النحو ، تستطيع المراكز والمؤسسات الاجتماعية والتجمعات السكنية والأندية والأنظمة المدرسية وغيرها أن توفر فرصا لتقديم برامج تغيير السلوك الى المجتمع . أما النموذج التقليدي ، حيث يتكلم عميل واحد مع معالج واحد في حجرة خاصة لعدة مرات أسبوعيا ، فلا يكفي لتقديم المساعدات العلاجية الفعالة .

والواقع أن الاهتمام ببرامج الصحة النفسية، الاجتماعية وبالصحة الوقائية لا يقتصر على أنصار تعديل السلوك فحسب . فهناك الكثير من علماء النفس ، ممن ينتمون الى خلفيات نظرية مختلفة ، يؤكدون على أن البرامج الفعالة لعلاج المشكلات العـديدة التي تعن للنـاس في المجتمع ينبغي أن تتخطى ما هو أبعد من مجرد « ترميم واندمال » الأفراد المحطمين نفسيا . فكما أن الصحة البيولوجية ، أو البقاء البيولوجي ، يعتمد على الظروف المحيطة بالفرد كذلك فان تكيفه النفسي ، أو بقاءه النفسي يتوقف على ظروف الحياة والعلاقات الاجتماعية في بيئته الشخصية .

الضبط الذاتي : ـ

يجري تصميم برامج العلاج السلوكي على أساس زيادة استقلالية الفرد وتمكنه من نفسه بسرعة حتى

---

(٦٩) G. R. Patterson, J. A. Colb & R. S. Ray : A social engineering technology for retraining aggressive boys. In H. A. Adams & L. Unikel (Eds.), **Georgia Symposium in Experiment clinical Psychology.** Vol. 2. Elmsford, N. Y. Pergamon, 1970.

(٧٠) R. P. Hawkins, et al. : Behavior therapy in the home : Amelioration of problem parent — child relations with the parent in a therapentic role. **Journal of Experimental child psychology,** 1966, 4, 99, — 107.

(٧١) G. L. Paul & D. T. Shannon : Treatment of anxiety through systematic desensitization in therapy groups. **Journal of Abnormal Psychology,** 1966, 71, 124 — 135.

يقل الضبط الخارجي لسلوكه بواسطة النظام العلاجي وينتقل بسرعة بقدر الامكان الى تمكنه من ضبطه لنفسه . فالضبط الخارجي (عن طريق العلاج) ينبغي أن يتحول بسرعة الى ضبط داخلي ذاتي . ويذخر العلاج السلوكي بطرق كثيرة تساعد على تحقيق ذلك الهدف (٧٢) .

فعلى سبيل المثال ، رغم أن التدعيم الخارجي (كالعملة الرمزية أو المدح والاستحسان)قد يكون ضروريا في البداية لمساعدة الطفل المضطرب على أن يتعلم الكلام والقراءة والكتابة ، وانه حالما يبدأ في التمكن من الاشباعات التي يحصل عليها من هذه الأنشطة الجديدة ، فان ذلك يساعده على الاحتفاظ بها وعلى تنميتها ، حتى حينما يأخذ المعالج في سحب مساعدته للمريض بالتدريج . فالانماط السلوكية الأكثر بنائية ، التي يتمرس عليها الشخص في البداية لكي يحصل على « تدعيم خارجي » ينبغي اختيارها على نحو بحيث يكون لها خصائص تدعيمية تجعلها باعثة على الاثابة بالتدريج . والطفل الذي يتعلم العزف على البيانو قد يعتمد كثيرا في البداية على المدح والاهتمام على المدح والاهتمام والتوجيه الوالدي لحفزه على التدريب والممارسة . ولكن ، الى الحد الذي يتم فيه اعداد برنامج تعلمه بفاعلية ، فان تدربه على البيانو سوف يلقي تأييدا بشكل متزايد بواسطة اللذة التي يحصل عليها الطفل ذاته من النشاط (كالأصوات والنغمات التي تعلم أن يأتي بها ، والاحساس بالتمكن الذي بدأ يستخلصه من العزف على البيانو) . واذا كانت خبرة التعلم ناجحة ، فان الطفل يبدأ من داخله في ممارسة ما تعلمه لأنه قد صار يجد لذة يجد في هذه الممارسة ذاتها .

فمن الناحية الذاتية ، يعني هذا التحول انتقالا من الأداء لمجرد ارضاء الآخرين الى الأداء لارضاء ذاته - أي الانتقال من الاتيان بالسلوك من أجل « الاثابة الخارجية » الى السلوك من أجل « الاثابة الداخلية أو الذاتية » . يتضح ذلك أيضا في الانتقال التدريجي من الضبط الخارجي الى الضبط الداخلي لدى المرضى عن طريق اكتساب المهارات الجديدة والصعبة خارج الموقف العلاجي في ظل شروط الحياة اليومية .

ولكي يتحقق تغير دائم نسبيا في السلوك ، فان البرامج العلاجية ينبغي أن تضع في الاعتبارات تلك الخطوات اللازمة من ضبط السلوك الجديد بواسطة عوامل خارجية الى ضبط ذاتي :

« فبعد أن يحدد المعالجون الأنماط الجديدة للسلوك على أساس قيمتها النفعية ، فان المرحلة التالية في البرنامج قد تتطلب تدريبا مباشرا على التدعيم الذاتي **self — reinforcement** ويتحقق هذا بواسطة نقل الوظائف التقييمية والتدعيمية من عوامل وقوى التغيير الى الفرد ذاته . وتكون الاثابة الآن

(٧٢) A. Bandura : **Principles of behavior modification.** New York : Holt, Rinehart, & Winehart, & Winston, 1969.

مشروطة ليس بحدوث السلوك المرغوب فحسب ، بل أيضا بتقييم الفرد لذاته تقييما دقيقا . وبعد أن يتأكد عند الفرد سلوك التقييم الذاتي الدقيق ، فان الوظيفة التدعيمية تنتقل من قوى التدعيم الخارجي ومصادره الى ذات الفرد الذي يكون في مقدوره الآن تقييم سلوكه وتدعيم ذاته وفقا لذلك . وبجانب ذلك تأخذ الاثابات المادية المصطنعة في التضاؤ ل تدريجيا كلما خضع سلوك الشخص بشكل متزايد لضبط السلوك ، وهي نواتج رمزية ومضبوطة ذاتيا . فالهدف الأكبر للتدرج على التدعيم الذاتي هو خلق مستوى من التوظيف لامكانات الشخص يستطيع عنده المشتركون في التدريب أن يضبطوا سلوكهم بأقل قدر ممكن من الضغوط الخارجية والاغراءات أو البواعث المصطنعة » [٧٣]

هذا الانتقال من الضبط الخارجي الى الضبط الداخلي ، ومن التدعيم الخارجي الى التدعيم الذاتي ، يستلزم وقتا طويلا لتحقيقه بنجاح ، بل أنه يظل غالبا غير مكتمل ، وخاصة فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعي االذي يعتمد عى توفر التدعيم البيئي للفرد على سلوكه الجديد وما يلقاه من تغذية مرتدة وسند من الآخرين .

ابدال الأعراض ؟ قد يوجه نقد في بعض الأحيان الى العلاج السلوكي مؤداه أن طرق تعديل السلوك تغفل الأسباب الكامنة وراء السلوك المشكل عند الشخص ، ولذلك فان هذه الطرق تترك « الجذور » بدون تغيير بينما تعدل فقط من سلوكه « السطحي » « أو من الأعراض الخارجية » . يعني هذا النقد أن المعالجين السلوكيين يتجاهلون أساس المشكلة والأسباب الكامنة وراءها .

يؤكد أنصار العلاج السلوكي انهم يهتمون بالأسباب ولكن يبحثون عن الأسباب « القابلة للملاحظة » التي تحكم المشكلة الحالية ، وليس عن المقدمات السابقة البعيدة في تاريخ الفرد ولا عن الآليات النفسية الدينامية التي يفترضها المعالجون والتي تكون غير قابلة للملاحظة . أما أنصار العلاج التقليدي القائم على الاستبصار فيهتمون ، بدلا من ذلك ، بالجذور التاريخية في ماضي الشخص وبدينامياتها النفسية .

والواقع أن الاختلاف بين العلاج التقليدي والعلاج السلوكي لا يعني أن أحدهما يهتم بالأسباب ويبحث عنها وأن الآخر يهملها ولا يبحث فيها : فكلاهما يبحث عن الأسباب ولكنهما لا يتفقان على ماهية تلك الأسباب .

---

(٧٣) Ibid, P. 620

« فكل تحليلات السلوك تبحث عن الأسباب ؛ أما الاختلاف بين تحليل نظريات السلوك الاجتماعي وتحليلات النظريات السيكودينامية فهو فيها اذا كانت الأسباب المسيطرة الحالية أو المقدمات السابقة الموغلة في ماضي تاريخ الفرد هي التي تسبب السلوك المشكل . فالتحليلات السلوكية تبحث عن المتغيرات والشروط الحالية التي تحكم السلوك موضع الاهتمام . أما النظريات التقليدية (السيكودينامية) فتهتم ، بدلا من ذلك بالجذور التاريخية ، وبتطور نمو مصدر العلة **develpmen-taletiology** (٧٤) . فالنظريات التقليدية (السيكودينامية) يتحدد اهتمامها بالسؤال التالي :

« لماذا صار المريض شخصا من نوع معين ؟ : » أما النظريات السلوكية فتطرح السؤال التالي : ـ « ما الذي يجعله الآن يسلك على النحو الذي يفعله وما الذي ينبغي أن يتعدل لتغيير سلوكه » .

والسؤال الآن : هل ما يجري اغفاله في العلاج السلوكي من ديناميات نفسية تفترضها النظريات التقليدية يخلق أبدالا للأعراض ؟ فرغم ما تردد من تحفظات وتخوفات كثيرة بشأن احتمال حدوث ظاهرة ابدال الأعراض ، توضح الدراسات التجريبية بصفة عامة ان برامج تعديل السلوك ـ كما سبق ذكرها ـ تميل الى أن تكون هي أكثر الطرق فعالية متاحة في الوقت الحالي ، وأن الأنماط السلوكية المتغيرة لاستبدال آليات بأنماط مشكلة أخرى (٧٥) . وعلى العكس من ذلك ، حينما تخلص الأشخاص من ردود الأفعال الانفعالية غير الناضجة ومن أنماط السلوك الاحجامي الدفاعي ، صاروا قادرين على أن يقوموا بوظائفهم بطريقة أكثر فعالية في المجالات الأخرى . يقرر « جروسبرج بعد مسحه للدراسات المتعلقة بظاهرة ابدال الأعراض ، أن البيانات والدلائل الوفيرة تتفق على أن العلاج الموجه الى محو السلوك اللاتوافقي يعتبر علاجا ناجحا ، وأن النتائج في ذلك ثابتة . ولكن « لسوء الحظ ، يبدو أن المعالجين

---

(٧٤) W. Mischel : **Personality and assessment.** New York . Wiley, 1968. P. 264

(٧٥) A. E. Bergin : Some implications of Psychotherapy research for Practice **Journal of Abnormal Psychology**, 1966, 71, 235 — 246.

G. C Davison . Systematic desensitization as a counter — conditioning process **Journal of Abnormal Psychology**, 1968, 73, 91 — 99.

H. J Eysenck & S Rachman · **The Causes and Cures of neurosis : An introduction to modern behavior therapy based on learning theory and the Principles of Conditioning.** San Diego . Knapp, 1965.

P J. Lang & A D Lazovik : Experimental desensitization of a phobia. **Journal of abnormal and social psychology**, 1963, 66, 519 — 525.

A A. Lazarus : Group therapy of Phobic disorders by systematic desensitization. **Journal of Abnormal and Social Psychology**, 1961, 63, 504, — 510

G. L. Paul : **Insight vs. desensitization in psychotheraphy.** Stanford : Stanford University, 1966.

S. Pachman : Systematic desensitization. **Psychological Bulletin**, 1967, 67, 93 — 103.

J. Wolpe : **Psychotherapy by reciprocal inhibition.** Stanford . Stanford University Press, 1958.

النفسيين قد ركزوا على المخاطر الافتراضية المتعلقة بعلاج الاعراض فقط ، بينما يتجاهلون المخاطر الحقيقية المتعلقة بالأضرار التي قد تقع من جراء عدم علاجها » (٧٦) .

وبينما لم يعد التخوف من ابدال الأعراض هو النقد الموجه الى تعديل السلوك ، فان كثيرا من القضايا النظرية والعملية لازالت قائمة . فعلى سبيل المثال ، لم يتحدد المعنى الحقيقي لمصطلح « عرض » في المناقشات النظرية الخاصة بابدال العرض ، بحيث أننا صرنا متأكدين من الاجابات التي يمكن أن نقدمها للاسئلة التالية : ما الذي يؤلف العرض البديل ؟ ما مقدار الأسابيع أو الشهور أو السنوات التي قد تنقضي قبل توقع ظهور العرض البديل ؟ واذا تخفى العرض في شكل آخر ، فكيف نميزه عن المشكلة التي تعتبر جديدة كلية ؟ واذا كان شخص قد عولج من الخوف من الثعابين ثم ظهرت عنده بعد ثلاث سنوات ثلاث مشكلات متعلقة بالعمل أو مع زوجته ، فهل ما ظهر عنده هو ابدال للأعراض أم مشكلات جديدة ؟ ويعني ذلك أن فكرة ابدال الأعراض ربما تكون غير قابلة للاختبار والتحقق والتجريبيين ، لأننا لا نستطيع أن نعرف ما هو العرض البديل وما هي المشكلة الجديدة .

ومن ناحية أخرى ، قد ينزع بعض المتحمسين من أنصار تعديل السلوك الى اغفال ما تتصف به مشكلات العميل (المريض) من تعقد والى التبسيط الزائد لصعوباته في شكل أو شكلين منفصلين من المخاوف المريضة ، وذلك عندما تكون عنده في الواقع صعوبات أخرى كثيرة . في تلك الحالة ، ليس بمستغرب أن نجد أنه حتى بعد التخلص من مشكلته الأولية لا يزال الفرد يعاني من مشكلات نفسية أخرى كالشكوك الذاتية والشعور بعدم الاستحقاق ، وغيرها . مثل هذاه الحالات تعني في الواقع أن هذا الشخص قد لقي علاجا غير مكتمل أكثر مما تعني حدوث ظاهرة ابدال الاعراض .

فالعلاج اذا تألف أساسا من مجرد محو السلوك المشكل بدون تقوية لأنماط سلوكية توافقية بديلة ، فمن المحتمل أن يترتب عليه ظهور أنماط اضافية من السلوك المضطرب . فمثلا ، الشخص المدمن الذي اعتاد تعاطي الخمور أو المخدرات لكي يخفض من ضيقه واحباطاته التي يواجهها باستمرار في عمله ، من المحتمل أما أن يلجأ الى الادمان مرة أخرى أو أن يمارس انماطا أخرى من السلوك اللاتوافقي ، إلا اذا تعلم أيضا كيف يواجه ضغوط عمله بطريقة أكثر فعالية .

لذا ، فان العلاج النفسي الفعال هو الذي يحول دون ظهور انماط اضافية وهو علاج فعال اذا قام على

(٧٦) — J. M. Grossberg : Behavior therapy : A review. **Psychological Bulletin.** 1964. 62. 73 — 88 (P. 83)
— Stanley B. Messer and Meir Winokur : Some limits to the integration of Psychoanalytic and behavior therapy. **American Psychologist.** 1980. vol. 35. No. 9. 818 — 827

برنامج علاجي شامل يزود الفرد بأساليب أكثر توافقية للحصول على التدعيم ، واذا كان البرنامج العلاجي يذهب الى ما هو أبعد من مجرد القضاء على مشكلاته الأكثر ظهورا ووضوحا .

والواقع أن العلاج السلوكي لا يخلق بشكل آلي تأثيرات علاجية معممة تمحو كل الاضطرابات التي يعاني الشخص منها . فالنظريات السلوكية تؤكد على نوعية السلوك واعتماده على متغيرات المثير المعين في موقف ما . هذه النوعية تتضح أيضا في التغيرات السلوكية التي يحدثها العلاج . ومع ذلك ، فهناك دلائل تؤيد التعميم الايجابي أكثر مما تؤيد ظاهرة ابدال الاعراض . مثال ذلك : أدى علاج بعض المخاوف المرضية عند الافراد بواسطة تعديل السلوك الى خفض عدد وشدة مخاوف مرضية أخرى عندهم (٧٧) .

تغير مفهوم الذات : غالبا ما يصاحب التحسن الذي تحدثه طرق تعديل السلوك في الاقتدار عند الفرد بتغيرات ملائمة في ردود أفعاله الذاتية . ويعكس مفهوم الذات بصفة عامة الاحساس الفعلي بالاقتدار عند الفرد : فادراك الذات يعكس الى حد كبير المعلومات التي نحصل عليها بشأن ملاءمة سلوكنا وكفايته . ولذا فان الفرد الذي يتعلم أن يسلك بطريقة أكثر اقتدارا وبالتالي يحصل على رضا أكثر عن سلوكه ، من المحتمل أيضا أن ينمو عنده احترام للذات أكبر واتجاهات ايجابية أكثر نحو نفسه . ويترتب على تمكن الفرد من التغلب على مخاوفه وقلقه ، أن يصبح كذلك أكثر ثقة بنفسه . ولكن بينما يكون يذهب ناقدوا طرق تعديل السلوك ان الناس قد تعاني من اضطرابات نفسية ليس لأن سلوكهم غير ملائم ولكن لأنهم يقيمونه بطريقة غير ملائمة . فهناك اشخاص يعانون من مشكلات تتعلق باضطراب مفهوم الذات عندهم أكثر مما تتعلق بأدائهم ذاته .

يعتبر المعالجون السلوكيون أن المشكلات المتعلقة بمفهوم الذات هي مشلات سلوكية كأي اضطرابات اخرى ؛ فالكثير من هذه المشكلات ينطوي على ادراك مضطرب للذات ، وعلى تقييم غير ملائم للذات ، وبالتالي على اتجاهات سلبية نحو الذات . في هذه الحالات يكون مكمن المشكلة أو الاضطراب هو في تقدير الشخص لأداءاته ولخصائصه أكثر مما هو في نوعيتها الحقيقية وفي مستوى اقتداره . هذه المشكلات المتعلقة بمفهوم الذات ينبغي أن تخضع ، من وجهة نظر العلاج السلوكي ، الى طرق التعديل السلوكي بواسطة نفس مبادىء التعلم في تغيير أي نمط سلوكي آخر .

---

(٧٧) — A. Bandura. E. B. Blanchard & B. Ritter : Relative efficacy of desensitization and modeling approaches for inducing behavioral. effective. and attitudinal changes. **Journal of personality and Social Psychology**, 1969. 13. 173 — 199.

—— Joseph Wolpe : Behavior therapy versus Psychoanalysis : Therapeutic and social implications. **American Psychologist**, 1981. vol. 36. No. 2. 159 — 164.

تغير السلوك كشرط لتغير الشخصية :

هنا يمكننا أن نطرح سؤالا : ما الذي يحدث حينما تتغير شروط التدعيم بشكل ثابت في حياة الفرد ؟ فالكثير من نظريات الشخصية تذهب الى أن البنية الاساسية للشخصية تظل ثابتة ، وأن ما يتغير هو مظهرها الخارجي فحسب ، ولكن ، هل هذا هو مجرد تغير في « الاعراض » لايوثر في الواقع على بنية الشخصية التي تولد هذا التغير ولا على المجال الحيوي النفسي الذي يحدث فيه هذا التغير ؟

يؤكد أنصار نظريات السلوك الاجتماعي أنه لكي نوفر للفرد علاجا فعالا وديناميا ، علينا أن نقر بأن الفرد يتغير كلما تغير سلوكه . فالعلاج السلوكي ينظر الى تغير السلوك عند الفرد على أنه ليس مجرد غطاء واه أو طلاء سطحي .

ان النظرية السلوكية تصر على أنه لكي نكتشف « ماهية » الشخص ، فاننا بحاجة الى أن نعرف « ما يفعله » ؛ وعلى أنه اذا تغيرت أفعاله ، فانه يتغير بالتالي . فالشخص هو « بما يفعله » . وفي ذلك تتفق النظرية مع النظرة الوجودية للطبيعة الانسانية .

فالتوجه السلوكي في دراسة الشخصية يؤكد أنه من بين الظاهرات الأصلية للشخصية ما يعرف بمبدأ الاستمرار discontinuity ، ويعني كما يذهب السلوكيون أن التصور الملائم للشخصية ينبغي أن يسلم بأن الناس تتغير كلما تغيرت شروط حياتهم ، فلا يستمرون على مرضهم ولا يستمر قصورهم الذاتي ، وانما قد يتحسنوا وقد يتعلموا أنماطا سلوكية جديدة توافقية لاتكون استمرارا للانماط السلوكية السابقة .

هذه النظرة تسمح بتناول الشخصية الانسانية كظاهرة متميزة تنفرد بخصائص معينة ، وكظاهرة معممة تتفق مع غيرها في خصائص مشتركة . وهي نظرة تسمح بتناول الشخصية كوحدات سلوكية قابلة للملاحظة ، وبالتالي قابلة للقياس والدراسة العلمية .

وأخيرا ، فان التوجه السلوكي وان كان يعطي مكانة « كبيرة لتغير الشخصية ، الا أنه يضع في الاعتبار كذلك مقومات ثباتها واستقرارها . هذا الموقف العلمي يسمح الى حد كبير باتخاذ السياسات والاستراتيجيات ، التربوية والثقافية ، الملائمة لبناء الشخصية في تفردها وفي عموميتها وفقا للمستوى الأمثل الذي ينشده المجتمع بفلسفته وأهدافه وممارساته .

والخلاصة ، أن العلاج السلوكي كان له فضل كبير ليس على تطوير طرق علاج اضطرابات الشخصية فحسب ، ولكن أيضا على تقدم التنظير في الطبيعة الاساسية للشخصية وفي تعديلها . ولا شك أن طرق ونتائج العلاج السلوكي قد فرضت تحديات هائلة فيما يتعلق بالمفاهيم التقليدية للشخصية والشروط اللازمة لتغير الشخصية .

***

شخصيات وآراء

بانوراما

عالم وليم فوكنر

يوسف عزالدين عيسى

« جيفرسون » عاصمة مقاطعة « يوكنا باتاوفا » الواقعة في شمال غرب « مسيسيبي » مدينة جميلة بها محكمة مبنية بالطوب الأحمر ، تطل على ميدان مركزي وعلى عدة مساكن متراصة في شوارع عريضة ، ولو أن بعض أجمل المساكن لم يعد لها وجود عندما أحرق الجنرال سميث عام ١٨٦٤ معظم أجزاء المدينة . وتبلغ مساحة المقاطعة نحو الفين وأربعمائة ميل مربع . وتضم من السكان نحو ١٥٦١١ نسمة ، وهي لاتختلف كثيرا عن معظم مدن ولاية المسيسيبي أو الولايات الأخرى في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية .

اذا تصورنا أننا نجول في تاريخ هذه البقعة من الأرض المسماة « يوكنا باتاوفا » لنشاهد ما مر عليها من أحداث ، فسوف نرى قرية في جنوب المقاطعة ، ونرى في هذه القرية رجلا يدعى فليم سنوبس Flem Snopes يغش ويخدع جيرانه حتى تتم له في النهاية السيطرة عليهم ، ويتزوج ابنة أهم ضحاياه ، ويوهم أحد الفلاحين بوجود كنز مدفون لا وجود له في الحقيقة ويدفعه الى الجنون ، ويذهب الى « جيفرسون » مصطحبا معه قبيلة من أقاربه ليعيثوا فسادا في المدينة. (١)

الارقام التى بين أقواس يقصد بها تسجيل أحداث معينه سوف يعود اليها الكاتب فيا بعد لتحليلها .

وفي هذه المدينة نفسها بعد عدة سنوات ، نرى فتاة جامعية تسمى « تمبل دريك » Tem-ple Drake تقع في براثن مجرم يدعى بوبي Popeye يعتدي عليها بطريقة بشعة ويلقي بها في النهاية في منزل للدعارة في مدينة ممفيس ، ويستخدم أحد أصدقائه لمواصلة الاعتداء عليها . ثم يحاكم بوبي ويعاقب على جريمة أخرى لم يقترفها . وفي النهاية يأتي والد الفتاة ليسافر بها بعيدا الى مدينة باريس عاصمة فرنسا . (٢)

فاذا ابتعدنا عن هذا المكان فسوف نرى عائلة « بندرن » Bundrenووفاة أدى بندرن ، وهي أمرأة تسكن فوق التل ، ونرى أحد ابنائها مشغولا بصنع كفنها ، ونرى الرحلة الطويلة الى مقابر « جيفرسون » . وبمصاحبة كفنها المحمول على عربة نرى زوجها وابنتها الحبلى غير المتزوجة وابناءها الأربعة . ويدب العفن في جثمان الميتة ويجتذب جوارح الطيور . ويغرق الكفن في أحد الأنهار ، ولكن أفراد العائلة ينقذونه من الغرق ، ويتعرض الكفن للحرق ، ولكنه ينقذ في هذه المرة أيضا . وفي النهاية يتم دفنه في مقابر عائلة الزوج تبعا لوصيتها التي يحرصون على تنفيذها . وينتقل أحد الأبناء من المقبرة الى مستشفى المجانين ، بينما يعتقد الأبن الأصغر أن أمه المتوفاة عبارة عن سمكة ! ونرى الأب وقد غش أحد أبنائه واستولى على حصانه ، كما أخذ من ابنته المال الذي أعطاه لها حبيبها لكي تنفقه للتخلص من الجنين الذي في بطنها ، ويركب الأب في فمه أسنانا صناعية ، ويتزوج من امرأة كان قد اقترض منها جاروفا ليحفر به قبر زوجته . (٣)

واذا تحركنا شمالا فوق تلال الصنوبر وحقول القطن حتى نقترب من مدينة جيفرسون فسوف نصل الى مزرعة « كوميسون » وسوف يصدمنا ما آل اليه مصير المزرعة التي كانت مزدهرة والعائلة التي كانت من أعرق العائلات وأكثرها احتراما ، فلقد دمرت المزرعة وتدهورت العائلة . ونرى الأب والأم وابناءهما الأربعة ، الأب مدمن خمر ، والأم مختلة الاعصاب ، والابنة حبلى من رجل غريب ، وأحد الأبناء متخلف عقليا ، والآخر أناني شرير ، والثالث متكبر رومانسي ولكنه ضعيف ، وهذا الابن المسمى كونتين كمبسون يدعي أنه هو الذي اعتدى على أخته ، وهو ادعاء كاذب ، ثم ينتحر في النهاية . والابن المتخلف عقليا خصاه أحد أخوته وأدخله احدى المؤسسات . وتتزوج الأخت تمبل ثم تطلق وتسلم نفسها لعدد من الرجال والشبان واحدا بعد الآخر . ويطرد الابن الشرير الابنة غير الشرعية التي انجبتها أخته ويبيع المنزل . (٤)

ثم نسمع صوت اطلاق رصاص في الشمال ونشاهد منظرا عجيبا . رجالا على خيول تركض ، وزنوجا ينزحون نحو نهر ، وامرأة عجوزا تدفن كنزا ، وصبية متجمعين بين

الأشجار يطلقون الرصاص على جنود ، وتصيب رصاصة المرأة العجوز ، ويطارد الصبية قاتلها حيث يقبضون عليه ويثبتون جسده بالمسامير فوق أحد الأبواب . ونرى الكولونيل جون سارتوريس في مواقف شجاعة حين يكون فيلقا في جيفرسون وينطلق به نحو ماناساس Manassas ولكن رجاله يتنكرون له ويختارون رئيسا غيره ، ويعود جيفرسون ويكون فيلقا آخر حيث يعمل في هذه المرة مع الجنرال فوريست ، وتنتهي الحرب وينشىء طريقا حديديا للقطار بطول المقاطعة ، ولكنه في النهاية يلقى مصرعه بطلقه رصاص . (٥)

ويعيش ورثة الكولونيل في ظلال ذكراه ، ويصبح ابنه رئيسا للبنك في جيفرسون ، ويموت بهبوط في القلب بسبب حفيد ابنه ، ولهذا الحفيد توأمان ، وكلاهما يعملان طيارين في الحرب العالمية الأولى . ويقتل أحد التوأمين في فرنسا ، ويلوم الأخ نفسه على هذا الحادث ويعاني من عذاب روحي ، فيقتل نفسه في النهاية حيث يلاقي حتفه في أثناء رحلة تجريبية لأحدى الطائرات . (٦)

كما نرى في اتجاه الشمال الغربي للمقاطعة هياجا في الغاية : زنوجا عراة يتصبب منهم العرق ، يقطعون الأشجار ويجرون القطع الخشبية وينشرونها ويقيمون منزلا محاطا بحديقة بديعة ، ويقفز فوق صهوة جواد رجل ضخم الجثة متجهم الوجه ، انه ستبن Sutpen ، ولكن خططه محكوم عليها بالفشل . انه يرفض الاعتراف ببنوة ابن له عندما يكتشف أن نسبة من الدم الزنجي تسرى في عروق والدته . ويقع هذا الابن في غرام ابنة من زوجة أخرى دون أن يعلم في بادىء الأمر أنها أخته من أبيه ، ويلقى هذا الابن مصرعه على يدي هنري أخيه من أبيه . ويتشرد هنري ، وعندما يعود الى بيته يلقى حتفه في حريق يدمر المنزل . ويفلس ستبن بسبب الحرب الأهلية ولكنه يظل طامعا في انجاب ابن يحمل اسمه ومطامعه . ويغتصب ستبن ابنة رجل يستولي على جزء من أرضه فيقتله هذا الرجل انتقاما لشرف ابنته (٧).

وفي الشمال البعيد توجد البراري ، ويمكن رؤية الهنود الحمر في قراهم ، ثم يختفي الهنود الحمر ويأتي رجال وصبية من البيض يقيمون مخيمات الغرض منها ممارسة رياضة المطاردة والصيد ، وعلى الأخص مطاردة دب ضخم . ثم تختفي البراري عندما تأتي شركات الأخشاب (٨).

ثم ننتقل الى الجنوب مرة اخرى فنرى مدينة جيفرسون ، تلك المدينة الهادئة ، وهي في الحقيقة ليست كذلك . ويمكننا رؤية « تمبل دريك » التي سبق أن شاهدناها وقد أصبحت الآن زوجة تعاني من لون آخر من الوان الشقاء غير الذي عانت منه فيما مضى (٩).

وهنا وهناك في الشوارع تحدث أشياء غريبة . نرى المدعو جوكرسماس الذي يبدو أبيضا ولكن في دمائه يجري بعض الدم الزنجي ، فهو بين الزنوج يعتبر أبيضا ، وبين البيض يعتبر زنجيا . ويوضع في طفولته في ملجأ للأيتام ، ثم يتبناه فلاح وزوجته . ويصبح جو شابا ، وفي أحد الأيام يضرب الفلاح الذي تبناه ويسرق مدخرات زوجة الفلاح . وتحدث علاقة بينه وبين امرأة ، ويقتل هذه المرأة ويطارد في جميع أنحاء المقاطعة ، ويقبض عُليه . ويحض جده الحقيقي الغوغاء على قتله بدون محاكمة قانونية ولكنه يهرب ، ويتمكن شاب يدعى بيرس من القبض عليه ويطلق عليه رصاص مسدسه فيرديه قتيلا . ونجد أيضا ضمن هذه الأحداث فتاة تدعى لينا جروف حملت سفاحا من أحد زملاء جو كرسمساس في أحد المصانع ، تسير على قدميها من ولاية « الآباما » لتعثر عليه وليعترف بابنه الذي في أحشائها ، ولكن هذا الرجل يهرب ، وتعود لينا الى ولاية « تنيسي » ومعها الطفل الذي ولدته (١٠).

ويمكن أن نشاهد أيضا لوكاس بيشامب ، وهو زنجي عجوز متهم بالقتل وعلى وشك أن يقتلوه بلا محاكمة ، ولكن يتم انقاذه عن طريق طفل شجاع أبيض وطفل زنجى وإمرأة عجوز (١١) .

ومن بين مشاهد الرعب والشجاعة نرى امرأة عجوز تقتل زوجها خوفا من أن يهجرها وتضع جثته فوق فراشه وتتركه في هذا الوضع حتى يتحول الى مومياء (١٢).

ان جميع هذه الاحداث التى ذكرتها ، أحداث وهمية لا وجود لها الا في خيال فوكنر ، لأن مقاطعة يوكنا باتاوفا ، مسرح هذه الأحداث ، بعاصمتها « جيفرسون »لن تجدها في أية خريطة للولايات المتحدة الأمريكية ، فهي ولاية وهمية من نسج خيال فوكنر . فالأحداث الموضوع عند نهايتها رقم (١) نجدها في رواية « القرية »The Hamlet ، والأحدث رقم (٢) فى رواية « الملاذ » Sanctuary ،ورقم (٣) فى رواية « عندما أرقد محتضرة » As I lay dying ، ورقم (٤) فى رواية الصوت والغضب The Sound and the fury ، ورقم (٥) فى رواية « التى لاتقهر » The Unvanquished ، ورقم(٦) فى رواية « سارتوريس »Sartoris ، ورقم (٧) فى رواية أبسالوم ، أبسالوم ! Absalom Absalomورقم (٨) في رواية « الدب » The Bear ورقم(٩) في رواية « قداس لراهبة » Requiem for a Nun ورقم (١٠) في رواية « ضوء في أغسطس » Light in A ugust ورقم (١١) في رواية « دخيل في التراب » Intruder in the Dust ورقم (١٢) في أشهر قصصه القصيرة « وردة لايميلي » Arose for Emily.

ومقاطعة « يوكنا باتاوفا » التي تخيلها فوكنر تحمل سمات مقاطعة « لافايت »وعاصمتها « اكسفورد » بولاية مسيسبي ، ولقد قضى فوكنر معظم حياته في مدينة اكسفورد . يمكننا أن نقول أن تخيل فوكنر لهذه المقاطعة « يوكنا باتاوفا » التي لا وجود لها يعتبر من أعظم ما أنتجه الخيال في الأدب الحديث ، ولقد توجت أعماله بحصوله على جائزة نوبل عام ١٩٥٠ ، كما منح عديدا من التقديرات الأدبية المشرفة التي اسعدته كثيرا ، ولكن فيما يتعلق بجائزة نوبل ، فانه لم يوافق على السفر الى السويد لاستلام تلك الجائزة الكبرى الا تحت ضغط من عائلته ومن المسؤلين . وهو من المؤلفين الذين لايعيرون قراءهم أي اهتمام ، كما يبغض الاعلان عن نفسه . وكل محاولة لاقتحام حياته الخاصة باءت بالفشل وسببت له غضبا شديدا . ولقد أصبحت كتبه جزءا هاما من التراث الأدبي للولايات المتحدة مثل مؤلفات « هرمان ملفيل Herman Melvilleوادجار الآن بو .

ووليم فوكنر رجل ضئيل الجسم ذو شارب كث وأنف دقيق وعينين بنيتي اللون يشع منهما الحزن والفكاهة في الوقت ذاته . وهو رجل هادىء الطباع ، ولو أنه في وقت راحته واسترخائه وغليونه في فمه وساقاه القصيرتان ممتدتان قد يكون مثل قط يقفز في غمضة عين ليقتل فأرا . ويتصرف كفلاح درس افلاطون .

ومدينة اكسفورد التي عاش فيها فوكنر تشبه الى حد كبير مدينته الخيالية « جيفرسون » فهي تقع في الجزء الشمالي لنهر المسيسبي وتضم من السكان نحو أربعة آلاف . ولقد عاش فوكنر في منزل من أجمل منازل مدينة اكسفورد ، من تصميم مهندس ايرلندي وقام فوكنر بترميمه واصلاحه عندما اشتراه عام ١٩٣٠ ، وتحيط به الحدائق وتطل عليها شرفات ، ونصل الى المنزل من خلال اشجار باسقه تلقى ظلالها على مساحة من النجيل . ولقد صنع فوكنر في الممر المؤدي الى المنزل عديدا من الحفر حتى لايشجع الناس على الحضور لرؤيته . وعاش في هذا المنزل مع زوجته ايستلEstelleوابنتها جيل Jill وفي سنوات سابقة كان يسكن معهم أيضا ابن وابنة زوجته من زوج سابق ، ولقد كبرا الآن وتزوجا ويعيشان في مكان آخر .

وتقع مدينة اكسفورد ، التي قضى فيها فوكنر حياته كما ذكرنا ، على بعد ٧٥ ميلا في الجنوب الشرقي من ممفيس Memphis بولاية تنيسي ، وشرق دلتا نهر المسيسبي الغنية بالقطن . ومعظم سكان المقاطعة من الفقراء البيض والزنوج الفلاحين الذين يعيشون في أكواخ متواضعة في الساحة المحيطة بالمدينة ، حيث نجد أطفال الزنوج يهرعون الى منازلهم في ذعر عندما تقع أبصارهم على رجل أبيض في عربة . والمدينة الهادئة لاتدب فيها الحياة الا بعد ظهر أيام السبت حيث يفد اليها الفلاحون لبيع محاصيلهم فيصبح أحد جوانب السوق أسود

اللون لاكتظاظه بوجوه الزنوج . وتبدو مدينة اكسفورد في عيني الاوروبي أكثر تخلفا من أي مكان في الولايات المتحدة خارج حدود مستوطنات الهنود الحمر . وتبدأ أكواخ الزنوج وكأنها خجلى من بعض القصور الرائعة التي مازالت قائمة بعد الحرب الأهلية .

ومن الأشياء التي جعلت مدينة اكسفورد شاعرة بماضيها أنها ظلت لمدة تزيد عن خمسين عاما موطنا لوليم فوكنر الذي اكتسب شهرة عالمية وهو قابع في هذه المدينة الصغيرة شبه المنعزلة . ولقد بقيت لعدة سنوات غير مدركة لمكانتها الأدبية وغير شاعرة بوجود فوكنر ، ولم تدرك مركزها الأدبي وقيمة ذلك الرجل الذي أضفى عليها هذه الأهمية الا عندما وجدت ذات يوم معدات وآلات استوديوهات هليود تهبط فيها لتصويرها سينمائيا عند اخراج احدى روايات فوكنر للسينما ، وهي رواية « دخيل في التراب Intruder in the dust » ، وشعرت بالفخر بعد ذلك عندما منح مؤلفها فوكنر جائزة نوبل في الأدب . عند ذلك بدأ فوكنر يشعر بالاهتمام والاحترام من سكان هذه المدينة الصغيرة بعد أن كانوا يتهامسون فيما بينهم متعجبين كيف يجد ذلك الرجل قوت يومه وهو قابع طوال النهار في الظل داخل منزله يدق على آلة كاتبة ولا يعمل معهم في الحقول !

وتقع كل من مدينتي اكسفورد (الحقيقية) وجيفرسون (الخيالية)على بعد واحد من مدينة ممفيس وتتشابه معظم معالم المدينتين ، ولكن لا ينبغي الاعتقاد بان جيفرسون هي نفسها مدينة اكسفورد ، فمدينة جيفرسون ، لا تضم جامعة كما هي الحال في مدينة اكسفورد ، ومقاطعة يوكنا باتاوفا الخيالية أكبر مساحة من مقاطعة لافايت الحقيقية ، اذ أن أحداث روايات فوكنر ، وعلى الأخص رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » تتطلب مساحة أكبر من مساحة لافايت ، فتوماس ستبن Thomas Sutpen في رواية « أبسالوم ! » يمتلك وحده مساحة من المقاطعة قدرها مائة ميل مربع . كما أن سكانها أقل عددا وتشتمل على عدد من الزنوج أكثر مما في مقاطعة لافيت Lafayetteفلقد أجرى فوكنر بعض التعديلات في عدد السكان وفي نسبة الزنوج الى البيض .

فعالم فوكنر في رواياته ، التي تقع معظم أحداثها في مقاطعته الخيالية « يوكنا باتاوفا » ، ليس هو العالم الحقيقي في ولاية لافايت . ان « يوكناباتاوفا » مملكة أسطورية كما يسميها الناقد كاولى Cowleyوفوكنر ، من الوجهة الخيالية ، هو مالكها الوحيد ، اذ لاوجود لها في خيال انسان آخر . وفي الوقت ذاته فان شركة « متروجولد وين ماير » كانت على صواب عندما ذهبت الى اكسفورد لتصوير فيلم « دخيل في التراب » ، فان عالم فوكنر الشخصي هو بلا

شك مقاطعة لافاين الذي يعيش فيه بعيدا عن البلاد الكبرى المنتشرة في أنحاء الولايات المتحدة وموطن تجاربه الشخصية في صباه حتى كهولته . واذا لم يكن فوكنر من مواطني اكسفورد لتعذر عليه تصور مدينة جيفرسون ، فبيئة جيفرسون ، كما تخيلها فوكنر ، هي بيئة اكسفورد نفسها التي جعلته يعني بتاريخ المنطقة وتاريخ عائلته . وهذه البيئة هي التي فرضت عليه موضوع رواياته . فمما لاشك فيه أن الكولونيل فاكنر[1] جد والد فوكنر هو نفسه جون سارتوريس في رواية « سارتوريس » ورواية « التي لا تقهر » The Unvanquished وفي بعض رواياه الأخرى . فكل من قرأ هاتين الروايتين يدرك أن أحداثا كثيرة في تلك الروايات مبنية على حقائق في تاريخ أسرة فوكنر لا بد انه سمعها ، مثل انشاء الخط الحديدي واطلاق ردموند الرصاص على سارتويس . فتاريخ عائلة فوكنر هو الذي دفعه ليصبح كاتبا ، بينما جذوره العميقة في ولاية مسيسيبي هي التي أمدته بعد ذلك بموضوعات رواياه وجعلته يواصل الكتابة .

حياة فوكنر

يتميز فوكنر بصفات متضادة ، فهو طيب وقاس ، ألوف ونفور ، وهو فيلسوف بلا مبدأ فلسفى ، يحب الجنوب ويثور عليه ، ولقد تمنى الشهرة ونفر منها ، عندما أتته وهو مستقيم أثار حول نفسه أسطورة كاذبة ، والأهم من ذلك أنه كاتب عظيم وكاتب ردىء في الوقت ذاته . فأحسن مؤلفاته ترقى الى أعظم المؤلفات العالمية ، بينما نجد أن بعض مؤلفاته رديئة . ولديه إحساس عميق بالماضى ، ماضى الجنوب الامريكى وماضى عائلته ، ولقد استخدم في رواياته عديدا من شخصيات أجداده التى يشكلها لتناسب متطلبات الرواية وتحمل بعض سمات عنفهم . قراء روايات فوكنر لن يجدوا صعوبة ليدركوا ان الكولينيل فاكنر جد والد فوكنر ، هو نفسه الكولينيل سارتوريس في رواية « سارتوريس » وفي روايات أخرى ، حيث يعرض حياته بتفاصيلها مصاغة في قالب فنى يناسب تلك الروايات ، ويضفى عليها بطولة مبالغا فيها فيجعل اجداده ، نساء ورجالا ، أبطالا لبعض رواياته .

لم يكن يجول في خاطر وليم فوكنر عندما كان صبيا أى طموح أو أية رغبة في أن يصبح روائيا ، فلقد بدأ كشاعر ، وكان خجولا غير ميال لممارسة الرياضة . ولم يكن شغوفا بدراسته ، فقد كان يهمل المواد التي لاتستهويه ، ولكنه كان قارئا نهما ، فكان يقرأ كل ما يقع تحت يده من

(١) غير فوكنر لقبه من فاكنر الى فوكنر ، لاعتقاده ان Faulkner هو الهجاء الصحيح وليس Falkner، علما بأن حرف الـ L لاينطق .

كتب دون أختيار معين وبلاهدف جاد . ولكنه في السابعة عشرة من عمره تقابل مع الشخص الذى كان له أعظم الأثر في حياته الادبية ، كان هذا الشخص يدعى فيليب ستون ، وكان في الحادية والعشرين عندما تقابلا (وقد يكون هو الشخصية التى اطلق عليها فوكنر اسم De Spains في بعض قصصه) . كان والد فيليب محاميا وشخصية سياسية مرموقة في الولاية ، وكان يخطط لفيليب ليعمل معه في حقل المحاماة كما فعل أخوه الأكبر . وحصل فيليب على بكالوريوس الآداب من جامعتين ، وأخذ يحضر نفسه لدراسة القانون . وعندما تقابل مع فوكنر كان حاصلا على بكالوريوس في الآداب ، وكان شغفه بالآدب اكثر من اهتمامه بالقانون . وكان مولعا بالشعر . وكانت تربط عائلته بعائلة وليم فوكنر صداقة ، فلما عرف ميل فوكنر للشعر أراد مساعدته عندما سمع من والدته انه لا يدرى ماذا يفعل بأشعاره . فذهب الى منزل فوكنر واستمع لأشعاره فلمس فيه موهبة أدبية ، فأصبح منذ ذلك اليوم مرشدا وموجها لوليم فوكنر ، كما أصبح أعز أصدقائه . ولاشك ان فوكنر مدين لصديقه هذا كمعلم ومرشد . وبتوجيه من ستون بدأ فوكنر يقرأ أشعار شكسبير وسوينبرن Swinburne وكيتس وشيلى . ثم قرأ الأعمال الكلاسيكية مثل بلزاك وثاكرى وهنرى فيلندج وديفو (مؤلف روبنصن كروزو) ودكنز وجوزيف كونراد . ثم بدأ فيليب يقرأ اعمال جيمس جويس ، وهى الأعمال التى تأثر بها فوكنر فيما بعد . وعندما قرأ فيليب رواية « يوليسيس » لجيمس جويس علق على ذلك قائلا لفوكنر : هذا الرجل يحاول كتابة شيء جديد ، وينبغى لك ان تحيط علمك به . فكان فوكنر يقرأ ثم يتناقش فيما قرأه مع صديقه ستون .

لم يكن مدار حديثهما عن الأدب فقط ، فلقد مرض ستون في طفولته مرضا كان من شأنه أن يظل طريح الفراش عدة سنوات ، في خلالها تولد لديه اهتمام بتاريخ الجنوب الامريكى والحرب الاهلية التي خاض غمارها عدد كبير من أقاربه . فكان من الطبيعي ان يقص أفراد العائلة على فيليب هذا التاريخ الحافل ببطولة افراد عائلته في ماضى الزمان . ولذا فلقد كان الحديث بين فوكنر وستون يدور في كثير من الأحيان حول هذه الاحداث . فكان ستون في هذا المجال أيضا بمثابة معلم لفوكنر . ولقد بدأت تتبلور معلومات فوكنر عن هذه الاحداث ، التي غذى بها رواياته فيما بعد ، من خلال أحاديثه الطويلة مع فيليب ستون التي امتدت الى عدة سنوات .

وفي عام ١٩١٨ عاد ستون الى جامعة ييل Yale ليحصل على الدرجة العلمية في القانون للمرة الثانية ، وبقى فوكنر في مدينة اكسفورد بالولايات المتحدة (وهى غير مدينة اكسفورد الانجليزية ذات الجامعة التى تحمل هذا الاسم)

وحاول الالتحاق بسلاح الطيران ولكنه لم يقبل لقصر قامته ، وتمكن من الالتحاق بسلاح الطيران الكندى دون ان يسأله أحد عن جنسيته . وانتهت الحرب العالمية الثانية وهو مازال في مرحلة التدريب دون أن يزاول مهمته . ولما عاد الى مدينة اكسفورد استمر في نظم الشعر . وبعد فترة بدأ يكتب قصصا قصيرة بهدف الحصول على بعض المال الذى يمكنه من الحياة في أثناء هذه الفترة ، فترة نظم الأشعار . كانت سكرتيرة صديقه ستون تكتبها على الآلة الكاتبة وترسلها للنشر ، ولكنها ظلت ترفض واحدة بعد الأخرى ، فيأخذها فوكنر ويضعها في ملف ويودع الملف أحد الادراج في مكتب آل ستون . وكان يضطر الى اقتراض المال ، وعلى الأخص من صديقه ستون ، ليتمكن من الحياة الى جانب مزاولة حرفة النجارة او طلاء المنازل او غيرها من الاعمال ليسدد ديونه ويبقى له ما يقيم أوده .

وسمحت الظروف لفوكنر بالتعرف على أحد أساتذة الجامعة عن طريق أحد أصدقائه ، وهو الاستاذ براون . قال فوكنر للاستاذ انه يشعر بعقلية رياضية ويرغب في دراسة الرياضيات . فالتحق بالجامعة لدراسة مقرر في الرياضيات ، ولمس شغفا بهذه الدراسة في الاسابيع الاولى ، ولكنه بعد ذلك لم ينتظم في الدراسة ، وانتهى الامر بتوقفه عن تلك الدراسة . وتقول عنه زوجة الاستاذ ، وكانت هى الاخرى تقوم بالتدريس في الجامعة ، ان فوكنر كان صبيا مهذبا خجولا حساساً ، وكان عطوفا على الاطفال ويعرف كيف يستولى على مشاعرهم بالقصص التى كان يرويها لهم ، ولقد مهدت له هذه الصفات ليصبح رئيسا لمجموعة من الكشافة ، ولكن قسيس التعميد اعترض على شغفه بالشراب فترك هذا العمل . ثم التحق باحدى المدارس واشترى حلة جديدة ليبدو انيقا في حفلات الرقص بالمدرسة ، وهذا يذكرنا بما حدث فيها بعد عندما ابدى عدم تحمسه للسفر الى السويد ليتسلم جائزة نوبل قائلا انه فلاح ولا توجد لديه حلة تصلح لمقابلة الملوك ، فاشترى له ناشرو كتبه حلة جديدة ارتداها عندما ذهب على مضض ليتسلم تلك الجائزة الثمينة !

وكان في فترة عمله بالمدرسة يقضى وقتا طويلا في مكتبتها منغمسا في قراءة الكتب التي يختارها له صديقه فيليب ستون . ولقد نفر من نظام الدراسة المنتظمة ، وكانت أعلى درجاته في مادتى اللغة الفرنسية والاسبانية ، بينما كان يرسب في اللغة الانجليزيه ! وفي السنة الثانية ترك المدرسة .

وعاد الى نشاطه السابق ، كتابة الاشعار والقصص حتى ملأت دولابا بأكمله في مكتب ستون ، وزاول أعمالا مختلفة في هذه الفترة . وكان في خلال فراغه من هذه الأعمال وفي عطلات نهاية الأسبوع يصحبه صديقه ستون في

سيـارته ويـزوران مدينـة ممفيس بين آن وآخـر وكانت مشاهد روايته « الملاذ » Sanctuary احدى نتائج هذه الرحلات ، كانا يجلسان حول مبنى المحكمة هناك ينصتـان الى أحاديث كبـار السن والفلاحين وصيادى الوحوش ، يقصون عليهما قصصهم الزاخرة بالهنود الحمر والزنوج والشخصيـات المحليـة واحـداث الـصيـد الشهيـرة ، وكيف كـانت الامـور في الـزمن الماضى ، وكان فوكنر قليل الكلام كعـادته ، وكانت مثل هذه الجلسات تحتاج الى الانصات اكـثر منها الى الكـلام ، كان يجمـع معلومات يستخدمها فيها بعد في قصصه . ولم يعد لفوكنر بعد ذلك مكان ثابت ، غريب الأطوار حتى ان أهـل المدينـة لم ينظروا اليـه كمتسكع وحسب ولكن كشخص به لمسة جنون . في هذه الفترة أطلق لحيته وارتدى ملابس رثة قديمة ، وكان في شهور الصيف يرى حافي القدمين . كان يجلس في الميدان عند مخزن للأدوية وقدماه متسختان نتيجة لكثرة التجوال في الحقول والغابات ممسكا بيـده احـدى المجـلات ومنغمسـا في قـراءتهـا بالمجان . وكان صاحب المحل يعطف عليه فلا يطالبه بأجر القراءة ، بل كان يعطيه من آن لآخر قطعة نقود ذهبية على أن يردها فيها بعد ، وكان فوكنر يحرص على ردها عندما يستطيع ذلك . وكان يقف بالساعات محملقا في مبنى المحكمة ، او يجول في المدينة شارد الذهن غارقا في تأملاته وأحلامه ، حيث لايكاد يرى أحدا من المارة ، ويجيب باقتضاب ، وأحيانا بوقاحـة اذا تحدث اليه صديق قديم أو أحد مدرسيه السابقين في أثناء تلك اللحظات . وقـال عنه أحـد سكان المدينة انه نموذج حقيقى للشاعر . وكـان أهل المدينة يعتقدون ان افراد عائلة فوكنر يتمتعون بثقة في أنفسهم تجعلهم لايبالون بآراء الآخرين فيهم ، فكـانوا يفسـرون غرابـة أطوار فـوكنر بقولهم : « انه دم عائلة فوكنر الذى يجـرى في عروقه » . وكان آل فوكنر معروفين بكبريائهم وتعاليهم وارستقراطيتهم .

وفيها عدا الآنسة مود ، كان ستون الشخص الوحيد الذى يعتقدا ان هذا الصبى وليم فوكنر سوف يصبح ذات يوم كاتبا شهيرا ناجحا ، ولو أن فوكنر نفسه كان يشك في ذلك . وبناء على نصيحة من ستون سافر فوكنر الى نيويورك في ضيافة احد المعارف ويدعي ينج Youg آملا ان يجد هناك ناشرا يقبل نشر أعماله ، او ناقدا يلفت اليه الانظار . ومارس هناك عـديدا من الاعمال ليحصل على النفقات اللازمة ، ومن هذه الاعمال غسل الاطباق في مـطعم يونـانى هناك ، حتى تمكن من الحصول على وظيفة في احـدى المكتبات ، ولكنـه ما لبث ان عـاد الى مدينة اكسفورد بعد ستة شهور عندما أرسل اليه صديقه ستون يخبره ان وظيفة مدير مكتب البريد بالجامعة قد خلت ويمكنـه الحضور لشغلهـا ، وكان سعيدا بعودته الى مـدينته ولم يتسفـد من رحلته الى نيويورك سوى التعرف على الآنسـة برول Prall ولم ينجح في وظيفة مديـر مكتب

البريد ، فلقد تراكمت الخطابات واختلت مواعيد فتح واغلاق المكتب ، وكانت التقارير تفقد ، ولم يستجب لشكاوى المتعاملين التي لم تكن تحظى باهتمامة ، اذ لم يكن يهتم في تلك الفترة الا بنظم الشعر والمشى مسافات طويلة وانتهى الأمر بتركة هذا العمل . وعلق فوكنر على ذلك قائلا : « الآن لن أكون تحت رحمة أى ابن كلبه يمتلك سنتين »[٢] . وتقلب في أعمال مختلفة ، وأخيرا طبع له صديقة « ستون » على نفقته الخاصة ديوان شعر ولكنه لم يلفت الانظار ولم تبع منه سوى نسخ قليلة .

فوكنر وشروود أندرسون[٣]

خطرت لفيليب ستون فكرة : أن ت . س . اليوت وآزرا باوند وشعراء عديدين أمريكيين لم يحظوا بالتقدير في وطنهم إلا بعد أن حصلوا عليه خارج الوطن ، فلماذا لا يجرب فوكنر ذلك ؟ رحب فوكنر بالفكرة اذ كان يتوق لرؤ ية فرنسا . وبناء على ذلك ، في يناير عام ١٩٢٥ ، سافر بصحبة صديقه ستون الى نيواورليانز ليقضي ستون عطلته في هذه المدينة ، ويحاول فوكنر الحصول على عمل في سفينة أوربية تنقله الى فرنسا . وعاد ستون الى مدينة اكسفورد بعد انتهاء عطلته بينما بقي فوكنر في مدينة نيو أوليانز . وذات يوم علم ان اليزابيث برول **Elizabeth Prall** مقيمة بالمدينة مع شروود أندرسون الذي كانت قد تزوجته حديثا . اتصل بها فوكنر ، وبذا تمكن من لقاء اندرسون ، وأصبحا صديقين حميمين . ويقول فوكنر أنه هو وشروود اندرسون اعتادا السير معا والجلوس معا والحديث معا حتى الثالثة أو الرابعة صباحا . ويقول فوكنر عن شروود : « انه الرجل الذي في امكاني الحياة معه في جزيرة مهجورة ، وعندما رأيت كيف يعيش شروود قلت لنفسي انني لو أصبحت كاتبا مثله فان حياتي ستكون رائعة ، هذه هي الحياة التي تصلح لي » . واختفى فوكنر ستة أسابيع ، وعندما رأته اليزابيث زوجة اندرسون ابتدرته قائلة : « أين كنت ؟ لقد أفتقدك شروود » . فقال : « كنت أكتب كتابا » . فقالت : « هل تحب أن يقرأه شروود ؟ » فقال : « ليس بالضرورة ، فأنا أعلم أنه مشغول . نقلت اليزابيث الحديث لزوجها الذي أبدى استعداده لتزكية الكتاب لدى ناشره . لم يكن الناشر بالمدينة في ذلك الوقت ، وبمجرد قدومه أخبره شروود عن هذا الاكتشاف الجديد ، فقرأ الناشر نص الكتاب ووافق على نشره . فارتفع قدر فوكنر واستقر في الحي الفرنسي بالمدينة ، وباع بعض قصصه القصيرة لاحدى صحف نيواورليانز .

---

(٢) السنت عملة أمريكية صغيرة . وكان أجر طابع البريد في ذلك الوقت اثنتين من هذه السنتات .

(٣) شروود اندرسون كاتب أمريكى وشاعر ولد عام ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٤١ .

كان ذلك الكتاب الذي قبل للنشر ، أول رواية تنشر لفوكنر وهي رواية « أجر الجنود » Soldiers Payوتدور حول جندي يعود الى وطنه ليموت متأثرا بجراحه ، وبدا فيها متأثرا بهمنجوي Hemingway . وفي أثناء اقامته في نيواورليانز كتب معظم روايته الثانية « البعوض » Mosquitoss وهي محاولة فاشلة لمحاكاة الكوميديات الاجتماعية التي كان يكتبها الدوس هكسلي ، بحذق وذكاء في ذلك الوقت (ويبدو فوكنر في رواياته على وجه العموم متأثرا بثلاثة كتاب عظام هم جيمس جويس وهمنجوي والدوس هكسلي) .

ثم أسهم فوكنر بعد ذلك مع وليم سباز تلنج في تأليف كتاب صغير بعنوان « شروود اندرسون وآخرون » وكتب فوكنر مقدمة الكتاب محاولا تقليد أسلوب اندرسون ، واعتبر اندرسون تلك المقدمة سخرية منه فرفض رؤية فوكنر ولم يتقابلا بعد ذلك سوى مرة واحدة بعد عدة سنوات في حفل كوكتيل بنيويورك .

وعلى الرغم من هذه النهاية المؤسفة لعلاقة فوكنر بأندرسون فان فترة صحبتهما معا تركت أثرا لا يمحى في حياة فوكنر ومؤلفاته . ولم ينس فوكنر طوال حياته كلمات شروود عندما قال له « أكتب الشيء الذي تعتقد أنك تعرف كيف تكتبه » . كما علم منه أن طريقة كتابة القصة شيء على جانب عظيم من الأهمية . وتعلم منه انه لكي يصبح كاتبا ذا قيمة ينبغي أن يكتب عن أشياء يعرفها حق المعرفة ، ويجب أن يعلم كيف يبدأ الرواية ، فالحدث أو المكان الذي تبدأ منه القصة ذو أهمية كبرى . وقال له اندرسون : « أنت شاب ريفي ، وكل ما تعلمه هو تلك البقعة في ولاية مسيسيبي حيث بدأت حياتك » . ولم يعمل فوكنر بهذه النصيحة في بادىء الأمر عندما كتب روايتيه الأوليين اللتين كتبهما في نيوأورليانز ، ولكن النصيحة ظلت كامنة في أعماقه ، وبفضلها بلغ النضج الفني وظهر تأثيرها في روايته التالية « سارتوريس » التي كتبها عن تاريخ الجنوب الأمريكي الذي يعيش فيه ويعرف عنه كل شيء .

على الرغم من تأليف روايتين في ستة أشهر ، لم يكن فوكنر مشغولا بدرجة تمنعه من ارتياد أماكن تجمع الفنانين الموهوبين في الحي الفرنسي بمدينة أورليانز . ففي منتصف العشرينات كان ضمن المجموعة هناك « رورك براد فورد » و « أليفرلافارج » و « جورج ملبيرن » و « جورج ماريون اودونيل » و « هاملتون باسو » و « كارل ساندبرج » و « جون دوس باسو » ، و « سنكلر لويس » وبعض الكتاب الشبان . كانوا يعيشون على ما يدره انتاجهم ، وكان يجمع بينهم الفقر وتقديرهم لأندرسون الذي كان يستضيف في منزله لتناول العشاء ثلاثة أو أربعة منهم في ليالي السبت . وفي هذه الفترة كان يوجد بينهم بوسو Bosso وهو من سكان نيو أورليانز ، ويقول عن فوكنر انه رجل

ضئيل الحجم مهذب عذب الحديث وذو احساس عميق بالجنوب الأمريكي . ولقد عاش فوكنر بعض الوقت في غرفة بالدور الأرضي في شارع بالقرب من الكتدرائية على مقربة من الغرفة التي كان يعيش فيها سبارتلنج عند سطح المنزل . وكان أفراد المجموعة يترددون على غرفة سبارتلنج ويتقابلون مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع لتناول الغذاء في بعض المطاعم الرخيصة .

وذات ليلة ، عندما ظهر فوكنر بينهم وقت الغذاء باديا عليه الانشراح ، أعلن انه قضى اليوم بطوله في طائرة كان يستخدمها سيرك متنقل يقضي فترة بجوار المدينة ، وهذه النزهة بالطائرة كانت البذرة التي أنبتت فيما بعد رواية « بيلون » Pylon .

بين اليأس والأمل

بعد ذلك سافر فوكنر الى أوروبا في يولية عام ١٩٢٥ حيث اتجه أولا الى انجلترا ، ثم مر خلال فرنسا طورا على قدميه وطورا راكبا دراجة ، وزار الأماكن التي كانت ميدانا للقتال في الحرب العالمية الأولى . وتلقى وهو في الخارج مبلغ مائتي دولار من ناشر روايته « أجر الجنود » قبل طبعها ، وكان هذا أول مبلغ يصل الى يده ثمرة كتابة استمرت نحو عشر سنوات . وعندما عاد الى وطنه كانت الرواية قد تم طبعها ونشرها ، ولكن عدد النسخ التي بيعت منها كانت قليلة . وعندما نشرت بعدها رواية « البعوض » كانت النسخ المباعة منها لا تزيد كثيرا عن الرواية الأولى . وكان الناشر قد تعاقد معه على نشر كتب أخرى ، ولكن الفشل الذريع الذي منيت به روايتاه المنشورتان جعلته يفسخ العقد ويعدل عن نشر كتب أخرى لفوكنر . وتمكن فوكنر بعد ذلك من بيع عدد قليل من القصص القصيرة ولكن الأجر كان ضئيلا فانتابته حالة يأس وخيبة أمل وأعتقد انه كاتب فاشل لا يصلح للتأليف القصصي .

ولكنه تمكن من التغلب على اليأس وواصل الكتابة ، فكتب رواية « سارتوريس » Sartoris واستمد موضوعها من البيئة التي يعيش فيها في الجنوب وتاريخ هذا الجنوب ، وعلى الاخص ولاية مسيسيبي فاقترب بذلك من الاستجابة لنصيحة اندرسون : « أكتب عن أشياء تعرفها » . ولكن الرواية لم تكن جيدة ولم يتحمس الناشرون لنشرها .

وازاء هذا الفشل المتوالي عرض ستون على صديقه فوكنر فكرة جديدة . قال له انه ما دام قد فشل كمؤلف جماهيري فلماذا لا يتغاضى عن ارضاء الجماهير ويكتب لنفسه وللخاصة من القراء ذوي التذوق الفني الرفيع الذين لا بد انهم في يوم من الأيام سوف يدركون موهبته إن عاجلا أو آجلا ؟ لماذا لا يكتب للأجيال بدلا من الكتابة للعامة ولحاجة السوق ؟ واستجابة لرأي ستون عكف فوكنر على كتابة رواية دون أن

يأخذ في الاعتبار أي هدف تجاري . كانت هذه رواية « الصوت والغضب » The Sound anb the Fury والعنوان مأخوذ من شطرة بيت من الشعر ورد على لسان زوجة مكبث في مسرحية « مكبث » لشكسبير . وتعتبر هذه الرواية من أروع ما كتب فوكنر ومن أكثرها صعوبة عند قراءتها . واستخدم فيها تيار الشعور Stream of Conscionsness . وتتكون الرواية من أربعة أقسام ، وتم نشرها عام ١٩٢٩ ، ولقد نجحت هذه الرواية نجاحا عظيما عن طريق صفوة القراء الذين يقدرون الفن الرفيع ولو أن الجماهير العريضة تجاهلتها . فتحقق بذلك هدف فوكنر ، وهو كتابة رواية يقدرها قلة من الصفوة بدلا من الغالبية التي لا تتذوق الادب الرفيع ، على أمل أن القلة من ذوي المستوى الرفيع قد يؤثرون بآرائهم على الاذكياء من العامة .

ونشأ حب عنيف بين فوكنر و« استلا أولدهام» Esetlla Oldham التي كانت تكبره بعامين . وعارضت العائلتان هذا الزواج نظرا لكبر سن استلا وغرابة أطوار فوكنر . فتزوجت استلا من محام يدعى كورنل فرانكلين الذى سافر مع عروسه الى هونولولو ثم انتقل الى شانغهاى . وفي عام ١٩٢٧ طلقت من زوجها وعادت الى وطنها مع طفليها ، ولد وبنت ، وظل حب فوكنر لها متأججا . كان في هذا الوقت مفلسا ، وكان قد نشرت له حتى ذلك الوقت أربع روايات هي : « أجر الجنود » و« البعوض » و« سارتوريس » و« الصوت والغضب » ، ورواية خامسة على وشك النشر وهى رواية « عندما أرقد محتضرة » ، وتزوجا ، واقترض بعض تكاليف الزواج وانتقل هو وزوجته وطفلاها الى شقة صغيرة . وتحمل فوكنر اعباء زواجه وأعباء اعالة طفلي زوجته من زوجها السابق . ونشرت رواية « عندما أرقد محتضرة » ويقول فوكنرانه كتب معظم أجزائها فوق عربة يد في أثناء ورديته المسائية عندما كان يعمل بمحطة توليد الكهرباء بالجامعة ، حيث كانت مهمته وضع الوقود لغلايات المياه . ونجحت الرواية كعمل أدبي رفيع ، شأنها في ذلك شأن رواية « الصوت والغضب » ولكنها فشلت جماهيريا فلم تدر عليه ربحا ذا قيمة .

بعد ذلك كتب رواية « الملاذ » Sanctu-ary التى وصفها فوكنر بأنها فكرة رخيصة كتبها ليحصل على بعض المال ، ولكن فكرتها كانت تدور في رأسة لعدة سنوات وأقبل على كتابة بعض أجزائها بحماس ، ولذا فلقد ظهرت الرواية وبعض اجزائها ، رائعة والبعض الآخر من الدرجة الثانية .

لقد نجحت هذه الرواية جماهيريا نجاحا عظيما ، ولم يتحرك فوكنر عن كتابة تفاصيل فكرتها الجنسية العنيفة التي كانت بالنسبة للجماهير مفاجأة تثير الذعر . وكان الناس يتحرجون من شرائها علنا ولكنهم كانوا يقبلون

على شرائها سرا . ولفتت الرواية نظر هليوود نحو فوكنر ، فشعر هو وصديقه ستون بسعادة غامرة تتسم بالدهشة ، ففتحا الدولاب المليء بقصص فوكنر التي سبق ان رفضت نشرها جميع الصحف والمجلات ودور النشر ونفضا عنها الغبار وأعادا كتابتها على الآلة الكاتبة وحددا لكل منها سعرا مرتفعا كتباه في الركن الأيمن من الصفحة الاولى لكل قصة وأرسلاها الى المجلات نفسها التي سبق ان رفضتها فنشرتها على الفور وبدأت النقود تتدفق بين يدى فوكنر .

سنوات النضج

لم تتغير مدينة اكسفورد بولاية مسيسيبى تغيراكبيرا في السبعين عاما الأخيرة ، اذا استثنينا بعض التغيرات السطحية ، كالشوارع التي اصبحت مفروشة بالاسفلت ، والسيارات التي أصبحت تجوب شوارعها ، والجراجات ، واضواء النيون في واجهات المحال التجارية . ويشعر قراء روايات فوكنر عند رؤ ية المدينة الآن وكأنهم كانوا في حلم واستيقظوا ليجدوا المدينة الحقيقية مطابقة لما شاهدوه في أحلامهم ، اذ مازال مبنى المحاكم القديم كما وصفه فوكنر في رواياته مع بعض التعديلات القليلة ، وتفوح منه رائحة التاريخ : عقود الزواج القديمة ، سجلات الوفيات التي مضى عليها عهد طويل . وعلى بساط الحشائش الذى تظلله الاشجار الباسقة مازالت المناضد متناثرة حيث كان الشيوخ من الرجال وبعض الشبان يتعاملون ويتحدثون عن السياسة والمحاصيل الزراعية ويثرثرون في شتى الموضوعات . وسوق المدينة مايزال قائما حيث نجد الطماطم والذرة والبطيخ الناضج التي يحضرها الفلاحون ، وتمر السيارات حول الميدان في دوامة مستمرة ، وتوجد منازل فاخرة كتلك التي كانت تعيش فيها عائلات سارتوريس وكمبسون في أيام مجدهم . وبعض شوارع المدينة لم يكسها الاسفلت حتى الآن بينما توجد الاشجار في كل مكان . في هذا المتحف عاش فوكنر معظم حياته وكتب رواياته . كان جزءا من هذه المدينة الصغيرة وكان من معالمها . هذه هى المدينة التي أطلق عليها فوكنر في رواياته اسم « جيفرسون » في المقاطعة التي اختار لها اسم « يوكناباتاوفا » ولم يمل الكتابة عنها طوال حياته .

ولقد رزق فوكنر من زوجته استلا طفلا ، اطلقا عليه اسم « الاباما » ولكنه توفي عقب ولادته مباشرة ، ثم رزقا بعد ذلك بابنة هى جيل Jill ومن أرباح رواياته اشترى ضيعة أصبحت تدر عليه الكثيرمن الاموال الامر الذى جعله في غير حاجة لمزاولة أية وظيفة . كان شغوفا بهذه المزرعة ومعتزا بها ، فكان يقول عن نفسه انه ليس أديبا ولكنه مجرد فلاح يهوى حكاية القصص .

كـان فوكـنر يهوى الصيـد ، فكـان يخـرج بصحبـة بعض أصدقـائـه في مـوسم معين في الخريف توارثته المدينة جيلا بعد جيل وأصبح من التقاليد المرعية فيها ، حيث يقيمون خيمة في بقعة معينة في الغابات القريبة من المدينة (ولقد زحفت شركات الاخشاب واحتلت هذه البقعة فيـما بعد ، واشـار فوكـنر الى ذلك في روايتـه القصيـرة « الـدب ») وانتقـل نتيجـة لـذلـك معسكر فوكنر واصدقائه من هواة الصيد مـائة وتسعين ميلا جنوب اكسفورد في مكان فيه أنهار ومستنقعات وغابات كثيفة . ففى الثامن عشر من شهر نوفمبر كان يخرج فوكنر مع نحو ستة من أصدقائة في سيارة ضخمـة محملة بكل مـا يحتاجون اليه في معسكر صيدهم ويقيمون هناك نحو اسبوعين ، لقد استفـاد فوكـنر من بعض هؤلاء الأصدقاء في تصوير شخصياتهم في رواية « الدب » وفي قصته القصيرة « خريف الدلتا » Delta Autumn . وكان في الغابات عديد من حيوانات الصيد كالغـزلان وبعض الدببـة والقطط البرية . وكان فوكنر صيادا ماهرا يحسن اصابة الهدف ببندقيته . وكان في بعض الأحيان يـظل نحو ثـلاثة أيـام متواصلة بـلا نوم وهـو منغمس في تعقب بعض الحيـوانات . كـانـوا ينامون في خيامهم ويتناولون طعامهم على كتلة من الخشب ، وكـان طعامهم يتكـون من لحم الحيـوانات التي يصـطادونها الى جانب البـامية والبطاطس ، والطماطم والبصل الـذى كانـوا يطهونه في وعاء كبير طوال اليـوم . وفي المساء كانوا يشعلون النـار للتدفئـة ويسلون أنفسهم بلعب الكتشينــة ويــطالعــون الصحف التي يحضـرهـا اليهم أحـد النـاس من المـدينـة ، ويتجـاذبون احـاديث الصيد ونـوادره . وكـان فوكنر كعادته يصغى أكـثر مما يتحـدث ويظل معظم الوقت مشغولا بتدخين غلبونه ، ومن آن لآخـر يكتب بعض المـلاحـظات . من هـذه الملاحظات والـذكريـات نسج فـوكنر قصصـه العظيمة التي جعلته من أعظم كتاب العالم الذين كتبوا عن الطبيعة وصوروها في مؤلفاتهم اروع تصوير .

كان من عادة فوكنر أن يكتب دون مـراعاة لأية قواعد ، أوكما قال أخوه جون « ليقص على نفسـه قصصا » في مـوضوعـات أشبه بتـداعى الخواطر . لم يكن وقت الكتابة ولا المكان الذى يكتب فيه ولا مواد الكتابة ذوى أهمية لديـه . وكان يكتب على أية قصاصة متاحة من الورق ، على ظهر الفواتير أو ظرف خطاب أو حتى على أوراق « التواليت » عندما لايجد في متناول يده غيرها . وتعود ناشروه الا يتعجبوا اذا وجـدوا نصوصه المرسلة للنشر مكتوبة عـلى ظهر نص قديم من نصوص رواياته ، أو نص سينمـائى مشطوب ومكتوب على ظهر صفحاته . وكـان لايحتاج لأكثر من خمس ساعات للنوم . وكان من عادته ان يبدأ الكتابة في الرابعة صباحا ، اذا شعر بالرغبة في الكتابة ، ويستمر حتى الثامنـة صباحا مستخدما الآلة الكاتبة بدلا من القلم ،

ويكتب بسرعة ويضع بعض التعديلات بين السطور وعلى الهوامش ، ويقضى باقي اليوم حرا ليزاول شتى أنواع الأنشطة ورعاية شؤون مزرعته وعائلته ، وقد يعود للكتابة فترة أخرى بعد الظهر قائلا ان الكتابة أصبحت هواية بالنسبة له مثل جمع طوابع البريد .

وكان يكتب بسهولة فائقة غير شاعر بأى مجهود في أثناء الكتابة . قال عنه أحد أصدقائه الذى أتيحت له فرصة مراقبته في أثناء الكتابة عدة شهور انه دهش لسرعة كتابته . وكان يكتب نحو نصف ساعة ثم يسترخى لمدة نصف ساعة يقضيها في الحديث او قراءة كتاب ، غالبا قصة بوليسية ، ثم يعود للكتابة بنفس السرعة المذهلة بلا تردد ، ويرجع ذلك الى عدم اقدامه على الكتابة الا أن يكون الموضوع قد نضج فى ذهنه نضجا تاما فلا يحتاج لمزيد من التفكير . وشبهه في هذا المجال بريتشت Pritchett بقوله انه يشبه من يمضغ التبغ ثم يبصقه على الورق بدون أى مجهود . وكان يصغى تأدبا منه الى ملاحظة أحد النقاد بأن بعض الجمل من مخطوطاته ملتوية وغير واضحة المعنى ، ولكنه لم يكن يهتم بهذه الملاحظات فلا يغير كلمة واحدة .

وهكذا نجد فوكنر في سنوات النضج وقد أصبح شخصا جديدا شديد الثقة بنفسه ، يختلف تمام الاختلاف عما كان في بدء حياته الادبية ، كما أصبح مالكا لمزرعة مترامية الاطراف وزوجا وأبا ناجحا في مهنته ، ولكن على الرغم من ذلك فان أعماله تدل على أن نظرته الشخصية للحياة لم تتغير ، نظرة يشوبها التشاؤم . ظل يصور مقاطعته الخيالية « يوكناباتاوفا » في لون دموى قاتم منهيا حياة شخصيات رواياته نهايات مأساوية عنيفة . وأصبح ميالا الى العزلة والبعد عن الناس . كان يتوق في بدء بدء حياته الادبية الى الشهرة ولفت الانظار ، ولكنه عندما اطمأن الى الشهرة واتجهت نحوه أنظار محررى الصحف والناشرين والنقاد والكتاب الآخرين والقراء والمعجبين لم يعد في حاجة الى المزيد منها ، فصار يتجنب الأحاديث الصحفية ، وزهد في زيارة المعجبين به وأوصد دونهم بابه الذى لم يفتحه الا لعدد قليل من صفوة أصدقائه .

وعلى الرغم من شهرة وليم فوكنر التي ذاعت في جميع البلاد في ذلك الوقت ، فان مدينة اكسفورد التي يعيش فيها لم تعره أى اهتمام . كان بعض أهل المدينة يعلمون أن كتبه تثير اهتمام اساتذة الجامعات والمثقفين في شمال الولايات المتحدة ، وكان عديد من الذين يزورون الجامعة في تلك المدينة يحرصون على لقاء فوكنر ولكنه لم يكن يمكنهم من هذا اللقاء . وعندما حاولت زيارته راقصة الباليه الشهيرة اليسيا ماركوفا أرسل يقول لها انه مشغول اذ لديه موعد سابق لصيد قطة برية !

أعمال وليم فوكنر

أشرت في الصفحات السابقة اشارات عابرة الى بعض أعمال فوكنر ، وسوف أتناول الآن أهم انجازاته بشيء من التفصيل .

يعتبر فوكنر من المؤلفين الذين لاتفهم كتاباتهم بسهولة ، بل تحتاج الى مجهود ذهني . وهو يستخدم تيار الوعى في معظم رواياته ، شأنه هذا شأن جيمس جويس وفرجينيا وولف ، ولو أنه يختلف عنهما بعض الشيء في روايتين وهما : « الصوت والغضب » The Sound and the Fury و« عندما أرقد محتضرة » As I Lay Dying ، وهما في رأيي أروع ما كتب . وعلى الرغم من أن روايات فوكنر مستوحاة من الجنوب الأمريكي الا انها تحمل اللمسات الانسانية التي تجعلها مقروءة في كل مكان خارج ذلك الحيز الضيق . ولقد بدأ فوكنر ، كما ذكرت ، بكتابة الشعر قبل كتابة القصة ، وظل طوال حياته معتقدا بأنه شاعر ولو أن شعره لم يكن من النوع الجيد . ويبدو أنه كان متأثرا بشكسبير وشعرت . س . اليوت قبل نظم الأخير لقصيدة « الارض الخراب » The Waste Land، كما يبدو ان فوكنر توقف عن نظم الشعر عندما بدأ كتابة الرواية في منتصف العشرينات .

ولقد كتب فوكنر اولى رواياته عام ١٩٢٥ في أثناء اقامته لمدة ستة شهور في مدينة نيواورليانز ، وكانت تعرض الحياةفي هذه المدينة ونشرها في احدى الصحف ، ثم اعيد نشرها في كتاب عام ١٩٥٨ بعنوان « صور من نيواورليانز » . كما نشر عددا من القصص الضعيفة في أسلوبها وتركيبها . وهذه القصص والاشعار التي نشرها في باكورة حياته الادبية لا تعتبر ذات قيمة ذاتية ،ولكنها ذات اهمية لدراسة المؤشرات والومضات الاولى التى ترهص بالاعمال العظيمة التي كتبها فيما بعد .

وأول عمل هام أنجزه فوكنر هو رواية « أجر الجنود » Soldiers,Pay التي نشرت في أمريكا عام ١٩٢٦ وتحمل في ثناياها بذور الموهبة ، ولو أنه من الصعب أن نتصور أن مؤلفها هو المؤلف نفسه الذي كتب بعد ثلاث سنوات الرواية الرائعة « الصوت والغضب » . ويبدو تأثير الدوس هكسلي على فوكنر واضحا في روايته الأولى « أجر الجنود » ، ولقد كان تأثير هكسلي على المؤلفين الشبان قويا في العشرينات . ويبدو في هذه الرواية بذور (التكنيك) التي نبتت في مؤلفاته فيما بعد ، مثل التركيز على الوقت والاستجابات المختلفة للشخصيات أزاء الحدث الواحد . وكان يتحتم على فوكنر التخلص من تأثير هكسلي قبل أن يصبح كاتبا متميزا ، ولو أن ذلك التأثير ظل مهيمنا على فوكنر في روايته الثانية « البعوض » ، بل يبدو تأثير هكسلي في هذه

الرواية أقوى منه في الرواية الأولى . وتتضمن هذه الرواية حوارا ثقيلا يدعو الى الملل عن الفن والحياة والجمال والجنس ، ولم تعد لهذه الرواية أهميـة في الوقت الحـاضر سـوى مجـرد دراسـة خطوات تطور كتابات فوكنر وبعض الاشارات التي تظهر في مؤلفات فوكنر الأكثر نضجا فيما بعد .

وتعتبر الرواية الثالثة « سارتوريس » خطوة هامة على طريق تـطور فوكـنر ، ويبدو تـطور فوكنر ونضجه الفني في ذروته في روايته التالية « الصوت والغضب »التي اعتقد أنها أروع مـا كتب على الاطلاق .

ففي رواية « أجر الجنود » رسم فوكنر صورة لمدينة صغيرة من مدن الجنوب الأمريكي ولو أنه وضعهـا في مقـاطعـة جـورجيـا . وفي روايـة « سارتوريس » بدأت في الظهور لأول مرة مدينة جيفـرسـون التي أصبحت في معـظم روايـاتـه عاصمة مقاطعته الخيالية ، وكأن فوكنر في تلك المرحلة المبكـرة كـانت لـديـه رؤ يـة واضحـة وتفصيلية لما سوف يفعله في رواياته التي كتبها بعد ذلك والتي تدور احداثها في يوكناباتاوفا ، والتي تتكـرر فيها بعض شخصيـات معينـة . ويمكن اعتبـار روايـة « سـارتوريس » كمخـزن للشخصيات والأحداث التي توالت في رواياته المختلفة أكثر من اعتبارها رواية في حد ذاتها .

والخيط الذي يربط الرواية هو قصة بـايارد سارتوريس Bayard Sartoris الـذي ينحدر من سلالة الكولونيل جونسارتوريس . ولقد أستمد فوكنر شخصية الكولونيل جون من شخصية جده . وتتكون قصة بايارد من محاولاته العـديـدة لكي يتعـرض للقتـل . ومن نقـاط الضعف في الرواية عدم توضيح الاهداف التي تدفعه لذلك . ثم ينجح في النهايـة في ملاقـاة حتفه عن طريق ركوبه طائرة يعـرف مسبقا أن حالتها لاتدعو للاطمئنان .

وبعد نشره لرواية سارتوريس ظـل فوكـنر يعتبـر كاتبـا صغيرا ، ولكن في العـام نفسه ، ظهرت روايته « الصوت والغضب » وهي من أعـظم الـروايـات التي ظهـرت في القـرن العشرين ، وهو مدين سواء بطريق مباشر أوغير مباشر في هذه الرواية للروائي الايرلندي جيمس جويس . ومثل كثير من روايات فوكنر ، كان لابد من أن يتعود القراء على قـراءة مثل هـذا العمل الفني الذي لم يـألفوه من قبـل ، ولكن عندما يدرك الانسان كيف يقرؤ ها فسوف يشعر بالمتعة والانبهار .

وتشبـه روايـة « الصـوت والغضب » روايـة « أبسالوم ، أبسالوم » في كونهما روايتين تشيـع فيهما صلة الدم الـوراثي والروابط العـائلية . فرواية « الصـوت والغضب »تحكي قصة بيت يتعفن ، انـه منزل كـومبسون Compson الـذي نشأ فيـه حـاكم وجنـرال وكـان يتمتـع

بارستقراطية في جيفرسون بمقاطعة يوكناباتاوفا . وحصل أحد أسلاف كومبسون على ميل مربع أخذه من الهنود الحمر أصبح فيها بعد يشغل جزءا كبيرا من مركز مدينة جيفرسون . وآل كومبسون الذي تتحدث عنهم الرواية هم آخر سلالة كومبسون الكبير ، كبقية ضعيفة من بقايا التراث القديم ، هم كونتين الذي يقدم على الانتحار ، وكادي الثائرة جنسيا ، وجاكسون الذي يصبح رجل أعمال لاقلب له ولا روح ، وبنجي المتخلف عقليا . ونجد الأب مستركومبسون عديم التأثير وزوجته المنافقة التي تندمج سريعا مع المؤثرات الوراثية لتقود الأطفال عبر مساراتهم الشنيعة . وتمتد الرواية منذ طفولة كونتين وكادي وجاسون وبنجي في أواخر القرن الثامن عشر حتى أحد الفصح عام ١٩٢٨ عندما تهرب ابنة كادي (المسماة كونتين على اسم خالها المتوفي) ، مع شخص غريب يعمل في معرض متنقل للملاهي ، والرواية مقسمة الى أربعة أقسام ، القسم الأول منها يحكي على لسان بنجي المتخلف عقليا وهو مؤرخ ٧ ابريل عام ١٩٢٨ (سبت عيد الفصح) ، والقسم الثاني مخصص لكونتين وتاريخه ٢ يونيه ١٩١٠ ، والثالث خاص بجاسوس بتاريخ ٦ ابريل ١٩٢٨ ، والرابع على لسان المؤلف ومؤرخ ٨ ابريل ١٩٢٨ . ويعتبر القسم الأول الذي يروي على لسان بنجي المتخلف عقليا أروع الأقسام الأربعة ، وهو واحد من أشهر ما ظهر في الأدب الحديث . وتحكي القصة في هذا الفصل ، كما ذكرت ، على لسان أبله متخلف عقليا تبعا لتصوره وتلقائيته الغريزية المجردة من الذكاء ونظام تسلسل الأفكار حيث يتساوى لديه الزمن الماضي والحاضر ، وما حدث بالنسبة اليه منذ ثلاثين عاما يبدو له حيا وكأنه يحدث الآن .

ويبدأ القسم الأول من الرواية في « الوقت الحالي » بالنسبة لأحداث الرواية وبنجي بصحبة الخادم لستر Luster يسيران معا جنب سور يحيط بملعب الجولف ، ونعرف فيها بعد أن أرض ملعب الجولف هي الجزء الذي كان من المفروض أن يرثه بنجي وهو آخر ما تبقى من أملاك كومبسون (الميل الرابع) ولكنه بيع منذ أعوام لكي يتمكن من الالتحاق بجامعة هارفارد . ويبحث لستر عن ربع دولار لكي يتمكن بنجي من رؤية أحد الملاهي المتنقلة التي تزور المدينة . ويستخدم المؤلف بحث لستر عن ربع الدولار للدلالة على أن هذا يحدث في الوقت الحاضر (ليس في الماضي ولا في المستقبل) . بينما معظم هذا القسم يضم أحداثا من الماضي . وتتداعى أفكار الماضي في ذهن بنجي المتخلف عقليا تبعا لتأثره بأشياء يراها في الحاضر ، كمنظر النار أو الذهاب الى الفراش . فهو مثلا عندما يرى الطفلة كونتين على الأرجوحة بصحبة رجل يتذكر عندما رأى أمها كادي في المكان نفسه . والحوار في الرواية يكتب بحروف مائلة عندما ينحرف عن الحاضر ويوغل

في الماضي ، وهذه الفقرات المكتوبة بحروف مائلة لاتشكل حديثا مترابطا ، اذ يتذكر أشياء غير مترابطة ، فهو يتذكر عندما غيروا اسمه الى بنجي لما ثبت تخلفه العقلي وذلك باصرار من والدته . كما يتذكر عندما ماتت جدته ، ويوم زواج كادي أخته عام ١٩١٠ ، وعندما أجروا له عملية الخصى لأنه شوهد يغازل بنات المدارس اللاتي يمرون أمامه . وهو في أحاسيسه وتشبيهاته يفكر بغرائز تشبه غرائز الحيوانات . فهو يتذكر أخته ، مثلا عندما يشم رائحة بعض النباتات .

وبينما يفكر بنجي بهذه التلقائية الصريحة ، نجد كونتين في القسم الثاني يتجه دائما نحو المطلق ، فالوقت والشرف والعذرية هي المواضيع السائدةالتي تدور في ذهنه . وتطابق ذكريات كونتين في كثير من الأحيان مع ذكريات بنجي ، ولذا فان قراءة القسم الثاني في الرواية الخاص بكونتين يلقى ضوءا على القسم الأول الخاص ببنجي ، وتفسر كثيرا من أفكار كونتين المعذبة . فكونتين يتميز بعقل ذكي رفيع المستوى ، ولكن اهتمامه بتصرفات اخته واهتمامه بشرف العائلة ، وعن طريق تيار الوعي ، يجعلنا ندرك ما يدور في ذهنه من الانطباعات والذكريات والصور التي تتدفق خلال اليوم الأخير من حياته . ولايفصح المؤلف عن انتحار كونتين بشكل مباشر ، بل يأتي ذلك عن طريق اشارات متكررة عن الماء تجعلنا ندرك تدريجيا عزمه على الانتحار غرقا .

وتتسلط على كونتين فكرة ربط شرف العائلة بعذرية أخته كادي .

وفي القسمين الثالث والرابع من الرواية لا نجد سوى قليل من الصعوبات التي نصادفها في القسمين الأول والثاني . والقسم الرابع مكتوب بالاسلوب التقليدي ، واذا رأينا أنه أكثر الاقسام نجاحا فربما يعزى ذلك الى الهدوء النسبي الذي يسود ذلك القسم اذا قارناه بالاقسام العاصفة التي تسبقه ، وتضفي عليه الخادمة الزنجية « ولس »ذلك الجو الهادىء . كما قد يعزى أيضا الى وصولنا الى موضع فى الرواية تتبلور فيه الاحداث المعقدة فتبدو الرواية لنا واضحة . ولقد قال فوكنر عن هذا القسم « لقد حاولت أن أجمع الأجزاء معا وأملأ الثغرات عندما رويت الأحداث على لساني في ذلك القسم » . وهنا يبدو معنى الرواية في صورته الحادة .

وتقع أحداث هذا القسم من الرواية يوم الأحد في عيد الفصح . ويتركز اهتمام فوكنر في هذا الجزء في اضفاء صور محددة من النظام والتعفن والأنانية والخداع التي شاعت في الأقسام الثلاثة الأخرى . ففي الصفحة الأخيرة يغضب بنجي غضبا شديدا عندما سار لستر بالعربة على يسار نصب الجندي بدلا من على يمينه كالعادة . والى جانب ذلك فاننا نرى الشخصية الايجابية لدلس بكفائتها الفائقة وصبرها واحتمالها وقلبها الملىء بالحب ، حيث

تبدو على نقيض مسز كومبسون العصبية المزاج التي يعزى تحلل وتدهور العائلة الى فشلها في منح أطفالها الحب والحنان . ونجد أن دلس وحدها هي التي تحاول منح كودي بعض العطف الذي هو في مسيس الحاجة اليه . وترجع أهمية ذلك في كونه يجعلنا ندرك بشكل قوي أن يأس كادي يشكل صميم الرواية . وان رواية « الصوت والغضب » هي في الواقع رواية كادي ومأساتها . أو كما قال فوكنر ، مأساة امرأتين ضائعتين هما كادي وابنتها كونتين (التي تحمل نفس اسم خالها كونتين الذي انتحر غرقا) .

ولقد أزعج تمزق الرواية من القراء ، ولكن ينبغي أن يأخذ في الاعتبار أن فوكنر لاتعنيه القصة بشكلها بقدر ما يعنيه ارتياد التفاعلات والانطباعات المختلفة للشخصيات المتعددة ازاء الأحداث نفسها ، وعلى الأخص سلوك كادى قبل وبعد زواجها . وعلى الرغم من أن فوكنر لايحملنا داخل عقل كادي ، الا انها تصبح تدريجيا محور الرواية ، فهنا نجد اخوتها الثلاثة تستعبدهم أفكار سيئة تجاه أختهم ولكنهم يختلفون في سلوكهم تجاهها ، ولو أن الجميع يبدون أنانية والتفكير فيما ينعكس عليهم شخصيا ازاء تصرفاتها . لاأحد منهم قادر على التعاطف معها ومحبتها ، بل الجميع يريدون أن يفرضوا عليها نمطا صارما من السلوك لمصلحتهم الخاصة ، تلك المصلحة التي تتسم بالأنانية . ولكن كادي تثور ضد هذه الصرامة وتعبر عن هذه الثورة في صورة حرية جنسية في أول الأمر ثم زواجها فيما بعد ، وتظل دائما سجينة فكرة معينة ، وهي أن ابنتها رهينة بين يدي آل كومبسون . وترتب على ذلك أن سلكت كونتين مسلك أمها ، ومهما كان الشخص الذي هربت معه فانه على أية حال يعتبر بمثابة أمل في أنها لن تترك وراءها رهينة عند آل كومبسون . وكما هي الحال بالنسبة لأمها ، فان كونتين تبحث عن أي انسان يمنحها الحب . ومن خلال التركيز على هذا البحث اليائس عن الحب وخلال تعاطف دلس بالمقارنة مع كراهية آل كومبسون ، يتضح لنا في النهاية أن الفشل في الحب وانتصار الغرور هي التي تسببت في تدهور وتفتت بيت كومبسون . وما زال النقاد مختلفين ، لا على معنى هذه الرواية فحسب ، بل على قيمتها أيضا .

عندما أرقد محتضرة

أجمع معظم النقاد على أن رواية فوكنر « عندما أرقد محتضرة » As I Lay duing التي كتبها بعد رواية « الصوت والغضب » هي أكمل وأنجح ما أنتج . وهي أبسط رواياته اذا تمكنا من ادراك خطتها التركيبية الأساسية . وتدور حول العلاقات الضاربة بين أفراد عائلة بندرن Bundern الذين يعيشون في ضيعة فقيرة على أحد تلال مقاطعة يوكنا

باتاوفا . والموت المذكور في عنوان الرواية يتعلق بأداى Addie Bundern الأم التي انتزعت من زوجها آنس Anse وعدا بأنها عندما تموت فسوف ينقل جثمانها الى مدينة جيفرسون لتدفن هناك مع أقاربها . وتتحدث معظم الرواية عن رحلة العائلة الى جيفرسون بمصاحبة جثمانها والمخاطر المضحكة أحيانا والمرعبة أحيانا التي يتعرضون لها خلال الطريق حيث تمتزج الملهاة بالمأساة .

وتشتمل الرواية على ستين فصلا (أوقسما) ذات أطوال غير متساوية (أحد الفصول عبارة عن جملة واحدة هي « أمي سمكة » My mother is a fish وبها خمس عشرة شخصية ، وكل فصل يروى على لسان أحدى الشخصيات ، ومن خلال هذا السرد الذي تتبادله الشخصيات تسير الاحداث الى الأمام وتتكون الرواية . وكل حديث يتناول وجهة نظر الشخصية التي ترويه ، كما يدل على ذكاء تلك الشخصية وبصيرتها ومعلوماتها ، سبعة من الخمس عشرة شخصية من آل بندرن والباقي من جيرانهم وبعض الشخصيات التي تنضم اليهم في أثناء الرحلة . ومن المحتمل ان يكون دكتور بيبودي Peeabody أكثرهم أهمية ، فهو الذي يتولى في بعض الأحيان مهمة الكورس أو المعلق على الأحداث ، بينما نجد أن أقلهم أهمية الصيدليين اللذين يتصرفان بطريقة مختلفة تجاه حمل ديوى دل Dewey Dell . ويثنى النقاد عادة على اختلاف وجهات النظر تجاه الأحداث في هذه الرواية ولكنها في بعض الأحيان تبدو مبالغا فيها ومنفرة .

ولقد وجدت أدى المتوفاة عزاء وانتقاما في الوقت ذاته في علاقتها بأبنائها . فهى تحب كاش أكبر أبنائها وهو يحبها ، ولا يعبر عن حبه عن طريق الكلام ، بل بالافعال وعلى الأخص بعنايته الفائقة بصنع كفنها والمجهود المضنى الذى يبذله في سبيل ذلك وقوة احتماله . ولم تكن أدى تكن حبا حقيقيا لزوجها آنس عديم الشخصية ، وعندما ولد ابنها دارل Darl تفجر غضبها فرفضته هو أيضا كما رفضت زوجها ، ولذا يشعر دارل بأنه بلا أم ، وهو غير متأكد من تمتعه بشخصية مستقلة ولا يحب امه ويحاول حرق كفنها ليلغى الرحلة الى جيفرسون . أما جويل Jewel، الابن الثالث لأدى ، فلقد جاء الى الوجود نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه والاسقف وايتهد Whitehead. وبين الأم وابنها جويل حب عنيف متبادل لا يستطيعان الافصاح عنه . فهى تظل تراقب جويل في غرفة نومه حتى ينام ، ولا يجد جويل منفذا للتعبيرعن حبه لأمه الا عن طريق حبه لحصانه .

وعرف دارل أن أخاه جويل ليس من صلب أبيه ، ودأب على سؤ اله مستوضحا منه اسم أبيه الحقيقى ، وهذا سر كراهيةجويل لدارل ، تلك الكراهية التي ظلت تنضج حتى بلغت ذروتها عندما أدخلوا جويل مستشفى الامراض العقلية في جيفر سون . ولقد هاجمت ديوى دل اخاها جويل للسبب نفسه ، وهو الوحيد الذى يعلم

أنها حامل وأنها ترغب في الذهاب الى جيفرسون لشراء دواء للاجهاض . وكانت الأم تقول انها منحت ديوى دل لزوجها في مقابل جويل ! وانها منحته ايضا الطفل الأخير فاراماان ليحل محل جويل . ولقد احتار النقاد في أمر فاردامان Vardaman ، وبما أنه كان طفلا صغيرا عند وفاة أمه فان وصفه لأمه بانها سمكة من الممكن ان يؤخذ على محمل هذيان اطفال .

كل هذه العلاقات التي تتركز حول الأم التي جمعت شمل العائلة طوال حياتها بفضل قوة شخصيتها ، وما زالت تجمعها حتى بعد موتها ، يماط اللثام عنها في الرواية خلال الرحلة الى جيفرسون ، ولذا فتركيب الرواية يعتبر مركزيا وطوليا في الوقت ذاته ، ويمكن مقارنة تحركها بحركة عجلات العربة وهى تدور في أثناء سيرها .

فالحركة الطويلة هى الرحلة ذاتها وتعبر عن وصية الأم ، فهى التي ارغمت زوجها على تحمل مشاق هذه الرحلة على غير رغبته ، وهى انتصار للأم ، والرحلة ذات أهداف أخرى بالنسبة لبعض أفراد العائلة . فالابنة مثلا ، تريد الذهاب الى جيفرسون لا لكى تدفن أمها هناك كما أوصت ، ولكن للحصول على دواء للتخلص من الحمل ، والأب ليتزوج من امرأة جديدة ! ولو ان فكرة الزواج لم تكن تدور في ذهن الأب قبل وصوله الى جيفرسون على مايبدو ، فكانت الرحلة هى السبب في زواجه !

ونموذج الرواية يبدو فكاهيا بالدرجة الاولى ، كما يبدو ان ذلك التركيب الحديث المعقد للرواية قد استخدم ليروى نكتة مثل حكايات الامريكيين الاوائل . ولغتها أصيلة تتحدى اعظم كتابات مارك توين ، وهى في الوقت ذاته تشبه رواية « هكلبرى فن » The adventures of Huckleberry Finn لمارك توين ark Twain. في كونها رواية جادة . ففى رواية « هكلبرى فن » تجرى أحداث رهيبة في أثناء رحلة هكلبرى في نهر المسيسيبى ليحرر جيم ، كما يحدث في أثناء رحلة آل بندرن في طريقهم الى جيفرسون ليحرروا أنفسهم من أدى بدفنها هناك . وفي الروايتين نجد الفكاهة والرعب تبعا لتقاليد كتابة الواقعية الفكاهية في حكايات الامريكيين الاوائل . فالرعب واضح ولكنه يتوازن مع الضحكات وتوكيد القيم الايجابية للانسان .

وقد يبدو بعض التشابه بين أفراد عائلة بندرن ككل في رواية « عندما ارقد ميتة » وأفراد عائلة كومبسون التعسة في رواية « الصوت والغضب » ، حيث تحتل أدى مكانا يشبه مكان كادى ، وبينما لاتظهر القيم الايجابية في « الصوت والغضب » الا في نهاية الرواية عن طريق دلس الغريبة عن العائلة ، نجد في رواية « عندما أرقد ميتة » ان هذه القيم تبرز من بين افراد العائلة عن طريق « كاش » الابن الذى يزداد ادراكة للعلاقات الانسانية عمقا مطردا خلال الرحلة .

الملاذ

تعتبر رواية « الملاذ » Sanctuary اكثر

روايات فوكنر شهرة وشعبية ، وهذه الحقيقة جعلت النقاد الجادين يغمطون قدرها ويقللون من شأنها . ولقد اعتبر بعضهم العنف في الرواية اكثر من اللازم وان لغتها متكلفة ، وشجعهم على هذا الاتجاه في التفكير وليم فوكنر نفسه الذى قال في احدى طبعات هذه الرواية : « ان فكرة هذه الرواية رخيصة ولم يدفعنى لكتابتها سوى الحصول على المال » . ولقد قال فوكنر انه اعتنى بمراجعة الرواية قبل تقديمها للنشر . ويبدو ان هذه المراجعة كانت دقيقة وان الرواية في صورتها المنشورة تعتبر ناجحة ولو انها ليست من الأعمال العظيمة لفوكنر . فهى الى جانب مشاهد الرعب والعنف تحتوى على بعض الاحداث الفكاهية التي تعتبر من أجمل ما كتب فوكنر . فتبادل العنف مع الفكاهة التي تضفى عليها طابع الميلودراما دفعت عديدا من النقاد الى اعتبار الرواية ذات نمط رمزى ، فلقد قال عنها الناقد أودونل O,Donnell عام ١٩٣٥ ما نصه : « ان النمط الرمزى ببساطة هو فساد نساء الجنوب الامريكى ولكنه فساد لايتسم بالدنس » . ويبدو هذا التفسير دقيقا ولكنه لايعكس مسائل العدالة والذنب التى تظهر في نهاية الرواية ولا تتفق مع شخصية هامة مثل شخصية روبى لامار المرأة الساقطة التي أصبحت زوجة جودوين ، فان روبى بصبرها وشجاعتها وحبها العميق لجودوين تعتبر واحدة من بين الشخصيات القليلة التى تدعو الى الاعجاب في الرواية ، وينبغي ان نحكم على تمبل دريك بمقارنتها بروبى ، مع الاخذ في الاعتبار بان روبي نشأت من طبقة وضيعة المستوى بينما تنتمى تمبل الى الطبقة الارستقراطية .

وربما تكون رواية « الملاذ » قصة بنبو Ben-bow اكثر منها قصة تمبل دريك . فبنبو اكثر الشخصيات ذكاء ، وتتطور الرواية تطورا ثوريا بفضل سلوكه وأفكاره ، وقد يكون عنوان الرواية « الملاذ » تعبيرا مجازيا عن المثالية التي لم تخضع للاختبار لدى بنبو ويظل محتفظا بها حتى تتحطم في النهاية عند اتهام جودوين البرىء واعدامه ظلما والمعاملة السيئة التي عومل بها من الجماهير . ولكن المعنى الاكثر احتمالا الذى تفرضه الرواية قد يكون التعبير عن التقاليد العريقة النقية لنساء الجنوب الامريكى وتمتع تمبل بالحماية التى يضفيها عليها انتماؤها لعائلة ذات ثروة وقوة أستطاعت ان تلوذ بها في نهاية القصة .

والفكرة المسيطرة على بنبو بالنسبة لنموذج من نساء الجنوب ، وهى « بل الصغيرة » تجعله يضع كل أملة في أثناء محاكمة جودوين في نموذج آخر يتمثل في تمبل دريك ، وعدم اسراعه بمقاطعتها عند ادلائها بشهادتها في أثناء المحاكمة يعتبر دليلا على عدم تحمسه للاعتقاد بأن نساء الجنوب من الممكن ان يتخلين عنه ويتركنه يواجه كارثة .

وعدم ادلاء تمبل بالحقيقة واليمين الكاذب الذى أقسمته في المحكمة ، والذى بسببه حكم بالاعدام على جودوين يعبر عن تجرد المجتمع الراقي من الانسانية في مدينة جيفرسون كما يبدو على الأخص في طريقة معاملتهم لروبى ، حتى رجال القانون انفسهم لم يسلموا من هذه الوصمة ، فان امتناع تمبل عن الادلاء بالحقيقة

قد فرضته وارغمتها عليه عائلتها ، وبدا القاضى دريك نفسه مثل الآخرين غير مهتم بالعدالة .

فعلى الرغم من براءة جودوين ، فلقد صدر ضده حكم بالاعدام ، حكم ظالم من قضاة فاسدين ، ولم يمهلوه لكى يعدم بالطريقة القانونية ، بل انقض عليه الدهماء وقتلوه ، هؤلاء الدهماء الذين امتزج غضبهم بالحقد الجنسى . وفى نهاية الرواية يركز المؤلف على فساد المجتمع بأسره وعلى الفكرة الرئيسية للذنب والعدالة والثواب والعقاب . ولكن هذه الأشياء لم تستكمل تطورها في هذه الرواية كما استكملته في رواية « قداس لراهبة » Re-quiem for a Nun التى كتبها فوكنر فيما بعد ، عام (١٩٥٠) . تظهر تمبل دريك في هذه الرواية أيضا ، ويلاحظ في عديد من روايات فوكنر ان الشخصيات تعاود الظهور في مراحل مختلفة من أعمارهم وكأنها ملحمة واحدة متصلة تقع أحداثها في مقاطعته الخيالية يوكناباتاوفا ، ولو أنها تختلف اختلافا جوهريا عن الروايات التي تتناول تاريخ حياة الاجيال المختلفة في عائلة واحدة ، اذ لايمكن مقارنتها ، مثلا ، برواية « عائلة بودنبروك » Budden-brooks للكاتب الالمانى توماس مان ، او رباعية الاسكندرية للورانس داريل الانجليزى ، اذ ان كل رواية من روايات فوكنر تبدو كوحدة مستقلة .

ورواية « قداس لراهبة » تبدو فيها تمبل دريك وقد تزوجت وأصبح لها طفلة ، ولكننا لانعلم شيئا عن ظروف زواجها ، والرواية معروضه من وجهة نظر تمبل . وعلى الرغم من جمال كل فصل من فصولها على حدة ، الا انها ككل لاتعتبر ذات اهمية كبرى ، وتجمع الرواية بين السرد والمشاهد المسرحية .

ضوء في أغسطس . Light in August

نشرت هذه الرواية عام ١٩٣٢ ، وهى من اعمال فوكنر العظيمة . هى قصة رجل لاجذور له في مجتمعه لأسباب فرضها عليه القدر ولا يد له فيها . يشعر بوحدة رهيبة ويبحث في يأس عنيف طوال حياته عن مكان في المجتمع وعن معنى لشخصيته . ولكى يروى فوكنر تلك التراجيديا ذات القالب الحديث فلقد استخدم خبرته التى حصل عليها من كتابة رواياته التجريبية السابقة لانشاء عمل أدبى تقليدى سواء في تركيبه او في عرضه للحقائق الاجتماعية . وفكرة الرواية معقدة واحداثها غير مترابطة وليست مرتبة ترتيبا زمنيا ، وتتضمن فترات عديدة من الرجوع الى الماضى Flash-backs ولا توضح لنا كيف كان « كرسماس » بطل الرواية ، في لحظة وفاته ، كما يوجد شك فيما اذا كان ، بعد ارتكابه الجريمة ، قد قبض عليه يوم الجمعة ام يوم السبت .

ويمكن تلخيص الاحداث الخارجية لهذه الرواية فيما يلى : « لينا جروف » فتاة ريفية من ولاية ألاباما تأتى الى مدينة جيفرسون لتبحث عن « لوكاس بيرتس » والد طفلها الذى ما زال في أحشائها . وتتقابل مع « بيروت بنش »

الاعزب الخنوع عديم الأهمية الذى يقع في غرامها ويرعاها حتى تضع طفلها . ويتطابق قدومها مع اكتشاف جريمة مقتل مس بيردن التى تعيش وحيدة منعزلة عن العالم والتي تنتمى الى أسلاف من ولاية نيو انجلاند مؤيدين لمبدأ منع الاسترقاق . واتهم بقتلها شخص يدعى جوكرسماس الذى كان الجميع يعتبرونه ابيض ، ولكن أحد معارفه السابقين ، وهو لوكاس بيرتس يعلن ان الدم الزنجي يجرى في عروقه فيطاردونه على أنه زنجي ويقبض عليه بعد أسبوع من البحث عنه في مدينة « موتستاون » Mottstoun ويعودون به الى جيفرسون حيث يهرب ويهرع الى منزل قس موصوم بالعار يدعى « هايتاور » حيث يقتل بطلق نارى ، ويخصى بواسطة ضابط متعصب من الحرس الوطنى يدعى « بيرسى جريم » Percy Grimm. ووضعت لينا طفلها في هذه الفترة . وعندما يهجرها بيرتس تترك جيفرسون وبصحبتها الشخص المخلص بيرون بنش .

وقصة جوكرسماس تشكل محور الرواية وتعرض حياته على هيئة فترات رجوع للماضى تستغرق سبعة فصول . ولقد أطلق عليه هذا الاسم في ملجأللأيتام بمدينة ممفيس ، وظل طوال حياته تسيطر عليه فكرة معينة ، وهى ان أباه قد يكون الدم الزنجي يجرى في عروقه . ولا يستطيع هو أو نحن التأكد من ذلك الأمر ، ولا يدرى هل يتصرف تجاه المجتمع كرجل ابيض ام زنجي ، فهو يبدو ابيض اللون والمجتمع على استعداد لتقبله بهذا الوضع ولكنه يضطر مرارا ان يقول للناس انه زنجى . وعندما يكون بين الزنوج يصر على أنه أبيض ، وهو بذلك لا يعرف الراحة والاستقرار ، فهو يتذبذب بين البياض والسواد باحثا عن ذاته عن طريق أحداث العنف التى تتميز بها حياته . ومعظم هذه الاحداث تتعلق بالتقاليد التى تسود المجتمع ، وعلى الأخص بالاذى والضرب الذى كان يعانيه من والده بالتبني « ماك ايتشرن » الذى كانت تصرفاته تتسم بعدم المرونة . والعقاب الذى كان يوقعه على كرسماس يجعلنا نستنتج نوعية شخصية ذلك الاب . اما كراهية كرسماس للنساء التي تطورت الى اشمئزاز منهن فيرجع الى نظرتهن الى الثواب والعقاب نظرة عاطفية تجعلهن يشفقن على من يستحق العقاب فيتلاشى الحد الفاصل بين الثواب والعقاب ، حيث كان يكافأ على شيء يتوقع العقاب عليه . وشفقة أمه بالتبنى ، مش ايتشرن ، تؤكد هذا السلوك ، فهى لاتقبله كما هو ولكنها كانت تحاول ان تحمله على السلوك الذى يتفق مع التقاليد . وفي النهاية ، من خلال علاقته بمس بيردن التي كانت في بعض الاحيان علاقة جنسية ، لم تنس انه زنجي . ولذا فلقد نظرت الى هذه العلاقة على أنها جريمة لاتغتفر . وعندما توقفت هذه العلاقة الجنسية اصرت على أن يختار جوكرسماس الوضع الاجتماعى كزنجي . بالحاقة بكلية للزنوج ويسهم معها في خطة لرفع مستوى الزنوج ، فيدفعه ذلك الى مواجهة عنيفة عندما تحاول قتله فيقتلها .

وهذه المواجهة العنيفة التي تؤدى الى تحرر كرسماس من مس بيردن هى السبب المباشر

الذى جعل المجتمع يعامل كرسماس كما يعامل القتلة الزنوج . ومحاولة كرسماس التحرر من قدره الذى يدور في دائرة مفرغة تصاب بالاحباط وخيبة الأمل مرارا تبدو واضحة عندما كان مسافرا في عربة للزنوج متجهة الى موتستاون ليسلم نفسه .

لم يكن يطمع جوكرسماس في اكثر من الاستقرار والهدوء ، ولكن السلام كان الشيء الوحيد الذى لن تسمح له به بيئته . لابد أن يظل يجرى لاهثا في دائرته ، وهوكما يؤكد فوكنر في الرواية ، ليس شريرا ولكنه ضحية من ضحايا الوراثة التي فرضها عليه القدر ونوع التربية التي أتيحت له والمجتمع بشكل عام . والصور المسيحية التي أحاط فوكنر كرسماس بها ، وعلى الاخص في لحظة وفاته لايقصد بها تصوير كرسماس في صورة المسيح ولكن لابراز دوره كضحية .

ولا يمثل كرسماس الصفات الايجابية للرواية ، ولكنه يمثل مأساة الضحية التي لاحول لها ولا قوة حيث تحطمه قوى لا سلطان له عليها . ولقد استخدم فوكنر ليناجروف كاطار يحوى قصة كرسماس ، حيث تبدأ بها الرواية ثم تنتهى بها . تبدأ الرواية بلينا جروف التي غرر بها شخص بعد أن وعدها بالزواج ، ولكنه اختفى . ونرى لينا في بدء الرواية وهى مسافرة للبحث عن هذا الرجل الذى تعتقد انه في مدينة جيفرسون حيث التحق بعمل هناك ، وتنتهي بلينا بعد ان عطف عليها شخص آخر ووعدها بالزواج ولكنه هو أيضا اختفى .

ومولد طفل لينا يعتبر بؤرة العناصر الايجابية بالرواية ، حيث تمثل لينا الحياة بينما يمثل كرسماس الموت . ويزداد تأكيد ذلك عندما تخلط جدة كرسماس بين طفل لينا وحفيدها كرسماس الذى لم تره منذ كان طفلا . ويؤكده ايضا استقرار طفل لينا في المكان نفسه الذى ماتت فيه مس بيردن وتعليق هايتاور على ذلك بقوله : « مسكينة هذه المرأة . . لو عاشت اسبوعا آخر حتى ترى عودة الحظ الحسن الى هذا المكان ، حتى عودة الحظ والحياة الى هذه البقعة الحزينة » . كما ان وجود الطفل ايقظ حساسية هايتاور لجمال الدنيا ، كما ان بيرون الذى حل محل والد الطفل تعنى ولادة الطفل بالنسبة له نهاية عزلته .

وتعتبر شخصية لينا الى حد ما شخصية كوميدية حيث تمثل الفكاهة الريفية . وهى تمثل بعدا من أبعاد ثراء الرواية لتظهر المعنى الشامل لها . ويقول مالكولم كاولى ان عنوان الرواية : « ضوء في أغسطس » جملة ريفية تشير الى حمل لينا ، وتشير أيضا الى النور والظلام اللذين يتعاقبان طوال الرواية والى الاضاءة الاخلاقية التي يشعر بها كل من كرسماس وهايتاور في النهاية . وترمز لينا وطفلها الى صفات الحياة الطبيعية : الخصوبة والصبر وقوة التحمل . ولقد قصد فوكنر بعرضه شخصيات من أمثال دوك هينز Doc Hines وماك ايتشرن Mc Eachern ومس بيردن وبيرس جريم وهايتاور (قيل يقظته) ، توجيه نقد مر للفقر الروحى واللا انسانية الدينية لجنوب الولايات المتحدة . وقصة هايتاور في الرواية ، الرجل

الذى انبثق من الجمود الى الحياة ، قد تكون أوضح مرشد لكل ما يريد أن يقوله فوكنر في روايته .

ولقد تغيرت حياة « هايتاور » Hightower تغيرا جذريا بقدوم كرسماس ولينا جروف ، هـذين الغريبين اللذين قدما الى جيفرسون واظهرا بقدومهما أسوأ وأجمل ما في سكانها . ونلاحظ ان الفصل الذى خصصه المؤلف لسرد تاريخ هايتاور موضوع قرب نهاية الرواية ، قبيل اتمام الاطار الذى يحيط بلينا وبيرون .

ولقد استخدم فوكنر هايتاور عدة مرات كمعلق ذكى ، وفي هذا الفصل نجد أن فوكنر قد عرض لب موضوع الرواية ، تأثر هايتاور تأثرا عميقا بالماضى وعلى الأخص فيما يتعلق بمصرع جده برصاصة أطلقت عليه في أثناء الاغارة على المحلات التجارية بمدينة جيفرسون ، ولقد أمده هذا الحادث بمناعة ضد المشاعر البشرية ، مثل ما حدث لزوجته التي تسبب في انتحارها ، ومع ذلك فلقد ذهب هايتاور الى لينا جروف وحاول انقاذ حياة كرسماس عندما اقسم هايتاور كذبا ، بأن كرسماس كان موجودا بمنزله في الوقت الذى ارتكبت فيه الجريمة ، لقد أدرك ضرورة توافر المحبة والاسهام في صنع اقدار الآخرين ورفض الجمود . وهو في الواقع رفض ماضيه وجميع الذين تسببوا في عذاب كرسماس ، هؤلاء الذين عجزوا عن الاستجابة الى حاجته كانسان وارادوا بدلا من ذلك توافقه مع السلوك المتلائم مع طبقته الاجتماعية .

بيلون Pylon

الرواية التى كتبها فوكنر بعد « ضوء في أغسطس » هى « بيلون » وتعتبر بعد رواية « البعوض » Mosqwtoes، أضعف رواياته . فلقد خلت من التماسك وبدت مفككة ، ويشعر قارؤ ها بتوتر ذهنى . وتبدو الرواية مكونة من عناصر جمعت مع بعضها دون أن تندمج معا . ولقد أعيد طبع هذه الرواية عدة مرات في انجلترا ، لا لجودتها ، ولكن للمواقف الجنسية التى تتخللها مع رداءتها من الناحية الفنية . وتبدو هذه الرواية كالقزم بالنسبة للرواية التي سبقتها وهى « ضوء في أغسطس » والرواية التي كتبها فوكنر بعدها وهى « ابسالوم ، ابسالوم ! » ، إنها قزم بين عملاقين .

أبسالوم ، أبسالوم !

يعتبر بعض النقاد رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » Absalom Absalom أعظم اعمال فوكنر على الاطلاق ، وتحتل مركزا ممتازا لم يشهده الادب الامريكى منذ رواية « أجّنحة الحمامة » Wings of Dove التى كتبها هنرى جيمس . وتعتبر لغة الفصل الاول من الرواية اصعب مافي الكتاب ، وهو يشبه الاسلوب الاليزابيثى في تعقيده وروعته واشراقه ويسرى في جو قاتم عنيف ميلودرامى . كما تبدو الاحداث فيه غامضة ، ويحمل اشارات

لكوارث سوف تحدث وأشياء غامضة حدثت في الماضى ، ولكن تتضح الامور تدريجيا ، وعندما يتضح نسيج الرواية فانه يظل واضحا ولا يبقى مجال للغموض ، ولو ان الاحداث تتأرجح وتبدو كل مرة في ضوء جديد وتزداد ثراء ، ويبدو ذلك في أوضح صورة عند انهيار منزل ستبن Sutpen، اذ أنه في هذا الموضع تحمل الرواية ثقل تراجيديا كونتين كومبسون[٤] ، وهى انتحاره الذى نقرؤه في رواية « الصوت والغضب » والبيئة الأساسية التي تحكى من خلالها قصة « ابسالوم ، ابسالوم ! »

وكونتين في هذة الرواية هو الوسيط الذى نسمع منه أصوات أناس غائبين وموتى . ومن خلال كونتين وخيال شريف Shreve، رفيق غرفته في المساكن الجامعية هارفارد يتجسد التركيب الشاعرى للرواية . والتركيب شاعرى لأن الرواية لاتمدنا بمعلومات مقطوع بصحتها عن حقيقة توماس ستبن .

ونعلم من البداية ان ستبن جاء الى مدينة جيفرسون من مكان غير معروف في يوم من أيام شهر يونيه ، في يوم الاحد عام ١٨٣٣ وشرع في انشاء مزرعة مساحتها مائة ميل مربع يطلق عليها اسم « مائة ستبن » ، ابتاعها من الهنود الحمر . وفي عام ١٨٣٨ تزوج من الين كولدفيلد ابنة تاجر محترم من أهل المدينة ، وفي عام ١٨٦٥ قتل هنرى (ابن ستبن) اخاه من أبيه تشارلس بون لمنعه من أن يتزوج اختهما جوديث ، وانه في عام ١٨٦٩ قتل ستبن ، والذى قتله شخص ابيض فقير يدعى واش جونز Wash Jones اغتصب ستبن ابنته ميلى Milly. كل هذه الحقائق لاشك فيها ، ولكن الذى يظل عرضة للشك هو المعنى العميق لهذه الاحداث وتسلسل الأسباب والتأثيرات التي تجمعها معا .

وتمدنا الرواية بثلاثة تفسيرات لهذه الاحداث ، تفسير على لسان روزا كولد فيلد أخت الين الصغرى التي عاد اليها ستبن في شيخوخته بعد قضاء أربع سنوات في الحرب الاهلية حيث وجد مزرعته وعائلته وقد أصبحت انقاضا . ولقد عرض ستبن على روزا زواجا مشروطا بضرورة ولادتها للابن الذى هو في حاجة اليه . وتفسير ثان عن طريق المستر كومبسون والد كونتين ، وهو ابن الجنرال كومبسون الذى كان الصديق الوحيد لستبن . والتفسير الثالث على لسان كونتين نفسه الذى يقصه على صديقه الكندى شريف في غرفتهما في مساكن جامعة هارفارد قبيل اقدامه على الانتحار الذى قرأناه في رواية « الصوت والغضب » . ومن الظواهر العجيبة في روايات فوكنر ان بعض الاشخاص تتكرر فيها وهم في أعمار مختلفة . وتفسير روزا الذى تقصه علينا في هذه الرواية ويستغرق معظم الفصل الاول والفصل الخامس بأجمعه طابعه الرعب . اما رواية كومبسون

(٤) ذكرنا ان بعض شخصيات فوكنر يتعدد ظهورها في رواياته المختلفة ، وفي هذه الرواية تظهر مرة أخرى شخصية كونتين التى ظهرت في رواية « الصوت والغضب » .

للاحداث فتشغل عدة فصول ابتداء من الفصل الثانى حتى نهاية الفصل الرابع ، وهو اكثر موضوعية وتعقلا من حديث روزا ، ولكنه يغالى في الاتزان ويقول ان موت تشارلس بون يبدو له بلا تفسير .

أما القسم الأخير من الرواية (من الفصل الخامس حتى النهاية) فهو محاولة من كونتين وشريف لتجميع الأحداث والشخصيات غير العادية في قصة ستبن واستخلاص معناها . ويبدو كونتين كبوليس سرى عبقرى يعيد بناء الرواية ويستنتج دوافع الاحداث ويتوصل الى حقيقة شاعرية معينة فيما يتعلق بموت هنرى ستبن وتشارلس بون ، حيث ان استنتاجاتهما مبنية على معلومات أكثر اكتمالا من معلومات روزا وكبسون وأقرب الى الحقيقة ، وتلقى بذكاء ضوءا على شخصيتى المتحدثين السابقين . فحديث روزا مركز على علاقة ستبن بالنساء . بينما يتركز حديث كومبسون على علاقة ستبن بمجتمع جفرسون والجنوب بوجه عام . اما حديث كونتين وصديقه شريف فمركز على علاقة ستبن وتشارلس وهنرى وجوديث ، وينبثق من ذلك الضيق والمرارة التي تشعر بها روزا . وبهذا تعتبر رواية « ابسالوم ، ابسالوم » ! دراسة للشخصيات التي ذكرتها روزا والتي ذكرها كمبسون وشريف ، حيث يتضح تفاعلهم هم الثلاثة تجاه الاحداث نفسها . والى هذا الحد فان رواية « أبسالوم ، ابسالوم ! » تسير على الخط التجريبى نفسه الذى تسير عليه رواية « الصوت والغضب » ورواية « عندما أرقد ميتة » . ولكن « أبسالوم ، أبسالوم ! » تختلف عن هاتين الروايتين اللتين سبقتهما في أشياء عديدة هامة ، وهى تقابل جميع اجزائها واتجاهها نحو رواية مركزية بدلا من عرضها على هيئة اجزاء منفصلة . فهي هنا متداخلة في نسيج واحد مترابط ومتماسك . فأجزاؤ ها الثلاثة التى يرويها ثلاثة رواة تتداخل وتتطابق جزئيا وتتعارض وتتوافق ، وكل منها يضفى قيمة على الاجزاء الاخرى ، وتدور التعليقات الثلاثة نحو الموضوع المركزى للرواية . وقد تحمل الرواية بين ثناياها معنى صعوبة كتابة التاريخ ، اى تاريخ ، واستحالة معرفة الحقيقة وتطور الأسطورة ، وكيف تنمو فكرة بسيطة في ذهن الفنان لتصبح عملا جميلا رائعا . وربما تكون هذه الرواية قد نبتت من قصة بعنوان « واش » كتبها فوكنر عام ١٩٣٤ التى تنطوى على بذرة رواية « أبسالوم ، ابسالوم » ! ، حيث تطورت الفكرة في ذهن فوكنر تدريجيا لتصبح هذه الرواية العملاقة .

والرواية تؤخذ من وجهة نظر واش اكثر منها من وجهة نظر ستبن . والخطأ الذى وقع فيه ستبن يكمن في محاولته اتخاذ آدميين من لحم ودم كوسائل لتحقيق فكرته . وسقوطه كرجل يرجع الى اعتبار الآدميين ، حتى أفراد عائلته ، مجرد ادوات لتحقيق مخططه . وسقوطه كرجل من الجنوب يرجع الى رفضه النظر الى الزنوج كآدميين . وخطا الرواية مندمجان معا ، ولذا فان الحادث التراجيدى في قلب الرواية هو قتل هنرى لأخيه من أبيه تشارلس بون ، ذلك الحادث الذى ارهق مخيلة كونتين مرارا وتكرارا ، ما هو سوى نتيجة رفض ستبن

الاعتراف بابنه تشارلس بون الذى أنجبه من امرأة تجرى في عروقها نسبة ضئيلة من الدم الزنجي ، وهجر ستبن لوالدة هذا الابن . ولم يكن هذا الابن يطمع في اكثر من اعتراف أبيه ببنوته ، ولكن اصرار والده ستبن على الرفض يعرض صورة لاخفاق الجنوب في الاعتراف والتكيف لذلك الطلب المتواضع من الابن ، وهو الحد الادنى لما يمكن ان يطالب به آدميون لاذنب لهم سوى وجود بعض الدم الزنجي في عروقهم في مجتمع لايريد ان يعترف بآدميتهم .

ولقد كان ستبن يرزح تحت وطأة عقدة تأصلت في أعماق نفسه عندما كان صبيا أبيض فقيرا ذهب الى منزل أحد الاغنياء ليقدم له رسالة ، ففتح له الباب خادم زنجي رفض ان يتسلم منه الرسالة وأوصد الباب في وجهه ، ولكن ستبن ، فيما بعد ، نسى أنه هو نفسه اتخذ هذا الموقف العنيف عدة مرات تجاه واش جونز وابنته التى اعتدى عليها وتجاه ابنه هنرى ، وفوق هذا كله تجاه تشارلس الذى رفض بنوته .

قصص فوكنر القصيرة ورواياته ذات الأحداث العريضة

تختتم رواية « أبسالوم ، أبسالوم » فترة في حياة فوكنر الادبية ، وتبلغ ذروة انتاجه في السنوات السبع الواقعة بين عامى ١٩٢٩ و١٩٣٦ عندما نشر فوكنر الى جانب ديوان من الشعر ومجموعتين من القصص القصيرة ، أربع روايات تعتبر من أعظم انتاجه وهى : « الصوت والغضب » ، و« عندما أرقد ميتة » و« ضوء في أغسطس » و« أبسالوم ، أبسالوم ! » وثلاث روايات أقل منها اهمية » وهى : « سارتورس » و« الملاذ » وبيلون « التى مازالت آراء النقاد متباينة تجاهها . لقد كان فوكنر في تلك الحقبة في ذروة خصوبته . وبعد روايته « ابسالوم ، أبسالوم ! » اختلفت روايات فوكنر في قيمها الى درجة كبيرة ، ولكنها تشترك جميعا في عدم توافر الاتصال التركيبى الذى يتوقعه الانسان في أية رواية من الروايات . واذا كان فوكنر قد فند في روايته « أبسالوم ، أبسالوم ! » ادعاءات النقاد من عدم قدرته على تعزيز التأثيرات التركيبية فان معظم أعماله التالية أكدت ان النقاد ربما كانوا على حق ، فلا تعتبر اية رواية من هذه الروايات ناجحة ككل ، ولكنها تتضمن بعض كتابات فوكنر الجميلة في اجزاء منها ، مثل الاجزاء الخاصة بالرجل العجوز في كتابه « النخيل البرى The Wild Palms، وقصة » الدب » و« سروال أسود » في كتاب « اهبط ياموس » ـ Go downMoses حيث توجد علاقة بينها وبين القصص القصيرة لفوكنر . وروايتاه « التى لاتقهر » The Unvaquished و« اهبط ياموسى » ذات وحدة داخلية تجعلنا نعتبرها روايات ولو أنها تتكون من قصص منفصلة .

ولقد نشر فوكنر نحو خمس وسبعين قصة قصيرة بدأت عام ١٩٣٠ بقصة « وردة لاميلى » A rose for Emily ، وهى أشهر قصصه القصيرة ، نشرها عام ١٩٥٠ ، في مجموعة تحتوى على ٤٢ قصة من بينها عديد من القصص

التى نشرها في مجموعات سابقة بعد اجراء بعض التعديلات عليها . كما نشر رواية القرية The Hamlet عام ١٩٤٠ ، ورواية « المدينة » عام ١٩٥٧ ، و« المنزل القديم » The Mansion عام ١٩٥٩ . وقصص فوكنر القصيرة رفيعة المستوى بوجه عام ، ويعد بعضها ضمن القصص العظيمة لهذا القرن . وبعض قصصه القصيرة كانت نواة لبعض رواياته ، فلقد ضمن قصة « واش » في روايته « أبسالوم ، أبسالوم ! » بعد أن قام بتنميتها ، وقصة « شرف » Honor في رواية « بيلون » . والاحداث والشخصيات والمشاهد التى تكون مركز أحد أعماله تعود للظهور على حافل عمل آخر فتثرى معنى الرواية او القصة التى لم يكونوا فيها سوى أجزاء صغيرة ، وهو الشيء الذى يجعلنا نشعر بثراء بقعة جغرافية صغيرة اختارها مسرحا للأحداث ، وهى مقاطعة يوكنا باتاوفا الخيالية .

وتحوى قصص فوكنر من الشخصيات والاماكن اكثر مما تحوية رواياته ، وتقع معظم احداثها في مقاطعة يوكنا باتاوفا . ففى مجموعته القصصية « هذه الثلاثة عشر » these 13، وهى من أجمل مجموعات فوكنر القصصية ، نجد أن قصة « الاوراق الحمراء » Red Leaves وقصة « عدالة » A Justice يحكيان قصة هنود حمر كانوا في مقاطعة يوكناباتاوفا قبل قدوم الانسان الأبيض الى أمريكا ، بينما نجد أن قصتى « وردة لاميلى » و« سبتمبر الجاف » Dry September تقع أحداثها فيجيفرسون عاصمة مقاطعة يوكنا باتاوفا .

وقصة « اوراق حمراء » تروى قصة رجل من الهنود الحمر كان من عبيد أحد رؤساء الهنود الحمر ، ويهرب العبد عقب موت سيده ولكنهم يطاردونه ويقبضون عليه ليموت ويدفن مع سيده في القبر نفسه . وفي قصة « عدالة » التي تروى على لسان « سام » وهو زنجى يجرى في دمه دم الهنود الحمر ، يروى قصته لكونتين كمبسون عندما كان صبيا . (وظهور الشخصيات في أكثر من رواية في أعمار مختلفة يضفى على الروايات جوا من الواقعية الشديدة) ، وتحمل القصة سمات فكاهة الجنوب الامريكى ، ولكن فوكنر لا يحكيها باللهجة العامية التي استخدمها مارك توين بذكاء في روايته « هكلبرى رفن » . ولوان اللهجة العامية تظهر في قصص أخرى لفوكنر مثل قصة Fool about a horse والطبعة الاولى لقصة » الخيل المنقطعة Spotted Horses .

وتعتبر قصة « وردة لا يميلى » ، كما ذكرنا ، أشهر القصص القصيرة لفوكنر ، ولكن تركيز النقاد على هذه القصة من شأنه ان يجعلهم يتجاهلون قصصا قصيرة أخرى لهذا المؤلف لاتقل عنها مستوى ، مثل قصة « سبتمبر الجاف » التى لاقت من اهتمام النقاد أقل مما تستحق . وبوجه عام ، نجد ان فوكنر يكون في أحسن حالاته وفي اروع مستوياته في القصة القصيرة لا في الرواية كما قد يتصور الكثيرون . فهى أقل غموضا واكثر سلاسة في أسلوبها من رواياته ولا تجهد القارىء اثناء قراءتها . وعلى الرغم من بساطتها نجدها قوية التركيب خالية من التكلف في أسلوبها .

التي لاتقهر The unvanquished

كتب فوكنر كتاب « التي لاتقهر » بعد رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » . والكتاب في الواقع عبارة عن سلسلة من القصص القصيرة ، ولكننا نجد في الكتاب استمرارا للشخصيات والمواقف التي تجعلنا نعتبره رواية ، ولو أن نمط القصة الاخيرة في هذا الكتاب يختلف اختلافا مفاجئا عنه في القصص التي تسبقها ، وتعتبر هذه الرواية من اكثر روايات فوكنر تفككا في تركيبها وعدم ترابطها ، ولو أنه من الأصوب ان يبدأ قارىء فوكنر بقراءة هذه الرواية ، اذ تبدو فيها لمسات وتحتوى على شخصيات تظهر في معظم روايات فوكنر ، مما يجعل القارىء مهيأ لقراءة باقى رواياته التي تدور أحداثها في مقاطعة يوكناباتاوفا . وهى في هذا تشبه رواية « سارتوريس » Sartoris، ولو أن رواية « التي لاتقهر » تعتبر أقل جاذبية وأقل اهمية من « سارتوريس » ، ولكن مما لاشك فيه انها أكثر الروايتين اثارة ، وتقع احداثها في أثناء وعقب الحرب الاهلية مباشرة .

النخيل البرى The wild palms

كتب فوكنر رواية « النخيل البرى » عام ١٩٣٩ ، بعد كتابته لرواية (أو مجموعة قصصه) ، « التي لاتقهر » ، وتقف منفردة بين جميع كتب فوكنر ، وتمثل العلاقة بين القصص القصيرة لفوكنر ورواياته .

ويمكن وصف كتاب « النخيل البرى . . بأنه رواية مزدوجة ذات فكرتين منفصلتين ، قصة تحمل عنوان الكتاب وقصة أخرى بعنوان « الرجل العجوز » تتبادل فيهما الفصول فصلا بعد الآخر ، اى نجد فصلا من النخيل البرى ثم يتلوه فصل من رواية « الرجل العجوز » ، وهكذا بالتبادل حتى نهاية الكتاب .

وتدور أحداث قصة « النخيل البرى » حول هارى ولبورن ، وهو طبيب شاب ، وشارلوت رتنماير Charlotte Rittenmeyer. وشارلوت متزوجة ولها طفلان ولكنها تهجر كل شيء وتترك أولادها في سبيل الحب ، متحدية بذلك تقاليد المجتمع ومظاهر الاحترام ، ويواجهان بكارثة عندما يحكم على هارى بخمسين عاما في السجن بسبب قيامه باجهاض شارلوت التي تموت نتيجة لهذه العملية الفاشلة .

اما قصة « الرجل العجوز » فتدور حول أحد المجرمين الذى أرسل في قارب في مياه طوفان عنيف لنهر المسيسبي لانقاذ امرأة فوق شجرة وسط الطوفان ، وانقاذ رجل من فوق سقف محلج قطن . ويعثر المجرم على المراة ، وهى حامل في ثمانية شهور ، ولكن قبل عثوره على الرجل تقذف به مياه الفيضان خلال سلسلة من المخاطر العنيفة ، مثل أمواج المد والمصارعة مع التماسيح . وتضع المرأة مولودها في بقعة مليئة بالثعابين ، وبعد عدة اسابيع يعود الرجل الى المكان الذى بدأ منه ويسلم نفسه قائلا : « ها هو زورقكم وها هى المرأة ولكنني لم أتمكن من انقاذ ذلك الوغد الذى فوق المحلج » .

ولا تـوجد عـلاقة بـين القصتين ، والشيء الوحيد المشترك بينهما هو أن كلا الرجلين ذلك المجرم في قصة « الرجل العجـوز » وهارى في قصة « النخيل البرى » محكوم عليهما بالسجن في السجن نفسه . ونجد أن أحـداث القصتـين تجـرى في زمنين متبـاعدين . قصـة «الـرجـل العجـوز في عـام ١٩٢٧ ، وقصـة « النخيـل البرى » يحدث معظمها في عام ١٩٣٧ . ولذا فلقد رأى معظم النقاد أن تركيب القصتين معا بهـذا الوضـع تركيب فـاشـل ولم تكن لـه أيـة ضرورة . ولقد ظهرت طبعات من الكتاب فيها القصتـان منفصلتـان عن بعضهـما ، ولـو أن البعض الآخر يرى ان تبادل فصول الـروايتين يمدنا بتشابه وتناقض في الأحداث يزيد القصتين ثراء ويضفي عليهما مزيدا من المعنى ، ولو أن ادراكنا لذلك لايحدث في أثناء قراءة القصتين بل بعد الانتهاء من قراءتهما .

وقصـة « الرجـل العجوز » أكـثر تأثيـرا في النفس من قصة النخيل البرى ، ولقد نشـرها الناقد مالكولم كاولى بمفردهـا كقصة مستقلة في كتاب The Portable Faulkner وقال عنهـا انها القصة الـوحيـدة عن المسيسيبى التى يمكن وضعها في مستوى قصة « هاكلبرى فن » لمارك توين ، وتتسم ببعض الصفات المشتركة التي تميز قصة « العجوز والبحر » لهمنجوي ولو انها لا تحتوى على المغزى الذى وجده النقاد في قصة همنجوي . ولقد حظيت قصـة « النخيل البـرى » بـاهتمـام النقـاد والاشـادة بهـا عنـد صـدورهـا ولكنهـا لم تعـد تحـظى الآن بهـذا الاهتمام .

اهبط ياموسى Go down Moses

أما كتاب « اهبط ياموسى » الذى نشر عام ١٩٤٢ فلقـد أصبح مـوضع اهتمـام النقـاد ، وليس هـذا لقيمة الكتـاب من الوجهـة الفنية ولكن لأهميتـه بـالنسبـة لتـطور أفكـار فـوكـنر الاخلاقية والاجتماعية . وقصة « الدب » التى يتضمنها هذا الكتاب كانت موضع نقاش وتحليل عدد من النقاد ، وهى من أشهر أعمال فوكنر ، ولقد نشرت في بادىء الامر في صحيفة « ستردي ايفننـج بوست » ، ولكنـه أدخل عليهـا عـدة تعـديـلات عنـد نشـرهـا في كتـاب « إهبط ياموسى » . وتـدور القصة حـول مطاردة دب يشبـه تلك المطاردة للحـوت في كتاب « مـوبى ديـك » لهـرمـان ملفيـل ، ومـطاردة السمكـة العمـلاقـة في روايـة « العجـوز والبحـر » لهمنجوي . فنجد أن الدب هو دابة رمزية في القصة ، فهو يرمز الى البرارى التي تدور في ذهن فوكنر ، افكار عن الحرية والشجاعة والذكـاء الفطرى . وعندما يموت الدب فان سام ، الذى يطارد الدب ويقتله يموت هو أيضا .

ولكتـاب « اهبط يـامـوسى » فكـرتـان أساسيتان ، فكرة العلاقة بين البيض والزنوج ، وفكرة تدمـير البرارى . وقـد ربط فوكـنر بين الفكـرتـين بـاظهـاره للعـلاقـة بـين الانسـان والأرض .

فوكنر في هليوود وفي نيويورك

بعد نجاح رواية « الملاذ » انهالت على فوكنر

دعوات من هليوود ، وتحت اغـراء المال وافق على الذهاب الى هليوود بعقد لمدة ثلاثة شهور . فسافر الى كاليفورنيا ، وهناك أعد للسينما ثلاثا من رواياته وقصصه : الاولى رواية « الملاذ » ، التي تغير عنوانها في الفيلم السينمائى فأصبح : « قصة تمبل دريك » واضطلعت جوان كرافورد بدور تمبل ، والثانية قصة بعنوان Turn about عن الحرب ، والثالثة رواية « دخيل في التراب » . كما كتب واشترك في اعداد افلام اخرى من تأليف مؤلفين غيره . وذهب بعد ذلك نحو اثنتى عشرة مرة حيث عمل مع شركة وورنر للقرن العشرين وفوكس ومتروجولدوين ماير وبعض المنتجين والمخرجين ، ولكنه عاد في النهـاية ليستقـر في بلده اكسفـورد بـولايـة مسيسيبى .

ولكن هليـوود ظلت تلاحقـه بالتلغـرافات ليقبـل إمضاء عقـود أخرى ، فلقـد اتصل بـه هوارد هواك وقال له : « الا ترغب في البقاء في هليـوود فترة أخـرى وتحصـل عـلى مـزيـد من المال ؟ » . ولكن فوكنر أجاب قائلا : « لقـد وفرت مبلغ خمسة آلاف دولار من النقـود التي حصلت عليهـا من هليوود حتى الآن ، وهـذا يزيد عن أكبر مبلغ لدى أى شخص في ولايـة مسيسيبى ، ولا ارغب في المزيـد في الـوقت الحـاضر ولـذا عدت الى بلدى . » . قـال لـه هوك : « اذا رغبت في الحصول على مال أكثر أخبرنا بذلك . » كان فوكنر ينفق ببذخ واحتاج الى مال فابرق الى هليوود قـائلا انـه يرغب في امضاء عقد آخر . فانهالت عليه الشيكات دون ان يسافر الى هليوود ، ووصلته برقية من رئيس المؤلفـين في الاستـديـو يقـول فيهـا : « وليم فـوكنر . اكسفـورد . ولايـة مسيسيبى . اين أنت ؟ » فـرد فوكـنر ببرقيـة يقول فيهـا : « لم تصلنى الرسالة » ! فوصلته بعد ذلك برقية تقول « اذهب الى نيواورليانـز واتصل بتـود برونـنج هناك » . فرد فوكتر يقـول : « لا أستطيـع . حامل . » ويقصد أن زوجته تنتظر مولودا . ثم وصلت لفوكنر برقية تقول انه لابد أن يسافر الى ممفيس ويركب طائرة الى نيواورليانز . وكان من الممكن أن يركب قطارا ويصل الى نيوراوليانز في اليوم التالي ، ولكنه ذهب الى ممفيس وبقى هناك يومين او ثلاثة ثم طار الى نيواورليانز وأرسل من هناك تلغرافا بقبوله للعمل . فقـال له بـرونـج « نم نوما عميقا حتى يمكننا بدء العمل غدا » . ففعـل ، ولكنـه وصـل عنـد غـروب الشمس فعاد . ثم سأل برونـنج عن الموعد الذى كان من المفروض ان يبدأ العمل فيه وما هى القصة . قال له برونـنج : « يجب أن تذهب الى مؤلف الفيلم هناك وتساله » . فعثر على مؤلف الفيلم وعرفه فوكنر بنفسه قائلا انه كاتب الحوار وسأله عن القصة . فقال له مؤلف الفيلم : « لا تلق بالا لذلك ، اذهب واكتب بعض الحوار وسوف اخبرك بعد ذلـك عن القصة » !! فـذهب الى برونـنج واخبره ان المؤلف لم يشا ان ان يخبره عن القصـة . قال لـه براونـنـج : « اطلب منـه ان يخبرك عن القصة على الفور » . ولكن قبل ان يتمكن من لقـاء الكـاتب وصـــل من هليـوود تلغـراف يقول : « فـوكنر مـرفـوت » . نفـخ برونـنج غيظا وقال لفوكنر : « لا تشغل بالـك بذلك ، سوف اصلح الامور » . ولكن وردت برقية أخرى تقول : « برونـنج مرفوت » . وبعد

وقف برونـنـج عن العمـل تـوقف العمــل في الفيلم . بعد ذلك نفر فوكنر من هليود وأعاد ما قاله المؤلف ايفلين ووEvelyn Waugh انه اكتشف ان المـوت هـو الـزائـر المقيم لجميـع سكانها .

كان فوكنر يكره ان يسأله احد عن كتبه او العمل الأدبي الذى يقوم بكتابتـه الآن . وكان هادئا مهذبا . وعزلته وانطواءه يجعلان النـاس يرونه بارد الاحساس ، ولكنـه بين أصـدقائـه المقربين كان يبدو على حقيقته دافىء العاطفة . يقول أحد اصدقائه من كتاب الافلام في هليوود انه كان يصحبه كل يوم وعدد من الكتـاب في السيارة التى تنقلهم من الفندق الى الاستديو ، وكان فوكنر يبدو دائما هادئا ولا يجرؤ ون عـلى التحـدث معه . فقـال أحد الكتـاب لصـديق فوكنر : « ان فوكنر لابد انه يحبك فلقد قال لك اليوم « صباح الخير » .

كـان قـدوم ممثـلات هـوليـوود وسيـاراتهـا الضخمـة والصغيـرة تجوب شـوارع مـدينـة اكسفورد استعدادا لتصوير رواية فوكنر « دخيل تحت التراب » أعظم حادث هز ارجاء المدينة في تـاريخهـا الـطويـل ، حيث تجمـع النـاس في الشوارع ، وبذل كلارنس براون مخرج الفيلم مجهودا عنيفا هو ومعاونوه لتنظيم وترويض هذا الحشد الهائـل من الاهالي . كـان من مشاهـد القيلم مشهد هجوم عدد كبير من الغوغاء على سجن المدينة في محاولة لقتـل الزنجى العجـوز لوكاس بدون محاكمة ، وهو المحور الرئيسي في الفيلم . وكان هذا الحادث الذى سجله فوكنر في روايتـه قد حـدث بالفعـل منـذ سنـوات ، واشتـرك في الهجوم السينمـائى بعض الاهـالى الذين كانوا قد اشتركوا في الهجوم الحقيقى الذى انتهى بقتـل الـزنجى العجـوز فبـدا المشهـد السينمائى طبيعيا وكأنه تصوير لحدث حقيقى ، وكان الاهالى يتسابقون لتظهر صورهم في هذا المشهد . كان فوكنر طوال فتوة تصـوير الفيلم ملازما للمخرج يرشده الى أماكن التصـوير ، ولكن عندما انتهى تصوير الفيلم ودعى فوكنر لحضـور حفل العـرض الاول رفض الـدعـوة وأدهش ذلـك رجال هليـوود وأغضبهم ، كما أدهش عائلة فوكنر . ورفض فوكنر مجرد التقاط صورة فوتوغرافية له لوضعها عنـد مدخـل دار العرض السينمائى !

وأقامت شركـة متووجلولـدوين مايـر حفلا رائعا لتكريم مؤلف الفيلم ، وهو تقليد تتبعه جميع الشركات السينمائية في أمريكـا ، ولكن فوكنر لدهشتهم جميعا ، اعتذر عن عدم حضور هذا الحفل الذى أقيم من أجله قائلا انه في هذا الوقت سيكون مشغـولا باحضـار ابنته وبعض صـديقاتهـا من المدرسـة كما اعتـاد ان يفعل ، فاستنجد مدير دعاية الشركة بزوجة فوكنر لتقنعه بحضور حفل التكريم وحفل الافتتاح ، ولكنها لم تستـطع تغيير رأيـة ، حتى رجاء ابنتـه جيل واستعطافها له لم يكن له أى تأثير !

فوكنر والنقاد

كتب النقاد عن أعمال فوكنر عددا هائلا من

المقـالات والكتب . ومن الـطبيعى ان نجـد لهؤلاء النقاد أقوالا متعارضة وآراء متباينة .

كتب عنه الناقد روبرت بن وارين Robert Penn Warren يقول فيما يتعلق بالشكل في رواياته انه اذا استثنينا انداده ، هرمـان ملفيل (مؤلف رواية موبى ديـك) وهنرى جيمس ، فان فوكنر يعتبر أعـظم كاتب تجـريبى للرواية انجبته امريكا على الاطلاق . والفترة التى بدا فيها الشكل التجـريبى ، هى تلك الفترة التى اخترق فيها قشرة مادته التقليدية ، عندما صور بشكل درامى مفتاح الحياة في الجنوب الامريكى فتطلب هذا المضمون نوعا معينا للشكـل ، لم يكن من الممكن عرضها الا في هذا الشكل الذى اختاره فوكـنر ، حيث نجد الصـدمة الثقـافية والتطور التكنيكى يسيران جنبا الى جنب .

ويعتبر فوكنر في رأى روبرت بن متميزا بروح الفكاهة شأنه في هذا شأن مارك توين . والفترة الرائعة في حياة فوكنر الادبية منذ كتابـة رواية « الصـوت والغضب » حتى رواية « القـريـة » تعـاصر فتـرة الازمة الاقتصـادية وظهـور شبح الحرب العالمية الثانية ، وتعاصر في الوقت ذاته الصـدمة الثقافية ، حيث كانت التغيرات والتوتر شديدة وحادة في ذلك الوقت . ولا يعنى هذا ان فوكنر اتخذ من الازمة الاقتصادية موضوعـات لرواياتـه ، ولكن الازمة الاقتصـادية اظهـرت مسألة الـوقت والتغيير اللذين وضعهـما فوكـنر كبذور لتطوره بعـد ذلك . والشعـور بالـركود الذى تميزت به حياة الريف في الجنوب الامريكى حتى بعـد الحرب العـالمية الاولى ، تغـير فجأة نتيجة للازمة الاقتصادية ، وبدأ التسـاؤ ل عما يمكن عمله لتغيير هذا الوضع . وفكر البعض في أن الخلاص قد يكون في الرجـوع الى طريقـة الحيـاة الماضيـة ، ولو ان الـرجوع الى النـوعية الماضية حيث الركود والاستقـرار يعتبر في حـد ذاته تغييرا ، فلم يكن هناك بد من التغيير بأى صورة من الصور .

وعلى الرغم من أن روايات « سارتوريس » و« الصوت والغضب » و« عندما أرقد ميتة » لم تنجح من الوجهة التجارية الجماهيرية ، فلقد أشاد بها عدد من النقاد من الوجهة الفنية ورأوا فيها موهبة أصيلة واعتبروهـا لونـا جديـدا من الأدب ، ولو ان الناقد كاولى Cowley كتب في صحيفة « نيوربابليك » New Requblic أنه يوجد نوع من الانفصال في فوكـنر ويعوزه التناسب بين التنبيه والاستجابة للتنبية . ويقول كاولى ان معظم روايات فوكنر من الممكن ان تـوضع في نـطاق روايـات الـرعب Gothic novels . ولكنه يقول بعد ذلك عن كتاب « اهبط ياموسى » انه لايوجد أى كاتب أمريكى آخر لم ينصفه النقاد كما حدث لفوكنر بما فيهم أنا » . ويقول بعد ذلك مدافعا عن فوكنر عقب هجـوم بعض النقـاد عليـه ان فـوكـنر ، اذا استثنيناهمنجوي ودوس باسوس Dos Passos يعتبر أعظم روائى في هذا الجيل .

ويتساءل كاولى قائلا : ترى الى اى حد في امكان أساتذة الادب في الجامعات ان يرفعوا من قدر المؤلفين او يدمروا سمعتهم داخل قاعات الـدراسة ؟ ! اذ في أواخـر الثلاثينـات وأوائل

الاربعينات عندما كانوا يثيرون معارك حول شتاينبك وهوارد فارست في احترام واجلال في الوقت الذى كان مخصصا للحديث عن أعمال سوفوكليس فان فوكنر لم يكن يذكر الا في لحظات خاطفة .

وبعد الحرب العالمية الاولى ، عند عودة الجنود الى جامعاتهم التى كانوا فيها وتركوها لاستدعائهم للقتال قال احد هؤلاء الطلبة لكاولى : أشعر كأن شيئا سرق منى » . وأضاف الطالب مفسرا ذلك بقوله انه في الجامعة التي كان فيها قبل استدعائه للحرب كانوا يخصصون عنه دراسة الادب الامريكى ، ستة أسابيع لدراسة رواية « عنب الغضب » Grapes of Wrath لشتاينبك ، ونصف ساعة لدراسة اعمال فوكنر ، وهي قصة « وردة لايميلى » وهو العمل الوحيد لفوكنر الذى جادوا بدراسته ، ويستنتجون من هذه القصة الوحيدة ان فوكنر كان فاشيستيا مستترا !

لقد انغمس هؤلاء الشبان في قراءة روايات فوكنر بانبهار شديد واعتبروها ذات مستوى أكاديمى رفيع على الرغم من أن أساتذتهم لم يعيروها أى اهتمام ولم يلفتوا أنظارهم اليها ، ولقد أمدتهم فترة الحرب بفهم عميق لهذه الروايات ومكنتهم من اكتشاف أبعاد شخصياتهم كأمريكيين .

والمسألة التى يراها كاولى مقبولة لطرح المناقشة هى ما اذا كان من الممكن ان نعتبر فوكنر واحدا من الكتاب المعاصرين القلائل ، وربما الامريكى الوحيد ، الذى نجد أعماله الى حد كبير معنية بمسائل عصرنا بالقدر الذى نجده بدرجات متفاوته في أعمال هرمان ملفيل ودستيوفسكى وكافكا وكونراد وبروست واليوت وييتس وكامى .

لم يكن المضمون فيما يتعلق بالشخصيات والمواقف فحسب هى التى جذبت القراء لاعمال فوكنر ، بل كانت موضوعية الاعمال بجانب ذلك . فالقارىء يشعر من خلال اعماله بأنها تكاد تكون تجارب شخصية غير بعيدة عن التجارب التى يعرفها القارىء حق المعرفة .

ولفوكنر حساسية للحديث سواء أكان حوارا أو سردا طويلا على هيئة مونولوج مثل حديث جاسون او راليف في رواية « الخيل المنقطة » ، بأسلوب متميز عن شتى أنواع الاساليب الاخرى ، مما يشعر القارىء بأنه يقرأ احداثا حقيقية وليست من صنع الخيال .

او كما ذكرت مونيك ناثان Monique Nothan في كتابها عن فوكنر بأن شيئا يشبه الطقوس في أسلوبه . او بطريقة ارستطالية تقول انه يجعل السرد الروائى يندمج مع العاطفة . والعاطفة في رواياته هى الوسط الشخصى الذى يحمل بين طياته الاحساس بالمضمون اللاشخصى .

وصمت فوكنر واقتصاده في الحديث في حياته الخاصة وعدم وضوح الشخصيات في رواياته اذا قارناها بشخصيات همنجوي او سكوت فيتزجيرالد تبدو متناقضة تحتاج لنوع من الالهام لدى القارىء لينتزع المعنى من خلال الظلام

الذى يكتنفة . ويشير مارلو الى ذلك قائلا ان فوكنر لابد أنه يتخيل مشاهد رواياته قبل أن يتخيل شخصياته ، والعمل الروائى لديه لايحدد الموضوع ، ولكن ينبثق من خلال شخصيات مجهولة لديه . وقد تومض في ذهنه فكرة قصة او رواية نتيجة لمشهد عابر من مشاهد الحياة ينبعث منه موضوع الرواية وشخصياتها دفعة واحدة وكأنها كانت مختبئة خلف هذا المتهد ، ويوجد في أقوال فوكنر مايبرر هذا الرأى ، اذ يقول ان رواية « الصوت والغضب » ومضت في ذهنه نتيجة رؤ يته سروال فتاة صغيرة ملطخ بالوحل ، وان رواية « ضوء في أغسطس » نشأت عند رؤ يته امرأة شابة حبلى تسير في طريق غير مطروق .

ولقد هاجم اعمال فوكنر على مر السنين عدد كبير من النقاد ، وأهم نقد وجه اليه هو ان فوكنر مشوش الافكار واسلوبه غير واضح . فلقد انتقده كل من كلفتو نادبمان في مقاله عن رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » نشر في صحيفة النيويوركر عام ١٩٣٦ ، كما هاجمه الفريد كازين عام ١٩٤٢ ، ولو أن كازين اشاد بقوة الابداع عند فوكنر ، الا أنه اشتكى من عدم فهم فوكنر للجنوب الامريكى فهما حقيقيا . واعجاب فوكنر بالجنوب واشمئزازه منه يمتزجان معا في ذهنه . وكمشارك في الاسطورة الشاملة لتقاليد الجنوب وتدهوره فانه يبدو غبيا وسطحيا وغالبا بلا معنى وبلا مبالاة . فلا تنبثق أعماله من نقد شعورى للمجتمع . ويقول كازين أيضا ان أسلوب فوكنر يبدو نابعا من تصور مشوش غامض غير واضح الهدف أكثر منه انبثاقا من هدف واضح مترابط ، ولو أن آراء كازين أصبحت أميل الى الاعتدال الذى بدا واضحا في حفل أقامته جامعة كولومبيا بمناسبة حصول فوكنر على جائزة نوبل عندما شجب كازين الرأى القائل بأن اعمال فوكنر مظهر من مظاهر الاضطراب العصبى . ولقد وصف كازين رواية « ضوء في أغسطس » بأنها رواية عظيمة ، ولو أنه يصف الرواية في الوقت ذاته بأنها شديدة الغضب في طريقة عرضها ولكنها عديمة المعنى في محتواها . او بمعنى آخر : طبل أجوف .

ويقول الناقد مالكولم كاولى في مقدمة كتابه الشهير « كتيب فوكنر The Portable Faulkner ان فوكنر كتب روايات عن مقاطعة يوكنا باتاوفا وسكانها ، وظهرت في اجزاء من روايات أخرى وفي نحو ثلاثين قصة . ولقد كانت رواية « سارتورس » اول رواية تنشر لفوكنر متضمنة أحداثا تقع في مقاطعة يوكنا باتاوفا ، وهى قصة رومانسية غير مقنعة . ولقد كتب فوكنر رواية « الصوت والغضب » قبل رواية « سارتوريس » ، ولكنها نشرت بعدها بنحو ستة أشهر ، وهى أكثر رواية من رواياته اثارت جدلا ومناقشات . ويعتبر كاولى رواية « الملاذ » اكثر روايات فوكنر شعبية وأوسعها انتشارا ، بينما رواية « ضوء في أغسطس » في رأية ، تعتبر أحسن رواياته .

ويقول كاولى إنه كما قسم بلزاك سلسلة رواياته التى أطلق عليها في مجموعها « الكوميديا الانسانية » Comodic Humaine الى مشاهد من الحياة في باريس ومشاهد من الاقاليم الفرنسية ومشاهد من الحياة الخاصة ، فان فوكنر

بالمثل من الممكن تقسيم أعماله الى عدد من الدورات ، واحدة عن الفلاحين وذريتهم ، وواحدة عن هل مدينة جيفرسون ، وواحدة عن فقراء البيض والهنود الحمر وواحدة عن الزنوج . واذا كان التقسيم عن طريق العائلات فاننا نجد دورة عن الاعمال البطولية لعائلتى كمبسون وسارتوريس ، واخرى عن بطولات عائلة سنوبس Snopes وبطولات ذرية ماك كازلين المنبثقة من ذرية كاروثرز ماك كازلين Carothers Mc Coslin ودورة عن بطولات عائلتى راتليف وباندرن Ratliff — Bundern . وجميع هذه الدورات متشابكة معا . وقد نجد قصة قصيرة وكأنها استكمال لرواية تسبقها . وعلى سبيل المثال فاننا نقرأ في رواية « سارتوريس » ان بيرون سرق حزمة من الخطابات من نارسيسا بنب ، وفي قصة نشرت بعد الرواية بخمس سنوات وهى قصة « كانت هناك ملكة There Was a Queen نجد كيف استردت ناسيسا الخطابات المسروقة . وقد يحدث العكس ، اذ نجد في احدى رواياته استمرارا لاحداث ذكرها في قصة قصيرة سابقة ، فالمرأة التى وصف المؤلف رعبها من الموت في قصة « شمس المساء » The Evening sun قد قتلها زوجها وترك جثتها في حفرة لتلتهما جوارح الطيور في رواية كتبها بعد كتابة القصة القصيرة . وقد يقع فوكنر في تضارب في تفاصيل رواياته التى تتكرر فيها الاشخاص نفسها ، وعلى سبيل المثال ، وجد عاملا في مصنع آلات الحياكة يدعى ف . ك . سيورات V.K.Suratt يظهر في رواية « سارتوريس »

وبعض القصص اللاحقة الاخرى ، وعندما نصل الى الزمن الذى تقع فيه أحداث رواية « القرية » نجد ان اسمه قد تغير . وأصبح Ratliff ولو أن شخصيته تظل كما هى ، كما يظل سنه كما هو على الرغم من مرور عشرين عاما بين أحداث الروايتين . وفي رواية « أبسالوم ، ابسالوم! » نجد أن القصر المقام في مزرعة ستين مبنى بالطوب في بدء الرواية ، ولكن عند نهايتها نجده مبنيا بالخشب الذى يحترق بأكله فلا يبقى سوى مداخن المدافىء ! ولو أن هذه الاخطاء قليلة وغير ذات أهمية . ولقد وقع دكنز وسرفانتيس وغيرهما في أخطاء من هذا القبيل قد تكون أكثر أهمية ولكنها هفوات لا تؤثر على قيمة العمل الفنى ، وجل من لا يسهو .

ويقول كاولى ان فوكنر أساسا ليس روائيا ، وان جميع رواياته تتسم بضعف في التركيب ، وبعضها يتضمن موضوعين رئيسيين او اكثر لاتكاد توجد علاقة بينهما كما هى الحال في رواية « ضوء في أغسطس » بينما في روايات أخرى للمؤلف ، مثل « القرية » تتراص احداثها بجوار بعضها وكأنها خرز في عقد . ولا يمكننا ان نقرر ما اذا كانت الاقسام الاربعة في رواية « الصوت والغضب » مرتبة كما ينبغي ان يكون . فلا يمكننا ان نفهم القسم الاول من هذه الرواية فهما كاملا ، وقد لا يمكننا قراءته الا بعد قراءة الاقسام الثلاثة الاخرى . ويبدو فوكنر في أحسن حالاته في قصصه الطويلة كقصة « الدب » وفي اسطورة اليوكناباتاوفا بشكل عام . وينبغي ان نحكم عليه من خلال اجمل أعماله لا من خلال أسوئها كما هى الحال

في الحكم على جميع المؤلفين . وهو في أحسن حالاته ، وربما في أسوأ حالاته في بعض الاحيان يمتلك قوة وثراء للحياة لانجدهما في أى كاتب أمريكى في عصرنا هذا . انه كما قال هنرى جيمس وهو يصف الكاتب الامريكى هو ثورن : « يمتلك عنصر العبقرية البسيطة والقدرة على التخيل » . وعلاوة على ذلك فهو ينطوى على حب عميق للبقعة من الارض التى ولد وتربى فيها ، والتي ، عكس معظم المؤلفين الآخرين في جيله ، اختارها ليقضى فيها كل حياته تقريبا .

ويقول كاولى ان روايات فوكنر تتسم بصفات تجعلنا نعيش فيها ونمتصها ونتذكرها اكثر من مجرد ملاحظاتها . وعى عكس ما نجده في معظم روايات هذا العصر ، نجدها زاخرة بدفء العواطف العائلية ، الاخ وأخوه واخته ، والاب وأطفاله ، ذلك الحب الدافىء المتعالى الذى يربط افراد العائلة لدرجة تحجب عنهم باقى العالم ، وهذه الروابط بوجه عام لاتظهر بين الكبار كما تبدو بين الاطفال من زنوج وبيض ، ولو ان عكس ذلك ، في رأيي ، يبدو واضحا في رواية « الصوت والغضب » ، فالاخ فى هذه الرواية يخصى اخاه المسكين المتخلف عقليا بسبب تافه ، والاخ يسرق اموال ابنة أخته ولا نرى في الرواية شخصا يعطف على بنجى المتخلف عقليا سوى الخادمة الزنجية العجوز . كما نجد الأم في رواية « قداس لراهبة » تهجر طفلها الانثى التى تقتلها الخادمة العجوز اشفاقا عليها من المصير المظلم الذى ينتظرها بعد هجر أمها لها . كما نرى ستبن في رواية « أبسالوم ، أبسالوم ! » يرفض الاعتراف بابوته لابنه تشارلس ويطرد ابنه هنرى . وأرى ان تعاطف فوكنر مع الزنوج اكثر وضوحا من تعاطف افراد العائلة الواحدة من البيض .

فوكنر وجائزة نوبل

في صباح العاشر من نوفمبر عام ١٩٥٠ بينما كان فوكنر ينثر السماد على حقل مجاور لمنزله جاءت الانباء تفيد بحصوله على جائزة نوبل ، فهرولت زوجته خارج المنزل لتزف اليه هذه البشرى . بدت عليه الفرحة فتوقف عن العمل لحظة قصيرة ليحتفل بذلك مع زوجته وابنه وأحد الزنوج الذى كان يساعده في الحقل ، ثم عاد ليواصل العمل . في هذه الليلة فتح فوكنر منزله للأقارب والأصدقاء الذين هرعوا لتهنئته بهذا الفوز العظيم الذى يعتبر حلم كل أديب خلاق مبدع . استقبل فوكنر زواره بحرارة وسرور ولو أنه كان يبدو ساهما ، وما لبثوا أن عرفوا السبب . لقد قرر بينه وبين نفسه عدم الذهاب الى ستوكهولم عاصمة السويد ليتسلم جائزته ، ولم يكن قراره هذا ناتجا عن عزوفه عن الاحتفالات والظهور بين الجماهير فحسب ، او لاعتقاده بأن الجائزة فقدت قيمتها عندما تجاهل المحكمون دريزر وشروود اندرس وهما من أفاضل ادباء المبدعين ومنحوها لشخص مثل سنكر لويس لايرقى الى مستواهما ، ولكن قراره ربما كان راجعا ايضا الى احتقاره للتقدير الرسمى الذى شعر بأنه تأخر كثيرا ، ولما شعر به من هجوم النقاد أو تجاهلهم له . ولم يثنه عن عزمه هذا سوى ابنته جيل ، فكل فتاة تتوق

لرؤ ية باريس التي سيمر بها في أثناء رحلته ، ولم يشأ ان يحرم ابنته من رؤ يتها . ولم يشعر أهل مدينته بمعنى أو مغزى هذه الجائزة ، ولكنهم شعروا بأن مواطنهم فوكنر لابد أن يكون متميزا بميزات لايدركونها . وقال أحدهم ان فوكنر جاءه التقدير من الخارج قبل أن يأتيه من أهل مدينته . ولكن رئيس تحرير الصحيفة المحلية للمدينة المسماة نسر اكسفورد Oxford Eagle نشر الخبر بالبنط الكبير في صدر الصحيفة مع نشر صورة لفوكنر وجعله مساويا في الاهمية لخبر آخر نشره في الصفحة نفسها وبالبنط نفسه عن برنامج لبناء المدارس يتكلف ٦٢٥ دولارا ، كما نشر مقالا بقلم فيليب ستون صديق فوكنر لخص فيه حياة فوكنر واختتم مقاله بقوله « ان فوكنر وأنا قد كبرنا في السن وأصبحنا الآن شيخين . . . . ان فوكنر قد يكون كانسان أعظم منه ككاتب . يتكلم كثيرون منا عن التواضع ، عن الشرف والولاء والعرفان بالجميل . ان بيل (كنية فوكنر) لايتحدث عن هذه الاشياء ولكنه يعيشها . قد يهجرك الناس الآخرون ولكنه ليس بيل اذا كان صديقك . . . . » .

وبعد أسبوع من وصول نبأ الحصول على الجائزة ذهب فوكنر كالعادة في موسم الصيد السنوى في مقاطعة شاركى الذى اعتاد الاشتراك فيه كل عام ، ولاحظ شيئا من عدم الارتياح لدى بعض رفاقه الذين لم يكن يخطر ببالهم ان لفوكنر هذه الاهمية ، وأصبحوا ينظرون اليه نظرة تتسم بحب الاستطلاع . والى جانب القيمة المعنوية والادبية للجائزة ، فان قيمتها المادية في ذلك العام كانت ثلاثين ألف دولار . قال له أحد رفاق الصيد مازحا : « اظنك الآن يابيل وقد حصلت على كل هذا المال فان هذا دليل على أن عقلك كبير لدرجة لن تسمح لك باصطحابي معك بعد ذلك في رحلات الصيد » . فقال فوكنر : يا للجحيم ، انها لاتزيد عن كونها نقودا ، اذ لايوجد لديهم لحم غزلان هناك » .

وحول النار سأله رفيقه هذا مرة أخرى ليختبره : « ماذا تفعل يا بيل لو وجدت سفير السويد يأتى لنا هنا الآن ويسلمك هذه النقود ؟ » . فأجاب فوكنر الذى كان في هذه اللحظة يغسل الاطباق وقد ارتدى مريلة من الخيش حول وسطه قائلا : « سأخبره ان يضع النقود على هذه المنضدة التي هناك ويلتقط خرقة ويساعدنى » . فزالت الرهبة التي كان يشعر بها رفاقه وعادت الامور طبيعية كما كانت .

وسافر فوكنر في رحلته الى السويد ليتسلم جائزته من يد ملك السويد بصحبة ابنته ، وكان صديقه ستون من بين الأصدقاء والأقارب الذين ذهبوا لوداعه عند السفر . وعند ظهور فوكنر في الحفل هناك ، تركت كبرياؤه وتصرفاته انطباعا رائعا لدى كل من شاهده . لقد ألقى الخطاب التقليدى الذى يلقيه الحائز على جائزة نوبل في الأدب ، وكان من أروع ما ألقى في خلال هذا القرن .

***

أهم المراجع :

William Faulkner : Mosquitoes

William Faulkner : The Hamlet

William Faulkner : Sartoris

William Faulkner : Go Down Moses

William Faulkner : The Sound and the Fury

William Faulkner : Absalom Absalom

William Faulkner : Sanctuary

William Faulkner : Light in August

William Faulknr : Pylon

William Faulkner : The Unvanquished

William Faulkner : Intruder in the dust

William Faulkner : Requiem for a Nun

William Faulkner : The Wild Palms

Michael Millgate : Faulkner

Robert Coughlan : The Private World of William Faulkner

Robert Pann Warren : Faulker

Malcolm Cowley : Writers at Work



المجامع اللغوية ودورها في تعزيز اللغة في التخطيط اللغوي

زكريا أبو حمديه

تمهيد

يظهر بين الفينة والأخرى حوار وجدل في وسائل الاعلام والنشر العربية المكتوبة منها والمسموعة بشأن استعمال هذه اللغة أو تلك في التعليم العالي ، أو التخصص وما ينبع منه من أبحاث متخصصة . ويؤول محور النقاش الى مدى صلاحية اللغة العربية للاستعمال في هذه المجالات والى مشكلات تنسب الى اللغة نفسها . ونجد أن فرقاء النقاش يتخذون مواقف مختلفة ، بين قول بأنها غير صالحة وذلك لقصور المفردات والمصطلحات فيها عن استيعاب تلك المجالات ، وبين موقف يسلم بهذا القصور ويدعو الى سد هذه الفجوة بوضع مفردات ومصطلحات جديدة .

وعندما يُطرق موضوع المفردات والمصطلحات فان أول ما يتبادر الى اذهان اطراف النقاش وغيرهم هو مجامع اللغة العربية (في بغداد ودمشق وعمان والقاهرة) ومكاتب ولجان او دوائر او مؤسسات اخرى في البلاد العربية ، مثل مكاتب ولجان التعريب والترجمة والنشر . ومن المعروف ان هذه المجامع واللجان .. الخ تقوم بنشر انتاجها في هذه المجالات ، كما تعقد الندوات والمؤتمرات الدورية المحلية والقومية لبحث مشكلات اللغة العربية والعلاجات المقترحة ، وتخرج بتوصيات ترفع الى الجهات الرسمية والهيئات المعنية .

وعليه فانني اعتقد أن القارىء قد يكون لديه ما يعتقد أنه يرضيه من المعرفة بهذه المجامع واللجان والمكاتب العربية .

ومن منطلق اطلاع القارىء بالعربية من ذوي الاختصاص باللغة ومشكلاتها وذوي الاهتمام بشؤونها ، ومنطلق فتح المجال أمام المقارنة والمشابهة بين عمل المجامع بشكل عام فانني أقدم هذا البحث عن مجامع لغوية في اقطار أخرى من العالم حتى نتبين خطوط العمل المجمعي في إطار عالمي .

يبدأ هذا البحث بدراسة مركزة للتخطيط اللغوي ودوافعه وأهدافه واسسه واساليبه ومناهجه . ثم يطرق البحث ظاهرة ظهور الجهود الجماعية المنظمة (والتي تشكل المجامع أفضل مثال عليها) لمعالجة المشكلات اللغوية على مستوى الدولة أو مستوى القومية أو مستوى المجموعةِ العرقية الواحدة ، الناطقة بلغة غير لغة الدولة التي تعيش فيها . وبعد ذلك يقدم البحث وصفا تحليليا لنشوء ونشاطات المجامع اللغوية التالية : مجمع الايطالية ، مجمع الفرنسية ، مجمع السويدية ، مجمع الاسبانية في مدريد ، مجامع الاسبانية خارج اسبانيا ، مجمع الايرلندية ، مجمع السكتلندية ، لجنة اصلاح الصينية ، مجمع العبرية ، مجمع التركية ، لجنة شونا ، مجمع الفريزية .

ويأخذ الحديث عن هذه المجامع وظروف نشوء كل منها والمنجزات التي قام بها كل منها اطار التخطيط اللغوي بالمنظور الذي قدمته في مستهل البحث .

ان الجهود الجماعية الطوعية والرسمية تجاه حماية لغة ما أو تجاه تعزيز وضعها من ناحية توسيع مجالات استعمالها أصبح في منظور اللغويين المحدثين وباحثي العلوم الانسانية ضمن حقل اكاديمي جديد يعرف بالتخطيط اللغوي .

يُشرع في التخطيط اللغوي نتيجة تقييم وضع وظروف معينة ، وتحديد مشكلة تقدر اللغة فيها على أنها محور المشكلة . ومن ثم توضع خطوات عمل محددة (تكون اللغة هدف العمل) واضحة لعلاج المشكلة عن طريق حلول مقترحة (نابعة من جوانب تقييم المشكلة) وترتب في اولوية بدائلية (Rubin, 1973 : 5) . والتخطيط اللغوي في جوهره لا يختلف عن التخطيط بمعناه العام .

وعليه فان التخطيط اللغوي أفضل ما يُرى ويُفهم من خلال الاطار العام لتخطيط اجتماعي وسياسي واقتصادي لمجتمع ما ، وذلك لتداخل اللغة في جميع هذه المجالات ، ولكون اللغة مصدرا اجتماعيا تتأثر به القطاعات الاقتصادية والسياسية . ويبدو هذا التأثر جليا حين يتطلب التخطيط الاقتصادي أو السياسي أو التربوي الاعتماد على لغة غير اللغة الدارجة

(أي المستعملة) في ذلك المجتمع . كما يظهر أثر التخطيط الاجتماعي في اللغة إذا أدى ذلك التخـطيط الى تحـد للقيم التي يحملهـا ذلـك المجتمع تجاه لغته في حالة الشعور بان وضعها مهدد بالاضمحلال أو الزوال . وهذا ما يحدث في المناطق التي تحتلها قوى خارجية تنطق بلغة تختلف عن تلك اللغة ، وتستمر القوة الغازية باستعمال لغتها هي في تسيير أمـور المجتمع ، الشعب المغلوب .

ولكي ندرس عمل المجامع في القسم التالي من البحث لا بد من وضع تعـريف للتخطيط اللغوي يحدد مدلوله ، وينظر الى عمل المجامع من مدلول هذا التعريف .

« التخطيط اللغوي مهمة لغوية ظاهرا تنبثق من أسس سياسية واجتماعية واقتصادية نـابعة من منظور قيم معينة . وتأخذ هذه المهمة شكلا اداريا منظما بشأن حل لوضع لغوي معضل على المستوى القومي أو مستوى الدولة الواحـدة ، ويكون هدف هذا الحل تغيير أو تنظيم أو توسيع الاستعمال اللغوي » .

وعليـه فان التخـطيط اللغوي هـو نوع من التدخل المنتظم في مجرى اللغة واستعمالآتها في المجتمع . والسؤال الذي يمكن طرحه هـو : « هل يمكن أن نتدخـل في مجرى اللغـة بقصد تغييره أو تعديله أو توسيعه ؟ » هناك اتجاهان بين العاملين في هذا الحقل ، وكلا الاتجاهين يعتقد أن التدخل ممكن ، وأحيانا واجب .

ينظر الاتجاه الأول الى اللغة على أنها مجـرد وسيلة ، مثلهـا مثل أيـة وسيلة أو أداة أخـرى متوفرة لدى الفرد والجماعة . ومن خلال هذا المنظور فان اللغة يمكن ، بل وأحيانا ، يجب أن يعمل على تغييـرها أو تـوسيعها أو تعـديلها أو تنظيمها وضبطها بحيث تؤدي الغـرض الذي تخـدمـه أو تستعمـل من أجله ، وتكـون اداة مـطواعـة لـلذيـن يـسـتـعـملونها Tauli, 605 : 1964 وكتابه ، 1968) .

أما الاتجاه الثاني فيرى أن اللغة ليست مجرد اداة فحسب ، بـل هي رمـز لقيم المجتمـع العقائدية ورمز لأسس وحدة ذلك المجتمع ، كما أنها رمز للقيم الجمالية التعبيرية فيه . ومن هذا المنظور ـ فان التدخل في مجرى اللغة أمر ممكن وقد يكون واجبا ، لكن هذا التدخل ـ حسب هذا المنظور ـ ينبع من متطلبات المحافـظة على تلك القيم التي ترمز اليها اللغة . كما أن اساليب ومناهج التـدخل يجب أن تكـون مرتكـزة على أسس تلك القيم بحيث لا تتعارض معها ولا تناقضها (Rubin, 1973 a : v) .

يتفق كلا الاتجاهين على امكانية وربما ضرورة العمـل لـوضـع عـلاج مـا وخـطوات تنفيـذه لتصحيح حالة لغوية غير مرضية .

وسواء اكان القارىء يميل الى أخذ الاتجاه الأول أو الثاني أم لم يأخذ بأي من الاتجاهين ، فان الواقع التاريخي في الماضي وفي الحاضر يقدم له أمثلة عديدة على التدخل في مجرى اللغة . كما يقدم الواقع التاريخي أدلة شتى على أن اللغة كانت وما تزال هدفا للتدخل بشكل فردي غير مخطط ولا منتظم ، وبشكل جماعي مخطط ومنتظم . فالامثلة في الوقائع التاريخية كثيرة عن أفراد سياسيين وكتاب وشعراء ولغويين نصبوا أنفسهم حكاما وقضاة للاستعمال اللغوي . ونقرأ كذلك في تاريخ الأمم عن ردود الفعل المختلفة لمواقف اولئك الأفراد من قبل عامة الناس والمختصين الناطقين بتلك اللغات (Fishman, 1972) .

أما أمثلة العمل الجماعي ، فان هذا البحث هو محاولة لاستعراض نوع واحد منها ـ عمل المجامع اللغوية .

ما المشكلات اللغوية التي تسوغ أو تتطلب التخطيط اللغوي ؟ سنجيب عن هذا السؤال بطريقة غير مباشرة ، وذلك من خلال النظر الى أنواع الأهداف التي تضعها هيئات أو مؤسسات التخطيط اللغوي (بأي اسم تحمله كل منها) والنشاطات التي تقوم بها هذه الهيئات أو المؤسسات ، سواء تحققت تلك الأهداف كليا أم جزئيا أم لم تتحقق .

أولا : اعادة استعمال لغة (أو لهجة أو نمط لغوي معين) كانت قد اندحرت عن الاستعمال في مجال واحد أو عدة مجالات من الاستعمال اللغوي في مجتمع ما (باستثناء المؤلفات المكتوبة بهذه اللغة سابقا) .

من هذه المجالات نذكر استعمالها في المدارس أو الجامعات أو البحوث المتخصصة أو مواضيع معينة مثل الطب والهندسة ..... الخ . ونضرب مثلا على ذلك اعادة استعمال اللغة العبرية . وقد تكون هذه اللغة نفسها مستعملة في أي من هذه المجالات في مجتمع آخر أو دولة أخرى ، الا أن التخطيط يهدف الى اعادة استعمالها حيث كانت تستعمل سابقا قبل كبتها (مثال ذلك ما حصل للغة الاسبانية في الولايات المتحدة لهذه الولايات من الاسبانيين) .

ثانيا : تنقية لغة ما من عناصر (صوتية أو نحوية أو صرفية) أصلها من غير تلك اللغة (أي دخلتها عن طريق الاقتراض تحت ظروف معينة) واستبدال هذه العناصر الخارجية بعناصر أخرى . من الوجهة المثالية ، تكون العناصر الجديدة مستمدة من اللغة نفسها ، ولكن الواقع قد يؤدي الى استبدال عناصر خارجية عن اللغة ذاتها بعناصر غريبة عنها كذلك . وفي هذه الحالة يكون الدافع نابعا من عداء معلن أو غير مصرح به تجاه الناطقين باللغات التي يجري التخطيط لاخراج عناصرها من اللغة موضع التخطيط .

وجرى مثل هذا التخطيط في اللغة التركية في عهد مصطفى كمال اتاتورك وفي اللغة الفارسية في العهد السابق .

ثالثا : افصاح لغة أو لهجة ما بقصد توحيد الاستعمال اللغوي في مجالات معينة (اذ لا يمكن القضاء على الفروق اللغوية بشتى أنواعها او في شتى المجالات) . هذا النوع من التخطيط اللغوي يمكن أن يأخذ احدى الصور أو السبل التالية :

أ ـ تفضيل لهجة معينة على غيرها من اللهجات الدارجة للغة معينة ، وجعل تلك اللهجة هي الفصحى أو الفصيحة . مثال ذلك ما حصل في افصاح السواحلية .

ب ـ دمج عدد من اللهجات المختلفة التي تشترك في عناصر لغوية ما وجعل ناتج عملية الاستصفاء اللغوية هو اللغة الفصيحة واعتمادها في الاستعمال الرسمي والتعليمي والثقافي . نضرب مثلا على ذلك ما حصل في عدد من اللهجات في روديسيا .

ج ـ تفصيح لغة مشتركة (Lingua franca) شائعة في منطقة متعددة اللغات ، بحيث تصبح اللغة الرسمية المعتمدة في المجالات الرسمية وبعض المراحل التعليمية بدل لغة أخرى غريبة عن المنطقة ، وبدل اللغات المحلية المتعددة . جرى مثل هذا التخطيط في ماليزيا واندونيسيا .

من المحتمل أن تظهر مشكلات داخل المنطقة التي يجري فيها نوع الافصاح الأول المذكور أعلاه . فتفضيل لهجة ما على غيرها من اللهجات قد يواجه بالرفض من قبل الناطقين باللهجات الأخرى خصوصا اذا كان الناطقون باللهجة المفضلة قليلي العدد نسبيا ، أو ان وضعهم الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي أدنى من وضع الناطقين باللهجات الأخرى . وقد حصل مثل هذا الصراع في كل من بلجيكا والنرويج والهند (Hawgen, 1969) . وفي هذه الحالة يتوجب اعادة النظر في رشاد الاهداف المرسومة ووسائل تحقيقها والبدائل الممكنة لذلك .

رابعا : الاتفاق على إقرار لغة رسمية من غير اللغات الأصلية في ذلك المجتمع أو البلد . ويجدر أن نميز هنا بين دلالة الاصطلاحية في « اللغة الرسمية » و « اللغة القومية » . فالاصطلاح الثاني يستعمل للدلالة على اللغة الأصلية أو إحدى اللغات الدارجة في ذلك المجتمع أو البلد التي يُتفق على اعتبارها لغة التعامل الرسمي لذلك النظام ، اما منفردة أو مع لغة أو لغات أخرى . وينظر في العمل على اختيار لغة رسمية (غير لغة قومية) عندما يتعذر الاتفاق على لغة قومية ، أو تفصيح إحدى اللهجات باحدى السبل المذكورة سالفا . ويجري هذا العمل في المجتمعات أو الدول متعددة اللغات كما حصل في الهند ونيجيريا

والحبشة والفلبين وباكستان حيث اللغة الانجليزية هي إحدى لغات التعامل الرسمي .

خامسا : اصلاح أو تغيير بعض وجوه لغة ما ، خصوصا نظام الكتابة، بحيث تأخذ شكلا غير الذي كان دارجا قبل البدء في التخطيط . ويستهدف هذا التخطيط الاصلاحي في العادة زيادة فعالية اللغة وسهولة تعلمها أو ذلك الوجه منها . الا أن الدوافع الكامنه خلف الدعوة لذلك الاصلاح قد تكون غير لغوية أصلا . بل كثيرا ما تكون هذه الدوافع الكامنة في مزاجية أو عقائدية ذات تبعية خارجة عن ذلك المجتمع أو البلد ، كما حصل بالنسبة لتغيير نظام الكتابة في التركية . ومن أشهر أمثلة هذا الضرب « الاصلاح » (أو بالاحرى التغيير) المثال التركي الآنف ذكره ، وما يجري في الصين بالنسبة لنظام الكتابة .

سادسا : تحديث أو تطوير لغة ما . ويقصد بهذا بشكل خاص توسيع مجالات استعمالات اللغة الى مجالات علمية أو فنية أو غير ذلك ، لم تكن تطرق بتلك اللغة . وفي هذا المجال يكون التخطيط متركزا على زيادة المفردات والمصطلحات المتخصصة نتيجة لزيادة حاجات ذلك المجتمع ، وفي نفس الوقت زيادة حرص ذلك المجتمع على عدم تبني لغة غير لغته في تلك المجالات . (Fergusen : 1968)

وبغض النظر عن طبيعة المشكلة اللغوية التي تتطلب العمل ، وعن كفاءة العاملين في مجال تنفيذ العمل اللغوي فان القرار ببدء التخطيط واتجاه العمل في التنفيذ يخضع في معظم الاحوال لنتيجة الصراع الذي يجري بين المصالح المتضاربة للجماعات التي تؤيد التخطيط في اتجاه ما ، والمعارضين للتخطيط في ذلك الاتجاه . وفي غالب الاحيان يكون القرار النهائي في يد أصحاب السلطة السياسية . وعليه فان أهم صفة للمخطط اللغوي هي أن يكون على دراية بالوضع العقائدي والسياسي والاجتماعي لذلك البلد قبل أن يقيم وضعا لغويا ما بناء على المتغيرات فقط . والا فان عمل المخططين اللغويين لن يكون أكثر من مجرد تمرين لغوي بحت ينتهي أمره في إحدى ادراج المكاتب الرسمية أو على رفوف المكاتب المتخصصة .

مجامع اللغة

اذا أخذنا بعين الاعتبار الصلة الوثيقة بين اللغة وأهلها فاننا سنجد ظاهرة الجهود الجماعية (والفردية كذلك) للحرص على اللغة أمرا طبيعيا . ومن هذا المنطلق بدأ ظهور الحركات اللغوية في معظم مناطق العالم . ونستعرض فيما يلي بعضا من أشهر هذه الحركات وسنعطيها اسم « مجامع » في هذا السياق بالرغم من أن بعضها لم يحمل مرادفة هذه الكلمة بالذات .

كان من مظاهر الحياة الفكرية في أوروبا في

عصر النهضة ظهور وانتشار « مجالس الفكر » ، وقد أطلق على بعضها اسم « Academy» على غرار الاكاديمية التي كانت مجلس فكر في اليونان القديمة . (وفي اللغة الانجليزية اشتقت كلمة " academic" بمدلول البحث التجريدي أو النظري ، كما تستعمل الكلمة كذلك بمدلول غير المتعلق بالواقع من البحث فيقال " an academic question " انظر تعريف الكلمة في معجم Webster) . وكان من بين هذه المجالس من تتناول شؤون اللغة في مناقشاتها في البيوت الخاصة . فمثلا تشكل في مدينة فلورنس في ايطاليا مجلس في القرن السادس عشر اجتمع فيه بعض ذوي الاهتمام باللغة وعقدوا اجتماعاتهم في بيت عائلة " Rucellai " والذي كان يعرف باسم "Orti Oricellari" (Devoto, 1978). وفي باريس تشكل مجلس ذو اهتمامات لغوية في بداية القرن السابع عشر في بيت "Valentin Conrart" (Hall, 1967). ولما انتشر أمر هذه المجالس اللغوية وراقت اهدافها لبعض الحكام منحت صبغة رسمية ، وخصصت لها أماكن رسمية لاجتماعاتها .

مجمع الايطالية

تبنى الحاكم "Cosimo I" مجلس فلورنس اللغوي واسماه « مجمع » التسكانية ، وطلب الى المجمع أن يقوم بترجمة كل ما كان مدونا آنذاك من الفكر والمعارف الى لهجتهم . ولكي يقوم المجمع بعمله في سبيل النهوض بتلك المهمة كان عليه أن يبدأ بدراسة الاستعمال اللغوي الذي كان دارجا في تلك المنطقة ، ومن ثم تصنيفه حسب انتمائه اللغوي ، وذلك من أجل حصر المادة التي كان سيستعملها في عملية الترجمة ، ومن ثم جمعها في مؤلف واحد (بشكل معجم) يسهل الرجوع اليه اثناء عملية الترجمة . وبذا أصبح عمل المجمع متركزا على غربلة أو تنخيل المفردات الدارجة في الاستعمال آنئذ .

وقد صبغت عملية التنخيل اللغوية هذه عمل المجمع ، وتجلت تلك الصبغة في تغيير اسم المجمع عام ١٥٨٣ من « مجمع التسكانية » الى « مجمع النخالة » " Academia della Crusca " قياسا على عملية تنخيل الطحين وفصل النخالة عنه . وكان نتاج عملية التنخيل تلك وضع معجم ظهر في مجلد واحد عام ١٦١٢ ، وازدادت مواده الى ثلاث مجلدات في طبعة عام ١٦١٩ والتي أهديت الى الملكة ISABELLA . اما طبعة عام ١٧٣٩ فقد كانت في ستة مجلدات . (وقد أصبح هذا الاسلوب من عمل المجمع مثالا احتذته مجامع عديدة ظهرت فيها بعد - ابتداء بمجمع الفرنسية) .

في القرن الثامن عشر ضعف عمل المجمع في

هذا المجال واقتصر معظم نشاطه على نقاط في التهجئة وصيغ بعض الأفعال ، مما ادى الى حله عام ١٧٨٣ من قبل دوق تسكانيا . الا أن المجمع أعيد تشكيله عام ١٨٠٨ عندما احتل نابليون ايطاليا ووكل نابليون اليه مهمة الاشراف على صفاء الاستعمال اللغوي في الأدب .

اما في الوقت الحاضر فقد أصبح المجمع مؤسسة يقتصر عملها على عدد محدود في الثقافة واللغة ، ولم يعد صاحب السلطة التي كان مخولا بها في الماضي . وفي عام ١٩٧٠ تأسس في ايطاليا مركز قواعد اللغة الايطالية ، وذلك لتنسيق أعمال الهيئات والمؤسسات التي ظهرت خلال العقود الماضية . وقد كان عمل هذه المؤسسات مقبولا أكثر من عمل المجمع مما ادى الى اندحار سلطته ، خاصة أن عمل المجمع لم يتعد مرحلة وضع المعاجم .

اما مركز قواعد الايطالية فينسق العمل مع اتحادات المعلمين بحيث يستعمل المعلمون الفصحى في التدريس ولا يقبلون غير الفصحى من المتعلمين . ومع مؤسسات الاذاعة والتلفزيون والصحافة والطباعة بحيث يتركز عمل هذه المؤسسات على نشر الانتاج اللغوي الفصيح بمختلف أنواعه ، وتقريبه الى متناول المستمعين والمشاهدين والقراء .

اما المستجد من المصطلحات المتخصصة فينسق نشره مع مكتب لغوي ضمن مكتب رئاسة الوزراء : (Deveto 1978 : 252 — 322)

مجمع الفرنسية .

كان التسعة الذين اعتادوا الاجتماع في مجلسهم في بيت (Cenrart) يركزون مناقشاتهم على تقييم الجديد من المؤلفات . وكانت تصل آراؤهم حول تلك المؤلفات الى عديد من الاشخاص من قطاعات الفكر والسياسة ، ومن بين هؤلاء الكاردينال ريشيليو . ولما أصبح هذا الأخير الوزير الأول للملك لويس الثالث عشر ، حاول تركيز سلطة الدولة عبر تشكيل مجالس قضائية وتشريعية واقتصادية .... الخ . وامتدت فكرة ريشيليو في التنظيم السياسي الاداري الى اللغة فرأى أن يشكل مجلس تشريعي للغة الفرنسية . وفعلا أعطى ريشيليو مجلس (Conrart) الصبغة الرسمية عام ١٦٣٥ ، ووضع له قانونا داخليا عرض على البرلمان وسجل المجلس كمجمع في البرلمان عام ١٦٣٧ . اما مهمة المجمع كما حددها القانون فكانت واضحة في المادة ٢٦ ، وهي وضع معجم ومرجع في النحو ومرجع في البلاغة ومرجع في النظرية الشعرية .

(..... il sena compose un Dictionnaire, une Grammaire, une

Rheterique et une Poetique sur leṣ observations de L'A cadeṃie.) (Robentson, 1910 : 13) (Rickand, 1974 : 106) كـما نص القـانـون عـلى أن يكـون عـدد الاعضـاء أربعين ، ولم يتغير هذا العدد منذ ذلك الوقت لدرجة أنـه أصبح يـطلق على أعضـاء المجمع الكنية « الأربعون الخالدون » .

يمكننا القول بأن تأسيس المجمع كان له واقع خارجي وهو وجود مجمع في ايطاليا الذي ذكر سابقا ، مع أنه كان هناك مجامع محلية أخرى في ايـطاليـا (Academia di Livorna) وغيره .

اما الدافع الآخر والأقـوى فكان داخليـا ، ويبـدو أن الوزيـر الأول ريشيليـو كـان واعيـا عمله . اذ على العكس من الاعتقاد السائد أن فرنسا كانت وحدة لغوية واحدة في القرن السابع عشر ، فقد كان الوضع اللغوي لفرنسا آنذاك متفككا . فقد كانت مجموعة لهجات الشمـال (langue d'eil)تختلف كثيـرا عن مجموعـة الجنـوب (langue (Rickand, 1974) d'oc) اضافة لذلك ، كانت الأمية طاغية ، فقد بلغ عدد الاميين حوالي ثمانية عشر مليونا من مجمـوع السكـان (٢٠ مليـونـا) . وكـان الفرنسيون يستظهرون تصنيفا لغويا متفاوتا ، اذ كانوا يرون الايطالية والاسبانية هما المرشحتين لـلاستعمال الثقـافي والرسـمي دون الفـرنسيـة متمثلة في لهجات الشمال ، فقد كانوا يعتبرونها غـير صالحـة لذلـك ابتـداء . (ولعـل امتيـاز الايطالية والاسبـانية عنـد الفرنسيـين من هذه الجهة مرده الى انهما كانتا تمتان بسبب وثيق الى الحضارة الاسلامية العربية) .

ولهـذه الاعتبارات جميعـا فقـد كـان نشـوء المجمع موضع سخرية من كثير من الفرنسيين (Robertson : 1910) بدأ العمل على وضع المعجم فريق من المجمعيين برئاسةبارون Fawne de vaugelas claudeعـام ١٦٣٨ .

وقد كان وضع هذا المعجم هوحجر الأساس في حـركـة تـوحيـد وافصـاح الفـرنسيـة (Richand, 1974 : 106) وقـد كـان ترتيب المفردات في طبعة ١٦٩٤ حسب الجذور اللاتينية ، وفي مجموعات المشتقات الفرنسية من هذه الجذور . وقد كان لقرار المجمع هذا صدى سلبي ، مما حدا بهم الى العدول عن هذا النظام في الطبعة الثانية عام ١٧٤٠ . وقد اعتمد القرار الأول للمجمع على تقـديرهم للقـارىء الذي وضعوا المعجم له . فقد رأى أعضاء المجمع أن الذين سيحتاجون الى المعجم هم ذوو الثقافـة الكلاسيكية ـ أي المستمدة من التراث اليوناني الـرومـاني ، ولـيس غـيـرهــم مــن (Rickand, 1974:111)(les ignor-. ans et les simple femmes)وبطبيعة الحال فان وضـع المعجم (أي معجم) يصدر

عن موقف يتبناه ازاء نظام التهجئة واشكال الحروف الذي سيتبعه المعجم . وقد كان قرار المجمع في هذا الشأن هو اتباع النظام الذي كان متبعا قبل القرن السابع عشر ، ولم يعد يستعمل في المطابع في القرن السابع عشر . ولهذا احتاجت طباعة المعجم الى أن تغير شركة الطباعة التي تولت طباعة المعجم نظامها خصيصا لطباعته . وكان موقف المجمع هذا مدعاة أخرى لنقد عمل المجمع . الا أن المجمع غير موقفه هذا في اعداد الطبعة الثانية التي ظهرت عام ١٧٤٠ . رفي اخراج هذه الطبعة وجه المجمع اهتمامه الى تعديل نظام التهجئة . فمثلا في المفردات مثل best, escole أسقط المجمع الحرف (S) لأنه لم يرمز الى صوت وأضاف اشارة أو فوق حرف العلة السابق للحرف المسقط فاصبحت الكلمات تكتب be-tem ecole كما أسقط الحروف غير الرامزة لاصوات في بعض المجموعات الساكنه مثل (Consonant clustere) obmet-te, aggnaffer, advocat فاصبحت omettre, agrafer, avoct . مثال ثالث أخير على الاصلاحات التي نتجت عن عمل المجمع ، هو استبدال (i) ب (y) في نهايات الكلمات ، فمثلا الكلمات amy, cecy, moy أصبحت ami, ceci, moi . وظهرت جميع قراراتهم في اصلاح نظام التهجئة في شكل المفردات كما وردت في طبعة المعجم عام ١٨٣٥ (Pickard 1974 : 137 - 8)

كذلك بدأ المجمع بوضع معجم تاريخي شامل ، الا ان العمل فيه سار ببطء شديد ، وظهرت الطبعة الاولى منه عام ١٩٣٢ . وفي هذه الاونة - اى بعد ظهور المعجم التاريخي الشامل - بدأ المجمع بوضع معجم شامل على غرار المعاجم الانكليزية الامريكية ، ولكن العمل فيه يسير ببطء شديد كذلك ، اذ لم يتم انجاز خمس العمل بعد .

أما في مجال النحو ، فقد ظهر مرجع المجمع في النحو متأخرا . الا ان بعض أعضاء المجمع قاموا بوضع مؤلفات في النحو . ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب رئيس المجمع الأول Claude Favre الذي ظهر عام ١٦٤٧ بعنوان (Re-marque sur la langue Fran-caise) وقد استمد المؤلف القواعد من الفصيح من كلام الطبقة العلياوالبلاط (انظر مثيله King's English) . ومؤلفات الكتاب المشهورين المعاصرين " la plus saine de la cour " " la plus saine partie des Autheurs de ce temps " حتى لا يمكن للعامة الاحتجاج ضده (Holmes and Schutz, 1938 : 87 — 8) . وفي حالات معدودة اعتمد كذلك على الحدس اللغوي (لا الاستعمال اللغوي) للعامة من حيث تقييمهم له وسوغ قبول آرائهم بان بعضهم (أي الذين استشارهم) لديه احساس لغوي سليم غير

مشوش بمعرفته اللاتينية أو اليونانية . واستشهد على تأثير اللاتينية واليونانية على بعض المؤلفين بأمثلة عديدة نذكر منها اعتبار بعض المثقفين كلمة erneur مذكرا ، بينما اعتبرها هو مؤنثة ، واضاف بأنه لا داعي لان يكون المنطق أساسا لتقييم الصيغة أو التركيب اللغوي ، لأن في هذا الاستعمال بعض النواحي التي تتفق والمنطق وأخرى تضاده ، وثالثة لا يمكن ادخال المنطق في تحديدها . (" l'usage fait beaucoup de chosses par raison, beaucoup sans raison, et beaucoup contre raison " (Rickard, 1974 : 107) وقد راجعت هذا المؤلف لجنة من المجمع وأقرته عام ١٧٠٥ .

وقد حافظ المجمع على مكانته كسلطة تشريعية للغة الفرنسية حتى مطلع القرن العشرين مما جعل جهوده ـ وان لم تكن مقبولة في جميع الأحوال ـ تثمر في توحيد اللغة الفرنسية ووضع أسس استمر تطبيق معظمها حتى وقتنا الحاضر . ولقد لجأ المجمع أحيانا الى فرض نوع من العقوبات على بعض من خرجوا عن خط تعليماته . فمثلا قام أحد أعضاء المجمع بوضع مؤلف في النحو نشره عام ١٦٩٠ ولم يتبع فيه خط سير المجمع ، لكن عمله هذا كلفه خسارة عضويته في المجمع .

ووقف المجمع خلال النصف الأول من هذا القرن عن متابعة الاتجاهات الجديدة في التحليل اللغوي . ولم يعمل على اجراء أية مقارنة بين منهجه وهذه المناهج المستحدثة ، بل لم يتعرض لها المجمع من قريب ولا من بعيد بالنقد أو غير ذلك . ولهذا فقد أصبح مجمع الفرنسية كسابقه مجمع النخالة في ايطاليا ، محدود العمل والسلطة ، وانتقلت هذه السلطة الى هيئات ومؤسسات تربوية واعلامية وأدبية . فمثلا المعجم السائد الاستعمال الآن ليس Dictionnaire de L'Academie Francaise بل (Rickard, 1974 : 152— 6) Petit lareusse I llustre ومن هذه المؤسسات والهيئات التي انتقلت اليها السلطة اللغوية :

أ ـ Office de Vocabulaire Francais واسمه يدل على مسماه . وقد أسس عام ١٩٥٧ لضبط وغربلة المصطلحات المشتقة من الجذور الفرنسية ، ولوقف استعمال المصطلحات الشائعة خطأ . ويتعاون المكتب مع بعض الصحف في القيام باستفتاءات عامة حول الأمور اللغوية ، ويتصل بذوي الاهتمام اللغوي لابداء الرأي في المصطلحات التي يضعها ولاقتراح بدائل للتي لا يستسيغونها . فمثلا يسأل هؤلاء المستشارون هل تستسيغون افتراض لفظة pipeline ام تؤثرون اقتراح مشتقة من الفرنسية مثل Olé o du أو Antére ؟ وفي حالة قبول المصطلح الانكليزي فما هو اللفظ الفرنسي المقترح ؟

ب ـ Comité détude.des termes technique Français وقد شكلت هذه اللجنة عام ١٩٥٤ لتحديد شكل ولفظ المصطلحات المتخصصة الجديدة والتكنولوجيا ، واما المؤسسات التالية فهي معنية بشؤون نشر الفرنسية في العالم وتنسيق النشاطات اللغوية والثقافية الفرنسية في العالم ، وكذلك المحافظة على المستوى المقبول في الاستعمال اللغوي .

(١) الاتحاد الدولي لحماية الفرنسية العالمية ١٩٦٣ .

Fédération internationale pour la sauveg arde du Francais Universel .

(٢) اللجنة العليا لحماية اللغة الفرنسية ونشرها ١٩٦٦ .

Haut comité pour la défense at léxpansion de la langue française

(٣) ومنها دائرة / قسم اللغة الجيدة / الفصحية يرأسها السكرتير الدائم (Commision du bon Langue) .

(٣) انماء الاستعمال الفصيح للفرنسية في المناطق الناطقة بالفرنسية خارج فرنسا ١٩٦٧ .

Association pour le bon usage du français dans L'admimstration

(٤) حلف الفرنسية Alliance Française ١٨٨٣

ولهذه المؤسسة الخاصة أكثر من مائتي فرع حول العالم وتصدر مجلة شهرية . (Rickand, 1974 : 152 — 156)

محاولة فاشلة لانشاء مجمع في بريطانيا .

وفي بريطانيا بذلت محاولات لتأسيس مجمع لغة على غرار مجمع الايطالية ومجمع الفرنسية . ففي نهاية القرن السابع عشر (١٦٩٨) كتب Daniel Defor داعيا الى تأسيس مجمع لتشجيع تعلم الاستعمال اللغوي المهذب ولصقل اللغة الإنكليزية وتهذيبها (أو لنقل تخيلها) باخراج التراكيب والاساليب الشائبة وتطهيرها (اللغة الإنكليزية) من الاضافات والاختراعات اللفظية غير المنتظمة كتلك التي ظهرت في كتابات من وصفهم بالجهلة المتعجرفين . وسانده في هذا الموقف وهذه الدعوى John Dryden . ويعلق اللغوي المعاصر Francis Dinnean على تلك الدعوة بانها كانت نابعة من خوف هذين الكاتبين انه ان لم تثبت الفصيح منها لاغراض استمرارية تعلمها وفهمها على مر العصور فانها ستتغير من عصر الى عصر ومع مرور الزمن تصبح الانكليزية في عصر ما غريبة وغير مفهومة في عصر لاحق ، وقد كان لدى الكاتبين المذكورين أعلاه دليل واضح . فقد كانت انكليزية سلفهما Chaucer غير مفهومة

لـديها . أي ان اللغـة تفقد استمـراريتهـا في الاتصال المفهوم لاصحابها من عصر الى عصر ، مما يدعو الى ترجمة مؤلفات عصور معينة للقراء في عصـور أخـرى لاحقـة ,Dinnean) (8 — 157 : 1967 الا أن المطالبة بتأسيس مجمع في بريطانيا هدأت بعد ظهور المعجم الذي وضعه Johnson عام ١٧٧٥ وظهور مرجع النحـو الذي وضعـه الـراهب Lowth عـام ١٧٦٢م .

مجمع السويدية Svenska Akademien

امتد الشعور بالحاجة الى تأسيس سلطة لغوية باسم مجمع الى السويد في القرن الثامن عشر ، ولاهـداف شبيهة بـاهداف المجامع التي سبق ذكرها . ففي عام ١٧٨٦ أسس الملك -Gus tavus I I I مجمع السويدية وعهد اليه تعزيز قوة اللغة السويدية والمحافـظة على صفـائها ، وذلك عن طريق وضع معجم ومرجع في النحو ومراجع أخرى يمكن أن تساهم في دعم وتعزيز الـذوق الـلغـوي السـليـم ,Mo lde) . (1 : 1975 غير أن معظم عمل المجمع تركز حتى الآن عـلى وضـع المفـردات (في معجم) وأمور اصلاح التهجئة . فقد ظهر من المعجم الشامل الذي بدأ العمل عليه عام ١٨٩٢ حتى الآن ستـة وعشـرون مجلدا من الحجم الكبـير ووصل الباحثون حتى الحرف (S) . ويعتمد المجمعيون في وضع المفـردات على السـويديـة القديمة والحديثة ولا يلجأون الى الاقتراض من لغات أخرى الا في حالات قليلة جدا ، اذ ان بعض المفردات الجديدة المدرجة في المعجم تعود في استعمالها الى القرن السادس عشر . ويتوقع أن ينتهي العمل فى هذا المعجم مع نهاية هـذا القرن . ومن ناحية الاحتياجـات العلمية بـدأ المجمـع منذ سنـة ١٨٧٤ بوضـع ونشر قـوائم المفردات التي اقترحها المجمعيون لـلاستعمال المثقف . ولكون اقتراحات المجمع هـذه تلبي الحاجة اللغوية فانها تجد قبولا لدى الكثـير من السويديين وهـم يعتقدون ان استعمال مفردات غـير هـذه يـدل عـلى نقص الثقـافـة والـذوق اللغوي ، حتى ان البعض حظر استعمال كل كلمة لم يضعها المجمع . وقد ظهرت آخر طبعة لمجموعة القوائم في مجلد واحد عـام ١٩٧٣ ، وهي تحوي مئة وخمسين الف كلمة .

أمـا جهود المجمـع بالنسبـة لاصلاح نـظام التهجئة فانها تعلن بشكل اقتراحات فقط ، اذ ان أي إصلاح يجب أن يناقش في البرلمان ويصبح رسميا بعد ان يوافق عليه البرلمان فقط . وكان المجمع قد وقف معارضا لبعض جوانب اصلاح التهجئـة الجذري الـذي تقدمت بـه الحكومـة للبـرلمان ووافق عليـه عام ١٩٠٦ . ومـع هذا التقييـد البرلمـاني فان المجمـع لا يـزال يتمتـع باحترام اقتراحاته وآرائه لدى المواطنين . فمثلا تقدم اتحاد المعلمين عام ١٩٣٤ بمشروع اصلاح للتهجئة ، وكان المجمع هو المكان الأول لبحث

المشروع ، وقد رفضه المجمع ، ورفض المجمع كذلك مشروعا آخر قدم عام ١٩٤٣ .

بجانب جهود المجمع في البحث والتخطيط اللغوي هناك مؤسسات أخرى يمكن أن تذكر في هذا السياق من حيث كونها تعمل بالتنسيق مع المجمع . ومن هذه المؤسسات : مركز المصطلحات المتخصصة . Tekniska Nomenklatur centralen(T N S)

وقد أسس هذا المركز عام ١٩٤١ بهدف وضع مفردات ومصطلحات بالسويدية مقابلة للمفردات والمصطلحات في المواضيع المتخصصة . وتتألف ادارة هذا المركز من ستة من المختصين ثلاثة في الهندسة والعلوم الطبيعية وثلاثة في العلوم اللغوية والاجتماعية . ويساعد هذه المجموعة مستشار يختاره الحمع . وقد صدر هذا [illegible] الى خمسة [illegible] .

ومن منطلق التعاون بين دول المنطقة الاسكندنافية (السويد والنرويج والدنمارك) تشكلت في كل من هذه الاقطار لجنة لغوية . تشكلت لجنة اللغة السويدية عام ١٩٤٤ . وتدعمها الحكومة والمجمع ماليا بشكل جزئي ، ويتركز عمل هذه اللجنة على الاستعمالات اللغوية في المجالات الرسمية / الحكومية المتخصصة بحيث تكون مفهومة لدى المواطن الذي يتعامل مع هذه الدائرة الحكومية أو تلك .

كما تعمل هذه اللجنة بالتعاون مع مختلف اتحادات ونقابات القطاعات المهنية والاجتماعية وذلك من أجل تنسيق وحدة الاستعمال اللغوي . وتقوم اللجنة كذلك بطبع كتيبات كل في ناحية معينة من الاستعمال اللغوي ، مثل التهجئة ، اللفظ ، التنقيط ، قواعد الانشاء .... الخ . وقد بلغ عدد هذه الكتيبات خمسة وخمسين كتيبا يقبل المواطنون على ابتياعها ، مما يعطي المركز بعض المردود المالي . كما تصدر اللجنة مجلة شهرية باسم (الاغناء اللغوي) (Sprakvard). كما أن اللجنة تعمل كمستشار للاستعمال اللغوي عن طريق الهاتف ، اذ يستطيع أي مواطن الاتصال بالمركز للسؤال عن أي استعمال لغوي مفضل . ويتلقى مكتب اللجنة المختص بهذا الشأن أكثر من سبعة آلاف استفسار سنويا (Molde, 1975 : 3 — 4)

مجمع اللغة الاسبانية الملكي : Real Academia Espanola

ظهرت في اسبانيا ابان القرن السادس عشر بعض المجالس الأدبية وانبثق منها اهتمام لغوي . ولعل ظهور هذه المجالس في اسبانيا كما في ايطاليا أن يكون مظهرا من مظاهر استمرار التأثير الحضاري والفكري للمسلمين في الأندلس .

وكان أقدم مجلس عرف عنه أنه أصبح

مجمعا ، هو الذي ظهر في مدريد في الفترة ما بين ١٥٤٤ و١٥٤٧ . ومن غريب أمر هذا المجمع أن الذي دعا الى تأسيسه كان أحد الاسبانيين الذين عادوا من العالم الجديد (Indiano).

أما المجمع الملكي فقد انشيء لكي يكون نقطة لتجميع وتنسيق جهود المجالس المحلية في اسبانيا . أسس هذا المجمع عام ١٧١٣ . وقد لخصت أهدافه في العبارات التالية : تطهير ، وتثبيت ، واضفاء الروعة على اللغة الاسبانية (Guillermo,etal., 1974 ; 317 ff). وقد اتخذ هذا المجمع مجمع الفرنسية مثالا يحتذيه في تشكيله وعمله . فقد عهد اليه وضع معجم ومرجع في التهجئة ، ومرجع في النحو : Diccionario, Ontografia, Gramatica. وكان طموح المجمع في عمل المعجم أن يضع مفردة أو مصطلحا لكل ما يمكن استعماله في اللغة . وكانت نقطة الانطلاق هي مراجعة وجرد المفردات والمصطلحات التي وردت في المدن من الأدب والفكر الاسباني . وقد حاول المجمعيون جهدهم أن يتخلصوا من الغريب ولا يدخلوه في المعجم . وظهرت الطبعة الأولى للمعجم في مجلد واحد عام ١٧٨٠ م . وكانت كل مفردة موثقة باقتباس من مؤلف مشهور يؤيد اختيار تلك المفردة في المعجم ، ولهذا عرف فيما يعد باسم المعجم الموثق . Diccionarie de Autoridades وفي عام ١٩٦٠ بدأ المجمع بوضع المعجم التاريخي للغة الاسبانية في جميع الاقطار الناطقة بالاسبانية ، وفي خلال عشر سنوات .وصل العمل الى كلمة (Ajarafe)، وهذا يعني أن العمل على المعجم التاريخي سيستغرق وقتا طويلا (كما هو الحال بالنسبة للمعاجم التاريخية التي يضعها المجمعيون في الأقطار الأخرى) .

أما مرجع التهجئة (Ortografia espanola) فقد أخذ المجمعيون مؤلفا كان قد نشر عام ١٧٢٨ في مدريد كجزء من مسودة المعجم الأولى ، قام بتحضيره المعجمي Adrian Cohnink. وقد أدخل المجمع تعديلات عديدة على ندام التهجئة عدة مرات خلال القرنين الماضيين . وكان هناك شد وجذب بين الذين دعو الى أن تدل التهجئة على الأصل التاريخي للكلمة وبين الذين دعوا الى أن تمثل التهجئة نطق الكلمة . وكان الموقف الأخير هو الممثل في الطبعة الأخيرة لكتيب التهجئة (Nuevas normas de prosodiay ortografia, 1970) هو أن يعطى نطق الكلمة الأولوية في وضع صيغة تهجئتها ، وأن يؤخذ بالاصل التاريخي للكلمة إن كان هذا لا يغير تهجئتها جذريا . ومما يؤخذ على المجمعيين في وضع كتيب التهجئة في طباعاته السابقة انهم لم يطبقوا جميع قراراتهم في التهجئة في طبعات معجمهم ، مثل اعجام النبرة (Stress) والنغمة (Prosody) .

أما في النحو فكان هدف المجمع أن يثبت استعمال التراكيب اللغوية التي تمثل الكتابة الأدبية المصقولة والسليمة بحيث تصبح دارجة في المنطوق من اللغة كذلك . كما ان المجمع وضع ضمن هذا المخطط ان ينظر في ادخال تراكيب جديدة اذا اتفقت ونظام اللغة الاسبانية وظهرت فى استعمل الادباء المشهورين المتبحرين فى نقد الاستعمال اللغوى . وعهد الى اثنين من المجمعين بوضع هذا المرجع ، وقد تبنى المؤلفان نظام ما نحو اللاتينية فى مرجع النحو هذا . وظهرت الطبعة الأولى هذه عام ١٧٧١ . وقد ادخلت على المرجع تعديلات عديدة في طبعاته التي تلت . وقد روعي في طبعة ١٩٧٢ المنقحة والتي حضرها ثلاثة من المجمعين ، ان يستأنس بالنظريات اللغوية المعاصرة من وصفية وتحويلية . وكان من بين النشاطات لمجمع الاسبانية التي ساعدت بشكل فعال على زيادة كفاية انتاج المجمع اجراء المسابقات في الابحاث اللغوية والكتابة الأدبية ، وتقييمها ، ومن ثم منح الجوائز للمؤلفات التي تنال تقدير المجمع . وكانت هذه المؤلفات تنشر فيما بعد (اما معدلة جزئيا أو كليا) باسم المجمع وهذا ما جعل الانتاج المجمعي غير مقتصر على المجمعين انفسهم . وبالتالي فان النقد أو المعارضة التي كانت تواجه المجامع الأخرى لم تحصل بالنسبة لمجمع الاسبانية .

وفي استعراض مجامع الاسبانية خارج شبه جزيرة ايبريا سيكون مجمع الاسبانية موضع الحديث كذلك من حيث كونه المجمع الأم لها وكذلك من حيث كونه أحد اعضاء اتحاد مجامع الاسبانية .

مجامع الاسبانية في نصف الكرة الغربي .

أسست المجامع اللغوية في أمريكا اللاتينية (وهذا الاصطلاح يتضمن اعتبار المكسيك ـ في أمريكا الشمالية ـ إحدى الدول المعنية) على غرار مجمع الاسبانية الملكي ، وتبنت نفس الاهداف واساليب منهاج العمل . وهذا واضح من بنود قوانينها الداخلية .

ولم يكن تأسيس هذه المجامع مجرد فكرة وليدة الاستقلال ، بل سبق ذلك بوادر من مجمع الاسبانية الملكي نفسه ، اذ انه في العام ١٨٦٠ اتخذ المجمع قرارا بالاعتراف بأي مجمع للاسبانية ـ خارج اسبانيا ـ يؤسسه ثلاثة على الأقل من الاعضاء المشاركين (في المجمع الملكي في مدريد) في أي قطر في أمريكا اللاتينية اذا تقدم هؤلاء الثلاثة بطلب بهذا الغرض الى المجمع الملكي . ويبدو ان هذا القرار كان قد سبقه بحث الاعضاء المشاركين بمبادرة من العضو المشارك من كولومبيا .

وإذا تفحصنا بعض العبارات التي وردت في القوانين الداخلية لهذه المجامع وجدنا أنها

هدفت الى جعل اللغة عنصرا من عناصر الوحدة مع الوطن الأم ، فقد قال Miguel Antonic Caro عند تأسيس المجمع الكولومبي : « اللغة هي الوطن الأم » (Guillermo, etal., 1974 : 321 ff). وقال أحد المؤلفين الذين منحوا جائزة المجمع الملكي : « لا شيء يمثل الوطن الأم في رأيي مثل اللغة » (نفس المصدر والصفحة) .

كان هذا هو الشعور العام . ولكن كانت هناك اتجاهات معاكسة دعت الى نبذ الاسبانية وايجاد لغة قومية في كل قطر تختلف عن لغة المستعمر السابق ولا تذكرهم به . واعتبر أصحاب هذا الاتجاه أن الابقاء على الاسبانية هو بمثابة مدعى لاسبانيا للتدخل في شؤونهم الداخلية . فمثلا رفض الكاتب البيرووي Manuel Gonzalez Prada عرض المجمع الملكي ليصبح عضوا مشاركا فيه (نفس المصدر ص ٣٢٢) . وفي تشيلي والارجنتين كان لدى بعض الكتاب هناك شعور مشابه كذلك . أما بالنسبة لمؤيدي الابقاء على الاسبانية في تلك الاقطار فقد رأوا في اللغة الاسبانية تعبيرا عن الذاتية الثقافية لجميع الاقطار الناطقة بالاسبانية ، كما تبنوا الحجة بأن ترك الاسبانية لكي تتفسخ وتتعفن في اقطارهم ما هو الا دليل على رفض أصلهم العرقي ، ودليل على رفضهم المشاركة في التقدم الحضاري باعلان عجزهم عن ابقاء لغة الثقافة حية في مجتماعاتهم . كما أنهم رأوا في التخلي عن الاسبانية زيادة عوامل التفرقة بين الأقطار ذاتها .

وكانت محصلة الصراع بين الفريقين أن تغلب انصار الاسبانية . وتجلى ذلك في تأسيس المجامع اللغوية فيها ـ كولومبيا ١٨٧١ ، المكسيك ١٨٧٥ ، الأكوادور ١٨٧٥ ، سلفادور ١٨٨٠ ، فنزويلا ١٨٨١ ، تشيلي ١٨٨٦ ، غواتيمالا ١٨٨٨ . وتشابه شروط العضوية في جميع هذه المجامع شروط العضوية في المجمع الملكي ، واهمها الكفاية اللغوية والشهرة في الانتاج في المجال الأدبي أو الدراسات اللغوية . ودعمت حكومات تلك الأقطار مجامعها وساعدت على نشر انتاجها . كما بذل الأعضاء المؤسسون جهودا كبيرة في سبيل انجاح نشاط المجامع . الا أن هذا النشاط تناقص بشكل كبير بعد وفاة المؤسسين مما أدى الى حل العديد منها ذاتيا . غير أنه أعيد تشكيلها خلال العقود الأولى من هذا القرن : تشيلي ١٩١٤ ، بيرو ١٩١٨ ، الأكوادور ١٩٢٣ ، سلفادور ١٩٢٣ ، غواتيمالا ١٩٣٠ .

كما تشكلت مجامع مشاركة في أقطار أخرى : الأرجنتين ١٩١٠ (واعيد تشكيله وغير اسمه عام ١٩٣٠) ، بوليفيا ١٩٢٠ ، كورستاريكا ١٩٢٣ ، كوبا ١٩٢٦ ، بنما ١٩٢٦ ، الدومنيكان ١٩٢٧ ، براغواي ١٩٢٧ ، هندوراس ١٩٤٨ ، بورتوريكو ١٩٥٢ . وقد

حافظت جميع هذه المجامع ـ باستثناء مجمع الارجنتين ـ على ارتباطها مع المجمع الملكي في مدريد .

وبالنسبة لانتاج هذه المجامع ـ في كلا الفترتين ما قبل القرن العشرين وخلاله ـ فقد كانت في المعاجم والنحو ، والتهجئة ، والأعمال الأدبية والبحث اللغوي والنظري . كانت مؤلفات المجمع في النحو تظهر متأخرة ولا يدخل فيها الاستعمال المثقف الدارج في المؤلفات الأدبية الجديدة . أما وضع المعاجم فقد كان نقطة الارتكاز بالنسبة لمعظم المعاجم ؛ كما أن هذه المعاجم كانت تختلف بعضها عن البعض حسب القطر الذي ظهرت فيه ، وقد وضع كل مجمع معجما . وقد واجهت جميع المجامع مشكلة المفردات الدخيلة ، وترك لكل مجمع أمر حل هذه المشكلة حسب العوامل المؤثرة في ذلك القطر . فمثلا حصل المجمع الكولومبي عام ١٩٦٠ على موافقة مجلس الدولة التشريعي بمنع استعمال المفردات والمصطلحات من اللغات الأجنبية في وثائق العمل التجاري الرسمي ، واسماء المؤسسات التعليمية والمراكز الثقافية والاجتماعية وفي اسماء المطاعم والمقاهي والفنادق والمرافق العامة الأخرى (نفس المصدر ص ٣٤٥) .

اتحاد المجامع الاسبانية .

امتدادا لفكرة ونشوء التجمعات السياسية بين مجموعات من الدول في مناطق مختلفة من العالم خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، اقترح رئيس جمهورية المكسيك Miguel Aleman عام ١٩٥١ أن يجري تنسيق منتظم بين جميع مجامع الاسبانية ، وان تشرف مظلة ادارية على هذا التنسيق . واستضاف الرئيس المكسيكي في ذلك العام مؤتمرا عاما ضم ممثلين عن جميع مجامع الاسبانية . ولم تظهر معارضة جذرية لفكرة الرئيس المكسيكي ، وعليه تقرر أن تشكل اتحاد لهذه المجامع وان تنتخب مفوضية دائمة للاتحاد ؛ كما تقرر أن يعقد الاتحاد اجتماعا كل اربع سنوات ابتداء من ١٩٥٦ تتناوب المجامع دوريا استضافة هذا الاجتماع . وقد وضع هدف الاتحاد ليكون العمل بانتظام ومواظبة للدفاع عن الاسبانية والمحافظة على وحدتها وتكاملها كلغة مشتركة بين جميع هذه الأقطار، وللتأكد من أن نموها يتبع مسارا اسبانيا أصيلا (ص ٣٢٦) . وأما المفوضية فهي مسؤولة عن الاشراف على تنفيذ قرارات الاتحاد . وقد وقعت دول المجامع على اتفاقية اعتراف مشتركة بالاتحاد .

- وفي عام ١٩٦٠ تقدمت كوبا في الاجتماع الثالث للاتحاد الذي عقد في بوغوتا عاصمة كولومبيا بمشروع لاصلاح نظام التهجئة بحيث تصبح عملية تعلم التهجئة أسهل ، الا أن الاتحاد قرر أن يحيل على المجمع الملكي مهمة تنقيح كتبه في التهجئة ، (Nuevas Normas) المذكور سابقا ، آخذا بعين الاعتبار

اقتراحات الوفد الكوبي . وفي مؤتمر ١٩٦٤ ـ الذي عقد في الارجنتين ـ تقدم مجمع الاسبانية في الفلبين بمشروع يستخدم الابجدية الصوتية (Phonetic alphabet) لاغـراض تعليم المبتدئين . الا أن الاتحاد رفض هذا الاقتراح ، ووافق فقط على جواز استعماله في الفلبين فقط اذا أدى استعماله الى المحافظة على الاسبانية من الزوال في ذلك القطر . وحذر الاتحاد مجمع الفلبين بأن استخدام تهجئة تختلف عن النظام المعمول به في باقي أقطار الاتحاد سيؤدي الى عزل ذلك القطر ثقافيا عن باقي الأقطار (المصدر ص ٣٥١) .

ومع أن الاتحاد يرى أن نظام التهجئة الحالي غير مرض تماما الا أنه لا بد من القول أن نظام تهجئة الاسبانية أكثر انتظاما واضطرادا من معظم نظم تهجئة اللغات التي تستعمل الأبجدية اللاتينية . وأن الاعجام الذي يشكل مشكلة في الطباعة والكتابة اليدوية والذي يوجد له مثيل في عديد من اللغات الأخرى التي تستخدم نفس الأبجدية (مثل الفرنسية والالمانية وغيرهما) هو نتاج طبيعي لاستخدام أبجدية وضعت أصلا للغة ما ثم امتد استعمالها الى لغات أخرى تختلف عنها .

أما بالنسبة للمفردات والمصطلحات المتخصصة والمعاجم فقد توصل الاتحاد الى وضع نظام مضطرد لجميع المجامع في اجتماعه عام ١٩٦٠ . وملخص القرار هو عدم معارضة ادخال هذه المفردات والمصطلحات في المعاجم ، وذلك لأن معظم المفردات والمصطلحات المتخصصة المستخدمة هي لاتينية الجذور ، ولكون الاسبانية إحدى اللغات الناتجة عن اللاتينية فان الاشتقاق لا ينتج مصطلحات أو مفردات غريبة الجذور عن الاسبانية (كما هو الحال بالنسبة للغات غير اللاتينية مثل العربية واليابانية مثلا) .

مجمع الغالية / الايرلندية .
Comhairle Na Gaeilge

إثر الاحتلال البريطاني لجزيرة ايرلندا في القرن الثامن عشر بدأ الاقبال بين الايرلنديين أنفسهم على تعلم اللغة الانكليزية وترك اللغة الايرلندية ، خاصة في الفترة بين ١٧٥٠ ـ ١٨٥٠ م . فقد تبين من احصاء أجري عام ١٨٥١ أن ٥ ٪ فقط من الايرلنديين يستعملون الايرلندية دون غيرها و ٢٣ ٪ ثنائيو اللغة (أي يستعملون الايرلندية والانكليزية) ، أما الباقون فيبدوا انهم كانوا قد أصبحوا ناطقين بالانكليزية وحدها .

ومن مراجعة تاريخ العلاقات الايرلندية البريطانية يمكن القول أن تخلي الايرلنديين عن لغتهم كان نتيجة دوافع اقتصادية ، حيث أصبحت الوظائف والاعمال الرسمية والتجارية

تعتمد على الانكليزية وحدها . ولا يزال هذا الدافع حافزا لمعظم الايرلنديين أنفسهم ، وتبين من اجابات طلاب المدارس أن ٣ ٪ منهم يستعملون الايرلندية بالرغم من جهود المجمع ، وأن هذا الاستعمال محصور في محيط البيت والعائلة . كما تبين أن غالبية هذه المجموعة (٣ ٪) تعيش في منطقة الشاطيء الغربي للجزيرة (أي غير المحاذي لجزيرة بريطانيا) وبعيدا عن المدن الكبيرة Mac-) namara, 1971 : 65 — 94).

أما ظهور مجمع الايرلندية فقد اقترن بظهور الحركة القومية الايرلندية في نهاية القرن التاسع عشر . فقد تكتلت مجموعة ضمن هذه الحركة وشكلت (عصبة الغالية / الايرلندية) عام ١٨٩٣ (نفس المرجع ص ٦٧) ، وقد تأسست فروع لها في مختلف المناطق التي كانت الحركة القومية فيها نشيطة . أما اهداف المجمع فكانت مرتكزة على اعادة استعمال / احياء اللغة الغالية . أما النشاط الرئيسي للمجمع وفروعه فكان يتمثل في فتح مراكز تدريس الغالية للكبار . وقد وجد العديد من الايرلنديين في هذه المراكز التعليمية بؤرة تجمع قومية ، ولكون الايرلنديين منتمين للكاثوليكية (والتي تختلف عن الكنيسة البريطانية / الانكليزية) فقد جمعت هذه المراكز انصار الغالية من مختلف الطبقات . وبهذا أصبحت الدعوة الى اعادة الغاليةجزءا من حكومةقومية ودينية واجتماعية في نفس الوقت . وقد بدأت نتائج قوة هذا التجمع تظهر في التشريعات البريطانية في ايرلندا . فمثلا اضطرت الادارة البريطانية في ايرلندا قبول المراسلات (المواد البريدية) المعنونة بالغالية . كما صدر تشريع في وزارة التربية يجيز تدريس الغالية كاحد المواضيع المدرسية ، كما أصبحت الغالية في الوقت الحاضر إحدى متطلبات القبول في الجامعة الوطنية الايرلندية . أما في مجال البحث اللغوي فقد بدأ المجمع إصدار مجلته الأسبوعية An Claidheamh Soluis عام ١٩٠٥ وهي تحوي قرارات واخبار نشاطات وابحاث المجمع . وتعتبر حركة اعادة الغالية إحدى العوامل التي أدت الى استقلال الايرلنديين الكاثوليكيين عن بريطانيا وتأسيس دولة ايرلندا الحرة عام ١٩٢٢ (المصدر ص ٦٨) .

ومع قيام الدولة بدأ نشاط المجمع يخف نتيجة تقاعس اعضائه الذين اعتبروا أن المهمة التي بدأوا بها قبل تأسيس الدولة يجب أن تقع على كاهل الحكومة الجديدة . يضاف الى ذلك أن عددا من اعضاء المجمع الفعالين قتلوا في حرب الاستقلال ضد بريطانيا ، وان عددا آخر منهم تسلم مناصب سياسية في الحكومة وكرسوا نشاطهم في هذا المجال .

(١) استعمال الغالية في جميع المجالات بقدر الامكان .

(٢) تأسيس كليات معلمين لتزويد المدارس

باحتياجاتها من المدرسين في المرحلة الابتدائية (الا أن هذه المعاهد اغلقت عام ١٩٦٠) .

(٣) تأسيس مركز للترجمة تابع للبرلمان (أسس عام ١٩٤٥ ، واصدر مرجعا في النحو عام ١٩٥٣) .

(٤) اعطاء مكافآت ومساعدات مالية للعاملين في تدريس الغالية والمدارس التي تدرسها . وبالرغم من التسهيلات والمكافآت والمساعدات المالية الا أن الاقبال على تعلم وتدريس الغالية لم يرتفع بل بدأ ينخفض كما تدل على ذلك الاحصائية التالية عن المدارس الثانوية التي تدرس الغالية :

ولم يكن الفتور في الاقبال على الغالية مقصورا على المتعلمين ، فالكنيسة التي كانت إحدى مراكز التجمع للغالية لم تتبن استعمالها في صلواتها إلا عام ١٩٥٦ . ومن مجريات الأحداث المتعلقة باعادة احياء الغالية يظهر أن المهمة قد أثبتت أنها أصعب مما كان متوقعا قبل أكثر من ثلاثة ارباع القرن ؛ وكان الخلاف حول جدوى أهداف إعادة إحياء اللغة وحتى حول وسائل تحقيق تلك الأهداف . كما يرجع الفشل النسبي لحركة إعادة اللغة الى درجة ثقة الايرلنديين بامكانية اعادة لغتهم . فقد أجري استفتاء عام ١٩٦٤ حول شعور الايرلنديين تجاه جدوى إعادة اللغة ، وكانت نتيجة الاستفتاء أن ٨٣ ٪ من السكان لا يعتقدون أنه بالامكان جعل الغالية اللغة القومية والرسمية للدولة ، بينما يعتقد ٧٦ ٪ أنه بالامكان الابقاء على الغالية كلغة ثانية في ايرلندا بعد الانكليزية . ويزيد في هذا الانحدار للغة القومية الى المرتبة الثانية في الاستعمال الدارج أن الدولة نفسها تعتمد على الانكليزية في معظم معاملاتها وشؤونها . (هذا بالرغم من أن البند الثاني من المادة الثامنة في قانون الدولة ينص على أن لغة التداول في البرلمان هي الانكليزية وأن سجلاته باللغتين . كما أن لغة الأجهزة الاعلامية وخاصة الاذاعة منها تستعمل الغالية بشكل أقل من الانكليزية ، فبرامج الاذاعة بالغالية لا يزيد على ١٠ ٪ من مجموع ساعات البث (تقرير المجمع عام ١٩٧٢ في (Fishman, 1974 : 527 — 552).

السنة	عدد المدارس التي تدرسها	عدد المدارس في ايرلندا
١٩٤٤	٩٨	٣٧٧
١٩٥٦	٨٧	٤٧٤
١٩٦٦	٧٢	٥٨٥
١٩٦٨	٥١	٥٩٦

(Macnamara, 1971 : 75)

مجلس السكتلندية .
Comhairle nan Lallans

تستعمل في منطقة سكتلندا لغتان عدا الانكليزية :

الأولى هي الغالية والتي ينطق بها المنحدرون من اصل ايرلندي ، والثانية هي السكتلندية وهي قريبة من الغالية لكونهما لغتين قلطيتين (Celtic) وفي السكتلندية لهجتان رئيسيتان لهجة المناطق المرتفعة ولهجة المناطق المنخفضة .

وكانت السكتلندية هي لغة مملكة اسكتلندا قبل القرن السابع عشر ، حين توحدت المملكتان (البريطانية والسكتلبدية عام ١٦٠٣) . وكانت غير محدودة في استعمالها آنذاك كما أنها كانت تعتبر أكثر « تطورا » من اللغة الانكليزية — Aitken, 1976 : 48 (55 في Wood, 1977) . وفي أعقاب انضمام المملكة السكتلندية للمملكة الانكليزية وتشكيل المملكة المتحدة ، بدأت السكتلندية بالاندحار تدريجيا . ومنذ توحيد البرلمانيين عام ١٧٠٧ ـ وحتى عهد قريب ـ لم يعد للسكتلندية أي وجود فعلي على نطاق واسع ، خارج المدون منها وخاصة القانون السكتلندي .

إلا أن الشعور بالحاجة الى المحافظة على السكتلندية لم يتلاش عند أهلها ، فقد تأسست جمعية لغوية في لندن عام ١٧٧٧ وفي Inverness في سكتلندا عام ١٨٧١ . وكانت الجمعية في سكتلندا تشرف على تدريس السكتلندية ، وكانت هذه الجمعية تعقد اجتماعات منتظمة لبحث شؤون ووسائل المحافظة على اللغة وتنشر ذلك في مجلتها ، وفي عام ١٨٨٢ تأسس في جامعة ادنبرا كرسي لتدريس السكتلندية وانتقلت الى هذه الدائرة عملية الاشراف على تدريس السكتلندية ، لكن التنظيم الشعبي الطوعي عاد الى الظهور عام ١٨٩١ بانشاء اتحاد منطقة المرتفعات الجبلية وهو حزب سياسي جعل المحافظة على اللغة أحد نشاطاته الأساسية ، وكان هذا الحزب فعالا في تأييد مناصري السكتلندية في البرلمان .

وبعد الحرب العالمية الأولى انتشرت حركة الولاء اللغوي الى المناطق المنخفضة ، وعقدت عدة مؤتمرات لبحث وضع اللغة في التعليم واتخذت قرارات تطالب بتحسين الكتب المستعملة في تدريس اللغة وزيادة عدد الساعات المقررة لها كموضوع مدرسي . وبعد تأسيس الحزب الوطني السكتلندي ازداد الدعم السياسي لانتشار استعمال اللغة ، فبدأت البرامج المحلية لهيئة الاذاعة البريطانية بث برامج بالسكتلندية لمدة ساعة وثلاثة أرباع الساعة أسبوعيا في الخمسينات من هذا القرن . الا أن السكتلندية لم يكن لها أي مركز رسمي بالنسبة للاستعمال في ادارة المقاطعة . وفي عام

١٩٥٢ ظهرت المجلة الفصلية Gairm والتي تعنى بشؤون السكتلندية ، وفي عام ١٩٦١ أشرف مجلس السكتلندية على دراسة علمية لاستقصاء المهارة اللغوية بالسكتلندية لدى طلاب المدارس الابتدائية ، ووضعت امتحانات مقننة لقياس تلك المهارة . وفي المؤتمر الذي عقده المجلس مع الحزب الوطني عام ١٩٦٨ صدر قرار بتعيين عضو ناطق بالسكتلندية في مجلس التنمية السكتلندية ، وبذا أصبح المجلس ذا نفوذ سياسي (Pressure Group). وتبع ذلك تعيين موظف واحد على الأقل ينطق بالسكتلندية في كل مكتب من المكاتب الادارية للمقاطعة ، كما خصصت منح خاصة ورسمية بهدف زيادة انتشار السكتلندية . وعلى سبيل المثال أعطيت جامعة كلاسكو منحة لوضع معجم تاريخي للسكتلندية ، كما تأسس مجلس لوضع كتب مدرسية بالسكتلندية ممولا بمنحة حكومية . وقد ظهر انتاج هذا المجلس في السبعينات ، وبدأت بعض الجامعات باجراء دراسات لغوية علمية في الصرف المقارن واللهجات وتاريخ اللغة ، والنقد الأدبي والفن الشعبي السكتلندي . وفي نشاط الحزب الوطني السكتلندي ازداد التركيز على اللغة ، فاتخذ الحزب في مؤتمر عام ١٩٦٨ قرارا بانشاء مكتب سكرتيرية السكتلندية للاشراف على وضع مخطط مفصل لسياسة الحزب اللغوية (Mackinnon, 1977 : 1 — 3).

وكنتيجة لفعالية الحزب الوطني السكتلندي بدأ العمل على اعادة ظهور سكتلندا كشخصية سياسية في بريطانيا في الربع الثالث من هذا القرن . وكان من مظاهر النشاط هذا تأسيس مجلس السكتلندية عام ١٩٧٠ . وقد ارتكز مؤسسو المجلس على تجاوب السكتلنديين مع حركة اعادة السكتلندية التي كان بدأ بها أربعة من الشعراء السكتلنديين المشهورين وعلى رأسهم Hugh Mc David وهو الآن الرئيس الفخري للمجلس .

وزاد من فعالية المجلس اعادة تقسيم المقاطعات الادارية في بريطانيا عام ١٩٧٥ ، اذ أصبحت هذه المنطقة وحدة ادارية وشكل لها برلمان افتتح عام ١٩٧٧ . ويطالب هذا البرلمان الآن باستقلال سكتلندا عن بريطانيا ؛ وبذلك أصبح العمل على اعادة السكتلندية مظهرا أساسيا من مظاهر الاستقلال الذي يطالبون به ؛ فأصبحت السكتلندية تدرس بجانب الانكليزية في جميع المراحل الدراسية ، ابتدائية وثانوية وجامعية . ويقوم المجلس بالتعاون مع وحدة التعليم اللغوي الثنائي (التابع لمجلس الجزر الغربية وسكتلندا) بتحضير ونشر المواد التعليمية لهذا الغرض . كما بدأ المجلس باصدار مجلة دورية Lians. وقد تأسست جامعة في جزيرة سكاي باسم Sabhal Mo Oistag بهدف جعل السكتلندية لغة التعليم الوحيدة . كما يطالب المجلس الآن ـ على لسان سكرتيره David Hughes ـ بأن يصبح

للسكتلندية أقسام في جميع الجامعات على غرار أقسام اللغة الانكليزية (Wood, 1977 : 1 — 6). هذا من ناحية طموح المجلس كما يظهر في مطالبه ، الا أن انتشار استعمال السكتلندية كلغة للتدريس لا يزال محدودا نسبيا .

وما زلنا في معرض الحديث عن مجامع اللغات غير الانكليزية في بريطانيا فيحسن بنا أن ننوه الى وجود حركة مماثلة في مقاطعة ويلز تدعو الى اعادة إحياء لغة ويلز . ففي عام ١٩٦٢ وجه أحد الوطنيين الويلزيين Saunders Lewis خطابا بعنوان « مصير لغة ويلز » (Tynged yr Iaith) ؛ وقد استقطب مشاعر الناطقين بها والبالغ عددهم خمس المليونين ونصف المليون من سكان المقاطعة ، خاصة الشباب منهم وحفزهم على مزيد من الاقبال على استعمال الويلزية (Mackinnon, 1977 : 2). ومن مظاهر تشبث الويليزيين بلغتهم أن الحزب الوطني الويلزي (الذي يبلغ عدد أعضائه حوالي ٣٠ ألفا) تبنى قضية إعادة إحياء اللغة ، وقد حصلت حوادث عديدة تبين مدى تعلقهم بلغتهم . ومن هذه الحوادث رفض الويلزيين استلام اشعارات الحضور للمحاكم الموجهة اليهم بالانكليزية ، وازالة إشارات المرور المكتوبة بالانكليزية فقط .

وفي شهر تشرين الأول عام ١٩٧٩ دعا سكرتير الحزب الوطني الويلزي الى عدم دفع رسوم أجهزة التلفزيون ما لم تخصص الحكومة إحدى قنالات البث للويلزية (الاذاعة البريطانية العالمية باللغة الانكليزية ٢٠/١٠/١٩٧٩ ، الساعة ٤٥ و١٣) .

الصين

لا يوجد في الصين مجمع لغوي بالمعنى الذي نتحدث في هذا البحث . إلا أن محاولات للاصلاح اللغوي جرت وما تزال تجري في تلك المنطقة من العالم . وعليه فانه وان تعذر التحدث عن « مجمع اللغة الصينية » كما تحدثنا عن مجامع في دول أو مناطق أخرى من العالم فان هذا البحث يعتبر ناقصا من ناحية تغطية مناطق العالم المختلفة في هذا المجال ، ومن الناحية المنهجية كذلك بدون التحدث عن مشكلات الصينية ومحاولات التخطيط لعلاجها . فان التخطيط اللغوي في الصين لا يختلف جوهرا عن التخطيط اللغوي في الدول شاسعة المساحة متعددة اللغات .

ولكن قبل الخوض في العلاجات اللغوية التي وضعها المسئولون المعنيون بشؤون اللغة في الصين يحسن بنا أن نلخص الوضع بشكل مقتضب جدا .

يتلخص الوضع اللغوي في الصين في نقطتين أساسيتين :

أولا : يمكن تقسيم اللغات التي ينطق بها سكان الصين (بكاملها قبل التقسيم والصين الشعبية بعد ذلك) الى فئتين : فئة اللغات أو اللهجات الصينية (اذ يختلف اللغويون حول تحديد اللهجات واللغات) وفئة اللغات غير الصينية . اما الفئة الأولى فتتضمن ثمانية لغات / لهجات أشهرها وأكثرها انتشارا هي الماندرين (لغة حوالي ٧٠ ٪ من السكان) . أما الفئة الثانية ففيها ست وثلاثون لغة ، تنتشر ست وعشرون منها في جنوب الصين وتنتشر العشرة الأخرى في الشمال . وتنتمي لغات الشمال الى أربع عائلات لغوية . أما لغات الجنوب فتنتمي تسع منها الى العائلة الالطية وأما اللغة العاشرة (التاجية) فتنتمي الى عائلة اللغات الايرانية (Defrancis, 1967 : 131 — 150; Chang, 1967 : 151 — 171).

ثانيا : نظام كتابة الصينية هو نظام الرسم الصوري ، أي الرمز برسم الى الفكرة (لا الى الصوت كما هو الحال في معظم لغات العالم الأخرى) . وهذا النظام هو تطوير لنظام الرمز الى الشيء بصورته والذي كان استعماله دارجا لمدة عشرين قرنا (بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ قبل الميلاد) في الرقعة الممتدة من مصر الى الصين .

يرمز في النظام الصيني الحالي الى الفكرة بشكل معين ويجمع أكثر من شكل للدلالة على فكرة كذلك . وهذا يجعل عدد الاشكال أقل نسبيا من عدد مدلولاتها الفكرية . فمثلا يستعمل الشكل 重 للدلالة على معنى أو فكرة « ثقيل » ويستعمل الشكل 力 بمعنى « قوة » . واذا ما جمع الشكلان بسياق تتابعي (الأول الى اليسار والثاني الى يمينه) فان مدلول الشكل المركب هو الفعل « يتحرك » أو « ينتقل » (Falk, 1978 : 154). وكما يتبين للقاريء فانه لا يوجد في الشكل ما يدل على لفظ الكلمة . ولهذا فان هذا النظام الكتابي يقرن في مراحل تعليم القراءة بنظام آخر للدلالة على نطق الكلمة بالنسبة للمتعلم ويستغني عن الرموز الصوتية تدريجيا . وهذا مثال على اقتران الأشكال الكتابية برموز الأصوات . هذا الشكل 國 يعني « قطر » أو « بلد » . وللدلالة على لفظه الى يمينه عدد من الرموز الدالة على نطقة وهي : ㄍㄨㄛˊ وحيث أن الصينية لغة نغمة (tone) (lan-guage) فيرمز الى نغمة هذا اللفظ بـ / . ترتب رموز الاصوات من أعلى الى أسفل وتوضع إشارة النغمة الى يمين رموز الاصوات هكذا ㄍㄨㄛˊ وبذا يصبح الشكل الكامل للفكرة 國ㄍㄨㄛˊ ويكون نطقها « كُوُو » (تقريبا اذ لا نستطيع بيان النغمة هنا) .

وكما يظهر من هذا الوصف الموجز لهذا النظام فان الأشكال الرمزية للأفكار كبير جدا . ويضاف الى ذلك أن نطق هذه الأشكال يختلف من لغة صينية الى أخرى مما يجعل التفاهم بين

الناطقين بهذه اللغات شبه معدوم على مستوى المحادثة . أما على مستوى الكتابة فان التفاهم غالبا ما يكون شبه تام . وربما تكون هذه هي الميزة الايجابية الوحيدة لهذا النظام على أنظمة الكتابة الأبجدية . وكدلالة على هذه الميزة نورد المثال التالي : اذا وجد القاريء ذو الالمام بالأبجدية اللاتينية العبارات التالية :

Drei und funf ist acht. (German)

Tres y cinco son ocho. (Spanish)

Trois et cinq sonne huit. (French)

Uc arti bes sekizdir. (Turkish)

فانه لن يستطيع فهم المقصود بها الا اذا كان ذو المام باللغات نفسها . أما اذا عرضت فكرة هذه العبارات بنظام الرمز الى الفكرة بشكل ، وكان القاريء ملما بهذا النظام (ولا شك في ذلك كما اعتقد) فلن يجد القاريء صعوبة في فهمها ، فهي مجرد $8 = 5 + 3$ حيث يدل كل رمز الى فكرة وليس الى نطق ، بل أن نطق العبارة يختلف من لغة الى أخرى . وبهذا فان نظام الرمز الى الأفكار باشكال يقطع حواجز اللغات المختلفة .

مما سبق يتبين بوضوح أن هناك مجالين أمام المعنيين بشؤون اللغة في الصين بمجال تبسيط نظام الكتابة أو استبداله ، ومجال توحيد اللهجات واللغات ، أو نشر لهجة أو لغة واحدة في الصين .

ففي مجال الكتابة قام لي سي عام ٢١٣ قبل الميلاد بوضع قائمة من الرموز يبلغ عددها حوالي ثلاثة آلاف رمز اختارها من بين آلاف عديدة كانت تستعمل . وقد قام بهذا العمل بناء على تكليف من هوانك دي الذي وحد الصين تحت حكمه واراد أن يستعمل جميع رعاياه نفس الرمز لنفس الفكرة بدلا من الرموز المتعددة لنفس الفكرة لدى الانظمة السياسية التي كانت سائدة قبل توليه الحكم . ونعيد الى ذهن القاريء ما ذكر أعلاه من أن الهدف الأول لكل من المجامع المذكورة أعلاه كان وضع تنظيم مركزي للاستعمال اللغوي في سبيل ايجاد نوع من الوحدة اللغوية التي تركز السلطة المركزية أو تجمع الأمة .

وعندما تأسست الأكاديمية الصينية للعلوم في القرن الماضي كان من بين لجانها لجنة متخصصة في مجالات اللغة . كما قامت لجنة أخرى بعد قيام الجمهورية عام ١٩١١ ، تبعتها لجان عديدة بشكل غير رسمي . وقد ركزت جميع هذه اللجان اهتمامها على ناحية واحدة من التخطيط اللغوي وهي اصلاح نظام الكتابة .

وكانت في صفوف هذه اللجان أو الهيئات (كما كان يدعي بعضها) دعوتان : دعوة الى تبسيط النظام نفسه ودعوة الى استعمال ابجدية

مستمدة من الأبجدية اللاتينية ـ ولكن الحوار لم يصل الى موقف موحد أبدا ـ كما أن الحرب اليابانية الصينية والحرب الأهلية في الصين نفسها أدت الى تلاشي معظم هذه الهيئات .

وبعد عام ١٩٤٩ عادت بعض هذه الهيئات الى العمل . وكان من أشهرها « اتحاد اصلاح الكتابة الصينية » برئاسة يوتشانك أحد أعمدة الدعوة الى الأبجدبة المستمدة من الأبجدية اللاتينية قبل الحرب الأهلية . الا أن حكومة ثورة ١٩٤٩ حددت لهذه اللجان اطار وخطوط العمل اللغوي التي يمكنها أن تعمل ضمنها . ففي مجال الكتابة كانت السياسة العامة ـ كما نشرتها وزارة التربية عام ١٩٥١ ـ وهي تبسيط نفس النظام دون اللجوء الى أية أبجدية لاتينية أو غيرها . وفي نفس الوقت شكلت وزارة التربية لجنة داخلية باسم « لجنة البحوث لاصلاح نظام الكتابة » .

وازاء هذا القرار السياسي بالنسبة للتخطيط اللغوي جاء المدح والدعم والتأييد بالاثبات التربوي واللغوي ليس فقط من دعاة الابقاء على نفس النظام بل كذلك من معظم الدعاة الى الميزات الايجابية لاستعمال الأبجدية اللاتينية المعدلة . وبهذا تركز العمل في هذا المجال على تبسيط نظام الكتابة الصيني (وأن ظهر اتجاه في « الاتحاد » دعا الى استعمال الأبجدية السيريلية المستعملة في كتابة اللغة الروسية ـ واهمل هذا الاتجاه فيما بعد) .

وفي عام ١٩٥٤ تقدمت لجنة البحوث بمشروع لتبسيط الكتابة قلصت فيه عدد الرموز الاساسية الى ٥٤٤ شكلا . كما اشتمل المشروع على اقتراح بتقليص عدد الخطوط في كل شكل من معدل ستة عشر خطا الى معدل ثمانية خطوط . وقد مر المشروع في المراحل الادارية السياسية ووافقت عليه اللجنة المركزية السياسية للدولة عام ١٩٥٦ . وفي نفس السنة قدم مشروع آخر باستعمال الأبجدية اللاتينية بشكل معدل على أساس استعمالها بشكل تجريبي ووافق مجلس الشعب القومي الصيني عام ١٩٥٦ . وهذا النظام المعدل هو المعروف الآن باسم (Lehman, 1975 : 46 — 49) pin yin. وقد طبق النظام هذا في المدارس بشكل تجريبي الا أنه لم يتخذ قرار برفضه أو تبنيه عقب انتهاء الفترة التجريبية . ولا يزال كلا النظامين دارجين في المراحل التعليمية الأولى في عدد من المناطق . أما على المستويين الرسمي والشعبي فان النظام الصيني المبسط هو الدارج ، وعلى الصعيد الثاني من التخطيط اللغوي في الصين ـ مجال تعدد اللهجات واللغات واللغة الفصحى والمصطلحات المتخصصة ـ بدأ توجيه الاهتمام اليه في القرن التاسع عشر ابان حكم عائلة تشنك . ففي عام ١٨٨٢ أسست كلية المترجمين وبدأت انتاجها بوضع معجم في المصطلحات الكيماوية . وفي عام ١٨٩٨ أسس مكتب حكومي للترجمة وذلك استجابة للحالة الملحة الى تنمية المعارف في

العلوم الدقيقة (الطبيعية) والاقتصاد السياسي . غير أن أكثر هيئة وفرة في الانتاج في هذا المجال كان « معهد التجميع والترجمة » الذي شكل ضمن وزارة التربية في الثلاثينات من القرن الحالي . فقد وضع هذا المعهد خمسة وعشرين معجما للمصطلحات المتخصصة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبية والهندسية ، وخمسة مجلدات من المعاجم في الاقتصاد والاحصاء وعلم النفس والتربية .

وفي الوقت الذي لم ينشأ خلاف حول وضع المصطلحات المتخصصة ، فان الآراء حول اللهجات واللغات والفصحى كانت غير متقاربة . فقد ظهر اتجاهان موازيان للاتجاهين بالنسبة لاصلاح نظام الكتابة . فانصار تبسيط نظام الكتابة الصيني دعوا الى الاتفاق على ايجاد فصحى موحدة والغاء استعمال اللهجات المحلية واللغات الأخرى في التعليم والانتاج المكتوب . أما انصار تعديل الأبجدية اللاتينية للصينية فقد أيدوا فكرة تطوير فصحى لكل لهجة ولغة ، واضافة لذلك ايدوا تطور فصحى مشتركة بين جميع اللهجات واللغات (نفس المصدر) .

ويبدوا واضحا أن الاختلاف في وجهات النظر هذا كان يسير معظم الاحيان مع الاختلافات الحزبية السياسية الداخلية . اذ عندما وضعت وزارة التربية عام ١٩٣٢ سياسة لغوية بشأن الفصحى اعتمدت فيها لهجة بيكين كأساس لفصحى موحدة مشتركة بين جميع سكان البلاد عارض الحزب الشيوعي هذه السياسة بشدة ، واعتبرها في بياناته مثالا على السياسة التعسفية للحكومة آنئذ . كما وصفها بأنها نوع من الاستعمار الثقافي الشمالي على جنوب الصين ، وانها ستؤدي الى تكريس الطبقية في البلاد . وكما حصل بالنسبة لمشاريع اصلاح الكتابة قبل عام ١٩٤٩ جرى بالنسبة للاتفاق على موضوع الفصحى .

غير أنه بعد أن تسلم الحزب الشيوعي الحكم في الصين تغير موقفه بالنسبة للاتفاق على موضوع للفصحى المقترحة المستمدة من لهجة بيكين ، ودعا الى تبنيها . واستشهد مفكروا الحزب تأييدا لموقفهم الجديد بأقوال ستالين في كتابه « الماركسية ومشكلات اللغويات » .

وهكذا قلب الحزب الشيوعي معاييره وقال ان فرض الفصحى لا يعني تكريس الطبقية بل يعمل على الغاءها . وعليه فقد أصبحت السياسة اللغوية الجديدة تقضي بتطوير لهجة بيكين لتصبح الفصحى المشتركة بين جميع سكان الصين . وشكل الحزب المركزي لجنة لغوية ضمن الاكاديمية الصينية للعلوم لتعمل على تحقيق هذا الهدف : (Barnes, 1974 : 457 — 477).

عقدت اللجنة مؤتمرا عام ١٩٥٥ دعت اليه مائة وعشرين لغويا من مختلف قطاعات الدولة

والاحزاب الشيوعية الأخرى . وانتخبت من بين الحاضرين لجنة اسميت « لجنة اصلاح اللغة » . وبدأت اللجنة عملها بوضع اسم للفصحى المقترحة وهو p'u — t'ung — hua والذي يعني « اللغة المشتركة » .

وعقب انتهاء المؤتمر اتخذت توصية رفعت الى مجلس الدولة تطلب الموافقة على استعمال الفصحى في جميع المدارس بدلا من اللهجات واللغات الأخرى . واضافة لهذا فقد هاجم المجتمعون في بيانهم النهائي دعاة تعدد اللهجات واللغات ووصفوهم بالعمالة لافكار اللغويين ومن حمل أفكارهم ودعا بدعوتهم ، وان أفكارهم ما هي الا مجرد تمويه أو قناع للدعوة الى تقسيم الشعب الصيني الى دول متعددة . وقد جاء اشد هجوم من مندوب الحزب الشيوعي الروماني Graur .

وفي المؤتمر الثاني للجنة عام ١٩٥٨ حضر الجلسات رئيس الوزراء تشوان لاي . وفي خطاب الافتتاح أفصح تشوان لاي عن رأيه بالتسليم بالصعوبة التي يواجهها الصينيون في التمكن من الفصحى التي فرضت . واقترح بان توضع في المراحل الأولى للتعليم (للصغار والكبار) عدة معايير تتدرج في مستويات قبولها . فالمستوى المطلوب من المدرسين والمذيعين والمثقفين يجب أن يكون عاليا بينما ، يقبل مستوى أقل فصاحة من بقية المواطنين حتى يتسنى لهم التمكن منها . وبالتالي يقترب الاستعمال الدارج بين الناس من الفصحى تدريجيا . وأضاف بأن الهدف من نشر الفصحى في جميع مناطق الصين ليس الغاء أو منع استعمال اللهجات ، بل العمل على رفع الحواجز اللغوية التي تميزها بعضها عن البعض الآخر . (Barnes, 1974 : 463) .

أما في الستينات فقد تحول الاهتمام بعيدا عن المشكلات اللغوية الى حركة الثورة الثقافية . ولم يعد الاهتمام بها من جديد الا في السنوات القليلة الماضية . ومن نتائج التحليلات الحديثة لسياسة نشر الفصحى يبدو انها نجحت في المدن الكبيرة وفي مناطق اللهجات واللغات الصينية . أما في مناطق اللغات غير الصينية وخاصة البعيدة منها فقد أعيد استعمال تلك اللغات كنقطة البداية في المرحلة التعليمية الأولى ، ومن ثم الانتقال تدريجيا الى استعمال الفصحى المشتركة كأحدى مواضيع الدراسة وليس كلغة التعليم الأولى . (Lehman, Op. cit.)

مجمع العبرية

بدأت نواة حركة اعادة العبرية للاستعمال الواسع بين اليهود مع ظهور الحركة الصهيونية . ويقرن عادة اسم اليزاربن يهودا (١٨٥٨ - ١٩٢٢) بهذه الحركة اللغوية . ويجدر القول من البداية أن الحركة اللغوية هذه - مثلها في ذلك

مثل بعض الأمثلة المذكورة آنفا ـ كانت إحدى مكونات ومصادر استقطاب الحركة السياسية . ولا يمكن النظر في منجزات هذه الحركة في معزل عن الحركة السياسية (كما يزعم العديد من الكتاب في هذا الموضوع) . .

وضع بن يهودا خطة من سبع مراحل أو خطوات لاعادة استعمال العبرية كلغة قومية لمجموعةمعينة في كيان سياسي يحمل طابع تلك المجموعة . وكانت المراحل / الخطوات هي : نشر نمط البيت الناطق بالعبرية وربط هذه الفكرة بنمط البيت اليهودي القديم ، وتشكيل النوادي والاتحادات الناطقة بالعبرية ، واصدار صحيفة بالعبرية في فلسطين (اذ كان هناك العشرات من مثيلاتها في مناطق أخرى من العالم ـ انظر دائرة المعارف العبرية بالانكليزية) ، واستخدام العبرية في المدارس اليهودية في فلسطين ، ووضع معجم عبري ، وتشكيل لجنة دائمة متخصصة في تطوير وتعزيز العبرية (Kelman, 1973) .

ويقسم موشي ناهر (١٩٧٣) تاريخ مجمع العبرية الى ثلاث فترات : الأولى من تاريخ تأسيس لجنة اللغة العبرية (١٨٩٠) الى عام ١٩٢٠ عقب الاحتلال البريطاني لفلسطين والثانية من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٤٨ وتأسيس الدولة اليهودية في فلسطين ، والثالثة من ذلك التاريخ حتى الوقت الحاضر .

يبدو واضحا من الاهداف التي وضعتها اللجنة لدى تأسيسها أن الحركة الصهيونية كانت ترى أنه لا يمكن الفصل بين الدين واللغة من جهة ، ولا بين الدين والسياسة من جهة ثانية ، ولا بين اللغة والاهداف السياسية من جهة ثالثة . ومن العبث الاكاديمي محاولة الفصل بين العناصر الثلاثة هذه في هذه الحالة على الأقل (Deutsch, 1968) . هذا مع العلم أن معظم الكتاب عن العبرية يعتمدون أقوال اليهود في هذا الموضوع أمثال Kellman, Fishman, Nahir, Heyd, Blanc,) (Hoffman, Landau, Morag, Rabin, Hazai والذي ملخصه أن اختيار العبرية كان بناء على افضليتها اللغوية فقط (Nahir, 1973 : 106) وان المهاجرين اليهود الى فلسطين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانوا بحاجة الى لغة تجمعهم كمجموعة أقلية في فلسطين لا كدولة . فلو لم يكن في مخططهم اقامة دولة لفعلوا مثلما فعلت وتفعل أية أقلية تهاجر الى بلد آخر ، وهو اتخاذ لغة البلد المهاجر اليه كلغة أساسية (وربما الابقاء على لغة المهاجر في مجالات محدودة) . وكان هذا ما حصل على سبيل المثال ، بالنسبة للمهاجرين الناطقين بلغات مختلفة الى الولايات المتحدة الأمريكية منذ بدء الهجرة الى الآن (Abuhamdia, 1978.) . وحيث أن المهاجرين اليهود الى فلسطين لم يكونوا من خلفية لغوية واحدة ، بل من خلفيات لغوية عديدة ،

فمن الواضح أن العبرية لم تكن لغة أية مجموعة منهم ، بل أن اللغة المشتركة بين معظم المهاجرين من أوروبا كانت (Yiddish) . والسؤال الذي لا نجد له اجابة في أبحاث اولئك الكتاب هو : لأي سبب تركت اللغة المشتركة بين مهاجري أوروبا ، ولأي سبب تركت العربية وهي لغة البلد المهاجر اليه (كما حصل في أمريكا مثلا) ؟ ويمكن طرح السؤال التالي كذلك (وان كنا لا نجد له اجابة من اولئك الكتاب) : لأي سبب لم يقع الاختيار على لغة أكبر أو أقوى مجموعة من بين المهاجرين ؟ ان الدافع الحقيقي لاختيار العبرية هو ما ذكر اعلاه ، وهو أن العبرية لها قيمتها الدينية والتي اعتمدت عليها الحركة السياسية الدينية اليهودية . وهذا واضح في أقوال بن يهودا ـ مؤسس اللجنة ـ والتي تترك عادة دون النظر في مدلولها البين أو يهمل ذكرها كلية . قال بن يهودا « ان العودة الى العبرية هو منطلق العودة الى أرض اسرائيل ـ على حد قوله ـ وانه بهذا السبيل فقط يمكن تحقيق الخلاص لليهود . فكما أن اليهود لا يمكن أن يصبحوا أمة في دولة الا اذا عادوا الى أرض أجدادهم ، كذلك لا يمكن لهم أن يكونوا أمة في دولة دون العودة الى لغة أجدادهم ، لا ليستعملوها في الصلوات فحسب بل في حديث الشيوخ والشباب والنساء والأطفال وفي كل شؤون الحياة وفي جميع ساعات النهار والليل مثلما تفعل جميع الأمم في دولها . » (Nahir, 1973 : 107) هذا مع أن بعض اليهود المتدينين الغربيين عارضوا استعمال العبرية لقداستها في الأمور الدنيوية (المصدر نفسه) .

تركز عمل اللجنة في هذه المرحلة على اشتقاق ونحت مفردات جديدة من جذور عبرية قديمة وارامية وكنعانية وعربية ، وكذلك على وضع أسس صوتية للفظ هذه المفردات . ومما يجدر ذكره أن اللجنة قررت بالاجماع عدم اقتراض أية كلمة من أية لغة أوروبية حتى ولو كانت دارجة في الاستعمال (المصدر نفسه ص ١١٥) . ومن القوائم التي وضعت في هذه الفترة قائمتان في مواضيع متخصصة وهي : الألعاب الرياضية وعلم النبات والتغذية والأثاث والكهرباء والنجارة والجغرافيا والكيمياء (المصدر نفسه ص ١١٨) .

وبالرغم من انتاج وانجازات اللجنة في هذا المجال الا أن استعمال العبرية في التدريس واجه رفضا من قبل بعض منظمات التعليم اليهودية وعلى رأسها منظمة ايتزا الألمانية ، والتي كان لها عدة مدارس في فلسطين وأهم هذه المدارس المعهد الذي أصبح فيما بعد معهد التخنيون في حيفا . وكان خلاف هذه المنظمة قويا مع انصار العبرية لدرجة أن هذا الخلاف أطلق عليه اسم « حرب اللغات » . وقد كان رد الفعل اليهودي شديدا اثر هزيمة منظمة ايتزا في هذه الحرب ، اذ انتشر استعمال العبرية في المدارس اليهودية

بشكل سريع وبذا أصبح ينظر الى اللجنة على أنها حامي المجتمع اليهودي .

هذا عن اختيار اللغة أما عن اختيار نظام الكتابة فلم يكن موضع خلاف على الاطلاق بين أعضاء المجلس . اذ كان أمر استعمال الأبجدية العبرية اما بدهيا أو أمرا لا يحتاج الى البحث في أفضليته . غير أن الخلاف الوحيد الذي حصل كان حول الاختيار بين نظام الأبجدية في العهد القديم أو نظام الكتابة الذي درج استعماله بعد العهد القديم . وللآن لم يجد هذا الخلاف حلا حاسما (Rabin, 1971).

ومن معالم الفترة لاعادة استعمال العبرية تأسيس الجامعة العبرية عام ١٩٢٥ . ولم يحصل خلاف جذري حول استعمال لغة التدريس فيها سواء في المواضيع الأدبية أم الانسانية أو العلمية ، هذا مع العلم أن بعض اليهود كانوا ولا يزالون يعتقدون أن الألمانية أكثر كفاية من العبرية .

أما من ناحية عمل اللجنة فقد تميزت الفترة الثانية بظهور جهود فردية من خارج اللجنة دعمت عمل أعضاء اللجنة . وقد تمثلت هذه الجهود في قيام بعض الكتاب والصحفيين والمترجمين باشتقاق أو نحت مفردات جديدة في أعمالهم ، أما لعدم توفر مفردات من وضع اللجنة أو لعدم استساغة مفردات اللجنة (Blanc, 1954 : 388, in Nahir, 1973 : 127). وكانت هذه الجهود نقطة البدء في دخول مفردات مقترضة بكاملها أو معدلة جزئيا من اللغات غير السامية . غير أن دخول مثل هذه المفردات حفز اللجنة على أن تكثف جهودها من جهة وان تأخذ بآراء من خارج اللجنة حول المفردات التي تضعها . ومن المواضيع المتخصصة التي وضعت لها مفردات خلال هذه الفترة المواضيع التالية : النسيج وعلم النبات والبناء والمصرفية وعبارات المجاملة والجغرافيا وتربية الأغنام والرسم والنحو والصوتيات والملابس وعلم الحيوان والتربية التمهيدية والكهرباء والهاتف والملاحة والدفاع المدني والكيمياء والخياطة وكيمياء الاحياء الدقيقة والتبريد والتدفئة والاشغال اليدوية والاعمال الخشبية اليدوية والفيزياء ومسك الدفاتر وعلم النفس والصباغة والدهان والاذاعة والعلوم الطبية والشعر والمسرح والرياضة . وكانت هذه القوائم تنشر وتجد طريقها الى الاستعمال الدارج خاصة في التعليم ووسائل الاعلام المختلفة . وحسب احصائيات اليهود فقد كانت نسبة الناطقين بالعبرية عام ١٩٤٨ ٧٢٪ من مجموع السكان اليهود (المصدر نفسه ص ١٣١) . وفي هذه الفترة بدأت مجلة اللجنة / المجمع الحالية بالظهور ـ ١٩٣٥ .

تبدأ الفترة الثالثة بالنسبة للجنة باعلان العبرية لغة دولة اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ . ونوقش وضع اللجنة الاداري والرسمي في الكنيست عام ١٩٥٣ ورأى

البعض أن تحل اللجنة ويترك أمر اللغة للناطقين بها بشكل عام وللمهتمين بها بشكل خاص . غير أن الغالبية رأوا أن استمرار اللجنة ضروري خاصة وأن ترك اللغة دون هيئة من المتخصصين لن يؤدي الا الى حالة من عدم الاستقرار والتوازن اللغوي ، اضافة الى أن دوائر الحكومة تحتاج الى هيئة لغوية مركزية . وأخذ الكنيست قرارا بتحويل اللجنة الى مجمع لغوي على غرار المجامع الأخرى في العالم وسجل المجمع بقانون في الدستور . واعطى القانون في نص إحدى مواده السلطة للمجمع في أمور النحو والتهجئة والمصطلحات . وبذا أصبح لزاما على جميع المؤسسات والهيئات التعليمية والدوائر الحكومية والبلدية التقيد بقرارات المجمع وانتاجه .

وقد نص المجمع لعام ١٩٥٤ على مهماته كما يلي :

١) جمع مواد لغوية عبرية واجراء ابحاث تاريخية عن العبرية في جميع العصور .

٢) القيام بأبحاث في النحو العبري .

٣) ترشيد وتطوير وتعزيز امكانات العبرية من الناحيتين النظرية والعملية في النحو والمفردات والمصطلحات المتخصصة والأبجدية والتهجئة وكتابة المواد اللغوية من غير العبرية بهذا النظام (المصدر نفسه ص ١٣٦ - ١٣٧) .

وفي الستينات بدأ العمل في وضع معجم تاريخي للعبرية يغطي فترة الفين وخمسمئة عام . ويتوقع أن يتم انجازه خلال هذا العقد (الثمانينات) . واذا قارنا هذه الفترة المقدرة تقريبا بفترات انجاز المعاجم التاريخية فاننا سنجد أن الفرق شاسع جدا . وهذا يعود الى أن العمل على هذا المعجم قد وزع على عدد من فرق العمل التي يختص كل منها بمجال معين . ويضاف الى هذا التوزيع الدعم السياسي والمالي من الدولة ، ومثل هذا غير موجود بالنسبة لمعظم المجامع في العالم .

ومن المعاجم التي وضعت في هذه الفترة ما يلي : الاسمنت والعلوم والآلات المائية وهندسة المواد والعمل والعمال والهاتف والعلوم البحرية والموسيقى والارصاد وميكانيكيات المحركات والادارة العامة والفلاحة والنجارة والسدود والتصوير والفخاريات والاتصالات والاذاعة والتشريح الطبي واللحام والمجاري وهندسة المعادن وهندسة التربة .

أما منشورات المجمع التي لا تزال تصدر منها :

١) محاضر الجلسات والتي تصدر خمس مرات في السنة .

٢) قوائم المفردات والمصطلحات الجديدة .

٣) مجلة لساننا .

٤) مسلسل « لغتنا للعامة » .

٥) النشرة الشهرية « تعلم لغتك » .

٦) النشرة الدورية غير المنتظمة الصدور « الاستعمال الصحيح » . Rabin,) 1976, : 6).

مجمع التركية Turk Dil Kurumu

كان استيلاء مصطفى كمال آتاتورك على السلطة في تركيا يهدف من بين ما يهدف اليه بتر تركيا عن العالم الاسلامي Tietze,) 264 : 1975). وقد كان من الوسائل الرئيسية لتحقيق هذا البتر تنفيذ الاجراءات اللغوية التي فرضها آتاتورك . فالتركية كلغة تنتمي الى العائلة الالطية . وكانت تتضمن عددا كبيرا من المفردات والمصطلحات المقترضة من الفارسية والعربية ، لكون اللغتين لغتي الثقافة والدين ، كما كانت التركية تكتب بالأبجدية العربية ، وذلك لنفس السبب المذكور ونتيجة للتمازج الوثيق بين الأتراك والشعوب الناطقة باللغتين الأخريين لكونهم جميعا مسلمون . ولم يكن بامكان آتاتورك اجراء التغييرات اللغوية بجرة قلم فقط ، فقد كان عليه أن يجد مبررات تسهل عليه فرض تلك الاجراءات . فادعى آتاتورك أن التركية آنئذ كانت معقدة وغير متجانسة التركيب من الناحية الصرفية والمعجمية ، وانها بذلك لم تكن في متناول عامة الناس . ومن هذا المنطلق دعا الى التغيير تحت ستار « التبسيط » باسم « التريك » . ويقصد بالتريك نبذ كل ما هو غير تركي الأصل فيها واستبداله بما هو تركي في أي عصر من تاريخ تلك اللغة Heyd,) 20 : 1954).

شكل آتاتورك عام ١٩٢٨ الجمعية اللغوية التركية ، وحدد مهماتها في الغاء استعمال الأبجدية العربية (ويجدر التنويه بأن الكتاب الغربيين يسمونها الأبجدية الفارسية) واستبدالها بالأبجدية اللاتينية والعمل على « تنقية » المفردات التركية الدارجة . وبرر آتاتورك الشطر الثاني من مهمتها بالاعتماد على نظرية لغوية جديدة تنسب اليه . ومؤدي هذه النظرية أن اللغة التركية هي من الناحية التاريخية أم جميع اللغات ، وأن اللغات الأخرى قد نشأت وتطورت منها ، وان تطور تلك اللغات طوال العصور التاريخية ما كان ليحصل لو لم تلق اللغة التركية ضوءها لتنير الطريق أمام تلك اللغات . وقد شبه هذا الوضع اللغوي بوضع الشمس والكواكب السيارة التي تستمد نورها من الشمس ، وعليه فقد اطلق على هذه النظرية اسم « نظرية الشمس اللغوية » Gal-) lagher, 1971 : 163). وبهذا أصبح وضع التركية المقترح أو المفروض يقبع خلف نظرية يمكن أن تشد اليها الناطقين بالتركية ؛ اذ اته من المتعارف عليه بين السياسيين واللغويين كذلك ان الخطط ـ أية خطط ـ تجد رواجا وربما قبولا أكثر اذا استندت الى منطلقات عقائدية معينة تلقى اعجاب المستهدفين بالتخطيط .

وطلب أتاتورك من الجمعية أن تنسق عملها مع وزارة التربية والجيش وحزبه السياسي (الوحيد في تركيا آنئذ) . وبدأت الجمعية بوضع قوائم من المفردات الجديدة جمعتها في معجم ، كما وضعت معجم مترادفات ومعجم مشتقات . وقد فرض على محرري الصحف وأصحاب المطابع استعمال هذه المفردات بدل المفردات المستأصلة . كما وضعت الجمعية نظام كتابة مستمد من الأبجدية اللاتينية استخدم فيه التنقيط كنوع من الترقيع لسد الفجوة بين الاصوات التركية ورموزها بالأبجدية اللاتينية (كما هو ظاهر في اسم المجمع أعلاه) . وفي أقل من سنة كانت جميع المطبوعات الجديدة بالأبجدية الجديدة (Heyd, 1954 : 35 — 50).

وفي عام ١٩٣٢ صدر مرسوم أتاتوركي بحل الجمعية وتشكيل مجمع التركية . وقد وضع أتاتورك له المهمات التالية : جمع المفردات التركية الأصل من اللغة المحكية والنصوص التركية القديمة ، وتحديد أسس اشتقاق ونحت المفردات (ولم يكن هناك خلاف بين أعضاء المجمع على هاتين المهمتين) ، واقتراض مفردات من الفرنسية والالمانية والانكليزية (في حال غياب الجذور التركية) بدل المفردات العربية والفارسية . لكن هذه السياسة كانت موضع خلاف بين المجمعيين . اذ أن معارضي الاقتراض من اللغات الاوروبية (والذين لم يكن باستطاعتهم اعلان معارضتهم خشية البطش بهم) كانوا يذكرون في جلساتهم الخاصة أن الاقتراض من اللغات الأوروبية سيؤدي الى فوضى لغوية (Gallagher, 1971 : 165). وقد وصلت نسبة الاقتراض من هذه اللغات الثلاث ٢٨ ٪ من المفردات الجديدة . وقد برر المجمع ادخالها بالاعتماد على نظرية أتاتورك الشمسية ، وهو ان هذه المفردات هي غريبة عن التركية سطحيا فقط وان أصلها تركي على أي الأحوال (المصدر نفسه ص ١٧١) .

وقد كانت نتيجة ذلك أن القارىء كان يحتاج الى ترجمة المكتوب أولا الى التركية المحكية . وبالتالي فقد بدأ المحررون اجراء وضع المرادفات بالتركية الدارجة ، اما في الهوامش أو بين أقواس بعد الكلمات الجديدة . وبهذا أصبحت عملية القراءة تؤدي الى انفصام فكري في القارىء ، وهو ما يعرف بين اللغويين المختصين بلفظ (Schizoglassia) وذلك لأن القارىء يكون أمام الاستعداد النفسي بأنه سطحيا يتعامل مع نفس اللغة بينما الحقيقة تختلف عليه في الواقع (Tietze, 1975 : 275). حتى أن بعض المثقفين في الوقت الحاضر يجدون قراءة قصيدة كتبت في القرن الثالث عشر أسهل في الاستيعاب من قراءة ما كتب ابان هذه الفترة (Cornyn, 1962,75 : 273) اذ أنه بالرغم من أن الهدف المصرح به كان احراز

صفاء لغوي الا أن التغيير ادى الى تذبذبات في الاستعمال اللغوي ، والى نقصان الصفاء اللغوي عما كان عليه قبل هذه الاجراءات . فقد كان الاقتراض قبل التغيير من لغتين ، بينما أصبح بعد التغيير من ثلاث لغات . وإذا اضفنا الى وضع الفوضى اللغوية هذا الفجوة التي ظهرت بين الدارسين حسب النظام القديم والدارسين حسب النظام الاتاتوركي فان النتيجة كانت « مستوى ملحوظا من الفقر اللغوي (ترجمة الكاتب) ,Tietze (275 : 1975. ويعلق Gallagher (١٩٧١) على حصيلة سياسة أتاتورك فيقول : « ان الاتراك المعاصرين هم الشعب الوحيد في العالم المعاصر الذي يحتاج الى ترجمة ما كتب من تراثه أقل من خمسين سنة . فان القاريء التركي العادي لا يستطيع قراءة خطاب أتاتورك الذي القاه عام ١٩٢٧ واستغرق ستا وثلاثين ساعة في مؤتمر الحزب الجمهوري والمعروف باسم « نطق » (Nutuk) . كما أن دستور الجمهورية الأول الذي كان ساري المفعول من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٦٠ والذي اعيدت صياغته عام ١٩٤٥ تصعب قراءته على الانسان التركي العادي . ثم أن تغيير نظام الكتابة (من العربية الى اللاتينية) اتخذ بذريعة الادعاء بان الأبجدية العربية غير ملائمة للتركية . لكنه من المعروف أن التركية هي كذلك لغة التركمان القاطنين في أواسط آسيا وان السلطة السوفيتية كانت قد فرضت عليهم استعمال الأبجدية اللاتينية ثم الغت ذلك القرار فيما بعد وفرضت عليهم استعمال الأبجدية السيريلية ، بحجة أنها أكثر ملائمة للتركية من الأبجدية اللاتينية . فكيف اذن يمكن أن تكون السيريلية هي المثلى للتركية في المنطقة السوفيتية وتكون اللاتينية هي المثلى لنفس اللغة عند أتاتورك ؟ (ص ١٦٤) . من هذا التساؤل يتبين لنا أن القرارات في التخطيط اللغوي تنبع في أكثر الأحيان من منطلقات غير لغوية صرفة ، وأن التسويغ اللغوي أو التعليمي غالبا ما يكون مجرد قناع لدوافع سياسية أو عقائدية أو غير ذلك .

وبعد مدة من وفاة أتاتورك (عام ١٩٣٨) فقد المجمع سلطته اللغوية واوقفت الدولة تمويله ولم يعد من المؤسسات الرسمية باعتبار أن عمله « ليس في مصلحة الشعب » ,Fishman (11 : 1971).

لجنة شونا The Shona Committee

تردد اسم هذه اللغة في أجهزة الاعلام حديثا فيما يتعلق بمفاوضات الاستقلال ونقل السلطة الى السود في روديسيا . فمما ورد في الانباء عن رودسيا أن زعماء الجبهات يخاطبون الجماهير بالانكليزية الا أن هؤلاء الزعماء يستعينون بمترجمين لينقلوا تلك الخطابات فوريا من الانكليزية الى لغة الجماهير وهي لغة شونا .

اشتق اللفظ « شونا » من « تشيشونا » وهو

اسم إحدى اللهجات المحكية في روديسيا . وبالنسبة للمهتمين بالسياسات اللغوية والتخطيط اللغوي فان شونا تقرن بظاهرة فريدة من نوعها في التخطيط اللغوي ، ذلك أن شونا هي نتاج عملية استصفاء لغوي لست مجموعات من اللهجات المنتشرة هناك وهي : كوريكوري ، زيزورو ، كرنكا ، نداوز ، كالانكا ، منيكا . وشونا هي اللغة الوطنية ولم تصبح اللغة .

أما تاريخ هذه اللغة فيمكن تتبعه من ١٩٢٩ . ففي ذلك العام شكلت حكومة روديسيا لجنة للنظر في امكانية ايجاد لغة واحدة للاستعمال في المجالات الرسمية والتعليمية . وكان أمام تلك اللجنة عدة سبل للعمل : أما استخدام لغة الاقلية الحاكمة ، أو استخدام إحدى اللهجات (كما ورد عن الصينية أعلاه) ، أو الاتفاق على نظام جديد . وقبل اتخاذ قرار معين قامت اللجنة بدراسة تحليلية ومقارنة لمجموعات اللهجات . وقد وجدت اللجنة أن هناك عناصر مشتركة بين تلك اللهجات ويمكن استصفاء لغة فصحى منها . واقترحت اللجنة أن يطلق على هذه اللغة اسم « شونا » . ورأت اللجنة أن تجري عملية الاستصفاء بأخذ عناصر معينة من كل من مجموعات اللهجات . ولسبب غير معروف لدى الكاتب لم يؤخذ وقتها باقتراحات اللجنة .

غير أن الحكومة دعت فيما بعد باحث لغات البانتو المشهور كليمنت دوك ليقوم بنفس مهمة اللجنة ، وليقدم تقريرا بذلك الى الجمعية التشريعية (Ansre, 1974 : 378 ff.).

وبعد عامين قدم دوك تقريرا ذكر فيه ان اللهجات تشترك في مفردات كثيرة وسمات صوتية أساسية وسمات نحوية كذلك ، وان كانت بعض تلك اللهجات أقرب الى بعض اللهجات من غيرها . وبذلك سوغ تصنيفها في المجموعات الستة المذكورة أعلاه . كما بين قناعته بأن تلك اللهجات سواء منفردة أم في مجموعات متقاربة ما هي الا فصائل لغة واحدة . وعليه فقد أوصى بأن يستصفي من تلك اللهجات لغة واحدة (وهذا لا يختلف في جوهره عن توصيات اللجنة التي اهملت) . كما أخذ دوك براي اللجنة بالنسبة للاسم المقترح . أما اقتراحاته فتتلخص في التالي :

أ ـ أن يكون في روديسيا لغتان رسميتان : الأولى في منطقة مجموعات اللهجات الستة والثانية في منطقة ندبيلا .

ب ـ أن تكون شونا هي اللغة الرئيسية .

جـ ـ أن يستمد نحو شونا من مجموعتي اللهجات كرانكا وزيزورو .

د ـ أن تستمد المفردات بشكل رئيسي من مجموعات اللهجات زيزورو و كرانكا ونداو وبشكل بسيط جدا من مجموعة كوريكوري ، وان لا يشجع استعمال المفردات من اللهجات الأخرى .

هـ ـ أن يكـون امتحـان الخـدمـة المـدنيـة (وامتحان الشرطة كذلك) ذا شقين : شفوي بلهجـة المنطقـة التي يعين للعمـل فيها وكتـابي يعتمد على شونا فقط .

و ـ أن توضع أبجدية لكتابة اللغة .

هذا ولم يرد في توصيات دوك أي شيء عن كيفية الانتقال من مـرحلة تعدد اللهجـات الى مرحلة اللغة الموحدة . وهذا مما حدا بكثير من الـرسميين وبعض المثقفـين ان ينتقدوا النـظام اللغوي الجديد بأنـه نظام سيكـون محصورا في المكتوب فقط . ولهذا وصفت شـونا آنئـذ بأنها اللغة المعاصرة الوحيدة التي لا ينطق بها (نفس المصـدر ص ٣٨١) . كما أن الأبجـديـة التي وضعها دوك كانت أكثر دقة مما هو ضـروري لـلكـتـابـة (more phonetic than phonemic).

وفي عام ١٩٥٥ شكلت لجنة أخرى سميت لجنة لغة شونا . وكانت مهمة اللجنة ايجاد مزيد من الانتظام والاضطرادية في الاستعمال اللغوي الذي بدأ تنفيذه حسب الخطة المقررة . فوضعت اللجنة أبجدية مختصرة أكثر من أبجدية دوك ، واستمدت اللجنة هذه الأبجدية من الأبجدية الـلاتينية كـما فعل دوك . كـما طالبت اللجنـة بالاسراع في انجاز المعجم الذي كـان دوك قد اقترح وضعه ..وقـد قام بـوضع معجم شـونا القس هنان وظهر عام ١٩٦٣ . واستمد هنان المفـردات من مجمـوعـات اللهجـات زيـزورو وكرانكا و منييكا و كوريكوري .

أما في مجال الصرف فقد تبنت اللجنة مؤلف الاستاذ فورتشن الذي ظهر عام ١٩٥٥ والذي اعتمد على اللهجـات كرانكـا و منييكا (نفس المصدر ص ٣٨٢) .

ومن أجل اعداد الكتب التعليمية والترجمة والتأليف شكلت الحكومة دائرة جديدة بـاسم « مكتب المطبوعات » . وقد اشرف هذا المركز على اعداد الكتب التعليمية المستعملة الآن بلغة شونا وعلى كتابة ونشر مجموعات من القصص والمطبـوعـات الأخـرى التي عـززت انتشـار واستعمال شونا في المجالات الرسمية والتعليمية في مختلف مناطق شونا . كما كانت اللجنة تقوم بتحرير الكتب التي تؤلف بشكل فردي بحيث تتفق والنظام المعتمد لشونا .

ومع أن مخطط لجنة شونا مثله في ذلك مثل اقتـراحـات دوك ، لم يضـع خـطوات محـددة للمرحلة الانتقالية بالنسبـة للمنطوق ، الا أن أجهـزة التـربيـة والتعليم والاعـلام بمختلف أشكاله وتعيين الموظفين والمدرسين في غير مناطق لهجـاتهم بقدر الامكـان قد عـزز انتشار شـونا وانتشار استخدامهـا ، كما تـدرس في المدارس ومراكز تعليم الكبار بشكل لم يكن في مقـدور اللجنة أن تحققه لوحدها . وما ترجمة خطابات السياسيين في تجمعات الجماهـير الى شونـا الا

دليل واضح على نجاح انتقال شونا من لغة مكتوبة فقط الى لغة محكية كذلك . كما يمكن أن يشار هنا الى أن الفروق بين مجموعات اللهجات قد تقلصت ، مع أن هذا كان على حساب تقلص بعض اللهجات في مناطقها .

مجمع الفريزية

اللغة الفريزية هي أقرب اللغات الجرمانية الى اللغة الانكليزية . ويقطن معظم الناطقين بها في مقاطعة فريزلاند . وفريزلاند هي إحدى المقاطعات الاحدى عشرة التي تشكل هولاندا ، وتقع في الشمال الشرقي لهولندا . ويسكن هذه المقاطعة في الوقت الحاضر أكثر من نصف مليون نسمة ، يشكلون ٤٪ من مجموع سكان هولاندا . وقد أصبحت هذه المقاطعة جزءا من هولاندا في القرن السادس عشر اثر الاحتلال الهولندي لها .

وكنتيجة للاحتلال الهولندي أصبحت الهولندية اللغة الرسمية ولغة الكنيسة والتعليم في تلك المقاطعة ، مثلها في ذلك مثل بقية المقاطعات القديمة . ومع مرور الزمن انحصر استعمال الفريزية تدريجيا الى أن أصبحت تستعمل في مجال البيت والعائلة . وبذا أصبح الفريزيون ثنائي اللغة في هذا المجال اللغوي وآحادي اللغة في بقية المجالات (Pietersen,. 1978 : 353) .

غير أنه ظهر شعور لدى الفريزيين مثل شاعر الفريزية المشهور Gysbert Japiks بوجوب اعادة لغتهم الى مجالات استعمالاتها السابقة قبل الاحتلال . وكان هذا متمثلا في البداية في جهود افراد فقط . وفي منتصف القرن التاسع عشر (١٨٤٤) تجمعت بعض الشخصيات المعنية بشؤون الفريزية ودعت الى تشكيل تنظيم يكون هدفه اعادة إحياء اللغة ، وأطلق على هذا التنظيم اسم « حركة الفريزية » . وحيث أن اللغة لم تكن قد اندحرت نهائيا فان العمل على اعادة استعمالها تمثل بشكل رئيسي في الدعوة الى المزيد من استعمالها خارج نطاق العائلة والبيت وتقوية الدوافع الفردية تجاه استعمالها في الكتابة كذلك .

ومع مطلع هذا القرن أعيد استعمال الفريزية في الكنيسة بدل الهولندية ، كما ترجم الانجيل الى الفريزية عام ١٩٤٣ ، وظهرت آخر طبعة من الناحية النغوية عام ١٩٧٦ (المصدر نفسه) . كما انه نتيجة للتأثير الذي مارسته حركة الفريزية مدعومة بتأييد الناطقين بها استجابت سلطات التربية والتعليم الهولندية لرغبة الفريزيين وسمحت باستعمال الفريزية كموضوع دراسي فقط على أن يكون تدريسها بشكل طوعي وخارج ساعات الدراسة والمنهاج الدراسي في منطقة فريزلاند .

وفي عام ١٩٣٨ استجابت الدولة لمطالب حركة الفريزية بتأسيس « مجمع الفريزية » على أن يكون هدفه القيام بابحاث لغوية بالفريزية . وكان للمجمع نشاط ملحوظ في مجال العمل

اللغوي ومجال تجميع الفريزيين حول استقلال لغوي في معظم شؤون المقاطعة . ومن أهم نتائج هذا العمل ادخال بند في قانون التعليم الابتدائي في جميع هولاندا يجيز استعمال « لغة اقليمية بجانب الهولندية » (دون تحديد أية لغة بالذات) اذا كانت تلك اللغة منطوقة في تلك المقاطعة » (المصدر نفسه ص ٣٥٩) وكان هذا البند هو المدخل القانوني لاعتبار الفريزية إحدى المواضيع الدراسية في المقاطعة بشكل رسمي .
وبذا تدرج الوضع من مرحلة اهمال الفريزية الى اعتبارها موضوعا اختياريا لا منهجيا الى موضوع اساسي على مستوى المقاطعة ، وهي المنطقة المعنية باهتمام المجمع .

وفي عام ١٩٥٠ كان المجمع أحد الأطراف التي قامت باجراء التجارب التعليمية لدراسة امكانية استخدام الفريزية كلغة ائتدريس لتحل محل الهولندية وتصبح الهولندية مجرد موضوع دراسي فقط ، أي لغة ثانية أو أجنبية . وما حل عام ١٩٥٥ حتى أصبحت الفريزية على قدم المساواة مع الهولندية في بعض المدارس . ومن هذا التاريخ أصبحت المدارس ثنائية اللغة (أي التي تستعمل لغتين في التدريس) مقبولة ومنتشرة في فريزلاند . كل هذا والأمر ما زال في اطار النص القانوني « يجوز استعمال لغة أقليمية » في التدريس . أما في المجالات الأخرى فقد بدأ استعمال الفريزية في المجالس التشريعية في المقاطعة والمجالس البلدية كذلك . كما استجاب البرلمان الهولندي عام ١٩٥٥ لطلب الفريزيين اعتبار الفريزية لغة مقبولة في المرافعات (الشفوية) في محاكم المقاطعة .

ومع انتشار المدارس ثنائية اللغة وافقت الدولة على تأسيس « مكتب الارشاد التربوي » لرسم خطوط ومعالم منهاج تلك المدارس ، وشارك المجمع في وضع هذه الخطوط . ويتوقع أن يصدر هذا العام (١٩٨٠) قانون يجعل استعمال الفريزية اجباريا في جميع المراحل التعليمية (المصدر نفسه ص ٣٩٥) . أما الآن فلا تزال الفريزية إحدى المواضيع الاختيارية في امتحانات شهادة الدراسة الثانوية في هولندا بالنسبة لسكان المقاطعة .H. A. VO., H) A. V. O., V.W. O.) (نفس المصدر ص ٣٦٠) .

أما في المرحلة الجامعية فتدرس الفريزية في عدة جامعات . كما توجد في بعض الجامعات مناصب « كرسي » مثل الجامعة الحرة في امستردام والجامعة الحكومية في كروننكن ، وجامعة بلدية امستردام والجامعتين الحكوميتين في ليدن واترخت . أما في الدنمارك (حيث تقطن أقلية فريزية) فتدرس الفريزية في جامعتي كيل وكوبنهاكن .

ومما يجدر ذكره عن نشاط المجمع القيام باستفتاء واحصائيات لغوية . فمثلا قام المجمع عام ١٩٦٧ بدراسة أنماط القراءة والمحادثة بين الناطقين بالفريزية ، ونشر التقرير عام ١٩٦٩ ، وهذا ملخصه :

٧١ ٪ يستعملون الفريزية كلغة البيت الوحيدة .

٦٩ ٪ يقرأون الفريزية بدون صعوبة .
٦٢ ٪ يستعملون الفريزية في التعامل التجاري العادي .
٤٣ ٪ يشترون مطبوعات كتبت بالفريزية .
٤٢ ٪ يستعملون الفريزية في المجالات الرسمية .
٤١ ٪ يقرأون بانتظام مطبوعات كتبت بالفريزية .
٣١ ٪ يكتبون الفريزية بدون صعوبة .
(المصدر نفسه ص ٣٦٤ - ٣٧١)

ويبدو دافع الارتباط باللغة واضحا في الفرق بين اقتناء وقراءة المطبوعات المكتوبة بالفريزية .

خاتمة

عرض هذا البحث تصورا معينا لمفهوم التخطيط اللغوي بابعاده المختلفة ، وقدم وصفا تحليليا لاثني عشر مجمعا ولجنة لغوية في العالم .

وقد كان اختيار هذه المجامع بناء على الصبغة الغالبة لعمل كل منها من ابعاد التخطيط اللغوي باستثناء مجمعي الاندونيسية والماليزية (وذلك لعدم توفر معلومات بالانكليزية بعد ١٩٦٧ عنهما) . فبعضها يركز اهتمامه على وضع المفردات والمصطلحات أكثر من الاعمال الأخرى . والبعض الآخر معني بشكل خاص بنظام الكتابة وأساليب تبسيطها ، ومثال ثالث يعمل في التفصيح وتوحيد اللهجات ، ومثال رابع عمل على تغيير مصادر المفردات غريبة الأصل عن اللغة نفسها .

كما يمكن تصنيف هذه المجامع حسب الدوافع التي أدت الى تأسيسها . فبعضها أسس للمحافظة على استمرار استعمال لغته ، وآخر أسس لوضع نظام لغوي جديد ، وثالث قام لاعادة احياء لغته في مجالات معينة . واذا اردنا أن نضع تصنيفا ثالثا لهذه المجامع فيمكن النظر الى كل منها من ناحية أسس تشكيله . فبعض هذه المجامع تأسس بناء على رغبة وجهود أفراد فقط ، وبعضها ظهر نتيجة لحركة سياسية أو عرقية أو دينية ، ونوع ثالث قامت السلطة الحاكمة بتشكيله ، وذلك كأحد العوامل التي ارتكزت السلطة عليها لتثبيت سلطتها ، ونوع رابع تأسس على المستوى الفردي ثم تبنته السلطة الحاكمة حيث أنها وجدت فيه دعما اضافيا لسلطتها .

وقد أخذ تسلسل الحديث عن هذه المجامع تصنيفا غير التصنيفات المذكورة اعلاه ، بل كان حسب الترتيب الزمني الذي ظهرت فيه المجامع في كل قارة (باستثناء مجمع الفريزية) . فبدأ الحديث أولا عن مجامع أوروبا ثم أمريكا اللاتينية ثم آسيا وأخيرا أفريقيا .

ولا بد من اعادة القول هنا بأن هذا البحث لم يتعرض لمجامع اللغة العربية ، وذلك لاسباب أهمها أن المعلومات عنها متوفرة لدى القارىء بالعربية أو يمكن للقارىء أن يحصل عليها مباشرة . كما أنه يفضل أن ينظر الى عمل مجامع العربية ليس فقط من ناحية ما تقوم به من أعمال ، بل خلال الاطار العام لوجود وعمل المجامع في بقية مناطق العالم كهيئات تخطيط لغوي .

أما عن مدى نجاح مجامع اللغة بشكل عام في تحقيق أهدافها فسيكون هذا هو محور البحث القادم ان شاء الله .

المصادر

Abuhamdia, Z. 1978. **Facilitating and Constraining Factors in the Implementation of Language Planning Policies ... in the U. S.** Unpublished Ph. D Dissertation. University of Pittsburgh.

Aitken, A. 1976. " The Scots language and the teacher of English, " in **Scottish Literature in the Secondry School.** Edinburgh : Scottish Education Department.

Ansre, G. 1974. " Language standardization in Sub — Saharan Africa, " in Fishman (ed.), PP. 369 — 390.

Barnes, D. 1974. " Language planning in Mainland China : standardization, " in Fishman (ed.), pp. 457 — 480.

Bornstein, D. (Ed.) . 1976. **Readings in the Theory of Grammar.** Cambridge, Mass. : Winthrop.

Chang, Kun. 1967. " National languages in China, " in Seboek (ed.) , pp. 151 — 176.

Comhairle Na Gaeilge. 1974. " Towards a language policy ; implementing a language policy, " in Fishman (ed.) , pp. 519 — 526.

Cornyn, W. 1962/75. " Comments, " in Householder and Saporta (eds.) , pp. 273 — 278.

De Francis, J. 1967. " Language and script reform in China, " in Seboek (ed.) pp. 131 — 150.

———— . 1975. " Language planning in China, " **Language Planning Newsletter** Vol. 1 (2) pp. 1 & 5.

Deutsh, K. 1968. " The trend of European nationalism : the language aspect, " in Fishman (ed.) , pp. 598 — 606.

Devoto, G. 1978. **The Languages of Italy.** Chicago : The University of Chicago Press.

Dinneen, F. 1967. **An Introduction to General Linguistics.** N. Y. : Holt.

Falk, J. 1978. **Linguistics and Language, 2nd ed.** N. Y. : Wiley.

Fellman, J. 1974. " The role of EliezarBen Yehuda in the revival of the Hebrew language : an assessment " in Fishman (ed.) , pp. 427 — 456.

———— . 1976. " Language planning in Israel : The Academy of the Hebrew Language, " **Language Plannuing Newsletter, Vol 2 (2),** pp. 1 & 6.

Ferguson, S. 1968. " Language development, " in Fishman, **et al.** pp. 27 — 36.

Fishman, J. (Ed.) . 1968. **Readings in the Sociology of Language.** The Hague : Mouton.

———— . 1971. " The uses of sociolinguistics, " in Perren and Trim (eds.) , pp. 19 — 40.

———— . 1972. **Introduction to the Sociology of Language.** Rowley, Mass. : Newbury.

———— (Ed.) . 1^٠74. **Advances in Language Planning.** The Hague : Mouton.

———— (Ed.) . 1978. **Advances in the Study of Sociatal Multilingualism. The Hague : Mouton.**

————, **et al.** (Eds.) . 1968. **Language Problems of Developing Nations.** N. Y. : Wiley.

Gallagher, C. 1971. " Language reform and social modernization in Turkey, " in Rubin and Jernudd (eds.) , pp. 159 — 178.

Guillermo, **et al.** 1974. " Linguistic correctness and the role of the academies in Latin America, " in Fishman (ed.) , pp. 315 — 368.

Hall, R. Jr. 1971. **Introductory Linguistics.** N. Y. : Chilton.

Haugen, E. 1966. **Language Conflict and Language Palning. The Case of Modern Norwegian.** Cambridge, Mass. : Harvard University Press.

Haugen, E. 1969. " Language planning : theory and practice, " in **Actes du Xe Congres international des linguistes, Bucarest, 1967,** A. Graur (Ed.) (Bucarest : Editions de L'Academie de la Republique Socialist de Roumanie) , pp. 701 — 711.

Hazai, G. 1974. " Linguistics and language issues in Turkey, " in Fishman (ed.) , pp. 127 — 162.

Heyd, U. 1954. **Language Reform in Modern Turkey.** Jerusalem : Israel Oriental Society.

Holmes, U. and A. Schutz. 1938. **A History of the French Language.** N. Y. : Farrar and Rinehart.

Householder, F. and S. Saporta. 1975. **Problem in Lexicography.** Bloomington : Indiana University Press.

Kelman, H. 1971. " Language as an aid and barrier to involment in the national system, " in Rubin and Jernudd (eds.) , pp. 21 — 52.

———— . 1973. **The Revival of a Classical Language.** The Hague : Monton.

Lehman, W. (Ed.) 1975. **Language and Linguistics in the People's Republic of China.** Austin : University of Texas Press.

Lunt, H. (Ed.) 1964. Proceedings of the X th Congress of Linguists. The Hague : Mouth.

MacKinnon, K. 1977. **Language Education and Social Processes in a Gaelic Community.** London : Routledge.

Macnamanra, J. 1971. " Successes and failures in the Movement for the Restoration of Irish, " in Rubin and Jernudd (eds.) , pp. 65 — 94.

Mold, B. 1975. " Language palnning in Sweden, " **Language Planning Newsletter Vol. 1 (3) , pp. 1, 3 — 4.**

Nahir, M. 1973. **The Hebrew Language Academy.** Unpublished Ph. D. Dissertation, University of Pittsburgh.

Neustupny, J. 1974. " Basic types of language problems, " in Fishman (ed.) , pp. 37 — 48.

Perren, G. and J. Trim. (Eds.) . **Applications of Linguistics.** Cambridge University Press.

Pietersen, L. 1978. " Issues and trends in Frisian bilingualism, " in Fishman (ed.) , pp. 353 — 399.

Rabin, C. 1971. " Spelling reform — Israel 1968, " in Rubin and Jernudd (eds.) , pp. 95 — 122.

————. 1976. " Language treatment in Israel : especially the development and spread of Hebrew, " **Language Planning Newsletter,** Vol. 2 (4) , pp. 1, 3, 4, 6.

Rickard, P. 1974. A History of the French Language. London : Hutchinson.

Robertson, D. 1910. **The French Academy.** N. Y.

Rubin, J. 1973. " Language planning : dicussion of some current issues, " in Rubin and Shuy (Eds.) , pp. 1 — 11.

————. 1973. " Introduction, " in Rubin and Shuy (eds.) , pp. V—X.

————, and B. Jernudd (Eds.) . 1971. **Can Language Be Planned ?** Honolulu : The University Press of Hawaii.

————, and R. Shuy (Eds.) . 1973. **Language Planning : Current Issues and Research.** Washington, D. C. : Georgetown University Press.

Sebock, T. (Ed.) . 1967. **Current Trends in Linguistics, Vol. 2.** The Hague : Mouton.

Tauli, V. 1964. " Practical linguistics : the theory of language planning, " in Lunt (ed.) , pp. 605 — 607.

————. 1968. **Introduction to a Theory of Laguage Planning.** Uppsala : Almqvist & Wilsells.

Tietze, A. 1975. " Problems of Turkish lexicography, " in Householder and Saporta (eds.) , pp. 263 — 272.

Wood, R. 1977. " Potential issues for language planning in Scotland, " **Language Planning Newsletter,** Vol. 3 (1) , pp. 1 — 6.

***

تأثر الفكر الأندلسى بالحركة العلمية فى المشرق الاسلامى

سوادى عبد محمد

كلية التربية ـ جامعة البصرة

يثير موضوع التأثيرات التي أورثها المشرق العربي الاسلامي في مجمل حركة الفكر الاندلسي ، وبصورة خاصة في مجالات العلم والأدب والفن والفلسفة ، مناقشات مستفيضة بين المتخصصين وذوى الاهتمام خلال الفترة الواقعة منذ بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وحتى نهاية الحكم العربي لبلاد الاندلس العربية الاسلامية .

ويمكن أن نشير الى ما يعيننا على إظهار بعض التأثيرات من خلال هذه المناقشات ، وما أتت بها من نتائج على تطور الفكر الأندلسي في المجالات المشار اليها . فمن جهة ، يعتقد بعضهم أن هذا الموضوع من السعة والشمول بحيث يمكن أن تتاح للباحث فيه ، معلومات كثيرة وغنية ربما تصل ـ حسب زعمهم ـ الى الحكم بأن كل ما انتجته بلاد الاندلس خلال الحكم العربي من حضارة فكرية ومادية هو من صنع المشرق بأفكاره وثقافته وسياسته . (١) ويذهب بعضهم الآخر الى القول بأنه لا يمكن إنكار ما للمشرق من تأثيرات في الاندلس ، ولكن في مجالات العلم والادب والفن والفلسفة ، تبدو قليلة ومحدودة ولا بد ان تقتصر على المراحل الأولى .

ومهما يكن من أمر ، فلا بد من القاء بعض الضوء على الحركة العلمية في اهم مراكزها في

(١) انظر احمد بن عبد ربه الاندلسي كتاب العقد الفريد (تحقيق احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري ط ٣ ، القاهرة ـ ١٩٦٥) جـ ١ ، المقدمة .

المشرق أولا ، ومن ثم استقراء نتائجها وتتبع آثارها ومؤثراتها في الاندلس ، بما يتوفر لدينا من معلومات وحقائق . فالمراكز العلمية المشرقية ، كانت تتركز في بغداد والبصرة وخراسان وبلاد الشام والحجاز ومصر (٢) .

وقد اشتهرت هذه المراكز منذ تأسيسها أو تمصيرها ، بكثرة معاهد العلم ودور الكتب وحلقات الدرس ، مما جعلها تلعب دورا كبيرا في ظهور جمهرة من المشتغلين في العلم والأدب والفن والطب والفقه والفلسفة . وبسهولة يمكن الاستدلال على ذلك باستعراض مئات التواليف والتصانيف في تاريخ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة والمهندسين والحفاظ والنحاة واللغويين والحساب والمعلمين والقصاص والادباء والشعراء والقراء ، وقراء الانغام والمتكلمين والصياد والكيميائيين والكتاب والمجتهدين والطبيعيين والمساحين وعلماء الفلك . (٣) كما ان في كتب التراجم والسير والمعاجم والرجال والطبقات مئات الاشخاص ، ترد اسماؤهم على انهم من هؤلاء الأعلام (٤) .

نبغوا في هذه المراكز ، وأوجدوا قاعدة عريضة للاهتمام بالمعرفة الانسانية من جوانبها كافة ، وقد أسهم عدد غير قليل من الاعلام في الدراسات الدينية وكانوا يشتغلون بالتدريس في المدرستين النظامية والمستنصرية ببغداد ويدرسون علوم القرآن وفضائله والتفسير والخلاف والاصول والفقه (٥) وفي دراسات علوم الحديث (٦) والدراسات اللغوية والأدبية في النحو والصرف والعروض والبلاغة والنثر الادبي والشعر (٧) وفي الدراسات التاريخية

(٢) يمثل بيت الحكمة والجامع المنصور في بغداد ومكتبة ابن سوار في البصرة ودار العلم بالموصل ومكتبة ابن الشاطر والجامع الاموي في دمشق والجامع الازهر ودار الحكمة بالقاهرة وجنديسابور في خراسان مراكز علمية ، وكذلك كانت بمثابة معاهد للعلم في أرقى صورة في هذه الفترة .

(٣) فرانز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة د . صالح العلي ، بغداد ١٩٦٣) ص٥١٨ ـ ٥٢٠ .

(٤) انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط ١ ـ القاهرة ـ ١٣٦٧ هـ) وابن الدبيثي ذيل تاريخ بغداد (التاريخ المذيل له على تاريخ ابن السمعاني) وابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب (تحقيق د . مصطفى جواد ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥)

(٥) ابن الساعي ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير حـ ٩ (تصحيح وتعليق د . مصطفى جواد ـ الطبعة السريانية الكاثوليكية بغداد ١٩٣٤) ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ السبكي طبقات الشافعية الكبرى (تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو) القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٧٠ حـ ٨ ص ٣٦٨ ، الغساني ، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك (تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ـ رسالة ماجستير لم تطبع بعد ١٩٧٠) الورقة ٥٥٤ .

(٦) ابن الفوطي تلخيص مجمع الآداب حـ ٥ (باعتناء محمد عبد القدوس القاسمي طبع الهند ١٩٤٠) ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ـ ٦٨٩ ابن خلكان ، وفيات الاعيان (مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٤٩) حـ ٤ ص ٢٦ ، الحوادث الجامعة التجارب النافعة في المائة السابعة (المنسوب لابن الفوطي ـ طبع بعناية د . مصطفى جواد) ص ٣٧ .

(٧) الغساني العسجد المسبوك بورقة ٤٩٠ ، ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ (دار صادر دار بيروت ١٩٦٧) حـ ١٢ ص ٣١٢ الفلك الدائر على المثل السائر لضياء الدين نصر الله بن الاثير ، ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب حـ ٤ قسم ١ ص ١٩١) .

والجغرافية (٨) كما نبغ في العلوم العقلية والفلسفية والطب اعلام تركوا تأثيراتهم الواضحة في الحركة العلمية المشرقية ومنهم ابو الريحان البيروني (٩) وجابر بن حيان (١٠) وموفق الدين عبد اللطيف البغدادي (١١) والجاحظ (١٢) وجعفر البلخي (١٣) والرازي (١٤) وابن سينا (١٥) وابن الهيثم (١٦) واخوان الصفا (١٧) والفارابي (١٨) والقزويني (١٩) وداود الانطاكي (٢٠) والكندي (٢١) والخوارزمي (٢٢) وثابت بن

---

(٨) من المؤرخين الذين تجدر الاشارة الى بعضهم ابن الاثقى البغدادي (ت ٦٠٧ هـ) الذي نقل عنه القفطي في تاريخ الحكماء وابن الفوطي وابن المفرج التكريتي وكتابه الاختصاص في التاريخ الخاص وموفق الدين ابن اللباد البغدادي (ت ٦٢٩ هـ) وغيرهم كثيرون ممن اشتغل في حقل التاريخ منذ القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن الثامن .
أما في الجغرافية فابرزهم ياقوت وكتابه معجم البلدان ، والمقدسي وكتابه احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، وابن عبد الحق وكتابه مراصد الاطلاع في الامكنة والبقاع ، وغير هؤلاء من الجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين الذين اثروا بكتبهم وتآليفهم .

(٩) وكان فلكيا ورياضيا وعالما طبيعيا وجغرافيا ومؤرخا واسع الاطلاع وقد لقب بالاستاذ .

(١٠) وهو الكيميائي العربي المعروف ، درس العلم على يد استاذه جعفر الصادق ، وقد الف في الطب والرياضيات والفلسفة .

(١١) ولد ببغداد وهو عالم ولغوي واديب ، درس الحساب والرياضيات والكيمياء ، استقر في مصر واشتغل بالتدريس بالازهر ، ونبغ كذلك في العلوم الدينية وعلوم العربية .

(١٢) ابو عثمان بحر بن محبوب البصري ، نبغ في علم الحيوان ، ومن اشهر كتبه « الحيوان »

(١٣) من اعظم فلكيي العرب ، الف في هذا العلم نحو ستين كتابا .

(١٤) احد مشاهير اطباء العرب في العصور الوسطى ، تلقى علومه على يد استاذه (حنين بن اسحق) وكان من رواد علم الكيمياء ثم انصرف الى الطب . وهو واسع الاطلاع تزيد كتبه عن (١٢٠) كتابا في الفلسفة والطبيعة والموسيقى والفلك والرياضيات .

(١٥) الحسن بن عبد الله ، رائد من رواد الفكر الانساني ، اشتهر بالطب والفلسفة وعني بالرياضيات والفلك اشهر كتبه (القانون في الطب) و (الشفاء)

(١٦) الحسن بن الهيثم ، ولد في منتصف القرن الرابع الهجري وعاش في البصرة ثم انتقل الى القاهرة ودأب على تحصيل العلوم الفلسفية والطبية والفلكية والرياضية لكنه اشتهر في علم الطبيعة وعلم الضوء وكانت له في هذين العلمين دراسات وبحوث وله كذلك رسائل في علم الحساب والجبر وحساب المثلثات والهندسة الاقليدية المستوية والمجسمة ، توفي في القاهرة سنة ٤٣٠ هـ .

(١٧) جمعية سرية فلسفية علمية مكونة من عدد من العلماء والفلاسفة ، يبحثون للوصول الى تجديد في السياسة والاخلاق عن طريق ادماج التشريعات الاسلامية اسست في العراق دائرة معارف مؤلفة من ٥٢ رسالة في علوم الطبيعة .

(١٨) من اشهر الفلاسفة الاسلاميين ، أولع بالدراسات العقلية مثل الرياضيات والفلسفة والمنطق والطب والموسيقى ، تزيد مؤلفاته على السبعين مؤلفا في الطبيعية والرياضيات والميتافيزيقيا والاخلاق والسياسة

(١٩) ابو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود ، وكان معنيا بالتأليف في الجغرافية والتاريخ ثمن اشهر كتبه (عجائب المخلوقات) كما شغف في الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن .

(٢٠) لقب بالحكيم الماهر والطبيب الحاذق ، اختص بدراسة الطب العلاجي وتحضير الادوية والوصفات واشهر كتبه (تذكرة اولى الالباب والجامع للعجب والعجاب)

(٢١) ولد يعقوب الكندي في الكوفة سنة ١٨٥ هـ ، اشتهر بالفلسفة والطب والمنطق والرياضيات والحساب والهندسة والفلك) كما كان مهندسا قديرا وطبيبا وفيلسوفا عظيما .

(٢٢) محمد بن موسى ، ولد بخوارزم واقام في بغداد ، تولى منصبا في بيت الحكمة ، برز في الرياضيات والفلك ، وهو اول ما ألف الجبر والمقابلة ، وله أفكار اساسية اعتمد عليها علماء العرب في دراساتهم وبحوثهم الرياضية .

قرة (٢٣) وغيرهم من العلماء والفقهاء ورواد الفكر .

إن هؤلاء وغيرهم كثيرين ، أسهموا في خلق حركة علمية وفكرية مشرقية متميزة أخذت تنتقل تأثيراتها تدريجيا الى بلاد الأندلس ، وذلك منذ قيام الحكم العربي فيها ، وبدأنا نلمس بوادر للاهتمام بعلوم المشرق وأفكاره هناك . وفي بداية العصور الوسطى وخلالها كانت الثقافة المشرقية قد تركت ظلها في الثقافة والفكر الاندلسيين ، ووفق الاندلسيون بين ثقافة المشرق وبين البيئة الطبيعية والاخلاقية والاجتماعية ، في الوقت الذي اخذت تنمو فيه حضارة متميزة للأندلسيين لها شخصيتها وطابعها ، غير انها دأبت على الاهتمام في أن تصون اللغة العربية ، وان تحفظ التقليد الكلاسيكي الذي جرى عليه المشرق ، وبخاصة التقاليد في المجالات الفقهية والدينية والعلمية والادبية والفنية والفلسفية ، وحرص حكام الاندلس في ان يضعوا دولتهم على منوال الشام والعراق وبلاد فارس فيما هي عليه من وجود المدارس ومعاهد العلم ودور الحديث والمساجد التي تدور فيها حلقات الدرس ، والمعتكفات التي تدرس فيها العلوم الدينية وعلوم العربية والخانقهات والربط والبيمارستانات . ويبدو واضحا ان هذا التقليد اخذ يتعمق منذ ارتقاء عبد الرحمن بن معاوية (الاول) الحكم بسبب تعضده بالعنصر العربي ، واطفائه لجذوة النزاع العربي القديم المحتدم بين القيسيين واليمانيين . على ان فترات الاستقرار السياسي والاجتماعي كانت دائما اكثر الفترات ملائمة لازدهار الفكر وتطوره في هذه البلاد ، وكان نصيب الامير القرطبي الرابع عبد الرحمن الثاني كبيرا في انماء هذا الازدهار ، ففي عهده استطاع المشرق ان يترك بصورة حاسمة بصماته الثقافة الاندلسية ، وبرز هذا الامير كأكبر الحماة للعلماء وصديقا مخلصا للادب والفنون ، كما كان شغوفا بكل ما يتصل بعلم الفلك والرياضيات ، ويجد متعة في دراسة الكتب القديمة في الفلسفة والطب ، فأحاط نفسه بجمهرة من علماء الفلك ، ولم يكن غير المشرق بعلمائه ورجالاته ومؤسساته ومراكزه العلمية ليرضى طموحاته وتطلعاته ، لذلك يمكن الاقتناع بما ذهب اليه احد الباحثين ، بان المعطيات المفيدة التي كانت تصل الى حد يثير العجب عن دور المشرق في تكوين الثقافة الاندلسية كانت مؤكدة من وجهة النظر التاريخية ، ولا نحتاج ان نحمل النصوص الدقيقة التي جاء بها المؤرخون اكثر مما تحتمل ، او نضطر الى التفتيش ما بين سطورها . (٢٤)

(٢٣) وهو من بلاد ما بين النهرين ، اعظم مهندسي العرب على الاطلاق ، وقد ترجم الكتب السبعة من اجزاء المخروطات في كتب ابللوا نيوس الثمانية الى العربية كما نبغ في الهندسة التحليلية .

(٢٤) ليفي بروفنسال Levi Provencal حضارة العرب في الاندلس (ترجمة ذوقان قرقوط/ بيروت ص ٤٧ .

لقد كانت مدينة قرطبة المركز العلمي (٢٥) ميدانا لهذه التأثيرات . فقد انتقلت اليها المظاهر الفكرية بما وفد اليها من العلماء والفقهاء المشارقة . ويمكن بهذا الصدد ان نستفيد من الفصل المهم الذي عقده المؤرخ التلمساني المعروف بالمقري في كتابه (نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب) فهو خير ما يصور لنا هذا الاهتمام بايراده لجمهرة من هؤلاء العلماء والفقهاء والأدباء المشارقة ، الذين استقروا في بلاد الاندلس فتركوا تأثيراتهم الفكرية والعلمية (٢٦) كما يمكن ان نجد معلومات مفيدة عن هؤلاء العلماء في كتاب (بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الانـدلس) لاحمد بن يحيى الضبي ٥٩٩ هـ (٢٧) . وفي كتاب (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس) للحافظ عبد الله بن محمد الأزدى المعروف بابن الفرضى ٤٠٣ هـ (٢٨) . ولعل ما اشار اليه الاستاذ ليفي بروفنسال صحيح من أن المشرق قد فاز بنصيب كبير في تكوين الثقافة الاندلسية فكل ما كان يفد من بغداد او من المدن الكبرى الاخرى في العالم الاسلامي ، كان يستقبل باعجاب او بامتثال في الاقل في ربوع بلاد الاندلس . (٢٩)

لعل دراسة بعض صنوف العلوم المختلفة في الاندلس من خلال المصادر وفيه يعيننا على تلمس الطابع المشرقي فيها ، وأول هذه العلوم التي في الاشارة اليها هي ، العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية ، حيث برز عدد من العلماء في الفقه والمذاهب والحديث وعلم الكلام والشرائع والمنطق والتفسير والنحو والعروض ، كما ظهر في الفلسفة والموسيقى علم الفلك والطب والكيمياء والرياضيات وعلوم الحياة والتاريخ

---

(٢٥) مدينة عظيمة على نهر الوادي الكبير بالاندلس ، وهي قاعدة الدولة الاموية وحاضرتها ومركز علمي وحضاري متألق ، اكتسبت شهرة عالمية واصبح اسمها يقترن بالعلم والعلماء وقد اكد احد الشعراء اهميتها بقوله :

بأربع فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

(المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (مطبعة السعادة مصر ١٩٤٩ ط ١) جـ ٤ ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .

(٢٦) ن . م . ص ٧ - ١٢٠

(٢٧) الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس (الطبعة الاوربية مجريط - ١٨٨٤)

(٢٨) ابن الفرضى ، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الاندلس (القاهرة - ١٩٥٤)

(٢٩) حضارة العرب في الاندلس ص ٤٧ ، وجاء انه كان للاضطرابات والمنازعات الداخلية التي كانت نتائج غير متوقعة بأن سهلت انتقال الكنوز الملكية الى هذه البلاد وغيرها على اثر نهب قصور بغداد .

والجغرافية ، وأصبح للأندلسيين في جميع هذه العلوم ابحاث مستفيضة وقواعد مستقرة . ومن الجدير بالاشارة الى ان ظهور يحيى بن يحيى الليثي (٣٠) يمثل بداية الاهتمام بالعلوم الدينية في الاندلس ، فقد رحل الى المشرق وتوجه الى الحجاز فسمع من مالك بن أنس ، وسفيان بن عينية ، وتفقه على عبد الله بن وهب ، ولما عاد الى قرطبة روى كتاب « الموطأ » لمالك بن أنس لتلامذته ، وانتهت اليه الرئاسة في الفقه والقضاء في هذه المدينة . (٣١)

ويبدو ان يحيى بن يحيى الليثي قد خلق الاتجاه لدى اهل الاندلس في دراسة الفقه والحديث على مذهب مالك بن أنس ، مما سهل على عبد الملك بن حبيب ١٧٩ هـ/٨٥٣ م الذي كان هو الآخر قد درس الفقه على مذهب مالك بن أنس في المدينة المنورة ورحل الى المشرق وتردد على حلقات الدرس هناك ، واصبح من اكبر العاملين على تحويل اهل الاندلس الى المالكية . (٣٢)

وشجعهم على أن يفدوا الى المشرق للدراسة على علماء المشارقة والأخذ عنهم (٣٣) لأنهم احاطوا باحاديث الرسول وما روى عنه .

ويبدو ان الاندلس قد حققت وحدتها الدينية باتباعها المذهب المالكي ، حيث لم ترتد عنه بعد ذلك ، وقد حل هذا المذهب رسميا محل مذهب الأوزاعي ١٥٧ هـ . ويجمع مذهب مالك بن أنس ١٧٨ هـ عند انتشاره في هذه البلاد بين سلفيه الأوزاعي (الاخذ بالحديث والتقيد بأصوله) وبين حرية المذهب الحنفي في (الأخذ بالقياس) (٣٤) . ويروى المقرى أن عددا من فقهاء المالكية المشارقة من اهل بغداد ودمشق ونيسابور دخلوا الاندلس وحثوا طلبتهم ، وممن حضر مجالسهم ودروسهم على المواظبة والدرس ، ومن هؤلاء الفقهاء عبد اللطيف بن

---

(٣٠) أصله من بربر مصموده ، وقد سماه مالك بن انس (عاقل الاندلس) انظر : المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب حـ ٢ ص ٢١٧

(٣١) وكان متصرفا في ضروب العلم متفننا في الآداب ورواية الاخبار مشاركا في الفقه والرواية (ابن الفرضي تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس حـ ٢ ص ١٨٥ ، ابن حيان القرطبي ، المقتبس من انباء اهل الاندلس (تحقيق د . محمود علي مكي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت) ص ٨٤ ـ ٨٥

(٣٢) وجاء ايضا ان « شبطون بن عبد الله او الغازي بن قيس ، ادخل « الموطأ » لمالك بن أنس الى الاندلس في عهد الامير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) واصبح لمذهب مالك الاثر الحاسم على تطور الثقافة في الاندلس بسبب اتساع مدى انتشاره المستمر (آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي (ترجمة د . حسين مؤنس ط ١) القاهرة ـ ١٩٥٥ ص ٣

(٣٣) كان اهل الاندلس يأخذون بأقوال أساتذتهم المشارقة ويبخسون قدر ما يسمعون من اهل بلدهم انفسهم ـ لأن اولئك الشيوخ ـ كانوا ينظرون الى اهل بلد الاندلس باحتقار عظيم ويرون انهم جهلاء أجلاف (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٩٦)

(٣٤) يذهب بروفنسال الى ان هذه العقيدة الجديدة التي اعتنقها اهل الاندلس حررتهم من الولاء الديني للعباسيين (حضارة العرب في الاندلس ص ٤٣ ـ ٤٤)

ابي الطاهر احمد بن محمد الهاشمي الصدفي ، وهو من أهل بغداد ، سمع عن أبي الوقت السجزى وابي الفرج ابن الجوزي ، وقد وفد الى غرناطة واقام فيها (٣٥) وعلى بن بندار البغدادي (٣٦) وابو نصر سهل بن على النيسابوري (٣٧) وابو المكارم هبة الله بن الحسين ، الذي وصف بأنه من أهل العلم عارفا بالاصول حافظا للحديث ، دخل الاندلس وولي قضاء اشبيلية (٣٨) وابو زكريا يحيى بن عبد الرحمن العنسي الدمشقي ، وكان فقهيا على مذهب الشافعي ، عارفا بالاصول والتصوف وله كتاب (الروضة الانيقة) وان اصله من دمشق ثم رحل الى المغرب ولقي عددا من الفقهاء وتلقى علىَ ايديهم الوعظ والتذكير ، ثم دخل الاندلس وتجول ببلادها واستوطن غرناطة واتصل برجالها وطلبتها (٣٩) .

ومن الجهة الاخرى ، فقد رحل عدد من فقهاء الاندلس الى المشرق ، ومنهم حسين بن محمد بن خيون الصدفي المعروف بابن سكره ، وهو إمام محدث زاهد كثير الرواية ، دخل العراق وروى عن جماعة من فقهاءها وعلمائها (٤٠) ويوسف بن محمد بن سليمان الهمداني ، وهو من أهل شذونه ، رحل الى المشرق واقام في رحلته عشرة اعوام ، وقد اهتم بكتب محمد بن جرير الطبري في تفسير القرآن فنقل الى اهل الاندلس ما تعلمه (٤١) .

أما فيما يتعلق بعلوم اللغة العربية وآدابها ، فلدينا من الحقائق التاريخية ما يجعلنا نعتقد بأن تأثيرات المشرق كانت واضحة وجلية في بلاد الاندلس ، فقد رحل كثيرون من هذه البلاد الى المشرق لطلب العلم في العربية (٤٢) كما ان

(٣٥) نفح الطيب حـ ٤ ص ٦٥

(٣٦) ٥ . م ص ٦٦

(٣٧) ٥ . م . ص ٦٧

(٣٨) ٥ . م . ص ٦٨

(٣٩) المقري ، نفح الطيب حـ ٤ ص ٦٨

(٤٠) ابن الفرضي تاريخ العلماء والرواة للعلم ٢٥ ص ٢٥٣ - ٢٥٤

(٤١) ٥ . م . ص ٢٠٦

(٤٢) احصى احد الباحثين عدد الترجمات التي خصصها المقرى في كتابه نفح الطيب للعلماء الراحلين الى المشرق والمشتغلين باللغة او النحو وعددها (١٥) ترجمة (انظر : رضا عبد الجليل الطيار الدراسات اللغوية في الاندلس العراق - ١٩٨٠) ص ٤٤

التقليد الاندلسي القديم في جلب الكتب المشرقية الحديثة الصدور الى الاندلس بقي مستمرا (٤٣) وخاصة الكتب اللغوية ، مثل الكشاف للزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) ومقامات الزمخشري الخمسون ، وكتاب تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ٣٩٣ هـ واكمال ابن القطاع ٥١٥ هـ لكتاب الأفعال لابن القوطية ٣٦٧ هـ (٤٤) .

على أن التأثير الذي تركه العالم اللغوي أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادى ، صاحب كتاب الامالى ، كان واضحا في بلاد الاندلس ، فقد امتاز هذا العالم بسعة الاطلاع في العلم وطول الباع في اللغة وفنونها ، وأقبل عليه علماء الاندلس وأدباؤها للاستفادة من محاضراته في اللغة والادب ، التي كان يمليها في أيام الأخمسة بقرطبة ، وفي المسجد الجامع بالزهراء (٤٥) كما حدث بهذا القالى عن نفسه ، فرددوا ذكره ، وشهدوا له بالتقدم والاجادة ، (٤٦) واشار ابن خلدون الى أن (القالى قدم من المشرق فأورث أهل الأندلس علمه) (٤٧) وذكر ابن الفرضى ، انه عندما وفد أبو علي القالي الى الاندلس (فسمع الناس منه وقرأوا عليه كتب اللغة والاخبار والامالى وعظمت استفادتهم منهم) (٤٨) وقد أتقن القالى علوم اللغة والشعر والنحو على طريقة البصريين (٤٩) وبحث على (ابن درستوية) عبد الله بن جعفر الفارسي النحوي (٥٠) كتاب « سيبويه » ودقق النظر فيه وأملى شيئا من حفظه مثل كتاب (النوادر) و (الامالى) وكتاب (الممدود والمقصور) الذي رتبه على التفعيل ومخارج الحروف وكتاب (البارع في اللغة) مرتب على حروف المعجم وكتاب (الابل ونتاجها) وكتاب (حلى الانسان والخيل

---

(٤٣) ن . م . ص ٤٥

(٤٤) ن . م . ص ٤٥

(٤٥) مدينة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر وسماها باسم جاريته الزهراء (المقرى نفح الطيب حـ ١ ص ٣٤٦)

(٤٦) المقرى ، نفح الطيب حـ ١ ص ٣٥٨ - ٣٦٩

(٤٧) العبر وديوان المبتدأ والخبر (منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت ١٩٧١) حـ ٤ ص ١٤٦

(٤٨) تاريخ العلماء والرواة للعلم ص ٦٥

(٤٩) المقرى ، نفح الطيب حـ ٤ ص ٧٢ (كما وصف بانه احفظ اهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين) ن . م . ص ٧٣

(٥٠) وهو احد النحاة المشهورين ، وكان شديد الانتصار للبصريين في النحو واللغة وعلوم العربية

وشياتها) وكتاب (فعلت وأفعلت) وكتاب (مقاتل الفرنسان) وكتاب شرح فيه المعلقات (٥١) وكان قد كتب مؤلفه الشهير (الامالى) في مدينة قرطبة التي استوطنها ، وأصبح هذا الكتاب مرجعا مهما من مراجع علم اللغة هناك .

ويشير ابن خلكان الى اجتماع اللغويين والنحويين بأبي علي القالي عند دخوله الاندلس ، فتلقوا عنه علومهم وآدابهم وتأثروا به (٥٢) حتى اتخذوه حجة وإماما في فقه اللغة وعلوم العربية . ومن الذين تأثروا به ابو بكر محمد بن الحسن بن بشر الزبيدي الاندلسي الاشبيلي (٥٣) وابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن القوطية الاشبيلي الأصل القرطبي المولد والدار ، والذي كان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية ، راويا للاشعار ، صحيح الالفاظ ، واضح المعاني ، حسن المطالع والمقاطع (٥٤) وأبو عمر يوسف بن هارون الكندي الرمادي الشاعر الذي امتدح القالي (٥٥) .

ومن الجدير بالذكر أن أبا علي القالي ، اوجد اهتماما خاصا لدى الاندلسيين في فن تصنيف معاجم اللغة ، حيث تطور جنبا الى جنب مع الدراسات النحوية ، وأصبحت طلائع مؤلفات الاندلسيين في هذا الباب مختصرات لمعاجم مشرقية مثال ذلك (كتاب نوادر اللغة) الذي وضعه القالي ، فهو أشبه لما ورد في (الكامل) لابي العباس المبرد من الغريب . وكذلك وضع أبو بكر محمد بن الزبيدي مختصرا لكتاب (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي ، وكان

---

(٥١) ياقوت ، معجم البلدان حـ ٢ ص ٣٥٢ ابن خلكان ، وفيات الاعيان وانباءابناء الزمان (دار الثقافة بيروت) حـ ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٨)

(٥٢) وفيات الاعيان حـ ٤ ص ٣٦٩

(٥٣) ن . م . حـ . ص ٢٢٦ - ٢٢٨ ، حـ ٤ ص ٣٧٣ وكان إماما في الأدب واللغة وشغل وظيفة مؤدب لأحد أمراء الأندلس ، اتصف بالخلق والذكاء وقد الأدب واللغة على ابي علي القالي لما دخل الاندلس (المقري ، نفح الطيب حـ ٤ ص ٧٤ - ٧٥ ، حـ ٤ ص ٣٧٣)

(٥٤) ن . م . ص ٣٦٩

(٥٥) ن . م . ج . ٧ . ص ٢٢٥ - ٢٢٦ قائلا :

« روض تعاهده السحاب كأنه … متعاهد من عهد اسماعيل
قسه الى الأعراب تعلم أنه … أولى من الاعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت … منهم وحازت لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده فكأنما … نزل الخراب بربعه المأهول
وكأنه شمس بدت في غربنا … وتغيبت عن شرقهم بأفول

مبوبا بحسب مخارج الحروف ، وقد ذاع هذا المختصر بين اهل العلم في الاندلس واصبح معتمدهم في الدراسة . (٥٦)

وهنالك عدد من الشعراء الاندلسيين الذين أفصحوا بالعربية متأثرين بزملائهم المشارقة ، منهم مغيث بن الحارث بن الأيهم الغساني ، الذي تأدب بدمشق مع بني عبد الملك بن مروان ، وصار يقول من الشعر والنثر ما يصح اعتباره فريدا (٥٧) وعبد الخالق بن ابراهيم الخطيب الذي وصف بانه اديب قوي العارضة مطبوع الشعر (٥٨) .

أما في مجال الفن القصصي الشرقي الذي انتقل الى الاندلس ، فأهمها قصة المعتمد بن عباد الاشبيلي وخطته الجميلة الرميكية (٥٩) وقصة عن الخليفة الاندلسي الحكم المستنصر ٣٦٦ هـ أو ما أدخله من تعديل على بعض الآلات الموسيقية ، وقصة عن امرأة اندلسية مسلمة كانت تمثل بالقتلى المسيحيين انتقاما لواحد من اهل قرابتها وقع في القتال الناشب بين الجانبين في بعض الثغور الأندلسية (٦٠) وقد اتخذت جميع هذه القصص المنحى المشرقي في المعالجة والموضوع .

ومن الجدير بالذكر الى ان هناك كتبا مشرقية ادخلت في باب التأليف القصصي قد عرفت في الاندلس ، وكان لها صدى ونفوذ كبيرين في هذه البلاد ، ومن اهمها كتاب ألف في عصر هارون الرشيد لأبي سرى سهل بن أبي غالب الخزرجي سماه كتاب (ربيعة وعقيل) (٦١) وهذا حمل

---

(٥٦) بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٨٩

(٥٧) المقرى ، نفح الطيب حـ ٤ ص ١١

(٥٨) ن . م . ص ٦٥ ؛ ومن شعره قصيدة في وقت رحلته الى الأندلس قوله :

حل الذل أوفاحلل عقال الركائب ... ولاقسيم أوفاحلل صدور الكتائب
فاما حياة بعد إدراك منية ... وإما ممات تحت عز القواضب
فما العيش في ظل الهوان بطيب ... وما الموت في سبيل العلاء بعائب

(٥٩) وقد طلبت اليه ان يجعل لها بركة من ماء الزهر يحفها طير من مسك وعنبر تذكيرا له بيوم رآها تخوض في الطين على ضفاف الوادي الكبير باشبيلية (كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية / الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠) ص ٨٨ ـ ٩٢

(٦٠) اثر العرب في النهضة الاوروبية ص ٩٢

(٦١) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الاندلس حـ ١ ص ٢٥٦

كثيرين من الأدباء الأندلسيين على تقليده أو معارضته (٦٢) .

اما ابرز من تضلع في الشعر الغنائي فهو أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي ٤١٧ هـ ١٠٢٦ م الذي كان أصله من الموصل واستوطن قرطبة (٦٣) وكان تأثيره واضحا في ظهور عدد من تلاميذه ممن أخذ عنه أصول هذا الفن وفيما خلفه من تأليف ورسائل (٦٤) .

وفي هذا الصدد لا بد من التطرق الى الأثر الذي تركته مقامات (٦٥) ابي علي محمد بن قاسم الحريري في الأدب الاندلسي . درس الحريري في البصرة وكتب مقاماته هناك ، وموضوعاته تدور حول الأدب ، وقد سمعها كثير من الأندلسيين ، وكان لها صدى بين أدبائهم حيث نشروها في بلادهم وقرأها طائفة من الاندلسيين على الحريري نفسه . ومضى نفر منهم ينسجون على منوالها مثل جعفر بن عبد الرحمن بن أحمد الازدى ٥٧٥ هـ الذي انشأ مقامات على غرارها (٦٦) وكذلك ألف أبو طاهر محمد بن يوسف السرقطي الاشترقوني مجموعة مقامات يقول أحد الباحثين انها لا زالت مخطوطة في مكتبة برلين (٦٧) ووضع ابو طالب عقيل بن عطية القضاعي المراكشي ٦٠٨ هـ سرحا على مقامات الحريري . (٦٨)

غير أن أكبر شراح المقامات في العالم الاسلامي آنذاك هو أندلسي من مدينة شريش اسمه ابو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى الشريشى ٦١٨ هـ ، وكان بارعا في علوم اللغة والعروض ، وقد وضع ثلاثة شروح لمقامات الحريري تغنى عن كل شرح تقدمها (٦٩)

---

(٦٢) أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٨٧ ـ ٨٨ « كان الأمير المنصور بن ابي عامر الذي استولى على مقاليد السلطة خلال الربع الأخير من القرن الرابع الهجري كثير الشغف بهذا الكتاب » .

(٦٣) وكان قد وفد على المنصور بن ابي عامر واراد من ان يلغي به آثار أبي على القالي (المقري ، نفح الطيب حـ ٢ ص ٥٢ ، ٦٦)

(٦٤) ومن كتبه كتاب « الفصوص » الذي قوبل بالرفض من قبل لم يتحمس لهذا اللون من الشعر « فدحضوه ورفضوه ونبذوه في النهر » المقري نفح الطيب حـ ٤ ص ٧٥ ـ ٧٦

(٦٥) المقامة ، لون اشبه ما يكون بفن القصة القصيرة ، وقد قدر لهذا الضرب من الأدب ان ينتشر في العالم الاسلامي (اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٨٨)

(٦٦) بالنثيا ، تاريخ الفكر الا ندلسي ص ١٨١

(٦٧) ن . م . ص ١٨١ ـ ١٨٢

(٦٨) ن . م . ص ١٨٢

(٦٩) وكان الشريشي لا يكتفي بما يضع على المقامات من الشروح الأدبية بل يضيف من علمه كثيرا من الموضوعات ذات الاهمية البالغة . ومما يدل على اهمية هذه الشروح ان الناشرين المحدثين يجعلونها على هوامش طبعاتهم للمقامات (ن . م . ص ١٨٢)

ويصح ان نقول بان فن المقامة الاندلسية الذي هو نتاج المقامة المشرقية قد تطور وابتعد عن الجمود المشرقي وتحرر من فيقهه اللغويين المتكلفة ، واصبحت المقامة قصصية الطابع واكثر شعبية بتقديمها الصور البديعة للمجتمع الاندلسي ، كما تميزت بالواقعية .

ومن الجدير بالذكر ، ان يهود الاندلس قد تأثروا بمقامات الحريري ، فنسج أحد ادباء اليهود الاندلسيين مقامات باللغة العبرية على النهج نفسه الذي اتبعه المؤلف البصري الكبير ، كما انتهج سليمان بن صقيل القرطبي ، مقامات بالعبرية ، وتبعه مقلد يهودي آخر للحريري وهو يهوذا بن سليمان الحريري ، حيث ترجم مقامات الحريري الى العبرية ، والف كتابا بعنوان (تحكموني) (اي الرجل الحكيم) بدا فيه وهو يعارض مقامات الحريري ويرد عليها بمقامات انشأها (٧٠) .

أما في الشعر ، فقد اتخذ الشعراء في الأندلس ، قصائد العرب الجاهليين نماذج ينظمون على منوالها وخصوا (المعلقات السبع) (٧١) بالدراسة والاقتداء ، ولكنهم تحولوا عنها الى قول الشعر الذي يخدم الاغراض العسكرية والاجتماعية ، لشد عزائم الجند في ميادين القتال ، وبث الحمية في قلوب الناس لذكر الوقائع الحربية لغرض ترديها في الطرقات والميادين والشوارع ، ثم انصرفوا الى الموضوعات التي كان يطرقها شعراء بغداد والبصرة ودمشق ، وهي تتعلق بالغزل والوصف وذكر محاسن الجمال والرياض الخضراء (٧٢) وعلى العموم فالشعر الاندلسي نبع من بحر الشعر المشرقي ، فقد تأثر الاندلسيون من ناحية البراعة الشعرية وليس من ناحية التفكير وتسلسل انماط الافكار ، فلم يستطيعوا ان يدخلوا على الشعر من التغيير الا ما يمس المعنى ، كما كان يفعل المشارقة ، وقد طرق الشعر الاندلسي فنون الشعر كافة من الزهد الى الهجاء وقصائد الحماسة والنسيب والمديح والرثاء والوصف ، وهو ما كان عليه الشعر في المشرق . وكانت الخمريات اكثر فنون الشعر ذيوعا بين شعراء الاندلس ، كما أولعوا بالوصف للطبيعة والجمال ، غير أنهم لم يظهروا براعة في الشعر السياسي أو الحماسي (٧٣) ولعل من المفيد

(٧٠) كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ٩٢

(٧١) لامرىء القيس وزهير بن ابي سلمى والنابغة الذبياني ولبيد بن أبي ربيعة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد

(٧٢) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٧

(٧٣) ن . م . ص ٥٩

القول بان الشعر الاندلسي لم يصل الى أوجه إلا بعد قيام الدولة الأموية عام ٣١٧ هـ/٩٢٩ م ، حيث عرفت الاندلس دواوين المتنبي وغيره من الشعراء في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وفي عهد خليفته ابنه الحكم المستنصر ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م ، وذلك عندما وفد سفراء الثقافة المشرقية ومنهم أبو على القالي البغدادى الذي وفد عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م وصاعد بن الحسين البغدادى الذي دخل الاندلس عام ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م ، وقد ادخل الى هذه البلاد طريقة جديدة في دراسة الشعر الجاهلي (٧٤) كما بذل محاولاته في تأليف كتاب (الفصوص) بصورة يفوق فيها كتاب (الأمالي) لابي على القالي ، ولكن معارضوه قذفوه في النهر فقال أحد الشعراء :

قد غاص في الماء كتاب الفصوص
وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه صاعد :

عاد الى معدنه ، انما
توجد في قعر البحار الفصوص (٧٥)

والى جانب ترحيب الاندلسيين ، وخاصة الأمراء منهم ، باهل العلم من المشارقة ، فقد نشط هؤلاء باقتناء الكتب النادرة والحصول عليها من مصادرها ، كما اجتهدوا ، على حد قول احد الباحثين ، في ان يكون لقصورهم مجد ادبي يحاكي ما كان لقصور خلفاء المشرق ، واهتموا برعاية الأدب والعلوم والفنون ، لكي تصل قرطبة الى مستوى يضاهي ما وصلت اليه دمشق وبغداد (٧٦) ويشير ابن سعيد المغربي إلى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط كان يبعث رسلا للبحث عن الكتب والمؤلفات في المشرق (٧٧) كما ان ابنه الحكم المستنصر كان معنيا هو الآخر بالعلم ومكرما لأهله وجماعا للكتب بانواعها ، وبما لم يجمعه أحد غيره من الامراء والملوك ، وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي ، ويبعث باستقدام العلماء والفقهاء من المشرق (٧٨) وأوجد في قرطبة عددا كبيرا من الكتبة والمجلدين والمزخرفين والناسخين ، استقدم بعضهم من صقلية ومن بغداد ، وكانوا يعملون تحت إشراف المشارقة من حاشية الخليفة لاغناء مكتبته التي كانت تحتوى على النفائس ،

---

(٧٤) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٦٠

(٧٥) المقري ، نفح الطيب حـ ٤ ص ٧٥ - ٧٦

(٧٦) بالنثيا ، المصدر نفسه ص ٤

(٧٧) المغرب في حلى المغرب حـ ١ ص ٤٥

(٧٨) ٥ . م . ص ٤٥

حيث ضمت حوالي أربعمائة الف مجلد ، اغلبها كتب المشارقة (٧٩) وترد تفاصيل مفيدة عن الدور الذي قام به الحكم المستنصر في انشاء المكتبة الأموية الكبرى (٨٠) بالقصر الأميري ، وهي أعظم مكتبات قرطبة (٨١) حتى ان ابن حيان ذكر بانه لم يسمع في الاسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وايثارها والتهمم بها ، كما افاد على العلم ونوّه باهله ورغب الناس في طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته الى فقهاء الامصار النائية (٨٢) وقد جمع في داره ، الحُذَّاقَ في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، حتى اجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم يكن لأحد من قبله ولا من بعده (٨٣) ويبدو ان اغلب الكتب المنسوخة والمضبوطة التي تضمها هذه الخزائن هي التي أسهم في صناعتها الفنيون المشارقة ، حيث كان في مقدمة الوراقين الوافدين من المشرق « ظفر البغدادى » وهو من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط ، وعباس بن عمر الصقلي ، ويوسف البلوطي ومن في طبقتهما ، وكذلك ابو اليسر ابراهيم بن احمد الذي اشتهر ببراعة خطه وجسن وراقته ، فكتب بيده اكثر كتبه ، وكان قد تلقى معارفه في بغداد (٨٤) .

والى جانب هذه المكتبة ، فهناك سبعون مكتبة عامة في الاندلس ، حتى غدت العناية بالمكتبات ظاهرة عامة لدى الناس ، حيث كانوا يتبارون في جمع الكتب والمؤلفات والمصنفات ، وأصبح الحصول على الكتب المشرقية خاصة يشغل اهتمام الاندلسيين (٨٥) .

ومن المفيد ان نشير الى ما يذكره المقرى بهذا الصدد نقلا عن ابن حزم الاندلسي قائلا « اخبرني ـ تليد الخصِّي » الذي كان على خزانة الكتب والعلوم بدار بني مروان (ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربع واربعون فهرسا ، وفي كل فهرس عشرون ورقة ، واقام بنو مروان للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليها بضائعه من كل قطر » (٨٦) ويذكر هذا

---

(٧٩) المقرى ، نفح الطيب حـ ١ ص ٣٧١

(٨٠) لما توفى عبد الرحمن الناصر عني بجمع مكتبات القصر وتنظيمها لتكون بداية للمكتبة الأموية التي انفق بقيه عمره في جمعها وتنسيقها .
J . Ribera : Disertacionesy Opusculos) Madrid — 1928 P . 191 M 192

(٨١) عهد الحكم بادارة المكتبة الى أخيه عبد العزيز وساعده الفتى سابور الفارسي الذ اختاره الحكم ليكون وصيفا خاصا له . وكان من علماء عصره
,odesto Lafuente :Historia Genral de Espana , Tome , 111 , p . 337

(٨٢) محمد عبد الله عنان ، الدولة العامرية وسقوط الخلافة حـ ٣ من كتاب دولة الاسلام في الاندلس (مصر ـ ١٩٥٨) ص ٢١ ، ٢٢

(٨٣) المقري ، نفح الطيب حـ ١ ص ٣٦٢

(٨٤) ن . م حـ ٤ ص ١٠٨

(٨٥) الذهبي ، دول الاسلام (مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٦٤ هـ) حـ ٢ ص ٥٠٤

(٨٦) نفح الطيب حـ ١ ص ٣٦٢

المؤرخ نقلا عن ابن خلدون (انه لما وفد ابو علي القالي صاحب كتاب الامالي) من بغداد أكرم الأمير عبد الرحمن الاوسط مثواه وحسنت منزلته عنده واختص بابنه الحكم المستنصر واستفاد من علمه (٨٧) وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالافراط في الاكرام (٨٨) .

ان الكتب التي حرص الحكم المستنصر على الحصول عليها من المشرق كثيرة ومنها كتاب « الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، فقد ارسل اليه ألف دينار من الذهب العين لكي يزوده بنسخة مكتوبة قبل ان تصدر في بغداد (٨٩) وغني عن البيان ما لهذا الكتاب من قيمة ادبية ولغوية ، حيث تبدت أهميته في سعي الأندلسيين الى استنساخه ونشره في بلاد الاندلس ، كما الف ابو الفرج الاصفهاني كتابا آخر لانساب بني امية وارسله الى الحكم المستنصر ، ونشر في الاندلس (٩٠) .

ومن الجدير بالذكر ان الحكم المستنصر قد فعل ذلك مع القاضي ابي بكر الابهرى المالكي الذي استقدمه من المشرق واقام في دانية ثم قصد سرقسطة ، واستقر به المقام آخر الأمر في غرناطة (٩١) حيث قدم له شرح كتاب (المختصر لابن عبد الحكم) الذي قرأه اهل الاندلس وتداولوا نسخه التي كتبت هناك(٩٢) .

أما إرسال الأمير عبد الرحمن الاوسط للعالم الاندلسي المشهور عباس بن ناصح الحريري (٩٣) الى المشرق الاسلامي للحصول على الكتب ، فقد ترك تأثيره في حركة العلوم العقلية في الاندلس ، حيث اتى له بكتاب (السند هند) (٩٤) وهو يحتوى على مباحث في علم الفلك والفلسفة والمنطق . ويؤكد ابن سعيد المغربي بأن عباس بن ناصح الجزيري ٢٦٠ هـ « هو الذي ادخلها الاندلس وعرف اهلها بها

---

(٨٧) امر ابنه ان يجيء مع أبي علي القالي الى قرطبة وان يتلقاه في وفد من وجوه رعيته يتنخبهم من بياض اهل الكورة تكرمة لأبي علي ، ففعل وسار معه نحو قرطبة في كوكب نبيل فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم ويتناشدون الأشعار (ن . م . حـ ١ ص ٣٦٣ حـ ٤ ص ٧٠

(٨٨) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر حـ ٤ ص ١٤٦ ، نفح الطيب حـ ١ ص ٣٦٢ . وذكر ابن خلكان أن ابن القوطية القرطبي كان يبالغ في تعظيم ابي علي القالي وكثيرا ما يفيد من علمه وفنه . (وفيات الاعيان حـ ٤ ص ٣٦٩) .

(٨٩) المقرى ، نفح الطيب حـ ١ ص ٣٦٢

(٩٠) المقري ، نفح الطيب ص ٣٦٢

(٩١) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٠٧ ـ ١٠٨

(٩٢) المقري ، المصدر نفسه ص ٣٦٢

(٩٣) وهو ابو المعلى الأندلسي الثقفي ، وكان من أهل العلم بالعربية واللغة والشعر المجودين وله حظ في الفقه والرواية ، وكان قد رحل مع ابيه الى مصر وتردد الى الحجاز طالبا للغة العرب ولقي الاصمعي وغيره بالعراق واجتمع بابي نواس واذعن له بالفضل على نفسه وانصرف الى الأندلس (جلال الدين السيوطي بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة حـ ٢ (الطبعة الاولى ، عيسى البابي الحلبي وشركاه) ص ٢٨

(٩٤) وقد جاء ان هذه الكلمة عربية محرفة عن السنسكريتية (الهندية القديمة وأصلها « السد هانت » ومعناها « مقالة الأفلاك » ومؤلفها العالم الفلكي الهندى « برهمكيبت »

ونظر هو فيها (٩٥) واطلع علماء الاندلس على هذا الكتاب ونظروا فيه وتأملوه واعتمدوه في مؤلفاتهم وخاصة في علم الفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق ، وبذلك تتجلى التأثيرات التي يتركها كتاب (السند الهند) الذي كان مقسما على جزأين ، أحدهما في بحث الازياج (٩٦) (الجداول) والآخر في رسائل هذه الجداول فيما اقدم عليه ابو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي ٣٩٤ هـ/١٠٠٤ م العالم الفلكي الاندلسي (٩٧) وتلامذته (٩٨) ، تأليف الازياج وفقا للمبادىء والافكار التي جاءت في هذا الكتاب المشرقي (٩٩) ، كما كتب العالم ابو القاسم اصبع بن محمد بن عبد الله (١٠٠) الذي كان قد رحل الى المشرق فسمع بمكة والكوفة (١٠١) الأزياج والاطارح (١٠٢) والرسائل (١٠٣) متأثرا بهذا الكتاب ، وكذلك ابو ابراهيم بن يحيى النقاش بن زرقالى العالم الفلكي المشهور (١٠٤) الذي وضع الجداول الفلكية واسطرلابا واجهزة دقيقة مثل (الزرقالية) و (الصفيحة) التي كانت

---

(٩٥) المغرب في حلى المغرب ، حـ ١ ص ٤٥

(٩٦) الزيج ، كتاب يعرف منه سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم أى حساب الكواكب لسنة وأخرى (ابراهيم مصطفى ، احمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ـ المعجم الوسيط . المكتبة العلمية ـ طهران) حـ ١ ص ٤١٠ .

(٩٧) ومن كتبه « رسالة الاسطرلاب » و « ثمار علم العدد » وملخص لزيج البتاني سماه « تعديل الكواكب » كما ان له ترجمة لكتاب « قبة الفلك Planisphaerium, لبطليموس (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٤٨ . كما اصلح الزيج الذي وضعه محمد بن احمد الخوارزمي وهو من أهل المشرق استوطن الاندلس .

(٩٨) ومن هؤلاء التلامذة أبو القاسم اصبغ بن محمد المهري ٤٢٥ هـ/ ١٠٣٤ م من أهل غرناطة الذي كان متقدما في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم (ابن حيان القرطبي المقتبس من ابناء اهل الأندلس (تحقيق د . محمود علي مكي ، بيروت ١٩٧٣) ص ٢١٣ وابن الصفار ابو القاسم احمد بن عبد الله بن عمر الذي عمل زيجا مختصرا على مذهب السند هند) . (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٤٩) .

(٩٩) صاعد الاندلسي ، طبقات الأمم (مطبعة السعادة ـ القاهرة) ص ١٠٧ .

(١٠٠) الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر رجال الاندلس (تحقيق محمد تاويت الطنجي القاهرة ـ ١٩٥١) ص ٣١٢ ، السيوطي ، بغية الوعاة ص ٤٥٩ .

(١٠١) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الاندلس حـ ١ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

(١٠٢) الأطروحة ، ما يطرح المسألة تطرحها للنظر والبحث ، الجمع أطارح (ابراهيم مصطفى وزملاؤه المعجم الوسيط حـ ٢ ص ٥٥٩) .

(١٠٣) الرسالة ، ما حمله الرسول ، والجمع رسائل ، ورسيل الرجل الذي معه في نضال أو نحوه (ابن دريد ، كتاب جمهرة اللغة ـ دار صادر ، مؤسسه الحلبي وشركاه ـ القاهرة الطبعة الاولى) حـ ٢٢ ص ٣٣٥ .

(١٠٤) كما أنه وضع مع ابن صاعد البغدادى مبادىء جداول طليطلة المعروفة بالزيج الطليطلي واخترع اصطرلابا سمي باسمه Arzachel ويعتبر من أعظم اهل الفلك من العرب إطلاقا .

تسمى في اوربا ، وابتكر في علم الفلك نظريات جديدة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم (١٠٥) اعتمادا على كتاب (السند وهند) (١٠٦) .

اما فيما يتعلق بالفلسفة ، فلدينا ما يشير الى ان تاريخ الفكر الفلسفي في بلاد الاندلس هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الاسلامية المشرقية دون ان تكون له بالتراث المحلي صلة حقيقية يقوم عليها الدليل (١٠٧) وانه خلال العصور الاسلامية الاولى في هذه البلاد لم تكن سوى آراء غامضة في البحث عن الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وفي اصول التفكير الفلسفي ، ولا بد من القول ، ان الفلسفة لم تدخل لهذه البلاد كعلم قائم بذاته وانما ، وصلت اليها من المشرق في صحبة العلوم النظرية والتطبيقية ، مثل علم الفلك والرياضيات والطب ، أوأنها ، كما افاد بعضهم ، قد تسربت اليها في ثنايا الاعتزال وبعض المذاهب الدينية (١٠٨) .

وأشار أحد الباحثين الى ان تاريخ الفكر الفلسفي الاندلسي هو اقتباس أمين عن الثقافة الاسلامية المشرقية وبدون اية روابط ايجابية تذكر . وقد برهن على ذلك من خلال التقاليد المحلية التي كانت تفصح عنها هذه البلاد (١٠٩) .

ولكن بحلول القرن الرابع الهجري نبغ محمد ابن عبد الله بن مسره القرطبي (١١٠) فيلسوف قرطبة الأول ، الذي اتقن دراسته على يد المشارقة ، حيث رحل الى المشرق فكان مذهبه يجمع بين التصوف والاعتزال ، ففي الاعتزال كان يقول بالاستطاعة والوعد والوعيد ونفي رؤية الله وهي آراء تتفق مع آراء المشارقة . وقد تأثر بابن مسرة كل من ابن حزم الاندلسي (١١١) وصاعد بن احمد عبد

---

(١٠٥) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٥١

(١٠٦) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ص ٤٥ - ٤٦

(١٠٧) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٢٣٢ .

(١٠٨) ن . م . ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(١٠٩) ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الاندلس (ترجمة ذوقان قرقوط - بيروت) ص ٦٢

(١١٠) خرج من الأندلس فارا بعد أن اتهم بالزندقة ودخل المشرق واشتغل بملاقاة اهل الجدل واصحاب الكلام والمعتزله ، ثم انصرف الى الاندلس واظهر نسكا وورعا واغتر الناس بظاهره فاختلفوا اليه وسمعوا منه (ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس جـ ٢ ص ٤١) .

(١١١) وهو ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم ، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ وكان حافظا لعلوم الحديث وفقهه مستنبطا للاحكام وعرف بالجدل والمناظرة (انظر ترجمته : الحميدي جذوة المقتبس ص ٢٩٠ - ٢٩٣ ياقوت معجم الادباء جـ ٢ ، ص ٢٣٥ ابن خلكان وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣٤٠ - ٣٤٢

الرحمن بن صاعد الطليطلي ٤٦٢ هـ (١١٢) وعدد كبير من الاندلسيين ممن اخذوا عنه وتتلمذوا عليه ، ويورد بالنثيا قائمة باسمائهم (١١٣) .

والى جانب ذلك فقد ظهر فلاسفة آخرون اخذوا عن المشارقة ، منهم ابن باجه ٥٢٣ هـ وهو من مدينة سرقسطه ومن شراح فلسفة ارسطو ، وابن طفيل ٥٨١ هـ وكتابه (حي بن يقظان) من أحسن ما تفخر به الفلسفة العربية ، وكان قد تأثر بفلاسفة المشرق الذين تناولوا هذا الموضوع ، وابن رشد ٥٩٥ هـ الذي يعتبر من أعظم شراح كتب ارسطو ، وقد عرف بالشارح ، وميز بين آراء ارسطو وافلاطون ، ونبذ كثيرا من آرائها التي لا تتفق مع الدين ، وفي علم الكلام ظهر كتاب (الدليل في الطريق من أوقاويل اهل التحقيق) (١١٤) لعبد اللطيف بن ابي الطاهر بن هبة الله الهاشمي (١١٥) وهو من أهل بغداد دخل الاندلس ونشر علومه فيها . وقد أثار هذا الكتاب اهتماما واسع النطاق في الاندلس ، وخاصة في مدينة غرناطة ، كما كان ابو البركات عمر بن مودود الفارسي النجاري من أهل التصوف والتحقق بعلم الكلام في مدينة قرطبة في نهاية القرن الخامس الهجري (١١٦) ويبدو تأثير ابي المكارم هبة الله بن الحسين في أوساط المهتمين في الأندلس واضحا في أصول علم المنطق ، حيث تتلمذ على يديه بعض من أهل اشبيليه سنة ٥٧٩هـ (١١٧) كما الف ابو محمد بن احمد بن حزم الاندلسي كتابا في المنطق اسماه (التقريب لحد المنطق والمدخل اليه) وجعله بألفاظ أهل العلم لا بألفاظ أهل الفلسفة ، متخذا أمثلته فيه من الامثلة الفقهية (١١٨) وهو المنحى الذي كان يتجه اليه المشارقة ويفضلونه .

---

(١١٢) ابو القاسم الطليطلي سكن قرطبة وكان تلميذا لابن حزم ، له كتاب « طبقات الامم » وهو موجز للتاريخ البشري . وقد بنى آراءه الفلسفية على آراء فيلون السكندري وافلوطين لا نبذ وقليس ومن تلاميذه الياس بن يوسف الطليطلي .

(١١٣) ومن بين أولئك التلاميذ حي بن عبد الملك القرطبي ومحمد بن سليمان المكس واحمد بن فرج بن متيل بن قيس وغيرهم كثيرون (وتاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٢٨)

(١١٤) ابن حزم الاندلسي ، جهرة أنساب العرب (تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ مصر ١٩٦٢) ص ٦

(١١٥) المقري ، نفح الطيب جـ ٤ ص ٦٥

(١١٦) ٥ . م . ص ١٤٠ ـ ١٤١

(١١٧) المقرى ـ نفح الطيب جـ ٤ ص ١٤١

(١١٨) ابن حزم ، جهرة أنساب العرب ص ٦

أما نشوء المدرسة التاريخية العربية الاندلسية وتطورها ، فيمكن القول باطمئنان انها تمت على يد المؤرخين المشارقة ، فأول مؤرخ لهذه البلاد هو عبدالملك بن حبيب ١٧٩ ـ ٢٣٨هـ ، الذي رحل الى المشرق وتردد على مجالس العلم في مدنه المختلفة ، وأصاب في الاندس بعد عودته شهرة واسعة ، حتى لقبه الناس بـ (عالم الاندلس) واستقر في مدينة قرطبة ، وفي مسجدها الجامع كان يعقد حلقات دروسه (١١٩) وانتهج في كتابه تاريخ الاندلس منهجا مشرقيا ، وكان كتابه في التاريخ المرسوم (كتاب في ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق فيها من ابتداء خلق السموات وخلق البحار والجبال . . . الخ) (١٢٠) يمثل خطوة رائدة في علم التاريخ حيث جعل فيها تاريخ العالم مقدمة لتاريخ الاندلس ، وهو اقدم مؤلف لمؤرخ اندلسي عن تاريخ هذه البلاد . وقد نقل عن شيوخه المصريين ، كما اعتمد كذلك على ما كان يتناقله الاندلسيون في أيامه من روايات في شأن افتتاح الاندلس (١٢١) وفي أوائل القرن الثالث الهجري ، ظهر المؤرخ محمد بن موسى الرازي ، وهو مشرقي الاصل من مدينة الري ، وقد وفد الى الاندلس سنة ٢٤١هـ واستوطن قرطبة ، وأهم مؤلفاته كتاب « الرايات) الذي نحا فيه منحى المشارقة ، وقد خلفه ابنه احمد بن محمد الذي لقب (بالتاريخي) لكثرة اشتغاله بالتاريخ (٢٢) .

ولكن تجلت التأثيرات التي تركها المشرق الاسلامي في هذا الجانب بظهور أعظم مؤرخ انجبته الأندلس ، وهو حيان بن خلف بن

---

(١١٩) وكان الى جانب ذلك نحويا عروضيا وشاعرا حافظا للأخبار متصرفا في فنون العلم . وله مؤلفات كثيرة في علوم الطب والفلك والانساب والفقه . (كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية/ الفصل السابع ، الدكتور جمال الدين الشيال ص ٣٧٠ ، ٣٧١)

(١٢٠) توجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة البودلية بأوكسفورد

ms . marsh ,288 , Badelian Library , Oxford

(١٢١) المقري ، نفخ الطيب حـ ١ ص ٣٧

(١٢٢) ومن مؤلفاته : ـ

١ ـ اخبار ملوك الاندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم

٢ ـ كتاب في أنساب مشاهير اهل الاندلس في خمسة مجلدات

٣ ـ كتاب في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان فيها .

٤ ـ كتاب عن كبار الموالي الاندلسيين

حسين بن وهب القرطبي ، الذي وصف بصاحب لواء التاريخ بالأندلس ، فكان أفصح الناس فيه وأحسنهم نظما له (١٢٣) ومن كتبه (المقتبس من أبناء أهل الاندلس) وقد وصفه ابن حزم الاندلسي واثنى عليه (١٢٤) وكذلك ابن سعيد المغربي (١٢٥) والكتاب الآخر « المتين » الذي ذكره ابن خلكان ، وهو يقع في ستين مجلدا (١٢٦) . وهناك طائفة من مؤرخي الاندلس ، كتبوا مختصرات لتاريخ محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ ، فذكروا اخبار المشرق عنه وأضافوا اليه اخبار المغرب والاندلس ، مثل عريب بن سعد ٣٦٩هـ الذي كان من أصل نصراني ثم استعرب ، واحمد بن محمد بن سعيد بن الجسور ٣١٩هـ (١٢٧) وكان تلميذا لقاسم بن اصبع الذي برع في الوثائق والاحكام ، ويوسف بن محمد بن سليمان الهمذاني الذي عني هو الآخر بكتب محمد بن جرير الطبري ، فكتب تفسيرا للقرآن وتاريخ الملوك ، والذيل وهو كتاب العلماء ، وكتاب (بعض تهذيب الآثار) وكتاب (اختلاف العلماء) (١٢٨) .

وفي حقل الجغرافية يمكن الاشارة الى جهود الرحالة ابي محمد تاج الدين عبدالله بن حمويه السرخسي ٥٩٣هـ الذي استقر في الاندلس بعد رحلة زار خلالها المشرق واطلع على أحواله ، وكتب في رحلته قائلا (فحدث باعث يدعو الى الحركات والاسفار ومشاهدة الغرائب في النواحي والاقطار) (١٢٩) ومن مصنفاته كتاب « المسالك والممالك » وهو كتاب جغرافي ترك صدى واسع النطاق في الأوساط العلمية في الأندلس . كما لابد لنا أن نشير الى ظهور الجغرافي الاندلسي الكبير ابي عبيدة بن ابي مصعب البكري ٤٨٧ والذي أفاد من الجغرافيين المشارقة مثل اليعقوبي ٢٨٤هـ

---

(١٢٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان حـ ٢ ص ٢١٨

(١٢٤) يقول عنه بانه كتاب التاريخ الكبير في اخبار اهل الاندلس ، وهو نحو عشرة اسفار من أجَلّ ما ألف في هذا المعنى (المقرى ، نفح الطيب حـ ٤ ص ١٦٧)

(١٢٥) وكان يعلق على النص الذي أورده ابن حزم فيقول « وانما ذكر ابن حزم كتاب المقتبس وهو في عشرة مجلدات (ن . م . ص ١٧٢)

(١٢٦) وفيات الاعيان حـ ٢ ص ٢١٨ . ويقول عنه ابن سعيد المغربي « وكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين في نحو ستين مجلدا يذكر فيها اخبار عصره ويعمن مما شاهده (المقرى ، نفح الطيب حـ ٤ ص ١٧٢)

(١٢٧) الضبي ، بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس (طبع في مدينة مجريط ١٨٨٣) ص ١١٦

(١٢٨) ابن القرضى ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ص ٢٠٦

(١٢٩) المقرى ، نفح الطيب حـ ٤ ص ٩٩

احمد بن جعفر بن واضح في كتابه (البلدان) وابن خرداذبة (٣٠٠هـ) عبيدالله بن احمد في كتابه (المسالك والممالك) وابن رسته ٣٢٢هـ واحمد بن عمر في كتابه (الاعلاق النفيسة) والاصطخري ٣٤١هـ ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي في كتابيه (صورة الأقاليم) و(مسالك الممالك) وابن حوقل ٣٦٧هـ ابي القاسم النصيبي في كتابه (صورة الارض) فقد تأثر بهم عندما وضع كتابه (المسالك والممالك) الذي تناول فيه جغرافية العالم واتبع المنهج التاريخي الجغرافي المشرقي ، كما وضع (معجم مااستعجم) وهو قاموس جغرافي للبلاد التي جاء ذكرها في أشعار العرب . أما الرحالة ابن جبير ٤١٦هـ محمد بن احمد الكناني في الاندلس البلنسي فانه اكثر الجغرافيين الاندلسيين تأثرا بالمشرق وبافكاره ، فقد قام بثلاث رحلات أهمها الرحلة الى المشرق حيث زار بغداد والكوفة والموصل وخراسان ودمشق ، واطلع على معالمها الثقافية والعلمية ، واكتسب خلال رحلاته هذه كثيرا من المعارف ، وسجل انطباعاته وما شاهده ، فكان لذلك اثره في ظهور أدب الرحلات في بلاد الاندلس ، ثم ظهر بعد ذلك الجغرافي الاندلسي علي بن سعيد المغربي ٦٨٥ هـ ونورالدين الغرناطي متأثرا بأساتذته المشارقة ، بعد أن جال في الديار المصرية والعراق والشام فجمع وصنف كتابه (المغرب في حلي المغرب) (١٣٠) وكتابه الآخر (بسط الارض في الطول والعرض) كما وضع مختصرا لجغرافية بطليموس (١٣١) ونقل ابن سعيد عن الادريسي ، واعتمد على مؤلفاته البلدانية (١٣٢) .

أما على نطاق العلوم العقلية او النقلية ، وهي العلوم التطبيقية او التجريبية ، فقد أسهم بعض علماء المشارقة بنقل تراث الشرق الى الاندلس ، فالمشارقة كما هو معروف هم أصحاب الفضل الاول في وضع الطريقة العلمية والمنهج التجريبي في العلوم العقلية ، ويشهد على ذلك رسوخ قدمهم في العلوم والمعارف بصورة عامة . وفي علم الحساب ينبغي أن نشير الى علي بن محمد الانطاكي التميمي نزيل الاندلس الذي كان بصيرا بعلم الحساب حيث (ادخل للاندلس علما جمّا فيه)

---

(١٣٠) ويفصل في جغرافية الأندلس ، وخصائصها وفضائلها ويقع في خمسة عشر مجلدا ، وكان المؤرخون يكثرون من النقل عنه ، بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٤٤ .

(١٣١) واثنى على هذا الجغرافي كل من أبي الفدا والمقريزي وابن خلدون وابن خلكان والمقرى (٥ . م . ص٢٤٨)

(١٣٢) ومن الجهة الأخرى فقد اورثت المدرسة الجغرافية الاندلسية اهتماما لدى المشارقة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، فقد عول ياقوت شهاب الدين الرومي البغدادي في اخراج كتابه المشهور « معجم البلدان ، وابو عبد الله محمد الانصاري الدمشقي المعروف بشيخ الديرة في تصنيف كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) على هذه المدرسة وما جاءت بها من افكار وموضوعات في مجال جغرافية البلدان (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٢٤٥)

(١٣٣) ومن المرجح جدا انه تأثر بالعالم المشرقي الكبير محمد بن موسى الخوارزمي الذي يرجع اليه الفضل في وضع علم الحساب عند المسلمين عموما ، اذ كان كتابه في هذا العلم ، الاول من نوعه ، من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد اصبح مرجعا اعتمده العلماء الحاسبون (١٣٤) كما ان كتابه (الجبر والمقابلة) هو الآخر يعتبر مصدر استقى منه العلماء في الشرق والغرب على السواء . ويذكر ابن الفرضي ، ان مسلم بن احمد بن ابي عبيدة الليثي المعروف بصاحب القبلة ، وهو من اهل قرطبة ، كان قد رحل الى المشرق (وكان عالما بالحساب والنجوم) (١٣٥) واخذ عنه بعض اهل الاندلس وترددوا عليه وتوفر على حل ما اشكل في هذا المضمار . اما علي بن محمد بن علي القرشي القلصاوي ، الذي كان عالما بالحساب فقد انصرف بعد عودته من المشرق واستقراره في مدينة غرناطة ، الى تقديم المزيد من المؤلفات والآثار في علم الحساب ومنها كتاب (كشف الجلباب في الحساب) وكتاب (القانون في الحساب) وكتاب (التبصرة في علم الحساب) وكتاب (كشف الاسرار في علم الغبار) (١٣٦) حيث اقبل الناس عليها وتوسعوا فيها .

ونتيجة لتأثيرات المشرق ، ظهرت الى الوجود المدرسة العلمية في الرياضيات والفلك ، التي كان يقودها ابو القاسم مسلمة بن احمد المعروف بالمجريطي ٣٩٤ هـ/١١٠٤ م الرياضي الفلكي المشهور ، التي نشطت في نقل (رسائل اخوان الصفا) الى الاندلس (١٣٧) وهذه الرسائل هي للجمعية العلمية العربية التي نشأت في البصرة في القرن الرابع الهجري ، ولها فرع في بغداد ، وعملت بصورة سرية واشتهرت بالآراء العلمية الحرة (١٣٨) وقد قام الطبيب

---

(١٣٣) المقرى ، نفح الطيب حـ ٤ ص ١٤٠

(١٣٤) بقي علم الحساب قرونا معروفا باسم الغوريثمي ( ) أوAlqorith,iنسبة الى محمد بن موسى الخوارزمي

(١٣٥) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس حـ ٢ ص ١٢٥ ـ ١٢٦

(١٣٦) السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع حـ ٦ (القاهرة ـ ١٣٥٤ هـ) ص ١٥ ، اسماعيل البغدادى ، هدية العارفين (طبعة الاوفسيت المكتبة الاسلامية في طهران ـ ١٩٦٧) ص ٧٣٧ ـ ٧٣٨ ، بالنثيا تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨

(١٣٧) بالنثيا ، المصدر نفسه ص ٣٣٣

(١٣٨) وقد جمعت بين حرية المعتزلة واتجاه الشيعة بالتوفيق بين شتى الآراء والمذاهب وبلغت رسائلهم اثنين وخمسين رسالة مقسمة على اربعة اقسام ، رياضية تعليمية وجسمانية طبيعية ونفسية عقلية وناموسية آلهية ، ثم تليها الرسالة الجامعة ، وقد تناولوا فيها جميع معارف عصرهم ومن بينها الفلسفة وعلم الفلك والرياضيات ، وكانت معالجتهم للموضوعات التي تناولوها بطريقة علمية من حيث جمع الحقائق وترتيبها واستقراء النتائج وبحث الماهية والتركيب لا شك فيها وتدل على سعة في الفهم ودقة في العرض (د . عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء في تقدمه ص ٦٩ ـ ٧٤)

الفيلسوف ابو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن احمد بن علي الكرماني ٤٨٥ هـ بنشر هذه الرسائل في مدينة سرقسطة ، ويذكر صاعد بن احمد الاندلسي بهذا الخصوص قائلا « إن الكرماني من أهل قرطبة واحد الراسخين في علم العدد والهندسة ، رحل الى ديار المشرق وانتهى منها الى حران من بلاد الجزيرة وعنى هناك بعلم الهندسة والطب واتقنه ، ثم رجع الى بلاد الاندلس واستوطن مدينة سرقسطة وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا ، لانعلم احدا ادخلها الاندلس قبله « (١٣٩) ويذهب بالنثيا الى القول انه « بدخول رسائل اخوان الصفا الى الاندلس ، تكون قد دخلت فلسفة افلاطونية حديثة بالاضافة الى ما جاء به الفلاسفة الاندلسيون الآخرون » (١٤٠) .

وقامت في الاندلس الى جانب ذلك نهضة طبية تطورت على غرار طب المشرق ، غير ان علماء الطب وكتبته ومشتغليه في الاندلس أولوا الجراحة الطبية عنايتهم الخاصة من دون فروع الطب الأخرى ، وقد غذى المشرق الاسلامي هذه بأفكاره ، فازدهر هذا العلم بين مسلمي الاندلس على يد الطبيب المشرقي يونس بن احمد الحراني (١٤١) الذي وفد من المشرق سنة ٢٣٧ هـ/٨٥٢ م وأخذ عنه كثيرون وتأثروا به ، ومنهم ابناه احمد وعمر ، حيث امتاز الاول بالخبرة في تحضير الادوية واشتهر الثاني بالكحالة . ويغلب على الظن بان عمر بن يونس ابن احمد الحراني علّم ابا القاسم خلف الزهراوي طريقة استخراج ماء العين (الكتاراكتا) بواسطة الابرة (١٤٢) .

واشار ابو القاسم صاعد بن احمد الاندلسي الى أن أحمد وعمر رحلا الى المشرق واقاما هناك عشرة أعوام ودخلا بغداد وقرآ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابي ٢٨٦ هـ (١٤٣)

(١٣٩) طبقات الأمم (مطبعة السعادة - مصر) ص ١٠٩

(١٤٠) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٣٣

(١٤١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الاطباء (طبعة القاهرة ١٨٨٢) جـ ٢ ص ٤٢

(١٤٢) عرف الزهراوي بين اهل المشرق والمغرب على السواء بالبراعة في الجراحة الطبية ، فقد عمل طبيا في بلاد الأمير عبد الرحمن الثالث وأجرى العمليات الجراحية واستعان بالآلات وكان كتابه « التعريف لمن عجز عن التأليف » اكبر تصانيفه واشهرها (ابن ابي اصيبعة المصدر نفسه (بيروت ١٩٦٥ ص ٥٠١) وهو موسوعة طبية تقع في ثلاثين جزءا ، نشر الجزء الثلاثون من كتابه باللاتينية باسم « الجراحة » Chirurqia وهو اهم كتاب في تاريخ الطب على الاطلاق ، حيث جعل الجراحة علما قائما بذاته مستقلا عن الطب (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٦٦) واشار فيه الى اهمية الكي واستئصال السرطان ووصف الكسور والخلع واستخراج حصى المثانة بالشق والتفتيت .

(١٤٣) نبغ في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة وكان من اعظم المترجين في العالم الاسلامي آنذاك حيث ترجم كتبا كثيرة من علوم الاقدمين في الرياضيات والمنطق والطب (د . عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص ١٦٤)

كتب جالينوس ، ثم انصرفا الى الاندلس سنة ٣٥١ هـ/٩٦٢ م فاستخلصها الامير الحكم المستنصر لخدمته في الطب . وقد خلف احمد في قرطبة اثارا نفيسة (١٤٤) واضاف ابن أبي أصيبعة أن أحمد بن يونس الحراني كان (عاقلا عالما بما شاهد علاجه رآه عيانا بالمشرق) . (١٤٥) .

وأورث الطبيب محمد بن عبدون الجبلي علومه الطبية بلد الاندلس ، وكان قد رحل الى المشرق سنة ٣٤٧ هـ ودخل البصرة ومصر ودبر بيمارستانيها وتمهر في الطب واحكم كثيرا من أصوله ، وكان شيخه فيه ابو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام الجستاني البغدادى ، ثم عاد الى الاندلس سنة ٣٦٠ هـ فخدم الامير الحكم المستنصر في الطب (١٤٦) اماابو العباس احمد ابن محمد الملقب بابن الرومية من اهل اشبيلية فقد طاف بنواحى المشرق وسجل ملاحظاته ومشاهداته في رحلته ، وكان اول من درس النبات بطريقة مباشرة ، واستخلص انه ليس مجرد عشب يتداوى به بل موضوعا للدراسة والمعاينة ، وتأثر بدراساته ابن البيطار ٦٤٦ هـ ابو محمد عبد الله بن احمد الذي يعد اكبر علماء النبات في المشرق آنذاك (١٤٧) .

ويبدوا ان جهود ابن البيطار مهدت لظهور أشهر الاطباء في هذه البلاد ومنهم ابو الوليد محمد بن رشد ٥٩٥ هـ بلغ الطب أوجه في عهده ، فقد جمع المشتغلون فيه بين الفلسفة والطب (١٤٨) .

وفي باب الموسيقى والغناء ، يجدر بنا ان نعالج التأثيرات التي أورثها الموسيقار المشرقي ابو الحسن على بن نافع الملقب « زرياب »٢٣٨ هـ/٨٥٢ م (١٤٩) في نقل التراث الموسيقي والغنائي وما يرافقها من التقاليد الحضارية المشرقية الى بلاد الاندلس . وكان زرياب قد وفد الى هذه البلاد سنة ٢٠٦ هـ

(١٤٤) طبقات الامم ص ١٢٤

(١٤٥) عيون الانباء في طبقات الاطباء حـ ٢ ص ٤٦

(١٤٦) صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ثم انظر بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٦١

(١٤٧) استوطن ابن البيطار اشبيلية ثم طلب المشرق ووصل الى مصر وأقام فيها ، ومن أهم مؤلفاته كتاب « الجامع في الادوية المفردة » و « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » وكتاب « المغني في الادوية المفردة » ابن ابي اصيبعه ، عيون الأنباء في طبقات الاطباء ص ٦٠١ ـ ٦٠٢

(١٤٨) من كتب ابن رشد في الطب « الكليات في الطب » غير انه انصرف الى ترجمة كتب ارسطو وشروحها ، حتى سمى « الشارح » انظر : كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(١٤٩) ابن حيان القرطبي ، المقتبس من انباء اهل الاندلس ص٢٢١

فقربه الأمير عبد الرحمن بن الحكم وارتفعت مكانته لديه ، واشار ابن خلدون الى « قدوم زرياب على الحكم بن هشام فركب لتلقيه وبالغ في اكرامه واورث صناعة الغناء بالاندلس) . (١٥٠) .

وكان زرياب الى جانب ذلك ، عالما بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة ، واختلاف طبائعها واهويتها وتشعب بحارها وتصنيف بلادها وسكانها ، كما انه استطاع ان يحل الرموز الموسيقية في كتاب « المجسطي » لبطليموس . وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها وهي المقطوعات التي ذكرها بطليموس (١٥١) واوجد زرياب مدرسة فنية استطاعت فيها الموسيقى الاندلسية ، التي كانت في البداية وثيقة الصلة بالمدرسة المشرقية ، ان تكتسب سمات الاصالة . كذلك يمكن ان يقال عن زرياب فيما عدا ذلك بانه مجدد اجتماعي صاحب ذوق رفيع ، ومن تجديداته التي اسندها المؤرخون اليه ، أنه علّم اهالي قرطبة آداب المائدة وفتح معهدا حقيقيا للجمال (١٥٢) .

ونبغ من أهل الاندلس موسيقيون صنعوا الحانا مبتكرة على الطريقة المشرقية ، ومن هؤلاء عبد الوهاب بن عبد الحسين بن جعفر الحاجب الذي كان يقيم مع أهله في بيته حفلات موسيقية ، وابو جعفر الوقشي الوزير الطليطلي الذي يبدو أنه اخترع عودا يختلف عن اعواد المشرق في الشكل (١٥٣) .

ومصابيح جارية الكاتب ابي حفص عمر بن قهليل ، اخذت الغناء عن زرياب (١٥٤) بالاضافة الى بنيه وبناته الذين مارسوا صناعة الغناء في طول بلاد الأندلس وعرضه (١٥٥) .

---

(١٥٠) العبر وديوان المبتدأ والخبر (منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت - ١٩٧١) حـ ٤ ص ١٢٧ . وقال المقري « وزاد زرياب بالاندلس في اوتار عوده وترا خامسا اختراعا ، واخترع مضربات العود من قوادم النسر « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب حـ ٤ ص ١٢٢ » .

(١٥١) المقرى ، نفح الطيب ص ١٢٣

(١٥٢) ويضيف المقرى « ان زرياب قد جمع في خصاله ضروب الظرف وفنون الأدب ولطف المعاشرة وآداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة » المصدر نفسه ص ١٢٣

(١٥٣) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٥٥

(١٥٤) المقرى ، المصدر نفسه ص ١٢٧

(١٥٥) ن . م . ص ١٢٥

وانتقلت تأثيرات المدرسة المشرقية في الترجمة والنقل ، الى الاندلس من بداية القرن الثالث الهجري ، وكان لمدرسة طليطلة ، دور مهم في نشر واذاعة العلم العربي في أوربا ، حيث اهتمت بنقل وترجمة العلوم الطبية والفلسفية والرياضية والجغرافية ، وذلك على غرار مدرسة بغداد التي عرفت ببيت الحكمة (١٥٦) فقد حذت حذوها فضمت مجموعة كبيرة من النساخ والمترجمين الذين اتقنوا عدة لغات ، وترجمت فيها كتب اليونان الكبرى مثل كتب افلاطون وارسطو في الفلسفة ، وابقراط وجاليتوس في الطب ، واقليدس وارخميدس وبطليموس في الرياضيات (١٥٧) كما انها كانت تقوم بعملها المنظم في نقل ثمار العلوم الاسلامية الى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في سائر انحاء أوربا .

وكانت ترجمات كتاب « ديو سقوريدس » في الطب ، وهو مصور الحشائش بالتصوير العجيب قد دخلت الاندلس ، وكان الكتاب مكتوبا بالاغريقي الذي هو اليوناني (١٥٨) واهم هذه الترجمات ترجمة حنين بن اسحق العبادي (١٥٩) الى العربية ويبدو انها ترجمة مستقلة عن السريانية التي كان قد ترجمها اسطيفانوس بن باسيلوس تلميذ حنين بن اسحق عن الاغريقية (١٦٠) .

وظهر عدد من المترجمين الاندلسيين وهم متأثرون بهذه الترجمات ، وفيهم ابو يوسف حسداى بن اسحق بن عزرا بن شيروط ٣٥٩ هـ وزير عبد الرحمن الناصر ، الذي كانت له اهتمامات كبيرة في الطب والشعر والموسيقى ، وابو عثمان الخزار الملقب باليابسة ، ومحمدبن سعيد وعبد الرحمن بن اسحق بم الهيثم الصقلي ، وكان الأخير متضلعا باللغة اليونانية (١٦١) لقد احدث هؤلاء

---

(١٥٦) ابن النديم ، الفهرست (القاهرة) ص ١٥٩ ـ ١٦٠

(١٥٧) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء جـ ٢ ص ٢٥٩

(١٥٨) ٥ . م . ص ٤٦ (وهو ضمن الهدايا التي كان قد أرسلها الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع بسفارته الى الامير عبد الرحمن الناصر)

(١٥٩) وهو من اهل الحيرة تعلم العربية وسمع محاضرات ابن ماسويه في جند يسابور ثم تعلم الاغريقية وعاد الى البصرة واقام فيها ، ودرس العربية ثم انتقل الى بغداد واتقن الترجمة ، وعهد اليه الخليفة المأمون بادارة دار الحكمة وتخرج على يديه مترجمون عظام (راجع آل حنين ودورهم في الترجمة) حكمت نجيب عبد الرحمن ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (جامعة الموصل ـ ١٩٧٧) ص ٢٣ ـ ٢٦

(١٦٠) د . دي لاسي اوليرى ، انتقال علوم الاغريق الى العرب (ترجمة متى بيثون ويحيى الثعالبي (ط ١ ، بغداد ـ ١٩٥٨) ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥

(١٦١) يبدو ان اهل الاندلس في ذلك الحين لم يكونوا يعرفون الترجمة العربية لكتاب « ديو سقوريدس التي صنعها اصطفن بن باسيل في عهد الخليفة العباسي المتوكل ، او الترجمة الأخرى التي انجزها حسان الناتلي استاذ ابن سينا سنة ٣٧٤ هـ (بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص ٤٦٣)

نهضة في نقل كتب اليونان الى العربية ، أو اسهموا في ترجمة التراث العربي الاسلامي في العلم والادب والفن والفلسفة السياسية والاجتماع الى الاغريقية أو اليونانية .

ومن الجدير بالاشارة الى أنه امكن في هذه الفترة استنساخ في بعض مؤلفات الفكر اليوناني في العصور الكلاسيكية والهلنسية لحساب المراكز الثقافية ، وخاصة قرطبة وطليطلة ، عن طريق المشرق الاسلامي ، حيث ارسل الامير الحكم المستنصر رسله للتحري والحصول على نسخ عن ترجمات الآثار العلمية لبلاد فارس القديمة وبلاد اليونان ، وعمل على جلب اهم المؤلفات النادرة والمتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة ، وخاصة العلوم الرياضية والطبية من بغداد ومصر وأماكن أخرى في المشرق ، وأوجد عددا كبيرا من الباحثين والنساخين ، واخذوا يتابعون تحرياتهم عن التآليف بمختلف اللغات في طول العالم الاسلامي وعرضه لنقلها الى العربية (١٦٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان استقصاء التأثيرات التى أورثها المشرق الاسلامي في بلاد الاندلس كانت مفيدة وحاسمة لأنها أوضحت عن مدى صياغتها لنهضة حضارية واسعة ومتميزة لها خصائصها ومعاييرها وأسسها في جميع الميادين العلمية والثقافية والفكرية ، كما انها مهدت لظهور عدد كبير من العلماء الفقهاء والمعلمين والأطباء والفلاسفة العظام .

لقد تجلت لنا نتائج هذه التأثيرات بوضوح ، وأصبحنا نتلمسها بسهولة وبدون عناء . فلولاها لم يكن لنا ما نقوله عن عوامل نضوج الفكر الأندلسي واستكماله بالصورة التى كان لها خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، بالطريقة التي دخل فيها هذا الفكر . الذي تأصل في نهاية هذه الفترة الى أوروبا وتأثيراته هناك وحدوث عصر النهضة الأوربية ، حيث كان عاملا مؤثرا من عواملها .

واخيرا يصح لى القول ، عند ما اختتم هذا البحث ، وانا اردد لنفسي على الأقل بانه يمثل اضافة ذات قيمة لدراسات الاتصال الحضاري ، ومعالجة موضوعية لنتائج هذا الاتصال على النطاق الثقافي والفكري ، وذلك بهدف الوصول الى الحقيقة ، بوضع الحضارة العربية والاسلامية في المشرق العربي والاسلامي في اطارها الصحيح والمؤثر في أسس ومفاهيم الفكر الاندلسي ، إضافة الى ان هذا البحث ، يلقى بعض الضوء على حركة التاريخ الحضاري ، ويعين على التقييم السليم لأثر حضارة المشرق ومحاولة رسم أحدث صورة عن هذا التأثير من النواحي الفكرية .

(١٦٢) ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الاندلس ص ٦٣ - ٦٤ .

اهم مصادر البحث

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (دار صادر دار بيروت ـ ١٩٦٧)

ابن ابي اصيبعه ، عيون الانباء في طبقات الاطباء (طبعة القاهرة ـ ١٨٨٢)

آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي (ترجمة د . حسين مؤنس ط ١ ـ القاهرة ـ ١٩٥٥)

ابن الدبيثي ، ذيل تاريخ بغداد (التاريخ المذيل به على تاريخ ابن السمعاني)

د . دي لاس اوليري ، انتقال علوم الاغريق الى العرب (ترجمة متى بيثون ويحيى الثعالبي ط ١ ، بغداد ـ ١٩٥٨)

الذهبي ، دول الاسلام (مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد ـ الدكن ١٣٦٤ هـ

الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر رجال الاندلس (تحقيق محمد تاويت الطنجي القاهرة ١٩٥١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (المنسوب لابن الفوطي ، طبع بعناية د . مصطفى جواد)

ابن حيان القرطبي ، المقتبس من ابناء اهل الاندلس (تحقيق د . محمود علي مكي ـ دار الكتاب العربي بيروت)

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (منشورات مؤسسة الاعلى للمطبوعات بيروت ١٩٧١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ ط ١ القاهرة ١٣٦٧ هـ)

ابن حزم الاندلسي ، جمهرة انساب العرب (تحقيق عبد السلام محمد هارون ز مصر ١٩٦٢)

السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة ـ ١٣٥٤ هـ)

ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب (تحقيق د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (ط ١ عيسى البابي الحلبي وشركاه)

السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (تحقيق محمود محمد الطناحي القاهرة ـ ١٩٧٠)

ابن الساعاتي ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ج ـ ٩ (تصحيح وتعليق د . مصطفى جواد ـ بغداد ـ ١٩٣٤)

كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ ١٩٧٠) ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الاندلس (ترجمة ذوقان قرقوط ـ بيروت)

صاعد الاندلسي ، طبقات الامم (مطبعة السعادة ـ القاهرة)

الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس (الطبعة الاوربية مجريط ـ ١٨٨٤)

ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم في الاندلس (القاهرة ـ ١٩٥٤)

ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب (تحقيق د . مصطفى جواد)

فرانز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة د . صالح العلي ـ بغداد ـ ١٩٦٣)

د . عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه (دار المعارف بمصر ، ط ٦ ـ ١٩٧٥)

ابن عبد ربه ، كتاب العقد الفريد (تحقيق احمد امين مع آخرين ط ٣ ز القاهرة ـ ١٩٦٥)

الغساني ، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك (تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ـ ١٩٧٠)

محمد عبد الله عنان ـ الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية مصر ـ ١٩٥٨)

المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٤٩)

رضا عبد الجليل الطيار ، الدراسات اللغوية في الاندلس (العراق ١٩٨٠)

ياقوت ، معجم البلدان (دار صار ـ بيروت ١٩٥٧)

صدر حديثاً

ديكنز والعالم الخفي
حكايات الجان، الفنتازيا وصناعة الرواية

تأليف: هاري ستون

سمير البربري

يتربع تشارلز ديكنز ، وبحق ، على عرش الرواية الانجليزية ، وليس أدل على عظمته من شهرته على المستويين المحلي والعالمي ، وتمكنه في حياته من أن يجذب بفنه الروائي اهتمام الشعب البريطاني بمختلف طوائفه بدءا بالملكة فكتوريا ، التي كانت شغوفة بقراءة رواياته ، وحتى العوام . بيد ان ديكنز لم ينعم بهذه الحظوة من قبل جمهور القراء طويلا . فبعد وفاته عام ١٨٧٠ بدأ يفقد مكانته بالتدريج ، ومن بين الأسباب التي أدت الى ذلك ما قاله هنري جورج لويس (عشيق الروائية الشهيرة جورج اليوت وأحد جهابذة النقد الادبي في العصر الفكتوري) من أنه كان قد زار ديكنز ولم يجد على ارفف مكتبته كتبا لكبار الفلاسفة[1] ، وربما كان هدفه إعلاء شأن عشيقته على حساب ديكنز . وقد تضمن هذا التحول في النظرة لديكنز الادعاء انه كاتب ميلودرامي كاريكاتوري تتسم رواياته بالطرافة والاضحاك والتهريج ، وأن قيمتها الترفيهية تعلو على أية قيمة أخرى ، وانه تنقصه النظرة الجادة والعمق الفلسفي والاتقان الفني . وظل هذا المفهوم عن ديكنز سائدا حتى نهاية الثلث الأول من القرن العشرين ، وكان لهذا آثاره على استهانة كبار الروائيين في هذه الفترة من امثال فرجينيا وولف

(١) انظر G. H. Lewis, "Dickens in Relation to Criticism", Fortnightly Review, xvii (Feb. 1872), 141—154.

* Harry Stone, Dickens and the Invisible World Fairy Tales, Fantasy, and Novel — Making; PP: xii — 370. London, Macmillan, 1979 £12. 00.

Virginia Woolf و . إي . م . فورستر E.M. Forster بديكنز وحال ذلك بينهم وبين فهم طبيعة فنه فهما صحيحا . ولم يكن ينظر في رواياته الى المعاني المستترة والرموز واللبس وازدواج الدلالة واللعب بالالفاظ والتكرار ذي المغزى وتيار الوعي ومخابىء العقل الكامن والمجانسة بين المتناقضات التي غالبا ما يبحث عنها القارىء في روايات جيمز جويس[٢] James Joyee مثلا . وفي الحقيقة تتوفر كل هذه العناصر في روايات ديكنز ولفهمه يجب استيعابها كاملا . وتعد الفصول الافتتاحية في **ديفيد كوبرفيلد** وما بعدها من روايات لديكنز أقرب من التكنيك لقصيدة « الأرض الخراب » The Waste Land لاليوت ولرواية عولس Ulysses لجويس عن رواية إما Emma لجين أوستن مثلا . .

ولم يستعد ديكنز مكانته ولم تتغير هذه الصورة بأحكامها النقدية الجائرة الا بالجهود النقدية لناقدين شهيرين : إدموند ويلسون Edmund Wilson في امريكا وجورج اورويل George Orwell (الروائي المعروف) في انجلترا [٣] عندما أعادا تقييم فنه الروائي ، وأكدا جديته والجانب المأساوي في رواياته ، وكشفا عن حسه الاجتماعي والنفسي الصادق . ثم توالت الدراسات التي اخذت تكشف تباعا عن مدى ثراء فنه[٤] ، ولست هنا بسبيل الخوض في هذا الموضوع وربما فعلت ذلك مستقبلا . والحقيقة ان هناك جانبين لديكنز : الهزلي والجاد ، شطحان الخيال والواقعي ، وتكمن مقدرته الفنية في توظيف الفنتازيا لتعميق الواقعية ، وكيف ان ذلك يؤدي الى فهم اعمق وأوسع للحياة من مجرد الواقعية البسيطة ، فلم تكن الفنتازيا مجرد زينة عقيمة بلا معنى ولكن شكلت رؤيته للمجتمع التي أراد أن ينقلها للقارىء .

وفي الكتاب الذي نعرض له يتناول المؤلف هذا الجانب من ديكنز ويبحث كيف وجدت حكايات الجان والفولكور والأحلام والخرافات والخوارق وغيرها من عناصر العالم الخفي طريقها الى خيال ديكنز ، وكيف أنها شكلت فنه

(٢) في بحث نشر حديثا للناقد Mark Spilka عن أوجه الشبه بين شخصية Leopold Bloom في رواية جويس Ulysses وشخصية Pickwick في رواية ديكنز The Pickwick Papers (Novel, xii, 1 (Fall, 1979), 121—146) يورد المؤلف ملاحظة مفادها أن جويس قد اعترف في احدى مقالاته بأن لديكنز أثر كبير في اللغة الانجليزية لايتعداه في ذلك سوى شكسبير .

(٣) انظر : Edmund Wilson, "Dickens : the two Scrooges", (1939), collected in The Wound and the bow (Mifflin and Allen, 1941); George Orwell, "Charles Dickens" (1939), available in Critical Essays (Secker and W'arburg, 1954) and elsewhere.

(٤) من اعلام الرواية الانجليزية اللذين لاقوا نفس الحظ تقريبا جورج اليوت George Eliot (١٨١٩ ـ ١٨٨٠) ففي الفترة مابين بداية القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت قد فقدت المكانة التي احتلتها في حياتها وقد أعاد لها مكانتها ف .ر . ليفيز F. R. Leavis في كتابه التراث العظيم The Great Tradition (١٤٩٥ ـ ٤٦) حيث عدها واحدة من بين القلائل اللذين صنعوا تراث الرواية الانجليزية .

الروائي ، ومدى ارتباطها الوثيق بمعانيه الأساسية وواقعيته ، فديكنز كالساحر يخفي ليكشف . ويعد هذا أول كتاب يصدر عن الموضوع ، فرغم انه لم يغب عن أنظار النقاد السابقين من أمثال فورستر ، أول مؤرخ لحياة ديكنز ، عنصر الفنتازيا في الروايات الا انه لم يعط الدراسة الوافية ، وبقيت المعالجات السابقة لهذا الجانب بلا عمق أو شمول(٥) .

وفي سبيل معالجته للموضوع يغطي المؤلف الخلفية التاريخية والمضامين الثقافية ومؤثرات الصبا وكيف تطور استخدام ديكنز للفنتازيا . وكان من الطبيعي ان يعرج على بعض النقاط ذات الصلة بالموضوع ومنها القصص القوطي وأدب الاطفال ومسرح العرائس وغيرها من الفنون الشعبية . وقد تطرق المؤلف الى جميع روايات ديكنز ، وأخذ تسعا منها وحلل عنصر الفنتازيا منها بشيء من التفصيل : مذكرات بيكويك The Pickwick Papers، اوليفر تويست Oliver Twist ، نيكلاس نيكلبي Nicholas Nickleby محل العاديات الاثرية The Old Curiosity Shop بارنابي ردج Barnaby Rudge مارتن تشزلويت Martin Chuzzlewit وكتب عيد الميلاد Christmas Books.

ويرى المؤلف ان ديكنز لم يبلغ درجة عالية من الاتقان الفني في استخدامه لعنصر الحكايات الا في دومبي وولده Dombey and Son وبلغ القمة الفنية في ديفيد كوبرفيلد David Copperfield . وقد خص لكل رواية منها فصلا قائما بذاته ، كما أفرد الفصلين الآخرين لرواية آمال كبار Great Expectations مركزا على مهارة ديكنز في مزج الحقيقة بالخيال ، وكيف انه يضفي على الاحداث والوقائع اليومية الصبغة الخرافية لحكايات الجان ، وبذلك نجح ديكنز في ان يعطي الرواية الواقعية بعدا روحيا جديدا ، وان يعطي القارىء احساسا بفعل القوى اللامعقولة في مجريات الحياة اليومية . .

في الفصل الأول يمهد المؤلف لموضوعه بعرضه للاهمية البالغة التي كان ديكنز يعلقها على حكايات الجان في تربية النشء وذلك بسرد كيفية تحول الصداقة التي ربطته بجورج كروكشانك George Cruikshank الكاتب والرسام التوضيحي ، الى عداوة بعد ان اعتدى كروكشانك على ما اعتبره ديكنز حرمة حكايات الجان . ويتلخص الامر في ان جورج كروكشانك كان مدمنا للخمر في مقتبل عمره ثم تحول عنها حيث انها كانت السبب في موت والده وخشي ان يلقي هو نفس المصير . وبعد تحوله عنها اصبح داعية متعصبا للامتناع عن

(٥) تناول ستيفن بريكيت روايات عيد الميلاد لديكنز في أحد فصول كتابة الفنتازيا الفكتورية الذي نشر حديثا Stephen Prickett, Victorian Fantasy; PP. xvi + 257. Bloomington, Indiana U. P. 1979.

المسكرات وهاجم الخمر وشرورها في كل منتدى . . وفي احدى زياراته لديكنز جذب الكأس من يد احد الضيوف وحاول الاطاحة بها مما أثار المضيف عليه . ولم تكن الخمر من وجهة نظر ديكنز من اعداء البشرية الحقيقيين وتلك في نظره هي الجهل والفقر والاهمال والقسوة واليأس . وقد فكر كروكشانك في اعادة كتابة بعض تلك الحكايات وتزويدها برسوم توضيحية بقصد التهذيب والارشاد ، وبالفعل نشر إحداها متخذا منها وسيلة للحث عن الامتناع عن المسكرات ببيان ما لها من أثر كبير في احباط الآمال . . وقد اثار هذا غضب ديكنز الجم لما فيه من تلفيق وتناف مع الخيال الابداعي وهو روح تلك الحكايات . وقد رد ديكنز على كروكشانك بمقال تحت عنوان « الاحتيال على حكايات الجان » (١٨٥٣) . . ومما جاء فيه « انه في عصر النفعية يصير الاهتمام بحكايات الجان أمراً ذا أهمية بالغة . . . فأي أمة بدون خيال ، بدون رومانسية لا تستطيع ان تحتفظ بمكان سام تحت الشمس » ونلد ديكنز بكل من تسول له نفسه ان يغير هذه الحكايات بقصد طرح أفكار معينة ، فمن رأيه أن هذه الحكايات يجب ان تتناقلها الأجيال بأمانة ودون عبث . وكان لهذا المقال اثر في ازدياد شعور ديكنز باهميتها ، ومن المعروف انه كان ينادي دائما بنصيب أكبر من الخيال لا الحقائق للاطفال . ويصلح هذا النداء ان يكون عبارة استهلالية لرواية اوقات عصيبة Hard Times التي بدأ ديكنز كتابتها بعد أشهر قلائل من كتابته المقال . وفي الرواية قرأت سيسي جوب Sissy Jupe الكثير من تلك الحكايات : عن القزم والاحدب والجنيات ، مما أصاب غضب السيد جراد جرايند Grad-grind المواعظي .

وظل ديكنز طوال حياته يؤكد على الفائدة الجمة التي تعود على الطفل من قراءة تلك الحكايات وذلك في رسائله ومقالاته وأحاديثه ، وكان لها فضل كبير في إخصاب خياله وهو ف مرحلة الطفولة . وكان يتذكر بمرارة كتب الحساب والهجاء وقواعد اللغة التي كانت تبعث في نفسه الملل وهو طفل ، وقد ضمَّن روايته آمال كبار (الفصل ٢٢) عن مكنون الاسم فيليب وصديقنا المشترك (جزء ٢ فصل ١) Our Mutual Friend عن بغضه للصغيرة مارجري ، هذه المعاني . .

ويتناول الفصل الثاني الذي وضع له المؤلف عنوان « إرث حكايات الجان » الاتجاهات السائدة نحو تلك الحكايات في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، وما اعترى ادب الاطفال من تطور في هذه الحقبة . يستهل المؤلف الفصل بالقول أنه في سنة ١٨١٢ عام ميلاد ديكنز كان ادب الاطفال في حالة يرثى لها ، اذ كان يتكون اساسا من الحكايات التي ترمي الى ابراز المغازي الخلقية وكذلك الأناشيد التعليمية . أما الحكايات الحقيقية فقد ضرب بها عرض الحائط . ويعزى هذا للعداء الذي نصبه المتطهرون للأدب الماجن ، مما يفسر ندرة

الحكـايات في القـرن السابـع عشر . وبحلول القرن الثامن عشر خف تأثير الحركة التطهيرية ولكن حل محلها اتجاه يحمل نفس العداء لتلك الحكايات ألا وهو الحركة العقلانية التي حكمت عـلى تلك القصص العجيبة بـانها ضـرب من النفـايـات . ويقـال ان اللورد تشستـر فيلد Chesterfield حـذر ابنـه بـالتبني وابنـه بـالمعمـوديـة ان يتجنبا حكـايـات الجـان والرومانسيات وقصص العمالقة والسحرة وكل ما هو خرافي . ويمثل تحذير اللورد الاتجاه السائد في القرن الثامن عشر تجاه الحكايات ، وربما كان هذا هو السبب في هجوم ديكنز على اللورد ممثلا في شخصيـة سيرجـون تشستـر Sir John Chester الشـريـر في روايتـه بـارنـابي ردج Barnaby Rudge الذي ربى طفله بالتبني هيو Hugh كما لو كان حيوانا . ويكاد ديكنز يقول من رسمه لتلك الشخصية ان هذا هو حال من لا خيال له . واعتبر العقلانيون ان الادب المنـاسب لـلاطفـال هـو ذلـك الـذي يعلمهم التصـرف بـاسلوب سليم ، وكيفيـة ضـبط العـواطف وتجنب الاندفـاع والتهـور . وعليـه رفضوا كل ما هو غير عقلاني وخيالي متجاهلين بذلك قدرات الاطفال وحياتهم العاطفية . ومن أشهر المؤلفات في هذا الصدد كتاب سانفورد ومرتون (١٧٨٣) لتوماس داي Sandford and Merton by Thomas Day والذي اعتبره ديكنز رائدا للخيـال ، حيث ان كل حادثة من حياة الشخصيات استغلها المؤلف لبث الوعظ والارشاد . وفي سلسلة تلك الكتب القصصية المواعظية يذكر المؤلف طريق الحاج (١٦٧٨) The Pilgrim's Progress by Bunyan وهو اساسا لغير الاطفال ، وكتاب لـلاولاد والبنات (١٦٨٦) A Book For Boys and Girls لنفس المؤلف . وآخـر لجيمس جينـواي James Janeway عن مصير الاطفال الاشقيـاء . وتوالت الكتب من هذا النوع في الصدور في القرنين التاليين ومنها كتب مسز ترمر Mrs. Trimmer الشهيرة (فى القـرن الثامن عشـر) التى نـاصبت فيهـا العـداء للفنتازيـا ورائعة مسـز شروود Mrs. Sherwood (في القرن التاسع عشر) تاريخ عائلة فير تشايلد The History Of the Fairchild Family, being a Collection of Stories Calculated to Show the Importance and Effects of a Religious Education والتي لاقت رواجا على امتداد القرن لما فيها من تربية وتحذير للصغار . ولكل من بيب Pip في آمـال كبـار (الفصـل ١٣) وآرثـر كلينـام Arthur Clennam في الصغيـرة دوريت Little Dorrit (الفصل ٣) تجارب مع مثل هذه الكتب في طفوليتها . ولم تكن كل الكتب بهذه النوعية ، فكان قد صدر لاسحق واطس Isaac Watts في اوائل القرن الثـامن عشر مجموعة من الاشعار تعليمية في جوهرها ولكن باسلوب ملطف ، وكان هذا بمثابة بداية لسلسلة

من كتب الاطفال قام بنشرها جون نيوبري John Newbery وآخرون ، جمعت بين الاسلوب التعليمي من ناحية والتسلية والمتعة من ناحية اخرى . ولم تحل هذه المجموعة محل الكتب التحذيرية السابقة التي بقيت الدعامة الرئيسية لأدب الاطفال ، ولكن وجدت طريقها لمكتبات بعض الأسر . وبجانب تلك ، كان الباعة الجائلون يوزعون الكتيبات الشعبية والنشرات بأسعار زهيدة ، وكانت تخاطب اطفال الريف الذين لم يكن لهم حظ التعليم على ايدي معلمين خصوصيين . وكان من بين ما تضمنته قصص الانجيل والمغامرات والجريمة وكتب التنكيت والقصص العاطفية وبعضا من حكايات الجان والرومانسيات والأناشيد وغيرها .

وكانت فرنسا قد سبقت انجلترا في العودة للاهتمام بحكايات الجان واتخذ هذا الاهتمام شكل تجميعها واعادة قصها . ومن الرواد في هذا المجال شارل بيرو Charles Perrault ومن بين ما جمعه حكاية الجمال الناعس Sleeping Beauty وسندريلا Cin-derella وذو اللحية الزرقاء (قاتل زوجاته) Bluebeard ولم ينس بيرو انه يعطي عنوان المختارات والتي صدرت في سنة ١٦٩٧ صبغة اخلاقية . وترجمت تلك المجموعة للانجليزية عام ١٧٢٩ ، وكانت قد سبقتها ترجمة لمجموعة اخرى لمدام دولوني Madame d'Aulony عام ١٦٩٩ . وسرعان ما ظهرت تلك الحكايات كل على حدة في طبعات رخيصة ووجدت طريقها لكل قرية ولكنها كانت ماتزال بعيدة عن ادب الاطفال المحترم . وفي صبا ديكنز كانت الحكايات الثلاث : **الجمال الناعس وسندريلا وذو اللحية الزرقاء** وقد اصبحت انجليزية تماما مثل **جاك قاتل العملاق** Jack and the Giant Killer **وتوم ثم** Tom Thumb (**عقلة الاصبع**) **وجاك وساق الفاصوليا** Jack and the Beanstalk .

ومن التطورات المرتبطة بأدب الاطفال أيضا صدور رواية **روبنسون كروسو** (١٧١٩) Robinson Crusoe بمغامراتها وعنصر التشويق فيها ، وسرعان ما ظهرت في شكل متقضب بثمن زهيد مما ساعد على انتشارها . وتلتها **رحلات جلفر** (١٧٢٦) Gulliver's Travels وهي وثيقة الصلة بحكايات الجان بما فيها من اقزام وعمالقة وحيوانات ناطقة وبلاد عجائب . وقد لاقت نفس الرواج . وكان لترجمة **الف ليلة وليلة** The Arabian Nights للفرنسية (١٧٠٤ - ١٧١٧) وهي أول ترجمة للحكايات بلغة غربية ، وتبعتها في نفس الوقت تقريبا ترجمة بالانجليزية عن النص الفرنسي كان لها أكبر الأثر في هذا التطور . وقد ظهرت بعض حكايات الليالي منفردة في طبعات شعبية كحكاية « علي بابا والأربعون حرامي » و« سندباد البحار » و« علاء الدين والمصباح السحري » وسرعان ما أصبحت أكثر الحكايات

المتداولة شعبية . وعن طريق ترجمة الليالي وذيوعها دخلت ادب الاطفال عناصر جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كالفوانيس السحرية والجنيات ذات القوى الخارقة ، وقصور الجان ، والكنوز المهولة وفتيات الرقص و « الحرامية » والبنات المبرقعات والخطط المحكمة والتحول السحري . . . الخ . وربما يكون عالم الليالي قاسيا وحتى وحشيا بعض الشيء ، ولكن فيه تغرد الطيور وبعشق الأحبة ويقع السحر . وكان الفارق واضحا بينها وبين الحكايات التعليمية .
وقد افرزت « الف ليلة وليلة » سحرها على ديكنز كما أفرزته على كثيرين من قبله ومن معاصريه . وعدد المؤلف بعضا من هؤلاء الكتاب : بيرون Byron وساوثي South-ey ومور Mooreوجونسون Johnson وبكفورد Beckford كما بين ان قرابة الليالي لحكايات الجان الغربية ليست بالامر الغريب فتلك الحكايات اصلها شرقي عتيق ، ويعزي انتشار الليالي في الغرب الى تلك الغرابة . بيد انه على الرغم من شعبية الليالي لم تجد حكايات الجان طريقها لمعظم مكتبات الاطفال .
كما كانت هناك محاولات لنشر مختارات من الحكايات ففي سنة ١٨٠٤ نشرت مجموعة بعنوان قصص تابارت الشعبية Tabart's Popular Stories ضمّت بعضا من الليالي . كما اصدر سير ريتشارد فيليبس Richard Philips مجموعة اخرى تحت عنوان حكايات الجان الشعبية Popular Fairy Tales او المكتبة الليلوبوتية Lil-liputian Library كما قام توماس كروكر Thomas Croker بجمع مجموعة اخرى .
وترجمت مجموعة من الحكايات عن الألمانية لاقت نجاحا ووجدت طريقها لمكتبات الاطفال ، ومن بينها قصة سنو وايت Snow White وهانزل وجريتل Hansel and Gretel كما قام فيلكس سمرلي Felix Summerly بنشر مجموعة اخرى ، وكان من اهداف هذه المجموعة تنمية خيال وعواطف وتذوق الاطفال . والمهم هو انه في اربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر كانت الحكايات قد رسخت نفسها في وجه التيار المعارض ، وبذلك بدأت تتحول النظرة اليها وتوالى في الاربعينات والخمسينات ظهور قصص الاطفال ومن بينها كتب عيد الميلاد الخمسة لديكنز وترجمة لمجموعة Hans Christian Andersen وملك النهر الذهبي The King of the Gol-den River لرسكن Ruskinوالوردة والخاتم The Rose and the Ring لثاكري Thackeray وبظهور مغامرات اليس في بلاد العجائب Alice,s Adven-tures in Wonderland للويس كارول Lewis Carroll (١٨٦٥) كانت فكرة ربط ادب الاطفال بالناحية التعليمية قد اندثرت تماما . وكان مقياس انتصار الخيال اخيرا هو شعبية قصص اندرسون وكارول . وترتبط رياح التغيير ايضا بالحركة الرومانتيكية التي صاحبها

اهتمام بالفولكلور والخرافة وموضوعات ما وراء الطبيعة وشعبية الليالي العربية والحكاية الشرقية عموما وظهور الادب القوطي ، بما فيه من اشباح وعمالقة وزنزانات وبنات مقهورات واوغاد وسحر . . . الخ . وأكدت الحركة الرومانتيكية على ان الطفل ليس رجلا مصغرا مشحونا بالخطايا والشرور بل سمته البراءة الطاهرة كما تشكله خبراته الاولى ، وهو ليس فاسدا بل ان المجتمع هو الذي يفسده . وهذه الفكرة عبر عنها الشاعر بليك Blake بعبارته « الحمل الصغير » وايضا وردزورث Word-sworth « بأفضل الفلاسفة » . ويمثل اوليفر تويست اليتيم مبدأ « الخير الذي يصمد في وجه الظروف القاسية » وأن ما يحتاجه الطفل هو الخيال والحرية والمتعة وليس الخوف والحقائق والقيود . . بيد ان الافكار الجديدة هذه كانت في نظر البعض تقدمية الى حد كبير .

وفي الفصل الثالث يتطرق المؤلف لموضوع ما للخرافة من اثر في اذكاء خيال ديكنز في صغره ، ويبين لنا ان ديكنز تعرف على عالم الحكايات حتى قبل ان يتعلم القراءة بواسطة مربيته ماري ويلر Mary Weller وجدته لابيه وكانتا مشهورتين بقصهن الحكايات الممتعة . وتكرر سماع ديكنز لهذه الحكايات مرات ومرات فكونت جزءا اساسيا من حياته الباكرة . . وقد جاءت ماري لتعمل مع الاسرة عندما كان في الخامسة ، وبقيت معها حتى بلغ الحادية عشرة . ورغم انها كانت في الثانية عشرة من عمرها عندما بدأت العمل الا انه عهد لها بملاحظة الاطفال ، ويبدو انها كانت ناجحة في عملها ، فكان غرامها بالحكايات المروعة لا حد له ، وكان ديكنز لها صاغيا طبعا يرتعد من هول الحكايات ولكن يجرفه الشوق لسماع المزيد . . ومن بين القصص التي كانت تحكيها له « الكابتن القاتل » Captain Murderer و « تشيبس والشيطان » Chips and the Devil وهي تعج بالرعب والخوارق والاثارة ويوضح لنا ديكنز انه سمع كل هذه القصص قبل ان يبلغ السادسة من العمر وقد هزت أوتار طبيعته فزادت من حساسيته . وشكل عالم الحكايات الغريب الذي انبهر به جزءا هاما من نظرته في الحياة . ومن الملاحظ انه في الروايات وخاصة قصص عيد الميلاد اشارات واشارات لعديد من الحكايات ، كما ان الكثير من الاحداث في الروايات تعد امتدادا لمحتوى تلك الحكايات ، ومنها يورد المؤلف : نيل مستر دوريت ثروته في **الصغيرة دوريت** ، ودورمس بتسي كعرابة في **ديفيد كوبرفيلد** ، وتعاويذ نيكلاس السحرية في **نيلاس نيكلبي** ، وتحول سكروج الغريب في **انشودة عيد الميلاد** ، ودور الصغيرة نيل المهدىء في **محل العاديات الاثرية** ، وملجأ فلورنس المسحور في **دومبي وولده** وتنكر مستر بوفين الحميد في **صديقنا المشترك** وشيطانية كويلب في **محل العاديات الاثرية** ومهمة القتل الهلوسية لجوناس تشزلويت في **مارتن تشزلويت** وتحولات ديفيد المتسمة بالرعب في ديفيد

كوبرفيلد ، وسحر ريتشارد كارستون المؤذي في **بليك هاوس** ، وظهور ماجويتش من بين القبور في **آمال كبار** ومنزل مسز كليننام المسكون بالاشباح في **الصغيرة دوريت** ، وطريقة اكل مسزفولز الغولية في **بليك هاوس** . لقد استحضر ديكنز رؤى الطفولة في كتابة رواياته ومزجها بواقع الحياة اليومية . كما تعززت الصور التي كونها في مخيلته عن العرابة والحيوانات الناطقة والغول والتحول السحري تلك التي قابلها في حكايات ماري ويلر وجدته بقراءاته الاولى التي منها دخل عالم الحكايات الشعبية الفسيح . وكان من بين ما قرأه حكايات بيرو ومدام دولوني الفرنسية ومختارات من الف ليلة وليلة والحكايات الانجليزية ، وقد شجعه أبواه على قراءة تلك الحكايات ، كما شجعا المربية وجدته على المضي في حكاياتها . وربما كان انشغال أبويه عنه بأمور المعيشة مدعاة ايضا للاستغراق في القراءة التي غدت ونمت ذوقه وخياله . ولم يقتصر الامر على السماع والقراءة فقط بل امتد الى تلاوة اقوال حفظها أمام الاسرة . وقد انعكس ذلك بالطبع في رواياته فنجد مثلا ويلكنز ميكوبر Wilkins Micawber (وهو قريب الشبه بشخصية والد ديكنز) دائم التعليق على الاحداث باستشهادات حفظها . كما امتدت هوايات ديكنز لتشمل التمثيل والغناء الهزلي خاصة . كما يعود حبه للفكاهة والاثارة والمبالغة التي تظهر بجلاء في رواياته لتلك الايام الاولى من حياته .

ففي السابعة من عمره كان يقوم بتمثيل أدوار من مسرحيات قرأها من مختارات جمعتها السيدة انتشبولد Inchbald وزار في هذه السن المبكرة المسرح في لندن وشاهد المهرج جريمولدي Grimaldi وهو يمثل ايمائيا ، كما شاهد على مسرح مدينة روشستر كل شيء من شكسبير الى تمثيليات ايمائية ومسرحيات هزلية . فكان ما شاهده ترجمة حية لما قرأه وحفظه وتخيله . وكانت التمثيليات الايمائية اقرب ما تكون لحكايات الجان فمعظمها مأخوذ عنها وخصوصا تلك التي كانت تقام في اعياد الميلاد . كما انها كانت تجمع كثيرا من عناصر الحكايات للاحداث السحرية ومناظر التحول وتحقيق الآماني . ولم يقتصر الامر على هذه وتلك فقط بل كان للمسرح اللعبة ، وهو مسرح عرائس مصغر من ورق بكامل الشخصيات والمناظر والذي ازدهر لفترة أيام صباه ، اثره البالغ على اخصاب خياله وقد اعطى هذه الفرصة لديكنز ان يمارس التمثيل والاخراج بنفسه وهو في سن العاشرة تقريبا ، وتحول مسرح العرائس هذا فيما بعد الى مسرحه القصصي الرحيب .

وفي القسم الثاني من الفصل يواصل المؤلف سرد المؤثرات على حياة ديكنز الباكرة فيوضح أن ديكنز كان في صغره ضعيف البنية ، رقيق الصحة وحال هذا بينه وبين الاشتراك في انشطة الصبا مما دفعه أكثر للمطالعة فملأ رأسه بالأحلام والرومانسيات . ويحكي انه كان يراقب الاطفال من نافذته وهم يلعبون في فناء

الكنيسة بينما هو يقرأ في سريره فكان بمثابة المشترك معهم والمراقب في نفس الوقت ، المنتمي واللامنتمي ، القريب والبعيد ، وازدواجية الرؤية هذه اساسية لكل فنان وبالتأكيد لديكنز . وتمتد تلك الازدواجية لتجمع المشرق والمظلم جنبا الى جنب فيه ، كما اوضح ذلك كارلايل في رسالة لفورستر في فبراير ١٨٧٤ . وتظهر هذه الازدواجية بجلاء في الروايات ، فاوليفر تويست بطل من اسرة طيبة ولص في نفس الوقت ، كما ان نيل الصغيرة ملاك وطريدة ، وفلورنس دومبي وريثة غنية وابنة غير محبوبة ، وديفيد كوبرفيلد ابن مدلل وطفل متشرد انهكه التجوال ، ومستر دوريت سيد مجتمعات ومن ارباب السجون ، كما ان بيب مهذب مهندم وصبي حداد ، وبرادلي هيدستون معلم محترم وقاتل ماكر ، ومستر جاسبر عضو في جوقة الكنيسة وعدواني يتعاطى الافيون . والمتتبع لطفولة ديكنز لا يجد غريبا ان يظل طوال حياته مهتما بموضوع العزلة والحرمان ، فلتحول امه عنه لرعاية جيش من الاخوة والاخوات ولصحته السقيمة وعزلته سبب رئيسي لانكبابه على القراءة . واهتم ديكنز حتى في صغره بقراءة روائع النثر القصصي التي كان الآباء يعتقدون بعدم صلاحيتها كمادة قراءة للأطفال . ولكن لم يكن الحال كذلك مع ديكنز ، فكان والده يهتم باقتناء تلك الروايات وكان يحتفظ بها في غرفة مجاورة لغرفة ديكنز ، ويعرفنا ديكنز على لسان ديفيد كوبرفيلد بهذه المجموعة من الكتب وعن مدى شغفه بقراءتها (الفصل ٤) وكان من بينها **رحلات جليفر وطريق الحاج وفيليب كوارل** Philip Quarll ومقالات اديسون Addi-son وستيل Steele وجونسون Johnson وجولد سميث Goldsmith . وقد ساهمت تلك المطالعات إسهاما بالغا في تشكيل خيال ديكنز وقدرته على الكتابة . **فمذكرات بيكويك** على سبيل المثال مبنية على مطالعاته في سرفانتس Cervantes وجولد سميث وفيلدنج Fielding وسمولت Smollett ففيها المجموعة المتجولة ونساء باحثات عن الرجال وصورة سجن الدائنين وآثار دونكشوتية وسانكوبانزا Sancho Panza الوفي .

ويبقى للمؤلف ان يذكر **الف ليلة وليلة** وهي تعد بمثابة اهم كتاب قرأه ديكنز قبل بلوغه الثانية عشرة . وهناك اشارات واشارات للحكايات الشرقية أكثر من أي عمل خيالي آخر في رواياته ، وكما هو الحال عن كتبه المفضلة ظل ديكنز يعاود قراءة الليالي العربية طوال حياته . وقد اعترف في رسائلة بانه كان من بين أكثر قرائها شغفا بها ورجوعا اليها باستمرار . ومن الملاحظ ان الليالي قد شكلت جزءا من مطالعات حتى الاطفال المحرومين في رواياته من أمثال سكروج ، كما خصص ديكنز اربع فقرات مطولة في « شجرة عيد الميلاد » للحكايات ذاتها (**قصص عيد الميلاد** ، الجزء الاول) كما ان ستير فورث جعل ديفيد يتبع نمط شهرزاد في قص

حكاياتها بأن يروي جزءا منها كل صباح وآخر كل ليلة (ديفيد كوبرفيلد ، الفصل ٧) . وعندما بدأ ديكنز يعمل في مستودع دهان تلميع الاحذية بعيدا عن كتبه ومسرح عرائسه تحول الى قص القصص لزملائه في العمل . كما انه كان قد تعود ان يشتري بعض المجلات الاسبوعية مثل « البورتفوليو » Portfolio و « سجل الرعب » Terrific Register بعد أن يتقاضى أجره كل سبت . وكانت من بين ما تحتويه موضوعات مثيرة على القتل والاعدام والكوارث والهروب والاحلام والخزعبلات والاشباح التي كان يجد في قراءتها متعة ما بعدها متعة . وفي ختام الفصل يوجز المؤلف ما جاء به بقوله ان ديكنز ولد في عصر يعادي الخيال في ادب الاطفال فزاده دافع المعارضة اعتزازا بقيمة الخيال ، في عصر كان ينظر فيه الى حكايات الجان على انها ضرب من النفاية ، الا انه كانت له جدة ومربية لهما باع طويل في سرد تلك الحكايات . كما ان صحته السقيمة تسببت في عزلته ولكنها في نفس الوقت عوضته بحياة الخيال ، كما ان اهمال والديه في رعايته سبب له ايلاما شديدا ، بيد أن ذلك أعطاه حرية أن يملأ مخيلته بحكايات « الكابتن القاتل » و « جاك قاتل العملاق » و « الحالم الذهبي » و « سجل الرعب » كما ان سرده القصص وغناءه المنزلي وترديده ما حفظه من نصوص وشغفه بمسرح عرائسه كلها جعلته ينشد الاستجابة والقبول من المتفرجين ولكن نفس هذه الخبرات علمته ان يتخيل نفسه في الشخصيات والمواقف وان يسيطر على جمهور النظارة وان يحس بمتعة الخلق ، وتولد لدى ديكنز دافع الكتابة إثر تركه مستودع دهان الاحذية وخضع كل ما كتب لتأثير خياله . وتحمل كل رواية من رواياته دلائل تؤكد مدى شغفه بحكايات الجان .

وفي الفصل الرابع يبدأ ستون في تحليل الروايات من زاوية موضوعه ويرى ان مذكرات بكويك هي أقل الروايات تأثرا بحكايات الجان ، فالتيار العام في الرواية ، بالرغم من اللمسات الكاريكاتورية هو واقعي غير مثير : تغص الرواية بالمناظر الريفية والحافلات بطيئة الحركة ومن الشخصيات بالخدم ورجال القانون والصحفيين والمحتالين . ويتركز هدف ديكنز في الرواية في امتاع وتنوير القارىء وذلك من خلال سلسلة سريعة من المغامرات تعكس الحياة اليومية بتنوعها ومرحها وحوادثها المؤسفة . ولم يتجنب ديكنز طابع الحكايات في روايته عمدا ولكن غمره الواقعي فاكتفى بتصوره . بيد ان عنصر الحكايات لم يغب تماما عن الرواية فبتقدم الاحداث يأخذ مستر بيكويك دور العراب بطيبته وقوته السحرية اكثر فأكثر . فبفضله سافر جنجل Jingle وتروتر Trotterالى جزر الهند الغربية حيث ابتسمت لهما الحياة ، وبفضله ايضا تزوجت إميلي ووردل Emily Wardle سنود جراس Snodgrassكما تزوجت ماري Mary سام ويلر Sam Wel-ler . ومن عناصر الحكايات ايضا التي نلمحها

في الـروايـة القصص العـديـدة المقمحـة في نسيجها . وقد ذهب بعض النقاد الى ان هذه الاقاصيص مأساوية قوطية بينما القصة الرئيسية هزلية ، الا ان هذا الرأي نعوزه الدقة ، فبعض تلك الاقاصيص لا هو بالمأساوي ولا بالقوطي ولكن في نظر المؤلف هناك شيء واحد يجمع الاقاصيص التسع ، وهو انها مرتبـطة ارتباطا وثيقا بحكايات الجان ، فيسودها عنصر الخوارق والارواح الشـريـرة والاشبـاح والـغـرابـة والتحولات . كما يتبع ديكنز في هذه الاقاصيص اسلوب الحكايات فقصـة « كاتب الابـراشية » The Parish Clerk مثلا تبدأ بـ « كان ياما كان » وتنتهي بنهايـة سعيدة للجميـع . ويرى المؤلف ان من اهم تلك القصص قصة الغيلان Goblins والتي كـانـت بمثابـة انموذج لـروايـة انشودة عيد الميلاد A Christmas Carol التي كتبهـا ديكنز بعـد ذلك بسبـع سنـوات ، وغيرها من كتب عيد الميلاد ووجه الشبه كبيربين سكروج في الروايـة وجابـرييل Gabriel في القصة ، فكل منها عكر المزاج يقوم بمغامرة في ليلة عـيـد الميـلاد بـدلا مـن الاشتـراك في الاحتفـالات الخاصـة بتلك المناسبـة ومكـان المغامرة هو المقابر . وكان من جراء حشر ديكنز لتلك القصص في مـذكرات بيكـويـك تبـاين النغمة والموضوع . ومهما يكون الامر فالواقعي والسيريالي اقل امتزاجا في تلك الرواية عنه في اي روايـة اخرى وليس أدل عـلى ذلك من ان ديكنز قد تخلى عن حشر قصص في رواياته بعد بيكـويـك وأن القصص في حـد ذاتهـا داخـل بيكويك أكثر من النصف الاول عنها في النصف الثاني . وفي الحقيقة لا نرى مزجا للواقع بالخيال بصورة مرضية حتى رواية دومبي وولده . وبين دومبي وبيكويك كتب ديكنـز خمس روايات : اوليفـر تـويست (١٨٣٧ ـ ٣٨) ، نيكـلاس نيكلبي (٣٨ ـ ٣٩) محل العاديات الاثرية (٤٠ ـ ٤١) بارنابي ردج (٤١) . ومارتن تشزلويت (٤٣ ـ ٤٤) . وتعيد كل من نيكلاس نيكلبي وبارنابي ردج ومارتن تشزلويت نمط الحكايات المستعمل في بيكويك مع اختلاف في التركيز كما يقحم حكـايتـين في نيكـلي مما يقـطع سلسلة الاحداث الرئيسيـة ولكن يقع ذلـك في بدايـة الـرواية . ويعـد هذا آخـر استخدام لـه لهـذا الأسلوب . وتظهر نكهة حكايات الجان حتى في أسلوب الفصـل الأول الـذي يبـدأ بـالعبـارة المشهـورة « كان يـاما كـان » كما تتسم القصـة الرئيسية في الرواية بطابع الخطابات ، والقصة عتيقة وهي عن كيف أن السيدة نيكلبي الارملة الساذجة تأتي الى مدينة كبيرة تطلب العون من عم أولادها الثرى ولكنها تكتشف بالتدريج أنه شخص في منتهى البشاعة والوحشية دأب على نصب شـراك لهم . وفي الروايـة أيضا صـورة دوثبويز هول Dotheboys Hall وهي بمثابة زنـزانـة يقـطنهـا أولاد صغـار أشـرار يـأكلون الكبريت تحت امرة سكويرز Squeers وحش أعور . وزد على ذلك عصر السحر والميلود راما واستـدرار عواطف القـراء . كما أن شخصيـة

مادلين براي Madeline Bray هي بمثابة الأميرة في الحكايات ، فرغم فقرها فهي في حقيقة الأمر وريثة لممتلكات هائلة حجبها عنها أرثر جرايد Arthur Gride البخيل البشع . وكما هو الحال في حكايات عديدة توافق مادلين على الزواج من هذا المخلوق الكريه اذا ماسدد ديون أبيها ثم تنكشف الأمور على حقيقتها ويتم انقاذ مادلين بطرق أشبه ما تكون بالسحر وتعود لها مملكتها وتتزوج نيكلاس وتعيش في « التبات والنبات » . ومن الواضح أن الصراع بين قوى الخير والشر في الرواية يتسم بطابع الصراع في الحكايات فينال اشرارالظلام الهزيمة على يد خصومهم الخيرين ، وهذا مايعود له ديكنز دوما في رواياته . كما أن انتصار قوى الخير على قوى الشر له طابعه السحري أيضا . وعن بارنابي ردج يذكر ستون أنها تقوم على مفاهيم الحكايات فهي تدور حول جريمة القتل الأزلية ويستخدم ديكنز فيها عنصر الخوارق والأشباح . كما أن شخصية بارنابي في حد ذاتها قائمة على الفنتازيا وينطبق نفس الشيء على والده القاتل ، فهو تائه جوال كابنه يضطهد ويطارد اسرته . كما تقاسي الرواية من نقطة ضعف الروايات السابقة الا وهي عدم امتزاج الخيال بالواقع . ونفس الشيء يصدق على مارتن تشزلويت والتى تتمركز قصتها حول شخصية العراب كما في بيكوويك ونيكلبي وهو وراء النهاية السعيدة للقصة . وهناك وجه شبه بين مارتن العجوز ومس هافيشام في آمال كبار فيحيط بكل منهما مجموعة من الاقارب ينتظرون موتها بفارغ الصبر ، بيد أن عناصر الواقع والخيال تمتزج امتزاجا كاملا في آمال كبار . ومن الواضح أن بعض الشخصيات الأخرى فى تشزلويت مستمدة من حكايات الجان مثل بيكسنيف Pecksniff ونادجت Nadgett تلك الشخصية الشبحية والتي لها أكثر من وجه ، يستطيع أن يغير نفسه في غمضة عين ، كما أن بيلي Bailey كالعفريت يقفز من بين الأموات . أما جوناس Jonas فهو كالغول ويذكرنا بجرايد Gride ورالف نيكلبي Ralph Nicklepy ولسيري جامب Sairey Gamp صفات خارقة عديدة فهي شخصية بشعة تشرف على المواليد والوفيات ولديها مقدرة على الخلق ، فقد ابتدعت شخصية مسز هاريس من بنات خيالها الذي يخدم اهواءها وموتيجيوتج . Montague Tigg شخصية حكاوية أيضا ، هو المخادع الذي يستطيع أن يتنكر وأن يغير شكله الى مالانهاية وهو قريب الشبه بالشيطان . ولايقتصر طابع الحكايات على الشخصيات فقط فالرحلة الى أمريكا تأخذ شكل الحكايات فهي رحلة البحث عن جنة عدن حيث أن مارتن جاء اليها أساسا للبحث عن الثروة والعودة بها الى انجلترا ، ولكن عندما يصلها يكتشف أنها جهنم لافردوس . كما أن الريح التي تبدأ بها الرواية لها طابع السحر في الحكايات ولكنها في نفس الوقت ريح حقيقية . ثم يتطرق ستون الى البناء الخرافي في الرواية

وكيف أنه يشكل جزءاً من عالمها حيث يأخذ الجماد صفات الاحياء فالمداخن تكلم بعضها بعضا كما تحس الاشجار أنها حبيسة وتتلكأ عربات النقل في الحارات الضيقة .. الى غير ذلك . ويعد قتل جوناس لمنتجيو من اللمسات الجيدة ، ولطالما كان ديكنز مولعا بتصوير القتل وتبعاته في رواياته . جوناس شخصية معقدة منقسمة على نفسها تنتابه أفكار مزعجة وقد وفق ديكنز حقا في خلقه لتلك الشخصية بابعادها السحرية ، فحجرته مثلا قبل أن يرتكب جريمته تعكس كمرآة سحرية ما يدور في رأسه (الفصل ٤٦) . وفي طريقه لارتكاب جريمته يبدو الموقف كما لو أن الطبيعة تراقبه ، فالناس يصيبهم الجفول ويرى الأطفال خيالات داكنة في نومهم والكلاب تنبح والفئران تتبعه ، كما أن وقع أقدامه يترك أثرا أحمر اللون مثل قابيل . ويعد وصف الغابة التي ترتكب فيها الجريمة رائعا حقا فهي غابة حقيقية وفي الوقت نفسه تعج برموز الحياة والموت . وبعد القتل تنتاب جوناس الهواجس لاعن الغابة ولكن عن حجرته الخالية التي من المفروض أن يكون نصفه العادي فيها . وبينما نصفه القاتل في طريقه للحجرة يزيد شعوره بالانفصام . وعند سماعه قرعا على باب الحانة التي توقف عندها للشراب يتهيأ له أنه قرع على باب حجرته هو ويرتعد لذلك . وكالطرق على البوابة في مكبث ، فالطرق هنا نذير شؤم وينتاب جوناس الهلع من مجرد التفكير في غرفته الخالية (الفصل ٤٧) . حقالقد برع ديكنز في مزج الواقع والرمزي والنفسي والخارق في تلك الواقعة ، ويساعد العنصر الخرافي في تفهم بشاعة الجريمة ومغزاها الغيبي . ويرى المؤلف أنه برغم كل هذا فعنصر الحكايات ليس سائدا في مارتن تشزلويت .

وتبقى من مجموعة الروايات التي كتبها ديكنز قبل دومبي وولده روايتان الثانية : **اوليفر تويست**والرابعة **محل العاديات الأثرية** • ويسود في كلتيهما عنصر السحر ويمتزج أكثر بالواقع . وترتبط قوى الظلام التي تسيطر على الجزء الأكبر من **اوليفرتويست** بحكايات الجان ويقبع في وسط هذه القوى شخصية فيجن Fagin وهو مستقى كلية من الخرافات والحكايات الشعبية ، فهو صديق الشيطان ويحمل معه جو الشر الذي يسود أساطير العصور الوسطى ومسرحيات عصر النهضة وقصص الأطفال المرعبة . هو الشخص المخيف البخيل قاتل الأبرياء ومفسد الأطفال وينبيء مظهره وبيئته وعتاده عن شيطانية . وفوق كل هذا يضفي عليه ديكنز من فكاهة وحيوية وخصوصيات مايجعله شخصية ديكنزية خالصة . ولفيجن أعوان يتسمون بصفات خارقة فشريكه منكس Monks هو شريرالخرافات بعينه بما له من صفات قوطية وميلودرامية ويقبع منكس في محيط أوليفركجان شرس وكقوة مؤذية . والأسلحة التي يستخدمها هي تماما ما نعهده في الحكايات : شخصيات تنكرية ، نسب مجهول ، وصايا اتلفت ، شهود عيان مخادعون ، خواتم

مسروقة ، تعاويذ سحرية ، والمقدرة على الاختفاء دون ترك أي أثر . (ويتبين لنا في النهاية أنه أخ غير شقيق لاوليفر) ويضطهد أوليفر مستعينا بفيجن ، لأن ميراث أوليفر متوقف على شرط أن لايكون قد أساء لاسمه بعمل غير شريف ، وهذا الشرط في حد ذاته من الصعب تصديقه فهو أقرب للحكايات منه لواقع الوصايا في القرن التاسع عشر . وفيجن ومنكس شر خالص بينما أوليفر حسن خالص . ومن طبيعة الشر ملاحقة الخير والنيل منه ومن ، طبيعة الخير المقاومة والانتصار على الشر ، وكل ذلك هو عالم الحكايات بعينه . ومن قوى الشر في الرواية أيضا سايكس Sikes وهو أقرب للواقع من غيره ، ولكن بعد قتل نانسي Nancy نلحظ أنه قد أحاطه ظلال من السحر . كما أنه تحركه دوافع اجرامية ويصده الخوف تماما كما هو الحال مع جوناس تشزلويت وردج العجوز . ويصاحب هذا الوحش الجهنمي كلب شيطاني أيضا ، ويجمع الاثنين شكلهما الشرير . وثلاثتهم فيجن ومنكس وسايكس هم من قاطني عالم ما تحت الأرض الحالك في الرواية . ومن الملاحظ أن التعامل بين الأفراد عادة مايتم بالليل أو في غرف ظلماء لاتراها شمس النهار ، وبرغم ما للشر من قوة الا أنه يستسلم أمام قوى الخير ، وتسود تلك لمالها من قوة سحرية تفوق قوة البشر .

ومن قوى الخير مستر براون لو Brownlow الثري المحسن وهو عراب الحكاية وولي أمر أوليفر ويتزعم عناصر الخير الاخرى : آل مايلاي Maylies ومسز بدوين Bedwin ولوسبرن Losberne وجرمويج Grimwig وغيرهم ، كما يساعدهم على قهر الشر ! وهو كمستر بيكويك دافعه الاحسان ، وعصاه السحرية هي النقود كالعادة . ومن الواضح أن قوى الخير في الرواية مبالغ فيها وخرافية كقوى الشر تماما . ويبقى ان نتساءل ماالسر في أن أوليفر تويست وهي الرواية الثانية لديكنز بسودها جو الحكايات وان عناصرها الخيالية والواقعية أكثر التحاما عما عليه الحال في الرواية الأولى أو الثالثة أو السادسة ؟ وتكمن الاجابة كما يرى المؤلف في طبيعة الدوافع التي كانت تغذي الرواية فقد ارتبطت بمخاوف وآمال ديكنز الذاتية وكانت تلك المخاوف شديدة وما كان بالامكان تصويرها بغير مبالغة آخذة نمط الحكايات ، ونفس الأمر فيما يتعلق بآماله فقد استدعت حدتها النمط الخرافي للتعبير عنها ولم تقتصر هذه المخاوف والآمال على بعض المشاهد المتفرقة ولكنها ارتبطت بالحركات الرئيسية في الرواية .

ويشترك محل العاديات الأثرية مع اوليفر تويست في غلبة عنصر الخرافة وامتزاجها بالواقع . وكانت فكرة الرواية في البدء في تصور ديكنز بمثابة قصة تقارن بين الاضداد : الشباب والشيخوخة ، الجمال والقبح ، الريف والحضر ، الحياة والموت . وقد أعطى الرواية صبغة المجلة التي كانت ستنشر فيها Master

Humphrey's Clock وهي الصبغة الخرافية . وعندما زيدت لحجمها الحالي لم يغير هذا من روحها فبقيت على ما كانت عليه . وفي قلب الرواية توجد عناصر خرافية عدة : أولها الوحيد البائس الذي يتجول في غابات هذا العالم المخيفة يهاجمه وحوش وعفاريت ونقاس نيل Nell الطفلة الضائعة من هجمات هذه المخلوقات الشرسة . ورغم أنها كأوليفر سلمت من هذا الهجوم الا أنها كسمايك Smike ماتت في النهاية من جراء الصراع . وتشكل المدينة بؤرة الشر في الرواية وذلك من الناحية المعنوية ، أما على مستوى الأفراد فمنبع الشر كله هو القزم القبيح الشكل كويلب Quilp وصفاته الجنية ظاهرة للعيان فرغم انه قزم الا ان رأسه ووجهه يصلحان لجسم عملاق وله انياب بدل الاسنان ، وكله مكر وخديعة ، يأكل البيض بقشره ويبتلع القرديس الضخم برأسه وذيله ، ويجرع الشاي المغلي دفعة واحدة ويعض الشوكة والملعقة حتى تنحنيان ، وتصرفاته شاذة لدرجة أن النساء يرتعدن منه ويساورهن الشك في أنه آدمي (الفصل ٥) وقد دأب كويلب على تعذيب زوجته الجميلة وحماته التي أطلق عليها اسم التنين . ولهذا الشيطان السادي قوى خارقة أخرى فهو يأتي من لامكان ويختفي في لمح البصر وينام وعيناه مفتوحتان ويستطيع أن يتعلق في السقف بارجله ، ودائما تحيط به سحب من الدخان الكثيف ، كما انه يمارس السحر والتعاويذ ويسحرنل Nell بقوته الجنسية ، وبعد موت زوجته يخبرها أنها ستكون زوجته الثانية . ويرافق كويلب طفل برمائي يقف دائما على رأسه ويجثم على النار كما لو كان علجوما (الفصل ٤ ، ٦٧) ولكويلب طاقة تسود الرواية وتعطيها الحياة . وبحيويته الشيطانية يقهر ويستعبد كل من يقترب منه ولايشفي غليله غير الموت ، وكحياته فموته له طابع السحر ويسبقه طرق على الباب ، وتدفن جثته كما لو كان وحشا أو مصاص دماء . وعلى النقيض من كويلب هناك نل أميرة حكايات الجان . في الفصل الأول من الرواية نكتشف أنها تنام في سرير صغير يمكن أن تنام فيه جنية . وفي الفصل نفسه يعرفنا ديكنز بأنها صغيرة وروحانية وضعيفة البنية تشبه الجنية . وحتى بدون هذه النعوت ندرك على الفور أنها من عالم الجن فجمالها تام وحسنها كامل وحكمتها بالغة وهي تسحر الجميع الا الاشرار منهم ، وتقود جدها العجوز بيدها فهي مرشدته ومستشارته . أنها تعطينا صورة الشاب الحكيم يوجه الشيخوخة الحمقاء . ولايقتصر عنصر الحكايات في الرواية على الشخصيات والافعال فقط بل يتعداها الى الأماكن ، فبعضها لها صفات أماكن الحكايات وينطبق هذا على كوخ آل جار لاندز Gar-lands وبيت دك Dick والمركيزة The. Marchioness تربط دك بالمركيزة علاقة أشبه بتلك التي في سندريلا والجميلة والوحش . وتزخر قصتها باشارات عديدة لحكايات الجان ، فمثلا عندما يفيق دك من الهذيان يقول « أنها ليلة

من ليالي الف ليلة وليلة . . . أنني في دمشق أو القاهرة الكبرى . . . المركيزة هي جنية (الفصل ٤٦) .

ويتلخص الفصل في أن ديكنز في رواياته الست الأولى يستعمل كل وسيلة من وسائل حكايات الجان التي استعملها في رواياته الأخيرة ولكن ما ينقص الروايات الأولى هو امتزاج الخيال بالواقع . وقد شهد ديكنز بذلك عندما تمنى لو كانت مذكرات بيكويك أشد تماسكا . وصحيح القول أنه حتى دومبي وولده لم يكتب ديكنز رواية مترابطة تماما .

وفي الفصل الخامس يتناول المؤلف روايات عيد الميلاد وهى الروايات الخمس التى كتبها ديكنز في الفترة بين مارتن تشز لويت ودومبى وولده وهى : انشودة عيد الميلاد (١٨٤٣) A Chrismas Carol وموسيقى الاجراس The Chimes (١٨٤٤)، والجُدْ جُدْ على المدفأة (١٨٤٥) The Cricket on the Hearth ومعركة الحياة (١٨٤٦) The Battle of life، والرجل الممسوس The Haunted man (١٨٤٨) ، وتستمد هذه الروايات مادتها من حكايات الجان بموضوعاتها واحداثها وطرائقها . وقد شهد ديكنز بذلك حينها قال انه في كتابتها كان ياخذ حكايات الاطفال المعهودة ويعطيها شكلا أرقى . وقد اتبع ديكنز في هذه الروايات كلها عدا معركة الحياة نموذج حكاية جابرييل جراب Gabriel Grub في مذكرات بيكويك . وهذا النموذج يتلخص في ان شخصية رئيسية تكون على خطأ يضطر نتيجة لاحداث غير عادية ان يعيد تقييم نفسه بعد ان يكتشف اخطائه . وتعج هذه الروايات بالاحداث السحرية كما ان شخصياتها خارقة . ولقد بدأ ديكنز يرى من خلال هذه الروايات وما تحتويه من عناصر خرافية بجلاء اكثر كيف يستخدم الفنتازيا في خدمة بناء الشخصيات والمناظر والاجواء والاحداث ، وساعدته في ان يمزج الواقع بالخيال بطريقة لم يعهدها من قبل . وعن طريق هذا الالتحام يعكس ديكنز مدى تعقد الحياة واعاجيبها . تبدأ انشودة عيد الميلاد بالبداية التقليدية « كان يا ما كان » ويبنى ديكنز في هذه الرواية حوارا يعج بالتجسيد والتشخيص وعزو الصفات البشرية الى غير العاقل . فتتحول المبانى والبوابات واعمدة السرائر ومقارع الابواب الى اشياء ذات احساس ، ويربط السحر الاشياء بعضها ببغض ، فشقة سكروج Scrooge مثلا في مبنى منعزل يخبرنا الراوى انه لأبُدَّ وان يكون قد لعب الغميضة مع بيوت اخرى في شبابه وخرج عن الطريق وتاه وبقى هناك منذ ذلك الحين (الفصل الاول) . وهذا المكان يناسب رجلا ضائعا مقطوعا عن العالم ، كما ان له جوه الخاص وروحه الحارسة . ويخيم الضباب والصقيع على بوابة المبنى السوداء كما لو كان الطقس في حالة مواساة . انه عالم ملىء بالسحر والاشباح . وتعد انشودة عيد الميلاد

افضل رواية في المجموعة ولكن ليس في كل الامور . فثاني الروايات مثلا ، موسيقى الاجراس ، اكثر واقعية واكثر خيالا في نفس الوقت . وكما هو الحال في مارتن تشزلويت تبدأ القصة بتشخيص للريح : ريح شتوية تولول وتنوح وهى تمر ليلا عبر الكنيسة في لندن وتتنهد الريح في المماشي وعند المذبح وفي الفناء وفي برج الكنيسة . ويعتبر تشخيص الريح هذا لمسة فنية رائعة . وتعد معركة الحياة اقل روايات المجموعة نجاحاربما لان ديكنز طرح فيها جانبا عنصر الخرافة . اما في الرجل الممسوس فيسود عنصر الحكايات ، وظهرت الصورة التوضيحية التى اقترحها ووافق عليها ديكنز في مواجهة صفحة العنوان على شكل شبح الانا الثانية للشخصية الرئيسية ردلو Redlaw يهمس في اذنه بينما الشياطين والغيلان تتبارى مع الملائكة . وعلى صفحة العنوان ظهرت صورة تجمع ملاكا مشوقا وشبحا اسودا ذا غباء يقود طفلا في اتجاهات متعددة . وقد استعان ديكنز في كتابة الرواية بحكايات الطفولة المفضلة لديه : الف ليلة وليلة ، حكايات الجان Tales of the Genni جاك قاتل العملاق Jack the Giant Killer، الأطفال في الغابة The Chidren in the Wood وكلها وجدت طريقها الى الرواية . وردلو نفسه له شكل الساحر او العراف كما ان ميلى Milly مثل نل Nell في محل العاديات الاثرية هى اميرة الجان ، كلها حسن في حسن ، وتكون وسيلة النجاة السحرية لردلو .

وخلاصة القول ان ديكنز حاول بعد انشودة عيد الميلاد أن يجمع بين عناصر الحكايات ومظاهر واحداث الحياة العادية من اجراس وصراصير ليل وغلايات شاى . كما انه خفف بعض الشىء من استعماله لتلك العناصر . ففى موسيقى الاجراس يدخل هذا العنصر الروائى في وسطها فقط وفي الجُدْجُد في البداية والوسط فقط ، كما أنه زاد من العنصر الواقعى ففى معركة الحياة استغنى كلية عن الخوارق مما كان له اثره في تضييق المجال امامه وعدم تمكنه من بسط بعض النقاط . أما في الرجل الممسوس فقد عاد ثانية لصيغة انشودة عيد الميلاد ولكنه وجه اهتمامه نحو وسائل اكثر تهذيبا من الاشباح والعفاريت واكثر توافقا مع المضمون الواقعي . ومما اضافته كتب عيد الميلاد لفن ديكنز الفنتازى انه تعلم كيف يجعل حالة نفسية معينة اوجوا ما ينفذ في القصةكلها ، كما انه ربط استعماله للرموز ببنية الرواية ، كما عمقت تحليلاته النفسية وشجعته ان يعكس الحالات الذهنية في الجو المحيط وان يوضع الانقسامات الداخلية من خلال الانا او النفس الثانية ، وان يصور الصراعات النفسية عن طريق الرمز . وقد عززت بعض هذه الاساليب ما كان يتبعه من قبل ، كما دفعه البعض الاخر نحو اتجاهات جديدة . ويستطيع القارىء ان يرى انعاكاسات

تجارب روايات عيد الميلاد في الروايات التي تلتها : فالاجراس التى تلاحق ترولى Trolly فاقد الامل في الاجراس تماثل الاجراس والعجلات واقدام الخيل التي تلاحق كاركر Carker الهارب في دومبي وولده ، وأيضا الطقس الموضوعى الذى يضبط ويربط انشودة عيد الميلاد يماثل الطقس الموضوعى الذى يشكل ويوحد بليك هاوس ، كما ان تحليل طفولة سكروج واثرها في رجولته في انشودة عيد الميلاد يتحول الى تحليل ادق لطفولة كلنام Clen-nam واثارها في الصغيرة دوريت ، كما ان اللوازم الدالة Ieitmotifs والتكرار والرقيات في الرجل الممسوس تستبق تلك في قصة مدينتين A Tale of Two Cities ووحدة الجو والروح والموضوع في انشودة عيد الميلاد ، تؤذن بوحدة اقوى فى آمال كبار ، كما ان الثنائى الذى يموضع الانفصام في ردلو في الرجل الممسوس يتطور الى النفسين المستقلتين اللتين تعكسان انفصام شخصيات اخرى مثل ويميك Wem-mick في آمال كبار وجاسبر Jasperفي ادوين درود Edwin Drood.

ويفرد المؤلف الفصل السادس لرواية دومبي وولده فيبين أنها ككتب عيد الميلاد تمزج الحقائق الاجتماعية والنفسية والرمزية والخرافية ، وان هذه العناصر يلعب كل منها على حدة دورا اكثر بروزا، وفي نفس الوقت يلتحم اكثر مع الاطار العام . ويستمر العنصر السحرى كما في الروايات السابقة في ضبط بنية الرواية كما يساهم ايضا بدرجة اكبر في نسيج القصة صفحة بصفحة ، ولأول مرة في رواية ديكنزية تصبح حكايات الجان قوة سائدة ومنتظمة ، اذ غدا السحر وسيلة رئيسية لديكنز لتكامل وتعميق المعنى . وتتركز القصة حول العلاقة التي تربط مستر دومبى ببنته فلورانس التي لايميل اليها ، ويتصف دومبي رجل الاعمال بالبرود والكبرياء والانانية الا انه ليس سيئا بالدرجة الاولى ، ولكن الثروة والسلطة تكمنان وراء عجرفته . وكل همه ان يرى شركة الشحن والتجارة في يد وريث ذكر ، وباعتقاده انه بماله يمكنه شراء اى شيء وربما حتى وريث . وحدث بعد ستة اعوام من ميلاد فلورانس ان توفت زوجته وهى تضع مولودا ذكرا ولسرعان ماتركزت كل افكاره حول الوريث . وتبدأ الرواية بمولد بول Paul ووفاة امه وكل احدثها تدور حول خطيئة دومبى في رفضه لحب ابنته التي وهبته اياه مختارة ثم هزيمته وتحطيم فلسفته المادية . كان عليه ان يدرك أن ما حاولت فلورانس اعطاءه لاتقاس قيمته باية اموال ، وكان عليه ايضا ان يعرف ان الحب لايشترى وانه لكى يحبك الاخرون عليك ان تحبهم وعليك ان تكون في وضع يؤهلهم لحبك . وقد عالجت نفس الموضوع بعدئذ الروائية جورج اليوت في روايتها سيلاس مارنر Silas Marner ود . هـ . لورانس في قصته « فائز الحصان الهزاز » —The Rocking. Horse Winner ويلاحظ القارىء في بداية الرواية ان دومبى يهمل ابنته فقط ولكن

بالتدريج يأخذ في حسدها والحقد عليها بسبب الحب الذى تبعثه في الآخرين ، ومن ثم يبغضها كشاهد على فشله في ان يدفع الآخرين لحبه . ويعتبر الأب ضحية النفس البارْدة والمادية المطلقة التي تتجسد ايضا في كاركر مدير اعماله ولذا فهو يستحق منا الشفقة لا الكراهية .

ويمتزج موضوع العمل التجاري بعنصر السحر والجان فلدومبي تأثير سحري معد اينما ذهب على غيره من الشخصيات وفي بداية الرواية يستأجر بولي تودل Polly Toodle لارضاع بول (ولديكنز هنا هدف في جعل امرأة من اسرة متواضعة ترضع الوريث المرتقب الا وهو اذابة الفروق بين آل دومبي وآل تودل) ولكن يؤكد لها ان لبنها ما هو الا سلعة تشتري ويحذرها من ان تكون اى علاقة مع مولوده ، كما يعطيها اسما جديدا يقرب من الاسماء التجارية « ريتشارد » بدلا من تودل « وبرغم ذلك فدومبي عاجز عن ان يخلص نفسه من الوساوس انطلاقا من تفكيره الطبقي ودافع التملك ، فباعتقاده ان لبن بولى سيفسد وليده وأنها ربما استبدلته بابنها ، وهذا ما سيحدث ولو بصفة مؤقتة . تأخذ بولى الوليد من حضانته الفخمة الى حيث يسكن آل تودل في ستاجز جاردنز Stagg's Gardens وهو حي شعبي (مهدد بمجيء الخط الحديدي اليه ذلك الذي سيحيله الى جحيم) وياخذ ابنها الحقيقي مكان بول على صدرها ، واستبدال الاطفال في حد ذاته عنصر من عناصر الحكايات ، فالأمير الوريث حل محله المدعي الفقير . ويجدر الاشارة الى ان دومبي اول رواية تحول السكة الحديدية الى موضوع فني ، فلها وظيفة رمزية اذ تمثل التصنيع كما انها ذات قوة سحرية خارقة غيرت وجه الارض . كما وانها تحمل معاني متناقضة ، فبينما تهدد ستاجز جاردنز بالدمار الا ان تودل يعيش هو واسرته منها فهو يعمل وقادا بها (يترقى الى مهندس) . والقطار نفسه خادم مطيع يحمل دومبي اينما اراد ولكنه في نفس الوقت يقضي عليه حيث يأخذه صوب إيدث Edith ليتزوجها زواجا ماديا بحتا بهدف انجاب طفل له بعد وفاة بول . وينتهي هذا الزواج بالفضيحة والافلاس اثر هروب ايدث مع كاركر الذي يلقى حتفه تحت عجلات القطار آخر الرواية .

والشكل العفريتي الذي يأخذه القطار طوال الرواية يثريها ويؤلف بين اجزائها . فالقطار الذي يأخذ دومبي لايدث اكثر من مجرد وسيلة انتقال انه « وحش منتصر ، الموت بعينه » وهو يجر وراءه المخلوقات الحية بمختلف اعمارها ودرجاتها (الفصل ٢٠) . انه مخلوق خارق للطبيعة يثير الرعب والخوف كالتنين ، ينفث هبات من هواء ويخار ثم يسرع على سكة لا نهاية لها محدثا جلبة وهديرا وصراخا (الفصل ٢٠) . وتتكرر تلك الصورة في الرواية مرات ومرات . وتمتزج سحرية القطار بواقعية القصة وتتولد واقعية اكثر شمولا وعمقا ، واقعية تتجاوز الواقعي الصرف . لقد تحطم كاركر

بـاصنامـه الجديـدة التي عشقها ، بتلك الآلـة الحديدية فاقدة الاحساس .

كما ان العديد من الشخصيات في تصويرها لمسات من حكايات الجان فكاركر Carker هو الشيطان الفولكوري بعينه الـذي يظهـر غالبـا متخفيا كحيوان ، كقط ، كذئب ، وكثعبان . ترتعد فلورانس كلما اقترب منها ، ويكاد يغمى عليها عندما يثبت عينيه الثعبانيين عليها . وينبح ديوجيس Diogenes بشراسة عندما يظهـر امامه ، وله تأثير السحر على روب Rob فيتبعه هائماً على وجهه في الشارع . وميجور باجستوك Major Bagstock شيطان مصغر ، وكما ذكـر ديكنز فى احـدى رسائله فهـو مفستوفيـلي Mephistophelean يُرائى ويُغوى ويسدد النظرات الغرامية كما انه نذير شئوم يسره البلاء الذي يجلبه . وبـاستطاعتـه ان ينتفخ بـطريقة بشعة ، وعيناه مثل عيني الكركند تنبعجان من رأس كـرأس الغـول وتسميه مسـز سكيـوتن Skewton الغول الغادر ، ويصير لونه ازرقا ارجوانيا من اقل استفزاز ، ويتوقع المرء ان يرى اللهب يخرج من فمه (الفصـل ٢٠) . وتنم تعبيراته المفضلة ـ « اللعنة » « ماكر شيطاني » ـ عن دوره الجهنمي . اما كابتن جـاك بانصيبى Jack Bunsby فهـو وسيط الـوحي ينبىء بـالغيب له شكـل الاشباح ، لـه عـين ثـابتـة والأخـرى متحركـة طبقا لمبـدأ بعض المنـارات (الفصل ٢٣) . اما مسز ماك ستنجر . Mrs Mcstinqer فهي امرأة مشاكسة ، غوله آكلة لحوم البشر ، بسحرها سلبت بـانصيبى ارادته وتزوجته . كما يحيط بالطفل بول جو من السحر والغـرابة ، لقـد ولد وعـلى سحنته عـلامـات الزمان ، فوجهه مغطى بالف تجعيدة (الفصل الاول) ، ثم ندرك انه روح عابرة ، عمره قصير عـلى الارض ، مصيره الفشـل . وهو غـريب الشكل كالقزم الخرافي ، نسخة مصغرة من ابي الزمان نذير الموت ، إنه النموذج الاصلي لذرية أدبيه نذكر منها على سبيل المثال « فاذر تـايم » .Father Time

في رواية توماس هاردي -Thomas Har dy جود المغمور . Jude The Obscure ورغم شبـابه يبـدو عجوزا . ويؤكـد لنا هـذا التصوير ان بول تجسيد خرافي للزمان والمـوت ومع هذا يبقى طفلا حقيقيا فيه صراحة الاطفال وسـذاجتهم بل ولغتهم ايضـا (على غـير لغـة أوليفر العجيبة) كما ان سيكولوجيتة اكثر واقعية فهو يشعر بالغيرة والعداء والعرفان بالجميل ايضا (على غير اوليفر بحُسنه الخالص) .

وفي الرواية امثلة كثيـرة على نسبـة صفات البشر للجماد . فالساعة التي نراها في مدرسة دكتور بليمبر Blimber هى سـاعة حقيقيـة يـدوى صوتهـا في كل ارجـاء المـدرسـة ، ومن الملاحظ انه عندما جاء بول الى المدرسة سـأله الدكتور « وكيف حال صديقى الصغير ؟ » ولما لم يجبه على الفور اخذت الساعة تردد نفس السؤ ال مـرات عـديـدة (الفصـل ١١) . والمـدرسـة

بكاملها لها حياتها الخاصة بها فعندما اعترى بول القلق ومرض اعترى المدرسة جو من الغرابة وتأثرت الساعة بمرضه فمرضت معه ، كما ان الساعة بتكاتها تعد الايام الباقية من حياة بول . وعند وفاته تتكتك ساعات الاطباء الانيقة . كما ان الدرج في قصر دومبي هو مثال آخر لشيء عادى يكتسب معنى رمزيا خاصا وذلك من خلال توظيف وسائل حكايات الجان ، فيقترن هذا الدرج بالموسيقي والغناء ، وبالتكرار يصبح اللازمة دالة في نفس الوقت الذى هو فيه درج حقيقة . ويكتسب معنى سلم الحياة الذى تمضى عليه الشخصيات اما ظافرة او مدحورة ، احدى نهايتيه تهبط للجحيم والاخرى تصعد للسماء . وهذه اللازمة تنذر بموت مسزدومبى ، وموت بول وكذلك تعاضده مع اخته في وجه الاب الكاره ، وصعود او هلاك الشخصيات الرئيسية . يبدأ بول رحلة الموت بهبوط درج مؤسسة د . بليمبر وتهبط معه فلورانس بعد ان غنت لتوها احدى الاغاني ، ويذكره غناها بهمهمة البحر . وعندما يصل قصر دومبي يحمل على درجة . وبعد موته يتحسس مستر دومبي طريقه ليلا على الدرج صوب غرفة ابنه الخالية لينعيه ووحده حتى بزوغ النهار ، ويرتبط نواح فلورانس بالغناء ، وعندما تهبط الدرج في الليل لتجثم امام باب غرفة ابيها تلتمس حبه تجد الباب مغلقا في وجهها . ونلاحظ ايضا ان كاركر يهبط الدرج ليلقي حتفه وذلك بعد ترتيب امر هروبه مع ايدث كما تهبط هى الدرج في عجلة من امرها لملاقاته ومواجهة الادانه . وتتكرر تلك اللازمة الدرج/الموسيقي ـ في الرواية حتى نهايتها وبذلك تربط اجزاء الرواية بعضها ببعض . وهناك ايضا لازمة البحر الذى ينحسر ويمتد طوال الرواية ليربط مسز دومبي وبول وفلورانس ومستردومبى حول مكنونات الحياة والموت . وتؤكد اللوازم الدالة الروابط الخفية والتطابق السحرى بن الجماد والانسان : قطار شيطانى ، ساعة ناطقة ، وبحر يهمهم (همهمة الموت والخلود ـ يقترن موت بول بالبحر وتقترن حياة بول اخر ابن فلورانس بالبحر فهو قد ولد على ظهر سفينة) ، ففى عالم ديكنز ترتبط الاشياء ارتباطا وثيقا بنظائرها الآدمية وهذا يثبت طبيعة الكون الواحدة . وتلك اللوازم السحرية اسلوب جديد في ديكنز يفصل ما بين الروايات قبل وبعد دومبى وولده ، ويرجع الفضل في ابتداعها لروايات الميلاد وبها يلحم ديكنز الاساليب القديمة بمفاهيم حديثة في وحدة اعمق واكثر تعبيرا ، وواقعية اكثر فنا .

ويرتبط الاطار الداخلى للرواية وخاصة فيما يتعلق بفلورانس وولتر بحكاية سندريلا . وتلخص افتتاحية تلك الحكاية الموقف الاساسى في الرواية : « يحكي انه كان هناك سيد فقد زوجته فقرر الزواج مرة ثانية . غير ان السيدة التي وقع عليها الاختيار كانت اكثر عجرفة وكبرياء . وكان للسيد طفلة تشبه والدتها المتوفاة في حلاوة طبعها وشكلها ، وقد حزنت لفقد والدتها كثيرا » ومافلولارانس الا الاميرة المتخفية

التي فقدت ميراثهـا ، الا انها في نفس الوقت الكنز الذى على دومبي ان يعتز به ويقدره . كما ان دومبي يجمـع ادوار زوجـة الاب الشـريـرة والشقيقات من زوجة الاب المتكبرات والامير الباحث . انه يضطهد ويعمل على اذلال ابنته الاميرة . ورغم ان ديكنـز يعـطى مـوضـوع سندريلا (لير/كورديليا Lear/Cordelia طابعا خرفيا الا انه في نفس الوقت يحافظ على واقعية القصة ويضيف اليها من ذكرياته هو عن اهمال والديه له . وولتر هو امير الحكاية الذى تتزوجه فلورانس ـ الاميرة في النهاية . ويختلط حبه لفلورانس بحب اخيها بول لها ، كما يأخذ دور الاخ البديل بعد فقدها لاخيها . ونلاحظ في الرواية ان قصر دومي هو قصر حقيقة يحيط به في نفس الوقت جو خـرافي ، فدرجـه سحرى ومناوره سماوية وثرياه تبكى كما ان ستائرة تتدلى ومراياه تفقد بريقها وخشبه يصر ومفاتيحه تصدأ وتتكـاثـر فيـه الفئـران والعنـاكب والخنـافس والفراشات باعداد مخيفة ، وكل هذه من مظاهر خراب القصر ممـا يعكس مرور الـزمن واهمال دومبى لفلورانس السندريلا والجمال الناعس .

وفي نهاية الفصل يلخص المؤلف آراءه بقوله ان دومبي وولـده . تشكـل حقـا تقـدمـا فنيـا ظاهرا : من طـريقة الحكـايات العشـوائية الى الصيغـة الجـديـدة في جعـل الفنتـازيـا تغمـر الاحداث والشخصيات في طول الرواية بالمعانى والمغازى وتزيد من ربطها ببعضها ، وفي التحام الفنتـازيا بـالواقـع الذى يكـاد يكون كـاملا .

وبـالطبـع لم يخـل اسلوب ديكنـز الجـديـد من العثـرات الفنية ، فبينـما نجح في استخـدامـه اللازمة الدالة الخاصة بالموسيقي الا انه لم يوفق في تلك عن البحر كنذير شؤم ، واذا كان قد وفق في تصويره لشخصية مسزبراون في المواقف الاولى التي تظهر فيهـا فتبدو وكـأنها خليط من قمامة فكتورية وحيزبون فولكورية ، الا انها في المـواقف اللاحقـة عندمـا بدأ دورهـا يعظم في الحبكة تحولت الى النمط السحـرى الميكانيكي القـديم . كما ان كـاركر ايضـا يهبط في بعض الاحيـان الى كونـه مجـرد شـريـد قـوطى شبـه « بالكابتن القاتل » حتى اسنانه المتلالئة . ورغم ان رسم شخصيتة لايدانى رسم شخصية ستير فورث في ديفيد كوبرفيلد الا انه ينطوى على فن ارفـع من ذلك الـذى ينـطوى عليـه تصـويـر شخصية منكس المتعذر تصوره .

وفي الفصل السابع افاض الباحث في تحليل رواية ديفيد كـوبرفيلد التي تمثـل فعلا مـرحلة النضـوج في فن ديكنـز الـروائي . ويـرى ان عناصر حكايات الجان في الروايات متجددة في واقـع الحيـاة وان الامتـزاج بينهـما يبلغ درجـة الانصهار مما يعطي الرواية عمقا واستطرادا . وتعتبر الفقرات الخمس الاولى في الـرواية من ابرع واغرب الافتتاحيات في ادب ديكنز ، ففيها استطراد وتوان وغرابة وخلو من المعنى ، ويمكن تفسير ذلك في ضوء الجو الخرافي العام للرواية فهذا الجو إذن موجود من البداية . ويبدو كما لو كان ديكنز يلعب بالقارىء وهذا بمثابة تنبيه له

من أن عناصر العالم الغير مرئى سائدة في الرواية . ومن الملاحظ ان كل شخصية رئيسية فيها قد صورت كما لو كانت شخصية من حكايات الجان . تبدو بتسيتروتوود Betsey Trotwood في الظاهر ساحرة اكثر من عرابة فاسلوبها جاف مستبد وتدخل الرواية من اولها ومنذ دخولها والسحر يحيط بها من كل جانب . انها عرابة ديفيد الجنية وظهورها يتم فجأة وبلا مقدمات فقبل ميلاد ديفيد بساعات قلائل تسير متوهجة كما لو كانت قد خرجت من الشمس الغاربة مباشرة الى حياة ديفيد التى لم تبدأ بعد . وطوال المساء تنتاب بيت آل كوبر فيلد باسطة نفوذها على شيء . كانت تتوقع ان يكون المولود انثى ولكن عندما جاءها الخبر بانه ذكر شعرت بالاهانة واختفت من القصة فجأة تماما كما ظهرت ، وفي ذلك يقول ديكنز « اندفعت خارجة ولم تعد واختفت تماما كجنية ساخطة » (الفصل الاول) . بيد انه على الرغم من اختفائها الجنى الا ان وجودها يظل يخيم على الرواية . فعندما يهرب ديفيد من بؤس العمل في شركة ميردستون وجرنبي Murdstone And Grinby بعد وفاة امه كان يحدوه الامل ان تؤ ويه عرابته القوية . فكثيرا ما سمع من امه وعندما يصل الى بيتها تقابله ممسكة بسكين وهي تصيح « اغرب عني . . لا أولاد هنا » . ولكن بالرغم من فظاظتها تأخذه وتؤ ويه . ورغم انها شاذة في تصرفاتها وغريبة الاطوار الا أنها تخرج من الرواية حقيقة من لحم ودم ، فواقعيتها اكثر تصديقا ممن سبقتها من العرّابات . ويبدو ان الوظيفة الفنية لها هي تأكيد المآسي التي قابلها ديفيد في طفولته وكذلك صراعه في عالم اختلط فيه الصالح بالطالح ، ورغم انها شخصية جنية الا انها لا تدفع بديفيد ان يهرب من الحياة بل على النقيض من ذلك تدفعه نحوها وتساعده ان يكتشف نفسه ، ولكن تبقى في الوقت نفسه عرابة خرافية . وتكمن براعة ديكنز هنا في مزجه السحري بالعادى . وعموما فالعمة بتسو ليست شريرة كما تبدو فهي على العكس تماما من مس هافيشام في آمال كبار التي تبدو عرابة خيرة ولكنها في حقيقة الامر حيزبون . وبرعايتها يبدأ ديفيد حياة جديدة تماما . ومن الشخصيات التي لها أصول سحرية أيضا يوريا هيب Uria Heep ، له وجه شبيه بالجيفة ، يراه ديفيد ذات مرة يتنفس في منخر فرس كما لو كان ينفث سحره فيه ، يداه نحيلتان ، شعره احمر ، عيناه بلا جفون ولا أهداب ، كما أنهما لا تنامان ودائما تلمعان كشمسين حمراوين . وهذا الشخص المنفر لا يستطيع ان يبتسم ، وكل ما يستطيعه هو ان يوسع فاه محدثا جعدتين في اسفل خديه ، كما ان حركات جسده ثعبانية . وتنم هذه الصفات الجسدية العفريتية عن حقيقته الداخلية الشيطانية . ويتصف افراد عائلته بنفس الصفات السحرية البشعة فلامه عين شريرة وكمدام ديفارج (قصة مدينتين) تبدو وكأنها القدر بعينه ينسج مصير من تود اصطيادهم . وبتوالى أحداث الرواية تزداد الصور المجازية

التي تربط يوريا بالشيطان . فبعد ان إستوظف ميكوبر Micawber لديه ظل يعيد القول بانه قد باع نفسه للشيطان (الفصل ٤٩) ، وكثيرا ما اطلق عليه لفظ شيطاني ، وجهنمي ، وثعباني وعفريتي . ومما يدل على مدى تعقيد مزج المتناقضات ـ الواقعي والسحري ـ في يوريا هو ان ديكنز جعله شيطانا وفي نفس الوقت قرين ديفيد . وهذا الخلط يستمد اصوله من حكايات الجان . ففيها نجد ان الحسن لا يتناقض فقط مع ضده بل يصبح النقيض بذاته . جدة الصغيرة رايد نجهود Little Red Ridin-hood المحبة تتحول فجأة الى ذئبة شرسة ، كما تتحول والدة سندريلا التي تحميها الى زوجة اب شريرة وهذا في حد ذاته يبين مدى كون الانسان مركبا ومتقلبا . ويعترف ديفيد في البدء انه منجذب نحو يوريا ويبادله يوريا هذا الشعور ، ويلتقى الاثنان ايضا في حبهما لا يجنس Agnes ، كما ان مغزى الاسمين يبين ان العلاقة بين الشخصين علاقة معقدة ، ففي الانجيل اشتهى ديفيد زوجة يوريا باثشيبا Bathsheba وتسبب في موت يوريا ليتزوجها . وحتى بعد زواج ديفيد من دورا في الرواية نجده يشتهي ايجنس اكثر عندما يدرك ان يوريا يود الزواج منها ، كما يتسبب في موت يوريا موتا مجازيا ويتزوجها . بيد ان هناك بعض التباين بين الانجيل والرواية ، ففي الانجيل نرى ديفيد مذنبا ويوريا بريئا والعكس تماما في الرواية . وهذا الاختلاف اشارة الى ان يوريا هو الذات الشريرة لديفيد . كما ان اثم ديفيد في الانجيل مكشوف اما في الرواية فهو مستتر ويموضعه يوريا . حقا لقد وفق ديكنز في تصوير الجانب النفسي لشخصية يوريا وذلك باستعماله الرمز والمسرحة والقياس وحركة الحدث بدلا من التقرير والعرض .

ويحيط جو حكايات الجان بشخصيات أخرى في الرواية مثل ستريفبورث Steerforth وروزا دارتل Rosa Dartle الثنائي ومن يدور في فلكها : الصغيرة أميلي Emily ، مسز ستريفورث ، وايجنسي . ويعد ستيرفورس من الشخصيات الجذابة ولكنه زئبقي المزاج وتندمج هذه الصفات البشرية بأخرى خارقة ، فله سحر على الآخرين من الصعب مقاومته ، ويقترن بهذا السحر قدرة على التكيف بسهولة مع أي شخص وأي موقف ، وليس هذا الشيء العادي . ويعتبر حب ديفيد الصبياني لاميلي غرام فيه نكهة حكايات الجان . فقد اعترف لها بأنه لايستطيع أن يحب أحدا غيرها وأنه مستعد لسفك دم أي شخص يتجرأ على التقرب منها (الفصل ١٠) . ولكن يتبين أنه مخطىء فسوف يحب غيرها كما أنه سوف لايعجز فقط عن سفك دم غريمه بل سوف يسهل مهمته أيضا . كما كان يحلم بسعادة خرافية بعد أن يتزوج منها ، بالعيش بين الأشجار والحقول يوقفان الزمن عند الصبا يمرحان معا والشمس مشرقة في المروج المزهرة في براءة وسلام ، ويدفنان مع الطيور بعد موتها (الفصل ١٠) والاشجار واضحة هنا

لحكاية « أطفال الغابة » . ويتناقض هذا الحلم في تصويره للثبات وعدم التبدل مع التغير والاضطراب الذي سيحدث . وتعتبر روزا دارتل من الشخصيات الخرافية أيضاً،ومن أهم العلامات تلك الندوة التي تغطي فمها وذقنها وقد تسببت من جراء قذف ستيرفوث المطرقة في وجهها وهو في نوبة عصبية . وتشير الندبة الى جروح روزا الظاهرية ، وسببها جميعا اطلاق ستيرفورث العنان لرغباته وشهواته : الظاهرية بقذفها بالمطرقة والغير ظاهرية بحبها ثم هجرها . فالندبة اذن ماهي الاسمة ستيرفورث التي تركها عليها وتعود للحياة كلما أثار غضبها أوغيرتها ـ ولكن لاتعود شيطانية روزا لهذه السمة الشيطانية وحدها فهي شيطانة في حد ذاتها سوداء الشعر والعينين لايتحمل ديفيد نظرات عينيها الغريبتين وبريقها الجائع الذي اذا ما استثير يتوهج كالنار (الفصل ٢٩ ، ٥٦) وفي بعض الأحيان يرتعد ستيرفورث حتى من مجرد التفكير فيها ويعترف لديفيد بأنها تبدو كغول أمامه (الفصل ٢١) . ولايقف الأمر عند عدوانية روزفهي جذابة الى جد بعيد ، فحتى وهي في أعنف مواقفها لاتفقد انوثتها الفتانة التي تغوي وتوقع في الشرك . ويقع ديفيد تحت تأثير سحرها لبعض الوقت . وليس أدل على سحرها من تأثيرها عليه بعد لقائها الاول : فعندما يذهب للنوم في بيت ستيرفورث يتهيأ له أن الصورة المعلقة في الغرفة هي صورتها ويضيف لها الندبة ، وحتى يهرب من التفكير المستمر فيها يخلع ثيابه ويأوي الى فراشه ويغط في النوم ، بيد أن أحلامه كانت عنها (الفصل ٢٠) . كما تشبه في الرواية « بأميرة الأساطير القاسية » (الفصل ٤٦) ، وبشيطانتها تجد متعة في ايذاء من ينافسها أو يخذلها . ورغم هذا الجو الفنتازي الذي يحيط بروزا ، الا أنها شخصية واقعية في نفس الوقت . فتاريخ حياتها الباكرة مشوق الى حد كبير . بعد فقدها أبويها جاءت لتعيش مع أقاربها آل ستيرفورث ، واستغل ستيرفورث عاطفتها المشوبة وأجبرها على حبه ولكن سرعان ما سئم منها . أما أميلي باسلوبها الجذاب وعينيها الزرقاوين وسحرها هي سيرانه جنية سحرها هيام ديفيد . انها سندريلا تواقة تصاب بخيبة أمل : فتاة فقيرة تتوق أن تكون سيدة تهرب مع أميرها ، ولكن بدلا من أن تصبح أميرة تصير منبوذة . ويعد خلاصها من ستيفورث وليتمر Littimer هروبا جنيا بحتا . ومن الشخصيات الحميدة أيضا دورا فرغم أنها تسبب الضرر لديفيد الا أنها ليست شيطانة متآمرة . البيت الذي تعيش فيه فخم وخرافي كقصور الحكايات وعندما تعرف عليها ديفيد افتتن بها تماما وبدت له جنيه هيفاء رشيقة (الفصل ٢٦) . ويمتزج الخيال بالواقع في وصف ديكنز لمغازلة ديفيد لها . وعند زواجه منها يشير ديفيد الى زواجه على أنه « زواج جني » (الفصل ٤٣) ، كما ظهر « ملاح هرم » خلفه في هذه الناسبة ، اشارة الى قصيدة كولريدج بهذا العنوان . واثناء الاحتفال تمسك

دورا بيد الجنسي وفي هذا اشارة لزيجتي ديفيد : زواج محتوم لزوجة من الجان ، وزواج مستقبلي لزوجة ملائكية . وبمعنى رمزي فهو يتزوج الاثنين معا وفي وقت واحد ، فالزوجتان سويا تمثلان المرأة التي يتوق اليها . في اشارة بيتسي ان ديفيد ودورا هما من أطفال الغابة ربط لمصير هذا الزواج بالحكاية الشعبية المعروفة ، فسوف ينتهي نهاية غير سعيدة كما أن ديكنز يعتمد في تصوير هذا الزواج على خبرات ذاتية ـ علاقته الغرامية بماريا بينديل Maria Beadniell وخيبة أمله في زواجه الحقيقي . ومن الشخصيات الشبيهة بشخصيات الحكايات الانسة ميردستون Miss Murdstone فيعتقد أنها تنام واحدي عينيها مفتوحة وتغمغم في الكنيسة كالرعد الخفيض . كما أن لها ولأختها تأثيرا على ديفيد كتأثير ثعبانين على طائر صغير تعس (الفصل ٤) . وعندما يدخل آل ميردستون منزلا ، يجلبون معهم دفعة باردة من الهواء . انهم في الحقيقة شياطين وأساليبهم شيطانية كما يوضح لنا ديفيد (الفصل ٤ ، ٩) . ويبدو مستر ميردستون لديفيد كعملاق ومستحضر أرواح شرير . ويجبن ديفيد أمام هجومه ، ولاتقتصر فعالية سحره على ديفيد وحده فيمتد ذلك الى أمه (التي تزوجته) انه يحملها على طاعته هو لابنها . وفي تصوير آل ميردستون بهذه البشاعة السيريالية يؤكد ديكنزان شرهم فائق في تعذيب الطفولة وهذا بالنسبة له خطيئة لاتغتفر . واستعمال عنصر الحكايات هنا ، كما هو في رسم شخصيات أخرى ، يعطي طابع العمومية للقضايا التي يطرحها بطريقة غير مباشرة .

كما تموج الرواية بالموتيفات مثل الأحلام التحذيرية والقصور السحرية (منزل ويكفيلد) والخرافات الفعالة (لايموت باركيس الا في انحسار الجزر) وبها صبورات مثل جريزلدا Griselda (الجنسي) وزيجات يناير ـ مايو (د . واني سترونج) وزوج الأم الشرير (ميردستون) . حقيقي ان الرواية بشخصياتها ومضمونها قائمة على حكايات الجان . وقد مكنت اللمسات والموتيفات الحكاوية هذه ديكنزمن أن يبين ويؤكد ويربط ، كما ان السحر الحكاوى ساعده في نقل رؤ ياه للقارىء .

ثم حلل المؤلف أحد فصول الرواية (الفصل ٥٥ « العاصفة ») فصل الذروة الذي يعتبر عملا فنيا رائعا ، حيث نقل فيه ديكنز المعنى النفسي عن طريق الحدث والصورة والتماثل والرمز لا عن طريق التفسير . ثم انتقل بعد ذلك الى تعليق على الصفات الخارقة في الجنسي وكيف أن دورها كملاك صالح يبدأ مع ظهورها في الرواية ، واذا كانت هي الملاك الصالح فستيرفورث هو الملاك الطالح . ويعترف ديفيد بأنه وهو معها يشعر بأنه انسان آخر وأنه قد تغير إلى الأفضل . ويشعر أن لها وجها سماويا مبهجا وان مسكنها مكان مقدس (الفصل ٤٩) وكالجنية الخيرة التي تعود لتنقذ

محميها ، وتعود ايجنسي باعجوبة عندما يحتاج لها ديفيد في اعقاب انباء انهيار عمته . يرى وجهها « ويفكر في شباك الكنيسة ذي الزجاج الملون » ويقول لها لو كان لديه قبعة ساحر لتمنى رؤ يتها (الفصل ٣٥) . وفي موقف آخر كان يعتريه القلق فتظهر أمامه وتلمسه بينما الساعة تدق الثانية عشرة . وعندما يحتاج ديفيد لعمل ، تساعده في الحصول عليه ويقول لها « ماذا كنت أصنع بدونك . أنت ملاكي الطاهر » (الفصل ٣٥) . تؤكد كل هذه الصور دورها الملائكي ويتبين لديفيد أن حبه لها قوي ومتين لاكحبه لدورا . وتعترف له هي الأخرى بأنها قد أحبته طوال حياتها (الفصل ٦٢) . ورغم أنه كان قد أفتتن بجمال دورا الا أنها ليست رفيقته بمعنى الكلمة ، وتعجز عن أن تلبي أمانيه . وتعتبر ايجنسي النصف المكمل لمفهوم ديكنز عن المرارة : ملاك بريء معين ومتفاهم . وكأم أو أخت تسهر على راحة ديفيد وتحمل له هدوء البال والراحة بيد أنها ليست جذابة جنسيا ، هي روح بلا جسد وعاش معها « في التبات والنبات » كما هو الحال تماما في الحكايات .

وفي الفصلين الثامن والتاسع يتناول المؤلف بالتحليل رواية آمال كبار (١٨٦١) . وقد بدأ الفصل الثامن بلفت الانتباه الى حقيقة أن مس هافيشام في الرواية هي ذات الرداء الأبيض التي كتب عنها ويلكي كولينز Wilkie Collins روايته المشهورة والتي كانت قد صدرت قبل شهور من بدء صدور آمال كبار . ثم تتبع الأصول التي شكلت خيال ديكنز في رسمه لتلك الشخصية ، ففي ١٨٥٣ كتب في مجلة Household Words مقالا بعنوان « حيث توقف نمونا » "Where We Stopped Growing" وفيه يصف سيدة غريبة الأطوار عرفها في شبابه تقارب تماما مس هافيشام : عروس في ملابس بيضاء هجرها عريسها وتوقف الزمن بالنسبة لها . وربما كان ديكنز قد شاهد مسرحية ابريل ١٨٣١ على مسرح ادلفي هول حول الموضوع ذاته . اضيف الى ذلك ولع ديكينز الدائم بكل ما هو غريب وبالأدب القوطي وحكايات الجان . وتزخر هذه بقصص ذات الرداء الأبيض . كما أن هناك بعض القصص عنها في آخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر مثل الراهبة ذات الرداء الأبيض لمونك لويس Monk Lewis وفير أيموجين Fair Imogine ذات رداء أبيض أخرى لنفس المؤلف . كما أن مس هافيشام هي واحدة من بين شخصيات ديكينزيه أخرى خاب أملهن ووقف الزمن بالنسبة لهن : بتسي تروتوود التي سبق الاشارة اليها ومس فلايت Miss Flite في بليك هاوس Blak House ويرى المؤلف انه رغم ما يقال عن مس هافيشام من انها شخصية خيالية تماما من الصعب تصديقها فهي متجذرة في واقع الاحداث اليومية .

ثم ينتقل ستون في الفصل التالي الى ما هو أهم وهو تحليل عنصر الفنتازيا في الرواية ،

ويبدأ بتحليل المشهد الاول الذي يقع في فناء الكنيسة حيث توجد المدافن ، عشية عيد الميلاد . ويذكرنا هذا المنظر وما ينذر به من شر بقصص الاشباح وحكايات الاطفال . يقف بيب في المشهد بجوار مدافن والديه واخوته الخمسة ولأول مرة في حياته يحس بنفسه وبالحياة من حوله ، وبينما هو منغمس في التفكير يظهر من بين القبور مجرم فار من العدالة وعلى رجله القيد ويمسك ببيب ويقلبه رأسا على عقب ، ويرى بيب خلال ساقيه المعكوستين برج الكنيسة ثم تبدوله الكنيسة كلها وكأنها تلف وتدور ، وتتكرر هذه الحركة . ثم يدخل بيب وهو يرتعد خوفا في نفق سرى مع المجرم الهارب ثم يجرى عبر السبخة صوب منزله . تماما كما في « جابريل جراب » Gabriel Grub وانشودة عن الميلاد والرجل المسوس يظهر شبح من الماضى عشية عيد الميلاد ليهذب البطل الاثم . وعندما يظهر ماجويتش Magwitch الخارج على القانون من بين القبور ويقلب وعي بيب النامي رأسا على عقب فان هذا يمثل حكاية الجان المقلوبة (سندريلا) التي سوف يحكيها ديكنز (حيث الاخوات القبيحات يتحولن الى جو Joe وما جويتش الخيرين والعرابة مس هافيشام ليست الا ساحرة والاميرة إستيلا Estella زيف براق) . ويرى المؤلف ان طابع الحكايات يضفى اتساقا وتكثيفا على المضمون الذاتي والاجتماعي والاخلاقي للرواية ، كما يعطيها طابع عمومية الاساطير .

وتشترك آمال كبار مع ديفيد كوبرفيلد في انهما تتعلقان باسطورة الرغبة والجزاء وانهما على لسان البطلين وان كلا من البطلين طفل يتيم يتم انقاذه بعد بؤس طفولته وتكفله سيدة غريبة الاطوار ويلقى ثروة ليست في الحسبان ، بيد انه لا يبلغ آماله في النهاية . ثم يعرض المؤلف العنصر الذاتي في الرواية ويوضح وجه الشبه بين بيب (وأيضا ديفيد) ود يكنز فكلاهما نشأ فقيرا ، منبوذا كان يطمح في النهوض بنفسه وحقق ثروة واختلط بعلية القوم بيد انه لم يجد السعادة التي كان ينشدها ، وكان دائما يحاول التستر على بؤرة خجله وهي طفولته . ويعد ماجوتيش الذي يظهر من بين القبور تشخيصا لهذه الوصمة ، كما ان محاولة بيب الهروب منه بعد عودته من منفاه يطابق محاولة ديكنز الهروب من ماضيه . كما ان احداث الرواية تقع في تشاتام ولندن وكلا المكانين أسهما في تشكيل حياة ديكنز نفسه ، كما ان غرام بيب يعكس حياة ديكنز الغرامية والمعقدة ، ففي حب بيب لاستيلا ، ذلك الحب العقيم ، انعكاس لحب ديكنز الصبياني لماريا بيدنل Maria Beadnell او حبه فيما بعد لالين تيرنان Ellen Ternan التي كانت تصغره بعدة اعوام . كما ان شعور الكراهية الذي يكنه بيب لاخته الشرسة السليطة مسز جارجرى Mrs. Gargery والتي قامت على تربيته يعكس احاسيس ديكنز السلبية تجاه امه . ويلاحظ المؤلف انه بينما نجد ان العنصر الذاتي في الروايات الاولى كما في مارتن تشزلويث مثلا

دخيل على العناصر المكونة الأخرى ، التحم هـذا العنصـر بغيره في روايـات عيـد الميلاد الخمس ، وفي الروايات التي تلت تلك بعمق ، ويقوي هذا العنصر الجانب السيكولوجي فيها . وعن استخدام ديكنز لأسلوب الفنتـازيا يـرى المؤلف انه في الروايات الأخيرة بعد تمرسه في هذا المضمار غالبا ما يخلق جوا يأخذ الخرافي فيه طابع الواقعي ، وبالعكس يضفى على احداث الحياة اليومية جوا من السحر والغرابة ، ويتم كل ذلك بحداقة وبراعة . ومن نقاط القوة في الروايات الاخيرة ايضا تطور اسلوب ديكنز في تصوير الجوانب المتعددة للشخص الواحد او ما يطلق عليه مضاعفة الذات Doubling of the Ego ، فـردلو Redlaw في الـرجـل الممسوس منقسم الذات وايضـا جونـاس تشز لـويت ولكليهما صـورة مضـادة . امـا في بيب فـالانقسام ليس ذاتيـا تمامـا ، فـالشخصيـات الاخرى المرتبطة به تعد امتدادا له وتلقى الضوء على شخصيته هو . هناك بيب البريء المهذب وهناك ظله ماجويتش المجرم الطريد ، كما انه يقترن بكل من إشتيلا التي عصرتها قوى مماثلة ، وبيدي Biddy التي قاومت هذه القوى ، وجو Joe الذي يسلم من الفساد ، وهربت Her-bet الـذي يعد نمـوذجـا افضـل لـه ، ومس هـافيشام الـذي يرتبط ذنبهـا وجزاؤ هـا بذنبـه وجزائه ، ودرامـل Drummle يعد نمـوذجا افضل له ، ومس هافيشام الـذي يرتبط ذنبهـا وجزاؤ ها بذنبه وجـزائه ، ودرامـل Drum-mle ذلـك النمـوذج السيء لـه ، واورليـك Orlick الذي يعد امتداد شريرا له . ويعقد ديكنز الموقف اكثر فيجعل من جو ايضا نقيضا لاورليـك ، كـما ان إستيـلا تنـاقض بيـدى ومـاجوتيش يغـاير مس هـافيتشام ، وفي نفس الوقت يتشابه ماجويتش مع كومبيسون Com-peyson وكمبيسون مع مس هافيتشام وهكذا دواليك . ويعد ويميـك Wemmick منقسما على نفسه فهو يحيا حياتين مختلفتين ، وبيب نفسه يتأرجح بين دافع الرغبة ودافع الواجب . وبهذه التناقضات يعطى ديكنز بنيـة ومعنى للرواية . ويعتبر تصوره لشخصية اورليك مثالا على كيف ان هذا الاسلوب اصبح اساسا في فنه وصفات اورليك الجنية ، وعلاقاتـه الشريـرة تزيـد من واقعيته ولا تنقصها . هو الشيطان بعينه داكن البشرة مؤذ ورغم انه في الخامسة والعشرين الا انه يطلق على نفسه اورليك العجوز . انه عتيق لازمني كالشر نفسه ، ولا يقضي ايام الاحاد في الكنيسة بل منطرحا على البوابة وهو يقترن دائما بـالبوابـات ، انه حـارس بوابـة جهنم وعمله كحداد لا يخلو من الرمزية فالشرر يتـطاير من سندانه صوب بيب وهو عـلى النقيض من جو الحداد الودود الذي يقوم بدور العراب لبيب ، بيد انه بشره لا يستطيع ان ينال من جو عندما يعاركه ، ولكنه ينال من زوجة جو الحيزبون اذ يصرعها ، وعـلى الرغم من البغضـاء التي بين بيب واورليك الا ان هناك انجذاب بينهما ويعتبر بيب شريكا في جريمة قتل اخته ، اذ انه زود ما

جوتيش بالمبرد الذي قطع قيده الحديدي والذي استعمله اورليك في الهجوم عليها .

وتتضح ادوار الشخصيات الرئيسية في الرواية اذا ما وضعت في اطارها الجني ، مما يربط الرواية ويدعم عنصر السخرية فيها ، كما يمتد تأثير حكايات الجان الى الاسماء والصور المجازية والاحداث والاطر المكانية والزمانية . كما ان الامور كما هو الحال في الحكايات نادرا ما تكون كما تبدو . ويتضح دور ماجويتش كمعد ومنقذ في نفس الوقت اذا ما وضع في اطار الحكايات . لقبه جزء من سخرية ديكنز ، فلفظ الساحر في اللقب Witch يتناسب مع دوره في اول الرواية فقط اذ يتحول في النهاية الى عراب جني مخلص . وربما يشير اسمه الاول « هابيل » Apel الى دوره الحقيقي ، فرغم أنه مجرم وطريد الا انه يتعرض لأثام الآخرين أكثر من تعرض الآخرين لايذائه . ويقوم دوره كعراب على السخرية ، فبعد ان مد بيب له يد المساعدة رد هذا الجميل له كما يحدث في الحكايات وجازاه خير جزاء . ولكن التعقيد واللبس يكمنان في ان فعل الخير الذي أتاه بيب يعد ذنبا في نفس الوقت ، فهو قد سرق وكذب وعقد اتفاقا مع مجرم فار . كما ان جزاء احسان بيبب الذي قدمه له ماجوتيش من تعليم ومركز اجتماعي وثروة ، وكلها آمال جنية كان يصبو اليها ، يتحول الى لعنات . وكما في حكاية « الجميلة والوحش » يعد قبول بيبب للوحش وتقديمه الاحسان والمشاركة الانسانية هي التي حولت وحشية ماجوتيش (وبيب في نفس الوقت) الى جمال والى وسيلة للخلاص .

وتشترك مس هافيشام مع ماجوتيش في ان مظهرها غير مخبرها وللفظة sham (شيء زائف) التي تشكل جزءا من اسمها مغزى في هذا الصدد . تبدو في البداية عرابة في رداء ساحرة كمارتن تشز لويت العجوز وبتسي تروتود وهذا ما يظنه بيب الا ان مس هافيشام ، ذات الرداء الابيض ، ليست عرابة على الاطلاق . انها حيزبون ولا جدال ، وعرابتها ليست الا زيفا ، وقد ساعدت بيب ان يخدع نفسه ، فباعتقاده انها هي التي منحته الهبات وانها تربي له اعظمها وهي الاميرة السندريلا وما هذه الهبات الا لعنات ساحرة ـ لعنة البرودة والمعانات التي صبتها على استيلاولعنة الامل والعذاب على بيب . انها ساحرة في مظهرها ، في عزلتها ، في مسكنها ، في انتقامها ، في هلاكها . وتعتبر السندريلا التي ترعاها جزءا من زيفها وجزءا من حكاية ديكنز المقلوبة . فاستيلافي الحقيقة ليست هي الاميرة ، النجمة الساطعة كما تبدو وكما يشير اسمها . فهي من نسل مجرم وامها قاتلة وان كان بيب سيد زائف فهي سيدة زائفة ايضا . كلاهما اداة للانتقام والاثنان يرتبطان بماجوتيش (بالمولد وهو بالتبني) ولمس هافيشام تأثير ضار على كليهما . ويشقى الاثنان بسبب انخراطهما في الرذيلة ويمران بمرحلة انبعاث جديد . والاميرة الحقيقية في الرواية هي بيدي Biddy المتواضعة ،

ولكن على عكس ما يحدث في الحكايات لايوفق بيب في كسبها . كما ان الامير الحقيقي ليس بيب او درامل او جاجرز ، بل جو البسيط المهذب حقا الذي يتمكن من ان يكسب الاميرة .

وقد خص المؤلف مس هافيشام بالنصيب الأوفر من التحليل حيث امتزج في تصوير شخصيتها الواقع مع الخيال امتزاجا كاملا . تقابلنا للمرة الأولى وهي جالسة أمام « التسريحة » تنظر في المرآة التي تكشف ظاهرها لاباطنها . وكالرجل الممسوس تنتابها الهواجس وقامت بتجميد نفسها الى الأبد . ومثله أيضا ارتكبت اثما كبيرا ولكن اثمها عكس اثمه : أراد هو أن يمحو الماضي ، أن يمنعه من أن يتعقبه ، بينما هي تحاول أن تصر عليه وتؤكد أنه سيلاحقها دوما . لقد أوقفت الزمن عند الساعة التاسعة الا الثلث في صباح يوم زفافها اذ كانت تتأهب للذهاب الى الكنيسة فيصلها خطاب فسخ الخطوبة من عريسها . توقفت كل ساعاتها عن الحركة وتجمد كل شيء في غرفتها ، ونجد مبعثرا على المزينة حليها وقفازها ، ساعتها ، سلسلتها ، منديلها ، كتاب الصلوات ، وفردة حذاء زفافها الأبيض . وبالغرفة فساتينها المبعثرة وحقائبها التي كانت تعدها . وعبر الصالة توجد غرفة الطعام بها منضدة طويلة عليها مفرش بال ، وفي وسط المنضدة كعكة العرس وقد أصابها العفن .

انها تلبس بعضا من حليها اشارة لحزنها الدائم والذكرى الأليمة ، وقد وضعت حجابا أبيضا على رأسها . وبفعل الزمن فقدت فردة حذائها كذلك ، وملابسها لونها الأبيض . انها « القبح الناعس » لا « الجمال الناعس » تنتظر أميرها الموعود في سكون الموت ، أمير سوف لايأتي ، سوف لايقبلها أو يوقظها ، كما أنها بفردة حذاء واحدة تشبه سندريلا التعيسة . ولاتتوقف عناصر الحكايات في تصويرها عند هذا الحد فيراها بيب أعجب سيدة وقعت عيناه عليها أو سيراها في حياته (الفصل ٨) كما أن جسدها أصبح « جلدا على عظم » ولم يبق من بريقها سوى بريق عينيها الغائرتين . وعندما ينظر اليها بيب يتذكر التماثيل الشمعية الشبحية أو الهيكل العظمي ، وتبدو ملابسها له كما لو كانت ملابس القبور ، والحجاب الطويل كما لو كان كفنا . لم تر مس ها فيشام الشمس منذ يوم كارثتها ، ولكن الزمن قد انتقم منها لمحالولتها ايقافه طبعا وكل ما لها بالفساد والعفن . تبدو لبيب وهي تدخل غرفة الطعام كما لو كانت حيزبون المكان (الفصل ١١) . لم يرها تأكل أو تشرب على الاطلاق فهي كالغول أو مصاص الدماء تأكل سرا في الظلام (الفصل ٢٩) وتجبره أن يلف حول غرفتها وحول غرفة الوليمة وتكرر هذا الدوران اسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر وعندما يصيبها الاعياء تجلس على كرسي يظل يدفعه حول هذه الغرفة وتلك . انه أسير سحرها ، لقد نسجت دائرة من السحر حوله سيبقى يدور فيها حتى ينفك سحرها . ياله من مسكين انه لايعرف كم هو في قبضتها .

وبتزايد هيمنتها عليه تأمره أن يحقق القدر الذي أعدته له : أن يحب استيلا .

وتنتاب مس هافيشام ساتيس هاوس Satis House ولكنها في الوقت ذاته تطاردها خطيئتها التي لاتغتفر . انها لصة القلوب البريئة « سرقت قلب استيلا ووضعت ثلجا مكانه » (الفصل ٤٩) . ولهذه الخطيئة لابد أن تعطى النار وهذا هو مصيرها . ويحيط قصرها جو جني ، أنه سجن وقوة عدائية وجحيم في نفس الوقت ، ويسوم بيب ويظلل حياته . القصر كئيب مغلق الأبواب سدت الطرق اليه ، صدأت القضبان الحديدية على أبوابه وشبابيكه ، ممراته حالكة وفي غرفه الباردة الكئيبة التي لايدخلها الهواء ولا الشمس دائما تحترق الشموع الشتوية . وليل القصر الدائم له تأثيره على كل من يتجول فيه ، فالليل يدخل قلوبهم ، يعمي بصائرهم . وتشير مظاهر الخراب والاهمال والخلاء الى فراغ داخلي . الحدائق مهجورة والصدأ والأعشاب والفطر في كل مكان . في حدائقه الخربة يرى بيب استيلا تجره وراءها وتختفي عن الأنظار وتذوب عنه في الأركان وتتلاشى في السماء . انها سيرانه مغوية تجره الى الخراب ، تختفي دائما ولاتمكنه من نفسها ، انها تتصرف طبقا لاسمها فهي النجم الدليل ولكنها توجه بيب مقلوب الرأس الى الجحيم لاالجنة . نراها في المشاهد الأولى تحمل المفاتيح وترعى البوابات ولكن بيب لايدرك أنه واقع تحت وهم وتحت قوة تجذبه الى القصر .

وفي رؤ ياه المقلوبة رأسا على عقب يبدو القصر كما لو كان قصر « الجمال الناعس » واستيلا هي الأميرة ومس هافيشام العرابة الجنية وقد اختارته ليؤدي دور الفارس الشاب في الرومنسيات ويتزوج الأميرة (الفصل ٢٩) . وهذا بالطبع لايتم وتتزوج استيلا من غيره وتتحطم الآمال في البيت الخرب وكما في حكايات الجان يختفي كل شيء مع اختفاء حلم بيب .

ثم ينتقل المؤلف الى العلاقة التي تربط ماجويتش وبيب والتي تدين بالكثير من مغزاها الى عناصر الحكايات . فعندما يتقابلان يقع بيب تحت تأثير ماجويتش السحري ويغرس الأخير نظراته المغناطيسية في عيني الطفل البريئتين ويستسلم بيب للشرب . ويستمد ديكنز الصور المجازية عن الشر من حكايات الجان وتلك تتضمن اشباح المقابر ، النظرات المهلكة ، الاتفاقات ، المنازل المسكونة ، الدوائر السحرية ، الساحرات ، الغيلان . . . الخ وتبقى القصة رغم ذلك واقعية سيكولوجيا . تتركز العلاقة حول بالغ شرس وطفل أشبه بالمتشرد . يهدد ماجويتش بيب باكل خدوده الممتلئة ويأخذ بيب هذا التهديد بكل جدية وبعد ذلك يقسم أنه سوف ينزع قلبه وكبده ويشويها ليأكلها . وهذا التهديد غريب حقا . ويدخل بيب تحت هذا الضغط عالم الاثم والجريمة ، يدخل في اتفاق مع صاحبه الشرس بعدها يتوجه الى محل الحدادة ويرى ماجويتش وهو يندفع نحو النهر ، ذلك النهر الذي يجري في

طول الرواية متخذا معنى رمزيا ، النهر الذي سيحمل ماجويتش وبيب للموت والخلاص . وهذا المشهد الافتتاحي التحذيري يذكرنا بمشاهد أخرى في روايات سالفة فى دومبي وولده وديفيد كوبر فيلد . ولكن يستخدم ديكنز هنا عناصر حكايات الجان لتخدم غرضه بطريقة أكثر فنا . فماجوتيش أكثر من عفريت أطفال (مسز ببشن Mrs Pipchin مربية بول في دومبي) أو ساحر (مسز براون) انه جزء من بيب ، جزء من الحسن والسيء فيه . ويقترن بيب بماجويتش من البداية . فمثلا وهو عائد له بالطعام والمبرد يحس كما لو كان هو مقيدا مثله ، ورغم أن ماجوتيش مؤذ الا أنه ضحية ومتشرد مثل بيب . انهما ثنائي رغم فارق السن والظروف ، جريمتهما واحدة ومعاناتهما واحدة ، ومصيرهما واحد ورغم الخلافات الظاهرية بينهما الا انهما فى الباطن متشابهان تماما . السرقة هي أول عمل يقوم به بيب كفرد واع . انه يبدأ حياته الارادية بالخطيئة ولكن خطيئته هي بدافع العطف والشفقة ، فهو يسرق ليعيش انسان غيره طريد بلا أصدقاء . ويتذكر ماجوتيش أول عمل قام به عندما بدأ يعي وهو سرقة اللفت من احد الحقول ليقتل جوعه ، وقد نتج عن خطيئة بيب شعوره بالذنب والعزلة وتعد بداية لمحنة ، كما أنها تؤدى الى خلاصه في النهاية . وقدر ماجويتش أن يدخل السجن وعالم الاجرام ، ففي مجتمع كمجتمعه ليس أمامه غير السرقة أو الموت جوعا ، كوحش خرافي يؤثر على كل من يحيطون به ، فكل من يتنفسون معه يعرفون الأحلام الضائعة والآمال المحطمة . حقا لقد برع ديكنز في تصوير علاقة النفس الثانية الخفية التي تربط بيب بماجويتش ، كما أن ماجويتش هو الشبح الذي يطارد بيب وهو شخص حقيقي في نفس الوقت ، عنيف وفظ .

ويخلص المؤلف الى أن آمال كبار هي أكثر من حكاية جان استطالت ، أنها رواية تشترك مع حكايات الجان في التحولات ، رواية تلحم العناصر الذاتية والسوسيولوجية والسيكولوجية والميثولوجية في وحدة واحدة وواقعية في نفس الوقت . لقد أخذ ديكنز دقائق الحياة العادية وترجمها الى عالم الرومنسيات . وكيمياء الفن هذه جزء من موهبة ديكنز في المماثلة والتحويل . وفي الرواية حوّل ديكنز خبراته الأولى وأخيلته ونهايات حكايات الجان وشخصيات العرابات واحباطاته الى حكاية متشعبة تكثف الواقع وتعمق فهمنا للحياة . وقد زودته حكايات الجان بمجموعة من الموتيفات : الهبة التي تتحول الى لعنة ، العرافة المرائية ، العراب المتخفي ، الأميرة الخطرة ، المتاهة المميتة ، البيت المسكون والرحلة الى عالم الاجرام ، وكلها ساعدته في نقل رؤياه الشعرية في الحياة . ومن الموتيفات الرئيسية في الرواية موتيف الضوء والنار الذي يتضمن الشموع ، النار التحذيرية ، كير الحداد ، المدفأة ، الشرر ، ضوء الغاز . . . الخ وعن طريق اعتماد على حكايات الجان اكتسب مجموعة من

الطرائف المرتبطة بها : التكرار ، الطقسية ، الرمزية ، السحرية ، نسبة صفات البشر الى الجماد ، اللازمة الدالة ، ازدواجية النفس الثانية . وبهذه الموتيفات وهذه الطرائف أضفى على أبسط الأشياء والشخصيات في الحياة اليومية - أشياء مثل البوابات و النيران والأيدي ، وشخصيات مثل المعتكف والمحكوم عليه ومحدث النعمة - مخاوف وأحلام حكايات الجان .

وترتبط عمومية ديكنز كما ترتبط موتيفاته وأساليبه بالتزامه بحكايات الجان . وقد مكنه هذا الالتزام من أن يطرق نفس الأماني والنوازع التي تطرقها الحكايات وتلك الأماني وليدة استجابات الانسان الأزلية للحياة . وقد تمكنت حكايات الجان كغيرها من الخرافات ، والأساطير والحكايات الرمزية والفنتازية وغيرها من مظاهر العالم الخفي من أن تبقى على مر الزمان لكونها تتضمن آمال الانسان وآلامه . وفي نفس الوقت تحمل حكايات الجان شعورا بغموض الحياة وعجبها وبالقوى المبهمة التي تكمن في طبيعة الأشياء . وقد تمكن ديكنز من أن يضمن أعماله هذه الاسرار بفضل حصيلة من الحكايات ومكنونات العالم الخفي بفن فج في البداية ، مصقول فيما بعد . ورغم أن هذا الجانب في رواياته يعكس خصوصيات زمانه وطابعه الشخصي الا أن خياله المتشبع بالحكايات والمضمون الخرافي والاسطوري لكتاباته يربطه بكتاب كبار برعوا مثله في هذا المضمار من أمثال سوفوكليس وشكسبير ودوستوفيسكي .

ولعله قد تبين لنا من هذا العرض قيمة هذا المؤلف بحيث استحق أن يكون أفضل كتاب عن فن ديكنز الروائي لعام ١٩٧٩ ، ولعل أهم ما يتميز به أنه بحث علمي منظم قام به ناقد متخصص يتمتع بثقافة نقدية راقية ، وبالاضافة الى كونه استاذ الأدب الانجليزي بجامعة كاليفورنيا فهو قد شغل منصب رئيس جمعية ديكنز الدولية ، وله أكثر من خمسين دراسة نقدية عن أعماله . لقد رصد المؤلف ظاهرة استخدام ديكنز لعنصر الفنتازيا في روايته وحاول تفسيرها وتتبع المراحل المختلفة لتطوير استخدامه هذا العنصر وكان في تناوله التفصيلي لكل من دومبي وولده ، وديفيد كوبرفيلد ، وآمال كبار يعرض كل جوانب موضوعه في استيعاب وافاضة وان كان لي بعض التعليقات على الكتاب فتلك هي :

ان المؤلف لم يعط الف ليلة وليلة حقها الكامل في كونها أحد العوامل الرئيسية في اخصاب خيال ديكنز ، وكان من الواجب عليه أن يتناول تأثيرها باسهاب . لقد عكف ديكنز على قرائتها مرات ومرات في صغره وكبره . وتأتي الليالى بعد كل من العهد الجديد وأعمال شكسبير في الاستشهاد منها في الروايات(٦) .

(٦) انظر لنفس المؤلف Harry Stone, ed., Charles Dickens' Uncollected Writings from Household Words (Indiana U. P., 1968), Vol. 2, P. 674. عن إستشهادات ديكنز من الليالي في بعض أعماله التي ظهرت في مجلته الاسبوعية "Household Words" والتي لم تكن قد جُمعت بعد .

(ومن الجدير بالذكر أن روائع الروايات لابد وأن تقوم على أحد الفنون الشعبية : الأساطير ، حكايات الجان ، المسرح الشعبي .. الخ) ويشير ديكنز لليالي بصفة دائمة في رسائله ، كما كان دائم الرجوع اليها في أحاديثه العامة ومنها أحاديثه فى بوسطن وفرجينيا في زيارته للولايات المتحدة عام ١٨٤٢ . ويرى أنجس ويلسون Angus Wilson ، الروائي المعاصر ومن أشد المعجبين بفن ديكنز في كتابه عالم ديكنز The World of Dickens ان الف ليلة وليلة تعد بمثابة شخصية مسز هاريس العلمية بأمور شتى التي ابتدعتها مسزجامب في مارتن تشزلويت للاستعانة بها عندما يكون خيالها في حاجة لعون . وقد اعتمد ديكنز نمط شهرزاد المباشر في سرد حكاياتها (بتركها شهريار كل صباح منتظرا في شوق مواصلة سردها) وذلك في علاقته بقرائه . كما أن قراءاته لنتف من رواياته أمام الجماهير في أواخر أيامه تعد اعادة لنمط السرد المباشر في الليالي .

من الأسباب التي ربما أثرت في تشكيل رؤية ديكنز المزدوجة للحياة ومظاهرها والتي لم يوضحها الكتاب بما فيه الكفاية أن تمثيل مسرحيات شكسبير كان مقصورا على بعض المسارح في العاصمة وبالطبع لم يكن هذا كافيا لجمهور النظارة .

وكانت المسارح على مشارف لندن والتي كان يرتادها ديكنزفي صباه بسد هذه الثغرة ، ولكن ما كان بالامكان أن تعرض مسرحيات شكسبير صافية خالصة ، فكان من الضروري حتى لاتفقد هذه المسارح تراخيصها أن يتخلل المسرحيات المأساوية شيء من الموسيقى والأغاني الراقصة ، والتفكه الخارج على النص . فكانت الليدي ماكبث مثلا تؤدي بالاضافة الى دورها المفجع بعض الرقصات ، وكان بولونيوس يقوم بعزف المزمار وهكذا اختلط المبكى والمضحك أمام سمع وبصر ديكنز .

يشكل عنصر الفنتازيا في الروايات ما يمكن أن يطلق عليه البعد البشري فيها (يدخل في هذا الاستخدام الشعري أو التعبيري للخلفيات التي غالبا ما يعطيها ديكنز الحياة وكيف أن العالم الخارجي يعكس العالم الداخلي للشخصيات) . وديكنز بهذا يعتبر رائدا من رواد الحركة الرمزية والتعبيرية ، وكان أحرى بالمؤلف أن يبرز هذا المعنى بوضوح أكثر . ويشترك ديكنز مع الأخوات برونتي The Brontes وتوماس هاردي Thomas Hardy في هذا المجال ، فقد استمدوا جميعا الاستخدام الدلائلي للخلفيات من القصص القوطي . كما لم يبرز المؤلف وجه الشبه بين رمزية ديكنز ونهج الرمزيين المحدثين . ويشكل النهر على سبيل المثال أحد الرموز الغالبة في ديكنز كما أوضحت الناقدة Dorothy Van Ghent في كتابها عن الرواية الانجليزية ، فله كما هو الحال في آمال كبار قوة سحرية : يغرق الأفراد ويبرز الادلة التي ليست في الحسبان ويحول كيميائيا كل ما يلمسه ، كما أنه العنصر

الدافق الذي يربط الأفراد بمختلف طوائفهم وكذلك بعواقبها وربما يقذف بالضحية في حضن القاتل .

ويرتبط بنقطة احياء الخلفيات هذه موضوع احياء الجماد عامة (واعطاء الأشياء كما هو في الحكايات قوة وتأثيرا تفوق قوة البشر) وعكسه تجميد الاحياء . وعن طريق هذه التبادلية والسيولة بين الناس والاشياء يدين ديكنز المجتمع غير الادمي ، ويبين أن الانسان مسجون في مجتمع يفقده الصفات البشرية ويؤكد الصراع بين الآدمي وغير الآدمى ، بين القوى الايجابية قوى الحب والاخاء والقوى السلبية قوى الاستغلال وافكار الحياة . فكل من دومبي Dombey والسير ليستر ديد لوك Sir Leicester Dedlock وجراد جرانيه Gradgrind وميردل Merdleوكثير غيرهم ظَلَمَة فقدوا آدميتهم ، هم أكثر من أشرار ميلودراميين ، انهم يمثلون المجتمع المادي بعقمه الروحي وفقدانه القيم الانسانية . كما أن مس هافيشام تحيل كلا من بيب واستيلا الى مجرد أشياء باتخاذهما اياهما وسيلة للانتقام لقلبها الكليم . وتكمن الجريمة في نظر ديكنز في تلك النظرة للأشخاص على أنهم مجرد أشياء ووسائل لغايات .

ومن مظاهر الانفصام انقسام النفس الواحدة الى نفس تَخْدُم ونفس تُخْدَم ، فمارتن تشزلويت مثلا « معطف وعباءة نفسه ودائما يلف نفسه بنفسه » (الفصل ٣٣) . ومثل هذا الانفصام يمكن الفرد من أن يقوم بأعمال لصالح نفسه كما لو كانت لصالح الغير . وخير مثال على ذلك بكسنيف Pecksniff الذي نشاهده » ينزع قفازيه ليدفىء يديه أمام المدفأة بكل سخاء كما لو كانت يدي شخص آخر وليست يديه هو (الفصل ٣) . كما أن بعض الشخصيات يبالغ في وصف أحد اعضاء الجسد فيها حتى أنها تبدو كما لو كانت مقتصرة على هذا العضو فقط ، فأصبح Jaggers جاجرز ، الضخم يبدو منفصلا عنه وهذا بمثابة انعكاس لموضوعية القانون الذي يمثله جاجرز ، وأحبال ماجوتيش الصوتية شبيهه بآلية الساعة نتيجة الخوف والظلم ، وفم ويميك Wemmick وعليه الابتسامة العريضة الزائفة يشبه صندوق البريد (آمال كبار) . وشكل آخر للانفصام يكمن في وجوه نفسين للشخصية الواحدة : نفس عامة زائفة تظهر للآخرين ونفس خاصة تبقى مستترة . ويرتبط هذا بموتيف Doppelganger (الشبح) ، وخير مثال على ذلك جوناس تشز لويت Jonas Chuzzlewit الذي يتنكر ويغادر غرفة نومه من باب خلفي ليقتل تج Tigg وباعتقاد كل من في البيت انه ما زال في غرفته . لقد ترك نفسه العامة في الغرفة ولكن هذه النفس تستقل بذاتها وتطارد القاتل وتقرأ في الفصل ٤٧ أنه « كان مرتاعا لدرجة رهيبة من هذه الغرفة اللعينة مما جعله يخاف بطريقة جنونية ليس فقط على نفسه من نفسه . لقد أصبح شبح نفسه وغدا الروح المطاردة والرجل المطارد في

نفس الوقت » . وترتبط فكرة النفس الثانية هذه المستمدة من الحكايات بفكرة المونتاج أو الوصل أو تركيب شخصية على أخرى أو صورة على أخرى ، وهذا ينطبق بالاضافة الى الثنائي ماجويتش Magwitch وبيب Pip على استيلا Estella ومس هافيشام Miss Havisham وجو Joe وأورليك Orlick في آمال كبار . وبذلك يبطل اتهام ديكنز بأنه لايستطيع أن يجمع الخير والشر في شخصية واحدة . ففي عالمه الشيطاني الذي لاتحكمه القوانين الطبيعية يكمل كل قرين صنوه . ويمكن تفسير عنصر المصادفة في الروايات ، والذي كان موضع نقد شديد من النقاد ، اذا ماربطناه بالعالم « العفاريتي » الذي يصوره ديكنز والذي يمكن أن يرتبط فيه مالايرتبط عادة . ولواقعة قلب ماجويتش بيب رأسا على عقب في بداية آمال كبار ارتباط بالقضية الأساسية في الرواية ، بالدرس الذي على بيب أن يعيه وهو أن يتجنب خلط عالم الأوهام بعالم الحقيقة والواقع . والسديم هو الصورة الافتتاحية لهذا الوهم في الرواية عندما يكبر بيب ينظر بعين الاحتقار لعالمه المتواضع ويرفض هويته الحقيقية من أجل المثل الخداعة لمجتمع المظاهر الزائف . لقد سيطرت عليه فكرة أن يكون سيدا محترما . وفي هذا الاطار تاخذ واقعية قلبه دئبلا رمزيا هاما . لقد نسي بيب أنه هو المقلوب وليس الكنيسة ، لقد اختلط عليه الظاهر بالواقع .

وربما يجد بعض القراء أن المؤلف ينسب الى حكايات الجان أكثر مما يجب وأن اصداء تلك الحكايات ونظائرها التي أوردها غير مؤكدة تماما كصورة البحر في دومبي وولده مثلا أو ربطه مجرد حمل بولي تودل Polly Toodle ابنها على صدرها بدلا من بول دومبي عند زيارتها لمنزلها في ستاجز جاردنز Stagg's Gardens بفكرة تبديل الأمير في الحكايات (ص ١٥١) ولكن تلك المسألة توكيد فقط ولاتؤثر على سلامة معالجة ستون لموضوعه . وتعد فكرة اللوازم الدالة التي أسهب في تحليلها في كل من دومبي وولده وديفيد كوبرفيلد من نقاط القوة في الكتاب . وكلما تركز النقاش في الكتاب حول استخدام ديكنز للحكايات كجزء من طريقته في اعادة تشكيل الحياة في رواياته لاحول مجرد أوجه التطابق بين الأحداث والشخصيات و تلك الحكايات كلما كان النقاش مفيدا ومثيرا . لقد اختار المؤلف عبارة ديفيد « الحياة كانت . . . حكاية جان عظيمة كنت على وشك البدء في قرائتها كاقتباس استهلالي epigraph للكتاب . ويشترك ديكنز مع ديفيد في أن القراة والسرد واعادة التشكيل هي سبيلها الى فهم وتغيير عالميها .

وربما يلاحظ القارىء بعض حالات التكرار ولكنها قليلة جدا ، فمثلا واقعة قذف ستيرفورث Steerforth لروزا Rosa بالمطرقة قد تكررت ثلاث مرات في صفحتين متتاليتين (٢٣٨ ، ٢٣٩)

ولا أنسى أخيرا أن أثني على الجهد الضخم الذي بذله المؤلف في بحثه الذي بلغ ٣٧٠ صفحة من القطع الكبير والذي طالما انتظرناه ، ولست أشك في أن الكثيرين من المهتمين بفن الرواية عامة وادب ديكنز على وجه الخصوص يشتركون معي في هذا الشعور .

القـرد الـذى فينـا

مصطفى عوض ابراهيم

لاشك أن فكرة الاصول القردية للانسان ليست محدثة ، بل تمتد جذورها الى أكثر من مائة عام عند ظهور نظرية داروين عن التطور بالانتخاب الطبيعي ، حين قرر أن الانسان ما هو الا نتاج للتطور ، مثله في ذلك مثل كل أشكال العضويات التي بدأت وحدات بسيطة ثم تعقد تركيبها ووصلت الى الشكل الذي نراها عليه الآن بالانتخاب الطبيعي ، خلال الزمن وحتى قبل عصر داروين ، فقد درج علماء التقسيم على وضع الانسان من الناحية البيولوجية ضمن شعبة الثدييات التي تشمل العديد من أنواع الحيوانات الأخرى الاقل رقيا ، ولكنهم ميزوا مع ذلك بينه وبين الثدييات الأخرى بوضعه في رتبة أعلى وهي رتبة الرئيسات التي تتضمن الرئيسات الدنيا ، وهي الليمورات والصعابير واللوريسات وذناب الشجر ، والرئيسات العليا وهي نسانيس العالم القديم ، ونسانيس العالم الجديد ، والقردة العليا (الغوريللا والشمبانزي ، والأورانج أوتان) واخيرا الانسان على قمة تلك الشجرة العائلية .

ولكن بعد ظهور نظرية داروين وصدور كتابيه أصل الانواع ، وأصل الانسان بدأ العلماء بتتبع الأصل التطورى للانسان سواء بالبحث عن الحفريات لمعرفة الحلقة المفقود بين القردة والبشر ، التي تحدث عنها داروين وقرر وجوب وجودها ، أو بدراسة سلوك أقرب أقارب الانسان وهي القردة العليا ، للتدليل على صحة نظريته وصدقها لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف

بينها وبين البشر في عديد من النواحي ، مثل طريقة الحصول على الغذاء ؛ والسلوك الجنسي ، وطرق التفكير ، وأساليب التصرف في مختلف المواقف ، ونوعية الحياة التي يحيونها والبيئات التي يحتلونها ، والأنشطة التي يمارسونها وطرق العناية بالصغار ـ ٠٠٠ وغيرها . وفي السنوات الأخيرة قام العديد من علماء الانثروبولوجيا والحيوان والرئيسات بدراسات حقلية رائدة لتلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية لمعرفة العديد من تلك النواحي . والكتاب الذي نعرض له هنا هو أحد هذه الكتب التي تتناول سلوك القردة العليا بالدراسة ، في محاولة لفهم سلوك الانسان والطرق التي يختلف فيها عن تلك الحيوانات ، في ضوء الدراسات الحقلية التي قام بها المؤلف على الجيبون ، والسيامنج ، والغوريللا ، والشمبانزي ، والشمبانزي القزم او البونوبو ، وأخيرا الأورانج أوتان . وذلك من خلال أصطحاب القارىء في رحلة قصيرة داخل أدغال افريقيا ، وغابات جنوب شرق أسيا ، لتتبع تلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية ، ثم الغوص به (اي القارىء) في اعماق التاريخ البعيد لتتبع أسلافه واصولهم ، وأخيرا العودة به مرة أخرى الى مجتمعه الانساني ، للتعرف على سلوكه وميزاته الاجتماعية ومنجزاته ، وفشله واخفاقه ، وآلامه وأحلامه وتطلعاته ، من خلال مقارنته بابناء عمومته القردة العليا .

اذا تخلى عن ملابسه واساليبه الفكرية ولغته ، فالقرد داخلنا ونحن مغلفون بملابس ، ولذلك فهو يذكر انه لكي نفهم انفسنا يجب أن نفهم تلك القردة من حيث البيئات التي يقطنونها والغذاء الذي يتناولونه ، والحيوانات الاخرى التي تشاركهم البيئة وامزجتهم ، وطباعهم ، وتكيفاتهم التشريحية والحركية وشكل تنظيمهم الاجتماعي ، ومقدار ذكائهم ، وطرق الاتصال بينهم والصفات التي يشتركون فيها مع الانسان وغيرها من التي يختلفون عنه فيها . فالواجب علينا دراسة القرد في حالة رغبتنا في اقامة نظريات عن اصل وبدايات الانسان .

ويتناول المؤلف في الفصل الاول أول نوع من أنواع القردة التي يعرض لها وهو الجيبون Gibbons ويصف البيئة الغابية لذلك النوع الذي قام بدراسته في الملايا Malaya عام ١٩٧٣ باسلوب شاعري يكاد يشعر القارىء بانه داخلها .

ويصف الحيوانات التي تشارك هذا النوع في البيئة ، ويستعرض تحركات الجيبون وتنقلاته على الاشجار ، حيث ينتقل لمسافة كيلو مترين فقط في اليوم الواحد للبحث عن مصادر الغذاء التي تتألف معظمها من أشجار الفواكه وخاصة اشجار التين . وعلى الرغم من ان الجيبون هو اقل القردة قرابة وشبها للانسان كما يذكر المؤلف الا ان هناك بعض الجوانب التي يشترك معه فيها مثل افتقاره للذيل ، وقدرته على الوقوف

منتصبا ، والحياة العائلية المونوجامية التي تميز تلك العـائلة ، وكذلـك الاقليمية التي يتصف بها ، فهو يحتل اقليما يـدافع عنـه ، وهو (اي الجيبـون) يختلف تمـامـا عن الحيـاة الأمـويـة البـوليجامية التي تميز مجتمعـات النسـانيس ، وينتقل المؤلف في فصله الثاني الى نوع آخر من انـواع عـائلة الجيبـون وهـو السيـامنـج Siamangs الـذي يحتـل نفس البيئـة مـع الجيبون حيث قام بدراستها معا . وهو يذكر ان السيامنج اسهل في تتبعه من الجيبون وهذا راجع الى عدم قدرته على التنقل بسرعة الجيبون ، لأنه أكبـر حجـما وهـو يستعمـل عـددا محـددا من الاشجار التي يتغذى أو ينام عليها . وهو غالبا يتغـذى على نفس الشجـرة التي ينام عليهـا ، واشجار التين تمثل مصدرا غذائيا هاما له حيث تعتبر ثمارها وجبة اساسية في حيـاته . ولكنـه كثيرا مايوازن بين وجباته بالحصول على بعض نسب من البروتين ، حيث يقوم بزيـارة بعض أشجار الحشرات ، ويقتات كذلك على بعض اوراق الاشجـار . والسيـامنـج يمضي معـظم أوقاته في الغذاء وليس في التنقل والتحرك بين الاشجـار ، ويصف الكاتب السيـامنـج بـانـه حيـوان مـونـوجـامي مثـل الجيبـون ، ويتميـز بـالاقليمية كـذلك ، ولكنـه يتميز بـأنه يحمـل صغيره أثناء ترحاله وتجوالـه ، وكثيرا مـايحمل الـذكر الاب صغيـره وبذلـك يعطي الفـرصة للانثى لبناء قوتها من جديد للبدء في حمل آخر ، ولكن الصغير يجب أن ينام مع أمه اثناء الليل ،

ويتسـاءل المؤلف عن الاسبـاب التي لم تجعـل السيامنج والجيبون يعيشان في تجمعات اكبر ، ومؤلـف الكتـاب هو جـون مـاكينـون John Mackinon ولـد في لـيـدزLeeds عـام١٩٤٧ . بـدأ اهتمـامـه بحيـاة الأدغـال والتوحش منذ نعومة اظافره الى ان اصقلها بكلية ونـشـسـتـر Winchester Colleage وأمضى عاما كاملا في دراسة سلوك الحشرات والشمبانزي في تنزانيا مع جان جودال قبل ان يذهب الى اكسفورد Oxford للحصول على درجته العلمية في علم الحيوان . وقد حصل على درجة الدكتوراه نتيجة ابحاثه التي اجراها على الاورانج أوتان ، حيث وطدت من مكانته كعالم حيوان . وقد ألف مكينون العديد من الكتب ، نذكر منها بحث عن القرد الاحمر ، وحيوانات آسيا ، وقام كذلك بتصوير العديد من الافلام التليفزيونية عن حيوانات الغابة . ويعيش دكتور مكينـون حاليـا مـع زوجتـه وطفليـه بغـابـات اندونيسيا في مشروع بحث هناك .

ويتألف الكتاب من ثلاثة اجـزاء تتضمن أحد عشر فصلا بالاضافة الى المقدمة . وينقسم الجزء الاول الى ستة فصول ، يعـالج المؤلف حيـاة القردة الخاصة ويفرد لكل نوع فصلا كـامـلا ، بحيث يتنـاول ستة أنـواع وهي الجيبـون ، والسيـامنـج ، والغـوريللا ، والشمبـانـزي ، والشمبـانـزي القـزم أو البنـوبـو ، وأخيـرا الاورانـج ـ أوتان . وهـذا الجزء تـأسس عـلى

مذكرات المؤلف الميدانية عن تلك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية ، وهو يصف لنا في هذا الجزء حياة القردة الخاصة واسلوب التغذية لديها ، ونمط دفاعها عن اقاليمها أو بيئاتها ، والسلوك الجنسي والتزاوج عندها وطرق تربيتها للصغار والتفاعل او العلاقات بين افراد النوع ، وبين النوع ككل وبين الانواع الأخرى .

ويتألف الجزء الثاني من فصل واحد وهو يدور حول الحفريات المبهمة والحلقات المفقودة التي تعتبر المؤشرات والدلائل الملموسة عن انحدار الانسان من انواع اخرى ، ويتتبع المؤلف في هذا الفصل الحفريات التي اكتشفت ، محاولا العثور على الاصل المشترك بين الانسان والقردة العليا . والجزء الاخير من الكتاب ينقسم الى اربعة فصول يتناول فيها المؤلف اثر التكنولوجيا على البشرية ، وكيف انها كانت السبب في كوننا بشرا ، وسلوك الانسان داخل العائلة مقارنا بسلوك عائلات القردة ، والانسان ومجتمعه المحلي والاختلافات بينه وبين مجتمعات القردة ، واخيرا الانسان ومستقبله والطريق الذي يسير فيه من خلال الاجابة على سؤال وهو الى اين ايها البشر ؟ .

وفي المقدمة يذكر المؤلف أنه سوف يحاول حل تلك المشكلة التي تربطنا بابناء عمومتنا القردة العليا من خلال القيام برحلة الى الغابات الاستوائية في افريقيا وجنوب شرق اسيا ، وكان هدفه المباشر هو الحصول على فهم أفضل لتلك الحيوانات . ولكن القوة الكامنة وراء ذلك الهدف هي الحصول على أفضل فهم لنفسه . ويقرر المؤلف ان الانسان ما هو الا قرد ، وذلك مثل النسانيس ، ويجيب على ذلك بانه راجع بلاشك الى تخصصهم الغذائي كآكلي فواكه ، فالفواكه من الأشياء النادرة في الغابة بمقارنتها باوراق النباتات والاشجار الغزيرة ، التي تمثل الوجبة الرئيسية للنسانيس التي تتغذى على الفواكه بطريقة عرضية عندما تجدها أمامها ، ولكنها لاتبذل اي جهد في البحث عنها كالسيامنج ، ويقرر الكاتب ان السيامنج والجيبون لو انها التجأ الى اوراق الاشجار سيجدان منافسة شديدة مع النسانيس الوفيرة العدد . ويتتبع الكاتب في الفصل الثالث نوعا آخر من القردة العليا وهي الغوريللا Gorillas حيث قام بزيارتها في جبال زائير عام ١٩٧٥ ، وبنفس الاسلوب الذي اتبعه في الفصول السابقة بدأ في وصف البيئة التي تعيش فيها الغوريللا والمسالك والدروب التي ارتادها للكشف عن مسار جماعات الغوريللا باقتفاء أثرها ، ويذكر أن الغوريللا حيوان اقتصادي . فهي تستغل مصادرها الغذائية بطريقة اقتصادية ولاتدمر المصدر تماما ، فهي سرعان ماتنتقل الى مصدر آخر حيث تكون الاعشاب والحشائش نمت مرة اخرى في المصدر الاول لتعود اليه مرة اخرى ، وهي تعيش وتنتقل في جماعات من مكان لأخر حيث يتولى الذكور حماية الجماعة من

اي خطر يتهددها . وهذا الذكر يلعب دورا رئيسيا في تحديد اماكن الترحال والنوم . ويقوم كذلك بتحديد أوقات أنشطة الجماعة . هي تتغذى على كميات هائلة من الاعشاب والنباتات ، وهذا راجع بالطبع الى كبر احجامها . ويخصص الكاتب الفصل الرابع للشمبانزيChampanzeesوالنقطة الجوهرية التي يعالجها هي المتصلة بالسلوك الجنسي حيث تعبر الاناث عن حاجتهن للجنس بتغيرات فسيولوجية تصيب عجزهن حيث ينتفخ ويتغير لونه الى الاحمرار . ويلتقي الذكور بالاناث أثناء احمرار عجزهن ، ويذكر المؤلف ان ذكر الشمبانزي يتمتع بالقدرات الجنسية الهائلة ، فداخل خصيتيه اعداد لاحصر لها من الحيوانات المنوية ، وهوينظر الى العملية الجنسية على انها شيء تافة او قليل الاهمية ، فهي لاتتعدى كونها طريقة من طرق تحية الذكر للأنثى ، فمن الممكن ان يستمر الذكر في تناول غذائه اثناء الممارسة ، فالجنس يحقق وظيفة اجتماعية في نظر المؤلف اكثر منها جنسية . ويرتبط افراد تلك المجتمعات سويا تبعا لحاجتهم المتبادلة للحماية والدفاع . وظاهرة تقسيم العمل تظهر في ذلك المجتمع ، فيقوم الذكور بصيد بعض الحيوانات ، أما الاناث فتصيد الحشرات . والشمبانزي من الحيوانات الكسولة في رأي المؤلف ، فهي تشبع احتياجاتها الغذائية اليومية في ساعات قليلة ، أما بقية اليوم فهي تقضيه في الاسترخاء والمرح والاستمتاع بالجنس ، وتقع ساعات الاسترخاء في منتصف اليوم حيث ترتفع درجة الحرارة ويقل النشاط .

وينظر المؤلف الى اللعب عند الشمبانزي على انه طريقة لتعلم المهارات ، فهو يتعلم المهارات الخاصة بسرعة الحركة . وفنون الحرب والنزال ، وطريقة صنع الادوات والاشياء .

فالشمبانزي حيوان اجتماعي ، متعاون ، يعيش داخل انساق اجتماعية وله ثقافة متطورة ، ويستخدم الأدوات ، ويصيد الحيوانات ليأكل ، حيوان له لغته الخاصة في التحدث والاتصال ، كل ذلك يجعل الشمبانزي مشابه الى حد كبير للظروف البشرية اكثر من اي نوع ذكرناه من قبل كالقردة الدنيا والغوريللا .

اما الفصل الخامس فهو عن البونوبو Bonobos او الشمبانزي القزم ، ويذكر المؤلف انه تم التعرف عليه كنوع يختلف عن الشمبانزي عام ١٩٢٩ ونظرا لندرته فقد نظر اليه العلماء على أنه اذكى انواع القردة واقربها الى الانسان . وقام الكاتب بزيارة هذا النوع في زائير عام ١٩٧٥ ، ويختلف البونوبو عن الشمبانزي في الحجم ، وهو اكثر تخصصا وتكيفا للعيش في الغابات الاستوائية ، بعكس الشمبانزي الذي يحتل بيئة أوسع ، حيث يعيش في مناطق السفانا والمناطق الغابية الاستوائية ايضا ، وهو يذكر ان مجتمعات البونوبو تختلف

عن مجتمعات الشمبانزي من حيث العدد ايضا ، فاكبر جماعة شاهدها العلماء كانت تتكون من عدد من الذكور وثلاث اناث فقط ، واغلب الظن انها تجمعت لممارسة الجنس فقط وجماعات البونوبو تتميز بالاستقرار والثبات ، فهي لاتقبل اعضاء جدد في الجماعة مثل الشمبانزي .

وفي رأي المؤلف ان البونوبو فرع حديث نسبيا من الشمبانزي ساعد الانتخاب الطبيعي على ظهوره ، والعديد من النواحي السلوكية لديه تشير الى انه عاش في فترة من الفترات على الارض ، ولكن لم تعد تلائمه تلك الوسيلة حيث اصبح من السهل افتراسه من حيوانات الغابة المفترسة . ويختلف البونوبو كذلك عن الشمبانزي في النظام الابوي والعائلي الذي يتكون غالبا من الذكر والانثى ، ويقع الجهاز التناسلي لانثى البونوبو اسفل البطن مباشرة وذلك يساعد على سهولة التكاثر على الاشجار ، والبونوبو اكثر قدرة كذلك على الحركة والفرار من الاشجار . ويؤكد المؤلف ان اكبر دليل على ان البونوبو وافد الى الغابة هو افتقاره الى ظاهرة الصياح او الصراخ ، وكذلك افتقاره الى الاقليمية (الحماية والدفاع عن البيئة) وسبب عدم وجود الاقليمية لديه هو انه كان يوما ما شمبانزي متعاونا يعيش داخل مجتمع اكبر في راي المؤلف . وتطرق المؤلف في الفصل السادس الى الحديث عن الاورانج اوتانOrang — Utans الذي زاره في بورنيو Borneoوسومطرة Sumatraعام ١٩٦٨ و ١٩٧١ ويطلق عليه اسم انسان الغابة وهو حيوان بطيء يتحرك حوالى ٥٠٠ ياردة في اليوم بأكمله ، ويتحدث المؤلف كذلك عن الحياة الجنسية للاورانج اوتان ويذكر انها مشابهة الى حد كبير للسلوك الجنسي عند الانسان ، والممارسة الجنسية تستغرق وقتا اطول من مثيلتها لدى الشمبانزي ، فهي عمل غرامي وغزلي ، ويمارس الاورانج الجنس على الاشجار بطريقة اكروباتية حيث يقفز الذكر على الانثى ويعانقها من الامام والخلف ومن اعلى واسفل . وبعد ان ينتهي المؤلف من عرض الجزء الاول من كتابه ينتقل الى الجزء الثاني الذي يتألف من فصل واحد فقط بعنوان الحلقات المفقودةMissing links ويعالج في هذا الفصل (وهو الفصل السابع) مشكلة التطور وأصل الانسان في ضوء ماتجمع لدينا من ادلة مادية ملموسة وهي الحفريات Fossils ، ويتعرض بصورة سريعة لنظريات التطور كنظرية الخلق الخاص ، ونظرية الكوارث ، ونظرية التطور بالانتخاب الطبيعي لداروين ووالاس ويلخصها فيما يلي : -

١ - تميل العضويات الى الاختلاف والتنوع داخل النوع .

٢ - تميل العضويات الى التزايد في العدد بزيادة ذريتها .

٣ ـ تميل العضويات كذلك الى الاحتفاظ باعدادها حيث تموت اعداد كبيرة من صغارها .

٤ ـ يميل الصغار الى مشاكله الآباء لأنهم يحملون المادة الوراثية الموجودة في بويضة الأم ومني الأب .

٥ ـ تنتخب الطبيعة الصفات الاكثر تكيفا مع البيئة وتلك الصفات تنتقل عبر الاجيال .

٦ ـ يتغير شكل النوع ليلائم الظروف البيئية . ويمكن ظهور نوع جديد في حالة حدوث تزاوج بين الانواع المنعزلة وراثيا .

ويذكر المؤلف ان داروين لم يكن على علم بالطريقة التي تنتقل بها الواحدات الوراثية ، اما اليوم فنحن على علم بقوانين الوراثة وبالتكوين البيوكيميائي لحمض ال D .N.A ،وكذلك اصبحنا نملك حفريات عن انسان وقردة ماقبل التاريخ تساعدنا على اقتفاء أثر الانسان في عصور ما قبل التاريخ ، بالاضافة الى المناهج البيوكيميائية التي ظهرت أخيرا وساعدتنا على قياس التشابهات بين القردة الحالية والانسان ، وزادت من قدرتنا على تفسير السجل الحفري كقياس درجة التشابه في مجموعات الدم ومعدلات الترسب في الدم ، وبناء جزيألهيموجلوبين ، وكذلك المقارنة بين نواة الكروموسوم في كل من القردة والانسان . تلك التي اثبتت التشابة بين الغوريللا والشمبانزي والانسان ، واثبتت اختلافا بينه وبين الاورانج اوتان والجيبون ، وهذا على النقيض من التصنيف الاول الذي يضع الغوريللا والشمبانزي والاورانج ـ أوتان في خط واحد .

وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى سرد رحلة تطور الانسان والقردة بادئا بالقردة المصرية Aegiptopithecus وقرد الشجر Dryopithecinss والقردة المسماة Dendropithecinss وقرد البروقنصل Proconsul وقردة راما Ramapithecus والقردة القديمة Para-nthropus وانسان جنوب افريقيا القرد Au-stralopithecus والنقطة الجوهرية التي يركز عليها المؤلف هي المتصلة بتحول القردة الى بشر ، وذلك راجع الى تغير الظروف المناخية في مختلف العصور ، والتي ادت الى تدمير البيئة الشجرية لبعض تلك الانواع مما أدى بها الى النزول من الشجر والسير على الارض ، وتحولهم الى الصيد بدلا من التقاط الفواكه كطريقة في الحياة ، وهذا أدى الى تغيرات تشريحية في شكل اليد وقدرتها على قبض واستعمال الاوات ، وكذلك في شكل العمود الفقري والسير على قدمين بدلا من اربع . وكذلك تطور جهاز الكلام والذكاء كوسيلة من وسائل الاتصال بين الجماعة التي تعيش على الصيد ، وكذلك التغيرات التي طرأت على شعر الجسم .

ويستعرض المؤلف في الجزء الثالث من

الكتاب الظروف التي ادت بنا الى ان نصبح بشرا ، والمميزات الاجتماعية والفكرية للانسان ومنجزاته ومخاوفه وآلامه واحلامه وتطلعاته ، وذلك في اربعة فصول هي الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر . ويبدأ المؤلف الفصل الثامن قائلا ان الانسان عاش كصائد ـ جامع ما يزيد عن ٩٠٪ من تاريخه ، وان استعمال الادوات هي الخطوة الاولى في تاريخ البشرية حيث يختلف عن القردة في طريقة استعمالها ، فالقردة تستخدم الادوات لقضاء حاجة معينة وتلقيها بعد ذلك ، اما الادوات البشرية فتتميز بالاستمرارية حيث يحتفظ بها الانسان لاستخدامها في ظروف اخرى مشابهة . وينتقل المؤلف الى تطور اساليب الاتصال واللغة عند الانسان ، ويستعرض بعض الدراسات اللغوية التي اجريت على الشمبانزي لتعليمه اللغة ، وهو يذكر ان اللغة يجب ان تكون واحدة داخل افراد الجماعة كوسيلة للاتصال والتفاهم ، وكلما زادت المسافة بين أفراد الجماعة قلت اهمية الاشارات ، واصبح للاصوات معنى ومغزى ، واللغة تساعد الانسان على حل بعض مشاكله بالطرق السليمة مع غيره دون الخوض في صراع ، مثلما يحدث بين الحيوانات الأخرى ، ويتساءل المؤلف عن ماهية الكلام ودلالته بالنسبة للبشر واختلافه عن اساليب الاتصال المألوفة عند القردة ، ويجيب على ذلك بقوله ان معرفتنا بالطريقة التي يخزن بها المخ المعلومات مازالت غامضة ، ويستعرض آراء مختلف الباحثين وآراءهم بالنسبة للطريقة التي يعمل بها العقل ، حيث يذكرون انه توجد ثلاث خرائط عصبية خلوية داخل المخ عن البيئة المكانية والزمانية التي نعيش فيها ، وعن الاماكن التي نعرفها ، والناس الذين نقابلهم ، فهناك تطورات اولية توجد في عقل الفرد تثار بمجرد سماعه اى لفظ أو عبارة يستطيع بها ادراك وفهم المعاني ، ويناقش المؤلف كذلك الكتابة واثرها على تطور اللغة ورقي الثقافة وانتقال المعلومات عبر المكان والزمان ، فثقافتنا البشرية تتميز بالتراكم والاكتساب من الاجيال السابقة . ويذكر ان الممارسات الثقافية الفريدة في سلوك الانسان هي السحر والدين الذي يلجأ اليه الانسان عندما تعترضه مشاكل يصعب عليه حلها ، فعندما عجز عن تفسير الظواهر البركانية افترض انها مساكن للآلهة . ويتناول ايضا الظواهر الثقافية الأخرى كالفن والموسيقى ، وهو يعتبر الفن نوعا من تأكيد الذات او الأنا EGO ، والتعبير عن الذات ايضا ، حيث ان الانسان يعيش داخل مجتمع لايعترف بالفردية ، وهنا جاءت قيمة الفن للتعبير عن تلك الفردية .

ويؤكد المؤلف على ان اللغة والتكنولوجيا والمنتجات الفنية كان لها ابعد الاثر في تباعد الانسان عن القرد والحيوانات الأخرى من الناحية الثقافية .

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى الفصل التاسع من كتابه بعنوان الانسان والعائلة . وهو يذكر ان

السلوك الاجتماعي هو السلوك التعاوني الذي نراه بين فردين او اكثر .

وهو يعتبر الرئسيات كلها اجتماعية في سلوكها ، لأنها تعتني بالصغار وتتفاعل مع بعضها في شكل السلوك الجنسي بين الذكور والاناث . ويناقش الاختلافات بين الانسان والقردة من حيث شكل العائلة وتنظيمها والعلاقات بين مختلف افرادها ، كما يتناول بعض المشاكل الاجتماعية مثل الاغتصاب والدعارة ، ويصف الاغتصاب بانه سلوك ذاتي ، عدواني غير اجتماعي وشكل مرضي من اشكال الحصول على الجنس واشباع الرغبات ،وفي بعض الاحيان يؤدي الاغتصاب وظيفة اجتماعية اكثر منها جنسية ، فهو نوع من تأكيد الذات والشعور بالقدرة على السيطرة على المرأة . وينظر المؤلف كذلك الى الدعارة Prostitution على انها من الحرف القديمة التي احترفها الانسان ووظيفتها تقديم الجنس .

وفي الفصل العاشر بعنوان « الانسان ومجتمعه المحلي » ينتقل المؤلف الى صورة اكبر من صور العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين عدة عائلات تشترك في تنظيم اجتماعي معقد يطلق عليه المجتمع المحلي . وهو يقول في ذلك ان العائلات الانسانية غير مكتفية ذاتيا ولذلك يجب ان تتعاون العائلة مع بقية افراد القرية الذين تربطهم بهم علاقات يومية . وهم يتعاونون ايضا مع الدوائر الاجتماعية الأوسع ، وتربطهم علاقات بالمجتمعات المحلية المجاورة ، بكل القرى التي تنتمي الى نفس القبيلة ، وبكل القبائل التي تشترك معهم في اللغة . وبكل القوميات الأخرى من نفس الجنس ، واخيرا يتفاعلون مع النوع ككل . ويذكر المؤلف ان النوع الوحيد الذي يشبه الانسان من حيث تنظيمه الاجتماعي هو الشمبانزي .

واخيرا يستعرض المؤلف في الفصل الحادي عشر والاخير ماسبق ان تناوله في الفصول السابقة بصورة سريعة محاولا القاء نظرة على المستقبل من خلال معرفة الطريق الذي سرنا فيه في الماضي . هو يتساءل عن ذلك قائلا هل يمكن ان تساعدنا معرفتنا بالماضي في تخطيط رسم مستقبلنا لعبور طريق اللامجهول ؟

وهو يؤكد على أننا نواجه الآن مشاكل لم نواجهها من قبل ، واصبح الانتخاب الطبيعي محدود الفائدة ومن هنا يجب ان نعتمد على ذكائنا الجماعي ويتساءل عن نوع المستقبل الذي ينتظر الجنس البشرى ، وهل سيتطور هذا الجنس ام سيفنى . وهو يؤكد على انه ليس هناك تهديد للنوع ككل بسبب الكوارث المنتظرة,نتيجة قلة الاكسجين في الغلاف الجوي ، او نتيجة الحركات البركانية والزلازل التي تهدد البشر ، فكلها في اعتقاد الكاتب كوارث محلية لاتمثل

تهديدا للنوع ككل . فليس هناك خوف من الطبيعة ، وانما الخوف يكمن في الانسان نفسه بسبب تزايد الكثافة السكانية وقلة المصادر البيئية التي لايحسن الانسان استغلالها ، والانسان في رأي المؤلف يلوث بيئته وانهاره ومجاله الجوي المحيط به ، فأكبر عدو للانسان هو الانسان نفسه . ويتساءل المؤلف قائلا ان العالم ينقسم الى معسكرين يتنافسان في سباق التسلح ، فهل تكفي تلك الاسلحة لتدمير الحضارة ان لم تكن البشرية جمعاء في حالة نشوب حرب نووية بين الكتلتين ؟ ويجيب المؤلف على ذلك بان هناك بعض الامان حيث لن تستطيع اي كتلة تحقيق النصر النووي الكامل دون ان تعاني هي نفسها من الدمار ، ولكن هل ستستمر الحالة كذلك ام ستنجح احدى الكتلتين في ابتكار درع نووي كامل لحماية نفسها ؟

وهنا يذكر الكاتب ان التاريخ لايقدم لنا عزاء ، حيث لم تحدث حروب نووية خلاله من قبل . ويقول انه يجب على النوع البشري ككل ان يتحد داخل عسكر واحد . ولكن ضد من ؟ هنا يقرر الكاتب اننا يجب ان نتوقع ونتخيل وجود حياة على الكواكب الاخرى ، فنحن معرضون لأخطار خارجية من مخلوقات على مستوى عال من الذكاء خارج كوكبنا ، ونحن في حاجة الى تهديدات خارجية لنتماسك ونتحد كنوع ، ويقول انه في حالة غياب تلك الاخطار فنحن في حاجة الى اختلاق نوع آخر من الاخطار في شكل اشباح وشياطين وارواح شريرة ، ومن المنطقي ان نتصور وجود أناس لهم قوى خارقة في العوالم الاخرى ، وعلينا ان نعد انفسنا لمواجهة هذا الخطر المشترك بأقصى ما يمكن .

ويذكر المؤلف ان هناك تهديدات اخرى اكثر واقعية في حاجة الى اتحادنا وتماسكنا ، فيجب علينا توحيد جهودنا في البحث عن مصادر الطاقة والبترول والمعادن والفحم والاسماك البحرية وغيرها ، كل تلك مشاكل يجب ان نواجهها على الصعيد العالمي اذا كنا نبحث عن حل لها . فيجب علينا جميعا ازالة الحدود القومية بيننا ، ونشترك في لغة واحدة تساعدنا على التبادل الثقافي الحر ، وانتقال المعارف العلمية والتكنولوجية . ويهاجم المؤلف الاساليب التي تتبعها الدول الكبرى في حفظ التوازن وتزويد الدول الأخرى بالاسلحة لحفظ الصراع ، ويؤكد ان الطريقة المؤثرة لحفظ ومنع الصراع هي التهديد بالحرمان والقطع ، ويستشهد على ذلك بالتأثير السياسي لقرار حظر البترول العربي .

ويتناول المؤلف بعد ذلك اثر التصنيع والحضارة على البشرية ، فالشعور بالضياع والاغتراب وعدم القدرة على تحقيق الذات والامراض العصبية والنفسية ، والنوازع التدميرية وجرائم القتل والطلاق وهجر الاطفال

والمشـاكل الجنسية ، كلها ظـواهر منتشـرة في المجتمعـات الغـربيـة عـلى الـرغم من التقـدم الاقتصـادي والـطبي في تلك المجتمعـات ، ويناقش بعد ذلك موضـوع الزيـادة السكانيـة الرهيبة التي تجتاح العالم واصفا لها بعض الحلول مثل التحكم في الجنس ووضع قيود اقتصادية وضغـوط اجتماعيـة على العـائلات التي يـزيد حجمها عن عدد معين من الافراد .

ويتسـاءل اخيرا عن فـائـدة الابحـاث التي نجـريهـا عـلى القـردة (كـالابحـاث الـطبيـة والسيكـولوجيـة) وتعليمها اللغـة وغيـرهـا ، ويجيب على ذلك بقوله ان الشمبانزي حيوانات زكية يمكن ان تنجز أعمالا معقدة بمهارة فائقة ، فالانتخاب الصناعي الذي يمكن ان نقوم به على مخ الشمبانزي لمدة الف جيل مثلا لاشك انه يمكن ان يفيد كثيرا ويؤدي الى تطور ذكاء تلك الحيوانات بشكل غير عـادي ، وبذلـك يمكن الانتفاع منها والحصول على خدماتها للانسان ، كما انتفعنا من قبل بالدرفيل بتوظيفه في اعمال الجاسوسية تحت الماء ، وبالافيال كآلات حربية في الحروب القديمة ، وكذلك الحصان والكلب فلنتصور الشمبانزي يوما ما يسيطر على العـالم ويطلب حقوقا متساويـة كما في كـوكب القرود لبييـربول Bierre boulle .

وأخيرا يختتم المؤلف الفصل الأخير من كتابه قائلا إنها كلها تخيلات واحلام غير مشوك في احتمال حدوثها ، فحقيقة علم اليوم هى خيال الأمس ، والعلم يتقـدم بـاستمـرار ، فـربمـا يستـطيـع الانسـان بنـاء المـدن تحت الانهار والمحيـطات ، وزرع الصحراء واذا بـة الجليد القـطبى ، وربمـا يستيـطيـع اللعب بـالمـادة الوراثية ، فيشكل حيوانـات جديـدة ونباتـات جديدة وعقاقير جديدة وامراض جديدة ، كلها تخيلات ولكنها ممكنة الحدوث . . ويتضح من خلال هذا العرض ان الموضـوع الذى يتنـاوله الكـاتب ليس بجـديـد في مجـال الـدراسـات الانثـروبولـوجيـة والبيـولـوجيـة (وخصـوصـا البيــولـوجيــا الاجتمــاعيــة) فمعــظم تلك الموضوعات التي تطرق اليها بالبحث سبقة اليها العـديد من العلماء ، وتنـاولوهـا بطريقـة اكثر تعمقـا ، ومن وجهة نـظرى تعارض ، هنـاك بعض السلبيـات اود ان اشير اليهـا سـواء من ناحية التحليل او العرض .

اولا : طـالمـا ان اغلب الادلـة والحقـائق التي يتضمنها الكتاب قامت على الدراسات الحقلية التي قـام بها المؤلف بنفسه على تلك الانـواع مـسـتـعـينـا في ذلـك بـالمـنهـج المـقـار ب٥٠٠لآحوجصفصغخرق وقغـاحي كان من واجبه عقد بعض المقارنات بين الانسان وبـين الجمـاعات الحيـوانية التي تعيش عـلى الصيـد والقنص كالذئاب والكلاب البـريةوالاسـود ، فاللحم يعتبر عنصرا هاما في الغذاء الانساني ، وقـد اثبت السجل الحفري ان اكـل اللحـوم واستخدام الادوات تم حدوثهما في أولى مراحل

انفصال الانسان عن القردة العليا ، طالما انه وصف الانسان بانه صائد جامع .

ثانيا : نظرا لقصر المدة التي امضاها المؤلف في دراسة سلوك تلك الحيوانات فانه لم يستطع ان يمدنا بصورة متكاملة عن حياتها ، بالاضافة الى الاسلوب الوصفي الشاعري الذي اتبعه في وصفها فجاءت الفصول الستة الاول من الكتاب اقرب الى ادب الرحلات منها الى الدراسات العلمية المتعمقة ، بالاضافة الى انه لم يقدم العديد من النواحي التشريحية التي يتشابه فيها الانسان مع تلك الحيوانات ، وانما تناولها بصورة سطحية عرضية في ثنايا الكتاب .

ثالثا : لم يستطع المؤلف ان يقدم لنا تحليلا قويا لشبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة داخل العائلة البشرية ، وانما اقتصر على وصف العلاقات السطحية التي تنشأ بين افراد العائلة كعلاقة الأم بالطفل ، والأب بالأم ، فلم يتناول علاقة الطفل بأقاربه وبأصدقائه ، وكذلك علاقة الاب او الام بالجيران الاقارب والاصدقاء ، ولاعلاقتهم كذلك بالوحدات الاجتماعية الاكبر كالعشيرة والقرية والقبيلة والمجتمع ككل ، وربما يمكن ان نعزو هذا الى انه عالم حيوان وليس متخصصا في الانثروبولوجيا ولاغيرها من العلوم التي تهتم بالانسان والمجتمع .

ومع ذلك فقد استطاع المؤلف ان يتناول العديد من المشاكل الاجتماعية والسيكولوجيه والسياسية التي يعاني منها الجنس البشري ككل واضعا لها بعض الحلول التي تدل على سعة اطلاعه والمامه بالعديد من افرع العلم الاخرى التي تبعد عن مجال تخصصه واهتمامه .

***

العدد التالى من المجلة

العدد الثالث - المجلد الثالث عشر

اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن

الفكاهة والضحك

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة